سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ٣٧

موقف ابن تيمية من الصوفية

جمع وتحقيق ودراسة

د/ محمد بن عبد الرحمن العريفي

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض

سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ٣٧

موقف ابن تيمية من الصوفية

جمع وتحقيق ودراسة

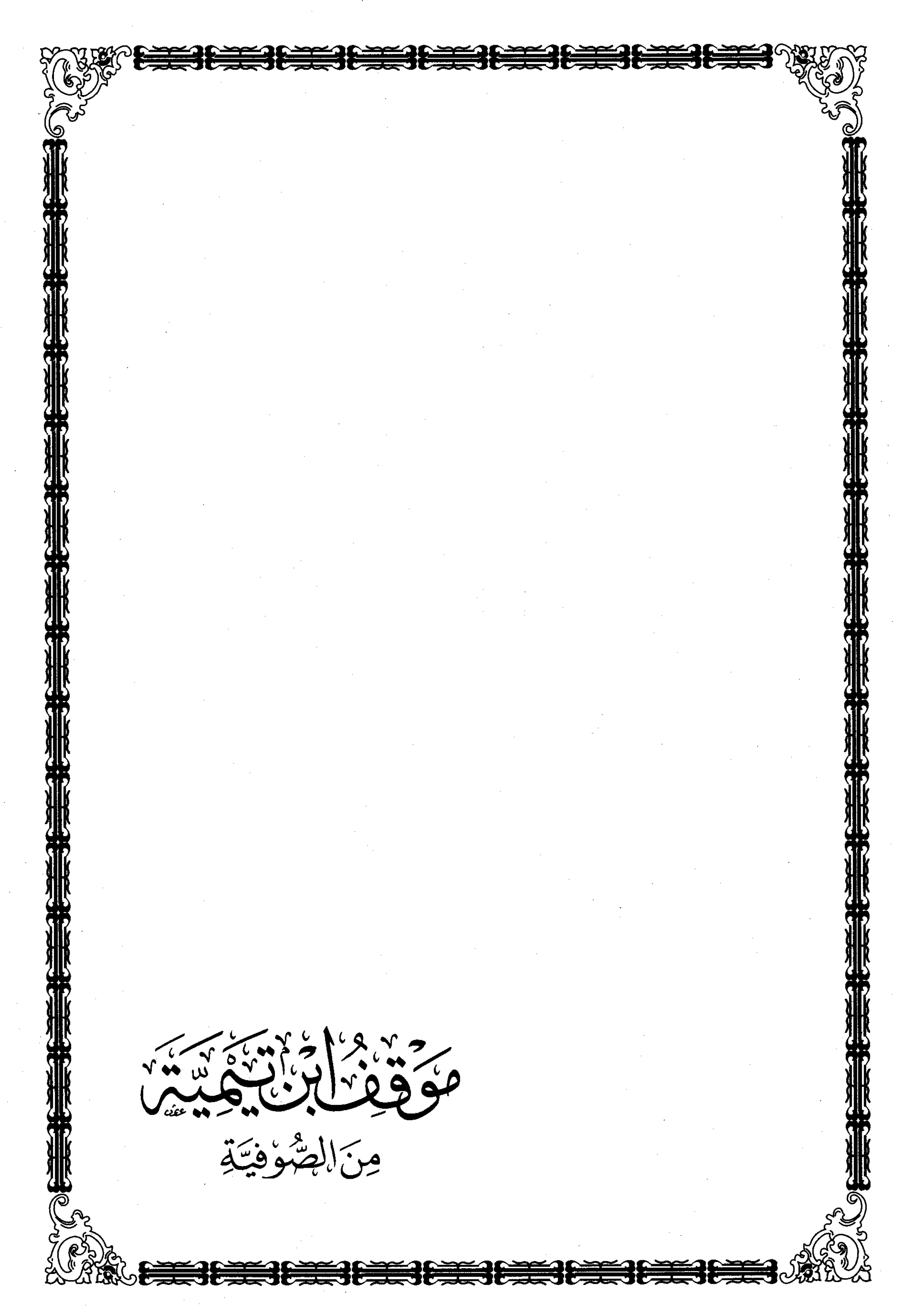
د / محمد بن عبد الرحمن العريفي

المجلد الأول

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف
إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه)
بإشراف فضيلة الشيخ الدكتور
عبد الرحمن بن صالح المحمود
وقد أجيزت بتقدير ممتاز


موقف ابن تيمية
من الصوفية

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العريفي، محمد بن عبد الرحمن
موقف ابن تيمية من الصوفية. / محمد بن عبد الرحمن العريفي.- الرياض، ١٤٢٩هـ
٢مج.- (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ٣٧)
ردمك: ١ - ١٠ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٥ - ١٢ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج ١)
١ - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ت ٧٢٨هـ ٢ - التصوف الإسلامي أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٦٠ ١٤٢٩/٥٣٠٣

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية . الرياض
المركز الرئيسي - طريق الملك فهد - شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص.ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣
الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقًا) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
حي الروابي - شارع عنيزة - ت: ٤٤٥٦٢٢٩
المدينة النبوية - طريق سلطانة - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩
مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧



وتشتمل على:

بيان أهمية الموضوع

أسباب اختياره

خطة البحث



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على قائد الغرّ المحجَّلين، نبيّنا محمد إمام الموحدين، وقدوة السالكين، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإني أحمد ربي «الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[1]، فهم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم المهتدون، القائمون بالحق علماً وعملاً، ودعوة للخلق إلى الله على طرقهم ومناهجهم الصدِّيقية، قرنهم الله في كتابه بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ

---

(١) هذه الخطبة مقتبسة من الخطبة التي افتتح بها الإمام أحمد كتابه: «الرد على الزنادقة والجهمية»، ت: الفقي، وذكرها ابن وضاح في البدع (ص٣٢، ح٣) مسندة إلى عمر بن الخطاب ﷺ، وأشار شيخ الإسلام إلى ذلك بصيغة التمريض؛ حيث قال: «ويروى نحو هذا عن عمر ﷺ».ا.هـ. درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٩).

وكذا عزاها ابن القيم إلى ابن وضاح، وقال: «هذه الخطبة نقلها الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب، ووافقه فيها..»ا.هـ الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٨).

﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩] فجعل درجة الصدِّيقية معطوفة على درجة النبوة.

فهؤلاء هم الربانيون الراسخون في العلم، وهؤلاء هم ورثة الأنبياء، الوسائط بين الرسول وأمته، خلفاؤه وأولياؤه وحزبه، وخاصته وحَمَلَة دينه وشرعه، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، المجاهدون في سبيل الله، الذين لا يخشون في الله لومة لائم، القائمون بحقوق الله وحقوق خلقه، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله.

وإن من هؤلاء العلماء الربَّانيين شيخَ الإسلام وعلامة الزمان، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، الذي نذر وقته ونفسه، وحياته كلها لله تعالى، يجاهد في سبيل الله بالقول والقلم، والنفس والمال، نذر حياته كلها لله تعالى علماً وتعلُّماً وتعليماً وجهاداً ونشراً للحق ودفاعاً عنه، ودحضاً للباطل وبياناً لعُواره وزَيفه.

قال الإمام البزار في معرض كلامه عن شيخ الإسلام: «اتفق كل ذي عقل على أنه ممن عنى نبيُّنا ﷺ بقوله: (**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**)[١]، فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجة على أهل عصره أجمعين، والحمد لله رب العالمين» ا.هـ[٢].

---

(١) الحديث: رواه أبو داود، كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المائة رقم (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحاكم في المستدرك (٤/٣٩٦)، وقال الإمام السيوطي: «اتفق الحفاظ على تصحيحه» كما نقله في عون المعبود (١١/٣٩٦)، وصححه الألباني. السلسلة الصحيحة (٢، ح٥٩٩).

(٢) الأعلام العلية (ص٢٠ ـ ٢١).

جاء رَحِمَهُ اللَّهُ في فترة من الزمان، كثُرت فيها البدع والخرافات والمناهج العوجاء، حتى أصبح المؤمن الموحّد فيها غريباً محارَباً طريداً.

ولهذا: لما قام بالحق والدفاع عنه، ناصَبَه العداءَ كثيرٌ من الخلق، وعلى الأخص بعض طلبة العلم، والمعدودين من العلماء والقضاة، حتى بلغ الأمر إلى أن أوعزوا إلى الوجهاء من الأمراء ونحوهم أن ينكلوا به، بل سعى بعضهم إلى قتله.

ولذا فقد عاش فترة من عمره مسجوناً حتى أتاه اليقين وهو في السجن. فعليه رحمة الله ورضوانه.

وإن من فضل الله تعالى عليه وعلى الناس أن قيضه الله لبيان السنة وقمع البدعة، وتوضيح التوحيد وتجليته، وتعرية الباطل وكشف عُواره، وبيان زيغه وزيفه وبطلانه، وذلك من خلال مناظراته، ومصنفاته التي اهتمّ فيها ببيان الأصول والقواعد التي يستفيد منها من بعده في الرد على أهل البدع.

ولقد اعتنى الشيخ بالتصنيف في أصول الدين أكثر من غيرها من العلوم، وعلل ذلك بقوله: «الفروع: أمرها قريب، ومن قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه.

وأما الأصول: فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء، كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية والقدرية والنصيرية، والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسِّمة والمشبهة، والراوندية والكُلّابية والسليمية، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزِمَّة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة العلية على كل دين، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم.

ولهذا: قلَّ أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة، مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر على ذلك، بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ويُزيِّفَ دلائلهم، ذبًّا عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجلية. . .

فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية». ا. هـ[1].

ومن هذه الأصول التي صرف فيها رَحِمَهُ اللَّهُ همته ووقته تحقيق العبادة لله رب العالمين، وتتبع البدع والمحدثات والرد عليها، وبيان انحراف الفرق الضالة، وفضح باطلهم وكشف شبهاتهم.

ومن أبرز من ردّ عليهم شيخ الإسلام فرقة (الصوفية)، حيث تعرض لهم في مواضعَ كثيرة من كتبه، وأوضح مذهبهم، وفنّد آراءهم، وردّ على شبهاتهم.

ولما كانت جهوده رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الجانب متناثرة متفرقة، أحببت أن أجمعها في سِفر واحد حتى تتم الفائدة المرجوة منها، ويتسنى للمستفيد الرجوع إليها بيسر وسهولة.



(١) الأعلام العلية (ص٣٥ ـ ٣٧).

أهمية الموضوع ودواعي البحث فيه

١ ـ خلوّ المكتبة الإسلامية من كتاب لأهل السنة والجماعة في ذكر الفرق ومقالاتها. ومن نظر في كتب الفرق التي يعتمدها الباحثون ـ الآن ـ وجد أن مؤلفيها من أصحاب الفرق والطوائف المخالفة لأهل السنة والجماعة، فلا يكاد يخلو مؤلفوها من أشعرية أو اعتزال أو بدعة.

٢ ـ أن المؤلفين في الفرق والمقالات كان لمذهبهم العقدي أثر واضح في عرض آراء الفرق المخالفة لمذهبهم وتقويمها، والرد عليها، فقد يزاد في مذهب الفرقة أو ينقص منه، أو ينسب إليها ما ليس من أقوالها، وفي الوقت نفسه يعرض صاحب الكتاب مذهبه على أنه مذهب أهل السنة والجماعة، وفي هذا من التلبيس ما لا يخفى.

٣ ـ أن فرقة الصوفية من الفرق التي كان لأئمة أهل السنة مع أصحابها صولات وجولات ومناظرات، وقد انتشر عند كثير من أهل الإسلام شرها، والتبس عليهم أمرها، وهذا يستدعي كشف عوارها، وفضح باطلها.

٤ ـ ظن بعض الناس أن الصوفية ليس عندهم خلل في أصل المعتقد، وإنما هم أصحاب مجاهدات وسلوك وتعبُّد. وهذا خطأ؛ فإن الصوفية اشتهروا من بين الفرق بكثرة الكلام حول مجاهدة النفس ومحاسبتها، ولهم عناية شديدة بالخطرات والوساوس ونحوها، إلا أن لهم كلاماً كثيراً في الاعتقاد[1].

(١) من ذلك ما ذكره الكلاباذي (ت٣٨٠هـ) في كتابه «التعرف لمذهب التصوف» من =

٥ ـ أن لِضُلّال المتصوفة مؤلفات منشورة متداولة، تكلموا فيها حول مسائل الاعتقاد؛ وقرروا الضلال والبدعة، كما فعل ابن عربي في كتابيه «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وغيرهما، حيث تكلم عن النبوة والملائكة والجنة والنار، بل وصفات الله تعالى؛ كالعلو والكلام والرؤية، وغيرها، وأتى فيها بالضلال المبين.

= أقوالهم في التوحيد، وصفات رب العالمين وأسمائه الحسنى، ومذهبهم في القرآن وكلام الله، والرؤية، والقدر، وخلق أفعال العباد، والجبر والاستطاعة، والشفاعة، والوعد والوعيد، والإيمان والملائكة، وغير ذلك من مسائل الاعتقاد.

وكذلك تعرض أبو القاسم القشيري (ت٤٦٥هـ) في «الرسالة القشيرية في علم التصوف» لبعض اعتقادات الصوفية في الأصول.

وقال عمرو بن عثمان المكي في كتابه: «التعرف بأحوال العباد والمتعبدين»: «باب ما يجيء به الشيطان للتائبين: فإن اعتصمت بها وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب، تعالى وتقدس، في كتابه وسنة رسوله محمد ﷺ، فقال لك: إذا كان موصوفاً بكذا، أو وصفته، أوجب له التشبيه، فأكْذِبْه؛ لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلّك ويغويك.. خلصت له الأسماء السنية، فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خلياً، واسماً كان منه برياً، تبارك وتعالى، فكان هادياً سيهدي، وخالقاً سيخلق، ورازقاً سيرزق، وغافراً سيغفر، وفاعلاً سيفعل، ولم يحدث له الاستواء، إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل، فهو يسمى به في جملة فعله.

كذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ بمعنى أنه سيجيء، فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتخلف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء، ويكون المجيء منه موجوداً بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه..» ا.هـ، ثم تكلم عن الرؤية والنزول والعلو والكلام ونحوها، نقل ذلك عنه شيخ الإسلام في الفتاوى (٥/ ٦٢ ـ ٦٥).

وللإمام أبي عبد الله بن خفيف في كتابه: «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات» كلام طويل في الاعتقاد، تعرض فيه للأسماء والصفات والقدر والرؤية وأحوال اليوم الآخر، والإيمان والصحابة والإمامة وغيرها. نقل ذلك عنه شيخ الإسلام في الفتاوى (٥/ ٧١ ـ ٨٥).

وهذا ـ بلا شك ـ يستدعي أن يكون لأهل السنة من المؤلفات ما يُـحِقّ الحق ويبطل الباطل.

٦ ـ ظنُّ الكثيرين أن الصوفية ليست فرقةً من الفرق، وهذا خطأ، بل قد نص كثير من المصنفين في الفرق على أن الصوفية فرقة من الفرق، كما قال الرازي في كتابه: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»: «الباب الثامن في أحوال الصوفية: اعلم أن أكثر من قصَّ فرق الأمة لم يذكر الصوفية، وذلك خطأ؛ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية» ا.هـ[١].

ولما تكلم الغزالي عن أصناف الطالبين للحق حصرهم في أربع طوائف، وجعل منهم الصوفية[٢].

ومن المسلَّم به عند كل من له أدنى معرفة بالفرق والمقالات أن الحلولية[٣] فرقة من الفرق لهم معتقداتهم وطرقهم، والقائلين بوحدة الوجود كذلك، والحلَّاجية[٤]، وهؤلاء كلهم من الفرق المتفرعة من الفرقة الأصل: الصوفية.

٧ ـ ما تميز به شيخ الإسلام من الإحاطة بأقوال الفرق، والرد عليهم، وتفنيد أقوالهم، مع الاعتماد على الكتاب والسنة في كل ذلك، لذا اعتمدت في هذا البحث كتب شيخ الإسلام مصدراً رئيساً لنقل مذهب الصوفية، ويمكن بيان ما تميز به الشيخ فيما يلي:

- اطلاعه الواسع على مقالات الفرق والطوائف، كما قال رحمه الله في

---

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٧٢).

(٢) المنقذ من الضلال (ص٣٣٥).

(٣) سيأتي التعريف تفصيلاً، في مبحث خاص بهم (ص٤٠٥).

(٤) أتباع الحسين بن منصور الحلاج، سيأتي التعريف بهم عند الكلام عن فرق الصوفية (ص٢٦٩).

معرض ردّه على المبتدعة وما احتجوا به من كلام الشهرستاني وغيره: «وقلت في ضمن كلامي: أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من ابتدعها، وما كان سبب ابتداعها»اهـ[١].

- تميز شيخ الإسلام في كتاباته بالعدل والإنصاف، وتحري الحق، والدقة في النقل.
- وتميز الشيخ ـ أيضاً ـ أنه يوضح بجلاء تناقض الفرقة عند كلامه عليها، ويبيِّن تعارض أقوالها وآرائها وسبب ذلك.

وهذا التوضيح والبيان يحلّ إشكالات تقعُ عند كثير من القراء والمطلعين على آراء الفرقة، أحدثه ذلك التناقض والتعارض، ويسهّل كثيراً مما تعسَّر فهمه أو الجمع بينه.

- أن شيخ الإسلام لا يكتفي بمجرد عرض آراء الفرقة، بل يرد على باطلها، ويفند أقوالها.
- اهتمام الشيخ بتقويم رجال الفرقة ومؤلفاتهم.
- اهتمامه رحمه الله عندما يتكلم عن الفرق بالتفصيل والتدقيق، فهو لا يتكلم من فراغ، وإنما يتكلم من معايشة لأفكارهم، وبناءً على صولات وجولات ومناظرات ومقارعات، فهو يحكي واقعاً عاشهُ، وآراءٍ رأى أثرها بنفسه[٢].
- أن الشيخ يعد من المتأخرين زماناً بالنسبة إلى من سبقه من مؤلفي المقالات، مما كان سبباً في إلمامه بها، واطلاعه على ما انتهت

(١) الفتاوى (٣/ ١٨٤).

(٢) سيأتي في مبحث خاص حول مصادر شيخ الإسلام في حكاية مذهب الصوفية أن من مصادر الشيخ مناظراته ومناقشاته مع رؤوس المتصوفة، وقد ذكرت عدة أمثلة على ذلك (ص١٤٠).

إليه آراؤهم بعد ذلك، مع توفر كتب هذه الفرقة وانتشارها في زمانه.

- أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يعتني بفضح من ينتسب من الضُّلال إلى مذهب السلف وهو مخالف لهم، ويرد على ما يحتج به من نصوص، وينقض ما يفتريه على أهل السنة من التأويل ونحوه.
- أن شيخ الإسلام يعرض المسألة أو المقالة أحياناً في مواضع متعددة، وقد يذكر في موضع ما لا يذكره في آخر، ولذا يُستحسن جمع ما يتعلق بكل رأي أو مقالة وعرضها، ومن ثَمَّ تهذيبها، والتوفيق بين هذه الصيغ والألفاظ، ثم اختيار الصيغة الوافية الشاملة الواضحة منها وعرضها.
- أن معظم مصادر شيخ الإسلام في ذكره للفرق وآرائها مصادر أصلية ورئيسة، وقائمة على ما كتبه أتباع الفرقة نفسها، فلا يعتمد ـ غالباً ـ على ما يذكره المصنفون في المقالات، بل ينقل عن كتب الطائفة نفسها، أو الشخص نفسه بلا وساطة، وهو يعتني بذكر المصدر الذي استفاد منه، ويعزو ما يسوقه إلى قائله[١].

منهجي في البحث:

سرت في هذا البحث على وفق منهجٍ أرجو أن أكون قد وُفِّقت في تطبيقه والالتزام به، ويتلخص هذا المنهج فيما يلي:

١ ـ الاقتصار على كلام شيخ الإسلام عن فرقة الصوفية، وذلك من خلال استقراء ما كتبه في فتاويه ومؤلفاته.

٢ ـ الاقتصار في العرض على ما يذكره شيخ الإسلام من اعتقادات

---

(١) سيأتي في مبحث خاص الكلام تفصيلاً عن مصادر شيخ الإسلام في حكاية مذهب الصوفية (ص١٠٣).

الصوفية ومقالاتهم، وتحديد القائل بها ـ قدر الإمكان ـ ومناقشتها وبيان بطلانها.

٣ ـ ما يذكره الشيخ في مواضع متعددة؛ فإن طريقة ضبطه تكون كالتالي:

- التوفيق بين ما ظاهره الاختلاف، بسبب تعدد مواضع ذِكره.
- إزالة الإشكال عن بعض المواضع في ضوء ما يذكره في المواضع الأخرى.
- ذِكر القول الواضح الوافي للفرقة من جملة المواضع التي يورد الشيخ مقالتهم فيها، أما بقية المواضع، فأكتفي بالإحالة إليها كلها في الهامش، فيجد القارئ في المتن نصَّ مقالتهم بأوضح عبارة، وفي الهامش يجد الإحالة على بقية المواضع للاستزادة والتوثيق.

٤ ـ وكما قلنا عن طريقة شيخ الإسلام غالباً في ذكره المقالة وتقطيعه لها في مواضع، نقول أيضاً في رده عليها ومناقشته لها، فإنه يذكره أيضاً في مواضع متفرقة غالباً، وعملي في هذا سيكون هو التنسيق بين ما يذكره في المواضع المتعددة، مع تهذيبه وإجماله، حيث تذكر في المتن المقالة بعبارة واضحة وافية يتبين منها فساد الرأي وبطلانه، وفي الهامش يُحال القارئ على جميع المواضع من كتبه التي بيّن فيها فساد الرأي، أو ردّه وناقشه.

٥ ـ أوردُ قول الفرقة على وجه العموم أولاً، ثم أذكر تحته أقوال أتباعها على وجه الخصوص ـ إن وُجدت ـ سواء أكان موافقاً لها أو مخالفاً.

٦ ـ بيان موقف الشيخ من مقالات فرقة الصوفية ـ إجمالاً ـ من خلال عرضه لها، ومنهجه في عرض هذه المقالات.

٧ ـ تخريج الآيات وإيراد تفسيرها في الحاشية عند الحاجة، وعزو الأحاديث والآثار الواردة في البحث إلى مصادرها.

٨ ـ ترجمة الأعلام[1] الوارد ذكرهم في ثنايا البحث، والتعريف بالفرق، والأماكن والبلدان، وشرح المصطلحات، وتوضيح الألفاظ الغريبة.

قمت بعمل فهارس عامة للآيات والأحاديث، والآثار، والمصطلحات، والألفاظ الغريبة، والفرق، والأماكن والبلدان، والأشعار، والمصادر والمراجع، والموضوعات.



(١) قمتُ بترجمة جميع الأعلام الوارد ذكرهم في كلام شيخ الإسلام، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمشهور من الأعلام لا أُفصل في ترجمته، وإنما أكتفي غالباً بذكر اسمه كاملاً وسنة وفاته، وما لم أُترجم له من الأعلام، فإني لم أقف على ترجمته، وهم قِلة من المتصوفة غير المعروفين.



خطة البحث

ينقسم البحث أقساماً؛ وهي:

مقدمة، وتمهيد، وخمسة أبواب، وخاتمة، وفهارس:

المقدمة: وتشتمل على:

- بيان أهمية الموضوع.
- أسباب اختياره.
- خطة البحث.

التمهيد: ويشتمل على:

- ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- نشأة الفرق، وأسبابها، وأصول الفرق عند شيخ الإسلام ابن تيمية.
- **الباب الأول:** مصادر شيخ الإسلام، ومنهجه في عرض آراء الفرق الإسلامية، ومناقشتها. ويشتمل على ثلاثة فصول:

ـ الفصل الأول: مصادره في عرض آراء الفرق، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: كتب الفرقة نفسها.

المبحث الثاني: كتب المقالات.

المبحث الثالث: مصادر أخرى (مثل: كتب التاريخ، التفسير، شروح الحديث، مصادر مباشرة..).

ـ الفصل الثاني: منهجه في عرض آراء الفرق ومناقشتها، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في عرض الآراء.

المبحث الثاني: منهجه في عرض أدلة الفرقة.

المبحث الثالث: منهجه في الرد على أدلتها، ومناقشتها.

المبحث الرابع: منهجه في إيراد عباراتهم، والحكم عليها.

- **الفصل الثالث: تقويمه لكتب المقالات، مع الموازنة بينها وبين منهج شيخ الإسلام، وفيه أربعة مباحث:**

المبحث الأول: كتاب: مقالات الإسلاميين، للأشعري.

المبحث الثاني: كتاب: الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، لابن حزم.

المبحث الثالث: كتاب: الملل والنِّحل، للشهرستاني.

المبحث الرابع: كتاب: الفَرْق بين الفِرَق، للبغدادي.

• الباب الثاني: التعريف بالصوفية - إجمالاً - كما عرضها شيخ الإسلام، وفيه فصلان:

- **الفصل الأول: التعريف بـ«الصوفية»، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: المراد بلفظ «الصوفية»، وبيان نسبتهم.

المبحث الثاني: نشأة الصوفية، وتاريخها، والأطوار التي مرّت بها.

المبحث الثالث: أسماؤها.

- **الفصل الثاني: فِرَقها، ورجالها، ومصادرهم في التلقي، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: أشهر فرقها، والفروق بينها، وأسباب الافتراق.

المبحث الثاني: أبرز رجالها، وأثرهم في الفرقة.

المبحث الثالث: مصادرهم في التلقي.

● الباب الثالث: عرض آراء الصوفية في الاعتقاد، ومناقشتها عند شيخ الإسلام، وفيه ثمانية فصول:

- **الفصل الأول: توحيد الربوبية، وفيه مبحثان:**

المبحث الأول: حقيقة الذات الإلهية عندهم.

المبحث الثاني: الحلول والاتحاد.

- **الفصل الثاني: توحيد الألوهية، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: الغلوُّ في الأشخاص.

المبحث الثاني: تقديس القبور والأضرحة.

المبحث الثالث: الدعاء، والاستغاثة بغير الله.

- **الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وفيه أربعة مباحث:**

المبحث الأول: اختلافهم في أسماء الله.

المبحث الثاني: قولهم في القرآن، وكلام الله عموماً.

المبحث الثالث: قولهم في رؤية الله تعالى.

المبحث الرابع: موقفهم من بقية الصفات (العلم، المحبة، . .).

- **الفصل الرابع: النبوة والولاية وخوارق العادة، وفيه أربعة مباحث:**

المبحث الأول: موقفهم من النبوّة.

المبحث الثاني: المعجزات.

المبحث الثالث: موقفهم من الولاية.

المبحث الرابع: الكرامات.

- **الفصل الخامس: اليوم الآخر، وفيه ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: قولهم في الجنة والنار.

المبحث الثاني: قولهم في الشفاعة.

المبحث الثالث: قولهم في الوعد والوعيد.

- الفصل السادس: القدر، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قولهم في الجبر، وخلق أفعال العباد.

المبحث الثاني: قولهم في الاستطاعة.

المبحث الثالث: الفناء.

- الفصل السابع: موقفهم من المعاصي ودرجاتها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: موقفهم من العُصاة عامة.

المبحث الثاني: الكفر وأسبابه عندهم.

● الباب الرابع: وسائل الطريق الصوفي، ومعالمه، كما عرضها شيخ الإسلام، وفيه فصلان:

- الفصل الأول: آراؤه في أركان الطريق الصوفي، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الخلوة، والصمت، والعزلة.

المبحث الثاني: الجوع، والسهر، والاحتفاء، وغيرها من المجاهدات البدعية.

المبحث الثالث: الأوراد، والأذكار.

المبحث الرابع: الأحوال المبتدعة (السُّكر، الوَلَه، الجنون، . . .).

المبحث الخامس: السماع.

- الفصل الثاني: آراؤه في معالم الطريق الصوفي، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المريد، وآدابه.

المبحث الثاني: العهد، والبيعة، والتلقين.

المبحث الثالث: الخِرَق، والمرقعات، والتعرِّي.

- **الباب الخامس**: موقف شيخ الإسلام من الصوفية ـ عموماً ـ، وفيه ثلاثة فصول:

ـ الفصل الأول: موقفه من مصنفاتهم، وشخصياتهم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مصنفاتهم، وتقويمه لها.

المبحث الثاني: موقفه من رجالاتهم وشخصياتهم.

ـ الفصل الثاني: موقفه من رواياتهم ومروياتهم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ضوابطه في الحكم على مروياتهم.

المبحث الثاني: موقفه من الاحتجاج بمروياتهم، أو عدمه.

ـ الفصل الثالث: مقارنة إجمالية بين منهج شيخ الإسلام في عرضه للصوفية، وبين منهج غيره من المصنفين، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مقارنة بين منهج شيخ الإسلام، ومنهج أصحاب كتب الفرقة نفسها.

المبحث الثاني: مقارنة بين منهج شيخ الإسلام، ومنهج أبي حامد الغزالي.

خاتمة، وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، ثم الفهارس.

○ ○ ○

وبعد:

فإنني أشكر الله تعالى، وأحمده حمداً يليق بجلاله وإنعامه على ما امتن به عليّ، ووفقني إليه من إتمام هذا البحث.

كما أشكر القائمين على هذا الصرح الشامخ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ لتمكيني من المضي في هذا الطريق.

كما أسأله ﷻ أن يجزي خير الجزاء شيخي وأستاذي الدكتور: عبد الرحمن بن صالح المحمود، الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين، الذي أعطاني من وقته وجهده ونصائحه وتوصياته ما أسأل الله تعالى أن يعظم له به الثواب والأجر.

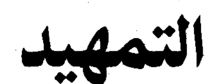
وفي الختام:

فهذا جهد بشري، من عبد مُقِلّ، ولا يخلو عمل البشر من الخطأ والزلل، والسهو والنسيان، فأسأل الله تعالى أن يغفر لي تقصيري، وأن يتقبل جهدي وينفع به، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، ولبنة في طريق الدعوة إلى منهج السلف، والرد على أهل البدع والضلالات، وسبباً في نشر عقيدة سلف هذه الأمة.

كما أسأله أن يلهمني الصواب والرشد والسداد، وأن يعيذني من فتنة القول والعمل، وأن يغفر لشيخ الإسلام، ويعلي درجته، ويجزل مثوبته.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.





ويشتمل على:

- ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية

- نشأة الفرق، وأسبابها، وأصول الفرق عند شيخ الإسلام ابن تيمية



ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية

تمهيد:

الحديث عن شيخ الإسلام ابن تيمية وسيرته يعد أمراً صعباً! لا لقلة المادة العلمية فيه، بل لكثرتها وتوفرها وشمولها لجوانب عديدة، مما جعل البحث والكتابة عنها فيه مشقة، قال الإمام الذهبي(١) في معرض كلامه عن شيخ الإسلام: «وهو أعظم من أن يصفه كَلِمي، أو ينبه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين»اهـ(٢).

فمن كل جوانب شخصيته يمكن تسطير الدراسات فيه، فالباحث يتردد كثيراً في ماذا يكتب، وماذا يدع منها؛ ولذا تنوعت الدراسات والبحوث التي تناولت شخصيته، وأفردت في ترجمته المصنفات الكثيرة، والبحوث العديدة، وعقدت المؤتمرات والندوات لدراسة جوانب تلك الشخصية، وقد بلغت البحوث والمصنفات المترجمة لابن تيمية ـ سواء

---

(١) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الدمشقي الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله، الحافظ المؤرخ العلامة المحقق، تركماني الأصل، ولد سنة ٦٧٣هـ، بدمشق، وتوفي فيها، سنة ٧٤٨هـ، طاف كثيراً من البلدان، كف بصره سنة ٧٤١هـ، تصانيفه كبيرة كثيرة، تقارب المائة، منها: دول الإسلام، وسير أعلام النبلاء، وغيرها.
انظر: الدرر الكامنة (٢/ ٨٧)، طبقات الشافعية (٦/ ٩٤)، الأعلام (٢/ ٣١٥).

(٢) العقود الدرية (ص٢٣ ـ ٢٤)، الشهادة الزكية (ص٤٢ ـ ٤٣).

كان خاصاً بها أو ضمن جملة من التراجم ـ أكثر من مائة وخمسين بحثاً ومصنفاً[(١)].

ولهذا رأيت أن ما كتب عن الشيخ فيه غنية عن دراسة سيرته دراسة مطولة، فآثرت الاختصار، والاقتصار على بعض ما قيل عن سيرته، والإشارة إلى بعض أحواله.

نسبه:

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية النميري الحراني ثم الدمشقي[(٢)].

---

(١) ممن اجتهد في استقصاء ما صنف حول شخصية شيخ الإسلام: محمد بن إبراهيم الشيباني في كتابه «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله» ذكر جملة من المصنفات والبحوث التي تناولت شخصية ابن تيمية بالبحث والدراسة.

انظر: د. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي في كتابه «شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه» (١/ ٢٢٥ ـ ٢٧٠)؛ فقد ذكر خمسة وتسعين كتاباً أفرد لترجمة شيخ الإسلام، وأكثر من مائة وأربعين كتاباً من السير والتراجم والتاريخ التي ترجمت للشيخ، وعشرين بحثاً في الدراسات الاستشراقية، وسأذكر بعض المصادر في ترجمة الشيخ في آخر الترجمة.

(٢) تعدَّدت الروايات في سبب تسمية «تيمية»؛ فقيل: إن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتاً، فقال: يا تيمية يا تيمية، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء، فلقب بذلك.

وقيل: إن جده محمداً كانت أمه تسمى: تيمية، وكانت واعظة، فنسب إليها، وعرف بها. ولا تعارض بين الروايتين؛ إذ يمكن الجمع بينهما، فالبنت التي سميت تيمية هي الجدة التي نسب إليها الشيخ، بعد اشتهارها بالعلم والوعظ.

وقيل: إن تيمية لقب لجده الأعلى.

و«النميري» نسبة إلى قبيلة نمير ـ من قبائل العرب ـ وهي بطن من عامر بن =

مولده ونشأته:

ولد الشيخ يوم الاثنين، العاشر ـ وقيل: الثاني عشر ـ من شهر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة ببلدة حران. وبقي فيها إلى أن بلغ سبع سنين، ثم انتقل والده به وبإخوته إلى دمشق هرباً من التتار، فساروا بالليل ومعهم الكتب، على عجلة ـ لعدم الدواب ـ فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به، فنجوا وسلموا، وقدموا دمشق في أثناء سنة سبع وستين وستمائة(١).

ونشأ الشيخ في بيئة علمية؛ إذ كانت أسرته أسرةً لها مكانتها في العلم والفضل، ونشأ في مدينة من تتميز بكثرة العلم العلماء. ونلحظ أن من ترجم للأسرة يذكر ـ على وجه الخصوص لما هربوا من التتار ـ بأنهم حملوا الكتب على عجلة، دون غيرها من المتاع؛ وهذا دليل على مكانة الكتب لدى الأسرة وأهميتها، مما يؤكد أن الأسرة أسرة علم.

بدأ الشيخ في طلب العلم وتحصيله في سن مبكر، وبرع فيه، فقد «سمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير.

وعُنيَ بالحديث، وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب،

= صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن.

و«حراني» نسبة مكانية إلى بلد حران، وهي مدينة مشهورة من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي الآن في تركيا، وقد كانت آنذاك مهد العلم والعلماء، ومن أهم مراكز الديانات القديمة.

انظر: العقود الدرية (ص٢)، الوافي بالوفيات (٧/ ١٥)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٨٩).

(١) انظر: العقود الدرية (ص٢ ـ ٣)، الأعلام العلية (ص٢١)، الوافي بالوفيات (٧/ ١٥)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٤١، ٢٢٥)، وغيرها من مصادر ترجمته.

وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبد القوي[(١)] ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه[(٢)] حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، وغير ذلك.

هذا كله وهو بعدُ ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه»اهـ[(٣)].

فهو من صغره كان شغوفاً بالعلم والقراءة، مُجِدّاً في التحصيل، لا يؤثر على الاشتغال بالعلم لذة، ولا يؤثر أن يضيع منه لحظة، وكان آية في سرعة الحفظ.

وقد ذُكر أنه لما كان صبياً في بداية أمره أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلى البستان على سبيل التنزه، فقال له: يا أحمد تخرج مع إخوتك تستريح!

فاعتلَّ عليه، فألحَّ عليه والده، فامتنع أشد الامتناع.

فقال: أشتهي أن تعفيني من الخروج، فتركه وخرج بإخوته، فظلوا يومهم في البستان، ورجعوا آخر النهار.

---

(١) محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوي المقدسي الحنبلي، شمس الدين أبو عبد الله، المحدث النحوي، ولد سنة ٦٠٣هـ، وتوفي سنة ٦٩٩هـ.
انظر: ذيل طبقات الحنابلة (ص٢/ ٣٤٣).

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر، الملقب بسيبويه، إمام في النحو، أخذه عن الخليل بن أحمد، وغيره. طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فساد أهل العصر، من مصنفاته: «الكتاب». توفي سنة ١٨٠هـ، عن بضع وثلاثين سنة.
انظر: السير (٨/ ٣٥١)، العبر (١/ ٢١٥)، تاريخ بغداد (١٢/ ١٩٥)، البداية والنهاية (١٠/ ١٧٦)، شذرات الذهب (١/ ٢٥٢).

(٣) العقود الدرية (ص٣).

فقال: يا أحمد، أوحشت إخوتك اليوم، وتكدَّر عليهم بسبب غيبتك عنهم، فما هذا؟!

فقال: يا سيدي إنني اليوم حفظت هذا الكتاب، لكتاب معه[1].

فقال: حفظته؟! كالمنكر المتعجب من قوله.

فقال له: استعرضه عليَّ.

فاستعرضه، فإذا به قد حفظه جميعه!!

فأخذه وقبله بين عينيه، وقال: يا بني، لا تخبر أحداً بما قد فعلت، خوفاً عليه من العين، أو كما قال[2].

وقال الذهبي في معرض كلامه عن شيخ الإسلام:

«نشأ في تصوُّن تام، وعفاف، وتألُّه وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال. ومات والده ـ وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم ـ فدرَّس بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره، وبعُد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجُمَع على كرسي مِن حِفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح»اهـ[3].

---

(١) الكتاب هو «روضة المَناظر وجنة المُناظِر» وهو مجلد صغير.
انظر: أعيان العصر للصفدي «مخطوط»، نقلاً عن: شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين (ص٥١).

(٢) الرد الوافر (ص٢٣٥)، وانظر: شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين (ص٥١).

(٣) سير الأعلام (١٧/ ٥٣٢).

وقال بعض قدماء أصحابه، وقد ذكر نبذة من سيرته:

«أما مبدأ أمره ونشأته، فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفاً كؤوس الفهم، راتعاً في رياض التفقه ودوحات الكتب، الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصاً علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمه، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً، سلفياً، متألهاً عن الدنيا، صَيِّناً، تقياً، براً بأمه، ورعاً، عفيفاً، عابداً، ناسكاً، صواماً، قواماً، ذاكراً لله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر بالمعروف.

لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة، ولا تملّ من الاشتغال، ولا تكلّ من البحث، وقلَّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصوده الكتاب والسنة»[١].

بعض صفاته:

اتصف رحمه الله بصفات كريمة، وأخلاق نبيلة؛ من جملتها:

كثرة الذكر والاستغفار:

فإنه ـ مع كثرة انشغاله بجهاد أهل البدع والضلالات، والرد عليهم، وتأليف الرسائل والكتب في بيان ضلالهم، كان كثير الاستغفار، ونُقل عنه أنه قال: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح

---

(١) العقود الدرية (ص٤ ـ ٥).

الصدر، وينحل إشكال ما أشكل، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي[١].

كما أن من عبادته أنه لا يكلمه أحد ـ بغير ضرورة ـ بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر حتى ترتفع الشمس[٢].

كما كان متصفاً بالتواضع، والكرم، والإيثار، والورع.

أما زهده في الدنيا ومتاعها والتجرد عن الدنيا:

فإن الله تعالى جعل ذلك له شعاراً من صغره، **ومما يدل على زهده بالدنيا منذ صغره:** ما ذُكر أن والده قال لمعلمه ـ وهو صبي ـ في القرآن: أحِب إليك أن توصيه، وتعده بأنك إن لم تنقطع عن القراءة والتلقين أدفع إليك كل شهر أربعين درهماً، ودفع إليه أربعين درهماً، وقال: أعطه إياها، فإنه صغير وربما يفرح بها، فيزداد حرصُه في الاشتغال بحفظ القرآن ودرسه، وقل له: لك في كل شهر مثلها، فامتنع الشيخ من قبولها، وقال: يا سيدي، إني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجراً. ولم يأخذها[٣].

بل «لقد اتفق كل من رآه ـ خصوصاً من أطال ملازمته ـ أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهوراً، بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد مِنْ كل مَنْ سمع بصفاته على وجهها، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد مِنَ الشيخ: مَنْ كان أزهد أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا، وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال:

---

(١) العقود الدرية (ص٥ ـ ٦).

(٢) انظر: الأعلام العلية (ص٣٧ ـ ٣٨).

(٣) انظر: الأعلام العلية (ص٤٤).

ما سمعت بمثل ابن تيمية رحمة الله عليه، وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته فيه، مع تصحيح النية»[١].

وقال الذهبي: «وما رأيت في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره، ولا أظنه يدور في ذهنه، وفيه مروءة، وقيام مع أصحابه، وسعي في مصالحهم، وهو فقير لا مال له»اهـ[٢].

ومن أبرز صفاته التي يعترف بها الخصم قبل المحب: الحلم والعفو عمن ظلمه، وبلغ من حلمه رحمه الله أن قال بعضُ مخالفيه وخصومُه: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية؛ لم نبق ممكِناً في السعي فيه، ولما قدَر علينا عفا عنا»[٣].

ومن جملة ما ذكر من حلمه: ما نُقل عنه أنه قال: إن السلطان[٤] لما جلس بالشباك أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم، قال: ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم؛ لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير[٥]، فشرعتُ في مدحهم، والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء

---

(١) الأعلام العلية (ص٤٤ ـ ٤٥). (٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٩٦).

(٣) العقود الدرية (ص٢٨٣). والقائل هو القاضي زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية.
وانظر: البداية والنهاية (١٤/ ٥٤).

(٤) أي: الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون.

(٥) المظفر بيبرس الجاشنكير المنصوري، ركن الدين، من سلاطين المماليك، كان من مماليك المنصور قلاوون، تولى السلطة سنة ٧٠٨هـ، لما تخلى الملك الناصر عن الملك، عندما استقر بالكرك، وكان من المعظمين لنصر المنبجي، الاتحادي، الحلولي، خصم شيخ الإسلام، وقد أوذي الشيخ بسببه، وأدخل إلى السجن، وأرسل إلى الإسكندرية كهيئة المنفي بسببه. وقد زالت دولة المظفر بمقتله سنة ٧٠٩هـ، لما عاد السلطان الناصر إلى الملك.

=

لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أمَّا أنا فهم في حِلٍّ من حقي ومن جهتي؛ وسكَّنتُ ما عنده عليهم[(١)].

ومن ذلك أيضاً: أنه لما مرض أياماً يسيرة، وكان إذ ذاك الكاتب شمس الدين الوزير[(٢)] بدمشق المحروسة. فلما علم بمرضه استأذن في الدخول عليه لعيادته، فأذن الشيخ له في ذلك، فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه، ويلتمس منه أن يحله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حقه من تقصير أو غيره. فأجابه الشيخ ﷺ: بأني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق. وقال ـ ما معناه ـ: إني قد أحللت السلطان الملك الناصر[(٣)] من حبسه إياي؛ لكونه فعل ذلك مقلداً

= انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٤٧ ـ ٥٦)، النجوم الزاهرة (٨/ ٢٣٢)، الأعلام (٢/ ٧٩).

(١) انظر: العقود الدرية (ص٢٨٢)، وانظر: البداية والنهاية (١٤/ ٥٤).

(٢) وهو: شمس الدين غبريال بن صنعة الله، أسلم سنة ٧٠١هـ، وولي نظر الدواوين بدمشق سنة ٧١٣هـ، وكانت وفاته سنة ٧٣٤هـ.
انظر: الرد الوافر (ص١٦٣).

(٣) السلطان الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون المملوكي، أبو الفتح تولى السلطة عام ٦٩٣هـ، وبعد سنتين خلع بالملك المنصور حسام الدين لاجين، فأقام المنصور حتى قتل سنة ٦٩٨هـ، فأحضر السلطان من الكرك وبويع المرة الثانية، وفي سنة ٧٠٨هـ، لوَّح بعزل نفسه وأقام بالكرك، وتولى الملك المظفر بيبرس، فأقام إلى رمضان في السنة التالية، فخرج طائفة من كبار الأمراء فاستنهضوه الملك الناصر، وكرهوا ولاية بيبرس، فخرج الناصر معهم إلى دمشق وبايعه أمراء الشام، فلما تحقق بيبرس من قدوم الناصر خرج وهرب إلى الصعيد، فدخل السلطان القلعة يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩هـ، واتفقت عليه كلمة المسلمين، فأقام ملكاً مطاعاً حتى مات سنة ٧٤١هـ، وكان من محبي ابن تيمية.
انظر: العبر (٤/ ١٢٥)، البداية والنهاية (١٤/ ١٩٠)، شذرات الذهب (٦/ ١٣٤).

غيره معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلغه، والله يعلم أنه بخلافه. وقد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله[1].

ومما وهبه الله من الصفات سرعة الحفظ وقوته: فإنه كان يمر بالكتاب، فيطالعه مرة، فينتقش في ذهنه، فيذاكر به، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه[2]، وهذا أمر مشهور عنه، يذكره كل من ترجم له وتحدث عنه.

ومما ذكر في هذا الشأن: أن «بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق، وقال: سمعت في البلاد بصبي يقال له: أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلِّي أراه!

فقال له خياط: هذه طريق كتّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء يعبر علينا ذاهباً إلى الكتّاب.

فجلس الشيخ الحلبي قليلاً، فمر صبيان.

فقال الخياط للحلبي: هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية.

فناداه الشيخ، فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه، ثم قال:

يا ولدي، امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه! ففعل، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، وقال له:

اقرأ هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ثم دفعه إليه، وقال:

اسمعه عليَّ، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال له:

---

(١) انظر: الأعلام العلية (ص٧٢).

(٢) الرد الوافر (ص٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وانظر: الأعلام العلية (ص٢٠).

يا ولدي، امسح هذا. ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة!!

فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم؛ فإن هذا لم يُرَ مثله، أو كما قال»اهـ[١].

ومن الصفات التي تميز بها الشيخ:

الشجاعة وقوة القلب، حتى قال الذهبي عنها: «وأما شجاعته، فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال»اهـ[٢].

وقد تميز الشيخ بذلك تميزاً ظاهراً. ومن هذا كان من أبرز ما اشتغل به في حياته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله؛ سواء كان بالنفس أو اللسان أو القلم.

والمطلع على سيرة الشيخ يدرك هذا الجانب في حياته، وليس مبالغة إن قيل: إن حياته كلها جهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فما من منكر يمر عليه الشيخ في ذهابه وإيابه إلا أزاله وأنكره[٣]. وما الأذى الذي ناله الشيخ، والمحن التي ابتلي بها، والسجن الذي مكث فيه سنين عديدة؛ إلا بسبب إنكاره لكثير من البدع والخرافات والمنكرات علماً وعملاً.

«وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجًى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين»اهـ[٤].

وقد كانت له جهود كبيرة مشهورة في جهاد التتار[٥]، وكسر

---

(١) العقود الدرية (ص٤).

(٢) العقود الدرية (ص٧)، الرد الوافر (ص٧٢)، الشهادة الزكية (ص٤٢).

(٣) انظر: الأعلام العلية (ص٣٩).

(٤) العقود الدرية (ص٧).

(٥) التتار: هم بادية الترك، كما ذكر شيخ الإسلام، وكانوا يسكنون منغوليا جنوب =

شوكة الرافضة[١] والباطنية[٢]، وكشف ضلالات الصوفية، وأهل

= شرق سيبريا على حدود الصين، ويسمون المغول، والمغل، من أكابر ملوكهم والذين قاموا بغزو بلاد الإسلام، جنكيز خان.
انظر تاريخهم وما فعلوا ببلاد المسلمين: البداية والنهاية (١٣/ ٨٢ وما بعدها)، الكامل (١٢/ ٣٦١)، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٥، ٣٦٩)، دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٥٧٦).

(١) الرافضة: طائفة من غُلاة الشيعة، سُمّوا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وهم مُجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ، بل تعدّوا ذلك إلى الوقيعة في خيار الصحابة طعناً وسباً وتكفيراً، وهم فرق وطوائف كثيرة، كل فرقة تكفر غيرها.
انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٨٨)، الملل والنحل (١/ ١٤٦)، الفرق بين الفرق (ص٢١، ٢٩، ٥٣).

(٢) الباطنية: سُموا بذلك؛ لأنهم ادعوا أن لنصوص الشريعة ظاهراً وباطناً، وزعموا أن العامة هم المرادون بظواهر النصوص، أما من ارتقى إلى علم الباطن فقد انحطت عنه التكاليف، وأطلقوا عليها: الأغلال، وقالوا: إنهم هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وغرضهم بذلك إبطال الشرائع، ونفي المعاد والجنة والنار. والباطنية أشر الطوائف على المسلمين، وأول من دعا إلى هذا المذهب: عبد الله بن ميمون القداح (مولى جعفر الصادق) في زمن المأمون.
وذكر شيخ الإسلام في (بيان التلبيس ١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠) أن اسم الباطنية في كلام الناس يقال على صنفين:
أحدهما: من يقول: للكتاب والسنة باطن يخالف ظاهرها، وهؤلاء هم المشهورون عند الناس باسم الباطنية، وهؤلاء قسمان: قسم يرون ذلك في الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والصيام والحج..، ويرون أن الخطاب المبين لوجوب هذه الواجبات وتحريم المحرمات، ليس هو على ظاهره المعروف عند الجمهور، ثم قال: «وهؤلاء زنادقة منافقون باتفاق أئمة، ولا يخفى نفاقهم على من له بالإسلام أدنى معرفة..». وذكر أن من هؤلاء زنادقة الصوفية من الاتحادية الحلولية، وهذا القسم الذي ذكره الشيخ هم المعنيون هنا. =

الخرافات[1]، وقد ذكر كثير ممن ترجم للشيخ قصصاً ومواقفَ تدل على شجاعته وقوته، وإنكاره للمنكر، وجهاده.

ومن ذلك: ما ذكره تلميذه البزار[2] بقوله: «كان ﷺ من أشجع الناس وأقواهم قلباً، ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأخبر غير واحد أن الشيخ ﷺ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتَهم وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً أو رِقّة أو جبانة شجعه وثبته، وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة...

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكا أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها، قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره.

= أما القسم الثاني: فهم الذين يقولون بالباطن المخالف للظاهر في العلميات، وأما العمليات فيقرونها على ظاهرها، وذكر شيخ الإسلام أن هذا قول عقلاء الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام.
انظر: التبصير في الدين (ص٨٣)، رسالة في القرامطة لابن الجوزي (ص٣٦)، رسائل إخوان الصفا (ص١٣٨ ـ ١٤٤).

(١) انظر: المجلدين الثامن والعشرين والخامس والثلاثين من الفتاوى؛ ففيهما بعض رسائله وفتاويه وذكر شيء من جهاده لتلك الطوائف، وانظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ففيه تفصيل وذكر أمثلة على ذلك (١/ ١٥٨ ـ ١٧٠).

(٢) عمر بن علي بن موسى الأزجي البزار، سراج الدين أبو حفص، ولد سنة ٦٨٨هـ، صحب شيخ الإسلام وأخذ عنه، وكان ذا عبادة وتهجد، وله مصنفات في الحديث والفقه والرقائق، توفي بالطاعون في ذي القعدة سنة ٧٤٩هـ.
انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٤)، الدرر الكامنة (٣/ ٢٥٦)، شذرات الذهب (٦/ ١٦٣)، الرد الوافر (ص٢١٠ ـ ٢١١).

ولما ظهر السلطان غازان[١] على دمشق المحروسة جاءه ملِك الكرج، وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يمكِّنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى الشيخ، فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف، فانتُدِب منهم رجال من وجوههم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان.

فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟

فقيل: هم رؤساء دمشق.

فأذن لهم، فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولاً، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين، وضمن له أموالاً، وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكّره ووعَظَه، فأجابه إلى ذلك طائعاً، وحقنت بسببه دماء المسلمين، وحميت ذراريهم، وصين حريمهم.

وحدثني من أثق به عن الشيخ وجيه الدين ابن المنجا[٢] ـ قدس الله روحه ـ قال:

---

(١) غازان بن أرغون بن أبغا بن هلاكو بن تولي بن جنكيز، وذكر ابن كثير أن اسمه: «محمود بن أرغون بن أبغا». تولى السلطة بعد أبيه أرغون الذي مات مقهوراً سنة ٦٩٠هـ، ثم دخل الإسلام في الرابع من شعبان سنة ٦٩٤هـ، على يد إبراهيم بن محمد بن حمويه الجويني، وقد اختار مذهب أهل السنة، وقد خلفه أخوه خدا بنده في السلطة. ولد سنة ٦٧٠هـ، وتوفي في شوال، سنة ٧٠٣هـ، قيل: إنه مات مسموماً.

انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٢٩)، المنتقى من منهاج الاعتدال (ص١٨، حاشية رقم: ٢).

(٢) محمد بن عثمان ابن المنجا، وجيه الدين، من أكبر رجالات الشام في عصره، =

كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ، فجعل ـ يعني الشيخ ـ يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه، حتى جثا على ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبتُه ركبةَ السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلِّيَّته، مصغ لما يقول، شاخص إليه، لا يعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله ما في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته:

من هذا الشيخ؟! وقال ـ ما معناه ـ: إني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل.

وسأله: إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حران، وتنتقل إليه، ويكون برسمك.

فقال: لا والله، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ أستبدل به غيره، فخرج من بين يديه مكرماً معززاً، قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلَّغه ما أراده، وكان ذلك أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش.

وأخبرني من لا أتهمه: أن الشيخ رضي الله عنه حين وُشِي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد، أحضره بين يديه، قال: فكان من جُملة كلامه: إنني أُخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك!

= وممن رافق شيخ الإسلام عند مقابلة غازان، توفي سنة ٧٠١هـ.
انظر: الرد الوافر (ص١١٢).

فلم يكترث به، بل قال له ـ بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر ـ:

أنا أفعل ذلك؟! والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلسين.

فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته ـ بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة ـ: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إليَّ كاذب، واستقرَّ له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل، من كثرة ما يلقى إليه في حقه من الأقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله للطغام العدالة، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة»اهـ[1].

وقال الذهبي عنه: «ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه: وبدّعوه، وناظروه، وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله، فجرى بينه وبينهم حملات حربية ووقائع شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية.

وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه.

(١) الأعلام العلية (ص٦٣ ـ ٦٦).

وأما شجاعته، فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال:

فلقد أقامه الله في نوبة غازان، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين وبقطلوشاه وببولاي[١]، وكان قبجق[٢] يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول، وله حدة قوية تعتريه في البحث، حتى كأنه ليث حرب، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حُلِّفت بين الركن والمقام، لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم»اهـ[٣].

هذا شيء يسير من صفاته، وقد صدق القائل:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلَّت عن الحصر
هو حجة الله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية للخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر[٤]

---

(١) قطلوشاه وبولاي هما من أكبر قادة غازان بعد فرارهما من المملكة، وقطلوشاه كان قائد جيش التتار في معركة شقحب، قتل سنة ٧٠٧هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٤٤ ـ ٤٥)، وانظر: الرد الوافر (ص٧٢).

(٢) سيف الدين قبجق المنصوري والي دمشق سنة ٦٩٦هـ، ثم انحاز إلى غازان، وكان أحد الذين مالؤوا ملك الأرمن على نهب «داريا» و«المزة» و«صالحية دمشق»، وفي ذيل العبر وصف بأنه أحد الشجعان والأبطال، وكان تركيًّا، تام الشكل، محبباً إلى الرعية، قارب الستين، توفي بحماة سنة ٧١٠هـ، وقيل: إنه سقي.
انظر ترجمته في: ذيل العبر (٤/ ٢٥)، البداية والنهاية (١٣/ ٣٥١، ١٤/ ٨، ٥٥)، الرد الوافر (ص٧٢).

(٣) العقود الدرية (ص١١٧ ـ ١١٨)، الرد الوافر (ص٧١ ـ ٧٢)، الشهادة الزكية (ص٤١ ـ ٤٢).

(٤) العقود الدرية (ص٩)، الشهادة الزكية (ص٣٨)، تاريخ ابن الوردي (٢/ ٤١٠)، البداية والنهاية (١٤/ ١٤٠).

مكانته وأقوال العلماء فيه:

تبوأ الشيخ مكانة عالية، ومنزلة رفيعة لدى معظم المسلمين، بل اتفق أهل العلم على إمامته، ولقب بشيخ الإسلام في حياته[١].

وقد تميز الشيخ بعلمه؛ إذ لم يقتصر في طلبه على فن واحد، بل أخذ بفنون العلم كلها، فبرز فيها، وأتقنها، حتى **قال العلامة كمال الدين بن الزملكاني**[٢]: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم ـ سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها ـ إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين»اهـ[٣].

وقال الحافظ المزي[٤]: «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه،

---

(١) انظر: كتاب الرد الوافر على أن من زعم بأن من سمى ابن تيمية: شيخ الإسلام؛ كافر. ذكر فيه مؤلفه جمعاً من العلماء، بلغوا أكثر من ثمانين عالماً، لقبوا ابن تيمية بشيخ الإسلام.

(٢) محمد بن أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري الشافعي ابن الزملكاني، كمال الدين أبو المعالي. ولد في ليلة الاثنين ثامن شوال سنة ٦٦٠هـ، وقيل: سنة ٦٦٧هـ، تولى مناظرة شيخ الإسلام غير مرة، ومع ذلك، فكان يعترف بإمامته، ولا ينكر فضله ولا بره، وتوفي في شهر رمضان سنة ٧٢٧هـ.
انظر: الرد الوافر (ص٢٢، ٢٦٣).

(٣) العقود الدرية (ص٧)، الرد الوافر (ص١٠٩)، الشهادة الزكية (ص٣٦ ـ ٣٧).

(٤) يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك القضاعي ثم الكلبي المزي، جمال الدين أبو الحجاج، الإمام، حافظ الإسلام، محدث الأعلام، شيخ المحدثين، ولد سنة ٦٥٤هـ، كان غزير العلم، ثقة حجة، ترافق هو وابن تيمية في السماع والنظر في علوم عدة، من الأعلام، له عدة مصنفات؛ منها: =

وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه»اهـ[١].

وقال الذهبي عنه: «وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية، فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي.

وأما التفسير فمسلّم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن وقوة إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحير فيه، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالاً عديدة، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصولين أو من الرد على الفلاسفة[٢] والأوائل نحواً من أربعة كراريس،

= تهذيب الكمال، وتحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، توفي في صفر سنة ٧٤٢هـ.
انظر: الرد الوافر (ص٢٢٩ ـ ٢٣١).

(١) العقود الدرية (ص٧)، الرد الوافر (ص٢٣٠).

(٢) الفلاسفة: الفلسفة في الأصل معناها: محبة الحكمة، وهي كلمة يونانية مكونة من مقطعين: فيلا: أي محبّ، وسوفيا: أي الحكمة.
كان المراد بالفلسفة قديماً: تفسير المعرفة عقلياً، وفي القرون الوسطى أصبح المراد بالفلسفة الوقوف على حقائق الأشياء، نظرية كانت أو عملية، وأصبحت منذ القرن التاسع عشر تقتصر على المنطق وعلم الجمال وما بعد الطبيعة.
هذا حسب مفهوم الفلاسفة، ولكن في الحقيقة أصبح هذا الاسم يطلق على أتباع أرسطو الذين هذب ابن سينا طريقتهم، ومن آراء معظّميهم: القول بقدم العالم، وإنكار النبوات، وإنكار البعث الجسماني. أما موضوع الفلسفة، فهو =

أو أزيد، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة»اهـ[(١)].

وقد جلس للإفتاء والتدريس وهو لم يتجاوز العشرين من عمره[(٢)]، وقد حضر درسه الأول كبار العلماء في دمشق، وأُعجِبوا من درسه وأثنوا عليه.

قال ابن ناصر الدين الدمشقي[(٣)]: «قال الذهبي: «وكان الشيخ تاج الدين الفزاري[(٤)] يبالغ في تعظيم الشيخ تقي الدين؛ بحيث إنه علَّق بخطه درسه بالسكرية»»ا.هـ.

= موضع خلاف؛ فمن قائل: إن دائرة الفلسفة تتسع، فتشمل كل علم أو فرع من فروع العلم. إلى قائل: بأنها تختص فقط بالبحث فيما وراء الطبيعة، أو ما يتصل به كالمنطق.

انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٦ ـ ٢٦٨)، الفصل لابن حزم (١/ ٩٤)، مقدمة ابن خلدون (ص٥١٤)، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (ص١٣٨ ـ ١٣٩)، المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١٤٥).

(١) العقود الدرية (ص٢٤ ـ ٢٥). (٢) انظر: العقود الدرية (ص٢٤).

(٣) هو محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد القيسي الدمشقي، شمس الدين، الشهير بـ«ابن ناصر الدين». ولد في دمشق في أوائل محرم سنة ٧٧٧هـ، كان إماماً، مؤرخاً، ثقةً، حافظاً، له مصنفات عديدة مفيدة، منها: عقود الدرر في علوم الأثر، والرد الوافر على من زعم: بأن من سَمّى ابن تيمية شيخ الإسلام؛ كافر، وغيرها. توفي في ربيع الثاني سنة ٨٤٢هـ.

انظر: الدرر الكامنة (٣/ ٣٩٧)، شذرات الذهب (٧/ ٢٤٣)، الأعلام (٧/ ١١٥)، الرد الوافر (ص١٩ ـ ٢٠).

(٤) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الدين الفزاري، تاج الدين أبو محمد، الإمام العلامة العالم، شيخ الشافعية في زمانه، ولد سنة ٦٣٠هـ، قال ابن كثير: «كان ممن اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة، والأخلاق اللطيفة، وفصاحة اللسان، وحسن التصنيف، وعلو الهمة... وهو شيخ أكابر مشايخنا». له مصنفات منها: كتاب الإقليد، واختصار الموضوعات لابن الجوزي، وغيرها، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٦٩٠هـ. =

وهذا الدرس كان بعد موت والد الشيخ تقي الدين في يوم الاثنين ثاني المحرم من سنة ثلاث وثمانين وستمائة بدار الحديث السكرية... وحضر هذا الدرس قاضي القضاة بهاء الدين يوسف ابن القاضي محيي الدين أبي الفضل يحيى بن الزكي[١]، وشيخ الإسلام تاج الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري المذكور، والشيخ زين الدين أبو حفص عمر بن مكي بن عبد الصمد بن المرحل[٢] وكيل بيت المال والد صدر الدين ابن الوكيل الشافعيون، وشيخ الحنابلة العلامة زين الدين أبو البركات ابن المنجا التنوخي[٣]، وآخرون.

وكان درساً حافلاً كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه ـ كما ذكره الذهبي وغيره ـ لكثرة فوائده، وأطنب الحاضرون في شكره، وكان إذ

= انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٥)، الرد الوافر (ص١٥٤ ـ ١٥٦).

(١) هو يوسف بن محيي الدين أبي الفضل يحيى بن محمد بن علي بن محمد القرشي الدمشقي، المعروف بابن الزكي الشافعي، بهاء الدين، قاضي القضاة، ، كان فاضلاً مبرزاً، ولد في سنة ٦٤٠هـ، وتوفي سنة ٦٨٥هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٨).

(٢) هو عمر بن مكي بن عبد الصمد بن عطية بن أحمد العثماني الدمشقي الشافعي، أبو حفص، زين الدين الخطيب، المعروف بابن المرحل. وكيل بيت المال في دمشق وخطيبها، قال ابن كثير: «سمع الحديث، وبرع في الفقه، وفي علوم شتى، منها علم الهيئة، وله فيه مصنف.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٣١)، طبقات الشافعية للسبكي (٥/ ١٤٥)، طبقات الشافعية لابن شهبة (٢/ ٤٦)، شذرات الذهب (٥/ ٤١٩).

(٣) هو المنجا بن عز الدين أبي عمر عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي، زين الدين أبو البركات، شيخ الحنابلة وعالمهم، ولد سنة ٦٣١هـ، قال ابن كثير: كان قد جمع له بين حسن السمت والديانة والعلم والوجاهة وصحة الذهن والعقيدة والمناظرة وكثرة الصدقة، برع في فنون من العلم كثيرة، سنة ٦٩٥هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٤٥)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٣٢).

ذاك عمر الشيخ تقي الدين ابن تيمية نحو إحدى وعشرين سنة»اهـ[١].

وقال الإمام بدر الدين محمد بن علاء الدين بن غانم: «اجتمعتُ بالشيخ برهان الدين رحمه الله[٢] يوم وفاة الشيخ تقي الدين رحمه الله على مصطبة باب المدرسة الباذرائية، وعزيته فيه، فوجدته متأسفاً عليه، كثير الألم لموته، وإذا بشخص من الطلبة قد حضر، فقال له: يا سيدي لا تحضر الدرس اليوم حتى نحضر في خدمتك، فغضب غضباً شديداً، وانزعج انزعاجاً كثيراً، وقام لوقته ودخل بيته، وانصرف ذلك الرجل وأنا جالس موضعي على المصطبة متألماً لانزعاجه، وإذا به قد علم برواح ذلك الرجل وجلوسي مكاني بعده فطلبني، فدخلت فوجدته على حاله في الانزعاج، وقال لي: ما تبصر هذا الحال، يموت أقل من يكون من الفقهاء، فتبطل الدروس لأجله، ويموت مثل هذا الرجل العظيم ولا تبطل الدروس لأجله، والله عنده من الفضائل ما لا عند أحمد بن حنبل، هذا كان صاحبي من الصغر، ويجتمع بوالدي، وكان والدي يحب والده وأهله، ويتردد إلى والده، وعندما درس ولده بعد وفاة والده حضر والدي عنده الدرس، وكتب درسه، وأثنى على درسه وعلى فضائله من ذلك الزمان»اهـ[٣].

---

(١) الرد الوافر (ص١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري البدري الشافعي، برهان الدين أبو إسحاق، ولد سنة ٦٦٠هـ، قال ابن كثير: «الإمام العالم، شيخ المذهب وعلمه، ومفيد أهله، شيخ الإسلام، مفتي الفرق، بقية السلف... وبالجملة، فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله». وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٢٩هـ، وكانت جنازته مشهودة.
انظر: البداية والنهاية (١٤/١٤٦)، طبقات الشافعية (٦/٤٥)، الرد الوافر (ص١٥٤ ـ ١٥٦).

(٣) الرد الوافر (ص١٥٥ ـ ١٥٦).

وقد أثنى عليه كلٌّ من رآه وعلم حاله أو سمع عنه، إلا ممن غلب عليه الحسد والعدوان، ولو أردنا استعراض ما قيل فيه لطال بنا المقام، بيد أنني أذكر شيئاً يسيراً مما قيل عن مكانته العلمية، وتمكنه وتفوقه على معاصريه، وخاصة في معرفة آراء الفرق والطوائف والأديان، والرد عليهم، ومن ذلك:

قال الحافظ ابن سيد الناس(١) عن الشيخ: «ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته، أو حاضر بالنِّحَل والملل لم يُرَ أوسعَ من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته، برز في كل فنّ على أبناء جنسه، ولم تر عينُ مَن رآه مثلَه، ولا رأت عينه مثل نفسه»اهـ(٢).

وقال الذهبي: «شيخنا، الإمام، العالم، العلامة، الأوحد، شيخ الإسلام، مفتي الفرق، قدوة الأمة، أعجوبة الزمان، بحر العلوم، حبر القرآن، تقي الدين، سيد العباد»اهـ(٣).

وقال في موضع آخر: «قرأ القرآن والفقه، وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ابن سيد الناس اليعمري الإشبيلي الشافعي، فتح الدين أبو الفتح، الإمام الحافظ الفقيه، ولد بالقاهرة في ذي الحجة سنة ٦٧١هـ، توفي سنة ٧٠٤هـ بالقاهرة، وكانت جنازته مشهودة، له مصنفات مفيدة ومؤلفات حميدة؛ منها: كتاب «النفح الشذي في شرح كتاب الترمذي».
انظر: الرد الوافر (ص٥٨).

(٢) العقود الدرية (ص١٠)، الرد الوافر (ص٥٨ ـ ٥٩).

(٣) العقود الدرية (ص٩)، الرد الوافر (ص٦٩).

المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنتين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين ـ فضلاً عن المذاهب الأربعة ـ فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيراً، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه، فأمر يتجاوز الوصف، ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يُضْرَب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس»اهـ[١].

وقال: «وأما أصول الدين ومعرفة أقوال الخوارج[٢]، والروافض، والمعتزلة[٣]، ....

---

(١) الرد الوافر (ص٦٩ ـ ٧٠)، وانظر: شذرات الذهب (٦/ ٨١ ـ ٨٢).

(٢) الخوارج: اسم يُطلق على كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، سواء أكان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أم كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان، **لكن صار هذا الاسم عَلَماً على أول من خرج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** رضي الله عنه. وكان الخوارج من أنصار علي رضي الله عنه، ثم انشقوا عنه بعد التحكيم، قال ابن حزم: «كانوا أعراباً قرؤوا القرآن ولم يتفقهوا في السنن، وبذلك تعددت طوائفهم».
انظر: الفصل في الملل والنحل (٤/ ١٦٨)، الملل والنحل للشهرستاني (٤/ ١١٥).

(٣) المعتزلة: اختلف في سبب تسميتهم بذلك؛ فقيل: لاعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري لمَّا خالفه في حكم مرتكب الكبيرة، حيث قال واصل: إنه في منزلة بين المنزلتين، فأطلق عليه وأتباعه المعتزلة، وقيل غير ذلك، وقد أطلقت عليهم ألقاب أخر؛ نحو: الوعيدية، والمنزلة، والنفاة، ومخانيث الخوارج، وهم فرق كثيرة، ولهم أصول خمسة هي: التوحيد والعدل والمنزلة =

والمبتدعة فكان لا يشق فيها غباره»اهـ[(١)].

وقال في موضع آخر عن الشيخ: إنه ـ «كان آية في الذكاء، وسرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعةً وسخاءً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وكثرة تصانيف، وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه، وتأهّل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها ودقها وجلها سوى علم القراءات.

فإن ذُكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عُدَّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأُبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سُمِّي المتكلمون فهو فردهم، وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا[(٢)] يَقدُمُ الفلاسفةَ فَلّهم وتيّسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم،

= بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد ستروا تحت هذه الأصول معاني باطلة.

انظر: شرح العقيدة الطحاوية؛ فقد بيّن هذا الكتاب ما تضمنته أصولهم من معانٍ باطلة (٢/ ٧٩٢)، وانظر: الملل والنحل (١/ ٥٦)، الفرق بين الفرق (ص٩٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٣٤ ـ ٣٦)، المعتزلة وأصولهم الخمسة، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية (ص١٠٣ وما بعدها).

(١) الوافي بالوفيات (٧/ ١٨).

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا البلخي، أبو علي، الفيلسوف الرئيس، ولد سنة ٣٧٠هـ، له تصانيف على طريقة المتكلمين والفلاسفة؛ كالشفاء والإشارات وغيرهما، قال عنه شيخ الإسلام: «تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات والنبوات والمعاد والشرائع لم يتكلم فيها سلفه.. وإن كان إنما أخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين، كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم، من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته وأتباعه =

وله يد طولى في معرفة العربية، والصرف، واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كَلِمي، أو ينبه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين، وهو بشر من البشر له ذنوب. فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته؛ فإنه كان ربانيَّ الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأساً في العلم، يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد ولا لحظتها من فقيه»اهـ[1].

وقال البزار: «وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية، حتى ينكشف قناع الحق وبان بما جمعه في ذلك، وألّفه الكذب من الصدق، حتى لو أن

= معروفين عند المسلمين بالإلحاد»ا.هـ، وقال الذهبي: «ما أعلمه روى شيئاً من العلم، ولو روى لما حلت الرواية عنه، لأنه فلسفي النحلة ضال، لا رضي الله عنه»، وقال في السير: «هو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب الشفا، وغيره، وأشياء لا تحتمل، وقد كفّره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال، وكفَّر الفارابي». توفي سنة ٤٢٨هـ.

انظر: الرد على المنطقيين (ص١٤١ ـ ١٤٢)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ١٥٧)، سير الأعلام (١٧/ ٥٣١ ـ ٥٣٦)، كشف الظنون لحاجي خليفة (١/ ٩٤ ـ ٩٥، بيروت، ١٤١٣هـ)، ميزان الاعتدال (١/ ٥٣٩)، لسان الميزان (٢/ ٢٩١)، تاريخ حكماء الإسلام (ص٥٢ ـ ٧٧٢).

(١) العقود الدرية (ص٢٣ ـ ٢٤)، الشهادة الزكية (ص٤٢ ـ ٤٣).

أصحابها أحياءٌ ووفقوا لغير الشقاء لأذعنوا له بالتصديق، ودخلوا في الدين العتيق، ولقد وجب على كل من وقف عليها وفهم ما لديها أن يحمد الله تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام»اهـ[١].

وقال ابن حجر: «ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان من أعظم الناس قياماً على أهل البدع ـ من الروافض، والحلولية[٢]، والاتحادية[٣] ـ وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل

---

(١) الأعلام العلية (ص٣٢).

(٢) الحلولية: قوم يزعمون أن الله يحل بذاته في أجسام المخلوقات، وهو مذهب قديم في معظم الديانات، والملل السابقة، ومن القائلين به في هذه الأمة: الغلاة من الشيعة، وكذلك بعض الصوفية. وقد قسمهم شيخ الإسلام قسمين:
الأول: من يقول بالحلول الخاص، وهو قول النساطرة من النصارى الذين يقولون: إن اللاهوت حلّ في الناسوت. . .، وغالية الرافضة، الذين يقولون: إنه ـ أي الله تعالى ـ حلّ بعلي بن أبي طالب ﷺ، وأئمة أهل بيته، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء أو من يعتقدون فيه الولاية، أو في بعضهم.
والثاني: هو الحلول العام، وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية، الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان. ويتمسكون بمتشابه من القرآن، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة وأهل المعرفة وعلماء الحديث. وقد ذكر البغدادي أنهم عشر فرق، أكثرها يرجع إلى غلاة الرافضة.
انظر: الفتاوى (٢/ ١٧١ ـ ١٧٢)، الملل والنحل (١/ ٣٦٩)، الفرق بين الفرق (ص٢٥٤)، اعتقادات فرق المسلمين (ص٧٣)، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب (٢/ ٦٢)، الغلو والفرق الغالية (ص١٢٦)، مصطلحات الصوفية (ص٨٢). وسيأتي تفصيل مذهب الحلولية وموقف شيخ الإسلام منهم في مبحث خاص (ص٤٠٥).

(٣) الاتحادية: قسمهم شيخ الإسلام قسمين: =

الحصر»اهـ[١].

شيوخه وتلاميذه:

كان لبداية الشيخ منذ صغره في طلب العلم وحضور مجالس العلماء والسماع منهم أثر واضح في كثرة مشايخه؛ حيث بلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ.

ومن هؤلاء: والده عبد الحليم[٢]، وأبو العباس أحمد بن

= **الأول**: هو الاتحاد الخاص، وهو قول يعقوبية النصارى، وهم أخبث قولاً، وهم السودان والقبط. يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجاً، كاختلاط اللبن بالماء. وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام.

الثاني: الاتحاد العام، وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين: من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين. وهؤلاء يقولون: ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره. والثاني: من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح، وهؤلاء جعلوا ذلك سارياً في الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ، وإذا كان الله تعالى قد قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية، فكيف بمن قال: إن الله هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شيء؟!.

انظر: الفتاوى (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، الموسوعة الميسرة (ص٤٥)، مصطلحات الصوفية (ص٩). وسيأتي تفصيل مذهب الحلولية وموقف شيخ الإسلام منهم في مبحث خاص (ص٤٠٥).

(١) انظر: الرد الوافر (ص٢٤٨)، الشهادة الزكية (ص٧٣).

(٢) هو عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، شهاب الدين، قال ابن كثير: «مفتي الفرق الفارق بين الفرق، كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة». توفي سنة ٦٨٥هـ.

انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٣)، العبر (٣/ ٣٤٩)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣١٠).

عبد الدائم[١]، وشرف الدين أحمد بن كمال الدين المقدسي[٢]، وأبو الفرج عبد الرحمن بن سليمان البغدادي[٣] وعفيف الدين أبو محمد عبد الرحيم العلثي البغدادي[٤]، وغيرهم.

أما تلاميذه ـ فأيضاً ـ يصعب حصرهم واستقصاؤهم؛ إذ الشيخ بدأ بالتدريس منذ صغره، وبقي أكثر من أربعين عاماً يلقي دروسه، ويحضرها الجم الغفير من الناس، كما أن مجالسه تعددت أماكنها، فلم تكن في مكان واحد، هذا في دروسه العلمية، أما دروسه العامة ومواعظه، فلا قدرة على إحصائهم وحصرهم.

---

(١) هو أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي، زين الدين أبو العباس، ولد سنة ٥٧٥هـ، وتوفي سنة ٦٦٨هـ، كان مؤرخاً محدثاً أديباً.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٥٧)، العبر (٥/ ٢٨٨)، الدرر الكامنة (١/ ١٤٤)، شذرات الذهب (٥/ ٣٢٥).

(٢) هو أحمد بن كمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسي، شرف الدين أبو العباس، خطيب دمشق ومفتيها، وكان يتقن فنوناً كثيرة، كان يفتخر ويقول: أنا أذنت لابن تيمية بالإفتاء. ولد سنة ٦٢٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٣٤١)، العبر (٥/ ٣٨٠).

(٣) هو عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد البغدادي، جمال الدين أبو الفرج، الإمام، الفقيه، العالم، البارع، ولد سنة ٥٨٥هـ، بحران، وتوفي سنة ٦٧٠هـ.
انظر: العبر (٣/ ٣٢١)، شذرات الذهب (٥/ ٣٣٢).

(٤) هو عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن فارس العلثي البغدادي، عفيف الدين أبو محمد، قال الذهبي: «وله أتباع وأصحاب يقومون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حدث بالكثير ببغداد وبدمشق». ولد سنة ٦١٢هـ، وتوفي سنة ٦٨٥هـ.
انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣١٥)، العبر (٣/ ٣٥٩)، شذرات الذهب (٥/ ٣٩١).

ومن أبرز تلاميذه ابن القيم رحمه الله:

قال ابن حجر: «ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف؛ لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته»اهـ[(١)].

ومن تلاميذه: الإمام أبو محمد القاسم البرزالي[(٢)]، والحافظ أبو الحجاج المزي، والحافظ أبو عبد الله أحمد بن عثمان الذهبي، وابن مفلح الحنبلي[(٣)]، وابن قدامة المقدسي[(٤)]، والحافظ ابن كثير[(٥)].

---

(١) الرد الوافر (ص٢٤٨)، الشهادة الزكية (ص٧٢).

(٢) هو القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي، علم الدين أبو محمد، الإمام العالم الحافظ مؤرخ الشام، ولد سنة ٦٦٥هـ، قال ابن كثير: «سمعت العلامة ابن تيمية يقول: نقل البرزالي نقر في حجر». قال ابن ناصر الدين الدمشقي: «صاحب «التاريخ» الخطير و«المعجم» الكبير. كان بأسماء الرجال بصيراً، وناقلاً لأحوالهم تحريراً». توفي سنة ٧٣٩هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٤/ ١٨٥)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ٣٦٣)، الرد الوافر (ص٢١٧ ـ ٢٢١).

(٣) هو محمد بن مفلح بن مفرج المقدسي الصالحي الحنبلي، شمس الدين أبو عبد الله، ولد سنة ٧٠٣هـ، العالم المحدث البارع، المؤرخ، قال ابن القيم: «ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح». توفي سنة ٧٦٣هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٢٩٤)، الدرر الكامنة (٤/ ٢٦١)، شذرات الذهب (٦/ ١٨٨).

(٤) هو أحمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، شرف الدين أبو العباس، ولد سنة ٦٩٣هـ، شيخ الحنابلة، صحب شيخ الإسلام، وقرأ عليه عدة مصنفات في علوم شتى، توفي سنة ٧٧١هـ.
انظر: الرد الوافر (ص١٣٨)، الدرر الكامنة (١/ ١٧٠)، شذرات الذهب (٦/ ٢١٩).

(٥) هو إسماعيل بن أبي حفص عمر بن كثير بن ضوء القرشي البصري ثم =

مصنفاته:

حصْر مؤلفات الشيخ واستقصاؤها مما يصعب ويشق على من أراده، وذلك لكثرتها وتنوعها وشمولها لفنون العلم ومجالاته، وتفرقها في البلدان والأمصار، وعدم حفظ الشيخ بنسخ منها عنده.

وهذه الصعوبة والعجز ليس في المتأخرين، بل حتى تلامذته ومن عاصروه متفقين على عدم إمكان حصرها واستقصائها[(١)].

وممن صرح بذلك ابن عبد الهادي[(٢)] حيث قال عن مصنفات الشيخ: «وللشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من المصنفات والفتاوى والقواعد والأجوبة والرسائل وغير ذلك من الفوائد ما لا ينضبط، ولا أعلم أحداً من متقدمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريباً من ذلك.

= الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء، الإمام الحافظ، العلامة، ثقة المحدثين، وعمدة المؤرخين، علم المفسرين، ولد سنة ٧٠١هـ، له عدة مصنفات؛ منها: تفسير القرآن، والبداية والنهاية، وغيرها. توفي سنة ٧٧٤هـ.
انظر: الدرر الكامنة (١/ ٣٧٣)، شذرات الذهب (٦/ ٢٣١)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/ ١١٣).

(١) انظر: العقود الدرية فقد ذكر بعض أسباب تعذر إحصاء ما كتبه وما صنفه (ص٦٤ ـ ٦٥).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، شمس الدين أبو عبد الله، الفقيه المحدث الحافظ الناقد، ولد في شهر رجب سنة أربع، وقيل: خمس، وقيل: ست وسبعمائة، لازم شيخ الإسلام مدة، وكان من جلة أصحابه، ولازم المزي وبرع عليه في الرجال، قال عنه الذهبي: «ما اجتمعت به قط إلا استفدت منه» ا.هـ. كان إماماً في علوم؛ كالتفسير والقراءات والحديث والأصول والفقه واللغة العربية. له تصانيف كثيرة مفيدة. توفي في جمادى الأولى سنة ٧٤٤هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٢١٠)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٧)، تذكرة الحفاظ (ص١٥٠٨)، شذرات الذهب (٦/ ٦٤١)، الرد الوافر (ص٦٣ ـ ٦٥).

مع أن أكثر تصانيفه إنما أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وليس عنده ما يحتاج إليه من الكتب.

وها أنا أذكر بعض مصنفاته ليقف عليها من أحب معرفتها. فمن ذلك:

ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلداً، وقد بيض أصحابه بعض ذلك، وكثير منه لم يكتبوه بعد. وكان رحمه الله يقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم»اهـ[1].

وقال ابن القيم - في مقدمة كتابه «أسماء مؤلفات شيخ الإسلام» -: «فإن جماعة من محبي السنة والعلم سألني أن أذكر ما ألفه الشيخ... ابن تيمية رضي الله عنه، فذكرت لهم أني عجزت عن حصرها وتعدادها لوجوه أبديتها لبعضهم، وسأذكرها إن شاء الله فيما بعد، فأكثرهم قالوا: لا بد من ذكر ما تعرف، وما لا يدرك كله لا يترك جله، فتعينت إجابتهم، وها أنا ذا أذكر ما يسَّر الله عليّ منها، وإن وجد الواقف على ما كتبنا زيادة فليلحقها، والله المستعان»اهـ[2].

وقال البزار: «وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد؛ لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، وهي منشورة في البلدان، فقلَّ بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه»اهـ[3].

---

(١) العقود الدرية (ص٢٦)، وانظر: العقود الدرية (ص٦٤).

(٢) أسماء مؤلفات شيخ الإسلام (ص٨).

(٣) الأعلام العلية (ص٢٥)، وانظر ما ذكره ابن رجب في: ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤)، والصفدي في الوافي بالوفيات (٧/ ٢٣).

وقد ذكر الذهبي أنها تبلغ ألف مصنف، بل أكثر من ذلك[١].

وأفرد تلميذه ابن القيم رسالة في ذكر مصنفاته، كما أن ابن عبد الهادي ذكر جملة منها، وقد اجتهد كثير من العلماء وطلبة العلم في استقصاء مؤلفاته، ومع ذلك ما زال بعض رسائله وكتبه تظهر وتنشر اليوم لأول مرة.

ومن أشمل ما وقفت عليه ممن سعى في حصر مؤلفات الشيخ ما قام به محققا كتاب «الصارم المسلول»؛ حيث ذكرا ما يزيد على سبعمائة كتاب ورسالة، وذلك من خلال جميع المصادر والمراجع التي بين أيديهم[٢].

وقد كان لمؤلفات الشيخ الأثر الكبير - من عصره إلى اليوم - في كشف الضلالات والبدع، وإرشاد الناس إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق والبيان، ومؤلفاته ما زالت هي المرجع لكثير من أهل العلم في رد بدع الفرق والطوائف، كما أنه بها تنجلي كثير من الشكوك والشبهات التي لدى أهل الكلام، ويجد المطلع عليها الحق الواضح الموافق للعقل والفِطَر وما جاء به الشرع من غير تناقض بينها، ويبيّن ذلك ويوضحه ما

---

(١) انظر: الرد الوافر (ص٧٢)، الشهادة الزكية (ص٤٣).

(٢) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول (١/ ٧٠ ـ ١٥٢)، تحقيق محمد بن عبد الله الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري. وقد اقتصرت على الإحالة على بعض من سعى في استقصاء ما أمكنه، وذلك خشية التكرار دون فائدة تذكر، خاصة أن هذه الكتب متوفرة بين أيدي القراء.

ومن ذكر مؤلفات الشيخ من المتقدمين: ابن القيم في كتابه أسماء مؤلفات شيخ الإسلام، وابن عبد الهادي في العقود الدرية (ص٢٦ ـ ٦٧)، والبزار في الأعلام العلية (ص٢٥ ـ ٢٨)، وابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥)، والصفدي في الوافي بالوفيات (٧/ ٢٣ ـ ٣٠)، والكتبي في فوات الوفيات (١/ ٧٥ ـ ٨٠).

ذكره البزار في بيان أثر مؤلفات الشيخ على المطلعين عليها؛ حيث قال: «حدثني غير واحد - من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب وتمييز القشر من اللباب -: أن كلًّا منهم لم يزل حائراً في تجاذب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم، وأنه لم يستقر في قلبه منها قول، ولم يبِن له من مضمونها حق، بل رآها كلها مُوقِعةً في الحيرة والتضليل، وجلها مُمعن بتكلف الأدلة والتعليل، وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل، حتى منَّ الله تعالى عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام - أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام - وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها، فرآها موافقة للعقل السليم، وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام.

ومن أراد اختبار صحة ما قلته، فليقف - بعين الإنصاف العرية عن الحسد والانحراف إن شاء - على مختصراته في هذا الشأن: شرح الأصفهانية، ونحوها. وإن شاء على مطولاته: تخليص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج الاستقامة والاعتدال، فإنه والله يظفر بالحق والبيان، ويستمسك بأوضح برهان، ويزن حينئذ في ذلك بأصح ميزان» اهـ[١].

والمطلع على مؤلفات الشيخ ورسائله يلحظ أن أكثرها في مسائل الأصول والعقائد والرد على أهل البدع، وقد بيّن الشيخ سبب ذلك في جوابه لتلميذه عندما سأله عن ذلك؛ حيث قال البزار: «ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول، فضلاً عن غيره من بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نص في الفقه، يجمع اختياراته وترجيحاته،

(١) الأعلام العلية (ص٣٣).

ليكون عمدةً في الإفتاء، فقال لي ـ ما معناه ـ: الفروع أمرها قريب، ومن قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه؛ وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء ـ كالمتفلسفة[١]، والباطنية، والملاحدة[٢]، والقائلين بوحدة الوجود[٣] والدهرية[٤] والقدرية[٥]

---

(١) المتفلسفة: هم المتأثرون بآراء الفلاسفة، وقد تقدم بيان المراد بالفلاسفة. ومن أشهر المتفلسفة المنتسبين إلى الإسلام: ابن سينا، والفارابي، وابن عربي. وقد سعوا في الجمع بين نصوص الشريعة وبين آراء الفلاسفة أرسطو وأتباعه، مما جعلهم يحرّفون النصوص عن دلالتها ويتأولونها تأويلات باطنية.
انظر: الملل والنحل (٢/٥٨)، إغاثة اللهفان (٢/٢٥٦)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١٤٥)، بغية المرتاد (ص٢١٨ وما بعدها).

(٢) الملاحدة: الإلحاد مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد: بمعنى مال، والإلحاد يكون في أسماء الله، وهو أنواع، ويكون في آيات الله الكونية والشرعية، وهو أنواع أيضاً. ويطلق لفظ الملاحدة على الذين ينكرون وجود الله، أو ينكرون البعث والنشور.
انظر: القاموس (ص٤٠٤، مادة: لحد)، القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين (٣/٧٦ ـ ٨١، ت: د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل، ود. خالد بن علي المشيقح).

(٣) القائلون بوحدة الوجود: أي إن الوجود الذي لذات المخلوق هو عين وجود ذات الله ﷻ.
انظر: بغية المرتاد (ص٣٩٥ وما بعدها)، وسيأتي مزيد بيان وتعريف بهم في مبحث خاص (ص٤٠٥).

(٤) الدهرية: هم الذين ينفون الربوبية، ويحيلون الأمر والنهي والرسالة من الله تعالى، ويقولون: يستحيل هذا في العقول، ويقولون بقدم العالم، وينسبون النوازل التي تنزل بهم إلى الدهر، وقد ذكر ابن القيم أنها طائفتان.
انظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٥)، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٨٨)، المقالات والفرق (ص١٩٤)، بغية المرتاد (ص٤٣٠)، الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/ ٤٧).

(٥) القدرية: هم نفاة القدر، وغالباً ما يُطلَق هذا الاسم على المعتزلة لنفيهم =

والنصيرية[١]، والجهمية[٢]، والحلولية، والمعطلة[٣]، ....

= القدر، وإن كان القدرية الأولى الذين أنكروا علم الله تعالى السابق أقدم ظهوراً من المعتزلة، حيث ظهرت هذه الفرقة في آخر عهد الصحابة ﷺ وقد تبرأ منهم الصحابة كابن عمر وغيره، وقد قيل: إن أول من ابتدع القول بالقدر سوسن النصراني. كما أنه رويت أحاديث بتسميتهم مجوس هذه الأمة؛ وذلك لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما النور والظُّلمة، ويزعمون أن الخير من فعل النور، وأن الشر من فعل الظُّلمة، وكذا القدرية يضيفون الخير إلى الله، والشر إلى الإنسان والشيطان. ولقب القدرية لقب ذم؛ ولذا تنكره المعتزلة، بل تطلقه على أهل السنة والجماعة.

انظر: الملل والنحل (١/ ٤٣)، الفرق بين الفرق (ص١١٤)، التنبيه والرد (ص١٧٦)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٥٦).

(١) النصيرية: فرقة من غُلاة الباطنية، أرجح الآراء أنهم يُنسبون إلى ابن نُصير مولى الحسن العسكري أو من أصحابه، وهو محمد بن نُصير البصري النميري، المتوفَّى سنة ٢٦٠هـ، وقيل: ٢٧٠هـ، وهم يُؤلِّهون علياً ﷺ، ويستحلُّون المحارم، وهم يوجدون اليوم في شمال سوريا ولبنان وفي لواء أنطاكية وإسكندرونة بتركيا، ويُطلقون على أنفسهم: العلويون.

انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٨٣)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٨٨)، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين د.أحمد جلي (ص٣١١ ـ ٣٢٤).

(٢) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان، وهم من الجبرية الغلاة الذين يقولون إن الإنسان مجبور، لا اختيار له ولا إرادة، وكذلك ينكرون الأسماء والصفات؛ فهم معطلة، ويقولون بفناء الجنة والنار. ولفظ الجهمية يطلق أحياناً بمعنى عام يقصد به نفاة الصفات عامة، ويطلق أحياناً بمعنى خاص ويقصد به أتباع الجهم. وقد أخرج كثير من العلماء كابن المبارك وغيره الجهمية من فرق المسلمين ولا يعدونها منها.

انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٩٤)، مقالات الإسلاميين (ص٢٧٩)، الفرق بين الفرق (ص١٩٩)، الملل والنحل (١/ ٨٦)، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٣٤)، تاريخ الجهمية والمعتزلة (ص٥٣)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٨).

(٣) المعطلة: التعطيل: هو إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات، =

والمجسمة[١]، والمشبهة[٢]، والراوندية[٣]، ....

= أو إنكار بعضها. والتعطيل: نوعان: تعطيل كلي كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الأسماء والصفات، وتعطيل جزئي كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض. انظر: شرح لمعة الاعتقاد (ص١١٣)، تلخيص الحموية (ص١٠).

(١) المجسمة: هم الذين يطلقون على الله تعالى لفظ «الجسم»، وبعضهم يصف هذا الجسم وصفاً دقيقاً، فيذكر طوله وعرضه.. إلخ، ولفظ الجسم من الألفاظ المجملة التي لم يرد نفيها ولا إثباتها في الكتاب ولا في السنة، لذا لا ينبغي أن تطلق على الله تعالى نفياً ولا إثباتاً، ومن أشهر المجسمة: الكرامية، وطائفة من الشيعة.
انظر: مقالات الإسلاميين (ص٢١٧)، بيان التلبيس (١/ ٤٠٧)، شرح العقيدة الطحاوية (ص١٢١)، الفرق بين الفرق (ص١٦).

(٢) المشبهة صنفان: صنف: شبهوا ذات الله تعالى بذات غيره، وهم أصناف مختلفة.
وصنف: شبهوا صفات الله تعالى بصفات المخلوقين، وهم أصناف أيضاً، منهم: من شبّه كلام الله بكلام خلقه، ومنهم من شبه صفات الله تعالى الذاتية بصفات خلقه، وأول من أفرط في التشبيه فرقة من فرق الروافض تسمى «السبئية»، ومن رؤوس المشبهة: هشام بن سالم الجواليقي، وداود الحواري، وأهل الحلول والاتحاد هم من غلاة المشبهة.
ولفظ التشبيه من الألفاظ المجملة المشتركة، ولفظ المشبهة يطلقه أهل الأهواء والبدع على كل من أثبت ما ينكرونه من صفات الله وأسمائه.
انظر: الفرق بين الفرق (ص٢٢٥ ـ ٢٣٠)، التبصير في الدين (ص١١٩ ـ ٢٢١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٩٧ ـ ١٠٠)، منهاج السنة (٢/ ٥٩٨)، الملل والنحل (١/ ١١٨ ـ ١٣١)، الفتاوى (٣/ ١٨٦، ٤/ ١٣٨، ٦/ ٣٥ ـ ٣٦، ١٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٣) الراوندية هم أتباع ابن الراوندي أحمد بن يحيى، أبي الحسين، فيلسوف مجاهر بالإلحاد، له كتاب على أهل الاعتزال سمَّاه «فضيحة المعتزلة»، توفي سنة ٢٤٥هـ. والفرقة تزعم أن النبي ﷺ نص على العباس بن عبد المطلب، ونصّبه إماماً. =

والكلابية[1]، والسليمية[2]، وغيرهم من أهل البدع ـ قد تجاذبوا فيها بأزِمَّة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية على كل دين، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعت أو رأيت مُعرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على

= انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٩٦، ٢٤٠)، الفرق بين الفرق (ص٤٠)، لسان الميزان (١/ ٣٢٣)، وفيات الأعيان (١/ ٩٤)، سير الأعلام (١٤/ ٥٩).

(١) الكلابية: هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلَّاب، من آرائهم: أن أسماء الله وصفاته لذاته، لا هي الله ولا هي غيره، وأنها قائمة بالله، ولا يجوز أن تقوم بالصفات صفات. وأن الصفات لا تتغاير، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها، وكذلك سائر الصفات، وأن الإيمان لا يتفاضل؛ بمعنى أنه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص. وأن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات الله...

انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٤٩، ٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧)، نهاية الإقدام (ص١٨١)، أصول الدين (ص٥٠).

(٢) السليمية: يحتمل أن يكون المراد بها: السليمانية إحدى فرق الزيدية أتباع سليمان بن جرير، وسيأتي حديث عنها في مبحث الزيدية.

أو أن يكون المراد بالسليمية ـ خاصة أنه في نسخة المنجد (السلمية)، وذكرها بعد الكلابية ـ: السالمية أتباع أبي عبد الله محمد بن سالم، المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وابنه أبي الحسن أحمد بن سالم، المتوفى سنة ٣٥٠هـ، وقد تتلمذ محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التستري وأبي طالب المكي، ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة، مع ميل إلى التشبيه، ونزعة صوفية اتحادية.

انظر: شذرات الذهب (٣/ ٥٦)، دائرة المعارف الإسلامية: «السالمية»، الفرق بين الفرق (ص١٥٧)، منهاج السنة (١/ ١٥٧ حاشية).

دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيف دلائلهم؛ ذباً عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجلية.

ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممن صنف في هذا الشأن وادَّعى علوم المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام؛ وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتِّباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها ـ بزعمهم ـ حكميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم، فتخبط حتى خبط فيها عشواء، ولم يفرق بين الحق والباطل.

وإلا: فالله أعظم لطفاً بعباده أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته، ويبطل الباطل وينفيه، لكن عدم التوفيق وغَلَبَة الهوى أوقع من أوقع في الضلال، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات، فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق وما هو من قبيل الباطل، ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟ هذا باطل قطعاً، يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال الشيخ الإمام قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية.

قلت ـ أي البزار ـ: وقد أبان بحمد الله تعالى فيما أَلَّف فيها لكل بصير الحق من الباطل، وأعانه بتوفيقه حتى رد عليهم بدعهم وآراءهم

وخدعهم وأهواءهم، مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية، حتى يجيب عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جلية واضحة، يعقلها كل ذي عقل صحيح، ويشهد لصحتها كل عاقل رجيح»اهـ[(١)].

بعض المحن التي ابتلي بها الشيخ:

كانت حياة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مليئة بالمحن والابتلاء، فلم تخل فترة من حياته من ذلك، وما إن يخرج من محنة إلا ويبتلى بأخرى، وما إن يخرج من سجن إلا ويعاد إليه تارة أخرى، فقضى معظم حياته رَحِمَهُ اللهُ في السجن، وقد لقي ربه وهو في السجن.

وهذه المحن التي ابتلي الشيخ بها كان من أبرز أسبابها منهجه الذي سار عليه في حياته مِنَ اتِّباع السنة والتمسك بها، والدعوة إليها، ومحاربة كل ما يخالفها من عادات وبدع ومنكرات، وإنكارها، مما ألَّب عليه كثيراً من شيوخ أهل المذاهب المخالفة لذلك ممن تأثروا ببدع أهل الكلام والفلسفة، حسداً وانتقاماً لما يرون أنه نال من المكانة والقبول والاستجابة ما لم ينالوه، ولما يدَّعون من أنه طعن في أئمتهم، وغيرها من التهم التي هو منها براء، وهذا ما انتهت إليه كل التهم والمحن، فالحق والصواب فيها معه، والكذب والباطل عند خصمه، ولذا ما من محنة ابتلي بها الشيخ إلا ويخرج منها منتصراً، ويكون بسببها أكثر قبولاً ومحبة، ويتضح الحق والسنة لدى الناس أكثر مما كان من قبل، ولذا نجده كثيراً ما يبيّن ويشير إلى أن في ذلك خيراً كثيراً.

والمحن التي ابتلي بها الشيخ كثيرة، أشير إلى أبرزها:

- محنته بسبب الفتوى الحموية:

وقد ذكر فيها معتقد أهل السنة والجماعة في الصفات؛ فادعى

(١) الأعلام العلية (ص٣٣).

خصومه أنه ذكر فيها ما أفسد عقائد عوامهم، وقد حصلت بذلك مناظرات بينه وبين خصومه، انتهت بالاعتراف للشيخ بأنه على الحق.

ـ محنته حول ما كتبه في «الواسطية»:

حيث اتهم الشيخ بسوء العقيدة، فعقدت مجالس ومناظرات لمساءلة الشيخ عن معتقده، وانتهت تلك المناظرات ببراءته وإعادته إلى منصبه.

ـ محنته في مصر:

لَمَّا لم يستطع خصومه النيل منه في تلك المحن، وشَوْا به إلى سلطان مصر بأنه مبتدع، فاستدعي إلى مصر وعقد له مجلس كان فيه الحكم هو خصمه وهو القاضي ابن مخلوف المالكي(١)، وقد أنكر الشيخ كيف يكون الحكم هو الخصم مما أغضب القاضي، وحبس الشيخ وبقي مسجوناً ثمانية عشر شهراً، ثم أخرج، وفرح الناس بذلك، وتفرغ للتدريس والإفتاء.

ـ محنته مع الصوفية:

عندما أخرج الشيخ من السجن، بقي في مصر للتدريس والإفتاء، وأخذ ينكر على الصوفية بدعهم وخرافاتهم، ويبيّن فساد ما هم عليه من اعتقاد، مما أثار زعماء الصوفية، وأثاروا عليه أتباعهم، وشكوه إلى السلطان، فعقد له مجلساً ادعي فيه على الشيخ بأشياء لم يثبت منها عليه شيء. ثم جاء الأمر من السلطان بتخييره بين السفر إلى دمشق أو إلى الإسكندرية أو الحبس، فاختار الشيخ الحبس، فدخل عليه جماعةٌ في السفر إلى دمشق، فأجابه جبراً لخواطرهم، وفي أثناء الطريق رد إلى

---

(١) هو علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم بن منعم بن خلف النويري المالكي، ولد سنة ٦٣٤هـ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٧١٨هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٩٠)، والدرر الكامنة (٣/ ٢٠٢).

مصر؛ إذ لم ترض الدولة إلا بالحبس، وبعد توقف القضاة وترددهم في الحكم عليه بالحبس، قال الشيخ: أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة، وبقي فيه إلى أن نقل إلى الإسكندرية كهيئة المنفي، لما رأى خصومه أثره الكبير على الناس وهو في السجن وترددهم عليه، وبقي فيها نحواً من ثمانية أشهر، ثم رجع إلى القاهرة بعد رجوع السلطان الناصر إلى الحكم[١].

ـ محنته بسبب فتواه في الطلاق:

مما ترجَّح لدى الشيخ في مسألة الطلاق عدُّ الثلاث بكلمة واحدة طلاقاً رجعياً. وقد منع الشيخ من الإفتاء بذلك، لكنه لم يستجب؛ لأنه يرى أنه لا يسعه كتمان العلم، وقد عقد له مجلس عوتب فيه وحكم بسجنه، ثم أخرج منه بعد أكثر من خمسة أشهر.

ـ محنته بسبب فتواه في شد الرحال إلى القبور:

وهي من أعظم المحن التي مرت على الشيخ وعلى أتباعه، وقد كذب فيها على الشيخ وحرّف كلامه، وأوذي بعض تلاميذه وأتباعه فيها، وسجن بسببها، بل أخرج ما عنده من الكتب، وكان هذا من أشد المصائب عليه، وبقي فيه إلى أن مات رحمه الله[٢].

وفاته:

توفي الشيخ رحمه الله ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة من سنة ثمان

---

(١) انظر تفصيل محنته مع الصوفية ومناظرته لهم في هذه الرسالة (ص٢٧٨ ـ ٢٨١).

(٢) انظر: العقود الدرية (ص١٩٤ ـ ٢٩٠، ٣٢٦ ـ ٣٦١)، البداية والنهاية (١٤/ ٣٧ ـ ٤٦، ٩٧ ـ ٩٨)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٩٧ ـ ٤٠٠)، وانظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ففيه تفصيل لتلك المحن وبيان لها، وبيان لأثر الشيخ الإيجابي في تلك المحن (١/ ١٧٤ ـ ١٩٧).

وعشرين وسبع مائة، معتقلاً بقلعة دمشق، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً، فما إن سمع الناس بموته حتى لم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه وأراده إلا حضر لذلك، وتفرغ له، حتى غلقت الأسواق بدمشق، وعطلت معايشها حينئذ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام، ولم يتخلف أحد من غالب الناس إلا ثلاثة أنفس[١]، كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم، بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم[٢].

وقال ابن حجر: «ولو لم يكن من الدليل على إمامة هذا الرجل ـ أي ابن تيمية ـ إلا ما نبّه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه: أنه لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته لَمَّا مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين، وأشار إلى أن جنازة الإمام أحمد كانت حافلة جداً، شهدها مئات ألوف، ولكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير من كان ببغداد أو أضعاف ذلك؛ لما تأخر أحد منهم عن شهود جنازته، وأيضاً فجميع من كان ببغداد إلا الأقل كانوا يعتقدون إمامة الإمام أحمد، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت إذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم، بخلاف ابن تيمية، فكان أمير البلد حين مات غائباً، وكان أكثر من بالبلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه، حتى مات محبوساً بالقلعة، ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم عليه والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس، تأخروا خشية على أنفسهم من العامة. ومع حضور هذا الجمع الغفير، فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد إمامته

---

(١) هم: ابن جملة، والصدر، والقحفازي. انظر: البداية والنهاية (١٤/ ١٤٠).

(٢) انظر الأعلام العلية (ص٧٢ ـ ٧٣).

وبركته، لا بجمع سلطان ولا غيره، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»[١] اهـ[٢][٣].



---

(١) الحديث في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: مَرُّوا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: (وجبت). ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: (وجبت). فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: (هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار؛ أنتم شهداء الله في الأرض). رواه البخاري (كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، ١/ ٤٦٠، ح١٣٠١)، ومسلم (كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، ٢/ ٦٥٥، ح٩٤٩).

(٢) الرد الوافر (ص٢٤٦ ـ ٢٤٧)، الشهادة الزكية (ص٧٢).

(٣) من مصادر الترجمة: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، الدرر البهية في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، الرد الوافر على من زعم بأن من سمّى ابن تيمية «شيخ الإسلام» كافر، والكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، البداية والنهاية: (١٣/ ٢٤٢)، (١٤/ ٨)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٨٧)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٦)، الوافي بالوفيات (٧/ ١٥)، فوات الوفيات (١/ ٧٤)، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤، شذرات الذهب (٦/ ٨٠).

ومن المعاصرين: شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين، ابن تيمية بطل الإصلاح الديني، ابن تيمية: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه... وغيرها كثير. ولمزيد من معرفة مصادر ترجمة الشيخ انظر المصدرين الأخيرين؛ ففيهما ذكر عدد كبير من المؤلفات والدراسات عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

نشأة الفرق، وأسبابها، وأصول الفرق عند شيخ الإسلام ابن تيمية

قبل بيان ما ذكره شيخ الإسلام حول نشأة الفرق وأصولها ومواطنها الأولى، وما تميزت به كل فرقة عن الأخرى، أُمهّد بذكر خمس قواعد عامة ذكرها الشيخ حول الأهواء والبدع، وخطرها، ومدى مخالفة أهلها لهدي النبي ﷺ وأصحابه كما أُمهّد بذكر حال الأمة في عهد شيخ الإسلام حتى نتصوّر ما كان يعيشه الشيخ في زمانه من استحكام كثير من البدع والأهواء، وانقياد فريق من الناس وراءها، ثم أعقبه ببيان بعض القضايا المتعلقة بنشأة الفرق وأصولها:

قواعد عامة في الأهواء والافتراق عند شيخ الإسلام:

١ ـ الرسول ﷺ وأصحابه هم القدوة في الدين:

قال شيخ الإسلام: «الواجب على كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك ويتبعه أين وجده، ويعلم أن أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عاماً إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عاماً إلا للصحابة ﭫ، فإن الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قط، بخلاف أصحاب عالم من العلماء، فإنهم قد يجمعون على خطأ»اهـ[1].

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

٢ ـ اختلاف الصحابة ﷺ لم يصل إلى حدّ التنازع والافتراق:

قال شيخ الإسلام: «الصحابة ﷺ كانوا أقلَّ فتناً من سائر من بعدهم؛ فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف، ولهذا لم تحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلما قتل وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان:

بدعة الخوارج المكفّرين لعلي.

وبدعة الرافضة المدَّعين لإمامته وعصمته، أو نبوته، أو إلاهيته.

ثم لمَّا كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير[١] وعبد الملك[٢] حدثت بدعة المرجئة والقدرية، ثم لمَّا كان في أول عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجهمية المعطلة، والمشبهة الممثلة، ولم يكن على عهد الصحابة شيء من ذلك»اهـ[٣].

٣ ـ وكذلك بدع التأويل للصفات لم تحدث في عهد الصحابة ولا منهم:

قال الشيخ: «فإن الصحابة ﷺ خير قرون هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، وهم تلقوا الدين عن النبي ﷺ بلا واسطة، ففهموا من مقاصده ﷺ، وعاينوا من أفعاله، وسمعوا منه شفاهاً ما لم يحصل

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خوَيلد، أمير المؤمنين، أول مولود وُلد للمهاجرين بالمدينة في السنة الثانية، وقيل: الأولى، عِداده في صغار الصحابة، قُتل سنة ٧٣هـ.
انظر: تاريخ الطبري (٥/ ٥٦٣، ٥٨٢، ٦٢٢، ٦/ ١٦٦، ١٨٧)، سير الأعلام (٣/ ٣٦٣)، أسد الغابة (٣/ ٢٤٢)، الاستيعاب لابن عبد البرّ (ص٩٠٥).

(٢) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أمير المؤمنين، كان فقيهاً متعبداً، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن (١٦) سنة، تولى الخلافة بعد أبيه سنة ٦٥هـ، فكان من عظماء الخلفاء ودهاتهم، توفي سنة ٨٦هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ٦٧)، الأعلام (٤/ ١٦٥).

(٣) منهاج السنة (٦/ ٢٣١).

لمن بعدهم، وكذلك كان يستفيد بعضهم من بعض ما لم يحصل لمن بعدهم، وهم قد فارقوا جميع أهل الأرض وعادوهم، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم، وجاهدوا بأنفسهم. . .

ولهذا لم يطمع الشيطان أن ينال منهم من الإضلال والإغواء ما ناله ممن بعدهم، فلم يكن فيهم من يتعمد الكذب على النبي ﷺ، وإن كان له أعمال غير ذلك قد تنكر عليه، ولم يكن فيهم أحد من أهل البدع المشهورة ـ كالخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجهمية ـ بل كل هؤلاء إنما حدثوا فيمن بعدهم، ولم يكن فيهم من طمع الشيطان أن يتراءى له في صورة بشر، ويقول: أنا الخضر، أو أنا إبراهيم، أو موسى أو عيسى أو المسيح، أو أن يكلمه عند قبر حتى يظن أنَّ صاحب القبر كلَّمه، بل هذا إنما ناله فيمن بعدهم»اهـ[1].

٤ ـ لم تظهر معارضة النصوص بالقواعد العقلية والفلسفية إلا بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم:

قال الشيخ: «ومن المعلوم أن الدلالات التي تسمى عقلياتٍ ليس لها ضابط، ولا هي منحصرة في نوع معين، بل ما مِنْ أمة إلا ولهم ما يسمونه معقولات، واعتبِرْ ذلك بأمتنا؛ فإنه ما مِنْ مدة إلا وقد يبتدع بعض الناس بدعاً يزعم أنها معقولاتٌ.

ومعلوم أن عصر الصحابة وكبار التابعين لم يكن فيه من يعارض النصوص بالعقليات؛ فإن **الخوارج والشيعة حدثوا في آخر خلافة علي، والمرجئة والقدرية حدثوا في أواخر عصر الصحابة**، وهؤلاء كانوا ينتحلون النصوص ويستدلون بها على قولهم، لا يدّعون أنهم عندهم عقليات تعارض النصوص.

(١) الفتاوى (٢٧/٣٨٨ ـ ٣٩٠).

ولكن لما **حدثت الجهمية في أواخر عصر التابعين** كانوا هم المعارضين للنصوص برأيهم، ومع هذ فكانوا قليلين مقموعين في الأمة، وأولهم الجعد بن درهم(١)، ضحَّى به خالد بن عبد الله القسري(٢)، يوم الأضحى بواسط(٣)، وقال: أيها الناس، ضحوا تقبَّل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه(٤)، وإنما صار لهم ظهورٌ وشوكة في أوائل المائة الثالثة»اهـ(٥).

---

(١) هو الجعد بن درهم، قال ابن كثير: هو مؤدب مروان الحمار، ولهذا يقال له: مروان الجعدي، وذكر شيخ الإسلام أنه من أهل حران، وعنه أخذ الجهم بن صفوان مذهب نفي الصفات، وكان بحران أئمة الصابئة والفلاسفة.
انظر: درء التعارض (١/ ٣١٣)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٣).

(٢) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي، أبو الهيثم، أمير العراق لهشام، وولي قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك ثم لسليمان، كان خطيباً مفوّهاً، قال الذهبي: صدوق لكنه ناصبي بغيض ظلوم، وقال ابن معين: رجل سوء يقع في علي. اهـ، من أكبر حسناته أنه قتل الجعد بن درهم، وقد مات خالد القسري مقتولاً سنة ١٢٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٣٢)، ميزان الاعتدال (١/ ٦٣٣)، سير الأعلام (٥/ ٤٢٥ ـ ٤٣٢).

(٣) واسط: مدينة بدأ الحجاج بناءها سنة ٨٤هـ، وسميت بذلك لتوسطها بين البصرة والكوفة، وبينها وبين كلٍ منهما خمسون فرسخاً ـ والفرسخ ثلاثة أميال (٥ كيلو متر) ـ وهي الآن من مدن العراق.
انظر: معجم البلدان (٥/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨)، مراصد الاطلاع (٣/ ١٤١٩)، الأنساب للسمعاني (٥/ ٥٦١).

(٤) روى القصة البخاري في خلق أفعال العباد بإسناده عن عبد الرحمن بن محمد بن أبي حبيب، عن أبيه عن جده (ص٢٩ ـ ٣٠)، وذكرها الذهبي في السير (٥/ ٤٣٢).

(٥) درء التعارض (٥/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

٥ ـ الأصل في مناهج أهل الأهواء الباطل، وإن وُجِد عندهم شيء من الحق:

بيّن شيخ الإسلام أن الأصل أن جميع أهل الأهواء على باطل وضلال، ولا ينفي هذه السمة عنهم ما يخالط كلامَ بعضهم من حق قليل.

قال شيخ الإسلام: «وكل مَنْ سوى أهل السنة والحديث مِنَ الفرق، فلا ينفرد عن أئمة الحديث بقول صحيح، بل لا بد أن يكون معه مِنْ دين الإسلام ما هو حق.

وبسبب ذلك وقعت الشبهة، وإلا، فالباطل المحض لا يشتبه على أحد؛ ولهذا سُمّي أهلُ البدع أهلَ الشبهات، وقيل فيهم: إنهم يلبسون الحق بالباطل»اهـ[١].

نشأة الفرق:

١ ـ أحوال الأمة في عهد شيخ الإسلام:

قال الشيخ: «وذلك أن **سكان اليمن** في هذا الوقت ضعاف، عاجزون عن الجهاد، أو مضيعون له، وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد، حتى ذكروا أنهم أرسلوا بالسمع والطاعة لهؤلاء، وملك المشركين لمَّا جاء إلى حلب جرى بها من القتل ما جرى.

وأما سكان الحجاز: فأكثرهم أو كثير منهم خارجون عن الشريعة، وفيهم من البدع والضلال والفجور ما لا يعلمه إلا الله، وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون، وإنما تكون القوة والعزة في هذا الوقت لغير أهل الإسلام بهذه البلاد، فلو ذلت هذه الطائفة ـ والعياذ بالله تعالى ـ لكان المؤمنون بالحجاز من أذلِّ الناس، لا سيما وقد غلب فيهم

---

(١) المنهاج (٥/ ١٦٧).

الرفض، وملك هؤلاء التتار المحاربون لله ورسوله الآن مرفوض، فلو غلبوا لفسد الحجاز بالكلية.

وأما بلاد أفريقية: فأعرابها غالبون عليها، وهم من شر الخلق، بل هم مستحقون للجهاد والغزو.

وأما المغرب الأقصى: فمع استيلاء الإفرنج على أكثر بلادهم لا يقومون بجهاد النصارى هناك، بل في عسكرهم من النصارى الذين يحملون الصلبان خلق عظيم، لو استولى التتار على هذه البلاد، لكان أهل المغرب معهم من أذل الناس، لا سيما والنصارى تدخل مع التتار، فيصيرون حزباً على أهل المغرب.

فهذا وغيرهم مما يبين أن هذه العصابة التي بالشام ومصر في هذا الوقت هم كتيبة الإسلام، وعزهم عزُّ الإسلام، وذلهم ذل الإسلام، فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز ولا كلمة عالية، ولا طائفة ظاهرة عالية يخافها أهل الأرض تقاتل عنه، فمن قفز عنهم إلى التتار كان أحق بالقتال من كثير من التتار، فإن التتار فيهم المكرَه وغير المكرَه»اهـ[1].

الشام ومصر: قال الشيخ: «ومن يتدبر أحوال العالم في هذا الوقت يعلم أن هذه الطائفة هي أقوم الطوائف بدين الإسلام علماً وعملاً، وجهاداً عن شرق الأرض وغربها؛ فإنهم هم الذين يقاتلون أهل الشوكة العظيمة من المشركين وأهل الكتاب، ومغازيهم مع النصارى ومع المشركين من الترك، ومع الزنادقة من الداخلين في الرافضة وغيرهم ـ كالإسماعيلية ونحوهم من القرامطة ـ معروفة معلومة، قديماً وحديثاً، والعز الذي للمسلمين بمشارق الأرض ومغاربها هو بعزهم، ولهذا لما

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

هُزموا سنة تسع وتسعين وستمائة دخل على أهل الإسلام من الذل والمصيبة بمشارق الأرض ومغاربها ما لا يعلمه إلا الله، والحكايات في ذلك كثيرة ليس هذا موضعها»اهـ[١].

٢ ـ المواطن الأولى للأهواء والفرق والبدع:

إن المتأمل لتاريخ ظهور البدع وانتشارها، يجد أن كل بدعة أو فرقة لها موطن بدأت فيه ثم انتشرت منه إلى غيره من البلاد، ولكل قوم وارث، وكلما بعدت البلاد عن مواطن العلم والسنة كان ظهور البدع والمحدثات فيها أكثر، وأسلمُ البلاد من البدع والمحدثات هي مدينة الرسول ﷺ، ثم مكة، ثم الحجاز وما حوله، ثم الشام ومصر واليمن[٢].

وباستقراء أحوال الفرق والبدع، نجد أن **الصوفية والمعتزلة** خرجتا من البصرة[٣].

قال شيخ الإسلام: «ولهذا تجد كتب (الكلام والتصوف) إنما خرجت في الأصل من البصرة؛ فمتكلمة المعتزلة أئمتهم بصريون.. وكذلك متكلمة الكلابية والأشعرية.. وكذلك كتب التصوف، ومن خلط التصوف بالحديث والكلام.. وقد شرك هؤلاء من البغداديين والخراسانيين والشاميين خلقٌ، لكن الغرض أن الأصول من ثَمَّ»اهـ[٤].

الرأي، والكلام، والتشيع، وكثرة الكذب في رواية الأحاديث خرج من الكوفة[٥].

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

(٢) انظر: مقدمات في الأهواء، للعقل (ص١٣٩).

(٣) الفتاوى (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧، ١٠/ ٣٥٦، ٢٠/ ٣٠١).

(٤) الفتاوى (١٠/ ٣٥٩ ـ ٣٦١).

(٥) الفتاوى (١٠/ ٣٥٦).

الجهمية: خرجت من خراسان[١].

الرافضة والخوارج: خرجتا من العراق (الكوفة والبصرة)[٢].

قال الشيخ: «ولهذا كان يُفَرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر في البصرة، والتنجيم[٣] بخراسان، والتشيع بالكوفة..»اهـ[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وخرج من هذه الأمصار بدع أصولية غير المدينة النبوية:

فالكوفة: خرج منها التشيع والإرجاء، وانتشر بعد ذلك في غيرها.

والبصرة: خرج منها القدر والاعتزال والنسك الفاسد، وانتشر بعد ذلك في غيرها.

والشام: كان بها النصب والقدر.

وأما **التجهم**: فإنما ظهر من ناحية خراسان، وهو شر البدع.

وكان ظهور البدع بحسب البعد عن الدار النبوية»اهـ[٥].

القدرية: خرجت من البصرة، والشام[٦].

المرجئة: خرجت من الكوفة[٧].

النواصب: خرجوا من الشام[٨].

---

(١) الفتاوى (١٦/ ٤٧٢، ٢٠/ ٢٩٨، ٣٠١).

(٢) الفتاوى (٣/ ٤٠٥، ٧/ ٤٧٨).

(٣) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: التجهم، نسبة إلى الجهمية؛ لأنها خرجت أصلاً من خراسان.

(٤) الفتاوى (٢٨/ ٢٠٥).

(٥) الفتاوى (٢٠/ ٢٩٨).

(٦) الفتاوى (٨/ ٢٢٥، ١٤/ ٣٤٩، ٢٨/ ٢٠٩، ٢١١).

(٧) الفتاوى (٧/ ٣١٠، ١٣/ ٣٧، ١٦/ ٢٤٢، ٢٠/ ٣٠١).

(٨) الفتاوى (٢٠/ ٣٠١، ٣/ ٤٠٥).

المشبهة: خرجت من خراسان[1].

٣ ـ بيَّن شيخ الإسلام أن أول مسألة افترقت فيها الفرق الأولى في الأمة هي مسألة حكم مرتكب الكبيرة ـ أو الفاسق الملِّي ـ هل هو مؤمن أم كافر؟ وإن قيل: إنه مؤمن هل هو مؤمن كامل الإيمان أم ناقص الإيمان؟:

فالخوارج: كفَّروا مرتكب الكبيرة في الدنيا، وقالوا بتخليده في النار في الآخرة.

المعتزلة: جعلوه في الدنيا في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر، لكنهم حكموا عليه بالخلود في النار في الآخرة.

والجهمية: برَّؤوه من الذنب أصلاً؛ لأن الله قدّر عليه المعصية وأجبره عليها.

والقدرية: قالوا: إن المعصية لم تُقدّر عليه أصلاً، ونفوا أن يكون الله تعالى أراد حدوثها أو رضيها. إلى غير ذلك من مقالات الفرق الضالة.

قال شيخ الإسلام: «**فأول مسألة فرقت بين الأمة مسألة الفاسق الملي**؛ فأدرجته **الخوارج** في نصوص الوعيد والخلود في النار، وحكموا بكفره.

ووافقتهم **المعتزلة** على دخوله في نصوص الوعيد وخلوده في النار، لكن لم يحكموا بكفره.

فلو كان الشيء خيراً محضاً لم يوجب فرقة، ولو كان شراً محضاً لم يَخْفَ أمرُه، لكن لاجتماع الأمرين فيه أوجب الفتنة...

ثم قالت **القدرية**: والله لم يحب هذه الأفعال ولم يرضها، فلم

---

(١) الفتاوى (١٦/ ٤٧٣).

يردها، فأثبتوا وجود الكائنات بدون مشيئة»اهـ[(١)].

٤ ـ البدع الاعتقادية والقولية أسبق من البدع العملية.

البدع الاعتقادية والقولية ـ كبدع الخوارج والشيعة والقدرية والجهمية والمعتزلة ـ كانت من حيث تاريخ الحدوث والانتشار أسبق في الظهور من البدع العملية، كبدع الزهاد والعباد، وجَهَلَة العامة، ولكن لما كثرت البدع العملية، وانتشرت الصوفية، وظهرت دويلات الرافضة والباطنية، انتشرت بدع المشاهد والقبور والموالد، وغيرها.

قال شيخ الإسلام: «وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد، كلها منصوصة في الكتاب والسنة، وإنما اختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة، فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف.

وهكذا طريق العبادة: عامةُ ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع، فيقعون في البدع، فيقع فيهم الخلاف، وهكذا الفقه إنما فيه الاختلاف لما خفي عليهم بيان صاحب الشرع، ولكن هذا إنما يقع النزاع في الدقيق منه، وأما الجليل فلا يتنازعون فيه، والصحابة أنفسهم تنازعوا في بعض ذلك، ولم يتنازعوا في العقائد، ولا في الطريق إلى الله التي يصير بها الرجل من أولياء الله الأبرار المقربين.

ولهذا كان عامة المشايخ إذ احتاجوا في مسائل الشرع؛ مثل مسائل النكاح والفرائض والطهارة وسجود السهو، ونحو ذلك، قلّدوا الفقهاء، لصعوبة أخذ ذلك عليهم من النصوص، وأما مسائل التوكل والإخلاص والزهد ونحو ذلك، فهم يجتهدون فيها، فمن كان منهم متبعاً للرسول أصاب، ومن خالفه أخطأ.

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٣١).

ولا ريب أن البدع كثرت في باب العبادة والإرادة أعظم مما كثرت في باب الاعتقاد والقول؛ لأن الإرادة يشترك الناس فيها أكثر مما يشتركون في القول؛ فإن القول لا يكون إلا بعقل، والنطق من خصائص الإنسان.

وأما جنس الإرادة، فهو مما يتصف به كلُّ الحيوان، فما من حيوان إلا وله إرادة، وهؤلاء اشتركوا في إرادة التأله، لكن افترقوا في المعبود وفي عبادته، ولهذا وصف الله في القرآن رهبانية النصارى بأنهم ابتدعوها، وذم المشركين في القرآن على ما ابتدعوه من العبادات والتحريمات، وذلك أكثر مما ابتدعوه من الاعتقادات؛ فإن الاعتقادات كانوا فيها جهالاً في الغالب، فكانت بدعهم فيها أقلّ.

ولهذا: كلما قرب الناس من الرسول كانت بدعهم أخف، فكانت في الأقوال، ولم يكن في التابعين وتابعيهم من تعبَّدَ بالرقص والسماع، كما كان فيهم خوارج ومعتزلة وشيعة، وكان فيهم من يكذب بالقدر، ولم يكن فيهم من يحتج بالقدر.

فالبدع الكثيرة التي حصلت في المتأخرين من العُبَّاد والزهاد والفقراء والصوفية لم يكن عامتها في زمن التابعين وتابعيهم، بخلاف أقوال أهل البدع القولية، فإنها ظهرت في عصر الصحابة والتابعين، فعُلم أن الشبهة فيها أقوى، وأهلها أعقل، وأما بدع هؤلاء فأهلها أجهل، وهم أبعد عن متابعة الرسول [ﷺ].

ولهذا: يوجد في هؤلاء من يدَّعي الإلٰهية والحلول والاتحاد، ومن يدعي أنه أفضل من الرسول [ﷺ]، وأنه مستغن عن الرسول [ﷺ]، وأن لهم إلى الله غير طريق الرسول [ﷺ]! وهذا ليس من جنس بدع المسلمين، بل من جنس بدع الملاحدة من المتفلسفة ونحوهم، وأولئك قد عرف الناس أنهم ليسوا مسلمين، وهؤلاء يدعون أنهم أولياء الله مع

هذه الأقوال التي لا يقولها إلا من هو أكفر من اليهود والنصارى، وكثير منهم أو أكثرهم لا يعرف أن ذلك مخالفة للرسول، بل عند طائفة منهم أن أهل الصُّفَّة قاتلوا الرسول[١] [ﷺ]، وأقرهم على ذلك!.

وعند آخرين أن الرسول [ﷺ] أُمر أن يذهب ليسلم عليهم ويطلب الدعاء منهم، وأنهم لم يأذنوا له، وقالوا: اذهب إلى من أُرسلتَ إليهم، وأنه رجع إلى ربه فأمره أن يتواضع ويقول: خويدمكم جاء ليسلم عليكم! فجبروا قلبه وأذنوا له بالدخول[٢].

فمع اعتقادهم هذا الكفر العظيم الذي لا يعتقده يهودي ولا نصراني يقر بأنه رسول الله ﷺ إلى الأميين، يقولون: إن الرسول [ﷺ] أقرهم على ذلك واعترف به واعترف أنهم خواصُّ الله، وأن الله يخاطبهم بدون الرسول، لم يحوجهم إليه كبعض خواص الملك مع وزرائه، ويحتجون بقصة الخضر مع موسى[٣] وهي حجة عليهم لا لهم من وجوه كثيرة قد بسطت في موضع آخر.

والضلال والجهل في جنس العباد والمبتدعة أكثر منه في جنس أهل الأقوال...»اهـ[٤].

٥ ـ خصائص كل فرقة وسماتها:

نعني بخصائص الفرقة ما تميزت واشتهرت به عن الفرق الأخرى،

---

(١) سيأتي في مبحث الحلول والاتحاد تفصيل هذا القول والرد عليه انظر: (ص٧٣٠).

(٢) سيأتي ـ أيضاً ـ في مبحث الحلول والاتحاد تفصيل هذا القول والرد عليه انظر: (ص٣٦١).

(٣) سيأتي ـ أيضاً ـ في مبحث الحلول والاتحاد تفصيل هذا القول والرد عليه انظر: (ص٣٥٩).

(٤) الفتاوى (١٩/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦).

وإن كانت بعض الفرق قد تشاركها من وجه دون وجه، وكل فرقة من الفرق الضالة خالفت أهل السنة والجماعة في أصل أو أكثر من أصول الدين، ولم يسلم من الزيغ إلا من اتبع نهج النبي ﷺ وأصحابه ولم يحد عنه.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ما اشتهرت به كل فرقة من الفرق المبتدعة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض رده على ابن المطهر(١) الرافضي: «.. وذلك أن قوله: باينوا جميع المذاهب، وجميع المذاهب قد اشتركت في أصول العقائد، وإن أراد بذلك أنهم باينوا جميع المذاهب فيما اختصوا به، فهذا شأن جميع المذاهب، فإن **الخوارج** أيضاً باينوا جميع المذاهب فيما اختصوا به من التكفير بالذنوب، ومن تكفير علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن إسقاط طاعة الرسول فيما لم يخبر به عن الله، وتجويز الظلم عليه في قسمه، والجور في حكمه وإسقاط اتباع السنة المتواترة التي تخالف ما يظن أنه ظاهر القرآن، كقطع السارق من المنكب، وأمثال ذلك...

وكذلك المعتزلة: باينوا جميع الطوائف فيما اختصوا به من المنزلة بين المنزلتين، وقولهم: إن أهل الكبائر يخلدون في النار، وليسوا بمؤمنين ولا كفار، فإن هذا قولهم الذي سموا به معتزلةً، فمن وافقهم فيه بعد ذلك من الزيدية فعنهم أخذوا.

---

(١) هو جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي ابن المطهر الحلي، المشهور عند الشيعة بالعلامة، ولد سنة ٦٤٨هـ، وتوفي سنة ٧٢٦هـ، أي قبل وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية بعامين، قيل: إنه ألّف أكثر من مائة مجلد في نصرة مذهب الشيعة، من أشهرها كتابه (منهاج الكرامة) الذي رد عليه شيخ الإسلام بكتاب (منهاج السنة النبوية).
انظر: مرآة الجنان لليافعي (٤/٢٧٦)، النجوم الزاهرة (٩/٢٦٧)، لسان الميزان (٢/٣١٧ ـ ٣١٨)، مقدمة كتاب منهاج السنة لمحققه: محمد رشاد سالم (١/٨٩).

بل الطوائف المنتسبون إلى السنة والجماعة تباين كل طائفة منهم سائر أهل السنة والجماعة فيما اختصت به.

فالكلَّابية: باينوا سائر الناس في قولهم: إن الكلام معنى واحد، أو معانٍ متعددة، أربعة أو خمسة تقوم بذات المتكلم، هو: الأمر، والنهي والخبر، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراةً، فإن هذا لم يقله أحد من الطوائف غيرهم.

وكذلك **الكرَّامية**: باينوا سائر الطوائف في قولهم: إن الإيمان هو القول باللسان، فمن أقر بلسانه كان مؤمناً وإن جحد بقلبه، قالوا: وهو مؤمن مخلد في النار، فإن هذا لم يقله غيرهم.

بل طوائف أهل السنة والعلم لكل طائفة قول لا يوافقهم عليه بقية الطوائف»اهـ[1].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ في معرض رده على ابن المطهر الرافضي: «وأهل الحديث متدينون بما صح عندهم عن النبي ﷺ، ومع هذا فلم يحملهم بغضهم للخوارج على الكذب عليهم، بل جربوهم فوجدوهم صادقين، وأنتم يشهد عليكم أهل الحديث والفقهاء والمسلمون والتجار والعامة والجند، وكل من عاشركم وجربكم قديماً وحديثاً **أن طائفتكم أكذب الطوائف**،. . وهذا الذي ذكرناه معروف عند أهل العلم قديماً وحديثاً، كما قد ذكرنا بعض أقوالهم، حتى قال الإمام عبد الله بن المبارك: الدين لأهل الحديث، والكذب للرافضة، والكلام للمعتزلة، والحيل لأهل الرأي أصحاب فلان، وسوء التدبير لآل أبي فلان، وهو كما قال؛ فإن الدين هو ما بعث الله به محمداً ﷺ، وأعلم الناس به أعلمهم بحديثه وسنته. **وأما الكلام فأشهر الطوائف به هم المعتزلة:**

---

(١) المنهاج (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢).

ولهذا كانوا أشهر الطوائف بالبدع عند الخاصة»اهـ[1].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن شرف علم الحديث: «وهذا علم عظيم من أعظم علوم الإسلام. ولا ريب أن **الرافضة** أقل معرفة بهذا الباب، وليس في أهل الأهواء والبدع أجهل منهم به؛ فإن سائر أهل الأهواء **كالمعتزلة والخوارج** مقصرون في معرفة هذا، ولكن **المعتزلة** أعلم بكثير من **الخوارج**، **والخوارج** أعلم بكثير من **الرافضة**، **والخوارج** أصدق من **الرافضة** وأدين وأورع؛ بل **الخوارج** لا نعرف عنهم أنهم يتعمدون الكذب، بل هم من أصدق الناس.

والمعتزلة مثل سائر الطوائف؛ فيهم من يكذب وفيهم من يصدق، لكن ليس لهم من العناية بالحديث ومعرفته ما لأهل الحديث والسنة، فإن هؤلاء يتدينون به، فيحتاجون إلى أن يعرفوا ما هو الصدق، وأهل البدع سلكوا طريقاً آخر ابتدعوها، اعتمدوا عليها ولا يذكرون الحديث، بل ولا القرآن، في أصولهم للاعتضاد لا للاعتماد»اهـ[2].

٦ ـ الفَرْقُ بين أهل السنة وأهل البدعة:

من أبين الفوارق بين أهل السنة والجماعة، وبين أهل الفرقة والبدعة حقيقة الاسم والانتساب، فأهل السنة ينتمون للسنة والجماعة، وأهل الأهواء والبدع كل طائفة منهم تنتسب إما إلى شخص من أهل البدع ورؤوس الضلالة كالجهمية، أو إلى شخص خالف السلف في بعض الأصول كالكلابية والأشعرية والماتريدية، وإما إلى أصل من أصول الضلالة كالقدرية والجبرية والمرجئة، وإما إلى وصف يدلّ على حقيقتهم وشعارهم كالرافضة والصوفية والباطنية والمعتزلة والمشبهة، وهذه القاعدة على الغالب، وإلا فلها استثناءات.

---

(١) المنهاج (٧/ ٤١٣ ـ ٤١٤). (٢) المنهاج (٧/ ٣٦ ـ ٣٧).

قال شيخ الإسلام: «وأئمة السنة ليسوا مثل أئمة البدعة؛ فإن أئمة السنة تضاف السنة إليهم؛ لأنهم مظاهر بهم ظهرت، وأئمة البدعة تضاف إليهم لأنهم مصادر عنهم صدرت، ولهذا كان جمل الاعتقاد الذي يذكره أهل المقالات عن أهل السنة والجماعة هو قول أحمد وأمثاله من أئمة السنة»اهـ[١].

٧ ـ كلما ابتعدت طائفة عن السنة اقتربت من البدعة، واستطال عليها غيرها من أهل البدع:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن أهمية اتباع السنة: «ومن تدبر هذا الباب ونحوه، وجد أهل البدع والضلال لا يستطيلون على فريق من المنتسبين إلى السنة والهدى إلا بما دخلوا فيه من نوع بدعة أخرى وضلال آخر، لا سيما إذا وافقوهم على ذلك، فيحتجون عليهم بما وافقوهم عليه من ذلك، ويطلبون لوازمه حتى يخرجوهم من الدين إن استطاعوا، خروج الشعرة من العجين، كما فعلت القرامطة الباطنية والفلاسفة وأمثالهم بفريق من طوائف المسلمين.

والمعتزلة استطالوا على الأشعرية ونحوهم من المثبتين للصفات والقدر بما وافقوهم من نفي الأفعال القائمة بالله تعالى، فنقضوا بذلك أصلهم الذي استدلوا به عليهم في أن كلام الله غير مخلوق، وأن الكلام وغيره من الأمور إذا خلق بمحل عاد حكمه على ذلك المحل، واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر، واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلاً لله رب العالمين، دون العبد، ثم أثبتوا كسباً لا حقيقة له، فإنه لا يعقل من حديث تعلق القدرة بالمقدور فرقٌ بين الكسب والفعل، ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا»اهـ[٢].

---

(١) الدرء (٥/ ٥ ـ ٦).

(٢) الفتاوى (٨/ ١٢٧).

أسباب نشأة الفرق:

يحسن بنا قبل الشروع في بيان أسباب نشأة الفرق التي ذكرها شيخ الإسلام، أن نعرض ـ مع شيء من الإيجاز ـ لما ذكره الشيخ من ذم التفرق والاختلاف، وقد كرر شيخ الإسلام ذلك في مواضع في كتبه، وبيَّن أن الله تعالى نهى عن التفرق والاختلاف وذمهما:

ومن ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً، وأن لا نتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة؛ مثل قوله: (**عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة**)[1]، وقوله: (**فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد**)[2].

وقوله: (**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة قِيْدَ شبر، فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه**)[3].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، كتاب العلم، بابٌ، (١/ ٢٠٠، ح٣٩٢)، والنسائي في المجتبى من السنن، كتاب تحريم الدم، باب قتل من فارق الجماعة، (٧/ ٩٢، ح٤٠٢٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٢ ـ ٤٣، ح٨٨)، وصححه الألباني في تحقيقه للسنة لابن أبي عاصم.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب، كتاب الفتن عن رسول الله، باب ما جاء في لزوم الجماعة، (٤/ ٤٦٥، ح٢١٦٥)، ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، كتاب العلم، بابٌ، (١/ ١٩٧، ٣٨٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب طاعة الأئمة، (١/ ٤٣٦، ح٤٥٧٦)، من حديث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع الصغير (١/ ح١٨٤٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي: (سترون بعدي أموراً تنكرونها)، (٦/ ٢٥٨٨، ح٦٦٤٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، (٣/ ١٤٧٦، ح١٨٤٨)، من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

وقوله: **(ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟)**، قالوا: بلى! يا رسول الله. قال: **(صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)**[(١)].

وقوله: **(من جاءكم وأمركم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم، فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان)**[(٢)].

وقوله: **(يصلُّون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطؤوا فلكم وعليهم)**[(٣)].

وقال: **(ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية واثنتان وسبعون في النار)**، قيل: ومن الفرقة الناجية؟ قال: **(هي الجماعة، يد الله على الجماعة)**[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، (٤/ ٢٨٠، ح٤٩١٩)، والترمذي، وقال: حديث صحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بابٌ، (٤/ ٦٦٣، ح٢٥٠٩)، ومالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، (٢/ ٩٠٤، ح١٦٠٨)، من حديث: أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح. صحيح الجامع الصغير، (١/ ح٢٥٩٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، (٣/ ١٤٨٠، ح١٨٥٢) من حديث: عرفجة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا لم يتم الإمام وأتم من خلفه، (١/ ٢٤٦، ح٦٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، (٥/ ٢٥، ح٢٦٤٠)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، (٢/ ١٣٢٢، ح٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٢، ح٦٣)، من حديث: عوف بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في تعليقه على السنة لابن أبي عاصم، وفي السلسلة الصحيحة (٣/ ح١٤٩٢).

وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة ـ بل وفي غيرها ـ هو التفرق والاختلاف؛ فإنه وقع بين أمرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه، أو لحسناته الماحية، أو توبته، أو لغير ذلك.

لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام، ولهذا كان امتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة، ويذكرون في كثير من السنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذي يجب تقديم العمل به هو الإجماع، فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة»اهـ[(١)].

أما أسباب نشأة الفرق التي ذكرها شيخ الإسلام، فيمكن بالاستقراء بيانها فيما يلي:

١ ـ اتباع الهوى:

قال الشيخ: «واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعُبَّاد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدي الله الذي بعث به رسوله ﷺ، ولهذا قال الله تعالى في موضع: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: ١١٩].

---

(١) الفتاوى (٢٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠).

فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه: هل هو موافق لأمر الله ورسوله، وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله ﷺ بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله، فإنه قد قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]»اهـ[١].

٢ ـ قلة العلم بالدين ومقاصد الشريعة:

قال شيخ الإسلام: «واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله، بل يطيعهم في طاعة الله، ولا يطيعهم في معصية الله؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديماً وحديثاً، وهي واجبة على كل مكلف، وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم، ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقاً، وإن لم يكونوا أبراراً.

ونسأل الله أن يوفقنا وإخواننا المسلمين لما يحبه ويرضاه من القول والعمل. والله أعلم»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما **أُتوا من قلة العلم والإيمان** بصفات الله التي يتميز بها عن المخلوقات، وقلة اتباع السنة وطريقة السلف»اهـ[٣].

٣ ـ طلب الرئاسة والتصدر:

قال شيخ الإسلام في معرض رده على بعض المبتدعة: «فإني أعرف جملاً مما يتجرعه هو وذووه من أهل الترؤس بالباطل من ذوي الكذب

---

(١) الاستقامة (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥). (٢) الفتاوى (٢٨/ ٥٠٧).
(٣) الفتاوى (٤/ ٥٧).

والمحال، والله ناصر دينه، وناصر عباده المؤمنين على مناوئيهم بالباطل»اهـ[١].

٤ ـ التعصب للأشخاص والمشايخ، وإن كانوا على الباطل:

قال شيخ الإسلام: «وأما (رأس الحزب) فإنه رأس الطائفة التي تتحزب؛ أي تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله»اهـ[٢].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن تعصب فريق من الناس للرازي: «حتى إن طائفة ممن كانوا يعظمونه لما رأوا ذلك تعجبوا منه غاية التعجب، وجعل بعض المتعصبين له يدفع ذلك حتى أروه النسخة بخط بعض المشايخ المعروفين الخبيرين بحاله، وقد كتبها في ضمن كتابه الذي سماه (المطالب العالية)»اهـ[٣].

وقال الشيخ: «إن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً بحيث يكون له عقل ودين حتى يفهم ويدين، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء، ولكن كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين، ومحسناً للظن بهم دون غيرهم، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أُتي بكل آية ما تبعها، حتى يؤتى بشيء من كلامهم...

ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة، ثم لا يتمسك بما جاءت به من الحق، ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ

---

(١) الفتاوى (٣/ ٢٤٢).
(٢) الفتاوى (١١/ ٩١).
(٣) الفتاوى (٤/ ٦٢).

لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]؟! فإن اليهود قالوا: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا، قال الله تعالى لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم، يقول ﷻ: لا لِمَا جاءتكم به أنبيائكم تتبعون، ولا لِمَا جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون، ولكن إنما تتبعون أهواءكم!! فهذا حال من لم يقبل الحق لا من طائفته ولا من غيرها، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان»اهـ[1].

٥ - دخول الأعاجم وأصحاب المذاهب الضالة في الإسلام، ومخالطتهم للمسلمين مع بقاء بعض الشبهات، والرواسب الدينية الضالة عند بعضهم:

قال الشيخ مبيناً أثر جهال الأعاجم في قيام الفرق ونصرة أصحابها: «ثم عامة الذين يقولون هذه المقالات: يفضلون الأنبياء والرسل على أنفسهم إلا الغالية منهم كما تقدم، فهؤلاء من شر الناس قولاً واعتقاداً، وقد كان عندنا شيخ من أجهل الناس كان يعظمه طائفة من الأعاجم، ويقال: إنه خاتم الأولياء، يزعم أنه يفسر العلم بوجهين، وأن النبي ﷺ إنما فسره بوجه واحد، وأنه هو أكمل من النبي ﷺ»اهـ[2].

وقال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن أفعال العباد: «.. فأما أفعال العباد، فلم يستثنها أحد من عموم المخلوقات إلا القدرية الذين يقولون: إن الله لم يخلقها ـ من المعتزلة ونحوهم ـ لكن هؤلاء يقولون: إنها محدثة كائنة بعد أن لم تكن، إلا هؤلاء الحلولية، وما علمت أحداً من المتقدمين قال: إن أفعال العباد من الخير أو الشر قديمة؛ لا من أهل

---

(١) الفتاوى (٥/ ٩٩). وانظر: الفتاوى (٧/ ٤٠١، ٢٤/ ١٩٤).

(٢) الفتاوى (٢/ ٢٣١).

السنة ولا من أهل البدعة، إلا عن بعض متأخري المصريين. وبلغني نحو ذلك عن بعض متأخري الأعاجم..»اهـ[١].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن ظهور بعض البدع: «.. بخلاف ما يفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم؛ حيث يشتغل أحدهم بشيء من فضول العلم من الكلام أو الجدال»اهـ[٢].

وقال في معرض كلامه عن غلو فريق من الضلال في علي رضي الله عنه: «وجمهور أهل المعرفة يقولون: إن علياً إنما دفن في قصر الإمارة بالكوفة أو قريباً منه، وهكذا هو السنة؛ فإن حمل ميت من الكوفة إلى مكان بعيد ليس فيه فضيلة أمر غير مشروع، فلا يظن بآل علي رضي الله عنه أنهم فعلوا به ذلك، ولا يظن أيضاً أن ذلك خفي على أهل بيته وللمسلمين ثلاثمائة سنة حتى **أظهره قوم من الأعاجم الجهال ذوي الأهواء**»اهـ[٣].

٦ ـ تعريب كتب الأعاجم:

قال شيخ الإسلام: «ظهرت الملة الحنيفية ـ الإبراهيمية التوحيدية ـ تارة بنبوة عيسى ـ لما ظهرت النصارى على ملكة الصابئين بأرض الشام ومصر والروم وغيرها ـ ثم بنبوة خاتم المرسلين، وأظهر الله من نور النبوة شمساً طمست ضوء الكواكب، وعاش السلف فيها برهة طويلة، ثم خفي بعض نور النبوة، فعرّب بعض كتب الأعاجم الفلاسفة من الروم والفرس والهند في أثناء الدولة العباسية، ثم طلبت كتبهم في دولة المأمون من بلاد الروم، فعربت ودرسها الناس، وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر، وكان أكثر ما ظهر من علومهم الرياضية كالحساب والهيئة أو الطبيعة كالطب أو النطقية، فأما الإلهية: فكلامهم فيها نزر، وهو مع

---

(١) الفتاوى (٨/ ٤١١).
(٢) الفتاوى (٢٣/ ٥٢).
(٣) الفتاوى (٢٧/ ٤٤٧)، وانظر: الفتاوى (٢٦/ ٣١١).

نزارته ليس غالبه عندهم يقيناً، وعند المسلمين من العلوم الإلهية الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نوراً وهدى»اهـ[١].

أصول الفرق ـ عند شيخ الإسلام ـ:

إن المتأمل في الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة، يجد أنها لا تزال في ازدياد، وكلما تقدم الزمان زاد ضلال هذه الفرق وتنوع، ولكن آراء جميع الفرق عند التأمل نجد أنها ترجع إلى فرق أصلية، وقد بيّن شيخ الإسلام أصول الفرق، وبيَّن الكافرة منها الخارجة عن الملة، والمبتدعة التي يُعَدّ أهلها من أهل الإسلام. ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

١ ـ المنحرفون عن طريق السلف ـ عموماً ـ ثلاث طوائف:

أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل.

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن طريق السلف الصالح:

«وأما المنحرفون عن طريقهم: فهم ثلاث طوائف:

- أهل التخييل.
- وأهل التأويل.
- وأهل التجهيل.

• **فأهل التخييل**: هم المتفلسفة، ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقِّه؛ فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور، لا أنه بيَّن به الحق، ولا هدى به الخلق، ولا أوضح به الحقائق...

• **وأما أهل التأويل**: فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل، ولكن قصد بها معاني، ولم

---

(١) الفتاوى (٢/ ٨٣).

يبين لهم تلك المعاني، ولا دلهم عليها، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها، ومقصوده امتحانهم وتكليفهم...

وأما الصنف الثالث ـ وهم:

• **أهل التجهيل**: فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف، يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله من آيات الصفات، ولا جبريل يعرف معاني الآيات، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك، وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلا الله، مع أن الرسول تكلم بها ابتداءً، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه»اهـ[1].

٢ ـ أما المنحرفون عن طريق السلف من المنتسبين إلى الإسلام، فأصولهم أربع فرق: الروافض والخوارج والقدرية والمرجئة:

قال شيخ الإسلام: «ومما ينبغي أيضاً أن يعرف:

أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات:

• منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة.

• ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة...

وأما تعيين الفرق الهالكة: فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف بن أسباط[2]، ثم عبد الله بن المبارك[3]، وهما ـ إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين ـ قالا:

---

(١) الفتاوى (٥/ ٣١).

(٢) هو يوسف بن أسباط، الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، روى عن سفيان الثوري وغيره، لم أجد له تاريخ وفاة.
انظر: سير الأعلام (٩/ ١٦٩)، الحلية (٨/ ٢٣٧)، التاريخ الكبير (٨/ ٣٨٥).
وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥١٤).

(٣) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي التركي، =

أصول البدعة أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، فقيل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب: بأن أولئك ليسوا من أمة محمد، وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وهذا الذي قاله تبعه عليه طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم، قالوا: إن الجهمية كفار، فلا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهم الزنادقة.

وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، وجعلوا أصول البدع خمسة، فعلى قول هؤلاء: يكون كل طائفة من المبتدعة الخمسة اثني عشر فرقة، وعلى قول الأولين: يكون كل طائفة من المبتدعة الأربعة ثمانية عشر فرقة، وهذا ينبى على أصل آخر، وهو تكفير أهل البدع»اهـ[1].

٣ ـ ليس كل الفرق الهالكة خارجة عن الملة، ولا كافرة.

قال شيخ الإسلام: «فصل: إذا ظهرت هذه المقدمات في اسم المؤمن، والكافر، والفاسق الملي، وفي حكم الوعد والوعيد، والفرق بين المطلق والمعين، وما وقع في ذلك من الاضطراب، فمسألة تكفير أهل البدع والأهواء، متفرعة على هذا الأصل.

ونحن نبدأ بمذهب أئمة السنة فيها قبل التنبيه على الحجة، فنقول: المشهور من مذهب الإمام أحمد وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية، وهم

= مولاهم، الإمام الحافظ، جمع الله له بين العلم والجهاد والتجارة، له تصانيف؛ منها: كتاب الزهد، والجهاد، توفي سنة ١٩٨هـ.
انظر: الحلية (٨/ ١٦٢)، سير الأعلام (٨/ ٣٣٦)، شذرات الذهب (١/ ٢٩٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢).

(١) الفتاوى (٣/ ٣٤٨ ـ ٣٥١)، وانظر: الفتاوى (١٧/ ٤٤٤).

المعطلة لصفات الرحمن؛ فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب. **وحقيقة قولهم**: جحود الصانع، ففيه جحود الرب، وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله، ولهذا قال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وقال غير واحد من الأئمة: إنهم أكفر من اليهود والنصارى ـ يعنون من هذه الجهة ـ ولهذا كفّروا من يقول: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يُرى في الآخرة، وإن الله ليس على العرش، وإن الله ليس له علم ولا قدرة، ولا رحمة ولا غضب، ونحو ذلك من صفاته.

وأما المرجئة: فلا تختلف نصوصه أنه لا يكفّرهم؛ فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع، وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه إلى نزاع في الألفاظ والأسماء، ولهذا يسمى الكلام في مسائلهم «باب الأسماء»، وهذا من نزاع الفقهاء، لكن يتعلق بأصل الدين، فكان المنازع فيه مبتدعاً.

وكذلك الشيعة: المفضلون لعلي على أبي بكر، لا يختلف قوله أنهم لا يكفرون، فإن ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً، وإن كانوا يبدَّعون.

وأما القدرية: **المقرون بالعلم، والروافض الذين ليسوا من الغالية، والجهمية والخوارج**: فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان، هذا حقيقة قوله المطلق، مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرِّين بالعلم، والخوارج، مع قوله: ما أعلم قوماً شراً من الخوارج.

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين، حتى يجعلوا المرجئة داخلين في ذلك، وليس الأمر كذلك، وعنه في تكفير من لا يكفر روايتان، أصحهما: لا يكفر.

وربما جعل بعضهم الخلاف في تكفير من لا يكفِر مطلقاً، وهو

خطأ محض، والجهمية ـ عند كثير من السلف مثل: عبد الله بن المبارك، ويوسف ابن أسباط، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد، وغيرهم ـ ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الأمة، بل أصول هذه عند هؤلاء: هم الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية»اهـ(١).

٤ ـ تعيين عدد الفرق وأسمائها:

قال شيخ الإسلام: «**وأما الفرق الباقية:** فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هذه الفرق: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة.

وأما تعيين هذه الفرق: فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين، لا بد له من دليل، فإن الله حرم القول بلا علم عموماً، وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأيضاً: فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة،

---

(١) الفتاوى (١٢/ ٤٨٤ ـ ٤٨٦).

ويجعل مَنْ خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر»اهـ[1].

وبما سبق من كلام شيخ الإسلام يتبين أن الافتراق والاختلاف أمر مذموم في الشرع، وأن الصحابة ﷺ كانوا أبعدَ الناس عن الفرقة والابتداع.

وبيّن شيخ الإسلام أن لظهور الفرق أسباباً من اجتنبها نجا من غائلتها وتَبِعَتِها، ومن واقَعَ هذه الأسباب وقع في البدعة على الأغلب.

ومن أهم هذه الفرق التي ظهرت وانتشرت في أوساط كثيرة، وتأثر بها فئام من المسلمين: (الصوفية)، وقد بيّن شيخ الإسلام أسباب ظهور المتصوفة، وتاريخ ذلك، وحقيقة مذهبهم، وهو ما سيأتي بيانه تفصيلاً فيما يأتي من صفحات.



(١) الفتاوى (٣/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦)، وانظر: الفتاوى (٢/ ١٣٨، ٥٢٣، ٣/ ٣٤٥، ٦/ ٣٠، ١٢/ ٥٠٠، ١٧/ ٣٣٤).



الباب الأول

مصادر شيخ الإسلام
ومنهجه في عرض آراء الفرق الإسلامية
ومناقشتها

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مصادره في عرض آراء الفرق

الفصل الثاني: منهجه في عرض آراء الفرق ومناقشتها

الفصل الثالث: تقويمه لكتب المقالات، مع الموازنة بينها وبين منهج شيخ الإسلام



الفصل الأول

مصادره في عرض آراء الفرق

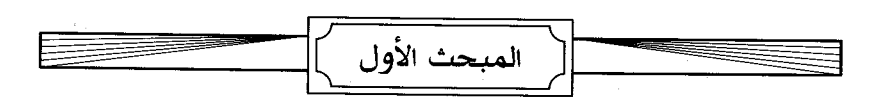
وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: كتب الفرقة نفسها

المبحث الثاني: كتب المقالات

المبحث الثالث: مصادر أخرى (مثل: كتب التاريخ، التفسير، شروح الحديث، مصادر مباشرة..)





كتب الفرقة نفسها

تميز شيخ الإسلام بالدِّقة والأمانة عند حكاية الآراء والمذاهب، وسعة المعرفة بها، فلا تجده يحكي مذهباً، أو ينسب قولاً إلى أحد، إلا وقد أحاط علماً بدقائقه ولوازمه.

ويدل على ذلك قوله في معرض حكايته لمذهب الاتحادية:

«.. وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أُتوا من قِلة العلم والإيمان.. **وقد رأيت منهم ومن كتبهم، وسمعت منهم، ومِمن يُخبر عنهم من ذلك ما شاء الله**»اهـ[1].

وقال في موضع آخر في معرض حكايته لمذهب ابن عربي[2]:

«..ولهذا يقول:

---

(١) الفتاوى (٤/٥٨، ٦٠).

(٢) هو محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بابن عربي، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر، فيلسوف صوفي من أئمة المتكلمين، ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ، ثم رحلت أسرته إلى إشبيلية، وفيها أخذ عن ابن بشكوال، وأبي بكر محمد بن خلف الإشبيلي، وأبي الحسن الرعيني، وابن زرقون، وغيرهم من أقطاب التصوف، ثم تنقل ابن عربي بين البلدان في الغرب والشرق حتى استقرَّ في دمشق، وفيها توفي سنة ٦٣٨هـ.
انظر: الطبقات الكبرى (١/١٦٣)، لسان الميزان (٥/٣١١ ـ ٣١٥)، شذرات الذهب (٥/١٩٠ ـ ٢٠٢)، سير الأعلام (٢٣/٤٨)، الأعلام (٧/١٧٠ ـ ١٧١).
وسيأتي في مبحث «موقف شيخ الإسلام من رجالات الصوفية» تفصيل ترجمته، وبيان رأي شيخ الإسلام فيه (٢/٤٥٨).

إن قـلـت عـبـد فـذاك مـيـت

وفي موضع آخر ـ رأيته بخطه ـ:

إن قـلـت عـبـد فـذاك نـفـي»اهـ[١]

ومن المعلوم أن العصر الذي عاش فيه الشيخ لم يكن الحصول فيه على الكتب أو امتلاكها أمراً سهلاً، ومع ذلك نجد أن الشيخ يرجع في حكايته للأقوال إلى كتب كثيرة ومتنوّعة، منها ما هو لأصحاب المذهب أنفسهم، ومنها ما هو لخصومهم الذين ردّوا عليهم.

وقد وجدت ـ باستقراء ما وقفت عليه من مصنفات شيخ الإسلام ـ أن كتب الصوفية[٢] التي رجع إليها في حكاية مذهبهم بلغت ثلاثة وأربعين كتاباً[٣]، وهي:

- **الكتاب الأول:** طبقات الصوفية[٤].

المؤلف: أبو عبد الرحمن السلمي[٥].

---

(١) الفتاوى (٢/ ١١٤ ـ ١١٥).

(٢) اقتصرت في هذا المبحث على الكتب التي يعد مصنفوها من الصوفية أو من تأثر بهم، وألفوها في علم الصوفية وآدابهم وأخبارهم أو نحو ذلك، أما الكتب التي ألفها رجال الصوفية، ولكن ليست خاصة بمذهب التصوف (ككتاب الصفات لأبي إسماعيل الهروي) فقد وضعتها في المبحث القادم الخاص بالمصادر العامة التي نقل عنها شيخ الإسلام.

(٣) أوردت في حاشية كل كتاب تعريفاً مختصراً به، وهل هو مخطوط أم مطبوع، وما لم أعرف به من الكتب، بحثت عنه فيما وقفت عليه من الكتب المصنفة في أسماء الكتب ولم أعثر عليه.

(٤) كتاب «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي، يحتوي على تراجم لرجال الصوفية، وفيه مائة وثلاث تراجم، وقد طُبع عدة طبعات، من آخرها الطبعة التي تقع في مجلد (٥٧٠ صفحة)، وقد حققها نور الدين شريبة، ونشرتها مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٥) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي، أبو عبد الرحمن السلمي =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ كلامه في ذم الحلاج[(١)]، ونقله ذلك عن المشايخ الذين ترجم لهم[(٢)].

• **الكتاب الثاني:** حقائق التفسير[(٣)].

المؤلف: أبو عبد الرحمن السلمي.

= الأُمِّ، الحافظ المحدث، شيخ خراسان وكبير الصوفية، وصاحب تصانيفهم، منها التفسير وطبقات الصوفية وغيرهما، توفي سنة ٤١٢هـ.
انظر: سير الأعلام (١٧/ ١٥٢)، شذرات الذهب (٣/ ٢١١)، العبر في خبر من غبر (٣/ ١٢٩). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٣٩).

(١) هو الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث، كان جده مجوسياً من أهل بيضاء فارس، وقد نشأ بواسط، وقيل: بتستر، وقدم بغداد وخالط الصوفية، ظهر أمره سنة ٢٩٩هـ، وكان يُظهر مذهب الشيعة لخلفاء العباسيين، ومذهب الصوفية للعامة، وكان يرى مذهب الحلولية، له شطحات وتلبيسات على الناس كان يوهمهم بها أنه ربّهم، قُتل وصلب سنة ٣٠٩هـ.
انظر: شذرات الذهب (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٧)، لسان الميزان (٢/ ٣١٤)، الفرق بين الفرق (ص١٥٧ ـ ١٥٩)، الأعلام (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤١١).

(٢) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٨٣، ١١/ ١٨، ٣٥/ ١٠٩)، الفتاوى المصرية (ص٥٧١).

(٣) كتاب «حقائق التفسير» ألفه أبو عبد الرحمن السلمي تفسيراً للقرآن على طريقة الصوفية، وسيأتي في مبحث «موقف شيخ الإسلام من مصنفات الصوفية وتقويمه لها» إيرادُ تقويم شيخ الإسلام لهذا التفسير، ونقلتُ هناك نماذج من هذا التفسير، مع تعليقات للإمام ابن الجوزي عليها (٢/ ٣٥٤).
وقد ذكر محقق كتاب «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي: أن كتاب حقائق التفسير لا يزال مخطوطاً، وله عدة نسخ، محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، وفي خزانة الكتب الأزهرية، وفي خزانة الفاتح باستانبول.
انظر: طبقات الصوفية للسلمي (المقدمة ص: ٣٥ ـ ٣٦).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ تأييده لاستدلال القائلين بالفناء[١].

• **الكتاب الثالث:** محنة الصوفية[٢].

المؤلف: أبو عبد الرحمن السلمي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ إنكار المسلمين على الحكيم الترمذي تأليفه لكتاب: ختم الولاية[٣].

• **الكتاب الرابع:** الرسالة القشيرية[٤].

المؤلف: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري[٥].

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥٦١).

(٢) كتاب «محنة الصوفية» لم يذكره صاحب كشف الظنون، ولكن نقل عنه الذهبي في مواضع من سير الأعلام وسماه «محن الصوفية».
انظر: سير الأعلام (١١/ ٥٣٤، ١٢/ ٩٣، ١٤/ ٤٨٩، ٥٢٥).

(٣) انظر: الصفدية (١/ ٢٤٨).

(٤) كتاب «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري، ألفها في طريقة الصوفية وأخلاقهم، وجعلها على أبواب، وترجم في آخرها لجمع من أعلام الصوفية، وقد طبعت عدة طبعات، منها التي طبعت في جزءين (٥٠٠ صفحة تقريباً لاختلاف الطبعات)، بتحقيق د. عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، ط. مطبعة حسان بالقاهرة ١٣٨٥هـ، وغيرها.

(٥) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري الشافعي، الصوفي المفسر، ولد سنة ٣٧٥هـ، سمع الحديث وتفقه، وهو من رؤوس المتصوفة، وله فيهم تصانيف؛ منها: الرسالة في التصوف تكلم فيها عن رجال التصوف وأخلاقهم وترجم لكثير منهم، ولطائف الإشارات، توفي سنة ٤٦٥هـ.

انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٨٣)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٠٥، ط. دار الثقافة، بيروت)، تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٢٧١ ـ ٢٧٦، ط. دار القدس، =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ منزلة الرضا عند الصوفية، نقل عنه وعلق على كلامه[١].

٢ ـ موقف القشيري من الحلاج[٢].

٣ ـ وقد رد شيخ الإسلام ردًّا مفصَّلاً على الرسالة القشيرية بكتابه «الاستقامة»، وفنّد ما ذكره القشيري عن الصوفية.

● **الكتاب الخامس:** منازل السائرين[٣].

المؤلف: أبو إسماعيل الهروي[٤].

= بيروت، ١٣٩٩هـ)، سير الأعلام (١٨/ ٢٢٧ ـ ٢٣٣). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٣٨).

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٣٦٧، ٦٧٨، ٦٩١، ٧٠٩).

(٢) انظر: الفتاوى (٣٥/ ١١١، ٢/ ٤٨٣).

(٣) كتاب «منازل السائرين» لأبي إسماعيل الهروي، جعله على قسمين: البدايات ثم النهايات، وصنفه في علم الحقائق والأخلاق والأحوال والأدوية وغيرها، وقد طبع عدة طبعات منها طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ (وتقع في ١٤٣ صفحة).
وقد شرحه الإمام ابن القيم في كتاب «مدارج السالكين»، وحاول جاهداً توجيه عبارات أبي إسماعيل توجيهات موافقة لمذهب أهل السنة، واعتذر عن عبارات لا يمكن تفسيرها إلا على مذهب أهل الحلول والاتحاد (انظر ما نقلته عن ابن القيم في تعليقه على أبيات الهروي: ما وحّد الواحد من واحد.. الأبيات، (ص٣٨٦ حاشية ٣).

(٤) هو عبد الله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري، أبو إسماعيل، كان يُدعى شيخ الإسلام، وكان إمام أهل السنة في هراة، ويُسمى خطيب العجم لتبحّر علمه وفصاحته ونبله، له تصانيف؛ منها: ذم الكلام، وعلل المقامات، توفي سنة ٤٨١هـ.
انظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٥٠ ـ ٦٨)، الأعلام (٤/ ٢٦٧). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥٠٦).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ قوله بما يشبه الحلول[١].

٢ ـ بعض كلامه يفضي إلى الاتحاد[٢].

٣ ـ كلامه عن الفناء والسكر[٣] الذي يقع للصوفية[٤].

٤ ـ تصريحه أن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة[٥].

٥ ـ إثباته أن غاية التوحيد هو الفناء في الربوبية[٦].

٦ ـ تقسيمه التوحيد ثلاثة أقسام: للعامة، وللخاصة، ولخاصة الخاصة[٧].

• **الكتاب السادس:** التعرف لمذهب التصوف[٨].

المؤلف: أبو بكر الكلاباذي[٩].

---

(١) انظر: الفتاوى (٥/ ١٢٦، ٢٢٩، ٨/ ٣١٣).

(٢) انظر: الفتاوى (١٤/ ١١).

(٣) معنى السُّكْر في اللغة: نقيض الصحو، وهو غيبة العقل بشرب الخمر.
ومعنى السكر عند الصوفية هو: استيلاء سلطان الحال وغليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب، وهو عند المتصوفة من مقامات الوجد، فمقامات الوجد عندهم أربعة، هي: الذهول، ثم الحيرة، ثم السكر، ثم الصحو.
انظر: لسان العرب (٤/ ٣٧٢، مادة: سكر)، عوارف المعارف للسهروردي (٥/ ٢٥٣)، معجم اصطلاحات الصوفية (ص٣٥٥).

(٤) انظر: الفتاوى (٨/ ٣١٣).

(٥) انظر: الفتاوى (١٣/ ٢١٣، ١٤/ ٣٥٨).

(٦) انظر: الفتاوى (٨/ ٣٤٦). (٧) انظر: المنهاج (٥/ ٣٤١).

(٨) كتاب «التعرف لمذهب التصوف» لأبي بكر الكلاباذي يقع في (١٢٠ صفحة تقريباً) وهو مطبوع عدة طبعات، منها طبعة بتحقيق: محمود أمين النواوي، ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

(٩) هو محمد بن إسحاق (ويُقال: بن إبراهيم) الكلاباذي البخاري، أبو بكر، =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهب الصوفية في قيام الأفعال بالله تعالى[١].

٢ ـ رجوع الإمام المحاسبي[٢] عن مذهبه في كلام الله تعالى[٣].

٣ ـ إجماع الصوفية على أن الأنبياء أفضل البشر[٤].

٤ ـ إجماع الصوفية أن الخلق غير المخلوق[٥]، والفعل غير المفعول[٦].

• **الكتاب السابع:** ختم الولاية[٧].

= مُحدّث صوفي، له تصانيف؛ منها: كتاب: بحر الفوائد، ويُعرف بمعاني الآثار، وأشهر كتبه: التعرف لمذهب أهل التصوف، توفي سنة ٣٨٠هـ.
انظر: الاستقامة (١/ ٨٢ وقد ذكر أن اسمه محمد بن إسحاق)، الأعلام (٥/ ٢٩٥)، معجم المؤلفين (٨/ ٢٢٢). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٣٩٩).

(١) انظر: الفتاوى (١٦/ ٣٧٥)، درء التعارض (١/ ٣٤٧).

(٢) هو الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي، أبو عبد الله، شيخ الصوفية، صاحب التصانيف الزهدية، قال الجنيد: مات أبو حارث المحاسبي وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة، وخلف أبوه مالاً كثيراً، وما أخذ منه حبة واحدة! وقال: أهل ملتين لا يتوارثان؛ وكان أبوه واقفياً، توفي سنة ٢٤٣هـ.
انظر: صفة الصفوة (١/ ٥٥٤)، البداية والنهاية (٧/ ٣٦٠، حوادث سنة ٢٤٣)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ١١٠).

(٣) انظر: الفتاوى (١٢/ ٩٥)، درء التعارض (٧/ ١٤٩)، شرح حديث النزول ص ٤٠٧، الاستقامة (١/ ٢٠٨).

(٤) انظر: الصفدية (١/ ٢٤٨).

(٥) انظر: الاستقامة (١/ ٢٠٥)، المنهاج (١/ ٤٥٨، ٢/ ٢٩٨).

(٦) انظر: الرد على المنطقيين (ص٢٣٠).

(٧) كتاب «ختم الرسالة» لأبي عبد الله بن الحسن الحكيم الترمذي، مطبوع في مجلد يقع في (٥٨٨ صفحة)، وهو مطبوع بتحقيق عثمان إسماعيل يحيى، ط. المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي[1].

الآراء التي نقلها عنه:

١ - قوله بختم الولاية[2].

• **الكتاب الثامن**: قصيدة نظم السلوك[3].

المؤلف: ابن الفارض[4].

الآراء التي نقلها عنه:

١ - معتقد ابن الفارض في الحلول[5].

٢ - معنى الحلول عند الحلولية[6].

---

(١) هو محمد بن علي الترمذي، المشهور بالحكيم الترمذي، أصله من ترمذ، لكن أهلها نفوه منها وحكموا عليه بالكفر بسبب كتابه: ختم الولاية، له تصانيف في الحديث منها: نوادر الأصول في أحاديث الرسول، اختلف في تاريخ وفاته، فقيل: سنة ٢٨٥هـ، وقيل: ٣٢٠، وقيل غير ذلك.
انظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص٣٦٢)، الأعلام للزركلي (٦/ ٢٧٢).
وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤١١).

(٢) انظر: الفتاوى (١١/ ٣٧٣)، الصفدية (١/ ٢٤٨).

(٣) قصيدة «نظم السلوك» لابن الفارض، مطبوعة ضمن ديوانه الذي يقع في (٢٢٠ صفحة)، وهو مطبوع بتحقيق أكرم البستاني، ط. دار صادر، بيروت.

(٤) هو عمر بن علي بن مرشد بن علي، المشهور بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري الدار والمنشأ والوفاة، ولد سنة ٥٦٦هـ، وقيل: ٥٧٦، واشتهر بابن الفارض؛ لأن أباه سكن مصر، فكان يثبت الفروض للنساء على الرجال فلقب بالفارض، وابن الفارض من غلاة الصوفية، بل من ملحديهم القائلين بالحلول والاتحاد، توفي سنة ٦٣٢هـ.
انظر: سير الأعلام (٢٢/ ٣٦٨)، شذرات الذهب (٥/ ١٤٩)، معجم المؤلفين (٧/ ٣٠١)، الأعلام (٥/ ٥٥). وسيأتي في مبحث «موقف شيخ الإسلام من رجالات الصوفية» تفصيل ترجمته، وبيان رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٩٤).

(٥) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٧٢، ٤/ ٧٤، ٧/ ٥٩٦، ١١/ ٢٤٧).

(٦) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٤٩٩)، الفرقان (ص٧٩)، المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٩).

• **الكتاب التاسع:** فصوص الحكم[1].

المؤلف: محيي الدين ابن عربي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهب الحلولية في صفة العلو[2].

٢ ـ مذهب الحلولية في صفة الكلام[3].

٣ ـ تصحيح الحلولية لكل العبادات[4].

٤ ـ مشابهة الحلولية للنصارى[5].

٥ ـ مذهب الحلولية في الولاية والنبوة[6].

• **الكتاب العاشر:** الفتوحات المكية[7].

المؤلف: محيي الدين ابن عربي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في وحدة الوجود[8].

---

(١) كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي، مطبوع بتحقيق: أبي العلا عفيفي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٤٦م، وله طبعة أخرى تقع في (٤٩٥ صفحة) بتحقيق: محمود محمود غراب، ط. المؤلف.

(٢) انظر: الفتاوى (٥/ ٢٢٩، ٢/ ٣٥٦، ٤٦٥، ١٥/ ١٠١، ١١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: الفتاوى (١٢/ ٤٠٢).

(٤) انظر: الفتاوى (١٣/ ١٨٩)، المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٥)، بغية المرتاد (ص٣٩٥).

(٥) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٢٩٩).

(٦) انظر: المنهاج (٥/ ٣٣٦)، الفرقان (ص٦٤، ٧٤، ٧٦).

(٧) كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربي، له طبعات منها طبعة بتحقيق: عثمان يحيى، ومراجعة وتصدير: د. إبراهيم مدكور، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م، ومنها طبعة دار صادر، بيروت، غير محققة وتقع في أربعة مجلدات كِبار، كل مجلد يقع في (٧٨٠ صفحة تقريباً).

(٨) انظر: الفتاوى (١٤/ ١١).

٢ ـ مشابهة مذهبه في الاتحاد والحلول لقول النصارى[١].

٣ ـ الفيلسوف الصوفي له أربع عقائد[٢].

• **الكتاب الحادي عشر:** الإسرا إلى المقام الأسرى[٣].

المؤلف: محيي الدين ابن عربي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ زعمه أنه أسري به كما أسري بالنبي ﷺ[٤].

• **الكتاب الثاني عشر:** التجليات[٥].

المؤلف: محيي ابن عربي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ تأثر ابن عربي بملاحدة الفلاسفة[٦].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٢٩٩).

(٢) انظر: الرد على المنطقيين (ص٥٢٣)، الصفدية (١/ ٢٦٧).

(٣) كتاب «الإسرا إلى المقام الأسرى» لابن عربي، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، وقال عنه: «مختصر ذكر فيه أنه قصد اختصار ترتيب الرحلة من العالم الكوني إلى الموقف الآني، وتبيين كيفية انكشاف اللباب تجريد الأثواب لأولي الأبصار والألباب، ومعراج الأرواح إلى مقام ما لا يقال ولا يمكن ظهوره بالعلم إلا بالحال»اهـ. كشف الظنون (١/ ٨٢)، ولم أقف على الكتاب مطبوعاً.

(٤) انظر: الصفدية (١/ ٢٦٦)، المنهاج (٥/ ٣٤٠).

(٥) كتاب «التجليات الإلهية» لابن عربي، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، فقال: «رسالة التجليات لابن عربي وللشيخ أحمد البوني، أولها: الحمد لله الذي أخرج الجيم من الظلمة الى النور إلخ»اهـ. كشف الظنون (١/ ٨٥٢)، وهو مطبوع بتحقيق: د. عثمان يحيى، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٨٩هـ.

(٦) انظر: الصفدية (١/ ٢٦٥).

• **الكتاب الثالث عشر:** عنقاء مغرب[(١)].

المؤلف: محيي الدين ابن عربي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ ادعاء ابن عربي أنه يعلم الغيب[(٢)].

• **الكتاب الرابع عشر:** شرح أسماء الله الحسنى[(٣)].

المؤلف: سليمان بن علي التلمساني (العفيف التلمساني)[(٤)].

---

(١) كتاب «عنقاء مغرب» لابن عربي، ذكره ابن النديم في الفهرست (٢/ ٢١٦)، والكتاني في الرسالة المستطرفة (ص١٦٦)، وهو مطبوع ويقع في رسالة صغيرة، تقع في (٥٠ صفحة تقريباً).

(٢) انظر: الفتاوى (٤/ ٨١، ٣٤٢).

(٣) كتاب «شرح أسماء الله الحسنى» ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، فقال: «شرح الأسماء الحسنى» لعفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني، أوله: الحمد لله الأحد ذاتاً وصفاتٍ.. إلخ، ذكر من معاني الأسماء الإلهية الواردة في القرآن، من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، فذكر الاسم ثم الآية التي وردت فيه، وذكر في كلٍّ اسم ما ذكره كل واحد من الثلاثة: الإمام أبي بكر محمد البيهقي، والإمام أبي محمد الغزالي، والإمام أبي الحكم بن برجان الأندلسي، وما انفرد به كل واحد منهم، وما اتفق عليه اثنان منهم، وذكر أشياء على لسان أهل التصوف»اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٠٣٤).

(٤) هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني، المشهور بعفيف الدين، صوفي شاعر، ولد سنة ٦١٠هـ، له عظائم في الحلول والاتحاد، من كتبه: شرح الفصوص لابن عربي، وشرح منازل السائرين للهروي، وشرح القصيدة العينية لابن سينا، توفي بدمشق سنة ٦٩٠هـ.

انظر: شذرات الذهب (٥/ ٤١٢)، البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٣٢٦)، الأعلام (٣/ ١٣٠)، العبر في خبر من غبر، للذهبي (٣/ ٣٧٢).

وسيأتي في مبحث «موقف شيخ الإسلام من رجالات الصوفية» تفصيل ترجمته، وبيان رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٠٣).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في وحدة الوجود[1].

• **الكتاب الخامس عشر:** ديوان التلمساني[2].

المؤلف: التلمساني.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في وحدة الوجود[3].

• **الكتاب السادس عشر:** إحياء علوم الدين[4].

المؤلف: أبو حامد الغزالي[5].

---

(١) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٧٢).

(٢) ديوان «التلمساني» لم أقف عليه، إلا أن صاحب كشف الظنون ذكر ديواناً لرجل اسمه التلمساني، فلعله هو؛ قال في معرض ذكره لبعض الدواوين: «وديوان شمس الدين بن عفيف التلمساني»اهـ. كشف الظنون (١/ ٢٩٢).

(٣) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٧٢)، المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٥).

(٤) كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، ذكر شيخ الإسلام أنه أجلّ كتب الغزالي، وكذلك ذكر ابن القيم، والكتاب مطبوع عدة طبعات؛ منها: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ، وبهامشه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار، ومنها طبعة دار النور، بيروت، وتقع في أربعة مجلدات، كل مجلد يقع في (٣٤٠ صفحة تقريباً).

انظر: الاستقامة (١/ ٨٠)، الدرء (٧/ ١٤٥)، الصواعق المرسلة (١/ ١٢٦٣)، وسيأتي في مبحث «موقف شيخ الإسلام من مصنفات الصوفية» تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه.

(٥) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، المعروف بأبي حامد الغزالي، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ. ستأتي ترجمته مفصلاً (٢/ ٤٦٦).

انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ١٩١، ت: محمود الطناحي، ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة)، البداية والنهاية (١٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٢٩١ ـ ٢٩٢)، سير الأعلام (١٩/ ٣٢٢). =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ نوعا الشطح[(١)] عند الصوفية[(٢)].

٢ ـ قوله: إن رؤية الله في الآخرة هي زيادة العلم واللذة به[(٣)].

٣ ـ زعمه الاطلاع على اللوح المحفوظ[(٤)].

• **الكتاب السابع عشر:** منهاج القاصدين[(٥)].

= وقد اختصرت ترجمته هنا لأني توسعت فيها وفصلت في مبحث «موقف شيخ الإسلام من رجالات الصوفية» (٢/ ٤٦٦).

(١) الشطح: لفظة ليس لها أصل في اللغة، ولكن اشتهرت عند الصوفية، قال الكاشاني في اصطلاحات الصوفية: «الشطح لغةً: الحركة، يقال للطاحونة: الشطاحة لكثرة تحرك الرحى والدقيق، ويقال: شطح الماء في النهر، إذا فاض من حافتيه لكثرة الماء وضيق النهر.
وعُرفاً: حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم بحيث يفيض من إناء استعدادهم»اهـ.
ولم أجد الشطح بمعنى الحركة فيما وقفت عليه من كتب اللغة.
وقال الجرجاني: «الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهو من زلات المحققين، فإنه دعوى حق يفصح بها العارف لكن من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة»اهـ.
وقال الزبيدي في تاج العروس: «اشتهر عند المتصوفة الشطحات، وهي في اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق، كقول بعضهم: أنا الحق، وليس في الجبة إلا الله، ونحو ذلك»اهـ.
انظر: التعريفات للجرجاني (ص١٦٧)، معجم اصطلاحات الصوفية، للكاشاني (ص١٧٢)، التوقيف على مهمات التعاريف (٢/ ٤٣٠)، تاج العروس (٤/ ١٠٥).

(٢) انظر: الاستقامة (١/ ١١٩).

(٣) انظر: المنهاج (٥/ ٣٨٣).

(٤) انظر: المستدرك على الفتاوى (١/ ١٣٨).

(٥) ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن كتاب «منهاج القاصدين» المنسوب للغزالي، =

المؤلف: أبو حامد الغزالي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ قوله: إن الدين له باطن وظاهر[١].

• **الكتاب الثامن عشر:** مشكاة الأنوار[٢].

المؤلف: أبو حامد الغزالي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في كلام الله تعالى[٣].

٢ ـ موافقته للفلاسفة في تفسير بعض الآيات على طريقتهم[٤].

٣ ـ موافقته للفلاسفة في النبوة والوحي والرسالة[٥].

= هو أصلاً لأبي الفرج ابن الجوزي، وقد وضعه ابن الجوزي اختصاراً لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وذكر ابن الجوزي في كتابه «المنتظم في أخبار الملوك والأمم» أن بعض الفضلاء كان يعظم كتاب الإحياء فنبهه ابن الجوزي إلى بعض أغلاطه، ثم نسخ (ابن الجوزي) الكتاب لهذا الفاضل وحذف منه ما يرى أنه منقصة، وزاد فيه ما يرى إصلاحه به، فلعله هذا، وذكر د. بدوي أن نجم الدين أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر المقدسي (ت٧٤٢هـ) «اختصره»، ونشره محمد أحمد دهمان على أساس ثلاث نسخ خطية في دمشق عام ١٣٤٧هـ، وكتاب ابن الجوزي «منهاج القاصدين» له مخطوطات في دمشق وإستانبول وباريس.

انظر: مؤلفات الغزالي للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص٣٥٥ ـ ٣٥٦)، نشر: وكالة المطبوعات، الكويت)، المنتظم في أخبار الملوك والأمم لابن الجوزي (١٧/ ١٢٦)، أبو حامد الغزالي والتصوف، لعبد الرحمن دمشقية (ص٣٥ ـ ٤١).

(١) انظر: الفتاوى (٤/ ٨٤).

(٢) كتاب «مشكاة الأنوار» لأبي حامد الغزالي، وهي رسالة صغيرة الحجم تقع في (٢٧ صفحة)، وقد طبعت عدة طبعات، منها طبعة ضمن مجموع رسائل الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٣) انظر: الفتاوى (١٢/ ٤٠٢).

(٤) انظر: بغية المرتاد (ص٣٨٠).

(٥) انظر: درء التعارض (٥/ ٣٥٤).

• **الكتاب التاسع عشر:** جواهر القرآن[١].

المؤلف: أبو حامد الغزالي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ زعمه الاطلاع على اللوح المحفوظ[٢].

• **الكتاب العشرون:** المضنون به على غير أهله[٣].

المؤلف: أبو حامد الغزالي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ موافقة قوله لقول ملاحدة الصوفية في عذاب القبر[٤].

٢ ـ موافقته لأكثر آراء الفلاسفة وصياغته لها بألفاظ شرعية[٥].

• **الكتاب الحادي والعشرون:** الغنية لطالبي طريق الحق[٦].

المؤلف: عبد القادر الجيلاني[٧].

---

(١) كتاب «جواهر القرآن ودرره» لأبي حامد الغزالي، مطبوع عدة طبعات، منها طبعة دار الجيل، بيروت، وتقع في (١٧٣ صفحة).

(٢) انظر: المستدرك على الفتاوى (١/ ١٣٨).

(٣) كتاب «المضنون به على غير أهله» لأبي حامد الغزالي، يقع في (٢٨ صفحة) مطبوع عدة طبعات، منها طبعة ضمن مجموع رسائل الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٤) انظر: الفتاوى (١٤/ ١٦١).

(٥) انظر: التوسل والوسيلة (ص١٥٥).

(٦) كتاب «الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية» لعبد القادر الجيلاني، طبعته دار الألباب، دمشق، سوريا، ويقع في (٤٠٠ صفحة).

(٧) هو محيي الدين أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي أو الجيلاني أو الكيلاني، ولد بجيلان سنة ٤٧١هـ، نسبه بعض أتباعه للحسن بن علي بن أبي طالب، وقيل: يُنسب إلى قبيلة من العجم، كان كبير =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ رد الجيلاني على مذهب الحلولية[1].

٢ ـ موافقة قوله في العلو لقول أهل السنة[2].

• **الكتاب الثاني والعشرون:** فتوح الغيب[3].

المؤلف: عبد القادر الجيلاني.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ التوجيه الشرعي للفناء[4].

• **الكتاب الثالث والعشرون:** عوارف المعارف[5].

المؤلف: أبو حفص عمر بن محمد السهروردي[6].

= الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاواه بعضها مكذوب عليه، إليه تنتسب الطائفة القادرية، له مصنفات منها: الغنية لطالب الحق، الفيوضات الربانية، توفي ببغداد سنة ٥٦١هـ.
انظر: سير الأعلام (٢٠/٤٣٩)، الأعلام (٤/٤٧). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي الشيخ فيه (٢/٤٥٢).

(١) انظر: الفتاوى (٤/ ٢٢٢). (٢) انظر: الفتاوى (٥/ ٨٥).

(٣) كتاب «فتوح الغيب» لعبد القادر الجيلاني، مطبوع، بتحقيق: محمد سالم بواب، ط. دار الألباب، دمشق.

(٤) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥١٧، ١٠/ ٤٩٠، ٤٥٥).

(٥) كتاب «عوارف المعارف» للسهروردي، مطبوع بذيل كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، ويقع في (٢١١ صفحة)، وطبع مستقلاً.

(٦) هو شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله القرشي السهروردي، ولد سنة ٥٣٩هـ، من كبار الصوفية، وكان شيخ شيوخ بغداد، وصحِب قليلاً الشيخ عبد القادر، وسمِع من هبة الله الشبلي، قال الذهبي عنه: الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوْحد الصوفية، توفي سنة ٦٣٢هـ.
انظر: سير الأعلام (٢٢/ ٣٧٣)، الأعلام (٥/ ٢٢٣). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٤٣).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ تقريره أن غاية الكرامة لزوم الاستقامة[١].

● **الكتاب الرابع والعشرون:** قوت القلوب في معاملة المحبوب[٢].

المؤلف: أبو طالب محمد بن علي المكي[٣].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ كلامه في ذم الاتحاد والحلول، وإحقاق التوحيد الحق[٤].

٢ ـ نقله عن المشايخ تأييد السماع[٥].

٣ ـ مذهبه في العلو، ومسألة الاستواء[٦].

● **الكتاب الخامس والعشرون:** ذم الكلام[٧].

المؤلف: أبو إسماعيل الهروي.

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٣٢٠).

(٢) كتاب «قوت القلوب في معاملة المحبوب» لأبي طالب المكي، مطبوع في مجلدين كبيرين، ط. المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٣) هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، صوفي نشأ واشتهر بمكة، له تصانيف في التصوف، منها كتاب: قوت القلوب، في التصوف، قال عنه الخطيب البغدادي: ذكر فيه أشياء مستشنعة في الصفات، توفي سنة ٣٨٦هـ.

انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤٣٠)، تاريخ بغداد (٣/ ٨٩)، الأعلام (٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٤٩).

(٤) انظر: الاستقامة (١/ ١١٥).

(٥) انظر: الاستقامة (١/ ٢٩٩).

(٦) انظر: شرح حديث النزول (ص٣٤١).

(٧) كتاب «ذم الكلام» لأبي إسماعيل الهروي، وقد طبع كاملاً وهو ليس من الكتب المفردة في التصوف خاصة، وكان الأصل أن أورده في المبحث بعد القادم في المصادر العامة التي نقل عنها شيخ الإسلام، لكنني أثبته هنا لأن مؤلفه صوفي، والمعلومة التي نقلها شيخ الإسلام عنه تخص الصوفية.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ تقريره أن الصوفية موافقون لمذهب السلف[1].

● **الكتاب السادس والعشرون:** وصية معمر بن أحمد لأصحابه.

المؤلف: معمر بن أحمد الأصبهاني[2].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه ومذهب أصحابه في الاستواء، وموافقتهم لأهل السنة فيه[3].

٢ ـ مذهبه ومذهب أصحابه في الصفات عموماً[4].

● **الكتاب السابع والعشرون:** خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين[5].

المؤلف: أحمد بن الحسين بن قسي[6].

---

(١) انظر: الاستقامة (١/ ١٠٤).

(٢) هو معمر بن أحمد بن محمد بن زياد الأصفهاني، أبو منصور، كان كبير الصوفية في أصفهان، إمام جليل القدر صحب أبا الحسن الواحدي (صاحب أسباب النزول)،، روى عن الطبراني وأبي شيخ، توفي في رمضان سنة ٤١٨هـ.
انظر: شذرات الذهب (٣/ ٢١١)، سزكين (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥٠١).

(٣) انظر: درء التعارض (٦/ ٢٥٦)، الاستقامة (١/ ١٦٨).

(٤) انظر: الفتاوى (٥/ ٦١، ١٩١).

(٥) كتاب «خلع النعلين» لأبي القاسم بن قسي، مطبوع في بيروت.

(٦) هو أحمد بن قسي الأندلسي، صوفي، نقل الشعراني في «الجواهر والدرر» عن شيخه الخواص: أن ابن قسي كان يقول: إن الأولياء لهم الاطلاع على علوم الأنبياء بغير واسطة من طريق الكشف لا الذوق!، توفي ابن قسي سنة ٥٤٥هـ.
انظر: لسان الميزان (١/ ٢٤٧)، الجواهر والدرر لعبد الوهاب الشعراني (ص٢٦٤، بحاشية الإبريز).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ موافقة مذهبه لمذهب الفلاسفة في كلام الله تعالى[(١)].

٢ ـ موافقة مذهبه لمذهب الفلاسفة في النبوة والرسالة[(٢)].

• **الكتاب الثامن والعشرون:** فك الأزرار عن أعناق الأسرار[(٣)].

المؤلف: لم يذكر شيخُ الإسلام اسمَه.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مخاطبة جرت بين صاحب هذا الكتاب وبين إبليس، أنكر إبليسُ فيها على الحلولية انخداعهم بِحِيَلِهِ[(٤)].

• **الكتاب التاسع والعشرون:** طبقات النساك[(٥)].

المؤلف: أبو سعيد ابن الأعرابي[(٦)].

---

(١) انظر: الفتاوى (١٢/ ٤٠٢). (٢) انظر: درء التعارض (٥/ ٣٥٤).

(٣) بحثت عنه فيما وقفت عليه من الكتب المصنفة في أسماء الكتب ولم أعثر عليه.

(٤) انظر: الفتاوى (١٣/ ١٩٠).

(٥) كتاب «طبقات النساك» لأبي سعيد بن الأعرابي، لم أقف عليه مطبوعاً ولا مخطوطاً، ولكن قد نقل عنه أبو نعيم في الحلية، والذهبي في سير الأعلام.
انظر: الحلية (٢/ ٢٥)، سير الأعلام (٤/ ٥٧٩، ٩/ ٤٠٨، ١٣/ ٤٣٧، ١٥/ ٤٠٩).

(٦) هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم العَنَزي، المشهور بأبي سعيد بن الأعرابي، بصريُّ الأصل، سكن مكة، وكان شيخ الحرم في وقته، له في علم الصوفية تصانيف كطبقات النّسّاك وغيره، صحِب الجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، وغيرهما، توفي سنة ٣٤١هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٤٢٧ ـ ٤٣٠)، الطبقات الكبرى (١/ ١٣٧)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٧٥)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٦٦). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٣٨).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في الفناء، والجمع، والفرق الثاني[(١)].

• **الكتاب الثلاثون:** آداب المريدين والتعرف لأحوال العباد.

المؤلف: عمرو بن عثمان المكي[(٢)].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ تحذير المريدين من تشكيك الشيطان لهم في صفات الله تعالى[(٣)].

• **الكتاب الحادي والثلاثون:** فهم القرآن[(٤)].

المؤلف: الحارث المحاسبي.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ موافقته لأهل السنة في إثبات علو الله تعالى على خلقه[(٥)].

• **الكتاب الثاني والثلاثون:** مفتاح غيب الجمع والوجود.

المؤلف: الصدر الرومي محمد بن إسحاق القونوي[(٦)].

---

(١) انظر: الاستغاثة في الرد على البكري (١/ ٦٣٥)، المنهاج (٥/ ٣٤٠).

(٢) هو عمرو بن عثمان بن كُرَب بن غُصَص المكي، أبو عبد الله، ينتسب إلى الجنيد في الصحبة، وصحِب أبا سعيد الخراز وغيره، له كلام حسن في التصوف، توفي ببغداد سنة ٢٩١هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٢٠٠ ـ ٢٠٥)، الطبقات الكبرى (١/ ١٠٤)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٩١ ـ ٢٩٦)، صفة الصفوة (٢/ ٢٤٨). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٦٥).

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٢٧).

(٤) كتاب «فهم القرآن» للحارث المحاسبي، نقل عنه الذهبي في سير الأعلام (١١/ ١٧٥)، وهو مطبوع بتحقيق: حسن القوتلي، ط. سنة ١٩٦٨م.

(٥) انظر: شرح حديث النزول (ص٤٣٥).

(٦) هو صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في وحدة الوجود[١].

• **الكتاب الثالث والثلاثون:** رسائل ابن سبعين (الألواح)[٢].

المؤلف: عبد الحق بن إبراهيم ابن سبعين[٣].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في وحدة الوجود[٤].

• **الكتاب الرابع والثلاثون:** اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات[٥].

= الرومي، من غلاة الصوفية والقائلين بوحدة الوجود، ومن أصحاب محيي الدين ابن عربي، توفي سنة ٦٧٣هـ، وقيل: ٦٧٢هـ.
انظر: الطبقات الكبرى (١/ ١٧٧)، الوافي بالوفيات للصفدي (٢/ ٢٠٠) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٤٥)، الأعلام (٦/ ٢٥٤). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٤٧).

(١) انظر: المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٥).

(٢) كتاب «رسائل ابن سبعين» مطبوع بتحقيق: د. عبد الرحمن بدوي، ط. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.

(٣) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين الإشبيلي الرقوطي، وُلد في رقوطة بالأندلس سنة ٦١٣هـ، من رؤوس القائلين بالحلول والاتحاد، توفي سنة ٦٨٨هـ.
انظر: العبر في خبر من غبر (٣/ ٣٢٠)، لسان الميزان (٣/ ٣٩٢)، شذرات الذهب (٥/ ٣٨٢)، الأعلام (٣/ ٢٨٠).

(٤) انظر: بغية المرتاد (ص٤١٨)، وقد اختصرت ترجمته هنا لأني توسعت فيها في مبحث «موقف شيخ الإسلام من رجالات الصوفية» وذكرت موقف شيخ الإسلام منه (٢/ ٤٣٤).

(٥) ذكر سزكين في «تاريخ التراث العربي» أن لابن خفيف مصنفاً اسمه: العقيدة أو المعتقد، وذكر له عدة نسخ خطية في: أيا صوفيا (٤٧٩٢)، والفاتح (٥٣٩١)، صائب (أنقرة ١٥٥٩)، وذكر إبراهيم الدسوقي في كتابه «سيرة الشيخ الكبير أبي =

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي[١].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ موافقة ابن خفيف لمذهب أهل السنة في الأسماء والصفات، ووصيته لأصحابه بذلك[٢].

• **الكتاب الخامس والثلاثون:** مقامات العارفين[٣].

المؤلف: ابن سينا.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في الفناء اعتقده ملاحدة الصوفية واعتمدوا عليه[٤].

= عبد الله محمد بن خفيف» أن من مصنفات ابن خفيف كتاب: الاعتقاد، فلعله المراد هنا، وقد نقل عنه شيخ الإسلام في مواضع، كما سيأتي فيما بعدُ من أبواب.
انظر: تاريخ التراث العربي (٤/ ١٦٣، ترجمه د. محمد فهمي حجازي)، سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف الشيرازي للدكتور: إبراهيم الدسوقي شتا (ص٢٥٧).

(١) هو محمد بن خفيف بن اسفكشار الضبِّي الفارسي الشيرازي، أبو عبد الله، من خيار المشايخ، ولد سنة ٢٦٨هـ، وتفقه على أبي العباس بن سُرَيج، له تصانيف في السنة انتفع بها الناس، منها الوصية، والعقيدة أو المعتقد، وغيرهما، توفي سنة ٣٧١هـ.
انظر: سير الأعلام (١٦/ ٣٤٢)، الحلية (١٠/ ٣٨٥)، طبقات الصوفية للسلمي (ص٤٨٥)، شذرات الذهب (٣/ ٧٦).

(٢) انظر: الفتاوى (٥/ ٧٢).

(٣) مقامات العارفين هو في الأصل جزء من كتاب «الإشارات» لابن سينا، وابن سينا يُعدّ من الفلاسفة الذين مزجوا الفلسفة بالدين، ومن نظر في كلام ابن سينا وتأمل عباراته وجد أنها تشبه إلى حد كبير عبارات فلاسفة الصوفية، وقد قرر شيخ الإسلام ذلك في مواضع، فمن هذا الوجه قد نعد مقامات العارفين من المصادر الصوفية التي نقل عنها شيخ الإسلام مذهب المتصوفة.
انظر: الفتاوى (١٢/ ٢٢ ـ ٢٣، ٢٢/ ١٢)، الصفدية (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٨).

(٤) انظر: درء التعارض (٦/ ٥٥)، الصفدية (٢/ ٣٣٩).

• **الكتاب السادس والثلاثون:** أخبار شيوخ أهل المعرفة والتصوف.

المؤلف: معمر بن زياد الأصبهاني(١).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ رجوع الحارث المحاسبي عن مذهب ابن كلاب(٢) في كلام الله تعالى(٣).

وذكر شيخ الإسلام ـ في موضع آخر ـ الكتاب بمسمى مختصر هو «أخبار الصوفية»، ونقل عنه أن: أول دويرة للصوفية كانت بالبصرة(٤).

• **الكتاب السابع والثلاثون:** حلية الأولياء(٥).

المؤلف: أبو نعيم الأصبهاني(٦).

---

(١) تقدم في (ص١٢٢).
انظر: شذرات الذهب (٣/ ٢١١).

(٢) هو عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، أبو محمد، رأس الكلابية، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة وربما وافقهم، قال الذهبي: «الرجل أقرب المتكلمين إلى السنة، ولم أقع بوفاة ابن كلاب، لكنه كان باقياً قبل الأربعين ومائتين»اهـ.
ويقول فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي، العقائد والتصوف (١/ ٤/ ٢٩): «يبدو أن جميع كتبه قد ضاعت، غير أننا نجد بقايا منها في مقالات الأشعري»اهـ.
انظر: سير الأعلام (١١/ ١٧٤)، لسان الميزان (٣/ ٢٩٠)، طبقات الشافعية للسبكي (٢٠/ ٢٩٩)، معجم المؤلفين، لكحالة (٦/ ٥٩).

(٣) انظر: درء التعارض (٧/ ١٤٨).

(٤) انظر: الفتاوى (٣٥/ ٤١).

(٥) كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني، مطبوع عدة طبعات، منها: طبعة دار الخانجي، القاهرة.

(٦) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، أبو نعيم، الصوفي الشافعي الحافظ، ولد سنة ٣٣٦هـ، تفرد في الدنيا بعلو الإسناد مع الحفظ والاستبحار من الحديث وفنونه، وصنف التصانيف المشهورة منها: =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ حديث الأبدال[١].

• **الكتاب الثامن والثلاثون:** محاسن المجالس[٢].

المؤلف: أبو العباس بن العريف[٣].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في مسألة اتخاذ الأسباب[٤].

• **الكتاب التاسع والثلاثون:** علل المقامات.

المؤلف: لم يذكر شيخُ الإسلام اسمَ المؤلف.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ مذهبه في مسألة اتخاذ الأسباب[٥].

• **الكتاب الأربعون:** صفة التصوف.

= حلية الأولياء ودلائل النبوة، ومعرفة الصحابة، توفي سنة ٤٣٠هـ.
انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٦٦)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٩٢ ـ ١٠٩٨)، لسان الميزان (١/ ٢٠١)، شذرات الذهب (٣/ ٢٤٥)، الأعلام (١/ ١٥٠).

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ١٦٧).

(٢) لم أقف على الكتاب إلا في كتاب «طريق الهجرتين» لابن القيم، حيث ذكره ونسبه إلى أبي العباس بن العريف. انظر: طريق الهجرتين (١/ ٤٢٧).

(٣) هو أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، أبو العباس بن العريف، الصوفي الزاهد، كان الزهاد والعباد يقصدونه، قال الذهبي: «لما كثر أتباعه توهم السلطان وخاف أن يخرج عليه، فطلبه فأُحضر إلى مراكش فتوفي في الطريق قبل أن يصل، وكان من أهل المرية»اهـ، وهو القائل: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين»، توفي سنة ٦٣٥هـ وله ٧٨ سنة.
انظر: سير الأعلام (٢٠/ ١١١)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٥٤)، شذرات الذهب (٤/ ١١٢).

(٤) انظر: الفتاوى (١٠/ ٣٥).

(٥) انظر: الفتاوى (١٠/ ٣٥).

المؤلف: محمد بن طاهر المقدسي (أبو جعفر الهمذاني).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ كلامه في العلوّ، والحادثة التي وقعت بين المؤلف (محمد بن طاهر) وبين أبي المعالي الجويني(١) المتعلقة بمسألة العلو(٢).

● **الكتاب الحادي والأربعون**: مسألة السماع.

المؤلف: محمد بن طاهر المقدسي (أبو جعفر الهمذاني).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ كلامه في العلوّ، وحادثة أبي جعفر الهمداني مع أبي المعالي الجويني المتعلقة بمسألة العلوّ(٣).

● **الكتاب الثاني والأربعون**: السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم، وهو مصنف في جواز عبادة الأصنام(٤).

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي، فقيه شافعي، متكلم مشهور، له تصانيف منها: الإرشاد، وغياث الأمم، وغيرهما، ولد سنة ٤١٩هـ، وتوفي سنة ٤٧٨هـ.
انظر: سير الأعلام (١٨/٤٦٨)، طبقات الشافعية (٥/١٦٥)، تبيين كذب المفتري (ص٢٧٨ ـ ٢٨٥)، سير الأعلام (١٨/٤٦٨ ـ ٤٧٧).

(٢) انظر: الاستقامة (١/١٦٧). (٣) انظر: الاستقامة (١/١٦٧).

(٤) لم يذكر الشيخ رحمه الله اسم الكتاب، وإنما قال في معرض كلامه عن ضلال الحلولية: «ومنتهى متكلميهم وعبَّادهم تجويز عبادة الأصنام، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة.. وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم **كالرازي صنف فيها مصنفاً..**»اهـ. الفتاوى (١٣/٢١٣).
وصرح شيخ الإسلام في مواضع كثيرة أن كتاب الرازي هذا هو في إقرار عبادة النجوم، ومن ذلك قول شيخ الإسلام (الرد على المنطقيين، ص٢٨٦): «.. فكانوا يصنعون للأصنام طلاسم للكواكب، ويتحرون الوقت المناسب لصنعة ذلك الطِّلسَّم، ويصنعونه من مادة تناسب ما يرونه من طبيعة ذلك الكوكب، ويتكلمون عليها بالشرك والكفر، فتأتي الشياطين فتكلمهم وتقضي بعض =

المؤلف: الرازي[1].

= حوائجهم، ويسمونها روحانية الكواكب.. والكتاب الذي صنفه بعض الناس وسمَّاه: «السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم»، فإن هذا كان من شرك الكلدانيين والكشدانيين، وهم الذين بُعث إليهم الخليل صلوات الله عليه»اهـ.
وانظر الكلام ـ بمعناه ـ في الفتاوى (١٨/ ٥٥)، والدرء (١/ ٣١١)، والصفدية (١/ ٦٦، ١٧٣).

(١) لم يذكر الشيخ اسم هذا الرازي كاملاً، لكن المشهور أن الرازي صاحب كتاب السر المكتوم هو: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري الرازي، ويُعرف بابن خطيب الري، من أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعري بالفلسفة والاعتزال، ردّ عليه شيخ الإسلام في نقض التأسيس والدرء وغيرهما، قال الذهبي عنه: «وقد بدت في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة مُرضية»اهـ، وُلد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي سنة ٦٠٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٥)، لسان الميزان (٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٩)، شذرات الذهب (٥/ ٢١)، سير الأعلام (٢١/ ٥٠٠).
وقد شكك بعضهم في نسبة كتاب السر المكتوم إلى الفخر الرازي، قال حاجي خليفة في كشف الظنون: «السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر النجوم» للإمام فخر الدين محمود بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ ست وستمائة، قيل إنه مختلق عليه، فلم يصح أنه له، وقد رأيت في الكتاب أنه للحوالي أبي الحسن علي بن أحمد المغربي المتوفى سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.
قال الذهبي في الميزان: إن له كتاب أسرار النجوم سحر صريح. قال التاج السبكي في هامشه، هذا الكتاب المسمى بالسر المكتوم في مخاطبة النجوم فلم يصح أنه له، وقيل إنه مختلق، وبتقدير صحة نسبته إليه ليس بسحر فليتأمله من يحسن السحر. انتهى. وعليه رد للشيخ زين الدين سريجا بن محمد الملطي المتوفى سنة ٧٨٨هـ وسماه: انقضاض البازي في انفضاض الرازي.اهـ. كشف الظنون لحاجي خليفة (٢/ ٩٨٩).
لكن الصحيح أن الكتاب ثابت له، وممن حقق ذلك محمد بن صالح الزركان في كتابه (فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص٥٢ ـ ٥٤، ١٠٩ ـ ١١١، ٣٨٢، ط. دار الفكر) حيث عرض الخلاف حول نسبة الكتاب إلى =

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ تجويز الصوفية لعبادة الأصنام، حتى صنف فيها الرازي مصنفاً[(١)].

• **الكتاب الثالث والأربعون:** حِزب الشاذلي.

المؤلف: أبو الحسن الشاذلي[(٢)].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ اعتداء الصوفية في الدعاء، واستعمالهم لأذكار مُبتدعة[(٣)].

والمتأمل فيما مضى من كتب الصوفية، يتبين له دقة شيخ الإسلام، وحرصه على استخراج أقوال الفرق من كتب أصحابها، وهذا العرض الذي عرضه الشيخ بنقله عن هذه الكتب يُعد تقويماً لهذه الكتب مدحاً أو ذماً، وسيأتي في مبحث خاص بيان عددٍ من كتب الصوفية وموقف شيخ الإسلام منها[(٤)].

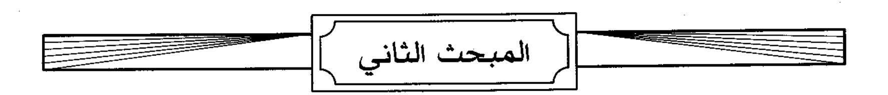
= الرازي، واستقصى أقوال العلماء في ذلك، ثم رجح صحة نسبته إليه، ورجح ذلك شيخ الإسلام في مواضع ـ كما تقدم في الحاشية السابقة ـ، بل إن الرازي نفسه أشار إلى كتابه هذا، وأحال عليه في بعض كتبه، كما في كتابه شرح الإشارات (٢/ ١٤٣)، والمطالب العالية (ص١٩٩، ٢٠٠، ٢١٠، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٤٣، جزء النبوات)، وقد حقق صحة نسبة الكتاب إليه أيضاً د. عبد الرحمن المحمود في كتابه: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٢/ ٦٦٥ ـ ٦٦٧) ومنه أفدتُ.

(١) انظر: الفتاوى (١٣/ ٢١٣).

(٢) هو علي بن محمد بن عبد الله الشاذلي، الضرير، صوفي فقيه شاعر، تنسب إليه الطريقة الشاذلية التي تشعبت منها طرق كثيرة؛ مثل: الوفائية، والزروقية، والبكرية، والجزولية، قصد الحج فمات في الصحراء سنة ٦٥٦هـ، له مصنفات في التصوف، وفروع الفقه المالكي.
انظر: طبقات الأولياء (ص٤٥٨)، بغية المستفيد بشرح منية المريد ـ لمحمد العربي السائح (ص٧٥، ط. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٩م)، معجم المؤلفين (٧/ ١٣٧).

(٣) انظر: الفتاوى (٨/ ٢٣٢).

(٤) انظر: مبحث موقف شيخ الإسلام من مؤلفات الصوفية (٢/ ٣٤٣).



كتب المقالات

لم يكتف شيخ الإسلام رحمه الله بنقل آراء الصوفية من كتبهم التي ألفوها في مذهبهم، وإنما رجع أيضاً إلى كتب المقالات والفرق التي عرضت لمذهب الصوفية، فنقل عنها، وقوّم منهج أصحابها[(١)] أيضاً، وقد وجدت بالاستقراء أن شيخ الإسلام لم ينقل من كتب المقالات شيئاً حول الصوفية إلا من كتاب واحد هو:

- **كتاب:** مقالات الإسلاميين.

المؤلف: أبو الحسن الأشعري.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ التعريف بفرقة الحلولية، وضلالها[(٢)].

٢ ـ قول فريق من الصوفية في علو الله تعالى ومعيته لخلقه[(٣)].

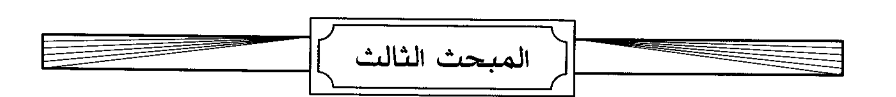
❖ ❖ ❖

---

(١) سيأتي في مبحث قادم الكلام عن تقويم شيخ الإسلام لبعض كتب المقالات (ص١٨٣).

(٢) انظر: الفتاوى (٢/ ٢٩٩).

(٣) انظر: الفتاوى (٥/ ١٢٤).



مصادر أخرى (مثل: كتب التاريخ، التفسير، شروح الحديث، مصادر مباشرة...)

كذلك مما رجع إليه الشيخ في حكاية مذهب الصوفية الكتب المصنفة في الاعتقاد والحديث وغيرها، فهو رحمه الله يحرص على الإحاطة بما يتكلم عنه، ونقل ما وقف عليه من معلومات؛ سواء أكانت في مظانها من كتب الصوفية وكتب المقالات التي نقلت عنهم وحكت مذهبهم، أم في غير مظانها ككتب الاعتقاد والحديث، وغيرها.

ويمكن حصر الكتب التي نقل عنها الشيخ مذهب الصوفية ـ وهي ليست من كتب الصوفية ولا من كتب المقالات ـ فيما يلي:

أولاً: كتب الاعتقاد:

- **الكتاب الأول:** المعتمد في أصول الدين.

المؤلف: القاضي أبو يعلى[1].

---

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء أبو يعلى القاضي البغدادي، ولد سنة ٣٨٠هـ، تولى القضاء في عهد القائم بأمر الله، ألف أكثر من خمسين مصنفاً في الاعتقاد والفقه، منها: «إبطال التأويلات لأخبار الصفات»، و«الأحكام السلطانية»، و«العدة في أصول الفقه»، وغيرها، توفي سنة ٤٥٨هـ.

انظر: سير الأعلام (١٨/ ٨٩)، المنهج الأحمد (٢/ ١٢٨)، العبر في خبر من غبر (٣/ ٢٤٣).

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ أحوال أبي منصور الحلاج، وزندقته[١].

• **الكتاب الثاني:** الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة (الكبرى).

المؤلف: أبو عبد الله بن بطة العكبري[٢].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ إثبات علو الله تعالى على عرشه، ومباينته لخلقه، والرد على الاتحادية[٣].

• **الكتاب الثالث:** الاعتقاد.

المؤلف: أبو بكر البيهقي[٤].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ إثبات علو الله تعالى على عرشه، ومباينته لخلقه، والرد على

---

(١) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٨٣).

(٢) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله بن بطة، وبطة: نسبة إلى أحد أجداده، وُلد سنة ٣٠٤هـ، من كتبه: الشرح والإبانة عن أصول الديانة، ورسالة في إبطال الحيل، توفي سنة ٣٨٧هـ.
انظر: المنهج الأحمد (٢/ ٧١)، لسان الميزان (٤/ ١١٢)، المنتظم (٧/ ٩٦).

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٢٨).

(٤) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي الشافعي، الحافظ الكبير، شيخ خراسان ومن أئمة المحدثين، ولد سنة ٣٨٤هـ، وكان واحد زمانه في الإتقان والحفظ والفقه والتصنيف، كان فقيهاً محدثاً أصولياً، زاهداً متقللاً من الدنيا، كثير العبادة والورع، أخذ العلم عن الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، وصنف كتاب السنن الكبير، والسنن الصغير، وشعب الإيمان، ودلائل النبوة، وتوفي سنة ٤٥٨هـ.

انظر: طبقات الشافعية (٤/ ١٦٨)، البداية والنهاية (٨/ ٢٢١، حوادث سنة ٤٥٨هـ)، شذرات الذهب (٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، الأعلام (١/ ١١٣).

الاتحادية في ذلك[١].

• **الكتاب الرابع:** كتاب الصفات[٢].

المؤلف: أبو إسماعيل الهروي الأنصاري.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ الرد على من أنكر علوَّ الله تعالى واستواءه على عرشه، ومباينته لخلقه[٣].

• **الكتاب الخامس:** الإبانة عن أصول الديانة.

المؤلف: أبو الحسن الأشعري.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ إثبات علو الله تعالى واستوائه على عرشه، ومباينته لخلقه[٤].

• **الكتاب السادس:** الرد على الجهمية.

المؤلف: أبو حاتم الرازي[٥].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ الرد على الاتحادية[٦].

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٠).

(٢) للإمام أبي إسماعيل الهروي من أئمة الصوفية، وقد ألف في مذهبهم «منازل السائرين» وغيره، ولكن كتابه هذا ليس في علم الصوفية وآدابهم، لذا لم أضعه ضمن المصادر الصوفية التي نقل عنها شيخ الإسلام، ووضعته في المصادر العامة هنا.

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٠).

(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٢).

(٥) هو محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، أبو حاتم الرازي، المحدث المشهور، من أقران البخاري ومسلم، توفي سنة ٢٧٧هـ.

(٦) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٢٥).

• **الكتاب السابع:** الرد على الجهمية والزنادقة.

المؤلف: الإمام أحمد بن حنبل.

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ إثبات علو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه[1].

ثانياً: كتب الحديث:

• **الكتاب الأول:** التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.

المؤلف: أبو عمر بن عبد البر[2].

الآراء التي نقلها عنه:

الكلام على حديث النزول، والرد على من أنكر علوَّ الله تعالى واستواءه على عرشه، ومباينته لخلقه[3].

ثالثاً: كتب التاريخ:

• **الكتاب الأول:** تاريخ بغداد.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٤).

(٢) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ القرطبي المالكي أبو عمر، من كبار حُفاظ الحديث، ولد بقرطبة سنة ٣٦٨هـ، إمام عصره في الحديث والأثر، دأب في طلب العلم وتفنن فيه وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس، وألف في الموطأ كتاب: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله، ثم كتاب: الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار، شرح فيه الموطأ، وجمع في أسماء الصحابة كتاب الاستيعاب، توفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ.

انظر: وفيات الأعيان (٦/ ٦٤)، شذرات الذهب (٣/ ٣١٤)، الأعلام (٩/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٠).

المؤلف: الخطيب البغدادي[١].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ أحوال أبي منصور الحلاج، وزندقته[٢].

٢ ـ الصفات المطلوب توفرها في الصوفي، عند الصوفية[٣].

• **الكتاب الثاني:** أخبار الخلفاء.

المؤلف: ابن سنان[٤].

الآراء التي نقلها عنه:

١ ـ أحوال أبي منصور الحلاج، وزندقته[٥].

رابعاً: مصادر مباشرة:

يتميز شيخ الإسلام بسعة معرفته بالمذاهب وأقوال أصحابها، ومما يزيده علماً وإتقاناً لمذاهبهم كثرةُ مخالطته للناس عموماً، مما أدى إلى

---

(١) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر الخطيب، وُلد سنة ٣٩٢هـ، وهو صاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات العديدة المفيدة، ألف أكثر من خمسين كتاباً في مختلف الفنون، وكان يقرأ على الناس الحديث النبوي، وكان جهوري الصوت، يسمع صوته من أرجاء الجامع كلها، قيل: كان أول أمره حنبلياً، ثم أصبح شافعياً، وصار يتكلم في أصحاب أحمد ويقدح فيهم ما أمكنه، توفي سنة ٤٦٣هـ.
انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٣٠، حوادث سنة ٤٦٣هـ)، النجوم الزاهرة (٥/ ٨٧)، وفيات الأعيان (١/ ٧٦ ـ ٧٧)، معجم الأدباء (١/ ٢٤٨).

(٢) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٨٣).

(٣) انظر: مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٧١).

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن صالح بن سنان القرشي الدمشقي. قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام الصدوق.اهـ، توفي سنة ٣٤٩هـ.
انظر: سير الأعلام (١٥/ ٥٣٤)، تاريخ ابن عساكر (٢/ ٢٥٧).

(٥) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٨٣).

رؤيته لتأثير البدعة وانتشارها، وكذلك كثرة مناظراته لأهل البدع[(١)]، ومناصحتهم[(٢)].

إضافة إلى ما حباه الله تعالى من بسطة في العلم جعلت طوائف من أهل البدع يحسدونه عليه، فيتهمونه ويخاصمونه إلى السلاطين، فيناقشهم ويسمع مذهبهم من أفواههم مباشرة[(٣)].

ويمكن تصنيف مصادرِ الشيخ المباشرةِ في حكاية أقوال أهل التصوف فيما يلي:

أ ـ ما عرفه الشيخ عنهم ورآه من أحوالهم أثناء مخالطته لهم:

قال في معرض كلامه عن السماع البدعي عند الصوفية: «.. فلما تبين لهم أن هذه أحوال شيطانية، وأن هؤلاء معهم شياطين تعينهم على الإثم والعدوان، عرف ذلك مَن بصّره الله تعالى، وانكشف التلبيس والغش الذي كان لهؤلاء.

وكنتُ في أوائل عمري حضرتُ مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة، فكانوا مِن خيار أهل هذه الطبقة، فبتنا في مكان وأرادوا أن يقيموا سماعاً وأن أحضر معهم، فامتنعتُ من ذلك، فجعلوا لي مكاناً مُنفرداً قعدتُ فيه.

فلما سمعوا وحصل لهم الوجد والحال، صار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وِجْده، ويقول: يا فلان! قد جاءك نصيب عظيم، تعال خُذ نصيبك، فقلتُ في نفسي ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا: أنتم في حِلّ من

---

(١) كما في مناظرته لطائفة البطائحية (انظر: ص٢٧٨).

(٢) كما في رسالته إلى عدي بن مسافر وأصحابه من الصوفية (انظر: ص٢٧٤).

(٣) كما وقع له لمّا صنف الواسطية، والحموية، وفتواه في الطلاق وغير ذلك، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند الكلام على ما تعرض له من محن (ص٦٦).

هذا النصيب، فكلّ نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد الله ﷺ فإني لا آكل منه شيئاً، وتبين لبعض من فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين، وكان فيهم مَن هو سكران بالخمر»اهـ[١].

ب ـ ما سمعه الشيخ من أصحاب المذهب أنفسهم:

ومن ذلك: ما ذكره عند كلامه عن ابتداعهم للذكر المفرد: الله.. الله.. هو.. هو..، فقال: «وأبلغ من ذلك من يقول: ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان، حتى يقول: لا فرق بين قولك: يا حي! وقولك: يا جحش! **وهذا مما قاله لي شخص منهم** وأنكرت ذلك عليه،..»اهـ[٢].

ـ قوله أثناء كلامه عن غلو فريق من الصوفية في الكرامة والولاية: «وصرح بعضهم: بأنه يعلم كل ما يعلمه الله،.. **خاطبني بذلك من هو من أكابر أصحابهم،.. وحدثني الثقة من أعيانهم**، أنهم يقولون: إن محمداً هو الله..»اهـ[٣].

لما تكلم الشيخ رحمه الله عن الحلولية ذكر ما عليه رؤوسهم من الضلال، ثم قال عن التلمساني: «**وحدثني الثقة أنه قرأ عليه**، فصوص الحكم،.. قال: فقلت له: هذا الكلام يخالف القرآن، فقال: القرآن كله شرك.. **وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له**، فمرا على كلب أجرب.. فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله؟ فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟..»اهـ[٤].

ج ـ ما سمعه الشيخ ممن كان معهم ثم تبين له ضلالهم وتاب.

ومن ذلك: ما ذكره أثناء كلامه على الحلولية أيضاً، فقال:

«**وحدثني الشيخ عبد السيد** الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم.. **أنه**

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٤١٨ ـ ٤١٩). (٢) انظر: الفتاوى (١٠/ ٣٩٧).
(٣) انظر: الفتاوى (١٤/ ٣٦٥). (٤) انظر: الفتاوى (١٣/ ١٨٦).

كان يجتمع بشيخ منهم يقال له: الشرف البلاسي يطلب منه المعرفة والعلم، قال: فدعاني إلى هذا المذهب، فقلت له: قولكم يشبه قول فرعون، . . **وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب،.. فحدثني بهذا..**»اهـ[(١)].

وقوله: «وقد خاطبني قديماً شخص من خيار أصحابنا ـ كان يميل إلى الاتحاد ثم تاب منه ـ وذكر هذا الحديث ..»اهـ[(٢)].

د ـ ما سمعه الشيخ منهم أثناء مناظراته معهم.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه على الحلولية أيضاً:

«**قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء:** قول الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ [الممتحنة: ٤]، ممن تبرأ الخليل؟ أتبرأ من الله تعالى؟ وعندكم ما عُبد غير الله قط؟ . . »اهـ[(٣)].

ـ وقوله أثناء كلامه عن الكشف والشهود عند الصوفية:

«**وقد خاطبت غير واحد منهم وبينت له** أن هذا الذي يشهدونه هو في الذهن وبتقدير أن يكون موجوداً في الخارج، فهو. . »اهـ[(٤)].

ـ وقوله أثناء كلامه عن الحلولية:

«**وقلت لمن حضرني منهم وتكلم بشيء من هذا:** فإذا كنتم تشبهون الخالق. . **وجعلت أردد عليه هذا الكلام؛** وكان في المجلس جماعة حتى فهمه. . **وذكرت له** أنه ما من آية جاء بها. . »اهـ[(٥)].

ـ وقوله: «. . وهم لا يطلقون على المخلوقات اسم الغير، **وقد سمعت هذا التناقض من مشايخهم،** فإنهم في ضلال مبين»اهـ[(٦)].

---

(١) انظر: الفتاوى (١٣/ ١٨٧)، وانظر: (١٤/ ٣٦٥، ٢/ ٣٥٩).

(٢) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٧٦).

(٣) انظر: الفتاوى (١٣/ ٢٠١).

(٤) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٣١٠).

(٥) انظر: الفتاوى (٢/ ٣٤٦).

(٦) انظر: الفتاوى (٢/ ٣٧٧).

ـ **وقوله**: «.. وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الاتحادية، حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول: أقاتل الله؟ ما أقدر أقاتل الله، ونحو هذا الكلام الذي **سمعناه من شيوخهم**، وبيّنا فساده لهم وضلالهم فيه غير مرة»اهـ[١].

وقوله: «.. **فقلت لشيخ من شيوخهم**: محمد ﷺ أُرْسِل إلى الثقلين..»اهـ[٢].

هـ ـ ما سمعه الشيخ من بعض علماء أهل السنة الذين ناظروهم.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الحلولية:

«.. حتى **حدثني بعض عن كثير من كبرائهم** أنهم يعترفون، ويقولون: نحن على قول فرعون»اهـ[٣].

ـ **قوله: «وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد[٤] يقول لمن رآه من هؤلاء**.. كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن ربه بلا واسطة الرسول..»اهـ[٥].

وبما تقدم من مصادر سواء من كتب الصوفية أو كتب غيرهم، أو المصادر المباشرة، يتبين لنا تميز شيخ الإسلام في حكاية مذهب الصوفية؛ إذ إن كثيراً من المصنفين في العقائد والمقالات ينقل بعضهم

---

(١) انظر: الفتاوى (٢/ ٣٣٣).
(٢) انظر: الفتاوى (١٣/ ٢٢١).
(٣) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٦٨).
(٤) هو إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري، تقي الدين أبو إسحاق، تفقه على مذهب الشافعي، وسمع الحديث وحدّث، وكان يعظ الناس وينتفعون بكلامه كثيراً، وله نظم حسن، توفي سنة ٦٨٧هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٩٩، حوادث سنة ٦٨٧هـ)، شذرات الذهب (٥/ ٣٩٩).
(٥) انظر: الفتاوى (١٣/ ٢٢٤).

عن بعض، ومن كان منهم حريصاً مجتهداً نقل عن كتب أصحاب الفرق التي يشرح مذهبها، وأكثر هؤلاء المصنفين أيضاً إنما يكتفي بعرض المذاهب دون أن يردّ عليها، فهو كمن يساعد على حفظ البدعة وتسطيرها[١]، أما شيخ الإسلام فيجمع ذلك كله ويضيف إليه مصادره المباشرة، ثم يردّ على هذه الأقوال ويفندها، ويذكر ما وافق منها الحقّ وما خالف[٢].

وبالتأمل فيما مضى من مصادر يتبين لنا أن شيخ الإسلام رحمه الله شديد الدِّقة في حكاية مذاهب المخالفين من المتصوفة وغيرهم، بل والحكم عليهم من خلال ما يحكونه هم عن أنفسهم، والرد عليهم وتفنيد آرائهم.

لذا نجد أن الشيخ لا يكتفي بمصدر واحد في التعرف إلى المذهب والرد عليه، وإنما يقرن عدداً من المصادر بعضها ببعض حتى لا يبقى عند المسترشد أدنى شك في نسبة هذا المذهب إلى من نسبه الشيخ إليه.



(١) يأتي في مبحث خاصّ بيان منهج أربعة من مصنفين في المقالات، والموازنة بينهم وبين شيخ الإسلام (ص١٨٣).

(٢) سيأتي في مبحث خاصّ الكلام عن منهج شيخ الإسلام في الرد على الصوفية (ص١٦٥).

الفصل الثاني

منهجه في عرض آراء الفرق ومناقشتها

وفيه أربعة مباحث:

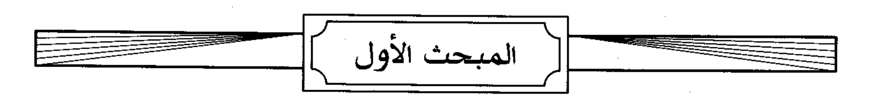
المبحث الأول: منهجه في عرض الآراء

المبحث الثاني: منهجه في عرض أدلة الفرقة

المبحث الثالث: منهجه في الرد على أدلتها، ومناقشتها

المبحث الرابع: منهجه في إيراد عباراتهم، والحكم عليها





المبحث الأول

منهجه في عرض الآراء

يتميز منهج شيخ الإسلام في التعامل مع آراء الخصوم بميزات عديدة تدلّ على جمعه بين العلم الدقيق بأحوالهم وأقوالهم، والعدل والإنصاف في التعامل معهم والحكم عليهم.

ويمكن إجمال منهج الشيخ في النقاط التالية:

أولاً: توثيق الآراء عند نقلها.

يحرص الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على استخراج آراء الصوفية من المصادر الموثوقة عندهم، ولا يكاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر رأياً من آراء الصوفية إلا ويذكر معه اسم المصدر الّذي نقل منه الرأي، كتاباً كان المصدر، أو عَلَماً من أعلامهم، أو غير ذلك، وقد تقدم ذكر أمثلة كثيرة على ذلك(١).

ثانياً: يستشهد في تقرير الآراء بنصوص الشيوخ المعتبرين عندهم، ليثبت قوة الرأي، وظهوره عندهم.

ومن ذلك: لمَّا تكلم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن دعوى الحلولية استغناءهم عن الشرع بما يلقى في قلوبهم، استشهد بكلام رأس من رؤوسهم المعتبرين، وهو التلمساني، **فقال الشيخ:** «... وإذا ادعيت أنه حصل لك في الكشف ما يناقض صريح العقل علم أنك غالط، **كما قال شيخ هؤلاء الملاحدة التلمساني:**

---

(١) انظر: الفصل الأول من هذا الباب (ص١٠٣).

يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني والوجد أصدق نهّاء وأمّار
فإن أُطِعك وأعصِ الوجد عدتُ عَمًى عن العيان إلى أوهام أخبار
وعين ما أنت تدعوني إليه إذا حققت فيه تراه النهي يا جاري[١]

فيُقال له: . . »اهـ[٢].

واستشهد الشيخ أيضاً بقول ابن الفارض في قصيدة نظم السلوك، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«. . . وهؤلاء لهم شعر نظموا قصائد على مذهبهم؛ كابن الفارض، حيث يقول:

لها صلواتي بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لِيَ صَلَّتِ
كِلانا مُصَلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة[٣]»اهـ[٤].

ثالثاً: سعة معرفة الشيخ بأقوالهم، حيث يستشهد في المسألة الواحدة بأقوال عدد منهم:

ومن ذلك: عرض الشيخ مذهب الصوفية في السماع واحتجاجهم

---

(١) هذه الأبيات نسبها شيخ الإسلام إلى التلمساني، وقد اجتهدت في البحث عنها، فلم أهتدِ إلى مكانها، وسيأتي تفصيل مذهب التلمساني، في مبحث خاص (ص٤٣٤).

(٢) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٣٩٨)، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٩).

(٣) البيتان من قصيدةٍ لابن الفارض وهي تائيته المشهورة بنظم السلوك، ومطلعها:

سقتني حُمَيَّا الحب راحةُ مُقلتي وكأسي مُحيا مَن عنِ الحسن جلّتِ

إلى أن قال:

وكلُّ الجهات الست نحوي توجّهت بما تمّ من نُسْكٍ وحجٍ وعُمرةِ
لها صلواتي بالمقام أُقيمها وأشهد فيها أنها لِيَ صلَّت
كِلانا مُصَلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كلِّ سجدة
وما كان لي صلّى سِواي ولم تكن صلاتي لِغَيري في أدا كلِّ ركعة

انظر: ديوان ابن الفارض (ص٤٦، ٦١).

(٤) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٣٩٩).

لجوازه بما يقع في القلب من رِقة وخشوع عند الاجتماع له، ثم ردّ عليهم ردّاً مفصلاً، وتكلم رَحِمَهُ اللهُ عن أهمية الاتباع، ولزوم السنة وطريقة السلف الصالح، ووجوب ردّ ما يقع في القلوب إلى الكتاب والسنة، ثم استشهد بأقوال ما يزيد على عشرة من مشايخ المتصوفة، كلُّها في الحثِّ على لزوم هدي الكتاب والسنة[1].

رابعاً: الدقة في نسبة الآراء والأقوال إلى أصحابها:

ومن ذلك: ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مذاهب الصوفية في رؤية الله تعالى، **ثم قال:** «... وهؤلاء منهم من يقول: إن موسى رآه، وإن الجبل كان حجابه، فلما جعل الجبل دكّاً رآه. وهذا **يوجد في كلام أبي طالب** ونحوه»اهـ[2].

ذكر الشيخ شيئاً من ضلالات الاتحادية، **ثم قال:** «ويقولون إن فرعون كان صادقاً في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، **وهذا قول طائفة من ملاحدة المتصوفة المتفلسفة الاتحادية: كالتلمساني، والقول بالاتحاد العام المسمى: وحدة الوجود، هو قول ابن عربي الطائي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض وأمثالهم، لكن لهم في المعاد والجزاء نزاع،** كما أن لهم نزاعاً في الوجود هل هو شيء غير الذوات أم لا؟ وهؤلاء ضلوا من وجوه»اهـ[3].

خامساً: البعد عن التعميم عند حكاية الرأي، والحكم عليه.

ومن ذلك: تكلم الشيخ عن تعلق الصوفية بالمردان ورأيهم في

---

(١) انظر: الاستقامة (١/٢٤٨ ـ ٢٥١)، وجُلُّ الأقوال التي ساقها شيخ الإسلام في هذا، قد ذكرها القشيري مفرَّقة في رسالته، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ سياق نصوص طرف منها في مبحث السماع عند الصوفية (٢/٢٠٦) وما بعدها.

(٢) انظر: شرح حديث النزول (ص٣٥١).

(٣) انظر: الفتاوى (٨/٣٠٨).

ذلك، وقولهم: إن هذا التعلق يورث النفس صفاءً وشفافية، ثم خشي أن يظن القارئ أن هذا مذهب عامة الصوفية، **فقال:** «.. وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى...

ومَن أَمَرَ بعشق الصور من المتفلسفة.. أو من جهَّال المتصوفة؛ فإنهم في ضلال وعي[1].. وأما من نظر إلى المرد ظاناً أنه ينظر إلى الجمال الإلهي، وجعل هذا طريقاً إلى الله ـ كما يفعله طوائف من المدعين للمعرفة ـ فقوله هذا أعظم كفراً من قول عُبَّاد الأصنام...

والصوفية المشهورون الذين لهم لسان صدق في الأمة لم يكونوا يستحبون مثل هذا، بل ينهون عنه، ولهم في الكلام في ذم صحبة الأحداث، وفي الرد على أهل الحلول، وبين مباينة الخالق للمخلوق، ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، **وإنما استحسنه من تشبه بهم ممن هو عاصٍ أو فاسقٍ أو كافرٍ،** فتظاهر بدعوى الولاية لله وتحقيق الإيمان والعرفان وهو من شر أهل العداوة لله وأهل النفاق والبهتان»اهـ[2].

سادساً: يعرض الشيخ ـ أحياناً ـ رأي الشخص المعين منهم بالإسناد:

ومن ذلك: تكلم رحمه الله عن التلمساني وضلاله، **ثم قال:** «... قد ذهب إلى النصيرية وصنف لهم كتاباً وهم يعظمونه جداً، وحدثني نقيب الأشراف[3] عنه أنه قال: قلت له: أنت نصيري؟ قال: نصير

(١) كذا في المطبوع: **وعي**، بالعين المهملة، ولعل الصحيح: **وغي**، بالغين المعجمة الموحدة الفوقية.

(٢) انظر: الفتاوى (٢١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٩).

(٣) يعني الشيخ بنقيب الأشراف أحد رجلين ـ كلاهما معاصر لشيخ الإسلام ـ:
إما: علي بن الحسين بن محمد بن عدان العلوي الحسيني (٦٨٤هـ ـ ٧٤٧هـ) نقيب الأشراف بدمشق. سمع من الفخر ابن البخاري، وحدث عنه، وكان =

جزء مني . . .»اهـ[1].

وقال في موضع آخر:

«. . . حتى حدثني من شهد أحذق محققيهم التلمساني وآخر من طواغيتهم وقد اجتاز بكلب جرب ميت، فقال ذلك للتلمساني: وهذا الكلب أيضاً ذلك؟ فقال: أوثم شيء خارج عن الذات؟. . .»اهـ[2].

وقال أيضاً في معرض كلامه عن الاتحادية:

«. . . وحدثني بعض الشيوخ الذين لهم سلوك وخبرة أنه كان هو وابن هود في مكة. .»اهـ[3].

سابعاً: يورد الرأي أحياناً بصيغة التمريض.

ومن ذلك: أنه تكلم رَحِمَهُ اللهُ عن غلو الصوفية في الكرامات، ثم قال: «. . . ومن الناس من يحكي عن سهل بن عبد الله أنه لما دخل الزنج البصرة، قيل له في ذلك، فقال: هاه إن ببلدكم هذا من لو سألوا الله أن يزيل الجبال من أماكنها لأزالها، ولو سألوه أن لا يقيم القيامة لما أقامها، . . .»اهـ[4].

وتكلم عن ابتداع الصوفية الذكر بـ «الله». . «الله». . ، **ثم قال:**

«. . . وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب عليه، **مثلما يروى عن**

= غالياً في التشيع. لسان الميزان (٤/ ٢٢٥).

أو: الحافظ عز الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسيني المصري نقيب الأشراف (توفي في حدود سنة ٧٠٠هـ). المعين في طبقات المحدثين للذهبي (ص٢٢٥).

(١) انظر: المنهاج (٢/ ٦٢٧).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٨).

(٣) انظر: الفتاوى (١٤/ ٣٦٥).

(٤) انظر: الفتاوى (١٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

الشبلي[1] **أنه كان يقول: الله.. الله..** فقيل له: لم لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. . .»اهـ[2].

ولمَّا تكلم الشيخ عن أقوال الناس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، قال: «.. الثاني: أنه مبني على خلق الأفعال، وهذا قد يقوله كثير من الصوفية، **وأظنه مأثوراً عن الجنيد**[3]: سلبُ العبدِ الفعل، نظراً إلى الحقيقة. .»اهـ[4].

---

(١) هو دلف بن جحدر، وقيل: ابن جعفر الشبلي، أصله من قرية شبلية وراء سمرقند، كنيته: أبو بكر، كان حاجباً للموفق، ثم عُزل، فصحِب الجُنيد وتصوف، وتفقه على مذهب مالك، كان له شطحات وتجاوزات، لا يُقتدى به فيها، توفي سنة ٣٣٤هـ.

انظر: طبقات الأولياء (ص٢٠٤)، سير الأعلام (١٥/ ٣٦٧)، شذرات الذهب (٢/ ٣٣٨). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٤٥).

(٢) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥٥٦).

(٣) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم البغدادي الخراز، أصل أبيه من نهاوند، يثني عليه شيخ الإسلام كثيراً، ويصفه بسيد الطائفة، وإمام الصوفية، ومن أئمة الطريق ونحو ذلك، كان يضبط مذهبه في التصوف بما جاء في الكتاب والسنة، وينكر على الصوفية ما يقعون فيه من بدع ومحدثات، توفي ببغداد سنة ٢٧٩هـ، وقيل: ٢٩٨هـ.

انظر: طبقات الصوفية (ص١٥٥ ـ ١٦٣)، الطبقات الكبرى (١/ ٧٢ ـ ٧٤)، طبقات الشافعية (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٧٥)، الأعلام (٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨)، طبقات الأولياء (ص١٢٦ ـ ١٣٦)، شذرات الذهب (٢/ ٢٢٨)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٠٤).

(٤) انظر: الفتاوى (١٥/ ٣٩).

ثامناً: سعة معرفته رحمه الله بالفروق الدقيقة بين الأقوال المتشابهة لأصحاب المذهب الواحد.

ومن ذلك: ذكر الشيخ في معرض كلامه عن الاتحادية أصلين قام عليهما مذهبهم، ثم قال بعد ذكره للأصل الأول:

«.. وهذا القول.. أن المعدوم شيء ثابت في نفسه، خارج عن علم الله تعالى.. ابتدع في الإسلام من نحو أربعمائة سنة **وابن عربي وافق أصحابه**..، والأصل الثاني: أن وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ليس غيره ولا سواه، وهذا هو الذي **ابتدعه وانفرد به عن جميع من تقدمه من المشايخ والعلماء**، وهو قول بقية الاتحادية، لكن **ابن عربي** أقربهم إلى الإسلام.. **فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر، فيقر بالأمر والنهي**...

وأما صاحبه الصدر الرومي.. فحقيقة قوله: إنه ليس لله سبحانه وجود أصلاً...

وأما الفاجر التلمساني، فهو أخبث القوم وأعمقهم كفراً، **فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي، ولا يفرق بين المطلق والمعين كما يفرق الرومي**،...

وأما ابن سبعين، فإنه في البدوّ والإحاطة يقول أيضاً بوحدة الوجود، وأنه ما ثَمَّ غيرٌ.

وكذلك ابن الفارض في آخر «نظم السلوك»، لكن لم يصرح هل يقول بمثل قول التلمساني، أو قول الرومي، أو قول ابن عربي؟ وهو إلى كلام التلمساني أقرب»اهـ[(١)].

بل صرح الشيخ أن من منهجه: بيانُ الفروق بين الأقوال

---

(١) انظر: الفتاوى (٢/ ٤٧٠ _ ٤٧٢).

المتشابهة، **فقال** بعد كلام له عن الحلولية والاتحادية وحقيقة الرب عندهم:

«.. ولكن **المقصود التنبيه على تشابه رؤوس الضلال**، حتى إذا فهم المؤمن قول أحدهم أعانه على فهم قول الآخر، واحترز منهم...»اهـ[(١)].

تاسعاً: حرصه عند ذكر بعض الآراء التي عليها مآخذ على الاعتذار عن أصحابها، إذا كان لهم حسنات تحسن الظن بهم.

ومن ذلك: تكلم عن موقف شيوخ الصوفية من السماع، ثم ذكر استدلال بعضهم بمدح ذي النون[(٢)] للسماع، فقال معتذراً له:

«.. فإن كان هذا الكلام ثابتاً عن ذي النون رحمة الله عليه.. **فيكون ذو النون هو أحد الذين حضروا التغبير[(٣)] الذي أنكره الأئمة وشيوخ السلف، ويكون هو أحد المتأولين في ذلك.**

وقوله فيه كقول شيوخ الكوفة وعلمائها في النبيذ الذين استحلوه[(٤)]..

---

(١) انظر: الفتاوى (٧/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤).

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفيض، المشهور بذي النون، أحد أعلام الصوفية، نُوْبي الأصل، من الموالي، كان حكيماً فصيحاً، قيل: سئل عن سبب توبته؟ فذكر أنه رأى قُبّرة عمياء نزلت من وكرها، فانشقت لها الأرض فأكلت وشربت، توفي سنة ٢٤٥هـ.
انظر: الرسالة القشيرية (ص٤٣٣)، الطبقات الكبرى (١/ ٥٩ ـ ٦١)، الأعلام (٢/ ٨٨)، ميزان الاعتدال (٢/ ٣٣ ـ ٣٤). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٣٣).

(٣) التغبير: هو سماع القصائد الملحّنة والضرب عليها بالدف، وسيأتي تفصيل معناه في مبحث «السماع» (٢/ ١٩٣).

(٤) يشير شيخ الإسلام هنا إلى ما ذكره بعض أهل العلم أن مذهب أهل الكوفة جواز شرب النبيذ وإن أسكر؛ لأنه لا يسمى خمراً، وليس له أحكام الخمر، =

وكقول علماء مكة وشيوخها فيما استحلوه من المتعة(١).........................

= قال شيخ الإسلام (الفتاوى الكبرى ٦/ ٣٧) في معرض كلامه عن استحلال المحرمات بالتأويلات الفاسدة: «هؤلاء الذين استحلوا هذه المحارم كانوا متأولين فيها، حيث زعموا أن الشراب الذي شربوه ليس هو الخمر، وإنما له اسم آخر إما النبيذ أو غيره، وإنما الخمر عصير العنب النِّيءِ خاصة، ومعلوم أن هذا بعينه هو تأويل طائفة من الكوفيين، مع فضل بعضهم وعلمه ودينه، حتى قال قائلهم:

دع الخمر يشربها الغواة فإنني ... رأيت أخاها قائماً في مكانها
فإن لا يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها

ولقد صدق فيما قال؛ فإن النبيذ إن لم يسم خمراً، فإنه من جنس الخمر في المعنى، فكيف وقد ثبت أنه يسمى خمراً؟ وإنما أتى هؤلاء حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم وثبوته، وهذا بعينه شبهة اليهود في استحلال بيع الشحم بعد تجميله واستحلال أخذ الحيتان يوم الأحد بما أوقعوها به يوم السبت في الشباك والحفائر من فعلهم يوم الجمعة، حيث قالوا: ليس هذا بصيد ولا عمل في يوم السبت، وليس هذا باستباحة الشحم. بل الذي يستحل الشراب المسكر زاعماً أنه ليس خمراً، مع علمه بأن معناه معنى الخمر، ومقصوده مقصود الخمر، أفسد تأويلاً من جهة أن الخمر اسم لكل شراب أسكر، كما دلت عليه النصوص ومن جهة أن أهل الكوفة من أكثر الناس قياساً، فلئن كان من القياس ما هو حق فإن قياس الخمر المنبوذة على الخمر المعصورة من القياس في معنى الأصل المسمى بانتفاء الفارق، وهو من القياس الجلي الذي لا يستراب في صحته، فإنه ليس بينهما من الفرق ما يجوز أن يتوهم أنه مؤثر في التحريم.. وبالجملة: من تأمل ما أخبر به النبي ﷺ ناهياً عنه مما سيكون في الأمة من استحلال المحرمات، بأن يسلبوا عنها الاسم الذي حرمت به وما فعلته اليهود، علم أن هذين من مشكاة واحدة»اهـ.

وانظر: إرشاد الفحول (١/ ٣٩١)، نيل الأوطار (٤/ ٥١٨) كلاهما للشوكاني.

(١) يشير شيخ الإسلام بذلك إلى ما ذكره بعض أهل العلم: أن مذهب أهل مكة أن نكاح المتعة لم ينسخ، وهو مذهب ابن عباس رضي الله عنه، وقد كان يفتي به ثم رجع عنه، قال القرطبي في تفسيره (٥/ ١١٥) عند كلامه عن قوله تعالى: =

والصرف[١].. وكقول طائفة من شيوخ المدينة وعلمائها فيما استحلوه من الحشوش[٢]، وكقول طائفة من شيوخ الشاميين وعلمائهم فيما كانوا.......

= ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]: «وسائر العلماء والفقهاء من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين على أن هذه الآية منسوخة وأن المتعة حرام، وقال أبو عمر: أصحاب ابن عباس من أهل مكة واليمن كلهم يرون المتعة حلالاً على مذهب ابن عباس وحرمها سائر الناس»اهـ.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٣/ ٥٤٥): «قد روى الرجوع عن ابن عباس جماعة؛ منهم محمد بن خلف القاضي المعروف بوكيع في كتابه الغرر من الأخبار بسنده المتصل بسعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ما تقول في المتعة؟ فقد أكثر الناس فيها حتى قال فيها الشاعر، قال: وما قال؟ قال:

قد قلت للشيخ لما طال محبسه يا صاح هل لك في فتوى ابن عباس
وهل ترى رخصة الأطراف آنسة تكون مثواك حتى مصدر الناس

قال: وقد قال فيه الشاعر؟! قلت: نعم، قال: فكرهها، أو نهى عنها.

ورواه الخطابي أيضاً بإسناده إلى سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: وقد سارت بفتياك الركبان وقالت فيها الشعراء، قال: وما قالوا؟ ـ فذكر البيتين ـ فقال: سبحان الله! والله ما بهذا أفتيت، وما هي إلا كالميتة لا تحل إلا للمضطر. وروى الرجوع أيضاً البيهقي وأبو عوانة في صحيحه»اهـ.

وانظر: بداية المجتهد لابن رشد (٣/ ٩٧)، نيل الأوطار (٣/ ٥٤٥).

(١) الصرف: هو ما يسميه طائفة من العلماء «ربا الفضل» وهو: «الزيادة في أحد البدلين الربويين جنساً»، وقيل: «هو البيع مع زيادة أحد العوضين عن الآخر»، والجمهور على أن هذا النوع من التبايع نوع من أنواع الربا المحرّم، ولكن ذهب ابن عباس وأسامة وزيد بن أرقم رضي الله عنهم وفقهاء المكيين إلى جوازه.

انظر: المغني ـ لابن قدامة (٤/ ٢ ط. دار الفكر، بيروت، ط. الثالثة)، مغني المحتاج شرح المنهاج ـ لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني (٢/ ٢١ ط. مصطفى الحلبي، ١٣٧٧هـ)، الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية للدكتور عمر بن عبد العزيز المترك (ص٥٣ ـ ٥٦، ت: د. بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. دار العاصمة، الرياض، الثانية ١٤١٧هـ).

(٢) الحشوش: جمع حشّ بضم الحاء وفتحها وكسرها، وهو المخرج من الدُّبر، ويُجمَع أيضاً على: حُشون؛ سُمِّي بذلك لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في =

....

= البساتين على الحشيش (وهو العشب اليابس).
انظر: مادة (حشش)، في: تاج العروس (٩/ ٨٩)، لسان العرب (٦/ ٢٨٢)، القاموس (ص٧٦١).
ويشير شيخ الإسلام هنا إلى ما ذكره بعض أهل العلم، أن مذهب أهل المدينة: جواز إتيان النساء في أدبارهن، ويستدلون بعموم قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، والصحيح أن هذا القول لا يثبت عمن يعتمد على قوله من علماء المدينة، قال الإمام ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٨٤) عند كلامه عن هذه الآية: «وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه»اهـ.
وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٨٨): «قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ معناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى: من أي وجه شئتم مقبلة ومدبرة، كما ذكرنا آنفاً، و﴿أَنَّىٰ﴾ تجيء سؤالاً وإخباراً عن أمر له جهات، فهو أعم في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى)، هذا هو الاستعمال العربي في (أنى) وقد فسر الناس (أنى) في هذه الآية بهذه الألفاظ، وفسرها سيبويه بـ(كيف) ومن (أين) باجتماعهما، وذهبت فرقة ممن فسرها بـ(أين) إلى أن الوطء في الدبر مباح، وممن نُسب إليه هذا القول: سعيد بن المسيب، ونافع، وابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، وعبد الملك بن الماجشون، وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمى «كتاب السر»، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أين يكون له كتاب سر، وقال مالك لابن وهب وعلي بن زياد لما أخبراه أن ناساً بمصر يتحدثون عنه أنه يجيز ذلك، فنفر من ذلك، وبادر إلى تكذيب الناقل، فقال: كذبوا عليَّ، كذبوا عليَّ، كذبوا عليَّ! ثم قال: ألستم قوماً عرباً؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ وهل يكون الحرث إلا في موضع المنبت؟! قلت: وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرّج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، وقد حذرنا من زلة العالم، وقد روي عن ابن عمر خلاف هذا وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به رضي الله عنه، وكذلك كذب نافع من أخبر عنه =

استحلوه من القتال في الفتنة[١].. إلى أمثال ذلك مما تنازعت فيه الأمة، وكان في كل شق طائفة من أهل العلم والدين»اهـ[٢].

وذكر في موضع آخر كلام الصوفية في الخلوة، وما أفضت إليه عند

= بذلك، كما ذكر النسائي وقد تقدم، وأنكر ذلك مالك واستعظمه، وكذّب من نسب ذلك إليه»اهـ.

(١) يشير شيخ الإسلام بذلك إلى ما وقع من أهل الشام في الفتنة بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان ﷺ جميعاً وأرضاهم، قال الشوكاني في: إرشاد الفحول إلى علم الأصول (١/ ٣٩١): «وفي السنن للبيهقي عن الأوزاعي: من أخذ بنوادر العلماء خرج عن الإسلام، وروى عنه أنه قال: يُترَك من قول أهل مكة: المتعة والصرف، ومن قول أهل المدينة: السماع وإتيان النساء في أدبارهن، **ومن قول أهل الشام: الحرب والطاعة**، ومن قول أهل الكوفة: النبيذ»اهـ.

قال شيخ الإسلام «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٤٤٣) في شأن من أمسك من الصحابة عن الدخول فيما وقع من قتال بين علي ومعاوية ﷺ: «اتفق الصحابة على قتال هؤلاء الخوارج، وأما أهل الجمل وصفين، فكانت منهم طائفة قاتلت من هذا الجانب وأكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا لا من هذا الجانب ولا من هذا الجانب، واستدل التاركون للقتال بالنصوص الكثيرة عن النبي ﷺ في ترك القتال في الفتنة، وبينوا أن هذا قتال فتنة، وكان علي ﷺ مسروراً لقتال الخوارج، ويروي الحديث عن النبي ﷺ في الأمر بقتالهم، وأما قتال صفين، فذكر أنه ليس معه فيه نص، وإنما هو رأي رآه، وكان أحياناً يحمد من لم ير القتال، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال في الحسن: (إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) [رواه البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي: ابني هذا سيد، (٢/ ٩٦٢/ ح٢٥٥٧)، وأبو داود، كتاب المهدي، (٤/ ١٠٨/ ٤٢٩٠)] فقد مدح الحسن وأثنى عليه بإصلاح الله به بين الطائفتين: أصحاب علي وأصحاب معاوية، وهذا يبين أن ترك القتال كان أحسن، وأنه لم يكن القتال واجباً ولا مستحباً»اهـ.

وانظر: الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٤٦).

(٢) انظر: الاستقامة (١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

بعضهم من القول بالحلول والاتحاد، وذكر كلاماً لأبي حامد الغزالي في حث المريدين عليها، **ثم قال معتذراً لأبي حامد:**

«وأما أبو حامد ممن أمروا بهذه الطريقة **فلم يكونوا يظنون أنها تفضي إلى الكفر**»اهـ[١].

وقال في معرض كلامه عن الحلول والاتحاد:

«.. وأما أهل الحلول، فمنهم من يغلب عليه شهود القلب وتجلّيه، حتى يتوهم أنه رأى الله بعيني رأسه، **ولهذا ذكر ذلك طائفة من العُباد الأصحاء، غلطاً منهم**»اهـ[٢].

تكلم رَحِمَهُ اللهُ عن الذكر بِـ «الله».. «الله»، وما روي عن الشبلي أنه كان يذكر الله بمثل ذلك، **ثم قال معتذراً للشبلي:**

«وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه، وقوة وجده، وغَلَبَة الحال عليه، فإنه كان ربما يُجَنُّ ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها، وإن كان معذوراً أو مأجوراً»اهـ[٣].

عاشراً: عدلُ الشيخ في التعامل مع آراء مشايخ الصوفية.

بحيث إن الشخص الواحد منهم يكون له آراء ينتقدها الشيخ ويفندها، ومع ذلك يستدل الشيخ ببعض آرائه الصائبة في مواضيع لا تتعلق بالتصوف، فيأخذ حقهم، ويترك باطلهم.

ومن ذلك: تكلم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن تعريف العقل، ونقل تعريف الحارث المحاسبي للعقل، **فقال:** «.. قال أحمد بن حنبل، والحارث

(١) انظر: الفتاوى (١٠/٣٩٧). (٢) انظر: الفتاوى (٢/٣٩٧).
(٣) انظر: الفتاوى (١٠/٥٥٦ ـ ٥٥٧).

المحاسبي: إن العقل غريزة..»اهـ[١].

تكلم الشيخ في مسألة حول الطهارة، واستطرد بذكر مسألة اتقاء الشبهات، **ثم قال**: «.. إنما يقتضي اتقاء الشبهات التي يشتبه فيها الحلال بالحرام، بخلاف ما إذا اشتبه الواجب أو المستحب بالمحظور، وقد ذكر ذلك أبو طالب المكي..»اهـ[٢].

وقال: «... وإذا كان وجل القلب من ذِكره يتضمن خشيته ومخافته؛ فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور، وترك المحظور، **قال سهل بن عبد الله**:[٣] ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كلّ خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، ...»اهـ[٤].

حادي عشر: من عدل الشيخ أنه لا يكتفي بسياق آراء مبتدعة الصوفية:

الذين خالفوا في آرائهم أهل السنة، وإنما يذكر أيضاً آراء صالحي الصوفية ومعتدليهم الذين وافقوا أهل السنة، ليبين أن الصوفية ليسوا كلهم على ضلال.

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين (ص٢٧٦).

(٢) انظر: الفتاوى (٢١/ ٣١٠ ـ ٣١١).

(٣) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، من أئمة الصوفية، ولد بتستر سنة ٢٠٠هـ، لقي ذا النون المصري. من كلام سهل الحسن قوله: أمس قد مات، واليوم في النزع، وغد لم يولد. له مصنفات؛ منها: تفسير القرآن، ورقائق المحبين ومواعظ العارفين، توفي بالبصرة سنة ٢٨٣هـ، وله من العمر ٨٠ سنة.
انظر: سير الأعلام (١٣/ ٣٣٠)، البداية والنهاية (٧/ ٤٥٢، حوادث سنة ٢٨٣هـ) معجم المؤلفين (٤/ ٢٨٤)، الأعلام (٣/ ١٤٣). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٠٠).

(٤) انظر: الفتاوى (٧/ ٢٠)، وانظر: الفتاوى (١٧/ ٣٠٥، ٢١/ ٢٨٧).

ومن ذلك: لما تكلم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن السماع لم يكتف بسياق رأي المؤيدين له من الصوفية، بل ساق رأي الذامِّين له، المعرضين عن أهله؛ كالجنيد، والجيلاني، رحمهما الله[1].

وتكلم الشيخ في موضع آخر عن افتتان فريق من الصوفية بالأحوال المبتدعة التي تصيبهم أثناء السماع وغيره، **ثم قال**: «ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، ولهذا: قال أبو عمرو بن نجيد: «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل»[2].

وقال سهل[3]: «كل عمل بلا اقتداء، فهو عذاب على النفس»[4].

وقال أبو عثمان النيسابوري[5]: «مَن أمَّر السنة على نفسه قولاً

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٥٩٢).

(٢) الأثر: أورده الغزالي في الإحياء (٢/ ٢٧٧، المقام الثالث من السماع) من قول سهل بن عبد الله التستري.

(٣) سهل بن عبد الله التستري، تقدمت ترجمته، (ص١٥٨).

(٤) الأثر: أورده القشيري في الرسالة (ص٤٠١)، ووقفت على هذه المقولة أيضاً بلفظ قريب مما ذكره شيخ الإسلام الشاطبي في الاعتصام (١/ ٦٨) فقال: «قال سهل التستري: كل فعل يفعله العبد بالاقتداء ـ طاعةً كان أو معصية ـ فهو عيش النفس ـ يعني باتباع الهوى ـ وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء فهو عتاب على النفس ـ يعني لأنه لا هوى له فيه ـ واتباع الهوى هو المذموم، ومقصود القوم تركه البتة».اهـ.

(٥) هو سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، أبو عثمان، أصله من الري، من كبار مشايخ الصوفية، وهو الذي نشر المذهب في نيسابور، صحِب يحيى بن معاذ وشاه الكرماني، توفي بنيسابور سنة ٢٩٨هـ.

انظر: طبقات الصوفية (ص١٧٠ ـ ١٧١)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦)، صفة الصفوة (٤/ ٨٥ ـ ٨٨)، الطبقات الكبرى (٢/ ١٠١)، وفيات الأعيان (١/ ٢٥٥). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي الشيخ فيه (٢/ ٤٥٥).

وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]»[١] اهـ[٢].

ـ وتكلم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الاتحادية وضلالهم، ورد عليهم، ثم استشهد بقولٍ لأبي سعيد الخراز[٣] لما «.. قيل له: بماذا عرفت ربك؟ قال: بجمعه بين الأضداد»اهـ[٤].

ولما تكلم عن الذوق عند الصوفية واعتماد فريق منهم عليه في التلقي، رد عليهم ذلك، واستشهد بقول أبي سليمان الداراني، **فقال**: «فإن الشيخ أبا سليمان من أَجِلاء المشايخ وساداتهم، حتى إنه قال: إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة»[٥]»اهـ[٦].

---

(١) الأثر: ذكره ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية (ص٥٥٦)، والشاطبي في الاعتصام (١/ ٦٨) بلفظ: وقال: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾. اهـ.

(٢) انظر: المنهاج (٥/ ٣٣٢).

(٣) هو أحمد بن عيسى الخراز، أبو سعيد، وأبو بكر، المرّي، من مشايخ الصوفية ببغداد، توفي سنة ٢٧٧هـ، وقيل بعدها بقليل.
انظر: طبقات الصوفية (ص٢٢٨ ـ ٢٣٢)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٦ ـ ٢٤٩)، صفة الصفوة (٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧)، شذرات الذهب (٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، سير الأعلام (١٣/ ٤١٩ وفيه: أحمد بن علي). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٣٢).

(٤) انظر: الجواب الصحيح (٤/ ٣٠١)، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٣).

(٥) ذكر ذلك أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (ص٧٨)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٢٢٩).

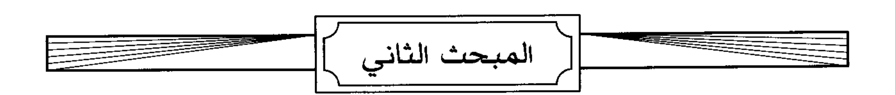
(٦) انظر: الفتاوى (١٠/ ٦٩٤، درء التعارض ٥/ ٣٤٩)، و انظر: الفتاوى =

وبما سبق يتبين لنا عدل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في عرض آراء المتصوفة، وسلامة صدره للمسلمين، ويتبين ذلك لنا عند النظر في حسن عبارته ومحاولته الاعتذار عنهم قدر المستطاع.

وسوف يأتي في مباحث قادمة تفصيل منهج الشيخ في الحكم عليهم من خلال عباراتهم، أو من خلال ما كتبوه.

❖ ❖ ❖

= (١١/٦٦٦، ١١/٣٢٠، ٣٥/١٠٨ ـ ١١١، ١٤/٤٦٦، ١٤/٢٩، ١٩/٢٧٧، ١٠/٤١٢)، المنهاج (٥/٣٣٩).



المبحث الثاني

منهجه في عرض أدلة الفرقة

لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ منهج متميز في التعامل مع أدلة الخصوم، في الإحاطة بها، وعرضها والرد عليها، ويمكن إجمال منهجه في عرض أدلة الصوفية في النقاط التالية:

أولاً: الإحاطة بجميع ما استدلوا به، من آيات وأحاديث وآثار عن العلماء، أو أقوال المشايخ المعتبرين.

وهذا واضح من خلال النظر في منهج الشيخ في المناقشة والرد على المخالفين، وسيأتي تفصيل ذلك عند سياق استدلالات الصوفية على مسائل الحلول والاتحاد، ومسائل السماع المبتدع، وغير ذلك من المسائل التي حررها الشيخ، وحصر الأدلة عليها وفندها[١].

ثانياً: الأغلب أنه يسمي المستدل إن كان واحداً، أو يسمي الكتاب الذي نقل منه الدليل والاستدلال.

ومن ذلك: **قوله في معرض كلامه عن الفناء ومعناه عند الصوفية:**

«.. كقول بعضهم: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧] أي: أن رأى ربه استغنى، والمعنى: إنه ليطغى أن رأى نفسه استغنى .. **وكقول بعضهم.. وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي «حقائق التفسير»**[٢]

(١) انظر: (ص٣٥٨، ٣٧٣) و(٢/ ١٨١ وما بعدها).

(٢) سيأتي ذكر نماذج من كلام أبي عبد الرحمن السلمي في هذا التفسير (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

من هذا قطعة»اهـ[١].

ثالثاً: قد يورد الشيخ الدليل دون أن يسمي المستدل.

ومن ذلك: قوله في معرض كلامه عن ابتداعهم للذكر بـ «الله».. «الله»..:

«.. وأغرب من هذا ما **قاله لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين**: في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، قال: المعنى: وما يعلم تأويل ﴿هُوَ﴾ أي اسم: هو، الذي يقال فيه: هو.. هو..»اهـ[٢].

ـ قوله في معرض كلامه عن الخلوات المبتدعة: «... وأما الخلوات، **فبعضهم يحتج فيها** بتحنّثه بغار حراء قبل الوحي»اهـ[٣].

ـ قوله أثناء كلامه عن السماع: «... وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي ﷺ: (أنه أنشد منشد... وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبه) فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وأكذب منه **ما يرويه بعضهم**: (أنه مزق ثوبه، وأن جبريل...) ...»اهـ[٤].

وبما تقدم في هذا المبحث يتبين أن الشيخ يحاول أن لا يدع شارداً ولا وارداً من أدلة الخصم، أو حججه وشبهاته إلا وعرضه عرضاً واضح العبارة سهل الفهم؛ ليحذر القارئ المستفيد من الوقوع في شَرَكِ البدعة.

ثم إن الناظرَ المتأملَ فيما يخطه يراعُ شيخ الإسلام عند عرضه لأدلة الخصوم، يلحظ الأدب الجم الرفيع، فهو يقول: (احتج فلان بكذا.. واستدلّ بعضهم بكذا.. ويروي بعضهم كذا..) دون أن يكتب

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥٦٠ ـ ٥٦١). (٢) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥٦٠).

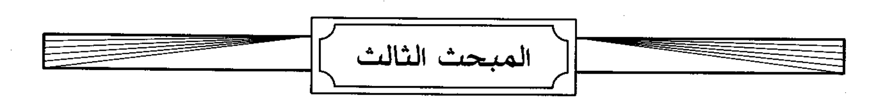
(٣) انظر: الفتاوى (١٠/ ٣٩٣)، وسيأتي تفصيل الكلام على هذه الروايات في مبحث «السماع» (٢/ ١٨٨).

(٤) انظر: الفتاوى (١١/ ١٦٨)، وسيأتي نقاش هذه المرويات في مبحث «السماع» (٢/ ٢٤٧).

عبارة جارحة، فلا تجده يقول: (احتج الفاجر.. أو: الزنديق.. أو: لعنه الله.. إلخ)، وهذا يدلّ على موضوعية الشيخ في عرض كلام الخصم، وعدم إشغال طالب العلم ـ القارئ المستفيد ـ بالسب والشتم.

وأيضاً فإن المقصود بالرد على الباطل هو إظهار خطأ هذا الباطل ليحذره الناس، وليس شرطاً أن يُسب قائلُ هذا الباطل ويُلعن، إلا إن احتاج الأمر إلى ذلك.





منهجه في الرد على أدلتها ومناقشتها

من أبرز ما يتميز به منهج شيخ الإسلام عند كلامه عن بدعة من البدع أنه لا يكتفي بعرض هذه البدعة وإيضاحها، ثم يهمل الرد عليها، أو يردّ رداً مجملاً مقتضباً ـ كما يفعل بعض المصنفين في العقائد والمقالات ـ[1]، لا، بل يرد على أدلة الخصوم ويناقشهم، مع العدل في النظر إلى آرائهم، والاعتدال والموضوعية في مناقشة أدلتهم والرد عليها، والبعد عن الانفعال عند الحكم عليهم وتفنيد آرائهم.

ويمكن إجمال منهج الشيخ في الرد على أدلة الصوفية، ومناقشتها في أمور:

أولاً: سلامة الصدر، وحسن الظن بهم، مع التماس الأعذار لهم.

ومن ذلك: تكلم الشيخ عن قول بعض الصوفية: إن الأوامر والنواهي هي للعوام دون الخواص، ثم ذكر استدلالهم **فقال**: «... وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحِجر: ٩٩]، وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة، **وقول هؤلاء كفر صريح، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر**»اهـ[2].

---

(١) سيأتي بيان منهج أربعةٍ من المصنفين في المقالات، والموازنة بين منهجهم ومنهج شيخ الإسلام (ص١٨٣).

(٢) انظر: الفتاوى (١٠/ ١٦٦).

ثانياً: يورد الشيخ ـ أحياناً ـ عدة أدلة للخصم، ثم يرد عليها رداً واحداً، من وجوه.

ومن ذلك: تكلم الشيخ عن كذب المبتدعة عموماً، والصوفية خصوصاً على رسول الله ﷺ، واختلاقهم الأحاديث للانتصار لمذهبهم، ثم أورد عدداً من الأحاديث التي يستدل بها الصوفية على مشروعية السماع البدعي، ورد عليها رداً واحداً من وجوه، **فقال:** «... والأحاديث التي يروونها في استماع النبي ﷺ هو وأصحابه، وتواجده، وسقوط البردة عن ردائه، وتمزيقه الثوب، وأخذ جبريل لبعضه، وصعوده به إلى السماء، وقتال أهل الصفة مع الكفار، واستماعهم لمناجاته ليلة الإسراء، والأحاديث المأثورة في نزول الرب إلى الأرض يوم عرفة، وصبيحة مزدلفة، ورؤية النبي ﷺ له في الأرض بعيني رأسه، وأمثال هذه الأحاديث... **وكان من الدلائل على انتفاء هذه الأمور المكذوبة وغيرها، وجوه: ...**»اهـ[1].

ثالثاً: يقرر الشيخ قاعدة عامة في الرد على الصوفية في مسألة معينة، دون إيراد أدلتهم في ذلك؛ لأن جميع أدلتهم في هذه المسألة المعيّنة تكون واهية:

ومن ذلك: تكلم عن غلو الصوفية في الرجال، وتعلقهم بالأقطاب والأوتاد، وغيرهم، وروايتهم الأحاديث في ذلك، **ثم قال:** «... وكذا كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب...[2]، **فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ**، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ»اهـ[3].

---

(١) انظر: الفتاوى (٢٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

(٢) سيأتي التعريف بهذه المصطلحات في مبحث خاص بها (ص٥٤٩ ـ ٥٥١).

(٣) انظر: الفتاوى (١١/ ١٦٧).

رابعاً: عند إيراد الشيخ لاستدلالهم بحديثٍ ما على مسألة من مسائلهم البدعية، فإنه ينوّع الرد عليه، بأشكال ثلاثة:

أ ـ الرد بالحكم على إسناد الحديث:

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن حجج الصوفية على جواز السماع البدعي: «... وقال أبو القاسم[1]: وقد روي أن رجلاً أنشد بين يدي النبي ﷺ، فقال:

أقبلت فلاح لها عارضان كالسَّبَجِ[2]
أدبرت فقلت لها والفؤاد في وهجِ:
هل عليّ وَيْحكم إن عشقت من حرجِ؟

فقال رسول الله ﷺ: لا حرج إن شاء الله. **قلت**: هذا الحديث موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، لا أصل له، وليس في شيء من دواوين الإسلام، وليس له إسناد..»اهـ[3].

ب ـ الرد من الناحية اللغوية.

ومن ذلك: أنه أورد استدلال الصوفية بقوله ﷺ في تعريف الإحسان: **(فإن لم تكن تراه فإنه يراك)** على فنائهم المبتدع، **فقال**: «... وكقول بعضهم: (فإن لم تكن تراه): يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك، وليس هذا معنى الحديث، **فإنه لو أريد لقيل: فإن لم تكن تره، وقد قيل (تراه)، ثم كيف يصنع بجواب الشرط؟ وهو قوله: (فإنه يراك)**،

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤١).
(٢) السَّبَجُ: خرزٌ أسود، دخيل معرّب، وأصله: شبه.
انظر مادة: (سبج)، في تاج العروس للزبيدي (٦/ ٢٧)، القاموس (ص٢٤٦).
(٣) انظر: الاستقامة (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وانظر تفصيل الكلام على هذه الرواية في: مبحث السماع (٢/ ١٨٨).

ثم إنه على قولهم الباطل تكون كان تامة، فالتقدير: فإن لم تكن: أي لم تقع، ولم تحصل، وهذا تقدير محال؛ فإن العبد كائن موجود ليس بمعدوم، ولو أريد فناؤه عن هواه أو فناء شهوده للأغيار لم يعبر بنفي كونه؛ فإن هذا محال..»اهـ[١].

ج - الرد من الناحية التاريخية.

ومن ذلك: أنه أورد ما يزعمه فريق من المتصوفة من إمكان استغناء بعض الناس عن اتباع الرسول ﷺ، كما استغنى أهل الصفة عن الرسول ﷺ، **فقال:** «... وقد يقول بعض هؤلاء: إن أهل الصفة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل إليهم، ومنهم من يقول: إن الله أوحى إلى أهل الصفة في الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج، فصار أهل الصفة بمنزلته، **وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالى:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وأن الصُّفَّة لم تكن إلا بالمدينة، وكانت صُفَّة في شمالي مسجده ﷺ»اهـ[٢].

خامساً: لما كان من منهج المتصوفة الاحتجاج في مسائل الدين بأفعال الرجال[٣]، نجد أن الشيخ لا يكتفي بالرد على استدلالهم بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وإنما يورد احتجاجهم بأقوال الأئمة المعتبرين عندهم ثم يرد على هذا الاحتجاج.

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥٦٠). (٢) انظر: الفتاوى (١١/ ١٦٥).

(٣) ومن ذلك ما أورده الشيخ رحمه الله في الاستقامة (١/ ٢٩٩)، حيث قال: «وبهذا يحصل الجواب عمّا ذكره أبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب» حيث ذكر أنه من أنكر السماع مطلقاً غير مقيد فقد أنكر على سبعين صدّيقاً...»اهـ.
وسيأتي سياق كلام أبي طالب بنصه (٢/ ٢٥٥، حاشية ٤).

وله في ذلك ثلاثة أساليب:

أ ـ الرد من جهة المتن:

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عمّا احتج به القشيري لجواز السماع:

«ثم قال أبو القاسم[(١)]: «وحكى إسماعيل بن عُلَية[(٢)] قال: كنت أمشي مع الشافعي رحمه الله[(٣)] وقت الهاجرة، فجزنا بموضع يقول فيه أحدٌ شيئاً، فقال: مِلْ بنا إليه، ثم قال: أيُطربك هذا؟ فقلت: لا، فقال: ما لك حِس».

قلت: قد كان مستغنياً عن أن يستشهد على الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعي، فإن إسماعيل بن علية شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه، ولم يروِ هذا عن الشافعي،... فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس ...»اهـ[(٤)].

ـ قوله أثناء جوابه عمّا احتج به القشيري لجواز السماع: «... قال أبو القاسم[(٥)]: «وسئل ذو النون عن الصوت الحسن، فقال:

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤١ ـ ٦٤٢).

(٢) هو إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم، المشهور بابن علية، وهي أُمه، الإمام الحافظ، وُلد سنة ١١٠هـ، وبرع في الفقه والحديث والفتيا، توفي سنة ١٩٣هـ، وله ثلاث وثمانون سنة.
انظر: الثقات لابن حبان (٦/ ٤٤)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧/ ٥٢)، سير الأعلام (٩/ ١٠٧)، شذرات الذهب (١/ ٣٣٣).

(٣) هو محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي القرشي، الإمام المشهور صاحب المذهب، وُلد في غَزّة، ونشأ يتيماً، توفي سنة ٢٠٤هـ، وله نيِّف وخمسون سنة.
انظر: طبقات الشافعية للسبكي (ج١ كاملاً)، سير الأعلام (١٠/ ٥)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٨٤)، الحلية (٩/ ٦٣).

(٤) انظر: الاستقامة (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨). (٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٤).

مخاطبات وإشارات أودعها الله كلّ طيب وطيبة. وسئل مرة أخرى عن السماع، فقال: وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق».

قلت: هذا الكلام لم يسنده عن ذي النون،... ومِن أكثر الكذبِ: الكذبُ على المشايخ المشهورين،... **فإن كان هذا الكلام ثابتاً عن ذي النون ـ رحمة الله عليه ـ فالكلام عليه من وجهين:** من جهة الاحتجاج بالقائل، ومن جهة تفسير المنقول، أما الأول:...»اهـ[1].

ب ـ الرد من جهة السند:

ومن ذلك: قوله رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض حكايته لمذهب الصوفية في الأسماء والصفات:

«... قال[2]: «قيل ليحيى بن معاذ[3]: أخبرني عن الله، فقال: إله واحد، فقال: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، فقال: أين هو؟ فقال:

(١) انظر: الاستقامة (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٢) القائل هو: أبو القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في الرسالة القشيرية (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، من خيار المتصوفة، له كلام حسن، منه قوله: الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل، وعلامة التائب إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة، وقوله: ليكن حظ المؤمن منك ثلاثاً: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تُفْرِحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه، وقوله: لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة، وقوله: لا تستبطئ الإجابة إذا دعوت وقد سددت طرقاتها بالذنوب. توفي بنيسابور سنة ٢٥٨هـ.

انظر: طبقات الصوفية (ص١٠٧ ـ ١١٤)، حلية الأولياء (١/ ٥١ ـ ٧٠)، الطبقات الكبرى (١/ ٩٤)، صفة الصفوة (٤/ ٧١ ـ ٨٠). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥١١).

بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرتك عنه».

قلت: لا تُعلم صحة هذا الكلام عن يحيى بن معاذ؛ إذ في الإسناد من لا نعرفه،...»اهـ[١].

ـ قوله أثناء كلامه عن مسألة المعية والعلوّ عند الصوفية: «قال القشيري[٢]: «وسئل ذو النون المصري عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فقال: أثبت ذاته ونفى مكانه، فهو موجود بذاته والأشياء موجودة بحكمه كما شاء».

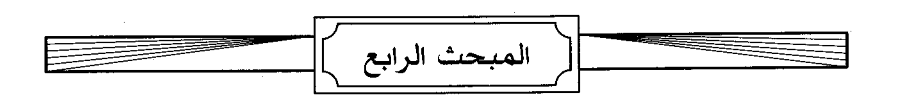
قلت: هذا الكلام لم يذكر له إسناداً عن ذي النون، وفي هذه الكتب من الحكايات المسندة شيء كثير لا أصل له، فكيف بهذه المنقطعة؟ . . .»اهـ[٣].

ج ـ الرد على رأي الإمام المحتج به، برأي إمام آخر.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الفناء عند المتصوفة، وأنه يكون بزوال الفرق بين الحسنات والسيئات، ثم ذكر احتجاجهم بحال أبي منصور الحلاج، **فقال:** «**ومنهم من يقول: إن الحلاج كان هذا مشهده،** وإنما قُتل لأنه باح بالسرّ الذي ما ينبغي البَوح به.. **وكان الجنيد** ـ قدس الله روحه ـ **لما وصل أصحابه ـ كالثوري وأمثاله ـ إلى هذا المقام أمرهم بالفرق الثاني**، وهو: أن يفرقوا بين المأمور والمحظور، ومحبوب الله ومرضيه، ومسخوطه ومكروهه،.. وهو حقيقة قول لا إله إلا الله، فمنهم من أنكر على الجنيد، ومنهم من توقف، ومنهم من وافق، والصواب ما قاله الجنيد..»اهـ[٤].

---

(١) انظر: الاستقامة (١/ ١٨٥).
(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٤٠).
(٣) انظر: الاستقامة (١/ ١٨٨).
(٤) انظر: الفتاوى (١٩/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨).


المبحث الرابع

منهجه في إيراد عباراتهم، والحكم عليها

المتأمل في كلام الصوفية عامّة، ومشايخهم خاصة، يجد لهم عبارات يوحي ظاهرها بالكفر والضلال، لذا يسارع كثير من الناظرين في هذه العبارات إلى تكفير قائلها، والحكم بضلاله وزندقته. أما شيخ الإسلام، فقد كان له منهج متميز بالعدل وإحسان الظن في النظر إلى هذه العبارات والحكم عليها، فيعطي كل عبارة حقها، ويبين الفرق بين ما هو كفر صريح أو محتمل.

ويمكن بيان منهج الشيخ رحمه الله في النقاط التالية:

أولاً: اعتذار الشيخ ـ إجمالاً ـ عن بعض عباراتهم، وتقريره أن الشيوخ الصالحين لا يؤخذ عليهم كغيرهم.

ومن ذلك: قوله في معرض كلامه عن الحلولية: «... وفيهم صنف ثالث أمثل من هذين يجمعون بين الحلول والمباينة، وهو قول طائفة من الناس... وقد يوجد في كلام أبي طالب المكي، وابن برجان[1]... ما يقال: إن فيه ما يشبه هذا، وعامة هؤلاء يتكلمون بكلام متناقض أو بكلام لا حقيقة له، إذ كان الأصل الذي بنوا كلامهم عليه

---

(١) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن برجان اللخمي الإشبيلي، أبو الحكم، متصوف، توفي سنة ٥٣٦هـ.

انظر: لسان الميزان (١٣/٤ ـ ١٤)، فوات الوفيات (٥٦٩/١ ـ ٥٧٠)، الأعلام (١٢٩/٤).

أصلاً باطلاً... **لكن شيوخ أهل العلم الذين لهم لسان صدق، وإن وقع في كلام بعضهم ما هو خطأ منكر، فأصل الإيمان بالله ورسوله إذا كان ثابتاً غُفر لأحدهم خطأه الذي أخطأه بعد اجتهاده**»اهـ[١].

وسئل عن الحيرة التي تعرض لبعض السالكين، وعن قول محمد بن الفضل[٢]: «العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة، وقال: «أعرَفُ الناسِ بالله أشدهم فيه تحيّراً»، وقال الجنيد: «انتهى عقلُ العقلاء إلى الحيرة، وقال ذو النون: غاية العارفين: التحيّر».

فقال: «.. والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: ٧١]، وفي الجملة، فالحيْرة من جنس الجهل والضلال،.. ولم يمدح الحيرة أحد من أهل العلم والإيمان، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة؛ كصاحب الفصوص، ابن عربي وأمثاله...

والمقصود هنا الكلام على ما ذُكر عن هؤلاء الشيوخ.

وأما **قول محمد بن الفضل**: «العارف كلّما...»، **فهذا قد يُراد به أنه كلّما انتقل إلى مقام من المعرفة واليقين حصل له تشوّق إلى مقام لم يصل إليه من المعرفة**، فهو حائر بالنسبة إلى ما لم يصل إليه دون ما وصل إليه.

---

(١) انظر: الصفدية (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

(٢) هو محمد بن الفضل بن العباس، أبو عبد الله بلخي الأصل، سكن سمرقند، صحب أحمد بن خضرويه المروزي، توفي سنة ٣١٧هـ.
انظر: الحلية (١٠/ ٢٣٢)، سير الأعلام (١١/ ١٦)، (١٤/ ٢٥٢)، تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ٨٠٢).

وقوله: **أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيّراً، أي أطلبهم لزيادة العلم والمعرفة**، فإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد. . .

وما نُقل عن الجنيد أنه قال: «انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة»، فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد، **وفيه نظر هل قاله؟ ولعلّ الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود، فإن كان قد قال هذا** فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه، لم يُرد أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم، **فإن الجنيد أجلّ من أن يريد هذا**...

لكن إذا قيل: إن أهل المعرفة مهما حصّلوا من المعرفة واليقين والهدى، فهناك أمور لم يصلوا إليها، فهذا صحيح. . .

وما ذُكر عن ذي النون هو من هذا الباب، مع أن ذا النون قد وقع منه كلام أُنكر عليه، وعزّره الحارث بن مسكين[١]. . فما أدري هل قال هذا أم لا؟ بخلاف الجنيد فإن الاستقامة والمتابعة غالبة عليه.

وإن كان كُلٌّ يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، وما ثَمّ معصوم من الخطأ غير الرسول ﷺ، لكن الشيوخ الأجِلاء الذين عُرف صِحة طريقتهم عُلم أنهم لا يقصدون ما يُعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»اهـ[٢].

---

(١) هو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف، الإمام العلّامة، حمل عن سفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب وغيرهما، وأخذ في المحنة، فحبس دهراً حتى أخرجه المتوكل وولاه قضاء مصر، وكان من كبار أئمة السنة الثقات. ولد سنة ١٥٤هـ، وتوفي سنة ٢٥٠هـ.
انظر: سير الأعلام (١٢/ ٥٤)، البداية والنهاية (٧/ ٣٧٤)، شذرات الذهب (٢/ ١٢١).

(٢) انظر: الفتاوى (١١/ ٣٨٣ ـ ٣٩٣).

ثانياً: عند نظر الشيخ في العبارة، ينظر إلى حال قائلها وقت تكلّمه بها، ومدى اتباعه للسنة عموماً، ثم يحكم على عبارته.

ومن ذلك: قال الشيخ في معرض كلامه عن غلوّ فريق من المتصوفة في المحبّة: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين، . . **كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً، فأنا بريء منه**،.. **ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد**، وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، **وهي: إما كذب عليهم؛ وإما غلط منهم.**

ومثل هذا قد يصدر في حال سُكر يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتى لا يدري ما قال، والسُكْر هو لذة مع عدم تمييز، ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام»اهـ[(١)].

- تكلم عن غَيبة العقل التي تعرض لطائفة من المتصوفة، وأنهم يسمون هذه الحال فناءً، ويتمدحون بها، ثم قال: «. . . وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، **حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه**، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد[(٢)]، وأبي الحسين

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٢٠٩).

(٢) هو طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، أبو يزيد، من مشاهير الصوفية، كان جده مجوسياً فأسلم، تُروى عنه شطحات كثيرة وأقوال منكرة، اعتذر عنه شيخ الإسلام بأنه كان يقولها في حال غيبة العقل، واعتذر عنه الذهبي، فقال: «وله هكذا نكت مليحة، وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو، فيُطوى ولا يُحتج بها، إذ ظاهرها إلحاد مثل: . . ما النار؟ لأستندنّ إليها غداً، وأقول: اجعلني فداءً لأهلها وإلا بلعتها، ما الجنة؟ لعبة صبيان ومُراد أهل الدنيا»اهـ، ولد =

النوري[١]، وأبي بكر الشبلي، وأمثالهم»اهـ[٢].

- وقال في معرض كلامه عن الاتحادية وما نُقل عن بعض الشيوخ من كلمات توهم الحلول والاتحاد:

«... **وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالى، فهذا كفر صريح** يقوله أعداء الله النصارى، ومَنْ غلا مِنَ الرافضة، وجُهال المتصوفة، ومَنِ اعتقده فهو كافر...

وإن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ، فكثير منه مكذوب،.. والذي يصح منه عن الشيوخ له معانٍ صحيحة، ومنه ما صدر عن بعضهم في حال استيلاء حال عليه، ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول، ثم إذا ثاب إليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول، ويُكفّر من يقوله، وما يخرج من القول في حال غيبة عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة، ولا حكم له، بل القلم مرفوع عن النائم والمجنون والمُغمى عليه والسكران الذي سكر بغير سبب محرم، مثل من يسقى الخمر وهو لا يعرفها، أو أُوجِرها[٣] حتى سكِر، أو أُطعم

= سنة ١٨٨هـ، وتوفي سنة ٢٦١هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٦٧ ـ ٧٤)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٣ ـ ٤٢)، سير الأعلام (١٣/ ٨٦). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥١٢).

(١) في المطبوع: أبو الحسن، والتصحيح من كتب التراجم.
وأبو الحسين النوري هو: أحمد بن محمد النوري، خراساني الأصل، بغدادي المنشأ، صحِب السري السقطي وغيره، توفي سنة ٢٩٥هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص١٦٤)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٩ ـ ٢٥٥)، صفة الصفوة (٢/ ٢٩٤)، وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥٠٥).

(٢) انظر: الفتاوى (١٠/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٣) أوجرها: أي جُعلت في فمه، وأُسقيَ إياها قسراً، يُقال: أوجره الدواء: =

البنج وهو لا يعرفه، فكذلك. وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله، وعظمته، وجماله، أموراً عظيمة، تصادف قلوباً رقيقة، فتحدث غَشْياً وإغماءً، ومنها ما يوجب الموت، ومنها ما يُخلّ بالعقل، وإن كان الكاملون منهم لا يعتريهم هذا كما لا يعتري الناقصين عنهم، لكن يعتريهم عند قوة الوارد على قلوبهم، وضعف المحل المورود عليه، فمن اغتر بما يقولونه أو يفعلونه في تلك الحال كان ضالاً مضلاً»اهـ[١].

ثالثاً: اجتهاد الشيخ في توجيه عباراتهم، وتخريجها على مقاصد حسنة:

ومن ذلك: قوله في معرض كلامه عن الغَيْرة ومعانيها عند المتصوفة: «.. وأما قول أبي عثمان: «الغَيْرة من عمل المريدين، أما أهل الحقائق فلا»، **فلم يُرد** ـ والله أعلم ـ **بذلك الغَيْرة على محارم الله، وهي الغَيْرة الشرعية، فإن قَدْر الشيخ أبي عثمان أجلّ** من أن يجعل الغَيْرة التي وصف الله بها نفسه، وكان رسوله ﷺ فيها أكمل من غيره، وهي مما أوجبه الله وأحبَّه، من عمل المريدين دون أهل الحقائق.

وإنما يعني الغَيْرة الاصطلاحية التي يسميها هؤلاء المتأخرون غَيْرة، كما قدمنا، مثل الغيرة المتضمنة للمنافسة والحسد، مثل أن يغار أحدهم إذا رأى غيره سبقه إلى الحق، أو نال منه نصيباً وافراً، ونحو ذلك، فإن هذا كثير جداً في السالكين...»اهـ[٢].

= إذا أسقاه إياه قسراً، وأوجره الرمح: إذا أدخله فيه وطعنه به قسراً، ومنه:
أوجرته الرمح شزراً ثم قلت له: هذي المروءة لا لعب الزحاليق
انظر: تاج العروس (٧/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥).

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٧٤ ـ ٧٥)، وانظر للاستزادة: الفتاوى (٢/ ٤٠١، ٤٦١، ٤٨٢).

(٢) انظر: الاستقامة (٢/ ٣٨ ـ ٣٩).

ـ ما ذكره في معرض كلامه عن مذهب الصوفية في الأسماء والصفات.

«قال[١]: «ورأيت بخط الأستاذ أبي علي[٢] أنه قيل لصوفي: أين الله؟ فقال: أسحقك الله، تطلب مع العين أثراً؟»».

قلت: هذا كلام مجمل، قد يعني به الصدّيق معنًى صحيحاً، ويعني به الزنديق معنًى فاسداً، فإن السائل: أين الله؟ قد يكون سؤاله عن شك عن معرفة ما يستحقه الله من العلوّ، وقد يكون الاستعلام عن حال المسؤول، كما سأل النبي ﷺ الجارية: (**أين الله؟**)[٣].

فالذي سأل الصوفي: أين الله؟: إن كان شاكاً في نعت ربه، أو

---

(١) يعني: أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في: الرسالة القشيرية (١/ ٤١).

(٢) هو الحسن بن علي الدقاق النيسابوري، أبو علي، الأستاذ، كان يعظ الناس ويتكلم على الأحوال والمعرفة، وهو شيخ أبي القاسم القشيري ـ صاحب الرسالة ـ، له كلام حسن، منه قوله: من تواضع لأحد لأجل دنياه ذهب ثلثا دينه؛ لأنه خضع له بلسانه وأركانه، فإن اعتقد تعظيمه بقلبه أو خضع له به ذهب دينه كله، توفي سنة ٤١٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٢٧، حوادث سنة ٤١٢هـ)، الكامل في التاريخ (٩/ ٣٢٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٨٠).

(٣) الحديث عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، طلعت غُنَيْمَةٌ لي ترعاها جارية لي في ناحية أُحد، فوجدت الذئب قد أصاب منها شاة، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، فصككتها صكةً، ثم انصرفت فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته فعظّم عليّ ذلك، فقلت: يا رسول الله ألا أُعتقها؟ قال: (إيتني بها)، فأتيت بها رسول الله ﷺ، فقال لها: (أين الله؟) قالت: في السماء، قال: (من أنا؟) قالت: أنت رسول الله، قال: (إنها مؤمنة، أعتقها). رواه: مسلم (المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ١/ ٣٨١/ ٣٣)، وأبو داود (الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة، ١/ ٥٧٣/ ٩٣١)، وأحمد (٥/ ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩).

جاهلاً بحال المسؤول، فهو ناقص، فيحتمل أن الصوفي كان عارفاً بالله، وقد عاين السائل من حاله ما عرف به صدقه، فقال: سؤالك سؤال من يريد أن يستدل بالأثر على حالّ، وأنت قد عاينت ما يغنيك عن ذلك؛ فقال: أتطلب مع العين أثراً أو هدًى؟...

وظاهر حال الصوفي الذي ذكره الأستاذ أبو علي[١] أنه قصد هذا؛ لأنه قال للسائل: أسحقك الله!! أتطلب مع العين أثراً؟...

وأما المعنى الذي يعنيه الزنديق، فأن يكون من أهل الاتحاد المعين، فيعتقد أنه عاين الله ببصره في الدنيا، فيقول: أتطلب مع العين أثراً؟...»اهـ[٢].

رابعاً: تشكيك الشيخ في ثبوت بعض الأقوال والعبارات المبتدعة عن المشايخ المنسوبة إليهم.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الاتحادية، وما نُقل عن بعض المشايخ من عبارات يوهم ظاهرها القول بالاتحاد والحلول:

«... وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالى، فهذا كفر صريح،... وإن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ، **فكثير منه مكذوب، اختلقه الأفّاكون من الاتحادية المباحية**، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية...»اهـ[٣].

- **قوله في معرض كلامه عن الاستغاثة بغير الله تعالى:** «وأما ما حُكي عن بعض المشايخ من قوله: إذا نزل بك حادث أو أمر تخافه، فاستَوْحني أكشف ما بك من الشدة حياً كنت أو ميتاً، **فهذا الكلام ونحوه**

---

(١) في المطبوع: الأستاذ أبي علي، وهو خطأ.

(٢) انظر: الاستقامة (١/ ١٩١ - ١٩٣)، وانظر للاستزادة: الفتاوى (٢/ ٣٤٥، ٣٩١).

(٣) انظر: الفتاوى (١١/ ٧٤).

إما أن يكون كذباً من الناقل أو كذباً من القائل، **فإنه نقل لا يُعرف صدقه عن قائل غير معصوم،...**»اهـ[١].

وبهذا العرض المفصل يتضح لنا ما كنا قررناه سابقاً من عدل شيخ الإسلام، وسلامة صدره في التعامل مع أقوال الخصوم وآرائهم، بل ومحاولة الاعتذار عنهم فيما يقولون، فتجده مرة يعتذر بأن القائل تلفظ بالعبارة المبتدعة وهو في غيبة عقله، أو كان مغلوباً على عقله، أو هذه العبارة مكذوبة عليه، أو تجد أحياناً أن الشيخ يسوق عبارات أخرى لهذا القائل تخالف ما ذكر عنه ليلتمس له العذر، ونحو ذلك.

فأين هذا المنهج من مناهج المتعاملين مع آراء شيخ الإسلام من خصومه؟ كم ألَّفوا من الردود عليه، وكم كفَّروه وبدّعوه، وكم سعوا في قتله وسجنه وإخراجه، حتى مات في السجن رَحِمَهُ اللَّهُ، ومع ذلك نجد أن الشيخ يلتزم منهج الكتاب والسنة لا يحيد عنه.

وسيتبين لنا فيما يأتي من مباحث ما ذكرناه هنا بصورة أوضح.



(١) انظر: الفتاوى (٢٧/ ١٢٥)، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ تفصيل الكلام على الاستغاثة بغير الله عند الصوفية، في المبحث الخاص بذلك (ص٥٩٥).

الفصل الثالث

تقويمه لكتب المقالات مع الموازنة بينها وبين منهج شيخ الإسلام[1]

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: كتاب «مقالات الإسلاميين» للأشعري

المبحث الثاني: كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم

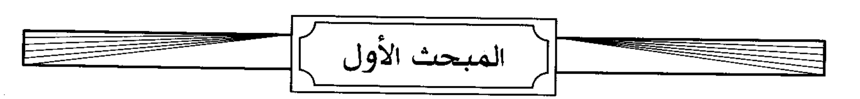
المبحث الثالث: كتاب «الملل والنحل»، للشهرستاني

المبحث الرابع: كتاب «الفَرْق بين الفِرَق»، للبغدادي

---

(١) وهذه الموازنة والمقارنة بين منهج شيخ الإسلام ومنهج المصنفين في هذه الكتب، سوف تقتصر على ما حكاه شيخ الإسلام أو حكاه هؤلاء المصنفون عن مذهب الصوفية، أما المذاهب الأخرى كالجهمية والمعتزلة والباطنية والشيعة والخوارج وغيرها من الفرق، فقد تمّ بحثها من قِبَل زملائي في رسائلهم، ولا أرى داعياً لتكرار ما كتبوا.





تقويمه لكتاب «مقالات الإسلاميين(١) لأبي الحسن الأشعري»(٢)

تمهيد:

كتاب «مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن الأشعري من أشهر كتب المقالات وأجمعها، وقد اقتصر فيه على ذكر أقوال الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ولم يورد أقوال غير المنتسبين إلى الإسلام، من اليهود والنصارى والمجوس، ونحوهم.

---

(١) يرى بعض المعاصرين المؤلفين في الفرق؛ مثل د. عبد الرحمن بدوي ووافقه د. محمد أحمد عبد القادر، بأن اسم الكتاب كما ورد في ثبت أسماء مؤلفات الأشعري لدى ابن عساكر وغيره: «مقالات المسلمين»، وأن لفظ «إسلاميين» إنما هو استعمال غير مألوف، لا في عصر الأشعري ولا قبله، وأنه ينبغي الأخذ باللفظ الذي استقر عليه الاستعمال في القرآن والسنة: مسلم ومسلمين.
وأيضاً مما يؤكد ذلك كلام الأشعري نفسه؛ إذ يقول: «وألفنا كتاباً في مقالات المسلمين يستوعب اختلافهم ومقالاتهم».
انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص١٣١)، مذاهب الإسلاميين د. عبد الرحمن بدوي (١/ ٥٢٧)، كتب تاريخ الفرق دراسة نقدية مقارنة د. محمد أحمد عبد القادر (ص١٤٢)، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ـ محمد بن ناصر السحيباني (ص٢٥٣ حاشية، ط. دار الوطن، الرياض، الأولى ١٤١٧هـ).

(٢) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري اليماني البصري، الإمام المتكلم المشهور، مرّ بأطوار ما بين مذاهب متعددة، ثم مات على مذهب أهل السنة والجماعة ـ في الجملة ـ، توفي سنة ٣٢٤هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (١٥/ ٨٨).

وقد ألفه على سبيل الاختصار، وقال في مقدمته: «..أما بعد: فإنه لا بدّ لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها من معرفة المذاهب والمقالات،.. فحداني ما رأيت من ذلك على شرح ما التمست شرحه من أمر المقالات، واختصار ذلك، وترك الإطالة والإكثار»اهـ[1].

وباستقراء ما ذكره شيخ الإسلام عن كتاب مقالات الإسلاميين: نجد أن الشيخ يُعدُّ كتاب مقالات الإسلاميين من أجمع الكتب التي رآها في مقالات الناس المختلفين في أصول الدين، وأبسطها، وفيه من الأقوال وتحريرها ما لا يوجد في غيره.

ومع هذا، فالقول الذي جاء به الكتاب والسنة وقال به السلف ليس في كتابه.

وقد ذكر شيخ الإسلام مصادر أبي الحسن الأشعري فيما ذكره عن الفرق التي عرض أقوالها، وقوَّم منهج الأشعري في ذلك.

ومما ذكره الشيخ في ذلك: أن الأشعري ذكر مقالة المعتزلة مفصلة: حيث يذكر قول كل واحد منهم، وما بينهم من النزاع، وبيّن شيخ الإسلام أن الأشعري كان بمقالات المعتزلة أعلم منه بغيرها؛ لقراءته عليهم أولاً وعلمه بمصنفاتهم.

وأما مقالة الخوارج: فذكر أن نقله لها من كتب أرباب المقالات - من المعتزلة والشيعة - لا عن مباشرة منه للقائلين، ولا عن خبرة بكتبهم، لكن فيها تفصيل عظيم.

وأما مقالة ابن كلاب: فبين الشيخ أن الأشعري ذكرها عن خبرة بها ونظر في كتبه.

---

(١) مقالات الإسلاميين (١/ ٣٣ ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ).

وأما مقالة أهل السنة والحديث: فذكر شيخ الإسلام أن أبا الحسن الأشعري ذكر أمراً مجملاً، تلقّى أكثره عن زكريا بن يحيى الساجي[1]، وبعضه عمن أخذ عنه من حنبلية بغداد ونحوهم.

وذكر الشيخ: أن الأشعري ذكر اختلاف الناس في القرآن من عدة كتب.

وفيما يلي نصّ كلام شيخ الإسلام، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومن أجمع الكتب التي رأيتها في مقالات الناس المختلفين في أصول الدين كتاب أبي الحسن الأشعري، وقد ذكر فيه من المقالات وتفاصيلها ما لم يذكره غيره، وذكر فيه مذهب أهل الحديث والسنة بحسب ما فهمه عنهم**، وليس في جنسه أقرب إليهم منه، ومع هذا نفس القول الذي جاء به الكتاب والسنة وقال به الصحابة والتابعون لهم بإحسان في القرآن والرؤية والصفات والقدر وغير ذلك من مسائل أصول الدين ليس في كتابه، وقد استقصى ما عرفه من كلام المتكلمين...

وهذا مما مُدح به الأشعري، فإنه بيّن من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادها ما لم يبينه غيره؛ لأنه كان منهم، وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبَّائي أربعين سنة، وكان ذكياً، ثم إنه رجع عنهم وصنف في الرد عليهم.

ونصر في الصفات طريقة ابن كلاب؛ لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم ولم يعرف غيرها، فإنه لم يكن خبيراً بالسنة والحديث وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم، وتفسير السلف للقرآن، والعلمُ بالسنة المحضة إنما يستفاد من هذا.

---

(١) هو زكريا بن يحيى الساجي البصري، الإمام الحافظ، محدث البصرة، كان أحد الأئمة الحفاظ الثقات، توفي سنة ٣٠٧هـ.

انظر: العبر (١/ ٤٥٢)، البداية والنهاية (١١/ ١٣١)، تهذيب التهذيب (١/ ٢٦٢)، تاريخ بغداد (٨/ ٤٥٨).

ولهذا يذكر في المقالات مقالة المعتزلة مفصلة: يذكر قول كل واحد منهم، وما بينهم من النزاع في الدق والجل ـ كما يحكي ابن أبي زيد مقالات أصحاب مالك، وكما يحكي أبو الحسن القدوري(١) اختلاف أصحاب أبي حنيفة ـ.

ويذكر أيضاً مقالات الخوارج والروافض، لكن نقله لها من كتب أرباب المقالات، لا عن مباشرة منه للقائلين ولا عن خبرة بكتبهم، ولكن فيها تفصيل عظيم.

ويذكر مقالة ابن كلاب عن خبرة بها ونظر في كتبه.

ويذكر اختلاف الناس في القرآن من عدة كتب.

فإذا جاء إلى مقالة أهل السنة والحديث ذكر أمراً مجملاً، يلقى أكثره عن زكريا بن يحيى الساجي، وبعضه عمن أخذ عنه من حنبلية بغداد ونحوهم، وأين العلم المفصل من العلم المجمل؟ وهو يشبه من بعض الوجوه علمنا بما جاء به محمد ﷺ تفصيلاً، وعلمنا بما في التوراة والإنجيل مجملاً لما نقله الناس عن التوراة والإنجيل، وبمنزلة علم الرجل الحنفي أو الشافعي أو المالكي أو الحنبلي بمذهبه الذي عرف أصوله وفروعه واختلاف أهله وأدلته، بالنسبة إلى ما يذكرونه من خلاف المذهب الآخر؛ فإنه إنما يعرفه معرفة مجملة.

فهكذا معرفته بمذهب أهل السنة والحديث، مع أنه من أعرف

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي القدوري، أبو الحسين، شيخ الحنفية، قال الخطيب: «كتبت عنه، وكان صدوقاً، انتهت إليه بالعراق رئاسة الحنفية، وعظم وارتفع جاهه، وكان حسن العبارة، جريء اللسان، مديماً للتلاوة». توفي سنة ٤٢٨هـ وله ٦٦ سنة.

انظر: السير (١٧/ ٥٧٤)، تاريخ بغداد (٤/ ٣٧٧)، العبر (٢/ ٢٥٨)، وفيات الأعيان (١/ ٧٨).

المتكلمين المصنفين في الاختلاف بذلك، وهو أعرف به من جميع أصحابه من القاضي أبي بكر(١) وابن فورك(٢) وأبي إسحاق(٣)، وهؤلاء أعلم به من أبي المعالي(٤) وذويه، ومن الشهرستاني(٥).

ولهذا كان ما يذكره الشهرستاني من مذهب أهل السنة والحديث

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن الباقلاني، القاضي أبو بكر، المالكي الأصولي المتكلم، كان أقرب إلى الإثبات من الأشعرية المتأخرة، وقد لقي تلاميذ الأشعري، توفي سنة ٤٠٣هـ.
انظر: تبيين كذب المفتري (ص٢٠٧)، سير الأعلام (١٧/ ١٩٠).

(٢) هو محمد بن الحسن بن فُورَك، الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر، من رؤوس الأشعرية، واعظ، عالم بالأصول والكلام، ومن فقهاء الشافعية، له تصانيف؛ منها: مشكل الحديث وغريبه، والنظامي، وحلّ الآيات المشكلات وغيرها.
قال في النجوم الزاهرة: قتله محمود بن سبكتكين بالسم؛ لقوله: كان رسول الله ﷺ رسولاً في حياته فقط، وأن روحه قد بطل وتلاشى، توفي سنة ٤٠٦هـ.
انظر: الطبقات الكبرى للسبكي (٣/ ٥٢)، وفيات الأعيان (١/ ٤٨٢)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف الأتابكي ابن تغري بردي (٤/ ٢٤٠، ط. القاهرة، ١٩٥٦م)، الأعلام (٦/ ٨٣).

(٣) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، أبو إسحاق، الأستاذ المتكلم الأصولي الشافعي، صاحب التصانيف. قال الذهبي: «كان شيخ خراسان في زمانه». توفي سنة ٤١٨هـ.
انظر: السير (١٧/ ٣٥٣)، العبر (٢/ ٢٣٤)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٤)، طبقات السبكي (٤/ ٢٥٦).

(٤) تقدمت ترجمته في (ص١٢٩).

(٥) هو محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، أبو الفتح، ولد سنة ٤٦٧هـ، ورحل من شهرستان إلى بغداد وتعلم بها وعلّم، ثم عاد إلى شهرستان وتوفي بها سنة ٥٤٨هـ.
انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/ ١٤٩، ط. دار المسيرة، بيروت، الثانية ١٣٩٩هـ)، معجم المؤلفين (٥/ ٣٠٩).

ناقصاً عما يذكره الأشعري؛ فإن الأشعري أعلم من هؤلاء كلهم بذلك نقلاً وتوجيهاً.

وهذا كالفقيه الذي يكون أعرف من غيره من الفقهاء بالحديث، وليس هو من علماء الحديث، أو المحدث الذي يكون أفقه من غيره من المحدثين، وليس هو من أئمة الفقه، والمقرئ الذي يكون أخبر من غيره بالنحو والإعراب، وليس هو من أئمة النحاة، والنحوي الذي يكون أخبر من غيره بالقرآن، وليس هو من أئمة القراء، ونظائر هذا متعددة»اهـ[1].

وذكر الشيخ أن الأشعري لم يكن خبيراً بالسنة والحديث وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم، وتفسير السلف للقرآن والعلم بالسنة المحضة.

لكن ليس في جنسه أقرب إلى أهل الحديث والسنة منه، وهو من أعرف المتكلمين المصنفين في الاختلاف بمذهبهم، وهو أعرف به من جميع أصحابه.

كما أشار شيخ الإسلام إلى أن الأشعري أعظم موافقة للإمام أحمد ومن قبله من الأئمة في القرآن والصفات من ابن حزم.

وبيَّن الشيخ أن **مما مُدح به الأشعري أنه بيّن من فضائحِ المعتزلة** وتناقضِ وفسادِ أقوالهم ما لم يبينه غيرُه.

وكذلك فإن نقل الأشعري أصح من نقل غيره من أرباب كتب المقالات؛ لأنه أعلم بالمقالات، وأشد احترازاً من كذب الكذابين فيها، مع وجود الغلط في بعض ما ذكره.

قال الشيخ في معرض كلامه عن المصنفين في المقالات: «ولهذا تجد نقل الأشعري أصح من نقل هؤلاء؛ لأنه أعلم بالمقالات، وأشد

(١) المنهاج (٥/٢٦٨ ـ ٢٧٩)، وانظر: النبوات (ص٢٤٦).

احترازاً من كذب الكذابين فيها، مع أنه يوجد في نقله ونقل عامة من ينقل المقالات بغير ألفاظ أصحابها ولا إسناد عنهم من الغلط ما يظهر به الفرق بين قولهم وبين ما نقل عنهم...

وكتاب المقالات للأشعري أجمع هذه الكتب وأبسطها، وفيه من الأقوال وتحريرها ما لا يوجد في غيرها.

وقد نقل مذهب أهل السنة والحديث بحسب ما فهمه وظنه قولهم، وذكر أنه يقول بكل ما نقله عنهم.

وجاء بعده من أتباعه ـ كابن فورك ـ من لم يعجبه ما نقله عنهم، فنقص من ذلك وزاد، مع هذا فلكون خبرته بالكلام أكثر من خبرته بالحديث ومقالات السلف وأئمة السنة، قد ذكر في غير موضع عنهم أقوالاً في النفي والإثبات لا تنقل عن أحد منهم أصلاً مثل ذلك الإطلاق، لا لفظاً ولا معنى، بل المنقول الثابت عنهم يكون فيه تفصيل في نفي ذلك اللفظ والمعنى المراد وإثباته، وهم منكرون الإطلاق الذي أطلقه من نقل عنهم، ومنكرون لبعض المعنى الذي أراده بالنفي والإثبات»اهـ[1].

وقال: «وأما قدماء الخوارج الذين كانوا على عهد الصحابة والتابعين، فماتوا قبل حدوث هذه الأقوال المضافة إلى المعتزلة والجهمية، وذلك أن مقالات هؤلاء ونحوهم إنما نقلها ـ أي الأشعري ـ من كتب المقالات التي صنفها المعتزلة والشيعة ـ كما قد ذكر هو ذلك ـ لم يقف هو على شيء من كلام الخوارج والمعتزلة، يستكثر بالخوارج لموافقتهم لهم في إنفاذ الوعيد ونفي الإيمان والخروج عن الأئمة والأمة، لكن الأشعري كان بمقالات المعتزلة أعلم منه بغيرها، لقراءته عليهم

---

(١) المنهاج (٦/ ٣٠١ ـ ٣٠٤).

أولاً، وعلمه بمصنفاتهم، وكثيراً ما يحكي قول الجبائي عنه مشافهة»اهـ[١].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن الأشعري: «وهو دائماً ينصر - في المسائل التي فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم - قولَ أهل الحديث، لكنه لم يكن خبيراً بمآخذهم، فينصره على ما يراه هو من الأصول التي تلقَّاها عن غيرهم؛ فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «أبو الحسن: كتابه في اختلاف المصلين من أجمع الكتب، وقد استقصى فيه أقاويل أهل البدع، ولما ذكر قول أهل السنة والحديث ذكره مجملاً غير مفصل، وتصرف في بعضه، فذكره بما اعتقده هو أنه قولهم من غير أن يكون ذلك منقولاً عن أحد منهم، وأقرب الأقوال إليه قول ابن كلاب...

وأما ما حكاه عن أهل السنة والحديث، وقال: وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب، فهو أقرب ما ذكره.

وبعضه ذكره عنهم على وجهه، وبعضه تصرف فيه وخلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات والقدر؛ إذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول.

وهو يحب الانتصار لأهل السنة والحديث وموافقتهم، فأراد أن يجمع بين ما رآه من رأي أولئك، وبين ما نقله عن هؤلاء.

ولهذا يقول فيه طائفة: إنه خرج من التصريح إلى التمويه، كما يقوله طائفة: إنهم الجهمية الإناث، وأولئك الجهمية الذكور.

وأتباعه الذين عرفوا رأيه في تلك الأصول ووافقوه، أظهروا من

---

(١) بيان التلبيس (١/ ٤١٩).

(٢) الفتاوى (٧/ ١٢٠).

مخالفة أهل السنة والحديث ما هو لازم لقولهم، ولم يهابوا أهل السنة والحديث ويعظموا ويعتقدوا صحة مذاهبهم، كما كان هو يرى ذلك.

والطائفتان ـ أهل السنة والجهمية ـ يقولون: إنه تناقض، لكن السني يحمد موافقته لأهل الحديث، ويذم موافقته للجهمية، والجهمي يذم موافقته لأهل الحديث، ويحمد موافقته للجهمية.

ولهذا كان متأخرو أصحابه ـ كأبي المعالي ونحوه ـ أظهرَ تجهماً وتعطيلاً من متقدميهم، وهي مواضع دقيقة، يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده.

لكن الصواب ما أخبر به الرسول [ﷺ] فلا يكون الحق في خلاف ذلك قط، والله أعلم»اهـ(١).

وقال الشيخ ـ مقابلاً بين الأشعري والشهرستاني ـ: «والأشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني، ولهذا ذكر عشر طوائف، وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستاني، وهو أعلم بمقالات أهل السنة وأقرب إليهم وأوسع علماً من الشهرستاني»اهـ(٢).

وقال الشيخ عن كتاب «مقالات غير الإسلاميين» ـ للأشعري ـ: «لهذا يذكر القاضي أبو بكر في دقائق الكلام، وقبله أبو الحسن الأشعري في كتاب مقالات غير الإسلاميين ـ وهو كتاب كبير أكبر من مقالات الإسلاميين ـ أقوالاً كثيرة للفلاسفة لا يذكرها هؤلاء الذين يأخذون عن ابن سينا»اهـ(٣).

أما ما ذكره أبو الحسن الأشعري عن الصوفية في كتابه «مقالات الإسلاميين» فسوف أعرضه فيما يلي مقارناً بين ما ذكره وما ذكره شيخ الإسلام:

---

(١) الفتاوى (١٦/٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٢) النبوات (ص٢٤٧).
(٣) المنهاج (٥/٢٨٢ ـ ٢٨٣).

عرض الأشعري مقالة الحلولية وذمّهم، فقال: «وفي النساك من الصوفية من يقول بالحلول وأن البارئ يحل في الأشخاص، وأنه جائز أن يحل في إنسان وسبُعٍ، وغير ذلك من الأشخاص، وأصحاب هذه المقالة إذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا: لا ندري لعل الله حالٌّ فيه [!!]»اهـ(١).

وفي مسألة إسقاط التكاليف ذكر الأشعري مذهب الصوفية، فقال: «ومالوا إلى اطِّراح الشرائع، وزعموا أن الإنسان ليس عليه فرض، ولا يلزمه عبادة إذا وصل إلى معبوده»اهـ(٢).

وهذا الكلام يوافق ما ذكره شيخ الإسلام عن الصوفية، من أنهم يقولون بالفناء، وأن من فني عن شهود السِّوى سقطت عنه التكاليف، إلا أن الشيخ فصل في سبب قولهم بذلك والشُّبَه التي احتجوا بها(٣).

وفي مسألة الرؤية ذكر الأشعري قول بعض الصوفية أن الله تعالى يمكن رؤيته في الدنيا رؤيةً حقيقيةً لبعض الناس!! فقال في معرض بيانه لمقالات النُّساك المتصوفة: «ومنهم من يقول: إنه يرى الله سبحانه في الدنيا على قدر الأعمال، فمن كان عمله أحسن رأى معبوده أحسن»اهـ(٤).

وهذا يوافق ما ذكره شيخ الإسلام عنهم، إلا أن الشيخ بيّن سبب وقوعهم في هذا الاعتقاد، وأنهم من شدة المجاهدات والجوع تتراءى لهم أمور وتخيلات يظنونها الله تعالى، وقد ردّ الشيخ عليهم بالأحاديث الصحيحة الثابتة في عدم إمكان رؤيته ﷻ إلا بعد الموت، أما في الدنيا فلا يراه أحد جلّ جلاله(٥).

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص١٣)، وانظر: أيضاً (ص٢٨٨).
(٢) مقالات الإسلاميين (ص١٣)، وانظر: أيضاً (ص٢٨٨).
(٣) انظر: مبحث الفناء (٢/ ٤٧).
(٤) مقالات الإسلاميين (ص٢٨٨).
(٥) انظر: مبحث قول الصوفية في رؤية الله (ص٦٦٤).

وذكر الأشعري أن من الصوفية من يفضل الأولياء على الأنبياء والملائكة!! فقال: «ومنهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين والملائكة المقربين»اهـ(١).

وقال أيضاً: «وقد جوَّز قومٌ من الصوفية ظهور المعجزات على الصالحين، وأن تأتيهم ثمار الجنة في الدنيا، فيأكلونها ويواقعون الحور العين في الدنيا»اهـ(٢).

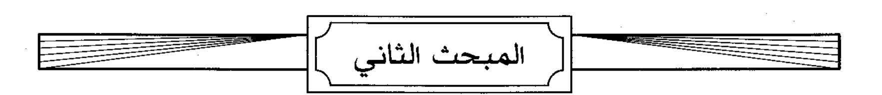
وما ذكره الأشعري هنا يوافق ما ذكره شيخ الإسلام عنهم من جهة غلوّهم في الأشخاص ورفعهم فوق منزلتهم(٣)، وكذلك ذكر شيخ الإسلام أن بعضهم قد يتمادى به الغلوّ حتى يعتقد تفضيل الأولياء على الأنبياء، ولكن الشيخ تميز عن أبي الحسن الأشعري بأنه فصَّل هذه المقالة، ونسبها إلى قائليها، وبيّن الشبهات التي احتجوا بها، وردّ عليها(٤).

أما الرد على هذه الضلالات، فلم يفصل الأشعري في الرد عليها، وكأنه يعتبر ما فيها من ضلال أمراً ظاهراً، وباطِلُهُ لا يحتاج إلى بيان أو ردّ.

وقد يقال ـ أيضاً ـ: إن أبا الحسن الأشعري رحمه الله لم يردَّ على هذه المقالات؛ لأن موضوع كتابه أصلاً هو في حكاية المقالات ونسبتها إلى أربابها، لا للرد عليها.



(١) مقالات الإسلاميين (ص٢٨٩). (٢) المصدر السابق (ص٤٣٨).
(٣) انظر: مبحث الغلوّ في الأشخاص (ص٥٢٧).
(٤) انظر: مبحث موقفهم من الولاية (ص٧٣٤).



المبحث الثاني

تقويمه لكتاب «الفِصل في الملل والنِّحَل» لأبي محمد بن حزم[١]

المتأمل في كتاب «الفصل في الملل والنحل» لأبي محمد ابن حزم، يلحظ أن مؤلفه قد ركّز فيه الحديث عن أهل الكتاب، وأولاهم اهتماماً في عرضه، واهتم بالرد عليهم وإبطال ما هم عليه، حتى استغرق ذلك جزءاً كبيراً من كتابه، بينما جاء حديثه عن الفرق الإسلامية يسيراً مختصراً.

وبعد استقراء كتب شيخ الإسلام لم أقف له على كلام خصّ به كتاب الفصل، وإنما للشيخ كلام عن ابن حزم نفسه فيما ذهب إليه من آراء وأقوال في بعض المسائل، وبما كان عليه من حال[٢]، كما أنه قابل بينه وبين الأشعري.

وقد نقل الشيخ من كتاب الفصل نقولات عدة في مذاهب شتى[٣].

---

(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الأندلسي، المشهور بابن حزم الظاهري، ولد سنة ٣٨٤هـ، له المؤلفات الشهيرة النافعة، منها: المحلى في الفقه وغيره، توفي سنة ٤٥٦هـ.
انظر: سير الأعلام (١٨/ ١٨٤)، تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ١١٤٦)، نفح الطيب للمقرئ التلمساني (٢/ ٧٧)، لسان الميزان لابن حجر (٤/ ١٩٨).

(٢) انظر: المنهاج (٢/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤، ٣/ ٤٠١، ٤٠٦، ٤/ ١٨٢، ٥٣٨)، الدرء (٥/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ٦/ ١٢٥، ٧/ ٢٦٣، ٤٢٩ ـ ٤٣٠).

(٣) انظر: المنهاج (١/ ٤٩٣ ـ ٥٠٤، ٢/ ٢١٧ ـ ٢٢٠، ٧/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، ٧/ ٤٨١ =

ومما ذكره الشيخ: قوله: «وكذلك أبو محمد بن حزم فيما صنفه من الملل والنحل إنما **يستحمد بموافقة السنة والحديث** ـ مثل ما ذكروه في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك ـ بخلاف ما انفرد به من قوله في التفضيل بين الصحابة.

وكذلك ما ذكره في باب الصفات فإنه يستحمد فيه بموافقة أهل السنة والحديث، لكونه يثبت الأحاديث الصحيحة، ويعظم السلف وأئمة الحديث، ويقول: إنه موافق للإمام أحمد في مسألة القرآن وغيرها، ولا ريب أنه موافق له ولهم في بعض ذلك.

لكن الأشعري ونحوه أعظم موافقة للإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة في القرآن والصفات، وإن كان أبو محمد بن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره، وأعلم بالحديث، وأكثر تعظيماً له ولأهله من غيره.

لكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم في ذلك، فوافق هؤلاء في اللفظ، وهؤلاء في المعنى.

وبمثل هذا صار يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له، كما نفى المعاني في الأمر والنهي والاشتقاق، وكما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب، مضموماً إلى ما في كلامه من الوقيعة في الأكابر، والإسراف في نفي المعاني، ودعوى متابعة الظواهر.

وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر.

= ـ ٤٨٦، ٥١٧ ـ ٥٢٢، ٨/٨٧ ـ ٨٩، ٤٦٦ ـ ٤٦٩)، الدرء (٧/٤٠٦ ـ ٤١٩، ٤٣٢ ـ ٤٤٠).

ويوجد في كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال، والمعرفة بالأحوال، والتعظيم لدعائم الإسلام، ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره.

فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح، وله من التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء»اهـ[1].

أما ما حكاه أبو محمد بن حزم من مقالات الصوفية، فهو كما يلي:

ذكر أبو محمد بن حزم أن من الصوفية من يفضل الأولياء على الأنبياء!! فقال:

«وقد كنا نسمع عن قوم من الصوفية أنهم يقولون: إن الولي أفضل من النبي، وكنا لا نحقق هذا على أحد يدين بدين الإسلام، إلى أن وجدنا هذا الكلام كما أوردنا، فنعوذ بالله من الارتداد.

قال أبو محمد: ولو أن هذا الضال المضل يدري ما معنى لفظة «أفضل» ويدري فضيلة النبوة، لما انطلق لسانه بهذا الكفر وهذا التكذيب للنبي ﷺ، إذ يقول: **(إني لأتقاكم لله)**[2]»اهـ[3].

وقد تقدم عند الموازنة بين ما ذكره الأشعري وما ذكره شيخ الإسلام، أن شيخ الإسلام لم يكتف بعرض المقالة عرضاً مختصراً،

---

(١) الفتاوى (٤/ ١٨ ـ ٢٠)، وانظر: المنهاج (٢/ ٥٨٤)، الدرء (٥/ ٢٤٩، ٧/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب نهي النبي على التحريم إلا ما تعرف إباحته، ٦/ ٢٦٨١/ح ٦٩٣٣)، ومسلم (كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج، ٢/ ٨٨٣/ح ١٢١٦)، من حديث: جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) الفصل (٤/ ٢١).

وإنما يبين ما فيها من خلل، ويفصل الأدلة ويرد على الشبهات، فكذلك الأمر هنا عند النظر في منهج ابن حزم ومنهج شيخ الإسلام[(١)].

وفي مسألة إسقاط التكاليف ذكر ابن حزم مذهب الصوفية، فقال: «من الصوفية من يقول: إن من عرف الله تعالى سقطت عنه الشرائع، وزاد بعضهم: واتصل بالله تعالى[!!] وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد أبا الخير ـ هكذا معاً [(٢)]ـ من الصوفية، مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلي لا فريضة ولا نافلة[!!] وهذا كفر محض، ونعوذ بالله. . .»اهـ[(٣)].

وقال في موضع آخر: «قال أبو محمد: ادعت طائفة من الصوفية: أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: مَن بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها؛ من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلَّت له المحرمات كلها من الزنى والخمر، وغير ذلك، واستباحوا بهذا نساء غيرهم»اهـ[(٤)].

تقدم عند الموازنة بين الأشعري وشيخ الإسلام أن شيخ الإسلام فصَّل مقالتهم، ورد عليها، وعرض شبههم بخلاف الأشعري، فكذلك الأمر هنا بيَّن شيخ الإسلام وابن حزم[(٥)].

---

(١) انظر ما ذكره الشيخ عن تفضيل بعض الصوفية الوليَّ على النبي ﷺ في مبحث: موقف الصوفية من الولاية (ص٧٣٤).

(٢) هو أبو الخير التيناتي، أصله من المغرب، وسكن تينات، وهي قرية من قرى أنطاكية. ويقال له: الأقطع؛ لأنه كان مقطوع اليد، أورد له ابن الجوزي مجاهدات مبتدعة.
انظر: صفة الصفوة (٢/ ٤٣٤).

(٣) الفصل (٤/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٤) الفصل (٤/ ١٧٠).

(٥) انظر مسألة إسقاط التكاليف، مبحث: الفناء (ص٨١).

وفي مصادر التلقي عند الصوفية بين ابن حزم أن الصوفية يقولون: كلّ ما قُذف في قلوبنا فهو حقٌّ!! فقال: «وقالوا: إننا نرى الله ونكلمه، وكلُّ ما قُذف في نفوسنا فهو حق»اهـ[1].

هذا ما أورده ابن حزم في مسألة مصادر التلقي عند المتصوفة، أما شيخ الإسلام، فقد فصل مصادرهم، وبيّن ما فيها من حق وباطل، وأوضح موضع الالتباس عليهم، وتلاعُب الشيطان بهم، كما شرح رحمه الله المنهج الشرعي في مصادر التلقي[2].

وفي مسألة الرؤية ذكر ابن حزم قول بعض الصوفية: إن الله تعالى يمكن رؤيته في الدنيا رؤيةً حقيقيةً لبعض الناس!! بل ومجالسته!! فقال في معرض بيانه لمقالات المتصوفة: «وقالوا: إننا نرى الله ونكلمه وكلُّ ما قُذف في نفوسنا فهو حق، ورأيت لرجل منهم يعرف بابن شمعور كلاماً نصه: إن لله تعالى مائةَ اسم وأن الموفي مائة هو ستة وثلاثون حرفاً ليس منها في حروف الهجاء شيء إلا واحد فقط، وبذلك الواحدُ يصل أهل المقامات إلى الحق!.

وقال أيضاً: أخبرني بعض من رُسِم لمجالسة الحق أنه مدَّ رجله يوماً، فنودي: ما هكذا مجالس الملوك!! فلم يمد رجله بعدها!! يعني أنه كان مديماً لمجالسة الله تعالى!!.

وقال أبو حاضر النصيبي ـ من أهل نصيبين ـ وأبو الصباح السمرقندي وأصحابهما: إن الخلق لم يزالوا مع الله تعالى»اهـ[3].

وهذا يوافق ما ذكره شيخ الإسلام عنهم، إلا أن الشيخ بيّن سبب

---

(١) الفصل (٤/ ١٧٠).

(٢) انظر: مبحث مصادر التلقي عند الصوفية (ص٣١٧).

(٣) الفصل (٤/ ١٧٠).

وقوعهم في هذا الاعتقاد، وأنهم من شدة المجاهدات والجوع تتراءى لهم أمور وتخيلات يظنونها الله تعالى، وقد ردّ الشيخ عليهم بالأحاديث الصحيحة الثابتة في عدم إمكان رؤيته سبحانه وتعالى إلا بعد الموت، أما في الدنيا فلا يراه أحد جلّ جلاله(١).

وذكر ابن حزم مقالة الحلولية، فقال في معرض حكايته لمقالات الصوفية: «وقال بعض الصوفية: إن ربه يمشي في الأزقة، حتى إنه يمشي في صورة مجنون يتبعه الصبيان بالحجارة حتى يدموا عقبة!!»اهـ(٢).

ثم قال رادًّا على هذه المقولات كلها: «فاعلموا رحمكم الله أن هذه كلها كفرات صلع، وأقوال قوم يكيدون الإسلام»اهـ(٣).

والمتأمل في هذا الرد المختصر المقتضب على هذه الضلالات، يرى أن ابن حزم لم يفصل في الرد عليها.

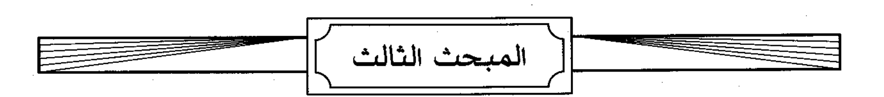
ولعل السبب في ذلك هو ما قدمناه عند كلامنا عن مقالات الإسلاميين، وهو أنه يعدُّ ما فيها من ضلال أمراً ظاهراً؛ وباطِلُهُ لا يحتاج إلى بيان أو ردّ.

وقد يقال أيضاً: إن ابن حزم رحمه الله لم يردَّ على هذه المقالات؛ لأن موضوع كتابه أصلاً هو في حكاية المقالات ونسبتها إلى أربابها، لا للرد عليها.



(١) انظر: مبحث قول الصوفية في رؤية الله (ص٦٦٤).

(٢) الفصل (٤/ ١٧٠). (٣) الفصل (٤/ ١٧٠).



تقويمه لكتاب «الملل والنِّحَل» للشهرستاني

كتاب الملل والنِّحل، تبوّأ منزلة متميزة بين كتب المقالات، وسدَّ ثغرة في بابه، وقد عرض شيخ الإسلام لكتاب الملل والنحل للشهرستاني، وذكر بعض ما تميز به الكتاب والمؤلف، ومما ذكره في ذلك:

الإيجابيات:

- أن كتاب الملل **أجمع مِن أكثر الكتب المصنفة في المقالات**، وأجودها نقلاً.

- أن **أجود ما نقله قول الأشعرية وقول ابن سينا**؛ لأنه كان خبيراً بهما.

- أنه أعلم باختلاف المختلفين ومقالاتهم من الغزالي.

السلبيات:

- أن الكتاب **صنفه الشهرستاني لرئيس من رؤساء الشيعة**، كما صنف له كتاب المصارعة بينه وبين ابن سينا.

- أن ما ينقله هو وأمثاله من المصنفين في الملل والنحل عامته مما ينقله بعضهم عن بعض، وكثير من ذلك **لم يحرر فيه أقوال المنقول عنهم، ولم يذكر الإسناد في عامة ما ينقله.**

- أن من **مصادره: كتب المقالات التي صنفها الرافضة والزيدية والمعتزلة.**

ـ **أن ما يحكيه عن الفلاسفة هو من كلام ابن سينا.**

ـ **ينقل أقوالاً ضعيفة** يعرفها من يعرف مقالات الناس.

ـ أنه **لا خبرة له بالحديث** وآثار الصحابة والتابعين.

ـ أنه نقل اختلاف المسلمين وغير المسلمين، **ولم ينقل مع هذا مذهب الصحابة** والتابعين وأئمة المسلمين في الأصول الكبار؛ لأنه لم يكن يعرف هذا هو وأمثاله من أهل الكلام.

ـ أنه **داهن الرافضة** في كتابه الملل؛ لأجل من صنفه له؛ إذ في غير هذا الكتاب يبطل مذهب الإمامية.

ـ أن الأشعري أعرف منه بمذهب أهل السنة والجماعة، لذا فما يذكره الشهرستاني من مذهبهم أنقص مما يذكره الأشعري.

وفيما يلي نصّ كلام شيخ الإسلام:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «ما ينقله الشهرستاني وأمثاله من المصنفين في الملل والنحل عامته مما ينقله بعضهم عن بعض، وكثير من ذلك لم يحرر فيه أقوال المنقول عنهم.

ولم يذكر الإسناد في عامة ما ينقله.

بل هو ينقل من كتب من صنف المقالات قبله، مثل أبي عيسى الوراق ـ وهو من المصنفين للرافضة، المتهمين في كثير مما ينقلونه ـ ومثل أبي يحيى وغيرهما من الشيعة.

وينقل أيضاً من كتب بعض الزيدية والمعتزلة الطاعنين في كثير من الصحابة. . .

والشهرستاني قد نقل في غير موضع أقوالاً ضعيفة يعرفها من يعرف مقالات الناس.

مع أن كتابه أجمع من أكثر الكتب المصنفة في المقالات، وأجود نقلاً، لكن هذا الباب وقع فيه ما وقع.

ولهذا لما كان خبيراً بقول الأشعرية، وقول ابن سينا ونحوه من الفلاسفة؛ كان أجود ما نقله قول هاتين الطائفتين.

وأما الصحابة والتابعون وأئمة السنة والحديث، فلا هو ولا أمثاله يعرفون أقوالهم، بل ولا سمعوها على وجهها بنقل أهل العلم لها بالأسانيد المعروفة، إنما سمعوا جُمَلاً تشتمل على حق وباطل.

ولهذا إذا اعتبرت مقالاتهم الموجودة في مصنفاتهم الثابتة بالنقل عنهم وجد من ذلك ما يخالف تلك النقول عنهم، وهذا من جنس نقل التواريخ والسير ونحو ذلك من المرسلات والمقاطيع وغيرهما مما فيه صحيح وضعيف»اهـ[(١)].

وقال الشيخ أيضاً: «والشهرستاني لا خبرة له بالحديث وآثار الصحابة والتابعين؛ ولهذا نقل في كتابه هذا ما ينقله من اختلاف غير المسلمين واختلاف المسلمين، ولم ينقل مع هذا مذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في الأصول الكبار؛ لأنه لم يكن يعرف هذا هو وأمثاله من أهل الكلام، وإنما ينقلون ما يحدثونه في كتب المقالات، وتلك فيها أكاذيب كثيرة من جنس ما في التواريخ»اهـ[(٢)].

وقال في معرض كلامه عن الشهرستاني:

«وهو وأمثاله وإن لم يتعمدوا الكذب، لكن ينقلون من كتب من ينقل عمن يتعمد الكذب»اهـ[(٣)].

وقال: «وقد تبين أن هذا الكلام الذي ذكره هذا الرجل فيه من الباطل ما لا يخفى على عاقل، ولا يحتج به إلا من هو جاهل، وأن هذا الرجل كان له بالشيعة إلمام واتصال، وأنه دخل في هواهم بما ذكره في

---

(١) المنهاج (٦/ ٣٠٠ ـ ٣٠٥).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣١٩ ـ ٣٢٠). (٣) المصدر السابق (٦/ ٣٢٦).

هذا الكتاب، مع أنه ليس من علماء النقل والآثار، وإنما هو من جنس نَقَلَةِ التواريخ التي لا يعتمد عليها أولو الأبصار»اهـ[(١)].

وقال عنه وعن كتابه الملل والنحل:

«يميل كثيراً إلى أشياء من أمورهم ـ أي الرافضة ـ، بل يذكر أحياناً أشياء من كلام الإسماعيلية الباطنية، وإن لم يكن الأمر كذلك، وقد ذكر من اتهمه بعض الناس بأنه من الإسماعيلية وإن لم يكن الأمر كذلك، وقد ذكر من اتهمه شواهد من كلامه وسيرته، وقد يقال: هو مع الشيعة بوجه، ومع أصحاب الأشعري بوجه.

وقد وقع في هذا كثير من أهل الكلام والوعاظ، وكانوا يدعون بالأدعية المأثورة في صحيفة علي بن الحسين، وإن كان أكثرها كذباً على علي بن الحسين.

وبالجملة، فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة، إما بباطنه وإما مداهنة لهم، فإن **هذا الكتاب صنفه لرئيس من رؤسائهم**[(٢)]، وكانت له ولاية ديوانية، وكان للشهرستاني مقصود في استعطافه له، وكذلك صنف له كتاب «المصارعة» بينه وبين ابن سينا؛ لميله إلى التشيع والفلسفة.

وأحسن أحواله أن يكون من الشيعة، إن لم يكن من الإسماعيلية ـ أعني المصنف له ـ ولهذا تحامل فيه للشيعة تحاملاً بَيِّناً.

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٣٦٩).

(٢) هو علي بن جعفر بن علي بن جعفر بن محمد، أبو القاسم، ينتهي نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب، وكان ينفق الأموال الكثيرة في اتخاذ الآلات الرصدية ومعرفة أوساط الكواكب ومقوماتها، وقد تولى حكم ترمذ.
انظر: الشهرستاني وآراؤه الكلامية (ص٥٨)، وقد صرح الشهرستاني بتصنيف كتاب الملل والنحل لأبي القاسم هذا في مقدمة كتابه مصارعة الفلاسفة. انظر مزيد إيضاح حول سبب تأليف كتاب الملل والنحل؛ منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل.

وإذا كان في غير ذلك من كتبه يبطل مذهب الإمامية، فهذا يدل على المداهنة لهم في هذا الكتاب، لأجل من صنفه له»اهـ[(١)].

وبيّن الشيخ أن قول الشهرستاني: «وبالجملة كان الحق مع علي، وعلي مع الحق»[(٢)]، يدل على تحامله مع الشيعة، حيث قال شيخ الإسلام: «هذا الكلام مما يبين تحامل الشهرستاني في هذا الكتاب مع الشيعة ـ كما تقدم ـ وإلا فقد ذكر أبا بكر وعمر وعثمان ولم يذكر من أحوالهم أن الحق معهم دون من خالفهم، ولما ذكر عليًّا قال: وبالجملة كان الحق مع علي وعلي مع الحق.

والناقل الذي لا غرض له، إما أن يحكي الأمور بالأمانة، وإما أن يعطي كل ذي حق حقه، فأما دعوى المدعي أن الحق كان مع علي وعلي مع الحق، وتخصيصه بهذا دون أبي بكر وعمر وعثمان، فهذا لا يقوله أحد من المسلمين غير الشيعة»اهـ[(٣)].

وقال الشيخ عن بعض مصادر الشهرستاني: «وأما الخلاف الذي بين الفلاسفة، فلا يحصيه أحد؛ لكثرته ولتفرقهم، فإن الفلسفة التي عند المتأخرين ـ كالفارابي[(٤)] وابن سينا ومن نسج على منوالهما ـ هي فلسفة

---

(١) المنهاج (٦/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧).

(٢) نص كلام الشهرستاني هو قوله: «ولا نقول في حق معاوية وعمرو بن العاص إلا أنهما بغيا على الإمام الحق، فقاتلهم على مقاتلة أهل البغي، وأما أهل النهروان فهم الشراة المارقون عن الدين بخبر النبي، ولقد كان على الحق في جميع أحواله يدور الحق معه حيث دار»اهـ. الملل والنحل (١/ ١٠٣).

(٣) المنهاج (٦/ ٣٦٢).

(٤) هو محمد بن محمد بن طرخان، أبو نصر الفارابي، الملقب بالمعلم الثاني، من أتباع أرسطو، ذكر شيخ الإسلام أنه يزعم أن الفيلسوف أكمل من النبي، قال الذهبي: «ذو المصنفات المشهورة في الموسيقى التي من ابتغى الهدى فيها أضله الله، وكان مفرطاً في الذكاء». توفي سنة ٣٣٩هـ. =

أرسطو وأتباعه ـ وهو صاحب التعاليم المنطق والطبيعية وما بعد الطبيعة ـ والذي يحكيه الغزالي والشهرستاني والرازي وغيرهم من مقالات الفلاسفة هو من كلام ابن سينا»اهـ[1].

وقال: «والشهرستاني أكثر ما ينقله من المقالات من كتب المعتزلة»اهـ[2].

وقال مقابلاً بينه وبين بعض مصنفي الكتب: «والشهرستاني أعلم باختلاف المختلفين ومقالاتهم من الغزالي، ولهذا ذكر لهم في القرآن أربع مقالات وعدد طوائف من أهل القبلة، والغزالي حصر أهل العلم الإلهي في أربعة أصناف ـ في الفلاسفة والباطنية والمتكلمين والصوفية ـ فلم يعرف مقالات أهل الحديث والسنة، ولا مقالات الفقهاء، ولا مقالات أئمة الصوفية، ولكن ذكر عنهم العمل، وذكر عن بعضهم اعتقاداً يخالفهم فيه أئمتهم. وأبو طالب أعلم منهما بأقوال الصوفية، ومع هذا فلم يعرف مقالة الأكابر كالفضيل بن عياض ونحوه»اهـ[3].

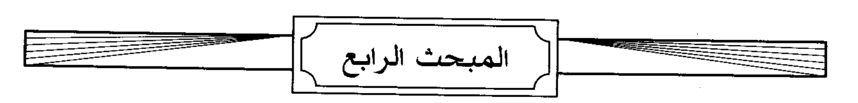
وقال: «فهكذا معرفته ـ أي أبو الحسن الأشعري ـ بمذهب أهل السنة والحديث، مع أنه من أعرف المتكلمين المصنفين في الاختلاف بذلك، وهو أعرف به من جميع أصحابه من القاضي أبي بكر وابن فورك وأبي إسحاق، وهؤلاء أعلم به من أبي المعالي وذويه ومن الشهرستاني، ولهذا كان ما يذكره الشهرستاني من مذهب أهل السنة والحديث ناقصاً عما يذكره الأشعري، فإن الأشعري أعلم من هؤلاء كلهم بذلك نقلاً وتوجيهاً»اهـ[4].

= انظر: العبر (٢/ ٥٨)، البداية والنهاية (١١/ ٢٢٤)،، وانظر فتاوى شيخ الإسلام (٢/ ٦٧)، والدرء (١/ ١٠).

(١) المنهاج (٥/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٢) المنهاج (٦/ ٣٠٧).
(٣) النبوات (ص٢٤٧).
(٤) المنهاج (٥/ ٢٧٩).

وبما سبق من كلام شيخ الإسلام يتبين لنا عدل الشيخ وإنصافه في تقويم كتاب الشهرستاني، أما المقارنة بين ما ذكره شيخ الإسلام عن الصوفية وبين ما ذكره الشهرستاني، فإنني ـ باستقراء كتاب الملل والنحل للشهرستاني ـ لم أقف له على كلام عن الصوفية، وإنما توسع في الكلام عن الشيعة وفرقهم، والفلاسفة، ومشركي العرب.





المبحث الرابع

تقويمه لكتاب «الفَرق بين الفِرق» للبغدادي(١)

لم أقف على كلام لشيخ الإسلام حول تقويم كتاب «الفَرق بين الفِرق» للبغدادي.

ولم أقف للبغدادي في كتابه الفرق بين الفرق على كلام عن الصوفية إلا في موضعين:

الموضع الأول:

تكلم فيه عن الصوفية كلاماً عاماً، دون أن يتعرض لمذهبهم تفصيلاً، أو يشرح المظاهر السلوكية أو العقدية عندهم، قال رَحِمَهُ اللهُ: «والصنف السادس منهم: الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا، واختبروا فاعتبروا، ورضوا بالمقدور، وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسؤول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدّوا خير الاعتداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريقي العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياءً، ولا يتركونه حياءً، دينهم التوحيد ونفي التشبيه، ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى، والتوكل عليه، والتسليم لأمره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه، ذلك فضل الله يؤتيه

---

(١) هو عبد القاهر بن طاهر البغدادي، فقيه، أصولي، له علوم كثيرة، ولد ببغداد، ونشأ بنيسابور، توفي سنة ٤٢٩هـ.
انظر: معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٣٠٩/٥).

من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»اهـ[١].

والمتأمل في هذا الكلام يجد أن البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد اقتضب كثيراً في حكاية مذهبهم، وأوهم القارئ أن الصوفية جميعاً على معتقد صحيح وطريقة حسنة. أما شيخ الإسلام، فقد فصّل الكلام عن الصوفية، فلم يطلق فيهم مدحاً ولا ذماً، بل بيّن ما فيهم من ضلال في عقائدهم، وعباداتهم، وسلوكياتهم[٢].

الموضع الثاني:

تكلم فيه عن فرقة الحلَّاجية أتباع أبي المغيث الحلاج، وذمّه وذمّ أتباعه، ونقل قصة مقتله، ومما قاله في ذلك: «وأما **الحلاجية** فمنسوبون إلى أبي المغيث الحسين بن منصور، المعروف بالحلاج، وكان من أرض فارس، من مدينة يقال لها: البيضاء.

وكان في بدء أمره مشغولاً بكلام الصوفية، وكانت عباراته حينئذ من الجنس الذي تسميه الصوفية: (الشطح) وهو الذي يحتمل معنيين:

أحدهما: حسن محمود.

والآخر: قبيح مذموم.

وكان يدّعي أنواع العلوم على الخصوص والعموم، وافتتن به قوم من أهل بغداد، وقوم من أهل طالقان وخراسان.

وقد اختلف فيه المتكلمون والفقهاء والصوفية:

فأما المتكلمون: فأكثرهم على تكفيره، وعلى أنه كان على مذاهب الحلولية.

---

(١) الفرق بين الفرق (ص٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٢) وقد بينت ذلك كله تفصيلاً فيما سيأتي من أبواب في هذه الرسالة، حيث أوردت ما ذكره شيخ الإسلام من عقائد الصوفية، وأخلاقهم، وآرائهم في السماع وآداب المريد... وغير ذلك.

وقَبِلَهُ قومٌ: من متكلمي السالمية بالبصرة، ونسبوه إلى حقائق معاني الصوفية. . .

واختلف الفقهاء أيضاً في شأن الحلاج: فتوقف فيه أبو العباس بن سريح لما استُفتيَ في دمه، وأفتى أبو بكر بن داود بجواز قتله.

واختلف فيه مشايخ الصوفية: فبرِئ منه عمرو بن عثمان المكي وأبو يعقوب الأقطع وجماعة منهم. . .

والذين نسبوه إلى الكفر وإلى دين الحلولية: حكوا عليه أنه قال: من هذّب نفسه في الطاعة، وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافات، حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظٌّ حلَّ فيه روحُ الإله الذي حلَّ في عيسى بن مريم[!!!] ولم يُرِدْ حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعلَ الله تعالى[!!] وزعموا أن الحلاج ادّعى لنفسه هذه الرتبة.

وذكر أنه: ظفروا بكتبٍ له إلى أتباعٍ، عنوانها: «من الهو هو ربّ الأرباب، المتصوّر في كل صورة، إلى عبده فلان»، فظفروا بكتب أتباعه إليه، وفيها: «يا ذات اللذات، ومنتهى غاية الشهوات، نشهد أنك المتصوّر في كل زمان بصورة، وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور، ونحن نستجير لك، ونرجو رحمتك، يا علام الغيوب[!!!]. . .

وزعم هؤلاء: أن حقيقة التصوف حالٌ ظاهرُها تلبيسٌ، وباطنها تقديسٌ، واستدلوا على تقديس باطن الحلاج:

بما رُوي أنه قال ـ عند قطع يديه ورجليه ـ: حسبُ الواحدِ إفرادُ الواحدِ.

وبأنه سئل يوماً عن ذنبه؟ فأنشأ يقول:

ثلاثة أحرف لا عجم فيها ومعجومان وانقطع الكلام

وأشار بذلك إلى التوحيد»اهـ[١].

وهذا الكلام الذي ذكره البغدادي يوافق ما ذكره شيخ الإسلام عن الحلاج[٢].

ومما سبق في المباحث الأربعة السابقة يتبين لنا مقدار معرفة شيخ الإسلام بالمذاهب المتفرقة، وشرحه لها بكل تفصيل في مواضع متفرقة من كتبه، ومن نظر فيما كتبه الشيخ علِم أنه تفوّق على أصحاب كتب المقالات الذين ألفوا فيها مفردة وكرّسوا جهدهم في جمع آراء الفرق.

ويتبين لنا أيضاً أن شيخ الإسلام استفاد مما كتبه المصنِّفون في المقالات، لكنه ـ مع ذلك ـ يفند ما ينقله عنهم ويردّ على ما خالفوا فيه الصواب.

أما تفصيل ما ذكره الشيخ حول آراء الصوفية في شتى المسائل، فسوف يتم تفصيله فيما يأتي من أبواب.



---

(١) الفرق بين الفرق (ص٢٤٦ ـ ٢٤٩).

(٢) انظر ما ذكره شيخ الإسلام عن الحلاج في مبحث: موقف شيخ الإسلام من رجالات الصوفية (٢/ ٤١١).

الباب الثاني

التعريف بالصوفية ـ إجمالاً ـ
كما عرضها شيخ الإسلام

وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بـ«الصوفية»

الفصل الثاني: فرقها، ورجالها، ومصادرهم في التلقي



الفصل الأول

التعريف بـ«الصوفية»

وفيه ثلاثة مباحث:

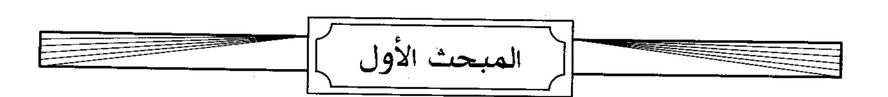
المبحث الأول: المراد بلفظ الصوفية، وبيان نسبتهم

المبحث الثاني: نشأة الصوفية، وتاريخها، والأطوار التي مرّت بها

المبحث الثالث: أسماؤها






المبحث الأول

المراد بلفظ الصوفية، وبيان نسبتهم

تمهيد:

تقدم معنا في الفصل الأول بيان منهج شيخ الإسلام في التعامل مع الصوفية، ولين جانبه، وحمله أحوالهم وكلامهم على المحامل الحسنة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إلا مع زنادقتهم المُنحَلّين عن الدين، فإنه يُغلظ عليهم.

إضافة إلى عدله وإنصافه في الحكم عليهم.

كما قال في معرض كلامه عنهم: «.. وقد تنازع الناس في طريقهم:

فطائفة: ذمّت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة.

وطائفة: غَلَت، فجعلت طريقتهم أفضل الطرق.

والصواب: أنهم يجتهدون في طاعة الله، فمنهم المذنب والتقي»اهـ[١].

وقال في موضع آخر لما ذكر مَن مدحَ التصوف ومَن ذمَّه:

«**والتحقيق فيه:** أنه مشتمل على الممدوح والمذموم، كغيره من الطريق، وأن المذموم منه قد يكون اجتهادياً، وقد لا يكون، وأنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في الرأي، فإنه ذم الرأيَ من العلماء والعُبّاد طوائفُ

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٧١ ـ ٥٧٢).

كثيرةٌ، والقاعدة التي قدّمتها تجمع ذلك كله، **وفي المتسمّين بذلك من أولياء الله وصفوته وخيار عباده ما لا يُحصى عَدُّه**، كما في أهل الرأي من أهل العلم والإيمان من لا يُحصي عددَه إلا اللهُ، **والله سبحانه أعلم**»اهـ[١].

وقال: «ولِأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، **تنازع الناس في طريقهم:**

فطائفة: ذمّت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مُبتدعون خارجون عن السّنة، ونُقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة: غَلَت فيهم، وادّعَوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، **وكِلا طرفي هذه الأمور ذميم.**

والصواب: أنهم مُجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المُقَرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كلٍّ من الصنفين من قد يجتهد فيُخطئ، وفيهم من يُذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المُنتسبين إليهم من هو ظالم لنَفسه، عاصٍ لِربه»اهـ[٢].

فتبين لنا مما سبق أن شيخ الإسلام لم يطلق في الصوفية مدحاً ولا ذماً[٣]، وإنما جعل الحكم عليهم بحسب أحوالهم، والحكم على كل واحد منهم بحسب ما يظهر منه.

لأن مذهبهم ليس له أصول معينة محددة يتفقون عليها، وإنما

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٧٠). (٢) الفتاوى (١١/ ١٧ ـ ١٨).

(٣) بخلاف ما فعله بعض أهل العلم حيث أطلقوا مدح الصوفية أو ذمَّهم دون تفصيل، وممن أطلق مدحهم دون تفصيل البغدادي في «الفرق بين الفرق» وقد تقدم نقل كلامه عنهم (ص٢٠٧).

مذهب الصوفية أقرب ما يكون أنه مبنيٌّ على الاستحسان، فكلّ صوفي استحسن طريقة أو سلوكاً أو عبادة فعلَها وصار له فيها أتباع.

ولذلك تعدد أسماء الصوفية، وتنوعت ألقابهم، ومن هذه الألقاب والأسماء:

أولاً: أشهر الأسماء التي أُطلقت على هؤلاء العباد الزهاد ـ مع ما في كثير منهم من خلل ـ لفظ: «الصوفية»:

وقد بيّن شيخ الإسلام أن لفظةَ «صوفية» لفظةٌ حادثة لم تكن في الصحابة ﷺ، **وكان الصحابة** ﷺ يسمون أهل العلم والدين: القراء.

قال: «كان السلف يسمون أهل الدين والعلم: القُرّاء، فيدخل فيهم العلماء والنُسّاك، ثم حدث بعد ذلك لفظ: الصوفية والفقراء»اهـ[1].

أما سبب إطلاق لفظ «الصوفية» على العُبّاد والنساك، فقد بين شيخ الإسلام سبب هذا الإطلاق، وعرض أقوال الناس في ذلك.

فقال في جواب سؤال عن الصوفية وأصلهم ونسبتهم: «الحمد لله، أما لفظ «الصوفية»[2] فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتَهر التكلم به بعد ذلك، وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل[3]، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما،

---

(١) الفرقان (ص٣٤)، الفتاوى (١١/ ١٩٥).

(٢) الصوف: معروف، وهو شعر الشاة، واحدته: صوفة، وكبش صاف: أي كثير الصوف.
وتأتي كلمة: صَوَف وصافَ بمعنى: مال وعَدَل، فيقال: صاف السهم عن الغزال: أي مال عنه وعدَل.
انظر: المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي (ص٤٨١)، الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري (٤/ ١٣٨٨).

(٣) لعل شيخ الإسلام يشير إلى ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في =

وقد رُوي عن سفيان أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري[١]، **وتنازعوا في المعنى الذي أُضيف إليه الصوفي**[٢] **فإنه من أسماء النسب: كالقرشي، والمدني، وأمثال ذلك؛ فقيل:**

١ - نسبة إلى **الصَّفا، وهو غلط** أيضاً؛ **لِأنه** ينبغي أن يُقال: صَفائي.

٢ - وقيل: نسبة إلى **الصفّ المتقدم بين يدي الله، وهو غلط؛ فإنه** لو كان كذلك لقيل: صَفِّيّ.

٣ - وقيل: نسبة إلى **الصَّفْوة من خلق الله، وهو غلط؛ لأنه** لو كان كذلك لقيل: صَفَويّ.

= ترجمة محمد بن إبراهيم أبي حمزة الصوفي، أن أبا حمزة قال: كان الإمام أحمد يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول: ما تقول فيها يا **صوفي**؟.اهـ.

ثم قال البغدادي بعدها: «عن أبي سعيد الزيادي قال: كان أبو حمزة أستاذ البغداديين، وهو أول من تكلم في بغداد بهذه المذاهب، من صفاء الذكر، وجمع الهمة، والمحبة، والشوق، والقرب، والأنس، ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس الناس ببغداد أحد، وقد توفي سنة ٢٨٩»اهـ. تاريخ بغداد (١/ ٣٩٠).

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يَسار، أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت، كانت أُمه مولاة لِأم سلمة أُم المؤمنين ﵂، وهو من كبار التابعين علماً وديانة، توفي سنة ١١٠هـ.

انظر: سير الأعلام (٤/ ٥٦٣)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٢٨)، طبقات المفسرين (١/ ١٤٧)، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٦).

(٢) ذهب صاحب «المصباح المنير» (١/ ٤٨١) إلى أن كلمة (صوفية) كلمة مولدة؛ لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية.اهـ، وقال ابن خلدون: «**إن قيل** بالاشتقاق، فإنها مشتقة من الصوف؛ لأنهم في الغالب مختصون به»اهـ. مقدمة ابن خلدون (ص٤٦٧).

٤ ـ وقيل نسبة إلى **صُوفة بن مُرّ**[1] بن أدّ بن طابخة[2]، قبيلة من العرب كانوا يُجاورون بمكة من الزمن القديم، يُنسَب إليهم النُسّاك[3]، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، **فإنه ضعيف أيضاً؛ لأن** هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النُسّاك.

ولأنه لو نُسِب النُسّاك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى.

ولأن غالب من تكلم باسم: «الصوفي» لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مُضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وُجود لها في الإسلام[4].

---

(١) في الفتاوى (١١/ ٥): صوفة بن **بشر**، وما أثبته هو من مختصر الفتاوى المصرية ص ٥٦٨ :(صُوفة بن مُرٍّ بن أُدّ بن طابخة)، والذي ذكره المترجمون له: صوفة بن **مُرّ**، كما سيأتي في التعليق التالي، وفي «الفتاوى» (١٠/ ٣٦٨): صُوفة بن مُراد بن طابخة).

(٢) قبيلة صوفة بن مُرّ: نسبة إلى جدهم: الغوث بن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان، من أعيان مُضَر في الجاهلية، ويُلقب بـ **صوفة** وبالربيط، قال الكلبي: لِأن أمه كانت لا يعيش لها ولد، فنذرت لَإن عاش هذا لَتربطن بِرأسه **صوفة** ولتجعلنه رَبيط الكعبة، فعاش ففعلت، وجعلته خادماً للبيت حتى بلغ الحُلُم، فنزعته، فلُقّب بالربيط.اهـ، وبنوه يُعرفون ببني **صوفة**، قال ابن بري: كانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى تدفع بها صوفة، وكذلك لا ينفرون من منى حتى تنفر صوفة، فإذا أبطأت بهم قالوا: أَجِيزي صوفة.اهـ، ولم يُذكر له تاريخ وفاة. انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٠)، تاج العروس (١٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، الأعلام (٥/ ١٢٣).

(٣) ممن صحح هذه النسبة الإمام ابن الجوزي في: تلبيس إبليس (ص١٦٣).

(٤) لعله مما يؤيد صحة وجود هذه القبيلة الخبرُ الذي أورده أبو نصر السراج في اللمع (ص٢٢) عن محمد بن إسحاق بن يسار أنه رواه في أخبار مكة: أن مكة خلت في وقت من الطائفين، فكان لا يطوف بالبيت أحد ـ وكان ذلك قبل =

٥ - وقيل - وهو المعروف -: إنه نسبة إلى لبس الصوف[١][٢].

فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة[٣].. وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يُقال: فِقهٌ كوفيّ، وعبادة بَصْرية، وهؤلاء نُسِبوا إلى

= الإسلام - وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي، فيطوف البيت وينصرف، قال السراج: فإن صحّ ذلك، فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يُعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح.
وإن كان وجود هذه القبيلة واشتهارهم بالنسك لا يعني أن نسبة الصوفية إليهم، للأسباب التي ذكرها شيخ الإسلام.

(١) وممن ذهب إلى أن الصوفية منسوبون إلى الصوف: السهروردي في عوارف المعارف (١/ ٢١١، ط. السعادة)، ابن خلدون في المقدمة (ص٤٦٨) وغيرهما، ومن المتأخرين: د. زكي مبارك في كتابه: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (١/ ٤٢، ط. دار الجيل، بيروت).

(٢) وقيل: إن الصوفية منسوبون إلى: الصوفانة (وهي بقلة زغباء قصيرة)، وذلك لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو من نبات الصحراء، وهذا غير سليم من ناحية اللغة؛ لأن النسبة إلى صوفانة هي صوفاني لا صوفي. تلبيس إبليس (ص١٦٣)، لسان العرب (١١/ ١٠٢).
صوفة القفا، وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس، كأن الصوفي انحرف عن الخلق إلى الحق. تلبيس إبليس (ص١٦٣).
وذهب البيروني إلى أنهم منسوبون إلى «السوفية» (بالسين لا بالصاد) وهم الحكماء القائلون بالوحدة، وأن الصوفية أول من أدخل ذلك في الإسلام، فسُموا باسمهم. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (ص٢٤ - ٢٥، ط. دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٧٧هـ).

(٣) البصرة: البصرة في كلام العرب: الأرض الغليظة، وسميت البصرة بذلك لغلظها وشدتها، وقد أُنشات هذه المدينة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ١٤هـ قبل الكوفة بستة أشهر، وهي من مدن العراق المشهورة، تقع في جنوب العراق قرب الكوفة.
انظر: معجم البلدان (١/ ٤٣٠ - ٤٤٠)، مراصد الإطلاع (١/ ٢٠١).

اللِّبسة الظاهرة، وهي لِباس الصوف، فقيل في أحدهم: «صُوفي»، وليس طريقهم مقيَّداً بلِباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علّقوا الأمر به، لكن أُضيفوا إليه لِكونه ظاهر الحال.

والتحقيق: أن هذه النِّسب إنما أُطلقت على طريق الاشتقاق الأكبر والأوسط، دون الاشتقاق الأصغر[1]، كما قال أبو جعفر[2]: العامة اسم مُشتق من العمى[3]، فراعَوا الاشتراك في الحروف دون الترتيب، وهو الاشتقاق الأوسط، أو الاشتراك في جِنس الحروف دون أعيانها وهو

---

(١) قال أبو الفتح ابن جني في بيان معنى الاشتقاق بأنواعه: «الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير. . ، فالصغير: أن تأخذ أصلاً من الأصول، فتتقرّاه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صِيَغُه ومبانيه، وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه، نحو: سلم ويسلم وسالم وسلمان. . وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته. . وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد. . نحو (ك ل م) (ك م ل) (م ل ك) (ل ك م) (ل م ك)»اهـ. الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤، ت: محمد علي النجار، دون دار طبع ولا سنة طبع).

(٢) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر النحاس، أخذ عن أبي إسحاق الزجاج، كان واسع العلم، كثير التأليف، له مصنفات منها: كتاب معاني القرآن، وكتاب إعراب القرآن، وكتاب تفسير أسماء الله الحسنى، توفي في مصر سنة ٣٠٧هـ.
انظر: طبقات النحويين واللغويين ـ لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ص٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٣) وقيل في اشتقاق اسم العامة: إنهم سُمّوا عامة لأنهم يكثرون فيعمون البلاد، وقيل: سميت العامة؛ لأنها تعم بالشر، ولم أقف على كلام أبي جعفر.
انظر: تاج العروس (١٧/ ٥٠٧).

الأكبر، وعلى الأوسط قول نُحاة الكوفيين: الاسم: مُشتق من السِّمَة، وكذلك إذا قيل: الصوفي من الصَّفا، وأما إذا قيل: هو من الصُّفة، أو الصَّف، فهم على الأكبر.

وقد روى أبو الشَّيخ الأصبهاني[(١)] بإسناده عن محمد بن سيرين[(٢)] أنه بلغه أن قوماً يُفَضلون لباس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون إنهم يتشبهون بالمسيح بن مريم، وهديُ نبينا ﷺ أحبّ إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلاماً نحو هذا»اهـ[(٣)].

ويتضح من كلام شيخ الإسلام أنه يرجح أن الصوفية منسوبون إلى الصوف.

ثانياً: تعريف الصوفية للتصوّف:

تقدم بيان تعريف شيخ الإسلام للتصوف، وفيما يلي أوردُ ما ذكره الشيخ من معاني التصوف عند الصوفية أنفسهم[(٤)].

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، أبو محمد، الإمام الحافظ مُحدث أصبهان، المشهور بِأبي الشيخ، وُلد سنة ٢٧٤هـ، كان من العلماء العاملين، صاحب سنة واتباع، توفي سنة ٣٦٩هـ.
انظر: سير الأعلام (١٦/٢٧٦)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٤٥ ـ ٩٤٧)، طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، العِبر (٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).

(٢) هو محمد بن سيرين، أبو بكر الأنصاري البصري، مولى أنس بن مالك ﷺ. كان فقيهاً عالماً ورِعاً كثير الحديث، توفي سنة ١١٠هـ.
انظر: سير الأعلام (٤/٦٠٦)، حلية الأولياء (٢/ ٢٦٣)، مرآة الجنان (١/ ٢٣٢)، شذرات الذهب (١/ ١٣٨).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٣٦٩، ١١/ ٥ ـ ٧، ١٦)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٦٨).

(٤) عرف الصوفية التصوف تعريفات متقاربة، ومن ذلك:
قال معروف الكرخي: «التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق»اهـ. عوارف المعارف للسهروردي (ص٦٢ ط. دار المعارف، بيروت، =

قال شيخ الإسلام: «ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم:

١ ـ الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفِكَر، واستوى عنده الذهب والحجر.

٢ ـ التصوف: كتمان المعاني، وترك الدّعاوي.

وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصِّدِّيق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء: الصِّدِّيقون، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصِّدِّيقين، فهو الصِّدِّيق الذي اختُصَّ بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصِّدِّيق من أهل هذا الطريق، كما يُقال: صِدِّيقو العلماء، وصِدِّيقو الأمراء، فهم أخصُّ من الصِّديق المطلق، ودون الصِّديق الكامل الصِّدِّيقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم»اهـ[(١)].

أما الصوفي عند غُلاة المتصوفة ـ كابن عربي وابن سبعين وأمثالهما ـ فهو مَن كان على طريقة الفلاسفة.

= ٥/٦٣ ط. النور)، والرسالة القشيرية (ص١٢٧)، واللمع (ص٢٥).

وقال الجنيد: «التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة». المصدر السابق نفسه.

وعرفه أيضاً بقوله: «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول ﷺ في الشريعة»اهـ. التعرف لمذهب التصوف (ص٢٥).

وعرفه سحنون بقوله: «التصوف هو أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء»اهـ. اللمع لأبي السراج الطوسي (ص١٥).

(١) الفتاوى (١١/١٦ ـ ١٧).

قال شيخ الإسلام مبيناً ذلك: «.. كان هؤلاء ـ كابن سبعين وأمثاله ـ يعكسون دين الإسلام، فيجعلون أفضل الخلق: المُحَقِّق عندهم وهو القائل بالوحدة،... وبعده عندهم ما ذكره ابن سبعين وإخوانه هو: **الصوفي، يعنون به المتصوف على طريقة الفلاسفة،** ليس هو الصوفي على مذهب أهل الحديث والكتاب والسنة، فلفظ الصوفي صار مُشتَرَكاً، فهؤلاء القائلون بالوحدة إذا قالوا: الصوفي، يريدون به هذا، ولهذا كان عندهم أفضل من الفيلسوف؛ لِأنه جمع بين النظر والتّألُّه، كالسهروردي المقتول وأمثاله»اهـ[1].

وبما سبق يتبين لنا أن لفظ «الصوفية» لفظ حادث، وأن المتصوفة أدخلوا في الإسلام ما ليس منه بناء على اشتهارهم بلبس الصوف وإظهار الزهد والتقشف.

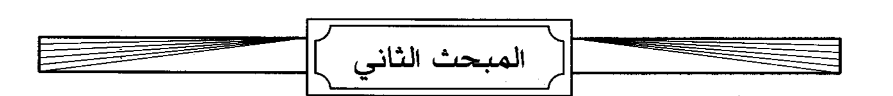
كما تبين لنا من كلام شيخ الإسلام أن مصطلح الصوفية ليس له ضوابط معينة تضبطه وتحدد معالمه بل أصبح كل من أراد أن ينتسب إلى الصوفية لبس الصوف وأظهر الزهد والفقر فأصبح صوفياً، له ما للصوفية، وعليه ما عليهم.

ومن هنا دخل فيهم الفلاسفة والملاحدة؛ كابن سبعين وابن الفارض والتلمساني وغيرهم، كما سيأتي تفصيله في مبحث قادم[2].



(١) الصفدية (١/٢٦٨، ٢٧٠).

(٢) انظر (ص٢٤٨).



نشأة الصوفية، وتاريخها، والأطوار التي مرّت بها

عند تتبعنا لكلام شيخ الإسلام عن نشأة الصوفية نجد أن التصوف لم يظهر دفعة واحدة في كل بلاد الإسلام، وإنما ظهر في مواطن معينة ثم انتشر منها إلى غيرها، وكلما ازداد انتشاراً ظهر فيه الانحراف أكثر فأكثر، خاصة لمَّا ازداد دخول الأعاجم في دين الإسلام، مع بقاء رواسب فاسدة من أديانهم السابقة، فصار التصوف موافقاً في بعض جوانبه لما كانوا عليه.

وفيما يأتي من نقاط سأعرض ما ذكره شيخ الإسلام عن نشأة الصوفية، وموطنهم الأصلي، وبداية انحرافهم، والأسباب التي دفعت بعض الناس إلى الدخول في التصوف ومحبة أهله.

وقد رتبتُ ما ذكره الشيخ في النقاط التالية:

أولاً: بداية ظهور التصوف، وموطنه الأصلي:

كما اختلفت الأقوال والآراء في أصل كلمة «صوفي»، فكذلك وقع الاختلاف في بداية نشأة التصوف[1]، وأين كان أول ظهوره.

---

(١) ذهب ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٢٠١) وابن خلدون في المقدمة (ص٤٦٧) إلى أن نشأة التصوف كانت قبل سنة مائتين.

ويرى القشيري (الرسالة القشيرية، ص٦): إلى أن هذا الاسم اشتهر قبل المائتين للهجرة.

وذهب شيخ الإسلام (الفتاوى ١١/٥) إلى أنه نشأ في بداية القرن الثاني، =

ثانياً: وذكر شيخ الإسلام أن البصرة هي الموطن الأصلي للتصوف:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول ما ظهرت الصوفية **من البصرة**، وقد ذكر الإمام معمر بن زياد من أصحاب الواحدي[1] في: «أخبار الصوفية» أن أول دويرة بنيت لهم بالبصرة.

وأول من بنى دُوَيْرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد[2]، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يُقال: فقهٌ كوفي، وعبادة بصرية...

ولهذا غالب ما يُحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو من عُبّاد أهل البصرة؛ مثل حكاية من مات أو غُشي عليه في سماع القرآن، ونحوه.

كقصة زرارة بن أوفى[3] قاضي البصرة: فإنه قرأ في صلاة الفجر:

= إلا أنه لم يشتهر التكلم به إلا بعد القرن الثالث.

(١) هو علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي، أبو الحسن، صاحب التفسير، كان طويل الباع في العربية واللغات، توفي سنة ٤٦٨هـ.
انظر: سير الأعلام (١٨/ ٣٣٩)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، طبقات الشافعية للسبكي (٥/ ٢٤٠)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص٢٣).

(٢) هو عبد الواحد بن زيد البصري، أبو عُبَيدة، الزاهد، شيخ العُبَّاد، حدث عن الحسن، وعطاء، وغيرهما، توفي بعد سنة ١٥٠هـ.
انظر: سير الأعلام (٧/ ١٧٨)، حلية الأولياء (٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٤٣ ـ ٢٤٥)، ميزان الاعتدال (٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣).

(٣) هو زرارة بن أوفى العامريّ البصري، أبو الحاجب، الإمام الكبير، من التابعين، سمع من أبي هريرة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، توفي سنة ٩٣هـ.
انظر: سير الأعلام (٤/ ٥١٥)، أخبار القضاة لِوَكيع (١/ ٢٩٢)، تهذيب التهذيب (٣/ ٣٢٢).

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدّثر: ٨]، فخَرَّ ميتاً[١]، وكقصة أبي جهير الأعمى[٢] الذي قرأ عليه صالح المرّي[٣] فمات.

وكذلك غيره ممن رُوي أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائفُ يُصعقون عند سماع القرآن...

والمقصود: أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لِشدة الخوف، فإن الذي يذكرونه من خوف عُتبة الغلام[٤]، وعطاء السّليمي[٥]، وأمثالهما أمرٌ عظيم.

ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله

---

(١) القصة ذكرها الإمام الذهبي وغيره، وفيها: أن زرارة بن أوفى رَحِمَهُ ٱللَّهُ صلى بأصحابه في مسجد بني قُشَيْر، فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدّثر: ٨]، فشهق وخَرّ ميتاً.
انظر: سير الأعلام (٤/ ٥١٦)، حلية الأولياء (٢/ ٢٥٩).

(٢) أبو جهير الأعمى: ذكره الذهبي فيمن صحب الحسن البصري، ولم أقف عليه في غير هذا الموضع.
انظر: سير الأعلام (٤/ ٥٧٩).

(٣) هو صالح بن بُشَير المرّي القاصّ، أبو بشر، الزاهد الخاشع، واعظ أهل البصرة، قال الذهبي: ويُقال: مات جماعة سمعوا قراءته، توفي سنة ١٧٢هـ.
انظر: سير الأعلام (٨/ ٤٦)، صفة الصفوة (٣/ ٣٥٠)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٩٤).

(٤) هو عتبة بن أبان البصري، المشهور بعتبة الغلام، الزاهد الخاشع الخائف، استشهد في غزوٍ للروم، لم أجد له تاريخ وفاة.
انظر: سير الأعلام (٧/ ٦٢)، مشاهير علماء الأمصار (ص١٥٢)، حلية الأولياء (٦/ ٢٢٦ ـ ٢٣٨).

(٥) هو عطاء السّلَيمي البصري العابد، من صغار التابعين، أدرك أنس بن مالك، كان قد أرعبه فرط الخوف من الله، وله في ذلك حكايات، توفي بعد سنة الأربعين ومائة.
انظر: سير الأعلام (٦/ ٨٦)، حلية الأولياء (٦/ ٢١٥ ـ ٢٢٦).

ما قابلهم أو تفضّل عليهم، ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعوه إلى فعل ما يُحبه الله، وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة، فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء، وهو حال الصحابة ﵃.

وقد رُوي أن عطاء السليمي ﵁ رُئِيَ بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي: يا عطاء! أما استحيت مني أن تخافني كل هذا؟! أما بلغك أني غفورٌ رحيم؟!»اهـ[١].

ثالثاً: مزامنة ظهور التصوف لظهور الرأي والكلام[٢]:

قال الشيخ ﵀: «.. واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات في هذا القدْر وغيره إنما وقعت في الأُمة في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: **(من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)**[٣]. ومعلوم أنه إذا استقام «ولاة الأمور» الذين

---

(١) الفتاوى (١١/٦ ـ ٧، ١٣)، وانظر ـ أيضاً ـ الفتاوى (١٠/٣٥٨، ٣٥/٤١).

(٢) يُجمعُ كثيرٌ من الباحثين في التصوف على تأثر التصوف بعلم الكلام والفلسفة اليونانية.

قال أبو الوفاء التفتازاني: «ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي، فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة، والأفلاطونية خاصة، إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل، أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرُّها وحرّان»اهـ. مدخل إلى التصوف الإسلامي (ص٣٩، ط. مصر).

وذكر الدكتور عبد الرحمن البدوي تحت عنوان «التأثير اليوناني في التصوف» أن الصوفية بدأ تأثرهم بكتاب (أتولوجيا أرسطو طاليس) منذ القرن الخامس الهجري، ظهر تأثرهم بما في أتولوجيا من نظريات الفيض، كما نجده عند السهروردي المقتول، وعند ابن عربي.اهـ. تاريخ التصوف الإسلامي (ص٤١).

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٤/ ٢٠٠/ح٤٦٠٧)، والترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة =

يحكمون في النفوس والأموال استقام عامة الناس.. وكذلك من جهتهم يقع الفساد...

فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار مُلْكاً ظهر النقص في الأمراء، فلا بدّ أن يظهر أيضاً في أهل العلم والدين.

فحدث في آخر خلافة علي رضي الله عنه بدعتا الخوارج والرافضة... وكان مُلك معاوية رضي الله عنه مُلْكاً ورحمة. فلما ذهب معاوية ـ رحمة الله عليه ـ وجاءت إمارة يزيد[1]، وجرت فيها فتنة قتل الحسين رضي الله عنه[2] بالعراق...

ثم مات يزيد وتفرقت الأمة: ابن الزبير في الحجاز، وبنو الحكم في الشام، ووثب المختار بن أبي عُبيد[3] وغيره بالعراق، وذلك في

= واجتناب البدع (٥/ ٤٤/ح٢٦٧٦)، الحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤/ ٣٢٩)، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦/ح١٧١٨٢)، وابن حبان (١/ ١٧٨/ح٥)، والدارمي (١/ ٥٧/ح ٩٥)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤/ح٢٠١٢٥)، والطبراني في الكبير (٨١/ ٢٤٦/ح٦١٨)، وابن ماجه (المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ١/ ١٥/ح٤٢) من حديث: العرباض بن سارية رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٤١/ح٢١٥٧).

(١) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب، الخليفة، تولى سنة ٦٠هـ، وله ثلاث وثلاثون سنة، وتوفي سنة ٦٤هـ، قال الذهبي: لا نسبّهُ ولا نُحبُه، له على هَناته حسنة؛ وهي غزوه القسطنطينية ومعه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

انظر: سير الأعلام (٤/ ٣٥)، منهاج السنة (٢/ ٢٣٧)، البداية والنهاية (٨/ ٢٢٦)، الكامل في التاريخ (٤/ ١٢٦).

(٢) هو الحسين بن علي رضي الله عنهما بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف، ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه، وُلد سنة ٤هـ، وقتل في كربلاء سنة ٦١هـ رضي الله عنه.

انظر: سير الأعلام (٣/ ٢٨٠)، مرآة الجنان (١/ ١٣١)، الإصابة (١/ ٣٣٢)، شذرات الذهب (١/ ٦٦).

(٣) هو المختار بن أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو بن ثقيف، الكذاب، ادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧هـ. =

أواخر عصر الصحابة، وقد بقي فيهم مثل: عبد الله بن عباس[(١)]، وعبد الله بن عمر[(٢)]، وجابر بن عبد الله[(٣)]، وأبي سعيد الخدري[(٤)]، وغيرهم رضي الله عنهم حدثت بدعة القدرية والمرجئة[(٥)]، فردّها بقايا الصحابة رضي الله عنهم . . .

= انظر: سير الأعلام (٣/ ٥٣٨)، أُسد الغابة (٥/ ١٢٢)، الإصابة (٣/ ٥١٨)، شذرات الذهب (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، الصحابي الجليل، إمام المفَسّرين، وُلد بشِعب بني عامر قبل الهجرة بثلاث سنين، صَحِب النبي ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً، توفي سنة ٦٧هـ، وقيل: ٦٨هـ.
انظر: سير الأعلام (٣/ ٣٣١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٦٥)، أسد الغابة (٣/ ٢٩٠)، البداية والنهاية (٨/ ٢٩٥).

(٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل، الصحابي الجليل الإمام القدوة، شهد الخندق مع رسول الله ﷺ، وهو ممن بايع تحت الشجرة، توفي سنة ٧٣.
انظر: سير الأعلام (٣/ ٢٠٣)، الاستيعاب (ص٩٥٠)، مرآة الجنان (١/ ١٥٤)، تاريخ الإسلام (٣/ ١٧٧).

(٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب، الصحابي الجليل رضي الله عنه من أهل بيعة الرضوان، كان مفتي المدينة في زمانه، توفي سنة ٧٨هـ، وقيل: ٧٧هـ.
انظر: سير الأعلام (٣/ ١٨٩)، الإصابة (١/ ٢١٣)، العِبر (١/ ٨٩)، أسد الغابة (١/ ٢٥٦).

(٤) في المطبوع: وأبو سعيد، وهو خطأ.
وهو سعد بن مالك بن سنان بن الحارث بن الخزرج، أبو سعيد الخدري، الإمام الصحابي الجليل مفتي المدينة، توفي سنة ٧٤هـ.
انظر: سير الأعلام (٣/ ١٦٨)، أسد الغابة (٢/ ٢٨٩، ٥/ ٢١١)، البداية والنهاية (٩/ ٣)، الإصابة (٢/ ٣٥).

(٥) المرجئة: الإرجاء على معنيين: أحدهما التأخير، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]؛ لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، والثاني: إعطاء الرجاء، حيث قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع =

وفي أواخر عصر صغار التابعين، من حين أواخر «الدولة الأموية» حين:

شرع القرن الثالث ـ **تابعوا التابعين ـ ينقرض أكثرهم** ـ فإن الاعتبار في القرون الثلاثة بجمهور أهل القرن وهم وسطه ـ **وجمهور الصحابة انقرضوا** بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفرٌ قليل، **وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في** أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك، **وجمهور تابعي التابعين انقرضوا في** أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية[1].

وصار في وُلاة الأمور كثيرٌ من الأعاجم، وخرج كثيرٌ من الأمر عن ولاية العرب.

وعُرّبت بعض الكتب الأعجمية من كتب الفرس والهند والروم، وظهر ما قاله النبي ﷺ: **(ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يُستشهد، ويحلف ولا يُستحلف)**[2].

= مع الكفر طاعة، فأخرجوا الأعمال عن مُسَمى الإيمان. والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة الجبرية، ومرجئة القدرية، والمرجئة الخالصة.
انظر: الملل والنحل (١/ ١٣٩)، الفرق بين الفرق (ص٢٠٢)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١٠٧)، مقالات الإسلاميين (ص١٣٢)، التبصير في الدين (ص٥٩)، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٣٣)، ذكر مذاهب الثنتين والسبعين فرقة لليافعي (ص١٣٢، ت: د. موسى الدويش، ط. دار البخاري للنشر، ١٤١٠هـ).

(١) سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وكان آخر خلفاء بني أمية: مروان بن محمد بن مروان الملقب بالحمار، وأول خلفاء بني العباس: أبو العباس السفاح.
انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٢).

(٢) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/ ٤٦٥/ ٢١٦٥)، وابن ماجه (كتاب الأحكام، باب كراهية =

حدث ثلاثة أشياء: «الرّأي» و«الكلام» و«التصوّف»، وحدث «التّجهّم» وهو نفي الصفات، وبِإزائه «التمثيل».

فكان جمهور الرأي من الكوفة،...

وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة:

فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل.. ظهر أحمد بن [عطاء][(١)] الهجيمي[(٢)]، الذي صحب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد صحِب الحسن ومن اتبعه من المتصوفة، وبنى دُوَيْرة للصوفية، هي أول ما بُني في الإسلام.

وكان عبد الرحمن بن مهدي[(٣)] وغيره يُسَمونهم: الفقرية، وكانوا يجتمعون في دُوَيْرة لهم...

= الشهادة لمن لم يُستشهد ٢/ ٧٩١/ ٢٣٦٣)، ابن حبان (كتاب الحظر والإباحة ١٢/ ٣٩٩/ ح٥٥٨٦)، الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين (كتاب العلم ١/ ١٩٧/ ح٣٨٧)، من حديث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) في المطبوع أحمد بن علي، والصواب ما أثبت، والتصحيح من كتب التراجم.

(٢) أحمد بن عطاء الهجيمي البصري، شيخ الصوفية العابد القانت، قال الذهبي: «القدري المبتدع، فما أقبح بالزهاد ركوب البدع! كان تلميذ شيخ البصرة عبدِ الواحد بن زيد، قال أبو سعيد بن الأعرابي في طبقات النساك: برز في العبادة والاجتهاد، ولزم طريق شيخه، فكان قدرياً غير معتزلي، وكتب شيئاً من الحديث»اهـ، توفي سنة ٢٠٠هـ، وذكر الذهبي أنه سجن في آخر حياته، فلقي في السجن الإمام أحمد، فتحدث معه فانتفع ورجع عن مذهبه في القدر.

انظر: سير الأعلام (٩/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩)، لسان الميزان (١/ ٢٢١)، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي (١/ ٨٠).

قال الذهبي: «وكان ابن عطاء قد نصب نفسه للأستاذية، ووقف داراً في بلهجيم للمتعبدين والمريدين، يقص عليهم، قال ابن الأعرابي: وأحسبها أول دار وقفت بالبصرة للعبادة»اهـ. سير الأعلام (٩/ ٤٠٨).

(٣) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن، الإمام الناقد، سيّد الحُفاظ، وُلد سنة ١٣٥هـ، وتوفي سنة ١٩٨هـ. =

ولهذا تجد كتب الكلام، والتصوف إنما خرجت في الأصل من البصرة.. وقد شَرَكَ هؤلاء من البغداديين والخراسانيين والشاميين خلق، **لكن الغرض أن الأصول من ثَمَّ**»اهـ[١].

رابعاً: بداية تشعّب الصوفية وتنوعها، والأطوار التي مرت بها:

قال شيخ الإسلام: «.. فهذا أصل التصوف[٢]، ثم إنه بعد ذلك تشعّب وتنوع، **وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم.**

= انظر: سير الأعلام (٩/ ١٩٢)، طبقات ابن سعد (٧/ ٢٩٧)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٢٩).

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٥٤ ـ ٣٦١).

(٢) قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في معرض كلام له عن تلبيس إبليس على الصوفية وبداية الانحراف عندهم (تلبيس إبليس ١/ ٢٠١): «نقد مسالك الصوفية: وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين. ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى، وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة، غير أنهم على غير الجادة، وفيهم من كان ـ لقلة علمه ـ يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري»اهـ.

فأما صوفية الحقائق: فهم الذين وصفناهم[١].

وأما صوفية الأرزاق: فهم الذين وُقفت عليهم الوُقوف، كالخوانك[٢]، فلا يُشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا عزيز، وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك، **ولكن يُشترط فيهم ثلاثة شروط**[٣]:

أحدها: العدالة الشرعية، بحيث يُؤدون الفرائض، ويجتنبون المحارم.

الثاني: التأدّب بآداب أهل الطريق، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يُلتفت إليها.

الثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جمّاعاً للمال، أو كان غير مُتَخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقاً، فإنه لا يستحق.

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة، فَهمّهم في اللباس، والآداب الوضعية، ونحو ذلك، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زيّ أهل العلم وأهل الجهاد ونوعٍ ما من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يَظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم»اهـ[٤][٥].

---

(١) يعني الذين تقدم ذكرهم قبل قليل: أهل العبادة والتّألّه، والمبالغة في الخوف من الله تعالى.

(٢) سيأتي التعريف بها عند تفصيل الكلام عليها (ص٢٣٥).

(٣) ذكر الشيخ هذه الشروط مُختصرة في هذا الموضع، وسوف يتم تفصيلها بعد قليل (ص٢٣٧).

(٤) الفتاوى (١١/١٩ ـ ٢٠).

(٥) وذكر بعض المصنفين تقسيمات أخرى للصوفية، فقسمهم علي بن عثمان الهجويري (ت: ٤٦٥) في كتابه «كشف المحجوب» ثلاثة أقسام:
الصوفي: وهو المتفرغ لعبادة الله، والمتصوف: وهو الذي يجاهد نفسه =

خامساً: بداية إحداث الرُّبُطِ[١] والخوانك[٢] للصوفية:

= للوصول إلى الدرجة السابقة، والمستصوف: وهو من تشبه بهم من أجل المنزلة والجاه والمال. اهـ باختصار. كشف المحجوب (١/ ٢٣١، ترجمة د. إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة: أمين عبد المجيد بدوي، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٣٩٤هـ).
وقسمهم الفخر الرازي ست فرق:
الأولى: أصحاب العادات: وهم أصحاب الزي والهيئة.
الثانية: أصحاب العبادات: وهم المتفرغون للعبادة.
الثالثة: أصحاب الحقيقة: وهم المتفكرون في ملكوت الله.
الرابعة: النورية القائلون بوجود حجابين: نوري وناري.
الخامسة: الحلولية.
والسادسة: المباحية: القائلون بسقوط التكاليف. اهـ. باختصار.
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١١٥ ـ ١١٧، ط. شركة الطباعة الفنية المتحدة، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ).

(١) الرّبُط: جمع رَبيط، وجمع الجمع: رِباط، والرِّباط في الأصل: ملازمة الشيء والمواظبة عليه، والرباط أيضاً: واحد الرباطات المبنية، والربيط: الراهب والزاهد والحكيم الذي ربط نفسه عن الدنيا؛ أي: سدها ومنعها، ومنهم المتصوفة الذين ربطوا أنفسهم وأوقفوها على العبادة، فكان بعض المحسنين المحتسبين يبني لهم بيوتاً يوقفها عليهم، يأوون إليها، ويُنْفَق عليهم فيها، فكانت تسمى: الرُّبط، والرباطات.
انظر: تاج العروس (١٠/ ٢٥٩، مادة: ربط)، لسان العرب (٧/ ٣٠٢، مادة: ربط)، الصحاح (٣/ ١١٢٧، مادة: ربط)، عوارف العوارف لشهاب الدين السهروردي (١/ ٢٦١ ـ ٢٨١، ت: عبد الحليم محمود، ومحمود ابن الشريف، ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ أو الخطط المقريزية للمقريزي (٢/ ٤٢٧).

(٢) الخوانك: جمع خانكاه، لفظة فارسية، وعُربت: خانقاه، وجمعها: خوانق، وهي دُور الصوفية التي يسكنونها ويتفرغون فيها للعبادة، وأول خانقاه بُنيت لهم: خانقاه رملة الشام، وقرية بين إسفرايين وجرجان.
انظر: قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل لمحمد الأمين المحبي =

قال شيخ الإسلام: «.. طال الأمد، وتفرقت الأُمة، وتمسّك كل قوم بشعبة من الدين زادوها فأعرضوا عن شعبة أُخرى،.. وأُحدثت الرُّبُط والخوانك لِأهل التعبد، **وأظن مبدأ انتشار ذلك في دولة السلاجقة**[١].. ودولتهم إنما كانت في المائة الخامسة.. فأول ما بُنيت المدارس والرِّباطات للمساكين، ووُقفت عليها وقوف تجري على أهلها في وزارة نظام الملك[٢]. وأما قبل ذلك؛ فقد وُجد ذكر المدارس وذكر الرّبط، لكن ما أظن كان موقوفاً عليها لِأهلها، وإنما كانت مساكن مختصة، وقد ذكر الإمام معمر بن زياد من أصحاب الواحدي في: «أخبار الصوفية»: أن أول دُويرة بُنيت لهم في البصرة،..»اهـ[٣].

سادساً: الصفات المشترطة في الصوفي، ليستفيد من الرّبط والأوقاف:

كان التصوف في بدايته مقتصراً على أهل العبادة والورع، والتألّه والخوف، ثم لما ظهر أمر هؤلاء العُباد، وبدأ الناس يتعلقون بهم، ويرجون بركة دعائهم، ويلتمسون رضا الله تعالى بالصدقة عليهم

= (١/ ٤٤٩)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ـ الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية ـ لعبد القادر بدران (ص٢٧٢)، الخطط المقريزية (٢/ ٤١٤).

(١) دولة السلاجقة: قامت في بغداد سنة ٤٤٧، وقد كانت بغداد قبلهم تحت حكم بني بويه الشيعة، وقد شجعوا العلم ونشروا السنة.
انظر: تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني (ص١٢).

(٢) الحسن بن علي بن إسحق الطوسي، نظام الملك الوزير أبو علي، كان من جلة الوزراء، وكان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء، أنشأ المدارس بالأمصار، ورغب في العلم، وأملى وحدث، عاش ثمانياً وسبعين سنة، عدا عليه صبي فضربه بسكين، فقضى عليه سنة ٤٨٥هـ.
انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٧٣)، شذرات الذهب (٣/ ٣٧٣).

(٣) الفتاوى (٣٥/ ٤٠ ـ ٤١).

وخدمتهم، والوقف عليهم، بدأ يدخل في صفوفهم عند ذلك أقوام ليسوا منهم، وإنما طمعوا في المال والجاه، والتصدّر والظّهور.

قال الشيخ مُشيراً إلى ذلك: «.. وقول القائل: اليوم في زماننا كثير من المجاهدين والعلماء يتخذون الجهاد والقتال والاشتغال بالعلم معيشة دنيوية، يُحامون بها عن المال والجاه،.. نعارضه بما هو أصدق منه، وهو أن يُقال: **كثير من أهل الربط والزوايا**[1] **والمتظاهرين للناس بالفقر، إنما يتخذون ذلك معيشة دنيوية،** هذا مع انضمام كفر وفسوق ومصائب لا يتسع الحال لِقولها، بمثل دعوى الحلول والاتحاد في العُباد أكثر منها في أهل العلم والجهاد،..»اهـ[2].

ثم ذكر شيخ الإسلام الشروط اللازم توفرها في الصوفي ليستفيد من هذه الأوقاف، حتى يتحقق منها الغرض الذي لِأجله وُضعت، فقال: «.. وأما الصوفي الذي يدخل في الوقف على الصوفية، فيُعتبر له ثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون عدلاً في دينه، يؤدي الفرائض، ويجتنب المحارم.

الثاني: أن يكون مُلازماً لغالب الآداب الشرعية، في غالب الأوقات وإن لم تكن واجبة، مثل آداب الأكل، والشرب، واللباس، والنوم، والسفر، والركوب، والصحبة، والعِشرة، والمعاملة مع الخلق، إلى غير ذلك من الآداب الشريفة، قولاً وفعلاً.

ولا يُلتَفت إلى ما أحدثه بعض المتصوفة من الآداب التي لا أصل

---

(١) الزوايا: جمع زاوية، وهي المكان الذي يخصصه شخصٌ ما للعبادة ويختلي فيه ويأتيه، فيه بعض مريديه وطلابه، وهي مما أحدثه الصوفية واشتهروا به.
انظر: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال (ص٢٩٩).

(٢) الفتاوى (٢٨/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨).

لها في الدين، من التزام شكل مخصوص في اللبسة، ونحوها مما لا يُستحب في الشريعة، فإن مبنى الأدب على اتباع السنة.

ولا يُلتفت أيضاً إلى ما يهدره بعض المتفقهة من الآداب المشروعة، يعتقد ـ لِقِلّة علمه ـ أن ذلك ليس من آداب الشريعة، لِكونه ليس فيما بلغه من العلم أو طالعه من كتبه، بل العبرة في الآداب بما جاءت به الشريعة: قولاً وفعلاً وتركاً، كما أن العبرة في الفرائض والمحارم بذلك أيضاً.

الشرط الثالث في الصوفي: قناعتُه بالكفاف من الرزق، بحيث لا يمسك من الدنيا ما يفضُل عن حاجته، فمن كان جامعاً لِفضول المال لم يكن من الصوفية الذين يُقصَد إجراء الأرزاق عليهم، وإن كان قد يُفسح لهم في مُجرّد السكن في الرُبط ونحوها.

فمن حمل هذه الخصال الثلاث كان من الصوفية المقصودين بالرُبُط، والوقوف عليها، وما فوق هؤلاء من أرباب المقامات العَليّة والأحوال الزكية، وذوي الحقائق الدينية، والمِنَح الربانية: فيدخلون في العموم، لكن لا يختصّ الوقف بهم لِقِلة هؤلاء، ولِعُسر تمييز الأحوال الباطنة على غالب الخلق، فلا يُمكن ربط استحقاق الدنيا بذلك، ولِأن مثل هؤلاء قد لا ينزل الرُبُط إلا نادراً.

وما دون هذه الصفات من المقتصرين على مجرد الرسم في لِبسةٍ أو مِشية ونحو ذلك: لا يستحقون الوقف، ولا يدخلون في مُسمى الصوفية، لا سيّما إن كان ذلك مُحدَثاً لا أصل له في السنة، فإنَّ بَذْلَ المال على مثل هذه الرسوم فيه نَوع من التلاعب بالدين، وأكل لِأموال الناس بالباطل، وصدود عن سبيل الله.

ومن كان من الصوفية المذكورين المُستحقين فيه قَدْر زائد: مثل اجتهاد في نوافل العبادات، أو سعي في تصحيح أحوال القلب، أو طلب

شيء من الأعيان، أو علم الكفاية: فهو أولى من غيره، ومن لم يكن مُتَأدباً بالآداب الشرعية، فلا يستحق شيئاً البَتّة، وطالب العلم الذي ليس له تمام الكفاية: أولى مِمن ليس فيه الآداب الشرعية، ولا علم عنده، بل مثل هذا لا يستحق شيئاً»اهـ[١].

سابعاً: بداية الانحراف عند الصوفية، وأسبابه:

من سنن الله تعالى التي لا تتغير أن الانحراف مهما دقّ وصغُر، فإنه لا يزال يزيد ويكبر مع مرور الزمن، لِذا كانت كلّ بدعة مهما صغرت: ضلالة[٢]، وقد كانت بداية التصوف ـ كما تقدم ـ مبالغات في الخوف والبكاء والتألّه، على خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

ثم بدأت المخالفة تزداد، والانحراف يتضح[٣]، حتى غلا فريق من الصوفية في الولاية، ورفعوا منزلتها فوق منزلة النبوّة، وغَلَوْا في

---

(١) الفتاوى (٣١/ ٥٤ ـ ٥٦)، وانظر: مختصر الفتاوى المصرية (ص٣٩٤).

(٢) يدل على ذلك قوله ﷺ: (.. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)، رواه مسلم (كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٢/ ح٨٦٧)، والنسائي واللفظ له، كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، (٣/ ١٨٨/ ح١٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وأبو داود كتاب السنة، باب لزوم السنة، (٤/ ٢٠٠/ ح٤٦٠٧) من حديث: العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) ومن نتائج كثرة هذه الانحرافات والمخالفات كثرت الفرق والطرق الصوفية وتنوعت، حتى أوصلها بعضهم إلى أربعين طريقة كما فعل الشيخ أبو علي حسن بن علي العجيمي الحنفي (ت: ١١١٣)، والحق أن الطرق الصوفية لا تكاد تُحصر بعدد، بل كل من استحسن شيئاً ابتدع طريقة وسماها باسمه.

انظر: بغية المستفيد شرح منية المريد، لمحمد العربي السائح الشرقي العمري التيجاني (ص٧٢)، التيجانية، للدكتور علي بن محمد آل دخيل الله (ص٣٨).

الكرامات، حتى ادّعى فريق منهم (أو من المنتسبين إليهم) علمَ الغيب والاطلاعَ على اللوح المحفوظ، ووقع فريق منهم في القول بالحلول والاتحاد. . . إلى غير ذلك من الانحرافات والضلالات.

وهذه البدع في المتأخرين أكثر منها في المتقدمين، كما قال شيخ الإسلام: «. . ولهذا كلما قرُب الناس من الرسول ﷺ كانت بدعُهم أخفَّ، فكانت في الأقوال، ولم يكن في التابعين وتابعيهم مَن تَعَبد بالرقص والسماع، كما كان فيهم خوارج ومعتزلة وشيعة[١]، وكان فيهم مَن يُكذّب بالقدر، ولم يكن فيهم مَن يحتج بالقدر.

فالبدع الكثيرة التي حصلت في المتأخرين من العُباد والزُّهاد والفقراء والصوفية لم يكن عاماها في زمن التابعين وتابعيهم، بخلاف أقوال أهل البدع القولية؛ فإنها ظهرت في عصر الصحابة والتابعين، فعُلِم أن الشبهة فيها أقوى، وأهلها أعقل، وأما بدع هؤلاء فأهلها أجهل وهم أبعد عن متابعة الرسول ﷺ. . »اهـ[٢].

ثامناً: وقد بيّن شيخ الإسلام في مواضع متفرقة من كتبه أصول انحرافات المتصوفة، ومنشأ ضلالهم:

ويمكن في النقاط التالية أن نستقرئ بالتفصيل ما ذكره الشيخ رحمه الله من:

---

(١) الشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه وفضّلوه على أبي بكر وعمر، ومنهم مَن قال: إنه الإمام بعد رسول الله ﷺ، بالنص الجلي والخفي، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن ولده، وإن خرجت فبظلم أو تقيّة منه أو من أولاده، ويقولون: إن الإمامة من أصول الدين، وإن الأئمة معصومون، وهم فرق كثيرة جداً، وأصولها ثلاث: الغلاة، والزيدية، والإمامية.
انظر: الملل والنحل (١/ ١٤٦)، التبصرة في أصول الدين (ص١٦)، كشّاف اصطلاحات الفنون (٤/ ١٣٦).

(٢) الفتاوى (١٩/ ٢٧٥).

أسباب انحرافات الصوفية:

أ ـ قِلة العلم بالدين ـ عامة ـ والجهل بأسماء الله تعالى وصفاته:

قال شيخ الإسلام ـ رفع الله درجته ـ: «.. وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم **إنما أُتوا من قِلّة العلم والإيمان بصفات الله التي يتميز بها عن المخلوقات..**»اهـ[1].

ومِما يزيد الأمر وضوحاً ما نقله الشيخ عن فريق مِنَ الصوفية مِنْ ذمِّهم لطلب العلم وتنفيرهم الناس عامة ومُريديهم خاصة عن تعلم العلم وطلبه.

قال شيخ الإسلام: «وأهل العبادات البدعية، يُزين لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبَغِّض إليهم السُبل الشرعية، حتى يُبغضهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره، وقد يُبغض إليهم حتى الكتاب، فلا يحبون كتاباً ولا مَن معه كتاب، ولو كان مصحفاً أو حديثاً.

كما حكى النصرباذي[2] أنهم كانوا يقولون: يدع علم الخِرَق ويأخذ علم الورق، قال: وكنت أستر ألواحي منهم، فلما كبرتُ احتاجوا إلى علمي.

وكذلك حكى السريّ السقطي[3]: أن واحداً منهم دخل عليه، فلما

---

(١) المصدر السابق (٤/٥٨).

(٢) إبراهيم بن محمد النصرآباذي، أبو القاسم، صحِب الشبلي وأبا علي الروذباري، وكان له في الحديث رواية، من كلامه الحسن قوله: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.
انظر: الرسالة القشيرية (ص٤٣٨).

(٣) هو السري بن المفلس السقَطي، كنيته: أبو الحسن، يقال: إنه خال الجنيد =

رأى عنده محبرة وقلماً خرج ولم يقعد عنده.. وكثير من هؤلاء يُنفّر ممن يذكر الشرع أو القرآن، أو يكون معه كتاب أو يكتب.

وذلك لأنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم، فصارت شياطينهم تُهربهم من هذا، كما يُهرب اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده في دينه، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم لئلّا يسمعوا كلامه ولا يروه.

وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٩، ٥٠]، وهم من أرغب الناس في السماع البدعي: سماع المعازف، ومِن أزهدهم في السماع الشرعي: سماع آيات الله تعالى.

وكان مِما زيّن لهم طريقهم أن وجدوا كثيراً من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله تعالى، وسلوك سبيله:

إما اشتغالاً بالدنيا، وإما بالمعاصي، وإما جهلاً وتكذيباً بما يحصل لأهل التألّه والعبادة.

فصار وجود هؤلاء مِما يُنفرهم، وصار بين الفريقين نوع تباغض يشبه من بعض الوجوه ما بين أهل الملّتين:

هؤلاء يقولون: ليس هؤلاء على شيء، وهؤلاء يقولون: ليس

= وأستاذه، صحِب معروفاً الكرخي، وهو أول مَن تكلم ببغداد في الحقائق والأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته، توفي سنة ٢٥١هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٤٨ ـ ٥٥)، حلية الأولياء (١٠/١١٦ ـ ١٢٦)، الطبقات الكبرى (١/٨٦ ـ ٨٧)، وفيات الأعيان (١/٢٥١)، شذرات الذهب (٢/١٢٧)، صفة الصفوة (٢/٢٠٩ ـ ٢١٨).

هؤلاء على شيء، وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مِما يُحَصّل في الكتب»اهـ[(١)].

ب ـ تقديمهم الاشتغال بالعبادة والتألّه على الاشتغال بالعلم:

وهذا السبب مرتبط ارتباطاً مباشراً بالسبب الأول، وما أوقع كثيراً من المتعبّدة في البدعة والضلال إلا التعبد لله تعالى بغير علم، فصار حالهم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن سورة الفاتحة وما تضمّنته من المعاني العظيمة: «.. فقد ثبت بهذا النص أن هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده، وأن هاتين الكلمتين مُقتسم السورة، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع ما قبله لله، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، مع ما بعده للعبد، وله ما سأل...

وقد جمع بين هذين الأصلين الجامِعَين إيجاباً وغير إيجاب في مواضع؛ كقوله في آخر سورة هود: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقول العبد الصالح شُعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقول إبراهيم والذين معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، ... وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته، ... إذا تقرّر هذا الأصل، فالإنسان في هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة، إما أن يأتي بهما، وإما أن يأتي بالعبادة فقط، وإما أن يأتي بالاستعانة فقط، وإما أن يتركهما جميعاً.

ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة، بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام، وهم المقصودون هنا بالكلام:

---

(١) الفتاوى (١٠/٤١٢ ـ ٤١٣).

قسم: يغلب عليه قصد التألّه لله، ومتابعة الأمر والنهي، والإخلاص لله تعالى، واتباع الشريعة في الخضوع لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات، لكن يكون منقوصاً من جانب الاستعانة والتوكل...

وقسم: يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه، والخضوع لقضائه وقدره وكلماته الكونيات، لكن يكون منقوصاً من جانب العبادة وإخلاص الدين لله، فلا يكون مقصوده أن يكون الدين كله لله، وإن كان مقصوده ذلك، فلا يكون متبعاً لشريعة الله ﷻ ومنهاجه، بل قصده نوع سلطان في العالم، إما سلطان قدرة وتأثير، وإما سلطان كشف وإخبار، أو قصده طلب ما يريده ودفع ما يكرهه بأي طريق كان.

أو مقصوده نوع عبادة وتألّه بِأيّ وجه كان همته في الاستعانة والتوكل المعينة له على مقصوده، فيكون إما جاهلاً وإما ظالماً تاركاً لبعض ما أمره الله به، راكباً لبعض ما نهى الله عنه، وهذه حال كثير مِمن يتأله ويتصوف ويتفقر ويشهد قدر الله وقضائه، ولا يشهد أمر الله ونهيه، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها إليه، وإقامته لها، ولا يشهد ما أمر به وما نهى عنه، وما الذي يحبه الله منه ويرضاه، وما الذي يكرهه منه ويسخطه.

ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة مع انحلال عن بعض الشريعة، ومخالفة لبعض الأمر، وإذا أوغل الرجل منهم دخل في الإباحية والانحلال، وربما صعد إلى فساد التوحيد فيخرج إلى الاتحاد والحلول المقيَّد، كما وقع لكثير من الشيوخ»اهـ[1].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن سبب انحراف أهل الكلام، وأهل التصوف: «.. فإن كُلًّا من المنحرفين له مفسدتان:

---

(١) الفتاوى (١٤/٨ ـ ١١).

إحداهما: القول بلا علم ـ إن كان متكلماً ـ **والعمل بلا علم** ـ إن كان متصوفاً ـ وهو ما وقع من البدع الكلامية، والعملية، المخالفة للكتاب والسنة.

الثاني: فوّت المتكلمُ العملَ، **وفوّت المتصوفُ القولَ والكلامَ.**

وأهل السنة الباطنة والظاهرة: كان كلامهم وعملهم وباطناً وظاهراً **بعلم**، وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقروناً بالآخر، وهؤلاء هم المسلمون حقاً.

الباقون على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه اليهود، ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه النصارى، ولهذا:

غلب على الأولين جانب الحروف، وما يدل عليه من العلم والاعتقاد.

وعلى الآخرين جانب الأصوات، وما يثيره من الوجد[١]»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «وأهل الإرادة: إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم، الواجبُ عليهم الاعتصامُ بالكتاب والسنة، وإلا وقعوا في الضلال والبغي: **ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان غاوياً، وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالاً.**

والضلال سِمَة النصارى، والبغي سِمَة اليهود، مع أن كُلاً من

(١) يعني السماع المبتدع عند المتصوفة، وسيأتي تفصيل الكلام عليه في مبحث خاص (٢/ ٢١٥).

(٢) الفتاوى (٢/ ٤١ ـ ٤٢)، وانظر ـ للاستزادة ـ: الفتاوى (٢٠/ ٧٣، ٢٨/ ١٧٢، ١٣/ ١٠٠، ٦/ ٥٦)، الاستقامة (ص١٤٤).

الأمتين فيها الضلال والبغي، ولهذا تجد من انحرف عن الشريعة في الأمر والنهي من أهل الإرادة والعبادة والسلوك والطريق ينتهون إلى الفناء الذي لا يُمَيزون فيه بين المأمور والمحظور، فيكونون فيه متبعين لأهوائهم»اهـ(١).

ج ـ الرغبة عن طريقة النبي ﷺ وصحابته الكرام ﷺ:

قال الشيخ أثناء كلامه عن انحراف فريق من الصوفية في التعبد لله تعالى بعبادات غير مشروعة:

«.. ثم إن هؤلاء مع هذا لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم، بل ولا نُقل ذلك عن النبي ﷺ، صار منهم من يقول: كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب، وأنهم حققوا ما لم يحققه الصحابة، ويقولون أيضاً: إن الرسول ﷺ لم يعلمهم هذا لِئلّا يشتغلوا به عن الجهاد، فإنه كان محتاجاً إليهم في الجهاد.

وهكذا يقول مَن يقول مِن مبتدعة أهل الزهد والتصوف إذا دخلوا في عبادات منهيٍّ عنها ومذمومة في الشرع؛ قالوا: كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد، وكان النبي ﷺ يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد، وأهلُ السيف قد يظن مَن يظن منهم أن لهم من الجهاد وقتال الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة ﷺ، وأن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم»اهـ(٢).

وقال الشيخ: «.. وهؤلاء الاتحادية إنما أُتوا من قلة العلم والإيمان بصفات الله التي يتميز بها عن المخلوقات وقِلة اتباع السنة وطريقة السلف في ذلك، بل قد يعتقدون من التجهّم ما ينافي السنة، تلَقّياً لذلك عن متفلسف أو متكلم، فيكون ذلك الاعتقاد صاداً لهم عن

---

(١) الفتاوى (٢٢/٣٠٧).

(٢) النبوات (ص٢٤٧ ـ ٢٤٨).

سبيل الله، كلما أرادت قلوبهم أن تتقرب إلى ربها، وتسلك الصراط المستقيم إليه، وتعبده كما فُطِروا عليه، وكما بلّغتهم الرسل مِن علوّه وعظمته، صرفتهم تلك العوائق المُضلة عن ذلك..»اهـ[(١)].

د ـ اعتمادهم مصادرَ للتلقّي غير الكتاب والسنة:

وذلك أنهم يتلقّون ما تستحسنه عقولهم، أو ترتاح له نفوسهم، فيتعبدون لله تعالى به، قال الشيخ: «.. ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة، يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع؛ لأن كثيراً منهم سلكوا في العبادة لله مُجرّد محبة النفس وإرادتها وهواها، من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة، فضلّوا بسبب ذلك ضلالاً يشبه النصارى»اهـ[(٢)].

هـ ـ تقليد المشايخ في أغلاطهم وزلاتهم:

قال الشيخ أثناء كلامه عن غلوّ الصوفية في مشايخهم: «.. ومن أمثلة ما ينسبه كثير من أتباع المشايخ والصوفية إلى المشايخ الصادقين، من الكذب والمحال، أو يكون من كلامهم المتشابه الذي تأوّلوه على غير تأويله، **أو يكون من غلطات بعض الشيوخ وزلّاتهم.. أو يكون من كلام المتشبهين بأولياء الله من ذوي الزهادات والعبادات والمقامات، وليس هو من أولياء الله المتقين، بل من الجاهلين الظالمين المعتدين، أو المنافقين أو الكافرين...**

فمنهم من يجعل للشيخ قصائد يسميها: «جنيب القرآن» ويكون وجده بها، وفرحه بمضمونها أعظم من القرآن، ويكون فيها من الكذب والضلال أمور»اهـ[(٣)].

---

(١) الفتاوى (٤/ ٥٨).

(٢) المنهاج (٥/ ٣٣١). وسيأتي في المبحث الخاص بمصادر التلقي عند الصوفية تفصيل هذه المسألة وسياق ما ذكره شيخ الإسلام حول ذلك (ص٣١٧).

(٣) الفتاوى (٤/ ٧٦).

تاسعاً: بداية دخول الفلسفة في التصوف:

للتصوف علاقة كبيرة بالفلسفة، ويمكن بيان ذلك من خلال النقاط التالية:

أ ـ تقدم أن مظاهر التصوف الأولى كانت تتمثل في المبالغة في التعبُّد والتألّه، والخوف والبكاء، ولم تكن ظهرت بعدُ تِلك الشطحات، كالغلوّ في الكرامات، أو ادعاء علم الغيب، أو القول بالحلول والاتحاد، ونحو ذلك، ولم يتكلم أحد من المتصوفة بهذا إلا بعدما تَزيّا فريق من الفلاسفة بِزِيّ المتصوفة، ثم بدؤوا ينشرون في الصوفية مثل هذه الاعتقادات.

وقد بيّن الشيخ هذا في معرض كلامه عن ابن عربي وابن سبعين، وغيرهما من الملاحدة الحلولية، وانخداع فريق من الناس بظاهرهم، فقال:

«.. والجنيد رَحِمَهُ اللهُ تكلم بكلام الأئمة العارفين، **فإن كثيراً من الصوفية وقعوا في نوع من الحلول والاتحاد**، كما ذكر ذلك أبو نعيم في «الحلية»، وكما ذكره القشيري في «رسالته»، .. والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السُّلَمي في: «طبقات الصوفية» وأبو القاسم القشيري في: «الرسالة» كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث، كالفُضَيل بن عياض، والجُنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي[1] عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، وغيرهم، وكلامهم موجود في السنة، وصنفوا فيها الكتب.

لكن بعض المتأخرين كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض

---

(١) في المطبوع: وأبو عبد الله، وهو خطأ.

فروع العقائد، **ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة، وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، فصارت المتصوفة:**

١ ـ تارة على طريقة **صوفية أهل الحديث**، وهم خيارهم وأعلامهم.

٢ ـ وتارة على اعتقاد **صوفية أهل الكلام**، فهؤلاء دونهم.

٣ ـ وتارة على اعتقاد **صوفية الفلاسفة**، كهؤلاء الملاحدة.

ولهذا ذكر ابن عربي في أول «الفتوحات» ثلاث عقائد:

١ ـ عقيدة مختصرة من، «إرشاد» أبي المعالي[1] بحججها الكلامية[2].

٢ ـ عقيدة فلسفية، كأنها مأخوذة من ابن سينا وأمثاله.

ثم أشار إلى:

٣ ـ اعتقاده الباطن الذي أفصح به في «فصوص الحكم»، وهو وحدة الوجود، فقال: «وأما عقيدة خلاصة الخاصة، فتأتي مفرقة في الكتاب»[3].

---

(١) أبو المعالي: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُوَيْني، تقدمت ترجمته (ص١٢٩).

(٢) الإشارة هنا إلى كتاب «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، لِأبي المعالي الجويني.

(٣) ذكر ابن عربي عقائده الثلاث في كتابه الفتوحات المكية، وقال في آخرها: «فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد وأهل النظرة ملخصة مختصرة، ثم أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشئة الشادية، ثم أتلوها بعقيدة خواصّ أهل الله من أهل الطريق من المحققين، أهل الكشف والوجود. . . وأما التصريح بعقيدة أهل الخلاصة، فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جِئت بها مبددة في أبواب هذا الكتاب، مُستوفاة مُبيّنة، لكنها كما ذكرنا مُتَفرقة. . .»اهـ.
انظر: الفتوحات المكية لابن عربي (١/ ٣٤ ـ ٣٨).

ولهذا كان هؤلاء ـ كابن سبعين ونحوه ـ يعكسون دين الإسلام، فيجعلون أفضل الخلق: المحقق عندهم، وهو القائل بوحدة الوجود.. وبعده عندهم على ما ذكره ابن سبعين وإخوانه هو: الصوفي، يعنون به المتصوف على طريقة الفلاسفة، ليس هو الصوفي على طريقة أهل الحديث والكتاب والسنة...

فمن جعل أئمة المذاهب وأتباعهم كمالك والشافعي و.. وأمثال هؤلاء دون أهل الكلام، وأهل الكلام دون الفلاسفة، والفلاسفة **دون صوفية الفلاسفة**، وصوفية الفلاسفة دون أهل التحقيق القائلين بالوحدة، وهؤلاء أرفع الخلق، **أليس يكون قد ناقض الرسول ﷺ في دينه مناقضة ظاهرةً لكل أحد؟! فمن كان إلى الرسول ﷺ أقرب كان عنده أخفض، ومن كان عن الرسول ﷺ أبعد كان عنده أفضل..**»اهـ[1].

وقال الشيخ في موضع آخر: «.. ولهذا كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف، وغيرهم، يأمرون أهل القلوب أرباب الزهد والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة،.. وهم كلهم متفقون على أنه لا طريق للعباد إلى الله إلا باتباع الواسطة الذي بينهم وبين الله، وهو الرسول ﷺ.

ولكن دخل في طريقهم أقوام ببدع وفسوق وإلحاد، وهؤلاء مذمومون عند الله وعند رسوله ﷺ، وعند أولياء الله المتقين، وهم صالحوا عباده، مثل من يظن أن لبعض الأولياء طريقاً إلى الله بدون اتباع الرسول ﷺ، أو يظن أن من الأولياء من يكون مثل النبي، أو أفضل منه، أو أنه يكون من هو خاتم الأولياء أفضلَ من السابقين الأولين، أو أعلم بالله من خاتم الأنبياء، وأمثال هذه المقالات التي تَقَوَّلَها مَنْ دخل

(١) الصفدية (١/٢٦٦ ـ ٢٧١).

فيهم من الملاحدة الضالين، ومِن هذا الوجه صار قومٌ مُتَصوفون يتفلسفون»اهـ[(١)].

وسُئل الشيخ: «.. عن رجل مسلم يقول: إن معجزات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، قوى نفسانية، أفتونا مأجورين. فأجاب: الحمد لله رب العالمين، هذا الكلام وهو قول القائل: إن معجزات الأنبياء ﷺ قوى نفسانية باطل، بل هو كفر يُسْتَتاب قائله ويُبَين له الحق،.. وهو من كلام طائفة من المتفلسفة، والقرامطة[(٢)] الباطنية، والإسماعيلية[(٣)]، ونحوهم،.. وهؤلاء كانوا يتظاهرون بالتشيع، وهم في

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين (ص٥١٤ ـ ٥١٦).

(٢) القرامطة: نسبة إلى حمدان قرمط، زعيم هذه الفرقة، وقد خرجوا على المسلمين سنة ٢٨١هـ في خلافة المعتضد، وحكموا البحرين (وتسمى حالياً: الإحساء)، وقطعوا الطريق على الحجاج، وأفسدوا في الأرض ونهبوا وأسالوا الدماء، واستحلوا البيت الحرام، واقتلعوا الحجر الأسود وذهبوا به إلى البحرين.

وهذه الفرقة من الفرق الباطنية التي جحدت الشرائع، واستباحت المحارم، وأنكرت الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وتأولوا أحكام الشريعة والعبادات المفروضة بتأويلات باطلة.

انظر: الفرق بين الفرق (ص٢٦٦)، التبصرة في أصول الدين (ص٨٣)، التنبيه والرد، للملطي (ص٢٠ ـ ٢١)، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٨٠ ـ ٨١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٧٩)، معجم البلدان (١/ ٣٤٦)، وللإمام ابن الجوزي رسالة مفيدة في القرامطة.

(٣) الإسماعيلية: إحدى فرق الشيعة الباطنية، تنسب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وزعموا أن «السر المكتوم» آلَ إليه، وزعموا أن الظاهر من نصوص الوحي قشور، والتأويل هو اللب، وأن هذا اللب لا يصل إليه إلا الخواص دون العوام، ومن تأويلاتهم الباطلة: أن البعث هو الانتباه من نومة الغفلة، واليقظة من رقدة الجهالة، والميزان الذي جاء في النصوص أنه توزن به الأعمال يوم القيامة هو: ميزان الحكمة وليس ميزاناً حقيقياً! =

الباطن ملاحدة، ويُسَمّون: القرامطة والباطنية، وغير ذلك.

ثم هم في هذه الدعوة درجات: فالواصلون منهم.. لا يعتقدون وجوب الصلوات الخمس، ولا الزكاة، ولا صيام شهر رمضان ولا حج البيت العتيق، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الخمر والميسر والزنا، وغير ذلك.

ويزعمون أن هذه النصوص لها تأويل وباطن يُخالف الظاهر المعلوم للمسلمين،.. **وقد دخل في كثير من أقوالهم في العلوم، أو في العلوم والأعمال، طائفة من المنتسبين إلى التصوف والكلام**، وكلام ابن عربي وابن سبعين، وأمثالهما من ملاحدة المتصوفة يرجع إلى قول هؤلاء»اهـ[1].

ب ـ بيّن الشيخ أن تأثير الفلسفة في التصوف بلغ إلى بناء بعض مذهب المتصوفة على أصول الفلاسفة، وأن بعض متفلسفة الصوفية قرّروا أصول الفلاسفة واعتمدوها، فسار باقي الصوفية عليها، فقال: «.. وأيضاً فقد قال ابن سينا في: «مقامات العارفين»[2]: «أول درجات حركات العارفين ما يُسَمونه هم بالإرادة، وهو ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني.. فما دامت درجته هذه فهو مُريد.

= وأمر الإسماعيلية ينتهي إلى تعطيل الشريعة وسقوط التكاليف، ولهم كتب في مذهبهم؛ منها: كتاب الافتخار، وكتاب الجفر، وكتاب تأويل الشريعة، وكتاب السر... وغيرها.

انظر: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (ص٨٣ ـ ٨٥)، الملل والنحل (١/ ٢٢٦)، التبصير في أصول الدين (ص٨٣ ـ ٨٤)، الفتاوى (٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي (ص١٤١)، ذكر مذاهب الثنتين والسبعين فرقة (ص١٣٠ ـ ١٣١).

(١) انظر: الصفدية (١/ ١ ـ ٥).

(٢) انظر: كتاب: الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، الفصل السابع، (٣ ـ ٤، ص٨١٨ ـ ٨٢٧).

ثم إنه يحتاج إلى الرياضة، والرياضة مُوجهة إلى ثلاثة أغراض:

الأول: تنحية ما سوى الحق، عن مُسْتَنِّ الآثار.

الثاني: تطويع النفس الأمّارة للنفس المطمئنة، لتنجذب قوى التخَيّل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسي، منصرفة عن التوهمات المناسبة للأمر السفلي.

الثالث: تلطيف السرّ للتنبيه.

والأول: يُعين عليه الزهد، **والثاني:** يعين عليه العبادة، المشفوعة بالفكر، **ثم الألحان المستخدمة لِقوى النفس الموقعة لِما يُلَحن بها من الكلام موقع القبول في الأوهام**[1]، **والثالث:** يُعين عليه الفكر اللطيف، والعشق العفيف»اهـ.

.. **والمقصود** أن يُجمع بين هذا وبين ما قاله ابن سينا في: «مقامات العارفين» وهو خاتمة مُصحفهم[2]، وقد قال الرازي[3]: «هذا الباب أجلّ ما في الكتاب، فإنه رتب عِلم الصوفية ترتيباً ما سبَقه إليه مَن قبله، ولا يلحقه مَنْ بعده»اهـ[4]، وأقره الطوسي على هذا الكلام، وقال:

---

(١) يُشير إلى السماع المبتدع عند الصوفية، وهو تلحين القصائد والأشعار، وما يُصاحب ذلك من الضرب بالدّفّ ومخالطة المردان... وغير ذلك، وسيأتي تفصيل مسألة السماع عند الصوفية، في المبحث الخاصّ بذلك (٢/ ١٦٦).

(٢) يعني بمصحفهم: كتاب: «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، كما ذكر الشيخ ذلك بقوله قبل صفحات: «.. فإنه قال في إشاراته التي هي كالمصحف لهؤلاء المتفلسفة الملحدة»اهـ. الدرء (٦/ ١٩).

(٣) هو فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تقدمت ترجمته، انظر (ص١٣٠).

(٤) الرازي له كتاب اختصر فيه كتاب ابن سينا «الإشارات والتنبيهات»، وسماه «لباب الإشارات»، وقد بحثت عن نص كلام الرازي الذي ذكره شيخ الإسلام، فلم أعثر عليه، ولكن نقله عن الرازي نصيرُ الدين الطوسي، كما سيأتي تخريجه في التعليق التالي.

«قد ذكر الفاضل الشارح أن هذا الباب أجلّ ما في هذا الكتاب، فإنه رتّب فيه علوم الصوفية ترتيباً ما سبقه إليه مَن قبله ولا لحقه مَن بعده»اهـ(١).

وهذا الذي هو غاية ما عند هؤلاء من معارف الصوفية، إذا تدبره مَن يعرف ما بعث الله به رسوله ﷺ، وما عليه شيوخ القوم ـ المؤمنون بالله ورسوله ﷺ ـ المتبعون للكتاب والسنة، تبين له أن ما ذكره في الكتاب بعد كمال تحقيقه لا يصيِّر الرجلَ مسلماً، فضلاً عن أن يكون ولياً لله، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، فإن غايته هو الفناء في التوحيد الذي وصفه، وهو توحيد غُلاة الجهمية المتضمن نفي الصفات.. وإنما يجعل الفناء في هذا التوحيد هو غاية العارفين: صوفية هؤلاء الملاحدة كابن الطُّفَيْل(٢) صاحب رسالة «حَيّ بن يقظان» وأمثاله، ولهذا يستأنسون بما يجدونه من كلام أبي حامد موافقاً لقولهم..»اهـ(٣).

وقال الشيخ: «.. وهذا الإلحاد الذي وقع في كلام ابن عربي صاحب «الفتوحات» وأمثاله في أصول الإيمان بالله ورسوله ﷺ واليوم الآخر، لم يكن في كلام العلماء والشيوخ المشهورين عند الأمة الذين

---

(١) انظر نصّ كلام الطوسي في شرحه على كتاب: «الإشارات والتنبيهات»، وهو مطبوع بِذيل كتاب، «الإشارات والتنبيهات»، (٣، ٤/ ٧٨٩).

(٢) هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، أبو بكر، وُلد سنة ٤٩٤هـ، برع في الطب والفلسفة والرياضيات، له رسالة: حيّ بن يقظان، وغيرها، توفي سنة ٥٨١هـ.

انظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني (١/ ٢٧، رسالة الشقندي في فضل الأندلس والأندلسيين)، الأعلام (١٢٨/٧).

(٣) انظر: درء التعارض (٦/ ١٩، ٤١، ٥٥ ـ ٥٦)، وانظر للاستزادة: الصفدية (٣٣٩/٢).

لهم لسان صدق، لكن هؤلاء أخذوا مذهب الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام.. فأخرجوها في قالب الإسلام بلسان التصوف والتحقيق..»اهـ[(١)].

ج ـ سبب تظاهر ابن عربي وغيره من غلاة الصوفية بالتصوف دون التشيع أو غيره من الملل:

قال الشيخ: «.. ومن هنا دخل أهل الإلحاد من أهل الحلول والوحدة والاتحاد، حتى آل الأمر بهم إلى أن جعلوا وجود المخلوقات عين وجود الخالق سبحانه، كما فعل صاحب «الفصوص» ابن عربي، وابن سبعين، وأمثالهما من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق.

وهم من جنس الملاحدة المنتسبين إلى التشيع، لكن تظاهر هؤلاء من أقوال شيوخ الصوفية وأهل المعرفة بما التبس به حالهم على كثير من أهل العلم المنتسبين إلى العلم والدين، بخلاف أولئك الذين تظاهروا بمذهب التشيع، فإن نفور الجمهور عن مذهب الرافضة مِما نفّر الجمهور عن مثل هؤلاء، بخلاف جنس أهل الفقر والزهد، ومن يدخل في ذلك من مُتَكلم ومُتَصوف وفقير وناسك، وغير هؤلاء، **فإنهم ـ لمشاركتهم الجمهور في الانتساب إلى السنة والجماعة ـ يخفى من إلحاد الملحد الداخل فيهم ما لا يخفى من إلحاد ملاحدة الشيعة**، وإن كان إلحاد الملحد منهم أحياناً قد يكون أعظم، كما حدّثني نقيب الأشراف أنه قال للعفيف التلمساني: أنت نُصَيْري؟ فقال: نُصَيْر جزءٌ مِنّي»اهـ[(٢)].

د ـ التفريق في الحكم بين الصوفية ـ عامة ـ وبين مَن تظاهر بمظهرهم من الفلاسفة:

---

(١) انظر: الصفدية (١/ ٢٦٥).

(٢) انظر: درء التعارض (١/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

مِن عدل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وغزارة فهمه لمذهب الصوفية: أنه يفرق عند الحكم عليهم بين درجات الصوفية وطبقاتهم، فلا يحكم على عمومهم بكلام غُلاتهم، بل إنه يخرج أكثر هؤلاء الغُلاة من فرقة الصوفية عامة، ويُقرّر أنهم ينتسبون إلى المتصوفة ظاهرياً وهم ليسوا منهم، بل المتصوفة منهم براء.

قال الشيخ في معرض كلامه عن الفلاسفة، وإنكارهم لِكثير من مسائل الشرع: «.. فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة، إذا سمعوا ما أخبرت به الأنبياء من العرش والكرسي قالوا: العرش هو الفلك التاسع، والكرسي هو الثامن،.. وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتألّه ـ كابن سبعين وأمثاله ـ سلكوا مسلكاً جمعوا فيه ـ بزعمهم ـ بين الشرع والفلسفة، وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة، وقد بُسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع»اهـ[1].

وقال في موضع آخر: «.. وهؤلاء يُلَبِّسون على المسلمين تلبيساً كثيراً،.. وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون «جبريل» هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ، والخيال تابع للعقل، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة، وزعموا أنهم أولياء الله، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله،.. **فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادّعوا أنهم من الصوفية، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل العلم، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة**»اهـ[2].

وقال: «.. ولكن هذا بناه ابن عربي وأمثاله من الملاحدة على أصول الفلاسفة الصابئة[3]، وهؤلاء أخذوا كلام الفلاسفة:

(١) الفتاوى (١٧/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨). (٢) الفتاوى (١١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

(٣) الصابئ، لغة: هو الخارج من دين إلى دين.

=

أخرجوه[١] في قالب المكاشفة والمشاهدة»اهـ[٢].

وسيأتي في مبحث قادم تفصيل مذهب ابن عربي وحزبه القائلين بالحلول والاتحاد، والتفريق بينهم وبين صالحي الصوفية كالجنيد وغيره، وبيان ما أوقع ابن عربي وحزبه في الضلال، مع الرد عليهم[٣].

❖ ❖ ❖

= والصابئة: هم الذين بُعث فيهم إبراهيم عليه السلام، كانوا يسكنون حران، وكانوا يعظمون الكواكب السبعة، ويزعمون أنها تدير العالم.

وهم قسمان:

مشركون: وهم عبدة الكواكب.

وصابئة حنفاء: وهم الموحدون الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام.

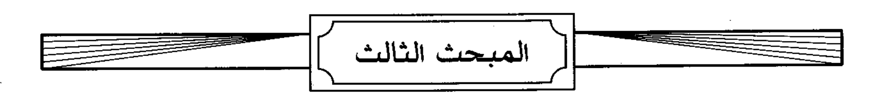
وقد ذكر الله تعالى هذين القسمين في القرآن وبين أن الصابئة ينقسمون مؤمنين وكفاراً؛ فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

انظر: لسان العرب (١/١٠٧)، الملل والنحل (٢/٣٠٧)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٩٠)، البرهان في عقائد أهل الأديان (ص٩٢)، إغاثة اللهفان (٢/٢٤٩ ـ ٢٥٥).

(١) كذا في المطبوع.

(٢) انظر: درء التعارض (٥/٣٥٥)، وانظر للاستزادة: التوسل والوسيلة (ص١٥٣).

(٣) انظر: (ص٤٦٩).



المبحث الثالث

أسماء الصوفية

أُطلق على المتصوفة عدة أسماء، لكنها ـ في الغالب ـ ترجع إلى معاني الزهد والتعبد والجوع والفقر ونحوها، ويمكن إجمال الأسماء التي ذكرها شيخ الإسلام فيما يلي:

الصوفية: وهو أشهر الأسماء وأظهرها، حتى صار عند الإطلاق لا ينصرف إلا إلى هؤلاء، وقد تقدم بيان سبب إطلاق هذا الاسم عليهم(١).

الفقرية، المتفَقِّرة، الفقراء(٢)، ....

(١) انظر: (ص٢١٧).

وقد ذكر شيخ الإسلام هذا الاسم وكرره كثيراً، كما في الفتاوى (٨/ ٣٦٠،٣٥٧، ١٤/ ١١، ١٠/ ٣٣، ٣٦٨)، الاستقامة (٢/ ١٢٨)، المنهاج (٣/ ٥٨، ٥/ ٣٣٤)، الفرقان (ص٣٤)، وغيرها كثير.

(٢) نسبة الصوفية إلى الفقر مشهورة بين الصوفية وغيرهم، حتى صار للفقر عند التفصيل معنيان: أحدهما في الاصطلاح العام، والآخر في اصطلاح المتصوفة.

وقد ذكر التهانوي التعريفين، وذكر الأول، ثم قال: «أما الفقير ـ عند السالكين ـ هو: من لا غناء له إلا بالحق، كما قال الشبلي، وقال أهل المعرفة: الفقر: الأنس بالمعدوم، والوحشة بالمعلوم، وقال سهل: الفقير الصادق هو الذي لا يسأل ولا يُرد ولا يتجسس»اهـ. كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد بن علي بن علي التهانوي (٣/ ٤٢٨، وضع حواشيه وعلق عليه: أحمد حسن بسج، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١٨هـ). =

الفكرية، المغاربة، الجوعية[١]:

قال الشيخ ـ رفع الله درجته ـ: «وقد كان للزهاد عدة أسماء: يُسمَّون بالشام: «**الجوعية**»، ويُسمّون بالبصرة «**الفقرية**» و«**الفكرية**»، ويُسمّون بخُراسان: «**المغاربة**»[٢]، ويُسمّون أيضاً: الصوفية و«**الفقراء**»»اهـ[٣].

وقال: «.. كل مَن كان مِن.. والمتفقرة..»اهـ[٤].

وقال: «وصار أيضاً اسم «**الفقراء**» يُعنى به أهل السلوك، وهذا عُرْفٌ حادث..»اهـ[٥].

= والكلاباذي في التعرف لمذهب التصوف كثيراً ما يطلق لفظ الفقر على الصوفية، ومن ذلك قوله: «الشيوخ يهجرون الفقير لثلاث: إذا حج عن غيره بمال، وإذا أتى خراسان، وإذا دخل اليمن» (ص١٤٧)، وقال: «قال الجنيد: الرحمة تنزل على الفقير في ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة، وعند الكلام؛ فإنه لا يتكلم إلا للضرورة، وعند السماع؛ فإنه لا يسمع إلا عند الوجد»اهـ (ص١٦٠).
وكذلك أطلقه السهروردي على الصوفية في مواضع من «عوارف المعارف» (كما في ٥/ ٦٩، وغيره).

(١) الجوعية: نسبة إلى الجوع، وسيأتي الكلام عن الجوع عند المتصوفة في مبحث خاص (٢/ ١٣٤).
وقد ذكر هذا الاسم أيضاً السهروردي في «عوارف المعارف» وأنه يطلق عليهم في الشام (٥/ ٦٧).

(٢) ذكر السهروردي (عوارف المعارف ٥/ ٦٧) أنهم يُسمون في خراسان بِـ«الشكفتية»، نسبة إلى «الشكفت» وهو الغار؛ لأنهم غالباً يأوون إليه.

(٣) الفتاوى (١٠/ ٣٦٨).

(٤) الفتاوى (٣٥/ ١٦٤)، وانظر أيضاً إطلاق اسم المتفقِّرة في: الفتاوى (١٠/ ٣٣، ٦٩٨).

(٥) الفتاوى (١١/ ١٩٥)، وانظر أيضاً إطلاق اسم الفقراء في: الفتاوى (٨/ ٥٩، ١٤/ ١١، ١١/ ٢٨، ١٩٥)، الاستقامة (٢/ ٢٧)، المنهاج (٣/ ٥٨)، الفرقان (ص٣٤).

العُبّاد، المتعبِّدة، النُّساك، المتنسِّكة[١]، الزهّاد، المتزهِّدة[٢]:

قال الشيخ: «.. فتدبر هذا؛ فإنه تنبيه على أصل عظيم، ضلّ فيه من طوائف **النُّساك**، والصوفية، و**العباد**، والعامة، من لا يحصيهم إلا الله»اهـ[٣].

وقال: «وأما عمل الحي بغير حب ولا إرادة أصلاً، فهذا ممتنع، وإن تخيّله بعض الغالطين من **النُّساك**»اهـ[٤].

وقال: «.. كل مَن كان مِن «**المُتَنَسِّكة**»، والمتفقهة، و«**المتعبدة**»، والمتفقرة، و«**المتزهّدة**».. خارجاً عن الهدى ودين الحق الذي بعث الله

---

(١) النساك والمتنسكة: نسبة إلى التنسّك، وهو التعبد؛ يقال: رجل ناسك: أي عابد، والجمع: نُسّاك.
انظر: مادة نسك، في: تاج العروس (١٣/ ٦٥٨).

(٢) الزهاد والمتزهدة: نسبة إلى الزهد، والزهد في اللغة: ترك الشيء والإعراض عنه، والتزهيد في الشيء ضد الترغيب فيه، والشيء الزهيد: هو القليل الحقير.
والزهد اصطلاحاً عرَّفه ابن رجب الحنبلي بأنه: «الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه»اهـ.
ومعنى الزهد عند الصوفية هو ما ذكره المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (ص٣٩٠) فقال: «الزهد في الشيء: قلة الرغبة فيه، وإن شئت قلت: الرغبة عنه.
وفي اصطلاح أهل الحقيقة: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا لراحة الآخرة، وقيل: أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك»اهـ.
انظر: تاج العروس (٤/ ٤٨٠، مادة: زهد)، جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص٢١٠)، التعريفات للجرجاني (ص١٥٣).

(٣) الاستقامة (٢/ ١٢٨)، وانظر أيضاً إطلاق اسم العُبَّاد في: الرد على الأخنائي (ص١٦٣).

(٤) الفتاوى (١٠/ ٦٣)، وانظر أيضاً إطلاق اسم النّساك في: الفتاوى (٨/ ٣٦٠، ٢٧/ ٥٥)، المنهاج (٢/ ٦٢٤، ٣/ ٥٨)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٧٠).

به رسوله ﷺ، . .»اهـ[١].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن الخلوة والاعتزال: «. . ولكن صار طوائف مِمن يؤثر التخلي عن الناس ـ زهداً ونُسكاً ـ يحسب أن. . وربما كان بعض الأوقات من هؤلاء النساك الزهاد طائفة إما ظالمون لأنفسهم. .» اهـ[٢].

أهل السلوك[٣]، وأهل الإرادة[٤]:

قال الشيخ في معرض كلامه عن محبة الله تعالى: «. . وهذا من أعظم ما تجب رعايته على **أهل الإرادة والسلوك**، فإن كثيراً من المتأخرين زاغ عنه، فضَلَّ سواء السبيل»اهـ[٥].

أهل التألُّه[٦]:

قال الشيخ في معرض كلامه عن القدر: «وأما الطائفة الثانية: فهم

---

(١) الفتاوى (٣٥/ ١٦٤)، وانظر ـ أيضاً ـ إطلاق اسم المتعبدة في: الفتاوى (١٠/ ٣٢)، المنهاج (٥/ ٣٣٤).

(٢) الفتاوى (٢٧/ ٥٥)، وانظر أيضاً إطلاق اسم الزهاد في: الفتاوى (١٣/ ١٠٠)، وسيأتي تفصيل كلام شيخ الإسلام في خلوات الصوفية، وحكاية أحوالهم فيها، في المبحث الخاص بذلك (٢/ ١١٤).

(٣) أهل السلوك: سُموا بذلك؛ لأنهم يتكلمون في طريق السلوك إلى الله، ومعالم هذا الطريق، وما يجب على السالك فيه، وسيأتي في مبحث خاص تفصيل معالم هذا الطريق عند الصوفية وبيان أخطائهم في ذلك (٢/ ١١١).

(٤) أهل الإرادة: سُموا أهل الإرادة؛ لأنهم يُعظمون الإرادة والمريد، ويتكلمون في دقائق النيات والإرادات، ويبالغون في ذلك، وسيأتي في مبحث خاص تفصيل أحكام الإرادة والمريد (٢/ ٣٠٧).

(٥) الفتاوى (٨/ ٣٦٩)، وانظر أيضاً إطلاق اسم أهل الإرادة والسلوك في: الفتاوى (٨/ ٥٩، ١٣/ ١٠٠، ٢٢/ ٣٠٧).

(٦) التألُّه: هو التعبُّد، مشتق من الألوهية، وهي العبودية. =

شرٌّ منهم، وهم طوائف من أهل السلوك والإرادة **والتألُّه** والتصوف والفقر، ونحوهم»اهـ[1].

وقال أثناء كلامه عن الحلول والاتحاد: «وكذلك في جنس المبتدعة الخارجين عن الكتاب والسنة من أهل التعبّد والتألُّه والتصوف، منهم طوائف من الغلاة يدّعون الإلهية»اهـ[2].

أهل المعرفة[3]:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الأحوال المبتدعة التي تعرض لبعض الصوفية:

«.. فالأحوال التي ترِد على العُباد **وأهل المعرفة**، والزهّاد، ونحوهم مِما توجب زوال عقل أحدهم وعلمه، حتى تجعله كالمجنون..»اهـ[4].

= انظر مادة: أله، في: تاج العروس (١٩/ ٥).

(١) الفتاوى (٨/ ٥٩). (٢) المنهاج (٥/ ٣٣٤).

(٣) أُطلِق على الصوفية «أهل المعرفة»؛ لأنهم يزعمون معرفة الله تعالى معرفة خاصة، وأن الله تعالى يعرفهم بنفسه معرفة ينفردون بها عن غيرهم.

قال الكلاباذي في التعرف: «معنى من تعرف إليه: أي من تعرف الله إليه، ومعنى من توحد له: أي أراه أنه واحد، وقال الجنيد: المعرفة معرفتان: معرفة تعرّف، ومعرفة تعريف، معنى التعرف: أن يعرّفهم الله ﷻ نفسَه، ويعرفهم الأشياء به»اهـ (ص٦٤)، وقال أيضاً: «قال سهل: أهل المعرفة بالله كأصحاب الأعراف يعرفون كلاً بسيماهم، أقامهم مقاماً أشرف بهم على الدارين وعرفهم الملكين»اهـ (ص١٣٩).

(٤) الفتاوى (١٠/ ٣٤٨)، وسيأتي تفصيل هذه الأحوال التي تعرض للصوفية في مبحث خاص (٢/ ١٦٦).

المُتبَتِّلَة[١]:

قال الشيخ في معرض كلامه عن محبة الله تعالى: «.. والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة، والمتفقّرة، والمتبتِّلة، ..»اهـ[٢][٣].

فهذه مسمَّيات متعددة أطلقت على الصوفية. والمتأمل فيها يجد أنها كلها تدور حول العبادة والزهد والإعراض عن الدنيا ـ كما تقدم ـ، ولو دام حال المتصوفة على الزهد والتعبُّد المشروع، لكان الأمر سهلاً، ولكن واقع كثير من المتصوفة تعدى مسائل الزهد والعبادة إلى بدع وضلالات أوقعتهم في الحلول والاتحاد، بل والانسلاخ من ربقة الدين بدعاء غير الله تعالى، وصرف أنواع من العبادات إلى الأولياء وغيرهم[٤].



---

(١) المتبتلة: من التبتُّل، وهو التعبُّد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].
انظر مادة: بتل، في: تاج العروس (١٤/ ٤٠).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦٩٨).

(٣) ذكر السهروردي أنهم يُسمون أيضاً «الملامتية»، والملامتي: هو الذي لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً؛ لأن عروقه قد تشربت طعم الإخلاص، وتحقق بالصدق، فلا يحب أن يطَّلع أحد على حاله وأعماله. (عوارف المعارف ٥/ ٧٠).

(٤) كما سيأتي بيان ذلك في مباحث متعددة من هذه الرسالة.



الفصل الثاني

فرقها، ورجالها، ومصادرهم في التّلقّي

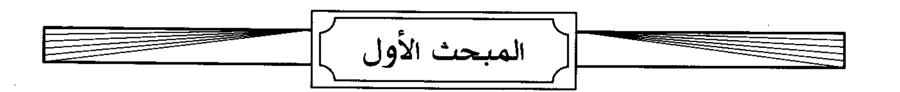
وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أشهر فرقها، والفروق بينها، وأسباب الافتراق

المبحث الثاني: أبرز رجالها، وأثرهم في الفرقة

المبحث الثالث: مصادرهم في التلقي





المبحث الأول

أشهر فرقها، والفروق بينها، وأسباب الافتراق

تمهيد:

عند النظر في منهج شيخ الإسلام في التفريق بين طوائف الصوفية وفرقها، نجد أنه ـ على الأغلب[١] ـ لا ينسبها إلى مسميات أو ألقاب اشتهرت بها، بل ينسبها إلى أشخاص، فيقول مثلاً: وهذه طريقة فلان ومَن تبِعه.. أو يقول: وهذا قاله فلان وتبِعَه عليه أقوام.. ونحو ذلك.

ومن ذلك قوله في معرض كلامه عن الخلوة وأحكامها[٢] عند المتصوفة: «.. ثم صار أصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية: الصلاة والصيام والقراءة والذكر، وأكثرهم يخرجون إلى أجناس غير مشروعة، **فمن ذلك طريقة أبي حامد ومن تبِعه**، وهؤلاء يأمرون صاحب الخلوة..»اهـ[٣].

وأرى أن السبب في ذلك هو: أن فرقة الصوفية لم تكن في بداية

---

(١) **قلتُ**: «على الأغلب»؛ لأن عادة شيخ الإسلام أن يقول ـ مثلاً ـ: هذا قول ابن عربي وَمَنْ تبِعه، ولا يُطلق عليهم اسم: العربية (نسبةً إلى ابن عربي)، وكذلك لا يُطلق على مَن اتبعوا التلمساني وتبَنَّوْا أقواله اسم التلمسانية، لكنه في أحيان قليلة قد يُطلق اسم القائل على أتباعه، كما سيأتي بعد قليل عن فرقة السَّبعينية، فقد نسبهم إلى ابن سبعين، الذي هو من رؤوس القائلين بالحلول والاتحاد.

(٢) سيأتي في مبحث قادم تفصيل مذهب الصوفية في الخلوة (٢/ ١١٤).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٣٩٦).

نشأتها قولاً مبتدعاً، أو رأياً معارضاً، أو مذهباً مخالفاً مخالفةً صريحةً ظاهرةً لِمَا عليه أهل السنة والجماعة، وإنما كانت ـ كما تقدم بيانه[١] ـ مبالغات ظهرت من بعض التابعين في الخوف، والبكاء، والزهد، ونحو ذلك مِمَّا لم يكن عليه النبي ﷺ وأصحابه، ثمّ بدأت ـ مع تقدم الزمن ـ تفشو بين عموم الصوفية مظاهر الغلوّ والشَّطَح، وبدأ مشايخ المتصوفة ومن تغلغل بينهم من ملاحدة الفلاسفة يصَنفون المصنفات، وينشرون الآراء في جزئيات المذهب، وصار لكلٍّ منهم رأي في السماع يُخالفه فيه غيره، ورأي آخرُ في الخلوة والعزلة يخالفه فيه غيره، ورأي ثالث في الكرامة، ورابع في النبوّة، وخامس في الجنة والنار، وسادس.. وسابع.. إلخ، ولأنهم لا يرجعون في تقرير مذهبهم إلى أصول علمية ثابتة، ولا يحتكمون عند الاختلاف إلى الكتاب والسنة، كثُر بينهم التنازع، وتعددت الأقوال، وصار لكل شيخ طريقة يتبعه عليها أقوام.

ويمكن ـ بالاستقراء ـ حصر فرق الصوفية التي ذكرها شيخ الإسلام، في الفرق التالية:

الاتحادية: وهي من أكبر فرقهم، وهم الذين يقولون: إن المخلوق يصل إلى مرحلة عالية من التعبد والقُرب يتحد فيها معه الخالق، وسيأتي شرح مذهبهم تفصيلاً[٢].

الحلولية: وهذه الفرقة من أكبر فرقهم أيضاً، وهي والاتحادية فرقة واحدة، ولا يكاد الشيخ يفرد إحداهما عن الأخرى إلا نادراً؛ سواء في العرض أو الرد، وبينهما فرق بسيط لا يكاد يظهر، **نبَّه شيخ الإسلام عليه بقوله**: «.. فإن هؤلاء الحلولية إخوان هؤلاء الاتحادية، **أولئك قالوا**:

---

(١) تقدم بيان ذلك عند الكلام عن نشأة الصوفية (ص٢٢٥).

(٢) سيأتي مبحث كامل مفصل عن مذهب الحلول والاتحاد (ص٤٠٥).

هو في جميع المصنوعات، **وهؤلاء قالوا:** هو المصنوعات» اهـ[١]، وسيأتي الكلام عن هذه الفرقة تفصيلاً[٢].

السبعينية: وهي من فرق الحلولية والاتحادية، وهم **أتباع ابن سبعين** من رؤوس القائلين بالحلول والاتحاد، **وذكرهم شيخ الإسلام بقوله**: «.. وهؤلاء عندهم ما ثَمَّ وجود لِغيره حتى يتحد مع وجوده، وهم من أعظم الناس تناقضاً، فإنهم يقولون: ما ثَمَّ غيْرٌ ولا سِوَى، وتقول **السبعينية**: ليس إلا الله، بدل قول المسلمين: لا إله إلا الله، ثُم يقولون: هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا..» اهـ[٣].

الحلَّاجية: وهم منسوبون إلى **الحسين بن منصور الحلاج**، المقتول على الزندقة[٤]، وهي من فرق الحلولية والاتحادية، **وقد ذكرها شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الحلول والاتحاد، فقال**: «.. فهؤلاء في الكفر الصريح هم أهل الإلحاد والاتحاد العام، بخلاف مَن قال بالاتحاد الخاص المقيَّد في نبي أو غير نبي كالنصارى وغالية الرافضة، وغالية جُهال المتعبدة من **الحلاجية**، واليونسية، وبعض العدوية، والحاكمية، وغيرهم، فإن هؤلاء يقولون بالاتحاد المعين المقيد..» اهـ[٥].

---

(١) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٧).

(٢) سيأتي في مبحث الحلول والاتحاد (ص٤٠٥).

(٣) الفتاوى (١٣/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

(٤) الزندقة: في الأصل لفظ فارسي معرَّب، وهي إنكار أصل من أصول العقيدة،، أو الإلحاد، أو سلوك طريق يؤدي إلى ذلك، وأطلقه الإمام أحمد على القائلين بتناقض القرآن، وأكثر المصنفين في الفرق لا يطلقون هذا اللفظ على طائفة معينة.

انظر: لسان العرب (١٠/ ١٤٧ مادة زندق)، الرد على الجهمية للإمام أحمد (ص٥٢، ت: د. عبد الرحمن عميرة)، الزندقة والزنادقة لعاطف شكري عوض (ص٦٩ ـ ٧٩، ١٠٧ ـ ١١٣، ١٢٣ ـ ١٢٧).

(٥) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٦ ـ ٣٧).

اليونسية[1]: ونسبتهم إلى **يونس القنّبي**[2][3]، وقد ذكره شيخ الإسلام في معرض رده على الحلولية والاتحادية في غلوّهم في مشايخهم وإيصال بعضهم بعض المشايخ إلى درجة الألوهية، **فقال الشيخ**: «.. وكذلك الغلوّ في بعض المشايخ، إما في الشيخ عدي[4]، **ويونس القنبي**،

---

(١) قال الإمام الذهبي: «وأما اليونسية؛ فهم شر الطوائف الفقراء، ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قالاً وفعلاً، أستحي من الله ومن الناس من التفوه بها، فنسأل الله المغفرة والتوفيق»اهـ. تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ٦١٩هـ، ص: ٤٧٢).

(٢) في المطبوع: يونس القتي، وهو خطأ، والتصويب من كتب التراجم.

(٣) هو يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي المشرقي القنيي، نسبة إلى قريته قُنَيَّة، شيخ الطائفة اليونسية.

قال الذهبي: «هذا شيخ الطائفة اليونسية، أولي الزعارة والشطارة، والشطح وقلة العقل، أبعد الله شرهم.. وكان شيخنا ابن تيمية يتوقف في أمره أولاً، ثم أطلق لسانه فيه وفي غيره من الكبار، والشأن في ثبوت ما يُنقل عن الرجل، والله المطّلع»اهـ.

وقال في موضع آخر: «كان ذا كشف وحال، ولم يكن عنده كبير علم، وله شطح وشعر ملحون ينظمه على لسان الربوبية، وبعضه كأنه كذب عليه، والله أعلم بسره»اهـ.

وقال ابن خلكان: «شيخ الفقراء اليونسية، وهم منسوبون إليه ومعروفون به، سألت جماعة من أصحابه عن شيخه: من كان؟ فقالوا: لم يكن له شيخ، بل كان مجذوباً، يريدون بذلك أنه جذب إلى طريق الخير والصلاح»اهـ، توفي سنة ٦١٩هـ.

انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٧/٢٥٦، ت: إحسان عباس، ط. دار الكتب العلمية، بيروت)، تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث سنة ٦١٩هـ، ص٤٧١ ـ ٤٧٣)، سير الأعلام (٢٢/١٧٨ ـ ١٧٩).

(٤) هو عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان، الشامي الهكاري، شيخ الطائفة العدوية، أصله من دمشق، ثم دخل إلى بغداد، فاجتمع بالشيخ عبد القادر وحماد الدباس وعقيل المنبجي وأبي النجيب =

أو الحلاج... وغيرهم، بل لغلوّ في علي[1] بن أبي طالب[2] رضي الله عنه ونحوه، بل الغلو في المسيح ونحوه.

فكل مَن غلا في حيٍّ، أو في رجل صالح؛ كمثل علي رضي الله عنه، أو عدي، أو نحوه، أو في مَن يعتقد فيه الصلاح، كالحلاج، أو الحاكم الذي كان بمصر، أو يونس القنيي، ونحوهم، وجعل فيهم نوعاً من الإلهية... فكل هذا شرك وضلال يُستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قُتل،..»اهـ[3].

واليونسية من فرق الحلولية والاتحادية كما يتبين ذلك من قول شيخ الإسلام، فيما تقدم قبل قليل: «.. بخلاف من قال بالاتحاد الخاص المُقَيَّد في نبيٍّ أو غير نبي؛ كالنصارى، وغالية الرافضة، وغالية

= السهروردي وغيرهم. قال ابن كثير: «انفرد عن الناس وتخلَّى بجبل هكار، وبنى له هناك زاوية، واعتقده أهل تلك الناحية اعتقاداً بليغاً، حتى إن منهم من يغلو غلواً كثيراً منكراً، ومنهم من يجعله إلهاً أو شريكاً، وهذا اعتقاد فاحش يؤدي إلى الخروج من الدين جملة»اهـ، توفي سنة ٥٥٧هـ، وله تسعون سنة.
انظر: البداية والنهاية (٨/ ٣٨٤)، شذرات الذهب (٤/ ١٧٩).

(١) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، أبو الحسن رضي الله عنه، أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنة، امتدت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، توفي بالكوفة سنة ٤٠هـ، حيث قتله عبد الرحمن بن ملجم (الخارجي).
انظر: الاستيعاب (٣/ ١٠٨٩ ـ ١١٣٤)، الإصابة (٤/ ٥٦٤ ـ ٥٧٠).

(٢) هو أبو طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، عم النبي ﷺ، دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فامتنع خوفاً من أن تعيّره العرب أنه ترك دين آبائه، فمات كافراً سنة ٣ قبل الهجرة.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١١٩ ـ ١٢٥)، الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٧، ٣٨، ٩٠، ٩١)، الأعلام (٤/ ٣١٥).

(٣) الفتاوى (٣/ ٣٩٥).

جُهال المتعبدة، من الحلاجية، **واليونسية**،..» اهـ[(١)].

وذكر شيخ الإسلام اليونسية في موضع آخر في معرض كلامه عن اعتقاد فريق من الصوفية في خاتم الأولياء[(٢)]، فقال: «.. وكذلك جهال القدرية، والأحمدية، **واليونسية**، قد يُفضلون شيخهم على النبي ﷺ، أو غيره من الأنبياء، وربما ادَّعَوْا في شيخهم نوعاً من الإلهية..»اهـ[(٣)].

وذكر الشيخ في موضع ثالث أنهم كُفار مُرتَدّون، فقال: «.. وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأصله قول الجهمية الذين يُسوّون بين المخلوقات، فلا يُفرقون بين المحبوب والمسخوط، ثم إنه جرت أمور يطول وصفها.

ولما جاء قازان ـ وقد أسلم ـ دمشق انكشفت أمور أخرى، فظهر أن **اليونسية** كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار. وحضر عندي بعض شيوخهم؛ واعترف بالردة عن الإسلام، وحدثني بفصول كثيرة... فتبيَّن له وقال: لا والله! وأخبرني عن رِدَّة من ارتدَّ من الشيوخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تُكرههم على الردَّة في الباطن، وتُعذِّبهم إن لم يرتدّوا، فقلت: كان هذا لِضعف إيمانهم وتوحيدهم والمادّة التي يشهدونها من جهة الرسول ﷺ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموَحِّدين..»اهـ[(٤)].

وقال شيخ الإسلام: «وأما المنتسبون إلى الشيخ يونس: فكثير منهم كافر بالله ورسوله ﷺ، لا يُقرون بوجوب الصلاة الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ﷺ، بل

---

(١) الفتاوى (١١/ ٣٦٣).

(٢) سيأتي تفصيل الكلام عن الولاية وخاتم الأولياء في مبحث خاص (ص٧٣٤).

(٣) الفتاوى (١١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).

(٤) الفتاوى (١٣/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

لهم من الكلام في سَبِّ الله ورسوله، والقرآن والإسلام، ما يعرفه مَن عرفهم»اهـ[(١)].

العدوية[(٢)]: وهم أتباع الشيخ: عدِي بن مسافر، وقد ذكرهم شيخ الإسلام من ضمن فرق الحلولية والاتحادية. وتقدم ذكر كلام الشيخ قبل قليل، ومنه قوله: «.. فهؤلاء في الكفر الصريح هم أهل الإلحاد والاتحاد العام، بخلاف مَن قال بالاتحاد الخاص المقيَّد في نبي أو غير نبي؛ كالنصارى، وغالية الرافضة، وغالية جُهال المتعبدة من الحلاجية، واليونسية، وبعض **العدوية**، والحاكمية... وغيرهم، فإن هؤلاء يقولون بالاتحاد المعين المقيد» اهـ[(٣)].

وتقدم قبل قليل أيضاً[(٤)] **سياق ما ذكره شيخ الإسلام من غلوّ بعض أتباعه فيه، حتى رفعوا منزلته إلى درجة الألوهية، ومن ذلك قول الشيخ: «وكذلك الغلوّ في بعض المشايخ، إما في الشيخ عدي**.. فكل مَن غلا في حيٍّ، أو في رجل صالح؛ كمثل علي ﷺ **أو عدي**.. وجعل فيهم نوعاً

---

(١) الفتاوى (٢/ ١٠٦).

(٢) العدوية: هم أتباع عدي بن مسافر، كما قال ابن كثير: «عدي بن مسافر.. شيخ الطائفة العدوية»اهـ. وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام قد يمرق من الدين، وذلك بأمور؛ منها الغلو الذي ذمه الله؛ مثل الغلو في عدي بن مسافر أو غيره، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه. فكل من غلا في نبي أو صحابي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية؛ مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني، أو أنا في حسبك ونحو هذا، فهذا كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل»اهـ. (مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ص٦٧).
انظر: البداية والنهاية (٨/ ٣٨٤).

(٣) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٦ ـ ٣٧).

(٤) راجع: (ص٢٧٠، ح٤).

من الإلهية، فكل هذا شرك وضلال، يُستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قُتل»اهـ[١].

ومِن نُصْحِ شيخ الإسلام وإخلاصه كتب إلى أتباع الشيخ عدي كتاب مناصحة وتنبيه إلى ما وقعوا فيه من غلوّ، ومن ذلك قوله: «.. وأنتم ـ أصلحكم الله ـ قد منَّ الله عليكم بالانتساب إلى الإسلام، الذي هو دين الله، وعافاكم الله مما ابتلى به مَن خرج عن الإسلام من المشركين وأهل الكتاب، والإسلام أعظم النعم وأجلّها،.. وفي أهل الزهادة والعبادة منكم من له الأحوال الزكية، والطريقة المرضية، وله المكاشفات والتصرفات.

وفيكم مِنْ أولياء الله المتقين مَن له لسان صدق في العالمين، فإن قدماء المشايخ الذين كانوا فيكم، مثل الملقب بشيخ الإسلام: أبي الحسن علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري[٢]، وبعده الشيخ العارف القدوة: عدي بن مسافر الأموي، ومن سلك سبيلهم فيهم من الفضل والدين والصلاح والاتباع للسنة ما عظّم الله به أقدارهم، ورفع به منارهم.

وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل

---

(١) الفتاوى (٣/ ٣٩٥).

(٢) هو علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر، أبو الحسن الهكاري القرشي الأموي. سكن بغداد، ولد سنة ٤٠٩هـ، وسمع الحديث، وروى عنه غير واحد من الحفاظ، وكان زاهداً عابداً ربانياً ذا وقار وهيبة، وكان يقول: رأيت رسول الله ﷺ في المنام في الروضة، فقلت: يا رسول الله، أوصني، فقال: عليك باعتقاد أحمد بن حنبل، ومذهب الشافعي، وإياك ومجالسة أهل البدع، توفي سنة ٤٨٦هـ.

انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٧٩، حوادث سنة ٤٨٦هـ)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٠/ ٢٢٥)، شذرات الذهب (٣/ ٣٧٨).

السنة والجماعة، وغالب ما يقولونه في أصولها الكبار جيِّد، مع أنه لا بد أن يوجد في كلامهم وكلام نظرائهم من المسائل المرجوحة والدلائل الضعيفة، كأحاديثَ لا تثبت، ومقاييسَ لا تطَّرِد، ما يعرفه أهل البصيرة، وأنتم تعلمون ـ أصلحكم الله ـ أن السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله ﷺ، . . فنسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياكم من الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»اهـ(١).

القادرية: وينتسبون إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهذه الفرقة ذكرها شيخ الإسلام من ضمن فرق الصوفية في معرض كلامه عن اعتقاد فريق من الصوفية في خاتم الأولياء(٢)، فقال:

«. . وكذلك جُهَّال **القادرية**(٣)، والأحمدية، واليونسية، قد يُفضلون شيخهم على النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء، وربما ادَّعَوْا في شيخهم نوعاً من الإلهية. .»اهـ(٤).

الحاكمية(٥): ونسبتهم إلى الحاكم بأمره(٦)، وقد غلا فيه أتباعه

---

(١) الفتاوى (٣/٣٧٦ ـ ٣٧٨، ٤٣٠).

(٢) سيأتي تفصيل الكلام عن الولاية وخاتم الأولياء في مبحث خاص (انظر ص٧٣٤).

(٣) في المطبوع «القدرية» ولعلّ الأقرب ما أثبته؛ لأن كلام الشيخ هنا عن فرق الصوفية، والقادرية هم أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسيأتي الكلام عنهم.

(٤) الفتاوى (١١/٣٦٣ ـ ٣٦٤).

(٥) هذه الفرقة في الأصل من الفرق الباطنية، لا من الفرق الصوفية، ولكن لما أشبهت غلاة الصوفية في القول بالحلول والاتحاد ذكرتهم هنا، ولأن شيخ الإسلام أوردهم هنا ضمن غالية المتعبدة، فقال: «غالية **جُهال المتعبدة** من الحلاجية واليونسية وبعض العدوية، والحاكمية»اهـ. المستدرك على الفتاوى (١/٣٦ ـ ٣٧).

(٦) هو منصور بن العزيز نزار بن المعز مَعَد بن المنصور إسماعيل بن القائم =

حتى رفعوه إلى درجة الألوهية. وأشار شيخ الإسلام إلى ذلك بقوله في معرض رده على الحلولية:

«.. وكذلك الغلوّ في بعض المشايخ، فكل مَن غلا في حيّ أو في رجل صالح أو مَن يعتقد فيه الصلاح، كالحلاج أو **الحاكم الذي كان بمصر**، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، فكل هذا شرك وضلال.»اهـ[١].

وقد ذكرهم شيخ الإسلام من ضمن فرق الحلولية والاتحادية، فقال: «.. فهؤلاء في الكفر الصريح هم أهل الإلحاد والاتحاد العام، بخلاف مَن قال بالاتحاد الخاص المقيَّد في نبي أو غير نبي، وغالية جُهال المتعبدة من الحلاجية، واليونسية، وبعض العدوية، **والحاكمية**... وغيرهم، فإن هؤلاء يقولون بالاتحاد المعين المقيد»اهـ[٢].

السعدية: وهم منسوبون إلى الشيخ: **عمار السعدي**[٣]. وقد ذكره

= محمد بن المهدي، أبو علي، العُبَيْدي المصري الرافضي، بل الإسماعيلي الزنديق المدَّعي الربوبية، الملقب بالحاكم بأمر الله، صاحب مصر، ولد سنة ٣٧٥هـ، وملَكَ بعد أبيه وله إحدى عشرة سنة، وكان شيطاناً مريداً، خبيث النِّحلة، فرعون زمانه، وكان قوم من الغوغاء إذا رأوه قالوا: يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت، مات مقتولاً سنة ٤١١هـ.
انظر: سير الأعلام (١٥/ ١٧٣)، المنتظم (٧/ ٢٩٧ ـ ٣٠٠)، خطط المقريزي (١/ ٣٥٤)، النجوم الزاهرة (٤/ ١٧٦ ـ ١٩٦).

(١) الفتاوى (٣/ ٣٩٥).

(٢) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٦ ـ ٣٧).

(٣) وقفت على رجل بهذا الاسم ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب، وفي لسان الميزان، ولعله هو المراد هنا ـ وإن كنت لا أجزم بذلك ـ وهو:
عمار بن نصر السعدي، أبو ياسر الخراساني المروزي، سكن بغداد، روى عنه سفيان بن عيينة وابن المبارك ووكيع وغيرهم، وعنه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وأبو القاسم البغوي وغيرهم، قال ابن معين: ليس بثقة، وقال العقيلي: قال =

شيخ الإسلام في معرض رَدِّه على أتباع الشيخ عدي فيما اختلقوه مِن إسناد لِلبْس الشيخ عدي للخِرقة، فقال شيخ الإسلام: «.. وأما الخرقة، فقالوا: دخل على الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الخرقة بيده، والشيخ عقيل لبس الخرقة من يد الشيخ **عمار السعدي**، والشيخ **عمار السعدي** لبس الخرقة من يد الشيخ يوسف الغساني[1]»اهـ[2].

ذكرهم شيخ الإسلام أثناء كلامه عن اعتقاد الصوفية بخاتم الأولياء، فقال: «.. وكذلك طائفة من **السعدية** يفَضلون الوليَّ على النبي»اهـ[3].

البطائحية[4] (ويُسَمَّون أيضاً: **الأحْمديَّة، والرفاعية**):

= لي موسى بن هارون: عمار أبو ياسر متروك الحديث، وقال الخطيب: هو متروك الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة ٢٢٩هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٣٥٦)، لسان الميزان (٧/ ٣١٤).

(١) يوسف الغساني: لم أقف على هذا الاسم إلا في الإصابة (٤/ ٥٣٦) لابن حجر حيث أورد حديثاً، ثم قال: «وهكذا رواه يوسف الغساني عن سليمان بهذا الإسناد..»اهـ.

(٢) الفتاوى (١١/ ١٠٣ ـ ١٠٤)، والأعلام المذكورون في سند هذه الخرقة نص شيخ الإسلام على أنهم مجهولون لا يعرفون، فقال بعد سياق الإسناد: «وأما الإسناد المذكور ما بين أبي سعيد إلى عمر فمجهول، وما أعرف لهؤلاء ذكراً لا في كتب الزهد والرقائق ولا في كتب الحديث والعلم، ومن الممكن أن يكون هؤلاء شيوخاً، وقد ركب هذا الإسناد عليهم من لم يعرف أزمانهم، والله أعلم بحقيقة أمرهم»اهـ الفتاوى (١١/ ١٠٤).
وانظر تفصيل الكلام على الخرقة، ومعناها، وأحكامها عند الصوفية، في المبحث الخاص بذلك (٢/ ٣٢٧).

(٣) الفتاوى (١١/ ٣٦٤).

(٤) البطائحية: فرقة صوفية منسوبة إلى مؤسسها: منصور البطائحي. وهو خال أحمد الرفاعي، والبطائح: مجموعة قرى بين البصرة وواسط، وقد خلف منصوراً البطائحي ابن أخته أحمدُ الرفاعي، فنسبوا إليه بعد ذلك. =

وهذه الفرقة ذكرها شيخ الإسلام من ضمن فرق الصوفية في معرض كلامه عن اعتقاد فريق من الصوفية في خاتم الأولياء[(١)] **فقال**: «.. وكذلك جهال القادرية[(٢)]، **والأحمدية**، واليونسية، قد يُفضلون شيخهم على النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء، وربما ادَّعَوْا في شيخهم نوعاً من الإلهية.»اهـ[(٣)].

ويُطلَقُ عليهم ثلاثة أسماء:

١ ـ الأحمدية: نسبة إلى شيخهم: أحمد الرفاعي[(٤)].

٢ ـ الرفاعية: نسبة إلى شيخهم: الرفاعي: أحمد بن أبي الحسين.

٣ ـ البطائحية: نسبة إلى نواحي البطائح (موطن الرفاعي).

ولشيخ الإسلام مناظرة مشهورة مع رؤوس هذه الفرقة، بيَّن فيها باطلهم، وردَّ على شبهاتهم، وكشف حيلهم التي يُلَبِّسون بها على الناس.

قال شيخ الإسلام: «.. الحمد لله رب العالمين.. أما بعد:

= انظر: وفيات الأعيان (١/ ١٧١ ـ ١٧٢)، معجم البلدان (١/ ٤٥٠)، الطرق الصوفية في مصر لعامر النجار (ص٨٩).

(١) سيأتي تفصيل الكلام عن الولاية وخاتم الأولياء في مبحث خاص (ص٧٣٤).

(٢) في المطبوع «القدرية» ولعلّ الأقرب ما أثبته؛ لأن كلام الشيخ هنا عن فرق الصوفية، والقادرية هم أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد تقدم الكلام عنهم قبل قليل (ص٢٧٥).

(٣) الفتاوى (١١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).

(٤) هو أحمد بن علي بن أبي الحسين الرفاعي الحسيني، نسبة إلى بني رِفاعة، قبيلة من العرب، ولد بالعراق سنة ٥١٢هـ، وقيل: ٥٠٠، سكن أمَّ البطائح إلى أن مات. وبه عُرف أمر تربية المريدين بالبطائح، إليه انتهت الرياسة في علوم الطريق، وإليه تُنسب الطريقة الرفاعية، توفي سنة ٥٧٠هـ.
انظر: سير الأعلام (٢١/ ٧٧)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١٤٠)، الأعلام (١/ ١٧٤).

فقد كتبت ما حضرني ذكرُه في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان، بحضرة الخلق في أمر البطائحية، يوم السبت، تاسع جمادى الأولى، سنة خمس(١)، وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء البطائحية وطريقهم، وطريق الشيخ أحمد الرفاعي وحاله، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم، وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك، ويوجد في بعضهم التعبد والتألُّه، والوجد والمحبة، والزهد والفقر، والتواضع ولين الجانب، والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة، والكشف والتصرف، ونحو ذلك ما يوجد، فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلوّ والبدع في الإسلام، والإعراض عن كثير مِمَّا جاء به الرسول ﷺ، والاستخفاف بشريعة الإسلام، والكذب والتلبيس، وإظهار المخارق الباطلة، وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله ما يوجد.

وقد تقدمت لي معهم وقائعُ متعددةٌ، بيَّنت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشارات، وتاب منهم جماعة، وأُدب منهم جماعة من شيوخهم، وبينت صورة ما يُظهرونه من المخاريق: مثل ملابسة النار، والحيات، وإظهار الدم، واللاذن، والزعفران، وماء الورد، والعسل، والسكر وغير ذلك، وأن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة.

وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك، فلمَّا رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترهم! فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة، حتى قال لي شيخ منهم ـ في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين ـ لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يُذهب الحيلة، ومن احترق كان مغلوباً، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك.

---

(١) يعني سنة خمس وسبعمائة.

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق، وكان له صنم يعبده، قال: فقال لي: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثرُ الأكل في الطعام بيِّناً يُرى فيه!!

فأنكرتُ ذلك.

فقال لي: إن كان يأكل أنت تموت؟

فقلت: نعم.

قال: فأقمتُ عنده إلى نصف النهار، ولم يظهر في الطعام أثر! فاستعظم ذلك التتري، وأقسم بأيمان مغلظة أنه كلَّ يوم يرى فيه أثر الأكل، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك!

فقلتُ لهذا الشيخ: أنا أبين لك سبب ذلك:

ذلك التتريُّ كافرٌ مشركٌ، ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الاسلام الخالص كالتتريِّ، بالنسبة إلى أمثالك، فالتتريُّ وأمثاله سود، وأهل الاسلام المَحض بيض، وأنتم بُلقٌ[(١)] فيكم سواد وبياض، فأعجب هذا المثلُ مَن كان حاضراً!!.

وقلت لهم في مجلس آخر لمَّا قالوا: تريد أن نظهر هذه الإشارات؟

قلت: إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن: من الأعراب

---

(١) الأبلق: هو ما اختلط فيه لون السواد بالبياض، ومنه قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبَلَقْ   كأنها في الجلد توليع البهق

انظر: مادة بلق، في: لسان العرب (١٠/ ٢٥)، تاج العروس (١٣/ ٤٥)، القاموس (ص١١٢٢).

والفلاحين، أو الأتراك، أو العامة، أو جمهور المتفقهة والمتفقرة والمتصوفة، لم يحسب لكم ذلك. فمن معه ذَهَبٌ، فليأتِ به إلى سوق الصَّرْف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر، ولا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك.

فقالوا لي: لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا!

فقلت: هِمَّتي ليست معكم، بل أنا معارضٌ لكم، مانعٌ لكم؛ لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله ﷺ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا، فانقلبوا صاغرين.

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة، كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البَرِّ مطوَّقين بأغلال الحديد في أعناقهم، وهو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مرات، فأخاطبه بالتي هي أحسن.

فلما ذكر الناسُ ما يُظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادةً وديناً يوهمون به الناس أن هذا لله سِر من أسرارهم، وأنه سيماء أهل الموهبة الإلهية لسالكي طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبته في ذلك بالمسجد الجامع.

وقلت: هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم، ولا يجوز التعبُّد بذلك، ولا التقرُّب به إلى الله تعالى؛ لأن عبادة الله بما لم يشرعْه ضلالة، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء، للحديث المروي في ذلك، وهو: أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتماً من حديد، فقال: **(ما لي أرى عليك حلية أهل النار)**[1]، وقد

---

(١) رواه أبو داود (كتاب الخاتم، باب ما جاء في خاتم الحديد، ٤/ ٩٠، ح٤٢٢٣)، والترمذي (كتاب اللباس، باب ما جاء في الخاتم الحديد، ٤/ ٢٤٨، ح١٧٨٥)، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٥/ ١٥٣، ح٥٥٤٠).

وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال[1]، فالتشبه بأهل النار من المنكرات.

وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه[2] عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا قال في آخره: «أحب القيد وأكره الغل. القيد ثبات في الدين» فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف في اليقظة؟!.

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع زيادة، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة، وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به. وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم.

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله؛

---

(١) يشير إلى قوله تعالى عن أهل النار: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر (وقيل: غنم، وقيل غير ذلك) الدوسي، أبو هريرة، الصحابي الجليل رضي الله عنه، توفي سنة ٥٧هـ، وقيل: ٥٩هـ.
انظر: الاستيعاب (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠٧)، أسد الغابة (٥/ ٣١٥ ـ ٣١٧)، الإصابة (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠٨)، تهذيب التهذيب (١٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٧).

ولا دين إلا ما شرعه الله؛ ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة [طاعة وعبادة].

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل «الفتوة» و«رماة البندق» ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة الله ورسوله في شرع الله؛ لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك؛ ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسنة؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قربة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قربة لم يجز أن يعتقد أو يقال إنه قربة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل.

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه؛ بل يقال إنه جائز، ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين استعماله كما تستعمل المباحات

المحضة، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات.

فلما نهيتم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة، وأنتظر الرجوع والفيئة، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر(ذلك الشيخ) لمسجد الجامع. وكان قد كتب إلي كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وعتب وآثار، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إما أحاديث موضوعة، أو إسرائيليات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب. فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]؛ ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء.

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب، بالأحوال التي يعدونها للغلاب. فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله ﷺ، ونتفق على اتباع سبيله ـ فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى

قصر الإمارة، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو ـ على ما ذكر لي ـ وهم من الصياح والاضطراب، على أمر من أعجب العجاب. فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة، وطلباً للبيان والتبصرة، ورجاء المنفعة والتذكرة. فعمدوا إلى القصر مرة ثانية، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد، واضطراب الرؤوس والاعضاء، والتقلب في نهر بردى، وإظهار التوله الذي يخيلون به على الردى، وإبراز ما يدعونه من الحال والمحال، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال.

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر، وسأل عنهم فقيل له هم مشتكون، فقال ليدخل بعضهم، فدخل شيخهم، وأظهر من الشكوى عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه؛ لكن حدثني من كان حاضراً أن الأمير قال لهم: فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ؟ فقالوا: بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ، قال فأي شيء يقال له؟ قالوا: نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا، قال فنسمع كلامه فمن كان له الحق معه نصرناه، قالوا نريد أن تشد منا، قال: لا، ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه، قالوا: ولا بد من حضوره؟ قال: نعم، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم، فأرسل إلي بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء.

فلما علمت ذلك ألقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببت البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال،

وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال، وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان. فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار، الذين يعرفون حقيقة الأسرار، وأشاروا عليهم بموافقة ما أُمروا به من اتباع الشريعة والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة، وقال شيخهم الذي يسيح بأقطار الأرض ـ كبلاد الترك ومصر وغيرهما ـ: أحوالنا تظهر عند التتار، لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله! وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

ثم ذُكر لي أنه جاءهم بعضُ أكابر غلمان المطاع، وذَكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع.

فاستخرتُ الله تعالى تلك الليلة، واستعنته واستنصرته واستهديته، وسلكت سبيل عِباد الله في مثل هذه المسالك، حتى أُلقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة الخليل، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذا السبيل.

وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الحنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء، وبين الصابئة ومَنْ ضلَّ مِنَ العُبَّاد المنتسبين إلى هذا الدين نسبٌ يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والباطنية ـ كالنصيرية والإسماعيلية ـ يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى جحود الحق تعالى، ومن شَرَكَهُمْ [في][1] الغلوِّ في البشر والابتداع في العبادات والخروج عن الشريعة، له نصيب من ذلك بحسب ما هو لائق، كالملحدين من أهل الاتحاد، والغالية من أصناف العُبَّاد.

---

(١) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام.

فلما أصبحنا: ذهبتُ للميعاد وما أحببت أن أستصحب أحداً للإسعاد، لكن ذهب أيضاً بعضُ مَنْ كان حاضراً مِنَ الأصحاب، والله هو المسبب لجميع الأسباب، وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتُهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء، مثل زعمهم أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحدٌ من الأولياء، وأن لهم طريقاً لا يعرفها أحدٌ من العلماء، وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة، وأن المنكِر عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر، غير واصل إلى الحقائق والسرائر، وأن لهم طريقاً وله طريق، وهم الواصلون إلى كُنْه التحقيق!! وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق.

وكانوا، لفرط انتشارهم في البلاد، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد، لخفاء نور الاسلام، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الاسلام في دولة التتار، لهم في القلوب موقع هائل، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل.

قال المُخْبِرُ: فغدا أولئك الأمراء الأكابر، وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعرٌ ظهورَ الحق عند التحقيق، فأعاد الرسولَ إليَّ مرةً ثانية، فبلَّغه أنَّا في الطريق، وكان كثير من أهل البدع الأضداد، كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد، مجِدِّين في نصرهم بحسب مقدورهم، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم، فلما حضرتُ وجدتُ النفوسَ في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع.

فذكر لي نائبُ السلطان وغيرُه من الأمراء بعضَ ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء.

وقال: إنهم قالوا: إنك طلبت منهم الامتحان وأن يُحْموا الأطواق ناراً ويلبسوها!!

فقلت: هذا من البهتان.

وها أنا ذا أصِفُ ما كان:

قلت للأمير: نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً، ولا تجوز طاعةُ من يأمر بدخول النار، وفي ذلك الحديث الصحيح[(١)]، وهؤلاء يكذبون في ذلك، وهم كذابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم. وذكرت تلبيسهم على طوائف من الأمراء:

وأنهم لبَّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري[(٢)]، وعلى

---

(١) يشير إلى الحديث الذي في الصحيحين عن علي ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فَهمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار. فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: (لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة. الطاعة في المعروف). رواه البخاري (كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي، ٤/١٥٧٧/ ٤٠٨٥)، ومسلم (كتاب الأمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية وتحريمها..، ٣/١٤٦٩/ ١٨٤٠).

(٢) في المطبوع: الأيدمري، ولم أجد في شيء من كتب التراجم من يسمى: الأيدمري، ويظهر لي أنها مصحفة من أسندمر، وأسندمر:

هو أسندمر الكرجي، الأمير الكبير سيف الدين، ولي البر بدمشق، ثم نيابة طرابلس، ثم حلب، وكان بطلاً شجاعاً، سايساً داهية جباراً، ظلوماً مهيباً، توفي في سجن الكرك في آخر الكهولة سنة ٧١١هـ. =

قبجق[١] نائب السلطنة، وعلى غيرهما. وقد لبَّسوا ـ أيضاً ـ على الملك العادل كتبغا[٢] في ملكه، وفي حالة ولاية حماة، وعلى أمير السلاح ـ أجَلِّ أميرٍ بِدِيارِ مصر ـ. وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم.

فذكرتُ تلبيسَهم على الأيدمري: وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة، ووعدوه بالمُلك، وأنهم وعدوه أن يُرُوهُ رجال الغيب، فصنعوا خشباً طوالاً، وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأُكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة، وذاك يَرى من بعيد قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض، وأخذوا منه مالاً كثيراً، ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير: وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهو مِمَّن حدثني بهذه القصة.

وأما قفجق: فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم! وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان، ولم يقربوه منه، بل من بعيد لتعود عليه

= انظر: البداية والنهاية (٩/ ٣١٠/ حوادث سنة ٧١١هـ)، شذرات الذهب (٦/ ٢٥).

(١) في المطبوع: قفجق، والتصويب من كتب التراجم، وتقدمت ترجمته (ص٤٣).

(٢) في المطبوع: كتغا، والتصويب من كتب التراجم.
هو كتبغا المغلي المنصوري، الملك العادل زين الدين، كان شجاعاً ينطوي على دين وسلامة باطن وتواضع، تسلطن بمصر عامين، وخُلع في صفر سنة ٦٩٦هـ، ثم أُعطي حماة، فتولاها وعدل، حتى مات بها سنة ٧٠٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٦٤، حوادث سنة ٧٠٢هـ)، تاريخ الخلفاء (١/ ٤١٢)، شذرات الذهب (٦/ ٥).
وهو غير السلطان: كتبغا، المقتول سنة ٦٥٨هـ، ترجم له ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ٢٩٠).

بركته، وقالوا: إنه طلب منه جملةً من المال، فقال قفجق: الشيخُ يكاشَف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله، وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز!!. فذكرت للأمير هذا.

ولهذا قيل لي: إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس، كتب أصحاب قفجق إليه كتاباً وهو نائب السلطنة بحماة[١] يخبره بصورة ما جرى.

وذكرت للأمير: أنهم مبتدعون بأنواع من البدع؛ مثل الأغلال ونحوها، وأنَّا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة، فذكر الأميرُ حديثَ البدعة وسألني عنه، فذكرت حديث العرباض بن سارية وحديث جابر بن عبد الله[٢]، وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره.

قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك، ويقولون لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع، ليس لهم أن يعترضوا علينا! بل يسلَّم إلينا ما نحن عليه، سواء وافق الشرع أو خالفه.

وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخلُ أنا وَهُمْ، ومن احترق منا ومنهم، فعليه لعنة الله وكان مغلوباً، وذلك بعد أن تُغسل جسومنا بالخلِّ والماء الحار!

فقال الأمير: ولمَ ذاك؟

قلت: لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع

---

(١) حماة: مدينة من مدن الشام، وهي حالياً في بلاد سوريا، قريبة من دمشق. انظر: معجم البلدان (٢/ ٣٠٠).

(٢) سيورد شيخ الإسلام الحديثين بعد قليل باللفظ، وقد تم تخريجهما هناك (ص٣٠٣).

وباطن قشر النارنج(١) وحجر الطِّلْق(٢) وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء، فإذا اغتسلت أنا وَهُمْ بالخل والماء الحار بَطَلت الحيلة وظهر الحق.

فاستعظم الأمير هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلك؟!

فقلت له: نعم! قد استخرتُ الله في ذلك، وأُلقيَ في قلبي أن أفعله.

ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداءً؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطناً وظاهراً لحُجَّة أو حاجة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لِمَا لا بدَّ منه من النصر والرزق الذي به يقوم دينُ الله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطِل دين الله وشرعَه، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذ

---

(١) النارنج: ويسمى: الرانِج، ثمر جوز الهند، وهو لفظ فارسي معرّب.
انظر مادة: رنج: لسان العرب (٢/ ٢٨٤)، القاموس (ص٢٦٥)، تاج العروس (٣/ ٤٩٧، مادة: نرج).

(٢) حجر الطِّلْق: طِلْق، كمِثْل، وهو حجر برَّاق، يتشظى ويظهر أنواراً إذا دُقَّ صفائحَ وشظايا، يُتخذ منها مضاوي للحمامات بدلاً عن الزجاج، وكأن هؤلاء البطائحية المبتدعة كانوا يخلطونه ببعض الدهون ثم يطلون به أجسادهم لتظهر منها الأنوار، قال في القاموس: «وأجوده اليماني، ثم الهندي، ثم الأندلسي، والحيلة في حَلِّه أن يجعل في خرقة مع حصوات، ويدخل في الماء الفاتر، ثم يحرك برفق، حتى ينحل، ويخرج من الخرقة في الماء، ثم يصفى عنه الماء، ويشمس ليجف»اهـ، وقال الزبيدي في تاج العروس: «قال الأصمعي: يقال لضرب من الدواء، أو نبت طَلَقٌ، محرّك اللام، نقله الأزهري، وقال غيره: هو نبت تُستخرَج عصارته، فيتطلى بها الذين يدخلون النار.. وهو معرّب: تَلْك»اهـ.
انظر مادة: طلق، في: القاموس (ص١١٦٨)، تاج العروس (١٣/ ٣٠٥).

أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات.

ولْيُعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة: لما أظهروا سحرهم أيد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم.

فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط بذلك وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحدٌ على ردِّه.

وسمعتُه يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر: الحاج بهادر[1] وأنا جالس بينهما على رأس السماط بالتركي ما فهمته منه، إلا أنه **قال**: اليوم ترى حرباً عظيماً! ولعل ذاك كان جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل.

وحضر شيوخُهم الأكابر، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية، ويترفقون.

فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق، وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر.

فسمعته يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهين ونحو ذلك، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وأن لهم فيهم ظناً حسناً، والله أعلم بحقيقة الحال؛ فإنه ذُكر لي ذلك.

وكان الأمير أحبَّ أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق؛ فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمةً عنده، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه.

---

(١) هو سيف الدين الحاج بهادر آص المنصوري، الأمير الكبير، أكبر أمراء دمشق، طال عمره في الحشمة والثروات، كان محبباً إلى العامة، وله بر وصدقة وإحسان، توفي سنة ٧٣٠هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ٤٠٠، حوادث سنة ٧٣٠هـ)، شذرات الذهب (٦/ ٩٣، حوادث سنة ٧٣٠هـ).

فأمر ببساط يُبسط في الميدان، وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء، وحركة الرؤوس والأعضاء، والطفر[١] والحبوِ والتقلب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات والحركات الخارجة عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء[٢] والعامة وغيرهم، وحضر شيخهم الأول المشتكي وشيخٌ آخر يسمي نفسه خليفة سيده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمونه: عبد الله الكذاب، ولم أكن أعرف ذلك.

وكان من مدة قد قدم عليَّ منهم شيخ بصورة لطيفة، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة، فأعطيته طِلبته، ولم أتفطن لكذبه حتى فارقني، فبقي في نفسي أن هذا خفي عليَّ تلبيسُه إلى أن غاب ـ وما يكاد يخفى عليَّ تلبيسُ أحد، بل أدركه في أول الأمر ـ فبقيَ ذلك في نفسيَ ولم أره قط إلى حين ناظرته، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً، فتعجبتُ من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون، حيث كتم تلبيسه بيني وبينه.

فلما حضروا تكلم منهم شيخٌ يُقال له: حاتم، بكلام مضمونه: طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وأنّا مجيبون إلى ما طُلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومتَّبعون للشريعة.

---

(١) الطفر: القفز والوثب مع ارتفاع، والطفرة: الوثبة، يقال: طفر الرجل الحائط أي وثب عليه.
انظر: مادة طفر، في لسان العرب (٤/ ٥٠١)، القاموس (ص٥٥٣)، الصحاح للجوهري (٢).

(٢) يعني بالفقراء هنا: الصوفية.

فقلت: أما التوبة فمقبولة، قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] هذه إلى جنب هذه، وقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسهم الأطواق، وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد، وأنه جعل في عنقه طوقاً، في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت.

فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا:

قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة، فقال: (**أمتهوِّكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيةً، لو كان موسى حياً، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم**)[(١)].

وفي «مراسيل» أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب، فقال: (**كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير**

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٨٧) بلفظ: (لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١١٢، ح١٠١٦٣)، وأبو داود في مراسيله (ص٣٢١، ح٢٤٥٥)، والدارمي (١/ ١٢٦، ح٤٣٥) بألفاظ متقاربة من حديث: أبي قلابة عن عمر، وحديث جابر وأبي الدرداء رضي الله عنهم، وقد أورد هذه الروايات الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٤)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه مجالد بن سعيد؛ ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما، وقال عن حديث جابر: رواه البزار وعند أحمد بعضه، وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف اتهم بالكذب، وقال عن حديث أبي الدرداء: رواه الطبراني في الكبير، وفيه أبو عامر القاسم بن محمد الأسدي، ولم أر من ترجمه وبقية رجاله موثقون. اهـ.

كتابهم[١] **أنزل إلى نبي غير نبيهم)**[٢]، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا، ونتبع الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا، كما قال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فكيف يجوز لنا أن نتبع عُبَّاد بني إسرائيل في حكاية لا تُعلم صحتها؟! وما علينا من عُبَّاد بني إسرائيل؟! ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

هاتِ ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم، وذكرتُ هذا وشبهَه بكيفية قوية.

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء، ونحن قوم شافعية!.

فقلت له: هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين، بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعده بدعة، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملكاني[٣] مفتي الشافعية، **ودعوتُه وقلت:** يا كمال الدين! ما تقول في هذا؟

---

(١) في المطبوع: كتابكم؛ وهو تحريف، والتصحيح من مصدر الحديث.

(٢) الحديث: رواه أبو داود في مراسيله (رقم: ٤٥٤)، وهو في معنى الحديث السابق.

(٣) هو كمال الدين أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري السماكي الشافعي، ابن خطيب زملكا، صاحب علم المعاني والبيان. كان قوي المشاركة في فنون العلم، خيراً متميزاً ذكياً سَرِيّاً، ولي القضاء ودرس مدة وله نظم رائق، توفي سنة ٦٩٠هـ.اهـ.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ٢٥٤).

فقال: هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة، أو كما قال.

وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك.

وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأشك: هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر، فإني تكلمت بكلام بعُد عهدي به.

فانتدب ذلك الشيخ ـ عبد الله ـ ورفع صوته، وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه؛ مثل: المجالس والمدارس والباطن والظاهر، ومضمونه: أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وأن لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر، فلا ينكرونه علينا!!

فقلت له ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ: الباطن والظاهر والمجالس والمدارس والشريعة والحقائق كلٌّ هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة، وغيرهم، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ، وذكرت هذا ونحوه.

فقال ـ ورفع صوته ـ: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا، وادَّعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها!

فقلت ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ: أنا أُخاطب كل أحمديٍّ من مشرق الأرض إلى مغاربها: أي شيء فعلوه في النار، فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب. **وربما قلت**: فعليه لعنة الله، ولكن بعد أن تغسل جسومنا بالخلِّ والماء الحار.

فسألني الأمراء والناس عن ذلك!

فقلت: لأن لهم حيلاً في الاتصال بالنار، يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع وقشر النارنج وحجر الطلق، فضج الناس بذلك.

فأخذ يظهر القدرة على ذلك، فقال: أنا وأنت نُلَفُّ في بارية[1] بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت!

فقلت: فقم! وأخذت أُكرر عليه في القيام إلى ذلك!!

فمد يده يُظهر خلع القميص!

فقلت: لا! حتى تغتسل في الماء الحار والخل.

فأظهر الوهم على عادتهم! فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً، **أو قال**: حزمة حطب!

فقلت: هذا تطويلٌ، وتفريقٌ للجمع، ولا يحصل به مقصود، بل قنديل يوقد وأدخل أصبعي وأصبعك فيه بعد الغسل، ومن احترقت أصبعه فعليه لعنة الله، **أو قلت**: فهو مغلوب، فلما قلت ذلك تغير وذلَّ وذُكر لي أن وجهه اصْفَرَّ!

ثم قلت لهم: ومع هذا، فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طرتم في الهواء ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم،لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع ولا على إبطال الشرع.

فإن الدجال الأكبر يقول للسماء: أمطري. فتمطر! وللأرض: أنبتي. فتنبت! وللخربة: أخرجي كنوزك. فتخرج كنوزها تتبعه! ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه، ثم يقول له: قم. فيقوم! ومع هذا فهو دجال

(١) البارية: هي الحصير المنسوج، والأصل أنها تفرش على الأرض ويُقعد عليها، واللفظ ـ في الأصل ـ فارسي معرب.
انظر مادة: بور: لسان العرب (٤/ ٨٧)، تاج العروس (٦/ ١١٦).

كذاب ملعون لعنه الله[١].

ورفعت صوتي بذلك، فكان لذلك وقع عظيم في القلوب، وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي[٢].

وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى[٣] أنه قال للشافعي:

أتدري ما قال صاحبنا؟ ـ يعني الليث بن سعد ـ قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء، فلا تغتر به.

---

(١) يشير شيخ الإسلام إلى ما جاء عن النواس بن سمعان ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة.. الحديث، وفيه: (.. ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك!! فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك..) الحديث. رواه مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، ٤/ ٢٢٥٠/ ٢٩٣٧)، والحاكم في المستدرك (كتاب الفتن والملاحم، ٤/ ٥٣٧/ ٨٥٠٨)، وابن ماجه (كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم، ٢/ ١٣٥٦/ ٤٠٧٥).

(٢) الأثر: أورده الشاطبي في الاعتصام (١/ ٦٨، فصل: الوجه الرابع من النقل): عن أبي يزيد البسطامي بلفظ: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وآداب الشريعة.اهـ.

(٣) هو يونس بن عبد الأعلى، أبو موسى الصدفي المصري، جمع بين الإمامة والفقه والحديث والإقراء، روى عن سفيان بن عيينة وابن وهب، وصحب الشافعي وتفقه عليه، وكان الشافعي يصف عقله، وقرأ القرآن على ورش، وتصدّر للإقراء والفقه، وانتهت إليه مشيخة بلده، وكان ورعاً صالحاً عابداً كبير الشأن، توفي سنة ٢٦٤هـ.

انظر: البداية والنهاية (٧/ ٤١١، حوادث سنة ٢٦٤هـ)، سير الأعلام (١٢/ ٣٤٨)، شذرات الذهب (٢/ ١٤٩، حوادث سنة ٢٦٤هـ).

فقال الشافعي: لقد قصَّر الليثُ، لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء، فلا تغترَّ به[1]. وتكلمتُ في هذا ونحوه بكلام بَعُد عهدي به.

ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح، وجعلت ألحُّ عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة، وهم لا يجيبون، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم، وهم عدد كثير والناس يضجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين: أن الناس قالوا ما مضمونه: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١١٩].

وذكروا أيضاً: أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب، وأنه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً، فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه مُلَبِّس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها: أنه أدخل النار في لحيته قدام صاحب حماة، ولما فارقني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة، وأنه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم.

فلما ظهر للحاضرين عجزُهم وكذبُهم وتلبيسهم، وتبين للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون، رجعوا.

وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال، وعرفوا حقيقة المحال، وقمنا إلى الداخل ودخلنا، وقد طلبوا التوبة عما مضى.

وسألني الأمير عما تطلب منهم؟

فقلت: متابعةَ الكتاب والسنة، مثل: أن لا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما، ونحو ذلك من وجوه الخروج

---

(١) الأثر: أورده ابن أبي العز في شرحه على العقيدة الطحاوية (ص٥٧٣).

عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر، وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون بالكتاب والسنة، أتنكر علينا غير الأطواق؟ نحن نخلعها.

فقلت: الأطواق وغير الأطواق، ليس المقصود شيئاً معيناً، وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله ﷺ.

فقال الأمير: فأي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟

فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً، ومن خرج عنه ضربت عنقه - وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان - وكأنّ المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس؛ فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه، فيتقرر عند المقاتلة وأهل الديوان والعلماء والعبَّاد وهؤلاء وولاة الأمور أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

قلت: ومن ذلك: الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله؛ فإن من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا عليَّ في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيدي أحمد شيء لله!! وهذا - مع أنه مبطل للصلاة - فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم، فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار! على عادتهم في صغير الذنوب، ولم يأمره بإعادة الصلاة، وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً! وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس!

فقلت: العطاس من الله، والله يحب العطاس، ويكره التثاؤب[1] ولا يملك أحدهم دفعه، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان؛ وهو باختيارهم وتكلفهم ويقدرون على دفعه.

ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى! مثل:

قول أحدهم: أنا على بطن امرأة الإمام!

وقول الآخر: كذا وكذا من الإمام!

ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر تَرْك الصلاة يصلون بالنوبة، وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا مغلوبين على ذلك، كما يغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة، وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم!

قلت له: أهذا موافق للكتاب والسنة؟

فقال: هذا من الله! حالٌ يَرِدُ عليهم!

فقلت: هذا من الشيطان الرجيم، لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ، ولا أحبَّه الله ولا رسوله.

---

(١) يشير إلى ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سمعه أن يشمِّتَه، وأما التثاؤب، فإنما هو من الشيطان، فليرده ما استطاع، فإذا قال: ها، ضحك منه الشيطان». رواه البخاري (كتاب الأدب، باب ما يستحب من العطاس وما يكره من التثاؤب، ٥/٢٢٩٧/٥٨٦٩)، وأبو داود (كتاب الأدب، باب ما جاء في التثاؤب، ٤/٣٠٦/٥٠٢٨)، والترمذي (كتاب الأدب عن رسول الله، باب ما جاء إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، ٥/٨٧/٢٧٤٧).

فقال: ما في السموات والأرض حركة، ولا كذا ولا كذا، إلا بمشيئته وإرادته.

فقلت له: هذا من باب القضاء والقدر، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله، بل ذلك مما زينه الشيطان وسخِطَه الرحمن.

فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال؟!

فقلت: بهذه السياط الشرعية!

فأعجب الأمير وضحك، وقال: أي والله! بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد، ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية، فبالسيوف المحمدية.

وأمسكت سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله.

وأعاد الأمير هذا الكلام.

وأخذ بعضهم يقول: فاليهود والنصارى يُقَرّون ولا نُقَرُّ نحن؟!

فقلت: اليهود والنصارى يُقَرُّون بالجزية على دينهم المكتومِ في دورهم، والمبتدِعُ لا يُقَر على بدعته، فأُفحموا لذلك.

وحقيقة الأمر: أن من أظهر منكراً في دار الاسلام لم يُقَر على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقَر، ولا يُقَر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ومن سواهم، فإن كان مسلماً أُخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد، وإما مشرك، وإما زنديق ظاهر الزندقة.

وذكرتُ ذم المبتدعة، فقلت: روى مسلم في «صحيحه» عن جعفر بن

محمد الصادق[(١)] عن أبيه أبي جعفر الباقر[(٢)] عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: (**إن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**)[(٣)].

وفي السنن عن العرباض بن سارية، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: (**أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم**

---

(١) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، أبو عبد الله، الصادق، أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة، وكان كثير الخير والصدقة والبر، له وصايا حسنة منها قوله: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره، وسئل: لم حرم الله الربا؟ فقال: لئلا يتمانع الناس المعروف، قال ابن كثير: «منسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه»اهـ، توفي سنة ١٤٨هـ.
انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٣٢)، البداية والنهاية (٧/ ٨٤، حوادث سنة ١٤٨هـ)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥/ ٥٨٩، ذِكر عدة حوادث)، تاريخ الخلفاء (١/ ٢٢٩، أبو جعفر المنصور).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي، أبو جعفر الباقر، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي، وهو تابعي جليل القدر كثير العلم، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وعبادة ونسباً، تدَّعي الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر، ولم يكن على طريقهم، ولا يدين بدينهم، بل كان يقدم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويقول: ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما رضي الله عنهما، توفي سنة ١١٥هـ، وقد جاوز عمره السبعين.
انظر: البداية والنهاية (٦/ ٤٥٤، حوادث سنة ١١٥هـ)، تاريخ الخلفاء (١/ ٢١٨، هشام بن يزيد بن عبد الملك)، شذرات الذهب (١/ ١٤٩).

(٣) الحديث: رواه البخاري بلفظ قريب منه (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله وقول الله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾، ٦/ ٢٦٥٥/ ٦٨٤٩)، ومسلم (كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٢/ ٨٦٧).

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين مِنْ بعدي، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)، وفي رواية: **(وكل ضلالة في النار)**[١].

فقال لي: البدعة مثل الزنى، وروى حديثاً في ذم الزنى!

فقلت: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ! والزنا معصية، والبدعة شرٌّ من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

وكان قد قال بعضهم: نحن نُتَوِّب الناسَ!

فقلت: من ماذا تتوِّبونهم؟

قال: من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك.

فقلت: حالهم قبل تتويبكم خيرٌ من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة الله ويتوبون إليه أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله، ويبغضون ما يحبه الله، وبيَّنتُ أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شرٌّ من المعاصي.

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين:

أما المعاصي: فمثل ما روى البخاري في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً، وكان يشرب الخمر، وكان يُضحِك النبيَّ ﷺ وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحدَّ، فلعنه رجل مرةً،

---

(١) رواه مسلم (كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٢/ ٨٦٧) والنسائي ـ واللفظ له ـ (كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة؟ ٣/ ١٨٨/ ١٥٧٨) من حديث: جابر رضي الله عنه، وأبو داود (كتاب السنة، باب لزوم السنة، ٤/ ٢٠٠/ ٤٦٠٧) من حديث: العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وقال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ! فقال النبي ﷺ: (**لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله**)[١].

قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيحَ الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي ﷺ بذلك ونهى عن لعنه.

وأما المبتدع: فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ: أن النبي ﷺ كان يقسم، فجاءه رجل ناتئ الجبين، كثُّ اللحية، محلوق الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال، فقال النبي ﷺ: (**يخرج من ضئضىء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميَّة، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**)، وفي رواية: (**لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل**)، وفي رواية: (**شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه**)[٢].

قلت: فهؤلاء ـ مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة ـ، أمَرَ النبي ﷺ بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي ﷺ، وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج عن الملة، ٦/٢٤٨٩/٦٣٩٨)، من حديث: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ٣/١٢١٩/٣١٦٦)، ومسلم (كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٢/٧٤١/١٠٦٤)، من حديث: أبي سعيد رضي الله عنه.

وأظنني ذكرت قول الشافعي: لأن يُبتلى العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك بالله، خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء.

فلما ظهر قبح البدع في الإسلام، وأنها أظلم من الزنى والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعاً منكرة، فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر.

أخذ شيخهم عبد الله يقول: يا مولانا! لا تتعرض لهذا الجناب العزيز، يعني أتباع أحمد بن الرفاعي!

فقلت منكراً بكلام غليظ: ويحك! أي شيء هو الجناب العزيز؟! وجناب من خالفه أَوْلى بالعِزِّ يا ذا الزَّرْجَنة[1] تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله؟

فقال: يا مولانا! يحرقك الفقراء بقلوبهم.

فقلت: مثل ما أحرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم، ويقول أصحابهم: إن لهم سراً مع الله! فنصر اللهُ وأعان عليهم، وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسّره الله في أمر غزو الرافضة بالجبل.

وقلت لهم: يا شبه الرافضة! يا بيت الكذب، فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك، أو يساوونهم أو يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائف، حتى قيل فيهم: لا تقولوا: أكذب من اليهود على الله؛ ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على شيخهم!.

---

(١) كتب في حاشية المطبوع: كذا بالأصل.
والزَّرْجَنة: قال في القاموس (ص١٥٥٣): «الزرجنة: التخارج، والخب، والخديعة»اهـ.

وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

ولما رددتُ عليهم الأحاديث المكذوبة، أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها، فبذلت لهم ذلك، وأعدت الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضُرِبت عنقُه، وأعاد الأمير هذا الكلام، واستقر الكلام على ذلك.

والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»اهـ[1].

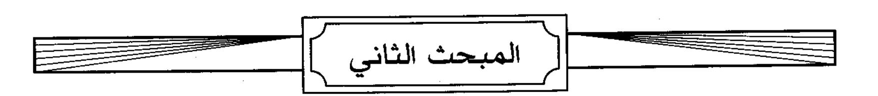
وبما سبق من كلام شيخ الإسلام يتضح لنا أن الصوفية لَمَّا لم يكن لهم مصدر محدد يعوِّلون عليه، ويتفقون على الرجوع إليه عند الاختلاف والتنازع، ظهر بينهم الخلاف الذي أدى إلى تفرقهم شيعاً وأحزاباً.

وقد تعرض شيخ الإسلام لعدد من هذه الفرق، وبيّن ضلال أهلها وردَّ عليهم.

وسيأتي في المباحث القادمة تفصيل أحوال هذه الفرق وما تعتقده في أنواع التوحيد، وبقية أبواب المعتقَد.



(١) الفتاوى (١١/ ٤٤٥ ـ ٤٧٥).



أبرز رجالها، وأثرهم في الفرقة

تمهيد:

تقدم في المبحث السابق أن المتصوفة لا يعتمدون في آرائهم واعتقاداتهم على أصول ثابتة؛ لا من الكتاب والسنة ولا من غيرهما، بل هم تبع لأقوال الرجال، وكلما كان الرجل منهم ألحنَ حُجَّةً وأبلغَ بياناً، صار أرفعَ قدراً وأكثرَ أتباعاً. ولهم في كل عصر من العصور رجال يحملون رايتهم ويقودون بدعتهم، والغالب أن أثر هؤلاء الأشخاص يموت بموتهم، إلا أشخاصاً منهم بقيت آثارهم على الصوفية حتى بعد موتهم.

ومن هؤلاء:

أ ـ أبو القاسم القشيري [ت٤٦٥]:

سيأتي تفصيل رأي شيخ الإسلام في أبي القاسم القشيري[1]، **ولكني أعرض هنا بشيء من الإيجاز تأثيره في مذهبهم:**

١ ـ يُعدُّ كتاب «**الرسالة القشيرية**»[2] من الكتب الأصلية التي يعتمد

---

(١) انظر (٢/٤٩٨).

(٢) قال الإمام ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١/٢٠١): «نقد مسالك الصوفية.. وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب «الرسالة» فذكر فيها العجائب، من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود، والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق والشرب، =

عليها الصوفية في تقرير المذهب، ويجعلونه عمدةً في سلوكهم وتربيتهم للمريد وغير ذلك.

٢ ـ لِما لكتاب «**الرسالة القشيرية**» من أهمية وتأثير عند الصوفية، فإن شيخ الإسلام أفرد كتاب «**الاستقامة**» ـ وهو كتاب كبير يزيد عدد صفحاته عن (٧٠٠ صفحة) ـ في الرد على مظاهر سلوكية مبتدعة عند الصوفية، وأكثره في عرض جوانب من كلام أبي القاسم القشيري في «الرسالة» والرد عليه.

قال شيخ الإسلام: «فصل: فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم، الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني، وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة، لكنه مقصِّر عن ذلك، ومتضمن تركَ بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه.

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر، فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ ما يبين حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[(١)].

= والمحو والإثبات، والتجلي والمحاضرة والمكاشفة، واللوائح والطوالع واللوامع، والتكوين والتمكين، والشريعة والحقيقة، إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه»اهـ.

وسيأتي تفصيل رأي شيخ الإسلام وموقفه من القشيري، وفي مبحث آخر سأفصل رأيه في «الرسالة القشيرية» (٢/ ٣٨٠).

(١) الاستقامة (١/ ٨١ ـ ٨٢).

ب ـ أبو حامد الغزالي [ت٥٠٥هـ]:

سيأتي في الباب الأخير من هذه الرسالة تفصيل موقف الغزالي من الصوفية، **ولكني أعرض هنا بشيء من الإيجاز**[1] **تأثيره في مذهبهم**:

١ ـ ابتدع الغزالي قولاً في أسماء الله تابعه، عليه ابن عربي وابن سبعين وغيرهما، فأوقعهم في الحلول. وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام بقوله في معرض رده على الحلولية:

«وصنف أبو حامد شرح أسماء الله الحسنى، وضمَّنه التَّشبُّهَ بالله في كل اسم من أسمائه، وسماه «التخلق»، حتى في اسمه: الجبار والمتكبر والإله، ونحو ذلك من الأسماء التي ثبت بالنص والإجماع أنها مختصة بالله، وأنه ليس للعباد فيها نصيب، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره: (**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذَّبته**)[2].

وسلك هذا المسلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما من ملاحدة الصوفية، **وصار ذلك ـ مع ما ضمّوا إليه من البدع ـ موقِعاً لهم في الحلول والاتحاد**» اهـ[3].

---

(١) الباب الأخير من هذه الرسالة خاص بموقف شيخ الإسلام من الصوفية عموماً، وفيه مبحث كامل في بيان منهج أبي حامد الغزالي مع الصوفية، وأثره في الفرقة (٢/ ٥٨٤).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، ٤/ ٢٠٢٣/ ٢٦٢٠) من حديث: أبي سعيد وأبي هريرة ولفظه: قال ﷺ: (العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذَّبته)، ورواه أبو داود (كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، ٤/ ٥٩/ ٤٠٩٠) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجه (كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، ٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٥) من حديث: ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) انظر: الصفدية (٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

٢ ـ كتاب الغزالي «مشكاة الأنوار» أساس الاتحاديين ومنطلَق مذهبهم.

وقد صرّح الشيخ بهذا في معرض بيانه لمذهب الاتحادية، وأنهم يستعملون التفسير الباطني للقرآن، وذكر شيئاً من كلام الغزالي في هذا الباب، ثم قال: «.. وكذلك قال في كتاب مشكاة الأنوار لما تكلم على المشكاة والمصباح، والزجاجة والشجرة والزيت والنار(١).

وهذا الكتاب كالعنصر لمذهب الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، وإن كان صاحب الكتاب لم يقل بذلك، بل قد يُكَفِّر مَنْ يقول بذلك، لكن ذاك لِما فيه من الإجمال تارة، ومن التفلسف وإبراز مقاصد الفلاسفة في الألفاظ النبوية وتأويلها عليه تارة، ومن المخالفة لِمَا دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع تارة، بل ومن المخالفة لِمَا عُلم بالعقل الصريح تارة، ولِمَا فيه من الأمور التي يقولون أنها تستلزم قولهم»اهـ(٢).

٣ ـ قرر **الغزالي** في كتابه إحياء علوم الدين: **أن معرفة الله تعالى** لا تُنال بطلب العلم والنظر في الكتاب والسنة، وإنما هي **أمر يُلقى في القلب عند تجرُّده من الشهوات، وقد تابعه على ذلك فئام من المتصوفة.**

قال شيخ الإسلام مبيناً ذلك في معرض رده على كلامٍ لابنِ رشد الحفيد(٣):

---

(١) يشير إلى كلام للغزالي حول قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].
وانظر نص كلام الغزالي في كتابه: مشكاة الأنوار (ص٣ ـ ١٠ ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ).

(٢) انظر: بغية المرتاد (ص١٩٨ ـ ١٩٩).

(٣) هو محمد بن أحمد بن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن =

«.. وأما ما حكاه عنهم؛ حيث قال: «وأما الصوفية، فطرقهم في النظر ليست طريقة نظرية ـ أعني من مقدمات وأقيسة ـ وإنما يزعمون المعرفةَ بالله وبغيره من الموجودات بشيء يُلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالقلوب[١] على المطلوب»[٢].

فيُقال: هذه الأشياء إنما أخذها من كلام أبي حامد، فإنه كثيراً ما يذكر في كتبه: أن الطريق إلى المعرفة هي هذا[٣]، وهو يذكر ذلك في الكتب التي يذكر فيها المشايخ الصوفية، كالإحياء وغيره، ويذكر بعض ما في النصوص والآثار وكلام المشايخ الصوفية من الدِّلالة على تأثير العمل الصالح في حصول العلم، **فظن هذا وأمثاله أن هذا هو مذهب الصوفية كما حكاه،** وليس الأمر على ما قالوه..»اهـ[٤].

٤ ـ كُتُب الغزالي أدخلت الفلسفة على المتصوفة.

قال شيخ الإسلام: «.. وهذا الإلحاد الذي وقع في كلام ابن

= رشد، أبو الوليد، ويُميز بالحفيد تفريقاً بينه وبين جَدّه، ولد سنة ٥٢٠هـ، وبرع في الفقه والطب والفلسفة، مات محبوساً في داره بسبب أقواله الردية أواخر سنة ٥٩٤هـ.

انظر: سير الأعلام (٢١/ ٣٠٧)، شذرات الذهب (٤/ ٣٢٠).

(١) في الكشف عن مناهج الأدلة: وإقبالها بالفكرة على المطلوب.

(٢) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، لابن رشد (ص٥٩)، وما بين المعقوفتين إضافة من كتاب ابن رشد حيث سقط من نقل شيخ الإسلام عنه.

(٣) قال أبو حامد الغزالي في كتابه فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (ص٧٦) في معرض كلامه عن اكتساب المعرفة والعلم والإيمان: «واعلم أن الحق والضلال وسرهما إنما ينكشف لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا.. حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوة».

(٤) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، وسيأتي تفصيل الكلام على طريق المعرفة عند الصوفية، في مبحث: مصادر التلَقي عند الصوفية (ص٣١٧).

عربي صاحب «الفتوحات» وأمثاله، في أصول الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، **لم يكن في كلام العلماء والشيوخ** المشهورين عند الأمة الذين لهم لسان صدق، ولكن هؤلاء أخذوا مذهب الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام كابن سينا وأمثاله الذي **دخل كثير منها في كلام صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها**[١] **وأمثاله، فأخرجوها في قالب الإسلام بلسان التصوف والتحقيق، كما فعل ابن عربي**» اهـ[٢].

وقال الشيخ في موضع آخر أثناء كلامه عن مذهب الفلاسفة في النبوة والولاية: «.. ولهذا كان الملاحدة من المتصوفة على طريقهم كابن عربي وابن سبعين وغيرهما.. **واتبعوا ما وجدوه من كلام صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها** وغير ذلك مِما يُناسب ذلك..»اهـ[٣].

وقال شيخ الإسلام في موضع آخر: «.. **وأبو حامد يميل إلى الفلسفة، لكنه أظهرها في قالب التصوف** والعبارات الإسلامية..»اهـ[٤].

ج ـ أبو حفص عمر بن محمد السهروردي [ت٦٣٢هـ]:

كتاب «عوارف المعارف» للسهروردي، من أهم كتب المتصوفة، بيَّن فيه أصولهم، وحدد ضوابطهم، وعرّف مصطلحاتهم.

وقد عرض شيخ الإسلام لهذا الكتاب ومؤلفه في مواضع، ومن ذلك أنه نقل ما احتج به الصوفية على جواز السماع البِدعي بحديث مكذوب على رسول الله ﷺ، وبين الشيخ أن السهروردي أورد الحديث في كتابه «عوارف المعارف» وتبعه عليه أقوام من الصوفية، قال الشيخ:

---

(١) تقدم في (ص١١٩).
(٢) الصفدية (١/ ٢٦٥).
(٣) الرد على المنطقيين (ص٤٨٩).
(٤) الفتاوى (٤/ ١٦٤)، وسيأتي في مبحث خاص تفصيل حال الغزالي، وأثره في إدخال الفلسفة على الصوفية، ونقل نصوص شيخ الإسلام في ذلك (٢/ ٤٦٦).

«ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي، صاحب «عوارف المعارف»: أن النبي ﷺ أنشده أعرابي:

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقي

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فقال له معاوية: ما أحسن لهوكم، فقال له: مهلاً يا معاوية! ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب[!!]، فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن(١)»اهـ(٢).

وسيأتي تفصيل الكلام عن هذا الكتاب ومؤلفه، وبيان موقف شيخ الإسلام منهما(٣).

د ـ ابن عربي [ت٦٣٨هـ]:

يُعدُّ ابن عربي رأس القائلين بالحلول والاتحاد، وكل من جاء بعده مِمن تكلم في الحلول والاتحاد فمنه يأخذ أصول المذهب، ويبني عليه، أو يغير العبارات، أو يزيد وينقص، ونحو ذلك، وقد نص شيخ الإسلام على ذلك بقوله: «.. فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور، لكن **إمامهم ابن عربي** يقول: الأعيان ثابتة في العدم، ووجود الحق فاض عليها..» اهـ(٤).

ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة مؤلفاته في هذا المذهب، بل إن

(١) سيأتي تفصيل الكلام عن هذا الحديث في مبحث خاص (٢/ ٢٤٧).
(٢) الفتاوى (١١/ ٥٦٣).
(٣) انظر مبحث: «موقف الشيخ من رجالات الصوفية» (٢/ ٣٨٩)، ومبحث: «موقف الشيخ من مصنفات الصوفية» (٢/ ٣٤١).
(٤) الفتاوى (١٣/ ٢٠٣).

بنيان مذهب الاتحادية يقوم على كتابه «فصوص الحِكَم» فضلاً عن كتبه الأخرى، مثل: «الفتوحات المكية»، وغيره.

والناظر في كلام شيخ الإسلام عن الاتحادية ـ عرضاً ونقداً ـ يجد أن أكثره يعتمد على ما نقله من «فصوص الحكم»[١].

وأكثر الأقوال التي ابتدعها ابن عربي أو أظْهرَها، تابعَهُ عليها فريق غير قليل من المتصوفة، ومن ذلك: أنه صرّح بتفضيل الأولياء على الأنبياء، وانتصر لذلك، وتبعه من جاء بعده[٢].

هـ ـ الشاذلي [ت٦٥٦هـ]:

وهو من كبار الصوفية، وله أتباع قد وضع لهم حزباً فيه أدعية ابتدعها يذكرون الله تعالى بها.

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفناء عند الصوفية، واستعمالهم لأذكار مبتدعة: «.. كما نُقل عن الشاذلي: يكون الجمع في قلبك مشهوداً، والفرق على لسانك موجوداً.

كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية، وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي، مثل: دعوى أن الله يعطيه على المعصية أكثر مما يعطيه على الطاعة، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده أن يُجعَل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات أو أفضل، **ويدعون بأدعية فيها ابتداع، كما يوجد في حزب الشاذلي**» اهـ[٣].

---

(١) سيأتي في مبحث خاص تفصيل مذهب الاتحادية، وسياق ما ذكره شيخ الإسلام في ذلك (٢/ ٣٨٩).

(٢) سيأتي سياق كلام ابن عربي، وتعليق الشيخ عليه، في مبحث: الولاية عند الصوفية (ص٧١٨ ـ ٧١٩).

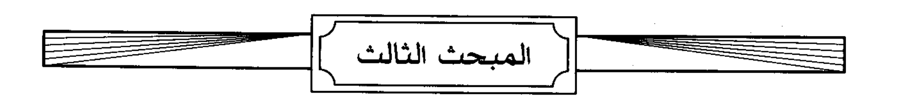
(٣) الفتاوى (٨/ ٢٣٢).

فهؤلاء هم رجال الصوفية الذين نصَّ شيخ الإسلام على وجود أثر لهم في التصوف، وكان لهم أتباع وأنصار، أو كان لهم تصانيف تأثر بها مَنْ بعدَهم.

أما بقية رجال الصوفية، فسيأتي في مبحث قادم بيان تقويم شيخ الإسلام لهم[١].



(١) انظر (٢/ ٣٨٩).



مصادر التلقي عندهم

تمهيد:

من أخطر البدع الموجودة في التصوف: مصادر الصوفية في تلَقِّي مسائل الدين، وسلوكهم لذلك مسلكاً فارقوا به أهل السنة والجماعة، ولا أعني جميع الصوفية، وإنما هذا حال الأغلب، ومِما جرَّأ أكثرَهم على هذا الانحراف: اعتقادُهم عدم اشتمال الكتاب والسنة على كل ما يحتاجونه في سيرهم إلى الله.

قال شيخ الإسلام في معرض تقريره اشتمال الكتاب والسنة على كل ما يحتاج العباد إلى معرفته، وأن الدين كامل لا يحتاج إلى مَن يزيد فيه، أو يُصلح أو يُبدل ويُغَير: «**والحمد لله الذي بعث إلينا رسولاً مِن أنفسنا**، يتلو علينا آياته، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة، الذي أكمل لنا الدين، وأتمَّ علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، الذي أنزل الكتاب تفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك، مَن كان ناقصاً في عقله وسمعه، ومَن له نصيب مِن قول أهل النار الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وإن كان ذلك كثيراً في كثير مِن المتفلسفة، والمتكلمة، وجُهال أهل الحديث،

والمتفقِّهة، والمتصوفة»اهـ(١).

والأدهى من ذلك أن فريقاً منهم يزعم أنه غير محتاج للتلقي عن الرسل؛ لأنه يتلقّى من المصدر الذي يتلقّى منه الرسول، فهو يأخذ عن جبريل عليه السلام مباشرة، وقد يرتقي به الحال فيأخذ عن الله.

قال الشيخ: «وكان هذا لِقِلّة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وظنَّ أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله، وأن مَن قال: حدَّثني قلبي عن ربّي فإن الله هو يناجيه، ومَن قال: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا عِلمنا عن الحيّ الذي لا يموت، هو كذلك، وهذا أضلّ مِمن ادَّعى الاستغناء عن الأنبياء، وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم.

ومِن هؤلاء مَن يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب، هم أولياء الله، ولا يجب عليهم اتباع الرسول ﷺ، كالملائكة الموَكلة ببني آدم المعقِّبات.

فقلتُ لشيخ منهم: محمد أُرسل إلى الثقلين الإنس والجن، ولم يُرسل إلى الملائكة، فكلُّ إنسيٍّ أو جنّيٍّ خرج عن الإيمان به فهو عدوٌّ للهِ، لا وليٌّ للهِ، بخلاف الملائكة.

وكان الشيخ إبراهيم بن معضاد يقول لمن رآه من هؤلاء ـ كاليونسية والأحمدية ـ: يا خنازير! يا أبناء الخنازير! ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]، كلٌّ منهم يُريد أن يُحدِّثه قلبه عن ربّه، فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]» اهـ(٢).

---

(١) الفتاوى (٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

(٢) الفتاوى (١٣/ ٢١٨ ـ ٢٢٤)، وانظر: الفتاوى (١٠/ ٤١٢، ١٤/ ١٦٦).

أما مصادر التلقي عند هؤلاء المتصوفة، التي ذكرها شيخ الإسلام، فهي:

١ ـ الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

فالصوفية يحتجون بكل حديث يؤيّد مُرادهم، ولو كان ضعيفاً أو موضوعاً، وسيأتي تفصيل ما احتجوا به من روايات في مبحث خاص بذلك[1].

٢ ـ الإلهام:

يعدُّ الإلهام[2] من المصادر المعتمدة عند كثير من الصوفية؛ فهم يعملون بالإلهام أو بموجب الخطاب الذي يوجد في القلب.

---

(١) انظر: مبحث ضوابطه في الحكم على مروياتهم (٢/ ٥٢٢).

(٢) الإلهام في اللغة: ما يُلقى في الرُّوع، أو ما يلقيه الله في النفس من الأمور التي تبعث على الفعل أو الترك.

وفي الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، ويطمئن، ويسكن، من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة، يخُصّ الله تعالى به بعض أصفيائه.

وقد يُسمى بالعلم اللدني، قال الإمام ابن القيم: «والعلم اللدني: هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهاماً بلا سبب من العبد، ولا استدلال، ولهذا سُمِّيَ لدُنِّيّاً»اهـ.

انظر: لسان العرب (١٢/ ٥، مادة: لهم)، تعريفات الجرجاني (ص٣٤)، مصادر التلقي عند الصوفية (ص٣١٧)، مدارج السالكين (٣/ ٤٣١).

وذهب الغزالي إلى التسوية بين وحي الأنبياء وإلهام الأولياء من جميع الوجوه، ولم يثبت بينهما فرقاً إلا في مشاهدة السبب، وهو المَلَك الذي استفاد منه العلم، فقال: «ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك، بل في مشاهدة المَلَك المُلْقي للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة»اهـ. إحياء علوم الدين (٣/ ١٩).

وقد ذكر شيخ الإسلام حقيقة الإلهام، وبيّن مكانته عند المتصوفة، وردّ عليهم في ذلك.

ويمكن بيان ما ذكره شيخ الإسلام فيما يلي:

أ - حقيقته:

قال شيخ الإسلام في معرِض كلامه عن الإلهام: «وحقيقته أن الله وكّل بالإنس ملائكةً وشياطينَ، يُلقون في قلوبهم الخير والشر، فالعلم الصادق من الخير، والعقائد الباطلة من الشر، كما قال ابن مسعود ﷺ: لَمَّة المَلَكِ تصديق بالحق، ولَمَّة الشيطان تكذيب بالحق، وكما قال النبي ﷺ في القاضي: **(أنزل الله عليه مَلَكاً يُسدِّده)**[١].

وكما أخبر الله أن الملائكة توحي إلى البشر ما توحيه، وإن كان البشر لا يشعر بأنه من المَلَك، كما لا يشعر بالشيطان الموَسوس، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحياً، ويكلمه بمَلَك يوحي بإذنه ما يشاء، والثالث: التكليم من وراء حجاب» اهـ[٢].

ب - الإلهام نوعان:

قسم شيخ الإسلام الإلهام قسمين، فقال: «قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

---

(١) الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من طلب القضاء واستعان عليه وُكِلَ إليه، ومن لم يطلبه ولم يستعن عليه أنزل الله ملكاً يسدده)، أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله في القاضي، ٣/٦١٣/١٣٢٣، ١٣٢٤) وأبو داود (كتاب الأقضية، باب في طلب القضاء والتسرع إليه، ٣/ ٣٠٠/٣٥٧٨)، وابن ماجه (كتاب الأحكام، باب ذكر القضاة، ٢/ ٧٧٤/ ٢٣٠٩)، وقال الألباني: ضعيف (ضعيف الجامع الصغير ٥/٢١٨، ح٥٧٠٠).

(٢) الفتاوى (١٧/ ٥٣١ ـ ٥٣٢).

سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، فهو سبحانه يُلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان، وهو إلهام وسواس، والتقوى بواسطة مَلَك، وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور، وهذا أمر بالتقوى، والأمر لا بدَّ أن يقترن به خبر.

وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أُطلق لا يُراد به الوسوسة، وهذه الآية مما تدل على أنه يُفَرَّق بين إلهام الوحي وبين الوسوسة، فالمأمور به إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان.

فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة:

فإن كان مما أُلقي في النفس مما دلّ عليه الكتاب والسنة على أنه تقوى لله، فهو من الإلهام المحمود.

وإن كان مما دلّ على أنه فجور، فهو من الوسواس المذموم، وهذا الفرق مُطَّرد لا ينتقض، وقد ذكر أبو حازم[١] في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان، فقال: ما كرِهتْه نفسك لِنفسك فهو من الشيطان، فاستعذ بالله منه، وما أحبته نفسُك لِنفسك فهو من نفسك فانهها عنه[٢]»اهـ[٣].

(١) هو سلمة بن دينار المدني الأعرج، أبو حازم، عالم المدينة وزاهدها وواعظها، سمع سهل بن سعد وطائفة، وكان أشقر فارسياً، وأمه رومية، وولاؤه لبني مخزوم، قال ابن خزيمة: ثقة لم يكن في زمانه مثله، له حكم ومواعظ. اهـ، توفي سنة ١٤٠هـ.
انظر: صفة الصفوة (١/٤١٦)، سير الأعلام (٦/٩٦)، البداية والنهاية (٧/٤٩، حوادث سنة ١٤٠هـ)، شذرات الذهب (١/٢٠٨).

(٢) الأثر: لم أقف على من ذكَره.

(٣) الفتاوى (١٧/٥٢٩ ـ ٥٣٠).

النوع الأول من نوعَي الإلهام:

الإلهام الشرعي:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن تعارض الأدلة أو الأقوال مع غياب المرجِّح الواضح: «.. ففي الجملة القلب المعمور بالتقوى إذا رجّح بمجرد رأيه، فهو ترجيح شرعي، فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يُظنُّ معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله ﷺ كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي، والذين أنكروا كَون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطؤوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة، فلم يرَ فيها ترجيحاً، وأُلْهِمَ حينئذٍ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة، والأحاديث الضعيفة، والظواهر الضعيفة، والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب، والخلاف وأصول الفقه»اهـ[1].

وقال أيضاً: «.. فالله ﷻ فطر عباده على الحنيفية، وهو: حب المعروف، وبغض المنكر، فإذا لم تسْتَحِلِ الفطرة، فالقلوب مفطورة على الحق، فإذا كانت الفطرة مُقَوّمةً بحقيقة الإيمان، مُنَوّرةً بنور القرآن، وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة، ورأى قلبه يُرجح أحد الأمرين، كان هذا أقوى الأمارات عند مثله.

وذلك: أن الله علّم القرآن والإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الآية [الشورى: ٥١]، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٤٧٣)، وما بين النجمتين إضافة من: الفتاوى (٢٠/ ٤٢).

ﭐلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم: تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيماناً[(١)].

وفي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله أنزل الأمانة في قلوب الرجال، فعلِموا من القرآن وعلِموا من السنة)**[(٢)].

وفي الترمذي وغيره حديثُ النواس عن النبي ﷺ أنه قال: **(ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَبَتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مُفتّحة، وعلى الأبواب ستور مُرخاة، وداعٍ يدعو على رأس الصراط، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فالصراط المستقيم هو: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب المفتّحة: محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادي ـ أو كما قال ـ: يا عبد الله! لا تفتحْه، فإنك إنْ تفتحْه تلِجْهُ، والدّاعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن)**[(٣)].

---

(١) الأثر: رواه ابن ماجه (١/ ٢٣، ح٦١)، ولفظه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَوَّرة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً».

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، برقم ٦١٣٢، ٦٦٧٥، ٦٨٤٨) ومسلم (كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، ١/ ١٢٦/ ١٤٣)، من حديث: حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حديث غريب (كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في مثل الله لعباده، ٥/ ١٤٤/ ٢٨٥٩)، الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط مسلم ولا أعلم له علة ولم يخرجاه (١/ ١٤٤/ ٢٤٥)، وأحمد في المسند (٤/ ١٨٢، ح١٧٦٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤، ح١٩) من حديث: النواس بن سمعان رضي الله عنه، وقال الألباني: حديث صحيح (صحيح الجامع الصغير ٤/ ٤، ح٣٧٨٢).

فقد بيّن أن في قلب كل مؤمن واعظاً: والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب، فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر، كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، قال بعض السلف في الآية: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر، فإذا سمع بالأثر كان نوراً على نور، نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن، كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل، فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وقد يؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر...

والإلهام في القلب يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **(قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمّتي أحد فعُمر)**[1]، والمُحَدَّث: المُلْهَم المُخاطَب، وفي مثل هذا قول النبي ﷺ في حديث وابصة رضي الله عنه[2]: **(البِرّ**

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر رضي الله عنه، ٣/ ١٣٤٩/ ٣٤٨٦)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (كتاب فضائل الصحابة، من فضائل عمر رضي الله عنه، ٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨) من حديث: عائشة رضي الله عنها.

(٢) هو وابصة بن معبد بن عتبة بن الحارث بن مالك بن الحارث بن قيس بن كعب بن خزيمة الأسدي، وفد على النبي ﷺ في السنة التاسعة، وروى عن النبي ﷺ وعن ابن مسعود وأم قيس بنت محصن وغيرهم، روى عنه ولداه سالم وعمر وزر بن حبيش وغيرهم، نزل الجزيرة، توفي بعد خلافة عثمان رضي الله عنه.

انظر: الإصابة (٦/ ٥٩٠، ترجمة: ٩٠٩١)، الاستيعاب (٨/ ١٥٦٣، ترجمة: ٢٧٣٧)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٤٧٦، تسمية من نزل بالجزيرة من =

ما اطمأنّت إليه النفس وسكن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك)[(١)] . »اهـ[(٢)].

النوع الثاني من نوعَي الإلهام:

الإلهام البدعي:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن أحوال بعض الصوفية ومصادرهم في التلقي: «.. فمنهم مَن يظن أنه يُلَقن القرآنَ بلا تلقين، ويحكون أن شخصاً حصل له ذلك، وهذا كذب، ويقول بعضهم أو يحكي أن بعضهم قال: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وهذا لا يقع، لكن منهم من يظن أن ما يُلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة، وقد يكون من الشيطان، وليس عندهم فُرقان يفرق بين الرحماني والشيطاني، فإن الفرق الذي لا يخطئ هو القرآن والسنة، فهو حق، وما خالف ذلك فهو خطأ.

= الصحابة)، التاريخ الكبير (٨/ ١٧٨، ترجمة: ٢٦٤٧)، الثقات لابن حبان (٣/ ٤٣١، ترجمة: ١٤١٢).

(١) الحديث: بهذا اللفظ عند الدارمي (كتاب البيوع، باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، ٢/ ٦٩٦/ ٢٤٣٨) عن وابصة بن معبد الأسدي: أن رسول الله ﷺ قال لوابصة: (جئت تسأل عن البر والإثم) قال: قلت: نعم. قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره، وقال: (استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة ـ ثلاثاً ـ البر: ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك).
ورواه بغير زيادة: (وإن أفتاك الناس وأفتوك): مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، ٤/ ١٩٨٠/ ٢٥٥٣)، والترمذي، وقال: حسن صحيح (كتاب الزهد، باب في البر والإثم، ٤/ ٥٩٧/ ٢٣٨٩)، من حيث: النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) الفتاوى (١٠/ ٤٧٣ ـ ٤٧٦).

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨]، وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله...

ثم هؤلاء لما ظنوا أن هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من أتباع الرسول، يقول أحدهم: فلان عطيّته على يد محمد [ﷺ]، وأنا عطيَّتي من الله بلا واسطة، ويقول أيضاً: فلان يأخذ عن الكتاب، وهذا الشيخ يأخذ عن الله، ومثل هذا.

وقول القائل: يأخذ عن الله، وأعطاني الله. لفظ مجمل، فإن أراد به الإعطاء والأخذ العام، وهو: الكوني الخلقي؛ أي: بمشيئة الله وقدرته حصل لي هذا، فهو حق، ولكن جميع الناس يشاركونه في هذا، وذلك الذي أخذ عن الكتاب هو أيضاً عن الله أخذ، بهذا الاعتبار، والكفار من المشركين وأهل الكتاب أيضاً هم كذلك، وإن أراد أن هذا الذي حصل له هو مما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وهذا الخطاب الذي يُلقى إليه هو كلام الله تعالى.

فهنا طريقان:

أحدهما: أن يُقال له: من أين لك أن هذا إنما هو من الله لا من الشيطان وإلقائه ووسوسته؟ فإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم وينزلون عليهم، كما أخبر الله بذلك في القرآن، وهذا موجود كثيراً في عُباد المشركين وأهل الكتاب وفي الكُهان والسَّحَرة ونحوهم، وفي أهل البدع بحسب بدعتهم، فإن هذه الأحوال قد تكون شيطانية، وقد تكون رحمانية، فلا بد من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان...

والمقصود هنا أنه يُقال لهم: إذا كان جنس هذه الأحوال مشترَكاً بين أهل الحق وأهل الباطل، فلا بدَّ من دليل يبين أن ما حصل لكم هو الحق.

الطريق الثاني: أن يُقال: بل هذا من الشيطان؛ لأنه مخالف لِمَا بعث الله به محمداً ﷺ، وذلك أنه يُنظر فيما حصل له وإلى سببه وإلى غايته، فإن كان السبب عبادة غير شرعية، مثل أن يقال له: اسجد لهذا الصنم حتى يحصل لك المراد، أو استشفع بصاحب هذه الصورة حتى يحصل لك المطلوب، أو ادعُ هذا المخلوق واستغث به... فحينئذٍ ما حصل له بهذا السبب حصل بالشرك كما كان يحصل للمشركين»اهـ[1].

وقال الشيخ: «وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدّثني قلبي عن ربي، فصحيح أن قلبه حدّثه، ولكن عمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: حدّثني قلبي عن ربي: كان مُسْنِداً الحديث إلى مَن لم يُعلم أنه حدّثه به، وذلك كذب، ومُحَدَّثُ الأمة لم يكن يقول ذلك ولا تفوّه به يوماً من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك.»اهـ[2].

ج ـ الإلهام، وإن كان شرعياً، ليس مصدراً مُستقلاً للتلقي، بل يوزن بالكتاب والسنة:

بيّن شيخ الإسلام أن الإلهام، وإن كان ظاهره شرعياً ووقع لرجل قلبه معمور بالتقوى والإيمان، إلا أنه ـ مع ذلك ـ يجب أن يعرض ما يقع في قلبه على الكتاب والسنة، قال: «والأولياء وإن كان فيهم مُحَدَّثون كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (**إنه كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر**)[3]، فهذا الحديث يدل على أن أول المحَدَّثين من هذه الأمة: عمر، وأبو بكر أفضل منه؛ إذ هو

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٤١٣ ـ ٤١٦).

(٢) نقل الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٤٠) هذا القول عن شيخ الإسلام، ولشيخ الإسلام كلام في معنى هذا، في الفتاوى (١٣/ ٧٤).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه (ص٣٢٤).

الصِّدِّيق، فالمحَدَّث وإن كان يُلْهَم ويُحدَّث من جهة الله تعالى، فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة، فإنه ليس بمعصوم.

كما قال أبو الحسن الشاذلي: قد ضُمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تُضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام(١).

ولهذا: كان عمر ﷺ وقّافاً عند كتاب الله، وكان أبو بكر يبيّن له أشياء تخالف ما يقع له، كما بيّن له يوم الحُدَيبية لمَّا كان قد رأى محاربة المشركين، والحديث معروف في «البخاري» وغيره:

فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ستٍّ من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة، وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر، فَشقَّ ذلك على كثير مِنَ المسلمين، وكان الله ورسوله ﷺ أعلمَ وأحكمَ بما في ذلك من المصلحة.

وكان عمر ﷺ في مَن كرِه ذلك حتى قال للنبي ﷺ: يا رسول الله! ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (**بلى**)، قال: أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: (**بلى**)، قال: فعَلامَ نُعطي الدَّنِيَّة في ديننا؟! فقال له الرسول ﷺ: (**إني رسول الله، وهو ناصري، ولستُ أعصيه**)، ثم قال: أفلم تكن تُحدِّثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: (**بلى**)، قال: (**أفقلتُ لك: إنك تأتيه العام**)؟ قال: لا، قال: (**إنك آتيه ومطوِّف به**).

---

(١) قال أبو الحسن الشاذلي: «إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة»اهـ. طبقات الشعراني (٢/ ٥).

فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال له مثلما قال للنبي ﷺ، وردَّ عليه أبو بكر مثلَ جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أكملَ موافقةً لله وللنبي ﷺ من عمر رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك، وقال: فعملت لذلك أعمالاً[1].

ويوم موت النبي ﷺ أنكر عمر رضي الله عنه موته أوّلاً، فلما قال أبو بكر رضي الله عنه: إنه مات، رجع عمر عن ذلك[2].

---

(١) يشير الشيخ إلى ما اعترض به عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تبين له رضي الله عنه الحقّ فرجع إليه، والقصة في الصحيحين:

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟! قال: (بلى)، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: (يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً).

قال: فانطلق عمر فلم يصبر ـ متغيظاً ـ فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟! قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً.

قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أَوَفَتْحٌ هو؟! قال: نعم، فطابت نفسه ورجع.

رواه البخاري (كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، ٣/ ١١٦٢/ ٣٠١١)، ومسلم ـ واللفظ له ـ (كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، ٣/ ١٤١١/ ١٧٨٥).

(٢) يشير الشيخ إلى ما اعترض به عمر يوم موت النبي ﷺ، والقصة في الصحيحين:

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْح ـ قال إسماعيل يعني أبا العالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، =

ويوم قتال مانعي الزكاة قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: **(أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها؟)**، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: **(إلا بحقّها)**؟! فإن الزكاة من حقّها، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمتُ أنه الحق[1].

= قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر، فكشف عن رسول الله ﷺ فقبَّله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف! على رِسْلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد اللهَ أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فنشج الناس يبكون.. الحديث.

رواه البخاري (كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، ٣/١٣٤١/٣٤٦٧).

(١) يشير الشيخ إلى ما اعترض به عمر على أبي بكر رضي الله عنهما في قتاله مانعي الزكاة. والقصة عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما توفي رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله؟) قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. =

وكان عمر يشاور الصحابة ﷺ، فتارة يرجع إليهم، وتارة يرجعون إليه، وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويُقرّرهم على منازعته، ولا يقول: أنا مُحَدَّثٌ مُلهم مَخاطَب، فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، وربما قال القول فتردّ عليه امرأة من المسلمين قوله، وتبيّن له الحق فيرجع إليها ويدع قوله، كما قَدَّر الصَّداق[1].

وربما يرى رأياً، فيُذكر له حديث عن النبي ﷺ فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمّن هو دونه في قضايا متعدّدة، وكان

= رواه البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله وقول الله: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾، ٦/ ٢٦٥٧، ح٦٨٥٥)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥١، ح٢٠)، رواه ابن حبان (كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان ١/ ٤٥٠/ ٢١٧).

(١) يشير الشيخ إلى ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/ ١٦٦، ح٥٩٨) عن الشعبي قال: «خطب عمر بن الخطاب ﷺ الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا لا تغالوا في صُدُق النساء، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ، أو سيق إليه، إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال، ثم نزل.
فعرضت له امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين! كتاب الله ﷻ أحق أن يتبع أو قولك؟ قال: بل كتاب الله ﷻ، فما ذلك؟ قالت: نهيت الناس آنفاً أن يغالوا في صُدُق النساء والله ﷻ يقول في كتابه: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النساء: ٢٠] فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر، مرتين أو ثلاثاً، ثم رجع إلى المنبر، فقال للناس: إني نهيتكم أن تغالوا في صدق النساء، ألا! فليفعل الرجل في ماله ما بدا له»اهـ.
وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٣٣، ح١٤١١٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٨٤) وقال: «رواه أبو يعلي في الكبير، وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف وقد وثق»اهـ.
وانظر: تفسير القرطبي (٥/ ٩٥، سورة النساء آية رقم: ٢٠).

يقول القول، فيُقال له: أصبت، فيقول: والله ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأه؟

فإذا كان هذا إمام المحَدَّثين، فكل ذي قلب يحدِّثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر، فليس فيهم معصوم، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم»اهـ[(١)].

وقال: «.. وإذا كان مُحَدَّثاً قد أُلقي إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والسنة»اهـ[(٢)].

د ـ أدلة الصوفية على صحة الاحتجاج بالإلهام عموماً:

يزعم فريق من الصوفية أن ما يُلقى في قلوبهم من إلهامات هو من الله تعالى، وهم معصومون أن يقع عليهم خطأ في هذه الإلهامات، واستدلوا على قولهم بعصمة المحَدَّثين بدليلٍ عَرَضَه شيخ الإسلام وردَّ عليه، فقال:

«فإن ما جاء به الرسول ﷺ معصوم أن يستقرَّ فيه خطأ، قد فرض الله على خلقه تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، وأما ما يَرِدُ على قلوب الأولياء، فليس معصوماً، وليس عليهم تصديقه، بل وليس لهم العمل بشيء منه إذا خالف الكتاب والسنة...

ومما يبَين الفرق بين النبيين وغيرهم: أن الله سبحانه أوجب الإيمان بما أوتِيَه كل نبي من غير استثناء...

وأيضاً: فإنه أخبر بعصمة الأنبياء ونسخ ما يلقيه الشيطان من الباطل في أمنياتهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، وانظر للاستزادة: الفتاوى (٣٥/ ١٢٢ ـ ١٢٤).
(٢) الفتاوى (٢/ ٢٢٨)، وانظر للاستزادة: بغية المرتاد (ص٣٨٨).

ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٣].

فإن قيل: ففي قراءة ابن عباس رضي الله عنه: **أو مُحَدَّث**[١]، **وبهذا احتجَّ الحكيم الترمذي**[٢] **وغيره!! قيل**:

أولاً: هذه القراءة ـ إذا ثبت أنها قراءة ـ فلا يُعرف لفظ بقية سائر الكلام معها كيف كان، فإنها ـ بتقدير صحَّتها ـ: إما من الحروف السبعة، وإما مما نُسخت تلاوته. وعلى التقديرين، فيجوز أن يكون نظم سائر الآية على وجه لا يدلُّ على عصمة المحَدَّث، وإن ثبت أن الله تعالى كان ينسخ ما يُلقي الشيطان في قلوب المحَدَّثين قبلنا، فلا يقتضي أن ذلك بوحي يأتيه، بل يكون ذلك بعرضه ذلك على نبوّات الأنبياء، فإن خالف ذلك كان مردوداً، وحينئذٍ فيكون حفظ الوليّ بمتابعة الكتاب والسنة...

وإن قُدِّر أن المحَدَّث مِمَّن قبلنا كان ينسخ ما يلقيه الشيطان فيما

---

(١) في صحيح البخاري (٧/ ٤٢ فتح، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، برقم: ٣٦٨٩) بعد رواية حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ المتقدّم ـ أن النبي ﷺ قال: (لقد كان قبلكم..)، قال البخاري: قال ابن عباس رضي الله عنه: «من نبي ولا محدَّث»، قال الإمام ابن حجر في شرحه: «قوله: قال ابن عباس: من نبي ولا محدَّث أي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ..﴾ الآية [الحج: ٥٢]، كان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ فيها: ولا محدَّث، أخرجه سفيان بن عُيَيْنة في أواخر جامعه، وأخرجه عبدُ بن حُمَيْد من طريقه، وإسناده إلى ابن عباس صحيح، ولفظه عن عمرو بن دينار، قال: كان ابن عباس يقرأ: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محَدَّث»، والسبب في تخصيص عمر رضي الله عنه بالذكر لكثرة ما وقع له في زمن النبي ﷺ من الموافقات التي نزل القرآن مطابقاً لها، ووقع له بعد النبي ﷺ عدّةُ إصابات اهـ، فتح الباري (٧/ ٥١).

(٢) انظر كتاب: «ختم الولاية» للحكيم الترمذي (ص٣٥٤ ـ ٣٥٥).

يُلقى إليه من غير استدلال بالنبوّة، فيكون مَن قبلنا كانوا مأمورين باتّباع المحَدَّث مطلقاً لعصمة الله إياه، ونحن لم نؤمر بذلك، وسبب ذلك أن مَن كان قبلنا لم يكن يكفيهم نبوَّةٌ واحدة، بل كانوا يأخذون بعض الدين عن هذا النبي وبعضه عن هذا النبي بتصديق الآخر له..»اهـ[1].

٣ ـ الذَّوْق:

يعدُّ الذوق[2] من مصادر التلقي عند الصوفية، وقد بيّن شيخ الإسلام معناه وحقيقته، وردّ على المتصوفة في احتجاجهم به.

---

(١) الصفدية (١/٢٥٣ ـ ٢٥٧).

(٢) الذوق لغة: مصدر من ذاق يذوق، وهو اختبار طعم الشيء بإدارته في الفم باللسان لمعرفة حلاوته أو مرارته.
أما معنى الذوق في الاصطلاح؛ فقد عرّفه الجرجاني بقوله: الذوق: هي قوة منبثة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية في الضم بالمطعوم ووصولها إلى العصب.
والذوق في عرف الصوفية: قال ابن عربي: «اعلم أن الذوق عند القوم أول مبادئ التجلي، وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعداً كان شرباً، وهل بعد هذا الشرب رِيٌّ أم لا، فذوقهم في ذلك مختلف»اهـ.
وقال الكاشاني: «هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي، فإذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سمي مشرباً، فإذا بلغ النهاية يسمى: ربّاً، وذلك بحسب صفاء السر عن لحوظ الغير»اهـ.
وقال السهروردي في «العوارف» في شرحه للذوق والشرب الري: «فالذوق إيمان، والشرب علم، والري حال، فالذوق لأرباب البواره..»اهـ.
وقال الجرجاني: «الذوق في معرفة الله: عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره.
انظر: القاموس (ص١١٤٣، مادة: ذوق)، الفتوحات المكية، لابن عربي (٢/ ٥٤٨)، معجم اصطلاحات الصوفية، للكاشاني (ص١٨١، ٣٢٣)، عوارف =

ويمكن بيان ما ذكره شيخ الإسلام فيما يلي:

أ ـ تعريفه ومعانيه لُغَةً:

قال شيخ الإسلام: «من الناس من يقول: الذوق حقيقة في الذوق بالفم، واللباس بما يُلبس على البدن، وإنما استُعير هذا وهذا، وليس كذلك، بل قال الخليل[١]: الذوق في لغة العرب هو: وجود طعم الشيء.

والاستعمال يدل على ذلك: قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩]، وقال: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٩]، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٢٥].

وقال النبي ﷺ: **(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً)**[٢]، وفي بعض الأدعية: **أذِقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك**[٣].

= المعارف (ص٣٦٩، ط. المكتبة العلامية، القاهرة، ١٣٥٨هـ)، التعريفات للجرجاني (ص١٤٤).

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، الإمام، صاحب العربية. وُلد سنة ١٠٠هـ، وكان رأساً في لسان العرب، ورِعاً، كبير الشأن، توفي سنة ١٧٠هـ، وقيل: مات قبلها بقليل.
انظر: سير الأعلام (٧/ ٤٢٩)، طبقات النحويين للزبيدي (ص٤٧ ـ ٥١)، معجم الأُدباء (١١/ ٧٢ ـ ٧٧)، بغية الوعاة (١/ ٥٥٧ ـ ٥٦٠).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً..، ١/ ٦٢/ ٣٤)، والترمذي (كتاب الإيمان، بابٌ، ٥/ ١٤/ ٢٦٢٣)، من حديث: العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٣) ورد هذا الدعاء في كتاب هواتف الجنان لابن أبي الدنيا (ص٦١، ٧١).

فلفظ الذوق: يُستعمل في كل ما يُحسُّ به ويجد ألمه أو لذته، فدعوى المدَّعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكُّم منه، لكن ذاك مقيد، فيُقال: ذقت الطعام، وذقت الشراب، فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذَوْقٌ بالفم، وإذا كان الذَّوق مستعملاً فيما يُحسه الإنسان بباطنه أو بظاهره، حتى الماء الحميم يُقال: ذاقه، فالشراب إذا كان بارداً أو حاراً يُقال: ذُقتُ حرَّه وبرده»اهـ[١].

ب ـ تعريف الذوق اصطلاحاً:

عرَّفه شيخ الإسلام في معرض كلامه عن منهج الاستدلال عند مختلف الفرق، وَذَكَر المصالح المرسلة، ثم قال: «ومنهم مَن يسميها الرأي، وبعضهم يُقَرب إليها الاستحسان، وقريب منها **ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته**»اهـ[٢].

ج ـ وقد يُطلق بعض الصوفية اسم الحقيقة، ويعنون به الذوق:

قال الشيخ: «ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمداً ﷺ، ظاناً أنه مُتّبع للحقيقة، فإنه مُضاهٍ للمشركين المكذبين للرسل، ولفظ الحقيقة يُقال على: حقيقة كونية، وحقيقة بدعية، وحقيقة شرعية.

فالحقيقة الكونية: مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كلّ شيء ومليكه. . .

وأما الحقيقة البدعية: فهي سلوك طريق الله ﷻ مما يقع في قلب العبد من الذوق والوجد، والمحبة والهوى، من غير اتّباع الكتاب والسنة. . .

---

(١) الفتاوى (٧/ ١٠٩ ـ ١١٠)، وانظر للاستزادة: الفتاوى (١٠/ ٣٣٤ ـ ٣٣٦).
(٢) الفتاوى (١١/ ٣٤٣).

وأما الحقيقة الدينية: وهي تحقيق ما شرعه الله ورسوله ﷺ، مثل الإخلاص لله، والتوكل على الله..»اهـ[١].

د ـ حقيقة الذوق والوجد:

قال شيخ الإسلام: «فالذوق والوجد هو ما يرجع إلى حُبّ الإنسان ووَجده بحلاوته وذوقه وطعمه، وكلّ صاحب محبة، فله في محبوبه ذَوق ووَجد، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متَّبعاً لهواه بغير هدى، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]»اهـ[٢].

هـ ـ الذوق نوعان: بدعي، وشرعي:

أوّلاً: الذوق البدعي، (الذي هو من مصادر التلقّي عند الصوفية):

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن المتصوفة: «وهؤلاء قد يُسمون ما أحدثوه من البدع: حقيقة، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه **ويذوقه** ويجده ونحو ذلك، وأصل ضلال مَن ضلَّ هو بتقديم قياسه على النص المنزَّل من عند الله، واختياره الهوى على اتباع أمر الله، **فإن الذوق** والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد، فكل مُحب له **ذَوْق** ووجد بحسب محبته.

فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بيَّنه النبي ﷺ بقوله في

(١) المصدر السابق (١١/٥٠٨ ـ ٥٠٩).
(٢) المصدر السابق (١٣/٧٣).

الحديث الصحيح: (**ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مِمَّا سِواهما، ومَن كان يُحبُّ المرء لا يُحبُّه إلا لله، ومَن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار**)[1]، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: (**ذاق طعم الإيمان مِن رضِي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً**)[2]. وأما أهل الكفر والبدع والشهوات، فكُلٌّ بِحسَبه. قيل لسفيان بن عُيَيْنة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟! فقال: أنسيت قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، أو نحو هذا الكلام»اهـ[3].

ثانياً: الذوق الشرعي:

قال شيخ الإسلام: «فاستعمال لفظ: (الذوق) في إدراك الملائم والمنافر كثير، وقال النبي ﷺ: (**ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان**)، كما تقدم ذكر الحديث، فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه مَن حصل له هذا الوجد.

وهذا الذوق أصحابه فيه يتفاوتون: فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله، وإقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حُنَفاءَ له، مخلصين له الدين، لا يُحِبون شيئاً إلا لهُ، ولا يتوكَّلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادُون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى، قد فنيت عنهم إرادة

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ١/ ١٤/ ١٦)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ١/ ٦٦/ ٤٣)، من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الحديث: تقدم تخريجه (ص٣٣٥). (٣) الفتاوى (١٠/ ١٦٩ _ ١٧٠).

ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه.

هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا مَن له نصيب، وما مِن مؤمن إلا له منه نصيب، وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله سبحانه أعلم» اهـ[1].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن صلاح القلب وإخلاصه لله تعالى: «والقلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن أحبَّ إليه من ذلك حتى يقدمه عليه، وبذلك يُصْرفُ عن أهل الإخلاص لله السوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذُّ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيباً إلى الله، خائفاً منه، راغباً راهباً، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣].

إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرغوبه، فلا يكون عَبْدُ الله ومحِبُّه إلا بين خوفٍ ورجاء، قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]»اهـ[2].

و ـ والصوفية يعدُّون الذوق من مصادر التلقي:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامٍ له عن طرق تحصيل العلم:

«العلم بالكائنات وكشفها له طرقٌ متعدِّدة: حِسّية وعقلية وكشفية

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦). (٢) الفتاوى (١٠/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

وسمعية، ضرورية ونظرية، وغير ذلك، . . فإنَّ طرق العلم والظن وما يُتَوصّل به إليهما من دليل أو مشاهدة، باطنة أو ظاهرة، عام أو خاص، قد تنازع فيه بنو آدم تنازعاً كثيراً.

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم لأحدٍ بغير الطريق التي يعرفها، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حُجة على ذلك، وكذلك الأمور الكَشْفِية التي للأولياء، مِن أهل الكلام مَن يُنكرها، ومِن أصحابنا مَن يغلو فيها، وخيار الأمور الوسط.

فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوّف قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً، فمن الناس مَن يُنكر منها ما لا يعرفه، ومِن الناس مَن يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره وينفي ما سواه، **وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة** ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]»اهـ[١].

ز - الرد على من جعل الذوق والوجد مصدراً للتلقي:

قال شيخ الإسلام في معرض ردِّه على الصوفية في احتجاجهم لجواز السماع البدعي[٢] ونحوه من العبادات المبتدعة باستحسان القلوب لها ووجود الرقة والخشوع عند فعلها: «ونحن نتكلم على ذلك بوجوه نبين بها إن شاء الله المقصود:

الوجه الأول: أن نقول: يجب أن يُعرَف أن المرجع في القُرَب، والطاعات، والديانات، والمستحبات إلى الشريعة، ليس لأحد أن يبتدع

---

(١) المصدر السابق (١١/ ٣٣٥، ٣٣٨ - ٣٣٩).

(٢) سيأتي تفصيل مذهب الصوفية في السماع، في المبحث الخاص بذلك (٢/ ١٨٨).

ديناً لم يأذن الله به، ويقول: هذا يُحبه الله، بل بهذه الطريق بُدل دين الله وشرائعه، وابتُدع الشرك وما لم يُنَزل الله به سلطاناً.

وكل ما في الكتاب والسنة، وكلام سلف الأمة، وأئمة الدين ومشايخه، من الحض على اتباع ما أُنزل إلينا من ربنا، واتباع صراطه المستقيم، واتباع الكتاب، واتباع الشريعة، والنهي عن ضدِّ ذلك، فكله نهي عن هذا، وهو ابتداع دين لم يأذن الله به، سواء كان الدين فيه عبادة غير الله، وعبادة غير الله بما لم يأمر الله به، بل دين الحق أن نعبد الله وحده لا شريك له بما أمرنا به على ألسِنة رُسُله.

كما قال الفُضيل بن عياض في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[١].

وكلام المشايخ الذين ذكرهم أبو القاسم[٢] في هذا الأصل كثير، مثل: ما ذكره عن الشيخ أبي سليمان الداراني[٣]، أنه قال: رُبَّما يقع النكتة في قلبي من نُكت القوم أياماً، فلا أقبل إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة[٤].

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، تفسير البغوي (١/ ١٧٥).

(٢) يعني أبا القاسم القشيري.

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد (وقيل: ابن عطية) العنسي، أبو سليمان الداراني، الإمام الزاهد، ولد سنة ١٤٠هـ تقريباً، روى عن سفيان الثوري وجماعة، توفي سنة ٢١٥هـ.
انظر: سير الأعلام (١٠/ ١٨٢). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٤١).

(٤) ذكر ذلك أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (ص٧٨)، وابن الجوزي =

وعن صاحبه أحمد بن أبي الحواري[1] أنه قال: مَن عمل بلا اتباعِ سُنة، فباطلٌ عملُهُ[2].

وعن سهل بن عبد الله التستري، أنه قال: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداءٍ، طاعة كان أو معصية، فهو عيش النفس، وكل فعل يفعله بالاقتداء، فهو عذاب على النفس[3].

وعن أبي حفص النيسابوري[4]، أنه قال: مَن لم يَزِن أفعاله وأحواله كلَّ وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره، فلا تعدَّه في ديوان الرجال[5].

وعن الجُنيد بن محمد، أنه قال: الطرق كلُّها مسدودة على الخلق إلا مَن اقتفى أثر الرسول ﷺ[6].

وعن الجنيد أيضاً، أنه قال: مَن لم يحفظ القرآن ولم يطلب

= في صفة الصفوة (٤/ ٢٢٩).

(١) هو أحمد بن أبي الحواريّ ميمون، أبو الحسن، من أهل دمشق، كان من شيوخ الصوفية، صحِب الجُنيد وأبا سليمان الداراني، توفي سنة ٢٣٠هـ.
انظر: الرسالة القشيرية (ص٤١٠ ط. دار الخير)، صفة الصفوة ٤/ ٢١٢ ـ ٢١٣)، تهذيب التهذيب (١/ ٤٩).

(٢) الرسالة القشيرية (ص٤١٠ ط. دار الخير).

(٣) أورده القشيري في الرسالة (ص٤٠١)، ووقفت على هذه المقولة أيضاً بلفظ قريب مما ذكره شيخ الإسلام الشاطبي في الاعتصام (١/ ٦٨).

(٤) هو عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري، أبو حفص، من شيوخ الصوفية، توفي سنة ٢٧٠هـ، وقيل: ٢٦٠هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص١١٥ ـ ١٢٢)، الطبقات الكبرى (١/ ٧٠)، صفة الصفوة (٤/ ٩٨ ـ ٩٩)، القشيرية (ص٤٠٦، وسماه فيها: عُمَر بن مسلمة).

(٥) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٠) في ترجمة أبي حفص، وأورده أبو عبد الرحمن السلمي بلفظ قريب في طبقات الصوفية (ص١١٩).

(٦) الرسالة القشيرية (ص٤٣٠).

الحديث لا يُقتَدى به في هذا الأمر؛ لأن عِلمنا هذا مُقيَّد بالكتاب والسنة[١].

وعن أبي عثمان النيسابوري، أنه قال: مَن أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومَن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤][٢].

وعن أبي حمزة البغدادي[٣]، قال: مَن علِم طريق الحق تعالى سهُل عليه سلوكَه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله[٤].

وعن أبي عمرو بن نُجيد[٥]، قال: كلُّ حال لا يكون نتيجة عِلم فإن ضرره أكثر مِن نفعه[٦]. وسُئل عن التصوف؟ فقال: الصبر تحت الأمر والنهي[٧].

وعن أبي يعقوب النهرجوري، قال: أفضل الأحوال ما قارن

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٤٣١).

(٢) أورده أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٤٤) في ترجمة أبي عثمان.

(٣) هو محمد بن إبراهيم، أبو حمزة البغدادي البزار، جالس بِشراً الحافي والإمام أحمد، وكان بصيراً بالقراءات، توفي سنة ٢٦٩هـ.
انظر: الرسالة القشيرية (ص٣٩٥)، سير الأعلام (١٣/ ١٦٥)، تاريخ دمشق، لابن عساكر (٥١/ ٢٥٥).

(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٩٥).

(٥) هو إسماعيل بن نجيد، أبو عمرو، من كبار المتصوفة، صحِب أبا عثمان الحيري، ولقي الجنيد، سمع الحديث وأسند، سئل عن التصوف، فقال: الصبر تحت الأمر والنهي، توفي سنة ٣٦٦هـ.
انظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص٤٥٤)، الرسالة القشيرية (ص٤٣٥).

(٦) طبقات الصوفية للسلمي (ص٤٥٥)، الرسالة القشيرية (ص٤٣٥).

(٧) الرسالة القشيرية (ص٤٣٦).

العلم[١]. ومثل هذا كثير في كلام أئمة المشايخ، وهم إنما وصَّوا بذلك لِما يعلمونه من حال كثير مِن السالكين: أنه يجري مع ذَوقِه وما يراه ويهواه، غير مُتبع لسبيل الله التي بعث بها [رسله][٢]، وهذا مِن نوع الهوى بغير هدى مِن الله...

ولهذا كثيراً ما يوجد في كلام المشايخ الأمر بمتابعة العلم، يعنون بذلك الشريعة: كقول أبي يزيد البسطامي: عمِلتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشدَّ عليَّ مِن العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتفتَّتُّ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد[٣].

وقال أبو الحسين النوري: مَن رأيته يدَّعي مع الله حالة تُخرجه عن حَدِّ العلم الشرعي، فلا تقربنَّ منه[٤]...

وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد، والعمل في ذلك فيه من الحب والوجد ما لا ينضبط، فكثيراً ما يعمل السالك بمقتضى ما يجده في قلبه من المحبة، وما يدركه ويذوقه من طعم العبادة، وهذا إذا لم يكن موافقاً لأمر الله ورسوله ﷺ، وإلا كان صاحبه في ضلال، من جنس ضلال المشركين وأهل الكتاب الذين اتَّبعوا أهواءهم بغير هدى من الله.

قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال

(١) المصدر السابق (ص٤٣٨).
(٢) أضفت كلمة «رسله» ليستقيم الكلام.
(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٩٦).
(٤) المصدر السابق (ص٤٣٩).

تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. . وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]. فالشريعة التي جعله الله عليها تتضمن ما أَمَرَ به.

وكلُّ حُبٍّ وذوق ووَجْد لا تشهد له هذه الشريعة، فهو من أهواء الذين لا يعلمون، فإن العلم بما يحبه الله إنما هو ما أنزله الله إلى عباده من هداه.

ولهذا قال في إحدى الآيتين: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]، فكُلُّ من اتبع ذوقاً أو وَجْداً بغير هدى من الله، سواء كان ذلك عن حُبٍّ أو بُغض، فليس لأحدٍ أن يتبع ما يُحبه فيأمر به ويتخذه ديناً، وينهى عمَّا يبغضه ويذمّه ويتخذ ذلك ديناً إلا بهدى من الله، وهو شريعة الله التي جعل عليها رسوله، ومن اتّبع ما يهواه حُباً وبُغضاً بغير الشريعة، فقد اتبع هواه بغير هدى من الله.

ولهذا كان السلف يعُدُّون كلَّ مَن خرج عن الشريعة في شيء من الدين مِن أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء ويذمّونهم بذلك، ويأمرون بألّا يُغتَرَّ بهم، ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحِجاج، أو العبادة والأحوال. . .

وهذا أصل عظيم مِن أصول سبيل الله وطريقه يجب الاعتناء به، **وذلك:** أن كثيراً مِن الأفعال قد يكون مُباحاً في الشريعة، أو مكروهاً، أو مُتَنازعاً في إباحته وكراهته، وربما كان مُحَرماً أو مُتنازعاً في تحريمه، فتستحبُّه طائفةٌ من الناس يفعلونه على أنه حسن مُستَحَب ودين وطريق يتقرّبون به، حتى يعُدّون مَن يفعل ذلك أفضل مِمن لا يفعله، وربما جعلوا ذلك من لوازم طريقتهم إلى الله، أو جعلوه شعار الصالحين وأولياء الله، ويكون ذلك خطأً وضلالاً وابتداعَ دين لم يأذن به الله»اهـ[1].

وقال شيخ الإسلام في موضع آخر: «.. وقال أبو القاسم:.. كان ابن زيري[2] من أصحاب الجُنَيد شيخاً فاضلاً، فربما كان يحضر موضع السماع، فإن استطابه فَرَش إزاره وجلس، وقال: الصوفي مع قلبه وإن لم يستطبه...

قلتُ: سنتكلم ـ إن شاء الله ـ على هذه الحال وهو المشي مع طيب القلب، وما يذوق الإنسان ويجد فيه صلاح القلب، ونبين أن السلوك المستقيم هكذا من غير اعتبار لِطيب القلب، وما يجده ويذوقه من المنفعة واللذة والجمع على الله ونحو ذلك، أما ذلك الحال فهو مذموم في الكتاب والسنة، ضلال في الطريق، وهو مبدأ ضلال مَن ضلَّ من العُبَّاد والنُّساك والمتصوفة والفقراء ونحوهم، وحقيقته اتباع الهوى بغير هدى من الله، وقد تقدم مِن كلام المشايخ في ذمّ هذا ما فيه كفاية.

فإن مجرّد طيب القلب ليس دليلاً على أنه إنما طاب لِما يحبّه الله ويرضاه، بل قد يطيب بما لا يحبه الله ويرضاه، مِمَّا يكرهه أو لا يكرهه

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٤٨ ـ ٢٥٦).

(٢) ابن زيري: لم أقف على اسمه كاملاً، ولكن ذكر ابن الجوزي أنه من أصحاب الجنيد، وذُكر له مع الجنيد حكايات.
انظر: صفة الصفوة (١/ ٦٣٨).

أيضاً، لا سيَّما القلوب التي أُشربت حبَّ الأصوات الملَحَّنة...

وإطلاق القول بأن الصوفيَّ مع قلبه، هو مِن جنس ما ذُمَّ به هؤلاء المتصوفة، حتى جُعِلوا من أهل البدع؛ لأنهم أحدثوا في طريق الله أشياء لم يشرعها الله، فكان لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]»اهـ[١].

ح ـ وتعرّض شيخ الإسلام في مَوضعٍ آخر لبيان حقيقة محبة المتصوفة لله تعالى، وأن غُلُوَّ فريق منهم فيها أوصلهم إلى القول بالحلول والاتحاد ثم قال:

«كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع؛ لأن كثيراً منهم سلكوا في العبادة لله مُجرّد محبة النفس وإرادتها وهواها، من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة، فَضَلّوا بسبب ذلك ضلالاً يشبه ضلال النصارى...

فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول ﷺ كان يعمل بإرادة نفسه، فيكون متّبعاً لهواه بغير هدى من الله، وهذا عيش النفس، وهو من الكبر، فإنه شعبة من قول الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياضته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء، من غير اتّباع لنبيّهم...

والمقصود: ذِكرُ مَن عدل عن العبادات التي شرعها الرسول ﷺ، إلى عبادات بإرادته وذوقه ووَجده ومحبّته وهواه، وأنهم صاروا في أنواع

---

(١) الاستقامة (١/ ٤١٣ ـ ٤١٤). وانظر للاستزادة: الفتاوى (١٣/ ٧٢، ٢٣/ ٥٩)، وفي الجواب الصحيح (٤/ ٣٩٧ ـ ٤٠٢)، كلام مفيد للشيخ في الرد على الاتحادية حول ما يشهدونه بقلوبهم من المعاني ويعدُّونه من الشرع، وهو في معنى ما نقلتهُ من كلام الشيخ عن عموم المتصوفة، لِذا لم أشأ تكراره.

من الضلال من جنس ضلال النصارى، ففيهم مَن يدّعي إسقاط وساطة الأنبياء، والوصول إلى الله بغير طريقهم، ويدّعي ما هو أفضل من النبوّة، ومنهم من يدّعي الاتحاد والحلول الخاص: إما لِنفسه، وإما لِشيخه، وإما لِطائفته الواصلين إلى حقيقة التوحيد بزعمه»اهـ[١].

ط ـ لم يكن أحد من السلف يجعل الذوق والوجد مصدراً للتلَقّي:

قال شيخ الإسلام: «فكان القرآنُ هو الإمامَ الذي يُقتدى به، **ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووَجْد ومكاشَفة، ولا فيهم من يقول: إن له ذوقاً أو وَجْداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث**»اهـ[٢].

وقال في موضع آخر: «وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية، بل يظنها من كرامات الأولياء، وأعرف مَن يخاطبه مخاطب ويقول له: أنا مِن أمر الله، ويَعِدُه بأنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، ويُظهر له الخوارق»اهـ[٣].

٤ ـ الكشف:

يُعدُّ المتصوفة الكشف[٤] من مصادر التلقي، وقد بيّن شيخ الإسلام ذلك وردّ عليهم.

---

(١) المنهاج (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٣)، وسيأتي تفصيل مذهب الاتحادية في المبحث الخاص بذلك (ص٤٠٥).

(٢) الفتاوى (١٣/ ٢٨ ـ ٢٩).

(٣) الفتاوى (١١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٤) الكشف لغة: رَفعُك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشف الأمر يكشفه كشفاً: أظهره. لسان العرب (٩/ ٣٠٠، مادة كشف).
الكشف اصطلاحاً: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية، وجوداً وشهوداً. معجم اصطلاحات الصوفية للحفني (ص٢٥٥).
وعرّفه السراج في اللمع (ص٢٤٩) بقوله: الكشف: بيان ما يستتر على الفهم، فيُكشف عنه للعبد كأنه رأي عين.

=

ويمكن بيان ما ذكره شيخ الإسلام فيما يلي:

أ ـ الكشف ثلاثة أصناف:

قال شيخ الإسلام: «وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف: مَلَكي، ونفسي، وشيطاني.

فإن المَلَك له قوّة، والنفس لها قوّة، والشيطان له قوّة، وقلب المؤمن له قوّة، فما كان من المَلَك ومن قلب المؤمن فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل، وقد اشتبه هذا بهذا على طوائفَ كثيرة . . »اهـ[1].

ب ـ الكشف قِسمان:

القسم الأول: الكشف الشرعي:

قال شيخ الإسلام: «. . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة. وحديث مكحول المرفوع: (**ما أخلص عبدٌ العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه، وأنطق بها لسانه**)، وفي رواية: (**إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**)[2].

= وقال حسن رضوان في روض القلوب (ص٤٣٦):

فالكشف رفع ظلمة الحجاب   عن قلبه ونفي الارتياب
فعن يقين كل أمر ينكشف   له، نعم، والانكشاف يختلف

فيفهم من هذه التعريفات أن العبد يمكن أن يصل بالرياضات والمجاهدات إلى أن تنكشف له الحقائق والعلوم من غير واسطة نبي ولا وحي.

انظر: مصادر التلقي عند الصوفية (ص٣١٧).

(١) الفتاوى (١٠/٦١٣).

(٢) أخرج ابن أبي شيبة في معنى هذا عن عبد الله بن عتبة عن عمر رضي الله عنه قال: «جالسوا التوابين؛ فإنهم أرقّ شيء أفئدةً»اهـ، وعن وديعة الأنصاري أن =

وقال أبو سليمان الداراني: إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت، ورجعت إلى أصحابها بطُرَف الفوائد، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

وقد قال النبي ﷺ: **(الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء)**[1]، ومن معه نور وبرهان وضياء، كيف لا يعرف حقائق الأشياء مِن فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيّما الأحاديث النبوية، فإنه يعرف ذلك معرفةً تامةً؛ لأنه قاصد العمل بها، فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله ﷺ، حتى إن المُحِبَّ يعرف من فحوى كلام محبوبه مُراده منه تلويحاً لا تصريحاً.

= عمر رضي الله عنه قال: «استشر في أمرك الذين يخشون الله»، ولم أقف على لفظ ما ذكره شيخ الإسلام.

انظر: مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٧٢، ٢٧٥)، الزهد لابن المبارك (ص٤٢، ٤٩، ط. مجلس إحياء المعارف، الهند، ١٣٨٥هـ)، وأورده الغزالي في الإحياء (٤/ ٥١) وقال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وهو من قول عون بن عبد الله. اهـ.

الحديث: أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص٣٥٩) بسنده قال: عن أبي عمر بن حيوية، قال: حدثنا يحيى، قال: حدثنا الحسين، قال: أخبرنا أبو معاوية، قال: أخبرنا حجاج عن مكحول، قال: قال رسول الله ﷺ: (من أخلص لله العبادة أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه).

وأورده السهروردي في عوارف المعارف (٥/ ١٩٤، ٢٠٧، المطبوع بذيل الإحياء) ولم يعزه إلى أحد.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٨٩) من حديث: أبي أيوب رضي الله عنه، والحديث ضعّفه الألباني (ضعيف الجامع الصغير ٥/ ١٥٥، ح٥٣٧٥).

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الطهور، باب فضل الوضوء، ١/ ٢٠٣/ ٢٢٣)، والترمذي (كتاب الدعوات، بابٌ ٥/ ٥٣٥/ ٣٥١٧)، والنسائي (كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٥/ ٥/ ٢٤٣٧)، من حديث: أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

والعين تعرف من عينَيْ محَدِّثها إن كان من حزبها أو من أعاديها[(١)]
إنارة العقل مكشوف بطوْعِ هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا[(٢)]

وفي الحديث الصحيح: **(لا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)**[(٣)]، ومن كان توفيق الله له كذلك، فكيف لا يكون له بصيرة نافذة؟ وإذا كان الإثم والبِرّ في صدور الخلق له تردّدٌ وجَوَلان، فكيف حال مَنِ الله سمعُه وبصرُه وهو في قلبه؟.

وقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: الإثم: حوَّازُ القلوب[(٤)]. وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

---

(١) البيت: لسبط التعاويذي (من العصر العباسي) وهو من بحر البسيط، والبيت الذي قبله:
عَيْنَاكِ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنْكِ عَلَى أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ أَرْوِيهَا
انظر: ديوان التعاويذي (ص٤٩٠).
(٢) البيت: لم أقف على قائله.
(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب التواضع، ٥/ ٢٣٨٤/ ٦١٣٧)، وابن حبان (كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ٢/ ٥٨/ ٣٤٧).
(٤) الأثر: رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٤٩)، وهناد بن السري في الزهد (٢/ ٤٦٥)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٦): رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات.اهـ، وأورده الشاطبي في الاعتصام (١/ ٤٠٣، فصل فإن قيل: أفليس في الأحاديث..).
و«حوَّاز»: بفتح الحاء وتشديد الواو، وكذا ضبطه ابن الأثير في النهاية، معناها: من الحَوْز: وهو الجمع وضمّ الشيء، وحاز يحوز القلوب: أي يجمع القلوب ويغلب عليها.
انظر: النهاية لابن الأثير (١/ ٤٥٩)، القاموس (ص٦٥٥).

وأيضاً: فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستَحِلِ الفطرة شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها وعرفت معروفها، قال عمر رضي الله عنه: الحق أبلج لا يخفى على فطِن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منوّرة بنور القرآن، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عياناً مع غيبها عن غيرها.

وفي السنن و«المسند» وغيره، عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: (**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَبَتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مُفتّحة، وعلى الأبواب ستور مُرخاة، وداعٍ يدعو على رأس الصراط، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فالصراط المستقيم هو: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب المفتَّحة: محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادي ـ أو كما قال ـ يا عبد الله! لا تفتحه، فإنك إنْ تفتحه تلِجْهُ، والدّاعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن**)[١]، فقد تبيّن في هذا الحديث العظيم ـ الذي مَن عرفه انتفع به انتفاعاً بالغاً إن ساعده التوفيق، واستغنى به عن علوم كثيرة ـ أن في قلب كل مؤمن واعظاً، والوعظ هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب.

وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخرب المظلم، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر[٢].

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه (ص٣٢٣).

(٢) الأثر عن حذيفة رضي الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب مصفح، فذلك قلب المنافق، وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب أجرد، فكأن فيه سراجاً يزهر، فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثله كمثل قرح يمدها قيح ودم، ومثله =

وفي الحديث الصحيح: (**إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمن قارئ وغير قارئ**)[(١)]، فدلّ على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ولا في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضَّاع على الله ورسوله ﷺ، فإن الدجال أكذبُ خلقِ الله، مع أن الله يُجري على يديه أموراً هائلة، ومخاريقَ مزلزلةً، حتى إن مَن رآه افتُتِنَ به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب، قوِيَ انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعُف الإيمان ضعُف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم.

ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور[(٢)]، فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (**قد كان في الأمم قبلكم**

= كمثل شجرة يسقيها ماء طيب، فأيهما غلب غلب عليه»اهـ. أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٨، ح٣٠٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد (ص٥٠٤، ح١٤٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٦).

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب اللباس، باب الجعد، ٥/٢٢١٢/٥٥٦٩)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، ١/ ١٥٣/ ١٦٦) كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) وقفت عليه في مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٣)، ولم ينسبه ابن القيم إلى أحد، ولم أقف عليه في غير هذا الموضع.

محَدَّثون، فإن يكن في أُمتي منهم أحد فعمر)[(١)].

والمُحَدَّث: هو المُلهَم المخاطب في سره. وقال ابن عمر: ما قال عمر رضي الله عنه لشيء: إني لأظنه كذا وكذا، إلا كان كما ظنَّ[(٢)]، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما كُنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر، ثبت هذا عنه من رواية الشعبي[(٣)])[(٤)].

وأيضاً: إذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لِقوة إيمانه يقيناً وظناً، فالأمور الدينية كشْفُها له أيسر بطريق الأَوْلى، فإنه إلى كشفها أحوجُ.

فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، فإذا تكلم

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه (ص٣٢٤).

(٢) الأثر: رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٥/ ٦١٧/ ٣٦٨٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٩٥، ح٥٦٩٧)، وابن حبان (١٥/ ٣١٨، ح٦٨٩٥) من قَوْل: عبد الله بن عمر رضي الله عنه، والأثر صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٠٤، ح٢٩٠٨).

(٣) هو عامر بن شراحيل، أبو عمرو الهمداني ثم الشعبي، روى عن عدد كثير من الصحابة رضي الله عنهم، وولد في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان يُستفتى والصحابة متوافرون، توفي سنة ١٠٤هـ، وقد عاش ٨٢ سنة.
انظر: الحلية (٤/ ٣١٠)، وفيات الأعيان (٣/ ١٢)، تذكرة الحفاظ (١/ ٧٤)، سير الأعلام (٤/ ٢٩٤)، شذرات الذهب (١/ ١٢٦)، تهذيب تاريخ دمشق (٧/ ١٤١).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه (١/ ١٠٦/ ٨٣٦)، وابن أبي شيبة في مسنده (٦/ ٣٥٨، ح٣٢٠١١) عن طارق بن شهاب، والضياء في المختارة (٢/ ١٧١، ح٥٠٥) وقال: إسناده منقطع، والطبراني في الكبير (٩/ ١٦٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه، والأوسط (٥/ ٣٥٩) عن علي رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٧): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.اهـ.

الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان، ولكن هو في نفسه قد أخذ حِذْرَه منه، وربما لوَّح أو صرَّح به خوفاً من الله، وشفقة على خلق الله ليحذروا من روايته أو العمل به.

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر، أو فاسق، أو ديوث، أو لوطي، أو خَمَّار، أو مُغَنٍّ، أو كاذب، من غير دليل ظاهر، بل ما يُلقي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس، يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق، **فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُسْتَبَعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين**»اهـ[1].

القسم الثاني من قسمَي الكشف:

الكشف البِدْعي: وهو ما يكون سببه الجن والشياطين، قال شيخ الإسلام: «فكل مَن كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة، لم يكن أفضلَ من عمر رضي الله عنه، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة، تبعاً لِمَا جاء به الرسول ﷺ، لا يجعل ما جاء به الرسول ﷺ تبعاً لِمَا ورد عليه، وهؤلاء الذين أخطؤوا وضلُّوا، وتركوا ذلك، واستغنوا بما ورد عليهم، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتّباع العلم المنقول.

وصار أحدهم يقول: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، فيُقال له: أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق، ولولا النقلُ المعصوم لكنتَ أنت وأمثالك إما من المشركين، وإما من اليهود والنصارى، وأما ما ورد عليك، فمِن أين لك أنه وحي من الله؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان؟...

---

(١) الفتاوى (٢٠/ ٤٢ ـ ٤٧، ١١/ ٢٠٤).

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج، وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم، كحال النائم، وهذا يعرفه كل أحد، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يرونها عياناً، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، ويخاطبهم أولئك الأشخاص، ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بها، وإما إلى غير عرفات، فهذا كله موجود كثيراً، لكن مِنَ الناس مَن يعلم أن هذا من الشيطان، وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله وعمِله من السحر، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن»اهـ[١].

ج ـ الكشف لا يكون مصدراً ـ مُنفرداً ـ للتلقِّي:

قال شيخ الإسلام: «.. طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية: وهؤلاء منصرفون إلى النصرانية الباطلة، فإن هؤلاء يقولون: إذا صفّى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه، فاضت عليه العلوم بلا تعلُّم، وكثير من هؤلاء تكون عباداته مبتدَعةً، بل مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ، فيقعون في فساد من جهة العمل، وفساد من نقص العلم، حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول ﷺ.

وكثيراً ما يقع بين هؤلاء وهؤلاء، وتقدح كل طائفة في الأخرى، وينتحل كلٌّ منهم اتّباع الرسول ﷺ، والرسول ليس ما جاء به موافقاً لِمَا قال هؤلاء ولا هؤلاء، وما كان رسول الله ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي، ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف، بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة.

وكثير من أهل النظر يزعُمون أنه بمجرد النظر، يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس، وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريقة

---

(١) الفتاوى (١٣/ ٧٤ ـ ٧٧)، وانظر للاستزادة: الفتاوى (٨/ ٣٥١).

الرياضة بمجردها، تُحَصّل المعارف بلا تعلّم ولا نظر ولا تدبّر للقرآن والحديث، وكِلا الفريقين غالط، بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم، لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك، إلا بنظر وتدبر وفَهْم لِمَا بُعِثَ الله به الرسول ﷺ، ولو تعبّد الإنسان ما عسى أن يتعبد، لم يعرف ما خصَّ الله به محمداً ﷺ إن لم يعرف ذلك من جهته...

وكذلك لو جاع، وسهر، وخلا، وصمت، وفعل ما عسى أن يفعل، لا يكون مهتدياً، إن لم يتعبد بالعبادات الشرعية، وإن لم يتلقَّ علم الغيب من جهة الرسول ﷺ»اهـ[١].

وقال الشيخ: «فصلٌ: فيما يُلقى لأهل المكاشفات والمخاطبات من المؤمنين، هو من جنس ما يكون لأهل القياس والرأي، فلا بد من عرضه على الكتاب والسنة والإجماع، فليس أحد من هؤلاء المشايخ ولا الصِّدّيقين معصوماً، فكل مَن ادّعى غناءه عن الرسالة بمكاشفة أو مخاطبة أو عصمة ـ سواء ادّعى ذلك لنفسه أو لشيخه ـ فهو من أضل الناس»اهـ[٢].

ثم بيّن شيخ الإسلام: أن الكشف مهما قوِي وكان صاحبه صالحاً، فإنه لا يعصمه من الخطأ، لِذا لا بدَّ من عرض كلِّ كشف على الكتاب والسنة، فقال: «.. فقد ثبت أن لِأولياء الله مخاطبات ومكاشفات، فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب ﵁، فإن خير هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر ثم عمر.

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر ﵁ بأنه محَدَّث في هذه الأمة،

---

(١) المنهاج (١/ ٩٦ ـ ٩٧، الطبعة الأميرية).

(٢) المستدرك على الفتاوى (١/ ٢١٤)، مختصر الفتاوى المصرية (ص١١٢).

فأي مَحَدَّث ومخاطب فُرض في أمة محمد ﷺ فعمر ﷺ أفضلُ منه، ومع هذا فكان عمر ﷺ يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه، فيكون ذلك من فضائل عمر ﷺ، كما نزل القرآن بموافقته غير مرَّة، وتارة يخالفه، فيرجع عمر ﷺ عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية..»اهـ[1].

د ـ ليس كل عمل أورث كشفاً يكون أفضلَ من غيره:

سُئل شيخ الإسلام: «ما الحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس، يُفتح عليهم من الكشوفات والكرامات، وما سوى ذلك من الأحوال ـ مع قِلة علمهم وجهل بعضهم ـ حتى إن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوةً ولذّةً، ولا يجد ذلك عند تلاوة القرآن»؟

فأجاب الشيخ: «**الحمد لله رب العالمين:** لا ريب أن الذي أُوتيَ العلمَ والإيمانَ أرفعُ درجة من الذين أُوتوا العلم فقط، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، والعلم الممدوح الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورَّثْه الأنبياء...

وهَهُنا أصل آخر وهو: أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرّفاً في الكون يكون أفضلَ من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرّفاً، فإن الكشف والتصرّف إن لم يكن مما يُستعان به على دين الله، وإلا كان من متاع الحياة الدنيا، وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب، وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة، وأولئك أصحاب النار.

ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تُتَلقّى من مثل هذا، وإنما تُتَلقّى من دلالة الكتاب والسنة، ولهذا كان كثير من الأعمال يُحَصّلُ لِصاحبه في

(١) الفتاوى (١١/ ٢٠٥)، وقد تقدم تفصيل ما وقع في الحديبية (ص٣٢٩) حاشية (١).

الدنيا رِئاسة ومالاً، فأكرم الخلق عند الله أتقاهم، ومَن عَبَدَ الله بغير علم، فقد أفسد أكثر مِما يصلِح، وإن حصل له كشف وتصرّف، وإن اقتدى به خلق كثير من العامّة، وقد بسطنا الكلام في هذا الباب في مواضعه»اهـ[1].

هـ ـ احتجاج الصوفية على صحة التلقي عن الكشف بقصة الخضر مع موسى ﷺ:

«قال شيخ الإسلام بعد كلامه السابق: «ومن استدلَّ على ذلك بقصة الخضر، فهو من أجهل الناس؛ فإن موسى [ﷺ]:

لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتّباعه، بل قال لموسى: (**إني علَى عِلم مِنْ عِلْم الله علَّمنيه الله، لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمَكه الله لا أعلمه، ولما سلّم عليه، قال: وأنَّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم**)[2]، فالخضر ﷺ لم يعرف موسى ﷺ حتّى عرّفه موسى نفسَه.

وأما محمد ﷺ: فهو الرسول إلى جميع الخلق، فمن لم يتبعه من جميع مَن بلغته دعوته كان كافراً ضالاً، ومَن قال له مثل ما قال الخضر فهو كافر.

وأيضاً: ما فعله الخضر فلم يكن خارجاً عن شريعة موسى ﷺ؛ إذ لَمَّا بيَّن له الأسباب أقرّه على ذلك، فكان قد علم الخضرُ الأسباب التي أباحت له ذلك الفعل، ولم يكن يعلمها موسى، كما يدخل الرجل على غيره فيأكل طعامه، ويأخذ ماله لعلمه بأنه مأذون له.

---

(١) الفتاوى (١١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٩).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى ﷺ، ٣/ ١٢٤٦/ ٣٢٢٠)، ومسلم (كتاب الفضائل، باب في فضائل الخضر ﷺ، ٤/ ١٨٤٧/ ٢٣٨٠)، كلاهما من حديث أُبي بن كعب ﷺ.

وأيضاً: فإن الخضر إن كان نبياً، فليس لغيره أن يتشبه به، وإن لم يكن نبياً ـ وهو قول الجمهور ـ فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل منه، فإن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما خيارها، وكان حالهما مع رسول الله ﷺ كما عُلِم من الطاعة لأمره، ونحن مأمورون أن نقتدي بهما، بل مَن اعتقد أنه يجوز له أن يخرج عن طاعة النبي ﷺ وتصديقه في شيء من أموره الباطنة والظاهرة، فإنه يجب استتابته، فإن تاب وإلا قُتل كائناً مَن كان»اهـ[1].

و ـ ومن طرق الكشف عند الصوفية:

المنامات: قال شيخ الإسلام:

«وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً، وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]»اهـ[2].

ز ـ ومن طرق الكشف عند الصوفية:

الإسراء والمعراج الذي يزعمونه لأوليائهم:

بيّن شيخ الإسلام أن ابن عربي فسّر إسراء النبي ﷺ بأنه نوع من الكشف العلمي، في خيال النبي ونفسه، نظير ما ادّعاه في تكليم الله تعالى لِموسى ﷺ فقال الشيخ: «.. وله كتاب الإسراء الذي سماه: الإسراء إلى المقام الأسرى، وجعل له إسراءً كإسراء النبي ﷺ، وحاصل إسرائه من جنس الإسراء الذي فسّر ابن سينا ومَن تبِعه.. إسراءَ النبي ﷺ، وجعلوه من نوع الكشف العلمي، كما فعلوا مثل ذلك في تكليم

---

(١) المستدرك على الفتاوى (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، مختصر الفتاوى المصرية (ص١١٢).

(٢) الفتاوى (١١/ ٣٣٩).

موسى ﷺ، وجعلوا ما خوطب به كله في نفسه، فلهذا ادَّعى ابن عربي إسراءً، وهو كله في نفسه وخياله: منه المُتَكلِّم، ومنه المُجيب.

وباب الخيال: باب لا يُحيط به إلا الله، وابن عربي يدّعي أن الخيال هو عالم الحقيقة، ويُعَظمه تعظيماً بليغاً، فجعل في خياله يتكلّم على المشايخ وتوحيدهم، بكلام يقدح في توحيدهم، ويدَّعي أنه علّمَهم التوحيد في ذلك الإسراء، وهذا كلّه مِن جنس قُرآن مُسَيلمة، بل شَرٌّ منه، وهو كلام مخلوق، اختلقه في نفسه»اهـ[1].

ح ـ ومن طرق الكشف: التعلق بالقبور:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن زيارة القبور البدعية، وما يقع من بعض الزائرين من دعاء المقبورين: «.. وأما أن يقول: يفيض على الداعي من جهتهم ما يطلب من غير علم منهم ولا قصد كشعاع الشمس الذي يظهر في الماء وبواسطة الماء يظهر في الحائط وإن كانت الشمس لا تدري بذلك، وهذا قول طائفة من الفلاسفة المنتسبين إلى الملل، وقد ذكره صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها[2] وغيره»اهـ[3].

ط ـ الهواتف:

قال شيخ الإسلام: «.. والمنتسبون إلى الزهد والتصوف، يقول أحدهم: إنه يُخاطب في باطنه على لسان الشاهد، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء، ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره، ويظنون أنهم يُخاطَبون، ويجدون المريد في قلوبهم بذلك، وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم، وربما كان الشيطان يتمثل في

---

(١) الصفدية (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).
(٢) يعني أبا حامد الغزالي.
(٣) الرد على الأخنائي (ص٦٠).

صورته فيجدون في نفوسهم خطاباً من تلك الصورة، فيقولون: خوطبنا من جهته، وهذا وإن كان موجوداً في المُخاطَب فمن المخاطِب له؟ فالفرقان هنا، فإنما ذلك المخاطَب من وسواس الشيطان والنفس.

وقد يخاطَبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم، ولا يُخاطَبون بما يعرفون أنه باطل، لئلا ينفرون منه، بل الشيطان يخاطِب أحدهم بما يرى أنه حق...

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك، والله منزه عن ذلك، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما في نفسه من الشرك؛ إذ لو كان مُخلصاً لله الدين لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته أو عنده بدعة، ولا يقع هذا لِمُخلصٍ متمسك بالسنة البتّة»اهـ[1].

ي ـ الاطلاع على اللوح المحفوظ:

يدَّعي فريق من المتصوفة أنه بإمكان بعضهم الاطلاع على اللوح المحفوظ، وتلقِّي العلوم والمعارف منه مباشرة دون حاجة إلى الرسل، وقد عرض شيخ الإسلام هذا الرأي، وردَّ عليه في معرض كلامه عن الفلاسفة ودعواهم تلقي العلم والمعرفة من النفس الفلكية، إلى غير ذلك من التُّرَّهات، فقال: «.. ولهذا يقول بعض الشيوخ الذين يتكلمون باللوح المحفوظ على طريقة هؤلاء ـ إما عن معرفة بأن هذا قولهم، وإما عن متابعة منهم لِمن قال ذلك من شيوخهم الذين أخذوا ذلك عن الفلاسفة ـ **كما يوجد ذلك في كلام ابن عربي، وابن سبعين، والشاذلي، وغيرهم يقولون: إن العارف قد يطلع على اللوح المحفوظ، وأنه يعلم أسماء**

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٦١١ ـ ٦١٢).

مُريديه من اللوح المحفوظ، أو أنه يعلم كل وليٍّ كان ويكون لله من اللوح المحفوظ، ونحو هذه الدّعَاوَى التي مضمونها أنهم يعلمون ما في اللوح المحفوظ، وهذا باطل مخالف لدين المسلمين وغيرهم من أتباع الرسل»اهـ[1].

ك ـ الخضر:

من تأمل في آراء الصوفية ومروياتهم، يجد أن شخصية الخضر عليه السلام حظيت لديهم باعتناء بالغ، بحيث أصبح الأخذ عنه ولُقياه ـ عندهم ـ أمراً لا يقبل اللجاج، بل واستفاضت الأخبار وتواترت عنهم بذلك.

وقد حكى شيخ الإسلام هذا الأمر عنهم، وبيّن وجه خطئهم وضلالهم فيه؛ فقال: «. . والجُهّل الذين يُعلقون أمورهم بالمجهولات، كرجال الغيب، والقطب، والغوث، **والخضر**، ونحو ذلك ـ مع جهلهم، وكونهم يثبتون ما لم يحصل به مصلحة ـ ولا لطف، ولا منفعة، لا في الدين ولا في الدنيا ـ أقل ضلالاً من الرافضة، فإن الخضر يُنتَفع برؤيته وموعظته، وإن كان غالطاً في اعتقاده أنه الخضر، فقد يرى أحدهم بعض الجن فيظن أنه الخضر، ولا يخاطبه الجني، إلا بما يرى أنه يقبله منه، ليربطه على ذلك، وقد يُرى الخضر على صور مختلفة، وعلى صورة هائلة وأمثال ذلك، وذلك لأن هذا الذي يقول إنه الخضر هو جني، بل هو شيطان يظهر لمن يرى أنه يضله. .»اهـ[2][3].

---

(١) الرد على المنطقيين (ص٤٧٥)، وانظر للاستزادة: المستدرك على الفتاوى (١/ ١٣٧).

(٢) المنهاج (١/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٣) يدل على شدة افتتان الصوفية بالخضر، وتلاعب الشياطين بهم بتصورها بصور تزعم أنها الخضر، ما ذكره فريد الدين العطار في كتابه «تذكرة الأولياء» في ترجمة الحكيم الترمذي، قال: «كان الشيخ الترمذي قد عقد النية في أول أمره على الرحلة لطلب العلم، في رفقة اثنين من إخوانه، وفي أثناء ذلك مرضت =

ل ـ الجنّ والشياطين:

تتلاعب الشياطين كثيراً بالصوفية، وتُخيّل لهم أشياء غير حقيقية وغير موجودة، وتوحي إليهم بوساوس يظنها جهّالهم من الله، هي في الحقيقة من الجن والشياطين[١].

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن تلاعب الجن بالصوفية: «..وتخاطبهم الشياطين بأمر ونهي وكشف يظنونه من جهة الله، وأن الله هو أمرهم ونهاهم، وأنه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء الله المتقين، ويكون ذلك كله من الشياطين، وهم لا يُفرّقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية»اهـ[٢].

= أمه، فقالت له: يا بنيّ إني امرأة ضعيفة، لا عائل لي ولا معين يعينني، وإنك المتولي لأمري، فإلى من تكلني وتذهب؟! فنالت هذه الكلمات من نفسه وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه إلى سبيلهما.

ثم مضى على ذلك بعض الوقت، فبينما كان في إحدى المقابر يبكي بكاءً شديداً، ويقول: ها أنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابي وقد حصّلوا العلم، إذا به يرى أمامه فجأة شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بكائه؟ فأفضى إليه الفتى بحاله، فقال الشيخ: ألا أعلمك في كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك! فأجابه الفتى إلى ذلك، واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام، ثم عرف الترمذي بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام [!!] وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أُمه»اهـ تذكرة الأولياء، لفريد الدين العطار (٢/ ٩١ ـ ٩٢، ت: المستشرق نيكلسون، ط. ليدن، لندن ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧م) عن مقدمة كتاب «ختم الولاية» للحكيم الترمذي، والمقدمة لمحققه: عثمان إسماعيل يحيى (ص١٠).

(١) وقد اعترف ابن عربي بأن «الشيطان لا يزال مراقباً لِحال المريدين والمكاشفين، فيخيل لهم أموراً لا حقيقة لها، ويُمثل لهم صور السماوات، أو الملائكة، أو سدرة المنتهى، أو العرش، ويُجلّي لهم غير ذلك من الصور، بغرض التلبيس عليهم»اهـ. الفتوحات المكية (٢/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣).

(٢) الفتاوى (٨/ ٣٥١)، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ في المبحث الخاص بالكرامة =

يتبين لنا مما سبق من كلام شيخ الإسلام حول مصادر التلقي عند الصوفية، أن ما وقع فيه الصوفية من ضلال هو بسبب عدم توحيد مصدر التلقي باعتماد الوحيين مصدراً للتلقي دون أن يزاحمهما ذوق ولا وجد ولا إلهام.

ويتبين لنا أيضاً أن ما يَذكره بعض الصوفية عن مشايخهم ـ من أنهم يَزِنون ما يَرِدُ على قلوبهم بميزان الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة قبلوه، وما خالفهما ردوه ـ هو كلام يتكلمون به دون أن يكون له أثر في الواقع، بل معايير الكثيرين منهم في الموافقة والمخالفة تختلف عن معايير أهل السنة والجماعة.

ومما زادهم ضلالاً أنهم جعلوا هذه المصادر التي اعتمدوها من الذوق والوجد والإلهام.. إلخ قطعية الدلالة، وما خالفها أوّلوه أو حرفوه أو ردوه، ألا تراهم يحتجون بالأحاديث وإن كانت ضعيفة وموضوعة؛ لأنها توافق ذوقهم ووجدهم، ويتغافلون عن الأحاديث الصحيحة الثابتة التي تبطل ما هم عليه.

أسأل الله تعالى أن يردّ ضالّ المسلمين إليه رداً جميلاً.. آمين[1].

❖ ❖ ❖

= وخرق العادة، زيادة تفصيل حول تلاعب الجن ببعض المتصوفة، وأنهم يظنون ذلك من الكرامات (ص٨٤٢).

(١) للتوسع في موضوع: مصادر التلقي عند الصوفية، يمكن مراجعة رسالة علمية بعنوان «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضاً ونقداً» تأليف: صادق سليم صادق، وقد بيّن هذه المصادر أحسن بيان، وتقع رسالته في (٧٤٤ صفحة).



الباب الثالث

عرض آراء الصوفية في الاعتقاد، ومناقشتها عند شيخ الإسلام

وفيه ثمانية فصول:

الفصل الأول: توحيد الربوبية

الفصل الثاني: توحيد الألوهية

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات

الفصل الرابع: النبوة والولاية وخوارق العادة

الفصل الخامس: اليوم الآخر

الفصل السادس: القدر

الفصل السابع: موقفهم من المعاصي ودرجاتها



الفصل الأول

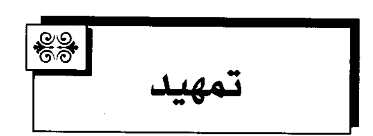
توحيد الربوبية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حقيقة الذات الإلهٰية عندهم

المبحث الثاني: الحلول والاتحاد





تمهيد

قبل الشروع في الكلام عن آراء الصوفية في الاعتقاد، أُحب أن أُمهد قبل ذلك بإيراد ما ذكره شيخ الإسلام مما يثبت أن الصوفية الأوائل ـ عموماً ـ كالجنيد والسري السقطي ونحوهما، يوافقون مذهب أهل السنة في كثير من أبواب الاعتقاد في الجملة.

قال شيخ الإسلام: «.. **والجنيد** رحمه الله تكلم بكلام الأئمة العارفين، **فإن كثيراً من الصوفية وقعوا في نوع من الحلول والاتحاد**، كما ذكر ذلك أبو نعيم في (الحلية)، وكما ذكره القشيري في (رسالته).

والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السُّلَمي في: (طبقات الصوفية)، وأبو القاسم القشيري في (الرسالة) كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب أهل الحديث، كالفُضَيل بن عياض[(١)]، والجُنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي[(٢)] عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم، وكلامهم موجود في السنة، وصنفوا فيها الكتب.

لكن بعض المتأخرين كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، من كبار المشايخ وصالحيهم، وأحد العلماء الأعلام، وُلد بسمرقند، وارتحل لطلب العلم، فأخذ عن الليث وعطاء وغيرهما، وأخذ عنه الشافعي وابن مهدي وغيرهما، توفي سنة ١٨٧هـ.
انظر: حلية الأولياء (٨/ ٨٤)، شذرات الذهب (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).

(٢) في المطبوع: وأبو عبد الله، وهو خطأ.

فروع العقائد، **ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة، وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، فصارت المتصوفة:**

١ ـ تارة على طريقة **صوفية أهل الحديث**، وهم خيارهم وأعلامهم.

٢ ـ وتارة على اعتقاد **صوفية أهل الكلام**، فهؤلاء دونهم.

٣ ـ وتارة على اعتقاد **صوفية الفلاسفة**، كهؤلاء الملاحدة.

ولهذا ذكر ابن عربي في أول (الفتوحات) ثلاث عقائد:

١ ـ عقيدة مختصرة من (إرشاد)[١] أبي المعالي[٢]، بحججها الكلامية.

٢ ـ عقيدة فلسفية، كأنها مأخوذة من ابن سينا وأمثاله. ثم أشار إلى:

٣ ـ اعتقاده الباطن الذي أفصح به في (فصوص الحكم)، وهو: وحدة الوجود، فقال: «وأما عقيدة خلاصة الخاصة، فتأتي مفرَّقة في الكتاب»[٣].

ولهذا كان هؤلاء ـ كابن سبعين ونحوه ـ يعكسون دين الإسلام، فيجعلون أفضل الخلق المحقق عندهم، وهو القائل بوحدة الوجود..»اهـ[٤].

---

(١) الإشارة هنا إلى كتاب: «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، لِأبي المعالي الجويني.

(٢) أبو المعالي الجويني، تقدمت ترجمته (ص١٢٩).

(٣) ذكر ابن عربي عقائده الثلاث في كتابه: «الفتوحات المكية» ثم قال في آخرها: «فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد وأهل النظرة ملخصة مختصرة، ثم أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشئة الشادية، ثم أتلوها بعقيدة خواصّ أهل الله من أهل الطريق من المحققين، أهل الكشف والوجود... وأما التصريح بعقيدة أهل الخلاصة، فما أفردتها على التعيين لِمَا فيها من الغموض، لكن جِئت بها مبدَّدةً في أبواب هذا الكتاب، مُستوفاةً مُبيّنة، لكنها كما ذكرنا مُتَفرقة...»اهـ الفتوحات المكية لابن عربي (١/ ٣٤ ـ ٣٨).

(٤) انظر: الصفدية (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨).

وقال شيخ الإسلام: «فصلٌ: فيما ذكره أبو القاسم في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية:

فإنه ذكر من متفرّقات كلامهم ما يُستدلّ به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقّاه عن أبي بكر بن فورك، وأبي إسحاق الإسفراييني[(١)].

وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة، لكنه مقصِّر عن ذلك، ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه.

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف: وهذا هو الذي كان يجب أن يُذكر، فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ ـ مثل الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي[(٢)]، ومعروف الكرخي[(٣)]، إلى الجنيد بن

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن الحسين بن شنظير الأموي، أبو إسحاق الإسفراييني، كان عابداً صواماً قواماً، يغلب عليه علم الحديث ومعرفة طرقه، توفي سنة ٤٠٢هـ.
انظر: سير الأعلام (١٧/ ٣٥٣).

(٢) هو حذيفة بن قتادة المرعشي، من كبار الصوفية، صحِب الثوري وروى عنه، لم أجد له تاريخ وفاة.
انظر: حلية الأولياء (٨/ ٢٦٧)، صفة الصفوة (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، سير الأعلام (٩/ ٢٨٣). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٤٠٩).

(٣) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، وُلِد من أبوين نصرانيين، وأسلم وصحِب داود الطائي، توفي ببغداد سنة ٢٠٠هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٨٣ ـ ٨٥)، الرسالة القشيرية (ص٤٢٧)، طبقات الأولياء (ص٤٩٣). وسيأتي في مبحث خاص تفصيل رأي شيخ الإسلام فيه (٢/ ٥٠١).

محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأمثال هؤلاء ـ ما يبين حقيقة مقالات المشايخ. . .

وأبو عبد الرحمن[1]: كان ينكر مذهب الكُلّابية ويبدّعهم، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم، وله في ذم الكلام مصنَّف يخالف ما ينصره أبو القاسم، وأبو عبد الرحمن أجلّ مَن أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ، وعليه يعتمد في أكثر ما يحكيه، فإن له مصنفات متعدّدة.

وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في (رسالته)، لا يُعرف عن أحد منهم أنه كان ينصر طريقة الكُلّابية والأشعرية[2]، التي نصرها أبو القاسم، بل المحفوظ عنهم خلافها، ومَن صرّح منهم، فإنما يُصرح بخلافها، حتى شيوخ عصره الذين سمّاهم. . فإن هؤلاء المشايخ ـ مثل أبي العباس القصاب ـ[3]، لهم من التصانيف المشهورة في السنة، ومخالفة طريقة الكلّابية والأشعرية ما ليس هذا موضعه.

وكذلك سائر شيوخ المسلمين: من المتقدمين والمتأخرين، الذين

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمي، تقدمت ترجمته (ص١٠٦).

(٢) الأشعرية: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري: علي بن إسماعيل (ت: ٣٢٤)، يقولون بإثبات سبع صفات فقط؛ لأن العقل دلّ على إثباتها، وهي: السمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والإرادة والحياة، ويؤولون بقية الصفات، وكلام الله عندهم هو معنى قائم بالذات هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وعندهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والعمل والإقرار من فروع الإيمان لا من أصله، وقد رجع أبو الحسن الأشعري عن مذهبه في الأسماء والصفات ـ في الجملة ـ وألَّف في آخر حياته: «الإبانة»، و«مقالات الإسلاميين»، وإن كان بقي له هنات ورواسب من جراء إقامته رَحِمَهُ اللَّهُ على المذاهب المبتدعة أكثر حياته، لكن بقي أتباعه على مذهبه الأول إلى اليوم.
انظر: الفتاوى (١٢/ ١٦٥)، الملل والنحل (١/ ٩٥).

(٣) أبو العباس القصاب: لم أقف على ترجمته.

لهم لسان صدق في الأمة، كما ذكره الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري[1]، ونَظَمه في قصائده عن الشيخ علي بن إدريس شَيْخِه[2]، أنه سأل قُطب العارفين أبا محمد عبد القادر بن عبد الله الجيلي، فقال: يا سيدي، هل كان لله وليٌّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: ما كان ولا يكون.

وكذلك نقل الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي، وحدّثنيه عنه الشيخ عزّ الدين عبد الله بن أحمد بن عمر الفاروثي[3]، أنه سمع هذه الحكاية منه، ووجدتها معلقةً بخط الشيخ

---

(١) هو يحيى بن يوسف بن يحيى، أبو زكريا الصرصري، نسبة إلى صرصر، قرية قريبة من بغداد، ولد سنة ٥٨٨هـ، صاحبه الشيخ عبد القادر الجيلاني وتعلم منه، قال ابن العماد: «الشيخ العلامة القدوة، كان إليه المنتهى في معرفة اللغة وحسن الشعر وديوانه، ومدائحه سائرة»اهـ، وقال ابن كثير: «المادح الماهر، الحافظ للأحاديث واللغة، ذو المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ، فلذلك يشبَّه في عصره بحسان بن ثابت رضي الله عنه»اهـ، قتله التتار في بغداد سنة ٦٥٦هـ.
انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧١٦)، شذرات الذهب (٥/ ٢٨٥).

(٢) هو علي بن إدريس اليعقوبي، الزاهد، صاحب الشيخ عبد القادر الجيلاني، قال ابن العماد: «سيد زاهد عابد رباني متأله بعيد الصيت»اهـ، توفي سنة ٦١٩هـ.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ٨٥).

(٣) هو أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن سابور الواسطي، أبو العباس عزّ الدين الفاروثي، ولد سنة ٦١٤هـ، بِواسط، قال السُّبكي: «سمع ببغداد من الشيخ شهاب الدين السهروردي، ومنه لبس خرقة الصوفية.. وكان فقيهاً مقرئاً عابداً صاحب أوراد..، قدِم دمشق من الحجاز بعد مجاورة مدّة، سنة تسعين، وتولّى مشيخة الحديث بالظاهرية..، ثم وليَ خطابة الجامع، ثم عُزل منها، فسافر إلى واسط، وبها توفي سنة ٦٩٤هـ.
انظر: طبقات الشافعية (٨/ ٦ ـ ١٥)، شذرات الذهب (٥/ ٤٢٥)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٥).

=

موفق الدين أبي محمد بن قدامة المقدسي[١]:

قال السهروردي: (كنت قد عزمت على أن أقرأ شيئاً من علم الكلام[٢] وأنا متردّد، هل أقرأ (الإرشاد) لإمام الحرمين أو (نهاية الإقدام) للشهرستاني، أو كتاب شيخِه[٣]؟ ذهبت مع خالي

= * وعلى ذلك يكون شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قد سمع من الفاروثي أثناء إقامته وتدريسه بدمشق بعد سنة ٦٩٠هـ، ونحن نعلم أن ابن تيمية ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ.اهـ (من تعليق الشيخ د. محمد رشاد سالم رَحِمَهُ اللهُ على كتاب الاستقامة ١/ ٨٧).

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجماعيلي الدمشقي، أبو محمد، ويلقب بموفق الدين، ولد في فلسطين بقرية جماعيل القريبة من بيت المقدس سنة ٥٤١هـ، من أئمة الدنيا في الفقه الحنبلي، وعليه فيه المعوَّل، وبرع في غيره أيضاً، صنف في الفقه وغيره، ومن تصانيفه في الفقه: المغني في عشرة مجلدات، والكافي في أربعة، والمقنع، وغيرها، توفي سنة ٦٢٠هـ.
انظر: سير الأعلام (٢٢/ ١٦٥ ـ ١٧٣)، شذرات الذهب (٥/ ٨٨ ـ ٩٢)، البداية والنهاية (١٣/ ٩٩ ـ ١٠١)، العبر (٣/ ١٨٠ ـ ١٨١)، ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٣٣ ـ ١٤٩)، الأعلام (٤/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٢) علم الكلام: علم يبحث في إثبات العقائد عن طريق الكلام والجدل دون النظر إلى النصوص الشرعية.
قال المناوي في تعريفه: «علم يبحث فيه عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام»اهـ.
واختلف في سبب تسميته بعلم الكلام؛ فقيل: لأن العلماء يبوبون له بقولهم: الكلام في كذا وكذا، وقد حذّر السلف من تعاطي علم الكلام؛ قال الإمام البربهاري: «واعلم أنها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأهل الكلام»اهـ.
انظر: التعريفات للجرجاني (ص٣٨)، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص٦٠٧)، شرح السنة لأبي محمد البربهاري (ص٣٨).

(٣) يريد بشيخه: أبا نصر القشيري، وهو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوزان، =

أبي نجيب[1]، وكان يصلي بجنب الشيخ عبد القادر، قال: فالْتَفَتَ إليَّ

= أبو نصر القشيري. قرأ على أبيه وإمام الحرمين، وروى الحديث عن جماعة، وكان ذا ذكاء وفطنة، وله خاطر حاضر جريء، ولسان ماهر فصيح، وقد دخل بغداد فوعظ بها فوقع بسببه فتنة بين الحنابلة والشافعية لأجل أنه كان يتعصب للأشاعرة، فأمر بالخروج من بغداد لإطفاء الفتنة، فعاد إلى بلده، حتى توفي سنة ٥١٤هـ، ولم أقف له على مصنف إلا كتاب «الموضح في الفروع»، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٩٠٤).

انظر: المنتظم لابن الجوزي (٩/ ٢٢٠)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٠٧)، طبقات السبكي (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٣)، سير الأعلام (١٩/ ٤٢٤)، البداية والنهاية (٨/ ٣٢٣، حوادث سنة ٥١٤هـ)، شذرات الذهب (٣/ ٣٢١)، كشف الظنون (١/ ٣٣٤).

أو لعله يريد شيخه أبا القاسم الأنصاري: وهو سليمان بن ناصر بن عمران بن محمد بن إسماعيل الأنصاري، النيسابوري، الصوفي، قال عنه السبكي: «إمام المتكلمين، سيف النظر، كان إماماً بارعاً في الأصلين، وفي التفسير، فقيهاً صوفياً زاهداً. أخذ عن إمام الحرمين.. وأبي القاسم القشيري، وكان ذا قدم في التصوف والطريقة»اهـ، توفي سنة ٥١١هـ، وقيل: ٥١٢هـ، ولم أقف له على مصنف إلا كتاب شرح فيه كتاب علوم الحديث لابن الصلاح، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١/ ٧٠)، وقد ذكر أنه لأبي القاسم الأنصاري دون أن يبين الاسم كاملاً، فلعله هو.

انظر: سير الأعلام (١٩/ ٤١٢)، طبقات السبكي (٤/ ٢٢٢)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٣١٤)، الأعلام (٣/ ١٧٠).

(١) هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عموية، أبو النجيب السهروردي، الصوفي الواعظ الفقيه الشافعي، كان عَلَماً في الصوفية، روى الحديث عن جماعة، ثم مال إلى التصوف، فصحب حماداً الدباس، وبنى رباطاً ومدرسة، واشتغل بالوعظ والتذكير، ودرس بالنظامية سنتين، وأخذ عند خلائق. ولد سنة ٤٩٠هـ، وتوفي سنة ٥٦٣هـ.

انظر: طبقات الشافعية (٧/ ١٧٣ ـ ١٧٥)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١٢٠ ـ ١٢١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٠٨)، الأعلام (٤/ ١٧٤).

الشيخ عبد القادر، وقال لي: يا عمر، ما هو من زاد القبر، فرجعت عن ذلك)[١].

فأخبر: أن الشيخ كاشفه بما كان في قلبه، ونهاه عن الكلام الذي كان يَنْسُبُ إليه القشيريُّ ونحوُه.

وكذلك: حدثني الشيخ أبو الحسن بن غانم، أنه سمع خاله الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأرموي[٢]: أنه كان له معلِّم يُقرِئه، وأنه أقرأه اعتقاد الأشعرية المتأخرين.

قال: فكنت أكرّر عليه، فسمع والدي والشيخ عبد الله الأرميني[٣]، قال:

فقال: ما هذا يا إبراهيم؟!

فقلت: هذا علّمنيه الأستاذ.

فقال: يا إبراهيم، اترك هذا، فقد طفت الأرض، واجتمعت بكذا وكذا وليٍّ لله، فلم أجد أحداً منهم على هذا الاعتقاد، وإنما وجدته على اعتقاد هؤلاء، وأشار إلى جيرانه أهل الحديث والسنة من المقادسة الصالحين إذ ذاك.

---

(١) أوردها العُليمي في المنهج الأحمد في أصحاب الإمام أحمد، في ترجمة الشيخ عبد القادر (١/ ٢٣١).

(٢) هو إبراهيم بن عبد الله بن يوسف بن يونس بن إبراهيم بن سلمان الأرموي، أبو إسحاق، قال ابن كثير: «الشيخ الصالح القدوة العارف، كان فيه عبادة وانقطاع، وله أوراد وأذكار، وكان محبباً إلى الناس»اهـ، توفي سنة ٦٩٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٢٠، حوادث سنة ٦٩٢هـ).

(٣) هو عبد الله بن يونس الأرموي، الزاهد القدوة، كان في بدايته لا يأوي إلا القفار، قرأ القرآن وتفقه لأبي حنيفة، توفي سنة ٦٣١هـ.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ١٤٥).

وحدثني أيضاً الشيخ محمد بن أبي بكر بن قوام[1]، أنه سمع جده الشيخ أبا بكر بن قوام[2]، **يقول**: إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني ـ سمَّاه لي الشيخ محمد ـ إذا بلغك أن فيهم رجلاً مؤمناً أو رجلاً صالحاً فصدِّق، وإذا بلغك أن فيهم وليًّا لله فلا تصدِّق.

فقلت: ولِمَ يا سيدي؟

قال: لأنهم أشعرية.

وهذا باب واسع.

ومن نظر في عقائد المشايخ المشهورين؛ مثل: الشيخ عبد القادر، والشيخ عدِي بن مسافر، والشيخ أبي البيان الدمشقي، وغيرهم، وجد من ذلك كثيراً، ووجد أنه مَنْ ذهب إلى مذهب شيء مِنْ أهل الكلام ـ وإن كان مُتَأوِّلاً ـ ففيه نقصٌ وانحطاطٌ عن درجة أولياء الله الكاملين، ووجد أنه مَن كان ناقصاً في معرفة اعتقاد أهل السنة واتّباعه ومحبّته وبعض ما يخالف ذلك وذمه، بحيث يكون خالياً عن اعتقاد كمال السنة واعتقاد البدعة، تجده ناقصاً عن أولياء الله الراسخين في معرفة اعتقاد أهل السنة

---

(١) هو محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوام البالسي، نور الدين، نزيل دمشق، ولد سنة ٦٥٠هـ، قال الذهبي: «كان كبير القدر، ذا صدق وإخلاص وانقباض عن الناس، متين الديانة، قرأتُ عليه»اهـ، وقال ابن كثير: «كان شيخاً جليلاً بشوشَ الوجه، حسن السمت، ولم يكن له مرتب على الدولة ولا لزاويته، وقد عرض عليه ذلك فلم يقبل، وكان لديه علم وفضل، وله فهم صحيح، ومعرفة، تامة وحسن عقيدة، وطوية صحيحة»اهـ، توفي سنة ٧١٨هـ.
انظر: شذرات الذهب (٦/ ٤٩)، البداية والنهاية (٩/ ٥٦٢، ٩/ ٣٣٦، حوادث سنة ٧١٨، ٧٦٥هـ).

(٢) هو أبو بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي، كان زاهداً عابداً قدوة، ولد سنة ٥٨٤هـ، وتوفي سنة ٦٥٨هـ.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ٢٩٥).

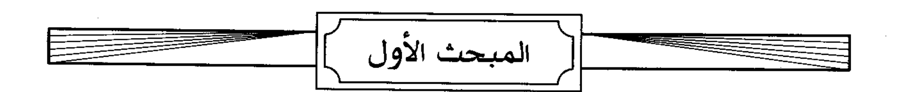
واتّباع ذلك، وقد جعل الله لكل شيء قدْراً»اهـ[1].

وبعد هذا التمهيد الموجز، سأقوم في المباحث القادمة بتفصيل آراء الصوفية في أنواع التوحيد الثلاثة، وبقية أبواب الاعتقاد.

وسوف أسوق كلام شيخ الإسلام في حكايته لمذاهب المتصوفة، مع الردّ عليهم وتفنيد حججهم.



(١) انظر: الاستقامة (١/ ٨١ ـ ٨٩)، وانظر للاستزادة: الاستقامة (١/ ١٠٤ ـ ١٠٧)، الدرء (٥/ ٥).



حقيقة الذات الإلهية عندهم

من أكبر الثوابت التي تدل عليها نصوص الكتاب والسنة، وإجماع المسلمين أن سلامة الإنسان يوم القيامة وربحه أو خسارته متعلقة بتوحيده أو شِرْكه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن نظر في أحوال الصوفية من جهة معتقدهم في ذات الله ﷻ، وجد عند بعضهم من الخلل والانحراف ما يخرج به عن دائرة الإسلام.

وقد عرض شيخ الإسلام في مواضع من كتبه حقيقة معتقد الصوفية في التوحيد، وما يتعلق بذات الله تعالى، وبين ما فيها من خلل، وردّ على ما ذكروه من شبهات.

ويمكن بيان ما ذكره شيخ الإسلام عن التوحيد[(١)] وحقيقة الذات الإلهية عند الصوفية، فيما يلي:

---

(١) معنى التوحيد: في اللغة: مصدر من الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه، وهي تعني الوحدة والانفراد، يقال: رأيته وحده: أي منفرداً، وفلان واحد دهره: أي لا مثيل له.
والمعنى الشرعي للتوحيد: اعتقاد أن الله تعالى إله واحد لا شريك له، وإفراده بالعبادة، والتوجه إليه وحده بطلب المنافع ودفع المضار، ونفي الكفء والمثل عن ذاته وصفاته.
انظر مادة: وحد، في: الصحاح (٢/ ٥٤٧)، المفردات للأصبهاني (ص٥١٤)، القاموس المحيط (١/ ٣٤٣)، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ـ للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ص٣٢ ـ ٣٣).

أولاً: توحيد الربوبية(١) هو غاية السالكين عند الصوفية:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الصوفية: «ويعدُّون نهاية العارفين الفناء في توحيد الربوبية، وشهود القيومية، والاصطلام(٢) في شهود القدر الجاري...

وهؤلاء غاية تحقيقهم: شهود التوحيد، الذي أقرَّ به عُبَّاد الأصنام العرب، كانوا يُقرون بأن الله خالق كلّ شيء وربُّه ومليكه، كما أخبر الله عنهم في القرآن في غير موضع:

---

(١) معنى توحيد الربوبية: في اللغة: الرب ـ في أصل معناه اللغوي ـ هو المربي، ويطلق أيضاً على السيد والمالك والمدبر، ولا يطلق من غير إضافة إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أُضيف، فيقال: رب كذا.

وتوحيد الربوبية بمعناه الاصطلاحي: هو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء، ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك.

انظر: مفردات الأصبهاني (ص١٨٤)، النهاية لابن الأثير (٢/ ١٧٩)، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص٣٣).

(٢) معنى الاصطلام: في اللغة: مصدر من اصطلم؛ أي: استأصل، واصْطُلِم القوم: أُبيدوا، والاصطلام: إذا أُبيد قوم من أصلهم قيل: اصطُلِموا، والاصطلام أيضاً: هو الاضطراب والارتعاش.

فعلى هذا المعنى يكون الاصطلام بمعنى فناء النفس وانعدامها والوقوف مع القدر المجرّد.

ومعنى الاصطلام في عُرف الصوفية: وَلَهٌ غالب على القلب، سلطانه قوي، فيسكن من قام به تحته، وهو قريب من الهيمان، وقيل: هو غَلَبات الحق الذي يجعل كلِّيَّة العبد مغلوبة له بامتحان اللطف في نفي إرادته.

انظر مادة: صلم، في: تاج العروس (١٧/ ٤١٣)، لسان العرب (١٢/ ٣٤٠)، القاموس (ص٧٦٨)، اصطلاحات الصوفية للكاشي السمرقندي (ص٥)، معجم اصطلاحات الصوفية للحفني (ص١٧)، الفتوحات المكية لابن عربي (٢/ ٥٣١).

كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان: ٢٥].

فمَن كان غاية توحيده شهود القيومية والربوبية العامة، كان قد شهِد ما أقرَّ به المشركون[1]، ولم يكن قد شهِد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً

(١) قال الشيخ سليمان بن عبد الله في شرحه لكتاب التوحيد (ص٣٣ ـ ٣٤):
«وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الاسلام؛ بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] وقال تعالى...
فتبين أن الكفار يعرفون الله، ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، وكانوا ـ مع ذلك ـ يعبدونه ويخلصون له أنواعاً من العبادات، كالحج والصدقة والذبح والنذر، والدعاء وقت الاضطرار، ونحو ذلك، ويدّعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].
وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب، وبعضهم يؤمن بالقدر. كما قال زهير:
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وقال عنترة:
يا عبلُ أين من المنية مهرب ... إن كان ربي في السماء قضاها
ومثل هذا يوجد في أشعارهم.
فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفكَ دمائهم، وسبيَ نسائهم، وإباحةَ أموالهم مع هذا الإقرار =

رسول الله..»اهـ[(١)].

وقال الشيخ في موضع آخر: «ثم إن طائفة مِمن تكلم في تحقيق التوحيد على طريق أهل التصوف، ظن أن توحيد الربوبية هو الغاية، والفناء فيه هو النهاية، وأنه إذا شهِد ذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح..»اهـ[(٢)].

وقال الشيخ: «.. وكذلك كثير من المتصوفة وأرباب الأحوال، إنما توجّههم إلى الله من جهة ربوبيته، لِما يُمدّهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرّفون»اهـ[(٣)].

وقال وهو يبين أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم ينفعهم: «وهؤلاء ينتقلون من القول بتوحيد الربوبية إلى القول بالحلول والاتحاد، وهذا عين الضلال والإلحاد»اهـ[(٤)].

ثانياً: وبعضهم يجعل التوحيد ثلاثة أوجه:

للعامة، وللخاصة، ولخاصة الخاصة، وقد نقل شيخُ الإسلام ذلك عن أبي إسماعيل الهروي، وردّ عليه:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «قال[(٥)]: «**والتوحيد على ثلاثة أوجه الأول:**

توحيد العامة: الذي يصح بالشواهد.

= والمعرفة، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا اله إلا الله»اهـ.

(١) الاستغاثة (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (١/ ٢٣٢)، الاقتضاء (٢/ ٨٥٦ ـ ٨٥٧).

(٢) الاقتضاء (٢/ ٨٥٦ ـ ٨٥٧).

(٣) الفتاوى (١٤/ ١٥).

(٤) الفتاوى (٢/ ٣٣٢).

(٥) منازل السائرين للهروي (ص١١١).

والثاني: توحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق.

والوجه الثالث: توحيد قائم بالقِدَم، وهو توحيد خاصة الخاصة.

فأما التوحيد الأول: فهو شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة، وبه حقنت الدماء والأموال، وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر، وصحَّت به الملة للعامة، وإن لم يقوموا بحسن الاستدلال بعد أن سلِموا من الشبهة والحيرة والريبة، بصدق شهادة صححها قَبول القلب.

هذا توحيد العامة: الذي يصح بالشواهد، والشواهد هي: الرسالة والصنائع، تجب بالسمع، وتوجد بتبصير الحق، وتنمو على مشاهدة الشواهد».

قال[1]: «**وأما التوحيد الثاني**: الذي يثبت بالحقائق، فهو: توحيد الخاصة، وهو: إسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول، وعن التعلق بالشواهد، وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكل سبباً، ولا في النجاة وسيلة، فيكون مشاهداً سبْق الحق بحكمه وعلمه، ووضعه الأشياء مواضعها، وتعليقه إياها بأحايينها، وإخفائه إياها في رسومها، ويحقق معرفة العلل، ويسلك سبيل إسقاط الحدث.

هذا توحيد الخاصة: الذي يصح بعلم الفناء، ويصفو في علم الجمع، ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع».

---

(١) بعد الكلام السابق مباشرة (ص١١١).

قال[١]: «**وأما التوحيد الثالث**: فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقَدَره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه، والذي يشار به إليه على ألسن المشيرين، أنه إسقاط الحدَث وإثبات القِدَم، على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علةٌ لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها.

هذا قطب الإشارة إليه على ألْسُن علماء أهل هذا الطريق، وإن زخرفوا له نعوتاً وفصّلوه فصولاً.

فإن ذلك التوحيد: تزيده العبارةُ خفاءً، والصفةُ نفوراً، والبسْطُ صعوبةً، وإلى هذا التوحيد شَخَص أهلُ الرياضة وأرباب الأحوال، وإليه قصد أهل التعظيم، وإياه عنى المتكلمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات، ثم لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة، فإن التوحيد وراء ما يشير إليه مكوِّن، أو يتعاطاه خبرٌ، أو يقله سبب».

قال[٢]: «وقد أجبت في سالف الدهر سائلاً سألني عن توحيد الصوفية، بهذه القوافي الثلاث:

ما وحَّد الواحد من واحد ... إذ كل من وحَّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد»[٣]

---

(١) بعد الكلام السابق مباشرة (ص١١٢).

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة (ص١١٣).

(٣) قال الإمام ابن القيم شارحاً هذه الأبيات، ومبيناً أن ظاهرها القول بالحلول والاتحاد: «فصل التوحيد ومذهب الهروي فيه وأهل الوحدة: وقد خبط صاحب المنازل في هذا الموضع، وجاء بما يرغب عنه الكُمّل من سادات السالكين والواصلين إلى الله، فقال الفكرة في عين التوحيد: اقتحام بحر الجحود.

وهذا بناءً على أصله الذي أصَّلَه، وانتهى إليه كتابه في أمر الفناء؛ فإنه لما رأى =

= أن الفكرة في عين التوحيد تبعد العبد من التوحيد الصحيح عنده؛ لأن التوحيد الصحيح عنده: لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكر، والفكرة تدل على بقاء رسم، لاستلزامها مفكراً، وفعلاً قائماً به، والتوحيد التام عنده: لا يكون مع بقاء رسم أصلاً، كانت الفكرة عنده علامة الجحود، واقتحاماً لبحره، وقد صرح بهذا في أبياته في آخر الكتاب:

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته عارية، أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

ومعنى أبياته: ما وحد الله ﷻ أحد حق توحيده الخاص، الذي تُنفى فيه الرسوم، ويضمحل فيه كل حادث، ويتلاشى فيه كل مكون، فإنه لا يتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم، وهو الموحد، وتوحيده القائم به، فإذا وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث، وذلك جحود لحقيقة التوحيد، الذي تنفى فيه الرسوم، وتتلاشى فيه الأكوان.

فلذلك قال: إذ كل من وحده جاحد، هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه.

وقد فسره أهل الوحدة بصريح كلامهم في مذهبهم، قالوا: معنى كل من وحَّده جاحد؛ أي: كل من وحّده فقد وصف الموحد بصفة تتضمن جحد حقه، الذي هو عدم انحصاره تحت الأوصاف، فمن وصفه فقد جحد إطلاقه عن قيود الصفات.

وقوله: توحيد من ينطق عن نعته؛ أي: توحيد المحدث له الناطق عن نعته، عارية مستردة، فإنه الموحد قبل توحيد هذا الناطق، وبعد فنائه، فتوحيده له عارية أبطلها الواحد الحق بإفنائه كل ما سواه.

والاتحادي يقول: معناه: أن الموحد واحد من جميع الوجوه، فأبطل ببساطة ذاته تركيب نطق واصفه، وأبطل بإطلاقه تقييد نعت موحده.

وقوله: توحيده إياه توحيده؛ يعني أن: توحيده الحقيقي هو توحيده لنفسه، حيث لا هناك رسم ولا مكون، فما وحَّد الله حقيقةً إلا الله.

والاتحادي يقول: ما ثَمَّ غيرٌ يوحده، بل هو الموحِّد لنفسه بنفسه؛ إذ ليس ثَمَّ سوًى في الحقيقة.

قوله: ونعت من ينعته لاحد؛ أي: نعت الناعت له، ميلٌ وخروج عن التوحيد =

ثم بيّن شيخ الإسلام الرد على هذا التقسيم المُحدث، فقال:

«**قلت**: وقد بسطت الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضع، لكن نتبه هنا على ما يليق بهذا الموضع، فنقول:

أما التوحيد الأول ـ الذي ذكره ـ: فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وبه بعث الله الأولين والآخرين من الرسل.

قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد أخبر الله تعالى عن كلٍّ من الرسل؛ مثل نوح وهود وصالح وشعيب...، وغيرهم، أنهم قالوا لقومهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا أول دعوة الرسل وآخرها.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: (**أُمرت أن أقاتل**

= الحقيقي، والإلحاد: أصله الميل؛ لأنه بنعته له قائم بالرسوم، وبقاء الرسوم ينافي توحيده الحقيقي.

والاتحادي يقول: نعت الناعت له شرك؛ لأنه أسند إلى المطلق ما لا يليق به إسناده من التقييد، وذلك شرك وإلحاد.

فرحمة الله على أبي إسماعيل، فتح للزنادقة باب الكفر والإلحاد، فدخلوا منه وأقسموا بالله جهد أيمانهم: إنه لمنهم، وما هو منهم، وغرَّه سراب الفناء، فظن أنه لُجَّةُ بحر المعرفة، وغاية العارفين، وبالَغَ في تحقيقه وإثباته، فقاده قسراً إلى ما ترى»اهـ مدارج السالكين (١/ ١٤٧).

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[١].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح أيضاً: **(من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة)**[٢].

وقال: **(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)**[٣].

والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد، والدعوة إليه، وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به.

ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه:

وحقيقته: إخلاص الدين كله لله، والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء، وهو أن تثبت إلٰهية الحق في قلبك وتنفي إلٰهية ما سواه، فتجمع بين النفي والإثبات، فتقول: لا إله إلا الله، فالنفي: هو الفناء، والإثبات: هو البقاء.

وحقيقته: أن تفنى بعبادته عما سواه، ومحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبموالاته عن موالاة ما سواه، وبسؤاله عن سؤال ما سواه، وبالاستعاذة به عن الاستعاذة بما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبالتفويض

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ١/ ١٧/ ٢٥)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣/ ٢٢)، كلاهما من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ١/ ٥٥/ ٢٦)، من حديث: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الجنائز، باب في التلقين، ٣/ ١٩٠/ ٣١١٦)، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (كتاب الجنائز، ١/ ٥٠٣/ ١٢٩٩)، من حديث: معاذ بن جبل رضي الله عنه.

إليه عن التفويض إلى ما سواه، وبالإنابة إليه عن الإنابة إلى ما سواه، وبالتحاكم إليه عن التحاكم إلى ما سواه، وبالتخاصم إليه عن التخاصم إلى ما سواه.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا قام يصلي من الليل ـ وقد روي أنه كان يقوله بعد التكبير ـ: (**اللهم لك الحمد أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**)(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ ـ ٦٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ٦/٢٧٠٩/٧٠٠٤)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/٥٣٢/٧٦٩)، كلاهما من حديث: ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

وهذا التوحيد كثير في القرآن: وهو أول الدين وآخره، وباطن الدين وظاهره، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للخليلين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليماً، فقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: (**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**)[١].

وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ إبراهيم، فإنه قد ثبت في الصحيح عنه أنه قال عن خير البرية: (**إنه إبراهيم**)[٢]، وهو الإمام الذي جعله الله إماماً، وجعله أمةً، والأمة: القدوة الذي يُقْتَدى به، فإنه حقق هذا التوحيد، وهو: الحنيفية مِلَّته...

والمقصود هنا: أن الخليلين هما أكمل خاصة الخاصة توحيداً، فلا يجوز أن يكون في أمة محمد ﷺ مَن هو أكمل توحيداً من نبيٍّ من الأنبياء، فضلاً عن الرسل، فضلاً عن أولي العزم، فضلاً عن الخليلين.

وكمال توحيدهما بتحقيق إفراد الألوهية، وهو: أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً، بل يبقى العبد موالياً لربه في كل شيء، يحب ما أحب، ويبغض ما أبغض، ويرضى بما رضي، ويسخط بما سخط، ويأمر بما أمر، وينهى عما نهى.

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ١/٣٧٧/٥٣٢) من حديث: جندب رضي الله عنه، وابن ماجه (١/٥٠/١٤١) من حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك إبراهيم)، رواه أبو داود (كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء، ٤/٢١٨/٤٦٧٢)، والترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة: ﴿لَمْ يَكُنْ﴾، ٥/٤٤٦/٣٣٥٢)، من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأما التوحيد الثاني ـ الذي ذكره ـ: وسماه: **توحيد الخاصة**، فهو: الفناء في توحيد الربوبية، وهو: أن يشهد ربوبية الرب لكل ما سواه، وأنه وحدَه ربُّ كل شيء ومليكه.

والفناء إذا كان في توحيد الألوهية: وهو أن يستولي على القلب شهودُ معبودِه وذكرُه ومحبتُه، حتى لا يحس بشيء آخر، مع العلم بثبوت ما أثبته الحق من الأسباب والحكم، وعبادتُه وحده لا شريك له بالأمر والنهي، ولكن غلب على القلب شهود الواحد، كما يقال غاب بموجوده عن وجوده، وبمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته.

كما يذكر أن رجلاً كان يحب آخر، فوقع المحبوب في اليَمِّ، فألقى المحبُّ نفسه خلفه! فقال له: أنا وقعت، فلماذا وقعت أنت؟ فقال: غبتُ بكَ عني، فظننتُ أنكَ أنِّي!.

فصاحب هذا الفناء إذا غُلب في ذلك، فهو معذور لعجزه عند غَلَبَةِ ذكر الرب على قلبه، عن شعوره بشيء آخر، كما يعذر من سمع الحق فمات أو غشي عليه، وكما عُذِرَ موسى ﷺ لَمَّا صعق حين تجلَّى ربه للجبل.

وليس هذا الحالُ غايةَ السالكين ولا لازماً لكل سالك.

ومن الناس من يظن أنه لا بد لكل سالك منه، وليس كذلك، فنبينا ﷺ والسابقون الأولون هم أفضل، وما أصاب أحداً منهم هذا الفناء ولا صعْقٌ ولا موتٌ عند سماع القرآن، وإنما تجد هذا الصعقَ في التابعين، لا سيما في عُبّاد البصريين»اهـ[1].

أما التوحيد الثالث فنذكره في الفقرة التالية:

(١) المنهاج (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٥٨).

ثالثاً: معنى التوحيد عند القائلين بالحلول والاتحاد من الصوفية:

بيّن شيخ الإسلام أن القائلين بالحلول والاتحاد وقعوا في غُلُوٍّ وزندقة في توحيد الله تعالى، حتى قالوا بحلول الخالق في المخلوق:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك قوله[1]: «التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عابداً ولا معبوداً».

كلا المقدمتين باطل، فإن التوحيد يكون من الله لنفسه: فإنه يوحد نفسه بنفسه، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، والقرآن مملوء من توحيد الله لنفسه، فقد وحَّد نفسه بنفسه، كقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، وقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وأمثال ذلك.

وأما المقدمة الثانية: فقوله: (إن الناس لو أنصفوا ما رأوا عابداً ولا معبوداً) ـ مع أنه غاية في الكفر والإلحاد ـ متناقض:

فإنه إذا لم يكن ثَمَّ عابد ولا معبود، بل الكل واحد، فمَن هم الذين لا ينصفون إن كانوا هم الله؟ فيكون الله هو الذي لا ينصف، وإن كانوا غير الله، فقد ثبت الغير.

ثم إذا فسروه على كفرهم، وقالوا: إن الله هو الذي لا ينصف، وهو الذي يأكل ويشرب ويكفر ـ كما يقول ذلك كثير منهم ـ مثل ما قال بعضهم لشيخه: الفقير[2] إذا صحَّ أكل بالله، فقال له الآخر: الفقير إذا صح أكل الله.

---

(١) هذا من كلام ابن عربي، وقد ذكر مثل هذا الضلال وأعظم منه في الفصوص (ص٣٦٨ وما بعدها، ط. غراب).

(٢) الفقير: نسبة إلى الفقر، وهي مرتبة من مراتب التصوف.
وقد ذكر شهاب الذين السهروردي لها عدة معان عند المتصوفة (عوارف =

وقد صرح ابن عربي وغيره من شيوخهم بأنه هو الذي يجوع ويعطش، ويمرض ويبول، وينكِح ويُنكَح، وأنه موصوف بكل نقص وعيب؛ لأن ذلك هو الكمال عندهم، كما قال في (الفصوص):

(فالعلي بنفسه هو الذي يكون له الكمال، الذي يستقصي به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة)[١].

وقال: (ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص والذم؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق؟

= المعارف ٥/ ٢٣٥ مطبوع بذيل إحياء علوم الدين) فقال: «سئل سهل التستري عن الفقير الصادق؟ فقال: «لا يسأل، ولا يرد ولا يحبس»، وقال ابن الجلاء: «الفقر أن لا يكون لك، فإن كان لك لا يكون لك حتى تؤثر»، وقال يحيى بن معاذ: «حقيقة الفقر: أن لا يستغني إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها» وقال إبراهيم بن أحمد الخواص: «الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين وجلباب الصالحين». اهـ.

وذكر الإمام ابن القيم أن مرتبة الفقر عند المتصوفة هي: مرتبة التجرد وقطع كل علاقة تحُول بين القلب وبين الله تعالى، ثم ذكر أن هذه المنزلة عند الصوفية هي أشرف منازل الطريق عندهم، وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة وسرها ولبها وغايتها. مدارج السالكين (٢/ ٣٦٩، ٤٣٨).

قال شيخ الإسلام: «الفقير - في عرفهم -: عبارة عن السالك إلى الله تعالى كما هو «الصوفي» في عرفهم أيضاً، ثم منهم من يرجِّح مسمى الصوفي على مسمى الفقير؛ لأنه عنده الذي قام بالباطن والظاهر ومنهم من يرجِّح مسمى الفقير؛ لأنه عنده الذي قطع العلائق ولم يشتغل في الظاهر بغير الأمور الواجبة وهذه منازعات لفظية اصطلاحية»اهـ. الفتاوى (١١/ ٦٩).

انظر: الفتاوى (١٠/ ٣٩٠، ١١/ ٢٥، ٢٤/ ٣٣٧، ٢٨/ ٥٠٨، ٣/ ٣٣٦، ١٩/ ٢٦٨).

(١) هذا من كلام ابن عربي، في فصوص الحكم (ص٧٧ ط. محمود غراب).

فهي كلها من أولها إلى آخرها صفات للعبد، كما أن صفات العبد من أولها إلى آخرها صفات الله تعالى)[١].

وهذا المتكلم بمثل هذا الكلام يتناقض فيه، فإنه يقال له: فأنت الكامل في نفسك الذي لا ترى عابداً ولا معبوداً، نعاملك بموجب مذهبك؛ فَتُضرَب وتوجَع، وتُهان وتُصفع، وإذا تظلَّم ممن فعل به ذلك، واشتكى وصاح منه وبكى، قيل له: ما ثَمَّ غيرٌ، ولا عابد ولا معبود، فلم يفعل بك هذا غيرك، بل الضارب هو المضروب والشاتم هو المشتوم، والعابد هو المعبود، فإن قال: تظلم من نفسه واشتكى من نفسه، قيل له أيضاً: فقل عبَدَ نفسَه، فإذا أثبت ظالماً ومظلوماً وهما واحد، قيل له: فأثبت عابداً ومعبوداً وهما واحد.

ثم يقال له: هذا الذي يضحك ويضرب هو نفس الذي يبكي ويصيح؟ وهذا الذي شبع ورَوِيَ هو نفس هذا الذي جاع وعطش؟ فإن اعترف بأنه غيره أثبت المغايرة، وإذا أثبت المغايرة بين هذا وهذا، فبَيْنَ العابد والمعبود أولى وأحرى.

وإن قال: بل هو هو.

عومل معاملة السوفسطائية[٢]؛ فإن هذا القول من أقبح السفسطة.

---

(١) هذا من كلام ابن عربي، وقد ذكر مثل هذا الضلال وأعظم منه في الفصوص (ص٤٥، ط. عفيفي).

(٢) السوفسطائية: هم قوم كانوا قبل دولة الإسلام في القرن الخامس قبل الميلاد، يقولون بنفي الحقائق. وقد قسمهم شيخ الإسلام إلى أربعة أنواع:

الأول: السوفسطائية المتجاهلة اللاأدرية الذين يقولون: لا نعلم هل الحقائق ثابتة أو منتفية، وهل يمكن العلم أو لا يمكن؟!.

الثاني: قول أهل التكذيب والجحود والنفي الذين يجزمون بنفي الحقائق والعلم بها.

الثالث: الذين يجعلون الحقائق تتبع العقائد، فمن اعتقد ثبوت الشيء، كان في =

فيقال: فإذا كان هو هو، فنحن نضربُك ونقتلكَ، والشيء قتل نفسه وأهلك نفسه. والإنسان قد يظلم نفسه بالذنوب، فيقول: ربنا ظلمنا أنفسنا، لكون نفسه أمرته بالسوء، والنفس أمارة بالسوء، لكن جهة أمرها ليست جهة فعلها، بل لا بد من نوع تعدد؛ إما في الذات وإما في الصفات، وكل أحد يعلم بالحس والاضطرار أن هذا الرجل الذي ظلم ذاك ليس هو إياه، وليس هو بمنزلة الرجل الذي ظلم نفسه، وإذا كان هذا في المخلوقين، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقين من هذا لهذا، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً»اهـ[1].

رابعاً: حقيقة الرب عند ابن عربي وشيعته: وجودٌ مجرد لا اسم له ولا صفة:

قال شيخ الإسلام: «وكان كثير من أهل التصوف والسلوك والطالبين لطريق التحقيق والعرفان ـ مع أنهم يظنون أنهم متابعون للرسل، وأنهم

= حقه ثابتاً، ومن نفاه كان في حقه منتفياً، ولا يجعلون للحقائق أمراً هي عليه في أنفسها.

الرابع: قول من يقول: الحقائق موجودة، لكن لا سبيل إلى العلم بها، إما لكون العالم في السيلان، فلا يمكن العلم بحقيقته، وإما لغير ذلك.

واسم السوفسطائية اسم للمهنة التي بها يقدر الإنسان على المغالطة والتمويه والتلبيس بالقول والإيهام، وهو مركَّب في اليونانية من «سوفيا» وهي الحكمة، ومن «أسطس» وهي المموهة، فيكون معناها: الحكمة المموهة.

انظر: الصفدية (١/ ٩٧ ـ ٩٨، ت: ٢، ص١٧٠ ـ ١٧١)، التبصير في الدين (ص١٤٩)، الفَرق بين الفِرق (ص٣٤٦)، الفصل في الملل والنحل (١/ ٩، ١٤)، التعريفات للجرجاني (ص١١٨ باب: س)، تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم (ص٧).

(١) الفتاوى (٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٥٩٤)، الجواب الصحيح (٣/ ٣٢٥).

متقون للبدع المخالفة له ـ يقولون هذا الكلام ويعظمونه، ويعظمون ابن عربي لقوله مثل هذا، ولا يعلمون أن هذا الكلام بناه على أصله الفاسد في الإلحاد الذي يجمع بين التعطيل والاتحاد.

فإن حقيقة الرب عنده وجودٌ مجرد لا اسم له ولا صفة، ولا يمكن أن يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام قائم به ولا علم ولا غير ذلك، ولكن يرى ظاهراً في المخلوقات، متجلياً في المصنوعات وهو عنده غير وجود الموجودات وشبهه، وتارة بظهور الكلي في جزئياته كظهور الجنس في أنواعه، والنوع في الخاصة، كما تظهر الحيوانية في كل حيوان، والإنسانية في كل إنسان، وهذا بناه على غلط أسلافه المنطقيين اليونانيين، حيث ظنوا أن الموجودات العينية يقارنها جواهر عقلية بحسب ما تحمل لها من الكليات، فيظنون أن في الإنسان المعين إنساناً عقلياً، وحيواناً عقلياً، وناطقاً عقلياً، وإحساساً عقلياً، وجسماً عقلياً، وذاك هو الماهية التي يعرض لها الوجود، وتلك الماهية مشتركة بين جميع المعينات.

وهذا الكلام له وَقْعٌ عند من لم يفهمه ويتدبره، فإذا فهم حقيقته تبين له أنه بكلام المجانين أشبه منه بكلام العقلاء، وإنما ذلك لمخالفته للحس والعقل، وإنما أُتي فيه هؤلاء من حيث إنهم تصوروا في أنفسهم معاني كليةً مطلقةً، فظنوا أنها موجودة في الخارج، فضلالهم في هذا عكس ضلالهم في أمر الأنبياء، شاهدت أموراً خارجة عن أنفسهم، فزعم هؤلاء الملاحدة أن تلك كانت في أنفسهم، وهؤلاء الملاحدة شهدوا في أنفسهم أموراً كليةً مطلقةً، فظنوا أنها في الخارج وليست إلا في أنفسهم، فجعلوا ما في أنفسهم في الخارج وليس فيه، وجعلوا ما أخبرت به الأنبياء في أنفسهم، وإنما هو في الخارج؛ فلهذا كانوا مكذبين بالغيب الذي أخبرت به الأنبياء.

ثم جعلوا وجود الرب الخالق للعالمين البائن عن مخلوقاته أجمعين، هو من جنس وجود الإنسانية في الأناسي، والحيوانية في الحيوان، أو ما أشبه ذلك كوجود الوجود في الثبوت عند من يقول المعدوم شيء.

فإنهم أرادوا أن يجعلوه شيئاً موجوداً في المخلوقات مع مغايرته لها، فضربوا له مُثُلاً:

- تارة بالكليات.
- وتارة بالمادة والصورة.
- وتارة بالوجود المغاير للثبوت.
- وإذا مثَّلوه بالمحسوسات مثَّلوه بالشعاع في الزجاج، أو بالهواء في الصوفة.

فضربوا لرب العالمين الأمثال، فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً.

وهم في هذه الأمثال ضالُّون من وجوه:

أحدها: أن ما مثلوا به من المادة مع الصورة، والكليات مع الجزئيات، والوجود مع الثبوت، كل ذلك يرجع عند التحقيق إلى شيء واحد لا شيئين، فجعلوا الواحد اثنين كما جعلوا الاثنين واحداً، في مثل صفات الله يجعلون العلم هو العالم، والعلم: هو المعلوم، والعلم هو القدرة، والعلم هو الإرادة، وأنواع هذه الأمور التي إذا تدبرها العاقل تبين له أن هؤلاء من أجهل الناس بالأمور الإلهية، وأعظم الناس قولاً للباطل، مع ما في نفوسهم ونفوس أتباعهم من الدعاوى الهائلة الطويلة العريضة، كما يدعي إخوانهم القرامطة الباطنية أنهم أئمة معصومون مثل الأنبياء، وهم من أجهل الناس وأضلِّهم وأكفرهم.

الثاني: أنهم على كل تقدير من هذه التقديرات، يجعلون وجوده مشروطاً بوجود غيره، الذي ليس هو مبدعاً له، فإن وجود الكليات في

الخارج مشروط بالجزئيات، ووجود المادة مشروط بالصورة، وكذلك بالعكس، ووجود الأعيان مشروط بثبوتها المستقر في العدم، فيلزمهم على كل تقدير أن يكون واجب الوجود مشروطاً بما ليس هو من مبدعاته.

وما كان وجوده موقوفاً على غيره الذي ليس هو مصنوعاً له، لم يكن واجب الوجود بنفسه. وهذا بَيِّن.

الثالث: أن هذا الكلام يعود عند التحقيق إلى أن يكون وجود الخالق عين وجود المخلوقات، وهم يصرحون بذلك، لكن يدعون المغايرة بين الوجود والثبوت، أو بين الوجود والماهية، وبين الكل والجزء، وهو المغايرة بين المطلق والمعين.

فلهذا كانوا يقولون بالحلول:

تارة يجعلون الخالق حالّاً في المخلوقات. وتارة محلاً لها.

وإذا حُقِّق الأمر عليهم بعدم المغايرة، كان حقيقة قولهم أن الخالق هو نفس المخلوقات، فلا خالق ولا مخلوق، وإنما العالم واجب الوجود بنفسه.

الرابع: أنهم يقرون بما يزعمونه من التوحيد عن التعدد في صفاته الواجبة وأسمائه، وقيام الحوادث به، وعن كونه جسماً أو جوهراً، ثم هم عند التحقيق يجعلونه عين الأجسام الكائنة الفاسدة المستقذرة، ويصفونه بكل نقص.

كما صرحوا بذلك قالوا: ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص وبصفات الذم؟

وقالوا: العليُّ لذاته هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية، والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله

خاصة، فهو متَّصف عندهم بكل صفة مذمومة، كما هو متَّصف بكل صفة محمودة.

وقد بُسِطَ الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع، فإن أمرهم أعظم من أن يبسط هنا. ولكن المقصود: التنبيه على تشابه رؤوس الضلال، حتى إذا فهم المؤمن قول أحدهم أعانه على فهم قول الآخر، واحترز منهم، وبيَّن ضلالهم لكثرة ما أوقعوا في الوجود من الضلالات»اهـ[1].

وقال الشيخ في موضع آخر: «ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت ـ كما يقوله ابن عربي ـ ويزعم أن الأعيان ثابتة في العدم غنية عن الله في أنفسها، ووجود الحق هو وجودها، والخالق مفتقر إلى الأعيان في ظهور وجوده بها، وهي مفتقرة إليه في حصول وجودها الذي هو نفس وجوده.

وقوله مركب من قول من قال: المعدوم شيء، وقول من يقول: وجود الخالق هو وجود المخلوق، ويقول: فالوجود المخلوق هو الوجود الخالق، والوجود الخالق هو الوجود المخلوق، كما هو مبسوط في موضع آخر.

ومنهم من يفرق بين الإطلاق والتعيين ـ كما يقول القونوي ونحوه ـ فيقولون:

إن الواجب هو الوجود المطلق لا بشرط، وهذا لا يوجد مطلقاً إلا في الأذهان لا في الأعيان، فما هو كلي في الأذهان لا يكون في الأعيان إلا معيناً، وإن قيل: إن المطلق جزء من المعين، لزم أن يكون وجود الخالق جزءاً من وجود المخلوق، والجزء لا يبدع الجميع ويخلقه، فلا يكون الخالق موجوداً.

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٩٠ ـ ٥٩٤).

ومنهم من قال: إن الباري هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ـ كما يقول ابن سينا وأتباعه ـ فقوله أشدُّ فساداً؛ فإن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان، فقول هؤلاء بموافقة من هؤلاء الذين يلزمهم التعطيل، شرٌّ من قول الذين يشبهون أهل الحلول والاتحاد.

وآخرون يجعلون الوجود الواجب والوجود الممكن بمنزلة المادة والصورة ـ التي تقولها المتفلسفة ـ أو قريب من ذلك كما يقوله ابن سبعين وأمثاله.

وهؤلاء أقوالهم فيها تناقض وفساد: وهي لا تخرج عن وحدة الوجود والحلول أو الاتحاد، وهم يقولون بالحلول المطلق والوحدة المطلقة والاتحاد المطلق، بخلاف من يقول بالمعيّن؛ كالنصارى والغالية من الشيعة، الذين يقولون بإلهية علي أو الحاكم أو الحلاج أو يونس القنيني[١] أو غير هؤلاء ممن ادُّعِيَتْ فيه الإلهية، فإن هؤلاء قد يقولون بالحلول المقيد الخاص، وأولئك يقولون بالإطلاق والتعميم[٢].

ولهذا يقولون: إن النصارى إنما كان خطؤهم في التخصيص، وكذلك يقولون في المشركين عُبَّاد الأصنام إنما كان خطؤهم لأنهم اقتصروا على بعض المظاهر دون بعض، وهم يجوِّزون الشرك وعبادة الأصنام مطلقاً على وجه الإطلاق والعموم، ولا ريب أن في قول هؤلاء من الكفر والضلال ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى، وهذا المذهب شائع في كثير من المتأخرين، وكان طوائف من الجهمية يقولون به وكلام ابن عربي في (فصوص الحكم) وغيره وكلام ابن سبعين»اهـ[٣].

---

(١) كذا في المطبوع وهو خطأ، والصواب المذكور في جميع تراجمه: القنبي، وقد تقدمت ترجمته (ص٢٧٠).

(٢) سيأتي ذكر نوعي الحلول بالتفصيل (ص٤٣١).

(٣) الفتاوى (٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦).

وقال الشيخ: «فهم بين أن يجعلوه جملة المخلوقات، أو جزءاً من كل مخلوق، أو صفة لكل مخلوق، أو يجعلونه عدماً محضاً لا وجود له إلا في الأذهان لا في الأعيان، ثم هم ـ مع هذا التعطيل الصريح والإفك القبيح ـ يتناقضون ولا يَثْبُتون على مقام، ولهذا رأيت كلامهم كله مضطرباً لا ينضبط لِمَا فيه من التناقض.

ولكن لَمَّا كنت أبينه وأوضحه، أذكرُ القواعد العلمية التي يعرف الناس حقيقة ما يمكن حمل كلامهم عليه، وميزت بين قول هذا وقول هذا، وبينت ما فيه من التناقض حتى اطلع الناس على ما هم فيه من الكفر والهذيان، مع دعواهم التحقيق والعرفان، وتعظيم الناس لهم وهيبتهم لهم، وظنهم أنهم من كبار أولياء الله العارفين وسادات المحققين، وإنما هم بالنسبة إلى هؤلاء كالمنتسبين إلى الأئمة الصادقين»اهـ[١].

وقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.. في التعطيل مضمونها: أن الحق هو الوجود المطلق، والفرق بينه وبين الخلق من جهة التعيين، فإذا عُين كان خلقاً، وإذا أُطلق الوجود كان هو الحق.

هذا وقد علم أن المطلق بشرط إطلاقه لا وجود له في الخارج عن محل العلم، فليس في الخارج إنسان مطلق بشرط الإطلاق، ولا حيوان مطلق بشرط الإطلاق.

فإذا قال: إن الحق تعالى هو الوجود بشرط الإطلاق. فهذا لا وجود له في الخارج، وإنما الذهن يقدر وجوداً مطلقاً، كما يقدّر حيواناً مطلقاً، وإنساناً مطلقاً، وفرساً مطلقاً، وجسماً مطلقاً.

وإن قال: إنه المطلق لا بشرط، فهذا إما أن يقال: إنه لا وجود له في الخارج أيضاً.

---

(١) بغية المرتاد (ص٤٣٢).

وإما أن يقال: هو موجود في الخارج لكن بشرط التعيين؛ إذ ليس في الخارج إلا وجود معين، فعلى أحد التقديرين يكون وجودُ الحق هو الوجودَ المعين المخلوق، وعلى الآخر لا وجود له في الخارج.

وكلامهم كله يدور على هذين القطبين:

إما أن يجعلوا الحق لا وجود له، ولا حقيقة في الخارج أصلاً، وإنما هو أمر مطلق في الأذهان.

وإما أن يجعلوه عينَ وجود المخلوقات، فلا يكون للمخلوقات خالق غيرها أصلاً، ولا يكون ربّ كل شيء ولا مليكه، وهذا حقيقة قول القوم، وإن كان بعضهم لا يشعر بذلك»اهـ[(١)].

- وبيَّن الشيخ في موضع آخر أنهم يقولون: إن الله هو الوجود المطلق.

فقال: «وأما ملاحدة المتصوفة - كابن عربي الطائي وصاحبه الصدر القونوي، وابن سبعين، وابن الفارض، وأمثالهم - فقد يقولون: هو الوجود المطلق لا بشرط الإطلاق، كما قاله القونوي، وجعله هو الوجودَ من حيث هو هو، مع قطع النظر عن كونه واجباً وممكناً، وواحداً وكثيراً، وهذا معنى قول ابن سبعين وأمثاله القائلين بالإحاطة»اهـ[(٢)].

والمتأمل فيما سبق مما نقله شيخ الإسلام عن المتصوفة في اعتقادهم في رب العالمين ﷻ، يجد أنهم في الحقيقة لا يعبدون إلهاً واحداً، وإنما يعبدون آلهةً شتى، فمن أفرد الله تعالى بالعبادة فهو عندهم الضّالُّ الزنديق.

---

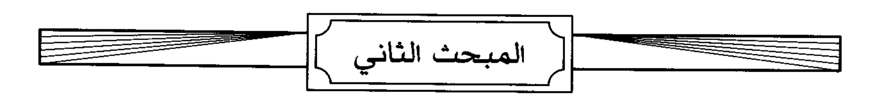
(١) بغية المرتاد (ص٤١٠).

(٢) الدرء (١/ ٢٩٠)، وانظر هذا الكلام - أيضاً بمعناه - في: شرح حديث النزول (ص٩٧).

وفريق آخر منهم يرون أن مجرد اعترافك بوجود الله تعالى، فأنت بذلك تعدُّ مؤمناً كامل الإيمان!! وهذا ما أوقع كثيراً من المتصوفة في أنواع الشرك من دعاء غير الله، والاستغاثة بالأولياء، وصرف أنواع كثيرة من العبادة لغير الله تعالى.

وسيأتي في المبحث القادم تفصيل مذهب القائلين بالحلول والاتحاد الذين هم أكبر فرق الصوفية ولوغاً في الكفر والإلحاد، كما نص شيخ الإسلام على ذلك.





الحلول والاتحاد

تمهيد:

الناظر المستقرئ لما كتبه شيخ الإسلام عن الاتحادية ـ سواء في بيان مذهبهم أو الرد عليهم ـ يلحظ بوضوح سعة علم الشيخ وإحاطته بمذهبهم.

كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد رأيت منهم ومن كتبهم، وسمعت منهم وممن يخبر عنهم من ذلك ما شاء الله، وكلهم على هذه الأحوال ضالُّون عن معبودهم وإلٰههم وخالقهم، ثم رأيت كلام السلف والأئمة كلهم يصفونهم بمثل ذلك، فمنَّ الله علينا باتباع سبيل المؤمنين وآمنا بالله وبرسوله، وكل هؤلاء يجد نفسه مضطربة في هذا الاعتقاد لتناقضه في نفسه، وإنما يسكِّن بعضَ اضطرابه نوعُ تقليد لمُعَظَّم عنده، أو خوفه من مخالفة أصحابه، أو زعمه أن هذا من حكم الوهم والخيال، دون العقل»اهـ[1].

وبيّن شيخ الإسلام أن أهل الحلول والاتحاد ـ عموماً ـ مضطربون بين الإثبات والنفي، ولا يثبت أحدهم على قول، بل إذا غلب على أحدهم رقة القلب والوجد أثبت، وإذا زالت رقة قلبه نفى.

قال الشيخ: «وإنما يفترقون فيما يثبتونه، ويُكرِهون فِطَرَهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض، فيقولون:

---

(١) الفتاوى (٤/ ٦٠).

هو في العالم، وليس هو فيه.

أو: هو العالم ليس إياه.

أو يُغَلِّبون الإثبات، فيقولون: بل هو نفس الوجود.

أو النفي، فيقولون: ليس في العالم، ولا خارجاً عنه، أو يدينون بالإثبات في حال، وبالنفي في حال، إذا غلب على أحدهم عقلُه غلَّب النفي، وهو: أنه ليس في العالم، وإذا غلَب عليه الوجود والعبادة رجَّح الإثبات، وهو: أنه في هذا الوجود، أو هو هو.

لا تجد جهمياً إلا على أحد هذه الوجوه الأربعة، وإن تنوعوا فيما يثبتونه ـ كما ذكرته لك ـ فهم مشتركون في التعطيل»اهـ[١].

أما تفصيل ما ذكره شيخ الإسلام عن القائلين بالحلول والاتحاد، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: تاريخ ظهور مذهبهم:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا القول ـ أعني قول من يقول: إن المعدوم شيء ثابت في نفسه خارج عن علم الله تعالى ـ وإن كان باطلاً ودلالته واضحة، لكنه قد **ابتُدِع في الإسلام من نحو أربعمائة سنة**، وابن عربي وافق أصحابه وهو أحد أصلَيْ مذهبه[٢] الذي في الفصوص»اهـ[٣].

ثانياً: سبب رَدّ الشيخ عليهم:

باستقراء ما كتبه الشيخ عن أهل الحلول والاتحاد، يمكن أن

---

(١) الفتاوى (٤/ ٦٠).

(٢) سيأتي شرح الأصلين اللذين يقوم عليهما مذهب ابن عربي وأصحابه (ص٤٣٢).

(٣) الفتاوى (٢/ ٤٧٠).

نستنتج أن الأسباب التي جعلته رحمه الله يناظرهم ويفرد بعض مصنفاته في الرد عليهم[١]، ما يلي:

أ ـ انتشار مذهبهم وانخداع الناس بهم:

قال الشيخ رحمه الله: «ولولا أن أصحاب هذا القول كثُروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام، ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق، وأفضل أهل الطريق، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين وأكابر مشايخ الدين، لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال وإيضاح هذا الضلال، ولكن يُعلم أن الضلال لا حدَّ له، وأن العقول إذا فسدت لم يبق لضلالها حد معقول.

فسبحان من فرق بين نوع الإنسان، فجعل منه من هو أفضل العالمين، وجعل منه من هو شرٌّ من الشياطين، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب، هو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين، الذين يفسدون الدنيا والدين»اهـ[٢].

ب ـ تظاهرهم بلباس الصوفية وتلبيسهم على الناس:

لأجل انخداع فريق من الناس بأهل الحلول والاتحاد، انقسموا قسمين:

عوامهم الذين يغلب عليهم الزهد والتعبُّد، ولا يعلمون حقيقة ما هم عليه.

---

(١) صنف شيخ الإسلام في الرد على الحلولية والاتحادية كتاب «بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد»، وكتاب: «الرد على فصوص الحكم» وغيرهما من المتفرقات في كتبه.

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٧٨).

وعُرَّافهم العالمون بحقيقة قولهم، وقد يظهرونه وقد يكتمونه.

قال شيخ الإسلام: «وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه، وهم يحسبون أنه حق، **وعامتهم ـ الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله**، وأنه أفضل الخلق وأفضل من جميع الأنبياء والأولياء ـ لا يفهمون حقيقة قولهم، بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين، وهم من خواص أولياء الله، فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك، من جنس الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، والسَّرِي السقطي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله، وأمثال هؤلاء.

وأما عُرّافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم: فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه أن الأولياء أفضل من الأنبياء، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وأن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلك الذي يأتي خاتم الأنبياء[1]، فإنهم متجهمة متفلسفة، يُخرجون أقوال المتفلسفة والجهمية في قالب الكشف»اهـ[2].

ثالثاً: الاتحادية لا يعدُّون أنفسهم عباداً لله:

قال الشيخ: «.. بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سوَّوْا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود؛ إذ جعلوه هو وجودَ المخلوقات، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

---

(١) فصوص الحكم (١/ ٦٢، ط. عفيفي).

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٨٨).

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عبادٌ، لا بمعنى أنهم معبدون ولا بمعنى أنهم عابدون، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق.

كما صرح بذلك طواغيتهم؛ كابن عربي صاحب (الفصوص)، وأمثاله من الملحدين المفترين، كابن سبعين وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون، وهذا ليس بشهود لحقيقةٍ لا كونية ولا دينية، بل هو ضلال وعمًى عن شهود الحقيقة الكونية، حيث جعلوا وجودَ الخالق هو وجودَ المخلوق، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتاً للخالق والمخلوق، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم، وأما المؤمنون بالله ورسوله عوامهم وخواصهم الذين هم أهل الكتاب، كما قال النبي ﷺ: **(إن لله أهلين من الناس)**، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: **(أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)**[(١)].

فهؤلاء يعلمون أن الله ربُّ كل شيء ومليكُه وخالقُه، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوق، ليس هو حالاً فيه ولا متَّحداً به، ولا وجوده وجوده»اهـ[(٢)].

رابعاً: الاتحادية أكفر من اليهود والنصارى:

قال الشيخ: «فهؤلاء الذين يقولون بالحلول والاتحاد المطلق في المخلوقات جميعها من الجهمية، قولهم ذلك شرٌّ من مقالة النصارى في الاتحاد، فإن قولهم من جنس قول المشركين والمعطلين.

وهم شرُّ حالٍ من النصارى، وذلك من وجهين:

---

(١) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب فضائل القرآن، باب أخبار في فضائل القرآن جملة، ١/٧٤٣/٢٠٤٦) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٢/٢٣١، ح٢١٦١).

(٢) الفتاوى (١٠/١٦٢).

أحدهما: أن النصارى قالوا بالاتحاد والحلول في شخص واحد، وهؤلاء قالوا: إنه في العالم كلِّه، حتى ذكروا عن صاحب (الفصوص) أنه قال: النصارى ما كفروا إلا لأنهم خصَّصوا[١]، وقال ذلك التلمساني وغيره من شيوخهم، وقد صرح في غير موضع[٢] بأن المشركين عُبَّاد الأوثان إنما أخطؤوا من حيث عبادة بعض الأشياء دون البعض، والمحقق عندهم من يعبد كل شيء، ويرى كل شيء عابداً للحق ومعبوداً له، وكل من عبد شيئاً غير الله عنده فما عبد إلا الله[٣].

وهذا يجمع كل شرك في العالم، مع قوله: إن الشريك هو الله، كما زعمت النصارى أن الله هو المسيح بن مريم، ولهذا كثيراً ما يصرح شيوخ الجهمية بأن الله في العالم كالزُّبد في اللبن، وهذا قول اليعقوبية في المسيح[٤]، وقد قالوا في مجموع الوجود ما يقوله النصارى في المسيح.

الوجه الثاني: أن النصارى يقولون بأن الاتحاد والحلول فعل من

---

(١) فصوص الحكم (ص٢٣٢، ط. غراب).
(٢) في المطبوع: موضوع، ولعل الصواب ما أثبته.
(٣) يرى ابن عربي وحزبه: أن جميع أهل الملل على حق، حتى المجوس الذين يعبدون النار، والمشركين عُبَّاد الأوثان والأصنام؛ لأنهم لما عبدوها ما عبدوا في الحقيقة إلا الله، فإنه يتجلى في هذه المظاهر، كما قال ابن عربي:
كنار موسى رآها عين حاجته وهي الإله ولكن ليس يدريه
تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، اللهم غفراً.
انظر: فصوص الحكم (٤١٩، ط. محمود غراب).
(٤) اليعقوبية: فرقة من فرق النصارى يقولون: إن الإله اتحد مع الإنسان، يعني أنهما صارا شيئاً واحداً، كاختلاط الماء باللبن، أو كاتحاد الماء يلقى، الخمير فيصيران شيئاً واحداً.
انظر: الفصل لابن حزم (١/ ٥١)، الملل والنحل (١/ ٢٢٤)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٨٤)

أفعال الرب، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت[١] مرة وانفصل عنه أخرى.

وهؤلاء عندهم: ما يُتَصور أن يتميز وجود الحق عن المخلوقات، ولا يباينها ولا ينفصل عنها.

وهؤلاء الاتحادية هم أكفر وأضل ممن يقول: إن الله تعالى بذاته في كل مكان، ونحو ذلك من المقالات الشنيعة المتقدمة، ولكن هم مشاركون لهم في أصل المقالة، وزائدون عليهم في الضلالة»اهـ[٢].

خامساً: خطرهم على الأمة:

قال الشيخ في معرض رده على الاتحادية: «وهؤلاء قد عُرِف مقصودهم كما عُرف دين اليهود والنصارى والرافضة، ولهم في ذلك كتب مصنَّفة وأشعار مؤلفة وكلام يفسر بعضه بعضاً، وقد علم مقصودهم بالضرورة، فلا ينازع في ذلك إلا جاهل لا يلتفت إليه، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها، وخيف عليه أن يحسن الظن بها أو أن يضلَّ.

فإن ضررها على المسلمين أعظم من ضرر السموم التي يأكلونها ولا يعرفون أنها سموم.

وأعظم من ضرر السُّرَّاق والخَوَنة الذين لا يعرفون أنهم سُراق وخَونة.

---

(١) اللاهوت: لفظٌ مشتقٌ من الإله، ويعني به النصارى العلم الذي يبحث في وجود الله وذاته وصفاته، وهو الجزء الإلهي من المسيح.
والناسوت: لفظٌ مشتقٌ من الناس، ويعني به النصارى الجزء البشري من المسيح.
فالنصارى يزعمون أن اللاهوت حلّ في الناسوت كحلول الماء في الإناء.
انظر: الفتاوى (٢/ ١٧١)، الملل والنحل (١/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠).

(٢) بيان التلبيس (٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الجواب الصحيح (٢/ ١٧٧، ٤/ ٣٧٧، ٤٩٦).

فإن هؤلاء غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله، وهذه مصيبة في دنياه قد تكون سبباً لرحمته في الآخرة.

وأما هؤلاء فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء الله وأوليائه، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله، وهم في الباطن من المحاربين لله ورسوله، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين في قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمناً ولياً لله، فيصير منافقاً عدواً لله.

ولقد ضربت لهم مرة مَثلاً بقوم أخذوا طائفة من الحُجَّاج ليحجُّوا بهم، فذهبوا بهم إلى قبرص[1] لِيُنصِّروهم، فقال لي بعض من كان قد انكشف له ضلالُهم من أتباعهم: لو كانوا يذهبون بنا إلى قبرص لكانوا يجعلوننا نصارى، وهؤلاء كانوا يجعلوننا شراً من النصارى، والأمر كما قاله هذا القائل.

وقد رأيت وسمعت عمن ظن هؤلاء من أولياء الله وأن كلامهم كلام العارفين المحققين مَنْ هو مِنْ أهل الخير والدين ما لا أحصيهم، فمنهم من دخل في إلحادهم وفهمه وصار منهم، ومنهم من كان يؤمن بما لا يعلم ويعظم ما لا يفهم ويصدق بالمجهولات، وهؤلاء هم أصلح الطوائف الضالين، وهم بمنزلة من يعظم أعداء الله ورسوله ولا يعلم أنهم أعداء الله ورسوله، ويوالي المشركين وأهل الكتاب، ظاناً أنهم من أهل الإيمان وأولي الألباب.

وقد دخل بسبب هؤلاء الجُهَّال المعظمين لهم من الشر على المسلمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين، وهذا الجواب لم يتسع لأكثر

---

(١) قبرص: جزيرة في البحر، بين دولتي اليونان وتركيا، يسكنها النصارى قديماً، أما اليوم فالجزء التابع لتركيا يسكن فيه مسلمون أتراك.
انظر: معجم البلدان (١/ ٤٦٢).

من هذا الخطاب، والله أعلم بالصواب»اهـ[١].

وقال الشيخ في موضع آخر: «.. ولهذا لمَّا وقعت محنة هؤلاء بمصر والشام، وأظهروا مذهب الجهمية الذي هو شعارهم في الظاهر، وكتموا مذهب الاتحادية الذي هو حقيقةُ تجهُّمهم، وأضلوا بعض ولاة الأمور حتى يرفعوا إخوانهم ويهينوا من خالفهم.

وصار كل من كان إلى الإسلام أقربَ أقصوْه وعزلوه وخفضوه، وكل من كان عن الإسلام أبعدَ رفعوه، حتى رفعوا شخصاً كان نصرانياً وصيّروه بعد الإسلام سبعينياً كان يقال له: ابن سعيد الدولة، وهو ابن شقي دولته.

وكان مما أنشده:

تشير إليّ في كل البرايا وتخبر بالذي أختار عني
وذلك أنني أنا كل شيء وكل مصادر الأشياء عني[٢]

فرفعوا درجته، حتى جعلوا لا يصل إلى أحد رِزق ولا ولاية إلا بخطه، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

حتى أزال الله كلمتهم عن المسلمين، وأذلّهم بعد العز، وأهلك من أهلك منهم، وكشف أسرارهم، وهتك أستارهم»اهـ[٣].

سادساً: معنى الحلول[٤] والاتحاد[٥]:

الحلول والاتحاد له معنيان:

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٧٠). (٢) الأبيات لم أقف عليها.

(٣) الصفدية (١/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٤) معنى الحلول في اللغة: يقال: حلّ الرجل في المكان: إذا نزل فيه، أو دخله وسكنه، فهو حالٌّ فيه ويحلُّ حِلًّا وحلولاً.
انظر مادة: (حلّ) في: تاج العروس (١٤/ ١٥٨)، القاموس (ص١٢٧٤)، لسان العرب (١١/ ١٦٣).

(٥) معنى الاتحاد في اللغة: امتزاج الشيء بالشيء واختلاطه به، حتى لا تكاد =

أحدهما: شرعي، دلّ على معناه الكتاب والسنة.

والآخر: غير شرعي، بل هو كفر وضلال، وهو الذي يريده أهل الوحدة من الاتحادية والحلولية.

وسأوضح فيما يلي المراد بكل واحد من هذين القسمين تفصيلاً:

القسم الأول: الحلول الشرعي:

هو حلول الهدى والإيمان في قلوب المؤمنين، لا حلول ذات الخالق جل وتقدّس عن ذلك، وقد بيَّن هذا المعنى شيخ الإسلام بقوله في معرض رده على الحلولية:

«وأما المؤمنون، فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحل في قلوبهم، وهو المَثَلُ الأعلى والمثال العلمي»اهـ[1].

وقال الشيخ ـ في موضع آخر ـ **في بيان معنى الحلول الشرعي**: «فصلٌ فيما عليه أهل العلم والإيمان من الأولين والآخرين مما يشبه الاتحاد والحلول الباطل وهو حق ـ وإن سُمّي حلولاً أو اتحاداً ـ وهو ما عليه أهل الإسلام وأهل السنة والجماعة وأهل المعرفة واليقين من جميع الطوائف بدلالة الكتاب والسنة.

أما الحلول: فلا ريب أن من علم شيئاً، فلا بد أن يبقى في قلبه منه أثر ونعت، وليس حاله بعد العلم به كحاله قبل العلم به، حتى يكون العلم نسبة محضة بمنزلة العلو والسفول، فإن المستعلي إذا نزل زال

= تفرق أحدهما عن الآخر، كاتحاد اللبن بالماء، فالاتحاد يصيّر الذاتين ذاتاً واحدة.

انظر: التعريفات للجرجاني (ص٢٢)، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص٣١).

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٣٧٢).

علوه، والسافل إذا اعتلى زال سفوله، والعلم لا يزول، بل يبقى أثره بكل حال، فإذا كان مع العلم به يحبه أو يرجوه أو يخافه، كان لهذه الأحوال أثر ونعت آخر وراء العلم والشعور، وإن كانا قد يتلازمان فإذا ذكره بلسانه، كانت هذه الآثار أعظمَ، وإذ خضع له بسائر جوارحه، كان ذلك أعظمَ وأعظمَ.

وهذه المعاني هي في الأصل مشتركة في كل مُدرِك ومُدرَك، ومحِب ومحبوب، وذاكر ومذكور، وسواء كان على وجه العبادة؛ كعبادة الله وحده لا شريك له، أو عبادة الأنداد من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، أو على غير وجه العبادة؛ كمحب الإخوان والولدان والنسوان والأوطان وغير ذلك من الأكوان، فالمؤمن الذي آمن بالله بقلبه وجوارحه إيمانُه يجمع بين علم قلبه وحال قلبه ـ تصديق القلب وخضوع القلب ـ ويجمع قول لسانه وعمل جوارحه، وإن كان أصل الإيمان هو ما في القلب أو ما في القلب واللسان، فلا بد أن يكون في قلبه التصديق بالله والإسلام له هذا قول قلبه، وهذا عمل قلبه وهو الإقرار بالله.

والعلم قبل العمل، والإدراك قبل الحركة، والتصديق قبل الإسلام، والمعرفة قبل المحبة، وإن كانا يتلازمان، لكن علم القلب موجب لعمله ما لم يوجد معارض راجح، وعمله يستلزم تصديقه؛ إذ لا تكون حركة إرادية ولا محبة إلا عن شعور، لكن قد تكون الحركة والمحبة فيها فساد إذا لم يكن الشعور والإدراك صحيحاً، قال عمر بن عبد العزيز[1]: «من

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، الخليفة الراشد، ولد بالمدينة سنة ٦١هـ، وتولى إمارتها للوليد بن عبد الملك، وتولى الخلافة سنة ٩٩هـ، فرفع المظالم وأحسن إلى الناس، توفي سنة ١٠١هـ.

انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٩٢ ـ ١٩٦)، الأعلام (٥/ ٥٠).

عَبَد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[١].

فأما العمل الصالح بالباطن والظاهر: فلا يكون إلا عن علم، ولهذا أمر الله ورسوله بعبادة الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ونحو ذلك، فإن هذه الأسماء تنتظم العلم والعمل جميعاً: علم القلب وحاله، وإن دخل في ذلك قول اللسان وعمل الجوارح أيضاً، فإن وجود الفروع الصحيحة مستلزم لوجود الأصول، وهذا ظاهر ليس الغرض هنا بسطه، وإنما الغرض (فصل)[٢] وهو أن المؤمن لا بد أن يقوم بقلبه من معرفة الله والمحبة له ما يوجب أن يكون للمعروف المحبوب في قلبه من الآثار ما يشبه الحلول من بعض الوجوه، لا أنه حلول ذات المعروف المحبوب، لكن هو الإيمان به ومعرفة أسمائه وصفاته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية [النور: ٣٥]، قال أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه[٣]: مثل نوره في قلب المؤمن[٤]، فهذه هي الأنوار التي تحصل في قلوب المؤمنين.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]: إنه الكفر بذلك[٥]، فإن من كفر بالإقرار الذي هو التصديق

---

(١) الأثر: ذكره ابن كثير في ترجمته لعمر بن عبد العزيز، البداية والنهاية (٦/ ٣٤١، فصل: وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار القسم الثاني).

(٢) كذا سياق الكلام في المطبوع.

(٣) هو أُبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية الأنصاري الخزرجي، أبو المنذر، الصحابي الجليل رضي الله عنه سيد القراء، اختلف في سنة وفاته اختلافاً كثيراً؛ فقيل سنة ١٩هـ، وقيل: ٣٢هـ، وقيل غير ذلك.

انظر: الاستيعاب (١/ ٢٧ ـ ٣٠)، أسد الغابة (١/ ٤٩ ـ ٥٠)، الإصابة (١/ ٣١ ـ ٣٢)، تهذيب التهذيب (١/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٧)، البغوي (١/ ٤٥).

(٥) قال الإمام البغوي رحمه الله في تفسيره (١/ ١٨) عند كلامه عن معنى هذه الآية: =

بالله وملائكته وكتبه ورسله والإسلام له ـ المتضمن للاعتقاد والانقياد لإيجاب الواجبات وتحريم المحرمات وإباحة المباحات ـ فهو كافر؛ إذ المقصود لنا من إنزال الكتب وإرسال الرسل هو حصول الإيمان لنا، فمن كفر بهذا فهو كافر بذاك، وهذا قد يسمَّى المثلَ والمثالَ؛ لأنه قد يقال: إن العلم مثال المعلوم في العالم، وكذلك الحب يكون فيه تمثيل المحبوب في المحب.

ثم من الناس من يدَّعي أن كل علم وكل حب ففيه هذا المثال، كما يقوله قوم من المتفلسفة، ومنهم من ينكر حصول شيء من هذا المثال في شيء من العلم والحب.

والتحقيق: أنه قد يحصل تمثل وتخيل لبعض العالمين والمحبين حتى يتخيل صورة المحبوب، وقد لا يحصل تخيل حسي، وليس هذا المثل من جنس الحقيقة أصلاً، وإنما لَمَّا كان العلم مطابقاً للمعلوم وموافقاً له غير مخالف له، كان بين المُطابِق والمُطابَق والموافِق والموافَق نوع تناسب وتشابه ونوعٌ ما من أنواع التمثيل، فإن المثل يضرب للشيء لمشاركته إياه من بعض الوجوه، وهنا قَطْعاً اشتراكٌ ما واشتباهٌ ما.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] أنه هذا.

وفي حديث مأثور: **(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب**

= «قال ابن عباس ومجاهد في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: أي: بالله الذي يجب الإيمان به، وقال الكلبي: ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بكلمة التوحيد، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وقال مقاتل: بما أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وقيل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: يستحل الحرام ويحرم الحلال فقد حبط عمله، ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال ابن عباس ﷺ: خسر الثواب»اهـ.

عبدي المؤمن النقي التقي الوادع اللين)[١]، ويقال: القلب بيت الرب، وهذا هو نصيب العباد من ربهم وحظهم من الإيمان به، كما جاء عن بعض السلف أنه قال: إذا أحب أحدكم أن يعلم كيف منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله من قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه، وروي مرفوعاً[٢]...

ولهذا قال أبناء يعقوب: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإن ألوهية الله متفاوتة في قلوبهم على درجات عظيمة تزيد وتنقص، ويتفاوتون فيها تفاوتاً لا ينضبط طرفاه، حتى ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حق شخصين: **(هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا)**[٣] فصار واحد من الآدميين خيراً من ملء الأرض من بني جنسه، وهذا تباين عظيم لا يحصل مثله في سائر الحيوان.

---

(١) الحديث: أورده الغزالي في الإحياء (٥/ ٢١٢) وقال العراقي: لم أجد له أصلاً. اهـ.

(٢) الأثر: أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب الدعاء، ١/ ٦٧١/ ١٨٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٣٩٠)، والطبراني في كتاب الدعاء (ص٥٢٨)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٧٧): فيه عمر بن عبد الله مولى غفرة وقد وثقه غير واحد وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٥/ ١٩٥٨/ ٤٨٠٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: (ما تقولون في هذا)؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يُشفَّع، وإن قال أن يُستمع، قال: ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: (ما تقولون في هذا)؟ قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن لا يَنكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع. فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا). ورواه وابن ماجه (كتاب، باب فضل الفقراء، ٢/ ١٣٧٩/ ٤١٢٢)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٦٩).

وإلى هذا المعنى أشار من قال: ما سبقكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه[(١)]، وهو اليقين والإيمان، ومنه قوله ﷺ: **(وُزِنتُ بالأمة فرجحت، ثم وُزن أبو بكر بالأمة فرجح، ثم وُزن عمر بالأمة فرجح، ثم رفع الميزان)**[(٢)] وقال ﷺ فيما رواه عنه الصديق رضي الله عنه: **(أيها الناس، سلوا الله اليقين والعافية، فلم يُعْطَ أحد بعد اليقين خيراً من العافية)**[(٣)]، رواه الترمذي والنسائي في (اليوم والليلة)، وابن ماجه.

وقال رقبة بن مصقلة[(٤)] للشعبي: رزقك الله اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه ولا يعتمد في الدين إلا عليه.

---

(١) وقفت على هذا الأثر من قول بكر بن عبد الله المزني، كما أورده الشيخ سليمان بن عبد الله في شرحه على كتاب التوحيد (ص٦٨).

(٢) الحديث: عن أبي بكرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنتَ أنت وأبو بكر، فرجحت أنت بأبي بكر، ووُزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر، ووُزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان، فرأينا الكراهية في وجه رسول الله ﷺ. رواه أبو داود (كتاب السنة، باب في الخلفاء، ٤/٢٠٨/ ٤٦٣٤)، والترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب الرؤيا عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو، ٤/ ٥٤٠/ ٢٢٨٧)، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (كتاب معرفة الصحابة، باب أبي بكر الصديق، ٣/ ٧٤/ ٤٤٣٧) من حديث: أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه الترمذي وقال: حديث غريب (كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ، ٥/ ٥٥٧/ ٣٥٥٨)، وابن ماجه (كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، ٢/ ١٢٦٥/ ٣٨٤٩) من حديث: معاذ بن رفاعة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٨٠/ ٢٨٢١).

(٤) هو رقبة بن مصقلة، أبو عبد الله العبدي الكوفي، الإمام الثبت العالم، قال أحمد بن حنبل: ثقة مأمون. =

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن...[1] قال: قال موسى: **(يا رب أين أجدك؟ قال: يا موسى، عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، أقترب إليها كل يوم شبراً، ولولا ذلك لاحترقت قلوبهم)**[2].

وقد يتوسع في العبارة عن هذا المعنى حتى يقال: ما في قلبي إلا الله، ما عندي إلا الله، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله ﷻ: **(أما علمت أن عبدي فلاناً مرض؟ فلو عدْتَه لوجدتني عنده)**[3]. ويقال:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره[4]

ويقال:

= انظر: سير الأعلام (٦/ ١٥٦)، الكاشف للذهبي (١/ ٣٩٨).

(١) بياض في أصل النسخة المطبوعة، وفي الزهد للإمام أحمد: عن مالك بن دينار.

(٢) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد (١/ ١٣٠، عن عمران القصير، ت: محمد جلال شرف، ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٦، بإسناده إلى مالك بن دينار)، وأورده الغزالي في الإحياء (كتاب الفقر والزهد ٤/ ٢٩٣ عن إسماعيل عليه السلام، ولم يحكم عليه العراقي بشيء)، وأورده أيضاً الشيخ عبد القادر الجيلاني في الغنية (٢/ ١٦٢، ط. دار الألباب، دمشق).

(٣) الحديث: رواه مسلم (كتاب البرّ والصلة والآداب، باب فضل عيادة المرضى، ٤/ ١٩٩٠/ ٢٥٦٩)، البخاري في الأدب المفرد (باب عيادة المرضى ١/ ١٤٨/ ٥٢٦)، ابن حبان (كتاب الإيمان، باب ما جاء في الصفات، ١/ ٥٠٣/ ٢٦٩)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البيت نسبه القشيري إلى الجنيد، قيل للجنيد: قل: لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره!! وقال:

حاضر في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

فهو مولاي ومعتمدي ... ونصيبي منه أوفره

انظر: الرسالة القشيرية (٢/ ٥٦٩، باب: أحوالهم عند الخروج من الدنيا).

مثالك في عيني وذكراك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟[(١)]

وهذا القدر يَقْوَى قوةً عظيمة حتى يُعبَّر عنه بالتجلِّي والكشف ونحو ذلك باتفاق العقلاء، ويحصل معه القرب منه، كما قال النبي ﷺ: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**)[(٢)]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (**من تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً**)[(٣)] . . .

وأما ما يشبه الاتحاد، فإن الذاتين المتميزتين لا تتحد عين إحداهما بعين الأخرى، ولا عين صفتها بعين صفتها إلا إذا استحالتا بعد الاتحاد إلى ذات ثالثة، كاتحاد الماء واللبن، فإنهما بعد الاتحاد شيء ثالث، وليس ماءً محضاً ولا لبناً محضاً، وأما اتحادهما وبقاؤهما بعد الاتحاد على ما كانا عليه فمحال.

ومن هنا يعلم أن الله لا يمكن أن يتحد بخلقه فاستحالته محال، وإنما تتحد الأسباب والأحكام في العين، وتتحد الأسماء والصفات في النوع، مثل المتحابَّين المتخالَّين الَّذَين صار أحدهما يحب عين ما يحبه الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويتنعَّم بما يتنعَّم به، ويتألم بما يتألم به، وهذا فيه مراتبُ ودرجاتٌ لا تنضبط، فأسماؤهما وصفاتهما صارتا من نوع واحد.

وعين الأحكام والأسباب المتعلقة بهما التي هي ـ مثلاً ـ المحبوب

---

(١) البيت: لم أقف على قائله.

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٠/ ٤٨٢)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود، ١/ ٢٣١/ ٨٧٥)، والنسائي (كتاب التطبيق، باب أقرب ما يكون العبد من الله، ٢/ ٢٢٦/ ١١٣٧)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، ٦/ ٢٦٩٤/ ٦٩٧٠)، ومسلم (كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٢/ ٢٦٧٥)، كلاهما من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

والمكروه، هو واحد بالعين، كالرسول الذي يحبه كل المؤمنين، فهم متحدون في محبته، بمعنى أن محبوبهم واحد، ومحبة هذا من نوع محبته هذا، لا أنها عينها.

فهذا في اتحاد الناس بعضهم ببعض وهي الأخوة والخُلَّة الإيمانية التي قال فيها النبي ﷺ: (**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**)[1]. أخرجاه في الصحيحين، فجعل المؤمن مع المؤمن بمنزلة العضو مع العضو اللَّذين تجمعهما نفس واحدة، ولهذا سمى الله الأخ المؤمن نفساً لأخيه في غير موضع من الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقال: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

فالعبد المؤمن إذا أناب إلى ربه وعبَدَه ووافقه حتى صار يحب ما يحب ربُّه، ويكره ما يكره ربُّه، ويأمر بما يأمر به ربُّه، وينهى عما ينهى عنه ربّه، ويرضى بما يرضى ربُّه، ويغضب لما يغضب له ربُّه، ويعطي من أعطاه ربُّه، ويمنع مَن منَع ربُّه، فهو العبد الذي قال فيه النبي ﷺ فيما

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٥/ ٢٢٣٨/ ٥٦٦٥)، ومسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٦)، من حديث: النعمان بن بشير رضي الله عنه.

رواه أبو داود من حديث القاسم[(١)] عن أبي أمامة[(٢)]: **(من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان)**[(٣)]، وصار هذا العبد دينه كله لله، وأتى بما خُلِقَ له من العبادة، فقد اتحدت أحكام هذه الصفات التي له وأسبابها بأحكام صفات الرب وأسبابها، وهم في ذلك على درجات، فإن كان نبياً كان له من الموافقة لله ما ليس لغيره، والمرسلون فوق ذلك وأولو العزم أعظم، ونبينا محمد ﷺ له الوسيلة العظمى في كل مقام، فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ سواء كان واجباً أو مستحباً.

وفي مثل هذا جاءت نصوص الكتاب والسنة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

---

(١) هو القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي، أبو عبد الرحمن، صاحب أبي أمامة رضي الله عنه، من فقهاء أهل الشام، يرسل كثيراً عن عائشة وابن مسعود وغيرهما، قال الذهبي: قيل: لم يسمع من صحابي سوى أبي أمامة.اهـ، توفي سنة ١١٢هـ.
انظر: الكاشف للذهبي (٢/ ٣٩١)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ١١٣)، تهذيب التهذيب (٨/ ٢٩٨).

(٢) هو صُدَيّ بن عجلان بن وهب، أبو أمامة الباهلي، الصحابي الجليل رضي الله عنه، سكن بغداد، ومات بها سنة ٨٦هـ.
انظر: سير الأعلام (٣/ ٣٦٣)، الاستيعاب (٨/ ٧٣٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٤١١).

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ٤/ ٢٢٠/ ٤٦٨١) من حديث: أبي أمامة رضي الله عنه، والترمذي، وقال: حديث حسن (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ بابٌ، ٤/ ٦٧٠/ ٢٥٢١) من حديث: سهل بن معاذ الجهني رضي الله عنه، وقال الألباني: حديث صحيح (صحيح الجامع الصغير ٥/ ٢٢٩، ح٥٨٤١).

وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

ومن هذا الباب قول المسيح ـ إن ثبت هذا اللفظ عنه ـ: **أنا وأبي واحد، من رآني فقد رأى أبي**، ونحو ذلك فإنه مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ونحو ذلك من اللفظ الذي فيه تشابه.

فصل: وجاء في (أولياء الله) الذين هم المتقون نوع من هذا:

فروى البخاري في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **(يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه)**[1]:

فأول ما في الحديث قوله: (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة) فجعل معاداة عبده الوليِّ معاداةً له، فعين عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما شيئين متميزين، ولكن ليس الله هو عين عبده، ولا جهة عداوة عبده عين جهة عداوة نفسه، وإنما اتفقا في النوع.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب التواضع، ٥/ ٢٣٨٤/ ٦١٣٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال: (فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله)، وفي رواية في غير الصحيح: **(فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي)**(١)، فقوله: **(بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي)** بيَّن معنى قوله: **(كنت سمعَه وبصرَه ويدَه ورجلَه)**، لا أنه يكون نفسَ الحدقة والشحمة والعصب والقدم، وإنما يبقى هو المقصود بهذه الأعضاء والقُوَى، وهو بمنزلتها في ذلك، فإن العبد بحسب أعضائه وقواه يكون إدراكه وحركته، فإذا كان إدراكه وحركته بالحق؛ ليس بمعنى خلق الإدراك والحركة، فإن هذا قدر مشترك فيمن يحبه وفيمن لا يحبه، وإنما للمحبوب الحق من الحق من هذه الإعانة بقدر ما له من المعية والربوبية والإلهية، فإن كل واحدة من هذه الأمور عامة وخاصة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **(يقول الله تعالى: عبدي! مرضتُ فلم تعدني، فيقول: رب! كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض؟ فلو عدته لوجدتني عنده، عبدي! جعتُ فلم تطعمني فيقول: رب! كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع؟ فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي)**(٢).

ففي هذا الحديث: ذكر المعنيين الحقَّين ونفي المعنيين الباطلين وفسرهما:

فقوله: (جعت ومرضت) لفظ اتحاد يثبت الحق.

---

(١) أورد هذه الرواية الإمام ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٠، تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨])، وابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٤٤)، والقنوجي في أبجد العلوم (١/ ٣٧٢)، وكلهم لم ينسبوها إلى شيء من كتب السنة، ولم أقف على من أخرجها.

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٢٠).

وقوله: (لوجدتني عنده) و**(وجدت ذلك عندي)** نفي للاتحاد العيني بنفي الباطل، وإثبات لتمييز الرب عن العبد.

وقوله: (لوجدتني عنده) لفظ ظرف، وبكلٍّ يثبت المعنى الحق من الحلول الحق الذي هو بالإيمان، لا بالذات، ويفسر قوله: **(مرضت فلم تعدني)**.

فلو كان الربُّ عينَ المريض والجائع لكان إذا عاده وإذا أطعمه يكون قد وجده إياه، وقد وجده قد أكله.

وفي قوله في المريض: **(وجدتني عنده)**، وفي الجائع: **(لوجدت ذلك عندي)** فُرْقان حسنٌ:

فإن المريض الذي تستحب عيادته ويجد الله عنده هو المؤمن بربه الموافق لإلهه الذي هو وليّه.

وأما الطاعم، فقد يكون فيه عموم لكل جائع يُستَحبُّ إطعامه، فإن الله يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فمن تصدق بصدقة واجبة أو مستحبة، فقد أقرض الله سبحانه بما أعطاه لعبده، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(من تصدق بعِدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يأخذها بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله حتى تكون مثلَ الجبل العظيم)**(١).

وقال: **(إن الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل)**(٢).

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ٢/ ٥١١/ ١٣٤٤)، ومسلم (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ٢/ ٧٠٢/ ١٠١٤)، كلاهما من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٨١) عند كلامه عن وهب بن منبه.

لكن الأشبه: أن هذا العبد المذكور في الجوع هو المذكور في المرض، وهو العبد الوليُّ الذي فيه نوع اتحاد، وإن كان الله يثيب على طعام الفاسق والذمي، ونظير القرضِ النصرُ في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]»اهـ[١].

ـ وفي بيان معنى الحلول والاتحاد الشرعي قال الشيخ في معرض كلامه عن الحلول والاتحاد عند الاتحادية:

«بل أبلغ من ذلك، يطلق لفظ الحلول والاتحاد ويراد به معنى صحيحاً، كما يقال: فلان وفلان بينهما اتحاد، إذا كانا متفقيْن فيما يحبان ويبغضان، ويواليان ويعاديان، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال: هما متحدان، وبينهما اتحاد، ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر، كاتحاد النار والحديد، والماء واللبن، أو النفس والبدن، وكذلك لفظ الحلول، والسكنى، والتخلل، وغير ذلك، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمِّيَ الخليل خليلاً[٢]

والمتخلل مسلك الروح منه هو محبته له وشعوره به ونحو ذلك، لا نفس ذاته، وكذلك قول الآخر:

ساكن في القلب يعمره لست أنساه فأذكره[٣]

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٨١ ـ ٣٩٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الجواب الصحيح (٣/ ٣٣٣).

(٢) البيت لبشار بن برد (العصر العباسي) وهو من بحر الخفيف، والبيت الذي بعده:

فإذَا ما نَطقْتُ كنْتَ حديثي وإذا مَا سَكَتُّ كُنْتَ الغلِيلَا

انظر: ديوان بشار بن برد (ص٥٧٨).

(٣) تقدم الكلام على هذا البيت (ص٤٢٠).

والساكن في القلب هو مثاله العلمي، ومحبته ومعرفته، فتسكن في القلب معرفته ومحبته لا عين ذاته، وكذلك قول الآخر:

إذا سكن الغدير على صفاء ... وجُنِّب أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلِّي ... يُرى في صفوها الله العظيم(١)

وقد يقال: فلان ما في قلبه إلا الله، وما عنده إلا الله، يراد بذلك: إلا ذكره ومعرفته ومحبته وخشيته وطاعته وما يشبه ذلك، أي ليس في قلبه ما في قلب غيره من المخلوقين، بل ما في قلبه إلا الله وحده، ويقال: فلان ما عنده إلا فلان، إذا كان يلهج بذكره ويفضله على غيره.

وهذا باب واسع مع علم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تحلَّ في هذا، فضلاً عن أن تتَّحدَ به، وهو كما يقال عن المرآة إذا لم تقابل إلا الشمس: ما فيها إلا الشمس، أي لم يظهر فيها إلا الشمس.

وأيضاً؛ فلفظ الحلول يراد به حلولُ ذات الشيء تارةً، وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي تارةً، كما تقدم ذكره، وعندهم في النبوات أن الله حلَّ في غير المسيح من الصالحين، وليس المراد به أن ذات الرب حلَّت فيه، بل يقال: فلان ساكن في قلبي، وحالٌّ في قلبي، وهو في سرّي، وسويداء قلبي، ونحو ذلك، وإنما حلّ فيه مثاله العلمي. وإذا كان كذلك، فمن المعلوم أن المكان إذا خلا ممن يعرف الله ويعبده ويذكره ظهر فيه ذكره والإيمان به، وحلّ فيه الإيمان بالله وعبادته وذكره، وهو بيت الله ﷻ، فيقال: إن الله فيه وهو حلّ فيه.

---

(١) الأبيات لم أعثر على قائلها، وقد أوردها الإمام ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٠) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ولم يُسَمِّ قائلها، وإنما قال: قال بعض العارفين.

كما يقال: إن الله في قلوب العارفين وحالٌّ فيهم، والمراد به حلول معرفته والإيمان به ومحبته ونحو ذلك، وقد تقدم شواهد ذلك.

فإذا كان الرب في قلوب عباده المؤمنين ـ أي نوره ومعرفته ـ وعُبِّرَ عن هذا بأنه حالٌّ فيهم، وهم حالُّون في المسجد، قيل: إن الله في المسجد، وحالٌّ فيه بهذا المعنى، كما يقال: الله في قلب فلان، وفلان ما عنده إلا الله، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **(أما علمت أن عبدي فلاناً مرض، فلو عدته لوجدتني عنده)**[١].

ومما يزيد ذلك إيضاحاً: ما يراه النائم من بعض الأشخاص في منامه، فيخاطبه ويأمره وينهاه ويخبره بأمور كثيرة، وهو يقول: رأيت فلاناً في منامي، فقال لي كذا، وقلت له كذا، وفعل كذا، وفعلت كذا، ويذكر أنواعاً من الأقوال والأفعال، وقد يكون فيها علوم وحِكم وآداب يُنتفع بها غاية المنفعة، وقد يكون ذلك الشخص الذي رأى في المنام حياً، وهو لا يشعر بأن ذلك رآه في منامه، فضلاً عن أن يكون شاعِراً بأنه قال أو فعل، وقد يقصُّ الرائي عليه رؤياه، ويقول له الرائي: يا سيدي رأيتك في المنام فقلت لي كذا، وأمرتني بكذا، ونهيتني عن كذا، والمرئيُّ لا يعرف ذلك، ولا يشعر به؛ لأن المرئيَّ الذي حلَّ في قلب الرائي هو المثال العلمي المطابق للعيني»اهـ[٢].

القسم الثاني: الحلول البدعي:

وهو ما يعتقده الاتحادية والحلولية، وهو المقصود عند إطلاق لفظ (الحلول)، سواء في كلام شيخ الإسلام أو في كلام غيره، وهم يقولون: إن الخالق يتحد بالمخلوق ويحلّ فيه، وقد تقدم في النصوص السابقة التي سقناها أثناء الكلام على الحلول الشرعي.

---

(١) تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٠).

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٦).

سابعاً: الحلولية يفرون من لفظ (الحلول)؛ لأنه يقتضي حالًّا ومحلًّا، ويفرون من لفظ الاتحاد؛ لأنه يقتضي وجود شيئين اتحد أحدهما بالآخر:

قال الشيخ: «وهؤلاء يفرون من لفظ (الحلول)؛ لأنه يقتضي حالًّا ومحلًّا، ومن لفظ (الاتحاد)؛ لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر، وعندهم الوجود واحد، ويقولون: النصارى إنما كفروا لَمَّا خصَّصوا المسيح بأنه هو الله، ولو عمَّموا لَمَا كفروا»اهـ[1].

ثامناً: الحلول البدعي نوعان:

ينقسم الحلولية قسمين، بيَّنهما شيخ الإسلام بقوله: «.. وهؤلاء قد يسمَّوْن الحلولية والاتحادية، وهم صنفان:

قوم: يخصُّونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء: كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه ونحوه، وقوم في أنواع من المشايخ، وقوم في بعض الملوك، وقوم في بعض الصور الجميلة، إلى غير ذلك من الأقوال، التي هي شرٌّ من مقالة النصارى.

وصنفٌ يعمّون، فيقولون بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات: حتى الكلاب والخنازير والنجاسات وغيرها، كما يقول ذلك قوم مِنَ الجهمية ومَنْ تبعهم من الاتحادية، كأصحاب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني والبلياني. . . وغيرهم»اهـ[2].

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٤٢).

(٢) الفتاوى (٣/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٦، ١٠٨)، الفتاوى (٢/ ٤٦٥، ٥/ ٤٢٤، ١٠/ ٥٩، ٢١/ ٢٥٦، ٢٢/ ١٢٥)، الجواب الصحيح (١/ ٩٥)، المنهاج (٥/ ٣٣٥، ٦٢٣)، الاستقامة (٢/ ١٩٦).

وقال الشيخ - أيضاً -: «والحلول نوعان: حلول مقيد، وحلول مطلق:

فالحلول المقيد: هو قول النصارى ونحوهم من غُلاة الرافضة وغُلاة العُبَّاد وغيرهم يقولون: إنه حلّ في المسيح أو اتحد به وحلَّ بعليٍّ، أو اتحد به، وأنه يتحد بالعارفين حتى يصير الموحَّد هو الموحِّد، ويقولون:

ما وحَّد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد
توحيد من يخبر عن نعته ... عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحِد[1]

وهؤلاء الذين حكى أحمد قولهم: أنهم يقولون إذا أراد الله أن يُحْدِث أمراً دخل فيه بعض خلقه، فتكلم على لسانه[2]، وقد رأيت من هؤلاء غير واحد ممن خاطبني وتكلم معي في هذا المذهب وبيَّنتُ له فساده.

وأما أهل الحلول المطلق الذين يقولون: إنه حالٌّ في كل شيء أو متحد بكل شيء أو الوجود واحد كأصحاب (فصوص الحكم) وأمثالهم، فهؤلاء يقولون: أخطأ النصارى من جهة أنهم خصصوا، وكذلك يقولون في عُبَّاد الأصنام خطؤهم من جهة أنهم خصصوا بعض الأشياء

---

(١) الأبيات: تقدم تخريجها، وبيان معناها تفصيلاً، انظر (ص٣٨٦).

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله في معرض رده على الجهمية: «وكذلك الجهم وشيعته دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث، فضلوا وأضلوا بكلامهم بشراً كثيراً. . ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى، وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل في بعض خلقه، فتكلم على لسان خلقه، فيأمر بما يشاء وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار، فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة»اهـ. الرد على الجهمية والزنادقة (ص١٩).

فعبدوها[١]، وقد رأيت من هؤلاء أيضاً غيرَ واحد، وجرت بيننا وبينهم محنة معروفة»اهـ[٢].

تاسعاً: الأصلان اللذان يقوم عليهما مذهب الاتحادية:

قال شيخ الإسلام: «وهؤلاء بنوا قولهم على أصلين فاسدين:

أحدهما: أن أعيان الممكنات ثابتة في العدم مستغنية بنفسها، نظير قول من يقول: المعدوم شيء ثابت في العدم، وهذا القول باطل عند جماهير العقلاء، وإنما حقيقة الأمر أن المعدوم يراد إيجاده ويُتصور ويُخبَر به، ويُكتب قبل وجوده في العلم والقول والخط، وأما في الخارج فلا وجود له، والوجود هو الثبوت، فلا ثبوت له في الوجود العيني الخارجي، وإنما ثبوته في العلم، أي يعلمه العالم قبل وجوده، ولكن هذا لا يفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق؛ إذ ليس عنده ذات واجبة متميزة بوجودها عن الذوات الممكنة، وإن كان قد يتناقض في ذلك قولهم، فإنهم كلهم يتناقضون، وكل من خالف الرسول فلا بد أنه يتناقض، قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٨ ـ ٩]، وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الأصل الثاني: أنهم جعلوا نفس وجود رب العالمين الخالق القديم الأزلي الواجب بنفسه، هو نفس وجود المربوب المصنوع الممكن»اهـ[٣].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «وكلامهم كله يدور على هذين القطبين:

• إما أن يجعلوا الحق لا وجود له ولا حقيقة في الخارج أصلاً، وإنما هو أمر مطلق في الأذهان.

---

(١) نص على ذلك ابن عربي في فصوص الحكم (ص٤١٩، ط. محمود غراب).
(٢) بيان التلبيس (٥/ ١٧٠).
(٣) بغية المرتاد (ص٣٩٥).

• وإما أن يجعلوه عين وجود المخلوقات، فلا يكون للمخلوقات خالق غيرها أصلاً، ولا يكون رب كل شيء ولا مليكه.

وهذا حقيقة قول القوم وإن كان بعضهم لا يشعر بذلك»اهـ[١].

عاشراً: فِرَق الاتحادية:

عند النظر لمذهب الاتحادية لا نجد مسمَّيات لفرق صريحة تشعَّبت عنه، ولكن نستطيع أن نجزم بأن بعض رؤوس الاتحادية يمثل كلٌّ منهم فرقة خاصة به، له فيها أتباع، ففِرَقُهم تنتسب إلى أشخاص، وإن لم يطلق اسم الشخص على أتباعه[٢].

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن ابن عربي: «.. والأصل الثاني: أن وجود المحدَثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ليس غيره ولا سواه.

وهذا هو الذي ابتدعه وانفرد به[٣] عن جميع من تقدمه من المشايخ والعلماء، وهو قول بقية الاتحادية، لكن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام، وأحسن كلاماً في مواضعَ كثيرةٍ، فإنه يفرِّق بين الظاهر والمظاهر، فيقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا كثير من العُبَّاد يأخذون من كلامه سلوكهم فينتفعون بذلك، وإن كانوا لا يفقهون حقائقه، ومَن فهمها منهم ووافقه فقد تبيَّن قوله.

---

(١) هذا النص هو مجموع ما ذكره الشيخ في موضعين: بغية المرتاد (ص٤١٠)، الجواب الصحيح (٤/ ٣٠٠).

(٢) تقدم في مبحث سابق بيان فرق الصوفية، وذكرت هناك أسماء بعض الفرق التي نسبت إلى بعض رؤوس الاتحادية، كالسبعينية المنتسبين إلى ابن سبعين، ونحوها (ص٢٦٧).

(٣) يعني محيي الدين ابن عربي.

وأما صاحبه الصدر الرومي: فإنه كان متفلسفاً، فهو أبعد عن الشريعة والإسلام، ولهذا كان الفاجر التلمساني الملقَّب بالعفيف يقول: كان شيخي القديم مُتَروْحِناً متفلسفاً والآخر فيلسوفاً مُتَروْحِناً ـ يعني الصدر الرومي ـ فإنه كان قد أخذ عنه، ولم يدرك ابن عربي في كتاب (مفتاح غيب الجمع والوجود)، وغيره يقول: إن الله تعالى هو الوجود المطلق والمعين، كما يفرق بين الحيوان المطلق والحيوان المعين، والجسم المطلق والجسم المعين، والمطلق لا يوجد إلا في الخارج مطلقاً، لا يوجد المطلق إلا في الأعيان الخارجة.

فحقيقة قوله: إنه ليس لله سبحانه وجود أصلاً ولا حقيقة ولا ثبوت، إلا نفس الوجود القائم بالمخلوقات، ولهذا يقول هو وشيخه: إن الله تعالى لا يُرى أصلاً، وإنه ليس له في الحقيقة اسم ولا صفة، ويصرحون بأن ذات الكلب والخنزير والبول والعَذِرَة عين وجوده، تعالى الله عما يقولون.

وأما الفاجر التلمساني: فهو أخبث القوم وأعمقهم في الكفر؛ فإنه لا يفرِّق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي، ولا يفرِّق بين المطلق والمعين كما يفرق الرومي، ولكن عنده ما ثَمَّ غيرٌ ولا سِوى بوجهٍ من الوجوه، وأن العبد إنما يشهد السِّوى ما دام محجوباً، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثَمَّ غيرٌ يبين له الأمر.

ولهذا: كان يستحل جميع المحرمات، حتى حكى عنه الثقات **أنه كان يقول**: البنت والأم والأجنبية شيء واحد، ليس في ذلك حرام علينا، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

وكان يقول: القرآن كله شرك ليس فيه توحيد، وإنما التوحيد في كلامنا.

وكان يقول: أنا ما أُمسك شريعة واحدة.

وإذا أحسن القول يقول: القرآن يوصل إلى الجنة، وكلامنا يوصل إلى الله تعالى، وشرح الأسماء الحسنى على هذا الأصل الذي له.

وله ديوان شعر قد صنع فيه أشياء، وشعره في صناعة الشعر جيد، ولكنه كما قيل: لحم خنزير في طبق صيني، وصنَّف للنصيرية عقيدة، وحقيقة أمرهم أن الحق بمنزلة البحر وأجزاء الموجودات بمنزلة أمواجه.

وأما ابن سبعين: فإنه في البُدُوِّ والإحاطة يقول أيضاً بوحدة الوجود، وأنه ما ثَمَّ غيرٌ.

وكذلك ابن الفارض في آخر (نظم السلوك)، لكن لم يصرح هل يقول بمثل قول التلمساني أو قول الرومي أو قول ابن عربي؟ وهو إلى كلام التلمساني أقرب.

لكن ما رأيت فيهم مَنْ كفَر هذا الكفر الذي ما كفره أحد قط مثل التلمساني»اهـ[١].

حادي عشر: أسباب ضلال الاتحادية:

يمكن ـ باستقراء ما ذكره شيخ الإسلام من أحوال أهل الحلول والاتحاد ـ أن نستنتج أن الأسباب التي أوقعتهم في هذه البدعة المهلكة، هي:

السبب الأول: مشاركتهم للفلاسفة وتلقِّيهم عنهم:

قال الشيخ في معرض رده عليهم: «وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتُهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول، فإن الرسول بُعث بالبينات والهدى يُبين الأدلة العقلية، ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣).

بعقولهم، وهؤلاء المتفلسفة يقولون: إنه لم يُفِد الناس علماً بخبره ولا بدلالته، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة»اهـ[١].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «وكثير من ملاحدة المتصوفة ـ كابن عربي وابن سبعين والقونوي والتلمساني... وغيرهم ـ يوافقونهم في أصولهم، لكن يغيرون العبارات، فيعبرون بالعبارات الإسلامية عما هو قولهم...

وهؤلاء المتفلسفة ومتصوِّفوهم ـ كابن سبعين وأتباعه ـ يجوِّزون أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً يعبد الأوثان، فليس الإسلام عندهم واجباً ولا التهود والتنصر والشرك محرماً، لكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها.

وإذا جاء المريد إلى شيخ من شيوخهم، وقال: أريد أن أسلك على يديك.

يقول له: على دين المسلمين أو اليهود أو النصارى؟

فإذا قال له المريد: اليهود والنصارى! أما هم كفار؟

يقول: لا، ولكنِ المسلمون خيرٌ منهم[!!].

وهذا من جنس جُهَّال التتر أول ما أسلموا، فإن الإسلام عندهم خيرٌ من غيره، وإن كان غيرُه جائزاً لا يوالون عليه ويعادون عليه»اهـ[٢].

السبب الثاني: إفراطهم في تصور محبة الله تعالى، وتوسُّعهم في معنى التقرُّب إلى الله، حتى وقعوا في القول بالحلول والاتحاد:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولقوة الاتصال زعم بعض الناس أن العالم والعرف يتحد بالمعلوم والمعروف، وآخرون يرون أن المحب قد يتحد بالمحبوب، وهذا إما غلط وإما توسع في العبارة، فإنه نوع اتحاد: هو

---

(١) الفتاوى (١٣/٢٠٦).

(٢) الرد على المنطقيين (ص٢٨١ ـ ٢٨٢).

اتحاد في عين المتعلقات من نوع اتحاد في المطلوب والمحبوب والمأمور به والمرضيِّ والمسخوط، واتحاد في نوع الصفات من الإرادة والمحبة، والأمر والنهي، والرضا والسخط، بمنزلة اتحاد الشخصين المتحابين. وهذا له تفصيل نذكره في غير هذا الموضع»اهـ[(١)].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «فإنهم لَمَّا توجهوا بقلوبهم إلى الله وذكره وأحبوه، شهدت قلوبهم الوجود العام بالمخلوقات الصادر عن الحق الذي خلق السماوات والأرض، فاعتقدوا أن هذا هو الحق المخلوق، فأشبهوا من بعض الوجوه مَن رأى شعاع الشمس، فظن أنها هي الشمس، أو رأى الظل، فظن أنه الشخص»اهـ[(٢)].

السبب الثالث: شقّ عليهم فهمُ كلام الرسل، فجعلوا له ظاهراً وباطناً:

قال الشيخ: «وقد كثُر في كثير من المنتسبين إلى المشيخة والتصوف شهود القدر فقط من غير شهود الأمر والنهي، والاستناد إليه في ترك المأمور وفعل المحظور، وهذا أعظم الضلال.

ومَنْ طَرَّدَ هذا القول والتزم لوازمه، كان أكفر مِنَ اليهود والنصارى والمشركين، لكن أكثر من يدخل في ذلك يتناقض ولا يطَّرد قوله، وقول هذا القائل هو من هذا الباب.

فقوله: آدم كان أمره بكُلْ باطناً فأكلَ، وإبليس كان توحيده ظاهراً فأُمِر بالسجود لآدم، فرآه غيراً فلم يسجد، فغيّر الله عليه، وقال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٨][(٣)].

---

(١) الفتاوى (٦/٢٦). (٢) المستدرك على الفتاوى (١/٣٦).

(٣) الآية بتمامها، قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وما ذكره شيخ الإسلام هو مختصر ما قرره ابن عربي في فصوص الحكم (ص٣٦، ط. غراب).

فإن هذا ـ مع ما فيه من الإلحاد ـ كذبٌ على آدم وإبليس:

فإن آدم اعترف بأنه هو الفاعل للخطيئة، وأنه هو الظالم لنفسه، وتاب مِنْ ذلك، ولم يقل: إن الله ظلمني، ولا: إن الله أمرني في الباطن بالأكل، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وإبليس أصرَّ واحتج بالقدر، فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

وأما قوله: رآه غيراً فلم يسجد، فهذا شرٌّ من الاحتجاج بالقدر؛ فإن هذا قول أهل الوحدة الملحدين، وهو كذب على إبليس؛ فإن إبليس لم يمتنع من السجود لكونه غيراً، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ولم تؤمر الملائكة بالسجود لكون آدم ليس غيراً، بل المغايرة بين الملائكة وآدم ثابتة معروفة، والله تعالى يقول: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

وكانت الملائكة وآدم معترفين بأن الله مباينٌ لهم وهم مغايرون له، ولهذا دعَوْه دعاء العبد ربه، فآدم يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، والملائكة تقول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وتقول: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الآية [غافر: ٧].

وقد قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

فلو لم يكن هناك غيره لم يكن المشركون أمروه بعبادة غير الله ولا اتخاذ غير الله ولياً ولا حَكَماً، فلم يكونوا يستحقون الإنكار، فلما أنكر عليهم ذلك دلَّ على ثبوت غيرٍ يمكن عبادته واتخاذه ولياً وحَكَماً، وأنه من فعل ذلك فهو مشرك بالله.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وأمثال ذلك»اهـ[1].

وقال الشيخ في موضع آخر: «وقوّى ضلالَهم أمور؛ منها: اعتقادهم أن لِمَا جاءت به الرسل باطناً وظاهراً، ومن أسباب ذلك ما حصل لهم من الحيرة والاضطراب في فهم ما جاءت به الرسل»اهـ[2].

السبب الرابع: شاهدوا آثار عظمة صنع الله، فظنوا أنها الله:

قال الشيخ: «وهذا الموضع مما يقع الغلط فيه لكثير من السالكين، يشهدون أشياء بقلوبهم، فيظنون أنها موجودة في الخارج هكذا، حتى إن فيهم خلقاً منهم مِنَ المتقدمين والمتأخرين يظنون أنهم يروْن الله بعيونهم لِمَا يغلب على قلوبهم مِنَ المعرفة والذكر والمحبة، يغيب بشهوده فيما حصل لقلوبهم، ويحصل لهم فناءٌ واصطلام[3] فيظنون أن هذا هو أمر مشهود بعيونهم، ولا يكون ذلك إلا في القلب.

ولهذا ظن كثير منهم أنه يرى الله بعينه في الدنيا، وهذا مما وقع

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣٠). (٢) الصفدية (١/ ٢٧٣).

(٣) تقدم بيان معنى الاصطلام، انظر (ص٣٨٢).

لجماعة من المتقدمين والمتأخرين وهو غلط محض، حتى أورث مما يدعيه هؤلاء شكاً عند أهل النظر»اهـ[(١)].

السبب الخامس: اشتبه عليهم الواحد بالنوع، بالواحد بالعين:

قال الشيخ: «هؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين، فإنه يقال: الوجود واحد، كما يقال: الإنسانية واحدة، والحيوانية واحدة، أي يعني واحد كلِّي، وهذا الكليُّ لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج، فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج، ثم ظنوه هو اللهَ، وليس في الخارج كليٌّ مع كونه كلياً، وإنما يكون كلياً في الذهن، وإذا قدر في الخارج كليٌّ فهو جزء من المعينات وقائم بها ليس هو متميزاً قائماً بنفسه، فحيوانية الحيوان وإنسانية الإنسان، سواء قدرت معينةً أو مطلقةً، هي صفة له، ويمتنع أن تكون صفة الموصوف مبدعة له، ولو قدر وجودها مجرداً»اهـ[(٢)].

السبب السادس: يفجؤ قلوبهم ما يعجِزون عن معرفته، فيظنونه ذات الحق سبحانه:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «والاتحاد والحلول الخاص وقع فيه كثير من العُبَّاد والصوفية وأهل الأحوال؛ فإنه يفجؤهم ما يعجِزون عن معرفته، وتضعُف عقولهم عن تمييزه، فيظنونه ذاتَ الحق، وكثير منهم يظن أنه رأى الله بعينه، وفيهم من يحكي مخاطباته له ومعاتباته، وذاك كله إنما هو في قلوبهم من المثال العلمي الذي في قلوبهم بحسب إيمانهم به...

وإنما المقصود هنا: أن كثيراً من السالكين يَرِد عليه من الأحوال ما يصطلمه[(٣)] حتى يظن أنه هو الحق، وأن الحق فيه، أو أن الحق يتكلم

---

(١) شرح حديث النزول (ص٣٥٠). (٢) الفتاوى (١٣/ ١٩٧).

(٣) تقدم بيان معنى الاصطلام، انظر (ص٣٨٢).

على لسانه، أو أنه يرى الحق أو نحو ذلك، وإنما يكون الذي يشاهدونه ويخاطبونه هو الشيطان، وفيهم من يرى عرشاً عليه نور، ويرى الملائكة حول العرش، ويكون ذلك الشيطان وتلك الشياطين حوله، وقد جرى هذا لغير واحد»اهـ(١).

السبب السابع: ظنوا أن المطلق يكون موجوداً في الخارج ثابتاً في الأعيان:

قال الشيخ: «فظن أولئك أن المطلق يكون موجوداً في الخارج، ثابتاً في الأعيان المقيدة الخاصة، وهو الذي يسمونه الكلِّيَّ الطبيعيَّ، ويجعلونه موجوداً في الخارج؛ كالإنسان بلا قيد ولا شرط، والحيوان بلا قيد ولا شرط، والجسم بلا قيد ولا شرط، والوجود بلا قيد ولا شرط.

ولا ريب أن الفرق بين المطلق لا بشرط، وبين المطلق بشرط الإطلاق فرق معقول:

فإن المطلق بشرط الإطلاق ضد المقيَّد لا يتناول المقيَّد بحال، ولهذا اتفقوا على أن هذا لا يكون وجوده إلا في الذهن.

وأما المطلق لا بشرط، فهم يُسَلِّمون أيضاً أنه لا يوجد إلا مُعيناً مقيداً، إما بقيدِ كونهِ في الذهن أو في الخارج، أو بقيد كونهِ واحداً أو كثيراً ونحو ذلك.

ولكن كثيراً من أئمتهم يدَّعون أنه يوجد في الأعيان كما اتفق الناس على أنه يوجد في الأذهان، مع أن حقيقته من حيث هي هي ليست مقيدةً بقيدِ كونِها في الأذهان أو في الأعيان، مع أنها لن تخلو عن أحدهما، فَفَرقٌ بين ما هو داخل في الحقيقة وبين ما هو لازم لها.

(١) المنهاج (٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤، ٣٨٧ ـ ٣٨٩).

كما أن مِنْ هؤلاء مَنِ ادَّعى ثبوت هذه الحقائق مجردةً عن الأعيان، كما يقوله أصحاب المثل الأفلاطونية، وقولهم بإثبات هذه الماهيَّات المطلقة ـ مع قول فريق بانفصالها عن الأعيان ـ هو شبيه بقولهم بإثبات المادة الطبيعية جوهراً مجرداً ثابتاً في الجسم عن صورته، مع قول فريق منهم بإمكان انفصال هذه المادة عن الصور جميعها.

وقد بسطنا القول في هذا، وذكرنا ألفاظ أئمتهم في هذا، وبيَّنا ما وقع في ذلك من الغلط البيِّن المبين لكل عاقل يفهم ما يقال بياناً يقيناً ضرورياً، وذكرنا الصواب الذي عليه جمهور العقلاء بأنه ليس في الأعيان الموجود في الخارج شيء مطلق أصلاً بحال، وأنه إنما هو عين الأعيان أشير إليه، فقيل: هذا الإنسان، فإنه يعلم بالحس والعقل أنه ليس فيه شيءٌ مشترك بينه وبين غيره، ولا شيءٌ مطلقٌ، سواء قيل: مطلق لا بشرط، أو: مطلق بشرط الإطلاق، وتكلمنا على ما يذكرونه من هذه الموارد واللواحق والأعراض حواش غريبة عرضت للحقيقة، وأنها خرجت عن الحقيقة.

وبسطنا الكلام في ذلك بسطاً تبين به أنه اشتبه على القوم ما يكون في الذهن والخيال بما يكون في الوجود والخارج، فظنوا ما يتخيلونه في أنفسهم من هذه الحقائق كالموجود المطلق والإنسان المطلق موجوداً في الخارج، فهم في الوهم والخيال الذي ليس بمطابق للحقائق، مع كونهم قد ينكرون ما كان من الوهم والخيال حقاً مطابقاً للخارج كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع.

وقول هؤلاء بإثبات الماهيَّات المطلقة المجردة، وبالمواد المجردة وإثباتها في الأعيان، هو شبيه بقول من يثبت الأحوال ثابتةً في الأعيان، وقول من يجعل لكل معيَّن من الموجودات ماهيَّةً ثابتةً في العدم، ويجعل الماهيات غيرَ مجعولةٍ.

وهؤلاء يقولون: وجودُ كلٍّ شيء زائد على ماهيته، ولكن نريد بالماهيةِ الماهيةَ الشخصية التي لا تكون لغيره، كما يقوله من يقوله من المعتزلة والرافضة، وأولئك يقولون بنحو ذلك، لكن يقولون بإثبات الماهية النوعية الكلية، وكلُّ هذه الأمور إنما هي ثابتة في الأذهان لا في الأعيان، وإن كان بعضهم ينكر على غيره أشدَّ الإنكار قولَهُ الذي قال ما هو نظيره وأبلغ منه أو هو في الحقيقة، كما ينكر طائفة من متكلمي الصفاتية القائلين بالأحوال ـ كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى ـ على من يقول: المعدوم شيء، حتى يكفروه بذلك، وقولهم بإثبات الأحوال هو من نمط قولهم حيث يقرون بإثبات ثابت لا موجود ولا معدوم، وكما ينكر الفلاسفة على من يقول بالأحوال وبأن المعدوم شيء.

فقولهم بإثبات الماهيَّات المطلقة في الأعيان مع قولهم بإثبات المواد للجسم وتركب الجسم من جوهرين مادة وصورة، هو مع كونه من نمط هذا القول، فهو إن لم يكن أبعدَ منه، فليس دونه في الضعف؛ إذ جعله حقيقة مطلقة لا تتقيد ثابتة في شيء مقيد وحاصلة له، مع أن تلك تنقسم إلى واحد وكثير، وهذا لا ينقسم، إن هذا من العجب، فهل يجعل مورد التقسيم جزءاً من القسمين ثابتاً في الأعيان؟ وهل هذا إلا تسوية بين قسمة الكلي إلى جزئياته والكلي إلى أجزائه؟ مع أنهم يفرقون بينهما، وغاية ما قد يجيبون به عن هذا أن يقولوا: المطلق من حيث هو لا يوصف لا بنفي ولا بإثبات، فلا يقال: هو واحد ولا كثير، ولا: ينقسم، ولا: لا ينقسم ونحو ذلك.

مع أن محققيهم ـ كابن سينا ـ يقول: إنه لا يوجد إلا موجوداً في الأعيان أو في الذهن. وعلى هذا، فيكون الوجود المطلق لا يوجد إلا في الأعيان الموجودة، فلو كان وجود الرب هو المطلقَ، للزم أن يكون جزءاً من أعيان المخلوقات، مع أنه يلزمه أن يكون ثابتاً في الوجود

الواجب والوجود الممكن، فلا يكون هو واجبَ الوجودِ، وهذا تناقض.

كما قد بسطناه في غير هذا الموضع.

ومعلوم أن هذا الجواب لم يقصد فيه بيان هذه المسائل تصويراً وتحريراً وتقريراً، وإنما نبهنا على النكت التي ضل بها هؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل العالم وأكمل الناس.

وهم في الحقيقة يندرجون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥]»اهـ[١].

السبب الثامن: قِلة العلم والإيمان:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أُتوا من قلة العلم والإيمان بصفات الله التي يتميز بها عن المخلوقات، وقلة اتباع السنة وطريقة السلف في ذلك، بل قد يعتقدون من التجهُّم ما ينافي السنة تلقِّياً لذلك عن متفلسف أو متكلم، فيكون ذلك الاعتقاد صادّاً لهم عن سبيل الله، كلما أرادت قلوبهم أن تتقرب إلى ربها وتسلك الصراط المستقيم إليه وتعبده ـ كما فُطِروا عليه، وكما بلغتهم الرسل من علوِّه وعظمته ـ صرفتهم تلك العوائق المضلة عن ذلك.

حتى تجد خلقاً من مُقَلِّدة الجهمية يوافقهم بلسانه، وأما قلبُه فعلى

---

(١) بغية المرتاد (ص٤٣٣ ـ ٤٣٧).

الفطرة والسنة، وأكثرهم لا يفهمون ما النفي الذي يقولونه بألسنتهم؟ بل يجعلونه تنزيهاً مطلقاً مجملاً.

ومنهم من لا يفهم قول الجهمية، بل يفهم مِنَ النفي معنى صحيحاً، ويعتقد أن المثبت يثبت نقيض ذلك، ويسمع من بعض الناس ذكر ذلك؛ مثل أن يفهم من قولهم: ليس في جهة ولا له مكان ولا هو في السماء، أنه ليس في جوف السماوات، وهذا معنى صحيح، وإيمانه بذلك حق، ولكن يظن أن الذين قالوا هذا النفي اقتصروا على ذلك، وليس كذلك.

بل مرادهم: أنه ما فوق العرش شيء أصلاً، ولا فوق السماوات إلا عدمٌ محضٌ، ليس هناك إله يُعْبَدُ ولا ربٌّ يُدعى ويُسأل، ولا خالق خلق الخلائق، ولا عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى ربه أصلاً.

هذا مقصودهم: وهذا هو الذي أوقع الاتحادية في قولهم: هو نفس الموجودات؛ إذ لم تجد قلوبهم موجوداً إلا هذه الموجودات، إذا لم يكن فوقها شيء آخر، وهذا من المعارف الفطرية الشهودية الوجودية أنه ليس إلا هذا الوجود المخلوق، أو وجود آخر مباين له متميِّزٌ عنه، لا سيما إذا علموا أن الأفلاك مستديرةٌ، وأن الأعلى هو المحيط، فإنهم يعلمون أنه ليس إلا هذا الوجود المخلوق أو موجود فوقه، فإذا اعتقدوا ـ مع ذلك ـ أنه ليس هناك وجود آخر ولا فوق العالم شيء، لزِم أن يقولوا: هو هذا الوجود المخلوق، كما قال الاتحادية، وهذه بعينها هي حجة الاتحادية»اهـ[1].

السبب التاسع: غلوّهم في ترقيق القلب، وغَلَبَة الذِّكْر، جرّهم إلى الاتحاد:

قال الشيخ: «وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد، فإن صفوتهم

---

(١) الفتاوى (٤/٥٨ ـ ٥٩).

الذين يشتغلون بذكر بسيطٍ؛ مثل: لا إله إلا الله، إن لم يغلُوا فيقتصروا على مجرد (الله الله)، ويعتقدون أن ذلك أفضلُ وأكملُ، كما فعله كثير منهم، وربما اقتصر بعضهم على (هُوْ هُوْ)، أو على قوله: لا هو إلا هو؛ لأن هذا الذكر المبتدَع الذي هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقاً ليس فيه بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم، فقد ينضم إلى ذلك اعتقاد صاحبه أنه لا وجود إلا هو.

كما يصرح به بعضهم، ويقول: لا هو إلا هو، أو: لا موجود إلا هو، وهذا عند الاتحادية أجودُ مِنَ قول: لا إله إلا الله؛ لأنه مصرح بحقيقة مذهبهم الفرعوني القرمطي.

حتى يقول بعضهم: لا إله إلا الله، ذكر العابدين.

و: الله الله، ذكر العارفين.

و: هو، ذكر المحققين.

ويجعل ذِكره: يا من لا هو إلا هو، وإذا قال: الله الله، إنما يفيد مجرد ثبوته، فقد ينضم إلى ذلك نفيُ غيره لا نفيَ إلهيةِ غيره، فيقع صاحبه في وحدة الوجود، وربما انتفى شهود القلب للسِّوى إذا كان في مقام الفناء، فهذا قريب. أما اعتقاد أن وجود الكائنات هي هو، فهذا هو الضلال، ويضمون إلى ذلك نوعاً من التصفية؛ مثل ترك الشهوات البدنية من الطعام والشراب والرياسة والخلوة، وغير ذلك من أنواع الزَّهادة المطلقة والعبادة المطلقة، فيَصِلُون أيضاً إلى تألّه مطلق ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده ونحو ذلك من نحو ما يصل إليه أرباب القياس»اهـ[1].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٦٣ ـ ٦٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٣/ ١٩٧).

السبب العاشر: تلاعب الشياطين بهم:

قال الشيخ في معرض بيانه لضلال هؤلاء الاتحادية: «وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم، وهي جنٌّ وشياطين، فيظنونها ملائكةً، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.. وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب (الفتوحات) أنه ألقَى إليه ذلك الكتاب، ولهذا يذكر أنواعاً من الخلوات بطعام معين وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاء عدداً.

ومنهم من كان يُحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يُؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجُعل يحصل له من الناس، أو بعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك.

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية، كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكية) و(الفصوص) وأشباه ذلك يمدح الكفار؛ مثل: قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، ويتنقص الأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين»اهـ[١].

السبب الحادي عشر: تقليدهم لمشايخهم، واستكبارهم عن قبول الحق:

قال الشيخ في معرض كلامه عن مشابهة أهل الحلول والاتحاد للنصارى: «وعامة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم، قالوا من جنس قول النصارى: هذا أمر فوق العقل، ويقول بعضهم ما كان يقوله

(١) الفتاوى (١١/٢٣٨ ـ ٢٣٩).

التلمساني لشيخ أهل الوحدة، يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح النقل، ويقولون لمن أراد أن يسلك سبيلهم: دع العقل والنقل، أو اخرج من العقل والنقل. وينشدون في ذلك:

مجانينُ إلا أن سرَّ جنونهم عزيز على أقدامه يسجد العقل
هم معشر حلُّوا النظام وحرَّقوا السـ ـياج فلا فرض لديهم ولا نفْلُ[1]

وهؤلاء مقلِّدون لمشايخهم، متّبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول، وما ابتدعوه مما لم يأذن به الله باتخاذ البدع عباداتٍ واستحلال المحرمات كتقليد بعض النصارى لشيوخهم.

وإذا اعتُرِض على أحد منهم يقولون: الشيخ يسلّم له حاله، ولا يُعترض عليه...

وغاية ما عندهم: أنهم يحكون عن شيوخهم نوعاً من خرق العادات، قد يكون كذباً وقد يكون صدقاً، وإذا كانت صدقاً فقد يكون من أحوال أولياء الشيطان كالسحرة والكهان، وقد يكون من أحوال أولياء الرحمن، لم يكن في ذلك ما يوجب تقليد الوليِّ في كل ما يقوله؛ إذ الوليُّ لا يجب أن يكون معصوماً، ولا يجب اتباعُه في كل ما يقوله، ولا الإيمانُ بكل ما يقوله، وإنما هذا من خصائص الأنبياء...

فهؤلاء المبتدعة الغلاة المشركون القائلون بنوع من الحلول هم مضاهؤون للنصارى؛ ولهذا ينهون جمهورهم عن البحث والمناظرة في ذلك؛ لعلمهم بأن العقل الصريح متى تصور دينهم علم أنه باطل»اهـ[2].

(١) البيتان من نظم الحسن بن علي بن هود من قصيدة أوردها الصفدي في الوافي بالوفيات وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ١/ ٣٤٧، وذكر البيتين فقط دون نسبة ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية ٢/ ٧٧٢.

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٩).

ثاني عشر: حقيقة مذهب الاتحادية:

الاتحادية وإن بطَّنوا مذهبهم بما يظهر تعظيمهم للدين، إلا أن حقيقة مذهبهم الكفر بعينه، ومَنْ تأمَّل في مذهبهم عرف حقيقته وما يفضي إليه، وفيما يلي بيان لذلك:

أ ـ كفروا بالأصول الثلاثة العُظمى التي دعت إليها الرسل:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «.. فآل الأمر بهم إلى أن ألحدوا في الأصول الثلاثة التي اتفقت عليها المِلَلُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فأفضى الأمر بمن سلك سبيل هؤلاء إلى الإلحاد في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وسرى ذلك في كثير من الخائضين في الحقائق من أهل النظر والتألُّه من أهل الكلام والتصوف، حتى آل الأمر بملاحدة المتصوفة كابن عربي صاحب فصوص الحكم وأمثاله إلى أن جعلوا الوجود واحداً وجعلوا وجودَ الخالق هو وجودَ المخلوق، وهذا تعطيل للخالق»اهـ[1].

ب ـ قولهم بصحة جميع العقائد:

قال الشيخ: «حقيقة مذهب الاتحادية ـ كصاحب الفصوص ونحوه ـ الذي يؤول إليه كلامهم ويصرحون به في مواضع أن الحقائق تتبع العقائد، وهذا أحد أقوال السوفسطائية، فكل من قال شيئاً أو اعتقده، فهو حق في نفس هذا القائل المعتقد، ولذا يجعلون الكذب حقاً، ويقولون: العارف لا يكذب أحداً، فإن الكذب هو أيضاً أمر موجود وهو

---

(١) الدرء (٥/ ٣ ـ ٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الصفدية (١/ ٢٤٥).

حق في نفس الكاذب، فإن اعتقده كان حقاً في اعتقاده وكلامه، ولو قال ما لم يعتقده كان حقاً في كلامه فقط، ولهذا يأمر المحقق أن تعتقد كل ما يعتقده الخلائق كما قال:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[(١)]

ومعلوم أن الاعتقادات المتناقضة لا تكون معتقداتها في الخارج لكن في نفس المعتقد، ولهذا يأمرون بالتصديق بين النقيضين والضدين، ويجعلون هذا من أصول طريقهم وتحقيقهم.

ومعلوم أن النقيضين لا يجتمعان في الخارج، لكن يمكن اعتقاد اجتماعهما، فيكون ذلك حقاً في نفس المعتقد، وهم يدَّعون أن ذلك يحصل كشفاً، فكشفهم متناقض، فخاطبت بذلك بعضهم، فقال: كلاهما حق، كالذي كُشِف له أن الزُّهرة فوق عطارد والذي كشف له أنها تحت عطارد، فقال: هي من كشف هذا فوق عطارد، وفي كشف هذا تحت عطارد... وأمثال ذلك[!!].

فجعلوا الحقائق الثابتة تتابع الكشف والاعتقاد والقول، ولهذا يقولون: سِرْ حيث شئت فإن الله ثمَّ، وقل ما شئت فيه فإن الواسع الله، ومضمون هذا الأصل: أن كل إنسان يقول ما شاء ويعتقد ما شاء من غير تمييز بين حق وباطل، وصادق وكاذب، وأنه لا ينكر في الوجود شيء.

وهكذا يقولون هذا من جهة الخبر والعلم، وأما من جهة الأمر والعمل، فإن محققهم يقول: ما عندنا حرام، ولكن هؤلاء المحجَّبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم، فما عندهم أمر ولا نهي، كما قال

---

(١) البيت أورده صديق بن حسن القنوجي في كتابه أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (١/ ٣٩٧)، وذكر أنه لمحيي الدين ابن عربي، ولم أقف على البيت في شيء من كتب ابن عربي.

القاضي[١] الذي هو تلميذ صاحب (الفصوص) فيما أنشدنيه الشاهد ابن عمد الملقب بعرعيه[٢]:

ما الأمر إلا نسق واحد ... ما فيه من حمد ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت ... والطبع والشارع بالحكم[٣]

وحينئذٍ: فما يبقى للأقوال والأفعال إلا مجرد القدرة، ولهذا هم يمشون مع الكون دائماً، فأيّ شيء وجد وكان: كان عندهم حقاً، فالحلال: ما وجدته وحلّ بيدك، والحرام: ما حُرِمتَه، والحق: ما قلته كائناً ما كان، والباطل: ما لم يقله أحد، وهؤلاء شرٌّ من المباحية الملاحدة الذين يَجْرون مع محض القدر، فإن أولئك يعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب.

وهؤلاء عطلوا أيضاً الصانع والرسالة والحقائق كلها، وجعلوا الحقائق بحسب ما يُكشف للإنسان، ولم يجعلوا للحقائق في أنفسها حقائقَ تتحقق به يكون ثابتاً وبنقيضه منتفياً، بل هذا عندهم يفيده الإطلاق: ألّا تقف مع معتقَد، بل تعتقِد جميع ما اعتقده الناس، فإن كانت أقوالاً متناقضة فإن الوجود يَسَعُ هذا كله، ووحدة الوجود تَسَعُ هذا كله.

ومعلوم أن الوجود إنما يسع وجود هذه الاعتقادات لا يسع تحقق المعتقدات في أنفسها، وهذا مما لا نزاع فيه بين العقلاء، فإن الاعتقاد الباطل والقول الكاذب هو موجودٌ داخلٌ في الوجود، لكن هذا لا يقتضي

(١) لم يتبين لي مراد شيخ الإسلام بهذا الرجل.
(٢) كذا في الأصل، ولم أعثر على ترجمته.
(٣) البيتان أوردهما الإمام ابن القيم في كتابه الروح (١/ ٣٥٢، فصل والفرق بين الاحتياط والوسوسة)، وطريق الهجرتين (١/ ٣٩٢، القسم الأول: الفناء عن وجود السوى) ولم ينسبهما إلى أحد، ولم أعثر على قائلهما.

أن يكون حقاً وصدقاً، فإن الحق والصدق إذا أطلق على الأقوال الخبرية لا يراد به مجردَ وجودها، فإن هذا أمر معلوم بالحسِّ، وعلى هذا التقدير، فكلها حقٌّ وصدقٌ.

ومن المعلوم أن السائل عن حقها وصدقها هي عنده منقسمة إلى حق وباطل، وصدق وكذب، والمراد بكونها حقاً وصدقاً كونها مطابقةً للخبر أو غير مطابقةٍ، ثم قد تكون مطابقةً في اعتقاد القائل دون الخارج.

وهذا هو الخطأ، وقد يسمى كذباً، وقد لا يطلق عليه ذلك:

فالأول[١]: كقول النبي ﷺ: **(كذب أبو السنابل)**[٢]، وقوله: **(كذب من قالها، إن له لأجرين اثنين إنه لجاهد مجاهد)**[٣]، وقول عبادة رضي الله عنه:

---

(١) قد تطلق كلمة كذب، ويراد بها أخطأ، وهذا مشهور في لغة العرب، قال ابن منظور في لسان العرب (١/ ٧٠٤، مادة: كذب): «وقد استعملت العربُ الكَذِبَ في موضع الخطإِ، وأنشد بيت الأخطل:

كَذَبَتْكَ عينُك أم رأيتَ بواسِطٍ

وقال ذو الرمة:

وما في سَمْعِهِ كَذِبُ

وفي حديث عُرْوَة: قيل له: إنَّ ابن عباس يقول إنَّ النبيَّ ﷺ لَبِثَ بمكة بِضْعَ عَشْرَة سنة، فقال: كَذَبَ، أي: أَخْطَأَ، ومنه قول عِمْرَانَ لَسَمُرَة حين قال: المُغْمَى عليه يُصَلِّي مع كل صلاةٍ صلاةً حتى يَقْضِيَها، فقال: كَذَبْتَ، ولكنه يُصَلِّيهن معاً، أَي: أَخْطَأْتَ»اهـ.

وانظر: فتح الباري لابن حجر (المقدمة ص٢٩٤).

(٢) الحديث: أخرجه سعيد بن منصور في سننه (باب ما جاء في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها، ١/ ٣٥١/ ١٣٠٨) عن ابن سيرين، وفيه: أن سبيعة وضعت بعد وفاة زوجها بنحو من عشرين ليلة، فتشوفت، فمر بها أبو السنابل، فقال: كأنك تريدين التزويج! قالت: ولستُ قد حللت؟ فقال: كلا، حتى يأتي عليك آخر الأجلين، فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: كذب أبو السنابل، إذا وجدتِ رجلاً ترضَيْنه فتزوجيه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٤/ ١٥٣٧/ ٣٩٦٠)، =

كذب أبوكم، وقول ابن عباس رضي الله عنه: كذب نوف[(١)][(٢)].

والثاني: كقوله ﷺ: **(لم أنْسَ ولم تَقْصُرْ)**، فقال له ذو اليدين[(٣)]: بلى قد نسيت[(٤)].

وكأن الفرق ـ والله أعلم ـ: أن من أخبر مع تفريطه في الطريق الذي يُعلم به صوابه وخطؤه، فأخطأ سُمِّيَ كاذباً ـ بخلاف من لم يفرِّط ـ لأنه تكلم بلا حجة ولا دليل مجازفةً فأخطأ، بخلاف من أخبر غير مفرِّط، وهذا الفرق يصلح أن يفرَّق به فيمن حلف على شيء يعتقده كما

= ومسلم (كتاب الجهاد، باب غزوة خيبر، ٢/ ٧٠٢/ ١٨٠٢)، كلاهما عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(١) هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي، أبو يزيد، يقال: إنه دمشقي، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار، كان يأخذ من صحف أهل الكتاب وينقل عن كتبهم، توفي سنة ١٦١هـ.
انظر: البداية والنهاية (١/ ٣٦٣)، تاريخ الطبري (١١/ ٦٥٧، ٦٨١).

(٢) الأثر: رواه مسلم (كتاب الفضائل، باب في فضائل الخضر عليه السلام، ٤/ ١٨٥/ ٢٣٨٠) عن سعيد بن جبير قال: قيل لابن عباس رضي الله عنه: إن نوفاً يزعم أن موسى الذي ذهب يلتمس العلم ليس بموسى بني إسرائيل. قال: أسمعته يا سعيد؟ قلت: نعم، قال: كذب نوف.

(٣) هو ذو اليدين السُّلمي، الصحابي الجليل، قيل اسمه: الخرباق، (وقيل: عمير) بن عامر بن مالك بن خنساء بن مبذول بن غنم بن مازن بن النجار، الأنصاري الخزرجي، أبو داود المازني، اشتهر بكنيته، واستشهد ببدر، وقيل: بأحد، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه عاش حتى روى عنه التابعون.
انظر: الإصابة (٢/ ٤٢٠، ٤/ ٧٢٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٦٧)، الاستيعاب (٨/ ٤٧٥).

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب أبواب السهو، باب من يكبر في سجدتي السهو، ١/ ٤١٢/ ١١٧٢)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ١/ ٤٠٣/ ٥٧٣)، كلاهما من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

حلف عليه فتبين بخلافه، أنه إن حلف مجازفاً بلا أصل يرجع إليه، مثل من حلف أن هذا غراب أو ليس بغراب بلا مستند أصلاً، فبان خطأً فإن هذا يحنث، وكذلك يحنث مثل هذا وإن لم يعلم خطؤه وإن أصاب، وهي مسألة حلفه أنه في الجنة، وهذا كما تقول:

المفتي إذا أفتى بغير علم أنه أَثِمَ وإن أصاب، وكذلك المصلي إلى القبلة بغير اجتهاد، وكذلك المفسر للقرآن برأيه.

ولهذا تجد هؤلاء في أخبارهم من أكثر الناس كذباً، الكذب كالصدق عندهم، فيستعملونه بحسب الحاجة، ولا يبالون إذا أخبروا عن الشيء الواحد بخبرين متناقضين، وتجدهم في أعمالهم بحسب أهوائهم، فيعملون العملين المتناقضين أيضاً إذا وافق هذا هواهم في وقت، وهذا هواهم في وقت»اهـ[1].

ج ـ عندهم أنه لا فرق بين أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً!!:

قال الشيخ: «ولهذا كان هؤلاء ـ كابن سبعين ونحوه ـ، يعكسون دين الإسلام، فيجعلون أفضل الخلق المحقق عندهم، وهو القائل بالوحدة، وإذا وصل إلى هذا فلا يضره عندهم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، بل كان ابن سبعين وابن هود والتلمساني وغيرهم، يسوِّغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام، ويجعلون هذه طرقاً إلى الله، بمنزلة مذاهب المسلمين، ويقولون لمن يختص بهم من اليهود والنصارى: إذا عرفتم التحقيق، فلن يضركم بقاؤكم على ملتكم، بل يقولون مثل هذا للمشركين عباد الأوثان»اهـ[2].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٩٨ ـ ١٠٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٤٩)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢١١)، الصفدية (١/ ٩٩، ٢٦٩)، الرد على المنطقيين (ص٢٨٢).

(٢) الصفدية (١/ ٢٦٨).

د ـ قولهم: إن النصارى كفروا؛ لأنهم خصوا الحلول بشخص واحد، ولو عمَّموا ما كفروا:

وذلك أنهم: لما قالوا بصحة جميع العقائد، وأن كل من عَبَدَ شيئاً، فقد عَبَدَ الله!!

أُورد عليهم أن النصارى كفار.

فقالوا: سبب كفرهم أنهم خصُّوا الحلول بعيسى، ولو عمَّموه ما كفروا!!

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن ابن عربي وشيعته: «وغلاة هؤلاء يقولون: إنه عين الموجودات، والوجود واحد، وهؤلاء يقولون: إن النصارى إنما كفروا، لأنهم خصوا ذلك بالمسيح[(١)]»اهـ[(٢)].

ثالث عشر: دليلهم على صحة جميع العقائد:

استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وجه استدلالهم: قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، بمعنى: قدَّر، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع، فلمَّا قضى أن يُعبدَ علمنا أنه لم يُعبدْ إلا هو!!.

الرد عليهم: قال الشيخ: «وأما القضاء: فقال في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقال في الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: أمر، وليس

---

(١) فصوص الحكم (ص٢٣٢، ط. غراب).

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤٩٨). وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/٣٤٨)، المستدرك على الفتاوى (٥/١٠٨).

المراد به: قدَّر ذلك، فإنه قد عُبد غيرُه كما أخبر في غير موضع:

كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]، وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم، ولا تقتضي رضاه بذلك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضاً منه بدين الكفار، فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣]، بمعنى: قدَّر، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عُبَّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله، فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب[(١)]»اهـ[(٢)].

---

(١) يشير إلى مذهب ابن عربي؛ حيث زعم أنه ما عُبِد إلا الله، وأن قضى في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بمعنى: قدّر، وقد ذكر هذا المذهب في فصوص الحكم (ص٢٠٧، ط. غراب).

(٢) الفتاوى (١١/٢٨٦ ـ ٢٦٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المستدرك على الفتاوى (١/ ١٦٢).

رابع عشر: إسقاطهم للحلال والحرام:

قال الشيخ في معرض بيانه لقسمين من أهل الضلال: «.. **القسم الثاني**: من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا، ويظن أن دين الله الموافقة للقدر سواء كان في ذلك عبادة الله وحده لا شريك له، أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه، وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورسله، أو الإعراض عنهم والكفر بهم، وهؤلاء يسوُّون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان، وأهل الجنة كأهل النار، وأولياء الله كأعداء الله، وربما جعلوا هذا من باب: الرضا بالقضاء، وربما جعلوه التوحيد والحقيقة، بناءً على أنه توحيد الربوبية الذي يقرُّ به المشركون، وأنه الحقيقة الكونية»اهـ[1].

وقال الشيخ في موضع آخر: «وأما هؤلاء الملاحدة، فيزعُمون ما كان يزعمه التلمساني منهم - وهو أحذقهم في اتحادهم - لمَّا قُرِىء عليه (الفصوص):

فقيل له: القرآن يخالف فصوصكم.

فقال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا.

فقيل له: فإذا كان الوجود واحداً، فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراماً؟

فقال: الكل عندنا حلال؛ ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

---

(١) الفتاوى (١١/٤٩)، وانظر هذا الكلام - أيضاً بمعناه - في: بيان تلبيس الجهمية (١/٢١١)، الصفدية (١/٩٩، ٢٦٩).

وهذا ـ مع كفره العظيم ـ متناقض ظاهر؛ فإن الوجود إذا كان واحداً فَمَنِ المحجوب ومن الحاجب؟.

ولهذا: قال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب.

فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب؟

وقالوا لآخر: هذه مظاهر.

فقال لهم: المظاهر غير الظاهر أم هي؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة، وإن كانت إياها فلا فرق»اهـ[1].

خامس عشر: قولهم: إن القرآن كله شرك، والتوحيد في كلامنا:

قال الشيخ: «وحدثني الثقة أنه قرأ عليه (فصوص الحكم) لابن عربي، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين، فلما قرأه رآه يخالف القرآن، قال: فقلت له: هذا الكلام يخالف القرآن، فقال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا، وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول»اهـ[2].

سادس عشر: قولهم: إن الخالق مفتقر في وجوده إلى المخلوق:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وقد ضرب أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق لله أمثالاً باطلة شرّاً من أقوال النصارى، ولهم مثل السَّوْء ولله المثل الأعلى، وكان ما ضربوه لله من الأمثال أن شبّهوه بالشعاع في الزجاج.

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٨٦). وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: النبوات (ص٨٧).

فالأعيان الثابتة في العدم ـ عندهم ـ هي الممكنات، ووجود الحق قاضٍ عليها، فشبَّهوا وجوده بالشعاع وأعيانهم بالزجاج، **وهذا باطل من وجوه:**

منها: أن القول بأن أعيان الممكنات ثابتة في العدم قول باطل.

ومنها: أن قولهم: إن وجود الخالق هو عين وجود المخلوق، هو أيضاً باطل.

ومنها: أن حلول الشعاع بالزجاج يقتضي حلول أحدهما بالآخر، وهم ينكرون الحلول، ويقولون: الوجود واحد.

ومنها: أن الشعاع الذي على نفس الزجاج ليس وجوده وجود الزجاج، وعندهم وجود الرب وجود الممكنات.

ومنها: أن الشعاع الحالَّ بهذا الزجاج ليس هو بعينه ذلك الشعاع الحالّ بالزجاج الآخر وإن كان نظيره، وهؤلاء عندهم أن الوجود واحد بالعين لا يتعدد.

ومنها: أن الشعاع عَرَضٌ مفتقر إلى الزجاج، فهو مفتقر إليه افتقار العَرَض إلى محلّه، فيلزم إذا مثّلوا به الرب أن يكون الرب مفتقراً إلى كل ما سواه، مع غنى كل ما سواه عنه، وهذا قلب كل حقيقة، وأعظم كفر بالخالق تعالى، فإنه سبحانه الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه مفتقر إليه.

وكل من قال بحلول الله في شيء من المخلوقات من النصارى وغيرهم، يلزمهم أن يكون مفتقراً إلى ما حلّ فيه، فإنه لا حقيقة للحلول إلا هذا.

ولهذا كان ما حلّ بقلوب المؤمنين من الإيمان والهدى والنور والمعرفة مفتقراً إلى قلوب المؤمنين ولا يقوم إلا بها.

وجميع الصور الذهنية القائمة بالأذهان مفتقرة إلى الأذهان لا

تقوم إلا بها، والشعاع مفتقر إلى محله لا يقوم إلا به، وهكذا سائر النظائر.

وهؤلاء الذين شابهوا النصارى، وزادوا عليهم من الكفر بقولهم: إن وجود الخالق وجود كل مخلوق، وإنه قائم بأعيان الممكنات، يقولون: إنه مفتقر إلى الأعيان في وجوده، وهي مفتقرة إليه في ثباتها فيجعلون الخالق محتاجاً إلى كل مخلوق، والمخلوق محتاجاً إلى الخالق، ويصرحون بذلك كما يصرح بعض النصارى: بأن اللاهوت محتاج إلى الناسوت، والناسوت محتاج إلى اللاهوت.

ومعلوم أن الله غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه، فهو الصَّمَدُ المستغني عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إليه.

فمن قال: إنه مفتقر إلى مخلوق بوجه ما، فهو كاذب مفترٍ كافر، فكيف بمن قال: إنه مفتقر إلى كل شيء؟

والمثل الذي ضربوه يقتضي أن يكون مفتقراً إلى غيرِه وغيرُه مستغنٍ عنه، كالمثل الذي ضربه النصارى له، لَمَّا مثّلوه بشعاع الشمس مع محله، فإن محل الشعاع مستغنٍ عن الشعاع، والشعاع مفتقر إلى محلّه.

فمقتضى هذا التمثيل أن الإله محتاج إلى الإنسان، والإنسان مستغنٍ عن الله، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]»اهـ[(١)].

سابع عشر: حقيقة قولهم هو قول فرعون:

قال الشيخ: «وفرعون هو إمام النُّفاة. ولهذا صرح محققو النُّفاة

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: بيان التلبيس (٢/ ٥٢١).

بأنهم على قوله كما يصرح به الاتحادية[١] من الجهمية النفاة»اهـ[٢].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «.. ولهذا كان باطن قول هؤلاء الاتحادية المنتسبة إلى الإسلام هو قول فرعون، وكنت أُبيِّن أنه مذهبهم وأبيِّن أنه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثني الثقة عن بعض طواغيتهم أنه قال: نحن على قول فرعون.

ولهذا يعظِّمون فرعون في كتبهم تعظيماً كثيراً، فإنهم لم يجعلوا ثَمَّ صانعاً للعالم خلق العالم، ولا أثبتوا رباً مدبراً للمخلوقات، وإنما جعلوا نفس الطبيعة هي الصانع، ولهذا جوزوا عبادة كلِّ شيء، وقالوا: من عَبَده فقد عبدَ الله، ولا يُتصور عندهم أن يُعبد غيرُ الله، فما من شيء، يُعْبَدُ إلا وهو الله، وهذه الكائنات عندهم أجزاؤه أو صفاته كأجزاء الإنسان أو صفاته.

فهؤلاء إذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقرِّبَهم إلى الله زُلفى، لكن لأنها عندهم هي الله، أو مَجْلى من مجاليه، أو بعضٌ من أبعاضه، أو صفة من صفاته، أو تعيُّن من تعيناته[٣]، وهؤلاء يعبدون ما يعبده فرعون وغيره من المشركين، لكن فرعون لا يقول: هي الله، ولا تقرِّبنا إلى الله، والمشركون يقولون: هي شفعاؤنا وتقرِّبنا إلى الله، وهؤلاء يقولون:

---

(١) قال ابن عربي: «(لمَّا كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف، وإنْ جار في العرف الناموسي كذلك قال: أنا ربكم الأعلى ـ أي: وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما، فأنا الأعلى منكم بما أُعطيته في الظاهر من الحكم فيكم).
وقال: (ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقروا له بذلك، وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، قالوا: فصحَّ قول فرعون: أنا ربكم الأعلى، وكان فرعون عينَ الحق)»اهـ فصوص الحِكم (ص٤١٣ ـ ٤١٤ ط. غراب).

(٢) الفتاوى (٥/ ١٧٢).

(٣) انظر: فصوص الحكم (ص٤٥، ط. غراب).

هي الله - كما تقدم - وأولئك أكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غيرَ الله أو جحدوه، وهؤلاء أوسع ضلالاً من حيث جوَّزوا عبادة كل شيء، وزعموا أنه هو الله وأن العابد هو المعبود، وإن كانوا إنما قصدوا عبادة الله»اهـ[1].

وقال الشيخ - في موضع آخر - بعد أن ذكر أن قولهم هو قول فرعون: «.. فصاروا يقولون: العالم هو الله، والوجود واحد، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق، والرب هو العبد، ما ثَمَّ ربٌّ وعبدٌ وخالقٌ ومخلوقٌ، بل هو عندهم فرقان، ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينتقصونهم، ويعيبون على نوح وعلى إبراهيم الخليل وغيرهما، ويمدحون فرعون، ويجوِّزون عبادة جميع المخلوقات وجميع الأصنام، ولا يرضون بأن تُعبَدَ الأصنام حتى يقولوا: إن عُبَّاد الأصنام لم يعبدوا إلا الله، وإن الله نفسه هو العابد وهو المعبود، وهو الوجود كلُّه، فجحدوا الرب، وأبطلوا دينه وأمره ونهيه وما أرسل به رسله وتكليمه لموسى وغيره.

وقد ضلَّ في هذا جماعة لهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك، كابن سبعين والصدر القونوي تلميذ ابن عربي والبلياني والتلمساني، وهو من حُذَّاقهم علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل، فيشرب الخمر ويأتي المحرمات.

وحدثني الثقة أنه قرأ عليه (فصوص الحكم) لابن عربي، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين، فلما قرأه رآه يخالف القرآن قال:

فقلت له: هذا الكلام يخالف القرآن.

فقال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا.

---

(١) الفتاوى (٧/ ٦٣١ - ٦٣٢).

وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول.

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له:

فمرَّا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم، فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله؟

فقال: وهل ثَمَّ شيء خارج عنها؟ نعم، الجميع في ذاته.

وهؤلاء حقيقة قولهم هو قول فرعون، لكن فرعون ما كان يخاف أحداً فينافقه، فلم يثبت الخالق وإن كان في الباطن مقراً به، وكان يعرف أنه ليس إلا مخلوق، لكن حُبَّ العلو في الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار، كما قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وأما هؤلاء، فهم من وجه ينافقون المسلمين، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع، ومن وجه هم ضُلَّالٌ يحسبون أنهم على حق، وأن الخالق هو المخلوق، فكان قولهم هو قول فرعون، لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد، وهؤلاء إما جُهَّالٌ ضُلَّالٌ، وإما منافقون مبطنون الإلحادَ والجحودَ، يوافقون المسلمين في الظاهر.

وحدثني الشيخ عبد السيد ـ الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم، وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً ـ:

أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له: الشرف البلاسي، يطلب منه المعرفة والعلم.

قال: فدعاني إلى هذا المذهب.

فقلت له: قولكم يشبه قول فرعون[!!].

قال: ونحن على قول فرعون.

فقلت لعبد السيد: واعترف لك بهذا[؟!].

قال: نعم.

وكان عبد السيد إذْ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب، فقلت له: هذا مذهب فاسد، وهو يؤول إلى قول فرعون، فحدَّثني بهذا.

فقلت له: ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون، لكن مع إقرار الخصم ما يُحتاج إلى بيِّنةٍ.

قال عبد السيد: فقلت له: لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون.

فقال: ولم؟!

قلت: لأن موسى أغرق فرعون.

فانقطع واحتجَّ عليه بالظهور الكوني.

فقلت لعبد السيد ـ وكان هذا قبل أن يسلم ـ: نفعتك اليهودية، يهودي خير من فرعوني»اهـ[1].

ونقل الشيخ نص كلام ابن عربي في تأييد مذهب فرعون، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

«وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطَّل الصانع، فإنه لم يكن منكراً هذا الوجود المشهود، لكن زعم أنه موجود بنفسه لا صانعَ له، وهؤلاء وافقوه في ذلك، لكن زعموا بأنه هو الله، فكانوا أضلَّ منه، وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم، ولهذا جعلوا عُبَّادَ الأصنام ما عبدوا إلا الله، وقالوا: (لما كان فرعون في منصب التحكُّم صاحب السيف، وإنْ جار في العرف الناموسي كذلك قال: أنا ربكم الأعلى، أي: وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما، فأنا الأعلى منكم بما أُعطيته في الظاهر من

---

(١) الفتاوى (١٣/ ١٨٥ ـ ١٨٨).

الحكم فيكم)[١].

قالوا: ولَمَّا علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقروا له بذلك، وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]، قالوا: فصح قول فرعون: أنا ربكم الأعلى، وكان فرعون عينَ الحق)[٢]»اهـ[٣].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «ويكفيك معرفةً بكفرهم أن من أخف أقوالهم أن فرعون مات مؤمناً بريئاً من الذنوب ـ كما قال ـ وكان موسى قرة عينٍ لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهراً مطهّراً ليس فيه شيء من الخبث؛ لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام، والإسلام يَجُبُّ ما قبله، وقد علم بالاضطرار من دين أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى أن فرعون من أكفر الخلق بالله.

بل لم يقصَّ الله في القرآن قصة كافر باسمه الخاص أعظم من قصة فرعون، ولا ذكر عن أحد من الكفار من كفره وطغيانه وعُلُوِّه أعظم مما ذكر عن فرعون، وأخبر عنه وعن قومه أنهم يدخلون أشد العذاب، فإن لفظ آل فرعون كلفظ آل إبراهيم وآل لوط وآل داود وآل أبي أَوْفى[٤]

---

(١) هذا نص كلام ابن عربي في كتابه: فصوص الحِكم (ص٤١٣ ـ ٤١٤، ط. غراب).

(٢) هذا ـ أيضاً ـ نص كلام ابن عربي في كتابه: فصوص الحِكم (ص٤١٤، ط. غراب).

(٣) الفتاوى (١١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (١/ ٢٥٥).

(٤) هو عبد الله بن أبي أوفى، واسمه: علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد بن رفاعة الأسلمي، أبو معاوية، وقيل: أبو إبراهيم، له ولأبيه صحبة، وشهد عبد الله الحديبية، وروى أحاديث شهيرة ثم نزل الكوفة وتوفي سنة ٧٨هـ.
انظر: الكاشف للذهبي (١/ ٥٣٩)، تهذيب التهذيب (١٢/ ٣١٢)، الإصابة (٤/ ٨١).

يدخل فيها المضاف باتفاق الناس، فإذا جاؤوا إلى أعظم عدوٍّ لله مِنَ الإنس أو مَن هو من أعظم أعدائه، فجعلوه مصيباً محقّاً فيما كفَّره به الله، عُلم أن ما قالوه أعظم من كفر اليهود والنصارى، فكيف بسائر مقالاتهم؟»اهـ[١].

ثامن عشر: قولهم يشبه قول الدجال، بل هم أتباعه:

قال شيخ الإسلام: «وهؤلاء من جنس أتباع الدجال الذي يدَّعي الإلهية ليُتبع، مع أن الدجال يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك، فتخرج معه كنوز الذهب والفضة، ويقتل رجلاً مؤمناً ثم يأمر به فيقوم، ومع هذا فهو الأعور الكذاب الدجال، فمن ادعى الإلهية بدون هذه الخوارق كان دون هذا الدجال»اهـ[٢].

تاسع عشر: قولهم: إن عُبّاد الأصنام على صواب؛ لأنهم ما عبدوا في الحقيقة إلا الله:

يقول هؤلاء الاتحادية: إن عُبّاد الأصنام أخطؤوا لمَّا عبدوا بعض المظاهر دون بعض، ولو أنهم عبدوا كل شيء لكان أوفقَ لهم.

قال شيخ الإسلام: «وكذلك يقولون في عُبَّاد الأصنام: إنما أخطؤوا لمَّا عبدوا بعض المظاهر دون بعض، فلو عبدوا الجميع لما أخطؤوا عندهم، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام[٣]. وهذا مع

(١) الفتاوى (٢/ ١٢٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الجواب الصحيح (٤/ ٣٠٥)، المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٥)، بغية المرتاد (ص٣٧٨)، الرسائل والمسائل (١/ ١٨٦).

(٢) الفتاوى (٢/ ٤٨١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الجواب الصحيح (٣/ ٣٢٥).

(٣) انظر: فصوص الحكم (ص٤١٩، ط. غراب).

ما فيه من الكفر العظيم، ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض؛ لأنه يقال لهم: فمن المُخطىء؟

لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق، ويقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق»اهـ(١).

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «عاب ابن عربي نوحاً أول رسول بُعِثَ إلى أهل الأرض، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين وأنجاه ومن معه في السفينة، وأهلك سائر أهل الأرض لمَّا كذبوه، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعظَّم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام، وأنهم ما عبدوا إلا الله، وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله(٢)،

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٢) قال ابن عربي في فصوص الحكم: «لو أن نوحاً عليه السلام جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه: فدعاهم جهاراً ثم دعاهم إسراراً، ثم قال لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، وقال: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًافَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.
وذكر عن قومه أنهم تصامموا عن دعوته لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته، فعلِم العلماء بالله ما أشار إليه نوح عليه السلام في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلِم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان، والفرقان لا يتضمن القرآن، ولهذا ما اختص بالقرآن إلا محمد ﷺ وهذه الأمة التي هي خير أمة أُخرجت للناس، فـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يجمع الأمرين في أمر واحد، فلو أن نوحاً يأتي بمثل هذه الآية لفظاً أجابوه، فإنه شبّه ونزّه في آية واحدة، بل في نصف آية.
ونوح دعا قومه ﴿لَيْلًا﴾ من حيث عقولهم وروحانياتهم فإنها غيب، و﴿وَنَهَارًا﴾ دعاهم أيضاً من حيث ظاهر صورهم وحسّهم، وما جمع في الدعوة مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فنفرت بواطنهم لهذا الفرقان فزادهم فراراً.
ثم قال عن نفسه أنه دعاهم ليغفر لهم، لا ليكشف لهم، وفهموا ذلك منه ﷺ لذلك فـ ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾، وهذه كلها صورة الستر التي =

وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار، كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وغيرهم»اه[١].

عشرون: قولهم: إن بني إسرائيل في عبادة العجل كانوا على حق وصواب؛ لأنهم في الحقيقة ما عبدوا إلا الله:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومدح عباد العجل وتنقص هارون، وافترى على موسى، فقال: «وكان موسى أعلمَ بالأمر من هارون؛ لأنه عَلِم ما عَبَدَهُ أصحاب العجل، لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إياه، وما قضى الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عينَ كلِّ شيء»[٢]، فذكر عن موسى أنه عتب على هارون أنه أنكر عليهم عبادة العجل وأنه لم يسع ذلك فأنكره، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء بل يراه عين كل شيء.

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهارون وعلى الله وعلى عُبَّاد العجل: فإن الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هارون، وأنه أخذ بلحية هارون لَمَّا لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفته.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ

= دعاهم إليها، فأجابوا دعوته بالفعل لا بلبيك»اهـ (ص٦٧، ط. غراب).

(١) الفتاوى (١٣/ ١٩١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المستدرك على الفتاوى (١/ ٢٥٥).

(٢) هذا نص كلام ابن عربي في كتابه: فصوص الحِكم (ص٣٦٠ ـ ٣٦١).

فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٨٣ ـ ٩٤].

قلت لبعض هؤلاء: هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه؟

فقال: لا، بل يخالفه!

قلت: فاختر لنفسك: إما القرآن، وإما كلام ابن عربي؟»اهـ[1].

إحدى وعشرون: ردّ الشيخ ـ ردًّا عاماً ـ على تصويب ابن عربي وشيعته عبادة الأصنام، وعبادة بني إسرائيل للعِجل:

فقال رحمه الله: «.. وهذا من أظهر الفرية على الله وعلى كتابه وعلى دينه وعلى أهل الأرض، فإن الله في غير موضع أخبر:

أن المشركين عبدوا غير الله، بل يعبدون الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢].

وقال تعالى عن يوسف أنه قال: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

---

(١) الفتاوى (١٣/ ١٩١ ـ ١٩٢).

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وقال تعالى عن الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٥٠]، فهو سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩].

وهؤلاء الملحدون يقولون: ما عبدنا غير الله في كل معبود، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٤٩]، إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، قال أبو قلابة[1]: «هي لكل مفترٍ إلى يوم القيامة أن

---

(١) هو عبد الله بن زيد بن عمرو، أو عامر بن ناتل بن مالك، الإمام شيخ الإسلام =

يذله الله»[(١)]، والجهمية النُّفاة كلهم مفترون، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: «إنما يقودون قولهم إلى فرية على الله»[(٢)]، وهؤلاء من أعظمهم افتراءً على الله.

فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراءً ممن يقول: إنه يحل فيه، وهؤلاء يُجهِّلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق، فإن هذا إنما يكون إذا كان شيئان متباينان، ثم اتحد أحدهما بالآخر كما يقوله النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت، وهذا إنما يقال في شيء معين وهؤلاء عندهم ما ثَمَّ وجودٌ لغيره حتى يتَّحد مع وجوده، وهم من أعظم الناس تناقضاً:

فإنهم يقولون: ما ثَمَّ غيرٌ ولا سِوى.

وتقول السبعينية: ليس إلا الله، بدل قول المسلمين: لا إله إلا الله.

ثم يقولون: هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا، فإذا كان ما ثَمَّ غيرٌ ولا سِوى فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ومن الذي ليس بمحجوب وعمَّ حُجب؟ فقد أثبتوا أربعة أشياء:

قومٌ محجوبون، وقومٌ ليسوا بمحجوبين، وأمراً انكشف لهؤلاء وحُجب عن أولئك، فأين هذا من قولهم ما ثَمَّ اثنان ولا وجودان؟!

= أبو قلابة، الجرمي البصري، أريد على القضاء فهرب إلى الشام، روى عن أنس بن مالك، ومالك بن الحويرث، توفي سنة ١٠٥هـ، وقيل: ١٠٧هـ.
سير الأعلام (٤/٤٦٨)، الثقات لابن حبان (٥/٤)، تذكرة الحفاظ (١/ ٩٤)، الكاشف للذهبي (١/ ٥٥٤).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣١، تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ ..﴾ [الأعراف: ١٥٢]).

(٢) الأثر: الرد على الجهمية للإمام أحمد (ص٢٢، ت: محمد حسن راشد، ط. المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٩٣هـ).

كما حدثني الثقة: أنه قال للتلمساني: فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وابنته؟

قال: نعم! الجميع عندنا سواء، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

فقيل لهم: فمن المخاطِب للمحجوبين: أهوَ هُم أم غيرهم؟ فإن كانوا هم، فقد حرَّم على نفسه لَمَّا زعم أنه حرام عليهم دونه، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين، وعندهم ما ثَمَّ غيرٌ...

قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء: قول الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]، ممن تبرأ الخليل؟ أتبرَّأ من الله تعالى؟ وعندكم ما عُبِدَ غيرُ الله قط! والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين، وقد جعله الله لنا وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٦]، وقد قال ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد**[1]:

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب الشاعر، أسلم ورجع إلى قومه ولم يقل بعد الإسلام شعراً، فسئل عن ذلك فقال: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، ويقال: إنه ما قال في الإسلام إلا بيتاً واحداً:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويقال: بل قوله:

=

ألا كل شيء ما خلا الله باطل[(١)])[(٢)]

وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، قال طائفة من السلف: كل عمل باطلٌ إلا ما أريد به وجهه[(٣)].

= الحمد لله إذ لم يأتني أجلي ... حتى لبست من الإسلام سربالاً

مات بالكوفة سنة ١٤١هـ.

انظر: الثقات (٣/ ٣٦٠)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ١٨١)، الإصابة (٥/ ٦٧٥)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ٣٣).

(١) البيت للبيد بن ربيعة، من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر مطلعها (من بحر الطويل):

ألا تَسْألانِ المَرْءَ ماذا يُحاوِلُ ... أنَحْبٌ فيُقضَى أمْ ضَلالٌ وباطِلُ

حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بسَبِيلِهِ ... ويَفْنى إذا ما أخطأتْهُ الحَبائِلُ

حتى قال:

أرَى النَّاسَ لَا يَدرُونَ ما قَدْرُ أمرِهِمْ ... بلى كلُّ ذي لُبٍّ إلى اللهِ وَاسِلُ

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهُ باطِلُ ... وكلُّ نَعيمٍ لا مَحَالَةَ زائِلُ

وكلُّ أُناسٍ سوْفَ تَدخُلُ بَينَهُمْ ... دُوَيْهِيَةٌ تَصفَرُّ مِنها الأنامِلُ

انظر: ديوان لبيد بن ربيعة (ص١٣١).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، ٣/ ١٣٩٥/ ٣٦٢٨)، ومسلم (كتاب الشعر، ٤/ ١٧٦٨/ ٥٧٩٥)، كلاهما من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قال الإمام ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٣): «قال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: أي: إلا ما أريد به وجهه. وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له، قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل»اهـ

وانظر: تفسير البغوي (١/ ٢٢٨).

وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ [القصص: ٨٧، ٨٨]، والإله: هو المألوه أي المستحق لأن يُؤلَه، أي: يعبد ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل.

فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور، لكن إمامهم ابن عربي يقول: الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها، فلهذا قال: فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلٰهاً[١] فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاً لها حيث كانوا مألوهين، ومعنى مألوهين عنده: مربوبين، وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم، وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً»اهـ[٢].

ثاني وعشرون: أدلة الاتحادية والحلولية، والرد عليهم:

بيّن شيخ الإسلام أن قول الاتحادية باطل عقلاً ونقلاً، واتحاد ذات الرب بذات العبد باطل لا يمكن وقوعه، فقال رحمه الله: «وأما اتحاد ذات العبد بذات الرب، بل اتحاد ذات عبد بذات عبد، أو حلول حقيقة في حقيقة كحلول الماء في الوعاء، فهذا باطل قطعاً، بل ذلك باطل في العبد مع العبد؛ فإنه لا تتَّحد ذاته بذاته ولا تحل ذات أحدهما في ذات الآخر، وهذا هو الذي وقعت فيه الاتحادية والحلولية من النصارى وغيرهم من غالية هذه الأمة وغيرها، وهو اتحاد متجدِّد بين ذاتين كانتا متميزتين فصارتا متحدتين، أو حلول إحداهما في الأخرى، فهذا بيِّن البطلان.

---

(١) انظر: في فصوص الحكم (ص٤٥، ط. غراب).
(٢) الفتاوى (٢/ ١٩٤ ـ ٢٠٥).

وأبطلُ منه قول من يقول: ما زال واحداً وما ثَمَّ تعددٌ أصلاً، وإنما التعدد في الحجاب، فلما انكشف الأمر رأيت أني أنا وكل شيء هو الله[!!] سواء قال بالوحدة مطلقاً، أو بوحدة الوجود المطلق دون المعين، أو بوحدة الوجود دون الأعيان الثابتة في العدم، فهذه وما قبلها مذاهب أهل الكفر والضلال»اهـ[1].

وبيّن الشيخ في مواضعَ كثيرة أن ذات الخالق ﷻ مباينة لذات المخلوق، ولولا ذلك لما كان هناك إله ومألوه، ورب ومربوب، وإذا قيل لأحد: لا تعبدْ غير الله، صار هذا القول سفهاً؛ لأنه ما ثَمَّ غيرٌ، قال الشيخ:

«وقول القائل: (ما ثَمَّ غيرٌ) إذا أراد به ما يريده أهل الوحدة أي ما ثم غيرٌ موجودٌ سوى الله، فهذا كفر صريح، ولو لم يكن ثَمَّ غير لم يقل: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، ولم يقل ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

فإنهم كانوا يأمرونه بعبادة الأوثان. فلو لم يكن غير الله لم يصح قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، ولم يقل: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، ولم يقل الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧] ولم يقل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧].

فإن إبراهيم لم يُعادِ ربه ولم يتبرأ من ربه، فإن لم تكن تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها هم وآباؤهم الأقدمون غير الله، لكان إبراهيم قد تبرأ

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٣٥).

من الله وعادى الله، وحاشَ إبراهيم من ذلك»اهـ[1].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ راداً على الاتحادية عموماً:

«**والتحقيق**: أن الله خالق كل شيء، والمعدوم ليس بشيء في الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به، فيكون سبباً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والله سبحانه خالق الإنسان ومُعَلمه، فهو الذي ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، وهو الأكرم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥]، ولو قُدِّر أن الإله بمعنى الرب فهو الذي جعل المربوب مربوباً، فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوهاً، والمربوب لم يجعله رباً، بل ربوبيته صفة، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها، كان قد اتخذ الله رباً ولم يبْغِ رباً سوى الله، ولم يتخذ رباً سواه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره. فإذا عبده الإنسان، فقد وَحَّدَه من لم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

---

(١) الفتاوى (٢/٣٧٦).

وقال إبراهيم لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

فالمخلوق ليس بإله في نفسه، لكن عابده اتخذه إلهاً، وجعله إلهاً، وسماه إلهاً. وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره، كما أن الجاهل إذا اتُّخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلاً، فإنه لا يصلح أن يؤمَّ ولا يفتي ولا يقضي، وغير الله لا يصلح أن يُتّخذ إلهاً يعبد ويدعى، فإنه لا يخلق ولا يرزق، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطيَ لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له، فدعاؤه باطل وضلال، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعي، أو يسمع ولكن لا يستجيب له.

فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]، فغير الله لا مالك لشيء، ولا شريك في شيء، ولا هو معاون للرب في شيء، بل قد يكون له شفاعةٌ إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين، ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له، ومَنْ دونه لا يملكون الشفاعة البتة، فلا يصلح من سواه لِأنْ يكون إلهاً معبوداً كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً.

لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»اهـ[1].

---

(١) الفتاوى (٢/ ١٩٤ ـ ٢٠٥).

ثالث وعشرون: أما الأدلة التي استدل بها الاتحادية على مذهبهم في الحلول والاتحاد، فيمكن بالاستقراء حصرها فيما يأتي:

*** الدليل الأول:**

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]:

وجه استدلالهم:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قول القائل: إن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]: عيْن الإثبات للنبي ﷺ، كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، فهذا بناءً على قول أهل الوحدة والاتحاد، وجعل معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]: أن فعلك هو فعل الله لعدم المغايرة»اهـ(١).

ثم بيّن الشيخ الرد عليهم بقوله: «وهذا ضلال عظيم من وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، نزل في سياق قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨].

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ: كان يدعو على قوم من الكفار أو يلعنهم في القنوت، فلما أنزل الله هذه الآية: تَرَك ذلك(٢).

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٣٠).

(٢) الحديث: رواه البخاري من حديث: سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم (كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، ٤/ ١٤٩٣/ ٣٨٤٢)، ومسلم من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه (كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت، ١/ ٤٦٦/ ٦٧٥).

فعُلِم أن معناها: إفراد الرب تعالى بالأمر، وأنه ليس لغيره أمر، بل إن شاء الله تعالى قطع طرفاً من الكفار وإن شاء كبتهم فانقلبوا بالخسارة، وإن شاء تاب عليهم وإن شاء عذبهم، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]»اهـ[١].

* **الدليل الثاني: آيات المعية والقرب:**

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ [الواقعة: ٨٥].

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن علوِّ الله تعالى:

«**والمقصود**: أنه تعالى وصف نفسه أيضاً بالمعية والقرب، **والمعية معيتان: عامة وخاصة**:

فالأولى: كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤].

والثانية: كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما (القرب) فهو كقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ [الواقعة: ٨٥].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢)، وبقية الوجوه التي رد بها الشيخ عليهم تختص بآيات أخر استدلوا بها، وستأتي في مواضعها.

وقد افترق الناس في هذا المقام أربع فرق: فالجهمية النفاة: . .

وقسم ثان: يقولون إنه بذاته في كل مكان، كما يقوله النجارية[١] وكثير من الجهمية، عُبَّادهم وصوفيتهم وعوامُّهم يقولون: إنه عين وجود المخلوقات كما يقوله أهل الوحدة، القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركباً من الحلول والاتحاد.

وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب، ويتأولون نصوص العلو والاستواء، وكل نص يحتجون به حجة عليهم، فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان، وفي النصوص ما يبين نقيض قولهم، فإنه قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، فكل من في السموات والأرض يسبِّح، والمسبِّح غير المسبَّح، ثم قال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: ٢]، فبيَّن أن الملك له، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

وفي الصحيح: **(أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)**[٢]، فإذا كان هو الأول كان هناك ما يكون بعدَه.

---

(١) النجارية: فرقة من فرق المعطلة، ينتسبون إلى الحسين بن محمد النجار، قال في المقالات: «يزعم أن الله ـ سبحانه ـ لم يزل جواداً بنفي البخل عنه، وأنه لم يزل متكلماً، بمعنى أنه لم يزل غير عاجز عن الكلام، وأن كلام الله ـ سبحانه ـ محدَث مخلوق»اهـ. وقال الشهرستاني: «وحكى الكعبي عن النجار أنه قال: الباري ـ تعالى ـ بكل مكان، ذاتاً ووجوداً، لا معنى العلم والقدرة»اهـ.
انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢)، الفرق بين الفرق (ص٢٠٧)، الملل والنحل (١/ ٨٩ ـ ٩٠).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٤/ ٢٠٨٤/ ٢٧١٣)، والترمذي (كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، ٥/ ٤٧٢/ ٣٤٠٠)، وأبو داود (كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم، ٤/ ٣١٢/ ٥٠٥١)، كلهم من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا كان آخراً كان هناك ما الرب بعده.

وإذا كان ظاهراً ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه.

وإذا كان باطناً ليس دونه شيء كان هناك أشياء نفى عنها أن تكون دونه.

ولهذا قال ابن عربي: «من أسمائه الحسنى العلي، علام يكون علياً؟ وما ثَمَّ إلا هو، وعلى ماذا يكون علياً؟ وما يكون إلا هو، فعلوُّه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى محدَثات هي العلية لذاتها وليست إلا هو»[1].

ثم قال: «قال الخراز: وهو وجه من وجوه الحق، ولسان من ألسنته، ينطق عن نفسه بأن الله يُعرف بجمعه بين الأضداد؛ فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثَمَّ من تراه غيره، وما ثَمَّ من بطن عنه سواه، فهو ظاهر لنفسه وهو باطن عن نفسه»[2].

وهو المسمى: أبو سعيد الخراز.

والمعية: لا تدل على الممازجة والمخالطة، وكذلك لفظ القرب، فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد كما هو عندهم في سائر الأعيان، وكل هذا كفر وجهل بالقرآن»اهـ[3].

وقال الشيخ ـ في موضع آخر ـ في معرض كلامه عن هؤلاء الحلولية: «.. فهم دائماً مترددون بين الإشراك وبين التعطيل، إما يجعلونه كالمخلوقات وإما أن يجعلوه كالمعدومات:

فالأول: يكثر في عُبَّادهم ومتصوفتهم.

---

(١) فصوص الحكم (ص٧٧ ط. غراب).

(٢) المصدر السابق (ص٧٨ ط. غراب).

(٣) الفتاوى (٥/ ٢٢٧ ـ ٢٢٩).

والثاني: يكثر في علمائهم ومتكلمتهم.

ولهذا لما كان صاحب (الفصوص) ونحوه من القسم الأول: جعلوه نفس الموجودات، وجوَّزوا كل شرك في العالم، وجعلوه نفس العابد والمعبود، والناكح والمنكوح، والشاتم والمشتوم، وقالوا: ما عَبَدَ أحدٌ اللهَ ولا يمكن أن يعبد إلا الله، بل لا يتصور أن يكون العابد والمعبود عندهم إلا الله[1].

ولما كان صاحب (التأسيس)[2] ونحوه من القسم الثاني جعلوه كالمعدومات المحضة، ولهذا يقال فيهم: متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً، وهذا هو نهاية التعطيل، ومتصوفتهم يعبدون كل شيء، وهذا نهاية الإشراك»اهـ[3].

*** الدليل الثالث:**

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]:

قال الشيخ: «قد تكلم طائفة من المتكلمة والمتفلسفة والمتصوفة في قيام الممكنات والمحدَثات بالواجب القديم، وهذا المعنى حق؛ فإن الله ربُّ كل شيء ومليكُه.

---

(١) قال ابن عربي: «ومن عرف ما قررناه.. علِم أن الحق المنزّه هو الخلق المشبه.. كل ذلك من عين واحدة، لا؛ بل هو العين الواحدة وهو العيون الكثيرة ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] والولد عين أبيه فما رأى يذبح سوى نفسه ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان»اهـ. فصوص الحكم (ص٧٨ ـ ٧٩، ط. محمود غراب).

وانظر: فصوص الحكم (٣٥٤، ٤١٩، ٤٣٣ ـ ٤٣٨).

(٢) يعني الفخر الرازي، وكتابه «تأسيس التقديس».

(٣) بيان التلبيس (٢/١٩٦ ـ ١٩٧).

لكن يستشهدون على ذلك بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

ويقولون: إن معنى الآية: أن كل ممكن هو باعتبار ذاته هالك، أو هو عدم محض ونفيٌ صِرْف، وإنما له الوجود من جهة ربه، فهو هالك باعتبار ذاته موجود بوجه ربه، أي: من جهته هو موجود»اهـ(١).

وجه استدلالهم:

بيّنه الشيخ بقوله بعد الكلام السابق مباشرة: «ثم منهم من قد يخرج منها إلى مذهب الجهمية الاتحادية والحلولية، فيقول: إن ذلك الوجه هو وجود الكائنات، ووجه الله هو وجوده، فيكون وجودُه وجودَ الكائنات، لا يميز بين الوجود الواجب والوجود الممكن ـ كما هو قول ابن عربي وابن سبعين ونحوهما ـ وهو لازم لمن جعل وجوده وجوداً مطلقاً لا يتميز بحقيقةٍ تخصّه، سواء جعله وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق ـ كما يزعم ابن سينا ونحوه من المتفلسفة ـ أو جعله وجوداً مطلقاً لا بشرط ـ كما يقوله الاتحادية ـ»اهـ(٢).

الرد عليهم:

قال الشيخ رادّاً عليهم ـ بعد الكلام السابق مباشرة ـ: «وهم يسلمون من القواعد العقلية مما هو يعلم بضرورة العقل ما يوجب أن يكون الموجود ـ بشرط الإطلاق ـ إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان، كالحيوان المطلق بشرط الإطلاق والإنسان المطلق بشرط الإطلاق... ونحو ذلك، وأن المطلق لا بشرط ليس له حقيقة غير الوجود العيني والذهني ليس في الأعيان الموجودة وجود مطلق سوى أعيانها، كما ليس في هذا الإنسان وهذا الإنسان إنسان مطلق وراء هذا الإنسان.

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٥).

(٢) الفتاوى (٢/ ٢٥).

فيكون وجود الرب على: الأول: ذهني. **وعلى الثاني**: نفس وجود المخلوقات.

وقول الجهمية من المتقدمين والمتأخرين لا يخرج عن هذين القولين، وهو حقيقة التعطيل، لكن هم يثبتونه أيضاً، فيجمعون بين النفي والإثبات، فيَبْقون في الحَيْرة، ولهذا يجعلون الحَيْرة منتهى المعرفة.

ويروون عن النبي ﷺ حديثاً مكذوباً عليه: (أعلمكم بالله أشدُّكم حيرة)[1]، وأنه قال: (اللهم زدني فيك تحيراً)[2]، ويجمعون بين النقيضين ملتزمين لذلك.

وهذا قول القرامطة الباطنية والاتحادية، وهو لازم لقول الفلاسفة والمعتزلة، وإن لم يصرح هؤلاء بالتزامه بخلاف الباطنية والاتحادية من المتصوفة، فإنهم يصرحون بالتزامه، ويذكرون ذلك عن الحلاج.

والمقصود هنا أن يقال: أما كون وجود الخالق هو وجود المخلوق، فهذا كفر صريح باتفاق أهل الإيمان، وهو من أبطل الباطل في بديهة عقل كل إنسان، وإن كان منتحلوه يزعُمون أنه غاية التحقيق والعرفان، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع. وأما كون المخلوق لا وجود له إلا من الخالق ـ سبحانه ـ فهذا حقٌّ، ثم جميع الكائنات هو خالقها وربها ومليكها، لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته وخلقه، هو خالق كل شيء ﷻ.

لكن الكلام هنا في تفسير الآية بهذا فإن المعاني تنقسم إلى حق وباطل:

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ في حديث مرفوع، ولكن ذكر القشيري عن ذي النون لفظاً قريباً منه، وهو قول ذي النون: «أعرف الناس بالله أشدهم فيه حيرة»اهـ. الرسالة القشيرية (٢/ ٦٠٥).

(٢) الحديث: لم أقف عليه.

فالباطل: لا يجوز أن يفسر به كلام الله.

والحق: إن كان هو الذي دل عليه القرآن فسر به، وإلا فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة، كالمناسبة التي بين الرؤيا والتعبير، وإن كانت خارجةً عن وجوه دلالة اللفظ، كما تفعله القرامطة والباطنية؛ إذ دلالة اللفظ على المعنى سمعية، فلا بد أن يكون اللفظ مستعملاً في ذلك المعنى، بحيث قد دل على المعنى به لا يُكتفى في ذلك بمجرد أن يصلح وضع اللفظ لذلك المعنى؛ إذ الألفاظ التي يصلح وضعها للمعاني ولم توضع لها لا يحصي عددها إلا الله، وهذا عند من يعتبر المناسبة بين اللفظ والمعنى؛ كقول طائفة من أهل الكلام والبيان.

وأما عند من لا يعتبر المناسبة: فكل لفظ يصلح وضعه لكل معنى، لا سيما إذا علم أن اللفظ موضوع لمعنى هو مستعمل فيه، فحمله على غير ذلك لمجرد المناسبة كذب على الله، ثم إن كان مخالفاً لما علم من الشريعة، فهو دأب القرامطة، وإن لم يكن مخالفاً فهو حال كثير من جُهَّال الوُعَّاظ والمتصوفة الذين يقولون بإشارات لا يدل اللفظ عليها نصاً ولا قياساً.

وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دل اللفظ عليه، ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوماً من جهة القياس والاعتبار، فحالهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس والاعتبار، وهذا حق إذا كان قياساً صحيحاً لا فاسداً واعتباراً مستقيماً لا منحرفاً.

وإذا كان المقصود هنا الكلام في تفسير الآية، فنقول: تفسير الآية بما هو مأثور ومنقول عمن قاله من السلف والمفسرين من أن المعنى: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه هو أحسن من ذلك التفسير المحدث، بل لا يجوز تفسير الآية بذلك التفسير المحدث.

وهذا يبين بوجوه، بعضها يشير إلى الرجحان وبعضها يشير إلى البطلان:

الأول: أنه لم يقل: كل شيء هالك، إلا من جهته إلا من وجهه، ولكن قال: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وهذا يقتضي أن ثَمَّ أشياء تهلك إلا وجهه، فإن أريد بوجهه وجوده اقتضى أن كل ما سوى وجوده هالك، فيقتضي أن تكون المخلوقات هالكة، وليس الأمر كذلك، وهو أيضاً على قول الاتحادية، فإنه عندهم ما ثَمَّ إلا وجود واحد، فلا يصح أن يقال: كل ما سوى وجوده هالك؛ إذ ما ثَمَّ شيء يخبَر عنه بأنه سوى وجوده؛ إذ أصل مذهبهم نفي السوى والغير في نفس الأمر وهذا يتم بِ:

الوجه الثاني: وهو أنه إذا قيل: المراد بالهالك: الممكن الذي لا وجود له من جهته، فيكون المعنى: كل شيء ليس وجوده من نفسه إلا هو، قيل: استعمال لفظ الهالك في الشيء الموجود المخلوق لأجل أن وجوده من ربه لا من نفسه لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً، والقرآن قد فرَّق في اسم الهلاك بين شيء وشيء.

فقال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤].

وقال: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقال: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩].

وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٧].

فهذه الآيات تقتضي أن الهلاك استحالة وفساد في الشيء الموجود ـ كما سنبينه ـ لا أنه يعني أنه ليس وجوده من نفسه؛ إذ جميع المخلوقات تشترك في هذا.

الوجه الثالث: أن يقال: على هذا التقدير يكون المعنى: أن كل ما سواه ممكن قابل للعدم ليس وجوده من نفسه، وهذا المعنى ليس هو الذي يقصدونه، وإنما مقصودهم أن كل ما سواه فوجوده منه، وبين المعنيين فرق واضح، فإن الخبر عن الشيء بأنه ممكن قابل العدم ليس وجوده من نفسه، غير الخبر عنه بأنه موجود وأن وجوده من الله.

الوجه الرابع: أن يقال: إذا كان المراد أن كل ما سواه ممكن، والضمير عائد إلى واجب الوجود ـ إلى الله الذي خلق الكائنات ـ كان هذا من باب إيضاح الواضح، فإنه من المعلوم أن كل ما سوى واجب الوجود فهو ممكن، وأن كل ما هو مخلوق له فهو ممكن.

الوجه الخامس: أن يقال: اسم الوجه في الكتاب والسنة إنما يذكر في سياق العبادة له، والعمل له، والتوجه إليه، فهو مذكور في تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته، لا في تقرير وحدانية كونه خالقاً ورباً، وذلك المعنى هو العلة الغائية، وهذا هو العلة الفاعلية، والعلة الغائية هي المقصودة التي هي أعلى وأشرف، بل هي علة فاعلية للعلة الفاعلية.

ولهذا قُدِّمت في مثل:

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وفي مثل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وإذا كان كذلك كان حمل اسم الوجه في هذه الآية على ما يدل عليه في سائر الآيات أوْلَى من حمله على ما يدل عليه لفظ الوجه في شيء من الكتاب والسنة، بل هذا هو الواجب دون ذاك؛ لأن هذا استعمال للفظ فيما لم يرد به الكتاب، والكتاب قد ورد بغيره حيث ذكر.

الوجه السادس: أن اسم الهلاك يراد به الفساد وخروجه عما يقصد به ويراد، وهذا مناسب لِمَا لا يكون لله؛ فإنه فاسد لا ينتفع به في الحقيقة، بل هو خارج عما يجب قصده وإرادته.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

أخبر: أنهم يهلكون أنفسهم بنهيهم عن الرسول ونأيهم عنه، ومعلوم أن من نأى عن اتباع الرسول ونهى غيره عنه ـ وهو الكافر ـ فإن هلاكه بكفره هو حصول العذاب المكروه له دون النعيم المقصود»اهـ(١)

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٥ ـ ٣١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٤٢٨ ـ ٤٣٤).

*** الدليل الرابع:**

قول النبي ﷺ: (أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد[١]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[٢]

وجه استدلالهم:

قال الشيخ مبيناً وجه استدلالهم: «وقد غلط طائفة من الناس من الاتحادية وغيرهم كابن عربي، فرأوا أن الحق هو الموجود، فكل موجود حق، فقالوا: ما في العالم باطل؛ إذ ليس في العالم عدم، قالوا: والكفر إنما هو عدم وجود الشريك مثلاً. وإنما أُتوا من جهة اللفظ المجمل»اهـ[٣].

الرد عليهم:

قال الشيخ رحمه الله: «فهذه الألفاظ التي معهم من ألفاظ الكفار والمنافقين، ومعهم تشبيه الكونيات بالدينيات، والكونيات عامة لا اختصاص فيها، فلهذا كان هؤلاء أدخل في الاتحاد والحلول المطلق منهم في المعين، اعتقاداً وقولاً، وإن كانوا من جهة الحال والهوى يخصون بعض الأعيان ـ كما هو الواقع ـ لشبهة اختصاصه ببعض الأحكام الكونية، وسنتكلم عليهم ـ إن شاء الله ـ في الحلول الفاسد.

وإنما ذكرتهم هنا لما أردت أن أذكر كل ما فيه شَوْب اتحاد أو حلول بحق، فنبهت على ذلك ليفطن لموضع ضلالهم.

فإذا علم حقيقة هذه الأمور علم حقيقة قول النبي ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل)

---

(١) تقدم ترجمته (ص٤٧٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٧٣).

(٣) الفتاوى (٢/ ٤١٧).

فإن الباطل ضد الحق، والله هو الحق المبين.

والحق له معينان:

أحدهما: الوجود الثابت.

والثاني: المقصود النافع، كقول النبي ﷺ: **(الوتر حق)**(١).

والباطل نوعان أيضاً:

أحدهما: المعدوم، وإذا كان معدوماً كان اعتقاد وجوده والخبر عن وجوده باطلاً؛ لأن الاعتقاد والخبر تابع للمعتقد والمخبر عنه، يصح بصحته ويبطل ببطلانه، فإذا كان المعتقد المخبر عنه باطلاً كان الاعتقاد والخبر كذلك، وهو الكذب.

الثاني: ما ليس بنافع ولا مفيد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧]، وكقول النبي ﷺ: **(كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق)**(٢)، وقوله عن عمر رضي الله عنه: **(إن هذا رجل لا يحب الباطل)**(٣)، وما

---

(١) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب فيمن لم يوتر، ٢/ ٦٢/ ١٤١٩)، من حديث: بريدة رضي الله عنه، والنسائي (كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب الاختلاف على الزهري، ٣/ ٢٣٨/ ١٧١٠)، وابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الوتر بثلاث وخمس وسبع وتسع ١/ ٣٧٦/ ١١٩٠) كلاهما من حديث: أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، ٤/ ١٧٤/ ١٦٣٧)، والنسائي (كتاب الخيل، باب تأديب الرجل فرسه، ٦/ ٢٢٢/ ٣٥٧٨)، وابن ماجه (كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، ٢/ ٩٤٠/ ٢٨١١)، كلهم من حديث: عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري في الأدب المفرد (باب من مدح بالشعر، ١/ ١٠٦/ ٣٤٥) عن الأسود بن سريع قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله قد مدحت الله بمحامد ومدح، وإياك، فقال: (أما إن ربك يحب الحمد)، فجعلت =

لا منفعة فيه: فالأمر به باطل، وقصده وعمله باطل؛ إذ العمل به والقصد إليه والأمر به باطل.

ومن هذا قول العلماء: العبادات والعقود تنقسم إلى صحيح وباطل:

فالصحيح: ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده.

والباطل: ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصوده.

ولهذا كانت أعمال الكفار باطلاً، فإن الكافر من جهة كونه كافراً يعتقد ما لا وجود له، ويخبر عنه، فيكون ذلك باطلاً، ويعبد ما لا تنفعه عبادته، ويعمل له ويأمر به، فيكون ذلك أيضاً باطلاً.

ولكن لمَّا كان لهم أعمال وأقوال صاروا يشبهون أهل الحق، فلذلك:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١ ـ ٣]، إلى قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وقال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

= أنشده، فاستأذن رجل طوال أصلع، فقال لي النبي ﷺ: (اسكت) فدخل فتكلم ساعة ثم خرج، فأنشدته، ثم جاء فسكتني ثم خرج، فعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فقلت: من هذا الذي سكتني؟ قال: (هذا رجل لا يحب الباطل).

وقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فبيَّن أن المنَّ والأذى يبطل الصدقة، فيجعلها باطلاً لا حقّاً، كما يبطل الرياءُ وعدمُ الإيمان الإنفاقَ أيضاً.

وقد عمم بقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، أي: لا تجعلوها باطلة لا منفعة فيها ولا ثواب ولا فائدة، وقد غلط طائفة من الناس من الاتحادية وغيرهم كابن عربي، فرأوا أن الحق هو الموجود فكل موجود حق، فقالوا: ما في العالم باطل؛ إذ ليس في العالم عدم، قالوا: والكفر إنما هو عدمُ وجود الشريك مثلاً، وإنما أُتوا من جهة اللفظ المجمل:

فإن الشيء له مرتبتان:

مرتبة: باعتبار ذاته، فهو إما موجود فيكون حقاً، وإما معدوم فيكون باطلاً.

ومرتبة: باعتبار وجوده في الأذهان واللسان والبنان، وهو العلم والقول والكتاب، فالاعتقاد والخبر والكتابة أمور تابعة للشيء، فإن كانت مطابقة موافقة كانت حَقاً وإلا كانت باطلاً.

فإذا أخبرنا عن الحق الموجود أنه حق موجود وعن الباطل المعدوم أنه باطل معدوم كان الخبر والاعتقاد حقاً، وإن كان بالعكس كان باطلاً، وإن كان الخبر والاعتقاد أمراً موجوداً، فكونه حقاً وباطلاً باعتبار حقيقته المخبر عنها لا باعتبار نفسه، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حق لمجرد كونه موجوداً، إلا بقرينة تبين المراد، وهكذا العمل والقصد والأمر إنما هو حق باعتبار حقيقته المقصودة، فإن حصلت وكانت نافعة كان حقاً وإن لم تحصل أو حصل ما لا منفعة فيه كان باطلاً، وبهذين الاعتبارين يصير

في الوجود ما هو من الباطل كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، مع ما يوافق ذلك من عقل وذوق وكشف، خلافَ زعْم هذه الطائفة الضالة المضلة.

قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، شبَّه ما ينزل من السماء على القلوب من الإيمان والقرآن فيختلط بالشبهات والأهواء المغوية بالمطر الذي يحتمل سيله الزَّبَد، وبالذهب والفضة والحديد ونحوه إذا أذيب بالنار فاحتمل الزَّبَد فقذفه بعيداً عن القلب، وجعل ذلك الزبد هو مَثَل الباطل الذي لا منفعة فيه، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن، فهو مَثَل الحق النافع، فيستقر ويبقى في القلب[1].

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١]، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣]، فأخبر سبحانه أن

---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٥٩): «قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قال: قرآناً، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأودية قلوب العباد، قال صاحب سوق العروس: إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه: أن الله سبحانه مثّل القرآن بالماء، ومثّل القلوب بالأودية، ومثّل المحكم بالصافي، ومثل المتشابه بالزبد.
وقيل: الزبد مخايل النفس وغوائل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلعها، كما أن ماء السيل يجري صافياً فيرفع ما يجد في الوادي باقياً.
وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السنية. والأخلاق الزكية، التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء»اهـ.
وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦٦٨)، تفسير البغوي (١/ ٣٠٨).

سبب إضلال أعمال هؤلاء الذين كفروا حتى لم تنفعهم، وأن أعمال هؤلاء الذين آمنوا نفعتهم، فكُفِّرت سيئاتُهم وأصلح الله بالهم: أن هؤلاء اتبعوا الباطل قولاً وعملاً، اعتقاداً واقتصاداً، خبراً وأمراً، وهؤلاء اتبعوا الحق من ربهم ولم يتبعوا ما هو من غير ربهم، وإن كان حقاً من وجه.

وهذا تحقيق ما قلناه: فإن الخبر والعمل تابع للمخبَر عنه وللمقصود بالعمل، فإذا كان ذلك باطلاً لا حقيقة له كان التابع كذلك ـ وإن كان موجوداً ـ، وكذلك ما تقدم من قوله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ونحو ذلك من إبطال ما قد مضى ووجد، إنما هو عدمٌ لعدم فائدته لا عدم ذاته، فإن ذاته انقضت كما انقضى ما لم يبطل من الأعمال، فكيف يقال: لا باطل في الوجود؟ ثم يجعل هذا ذريعة إلى أن ذلك الموجود الذي فيه الحق والباطل هو عين الله لأنه هو الحق، ولا يميز بين الحق الخالق والحق المخلوق؟.

فتدبر كيف اشتمل مثل هذا الكلام على هاتين المقدمتين الباطلتين، وكيف استزلوا عقول الضعفاء بهذه الشبهة.

وقالوا: قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

والباطل: هو المعدوم، فكل ما سوى الله معدوم، والموجود ليس بمعدوم، فالموجود ليس فيه سِوَى، وإنما السِّوَى هو العدم.

فإن هذا مبني على المقدمتين الباطلتين:

إحداهما: قولهم: إن الباطل هو المعدوم، فإنه ليس كذلك، بل المعدوم باطل وليس كل موجود باطلاً، بل في الموجود ما هو حق وفيه ما هو باطل ـ كما تقدم ـ وهو الأعمال التي لا تنفع، والأخبار التي ليست بصدق، وما يندرج في هذين من المقاصد والعقائد.

الثانية: لو كان لا باطل إلا المعدوم، لكان الموجود حقاً، وكل

موجود فقد يسمى حقاً مع القرينة المفسرة باعتبار وجوده، وإن كان باطلاً لانتفاء حقيقته التي بها جاز إطلاق الحق عليه، لكن الحق حقان: حق خالق، وحق مخلوق.

وقد كان النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه الذي رواه ابن عباس رضي الله عنه يقول إذا قام من الليل: (**اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السمٰوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت**)[1].

وإذا ظهر أن في الوجود ما هو باطل في الحقيقة، ومنه ما هو حق من مخلوقات الله ليس هو الله ظهر تمويههم بقولهم: إن الباطل هو السِّوَى وهو العدم، وأما الموجود فهو هو.

وأيضاً: فنفس الحديث حجة عليهم، فإن قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

لفظٌ عام يدخل فيه كل موجود سوى الله، فإن لفظ: (الشيء): يعم كل الموجود بالاتفاق، ويدخل فيه ما له وجود ذهني أو لفظي أو رسمي كتابي، وإن لم يكن له وجود حقيقي من المعدومات والممتنعات، فهذا نص في أن كثيراً من الموجودات باطل.

ولا يجوز أن يراد به: كل معدوم ما خلا الله فهو باطل؛ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قد استثنى اللهَ تعالى ـ وهو الحق المبين ـ من لفظ

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه (ص٣٩٠).

إثبات، ومثل هذا الاستثناء يدل على التناول، بخلاف الاستثناء من غير موجب، كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]، فإن ذلك لا يدل على التناول، فلو كان التقدير: كل معدوم ما خلا الله باطل، للزم أن يكون الحق تعالى معدوماً. وهذا أبطل الباطل.

الثاني: أن: (كل شيء) نص في الوجود، لا يجوز قصرها على المعدومات بالاتفاق.

الثالث: أن المعدوم لا يدخل في لفظ: (كل شيء)، عند أهل السنة وعامة العقلاء، فضلاً عن كونه يختص به.

الرابع: أنه لو كان المعنى: كل معدوم فهو باطل، لكان هذا من باب تحصيل الحاصل، بل لفظ العدم أدلُّ على النفي من لفظ الباطل، فكيف يبين الجلي بالخفي؟.

الخامس: أنه لو أراد هذا لقال: كل ما سوى الله باطل، فإن هذه العبارة أقرب إلى احتمال مراد هؤلاء الملاحدة من هذا اللفظ، وإن كانت تلك العبارة لا تدل أيضاً على مرادهم.

وإذا لم يكن معنى الحديث ما ادَّعَوْه، فقد عرف أن كل ما سوى الله فهو باطل بوجهي الباطل اللذين تقدم تفسيرهما:

أحدهما: وهو المقصود النافع، والباطل ما لا منفعة في قصده، وكل شيء ما خلا الله ـ إذا كان له القصد والعمل ـ كان ذلك باطلاً، والأمر به باطل، وهذا يشبه حال المشركين الذين كانوا يعبدون غير الله أو يعبدون الله بغير أمر الله ولا شرعه.

فإن قيل: فالباطل هو نفس القصد والعمل لا نفس العين المقصودة.

قلت: بل نفس العين المقصودة باطل بالاعتبار الذي قصدت له، كما جاء في الحديث: (**أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار**

أرضك باطل إلا وجهك الكريم)(١).

وذلك: أنه إذا كان الباطل في الأصل هو العدم، والعدم هو المنفي، فالشيء يُنْفَى لانتفاء وجوده في الجملة.

كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤].

و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥].

وقول النبي ﷺ: **(لا نبي بعدي)**(٢).

وقد يُنْفَى لانتفاء فائدته ومقصوده وخاصته التي هو بها هو كما ذكرناه، فإن ما لا فائدة فيه فهو باطل، **والباطل معدوم**.

وهذا كقوله ﷺ لمَّا سئل عن الكهان: **(ليسوا بشيء)**(٣)، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

---

(١) الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده عن رجل اسمه: عمرو السرايا، موقوفاً عليه، وفيه: أن رجلاً رومياً أراد قتله فدعا بهذا الدعاء فأنجاه الله منه. (مجابو الدعوة، ص٥٢، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الأولى ١٤١٤)، ولم أقف عليه في غير هذا الموضع.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٣/ ١٢٧٣/ ٣٢٦٨)، ومسلم (كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء بين الخلفاء، ٣/ ١٤٧١/ ١٨٤٢)، كلاهما من حديث: أبي هريرة ﷺ.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيء، ٥/ ٢٢٩٤/ ٥٨٥٩)، ومسلم (كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨)، كلاهما من حديث: عائشة ﷺ.

وقد يُنْفى الشيء لانتفاء كماله وتمامه، إما مطلقاً وإما بالنسبة إلى غيره؛ كقول النبي ﷺ: **(ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، وإنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُتَفطَّنُ له فيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يسأل الناس إلحافاً)**(١).

ونحو ذلك قوله في المفلس(٢) والرَّقُوب(٣)...، ونظائر كل من هذه الأقسام الثلاثة كثيرة.

فالشيء المقصود لأمرٍ هو باطل منتفٍ إذا انتفت فائدته ومقصوده، فكل ما سوى الله لا يجوز أن يكون معبوداً ولا مستعاناً، فقد انتفى مما

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الزكاة، باب قول الله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وكم الغنى؟ ٢/٥٣٨/١٤٠٩)، ومسلم (كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد ولا يُفطن له، ٢/٧١٩/١٠٣٩)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/١٩٩٧/٢٥٨١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما المفلس)؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)، ورواه الترمذي (كتاب صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، ٤/٦١٣/٢٤١٨).

(٣) الحديث: رواه مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب، ٤/٢٠١٤/٢٦٠٨) عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما تعدون الرقوب فيكم)؟ قال: قلنا: الذي لا يولد له، قال: (ليس ذاك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً) قال: (فما تعدون الصُّرَعة فيكم)؟ قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: (ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)، والبخاري في الأدب المفرد (باب: من مات له سقط، ١/٦٢/١٥٤).

سوى الله هذا المعنى المقصود، فهو باطل، وكلُّ ما سوى الله لا يجوز أن يكون صمداً مقصوداً ولا معبوداً، ولا فائدة في قصده ولا منفعة في عبادته واستعانته، فهو باطل، وهذا واضح، وهذا عموم محفوظ لا يستثنى منه شيء.

وبيان ذلك: أن كل ما سوى الله، فإما أن يُقصد لنفسه، وإما أن يُقصد لغيره، فالمقصود لغيره مثل ما يُقصد الخبز للأكل، والثوب للبس، والسلاح للدفع... ونحو ذلك، وهو ما خلقه الله لنفع بني آدم من الأعيان، فإن هذه إنما تقصد لغيرها لا لذاتها، وكذلك المال الذي يقصد به جلب منفعة أو دفع مضرة، إنما يقصد لغيره لا لنفسه، وكل ما قصد لغيره فإنما المقصود في الحقيقة ذلك الغير، وهذا مراد له بحيث إن حصل ذلك الغير المقصود لنفسه وإلا كان هذا مما لا فائدة فيه ولا منفعة، فيكون من باب الباطل الذي يُنفى، ويقال فيه: ليس بشيء، وهو باطل ويلحق بالمعدوم.

فثبت أنه إن لم يحصل في كل قصد مقصود لنفسه وإلا كان باطلاً، والمقصود لنفسه إن لم يكن هو الله كان باطلاً، فإن المقصودَ لنفسه هو المعبودُ، ومن عَبَدَ غير الله كان باطلاً، وعبادته باطلة؛ لأنه لا منفعةَ فيه ولا في عبادته، بل ذلك ضرر محض، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج: ١٣]، وهذا عام في كل معبود، وهذا حقيقة الدين.

فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، وسخَّر لهم ما في السموات وما في الأرض ليستعينوا به على عبادته، فمن لم يستعن بهذه الأشياء على عبادته، فعمله كله وقصده باطل، ولا منفعة فيه، بل فيه الضرر.

فثبت أن كل قصد ومقصود سوى الله باطل، سواء كان مقصوداً

لنفسه أو لغيره سوى الله، وإنما الحق أن يقصد الله، أو يقصد ما يستعان به على قصد الله، وهذا تحقيق قوله: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، بأحد وجهي الحق والباطل، وهو كونه مقصوداً ومطلوباً، وهو أظهر وجهيه.

الثاني: أن كل ما خلا الله فهو معدوم بنفسه، ليس له من نفس وجود، ولا حركة، ولا عمل، ولا نفع لغيره منه، إذ ذلك جميعه خلق الله وإبداعه وبرؤه وتصويره، فكل الأشياء إذا تخلى عنها الله فهي باطل، يكفي في عدمها وبطلانها نفس تخليه عنها، وأن لا يقيمها هو بخلقه ورزقه.

وإذا كانت باطلة في أنفسها ـ والحق إنما هو لله وبالله ومن الله ـ صدق قول القائل: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) باعتبارين:

أحدهما: أن صنعه على هذا التقدير ليس مستغنياً عنه، ولا قائماً بسواه، ولا خارجاً عنه، فأُدخل في اسمه على سبيل التَّبَع، لا لأنه جزء من المسمى، وكثيراً ما يدخل في الاسم الجامع والأسماء العامة أشياء على سبيل التَّبَع، لا لأنها من المسمى، كما لو قال: بعتك هذا الفرس دخل فيه نعله، ولو قال القائل: دخل زيد إلى داري، كانت ثيابه داخلةً في حكم اسمه، وكذلك إذا قيل: حملتُ زيداً وركِب زيد على الدابة، وإذا قيل: بنو هاشم، دخل فيهم مواليهم، لقوله ﷺ: **(مولى القوم منهم)**[1]، وقد يدخل فيهم الحليف وابن الأخت، وهذا مشهور في كلام العرب وأهل المغازي.

---

(١) الحديث: رواه النسائي (كتاب الزكاة، باب مولى القوم منهم، ٥/١٠٧/ ٢٦١٢)، من حديث: أبي رافع رضي الله عنه، والدارمي (كتاب السير، باب في مولى القوم وابن أختهم منهم، ٢/ ٦٩٣/ ٢٤٣٣)، من حديث: كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده رضي الله عنه، وصححه الألباني (صحيح سنن النسائي ٢/ ٥٥٤، ح٢٤٤٩).

الاعتبار الثاني: أن القائل إذا قال: جاء القوم ما خلا زيداً، فإن (خلا) هنا فعل ناقص من أخوات (كان) وزيداً منصوب به وفيه ضمير مرفوع، وذلك الضمير عائد على (ما) أخت (الذي)، وهي الموصولة، وهذه الجملة صلة (ما) وكان تقدير الكلام: قام القوم الذين هم خلا زيداً، لكن (ما) يحتمل الواحد والاثنين والجميع، والضمير يعود إلى لفظها أكثر من معناها، فقوله: رأيت ما رأيته من الرجال، أحسن من قولك: ما رأيتهم من الرجال.

وباب: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، أكثر وأفصح من قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ [يونس: ٤٢]، ولهذا قوي فصار: ما خلا زيداً، يقوم مقام الذي خلا، والذين خلوا واللاتي خلون... ونحو ذلك، تقول: قامت النسوة ما خلا هنداً.

ولفظ (ما) إما أن يكون له موضع من الإعراب: وهو الوصف لِمَا قبله، أو النصب على الحال، **أو لا موضع له**.

وإذا كان التقدير: كل شيء في حال خُلُوِّهِ عن الله باطل، أو كل شيء خلا الله فهو باطل، أو كل الأشياء حال كونها خلت الله، أو التي خلت الله، باطل، فخلُوُّها الله قد يتضمن معنى خلوها منه.

ومعلوم أنها متى خلته ـ أي خلت منه ـ: كانت باطلاً، وإنما قيامها بأن لا تتخلى منه، بل تتقوم به، وهذا[1]... في الأصل دون غيره من أدوات الاستثناء، وأصل هذا المعنى مقصود من هذا[2].... في قول النبي ﷺ.

وهذا التوحيد وتفسيره المذكور في قوله: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» هو نحو مما ذكر في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ بعد

---

(١) بياض في أصل المطبوع.
(٢) بياض في أصل المطبوع.

قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٦ ـ ٨٨] فإن ذكره ذلك بعد نهيه عن الإشراك، وأن يدعو معه إلهاً آخر، وقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: يقتضي أظهر الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان والأعمال وغيرهما[١].

روي عن أبي العالية قال: (إلا ما أريد به وجهه)[٢]، وعن جعفر الصادق: إلا دينه[٣]، ومعناهما واحد»اهـ[٤].

*** الدليل الخامس:**

قوله ﷺ: (**يقول الله تعالى: عبدي، مرضت فلم تعدني! فيقول: رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض؟ فلو عدته لوجدتني عنده، عبدي! جعت فلم تطعمني! فيقول: رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع؟ فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي**)[٥].

الرد عليهم:

قال الشيخ: «ففي هذا الحديث ذكر المعنيين الحقَّين، ونفي المعنيين الباطلين، وفسرهما:

فقوله: (**جعت ومرضت**) لفظ اتحاد يثبت الحق.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٣)، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٦٩)، تفسير البغوي (١/ ٢٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٨٥، الآية ٨٨)، تفسير البغوي (١/ ٢٢٨، الآية ٨٨).

(٣) الأثر: أورده القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٨٥).

(٤) الفتاوى (٢/ ٤١٥ ـ ٤٢٨).

(٥) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٠).

وقوله: **(لوجدتني عنده)** و**(وجدت ذلك عندي)**: نفي للاتحاد العيني بنفي الباطل، وإثبات لتمييز الرب عن العبد.

وقوله: **(لوجدتني عنده)**: لفظ ظرف.

وبكلٍّ يثبت المعنى الحق من الحلول الحق، الذي هو بالإيمان لا بالذات.

ويفسر قوله: **(مرضت فلم تعدني)**: فلو كان الربُّ عينَ المريض والجائع، لكان إذا عاده وإذا أطعمه يكون قد وجده إياه وقد وجده قد أكله.

وفي قوله في المريض: **(وجدتني عنده)**، وفي الجائع: **(لوجدت ذلك عندي)**: فُرقانٌ حسنٌ، فإن المريض الذي تستحب عيادته ويجد الله عنده: هو المؤمن بربه الموافق لإلٰهه الذي هو وليه، وأما الطاعم فقد يكون فيه عموم لكل جائع يستحب إطعامه، فإن الله يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فمن تصدق بصدقة واجبة أو مستحبة: فقد أقرض الله سبحانه بما أعطاه لعبده.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(من تصدق بعِدْلِ تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يأخذها بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل العظيم)**(١).

وقال: **(إن الصدقة لتقع بيد الحق قبل أن تقع بيد السائل)**(٢).

لكن الأشبه: أن هذا العبد المذكور في الجوع هو المذكور في

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٦).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٦).

المرض، وهو العبد المذكور في الجوع هو المذكور في المرض، وهو العبد الولي الذي فيه نوع اتحاد، وإن كان الله يثيب على طعام الفاسق والذمي.

ونظير القرض: النصر في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ونحو ذلك، لكن النصر فيه معنى.

لكن لا يقال في مثله: جعت، فقد ذكر الله في القرآن القرض والنصر، وجعله له هذا في الرزق وهذا في النصر، وجاء في الحديث العيادة.

وهذه الثلاثة هي المذكورة في:

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤].

وإنما في الحديث أمر البأساء والضراء فقط؛ لأن ذلك ينفرد به الواحد المخاطب بقوله: **(عبدي مرضت)**، **(وجعت)** فلذلك عاتبه.

وأما النصر: فيحتاج في العادة إلى عدد، فلا يعتب فيه على أحد معين غالباً، أو المقصود بالحديث: التنبيه، وفي القرآن النصر والرزق، وليس فيه العيادة؛ لأن النصر والقرض فيه عموم لا يختص بشخص دون شخص، وأما العيادة: فإنما تكون لمن يجد الحق عنده»اهـ[1].

وقال الشيخ في موضع آخر: «وأما الخبر الذي استشهد به من قوله: **(استطعمتك)** فلفظه الصحيح: يقول الله تعالى: **(عبدي جعتُ فلم**

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٩١ ـ ٣٩٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الجواب الصحيح (٣/ ٣٣٣، ٣٤٣).

تطعمني...)، وهذا الخبر ليس فيه فعل للعبد، وإنما فيه جوعه ومرضه، ولكن ظن أن لفظة: (استطعمتك)، وأنه جعل استطعام العبد استطعام الرب، وأيضاً فالخبر مقيد لم يطلق الخطاب إطلاقاً.

وإنما بيّن أن عبده هو الذي مرض وهو الذي جاع، وقال: **(لو أطعمته لوجدت ذلك عندي)**، ولم يقل: لوجدتني أكلته.

وقال: **(لو عُدتَّه لوجدتني عنده)**، ولم يقل: لوجدتني إياه.

والحديث خطاب مفسّر مبين أن الرب ليس هو العبد، ولا صفته صفته، ولا فعله فعله، أكثر ما فيه استعمال لفظ الجوع والمرض مقيداً مبيناً للمراد، فلم يطلق الخطاب إطلاقاً.

وأيضاً: فقد عَلم المخاطبُ أن الرب لا يجوع ولا يمرض، فلم يكن تلبيسٌ لا من جهة السمع ولا من جهة العقل، بل المتكلم بيَّن فيه مراده والمستمع لم يشتبه عليه، بخلاف ما إذا أُضيف الفعل إلى العبد الذي يمكن منه الفعل، والفعل قد قام به، فإنه إذا جعل فعله فعل الرب لم يعقل هذا، إلا إذا أُريد أنه خالقه، وإذا أُريد ذلك فالصواب أنه يقال: فعل العبد مخلوق للرب ومفعول له، لا يطلَق أنه فعلُه لِمَا فيه من التلبيس، ولِمَا فيه من نفي فعل الرب، ولِمَا فيه من نفي كون العبد فاعِلاً، ثم إنه لا فرق في ذلك بين المقرّبين وغير المقربين بهذا الاعتبار»اهـ[1].

* **الدليل السادس:**

قوله ﷺ: **(يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع**

(١) الاستغاثة (١/ ٢١٣ ـ ٢١٥).

به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه)[١].

وجه استدلالهم:

أن ظاهر الحديث فيه تصريح بحلول الخالق في المخلوق.

الرد عليهم:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الحديث يحتج به أهل الوحدة وهو حجة عليهم من وجوه كثيرة: **منها**: أنه قال: **(من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)** فأثبت نفسه ووليه ومعادي وليه وهؤلاء ثلاثة، ثم قال: **(وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)**، فأثبت عبداً يتقرب إليه بالفرائض ثم بالنوافل، وأنه لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه. فإذا أحبه، كان العبد يسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشي به.

وهؤلاء هو عندهم قبل أن يتقرب بالنوافل وبعده: هو عين العبد وعين غيره من المخلوقات، فهو بطنه وفخذه لا يخصُّون ذلك بالأعضاء الأربعة المذكورة في الحديث، فالحديث مخصوص بحال مقيد، وهم يقولون بالإطلاق والتعميم، فأين هذا من هذا؟!»اهـ[٢].

وقال الشيخ - في موضع آخر -: «فأوّلُ ما في الحديث قوله: **(من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)**. فجعل معاداةَ عبده الولي معاداةً له، فعين عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٤).
(٢) الفتاوى (٢/ ٣٤٠ - ٣٤١).

شيئين متميزين، ولكن ليس الله هو عين عبده، ولا جهة عداوة عبده عين جهة عداوة نفسه، وإنما اتفقا في النوع.

ثم قال: (**فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله**)، وفي رواية في غير الصحيح: (**فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**)[(١)].

فقوله: (**بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**) بيَّن معنى قوله: (**كنت سمعه وبصره ويده ورجله**)، لا أنه يكون نفس الحدقة والشحمة والعصب والقدم، وإنما يبقى هو المقصودَ بهذه الأعضاء والقوى وهو بمنزلتها في ذلك، فإن العبد بحسب أعضائه وقواه يكون إدراكه وحركته، فإذا كان إدراكه وحركته بالحق ليس بمعنى خلق الإدراك والحركة، فإن هذا قدر مشترك فيمن يحبه وفيمن لا يحبه، وإنما للمحبوب الحق من الحق من هذه الإعانة، بقدر ما له من المعية والربوبية والإلهية، فإن كل واحدة من هذه الأمور عامة وخاصة»اهـ[(٢)].

*** الدليل السابع:**

ما يروونه أن رسول الله ﷺ قال: (من قال: إني كُلِّي بشر فقد كفر، ومَن قال: لست بشراً، فقد كفر)[(٣)].

قال الشيخ: «ومن هؤلاء الغلاة مَن يروي عن النبي ﷺ أنه قال: (**من قال: إني كُلِّي بشر فقد كفر، ومَن قال: لست بشراً فقد كفر**)، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]»اهـ[(٤)].

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٤).
(٢) الفتاوى (٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستغاثة (١/ ٢١٦)، الجواب الصحيح (٣/ ٣٣٦).
(٣) الحديث: لم أقف عليه في شيء من كتب السنة.
(٤) الجواب الصحيح (٣/ ٣٨٤).

وجه استدلالهم:

قال الشيخ ـ بعد الكلام السابق مباشرة ـ: «فيجعلون فيه شيئاً من اللاهوت مضاهاةً للنصارى»اهـ[(١)].

الرد عليهم:

قال الشيخ: «وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث:

وقد ثبت عنه ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين أنه قال: **(لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد. فقولوا: عبد الله ورسوله)**[(٢)].

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، وهذا من جنس الغُلاة الذين يقولون: إن الله يَحِلُّ في الصالحين، ويتكلم على ألسنتهم، وإن الناطق في أحدهم هو الله لا نفسُه»اهـ[(٣)].

*** الدليل الثامن:**

قوله ﷺ: **(ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم)**[(٤)].

---

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٣٨٤). (٢) الجواب الصحيح (٣/ ٣٨٤).

(٣) الجواب الصحيح (٣/ ٣٨٥).

(٤) الحديث في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: إني أتيت النبي ﷺ في نفر من الأشعريين نستحمله، فقال: (والله لا أحملكم؛ وما عندي ما أحملكم)، وأتي رسول الله ﷺ بنهب إبل، فسأل عنا، فقال: (أين النفر الأشعريون؟)، فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غُرِّ الذرى، فلما انطلقنا قلنا: ما صنعنا! لا يبارك لنا، فرجعنا إليه، فقلنا: إنا سألناك أن تحملنا فحلفت أن لا تحملنا، أفنسيت؟ قال: (لست أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها). البخاري (كتاب أبواب الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، ٣/ ١١٤٠/ ٢٩٦٤)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، ٣/١٢٦٨/١٦٤٩).

وجه استدلالهم:

أنه ﷺ أثبت أن الفعل الذي صدر منه قد صدر من الله تعالى في الحقيقة.

الرد عليهم:

قال الشيخ رحمه الله: «لم يُرد به النبي ﷺ كون الله خالقاً لأفعال العباد، فإن هذا يتناول هذا الفعل وغيره من الأفعال، ومعلوم أن النبي ﷺ[١] لم يقل: لم أركب ولكن الله ركب، ولم يقل: ما جاهدت في سبيل الله ولكن الله جاهد، ولم أسافر ولكن الله سافر... ونحو ذلك.

بل النبي ﷺ لَمَّا سألوه أن يحملهم، قال: **(والله ما أحملكم، وما عندي ما أحملكم عليه)**، فلما ذهب أبو موسى[٢] بُعِث إلى رسول الله ﷺ بنهبِ إبل[٣]، فبعث إلينا بخمس ذود غُرّ الذرى[٤].

---

(١) في المطبوع كتبت العبارة هكذا: «ومعلوم أن الله لم يقل..»، وهو خطأ ظاهر.

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم، أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، قدم المدينة بعد فتح خيبر، واستعمله النبي ﷺ على بعض اليمن، كان حسنَ الصوت بالقرآن، ومن فقهاء الصحابة رضي الله عنهم، توفي بالكوفة سنة ٤٢ أو ٤٤هـ.
انظر: أسد الغابة (٣/ ٢٤٥)، الإصابة (٤/ ٢١١).

(٣) النهب: الغارة أو السَّلَب، وقوله: أُتي بنهب: أي غنيمة.
انظر: النهاية لابن الأثير (٥/ ١٣٣) باب النون مع الهاء.

(٤) ذَوْد غُرّ الذرى: الذود من الإبل: هي ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر، وقال أبو عبيد: «الذود من الإناث دون الذكور، والحديث عامٌّ فيهما»، وغرّ الذرى: أي بيض الأسنمة سِمانها، والذرى جمع ذروة: وهي أعلى سنام البعير، وذروة كل شيء: أعلاه.
انظر: النهاية لابن الأثير (٢/ ١٧١ باب الذال مع الواو، ١٥٩ باب الذال مع الراء).

فقلنا: تغفَّلنا رسولَ الله ﷺ يمينَه، لا نفلح أبداً.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: **(ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم)**.

فلمَّا لم يكن منه لا قصد ولا قدرة، صحَّ أن يقول: ما حملتكم لأني لم يكن عندي ما أحملكم عليه، ولكن الله حملكم بما يسره من الحمولة التي أتى بها بغير فعل مني، فنفى الحمل عن نفسه، وأضافه إلى الله؛ لأنه أراد تيسير الحمولة، ولم يكن له في هذا فعل، ثم قال: **(وإني والله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها)**»اهـ[1].

*** الدليل التاسع:**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وجه استدلالهم:

أن فعل المبايعة صدر أصلاً من النبي ﷺ، ومع ذلك ظاهر الآية يدل على أنه صدر من الله تعالى في الحقيقة.

قال الشيخ: «ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أن المراد به أن فعلك هو فعل الله، أو المراد أن الله حالٌّ فيك ونحو ذلك، فهو ـ مع جهله وضلاله، بل كفره وإلحاده ـ قد سلب الرسول خاصيته»اهـ[2].

الرد عليهم:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما قول القائل: إن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]: عين الإثبات للنبي ﷺ، كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ

---

(١) الاستغاثة (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٩).

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٣٣).

ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ [الفتح: ١٠][(١)]: فهذا بناءً على قول أهل الوحدة والاتحاد. . .

وهذا ضلال عظيم من وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. . .

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾. لم يرد به أنك أنت الله، وإنما أراد أنك أنت رسول الله ومبلغ أمره ونهيه، فمن بايعك فقد بايع الله كما أنَّ من أطاعك فقد أطاع الله، ولم يرد بذلك أن الرسول هو الله، ولكن الرسول أمر بما أمر الله به، فمن أطاعه فقد أطاع الله.

كما قال النبي ﷺ: **(من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني)**[(٢)]، ومعلوم أن أميره ليس هو إياه.

ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أن المراد به أن فعلك هو فعل الله، أو المراد أن الله حالٌّ فيك، ونحو ذلك فهو ـ مع جهله وضلاله، بل كفره وإلحاده ـ قد سلب الرسول خاصيته وجعله مثل غيره.

وذلك: أنه لو كان المراد به كون الله فاعلاً لفعلك، لكان هذا قدراً مشتركاً بينه وبين سائر الخلق:

وكان من بايع أبا جهل[(٣)] فقد بايع الله.

---

(١) تقدم الكلام على استدلالهم بهذه الآيات الثلاث، والرد عليهم. انظر (ص٤٧٨).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ رقم: ٧١٣٧)، ومسلم (كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية. .، رقم: ٣٣).

(٣) هو عمرو بن هشام، كان يكنى في الجاهلية بأبي الحكم، فكناه النبي ﷺ =

ومن بايع مسيلمة الكذاب[1] فقد بايع الله.

ومن بايع قادة الأحزاب فقد بايع الله.

وعلى هذا التقدير، فالمبايِع هو الله أيضاً، فيكون اللهُ قد بايع اللهَ[!!]؛ إذ الله خالقٌ لهذا ولهذا.

وكذلك: إذا قيل بمذهب أهل الحلول والوحدة والاتحاد، فإنه عام عندهم في هذا وهذا، فيكون الله قد بايع الله، وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الحلولية الاتحادية، حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول: أقاتل الله؟ ما أقدر أن أقاتل الله! ونحو هذا الكلام الذي سمعناه من شيوخهم، وبيَّنَّا فساده لهم وضلالهم فيه غير مرة.

وأما الحلول الخاص: فليس هو قول هؤلاء، بل هو قول النصارى ومن وافقهم من الغالية[2]، وهو باطل أيضاً، فإن الله سبحانه قال له:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

= بأبي جهل، كان شديد العداوة للإسلام، محارباً للمسلمين، هلك كافراً في معركة بدر.
انظر: الاستيعاب (٨/ ٨٩٧)، الطبقات الكبرى (٤/ ١٦).

(١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي، الكذاب، ادعى النبوة على عهد النبي ﷺ وصار له أتباع، وتوفي النبي ﷺ قبل القضاء عليه، ثم قاتله الصحابة رضي الله عنهم، وقتله وحشي بن حرب رضي الله عنه، سنة ١٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٦٤)، الأعلام (٧/ ٢٢٦).

(٢) يعني بهم غلاة الشيعة الذين يرون حلول الله تعالى في علي رضي الله عنه، أو في أحد من أهل بيته، والحاكمية الذين يرون حلول الله تعالى في الحاكم بأمر الله، وقد تقدم إشارة الشيخ إلى مذهبهم (ص٢٧٦).

وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

فقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ بيَّن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، ولهذا قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

ومعلوم: أن يد النبي ﷺ كانت مع أيديهم، كانوا يصافحونه ويصفقون على يده في البيعة، فعلم أن يد الله فوق أيديهم ليست هي يد النبي ﷺ، ولكن الرسول عبدُ الله ورسوله، فبايعهم عن الله، وعاهدهم وعاقدهم عن الله، فالذين بايعوه بايعوا اللهَ الذي أرسله وأمره ببيعتهم، ألا ترى أن كلَّ من وكَّل شخصاً يعقد مع الوكيل كان ذلك عقداً مع الموكِّل، ومن وكَّل نائباً له في معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنيبه كانوا معاهدين لمستنيبه، ومن وكّل رجلاً في إنكاح أو تزويج كان الموكِّل هو الزوج الذي وُقِّع له العقد، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] الآية، ولهذا قال في تمام الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]»اهـ[1].

وقال الشيخ ـ في موضع آخر ـ: «ويلزمك على هذا التقدير أن تقول: إن الذين بايعتهم إنما بايعت الله، وطرده: أن من قاتل شخصاً فإنما قاتل الله، ومن بايعه فإنما بايع الله، بل يلزمهم أقبح من هذا، وهو: أن من لامه أو جامعه أو ضاجعه، فإنما يفعل ذلك مع الله، فإن

(١) الفتاوى (٢/ ٣٣٠، ٣٣٣ ـ ٣٣٥).

أصل هذا القول أن الله لَمَّا كان خالقاً لأفعال العباد، كان الفعل لهم في الصورة وله في المعنى، وهذا عام في كل الأفعال في الخير والشر»اهـ[١].

*** الدليل العاشر:**

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وجه استدلالهم:

أن فعل الرمي صدر أصلاً من النبي ﷺ، ومع ذلك ظاهر الآية يدل على أنه صدر من الله تعالى في الحقيقة.

قال الشيخ: «قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، لم يرد به أن فِعْلَ العبد هو فِعْلُ الله تعالى، كما تظنه طائفة من الغالطين»اهـ[٢].

الرد عليهم:

قال الشيخ رحمه الله: «قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، لم يرد به أن فعل العبد هو فعل الله تعالى ـ كما تظنه طائفة من الغالطين ـ.

فإن ذلك لو كان صحيحاً لكان ينبغي أن يقال لكل أحد.

حتى يقال للماشي: ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى.

ويقال للراكب: وما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب.

ويقال للمتكلم: ما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم.

ويقال مثل ذلك للآكل والشارب والصائم والمصلي ونحو ذلك.

---

(١) الاستغاثة (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (١/ ١٨٠)، الجواب الصحيح (٣/ ٣٣٨، ٣٤٣).

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٣١).

وطرد ذلك يستلزم أن:

يقال للكافر: ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر.

ويقال للكاذب: ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب.

ومن قال مثل هذا، فهو كافر ملحد خارج عن العقل والدين.

ولكن معنى الآية: أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلى جميعهم، فإنه إذ رماهم بالتراب، وقال: **(شاهت الوجوه)**[(١)] لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم، فالله تعالى أوصل ذلك الرمي إليهم كلهم بقدرته.

يقول: وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل، فالرمي الذي أثبته له ليس هو الرمي الذي نفاه عنه، فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين، بل نفى عنه الإيصال والتبليغ، وأثبت له الحذف والإلقاء، وكذلك إذا رمى سهماً فأوصله الله إلى العدو إيصالاً خارقاً للعادة كان الله هو الذي أوصله بقدرته» اهـ[(٢)].

وقال الشيخ ـ في موضع آخر ـ: «وقد قيل: إن المحاصرين لعثمان رضي الله عنه كانوا يرمونه بالحجارة، فقال: لِمَ ترمونني بالحجارة؟ قالوا: لَمْ نرمك ولكن الله رماك، قال: كذبتم، لو رماني الله أصابني، وأنتم ترمونني ولا تصيبوني»[(٣)].

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين، رقم: ٨١)، وأحمد في المسند (١/ ٣٢، ٣٨٦، ٥/ ٢٨٦)، والدارمي (٢/ ٢٢٠)، والحاكم (١/ ١٦٣، ٣/ ١٥٧).

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٧٥).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه المسمى: تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٦٧٢)، في خبر استشهاد عثمان رضي الله عنه، ولفظه: «.. لو رمانا الله لم يخطئنا، =

وهو صادق في ذلك؛ فإن الله لَمَّا رمى قوم لوط وأصحاب الفيل أصابهم، ولكنهم هم رموا عثمان.

والله تعالى قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؛ لأن النبي ﷺ أخذ حفنة من تراب وغيره، فرمى بها المشركين فأصابت عيونهم وهزمهم الله بها[1]، ولم يكن في قدرة النبي ﷺ ذلك، بل الله تعالى أوصل ذلك إليهم.

والرمي له طرفان: حذف بالمرمي. ووصول إلى العدوّ ونكاية فيهم.

والنبي ﷺ فعل الأول والله فَعَل الثاني، والمعنى: ما أوصلت الرمي إذ حذفته، ولكن الله أوصله وهزمهم به، فالذي أثبته الله لنبيه غير الذي نفاه عنه، وقد أثبت له رمياً، بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، ونفى عنه رمياً بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾، فكان هذا غيرَ هذا، لئلا يتناقض الكلام»اهـ[2].

*** الدليل الحادي عشر:**

قوله ﷺ: (إن الله يتجلى لهم يوم القيامة، ثم يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة..).

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وكذلك قد يحتجون بما في الحديث الصحيح: **(إن الله يتجلى لهم يوم القيامة، ثم يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، ثم يأتيهم في الصورة التي**

= وأنتم تخطئوننا»، وقد ذكره شيخ الإسلام هنا بصيغة التمريض: رُوي.

(١) تاريخ الطبري (٢/ ١٦٩)، دلائل النبوة للأصبهاني (ص٢٢٨).

(٢) الاستغاثة (١/ ١٩٧ ـ ١٩٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستغاثة (١/ ٢١٦، ٣٢٣)، الفتاوى (١٥/ ٤٠).

رأوه فيها في أول مرة، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا)[1]»اهـ[2].

وجه استدلالهم:

قالوا: ما دام أن الله تعالى يأتي يوم القيامة في غير صورته الحقيقية، فلا يمنع ذلك أن يتجلى في الدنيا ويظهر بصُوَر متنوعة، تعالى الله وتقدس عما يقولون.

قال الشيخ: «فيجعلون هذا حجة لقولهم: إنه يُرى في الدنيا في كل صورة، بل هو كل صورة»اهـ[3].

الرد عليهم:

قال الشيخ: «وهذا الحديث حجة عليهم في هذا أيضاً، فإنه لا فرق عندهم بين الدنيا والآخرة، وهو عندهم ـ في الآخرة ـ المنكرون الذين قالوا: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا.

وهؤلاء الملاحدة يقولون: إن العارف يعرفه في كل صورة، فإن الذين أنكروه يوم القيامة في بعض الصور كان لقصور معرفتهم.

وهذا جهل منهم: فإن الذين أنكروه يوم القيامة ثم عرفوه لَمَّا تجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، هم الأنبياء والمؤمنون، وكان إنكارهم مما حمدهم ﷻ عليه؛ فإنه امتحنهم بذلك حتى لا يتبعوا غير الرب الذي عبدوه، فلهذا قال في الحديث: **(وهو يسألهم ويثبتهم وقد نادى المنادي: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون)**.

ثم يقال لهؤلاء الملاحدة: إذا كان عندكم هو الظاهر في كل صورة، فهو المُنكِر وهو المُنكَر.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم: ٦٥٧٣)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم: ٢٩٩).

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٤١).

(٣) الفتاوى (٢/ ٣٤١).

كما قال بعض هؤلاء لآخر: من قال لك إن في الكون سوى الله، فقد كذب.

وقال له الآخر: فمن هو الذي كذب؟!.

وذكر ابنُ عربي: أنه دخل على مريد له في الخلوة وقد جاءه الغائط.

فقال: ما أُبصِر غيرَه أبول عليه.

فقال له شيخه: فالذي يخرج من بطنك من أين هو؟

قال: فرَّجت عني.

ومرَّ شيخان منهم التلمساني هذا والشيرازي على كلب أجرب ميت، فقال الشيرازي للتلمساني: هذا أيضاً من ذاته؟ فقال التلمساني: هل ثَمَّ شيء خارج عنها؟

وكان التلمساني قد أضلَّ شيخاً زاهداً عابداً ببيت المقدس، يقال له: أبو يعقوب المغربي المبتلَى، حتى كان يقول: الوجود واحد وهو الله، ولا أرى الواحد ولا أرى الله، ويقول: نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود، والوجود واحد لا ثنوية فيه، ويجعل هذا الكلام له تسبيحاً يتلوه كما يتلو التسبيح»اهـ[١].

رابع وعشرون: حكم الاتحادية ـ عموماً ـ:

بيَّن شيخ الإسلام أن معتدلي الصوفية يكفرون القائلين بالحلول والاتحاد، ونقل تكفير أبي عبد الله محمد بن خفيف لهم.

فقال شيخ الإسلام في معرض سياقه لمعتقد ابن خفيف الذي وافق فيه أهل السنة[٢]:

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٣).

(٢) تقدم الكلام عن الكتاب، وتقرير أنه مخطوط (ص١٢٥).

«ونعتقد أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه، فيبقى على أحكام القوة والاستطاعة، إذ لم يُسقط الله ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلى فضاء الحرية بإسقاط العبودية، والخروج إلى أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرية فهو كافر لا محالة، إلا من اعتراه علة أو رأفة، فصار معتوهاً أو مجنوناً أو مبرسماً[١]، اختلط عقله أو لحِقه غشية يرتفع عنه بها أحكام العقل، وذهب عنه التمييز والمعرفة، فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة»اهـ[٢].

ونقل الشيخ أيضاً إنكار معمر بن أحمد الأصبهاني عليهم، فقال ـ شيخ الإسلام ـ: «.. **قال**: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين...

قال فيها: (وأن الله استوى على عرشه بلا كيف، ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول، وأنه ﷻ مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، والخلق منه بائنون **بلا حلول ولا ممازجة، ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه الفرد البائن من الخلق، الواحد الغني عن الخلق**»اهـ[٣].

---

(١) قوله: مبرسماً، يعني أصابه مرض البرسام، والبرسام: ورم يكون في الرأس، وقيل: في الصدر، وقيل: الاسم الصحيح للمرض هو: السرسام، قال ابن سينا: «ومن الناس ممن لا يعرف اللغات، يحسب أن البرسام اسم لهذا المرض، وأن السرسام أخف منه، وليس ذلك بشيء، فإن البرسام يعني: ورم الصدر، والسرسام يعني ورم الرأس». ثم وصف ابن سينا أعراض السرسام، بأنها حمى لازمة يابسة، وهذيان، وكراهة للكلام، واختلاط العقل، وعبث الأطراف، ونفَس مضطرب غير منتظم. انظر: كتاب القانون في الطب لابن سينا (٢/ ٤٤ ـ ٥٤)، ط. بولاق بالقاهرة، ٣ مجلدات.

(٢) الفتاوى (٥/ ٨٢).

(٣) الفتاوى (٥/ ٦١).

خامس وعشرون: توبة من تاب من الاتحادية هل تقبل؟:

أجاب شيخ الإسلام عن ذلك بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والإنسان قد يظلم نفسه بالذنوب فيقول**: ربنا ظلمنا أنفسنا، لكون نفسه أمرته بالسوء، والنفس أمارة بالسوء لكن جهة أمرها ليست جهة فعلها، بل لا بد من نوع تعدد: إما في الذات وإما في الصفات.

وكل أحد يعلم بالحس والاضطرار أن هذا الرجل الذي ظلم ذاك ليس هو إياه، وليس هو بمنزلة الرجل الذي ظلم نفسه، وإذا كان هذا في المخلوقين، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقين من هذا لهذا، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام، ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق، وأفضل أهل الطريق، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين، وأكابر مشايخ الدين، لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال، وإيضاح هذا الضلال.

ولكن يُعلم أن الضلال لا حدَّ له وأن العقول إذا فسدت لم يبق لضلالها حدٌّ معقول، فسبحان من فرّق بين نوع الإنسان، فجعل منه من هو أفضل العالمين، وجعل منه مَنْ هو شرٌّ مِنَ الشياطين، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء، كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب، هو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين الذين يفسدون الدنيا والدين، والمقصود هنا رد هذه الأقوال، وبيان الهدى من الضلال.

وأما توبة من قالها وموته على الإسلام: فهذا يرجع إلى الملك العلام، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن الممكنات أنه قد تاب على أصحاب هذه المقالات، والله تعالى غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب، والذنب وإن عظُم، والكفر وإن غلُظ

وجَسُم، فإن التوبة تمحو ذلك كلّه، والله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، بل يغفر الشرك وغيره للتائبين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذه الآية عامة مطلقة، لأنها للتائبين، وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، فإنها مقيدة خاصة؛ لأنها في حق غير التائبين لا يغفر لهم الشرك، وما دون الشرك معلق بمشيئة الله تعالى»اهـ[1].

أما حكم شيخ الإسلام على رؤوس الاتحادية[2]: فقد قال في ذلك:

«وهكذا هؤلاء الاتحادية: فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم، ولا تقبل توبة أحد منهم إذا أُخذ قبل التوبة، فإنه من أعظم الزنادقة الذين يظهرون الإسلام ويبطنون أعظم الكفر، وهم الذين يفهمون قولهم ومخالفتهم لدين المسلمين، ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذبَّ عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظَّم كتبهم، أو عُرف بمساعدتهم ومعاونتهم، أو كرِه الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم: بأن هذا الكلام لا يدرى ما هو، أو: مَنْ قال: إنه صنف هذا الكتاب؟ وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق.

بل تجب عقوبة كلٍّ من عرف حالهم ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

(٢) تقدم في المبحث الثاني من الفصل الثاني في الباب الأول ذِكر رؤوس الاتحادية، وأثرهم في الفرقة (ص٣٠٨)، وسيأتي كذلك في المبحث الثاني من الفصل الأول في الباب الخامس ذِكر موقف الشيخ من رجال المتصوفة، وذكرت هناك رؤوس الاتحادية تفصيلاً (٢/ ٣٨٩).

في الأرض فساداً، ويصدون عن سبيل الله، فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم ويترك دينهم كقطاع الطريق، وكالتتار[١] الذين يأخذُون منهم الأموال ويبقون لهم دينهم، ولا يستهين بهم من لم يعرفهم.

فضلالهم وإضلالهم أعظم من أن يوصف، وهم أشبه الناس بالقرامطة الباطنية، ولهذا هم يريدون دولة التتار، ويختارون انتصارهم على المسلمين إلا من كان عامياً من شيعهم وأتباعهم، فإنه لا يكون عارفاً بحقيقة أمرهم، ولهذا يقرون اليهود والنصارى على ما هم عليه، ويجعلونهم على حق كما يجعلون عُبَّاد الأصنام على حق، وكل واحدة من هذه من أعظم الكفر[٢]، ومن كان محسناً للظن بهم، وادعى أنه لم

---

(١) التتار: ويسمون «المغول» أو «المغل». وهم قبائل من الجنس الأصفر، كانوا يسكنون منغوليا (جنوب شرق سيبيريا على حدود الصين) وقد اختلطوا بالقبائل التركية، فغلب عليهم اسم: التتار، وقد هجم هؤلاء التتار على بلاد الإسلام عام ٦١٧هـ، واستباحوا الحرمات، قال ابن الأثير (توفي سنة ٦٣٠هـ) في تأريخه لحوادث سنة ٦١٧هـ: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً»اهـ.
انظر: الكامل في التاريخ (١٢/ ٣٦١)، دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٥٧٦)، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (٢/ ٥٣٨).

(٢) يرى ابن عربي وحزبه أن جميع أهل الملل على حق، حتى المجوس الذين يعبدون النار، والمشركين عباد الأوثان والأصنام، لأنهم لَمَّا عبدوها ما عبدوا في الحقيقة إلا الله، فإنه يتجلى في هذه المظاهر، كما قال ابن عربي:
كنار موسى رآها عين حاجته ... وهي الإله ولكن ليس يدريه
تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، اللهم غُفْراً.
انظر: فصوص الحكم (٤١٩).

يعرف حالهم عُرِّفَ حالهم، فإن لم يباينهم ويُظهِر لهم الإنكار وإلا أُلحِق بهم وجُعل منهم.

وأما من قال: لكلامهم تأويل يوافق الشريعة، فإنه من رؤوسهم وأئمتهم، فإنه إن كان ذكياً فإنه يعرف كذب نفسه فيما قاله، وإن كان معتقداً لهذا باطناً وظاهراً فهو أكفر من النصارى، فمن لم يكفّر هؤلاء وجعل لكلامهم تأويلاً، كان عن تكفير النصارى بالتثليث والاتحاد أبعدَ، والله أعلم»اهـ[1].

وبيّن الشيخ أن ابن سبعين وأمثاله خارجون عن دائرة الإسلام، وهم منافقون مرتدون:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الفلاسفة ومن تأثَّر بهم من المنتسبين إلى الإسلام: «وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله، كابن سبعين وأمثاله، سلكوا مسلكاً جمعوا فيه ـ بزعمهم ـ بين الشرع والفلسفة، وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة، وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع»اهـ[2].

وقال الشيخ في معرض ذمه لهؤلاء الملاحدة الاتحادية: «.. وهؤلاء المنافقون المرتدون الزنادقة، ومن وقع في بعض ضلالاتهم من الغالطين..»اهـ[3].

ونخلص مما سبق من كلام شيخ الإسلام أن القول بالحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوق قولٌ محدَثٌ، بل بدعة تُخرِج صاحبها من

(١) الفتاوى (٢/ ١٣١ ـ ١٣٣). (٢) الفتاوى (١٧/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٣) بيان التلبيس (٢/ ٥٣٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: بيان التلبيس (٢/ ٩، ٢/ ٥٢١)، الجواب الصحيح (٢/ ١٧٧، ٤٥٠، ٤٨٠، ٤/ ٣٧٧، ٤٩٦)، المنهاج (٥/ ٣٣٣)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٢١٢)، الرسائل والمسائل (١/ ١٣٠).

ملة الإسلام، وقد أُدخلت إلى الإسلام من دين النصارى واليهود، ولا يقبل العقل أبداً أن يحل الإله العظيم في المخلوق الضعيف، فكيف لو قيل بالاتحاد معه؟!، بل الرب جل جلاله مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ولا يمكن أن يقع بينه وبين المخلوق ماسَّة أو اختلاط أو اتحاد.

وقد ردّ شيخ الإسلام على الشبهات العقلية والنقلية التي تمسك بها القائلون بالحلول والاتحاد، وقد بان الصبح لذي عينين.



الفصل الثاني

توحيد الألوهية

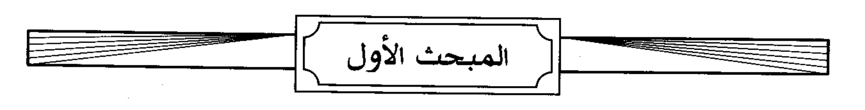
وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الغلوُّ في الأشخاص

المبحث الثاني: تقديس القبور والأضرحة

المبحث الثالث: الدعاء والاستغاثة بغير الله




المبحث الأول

الغلو في الأشخاص

تمهيد:

توحيد الألوهية هو النوع الثاني من أنواع التوحيد، وهو أول الدين وآخره وظاهره وباطنه، وهو الذي بعث الله لأجله الرسل وأنزل الكتب وجُردت السيوف، وما وقع شرك قريش وغيرهم إلا فيه.

وتوحيد الألوهية مشتقٌّ من لفظ «الإله»، والإله هو المعبود مطلقاً بحق أو بغير حق، فهو يُطلق على الله تعالى كما يُطلق على غيره من المعبودات الباطلة وإن كانت باطلة.

وتوحيد الألوهية: هو إفراد الخالق تعالى بالعبادة وإخلاص الدين له وحده(١).

ومن أكبر القوادح في توحيد الألوهية:

تعظيم الأشخاص والغلوّ فيهم، **والصوفية وقع أكثرهم في صور متعددة من هذا الغلوّ، مما جرّهم إلى الشرك وصرف أنواع من العبادة لغير الله تعالى**، وقد بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله غلو المتصوفة في مشايخهم، وردّ عليهم بما يدمغ باطلهم، ويطفئ نارهم.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص٣٦ ـ ٣٨)، دعوة الرسل، لمحمد خليل هراس (ص٣٧ ـ ٣٨)، مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (١/ ١٩٩).

وقبل أن أعرض ما ذكره شيخ الإسلام، أُبين ـ بإيجاز ـ معنى الغلو:

الغُلوّ ـ بضم الغين واللام ـ هو: مجاوزة الحدّ، يقال: غلا في الشيء: إذا أفرط فيه وجاوز فيه الحدّ.

والخروج عن الحد الشرعي بالإفراط في محبة شخص ما أو تعظيمه وإنزاله فوق منزلته التي جعلها الله تعالى له يسمى غلواً، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧١](١).

وفيما يلي بيان ما ذكره الشيخ في ذلك:

أولاً: الصوفية ـ عموماً ـ يُفْرِطون في تعظيم مشايخهم(٢):

قال الشيخ مبيناً ذلك: «.. وبعض المتصوفة: المريد يعتقد أن

---

(١) انظر مادة: غلا، في: لسان العرب (١٥/ ١٣٢)، القاموس المحيط (ص١٧٠٠)، تاج العروس (٢٠/ ٢٢).

(٢) الشيخ في اللغة: هو من طعن في السن، ويُعبَّر به عمن يكثر علمه؛ لما كان شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه، ويجمع على: شيوخ ـ بضم الشين وكسرها ـ، وأشياخ، وشيخان ـ بكسر الشين ـ، وغيرها، أما مشايخ: فهو جمع مشيخة؛ أي هو جمع الجمع.

أما الصوفية، فيعرفون الشيخ تعريفاً يوحي بالغلو فيه والتسليم له فيما يقول ويفعل، ومن هذه التعريفات ما ذكره الكاشاني بقوله: «الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حدّ التكميل فيها؛ لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدواتها، ومعرفته بذواتها، وقدرته على شفائها، والقيام بهداها، إن استعدت ووُفّقت لاهتدائها»اهـ.

انظر: تاج العروس (٤/ ٢٨٥، مادة: شيخ)، التوقيف على مهمات التعاريف (٢/ ٤٤٣)، معجم اصطلاحات الصوفية (ص١٧٢).

شيخه أكمل شيخ على وجه الأرض، وطريقته أفضل الطرق، وكلاهما انحراف»اهـ[١].

ثانياً: أشار الشيخ أيضاً إلى رغبة أكثر الناس ـ من المشايخ وغيرهم ـ في العلوّ في الأرض والارتفاع على الأقران، وأن هذا يقع من كثير من الملوك والمشايخ:

فقال: «.. وهذه حال فرعون، والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية وجحود الصانع، وهؤلاء وإن أقروا بالصانع، فإذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادة الله المتضمنة ترك طاعتهم عادَوْه كما عادى فرعون موسى عليه والسلام، وكثير من الناس عنده عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد، بل تطلب نفسه ما هو عنده، فإذا كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله، ويكون من أطاعه أحبَّ إليه وأعزَّ عنده ممن أطاع الله وخالف هواه، وهذه شُعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل، وإن كان عالماً أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره، وربما أبغض نظيره حسداً وبغياً»اهـ[٢].

ثالثاً: بيَّن الشيخ أن بعض هؤلاء المشايخ ـ لفرط اغتراره بنفسه ـ يدَّعي أنه المهدي المنتظر، وأن له تصرفاً في الكون:

فقال: «وكان شيخ آخر معظَّم عند أتباعه يدعي هذه المنزلة، ويقول: إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، وأنه يزوج عيسى ﷺ بابنته، وأن نواصي الملوك والأولياء بيده، يولِّي من يشاء ويعزل من يشاء، وأن الرب يناجيه دائماً، وأنه هو الذي يمد حَمَلَةَ العرش وحيتان البحر، وقد عزّرته تعزيراً بليغاً في يوم مشهود، بحضرةٍ من أهل المسجد الجامع يوم

(١) الفتاوى (١٤/ ٤٣٣).

(٢) الفتاوى (٨/ ٢١٨).

الجمعة بالقاهرة، وانكسر بسببه أشباهه من الدجاجلة»اهـ[١].

رابعاً: أكثر هؤلاء المشايخ الذين يدَّعون القدرة والتمكن ـ وقد يدَّعون شيئاً من الإلهية أيضاً ـ يتشبعون بما لم يُعطَوْا، فيدَّعي أحدهم القدرة على العظائم، ثم يقعد شحاذاً في الطريق!:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهكذا يوجد من فيه شَبَهٌ من النصارى والرافضة، من الغلاة في أنفسهم وشيوخهم، تجدهم في غاية الدعوى وفي غاية العجز، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: (**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وفقير مختال**)[٢]، وفي لفظ: (**عائل مزهُوٌّ**)[٣]، وفي لفظ: (**وعائل مستكبر**)[٤]، وهذا معنى قول بعض العامة: الفقر والزنطرة.

فهكذا شيوخ الدعاوى والشطح، يدَّعي أحدهم الإلٰهية وما هو أعظم من النبوة، ويعزل الرب عن ربوبيته والنبي عن رسالته، ثم آخرته

---

(١) الاستغاثة (١/٣٠٨).

(٢) الحديث: رواه الترمذي (كتاب صفة الجنة عن رسول الله، بابٌ، ٤/٦٩٨/٢٥٦٨)، والنسائي (كتاب الزكاة، باب الفقير المختال، ٥/٨٦/٢٥٧٦)، كلاهما من حديث: أبي ذر رضي الله عنه، وأصل الحديث في مسلم كما في التعليق التالي.

(٣) الحديث: رواه النسائي (كتاب الزكاة، باب الفقير المختال، ٥/٨٦/٢٥٧٥)، وابن حبان (كتاب الحدود، باب الزنى وحدّه، ١٠/٢٦١/٤٤١٣)، كلاهما من حديث: أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) الحديث: رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، ١/١٠٢/١٠٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، والطبراني في المعجم الصغير (باب الميم، باب من اسمه محمد، ١/٢٤٥/٨٢٢) من حديث: سلمان الفارسي رضي الله عنه.

شحاذ يطلب ما يُقيته، أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته، فيفتقر إلى لقمة ويخاف من كلمة، فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمنة للغنى والعز؟!

وهذه حال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]»اهـ[1].

خامساً: بيّن الشيخ أن بعض أتباع المشايخ الضُّلَّال ـ لشدة افتتانهم بهؤلاء المشايخ ـ قد يحلف المريد بالله تعالى كاذباً ولا يحلف بشيخه كاذباً، فصارت عَظَمَةُ الشيخ في نفسه أكبرَ مِنْ عَظَمَةِ الله ﷻ:

قال الشيخ رحمه الله: «ومن هؤلاء من يحلف بالله ويكذب، ويحلف بشيخه وإمامه فيصدق ولا يكذب، فيكون شيخهُ عنده أعظمَ في صدره من الله.

وقد قال شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢].

وقد قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»اهـ[2].

---

(١) المنهاج (٧/ ٢٠٩).
(٢) الاستغاثة (٢/ ٥٨٦)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستغاثة (٢/ ٥٨١).

سادساً: حكم شيخ الإسلام بالكفر على كل مَنْ غلا في أحد من المشايخ أو أوصله إلى حدّ الألوهية:

فقال: «وكذلك الغلو في بعض المشايخ: إما في الشيخ عدي، ويونس القتي، أو الحلاج... وغيرهم، بل الغلو في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونحوه، بل الغلو في المسيح عليه السلام ونحوه، فكل من غلا في حيٍّ أو في رجل صالح، كمثل علي رضي الله عنه أو عدي أو نحوه أو في من يعتقد فيه الصلاح؛ كالحلاج أو الحاكم الذي كان بمصر، أو يونس القتي ونحوهم، وجعل فيه نوعاً من الإلٰهية؛ مثل أن يقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده، أو يقول إذا ذبح شاة: باسم سيدي، أو يعبده بالسجود له أو لغيره، أو يدعوه من دون الله تعالى.

مثل أن يقول: يا سيدي فلان، اغفر لي، أو: ارحمني، أو: انصرني، أو: ارزقني، أو: أغثني، أو: أجرني، أو: توكلت عليك، أو: أنت حسبي، أو: أنا في حسبك.

أو نحو هذه الأقوال والأفعال، التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه؛ فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له، ولا نجعل مع الله إلهاً آخر، والذين كانوا يدْعُون مع الله آلهة أخرى؛ مثل: الشمس والقمر والكواكب والعُزَير والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ويغوث ويعوق ونسراً... أو غير ذلك، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو أنها تنزل المطر، أو أنها تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتماثيل المصورة لهؤلاء، أو يعبدون قبورهم، ويقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هم شفعاؤنا عند الله، فأرسل الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لا دعاءَ عبادة ولا دعاءَ استغاثة،

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧]، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدْعُون المسيح وعُزَيراً والملائكة، فقال الله لهم: هؤلاء الذين تدعونهم يتقربون إليَّ كما تتقربون، ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي[1]»اهـ[2].

سابعاً: لا يجوز أن يُنصِّبَ الشخصُ أحداً يوالي من أجله ويُعادي، ويجعل كلامه حجةً على غيره، يحكم على كلام الناس به تخطِئةً وتصويباً:

قال شيخ الإسلام: «الدعوة إلى الله واجبة على من اتبع الرسول ﷺ وهم أمته. فإذا تقرر هذا، فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله ورسوله، وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله، مما دلَّ عليه في كتابه؛ فلا

---

(١) قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]: «نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فأُنزلت: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾»اهـ. رواه البخاري (كتاب التفسير، باب: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، ٤/ ١٧٤٧/ ٤٤٣٧)، ومسلم واللفظ له (كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾، ٤/ ٢٣٢١/ ٣٠٣٠).
وأخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾: هو عزير والمسيح والشمس والقمر. اهـ.
جامع البيان للطبري (١٥/ ١٠٦)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٣٤٣).

(٢) الفتاوى (٣/ ٣٩٥ ـ ٤٠٠).

يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله ﷺ، ولا لقول إلا لكتاب الله ﷻ، ومن نصب شخصاً كائناً من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٩].

وإذا تفقه الرجل وتأدَّب بطريقة قوم من المؤمنين، مثل أتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العُيّار[١]، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم، فينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه التفقُّهَ الباطن في قلبه والعمل به فهذا زاجر، وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قولَ أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله، أو أخبر الله به ورسوله، لكون ذلك طاعةً للهِ ورسولِه»اهـ[٢].

ثامناً: أكثر المتصوفة لشدة غلوّهم في مشايخهم يقلدونهم في كل شيء، حقاً كان أو باطلاً:

قال الشيخ رحمه الله في معرض كلامه عن ضلال الاتحادية: «وكل هؤلاء يجد نفسه مضطربةً في هذا الاعتقاد لتناقضه في نفسه، وإنما يسكن بعض اضطرابه نوع تقليد لمعظَّم عنده، أو خوفه من مخالفة أصحابه، أو زعمه أن هذا من حكم الوهم والخيال دون العقل»اهـ[٣].

---

(١) العُيّار: جمع عَيّار: يقال: رجل عيَّار؛ إذا كان كثير التطواف والحركة ذكياً، والعَيَّار هو: الغلام النشيط في المعاصي، وقد تُطلق على النشيط في الطاعات أيضاً.
انظر مادة: عير، في: لسان العرب (٤/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣)، القاموس (ص٥٧٤)، تاج العروس (٧/ ٢٨٠).

(٢) الفتاوى (٢٠/٨ ـ ٩).

(٣) الفتاوى (٤/ ٦٠).

ومما سبق يتبين لنا أن هذا الغلوّ الذي وقع فيه المتصوفة في مشايخهم ومعَظّميهم، جرّهم إلى شركيات أخرجت فريقاً منهم ـ غير قليل ـ من دائرة الإسلام.

وهذا الغلو الذي وقعوا فيه ظهر في صور متنوعة مختلفة، وقد بيّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عدداً من هذه المظاهر والصور عند الصوفية.

ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

مظاهر تقديس الصوفية لمشايخهم:

أولاً: تقسيمهم المشايخَ درجاتٍ وطبقاتٍ (القطب، الغوث...):

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **في جواب سؤال** عن الحديث المروي في: (الأبدال): هل هو صحيح أم مقطوع؟ وهل (الأبدال) مخصوصون بالشام؟ أم حيث تكون شعائرُ الإسلام قائمةً بالكتاب والسنة يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم؟ وهل صحيح أن الوليّ يكون قاعداً في جماعة ويغيب جسده؟ وما قول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تَسمَّى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة، ويقولون: هذا غوث الأغواث، وهذا قطب الأقطاب، وهذا قطب العالم، وهذا القطب الكبير، وهذا خاتم الأولياء؟

فأجاب: أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النُّسَّاك والعامة؛ مثل: (الغوث) الذي بمكة، و(الأوتاد الأربعة) و(الأقطاب السبعة) و(الأبدال الأربعين) و(النجباء الثلاثمائة): فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى، ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف يحمل (عليه) ألفاظ الأبدال، فقد روي فيهم حديثٌ شاميٌّ منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: **(إن فيهم ـ يعني أهل الشام ـ الأبدال الأربعين رجلاً، كلما مات رجل أبدلَ الله**

تعالى مكانه رجلاً[(١)].

ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ، وقد قالها إمَّا آثراً لها عن غيره أو ذاكراً.

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقُّه بباطله، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب رده.

وصار كثير من الناس على طرفي نقيض:

قوم: كذبوا به كلِّه لما وجدوا فيه من الباطل.

وقوم: صدقوا به كلِّه لمَّا وجدوا فيه من الحق.

وإنما الصواب: التصديق بالحق، والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لِمَا أخبر به النبي ﷺ عن ركوب هذه الأمة سَننَ مَن قبلها حَذْوَ القُذّة

---

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد والأزدي، وفيه: ذُكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب ﷺ وهو بالعراق، فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين! قال: لا؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلَّما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يُسقى بهم الغيثُ، وينتصر بهم على الأعداء، ويُصرُف عن أهل الشام بهم العذاب». أخرجه أحمد في المسند (١/ ١١٢، ح٨٩٦)، والأزدي في الجامع (١١/ ٢٤٩، ح٢٠٤٥٥).
وللحديث لفظ آخر أخرجه الإمام أحمد: عن عبد الواحد بن قيس عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن ﷺ كلَّما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلاً». قال أبي رحمه الله: فيه يعني حديث عبد الوهاب كلام غير هذا وهو منكر ـ يعني حديث الحسن بن ذكوان ـ. اهـ المسند (٥/ ٣٢٢، ح٢٢٨٠٣)، ورواه بلفظ قريب منه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨١، ح١٠٣٩٠)، والحديث منقطع الإسناد غير ثابت، كما قرر ذلك شيخ الإسلام.

بالقذة[(١)][(٢)]، فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارةً وبالنَّسْخِ أخرى، وهذا الدين لا ينسخ أبداً، لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خَلَفاً عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فيُحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون.

فالكتب المنزلة من السماء والأثارة من العلم المأثورة عن خاتم الأنبياء يميز الله بها الحق من الباطل، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد والترتيب والطبقات ليست حقاً في كل زمان، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل، فإن المؤمنين يقِلُّون تارة ويكثرون أخرى، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة ويكثرون أخرى وينتقلون في الأمكنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة.

---

(١) القُذّة: ريش السهم، ويضرب مثلاً للشيئين يتساويان ولا يتفاوتان، فكما أن القذة تكون حذو القذة، لا تتقدم عنها ولا تتأخر، فكذلك الشيئين إذا تشابها. انظر مادة: قذذ، في: القاموس (ص٤٢٩)، النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٨).

(٢) الحديث: عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن)، رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٣/ ١٢٧٤/ ٣٢٦٩)، ومسلم (كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩)، والحاكم في المستدرك (كتاب الفتن والملاحم، ٤/ ٥١٦، ح٨٤٤٨ ولفظ: (القذة بالقذة) وقع في روايته، لكني سقت لفظ البخاري لأنه أبين للمقصود).

وليس من شروط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد، وقد بعث الله رسوله بالحق، وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقلَّ من سبعة، ثم أقل من أربعين، ثم أقل من سبعين، ثم أقل من ثلاثمائة، فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الأعداد، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكفار، ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وإن كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها، ومن الممتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون أفضلَ منهم.

ثم إن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المتقين، بل من الصديقين السابقين المقربين، عدد لا يحصي عددَه إلا ربُّ العالمين، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف، ولمَّا انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين، بل من السابقين المقربين من لا يعرف عدده، وليسوا بمحصورين بعدد، ولا محدودين بأمد، **وكل من جعل لهم عدداً محصوراً، فهو من المبطلين عمداً أو خطأً، فنسأله**: مَنْ كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة في زمن آدم ونوح وإبراهيم وقبل محمد عليهم الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامَّةُ الناس كفرةً؟! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، أي: كان مؤمناً وحده وكان الناس كفاراً جميعاً[١].

وفي «صحيح البخاري» أنه قال لسارة: **(ليس على الأرض اليوم**

---

(١) روي ذلك عن مجاهد وقتادة وغيرهما.
انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧٩)، تفسير البغوي (٢/ ٥٠).

مؤمن غيري وغيرك)[1]. وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وإن زعموا أنهم كانوا بعد رسولنا ﷺ، نسألهم: في أي زمان كانوا؟ ومن أول هؤلاء؟ وبأيَّة آية؟ وبأي حديث مشهور في الكتب الستة؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده؟ لأن العقائد لا تُعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة، ومِن البرهان العقلي ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية، فهم الكاذبون بلا ريب، فلا نعتقد أكاذيبهم، ويلزم منه أن يرزق الله ﷻ الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الواسطة، كروح الله، وناقة الله، تَدَبَّر ولا تتحيَّر واحفظ القاعدة حفظاً.

فأما لفظ: (الغوث والغياث): فلا يستحقه إلا الله، فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره ولا بِمَلَك مقرَّب ولا نبيٍّ مرسل، ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضُّرِّ عنهم ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضالٌّ مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال ﷻ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]،

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، ٣/ ١٢٢٥/ح٣١٧٩)، ومسلم (كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل، ٤/ ١٨٤٠/ح٢٣٧١)، من حديث: أبي هريرة ﵁.

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب؟ وهو القائل تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهل مكة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٧ ـ ٣٩].

وقال النبي ﷺ لأصحابه لمَّا رفعوا أصواتهم بالذكر: **(أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)**[1].

وهذا باب واسع.

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ـ لا ظاهراً ولا باطناً ـ بهذه الوسائط والحُجّاب، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجةَ الله على المكلَّفين لا يتم الإيمان إلا به[2]، ثم مع هذا يقولون: إنه كان صبياً دخل السرداب من

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، ٦/ ٢٦٩٠/ ٦٩٥٢)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ٤/ ٢٠٧٦/ ٢٧٠٤) من حديث: أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) الإمام في اللغة: هو مقدَّم القوم، فكل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم، أو كانوا ضالين.

=

أكثر من أربعمائة وأربعين سنة، ولا يعرف له عين ولا أثر، ولا يُدرك له حِسٌّ ولا خبر(١).

= ويطلق الإمام في الاصطلاح: على الخليفة، وعلى العالم المقتدَى به، وعلى من يؤتم به في الصلاة.
هذا هو معنى الإمام عند أهل السنة والجماعة.
أما عند الشيعة الإمامية؛ فالإمام له مفهوم آخر مبتدَع، فالإمام عندهم: وصيّ النبي الذي أوصى إليه بأمر الله تعالى، والإمام هو من بلغ منزلة الإمامة، وهي منصب إلهي كالنبوة يأمر الله النبي المرسل أن ينصب الإمام للناس من بعده، وهي عهد من الله معهود من واحد إلى واحد، قال المجلسي الشيعي: «لا يصل عقولنا إلى فرق بين النبوة والإمامة»، ويعتقد الشيعة أن الإمام لو رُفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله.
انظر: القاموس (ص١٣٩١، مادة: أمّ)، الأحكام السلطانية ـ للماوردي (ص٥)، مقدمة ابن خلدون (٢/ ٥١٦)، أصول الكافي ـ لمحمد يعقوب الكليني (١/ ٢٢٧)، بحار الأنوار محمد باقر المجلسي (٢٦/ ٨٢).

(١) يعتقد الإمامية أن الإمام الحادي عشر وهو الحسن العسكري (ت: ٢٦٠هـ) ويزعمون أنه ولد له ولد اسمه محمد، ويذكرون في ولادته ونشأته أعاجيبَ وغرائبَ لا تنطلي على السفهاء فضلاً عن العقلاء، ويعتقدون أن محمداً هذا دخل في سرداب بسامراء ـ في العراق ـ عام: ٢٥٥هـ (وقيل: ٢٥٦هـ، وقيل: ٢٥٨هـ)، وممن توسع في بيان أحواله وتفنن في اختراع الوصايا والأقوال على لسانه: محمد بن جعفر الطوسي في كتابه «الغَيْبة» (٢٥٨ صفحة) حيث ذكر فيه خدم الإمام المنتظر وحجّابه والمنامات التي يزور فيها أصحابه ويوصيهم ويفتيهم، إلى غير ذلك من الترهات، والصحيح أن الحسن العسكري مات ولم يولد له ـ كما يقرر ذلك جمعٌ من مصنفي كتب الشيعة ـ وأن خرافة المهدي وخروجه من السرداب ورجوعه إلى الشيعة وقتله لأعدائه.. إلى غير ذلك، هي كلها أكاذيب لا يدلّ عليها كتاب ولا سنة ولا نقل صحيح.
انظر: الغيبة، لمحمد بن جعفر بن الحسن الطوسي الشيعي (ص٢٦٠)، فرق الشيعة، للحسن بن موسى النوبختي الشيعي (ص١١٥ ـ ١٣٢)، الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، لإحسان إلهي ظهير (ص٢٧٣ ـ ٢٨٢)، أصول مذهب الشيعة د. ناصر بن عبد الله القفاري (٢/ ٨٢٨).

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاةً للرافضة من بعض الوجوه، بل هذا الترتيب والأعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم في السابق والتالي، والناطق، والأساس، والجسد... وغير ذلك من الترتيب الذي ما أنزل الله به من سلطان.

وأما الأوتاد: فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول: فلان من الأوتاد، يعني بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان والدين في قلوب من يهديهم الله به، كما يثبت الأرض بأوتادها، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة والجبال الكبيرة، ومن كان بدونه كان بحسبه، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر، بل جعلُ هؤلاء أربعةً مضاهاةٌ بقول المنجّمين في أوتاد الأرض.

وأما القطب: فيوجد أيضاً في كلامهم: فُلان من الأقطاب، أو فلان قطب، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا باطناً أو ظاهراً، فهو قطب ذلك الأمر ومداره، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه أو قريته أو مدينته، أمر دينها أو دنياها، باطناً أو ظاهراً، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر، لكن الممدوح من ذلك مَن كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا، فهذا هو القطب في عرفهم، فقد يتفق في بعض الأعصار أن يكون شخصٌ أفضل أهل عصره، وقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء، ولا يجب أن يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً.

وكذلك لفظ (البدل): جاء في كلام كثير منهم، فأما الحديث المرفوع، فالأشبه أنه ليس من كلام النبي ﷺ، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام، وكانت الشام والعراق دارَ كفر.

ثم لما كان في خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(تمرُق مارقة من المسلمين تقتلهم أَوْلَى الطائفتين بالحق)**(١)، فكان عليٌّ وأصحابه أَوْلَى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام، ومعلوم أن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه من الصحابة مثل عمار بن ياسر(٢) وسهل بن حُنَيْف(٣) رضي الله عنهما ونحوهما، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية رضي الله عنه وإن كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ونحوُه من القاعدين أفضلَ ممن كان معهما(٤).

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٢/ ٧٤٥/ ١٠٦٤)، وأبو داود (كتاب السنة، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة، ٤/ ٢١٧/ ٤٦٦٧)، من حديث: أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) هو عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة، ويكنى أبا اليقظان، تقدم إسلامه ورسول الله بمكة، وهو ممن عُذِّب بمكة هو وأبوه وأمه، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها، ونزل فيه آيات من القرآن، فمن ذلك أن المشركين أخذوه وعذبوه حتى سب النبي، ثم جاءه وذكر ذلك له فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] الآية، قتل في معركة صفين سنة ٣٧هـ وعمره ٩٣ سنة.

انظر: تاريخ بغداد (١/ ١٥١)، التاريخ الكبير للبخاري (٧/ ٢٤)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٦/ ٣٨٩)، سير الأعلام (١/ ٤٠٦).

(٣) هو سهل بن حنيف الأنصاري، الصحابي الجليل، شهد بدراً والمشاهد، ومات بالكوفة سنة ٣٨هـ.

انظر: التاريخ الكبير (٤/ ٩٧)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/ ١٩٥)، سير الأعلام (٢/ ٣٢٥)، الإصابة (٣/ ١٩٨).

(٤) يشير الشيخ هنا إلى ما وقع من الفتنة في القتال الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما لما اختلفا في حكم قَتَلَةِ عثمان رضي الله عنه، فتحزب لهذا أقوام ولهذا أقوام، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مِمن اعتزل الفتنة كلها ولم يشترك في القتال، ولم يدخل في شيء منه، بل روى ابن سعد وأبو نعيم والطبراني عن ابن سيرين، قال: «لما قيل لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ألا تقاتل؟ إنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك، قال: لا أُقاتل حتى يأتوني بسيف له عينان =

فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام؟! هذا باطل قطعاً وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة، فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط، فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

والذين تكلموا باسم البدل فسَّروه بمعانٍ:

منها: أنهم أبدال الأنبياء.

ومنها: أنه كلَّما مات منهم رجل أبدل الله ـ تعالى ـ مكانه رجلاً.

ومنها: أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات.

وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين، ولا بأقلَّ ولا بأكثرَ، ولا تُحصر بأهل بقعة من الأرض.

= ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد»اهـ.
رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٤٤، ح٣٢٢)، والأزدي في الجامع (١١/ ٣٥٧، ح٢٠٧٣٦)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٠١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٩٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.اهـ.
وانظر: البداية والنهاية لابن كثير (٥/ ٣٢٣، حوادث سنة ٣٦هـ)، تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٤٤٧)، المنتظم في أخبار الملوك والأمم لابن الجوزي (٥/ ٨٧)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/ ٢٠١، حوادث سنة ٣٦هـ).

وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم: النجباء.

فالغرض: أن هذه الأسماء، تارة: تفسَّر بمعانٍ باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مثل تفسير بعضهم (الغوث): هو الذي بعث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم، فإن هذا نظير ما تقوله النصيرية[1] في الباب[2] وهو معدوم العين والأثر، شبيه بحال المنتظر[3] الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة.

وكذلك من فسر الأربعين الأبدال: بأن الناس إنما يُنصرون ويُرزقون بهم، فذلك باطل؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب: من آكدها دعاء المؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقلَّ ولا بأكثرَ، كما جاء في الحديث المعروف: أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

---

(١) في المطبوع: ما تقوله النصارى في الباب، وهو خطأ، والصواب: . . ما تقوله النصيرية في الباب؛ لأن النصارى غَلَوْا في المسيح، أما النصيرية فغَلَوْا في الباب، وقد ذكر الشيخ العبارة في موضع آخر بأوضح مما هي هنا، حيث قال: «ولهذا يقال: ثلاثة أشياء ما لها من أصل: باب النصيرية، ومنتظر الرافضة، وغوث الجُهَّال، فإن النصيرية تدَّعي في الباب الذي لهم ما هو من هذا الجنس، أنه الذي يقيم العالم فذاك شخصه موجود ولكن دعوى النصيرية فيه باطلة»اهـ. الفتاوى (٢٧/ ٩٩).

(٢) وهو محمد بن نصير النميري، وكنيته أبو شعيب، وكان أول أمره من الشيعة الاثني عشرية، ثم انفصل عنهم إثر اختلافه معهم؛ إذ ادّعى أنه الباب إلى المهدي المنتظر، فلم تقرّ له الإمامية بذلك، فانفصل عنهم وكوّن طائفة سُموا بالنصيرية، وغلا فيه أصحابه حتى قال طائفة منهم بنبوته، وأدخلوه في القسم الذي يقسم به كل نصيري عند الدخول في دينهم، وذكر القُمّي في «المقالات» أن ابن نصير هذا كان فاحشاً يجيز اللواط وسائر المحرمات.
انظر: العلويون أو النصيريون ـ لعبد الحسين مهدي العسكري (ص٣، ٢١)، المقالات والفرق ـ للقمي (١٠٠)، الهفت الشريف ـ للمفضل الجعفي (ص١٤٠)، فرق معاصرة ـ لغالب العواجي (١/ ٣٢٤).

(٣) يعني منتظر الرافضة محمد بن الحسن العسكري، وقد تقدم بيان مذهبهم فيه (ص٥٤٠).

قال: يا رسول الله! الرجل يكون حاميةً القوم، أيُسْهَم له مثل ما يسهم لأضعفهم؟ فقال: (**يا سعد! وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم**)(١).

وقد يكون للرزق والنصر أسباب أُخَر:

فإن الفجار والكفار أيضاً يرزقون وينصرون، وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم، لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب، وقد يملي للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً ويمددهم بأموال وبنين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر، وإما ليُضعِف عليهم العذاب في الآخرة، فليس كل إنعام كرامةً، ولا كل امتحان عقوبةً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦].

وليس في أولياء الله المتقين، ولا عباد الله المخلَصين الصالحين، ولا أنبيائه المرسلين، مَن كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس، بل هذا من جنس قول القائلين: إن علياً في السحاب(٢)، وإن محمد ابن

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، ٣/١٠١٦/٢٧٣٩) من حديث: مصعب بن سعد عن أبيه، والطبراني في المعجم الصغير (باب الألف، باب من اسمه أحمد، ١/ ٦٣/١٢٣) من حديث: عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنهما.

(٢) يرى فريق من الرافضة ـ وهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ ـ الغلاة في علي رضي الله عنه أنه لم يقتل ولم يمت، ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العربَ بعصاه، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، حتى إن عبد الله بن سبأ لما بلغه مقتل علي بالمدائن قال للذي نعاه: كذبت! لو جئتنا بدماغه في سبعين صرّة، وأقمت على قتله سبعين عدلاً، لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل! ولا يموت حتى يملك الأرض!
انظر: فرق الشيعة، لحسن بن موسى النوبختي (ص٢٢)، المقالات والفرق لسعد بن عبد الله الأشعري القمي (ص١٩ ـ ٢٠).

الحنفية في جبال رضوى[١]، وإن محمد بن الحسن[٢] بسرداب سامُرَّى، وإن الحاكم بجبل مصر[٣][٤]، وإن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل

---

(١) ويرى فريق من الرافضة الغلاة ـ وهم الكربية: أتباع أبي كريب الضرير ـ أن محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية ـ والحنفية أمُّه ـ: حي لم يمت، وهو في جبل رضوى بين مكة والمدينة، عن يمينه أسد وعن يساره نمر، موكلان به يحفظانه إلى أوان خروجه وقيامه، وقالوا: إنه المهدي المنتظر، وزعموا أنه سيغيب عنهم سبعين عاماً في جبل رضوى، ثم يظهر فيقيم لهم الملك، ويقتل لهم الجبابرة من بني أمية.. فلما مضت سبعون سنة ولم ينالوا من أمانيهم شيئاً حاول بعضهم توطين هذه العقيدة في قلوب أصحابهم، فقالوا: ننتظره ولو غاب عنا عمر نوح عليه السلام!!
انظر: مسائل الإمامة، لعبد الله بن محمد الناشئ الأكبر الشيعي (ص٢٦)، فرق الشيعة، للنوبختي الشيعي (ص٢٧)، مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري (١/ ٩٢)، الفرق بين الفرق (ص٤١ ـ ٤٣).

(٢) هو محمد بن الحسن العسكري، وهو المهدي المنتظر عند الشيعة، يزعمون أنه دخل سرداباً في سامراء بالعراق سنة ٢٦٠هـ وعمره خمس سنوات، ولم يخرج إلى الآن، وله وُكلاء يبلغون أوامره وفتاويه إلى الناس!!
وقد تقدم الكلام عن الأئمة وغيبة الإمام المنتظر (ص٥٤٠).
وانظر: الغَيْبَة، لمحمد بن جعفر بن الحسن الطوسي الشيعي (ص٢٥٨ ط. مكتبة الألفين، الكويت)، تاريخ الغيبة الصغرى محمد باقر الصدر الشيعي (ص٣٩٦-٣٩٧)، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، لمحمد باقر المجلسي (٢٥/ ١٢٣).

(٣) جبل مصر: ذكر ياقوت الحموي أنه يسمى المُقَطَّم، وأنه جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطئ النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة، ويسمى في كل موضع باسم، وعليه مساجد وصوامع للنصارى، لكنه لا نبتَ فيه ولا ماء غير عين صغيرة تنز في دير للنصارى بالصعيد، وروي أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، وقال: إنا نجد صفتها في الكتب، وأنها غراس الجنة فجعلت مقبرة للمسلمين، وقبر فيها عمرو بن العاص وعبد الله بن حذافة السهمي وعقبة بن عامر الجهني وغيرهم، وروي عن كعب أنه قال: جبل مصر مقدس، وليس بمصر غيره.
انظر: معجم البلدان (٥/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

(٤) يشير شيخ الإسلام إلى معتقد الدروز، وهم طائفة من الباطنية الإسماعيلية، =

لبنان[1]، فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان، نعم قد تخرق العادة في حق الشخص، فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه وإما لغير ذلك، وأما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل، نعم يكون نورُ قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن أعين الناس، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس، فهذا هو

= ويسمَّوْن أحياناً الحاكمية؛ لغلوهم في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي (٣٨٦هـ ـ ٤١١هـ)، وقولهم: إنه إله، وإنه لم يمت، بل هو حيٌّ يعيش في جبل مصر.

وتنسب طائفة الدروز إلى زعيمها محمد بن إسماعيل، ويلقّب بدرزي، وهو فارسي الأصل، واسمه الأصلي نشتكين، وأول أمره قدم مصر واشتغل بخدمة الحاكم العبيدي، ثم أعلن مذهبه بألوهية الحاكم!! والدروز يقولون بالتناسخ وإنكار القيامة وعداوة الأنبياء، إضافة إلى القول بألوهية الحاكم، وهم يتكتمون جداً على عقيدتهم، ويعدون إفشاء أسرارهم من أعظم الذنوب، لذا يستعملون كافة طرق المكر والخداع والكذب والنفاق لإخفاء ما في مذهبهم من الكفر الصراح، وللدروز وجود ظاهر حالياً في سوريا في محافظة السويداء حيث تضم ٧٣ قرية كلهم دروز، وفي لبنان وفلسطين.

انظر: عقيدة الدروز، لمحمد أحمد الخطيب (ص١٧٥)، طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، للدكتور: محمد كامل حسين (ص٦، ١٤، ١٠٦)، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، للخطيب (ص٢١٧)، أضواء على العقيدة الدرزية، لأحمد الفوزان (ص٥١)، فضائح الباطنية، للغزالي (ص٥٦) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب العواجي (١/ ٣٦٥ ـ ٤٠٣).

(١) جبل لبنان: هو جبل مطل على حمص، يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام، فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير، وبحلب وحماة وحمص لبنان، ويتصل بأنطاكية والمصيصة، فيسمى هناك اللكام، ثم يمتد إلى ملطية وسميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر، فيسمى هناك القبق، وقيل: إن في هذا الجبل سبعين لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان.

انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/ ١١).

الواقع وأسرار الحق بينه وبين أوليائه، وأكثر الناس لا يعلمون.

وقد بينّا بطلان اسم الغوث مطلقاً، واندرج في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع»اهـ[(١)].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «وأما سؤال السائل عن: (القطب الغوث الفرد الجامع)[(٢)]، فهذا قد يقوله طوائفُ من الناس، ويفسرونه بأمور باطلة في دين الإسلام، مثل تفسير بعضهم أن الغوث: هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم، حتى يقول: إن مدد الملائكة

---

(١) الفتاوى (١١/ ٤٣٣ ـ ٤٤٤).

(٢) القطب الغوث الفرد الجامع: القطب في اللغة: ما عليه مدار الشيء وملاكه، ومنه قطب الرحى.
انظر: القاموس (ص١٦١، مادة قطب).
وعرَّفه الصوفية: بأنه عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، يُسمى غوثاً أيضاً باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو خلق على قلب محمد ﷺ، ويُسمى بقطب الأقطاب، وقطب العالم، والقطب الأكبر، وقطب الإرشاد، وقطب المدار.اهـ.
معجم اصطلاحات الصوفية، تأليف د. عبد المنعم الحفني (ص٢١٧) حرف القاف.
وذكر شيخ الإسلام أن الغوث عند الصوفية: هو الذي يكون مددَ الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم.اهـ. الفتاوى (٢٧/ ٩٦).
وقال الجرجاني: الغوث: هو القطب حينما يُلتجأ إليه، ولا يُسمى في غير ذلك الوقت غوثاً.اهـ. التعريفات (ص٢٠٩).
وفي الموسوعة العربية الميسرة إجمال تعريفات الصوفية للقطب، حيث جاء فيها وصف القطب: بأنه ذو معنيين عند الصوفية:
أحدهما: الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، يسري في الكون سريان الروح في الجسد، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وقد يُسمى القطب غوثاً لالتجاء الملهوف إليه، فالقطب هنا إنسان اختصّ بما لم يختص به غيره من الكمال.

وحيتان البحر بواسطته، فهذا من جنس قول النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه، وهذا كفر صريح، يستتاب منه صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإنه ليس من المخلوقات لا مَلَكٌ ولا بشرٌ يكون إمداد الخلائق بواسطته، ولهذا كان ما يقوله الفلاسفة في (العقول العشرة) الذين يزعمون أنها الملائكة، وما يقوله النصارى في المسيح ونحو ذلك كفراً صريحاً باتفاق المسلمين، وكذلك عنى بالغوث ما يقوله بعضهم من أن في الأرض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً يسمونهم: النجباء[1]، فينتقى منهم سبعون هم: النقباء[2]، ومنهم أربعون هم: الأبدال[3]، ومنهم سبعة هم:

---

(١) النجباء في اصطلاح الصوفية: هم الأربعون، وهم القائمون بإصلاح أمور الناس، وحمل أثقال الخلق، وذلك لاختصاصهم بوفور الشفقة والرحمة الفطرية، فلا يتصرفون إلا في حق الخلق لا غير.
انظر: تهذيب اللغة (١١/ ١٢٥)، التعريفات للجرجاني (ص٢٥٩)، معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص١١٤)، رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربي (ص٢٣٥).

(٢) النقباء: جمع نقيب، وهو في اللغة كالأمين والكفيل.
والنقباء في اصطلاح الصوفية: هم الذين تحققوا باسم الباطن، فأشرفوا على بواطن الناس، واستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجود السرائر، وهم ثلاثمائة.
انظر: تهذيب اللغة (٩/ ١٩٧)، التعريفات للجرجاني (ص٢٦٦، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ)، معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص١١٦)، رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربي (ص٢٨٦).

(٣) الأبدال: جمع بدل، وهو مأخوذ من التبديل، أي: التغيير، قال ابن الأثير: أبدال الشام هم الأولياء والعُبَّاد، الواحد بدل كجمل، بدِل كحمِل، سُمُّوا بذلك؛ لأنهم كلما مات منهم واحد بُدِّلَ بآخر.اهـ.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٠٧، مادة: بدل).
والأبدال في اصطلاح الصوفية: هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك جسداً على صورته، بحيث لا يعرف أحد أنه فقد، وهم على قلب =

الأقطاب، ومنهم أربعة هم: الأوتاد[١]، ومنهم واحد هو: الغوث، وأنه مقيم بمكة، وأن أهل الأرض إذا نابهم نائبة في رزقهم ونصرهم فزعوا إلى الثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وأولئك يفزعون إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الواحد، وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الأعداد والأسماء والمراتب، فإن لهم فيها مقالات متعددة حتى يقول بعضهم: إنه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضراء باسم غوث الوقت، واسم خَضِره على قول من يقول منهم: إن الخضر هو مرتبة، وإن لكل زمان خضراً، فإن لهم في ذلك قولين.

وهذا كله باطل لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا من المشايخ الكبار المتقدمين الذين

= إبراهيم ﷺ، قال ابن عربي: إن ثمَّ رجالاً سبعة يقال لهم: الأبدال، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم، وإليهم تنظر روحانيات السماوات والأرض. اهـ.

انظر: الفتوحات المكية (٢/ ٣٧٦).

وانظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٤/ ١٣٢)، معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص٦٢)، اصطلاحات الصوفية للسمرقندي (ص٨).

(١) الأوتاد: جمع وَتَد، وهو في اللغة: ما رزّ في حائط أو أرض من خشب، ويقال: وتدته أي: أثبته.

والأوتاد في اصطلاح الصوفية: عرفهم ابن عربي بقوله: الأوتاد عبارة عن أربعة رجال، منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة. اهـ. وهؤلاء الأوتاد ـ في زعم الصوفية ـ بهم يحفظ الله تعالى تلك الجهات الأربع لكونهم محالَّ نظر الله تعالى!.

انظر: لسان العرب (٣/ ٤٤٤ مادة: وتد)، رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربي (ص٢٣٥)، اصطلاحات الصوفية للسمرقندي (ص٧).

يصلحون للاقتداء بهم، ومعلوم أن سيدنا رسول رب العالمين وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم كانوا خيرَ الخلق في زمنهم، وكانوا بالمدينة ولم يكونوا بمكة.

وقد روى بعضُهم حديثاً في (هلال)[1] غلام المغيرة بن شعبة[2] وأنه أحد السبعة، والحديث باطل، باتفاق أهل المعرفة، وإن كان قد روى بعضَ هذه الأحاديث أبو نعيم في (حلية الأولياء)[3] والشيخ أبو

---

(١) هلال: مولى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال ابن حجر: ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في أهل الصفة.

انظر: حلية الأولياء (٢/ ٢٤)، الإصابة (٦/ ٥٥٠).

(٢) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبو عبد الله، الصحابي الجليل رضي الله عنه، أسلم عام الخندق، ولاه عمر رضي الله عنه فتوحات كثيرة، توفي سنة ٥٠هـ.

انظر: الإصابة (٦/ ١٩٧ ـ ٢٠٠)، البداية والنهاية (٨/ ٥٢ ـ ٥٣).

(٣) يشير الشيخ إلى ما ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢٤) حيث روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ليدخلن من هذا الباب رجل ينظر الله إليه) قال: فدخل ـ يعني هلالاً ـ فقال له: (صلِّ عليَّ يا هلال، فقال: ما أحبك إلى الله، وما أكرمك عليه).

وأورده ابن حجر في ترجمة هلال في الإصابة (٦/ ٥٥٠) وقال: سنده ضعيف ومنقطع، وأخرجه أحمد بن منصور بن يوسف من حديث أبي هريرة مطولاً جداً، وأخرج أبو نعيم في الحلية أيضاً في ترجمة أويس القرني من طريق الضحاك عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه، لكن لم يسم هلالاً، وجاء ذكره في حديث لأبي الدرداء ـ لكن لم ينسبه إلى المغيرة ـ ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (في الأصل الخامس والعشرين بعد المائة) من طريق يحيى بن أبي طلحة عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد، فقال: يدخل من هذا الباب رجلٌ من أهل الجنة، وقام رسول الله ﷺ إلى الصلاة، فخرجت من ذلك الباب، فلم أرَ أحداً فعدت ودخلت، وقعدت إلى رسول الله ﷺ فقال: أما إنك لست به يا أبا الدرداء، ثم جاء رجل حبشيٌّ =

عبد الرحمن السلمي في بعض مصنفاته[١] فلا تغتر بذلك، فإن فيه الصحيح والحسن والضعيف والموضوع والمكذوب الذي لا خلاف بين العلماء في أنه كذب موضوع، وتارة يرويه على عادة بعض أهل الحديث الذين يروون ما سمعوا ولا يميزون بين صحيحه وباطله، وكان أهل الحديث لا يروون مثل هذه الأحاديث لِمَا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)**[٢].

وبالجملة: فقد علم المسلمون أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة والرهبة، مثل دعائهم عند الاستسقاء لنزول الرزق، ودعائهم عند الكسوف، والاعتداد لرفع البلاء، وأمثال ذلك إنما يدعون في ذلك الله وحده لا شريك له، لا يشركون به شيئاً، لم يكن للمسلمين قط أن يرجعوا بحوائجهم إلى غير الله ﷻ، بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله، أفَتَراهم بعد التوحيد والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الواسطة التي ما أنزل الله بها من سلطان؟.

= فدخل من ذلك الباب، عليه جبة من صوف فيها رقاع من أدم، رامقاً بطرفه إلى السماء، حتى قام على رسول الله ﷺ فسلم عليه، فقال له: كيف أنت يا هلال؟ قال: بخير يا رسول الله، قال: ادعُ لنا يا هلال واستغفر لنا، قال: رضي الله عنك وغفر لك يا رسول الله، فذكر حديثاً طويلاً. اهـ.

(١) لم أقف على ما ذكره السلمي عن هلال مولى المغيرة، ولعله يغني عنه ما تقدم في الحاشية السابقة عن أبي نعيم وابن حجر.

(٢) الحديث: رواه مسلم (المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين، ح١)، رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن روى حديثاً وهو يرى أنه كذب، ٥/ ٣٦/ ٢٦٦٢)، وابن ماجه (المقدمة، باب من حدّث عن رسول الله ﷺ حديثاً وهو يرى أنه كذب ١/ ١٥/ ٣٩) من حديث: علي رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

والنبي ﷺ استسقى لأصحابه بصلاة وبغير صلاة، وصلى بهم للاستسقاء وصلاة الكسوف، وكان يقنت في صلاته فيستنصر على المشركين، وكذلك خلفاؤه الراشدون بعده، وكذلك أئمة الدين ومشايخ المسلمين، وما زالوا على هذه الطريقة.

ولهذا يقال: ثلاثة أشياء ما لها من أصل: باب النصيرية[١]، ومنتظَر الرافضة، وغوث الجُهَّال، فإن النصيرية تدَّعي في الباب الذي لهم ـ ما هو من هذا الجنس ـ: أنه الذي يقيم العالم، فذاك شخصه موجود، ولكن دعوى النصيرية فيه باطلة، وأما محمد بن الحسن المنتظر والغوث المقيم بمكة ونحو هذا، فإنه باطل ليس له وجود، **وكذلك**: ما يزعمه بعضهم من أن القطب الغوث الجامع يمد أولياء الله ويعرفهم كلهم ونحو هذا، فهذا باطل، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا يعرفان جميع أولياء الله

---

(١) باب النصيرية: تقدم التعريف بالنصيرية، وأنهم فرقة من غلاة الشيعة، قالوا بظهور الحق سبحانه في عليٍّ، ولهذا أطلقوا على عليٍّ اسم الإلهية، قال الشهرستاني على لسانهم (الملل والنحل ١/ ١٩٢): «وإنما أثبتنا هذا الاختصاص لعليٍّ رضي الله عنه دون غيره، لأنه كان مخصوصاً بتأييد إلهي من عند الله تعالى فيما يتعلق بباطن الأسرار»اهـ، والنصيرية يوجدون حالياً في جنوب سوريا وشمالها وجنوب تركيا وشمال لبنان ومواضع قليلة من تركستان وكردستان.

ولا يمدانهم، فكيف بهؤلاء الضالين المغترين الكذابين؟ ورسول الله ﷺ سيد ولد آدم إنما عرف الذين لم يكن رآهم من أمته بسيماء الوضوء وهو الغُرَّة والتحجيل[1]، ومن هؤلاء من أولياء الله من لا يحصيه إلا الله ﷻ، وأنبياء الله الذين هو إمامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وموسى لم يكن يعرف الخضر، والخضر لم يكن يعرف موسى، بل لمَّا سلم عليه موسى قال له الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟ فقال له: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، وقد كان بلغه اسمه وخبره، ولم يكن يعرف عينه، ومن قال إنه نقيب الأولياء أو إنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل.

والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت، وأنه لم يدرك الإسلام، ولو كان موجوداً في زمن النبي ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه، كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره، ولكان يكون في مكة والمدينة، ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم وإعانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم، ولم يكن مختفياً عن خير أمة أخرجت للناس، وهو قد كان بيِّن المشركين ولم يحتجب عنهم.

ثم ليس للمسلمين به وأمثاله حاجة لا في دينهم ولا في دنياهم، فإن دينهم أخذوه عن الرسول النبي الأمي ﷺ الذي علمهم الكتاب

---

(١) كما ورد في الحديث الذي رواه ابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها، باب ثواب الطهور، ١/ ١٠٤، ح٢٨٤) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قيل: يا رسول الله كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ قال: (غر محجلون بُلق من آثار الوضوء)، ورواه البخاري (كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء، ١/ ٣٦/ ١٣٦) من حديث: أبي هريرة ﷺ، ومسلم (كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، ١/ ٢١٧/ ٢٤٨) من حديث: حذيفة ﷺ، بألفاظ متقاربة.

والحكمة، وقال لهم نبيهم: **(لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم)**(١)، وعيسى بن مريم عليه السلام إذا نزل من السماء إنما يحكم فيهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، فأي حاجة لهم مع هذا إلى الخضر وغيره؟!

والنبي ﷺ قد أخبرهم بنزول عيسى من السماء وحضوره مع المسلمين، وقال: **(كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها)**(٢)، فإذا كان النبيان الكريمان اللذان هما مع إبراهيم وموسى ونوح أفضلَ الرسل ومحمد ﷺ سيد ولد آدم ولم يحتجبوا عن هذه الأمة لأعوامهم ولا خواصهم، فكيف يحتجب عنهم من ليس مثلهم؟ وإذا كان الخضر حياً دائماً، فكيف لم يذكر النبي ﷺ ذلك قط؟ ولا أخبر به أمته ولا خلفاؤه الراشدون؟.

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٧١، ٤/ ٢٦٦)، والدارمي (أبواب متفرقة في صفات النبي ﷺ وفي العلم ونحوها، ١/ ١٢٢/ ٤٤١) مع اختلاف يسير في الألفاظ، من حديث: جابر رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٨): رجاله رجال الصحيح، إلا أن فيه جابراً الجعفي وهو ضعيف.اهـ.

(٢) الحديث: أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢ ـ أ/ ١٨٩ مخطوط)، والطبري في تفسيره بإسناده (٣/ ٢٩٠، في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ) عن كعب الأحبار، قال: ما كان الله عز وجل ليميت عيسى ابن مريم، إنما بعثه الله داعياً ومبشراً يدعو إليه وحده، فلما رأى عيسى قلة من اتبعه وكثرة من كذَّبه، شكا ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه: إني متوفيك ورافعك إلي، وليس من رَفعتُه عندي ميتاً، وإني سأبعثك على الأعور الدجال، فتقتله ثم تعيش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة، ثم أميتك ميتة الحي، قال كعب الأحبار: وذلك يصدق حديثَ رسول الله ﷺ حيث قال: (كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها).

وأورده المتقي الهندي في كنز العمال (ح٣٨٦٨٢، ٣٨٨٥٨)، وصحح إسناده السيوطي في الدر المنثور، فقال: (٢/ ٢٢٤): «وأخرج ابن جرير **بسند صحيح** عن كعب قال: . .» وذكر الأثر والحديث.

وقول القائل: إنه نقيب الأولياء، فيقال له: من ولَّاه النقابة وأفضل الأولياء أصحاب محمد ﷺ وليس فيهم الخضر؟ وعامَّة ما يُحكى في هذا الباب من الحكايات بعضها كذب وبعضها مبنيٌّ على ظن رجل، مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر، وقال: إنه الخضر، كما أن الرافضة ترى شخصاً تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم أو تدعي ذلك، وروي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال ـ وقد ذُكر له الخضر ـ: من أحالك على غائب فما أنصفك[1]، وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

وأما إن قصد القائل بقوله: (القطب الغوث الفرد الجامع) أنه: رجل يكون أفضلَ أهل زمانه، فهذا ممكن، لكن من الممكن أيضاً أن يكون في الزمان اثنان متساويان في الفضل وثلاثة وأربعة، ولا يجزم بأن يكون في كل زمان أفضلُ الناس إلا واحداً، وقد تكون جماعة بعضهم أفضل من بعض من وجه دون وجه، وتلك الوجوه إما متقاربة وإما متساوية.

ثم إذا كان في الزمان رجل هو أفضل أهل الزمان فتسميته بـ (القطب الغوث الجامع) بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تكلم بهذا أحد من سلف الأمة وأئمتها، وما زال السلف يظنون في بعض الناس أنه أفضل أو من أفضل أهل زمانه، ولا يطلقون عليه هذه الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، لا سيما أن من المنتحلين لهذا الاسم من يدَّعي أن أول الأقطاب هو: الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ثم يتسلل الأمر إلى ما دونه إلى بعض مشايخ المتأخرين، وهذا لا يصح على مذهب أهل السنة، ولا على مذهب الرافضة، فأين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؟ والحسن عند وفاة النبي ﷺ كان قد قارب سن التمييز والاحتلام.

---

(١) لم أقف على كلام الإمام أحمد.

وقد حُكي عن بعض الأكابر من الشيوخ المنتحلين لهذا: أن (القطب الفرد الغوث الجامع) ينطبق علمه على علم الله تعالى، وقدرتُه على قدرة الله تعالى، فيعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله، وزعم أن النبي ﷺ كان كذلك، وأن هذا انتقل عنه إلى الحسن رضي الله عنه، وتسلسل إلى شيخه، فبينت أن هذا كفر صريح وجهل قبيح، وأن دعوى هذا في رسول الله ﷺ كفر، دع ما سواه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧، ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]»اهـ[1].

وقال الشيخ في معرض رده على الرافضة وبيانه لفساد دعواهم في اتخاذ الأئمة الذين يقدسونهم، ويرفعونهم فوق مرتبتهم البشرية، وأن فريقاً من هؤلاء الرافضة يحتجون على صحة تقديس الأئمة بفعل بعض الصوفية الذين غلَوْا في مشايخهم:

«.. فإن قال هؤلاء الرافضة: إيماننا بهذا المنتظر المعصوم مثل إيمان كثير من شيوخ الزهد والدين بإلياس والخضر، والغوث والقطب، ورجال الغيب، ونحو ذلك من الأشخاص الذين لا يعرف وجودهم، ولا بماذا يأمرون ولا عن ماذا ينهون، فكيف يسوغ لمن

(١) الفتاوى (٢٧/٩٦ ـ ١٠٥).

يوافق هؤلاء أن ينكر علينا ما ندعيه؟، **قيل: الجواب من وجوه:**

أحدها: أن الإيمان بوجود هؤلاء ليس واجباً عند أحد من علماء المسلمين وطوائفهم المعروفين، وإذا كان بعض الغلاة يوجب على أصحابه الإيمان بوجود هؤلاء، ويقول: إنه لا يكون مؤمناً ولياً لله إلا من يؤمن بوجود هؤلاء في هذه الأزمان، كان قوله مردوداً كقول الرافضة.

الوجه الثاني: أن يقال: من الناس من يظن أن التصديق بهؤلاء يزداد به الرجل إيماناً وخيراً وموالاةً لله، وأن المصدق بوجود هؤلاء أكمل وأشرف وأفضل عند الله ممن لم يصدق بوجود هؤلاء، وهذا القول ليس مثل قول الرافضة من كل وجه، بل هو مشابه له من بعض الوجوه؛ لكونهم جعلوا كمال الدين موقوفاً على ذلك.

وحينئذ فيقال: هذا القول أيضاً باطل باتفاق علماء المسلمين وأئمتهم؛ فإن العلم بالواجبات والمستحبات، وفعل الواجبات والمستحبات كلها، ليس موقوفاً على التصديق بوجود أحد من هؤلاء، ومَنْ ظنَّ مِنْ أهل النسك والزهد والعامة أن شيئاً من الدين - واجبه أو مستحبه - موقوفاً على التصديق بوجود هؤلاء، فهو جاهل ضالٌّ باتفاق أهل العلم والإيمان العالِمين بالكتاب والسنة؛ إذ قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته التصديق بوجود هؤلاء، ولا أصحابه كانوا يجعلون ذلك من الدين ولا أئمة المسلمين.

وأيضاً فجميع هذه الألفاظ: لفظ الغوث والقطب والأوتاد والنجباء... وغيرها، لم ينقل أحد عن النبي ﷺ بإسناد معروف أنه تكلم بشيء منها ولا أصحابه، ولكن لفظ (الأبدال) تكلم به بعض السلف، ويُروى فيه عن النبي ﷺ حديث ضعيف[1]، وقد بسطنا الكلام على ذلك في غير هذا الموضع.

---

(١) تقدم الحديث وتخريجه (ص٥٣٦).

الوجه الثالث: أن يقال: القائلون بهذه الأمور منهم مَنْ يَنسُب إلى أحد هؤلاء ما لا تجوز نسبته إلى أحد من البشر؛ مثل دعوى بعضهم أن الغوث أو القطب هو الذي يمد أهل الأرض في هداهم ونصرهم ورزقهم، فإن هذا لا يصل إلى أحد من أهل الأرض إلا بواسطة نزوله على ذلك الشخص، وهذا باطل بإجماع المسلمين، وهو من جنس قول النصيرية في الباب.

وكذلك ما يدعيه بعضهم: من أن الواحد من هؤلاء قد يعلم كلَّ ولي لله كان ويكون، واسمه واسم أبيه، ومنزلته من الله... ونحو ذلك من المقالات الباطلة، التي تتضمن أن الواحد من البشر يشارك الله في بعض خصائصه، مثل أنه بكل شيء عليم، أو على كل شيء قدير، ونحو ذلك، كما يقول بعضهم في النبي ﷺ وفي شيوخه: إن علم أحدهم ينطبق على علم الله، وقدرته منطبقة على قدرة الله، فيعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر الله عليه، فهذه المقالات وما يشبهها من جنس قول النصارى والغالية في علي، وهي باطلة بإجماع علماء المسلمين، ومنهم من يَنْسُب إلى الواحد من هؤلاء ما تجوز نسبته إلى الأنبياء وصالحي المؤمنين من الكرامات، كدعوة مجابة، ومكاشفة من مكاشفات الصالحين... ونحو ذلك.

فهذا القدر يقع كثيراً من الأشخاص الموجودين المعاينين، ومن نسب ذلك إلى من لا يُعرَف وجودُه، فهؤلاء وإن كانوا مخطئين في نسبة ذلك إلى شخص معدوم، فخطؤهم كخطأ من اعتقد أن في البلد الفلاني رجالاً من أولياء الله وليس فيه أحد، أو اعتقد في ناس معينين أنهم أولياء الله ولم يكونوا كذلك، ولا ريب أن هذا خطأ وجهل وضلال يقع فيه كثير من الناس، لكن خطأ الإمامية وضلالهم أقبح وأعظم.

الوجه الرابع: أن يقال: الصواب الذي عليه محققو العلماء: أن

إلياس والخضر ماتا، وأنه ليس أحد من البشر واسطة بين الله وبين خلقه في رزقه وخلقه وهداه ونصره، وإنما الرسل وسائط في تبليغ رسالاته، لا سبيل لأحد إلى السعادة إلا بطاعة الرسل، وأما خلقه ورزقه وهداه ونصره، فلا يقدر عليه إلا الله تعالى، فهذا لا يتوقف على حياة الرسل وبقائهم، بل ولا يتوقف نصر الخلق ورزقهم على وجود الرسل أصلاً، بل قد يخلق الله ذلك بما شاء من الأسباب، بواسطة الملائكة أو غيرهم، وقد يكون لبعض البشر في ذلك من الأسباب ما هو معروف في البشر، وأما كون ذلك لا يكون إلا بواسطة البشر أو أن أحداً من البشر يتولى ذلك كله... ونحو ذلك، فهذا كله باطل»اهـ[1].

المظهر الثاني من مظاهر تقديس الصوفية لمشايخهم:

اعتقادهم أن الشيخَ الوليَّ أفضلُ من النبي: قال الشيخ في معرض رده على الغلاة في المشايخ: «فمن اعتقد في بشر أنه إله، أو دعا ميتاً، أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه أو سجد له، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ومن فضَّل أحداً من المشايخ على النبي ﷺ، أو اعتقد أن أحداً يستغني عن طاعة رسول الله، استُتيب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه»اهـ[2].

المظهر الثالث: السجود للمشايخ وتقبيل الأرض بين أيديهم:

قال الشيخ رحمه الله: «وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة

(١) المنهاج (١/ ٩١ ـ ٩٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المنهاج (١/ ١٠٣)، مختصر الفتاوى المصرية (ص١٩٧)، بغية المرتاد (ص٢٩٣)، الفرقان (ص١٢، ١٢٠).

(٢) الفتاوى (٣/ ٤٢٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٨/ ٤٧٥، ٣٥/ ١٦٤)، الدرء (٥/ ٣٦٣)، الاقتضاء (١/ ٧٥).

في النهي عنه، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله ﷻ منهيٌّ عنه، ففي (المسند) وغيره: (**أن معاذ بن جبل ﷺ لما رجع من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: يا رسول الله! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم، فقال: كذبوا يا معاذ، لو كنت آمراً أحداً أن يسجدَ لأحد، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها. يا معاذ! أرأيت إن مررت بقبري، أكنت ساجداً؟ قال: لا، قال: لا تفعل هذا**)[1]، أو كما قال رسول الله ﷺ.

بل قد ثبت في الصحيح من حديث جابر أنه ﷺ صلَّى بأصحابه قاعداً من مرض كان به، فصلَّوْا قياماً، فأمرهم بالجلوس، وقال: (**لا تعظموني كما تعظم الأعاجم بعضُها بعضاً**)[2]، وقال: (**مَنْ سرَّه أن يتمثل له الناس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار**)[3]. فإذا كان قد نهاهم مع قعوده ـ وإن كانوا قاموا في الصلاة ـ حتى لا يتشبَّهوا بمن يقومون لعظمائهم، وبيَّن أن مَنْ سرَّه القيامُ له كان من أهل النار، فكيف بما فيه من السجود له، ومن وضع الرأس، وتقبيل الأيادي؟ وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ وهو خليفة الله على الأرض قد وكَّل أعواناً يمنعون الداخل من تقبيل الأرض، ويؤدبهم إذا قبّل أحدٌ الأرضَ.

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (٤/ ٣٨١) وأبو داود (كتاب النكاح، باب في حق الزوج على المرأة، ح٢١٤٠)، ابن حبان (كتاب النكاح، باب معاشرة الزوجين، ٩/ ٤٧٩/ ٤١٧١) من حديث: ابن أبي أوفى ﷺ، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين (كتاب البر والصلة، ٤/ ١٩٠/ ٧٣٢٥) من حديث: معاذ ﷺ، وصححه الألباني (إرواء الغليل ح١٩٩٨).

(٢) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الأدب، باب قيام الرجل للرجل، ح٥٢٣٠)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٥٣، ٢٥٦)، وضعفه الألباني (ضعيف الجامع الصغير ٦/ ٧٥، ح٦٢٧٦).

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، ح٥٢٢٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٩١، ٩٣)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ١، ح٣٥٧).

وبالجملة: فالقيام والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود، خالق السماوات والأرض، وما كان حقاً خالصاً لله لم يكن لغيره فيه نصيب، مثل الحلف بغير الله ﷻ، وقد قال رسول الله ﷺ: **(من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)**. متفق عليه[1]، وقال أيضاً: **(من حلف بغير الله فقد أشرك)**[2].

فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفرَّقُوا، وأن تُناصحوا من وَلَّاه الله أمرَكم)**[3].

وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة، ونبينا ﷺ نهى عن الشرك دِقِّه وجِلِّه وحقيره وكبيره، حتى إنه قد تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة:

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، ٢/ ٩٥١/ ٢٥٣٣)، ومسلم (كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، ٣/ ١٢٦٧/ ١٦٤٦) من حديث: ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح (كتاب النذور والأيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، ٤/ ١١٠/ ١٥٣٥)، وأبو داود (كتاب الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء، ٣/ ٢٢٣/ ٣٢٥١) كلاهما من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وصححه الألباني (إرواء الغليل ح٢٥٦١).

(٣) الحديث: رواه مسلم (كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، ٣/ ١٣٤٠/ ١٧١٥)، ومالك في الموطأ (كتاب الكلام، باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين، ٢/ ٩٩٠/ ١٧٩٦)، وابن حبان (كتاب الزكاة، باب المسألة والأخذ، ٨/ ١٨٢/ ٣٣٨٨)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

تارة: يقول: **(لا تحرَّوْا بصلاتكم طلوعَ الشمس ولا غروبَها)**(١).

وتارة: ينهى **(عن الصلاة بعد طلوعَ الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس)**(٢).

وتارة: يذكر: **(إن الشمس إذا طلعت طلعت بين قرنَيْ شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار)**(٣)، ونهى عن الصلاة في هذا الوقت لِمَا فيه من مشابهة المشركين في كونهم يسجدون للشمس في هذا الوقت، وأن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له، فكيف بما هو أظهر شركاً ومشابهةً للمشركين من هذا؟

وقد قال الله تعالى فيما أمر رسوله ﷺ أن يخاطب به أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وذلك لِمَا فيه من مشابهة أهل الكتاب من اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، ونحن منهيون عن مثل هذا، ومن عَدَلَ عن هَدْي نبيه ﷺ وهَدْي أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى ما هو من جنس هدي النصارى، فقد ترك ما أمر الله به ورسولُه.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٣/ ١١٩٣/ ٣٠٩٩)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، ١/ ٥٦٧/ ٨٢٨)، من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب مواقيت الصلاة، باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس، ١/ ٢١٣/ ٥٦٣)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، ١/ ٥٦٦/ ٨٢٥)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٣/ ١١٩٣/ ٣٠٩٩)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، ١/ ٥٦٧/ ٨٢٨)، من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

أما قول القائل: انقضت حاجتي ببركة الله وبركتك، فمنكَرٌ من القول، فإنه لا يُقْرَن بالله في مثل هذا غيرُه، حتى إن قائلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: (**أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده**)(١)، وقال لأصحابه: (**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**)(٢):

وفي الحديث أن بعض المسلمين رأى قائلاً يقول: نِعْمَ القومُ أنتم لولا أنكم تندِّدُون ـ أي تجعلون لله نداً ـ يعني تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك(٣). وفي الصحيح عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر بالحديبية في إثْر سماء من الليل، فقال: (**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطرنا بنَوْء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**)(٤)، والأسباب التي

---

(١) الحديث: رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) بلفظ: عدلاً، بدلاً من: نداً، وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة ١، ح١٣٩).

(٢) الحديث: رواه ابن ماجه (كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، ١/ ٦٨٥/ ٢١١٨)، وأبو داود (كتاب الأدب، باب لا يقال: خبثت نفسي، ٤/ ٢٩٥/ ٤٩٨٠)، والدارمي (٢/ ٢٩٥) من حديث: حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح (السلسلة الصحيحة ١، ح١٣٧).

(٣) الحديث: رواه الحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب الطفيل رضي الله عنه، ٣/ ٥٢٣/ ٥٩٤٥)، والدارمي (كتاب الاستئذان، باب في النهي أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، ٢/ ٧٤٩/ ٢٥٩٩) من حديث: الطفيل بن عمرو رضي الله عنه، وابن حبان (كتاب الحظر والإباحة، باب ما يكره من الكلام وما لا يكره، ١٣/ ٣٢/ ٥٧٢٥) من حديث: جابر بن سمرة رضي الله عنه، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ١، ح١٣٧).

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب صفة الصلاة، باب يستقبل الإمام الناس إذا =

جعلها الله أسباباً لا تجعل مع الله شركاءَ وأنداداً وأعواناً»اهـ[1].

المظهر الرابع: قولهم: إن المشايخ يُخلّصون من سوء الحساب يوم القيامة:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في جواب سؤال: «عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة في الفساد، وتعلق كل منهم بسبب، ومنهم من قال: إن يونس القتات يخلص أتباعه ومريديه من سوء الحساب وأليم العقاب.

ومنهم من يزعُم أن علياً الحريري[2] كان قد أُعطي من الحال ما إنه إذا خلا بالنساء والمردان يصير فرجه فرج امرأة.

ومنهم من يدَّعي النبوة، ويدَّعي أنه لا بد له من الظهور في وقت، فيعلو دينه وشريعته، وأن من شريعته السوداء: تحريم النساء، وتحليل الفاحشة اللوطية، وتحريم شيء من الأطعمة وغيرها كالتين واللوز والليمون، وتبعه طائفة: منهم من كان يصلي فترك الصلاة ويجتمع به نفر مخصوصون كثيرٍ من الأيام... إلخ.

فأجاب: أما قول القائل: إن يونس القتاتي يخلص أتباعه ومريديه من سوء الحساب وأليم العذاب يوم القيامة، **فيقال ـ جواباً عاماً ـ**: من

= سلم، ١/ ٢٩٠/ ٨١٠)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، ١/ ٨٣/ ٧١) من حديث: زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(١) الفتاوى (٢٧/ ٩٢ ـ ٩٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: مختصر الفتاوى المصرية ص: (٦٩، ١٩٧).

(٢) هو علي بن أبي الحسن بن منصور اليسري الحريري، أبو محمد الدمشقي، تصوف أول عمره، في كلامه وشعره ما يشير إلى الحلول والاتحاد، قال ابن العماد: «أقبل على السماعات والملاح وبالغ في ذلك، فمن يحسن الظن به يقول: هو كان صحيحاً في نفسه صاحب حال ووصول، ومن خبر أمره رماه بالكفر والضلال»، توفي سنة ٦٤٥هـ، وله ٩٠ سنة.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ٢٣١)، البداية والنهاية (٩/ ١٦٥، حوادث سنة ٦٧٧هـ).

ادّعى أن شيخاً من المشايخ يخلص مريديه يوم القيامة من العذاب، فقد ادَّعى أن شيخه أفضلُ من محمد بن عبد الله ﷺ، ومن قال هذا فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيةُ عمةَ رسول الله، لا أغني عنكِ من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، سلوني ما شئتم من مالي**)(١).

وثبت عنه في الصحيح أنه قال: (**لا أُلفيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني! فأقول: لا أغني عنك من الله شيئاً قد بلّغتك**)(٢). الحديث بتمامه، وذكر مثل ذلك في غير ذلك من الأقوال.

فإذا كان رسول الله ﷺ يقول مثل هذا لأهل بيته وأصحابه، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه من المهاجرين والأنصار، يقول: **إنه ليس يغني عنهم من الله شيئاً**، فكيف يقال في شيخ غايته أن يكون من التابعين لهم بإحسان؟ وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، وأمثال ذلك من نصوص القرآن والسنة.

وقد عُلِم أنه ليس للأنبياء وغيرهم يوم القيامة إلا الشفاعة، وقد

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، ٣/ ١٠١٢/ ٢٦٠٢)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ١/ ١٩٢/ ٢٠٦) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب الغلول، ٣/ ١١١٨/ ٢٩٠٨)، ومسلم (كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، ٣/ ١٤٦١/ ١٨٣١) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

ثبت في الصحيح: (**أن الناس يأتون آدم ليشفع فيقول: نفسي.. نفسي**)، وكذلك يقول نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، وهم أفضل الخلق، ويقول لهم عيسى: (**اذهبوا إلى محمد؛ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإذا رأيتُ ربي خررت له ساجداً، فيقول: أي محمد! ارفع رأسك، وقل يُسمع، واسأل تُعْطَ، واشفع تُشَفَّع، فيحدُّ لي حداً فأُدخلهم الجنة**)[1]. وذكر مثل ذلك في المرة الثانية.

فهذا خير الخلق وأكرمهم على الله إذا رأى ربه لا يشفع حتى يسجد له ويحمده، ثم يأذن له في الشفاعة فيحد له حداً يدخلهم الجنة، وهذا تصديق قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جاء في الحديث الصحيح أنه تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون[2] لكن بإذنه في أمور محدودة، ليس الأمر إلى اختيار الشافع، فهذا فيمن علم أنه يشفع، فلو قال قائل: إن محمداً ﷺ يخلّص كل

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب قول الله: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، ٣/ ٦٢١٥/ ٣١٦٢) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٨٢/ ١٩٣) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الحديث: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه «.. فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواماً قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة..» الحديث، رواه البخاري واللفظ له (كتاب التوحيد، باب قول الله وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، ٦/ ٢٧٠٦/ ٧٠٠١)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، ١/ ١٦٧/ ١٨٣).
وانظر في تفصيل المراد بهذه الشفاعة وكيفيتها: شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٦٠)، السنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤٠٣).

مريديه من النار لكان كاذباً، بل في أمته خلق يدخلون النار ثم يشفع فيهم، وأما الشيوخ فليس لهم شفاعة كشفاعته، والرجل الصالح قد يشفّعه الله فيمن يشاء، ولا شفاعة إلا في أهل الإيمان.

وأما المنتسبون إلى الشيخ يونس: فكثير؛ منهم كافر بالله ورسوله، لا يقرون بوجوب الصلاة الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بل لهم من الكلام في سبِّ الله ورسوله والقرآن والإسلام ما يعرفه من عرفهم.

وأما من كان فيهم من عامَّتهم لا يعرف أسرارهم وحقائقهم، فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين الذي استفاده من سائر المسلمين لا منهم، فإن خواصَّهم ـ مثل: الشيخ سلول وجهلان والصهباني. . . وغيرهم ـ فهؤلاء لم يكونوا يوجبون الصلاة، بل ولا يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة.

وفي أشعارهم ـ كشعر الكوجلي وغيره ـ من سبِّ النبي ﷺ وسب القرآن والإسلام ما لا يرضى به لا اليهود ولا النصارى، ثم منهم من يقول: هذا الشعر ليونس، ومنهم من يقول: هو مكذوب على يونس، لكن من المعلوم المشاهَد أنهم ينشدون الكفر، ويتواجدون عليه، ويبول أحدهم في الطعام، ويقول: يشرح كبدي يونس! أو ماء وَرْدِ يونس! ويستحلون الطعام الذي فيه البول، ويرون ذلك بركةً!.

وأما كفرياتهم، مثل قولهم:

وأنا حميت الحمى ... وأنا سكنت فيه
وأنا تركت الخلائق ... في مجاري التيه[1]
موسى على الطور لما خرَّ لي ناجا ... وصاحب أقرب أنا جنبوه حتى جا[2]

---

(١) البيتان: ليونس القنيي، ذكرها ابن خلكان في وفيات الأعيان (٧/ ٢٥٧).

(٢) الأبيات في كتاب الاستغاثة لشيخ الإسلام (٢/ ٥٨١) بهذا اللفظ، إلا الشطر =

يوم القيامة يرى الخلائق أفواجا إلى نبيه عيسى يقضي لهم حاجا[1]

ويقولون:

تعالوا نخرب الجامع ونجعل منه جمارة
ونكسر خشب المنبر ونعمل منه زنارة
ونحرق ورق [المصحف][2] ونعمل منه طنبارة
وننتف لحية القاضي ونعمل منه أوتاره[3]
أنا حملت على العرش حتى صج وأنا صرخت في محمد[4] حتى هج
وأنا البحار السبعة من هيبتي ترتج[5]

= الثاني من البيت الأول، فلفظه هناك:

.... وصاحب الترب ما جيته حتى جا

(١) لم أجد من نسب هذه الأبيات، ولم أعثر على قائلها، ولا يبعد أن يكون هو يونس القنيي.

(٢) سقطت كلمة: (المصحف) من هذا الموضع من المطبوع، وقد استدركتها من كتاب شيخ الإسلام: الاستغاثة (٢/ ٥٨١).

(٣) القائل لهذه الأبيات هو يونس القنيي، انظر: الإلحادية عقيدة ابن عربي الاتحادية، تأليف: أبي إسلام مصطفى سلامة (ص٣٧)، ط. الأولى ١٤١٣، دار التقوى ـ عمان ـ الأردن.

والأبيات ذكرها شيخ الإسلام في كتابه الاستغاثة (٢/ ٥٨١)، بهذا اللفظ:

تعالوا نخرب الجامع ونجعل منه خمارة
ونكسر المنبر ونعمل منه طنبارة
ونحرق المصحف ونعمل منه زمارة
وننتف لحية القاضي ونعمل منه أوتاره

(٤) الأبيات في كتاب الاستغاثة لشيخ الإسلام (٢/ ٥٨١)، باللفظ نفسه، إلا أنه قال بدل محمد: علي.

(٥) تنسب هذه الأبيات أيضاً إلى يونس القنيي.

انظر: الإلحادية عقيدة ابن عربي الاتحادية، تأليف: أبي إسلام مصطفى سلامة (ص٣٨).

وأمور أُخَرُ أعظمُ من هذا، وأعظم من أن تُذْكَرَ؛ لما فيها من الكفر الذي هو أعظم من قول الذين قالوا: إن لله ولداً.

وأما قول القائل: إن من الشيوخ من كان يتحول فرجُه فرجَ امرأة، فكذب مختلق، بل في طريقه من المنكرات المخالفة لدين الإسلام ما يعرفه من يعرف دين الإسلام، وأصحابه ينقلون عنه كفرياتٍ سطَّروها عنه، كقوله: لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً، ومعلوم أن قتل نبي واحد من أعظم الكفر، وفي الحديث المرفوع عن النبي ﷺ: **(أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبيٌّ)**[(١)]»اهـ[(٢)].

المظهر الخامس: اعتقادهم أن المشايخ معصومون:

قال الشيخ رحمه الله: «وكثير من الفقهاء المتأخرين أو أكثرهم يقولون: إنهم عاجزون عن تلقي جميع الأحكام الشرعية من جهة الرسول ﷺ، فيجعلون نصوص أئمتهم بمنزلة نصِّ الرسول ﷺ ويقلدونهم، ولا ريب أن كثيراً من الناس يحتاج إلى تقليد العلماء في الأمور العارضة التي لا يستقل هو بمعرفتها، ومن سالكي طريق الإرادة والعبادة والفقر والتصوف من يجعل شيخه كذلك، بل قد يجعله كالمعصوم! ولا يتلقى سلوكه إلا عنه، ولا يتلقى عن الرسول ﷺ سلوكه، مع أن تلقي السلوك عن الرسول ﷺ أسهل من تلقي الفروع المتنازع فيها، فإن السلوك هو الطريق التي أمر اللهُ بها ورسولُه ﷺ من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبيَّن في الكتاب والسنة، فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه.

ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (١/ ٤٠٧)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ١، ح٢٨١، صحيح الجامع ١/ ٣٣٥، ح١٠١١).

(٢) الفتاوى (٢/ ١٠٤ ـ ١٠٩).

والتبليغ عن الرسول ﷺ، لا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة، ولم يحصل بين الصحابة نزاع في ذلك كما تنازعوا في بعض مسائل الفقه التي خفيت معرفتُها على أكثر الصحابة»اهـ[١].

وقال الشيخ - في موضع آخر -: «ليس لأحد أن يدفع المعلوم من سنة رسول الله ﷺ بقول أحد من الخلق، بل كل أحد من الناس، فإنه يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، وهذا متفق عليه بين علماء الأمة وأئمتها، وإنما تنازع فيه أهل الجهالة من الرافضة وغالية النساك، الذين يعتقد أحدهم في بعض أهل البيت أو بعض المشايخ أنه معصوم أو كالمعصوم»اهـ[٢].

وقال رحمه الله: «ثم إن الغلوّ في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائفَ مِنْ ضُلَّال المتعبدة والمتصوفة، حتى خالط كثيراً منهم من مذهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى، أو مثله، أو دونه، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفسره النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم: **(أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فاتّبعوهم)**[٣].

وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به، وإن تضمَّن تحليلَ حرام أو تحريمَ حلال، وقال سبحانه عن الضالين: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]،

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٢٧٢ - ٢٧٣).
(٢) المصدر السابق (٢٦/ ٢٨١ - ٢٨٢).
(٣) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حديث غريب (كتاب التفسير، باب تفسير سورة التوبة، ٥/ ٢٧٨، ح٣٠٩٥)، وذكر شيخ الإسلام في الفتاوى (١١/ ٢١٢) أنه: «أخرجه الإمام أحمد في المسند وصححه»، وبحثت عنه في المسند فلم أقف عليه.

وقد ابتُلي طوائفُ من المسلمين، من الرهبانية المبتدَعة بما الله به عليم»اهـ(١).

المظهر السادس: اعتقادهم أن المشايخ يعلمون الغيب:

بيَّن الشيخ أن بعض الغالين في المشايخ يدَّعي أنهم يعلمون الغيب، كما أن بعض ضُلَّال المشايخ يستعملون الجن في الإخبار بالمغيبات، لتزداد فتنة الناس بهم، فكثير، من كلامهم في الغائبات هو من خبر الجن.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب: إمَّا سرقة، وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله، أو عِلَّة في النساء... أو غير ذلك، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق، فيقول الشيخ: ذهب لكم كذا وكذا، ثم إن كان صاحب المال معظَّماً، وأراد أن يدلَّه على سرقته مثّل له الشيخُ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال.

والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه؛ لأن الذي سرق المال معه أيضاً جنيٌّ يخدُمه، والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياءُ السارق فآذَوْه، وأحياناً لا يدل، لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه.

كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنس تارة يعرِف السارقَ ولا يعرِّفُ به؛ إما لرغبةٍ ينالها منه، وإما لرهبةٍ وخوفٍ منه، وإذا كان المال المسروق لكبير ويرجوه عرَّف سارقَه، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض»اهـ(٢).

---

(١) الاقتضاء (١/ ٧٧ ـ ٧٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (٢/ ٤١٥، ٤٥٥، ٦١٩).

(٢) الفتاوى (١٣/ ٨٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٤/ ٣٦٥).

وبيّن الشيخ أن مشايخ الصوفية المعتدلين كفّروا من زعم أن أحداً من المشايخ يعلم الغيب، فنقل رَحِمَهُ اللَّهُ كلام أبي عبد الله بن خفيف، ومنه قوله: «ونعتقد: أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عَقَلَ وعلم ما له وما عليه، فيبقى على أحكام القوة والاستطاعة؛ إذ لم يسقط الله ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.. ومن زعم الإشراف على الخلق يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله بغير الوحي المنزل من قول رسول الله ﷺ، فهو خارج عن الملة، ومَنِ ادَّعى أنه يعرف مآلَ الخلق ومنقلبَهم وعلى ماذا يموتون عليه ويُختَم لهم بغير الوحي من قول الله وقول رسوله ﷺ فقد باء بغضب من الله»اهـ[1].

المظهر السابع: اعتقاد سقوط التكاليف عن المشايخ:

نقل الشيخ في ذلك كلام أبي عبد الله بن خفيف، في رده على من ادعى من الصوفية سقوط التكاليف عن المشايخ، وهو قوله: «ونعتقد: أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عَقَلَ وعلم ما له وما عليه، فيبقى على أحكام القوة والاستطاعة، إذ لم يسقط الله ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلى فضاء الحرية، بإسقاط العبودية والخروج إلى أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرية، فهو كافر لا محالةَ، إلا من اعتراه علة أو رأفة، فصار معتوهاً، أو مجنوناً، أو مبرسماً[2] اختلط عقله، أو لحقه غشية يرتفع عنه بها أحكام العقل وذهب عنه التمييز والمعرفة، فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة»اهـ[3].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن الصلاة، والرد على من زعم أنها

---

(١) الفتاوى (٥/ ٨٢).
(٢) (انظر ص٥١٩).
(٣) الفتاوى (٥/ ٨٢).

تسقط عن بعض الناس: «ومن أحب الأعمال إلى الله وأعظم الفرائض عنده: الصلوات الخمس في مواقيتها، وهي أول ما يحاسب عليها العبد من عمله يوم القيامة، وهي التي فرضها الله تعالى بنفسه ليلة المعراج، لم يجعل فيها بينه وبين محمد واسطة، وهي عمود الإسلام الذي لا يقوم إلا به...

فمن لم يعتقد وجوبها على كل عاقل بالغ غير حائضٍ ونفساءَ، فهو كافر مرتد، باتفاق أئمة المسلمين.. ومن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ العارفين والمكاشَفين والواصلين، أو أن لله خواصاً لا تجب عليهم الصلاة، بل قد سقطت عنهم لوصولهم إلى حضرة القدس، أو لاستغنائهم عنها بما هو أهمُّ منها أو أولى، أو أن المقصود حضور القلب مع الرب، أو أن الصلاة فيها تفرقة، فإذا كان العبد في جمعيته مع الله فلا يحتاج إلى الصلاة، بل المقصود من الصلاة هي المعرفة، فإذا حصلت لم يحتج إلى الصلاة، فإنَّ المقصود أن يحصل لك خرق عادة: كالطيران في الهواء، والمشي على الماء، أو ملء الأوعية ماءً من الهواء، أو تغوير المياه واستخراج ما تحتها من الكنوز، وقتل من يبغضه بالأحوال الشيطانية، فمتى حصل له ذلك استغنى عن الصلاة... ونحو ذلك.

أو أن لله رجالاً خواصاً لا يحتاجون إلى متابعة محمد ﷺ، بل استغنَوْا عنه كما استغنى الخضر عن موسى، أو أن كل من كاشف وطار في الهواء أو مشى على الماء، فهو وليٌّ؛ سواء صلّى أو لم يصلِّ.

أو اعتقد أن الصلاة تُقْبَلُ من غير طهارة، أو أن المُولَهين والمُتَوَلِّهين والمجانين الذين يكونون في المقابر والمزابل والطهارات والخانات والقمامين، وغير ذلك من البقاع ـ وهم لا يتوضؤون ولا يصلُّون الصلوات المفروضات.

فمن اعتقد أن هؤلاء أولياء الله، فهو كافر مرتد عن الإسلام باتفاق أئمة الإسلام، ولو كان في نفسه زاهداً عابداً، فالرهبان أزهد وأعبد، وقد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول ﷺ، وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون أتباعه، ولكنهم لم يؤمنوا بجميع ما جاء به، بل آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فصاروا بذلك كافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢]»اهـ[(١)].

المظهر الثامن: قولهم: إن بعض المشايخ يسعه الخروج عن الشريعة كما وسع الخضرَ الخروجُ عن شريعة موسى ﷺ:

قال الشيخ رحمه الله: «ومن فضَّل أحداً من المشايخ على النبي ﷺ أو اعتقد أن أحداً يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ استُتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه. وكذلك من اعتقد أن أحداً من أولياء الله يكون مع محمد ﷺ كما كان الخضر مع موسى عليه السلام، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه؛ لأن الخضر لم يكن من أمة موسى عليه السلام، ولا كان يجب عليه طاعته؛ بل قال له: (**إني على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه**)[(٢)]، وكان مبعوثاً إلى بني إسرائيل، كما قال نبينا ﷺ: (**وكان النبي يُبعثُ إلى قومه خاصةً، وبُعثتُ إلى الناس عامة**)[(٣)]، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين:

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه (ص٣٥٩).

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ: (جعلت =

إنسهم وجنهم، فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروجُ عن شريعته وطاعته، فهو كافر يجب قتله»اهـ(١).

وقال الشيخ ـ في معرض كلامه عن الصلاة ـ: «ومن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ العارفين والمكاشَفين والواصلين.. أو أن لله رجالاً خواصاً؛ لا يحتاجون إلى متابعة محمد ﷺ، بل استغنوا عنه كما استغنى الخضر عن موسى.. فهو كافر مرتد عن الإسلام، باتفاق أئمة الإسلام، ولو كان في نفسه زاهداً عابداً، فالرهبان أزهد وأعبد، وقد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول، وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون أتباعه، ولكنهم لم يؤمنوا بجميع ما جاء به، بل آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فصاروا بذلك كافرين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢]»اهـ(٢).

المظهر التاسع: اعتقادهم أن الشيخ ينصر ويرزق ويهدي، وقد يُعطى قول: كُن.. فيكون:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقال بعضهم: إن الولي يعطى قول (كُنْ!) وقال بعضهم: إنه لا يمتنع على الولي فعلُ ممكنٍ كما لا يمتنع على الله تعالى

= لي الأرض مسجداً وطهوراً»، ١/١٦٨/٤٢٧)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/ ٣٧٠/ ٥٢١) من حديث: جابر رضي الله عنه.

(١) الفتاوى (٣/ ٤٢٢).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٨/ ٤٧٥، ٣٥/ ١٦٤).

فعل محال!»اهـ[١].

وبيّن الشيخ أن هذا القول شرك في الربوبية، فقال: «وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبِّرون العالم بالخلق والرزق، وقضاء الحاجات، وكشف الكُرُبات، وهذا ليس من دين المسلمين»اهـ[٢].

وقال ـ أيضاً ـ: «ومن قال: إن أحداً من أولياء الله يقول للشيء: كن.. فيكون، فإنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، فإنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله ﷻ، وليس كل ما يريده ابن آدم يحصل له، ولو كان مَن كان، لكن في الآخرة يحصل له كل ما يريد، فإذا اشتهى حصل له ذلك بقدرة الله تعالى»اهـ[٣].

وصرح الشيخ بكفر من اعتقد ذلك، فقال: «كل من كان من المتنسِّكة والمتفقِّهة، والمتعبِّدة والمتفقِّرة والمتزهِّدة، والمتكلِّمة والمتفلسفة، ومن وافقهم من الملوك والأغنياء والكتَّاب والحسَّاب والأطباء وأهل الديوان والعامة، خارجاً عن الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ؛ لا يقر بجميع ما أخبر الله على لسان رسوله ﷺ، ولا يحرم ما حرمه الله ورسوله ﷺ، أو يدين بدينٍ يخالف الدينَ الذي بعث الله به رسوله ﷺ باطناً وظاهراً.

مثل: من يعتقد أن شيخه يرزقه، أو ينصره، أو يهديه، أو يغيثه، أو يعينه، أو كان يعبد شيخه، أو يدعوه ويسجد له،.. فكل هؤلاء كفار إن أظهروا ذلك، ومنافقون إن لم يظهروه»اهـ[٤].

وقال الشيخ رحمه الله راداً على عموم الغالين في المشايخ: «فمن غلا

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٣٦٤).

(٢) الاستغاثة (٢/ ٥٣٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (٢/ ٥٨١)، المنهاج (٢/ ٦٢٥).

(٣) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٣). (٤) الفتاوى (٣٥/ ١٦٤).

في طائفة من الناس، فإنه يُذكر له من هو أعلى منه، ويبين أنه لا يجوز هذا الغلوّ فيه، فكيف يجوز الغلوّ في الأدنى؟ كما قال بعض الشيعة لبعض شيوخ أهل السنة: تقول: إن مولانا أمير المؤمنين عليًّا ما كان معصوماً؟

فقال: أبو بكر وعمر عندنا أفضل منه، وما كانا معصومَين.

وكما يُقال لمن يُعظم شيخه أو أميره بأنه يُطاع في كل شيء، وأنه لا تنبغي مخالفته، فيقال له: أبو بكر أفضل منه، وقد قال: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله، فلا طاعةَ لي عليكم، إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن زُغتُ فقوّموني(١).

وكما ظن الغالي أن الصالحين لا يُؤذيهم عدوهم، ولا يُجرحون لاعتقاده أن ذلك نقصٌ فيهم، وأنهم قادرون على دفع كل أذى، فيقال: أفضل الخلق محمد ﷺ قد أوذي وقد جُرح يوم أحد، وذلك كرامةٌ من الله تعالى، ليُعظم أجره ويزيده رفعةً بالصبر على الأذى في الله.

وكذلك لو حلف حالف بشيخه، فقيل له: لا تحلف بغير الله، فمن حلف بغير الله فقد أشرك، وكذلك إذا اعتقد معتقد بشيخه أنه يشفع لمريديه، وأنه له راية في الآخرة، يُدخِل تحتها مريديه الجنة، فيقال له: المرسلون أفضل منه، وسيد ولد آدم إذا جاء يشفع **(يسجد بين يدي الله ﷻ، ويحمَد ربه بمحامدَ، فيقال له: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تعطه، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب أمتي، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة)**(٢)، فهو ﷺ لا يشفع إلا بعد أن يُؤذن له، بل يبدأ بالسجود لله والثناء عليه، ثم إذا أذن له في الشفاعة وشفع حدّ له حداً يدخلهم الجنة،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٢٣)، صفة الصفوة (١/ ١١٠)، البداية والنهاية (٥/ ٣).
(٢) الحديث: تقدم تخريجه (ص٥٦٨).

فليست الشفاعةُ مطلقةً في حقه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يكون الشيخ إن كانت له شفاعة؟»اهـ[١].

ومما سبق يتبين لنا أن المتصوفةَ ـ أو أكثرَهم ـ بالغوا في تعظيم المخلوقين، وأنزلوا مشايخهم في منازل الأنبياء، بل في منازل الألوهية أحياناً، وإذا تأملت في نظرتهم القدسية للولي والقطب والشيخ.. إلخ، تجد أنهم لم يتركوا شيئاً مما يُصرف لله تعالى من عبادات إلا صرفوه لهؤلاء، كالدعاء والاستغاثة، ومعرفة ما في القلوب، وجلب النفع والضرّ... وغير ذلك.

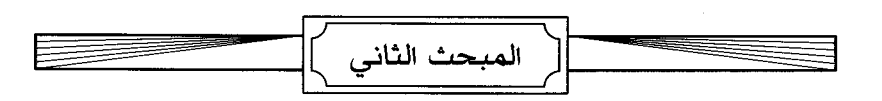
وما قولهم بالحلول والاتحاد إلا نتيجة طبيعية لهذا الغلو الذي وقعوا فيه.

وسيأتي في مبحث الكرامات بيان المزيد حول ذلك إن شاء الله.

❖ ❖ ❖

---

(١) الاستغاثة (١/٣٥٣ ـ ٣٥٥).



المبحث الثاني

تقديس القبور والأضرحة

التقديس لغة: من القُدُس، وهو الطُّهر، والتقديس هو: التنزيه والتعظيم والتمجيد(١).

قال القرطبي في تفسير قول الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠]: «أي نعظمك ونمجدك ونطهر ذِكرك عما لا يليق بك مما نَسَبَك إليه الملحدون»(٢).

وتقديس القبور، وإقامة المشاهد عليها، والغلوّ في أصحابها، سُنَّة قديمة سنَّها إبليس اللعين، وفتن بها فريقاً من الخلق، وصرفهم عن التوحيد، واستدرجهم بذلك إلى عبادة غير الله تعالى، فأصبح فريق من الناس يتعلقون رغبةً ورهبةً، ودعاءً وتقرباً، بأصحاب القبور من الأنبياء والأولياء، أو بمن يُظَنُّ أنه مِنَ الصالحين.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ضلال فريق من المتصوفة في هذا الباب ووقوعهم في الشرك وعبادة غير الله، بسبب تقديس القبور وتعظيمها.

ويمكن عرض ما ذكره الشيخ عن المتصوفة في هذا الباب، فيما يلي:

أولاً: تلاعب الشياطين بالمقدِّسين للقبور والأضرحة:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومثل المقابر لا سيما قبر من يحسن به الظن

---

(١) انظر مادة: قدس، في: المفردات، للراغب الأصفهاني (ص٣٩٦)، واللسان (٦/ ١٦٩)، والقاموس (ص٧٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٢٧).

ومثل المواضع التي يقال: إن بها أثرَ نبي أو رجل صالح، ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية!.

فمنهم: من يرى أن صاحب القبر قد جاء إليه ـ وقد مات من سنينَ كثيرةٍ ـ ويقول: أنا فلان، وربما قال له: نحن إذا وُضِعنا في القبر خرجنا!...

والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الإنس في اليَقَظَة والمنام، وقد تأتي لمن لا يعرف، فتقول: أنا الشيخ فلان، أو العالم فلان، وربما قالت: أنا أبو بكر وعمر، وربما أتى في اليَقَظَة دون المنام، وقال: أنا المسيح.. أنا موسى.. أنا محمد، وقد جرى مثل ذلك أنواعٌ أعرفها، وثَمَّ من يصدق بأن الأنبياء يأتون في اليقظة في صورهم، وثَمَّ شيوخ لهم زهد وعلم وورع ودين، يصدقون بمثل هذا!.

ومن هؤلاء: من يظن أنه حين يأتي إلى قبر نبي أن النبي يخرج من قبره في صورته فيكلمه، **ومن هؤلاء**: من رأى في دائرة ذرى الكعبة صورة شيخ، قال: إنه إبراهيم الخليل، **ومنهم**: من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحُجرة وكلمه، وجعلوا هذا من كراماته، **ومنهم**: من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه»اهـ[1].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك، ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه، وشخص يراه، وتصرفٍ عجيب، ما يظن أنه من الميت، وقد يكون من الجن والشياطين، مثل: أن يرى القبر قد انشق وخرج منه

---

(١) الفتاوى (١٠/٤٠٦ ـ ٤٠٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/٤٠٦)، الجواب الصحيح (٢/٣١٨)، الاقتضاء (٢/٧٤٨).

الميت وكلَّمه وعانقه! وهذا يُرى عند قبور الأنبياء وغيرهم، وإنما هو شيطان، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدَّعي أحدهم أنه النبي فلان، أو الشيخ فلان، ويكون كاذباً في ذلك.

وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره، وهي كثيرة جداً، والجاهل يظن أن ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما.

والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان. ويتبين ذلك بأمور:

أحدها: أن يقرأ آية الكرسي بصدق، فإذا قرأها تغيَّب ذلك الشخص، أو ساخ في الأرض، أو احتجب، ولو كان رجلاً صالحاً أو ملَكاً أو جِنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسي، وإنما تضر الشياطين، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ لمَّا قال له الجني: اقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: **(صدقك وهو كذوب)**[(١)].

ومنها: أن يستعيذ بالله من الشياطين.

ومنها: أن يستعيذ بالعِوَذ الشرعية؛ فإن الشياطين كانت تعرِضُ للأنبياء في حياتهم، وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم، كما جاءت الجن إلى النبي ﷺ بشعلة من النار تريد أن تحرقه، فأتاه جبريل بالعَوْذةِ

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٣/ ١١٩٤/ ٣١٠١)، والنسائي في السنن الكبرى (كما في: تحفة الأشراف ١٠/ ٢٨٥)، وفي اليوم والليلة (ص٥٣١ ـ ٥٣٣)، من حديث: أبي هريرة ﷺ.
وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٠، ١٢) قصة لأبي أسيد وقصة لأبي أيوب مع الجن حيث سرقوا عليهما طعاماً، ثم أخبرتهما الجن بأن التحصن من الشياطين يتم بقراءة آية الكرسي، وذكر أبو نعيم في دلائل النبوة قصة قريبة من ذلك (٢/ ٤٧٨).

المعروفة التي تضمَّنها الحديث المروي عن أبي التياح[(١)] أنه قال: سأل رجلٌ عبدَ الرحمٰنَ بن حبيش[(٢)] - وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي ﷺ - كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين؟ قال: تحدّرت عليه من الشِّعاب والأودية، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسولَ الله ﷺ، قال: فرُعِب رسولُ الله ﷺ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: **(يا محمد: قل!)** قال: **(ما أقول؟)** قال: **(قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجرٌ، من شرِّ ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما يخرج من الأرض، ومن شر ما ينزل فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن)**، قال: فطُفِئت نارهم، وهزمهم الله ﷻ[(٣)].

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال

---

(١) هو يزيد بن حميد الضبعي البصري، أبو التيَّاح، الإمام الحجة، حدث عن أنس بن مالك ومطرف بن عبد الله الشخير وأبي عثمان النهدي رضي الله عنهم وغيرهم، كان ذا عبادة خفيَّة، وكان يقول: أدركت أبي ومشيخةَ الحي إذا صام أحدهم ادَّهَنَ ولبس صالح ثيابه، ولقد كان الرجل يقرأ عشرين سنة ما يعلم به جيرانه، توفي سنة ١٢٨هـ، وقيل: ١٣٠هـ.
انظر: سير الأعلام (٥/ ٢٥١)، تهذيب التهذيب (١١/ ٢٨٠)، حلية الأولياء (٣/ ٨٣).

(٢) هو عبد الرحمن بن حبيش (وقيل: خنيس) الأسدي، قال ابن حجر: ذكره وثيمة في كتاب الردة عن ابن إسحاق، وأنه ممن ثبت على إسلامه، وفارق طليحة. اهـ.
انظر: الإصابة (٥/ ١٠٣).

(٣) الحديث: رواه أحمد في المسند (٣/ ٤١٩) من حديث: عبد الرحمن بن أبي خنيس التميمي، ومالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد (كتاب الشعر، باب ما يؤمر به من التعوذ، ٢/ ٩٥٠/ ١٧٠٥).

رسول الله ﷺ: **(إن عفريتاً من الجن جاء يفتك بي البارحة ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله ﷻ منه فَذَعَتُّه**[1] **فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه، ثم ذكرت قول سليمان** عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، **فرده الله تعالى خاسئاً)**[2].

وعن عائشة[3] أن النبي ﷺ كان يصلي، فأتاه الشيطان، فأخذه فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ: **(حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوةُ سليمانَ لأصبح موثقاً حتى يراه الناس)**[4].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة الصبح

---

(١) ذعَتُّه: خنقته، وقيل: هو أشدّ الخنق، والذعت والدعت: هو الدفع العنيف.
انظر مادة: ذعت، في: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ١٦٠)، اللسان (٢/ ٣٣).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، ١/ ١٧٦/ ٤٤٩)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، ١/ ٣٨٤/ ٥٤١) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة رضي الله عنهما، أفقه نساء المؤمنين، وأعلمهن بالأدب والدين، روت عن رسول الله ﷺ (٢٢١٠) أحاديث كثيرة، توفيت سنة ٥٨هـ.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٥٨ ـ ٨١)، الإصابة (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦١)، أعلام النساء لعمر كحالة (٣/ ٩ ـ ١٣١).

(٤) الحديث: رواه ابن حبان (كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره، ٦/ ١١٥/ ٢٣٥٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٢/ ١١٤٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢١٩، ح٣٠٠١)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢٩٤، ح٩٤٦) من حديث: أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٢/ ٢١٦، ح٢١٠٧).

ـ وهو خلفه ـ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: **(لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين: الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل)**. رواه الإمام أحمد في (مسنده)، وأبو داود في (سننه)[١].

وفي (صحيح مسلم) عن أبي الدرداء[٢] أنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: **(أعوذ بالله منك)** ثم قال: **(ألعنك بلعنة الله)** ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من صلاته، قلنا: يا رسول الله! سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك! قال: **(إن عدوَّ الله إبليسَ جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فاستأخرَ، ثم أردت أن آخذه، ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به وِلْدان المدينة)**[٣].

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (٣/ ٨٢ ـ ٨٣)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب الدنو من السترة، ١/ ٤٤٨/ ١٠٧)، وابن حبان (كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، ٥/ ٣١٦/ ١٩٧٩) من حديث: أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أبو الدرداء رضي الله عنه اختلف في اسمه واسم أبيه، وأقرب الأقوال أنه عويمر بن مالك بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري، أبو الدرداء، الصحابي الجليل رضي الله عنه، أسلم يوم بدر، وهو من فقهاء الصحابة وحكمائهم، توفي سنة ٣٢هـ.
انظر: أسد الغابة (٤/ ١٥٩)، الإصابة (٤/ ٤٤٧).

(٣) الحديث: رواه مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان أثناء الصلاة والتعوذ منه، ١/ ٣٨٥/ ٥٤٢)، والنسائي (كتاب السهو، باب لعن إبليس والتعوذ منه في الصلاة، ٣/ ١٣/ ١٢١٥)، من حديث: أبي الدرداء رضي الله عنه.

فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام لتؤذيَهم وتفسدَ عبادتهم، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة، ومن الجهاد باليد، فكيف من هو دون الأنبياء؟.

فالنبي ﷺ: قمَع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال، ومن أعظمها الصلاة والجهاد، وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء.

وأما من ابتدع ديناً لم يشرعوه؛ فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له، واتباع نبيه فيما شرعه لأمته، وابتدع الغلوَّ في الأنبياء والصالحين والشرك بهم، فإن هذا تتلعَّب به الشياطين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ومنها: أن يدعو الرائي بذلك ربَّه تبارك وتعالى ليبين له الحال.

ومنها: أن يقول لذلك الشخص: أأنت فلان؟، ويقسم عليه بالأقسام المعظَّمة، ويقرأ عليه قوارعَ القرآن، إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين»اهـ[١].

ثانياً: تعظيمهم لقبور المشايخ ـ عموماً ـ، بل يجعلونها أعظمَ من قبر الرسول ﷺ:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «ومنهم من يجعل قبر شيخه أعظم من قبر الرسول ﷺ، ومنهم من يجعل قبر الرسول ﷺ أعظم، ولكن يعظم

(١) التوسل والوسيلة (٣٧ ـ ٤٢).

أصحاب القبور من جهة أنه يعبدهم ليقربوه إلى الله زلفى، لا يعظم الرسول ﷺ من جهة أنه رسول الله الذي أوجب على جميع الخلق اتّباعه وطاعته وسلوك سبيله واتّباع ما جاء به»اهـ[١].

ثالثاً: الصلاة عند القبر، أو استقباله عند الصلاة:

قال الشيخ في معرض رده على الغُلاة في القبور من المتصوفة: «ومنهم من يجعل استقبالها في الصلاة أَوْلَى من استقبال الكعبة؛ ويقول: هذه قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة»اهـ[٢].

رابعاً: الطواف بالقبر:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن الطواف لا يُشرع إلا بالبيت العتيق باتفاق المسلمين، ولهذا اتفقوا على تضليل من يطوف بغير ذلك، مثل من يطوف بالصخرة، أو بحُجرة النبي ﷺ، أو بالمساجد المبنية بعرفةَ أو منى أو غير ذلك، أو بقبر بعض المشايخ أو بعض أهل البيت ـ كما يفعله كثير من جهال المسلمين ـ فإن الطواف بغير البيت العتيق لا يجوز باتفاق المسلمين.

بل من اعتقد ذلك ديناً وقُربةً عُرِّف أن ذلك ليس بدين باتفاق المسلمين، وأن ذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فإن أصر على اتخاذه ديناً قُتل»اهـ[٣].

خامساً: التمرغ على القبر:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما التمسح بالقبر ـ أيٍّ قبر كان ـ وتقبيله،

---

(١) الرد على الأخنائي (ص٣٢ ـ ٣٣).

(٢) الرد على الأخنائي (ص٣٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الرد على الأخنائي (ص٩٢)، الفتاوى (٢٧/ ١٢٨، ١٥١، ١٨٠).

(٣) الفتاوى (٢٦/ ٢٥٠).

وتمريغ الخد عليه، فمنهيٌّ عنه باتفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء.

ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل هذا من الشرك، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣ ـ ٢٤]، وقد تقدم أن هؤلاء أسماء قوم صالحين كانوا من قوم نوح، وأنهم عكفوا على قبورهم مدةً، ثم طال عليهم الأمد، فصوروا تماثيلهم، لا سيما إذا اقترن بذلك دعاءُ الميت والاستغاثة به»اهـ[١].

سادساً: النذر للقبور:

قال الشيخ رحمه الله: «فصلٌ: وكذلك النذر للقبور، أو لأحد من أهل القبور، كالنذر لإبراهيم الخليل، أو للشيخ فلان أو فلان، أو لبعض أهل البيت أو غيرهم، نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين، بل ولا يجوز الوفاء به باتفاق أئمة الدين، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(من نذر أن يطيعَ الله فليطِعه، ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصِه)**[٢]، وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: **(لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجِدَ والسُّرُجَ)**[٣]، فقد لعن رسولُ الله ﷺ من يبني

---

(١) الفتاوى (٢٧/ ٩١ ـ ٩٢).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأيمان، باب النذور في الطاعة ٦/ ٢٤٦٣/ ٦٣١٨)، وأبو داود (كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في النذر في المعصية، ٣/ ٢٣٢/ ٣٢٨٩) من حديث: عائشة رضي الله عنها.

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء للقبور، ٣/ ٢١٨/ ٣٢٣٦)، والترمذي وقال: حديث حسن (كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً، ٢/ ١٣٦/ ٣٢٠)، والنسائي (كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور، =

على القبور المساجد، ويسرج فيها السرج كالقناديل والشمع وغير ذلك.

وإذا كان هذا ملعوناً، فالذي يضع فيها قناديل الذهب والفضة، وشمعدان الذهب والفضة، ويضعها عند القبور أولى باللعنة.

فمن نذر زيتاً أو شمعاً أو ذهباً أو فضة أو ستراً أو غير ذلك، لِيُجعلَ عند قبر نبي من الأنبياء، أو بعض الصحابة أو القرابة أو المشايخ، فهو نذر معصية لا يجوز الوفاء به، وهل عليه كفارة يمين؟ فيه قولان للعلماء، وإن تصدق بما نذره على من يستحق ذلك من أهل بيت النبي ﷺ وغيرهم من الفقراء الصالحين كان خيراً له عند الله وأنفعَ له، فإن هذا عمل صالح يثيبه الله عليه؛ فإن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين، والمتصدق يتصدق لوجه الله، ولا يطلب أجره من المخلوقين؛ بل من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٥]، وقال عن عباده الصالحين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولهذا لا ينبغي لأحد أن يسأل بغير الله مثل الذي يقول: كرامةً لأبي بكر ولعلي، أو للشيخ فلان، أو الشيخ فلان، بل لا يعطي إلا من سأل لله، وليس لأحد أن يسأل

= ٤/ ٩٤/ ٢٠٤٣)، والطيالسي (١/ ١٧١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ١٤٠)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٧٤/ ٢)، والحاكم، وقال: أبو صالح هذا ليس بالسَّمَّان المحتجِّ به، إنما هو باذان ولم يحتج به الشيخان لكنه حديث متداول فيما بين الأئمة ووجدت له متابعاً من حديث سفيان الثوري في متن الحديث، فخرجته (كتاب الجنائز، بابٌ، ١/ ٥٣٠/ ح١٣٨٤)، من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه، والحديث ضعّفه الألباني (إرواء الغليل ٣/ ٢١١/ ح٧٦١، ٣/ ٢٣٢/ ح٧٧٤).

لغير الله»اهـ(١).

وقال رحمه الله: «فصل وأما (النذر للموتى) من الأنبياء والمشايخ وغيرهم، أو لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم، فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى، سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (**من نذر أن يطيعَ الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيَ الله فلا يعصه**)(٢)، وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين ـ في أحد قولي العلماء ـ وهذا إذا كان النذر لله، وأما إذا كان النذر لغير الله، فهو كمن يحلف بغير الله؛ وهذا شرك، فيستغفر الله منه، وليس في هذا وفاءٌ ولا كفارةٌ، ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين، فأجره على رب العالمين»اهـ(٣).

سابعاً: الدعاء عند القبر:

قال الشيخ رحمه الله: «ومنهم من يأتي قبر الميت: الرجل أو المرأة ـ الذي يحسن به الظن لنفسه ـ فيقول: اغفر لي وارحمني، ولا توقعني على زلّة، ولا توقفني على خطيئتي، ونحو هذا الكلام يرد، إلى أمثال هذه الأمور التي تتخذ المخلوق إلهاً، ولما استقر في نفوس عامتهم تجد أحدهم إذا سئل عمن ينهاهم عن هذا، ما يقول هذا؟ فيقول: فلان عنده مآثُم إلى الله، لِمَا استقرّ في نفوسهم أنهم يجعلون معه إلهاً آخر، وهذا كله وأمثاله وقع ونحن بمصر»اهـ(٤).

---

(١) الفتاوى (٢٧/١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) تقدم تخريجه، انظر: (ص٥٨٩).

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاقتضاء (٢/ ٨٥٢).

(٤) الاستغاثة (١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: (١/ ٣٣١).

ثامناً: تعظيم القبر أكثر من الكعبة:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «ومنهم من يستقبل القبر ويصلي إليه مستدبراً الكعبة، ويقول: القبر قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة! وهذا يقوله من هو أكثر الناس عبادة وزهداً، وهو شيخ متبوع، ولعله أمثلُ أتباع شيخه، يقوله في شيخه.

وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد في العبادة والزهد، يأمر المريد أول ما يتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ، فيعكف عليه عكوفَ أهل التماثيل. وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب، ما لا يجده أحدهم في مساجد الله التي أذن الله أن ترفعَ ويُذكرَ فيها اسمه»اهـ[1].

ونخلص مما سبق إلى أن الفتنة بالقبور كثيراً ما تدعو صاحبها إلى الشرك، ودعاء الموتى، والاستغاثة بهم، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاةَ عند قبورهم أفضلُ منها في المساجد، وغير ذلك مما هو محادَّة ظاهرة لله ورسوله.

ولهذا حكى الله ﷻ عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

وقد فتن الشيطان فئاماً من المتصوفة بالقبور، وغرَّهم الشيطان؛ فقال: دعاؤكم لها وصلاتكم عندها والطواف عليها.. إلخ؛ كل هذا ليس شركاً!! بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشدَّ لها تعظيماً وأشدَّ فيهم غلواً، كنتم بقربهم أسعدَ ومن أعدائهم أبعدَ.

---

(١) الاستغاثة (٢/٤٦٣ ـ ٤٦٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الرد على الأخنائي (ص٣٢)، الاقتضاء (٢/٨٥٣).

ولقد بلغ تعظيم المخلوقين عند بعض الناس أنْ فضَّلوا بعض الزهاد ومن ظنوا فيهم الصلاح على الأنبياء، بل فضل بعضُهم بعضَ المخلوقين على الخالق جلّ جلاله، كما قال أحدهم لآخر: هل رأيت أبا يزيد؟ قال: لا، قال: لأن ترى أبا يزيد مرةً خير، لك من أن ترى الله سبعين مرة!![1] أعوذ بالله.. اللهم غوثاً.

ولعمرُ الله، من هذا الباب بعينه دخل الشيطان على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عُبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة.

قال الشيخ حافظ الحكمي[2] رحمه الله:

ومن على القبر سراجاً أوقدا ... أو ابتنى على الضريح مسجدا
فإنه مجدد جهارا ... لسنن اليهود والنصارى
كم حذَّر المختار عن ذا ولعن ... فاعله كما روى أهل السنن
بل قد نهى عن ارتفاع القبر ... وأن يزاد فيه فوق الشبر
وكل قبر مشرف فقد أمر ... بأن يسوَّى هكذا صح الخبر

ثم قال:

فانظر إليهم قد غلَوْا وزادوا ... ورفعوا بناءها وشادوا
بالشيد والآجرِّ والأحجارِ ... لا سيما في هذه الأعصارِ

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٥٧).

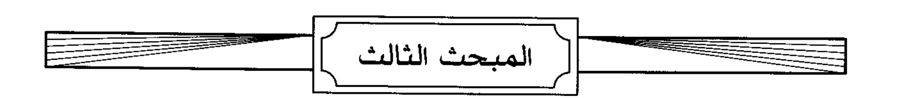
(٢) هو: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، والحكمي نسبة إلى الحكم بن سعد العشيرة بطن من مذحج من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، أحد علماء المملكة العربية السعودية السلفيين، وُلد سنة ١٣٤٢هـ في منطقة تهامة بجنوب المملكة، له مصنفات؛ منها «سلم الوصول» وهي منظومة في التوحيد، و«أعلام السنة المنشورة في اعتقاد الطائفة المنصورة» و«دليل أرباب الفلاح لتحقيق فن الاصطلاح» في المصطلح، وغيرها، توفي سنة ١٣٧٧هـ. انظر: معارج القبول شرح سلم الوصول (المقدمة ١/ ١١).

وللقناديل عليها أوقدوا | وكم لواء فوقها قد عقدوا
ونصبوا الأعلام والرايات | وافتتنوا بالأعظم الرفاتِ
بل نحروا في سَوْحِها النحائرْ | فعل أولي التسييب والبحائرْ
والتمسوا الحاجات من موتاهمْ | واتخذوا إلٰههم هواهم[1]

وقد تقدم إيراد ما ذكره شيخ الإسلام من حجج المتصوفة في ذلك ورده عليهم.



(١) منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول في توحيد الله واتباع الرسول ﷺ (١/ ٣٦، مطبوع في مقدمة معارج القبول شرح سلم الوصول).


المبحث الثالث

الدعاء والاستغاثة بغير الله

الدعاء من أجلِّ العبادات وأعظمها، وهو أكثر عبادات الرسل عليهم السلام، بل أخبر النبي ﷺ أن العبادة إنما تقوم على الدعاء، فقال ﷺ: **(الدعاء هو العبادة)**[1]، والاستغاثة بالله كذلك هي من أعظم العبادات، ولا يجوز صرف شيء من ذلك ـ وإن قلَّ ـ لغير الله تعالى.

وسأتحدث في هذا المبحث عن مذهب الصوفية في الدعاء والاستغاثة، وأتكلم أولاً عن الدعاء تفصيلاً، ثم عن الاستغاثة.

أ ـ الدعاء:

الدعاء لغة: مصدر الفعل دعا، يقال: دعا الرجلَ دعواً، ودعاءً: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلاناً: أي صحت به واستدعيته[2].

أما الدعاء في الشرع، فهو: استدعاءُ العبدِ ربَّه عز وجل العنايةَ، واستمدادُه إياه المعونةَ.

---

(١) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب الدعاء، ٢/ ٧٦/ ١٤٧٩)، والترمذي (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٢١١/ ٢٩٦٩)، وابن ماجه (كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، ٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٨)، من حديث: النعمان بن بشير رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٣/ ١٥٠/ ح٣٤٠١).

(٢) انظر مادة: دعو، في: تاج العروس (١٩/ ٤٠٥)، لسان العرب (١٤/ ٢٥٨)، القاموس (ص١٦٥٥).

وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذِّلَّة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله ﷻ وإضافة الجود والكرم إليه[(١)].

والناظر المتأمل في سلوك الصوفية، يجد عندهم خللاً كبيراً في باب الدعاء، كدعاء غير الله أو ترك الدعاء قنوعاً بالتوكل أو غير ذلك، وقد عرض شيخ الإسلام مذهبهم في ذلك، وردّ عليهم وفنّد أقوالهم.

ويمكن بيان ما ذكره الشيخ من مذهب الصوفية في الدعاء ـ عموماً ـ فيما يلي:

أولاً: بعضهم يترك الدعاء مطلقاً؛ لأن الله أعلم بالحال:

قال الشيخ رحمه الله: «وسؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات، وهو طريق أنبياء الله، وقد أمر العباد بسؤاله، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، ومدح الذين يدعون ربهم رغبة ورهبة، ومن الدعاء ما هو فرض على كل مسلم، كالدعاء المذكور في فاتحة الكتاب.

ومن هؤلاء من يحتج بما يُروَى عن الخليل ﷺ أنه لما أُلقِيَ في النار قال له جبرائيل: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: سل، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي[(٢)]. وأول هذا الحديث معروف، وهو قوله: أما إليك فلا، وقد ثبت في (صحيح البخاري) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: حسبنا الله ونعم الوكيل، أنه قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: إن الناس قد

---

(١) شأن الدعاء للخطابي (ص٤).

(٢) الأثر: انظر تفسير البغوي (١/ ٣٢٦، تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ..﴾ [الأنبياء: ٦٨])، وتفسير البيضاوي (١/ ١٠٠، تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا ..﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وتفسير القرطبي (١١/ ٢٦٥، تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ..﴾ [الأنبياء: ٦٨]).

جمعوا لكم فاخشوهم[(١)].

وأما قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فكلام باطل، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل ﷺ وغيره من الأنبياء، من دعائهم لله ومسألتهم إياه، وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة، كقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها، فكيف يكون مجرد العلم مُسقطاً لما خلقه وأمر به؟ والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم»اهـ[(٢)]

ثانياً: بعض الصوفية يترك الدعاء؛ لأنه شهد القدر[(٣)]:

قال الشيخ رحمه الله: «ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيراً من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور، وفعلوا من المحظور ما صاروا به إمَّا ناقصين محرومين، وإما عاصين فاسقين، وإما كافرين، وقد رأيت من ذلك ألواناً ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهؤلاء المعتزلة ـ ونحوهم من القدرية ـ طرفا نقيض:

هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر.

وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر.

---

(١) الأثر: رواه البخاري (كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، ٤/ ١٦٦٢/ ٤٢٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) الفتاوى (٨/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩).

(٣) سيأتي الكلام عن مذهب الصوفية في القدر ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (٢/ ٢٤).

والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذِّر، كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفاً للحكمة والعدل، وهذه الأصناف الثلاثة هي: القدرية المجوسية، والقدرية المشركية، والقدرية الإبليسية.

وقد بسطنا الكلام عليهم في غير هذا الموضع، **وأصل ما يُبتلى به السالكون أهل الإرادة العامة في هذا الزمان هي القدرية المشركية، فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر**، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أيّ مذهب وافق هواك تمذهبت به! وإنما المشروع العكس، وهو أن يكون عند الطاعة يستعين اللهَ عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل، ويجتهد أن لا يعصي، فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار.

كما في حديث سيد الاستغفار: (**أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي**)[١]، وكما في الحديث الصحيح الإلهي: (**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**)[٢].

ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة في ترك الدعاء، وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة، وأمثال هذه الأغاليط التي تكلمنا عليها في غير هذا الموضع، وبيَّنَّا الفرق بين

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٥/ ٢٣٢٣/ ٥٩٤٧)، والترمذي (كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، ٥/ ٤٦٧/ ٣٣٩٣)، من حديث: شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤/ ٢٥٧٧)، والأزدي في الجامع (١١/ ١٨٢/ ح٢٠٢٧٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٩٣/ ١١٢٨٣)، وابن حبان (٢/ ٣٨٥/ ٦١٩) من حديث: أبي ذر رضي الله عنه.

الصواب والخطأ في ذلك»اهـ[1].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «ومن هؤلاء طائفةٌ هم أعلاهم وهم مستمسكون بالدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرمات المشهورة، لكن يغلطون في ترك ما أمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانّين أن العارف إذا شهد (القدر) أعرض عن ذلك.

مثل من يجعل التوكل ـ منهم ـ أو الدعاء ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة: بناء على أن من شهد القدر علم أن ما قُدِّر سيكون، فلا حاجة إلى ذلك، وهذا غلط عظيم، فإن الله قدر الأشياء بأسبابها كما قدر السعادة والشقاوة بأسبابها.

كما قال النبي ﷺ: (**إن الله خلق للجنة أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم وبعمل أهل الجنة يعملون**)[2].

وكما قال النبي ﷺ لمَّا أخبرهم بأن الله كتب المقادير، فقالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتَّكل على الكتاب؟ فقال: (**لا، اعملوا فكل ميسَّرٌ لِمَا خُلِق له، أمَّا من كان من أهل السعادة، فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة، فسيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة**)[3].

فما أمر الله به عبادَهُ من الأسباب فهو عبادةٌ، والتوكل مقرون بالعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وفي

---

(١) الفتاوى (١٠/٧١٨ ـ ٧١٩).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٤/ ٢٠٥٠/ ٢٦٦٢)، وأبو داود (كتاب السنة، باب في ذراري المشركين، ٤/ ٢٢٩/ ٤٧١٣)، من حديث: عائشة ﵂.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله، ١/٤٥٨/ ١٢٩٦)، ومسلم (كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه، ٤/ ٢٠٣٩/ ٢٦٤٧) من حديث: علي ﵁.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقول شعيب ﷺ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]»اهـ[1].

ثالثاً: بعض الصوفية يترك الدعاء؛ لأن تركه من تمام الرضا:

قال الشيخ رحمه الله: «قول القائل: الرضا أن لا تسأل اللهَ الجنةَ، ولا تستعيذه من النار.

إن أراد بذلك: أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية؛ فلا تسألْه النظرَ إليه ولا غير ذلك، مما هو مطلوبُ جميع الأنبياء والأولياء.

وأنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار.

فهذا الكلام، مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول؛ وذلك: أن الرضا الذي لا يسأل إنما لا يسأله لرضاه عن الله، ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبته له، وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله، فكأنه قال: يرضى أن لا يرضى، وهذا جمع بين النقيضين.

ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول ولا عقَله، يوضح ذلك:

أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يتحمل ألماً ومرارةً، فكيف يتصور أن يكون راضياً وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره؟

وإنما هذا من جنس كلام السكران والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا، فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط

---

(١) الفتاوى (١٠/ ١٧١).

عظيم منه، كغلط سمنون[١] كما تقدم[٢].

وإن أراد بذلك: أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك، فقد غلط من وجهين:

من جهة: أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

ومن جهة: أنه أيضاً أثبت أنه طالب مع كونه راضياً، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب، فلا ينافي طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه، ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعُّمه من الجنة بما هو دون النظر، وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار، ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر، فتبينَ تناقُضُ قولِه.

وأيضاً: فإذا لم يسأل اللهَ الجنةَ، ولم يستعذ به من النار: **فإما** أن

---

(١) هو سمنون بن حمزة (وقيل: بن عبد الله) الصوفي، أبو القاسم، صحب سَرِيّاً السقطي، قال البغدادي في تاريخه: «وسوس، وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام، وهو من كبار مشايخ العراق، مات بعد الجنيد»اهـ.
انظر: تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٤)، الحلية (٩/ ٣٠٩).

(٢) يشير شيخ الإسلام إلى ما ذكره في موضع آخر عن سمنون، فقال: «مثل سمنون الذي قال:
وليس لي في سواك حظٌّ فكيفما شئت فامتحني
فابتلي بعسر البول، فجعل يطوف على صبيان المكاتب، ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب»اهـ.
الفتاوى (١٠/ ٢٤٢)، وانظر: تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٥، وفيه أن سمنون كان يسمي نفسه بعدها: الكذاب).

يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة، وإما أن لا يطلبه، فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك، فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى، وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئاً قط ولو كان مضطراً إليه، ولا يستعيذ من شيءٍ قط وإن كان مضراً، فلا يخلو إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك، وإما أن يكون معرضاً عن ذلك، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتم فلا يعدل عنه.

وإن كان معرضاً عن جميع ذلك، فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضارَّه بذلك، والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار: إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده، فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله: كان مشركاً مذموماً، فضلاً عن أن يكون محموداً، وإن قال: لا أحبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه، قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه أن لا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يُوصَفَ بالرضا؛ فإن الراضي موصوف بحبٍّ وإرادة خاصة؛ إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يسلب عنه ذلك كله؟ فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام...

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون: إنما هي الأمر بطاعة الله، والنهي عن معصيته؛ فمن أمر أو استحب، أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهى عنه ويعاقب أصحابه، فهو عدوٌّ لله لا وليٌّ لله، وهو يصد عن سبيل الله وطريقه ليس بسالك لطريقه وسبيله..

والمقصود هنا: أن مشايخ الصوفية والعلماء وغيرهم قد بيَّنوا أن من الرضا ما يكون جائزاً، ومنه ما لا يكون جائزاً، فضلاً عن كونه مستحباً،

أو من صفات المقرَّبين، وإن أبا القاسم ذكر ذلك في (الرسالة)[1] أيضاً.

فإن قيل: هذا الذي ذكرتموه أمر بيِّن واضح، فمن أين غلط من قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار؟![2] وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائناً من كان؟.

قيل: غلطوا في ذلك؛ لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر، فالعبد إذا كان في حال من الأحوال، فمن رضاه أن لا يطلب غير تلك الحال، ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب: الجنة، وأقصى المكاره: النار، فقالوا: ينبغي أن لا يطلب شيئاً، ولو أنه الجنة! ولا يكره ما يناله، ولو أنه النار!.

وهذا وجه غلطهم، ودخل عليهم الضلال من وجهين:

أحدهما: ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه الله ويرضاه، وأن هذا من أعظم أولياء الله، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن، أو بكل حال يكون فيها للعبد طريقاً إلى الله، فضلّوا ضلالاً مبيناً، والطريق إلى الله إنما هي أن ترضِيَه، بأن تفعل ما يحبه ويرضاه، ليس أن ترضى بكل ما يحدث ويكون، فإنه هو لم يأمرك بذلك ولا رضيه لك ولا أحبه، بل هو ـ سبحانه ـ يكره ويسخط ويبغض على أعيان أفعال موجودة لا يحصيها إلا هو، وولاية الله: موافقته، بأن تحب ما يحب، وتبغض ما يبغض، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي، وتعادي من يعادي.

فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه: كنت عدوَّه لا وليَّه، وكان كلُّ ذمٍّ نال مَن رضيَ ما أسخط اللهَ قد نالك.

---

(١) الرسالة القشيرية (ص١٩٢، ط. دار الخير).

(٢) القائل هو أبو سليمان الداراني كما في الرسالة القشيرية (ص١٩٥، ط. دار الخير).

فتدبر هذا؛ فإنه ينبه على أصل عظيم، ضلَّ فيه من طوائف النساك والصوفية والعُبَّاد والعامة من لا يحصيهم إلا الله.

الوجه الثاني: أنهم لا يفرقون بين الدعاء الذي أُمروا به أمرَ إيجابٍ وأمرَ استحبابٍ، وبين الدعاء الذي نُهوا عنه، أو لم يؤمروا به ولم ينهَوْا عنه.

فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه ثلاثة أنواع:

نوعٌ: أُمر العبد به، إمَّا أمر إيجاب وإما أمر استحباب، مثل قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ومثل دعائه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي ﷺ يأمر به أصحابه، فقال: (**إذا قعد أحدكم في الصلاة، فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال**)[1]، فهذا دعاءٌ أمرهم النبيُّ ﷺ أن يدعوا به في آخر صلاتهم، وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع؛ يحبه الله ورسوله ويرضاه...

والأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها لا تخرج عن أن تكون واجبة أو مستحبة، وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه الله ويرضاه، ومن فعَلَه رضي الله عنه وأرضاه، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه؟.

ونوعٌ من الدعاء: يُنهى عنه، كالاعتداء، مثل أن يسأل الرجل ما لا يصلح من خصائص الأنبياء وليس هو بنبيّ، وربما هو من خصائص الرب ﷻ، مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد من عباده، أو يسأل الله تعالى أن يجعله بكل شيء عليماً، أو على كل شيء

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، ١/ ٤٦٣/ ١٣١١)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، ١/ ٤١٢/ ٥٨٨) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

قديراً، وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب... وأمثال ذلك، أو مثل من يدعوه ظاناً أنه محتاج إلى عباده، وأنهم يبلُغونَ ضُرَّه ونفعَه؛ فيطلب منه ذلك الفعل، ويذكر أنه إذا لم يفعله حصل له من الخلق ضُرٌّ، **وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء في الدعاء، وإن وقع في ذلك طائفة من الشيوخ.**

ومثل أن يقولوا: اللهم اغفر لي إن شئت، فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرهاً، وقد يفعل مختاراً كالملوك، فيقول: اغفر لي إن شئت، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: **(لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزمِ المسألةَ؛ فإن الله لا مُكرِهَ له)**[1]، ومثل أن يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق وأمثال ذلك، فهذه الأدعية ونحوها منهي عنها.

ومن الدعاء: ما هو مباح كطلب الفضول التي لا معصية فيها.

والمقصود: أن الرضا الذي هو من طريق الله: لا يتضمن تركَ واجب ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا، كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع، ولا فعل المحرمات من المشروع، فقد تبين غلط هؤلاء:

من جهةٍ ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور.

ومن جهةٍ أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجاباً واستحباباً، والدعاء غير المشروع.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، ٥/ ٢٣٣٤/ ٥٩٨٠)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت، ٤/ ٢٠٦٣/ ٢٦٧٩) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

والاستعاذة به من النار هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجباً أو مستحباً وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات؛ إذ ما سوى ذلك محرَّم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين»اهـ[1].

رابعاً: بعض الصوفية يترك الدعاء؛ لأن الدعاء هو من حظوظ النفس الدنيوية، والمتنسك المتعبد لا بد أن يربِّي نفسه على ترك حظوظها:

قال الشيخ ـ بعد الكلام السابق مباشرة ـ: «ثم إنه لمَّا أوقع هؤلاء في هذا الغلط: أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضارِّ، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار، من جهة كون ذلك عبادةً وطاعةً وخيراً، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلاً، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر، كائناً ما كان.

وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به، فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادةً ولا طاعةً ولا قُرْبةً، فرأى أولئك الطريق إلى الله ترك هذه العبادات والأفعال الطبعيات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات، وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به ولا طريق إلى الله، طريق المفرِّطين الذين فعلوا

(١) الفتاوى (١٠/ ٧٠٤ ـ ٧١٥)، الاستقامة (٢/ ١٢٤، ١٢٧).

هذه الأفعال المحتاج إليها على غير وجه العبادة والتقرب إلى الله، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال، بل المشروع أن تفعل بنية التقرُّب إلى الله وأن يشكر الله.

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فأمر بالأكل والشرب، فمن أكل ولم يشكر كان مذموماً، ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموماً، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها)**(١).

وقال النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه: **(إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورِفْعَةً، حتى اللقمة تضعها في فيِّ امرأتك)**(٢).

وفي الصحيح أيضاً أنه قال: **(نفقة المؤمن على أهله يحتسبها صدقةٌ)**(٣).

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الحمد بعد الأكل والشرب، ٤/ ٢٠٩٥/ ٢٧٣٤)، والترمذي (كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الحمد على الطعام إذا فرغ منه، ٤/ ٢٦٥/ ١٨١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٢٠٢/ ح٦٨٩٩)، والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ٩٥/ ح٢٠٧٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٠/ ح١٠٩٨) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، ١/ ٣٠/ ٥٦)، ومسلم (كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ٣/ ١٢٥٠/ ١٦٢٨)، من حديث: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، ١/ ٣٠/ ٥٥)، والنسائي (كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، ٢/ ٦٩٥/ ١٠٠٢)، من حديث: أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

فكذلك الأدعية هنا: من الناس من يسأل اللهَ جلبَ المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعاً وعادة، لا شرعاً وعبادة، فليس من المشروع أن أدع الدعاء مطلقاً لتقصير هذا وتفريطه، بل أفعله أنا شرعاً وعبادة.

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعاً وعبادة: إنما يسعى في مصلحة نفسه، وطلب حظوظه المحمودة، فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته، بخلاف الذي يفعله طبعاً، فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط، كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢]، وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنةَ الآخرة، فهو محمود.

ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً، فلا يصلي ولا يصوم، ولا يتصدق ولا يحج، ولا يجاهد ولا يفعل شيئاً من القُرُبات، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب، فإذا كان هو لا يطلب حصولَ الثواب الذي هو الجنة ولا دفعَ العقاب الذي هو النار؛ فلا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً، ويقول: أنا راضٍ بكل ما يفعله بي! وإن كفرت وفسقت وعصيت، بل يقول: أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه، فأنال درجة الرضا بقضائه.

وهذا قول مَنْ هو مِنْ أجهل الخلق وأحمقهم وأضلّهم وأكفرهم:

أما جهله وحمقه: فلأن الرضا بذلك ممتنع متعذر؛ لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين.

أما كفره: فلأنه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث به رسلَه، وأنزل به كتبه.

ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيراً من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور، وفعلوا من المحظور ما صاروا به: إما ناقصين محرومين، وإما عاصين فاسقين، وإما كافرين.

وقد رأيت من ذلك ألواناً: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»اهـ[(١)].

خامساً: اعتداء فريق منهم في الدعاء، بأن يدعو بأدعية مبتدَعةٍ غيرِ ثابتة عن السلف الصالح:

تكلم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن محبة الله تعالى، وغَلَطِ فريقين من الناس فيها، وذكر الفريق الأول وهم: المتجهمة من المعتزلة، ثم قال:

«**والضرب الثاني:** طوائف من المتصوفة والمتفقِّرة والمتبتِّلة، وافقوا هؤلاء على أن الجنة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعَّم بها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعُّم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك، وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمُو إليه همتهم، ويخافون فَوْتَه، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك، وأمثال هذه الكلمات[(٢)]، مقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة، وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظٍّ ولا إرادة، وأن كلَّ ما يطلب منه فهو حظُّ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة، ولا مطلوب، ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٧١٥ ـ ٧١٨).

(٢) ينسب هذا الكلام إلى رابعة العدوية، ومن أقوالها، أنها مرضت يوماً، فقيل لها: «ما سبب علتك؟ فقالت: نظرت بقلبي إلى الجنة، فأدَّبني ربي فله العتبى، لا أعود»اهـ الرسالة القشيرية (ص٢٥٨).

وسبب ذلك: أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه.

وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات، يكون لأحدهم وَجْدٌ صحيح وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه؛ فيقع في كلامه غلط وسوء أدب ـ مع صحة مقصوده ـ وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام: إذا عَنَوْا به طلبَ رؤية الله تعالى؛ أصابوا في ذلك لكن أخطؤوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة؛ فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمورٌ منكَرَةٌ.

نظير ما ذُكر عن الشبلي رَحِمَهُ اللهُ أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فصرخ! وقال: أين مريد الله؟ فَيُحمد منهُ كونُه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله، وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأُحُد، وهم أفضلُ الخلق؛ فإن لم يريدوا الله، أفيُريد الله مَنْ هو دونهم كالشبلي وأمثاله؟!

ومثل ذلك: ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سأل مرة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]، قال: فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة فالرؤية بمَ تُنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن يُعلَم أن كل ما أعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك، هو في الجنة، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا

﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: (**يقول الله: أعددت لعباديَ الصالحين: ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعتهم عليه**)(١).

وإذا علم أن جميع ذلك في الجنة، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة، كما قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريقُ أنبياء الله ورسله وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين، كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: (**كيف تقول: في دعائك؟ قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أمَا إني لا أُحسِنُ دندنتك، ولا دندنة معاذ، فقال: حولهما ندندن**)(٢).

فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ ـ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قولُ أحدٍ فوقَ قولِ رسول الله ﷺ ومعاذ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟ ولو طلب هذا العبدُ ما طلب كان في الجنة.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، ٣/ ١١٨٥/ ٣٠٧٢)، ومسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، بابٌ، ٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤) من حديث: أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، ١/ ٢١٠/ ٧٩٢) عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقال في التشهد والصلاة على النبي ﷺ، ١/ ٢٩٥/ ٩١٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٧٤/ ح١٥٩٣٩)، وابن حبان (٣/ ١٤٩/ ح٨٦٨) من حديث: أبي هريرة ﷺ، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٥٠/ ح٧٤٢).

وأهل الجنة نوعان:

سابقون مقربون، وأبرارٌ أصحاب يمين، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢٨]، قال ابن عباس رضي الله عنه: تُمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشربها المقربون صِرفاً.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (**إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا اللهَ ليَ الوسيلةَ؛ فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله؛ وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل اللهَ لِيَ الوسيلةَ حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة**)[1]، فقد أخبر أن الوسيلة ـ التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله، ورجَا أن يكون هو ذلك العبدَ ـ هي درجة في الجنة، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!

وثبت في الصحيح أيضاً في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر، قال: (**فيقولون للرب تبارك وتعالى: وجدناهم يسبحونك ويحمَدونك ويكبرونك، قال: فيقول: وما يطلبون؟ قالوا: يطلبون الجنة، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، قال:**

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن، ١/ ٢٨٨/ ٣٨٤)، والترمذي (كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل النبي ﷺ، ٥/ ٥٨٦/ ٣٦١٢)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن، ١/ ١٤٤/ ٥٢٣) من حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

فيقول: فكيف لو رأوها؟! قال: فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلباً، قال: ومِمَّ يستعيذون؟! قالوا: يستعيذون من النار، قال: فيقول: وهل رأوها؟! قال: فيقولون: لا، قال: فيقول: فكيف إذا رأوها؟ قالوا: لو رأوها لكانوا أشدَّ منها استعاذة، قال: فيقول: أُشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون، وأعذتهم مما يستعيذون ـ أو كما قال ـ قال: فيقولون: فيهم فلانٌ الخطّاء جاء لحاجة فجلس معهم، قال: فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)[1]، فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة، ومهربهم من النار.

والنبي ﷺ لمّا بايع الأنصار ليلةَ العقبة[2] وكان الذين بايعوه من

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر، ٤/٢٠٦٩/٢٦٨٩)، والترمذي (كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في أن لله ملائكة سياحين في الأرض، ٥/٥٧٩/ ٣٦٠٠)، والحاكم (كتاب الدعاء والتكبير، بابٌ، ١/ ٦٧٢/ ١٨٢١) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهي بيعة العقبة الأولى، وكانت قبل الهجرة، وفيها: أن الأنصار خرجوا في الحجة التي بايعوا فيها رسول الله ﷺ بالعقبة مع مشركي قومهم، فواعدوا رسول الله ﷺ أواسط أيام التشريق، وهم سبعون رجلاً وامرأتان، فلما كانت الليلة التي واعدوا فيها رسول الله ﷺ، ناموا أول الليل مع قومهم، فلما استثقل الناس من النوم تسللوا من فُرُشِهم حتى اجتمعوا بالعقبة، فأتاهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس ليس معه غيره، فقال العباس: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وهو في مَنَعَةٍ من قومه وبلاده، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه في قومه؛ فإنه في مَنَعَةٍ من عشيرته وقومه، فقالوا: قد سمعنا ما قلت، تكلم يا رسول الله، فتكلم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله ورغَّب إلى الإسلام، وتلا القرآن، فأجابوه بالإيمان به والتصديق له، وقالوا له: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك، قال: إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم، فأجابه البراء بن معرور، فقال: نعم والذي بعثك بالحق مما نمنع منه أزرنا، فبايِعْنا يا رسول الله؛ فنحن والله أهل الحروب وأهل الحَلَقَةِ، ورثناها كابراً عن =

أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم قالوا للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك، قال: (**أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة، قالوا: مُدَّ يدك، فوالله لا نقيلُك ولا نستقيلُكَ**)(١)، وقد قالوا له في أثناء البيعة: (إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وإنا ناقضوها)(٢).

= كابر، فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالاً وإنَّا قاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال رسول الله: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم، فقال له البراء بن معرور: ابسط يدك يا رسول الله نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً، فأخرجوهم.. فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، فكان أولَ من بايع. وتتابع الناس فبايعوا.

انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٣٥١، القسم الرابع، ذكر الخبر عما كان من أمر نبي الله ﷺ عند ابتداء الله تعالى ذكره إياه بإكرامه بإرسال جبريل عليه السلام إليه بوحيه)، صفة الصفوة (١/ ٥٧، ذكر العقبة الأولى)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٩٥، ذكر بيعة العقبة الأولى)، البداية والنهاية (٢/ ٥٢٣، باب بدء إسلام الأنصار رضي الله عنهم).

(١) الحديث: أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٢٢، ٣٣٩) والحاكم في المستدرك وقال: صحيح ولم يخرجاه (كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، بابٌ، ٢/ ٦٨١/ ٤٢٥١) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٦/ ١٦)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٤١٠/ ح٣٧٧٢) من حديث: جابر بن عبد الله وأنس بن مالك رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٨): رواه أحمد هكذا مرسلاً ورجاله رجال الصحيح، وقد ذكر الإمام أحمد بعده سنداً إلى الشعبي عن أبي مسعود عقبة بن عامر قال... بنحو هذا. اهـ.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٥٣٤، قصة بيعة العقبة الثانية)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٩٨، باب ذكر بيعة العقبة الثانية).

فهؤلاء الذين بايعوه من أعظم خلق الله محبةً لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه أحدٌ من هؤلاء المتأخرين، قد كان غاية ما طلبوه بذلك: الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كلَّ محبوب ومطلوب، بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبَه، فإن الطلب والحب والإرادة فرعٌ عن الشعور والإحساس والتصوُّر، فما لا يتصوره الإنسان ولا يُحِسُّه ولا يشعر به: يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده، فالجنة فيها هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ففيها ما يشتهون، وفيها مزيد على ذلك، وهو: ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه، كما قال ﷺ: **(ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)، وهذا باب واسع**»اهـ[1].

سادساً: دعاء غير الله تعالى:

وله عند المتصوفة صور، منها:

أ ـ دعاء المشايخ الموتى:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وكثيرٌ من طوائفَ متعددةٍ ترى أحدهم يرى أن استغاثته بالشيخ ـ إما عند قبره أو غير قبره ـ أنفعَ له من أن يدعو الله في المسجد عند السَّحَر! ويستهزئ بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد.

وكثير منهم يخربون المساجد ويعمرون المشاهد، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وبآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك؟!.

والذين يجعلون دعاءَ الموتى أفضلَ من دعاء الله: منهم من يحكي

(١) الفتاوى (١٠/٦٩٨ ـ ٧٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٦٢، ٢٤٠، ٧٠١، ٧١٥).

أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغِثْه، واستغاث بشيخه فأغاثه! وأن بعض المأسورين دعا الله فلم يخرجه، فدعا بعض الموتى، فجاءه فأخرجه إلى بلاد الإسلام! وآخر قال: قبر فلان الترياق المجرب، ومنهم من إذا نزل به شدة لا يدعو إلا شيخَه قد لهج به كما يلهج الصبيّ بذِكر أمه، وقد قال تعالى للموحدين: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقد قال شعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]»اهـ(١).

ب ـ دعاء المشايخ الأحياءِ، من دون الله:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الرجل إذا أصابته نائبةٌ أو خاف شيئاً فاستغاث بشيخه طلبَ تثبيت قلبه من ذلك الواقع: فهذا من الشرك، وهو من جنس دين النصارى، فإن الله هو الذي يصيب بالرحمة ويكشف الضر.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ

---

(١) الفتاوى (١٥/ ٤٩ ـ ٥٠).

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

فبيَّن أن من يُدْعى من الملائكة والأنبياء وغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً.

فإذا قال قائل: أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعاً لي، فهو من جنس دعاء النصارى لمريم والأحبار والرهبان، والمؤمن يرجو ربه ويخافه ويدعوه مخلصاً له الدين.

وحقُّ شيخِه أن يدعوَ لهُ ويترحمَ عليه؛ فإن أعظم الخلق قدراً هو رسول الله ﷺ، وأصحابُه أعلمُ الناس بأمره وقدره، وأطوعُ الناس له، ولم يكن يأمر أحداً منهم عند الفَزَعِ والخوف أن يقول: يا سيدي! يا رسول الله! لم يكونوا يفعلون ذلك في حياته ولا بعد مماته، بل كان يأمرهم بذكر الله ودعائه والصلاة والسلام عليه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

وفي (صحيح البخاري) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الكلمة (قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ ـ يعني وأصحابه ـ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم)[(١)].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول عند الكرب: (**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم**)[(٢)]، وقد روي أنه علّم نحو هذا الدعاء بعضَ أهل بيته.

---

(١) تقدم تخريجه، انظر: (ص٥٩٦).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، ٥/ ٢٣٣٦/ ٥٩٨٥)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء =

وفي السنن أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: **(يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كلَّه، ولا تكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين ولا إلى أحد من خلقك)**[1].

وفي (مسند الإمام أحمد) و(صحيح أبي حاتم البستي)[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(ما أصاب عبداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُك، عدلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك: سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء، حزني وذهاب همي وغمي؛ إلا أذهب الله همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحاً)**، قالوا: يا رسول الله: أفلا نتعلمهن؟ قال: **(ينبغي لمن**

= الكرب، ٤/ ٢٠٩٢/ ٢٧٣٠) من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

(١) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين (كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، بابٌ، ١/ ٧٣٠/ح٢٠٠٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ١٤٧/ح١٠٤٠٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٤٢/ ح٢٠٤٤٧)، والطيالسي في مسنده (٢/ ١١٧/ح٨٦٩)، والطبراني في الصغير (١/ ٢٧٠/ ح٤٤٤)، والضياء المقدسي في المختارة، وقال: إسناده حسن (٦/ ٣٠٠/ح٢٣١٩) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٧): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عثمان بن وهب وهو ثقة. اهـ.

(٢) هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم البستي، الإمام العلامة الحافظ، صاحب التصانيف، قال عن نفسه: كتبت عن أكثر من ألفي شيخ، وقال الحاكم: كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال، وقال الخطيب: كان ثقة نبيلاً فهماً، توفي سنة ٣٥٤هـ وقد بلغ نحو الثمانين سنة.
انظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٢٠)، لسان الميزان (٥/ ١١٢).

سمعهن أن يتعلمهن)[1].

وقال لأُمّته: **(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة وذكر الله والاستغفار)**[2].

فأمرهم عند الكسوف بالصلاة والدعاء والذكر والعتق والصدقة، ولم يأمرهم أن يدعوا مخلوقاً ولا مَلَكاً ولا نبياً ولا غيرهم. ومثل هذا كثير في سنته: لم يشرع للمسلمين عند الخوف إلا ما أمر الله به: من دعاء الله وذكره والاستغفار والصلاة والصدقة... ونحو ذلك، فكيف يعدل المؤمن بالله ورسوله عمّا شرع الله ورسوله إلى بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، تضاهي دين المشركين والنصارى.

فإن زعم أحدٌ أن حاجته قُضِيتْ بمثل ذلك، وأنه استجاب له شيخه... ونحو ذلك، فعبّاد الكواكب والأصنام ونحوهم من أهل الشرك يجري لهم مثل هذا، كما قد تواتر ذلك عمَّن مضى من المشركين، وعن المشركين في هذا الزمان، فلولا ذلك ما عُبدت الأصنام ونحوها، قال

---

(١) الحديث: رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠/ح١٨٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه عن أبيه.اهـ، وابن حبان (كتاب الرقائق، باب الأدعية، ٣/ ٢٥٣/ ٩٧٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٠/ح٢٩٣١٨) من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، إلا أنه قال: وذهاب غمي مكان همي، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان.اهـ.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، ١/ ٣٥٤/ ٩٩٦)، ومسلم (كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف: الصلاة جامعة، ٢/ ٦٣٠/ ٩١٥) من حديث: المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]»اهـ(١).

ج ـ الاستغاثة:

الاستغاثة: هي طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة والنقمة، والعون على الفكاك من الشدائد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩](٢).

وعرّف شيخ الإسلام الاستغاثة، بقوله: «الاستغاثة: طلب الإغاثة، والتخلص من الكربة والشدة.

وإن الإغاثة تضاف إلى المخلوق كما يُضاف إليه الإطعام، والاستعانة والإعانة، والهداية والتعليم، وهذا صحيح، وليس فيه أن الميت يُستغاث به، كما أنه ليس فيه أن يُستطعم ويُستسقى، ويُستهدى ويُستنصر، ويُستغاث به»اهـ(٣).

والاستغاثة لا تجوز إلا بالله تعالى، ولا تجوز بالمخلوق أبداً:

قال الشيخ مبيناً تحريم الاستغاثة بالمخلوق ـ عموماً ـ: «وأما ما حُكي عن بعض المشايخ من قوله: إذا نزل بك حادث أو أمر تخافه: فاستوحني، فيكشف ما بك من الشدة حياً كنتُ أو ميتاً(٤)، فهذا الكلام

---

(١) الفتاوى (٢٧/ ٨٧ ـ ٩٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (١/ ٣٦٩)، المستدرك على الفتاوى (١/ ٢٠).

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٣٩٢)، تاج العروس (٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٣) الاستغاثة (١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨).

(٤) بعض المتصوفة يوصون مريديهم بالاستغاثة بهم من دون الله، بل يعدُّون الاستغاثة بهم أنفعَ للمستغيث من الاستغاثة بالله تعالى!! ومما يدل على ذلك ما ذكره النبهاني الصوفي في كتابه شواهد الحق: أن محمداً الحنفي فرض سجادته على البحر، وقال لمريده: قل: يا حنفي[!!] وامشِ، فمشى المريد خلفه، فخطر له لـمَ تقول: يا حنفي، هلا قلت: يا الله؟ فلما قالها غرِق[!!] =

ونحوه إما أن يكون كذباً من الناقل أو خطأً من القائل؛ فإنه نَقْلٌ لا يُعرف صِدقُه عن قائل غير معصوم، ومن ترك النقل المصدق عن القائل المعصوم، واتبع نقلاً غير مصدق عن قائل غير معصوم؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

ومن المعلوم أن الله لم يأمر بمثل هذا ولا رسلُه أمروا بذلك؛ بل قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧ ـ ٨]، ولم يقل: ارْغب إلى الأنبياء والملائكة، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون العُزَير والمسيح والملائكة، فأنزل الله هذه الآية[1].

وهذا رسول الله ﷺ لم يقل لأحد من أصحابه: إذا نزل بك حادث فاستوحني، بل قال لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنه وهو يوصيه: **(احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)**[2].

= فأمسك الشيخ بيده، وقال له: أنت الحنفي تعرفه فكيف بالله، فإذا عرفت الله فقل: يا الله. اهـ. شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ـ ليوسف بن إسماعيل النبهاني (ص٧٤٧).
وهذه القصة تبين لنا مدى الوقاحة التي وصل إليها الصوفية، حيث يعتقدون أن التوجه إليهم أنفع من التوجه إلى الله تعالى.

(١) تقدم ذكر ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه (ص٥٣٣).

(٢) الحديث: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بابٌ، ٤/٦٦٧/٢٥١٦)، والحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر ابن عباس، ٣/٦٢٤/٦٣٠٤)، وأحمد في المسند (١/٢٩٣/ح٢٦٦٩)، وابن الجعد في مسنده (ص٤٩٤/ح٣٤٤٥)، والطبراني في =

وما يرويه بعض العامة من أنه قال: (إذا سألتم الله، فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم)(١). فهو حديث كذب موضوع لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الدين، فإن كان للميت فضيلةٌ؛ فرسول الله ﷺ أوْلَى بكل فضيلة وأصحابُه من بعده، وإن كان منفعة للحيّ بالميت فأصحابه أحقُّ الناس انتفاعاً به حياً وميتاً.

فعُلِم أن هذا من الضلال، وإن كان بعض الشيوخ قال ذلك: فهو خطأ منه، والله يغفر له إن كان مجتهداً مخطئاً، وليس هو بنبيٍّ يجب اتِّباع قولِه ولا معصوم فيما يأمر به وينهى عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]»اهـ(٢).

ونقل الشيخ عن معتدلي الصوفية الإنكارَ على من يستغيث بمخلوق، فقال في معرض رده على المستغيثين بغير الله: «إذا ظهر أن العبد وكلَّ مخلوق فقير إلى الله محتاجٌ إليه ليس فقيراً إلى سواه، فليس هو مستغنياً بنفسه ولا بغير ربه؛ فإن ذلك الغير فقيرٌ أيضاً محتاج إلى الله.

ومن المأثور عن أبي يزيد أنه قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي(٣) أنه قال: استغاثة

= الأوسط (٥/ ٣١٦/ح٥٤١٧)، والكبير (١١/ ١٢٣/ح١١٢٤٣)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤/ح٦٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٣٠/ح٢٥٥٦)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٢/ح١٢)، والشهاب القضاعي في مسنده (١/ ٤٣٤/ح٧٤٥) من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٢/ ٣٠٨/ح٢٠٤٣).

(١) الحديث لم أقف عليه.

(٢) الفتاوى (٢٧/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٧/ ١٤٦).

(٣) هو: محمد بن سعيد القرشي، أبو عبد الله، من أعلام المتصوفة، له كتاب في =

المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون. وهذا تقريب، وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم، فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوةً وحولاً، وإلا فليس له نفسه شيء، قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

واسم العبد يتناول معنيين:

أحدهما: بمعنى العابد كرهاً.

كما قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

والثاني: بمعنى العابد طوعاً، وهو الذي يعبده ويستعينه.

وهذا هو المذكور في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

= شرح التوحيد نقل عنه أبو نعيم في حلية الأولياء بعض الأقوال (١٠/ ٢٧٧)، وذكره الكلاباذي في التعرف (ص٢٨) بأبي عبد الله هيكل القرشي، وذكر الشعراني في الطبقات الكبرى (١/ ١٥٩) أنه: كان يظهر للناس وهو أجذم أعمى أبرص، ولو شاء لجعل نفسه حسناً جميلاً، ويزعم أنه يكون في خلوته مع زوجه كذلك، وذكره صفي الدين الحسين الأنصاري، ولم يذكر له نسباً ولا مولداً ولا تاريخ وفاة (سير الأولياء ص٤٩، ت: مأمون محمود ياسين، وعفت وصال، ط. دار العالم، بيروت، الأولى).

وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥].

وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة، وأما الأُولى، فوصف لازم إذا أُريد بها جَرَيان القدر عليه، وتصريف الخالق له، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام: استسلامهم له بالخضوع والذل، لا مجرد تصريف الرب لهم[١]، كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، وهذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لكل عبد لا بد له من ذلك، وإن كان قد يعرض له أحياناً الإعراض عن ربه والاستكبار، فلا بد له ـ عند التحقيق ـ من الخضوع والذل له، لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه»اهـ[٢].

---

(١) انظر: تفسير الآية في: تفسير البغوي (١/ ٦٠)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣)، تفسير القرطبي (٤/ ١٢٤).

(٢) الفتاوى (١٤/ ٢٩ ـ ٣١).

وبيَّن الشيخ أن المتصوفة، كثيراً ما يستغيثون بمشايخهم عند الكُرُبات، فتجيبهم الجن والشياطين، فيزدادون فتنةً، ويظنون أن المشايخ المُستغاثَ بهم هم الذين أجابوا نداءهم وكشفوا كربتهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة، فقد يأتون ببعض ذلك، وقد يدلونه على كنز وغيره، واستمتاع الجن بالإنس: استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية، ومن استمتاع الإنس بالجن: استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شركٍ وقتلٍ وفواحشَ.

فتارة: يتمثل الجنيُّ في صورة الإنسيِّ، فإذا استغاث به بعضُ أتباعه أتاه، فظن أنه الشيخ نفسه.

وتارة: يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به: يا سيدي فلان[!!] فينقل الجنيُّ ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي؛ حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه، ثم إن الشيخ يقول: نعم، ويشير إشارة يدفع ذلك المكروه، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه، وهو الذي أجابه وهو الذي فعل ذلك، حتى إن تابع الشيخ قد تكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام، فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء، فيضع يده حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه، ويكون بينهما مسافة شهر والشيخ موضعه ويده لم تطل، ولكن الجني مثَّل للشيخ ومثَّل للمريد، حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر، وإنما كان عنده ما مثَّله الجنيُّ وخيَّله»اهـ[1].

---

(١) الفتاوى (١٣/ ٨٤ ـ ٨٥).

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت! أو يستغيث به عند قبره! ويسأله وقد ينذر له نذراً! ونحو ذلك، ويَرى ذلك الشخصَ قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره أو كلَّمه ببعض ما سأله عنه... ونحو ذلك، فيظنه الشيخَ نفسَه أتى ـ إن كان حياً ـ حتى إني أعرف من هؤلاء جماعاتٍ يأتون إلى الشيخِ نفسِه الذي استغاثوا به، وقد رأوْه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له.

هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية، فإن كان يحبُّ الرياسة: سكت وأوهم أنه نفسُه أتاهم وأغاثهم! وإن كان فيه صدقٌ مع جهلٍ وضلالٍ قال: هذا ملكٌ صوَّره الله على صورتي، وجعل هذا من كرامات الصالحين، وجعله عُمدةً لمن يستغيث بالصالحين ويتخذهم أرباباً، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكةً على صورهم تغيثُ المستغيثَ بهم.

ولهذا: أعرف غيرَ واحدٍ من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لمَّا ظنوا هذا مِنْ كرامات الصالحين صار أحدُهم يوصي مريديه:

يقول: إذا كانت لأحدكم حاجةٌ، فليستغث بي وليستنجدني وليستوصني[!!].

ويقول: أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي[!!].

وهو لا يعرف أن تلك شياطينُ تصوَّرت على صورته لِتضلَّه وتضلَّ أتباعه، فَتُحسِّن لهم الإشراك بالله، ودعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، وأنها قد تلقي في قلبه: أَنَّا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك، فيظن هذا من خطاب إلهي ألقي في قلبه! فيأمر أصحابَه بذلك!.

وأعرف من هؤلاء من كان له شياطينُ تخدُمه في حياته بأنواع الخُدَم: مثل خطاب أصحابه المستغيثين به، وإعانتهم، وغير ذلك، فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ، ويشعرونه أنه لم يمت ويرسلون إلى أصحابه رسائلَ بخطاب.

وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ ـ وكان فيه زهد وعبادة ـ وكان يحبني ويحب هذا الشيخ، ويظن أن هذا من الكرامات، وأن الشيخ لم يمت. وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته فقرأه، فإذا هو كلام الشياطين بعينه.

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي، فرأوني في الهواء وقد أتيتُهم وخلصتُهم من تلك الشدائد، مثل: مَن أحاط به النصارى الأرمن[1] ليأخذوه، وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ونحو ذلك، فذكرت لهم أني ما دَرَيتُ بما جرى أصلاً، وحلفت لهم على ذلك، حتى لا يظنوا أني كتمت ذلك، كما تُكتم الكرامات.

وأنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع، بل هو شرك وبدعة،

---

(١) النصارى الأرمن: طائفة من طوائف النصارى، وقع بينهم وبين المسلمين حروب، اجتمع خلق منهم في أذربيجان لقتال سعيد بن العاص لمَّا غزاها، فبعث إليهم سعيدٌ جريرَ بن عبد الله البجلي، فهزمهم وصلب زعيمهم.
قال ياقوت الحموي: «إذا حضرت أحدهم الوفاة أحضر القس ودفع إليه مالاً واعترف له بذنبٍ ذنبٍ مما عمله، فيستغفر له القس، ويضمن له الصفح والعفو عن ذنوبه، ويقال: إن القس يبسط كساءً، فكلَّما ذكر له المريض ذنباً بسط القس كفيه، فإذا فرغ من إقراره بالذنب ضم إحدى يديه إلى الأخرى كالقابض على الشيء ثم يطرحه في التراب، فإذا فرغ من إقراره بذنوبه جمع القس أطراف كسائه وخرج ـ أي أنني قد جمعت ذنوبك في هذه الكساء ويذهب ـ فينفض الكساء في الصحراء، وهذه سنة عجيبة غريبة» اهـ. (معجم البلدان ١/ ٢٣٢).
وانظر: معجم البلدان (١/ ١٥٨، ٢/ ٨٠).

ثم تبين لي فيما بعد، وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به.

وحكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثلُ ذلك، وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك، واستفاض هذا حتى عُرف أن هذا من الشياطين، والشياطين تغوي الإنسان بحسب الإمكان، فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته في الشرك الظاهر والكفر المحض؛ فأمرته أن لا يذكر اللهَ وأن يسجد للشيطان، ويذبحَ له، وأمرتْه أن يأكل الميتة والدمَ ويفعلَ الفواحش، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض، وبلادٍ فيها كفرٌ وإسلامٌ ضعيف، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يضعف إيمانُ أصحابها.

حتى قد جرى ذلك في مصر والشام على أنواع يطول وصفها، وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثيرٌ جداً، وكلَّما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته: قلّت آثار الشياطين فيهم، وإن كان يختار الفواحش والظلم: أعانته على الظلم والفواحش، وهذا كثير جداً أكثر من الذي قبله في البلاد التي في أهلها إسلام وجاهلية، وبِرٌّ وفجور، وكان الشيخ فيه إسلام وديانة، ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ.

وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كراماتٍ، وهو لا يعرف كمالَ الولاية وأنها الإيمان والتقوى واتّباع الرسل باطناً وظاهراً، أو يعرف ذلك مجملاً ولا يعرف من حقائق الإيمان الباطن، وشرائع الإسلام الظاهرة، ما يفرِّق به بين الأحوال الرحمانية، وبين النفسانية والشيطانية»اهـ[1].

(١) الفتاوى (١٧/٤٥٦ ـ ٤٥٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى =

وقال **الشيخ**: «**والذين يجعلون دعاء الموتى من الأنبياء والأئمة والشيوخ أفضلَ من دعائهم الله، أنواع متعددة:**

منهم: من يقدم دعاءهم.

ومنهم: مَنْ يحكي أنواعاً مِنَ الحكايات: حكاية: أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يُغثه فاستغاث بشيخه فأغاثه، وحكاية أن بعض المأسورين في بلاد العدوّ دعا الله فلم يخرجه، فدعا بعض المشايخ الموتى فجاءه فأخرجه إلى بلاد الإسلام...

فهؤلاء وأمثالهم يرجحون هذه الأدعية الشركية على أدعية المخلصين لله، مضاهاة لسائر المشركين، وهؤلاء تتمثل لكثير منهم صورة شيخه الذي يدعوه فيظنه إياه، أو ملكاً على صورته، وإنما هو شيطان أغواه، كما قد بُسط في موضعه.

ومنهم: من إذا نزلت به شدةٌ لا يدعو إلّا شيخَه، ولا يذكر إلا اسمَه، قد لهج به كما يلهج الصبي بذكر اسم أمه، فيتعسر أحدهم، فيقول: يا فلان، وقد قال الله تعالى للموحدين: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]»اهـ[1].

وبما سبق يتبين لنا مقدار الضلال الذي وقع فيه المتصوفة بصرفهم عبادةٍ من أعظم العبادات إلى غير الله تعالى، فوقعوا في الشرك والخروج من الإسلام بسبب ذلك ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ

= (٤٦/١٩، ١٨/٢٧، ٥٧، ١١٥/٣٥)، الجواب الصحيح (٣٢١/٢)، التوسل والوسيلة (ص٣٤).

(١) الاستغاثة (٥٨٧/٢ ـ ٥٨٨).

مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وكل من دعا غيرَ الله تعالى، فقد وضع العبادة في غير موضعها، فصار من الظالمين[١].



(١) انظر: تفسير البغوي لهذه الآية (١/ ١٥٥).

الفصل الثالث

توحيد الأسماء والصفات

وفيه أربعة مباحث:

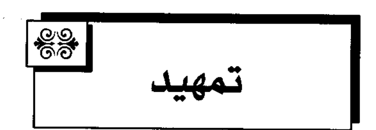
المبحث الأول: اختلافهم في أسماء الله تعالى

المبحث الثاني: قولهم في القرآن وكلام الله عموماً

المبحث الثالث: قولهم في رؤية الله

المبحث الرابع: موقفهم من بقية الصفات (العلم، المحبة...)





تمهيد

تقدم في الفصلين السابقين الكلام عن مذهب الصوفية في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وفي هذا الفصل أعرض مذهب الصوفية في توحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات هو: الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى المُلْك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وهذا التوحيد لا يكفي في حصول الاسلام، بل لا بد ـ مع ذلك ـ من الإتيان بلازِمِهِ من توحيد الربوبية والإلهية، والكفار يقرون بجنس هذا النوع وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما: جهلاً، وإما: عناداً، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة!![1] فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][2].

ومن تأمل في مذهب الصوفية في هذا التوحيد وجد أنه قد وقع عند طائفة منهم خلل فيه؛ إما تأثراً بمذهب أحد من المبتدعة، أو ابتداعاً جديداً استحدثه بعضهم.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٥٧)، مختصر سيرة الرسول ﷺ (١/ ١٣٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص٣٤).

وقد بيّن شيخ الإسلام مذهب المتصوفة في باب الأسماء والصفات، وفنّد الأقوال، وأجاب عن الشبهات.

ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

أولاً: أصول الصوفية تجعلهم أبعدَ الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الذي ذكره الشيخ أبو علي[1] من أن الصوفية يخالفون المعتزلة، فأمر متفق عليه؛ فإن أصول الصوفية لا تلائم نفي الصفات، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر»اهـ[2].

ثانياً: معتدلو الصوفية يثبتون أسماء الله تعالى وصفاته على مراد الله ورسوله:

وقد نقل الشيخ ذلك عن الإمام أبي عبد الله بن خفيف في كتابه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات) فقال شيخ الإسلام: «قال الإمام أبو عبد الله بن خفيف: .. فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها ذكرُ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وما بيّن ﷺ من صفاته في سنته، وما وصف به عَزَّوَجَلَّ مما سنذكر قول القائلين بذلك، مما لا يجوز لنا في ذلك أن نردّه إلى أحكام عقولنا، بطلب الكيفية بذلك ومما قد أمرنا بالاستسلام له»اهـ[3].

ونصّ الشيخ ـ في موضع آخر ـ على أن معتدلي الصوفية وافقوا

---

(١) يعني أبا علي الكاتب، حيث قال: «المعتزلة نزّهوا الله من حيث العقل فأخطؤوا، والصوفية نزّهوه من حيث العلم فأصابوا»اهـ الاستقامة (١/ ٩٤)، والقشيرية (١/ ١٥٨).

(٢) الاستقامة (١/ ١٠٢).

(٣) الفتاوى (٥/ ٧٢).

السلف في إثبات الصفات على مراد الله ورسوله ﷺ، وذكر الشيخ ذلك عن جَمْعٍ من أئمة الصوفية، ثم نقل كلام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ـ صاحبِ (حلية الأولياء) ـ في إثبات الصفات، فقال:

«.. متفقون على أن الله فوق عرشه بذاته، وأن علمه بكل مكان..
وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ـ صاحب (حلية الأولياء) وغير ذلك من المصنفات المشهورة، في الاعتقاد الذي جمعه: طريقنا طريق السلف المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال: ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته القديمة لا يزول ولا يحول، لم يزل عالماً بعلم، بصيراً ببصر، سميعاً بسمع، متكلماً بكلام، وأحدَثَ الأشياء من غير شيء، وأن القرآنَ كلامُ الله، وكذلك سائر كتبه المنزلة كلامه، غير مخلوق، وأن القرآن من جميع الجهات مقروءاً ومتلواً ومحفوظاً ومسموعاً ومكتوباً وملفوظاً كلام الله، حقيقة لا حكاية ولا ترجمة، وأنه بألفاظنا كلام الله؛ غير مخلوق، وأن الواقفة[١] ....

---

(١) الواقفة: ويسمون ـ أيضاً ـ الواقفية؛ هم الذين يقولون: القرآن كلام الله، لكن لا نقول: مخلوق ولا غير مخلوق، وهؤلاء صنفان:
صنف: من العوام لكنهم جهلة، قالوا: لا نقول هذا ولا هذا؛ لأنه ليس لدينا نصٌ في إثباتٍ ولا نفيٍ، وهذا جهل عظيم؛ فالنصوص كلها مصرحة بأنه غير مخلوق.
وصنف: هم المنافقون لمَّا وجدوا نفرة الناس من القول بخلق القرآن، توسلوا إلى مذهبهم بالوقف، وهم شر من الجهمية، فالجهمية كفار يصرحون بالكفر، وهؤلاء قلوبهم كفر وقولهم نفاق.
والواقفية ضُلّال، وقد ذمهم ما لا يحصى عدده من الأئمة؛ كالإمام أحمد والشافعي وإسحاق بن راهويه وغيرهم، وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: سمعت أبي سئل عن الواقفة، فقال أبي: من كان منهم يخاصم ويعرف بالكلام فهو جهمي، ومن لم يكن يعرف بالكلام يجانب حتى يرجع، ومن لم يكن له علم يسأل ويتعلم، وسمعت أبي مرةً أخرى سئل عن اللفظية والواقفة فقال: هم شرٌّ من الجهمية»اهـ. =

واللفظية[١] من الجهمية، وأن من قصد القرآن بوجه من الوجوه يريد به خلق كلام الله فهو عندهم من الجهمية، وأن الجهمي عندهم كافر، ـ وذكر أشياء إلى أن قال ـ:

وأن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في (العرش واستواء الله عليه) يقولون بها، ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستوٍ على عرشه في سمائه دون أرضه، وذكَرَ سائر اعتقاد السلف وإجماعهم على ذلك»اهـ[٢].

ونقل الشيخ إثبات الصفات أيضاً عن معمر بن أحمد ـ شيخ الصوفية في عصره ـ:

فقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال الشيخ العارف: معمر بن أحمد ـ شيخ الصوفية في هذا العصر ـ: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من

= انظر: الفتاوى (١٢/ ٤٢٠)، السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (ص٣٦)، قصيدة ابن أبي داود (ص٣١، ت: محمود محمد حداد، ط. دار طيبة، الرياض، الأولى ١٤٠٨هـ)، وانظر ما نقله الآجري من أقوال العلماء فيهم في كتاب الشريعة (ص٨٧ ـ ٨٨، ط. حامد الفقي، ط. مطبعة السنة المحمدية، الأولى ١٩٥٠م).

(١) اللفظية: هم الذين يقولون: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، لكن اللفظ بالقرآن مخلوق، وحقيقة قولهم أنه خطوة إلى الجهمية، حيث يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، ثم يقولون بعد ذلك: القرآن بلفظي مخلوق، ثم الكفر الصراح، وحقيقة أمرهم أنهم يجرون مجرى من قال بخلق القرآن.
انظر: قصيدة ابن أبي داود (ص٣١)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٨٥، ٢/ ٣٥٦)، صريح السنة، لابن جرير الطبري (ص٢٦)، مقالات الإسلاميين (ص٦٠٢).

(٢) الفتاوى (٥/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وقد بحثت عن كلام أبي نعيم ـ لتوثيقه ـ فلم أقف عليه.

السنة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين ـ فذكر أشياء من الوصية إلى أن قال فيها ـ: وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تأويل، والاستواء معلوم والكيف مجهول، وأنه مستوٍ على عرشه بائن من خلقه والخلق بائنون منه، بلا حلول ولا ممازجة ولا ملاصقة.

وأنه ﷻ سميع بصير عليم خبير، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء بلا كيف ولا تأويل، ومن أنكر النزول أو تأوَّل، فهو مبتدع ضالٌّ»اهـ[1].

ونقل شيخ الإسلام عن أبي عبد الله بن خفيف إثبات الصفات أيضاً:

فقال: «وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات): «.. إلى أن قال: (ومما نعتقد: أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر فيبسط يده فيقول: **(ألا هل من سائل؟)** الحديث[2].. قال: ونعتقد أن الله تعالى كلَّم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً، وأن الخلة غير الفقر، لا كما قال أهل البدع، ونعتقد أن الله تعالى خصّ محمداً ﷺ بالرؤية، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.

---

(١) الفتاوى (٥/ ١٩١).

(٢) الحديث: في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له) رواه البخاري (أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ١/ ٣٨٤/ ١٠٩٤)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل، ١/ ٥٢١/ ٧٥٨).

ونعتقد أن الله تعالى اختص بمفتاح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية[١]. . .

وأن مما نعتقده: أن الله لا يحِل في المرئيات، وأنه المتفرِّد بكمال أسمائه وصفاته، بائن من خلقه، مستوٍ على عرشه، وأن القرآنَ كلامُه غير مخلوق حيث ما تلي ودرس وحفظ.

ونعتقد: أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، واتخذ نبينا محمداً ﷺ خليلاً وحبيباً، والخلة لهما منه، على خلاف ما قاله المعتزلة: أن الخلة: الفقر والحاجة،. . إلى أن قال: والخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما، ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه، وصفات الخلق من المحبة والخلة جائز عليها الكيف، فأما صفاته تعالى فمعلومة في العلم وموجودة في التعريف، قد انتفي عنهما التشبيه، فالإيمان به واجب واسم الكيفية عن ذلك ساقط»اهـ[٢].

ثالثاً: معتدلو الصوفية وافقوا أهل السنة في قيام الأفعال بالله تعالى:

وقد نقل الشيخ ذلك عن الإمام الكلاباذي، فقال شيخ الإسلام في معرض ذِكره لخلاف الناس في ذلك:

«والجمهور المثبتون للصفات هم في الأفعال على قولين:

منهم من يقول: لا يقوم به فعل؛ وإنما الفعل هو المفعول، وهذا قول طائفة؛ منهم الأشعري ومن وافقه من أصحابه وغير أصحابه. . .

---

(١) الآية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

(٢) الفتاوى (٥/ ٧١، ٧٧ ـ ٨٠).

والقول الثاني: أنه تقوم به الأفعال، وهذا قول السلف وجمهور مثبتة الصفات.

ذكر البخاري في كتاب (خلق أفعال العباد): أن هذا إجماع العلماء: خالقٌ، وخلقٌ، ومخلوقٌ[١].. وذكره أبو نصر محمد بن إسحاق الكلاباذي في كتاب (التعرف بمذاهب التصوف)[٢] أنه قول الصوفية»اهـ[٣].

رابعاً: كثير من الصوفية في باب المعتقد وافقوا الجهم بن صفوان من وجه دون وجه:

وقد بيّن ذلك شيخ الإسلام، بقوله: «.. وجَهْم لا يثبت شيئاً من الصفات، لا الإرادةَ ولا غيرَها، فإذا قال: إن الله يحب الطاعات، ويبغض المعاصي، فمعناه الثواب والعقاب.

---

(١) قال الإمام البخاري: «قال أبو عبد الله: واختلف الناس في الفاعل والمفعول والفعل، فقالت القدرية: الأفاعيل كلها من البشر ليست من الله، وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله، وقالت الجهمية: الفعل والمفعول واحد؛ لذلك قالوا: لكن مخلوق، وقال أهل العلم: التخليق فعل الله وأفاعيلنا مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني السر والجهر من القول، ففعل الله صفة الله والمفعول غيره من الخلق»اهـ خلق أفعال العباد (ص١١٤).
وانظر: خلق أفعال العباد للإمام البخاري (ص٤٤، ٧٤، ١١٥).

(٢) قال أبو بكر الكلاباذي (توفي سنة ٣٨٠هـ): في كتابه: التعرف لمذهب التصوف (ص٤٤، ط. عيسى الحلبي، سنة ١٣٨٠هـ): «أجمعوا أن الله تعالى خالق لأفعال العباد كلها، كما أنه خالق لأعيانهم، وأن كل ما يفعلونه من خير وشر، فبقضاء الله وقدره» ثم قال (ص٤٧): «وأجمعوا أن لهم أفعالاً واكتساباً على الحقيقة، هم بها مثابون، وعليها معاقبون، ولذلك جاء الأمر والنهي، وورد الوعد والوعيد»اهـ.

(٣) الفتاوى (١٦/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في المنهاج (١/ ٤٥٨، ٢/ ٢٩٨).

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية؛ فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر[١] وخالفوه في الصفات، كأبي إسماعيل الأنصاري ـ صاحب (ذم الكلام) ـ فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات، وله كتاب في تكفير الجهمية، ويبالغ في ذم الأشعرية، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة، وربما كان يلعنهم»اهـ[٢].

وبيّن الشيخ أن الاتحادية: جهمية في الصفات:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلام ابن سبعين، وابن رشد الحفيد، وابن التومرت[٣]، وابن عربي الطائي، وأمثالهم من الجهمية ـ نفاة الصفات ـ: يدور على هذا الأصل، كما قد بسط في موضعه[٤] ويوجد ما يقارب هذا

---

(١) سيأتي الكلام عن مذهب الصوفية في القدر ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (٢/ ٢٣).

(٢) الفتاوى (٨/ ٢٣٠).

(٣) هو: محمد بن عبد الله بن تومرت، المصمودي البربري، ادعى أنه علوي وأنه المهدي، ورحل إلى المشرق، وحصّل من العلم والأصول والكلام، وألّف كتاباً في التوحيد وعقيدة تسمى المرشدة، وكان شجاعاً جلداً مهيباً، يظهر الورع والنسك والزهد والتقشف، أخذ يستميل الشباب والجهلة الشجعان، ويلقي إليهم أنه المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، حتى قاتل الملوك وصارت له دولة، وكان يقول بنفي الصفات كالمعتزلة.
قال ابن كثير: «وقد رأيت لبعضهم في سيرة ابن تومرت هذا مجلداً في أحكامه وإمامته، وما كان في أيامه، وكيف تملك ببلاد المغرب، وما كان يتعاطاه من الأشياء التي توهم أنها أحوال بَرَّة، وهي مُحالات لا تصدر إلا عن فَجَرَة، وما قتل من الناس وأزهق من الأنفس»اهـ، توفي سنة ٥٢٤هـ.
انظر: الكامل في التاريخ (١٠/ ٥٦٩)، البداية والنهاية (٨/ ٣٢٣، حوادث سنة ٥١٤هـ، ٥٢٤هـ)، شذرات الذهب (٤/ ٧٠).

(٤) تقدم الكلام على مذهب الاتحادية، والأصلين اللَّذَيْن قام عليهما مذهبهم (ص٤٠٥) و(٤٣٢).

الاتحاد في كلام كثير من أهل الكلام والتصوف، الذين دخل عليهم بعض شعب الاتحاد، ولم يعلموا ما فيها من الفساد»اهـ[١].

خامساً: حقيقة الرب عند الاتحادية ومن وافقهم: وجودٌ مجرَّدٌ لا اسم له ولا صفة:

قال الشيخ في معرض ذكره لمعتقد ابن عربي: «وكان كثير من أهل التصوف والسلوك والطالبين لطريق التحقيق والعرفان ـ مع أنهم يظنون أنهم متابعون للرسل، وأنهم متَّقون للبدع المخالفة له ـ يقولون هذا الكلام ويعظِّمونه، ويعظمون ابن عربي لقوله مثل هذا، ولا يعلمون أن هذا الكلام بناه على أصله الفاسد في الإلحاد، الذي يجمع بين التعطيل والاتحاد، فإن حقيقة الرب عندَه وجودٌ مجردٌ لا اسم له ولا صفة، ولا يمكن أن يُرَى في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام قائم به، ولا علم، ولا غير ذلك، ولكن يُرى ظاهراً في المخلوقات متجلياً في المصنوعات»اهـ[٢].

سادساً: الاتحادية لمَّا نَفَوْا صفات الله تعالى، وقالوا بعدم مباينته للعالم، صاروا بين أمرين: التعطيل أو الحلول:

قال الشيخ: «فإن هم لا يقرون بأن الخالق مباين للمخلوق ـ كما اتفق السلف والأئمة، وصرحوا بأنه مباين للخلق ليس داخلاً في المخلوقات ولا المخلوقات داخلة فيه ـ بل تارة يجعلونه حالاً بذاته في كل مكان، وتارة يجعلون وجوده عين وجود المخلوقات وتارة يصفونه بالأمور السلبية المحضة؛ مثل كونه غير مباين للعالم ولا حالٍّ فيه، فهم بين أمرين:

---

(١) الفتاوى (٦/ ٥١٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٥٢، ١٣/ ٢٢٢).

(٢) الفتاوى (٧/ ٥٩٠).

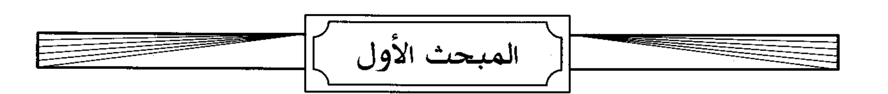
إما أن يصفوه بما يقتضي عدمه وتعطيله، فينكرونه وإن كانوا يقرون به، فيجمعون ـ في قولهم ـ بين الإقرار والإنكار، والنفي والإثبات، وقد يصرح بصحة الجمع بين النقيضين ويقول: إن هذا غاية التحقيق والعرفان.

وإما أن يصفوه بما يقتضي أنه عين المخلوقات، أو جزء منها، أو صفة لها، وذلك أيضاً يقتضي قولهم بعدم الخالق وتعطيل الصانع، وإن كانوا مقرين بوجود موجود غيره وإن جعلوه إياه، ثم يجدون في المخلوقات مبايناً في ربوبية المخلوق، فيقولون بالجمع بين النقيضين»اهـ[1].

وبعد هذا التمهيد الذي ذكر فيه شيخ الإسلام أصولاً عامةً حول توحيد الأسماء والصفات عند الصوفية، أذكر فيما يأتي من مباحث تفصيل ما ذكره شيخ الإسلام من مذهب المتصوفة في الأسماء والصفات.



(١) الفتاوى (٦/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠).


المبحث الأول

اختلافهم في أسماء الله تعالى

أسماء الله تعالى وصفاته كلها توقيفية، لا يجوز إطلاق شيء منها على الله تعالى إثباتاً أو نفياً إلا بنصٍّ من الكتاب أو السنة أو منهما معاً، كما أن أسماء الله تعالى وصفاته لا تماثل شيئاً من أسماء المخلوقين أو صفاتهم.

وقد وافق الصوفيةُ أهلَ السنة في هذا الباب في مواضعَ، وخالفوهم في أخرى، وبيّن شيخ الإسلام كثيراً من هذه المواضع، وما وافق المتصوفةُ فيها الحقَّ وما خالفوا.

ويمكن إجمال ما ذكره شيخ الإسلام عن مذهب الصوفية في باب أسماء الله تعالى، فيما يلي:

ـ أسماء الله عند الاتحادية حقيقتها أمور عَدَمِيَّة:

قال الشيخ: «الوجود عنده واحد، وليس للخالق وجود مباينٌ لوجود المخلوقات، بل وجودها عينه، ثم يذكر الظاهر الخيالي والمراتب، وهي عنده الذوات الثابتة في العدم المساوية للوجود.

وأما أسماء الله تعالى: فهي عنده النسبة التي بين الوجود وبين هذه المراتب، وهي في الحقيقة أمور عدمية، وكل من الوجود والثبوت لا ينفك عن الآخر ولا يستغني عنه، وهو شبيه بقول من يقول: الوجود غير الماهيَّة، وهو ملازم لها، والمادة غير الصورة، وهي ملازمة له»اهـ[1].

---

(١) بغية المرتاد (ص٤٠٧).

وقال الشيخ في موضع آخر في معرض كلامه عن ابن عربي: «أسماء الحق عنده هي النسب والإضافات، التي بين الأعيان وبين وجود الحق، وأحكام الأسماء هي الأعيان الثابتة في العدم.

وظهور هذه الأحكام بتجلِّي الحق في الأعيان، والأعيان التي هي حقيقة العيان: هي مرآة الحق التي بها يرى أسماءه وظهورَ أحكامها، فإنه إذا ظهر في الأعيان: حصلت النسبة التي بين الوجود والأعيان ـ وهي الأسماء ـ وظهرت أحكامُها ـ وهي الأعيان ـ ووجود هذه الأعيان هو الحق، فلهذا قال: «وليست سوى عينه، فاختلط الأمر وانْبَهَمَ»[١].

فتدبر هذا من كلامه، وما يناسبه، لتعلم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه، وأن ذاتَ الحق عنده هي نفس وجود المخلوقات، وأسماءَه: هي النسب التي بين الوجود والأعيان، وأحكامها: هي الأعيان، لِتعلم كيف اشتمل كلامَه على الجحود لله، ولأسمائه ولِصفاته، وخلقه وأمره وعلى الإلحاد في أسماء الله وآياته!

فإن هذا الذي ذكره غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته ـ الآيات المخلوقة والآيات المتلوّة ـ فإنه لم يثبت له اسماً ولا آيةً؛ إذ ليس إلا وجوداً واحداً، وذاك ليس هو اسماً ولا آيةً، والأعيان الثابتة ليست هي أسماءه ولا آياتِه، ولما أثبت شيئين فرّق بينهما بالوجود والثبوت ـ وليس بينهما فرق ـ اختلط الأمر عليه وانبهم، وهذا حقيقة قوله وسر مذهبه ـ الذي يدّعي أنه به أعلم العالم بالله، وأنه تقدم بذلك على الصدِّيق الذي جهل فقال:

العجز عن دَرَكَ الإدْراك إدْراكُ[٢]

---

(١) كلام ابن عربي، في فصوص الحكم (ص٤٥، ط. غراب).

(٢) فصوص الحكم (ص٤٨، ط. غراب).

وتقدم به على المرسلين الذين ما علموا ذلك إلا من مشكاته، وفيه من أنواع الكفر والضلال ما يطول عدها:

منها: الكفر بذات الله؛ إذ ليس عنده إلا وجود المخلوق.

ومنها: الكفر بأسماء الله، فإنها ليست عنده إلا أمورٌ عَدَمِيَّة، فإذا قلنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فليس الربُّ عنده إلا نسبةً إلى الثبوت»اهـ[1].

وذكر الشيخ كلام ابن عربي في اسم الله تعالى: العلي، فقال: «لهذا قال ابن عربي[2]: من أسمائه الحسنى: العليّ، على من يكون عَلِياً؟ وما ثَمَّ إلا هو! وعلى ماذا يكون علياً؟ وما يكون إلا هو! فعلوُّه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست إلا هو»اهـ[3].

ونخلُص ممَّا سبق إلى أن أكثر الصوفية قد وافقوا أهلَ السنة والجماعة في إثبات أسماء الله تعالى، وإنما وقع الخلل الكبير عند غلاة المتصوفة من القائلين بالحلول والاتحاد، كابن عربي وابن سبعين ومَنْ وافقهما.

وقد تقدم في التمهيد السابق سياقُ ما نقله شيخ الإسلام عن صالحي المتصوفة ـ كابن خفيف ومعمر وغيرهما ـ في إثبات الأسماء والصفات[4].

وفصّلتُ في مبحث سابق مذهب الحلولية الاتحادية ومعنى الإله عندهم، وحقيقة الذات الإلهية بما هو أوسع مما هنا[5].

❖ ❖ ❖

---

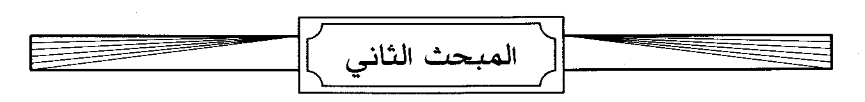
(١) الفتاوى (٢/ ٢١٤ ـ ٢١٦).

(٢) انظر هذا الكلام لابن عربي في كتابه: فصوص الحكم (ص٧٧).

(٣) الفتاوى (٥/ ٢٢٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٥٦، ٤٦٨، ١٥/ ١٠٢).

(٤) انظر: (ص٦٣٤).

(٥) انظر: (ص٤٠٥).



قولهم في القرآن وكلام الله عموماً

تمهيد:

قبل أن أشرع في بيان مذهب الصوفية في كلام الله تعالى، أمهِّد بذكر مذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله:

جملة اعتقاد أهل السنة في كلام الله إجمالاً:

يعتقد أهل السنة أن لله تعالى صفةَ الكلام، وهي صفة قائمة به غير بائنة عنه، لا ابتداءً لاتصافه بها ولا انتهاءً، يتكلم بها سبحانه بمشيئته واختياره، بحرف وصوت مسموع.

وكلامه سبحانه أحسن الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين، ويكلِّم به مَنْ شاء مِنْ خلقه: مِنْ ملائكته، ورسله، وسائر عباده، بواسطة وبغير واسطة.

ويعتقد أهل السنة أن القرآن والتوراة والإنجيل كلها كلام الله تعالى على الحقيقة.

وأصوات العباد وحركاتهم بالقرآن، وورق المصحف، ومِداد الكتابة، كل ذلك مخلوق مصنوع، أما الكلام المقروء، فهو كلام الله تعالى، فالصوت صوت القارئ والكلام كلام البارئ، هذا مجمل اعتقاد أهل السنة في كلام الله تعالى[١].

(١) انظر: العقيدة السلفية في كلام ربّ البرية، لعبد الله بن يوسف الجديع (ص٧٩ ـ ٨١).

وتعدُّ صفة الكلام لله تعالى من أكبر المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين أهل السنة والفرق المخالفة أو المبتدعة، سواء من الصوفية أو غيرهم.

ويمكن إجمال ما ذكره شيخ الإسلام عن مذهب الصوفية في كلام الله تعالى، فيما يلي:

أولاً: نقل الشيخ عن أبي عبد الله بن خفيف قول معتدلي الصوفية في كلام الله تعالى:

فقال: «قال[١]: ثم كان الاختلاف في القرآن مخلوقاً وغير مخلوق، فقولنا وقول أئمتنا: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنه صفةُ الله، منه بدأ قولاً[٢]، وإليه يعود حكماً»اهـ[٣].

---

(١) أي ابن خفيف في كتابه في الاعتقاد.

(٢) معنى قوله: منه بدأ قولاً وإليه يعود حكماً:

منه بدأ: أي هو المتكلم به، ولم يبتدئ من غيره، كما يزعم الجهمية والمعتزلة أنه خلق في الهواء أو بدأ من غيره، وكذا الأشاعرة حيث زعموا أن القرآن مبدؤه من اللوح المحفوظ وأن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ.

وإليه يعود: أي: يُرفع ويُسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور، فلا يبقى في المصاحف ولا الصدور منه آية، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ليُسْرين على القرآن ذاتَ ليلة ولا يترك آية في مصحف ولا في قلب أحد إلا رفعت)، رواه الدارمي (كتاب فضل القرآن، باب في تعاهد القرآن ٣/ ٤٣٨)، وابن ماجه بلفظ قريب منه مرفوعاً (كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم ٢/ ١٣٤٤/ ٤٠٤٨).

وانظر: الفتاوى (٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥، ١٢/ ٣٩، ١٦٢، ٢٣٤)، الرد على الجهمية للإمام أحمد (ص١١٤ ـ ١٢٦، ١٤٥)، الرد على الجهمية للإمام الدارمي (ص١٥٩ ـ ١٧٠)، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٢٧٧ ـ ٣٣٢)، عقيدة السلف للصابوني (ص٧ ـ ١٤)، التوحيد لابن خزيمة (١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٣) الفتاوى (٥/ ٧٦).

ثانياً: ونقل الشيخ ـ أيضاً ـ عن شيخ الصوفية في عصره: معمر بن أحمد قوله في إثبات أن الله تعالى يتكلم على الوجه اللائق به سبحانه:

فقال شيخ الإسلام: «وقال الشيخ العارف معمر بن أحمد ـ شيخ الصوفية في هذا العصر ـ: أحببتُ أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وأجمع ما كان عليه أهلُ الحديث، وأهلُ المعرفة والتصوُّف، من المتقدمين والمتأخرين ـ فذكر أشياءَ مِنَ الوصية، إلى أن قال فيها ـ: . . وأنه ﷻ سميع بصير، عليم خبير، يتكلم ويرضى، ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلَّى لعباده يوم القيامة ضاحكاً»اهـ[1].

ثالثاً: وبيّن الشيخ مسألة أخرى، وهي مسألة الأحرف، هل هي مخلوقة أم لا؟، وذكر ما أورده القشيري من نقول عن الصوفية في ذلك، وردّ عليه بما يناسبه:

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو القاسم[2]: «وقال ابن عطاء: لمَّا خلق الله الأحرف جعلها سراً، فلما خلق آدم بثَّ ذلك السر فيه، ولم يَبُثَّ ذلك السر في أحد من الملائكة، فجَرَتِ الأحرف على لسان آدم بفنون الجريان وفنون المعارف، فجعلها الله صوراً لها، قال أبو القاسم: صرَّحَ ابنُ عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ بأن الحروف مخلوقة».

قلت: لم يذكر لهذه الحكاية إسناداً؛ ومثل هذا لا تقوم به حجة، ولا يحِلُّ لأحد أن يدلَّ المسلمين في أصول دينهم بكلام لم تُعْرَفْ صحةُ نقله، مع ما علم من كثرة الكذب على المشايخ المقتدَى بهم، فلا يثبت بمثل هذا الكلام قولٌ لابن عطاء ولا مذهبٌ، بل قد ظهر على هذه الحكاية من كذب ناقلها، وجهل قائلها ما لا يصلح معه أن يحمد الاعتقاد بها، فلو فرض أن هذه الحكاية قالها بعض الأعيان، لكان فيها من الغلط ما يردها على قائلها.

---

(١) الفتاوى (٥/ ١٩١).

(٢) القشيرية (١/ ٤٢).

وكذلك: أن الله لم يخصَّ آدمَ بالأحرف، وإنما خصه بتعليم الأسماء كلها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١]...

وأيضاً: فإن هذه الحكاية من قائلها الأول مرسَلةٌ لا إسنادَ لها، ولم يأثُرْها عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، وأحسن أحوالها أن تكون من الإسرائيليات التي إذا لم يُعرفْ أنها حقٌّ أو باطل لم يصدق بها ولم يكذب، ومثل هذه لا يعتمد عليها في الدين بحال.

والمعروف عن بعض المشايخ حكايةٌ، لو ذكرها أبو القاسم لكان احتجاجه بها أمثلَ، وهو ما أن الإمام أحمد ذُكِر له عن السريّ السقطي أنه ذَكَر عن بكر بن خنيس العابد[1] أنه قال: لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف، فقالت: لا أسجد حتى أؤمر، فقال أحمد: هذا كفر[2].

---

(١) في المطبوع: بكر بن حبيش، وهو خطأ، ولم أعثر على رجل بهذا الاسم، والصواب ما أثبتّه، بل تسميته بابن حبيش وهم، كما قرّر ذلك ابن ماكولا في كتابه تهذيب مستمر الأوهام، فقال: «بكر بن حبيش مضبوطاً بالحاء المبهمة والباء المعجمة بواحدة وبالشين المعجمة وهو تصحيف فاحش، ما أعتقده من أبي الحسن، بل هو من الكاتب، ولا يجوز أن يطرق مثله على أبي الحسن، ولولا أن أبا بكر الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ ذكره لم أذكره، وهو بكر بن خنيس بخاء معجمة ونون وسين مهملة، ولا يختلف في ذلك، ذكره البخاري ومسلم وغيرهما والله الموفق للصواب». اهـ. تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام، لعلي بن هبة الله بن جعفر بن علي بن ماكولا (ص٣٣٥).
وبكر بن خنيس هو الكوفي العابد، نزل بغداد، روى عن ليث بن أبي سليم وثابت البناني وغيرهما، قال عنه النسائي وغيره: ضعيف، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن أبي شيبة: ضعيف الحديث موصوف بالرواية والزهد.
انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٣٤٤)، تهذيب التهذيب لابن حجر (١/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٢) سيأتي تخريج ذلك (ص٦٥٤).

وهذا الكلام لم يقله بكر بن خنيس والسريّ ونحوه من العباد إلا لِيُبَيِّنوا الفرق بين من لا يفعل إلا ما أُمر به، ومن يعتمد[1] بما لم يؤمر به من البدع، وهذا مقصودٌ صحيحٌ، فإن العمل الصالح المقبول هو ما أمر الله به ورسوله دون ما شُرع من الدين الذي لم يأذن به الله، لكن كثير من العُبَّاد لا يحفظ الأحاديث ولا أسانيدها، فكثيراً ما يغلطون في إسناد الحديث أو متنه. . .

وجاء في لفظ: لمَّا خلق الله الحروف، فاحتج بهذا من يقول من الجهمية: إن القرآن أو حروفه مخلوقة، فقال أحمد: هذا كفر؛ لأن فيه القول بخلق ما هو من القرآن، وذلك الأثر لا يُعرف له إسنادٌ؛ ولا يعرف قائله ولا ناقله، ولا يؤثر عن صاحبٍ ولا تابعٍ، ولعله من الإسرائيليات، فرَدُّ الاحتجاج به أسهل الأمور.

وأما ما تضمنه من الفرق بين العمل الذي يؤمر به والذي لا يؤمر به، فهذا الفرق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، متى كان في الأحاديث التي لا تعرف صحتها والأحاديث الضعيفة ما يوافق أصول الإسلام وما لا يوافق قبول الحق وترك الباطل، فنقبل من هذه الحكاية ما وافق الأصول وهو الذي أخذه بكر بن خنيس والسريُّ وغيرهما، ونرد منها ما خالف الأصول، وهو الذي رده الإمام أحمد وغيرُه من أئمة الهدى، مع أن أحمد من أعظم الناس قولاً لِمَا قصده السري من الفرق بين المأمور وغير المأمور، وهو من أعظم الناس أمراً بالعمل بالمشروع ونهياً عن غير المشروع.

ثم حكاية السري لعله لم يُرِدْ بالحروف إلا المِداد الذي تكتب به الحروف فسجدت؛ فإنه قال: فسجدت له إلا الألف؛ فقالت: لا أسجد

---

(١) كذا في المطبوع، ولعلّ الأصح: يتعبّد.

حتى أُؤمر، وهذا إشارة إلى انتصاب الألف وانخفاض غيرها، وهذا صورة ما يكتب به من المداد، وأما الحروف التي أنزلها الله في كتابه فلا يختلف حكمها باختلاف ما يكتب به من صورة المداد.

ولعل هذا أيضاً هو الذي قصده في حكاية ابن عطاء إن كان لها أصل؛ فإنه قد ذكر ابن قتيبة[1] في «المعارف»: أن الله لما أهبط آدم أنزل عليه حروف المعجم في إحدى وعشرين صحيفة[2]، فيكون ناقلها قصد أن آدم اختص من بين الملائكة بأن علم الكتابة بهذه الحروف كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥].

والملائكة وإن كان الله قد وصفهم بأنهم يكتبون كما قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١ ـ ١٢]، وقال: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، فلا يجب أن تكون حروفُهم المكتوبة مثلَ الحروف التي يكتبها الآدميون، إذ يكون الذين قالوا: إنه خلق الحروف، أرادوا: أنه خلق أصوات العباد، فلا ريب أن الله خالق أصوات العباد وأفعالهم، لكن هذا لا يقتضي أن حروف القرآن، أو مطلق الحروف

---

(١) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، قال الذهبي: «العلامة الكبير ذو الفنون، نزل بغداد وصنف وجمع وبعُد صيته، كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس»اهـ، وقال الخطيب البغدادي: «كان ثقة ديناً فاضلاً»اهـ، توفي سنة ٢٧٦هـ.

انظر: تاريخ بغداد (١٠/ ١٧٠ ـ ١٧١)، سير الأعلام (١٣/ ٢٩٦)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٦٣٣)، لسان الميزان (٣/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩)، البداية والنهاية (١١/ ٤٨)، وفيات الأعيان (٣/ ٤٢ ـ ٤٤).

(٢) قال ابن قتيبة في كتابه «المعارف»: «وولد لآدم أربعون ولداً في عشرين بطناً، فأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة، وهو أول كتاب كان في الدنيا حدَّ الله عليه الألسنة كلها»اهـ المعارف (ص١٨).

مخلوقة، بل يجب التفريق بين ما هو من صفات الله تعالى وما هو من خصائص المخلوقين.

والتأويل من المداد ليس هو الظاهر من الحكاية؛ فإنه قال: فَجَرَت الأحرف على لسان آدم، ولا هو أيضاً بذاك، ولكن ذكرُ أمثالِه هذه الحكايات لبيان المعتقدات نوعٌ من ركوب الجهالات والضلالات، فإذا تبين أنها لا تصحُّ لا من ناقلها ولا من قائلها، وأنها مشتملة على أنواع من الباطل، كان بعد ذلك ذِكْرُ هذه التأويلات أحسنَ مما يذكره المحتجون بها من تأويلاتهم لنصوص الكتاب والسنة الصحيحات الصريحات.

فتبين بذلك: أن أهل السنة في كل مقام أصحُّ نقلاً وعقلاً من غيرهم؛ لأن ذلك من تمام ظهور ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ظهوره بالحجة وظهوره بالقدرة.

ثم إن هذه الحكاية المعروفة عن السري[(١)] لمَّا بلغت الإمامَ أحمدَ أنكرها غاية الإنكار، حتى توقف عن مدح السري مع ما كان يذكر من فضله وورعه، ونهى عن أن يذكر عنه مدحه حتى يظهر خطؤه في ذلك، مع أن السريَّ اعترف بأنه لم يقلها ذاكراً، وإنما قالها آثراً.

فذكر الخلال[(٢)] في كتاب (السنة): «ذِكْرُ السري وما أحدث:

---

(١) السري السقطي، تقدمت ترجمته، انظر (ص٢٤١).

(٢) هو أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الحنبلي، المشهور بالخلال، الإمام الحجة، ولد سنة ٢٣٥هـ، وهو مؤلف علم الإمام أحمد وجامعه ومرتبه، قال عنه الذهبي: «الإمام العلامة الحافظ الفقيه شيخ الحنابلة وعالمهم».اهـ، له تصانيف منها: الجامع لعلوم الإمام أحمد، وهو كبير جداً؛ قيل: لم يصنِّف في المذهب مثله، توفي سنة ٣١٠هـ.

انظر: تاريخ بغداد (٥/ ١١٢ ـ ١١٣)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦)، سير الأعلام (١٤/ ٢٩٧)، طبقات الحنابلة (٢/ ١٢)، شذرات الذهب (٢/ ٢٦١)، =

أخبرني أحمد بن محمد بن مطر[1] وزكريا بن يحيى[2]، أن أبا طالب[3]

= طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٢/ ١٢ ـ ١٥)، كشف الظنون (١/ ٥٧٦)، الأعلام (١/ ١٩٦).

(١) في المطبوع: عن، وقال محققه ـ الشيخ محمد رشاد سالم ـ في الحاشية: «في الأصل: أخبرني أحمد بن محمد أن مطر..»، ولعل الصواب ما أثبته».اهـ، قلتُ: والصواب ما أثبتُّه: أحمد بن محمد بن مطر، ويؤيده أن الخلال يروي في كتابه السنة عن أحمد بن محمد بن مطر، ويقرنه في كثير من المواضع بزكريا بن يحيى، وانظر ـ على سبيل المثال ـ الآثار: ٤٨٠، ٤٨٢، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٨، ٦٥٧.

أما أحمد بن محمد بن مطر، فهو: أحمد بن محمد بن مطر (وفي تاريخ بغداد: مظفر)، أبو العباس، ذكره الخلال، وقال: «عنده مسائل سمعتها منه، وكان فيها غرائبُ»، قال الخطيب البغدادي: «سمع أحمد بن حنبل وسريج بن يونس وأبا بكر الخلال الحنبلي، وكان ثقة».

انظر: تاريخ بغداد (٥/ ٩٨)، طبقات الحنابلة (١/ ٧٥).

(٢) هو زكريا بن يحيى بن عبد الملك، أبو يحيى الناقد، الورع الصالح، كان ذا زهد وعبادة، أسند عن أحمد بن حنبل وآخرين، وكان أحمد يقول: هذا رجل صالح، وقال أبو زرعة الطبري: قال أبو يحيى الناقد: اشتريت من الله تعالى حوراءَ بأربعة آلاف ختمة، فلما كان آخر ختمة سمعت الخطاب من الحوراء تقول: وفيت بعهدك، فها أنا التي اشتريتني، فيقال: إنه مات عن قريب، توفي سنة ٢٨٥هـ.

انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٥٨)، تاريخ بغداد (٨/ ٤٦١)، صفة الصفوة (١/ ٥٨٢).

(٣) هو أحمد بن حميد المشكاني، أبو طالب، من أصحاب الإمام أحمد، روى عنه كثيراً، وكان أحمد يكرمه ويقدمه، توفي سنة ٢٤٤هـ.

طبقات الحنابلة (١/ ٣٩ـ ٤٠)، المنهج الأحمد في أصحاب الإمام أحمد ـ للعُليمي (١/ ١٩٧)، تاريخ بغداد (٤/ ١٢٢)، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ـ لابن مفلح (١/ ٩٥)، مناقب الإمام أحمد ـ لابن الجوزي (ص٦١٠).

حدثهم، أنه قال لأبي عبد الله[١]: جاءني كتاب من طرسوس[٢] أن سرياً قال: لَمَّا خلق الله الحروف سجدت إلا الألف؛ فإنه قال: لا أسجد حتى أؤمر! فقال: هذا الكفر»[٣].

قال الخلال: «فأخبرنا أبو بكر المروذي[٤] قال: جاءني كتاب من الثغر في أمر رجل تكلم بكلام وعرضته على أبي عبد الله فيه: لَمَّا خلق الله الحروف سجدت إلا الألف، فغضب أبو عبد الله غضباً شديداً حتى قال: هذا كلام الزنادقة، وَيْلَهُ هذا جهميٌّ، وكان في الكتاب الذي

---

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) طرسوس: مدينة بثغور الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.
انظر: مراصد الاطلاع لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي (٢/ ٨٨٣).

(٣) لم أجد هذا النص في الجزء المطبوع من كتاب السنة للخلال، ولعلّه في الجزء المفقود منه، ولكن ذكر القاضي أبو يعلى بن الفراء في كتابه (الروايتان والوجهان) كلاماً قريباً من هذا، فقال: «مسألة في حروف المعجم التي يدور عليها كلام الآدميين، هل هي مخلوقة أم لا؟.. وأصل هذا ما نقله أبو طالب عن أحمد وقد حُكي له قول السري السقطي: لَمَّا خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف، فقال: لا أسجد حتى أؤمر، فقال: هذا كفر، فقد أنكر القول على الحروف..»اهـ. من (الروايتان والوجهان: ق: ٢٥٢ب ـ ٢٥٣أ) مخطوط، ويوجد له مصورة في قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد طبع منه ما يتعلق بالفقه تحت عنوان: المسائل الفقهية من كتاب الروايتين والوجهين.
(أفدتُ هذا من كتاب المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة لعبد الإله بن سلمان الأحمدي، ١/ ٤٨، ٢٦٠).

(٤) هو أحمد بن محمد بن الحجاج المروذي، أبو بكر، صحب الإمام أحمد وحدث عنه، وروى عنه مسائل كثيرة، قال الذهبي: «كان إماماً في السنة، شديد الاتباع، له جلالة عجيبة في بغداد»اهـ، توفي سنة ٢٧٥هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (٢/ ٦٣١)، سير الأعلام (١٣/ ١٧٣)، طبقات الحنابلة (١/ ٦٥)، الوافي بالوفيات (٧/ ٣٩٣).

كتب به أن هذا الرجل قال: لو أن غلاماً من غلمان حارث - يعني المحاسبي[(١)] - لخبَّر أهل طرطوس!

فقال أبو عبد الله: أشد ما هاهنا قولُه: لو أن [هاهنا][(٢)] غلاماً من غلمان حارث لخبَّر أهلَ طرطوس! ما البلية إلا حارث، حَذِّروا عنه أشد التحذير»[(٣)]. . .

ثم أيضاً: قول القائل: «لَمَّا خلق الله الأحرف جعلها سِرّاً له، فلمَّا خلق آدم عليه السلام بث ذلك السر فيه، ولم يبث ذلك السر في أحد من ملائكته».

فساده ظاهر من وجوه:

أحدها: أن فيه أنه خلق الحروف قبل خلق آدم؛ وهذا لم يقلْه أحد من المسلمين، فإن الذين يقولون بخلقها يقولون: إنما يخلقها إذا أراد إنزال كلامه على رسوله، فيخلق حروفاً في الهواء يسمعها جبريل أو غيره ينزل بها ويفهمه المعنى الذي أراده بتلك الحروف، فيكون جبريل أولَ من تكلم بتلك الحروف وعبَّر بها عن مراد الله، وهو المعنى القائم بنفسه كما يعبِّر عن الأخرس مَنْ فهِم معناه بإشارته.

فأما أن يقال: خُلِقَتِ الحروفُ قبل خلق آدم عليه السلام ولم تخاطَبْ بها الملائكة، فهذا لم يقله أحد.

الثاني: أنه جعل الحروف لآدم دون الملائكة، ومن المعلوم أن الذي نزل بالقرآن وغيره من كلام الله هم الملائكة، وهم تلقَّوا الحروف عن الله قبل أن يتلقاها الأنبياء، فكيف يسلبون ذلك؟.

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي، تقدمت ترجمته، انظر: (ص١١١).

(٢) كلمة: هاهنا، ليست في المطبوع، وزدتها ليستقيم الكلام.

(٣) لم أجد هذا النص في الجزء المطبوع من كتاب السنة للخلال، ولعلّه في الجزء المفقود منه.

الثالث: أن قوله جعلها سراً له، كلام لا حاصل له؛ لأن السر ما أسرَّه الله فأخفاه عن عباده أو بعضهم، أو ما تضمَّن ما أسره، وهذه الحروف أظهرُ شيء لبني آدم، حتى إن النطق بها أظهر صفاته.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]»اهـ(١).

رابعاً: وبيَّن الشيخ أن أكثر من ضلّ في باب الكلام من المنتسبين إلى التصوف هم القائلون بالحلول والاتحاد، وردَّ عليهم من وجوه:

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكن هؤلاء يقولون: إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلمَ به، وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الله سبحانه أنطَقَ الأشياء كلَّها نطقاً معتاداً، ونطقاً خارجاً عن المعتاد، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

وقد ثبت: أن الحصى كان يسبح في يد النبي ﷺ(٢)، وأن الحجر

---

(١) الاستقامة (١/١٩٨ ـ ٢٠٧).

(٢) يشير الشيخ إلى ما أخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٤٧) عن أبي ذر رضي الله عنه وفيه: (.. فتناول النبي ﷺ سبع أو تسع حصيات فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن! ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر، فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن! ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر، فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، =

كان يسلم عليه[١]، وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات، فلو كان إذا خلق كلاماً في غيره كان هو المتكلمَ به، كان هذا كلُّه كلامَ الله تعالى، ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام، كما كلم موسى بن عمران ﷺ، بل قد ثبت أن الله خالق أفعال العباد، فكل ناطق فالله خالقُ نطقِه وكلامِه، فلو كان متكلماً بما خلقه من الكلام، لكان كلُّ كلام في الوجود كلامَه، حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم!.

وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله، يقولون:

وكلّ كلام في الوجود كلامُه   سواءٌ علينا نثره ونظامه[٢]

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبِّهة[٣]، الذين يقولون: إن كلام

= ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان، فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن).
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢٤٥/ ١١٢٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضَعْفٌ. اهـ.

(١) يشير الشيخ إلى ما أخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٤٩) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعَث، إني لأعرفه الآن)، وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٠٥/ ٢١١٣٢)، والطيالسي في مسنده (ص١٠٦).

(٢) البيت لابن عربي كما ذكر شيخ الإسلام، وهو في «الفتوحات المكية» ولفظه هناك:
ألا كل قول في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه
والبيت الذي بعده:
يعمُّ به أسماعَ كل مكوّن   فمنه إليه بدؤه وختامه
الفتوحات المكية، لابن عربي (٤/ ١٤١).

(٣) المشبهة صنفان:
صنف: شبهوا ذات الله تعالى بذات غيره، وهم أصناف مختلفة.
وصنف: شبهوا صفات الله تعالى بصفات المخلوقين، وهم أصناف أيضاً؛ =

الآدميين غير مخلوق، فإنَّ كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق، فأولئك يجعلون الجميع مخلوقاً، وأن الجميع كلام الله، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله، وهو غير مخلوق، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية، وشيخ المشبهة الحلولية.

وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلَّط الله أعداء الدين، فإن الله يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وأيُّ معروف أعظمُ من الإيمان بالله وأسمائه وآياته؟ وأيُّ منكر أعظمُ من الإلحاد في أسماء الله وآياته؟

الوجه الثاني: أن يقال لهؤلاء الضالين: ما خلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات، فإن ما يعود حكمُه على ذلك المحل لا على غيره: **فإذا خلق الله** في بعض الأجسام حركةً أو طعماً أو لوناً أو ريحاً؛ كان ذلك الجسمُ هو المتحركَ المتلوِّن المتروح المطعوم، **وإذا خلق**

= منهم: من شبَّه كلام الله بكلام خلقه، ومنهم من شبَّه صفات الله تعالى الذاتية بصفات خلقه، وأول من أفرط في التشبيه: فرقة من فرق الروافض تُسَمَّى «السبئية»، ومن رؤوس المشبهة: هشام بن سالم الجواليقي، وداود الحواري، وأهل الحلول والاتحاد هم من غلاة المشبهة.

ولفظ التشبيه من الألفاظ المجملة المشتركة، ولفظ المشبهة يطلقه أهل الأهواء والبدع على كل من أثبت ما ينكرونه من صفات الله وأسمائه.

انظر: الفرق بين الفرق (ص٢٢٥ ـ ٢٣٠)، التبصير في الدين (ص١١٩ ـ ٢٢١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٩٧ ـ ١٠٠)، منهاج السنة (٥٩٨/٢)، الملل والنحل (١١٨/١ ـ ١٣١)، الفتاوى (١٨٦/٣، ١٣٨/٤، ٣٥/٦ ـ ٣٦، ٢٦٤/١٢ ـ ٢٦٥).

بمحل حياة أو علماً أو قدرة أو إرادة أو كلاماً، كان ذلك المحل هو الحيَّ العالمَ القادرَ المريدَ المتكلمَ، فإذا خلق كلاماً في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسمُ هو المتكلمَ بذلك الكلام، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً ولا يكون اللهُ هو المتكلمَ به، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة، أو سمعاً أو بصراً: كان ذلك المحلُّ هو الحيَّ به، والقادرَ به، والسميعَ به، والبصيرَ به، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متَّصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة، وغير المشروطة بالحياة، فلا يكون هو المتحركَ بما خلقه في غيره من الحركات، ولا المصوِّتَ بما خلقه في غيره من الأصوات، ولا سمعه ولا بصره وقدرته: ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة، فكذلك لا يكون كلامُه ما خلقَه في غيره من الكلام، ولا يكون متكلماً بذلك الكلام.

الوجه الثالث: أن الاسم المشتق من معنى، لا يتحقق بدون ذلك المعنى، فاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وأفعال التفضيل: يمتنع ثبوتُ معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه.

والناس متفقون على أنه لا يكون متحركٌ ولا متكلمٌ إلا بحركة وكلام، فلا يكون مريدٌ إلا بإرادة، وكذلك لا يكون عالمٌ إلا بعلم، ولا قادرٌ إلا بقدرة. . . ونحو ذلك.

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يُسمَّى بها من قام به مسمَّى المصدر، فإن ما يُسمَّى بالحيِّ مَن قامت به الحياة، وبالمتحرك من قامت به الحركة، وبالعالم من قام به العلم، وبالقادر من قامت به القدرة، فأمَّا من لم يقم به مسمَّى المصدر، فيمتنع أن يُسمَّى باسم الفاعل ونحوه من الصفات، وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر؛ وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات: هو مركَّبٌ يدل على الذات وعلى الصفة، والمركب يمتنع تحقُّقه بدون تحقق مفرداته.

وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة، فكذلك في الأفعال: مثل تَكلَّم وكَلَّم، ويَتكلمُ ويُكلِّم، وعَلَّم ويُعلِّم، وسمِع ويَسمَع، ورأى ويرى... ونحو ذلك، سواء قيل: إن الفعل المشتقَّ من المصدر، أو المصدر مشتق من الفعل، لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر، فإذا قيل: كلَّم أو علَّم، أو تكلَّم أو تعلَّم، ففاعل التكليم والتعليم: هو المكلم والمعلم، وكذلك التعلم والتكلم، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم، والتكلم والتعلم، فإذا قيل: تكلم فلان، أو كلَّم فلانٌ فلاناً، ففلان هو المتكلم والمكلِّم، فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يقتضي: أن الله هو المكلِّم، فكما يمتنع أن يقال: هو متكلم بكلام قائم بغيره، يمتنع أن يقال: كلَّم بكلام قائم بغيره.

فهذه خمسة أوجه:

أحدها: أنه يلزم الجهمية على قولهم: أن يكون كلُّ كلام خلقه الله كلاماً له؛ إذ لا معنى لكون القرآن كلامَ الله إلا كونه خلقه، وكل من فعَلَ كلاماً ـ ولو في غيره ـ كان متكلماً به عندهم، وليس للكلام عندهم مدلولٌ يقوم بذات الرب تعالى، لو كان مدلولٌ ـ قائماً ـ يدل لكونه خلق صوتاً في محل، والدليل يجب طردُه، فيجب أن يكون كلُّ صوت يخلقه له كذلك، وهم يجوِّزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى ـ على قولهم ـ والصوت الذي هو ليس بكلام.

الثاني: أن الصفة إذا قامت بمحل: كالعلم والقدرة، والكلام والحركة، عاد حكمها إلى ذلك المحل، ولا يعود حكمها إلى غيره.

الثالث: أن يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به، ونحو ذلك، ولا يشتق ذلك لغيره، وهذا كله بيِّنٌ ظاهر، وهو ما بين قول السلف والأئمة أن مَنْ قال: إن الله خلق كلاماً في غيره، لزمه أن يكون حكم التكلُّم عائداً إلى ذلك المحل، لا إلى الله.

الرابع: أن الله أكَّد تكليم موسى بالمصدر، فقال: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، قال غير واحد من العلماء: التوكيد بالمصدر ينفي المجاز لئلا يظن أنه أرسل إليه رسولاً، أو كتب إليه كتاباً، بل كلَّمه منه إليه.

والخامس: أن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممَّن لم يكلِّمْه، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ الآية [الشورى: ٥١]، فكان تكليم موسى من وراء حجاب، وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوتٌ خلقه في الهواء؛ لكان وحي الأنبياء أفضلَ منه؛ لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة، وموسى إنما عرفه بواسطة، ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدَّعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضلُ مما حصل لموسى بن عمران، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين»اهـ[1].

خامساً: ومن المتصوفة من يقول: إن كلام الله تعالى فيضٌ يفيض على القلوب:

وقد بيَّن الشيخ ذلك لَمَّا «سُئل عن رجل يحب السماع والرقص، فأشار عليه رجل، فقال هذه الأبيات:

---

(١) الفتاوى (١٢/ ٥١٠ ـ ٥١٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٧٦، ٦/ ٥١٩، ١٢/ ١٧٤)، بغية المرتاد (ص٣٤٩ ـ ٣٥٠)، الدرء (٢/ ٢٥٢).

أنكروا رقصاً وقالوا حرام ... فعليهم من أجل ذاك سلام
أُعْبدِ الله يا فقيهُ وصلِّ ... والزم الشرع فالسماع حرام
بل حرام عليك ثم حلال ... عند قوم أحوالهم لا تلام
مثل قوم صفَوْا وبان لهم من ... جانب الطور جذوة وكلام
فإذا قوبل السماع بلهو ... فحرام على الجميع حرام

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. هذا الشعر يتضمن منكراً من القول وزوراً، بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة، وآخره يفتح باب الزندقة والإلحاد، والمخالفة للحقيقة الإلهية الدينية النبوية؛ وذلك أن قول القائل:

مثل قوم صفوا وبان لهم من ... جانب الطور جذوة وكلام

يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران الذي نُودي من جانب الطور، ولَمَّا رأى النار ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وهذا قول طائفة من الناس يسلكون طريق الرياضة والتصفية، ويظنون أنهم بذلك يصِلُون إلى أن يخاطبَهم الله كما خاطب موسى بن عمران.

وهؤلاء ثلاثة أصناف:

صنف: يزعمون أنهم يخاطَبون بأعظمَ مِمَّا خوطب به موسى بن عمران، كما يقول ذلك مَنْ يقوله من أهل الوحدة والاتحاد، القائلين بأن الوجود واحدٌ، كصاحب (الفصوص) وأمثاله، فإن هؤلاء يدَّعون أنهم أعلى من الأنبياء، وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة السلام!.

ومعلوم أن هذا الكفر أعظمُ من كفر اليهود والنصارى الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم، لكن يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

والنوع الثاني: من يقول: إن الله يكلمه مثلَ كلام موسى بن عمران، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة، الذين يقولون: إن تكليم موسى فَيْضٌ فاض على قلبه من العقل الفَعَّال، ويقولون: إن النبوة مكتسَبة.

والنوع الثالث: الذين يقولون: إن موسى أفضل، لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسى، ولكن كان موسى مقصوداً بالتكليم دون هذا، كما يوجد هذا في أخبار صاحب: (مشكاة الأنوار)[(١)]، وكذلك سلك مسلكه صاحب: (خلع النعلين)[(٢)] وأمثالهما»اهـ[(٣)].

وبما سبق يتبين لنا ضلالُ فِئامٍ من المتصوفة في مسألة كلام الله تعالى، وما وقع فيه فريق من غلاتهم من القول بإمكان سماع كلام الله لآحاد الناس. وقد ردَّ عليهم شيخ الإسلام، وبيَّن أن ما يسمعونه من أصوات وكلام هو من تلاعب الشياطين بهم[(٤)].

وتبين لنا ـ أيضاً ـ من كلام شيخ الإسلام أن الصوفية يتفاوتون في اعتقادهم في كلام الله تعالى، فمنهم من وافق أهل السنة والجماعة، ومنهم مَنْ غلا وضلَّ عن سواء السبيل.

أمَّا مذهب الصوفية في بقية أسماء الله تعالى وصفاته ـ كالرؤية والمحبة والعلم ونحوها ـ فسوف يأتي بيانه فيما يأتي من مباحث.

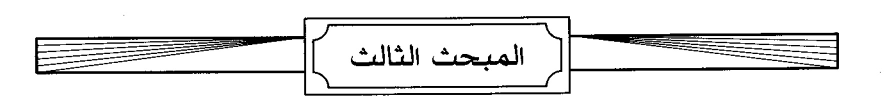
---

(١) قال أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (٤/ ٢٥١): «واطْوِ الطريق، فإنك بالواد المقدس طوى، واستمع بسرِّ قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تُنادى بما نودي به موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]»اهـ.

(٢) هو ابن قَسِيّ، وقد تقدمت ترجمته، انظر (ص١٢٢).

(٣) الفتاوى (١١/ ٦٠٥ ـ ٦٠٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: بغية المرتاد (ص٣٨٥ ـ ٣٨٦)، المنهاج (٢/ ٣٥٩)، الصفدية (١/ ٢٤٩).

(٤) انظر (ص٤٤٧).



قولهم في رؤية الله

الرؤية لغة: النظر بالعين أو القلب، ومادة نظر ـ هذه الأحرف الثلاثة ـ يدلّ على نظر وإبصار بعين أو بصيرة(١).

والمقصود برؤية الله تعالى: هي رؤيته ﷻ في الآخرة.

وأهل السنة والجماعة مجمعون على إمكان رؤية الله تعالى في الآخرة رؤيةً حقيقيةً، كما قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وصحّت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، كما في حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنهم كانوا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: **(إنكم راؤون ربكم** ﷻ **كما ترون هذا القمر لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلبوا عن صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا)**، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠](٢)(٣).

أمّا ما ذكره شيخ الإسلام من آراء الصوفية في رؤية الله تعالى، فيمكن إجماله فيما يلي:

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٢/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣)، لسان العرب (١٤/ ٢٩١ ـ ٢٩٥، مادة: نظر).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ١/ ٢٠٣/٥٢٩)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما) من حديث: جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) انظر: الفتاوى (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧، ٥/ ٧٩، ٦/ ٤٨٦).

أولاً: يرى بعض المتصوفة أن الله تعالى تمكن رؤيته في الدنيا:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «أما قول القائل:

ما غبتَ عن القلب ولا عن عيني   ما بينكم وبيننا من بَيْنِ[(١)]

فهذا قول مبنيٌّ على قول هؤلاء، وهو باطل متناقض، فإنَّ مبناه على أنه يرى الله بعينه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربَّه حتى يموت)**[(٢)].

وقد اتفق أئمة المسلمين على أن أحداً مِنَ المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصة، مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا.

وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ والصحابة وأئمة المسلمين، ولم يثبت عن ابن عباس رضي الله عنه ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما: أنهم قالوا: إن محمداً ﷺ رأى ربَّه بعينه، بل الثابت عنهم إمَّا إطلاق الرؤية، وإما تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: **(أتاني البارحة ربي في أحسن صورة)** الحديث[(٣)]، الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة..........

---

(١) أورده شيخ الإسلام في ثلاثة مواضع، نسبة في أولها إلى أوحد الدين الكرماني.

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة، والترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في علامة الدجال، ٤/٥٠٨/ ٢٢٣٥) من حديث: ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) الحديث بتمامه: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعاً، فثوّب بالصلاة، فصلى رسولُ الله ﷺ وتجوّز في صلاته، فلمَّا سلم دعا بصوته قال لنا: (على مصافِّكم كما أنتم)، ثم انفتل إلينا، ثم قال: (أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل، فتوضأت وصليت ما قُدِّرَ لي، =

....

= فنعست في صلاتي حتى استثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا محمد! قلت: لبيك ربِّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، قالها ثلاثاً، قال: فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلَّى لي كلُّ شيء وعرفت، فقال: يا محمد! قلت: لبيك ربِّ، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: ما هن؟ قلت: مشي الأقدام إلى الحسنات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء حين الكريهات، قال: فيم؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام، قال: سَلْ! قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنةَ قوم، فتوَّفني غير مفتون، أسألك حبَّك، وحبَّ من يحبك، وحبَّ عمل يقرب إلى حبك، قال رسول الله ﷺ: إنها حقٌّ فادرسوها ثم تعلموها).
الحديث بألفاظ متقاربة عن معاذ بن جبل ﵁: أخرجه الترمذي واللفظ له (٥/ ٣٦٦/ ح٣٢٣٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٣/ ح٢٢١٦٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٠٩/ ح٢١٦، ٢٠/ ١٤١/ ح٢٩٠).
ومن حديث: ابن عباس ﵄: أخرجه عبد بن حميد في مسنده (ص٢٢٨/ ح٦٨٢)، وأبو يعلى (٤/ ٤٧٥/ ح٢٦٠٨)، وأحمد في المسند (٤/ ١٦٦/ ح١٦٦٧٢).
ومن حديث: أبي أمامة ﵁: أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٩٠/ ح٨١١٧)، والروياني في مسنده (٢/ ٢٩٩/ ح١٢٤١).
ومن حديث: عبد الرحمن بن عائش: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٣/ ح٥٩٧)، وأحمد في المسند (٤/ ٦٦/ ح١٦٦٧٢، ٥/ ٣٧٨/ ح٢٣٢٥٨).
ومن حديث: أبي رافع ﵁: أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣١٧/ ح٩٣٨).
ومن حديث: عبد الرحمن بن سابط: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣١٣/ ح٣١٧٠٦).
وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٦) عن حديث عبد الرحمن بن عائش، وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات. اهـ.
وساق الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٨) رواية للحديث عن ابن عمر، وقال: رواه البزار، وفيه سعيد بن سنان وهو ضعيف، وقد وثقه بعضهم، ولم يلتفت إليه في ذلك.
وقال الإمام الترمذي بعد روايته الحديث من رواية معاذ بن جبل: «قال =

في المنام، هكذا جاء مفسَّراً، وكذلك حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس وغيرهما ـ مِمَّا فيه رؤية ربه ـ إنما كان بالمدينة كما جاء مفسراً في الأحاديث والمعراج كان بمكة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

فمن قال: إن أحداً من الناس يراه: فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران ﷺ، ودعواه أعظم من دعوى مَنِ ادَّعى أن الله أنزل عليه كتاباً من السماء.

والناس في رؤية الله على ثلاثة أقوال:

فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين: على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عِياناً، وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه، لكن يرى في المنام ويحصل للقلوب ـ من المكاشفات والمشاهدات ـ ما يناسب حالها. ومن الناس مَنْ تقوى مشاهدةُ قلبه؛ حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه وهو غالط، ومشاهدات القلوب تحصل بحسب إيمان العبد ومعرفته في صورة مثالية، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

= أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل [يعني البخاري] عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال: هذا أصح من حديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي، وهذا غير محفوظ، وعبد الرحمن بن عائش لم يسمع من النبي ﷺ. اهـ (سنن الترمذي ٥/ ٣٦٩/ ح٣٢٣٥)، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/ ٧٢/ح٥٩).

والقول الثاني: قول نُفاةِ الجهمية: أنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة.

والثالث: قول مَنْ يزعم أنه يُرى في الدنيا والآخرة، وحلولية الجهمية يجمعون بين النفي والإثبات؛ فيقولون: إنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، وأنه يُرى في الدنيا والآخرة، وهذا قول ابن عربي ـ صاحب (الفصوص) ـ وأمثاله؛ لأن الوجود المطلق الساري في الكائنات لا يُرى، وهو وجود الحق عندهم[١].

ثم من أثبت الذات، قال: يُرى متجلِّياً فيها.

ومن فرَّق بين المطلق والمعين، قال: لا يُرى إلا مقيَّداً بصورة.

وهؤلاء قولهم دائرٌ بين أمرين:

إنكار رؤية الله وإثبات رؤية المخلوقات؛ يجعلون المخلوقَ هو الخالقَ، أو يجعلون الخالق حالّاً في المخلوق، وإلا فتفريقهم بين الأعيان الثابتة في الخارج وبين وجودها: هو قول من يقول بأن المعدوم شيءٌ في الخارج، وهو قول باطل.

وقد ضَمّوا إليه أنهم جعلوا نفسَ وجود المخلوق هو وجود الخالق، وأما التفريق بين المطلق والمعين ـ مع أن المطلق لا يكون هو في الخارج مطلقاً ـ فيقتضي أن يكون الربُّ معدوماً، وهذا هو جحود الرب وتعطيله[٢]»اهـ[٣].

---

(١) هذا حقيقة مذهب ابن عربي، فهو لمَّا قال: إن الله تعالى قد حلّ في المخلوقات وظهر فيها، صار يُرى ـ سبحانه ـ في كل شيء؛ لأن كل شيء فهو الله.
انظر: الفتوحات المكية (١/ ٦٩٤، ٢/ ١٦٠)، فصوص الحكم (ص٨٤).

(٢) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في حقيقة الذات الإلهية ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص٣٨١).

(٣) الفتاوى (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في جوابٍ له لَمَّا «**سُئل** عن أقوام يدّعون أنهم يروْن الله بأبصارهم في الدنيا، وأنهم يحصل لهم بغير سؤال ما حصل لموسى بالسؤال!.

فأجاب: أجمع سلفُ الأمة وأئمتُها على أن المؤمنين يروْن اللهَ بأبصارهم في الآخرة، وأجمعوا على أنهم لا يروْنه في الدنيا بأبصارهم، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ، وثبت عنه في الصحيح أنه قال: **(واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت)**[١].

ومَنْ قال مِنَ الناس: إن الأولياء أو غيرَهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضالٌّ، مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، لا سيما إذا ادعوا أنهم أفضل من موسى، فإن هؤلاء يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، والله أعلم»اهـ[٢].

إلا أن شيخ الإسلام نقل عن أبي عبد الله بن خفيف قوله: إن القول بإمكان رؤية الله تعالى في الدنيا، ليس قول الصوفية عامة، وإنما هو قول أهل الغباوة منهم:

قال الشيخ حاكياً كلامَ ابن خفيف: «وقال الإمام أبو عبد الله بن خفيف في كتابه الذي سماه: (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات): . . واعلم أني ذكرتُ اعتقادَ أهل السنة على ظاهر ما ورد عن الصحابة والتابعين مجملاً من غير استقصاء؛ إذ تقدم القولُ من مشايخنا المعروفين؛ من أهل الإبانة والديانة، إلا أني أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثته طائفة نُسِبوا إليهم ما قد تخرَّصوا من القول، بما نزَّه اللهُ تعالى المذهب وأهله من ذلك. . .

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٦٦٥).

(٢) الفتاوى (٦/ ٥١٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: بغية المرتاد (ص٣٨٥)، شرح حديث النزول (ص٣٥٠).

إلى أن قال: وقرأت لمحمد بن جرير الطبري[١] في كتاب سماه: (التبصير)، كَتَب بذلك إلى أهل طَبَرِستان[٢] في اختلافٍ عندهم، وسألوه أن يصنف لهم ما يعتقده ويذهب إليه، فذكر في كتابه اختلافَ القائلين برؤية الله تعالى، فذكر عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة، ونسب هذه المقالة إلى (الصوفية) قاطبةً[٣] لم يخصَّ طائفةً، فبين أن ذلك على

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري، من أهل طبرستان، الإمام الكبير المفسر النحرير، ولد سنة ٢٢٤هـ، وبرع في علوم شتى، قال فيه الذهبي: «كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وتصانيفَ، قلّ أن ترى العيون مثله»اهـ، وقال فيه أيضاً: «وكان ابن جرير من رجال الكمال، وشُنِّع عليه يسيرُ تشيع، وما رأينا إلا الخير»اهـ، من تصانيفه: جامع البيان في تفسير القرآن، والتاريخ، توفي سنة ٣١٠هـ.

انظر: سير الأعلام (١٤/ ٢٧٦)، شذرات الذهب (٢/ ٢٦٠)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٧١٠)، وفيات الأعيان (٤/ ١٩١).

(٢) طَبَرِستان: بفتح الطاء والباء وكسر الراء، وهي كلمة فارسية مكونة في الأصل من شقين: «طبر» وهو ما تشقق به الأخشاب، و«استان» وهو الموضع أو الناحية، فيكون المعنى: موضع الطبر، وهي بلاد واسعة تقع الآن جنوب ما كان يُسمَّى بالاتحاد السوفييتي (سابقاً) وشرق إيران تقريباً.

انظر: معجم البلدان لياقوت (٤/ ١٣ ـ ١٦)، مراصد الإطلاع للبغدادي (٢/ ٨٧٨)، صورة الأرض لابن حوقل (ص٣٢٣ ـ ٣٢٦، ط. دار الحياة، بيروت).

(٣) قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: التبصير في معرض كلامه عن رؤية الله تعالى: «وقال جماعة المتصوفة، ومن ذُكر ذلك عنه؛ مثل بكر ابن أُخت عبد الواحد: الله عَزَّ وَجَلَّ يُرى في الدنيا والآخرة، وزعموا أنهم قد رأوه، وأنهم يرونه كلما شاؤوا، إلا أنهم زعموا أنه يراه أولياؤه دون أعدائه، ومنهم من يقول: يراه الوليُّ والعدو في الدنيا والآخرة، إلا أن الوليّ يُثبته إذا رآه؛ لأنه يتراءى في صورة إذا رآه بها عرفه، وأن العدو لا يثبته إذا رآه»اهـ (التبصير في معالم الدين، لأبي جعفر الطبري، ص٢١٦ ـ ٢١٩).

جَهالةٍ منه بأقوال المخلصين منهم، وكان من نسب إليه ذلك القول ـ بعد أن ادعى على الطائفة ـ ابن أخت عبد الواحد بن زيد[1]، والله أعلم محله عند المخلصين، فكيف بابن أخته؟! وليس إذا أحدث الزائغُ في نحلتِه قولاً نُسِب إلى الجملة[2]، كذلك في الفقهاء والمحدثين ليس من أحدث قولاً في الفقه، وليس فيه حديث يناسب ذلك ينسب ذلك إلى جملة الفقهاء والمحدثين.

---

(١) هو بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد.
ذكره ابن حزم في الملل والنحل في جملة الخوارج، وقال: «كان يقول في كل ذنب ـ ولو صَغُر حتى الكذبة الخفيفة على سبيل المزاح بفاعله ـ: كافر مشرك بالله من أهل النار، إلا إن كان من أهل بدر، فهو كافر مشرك من أهل الجنة! وكان تلميذه عبد الله بن عيسى يقول: إن المجانين والأطفال والبهائم لا يألمون البتة بشيء نزل بهم من العلل وغيرها؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة»اهـ.
وقال البغدادي: «وأما البكرية، فأتباع بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد، وكان يوافق النظَّام في دعواه أن الإنسان هو الروح دون الجسد الذي فيه الروح.. وانفرد بضلالات أكفرته الأمةُ فيها؛ منها: قوله بأن الله تعالى يُرى في القيامة في صورة يخلقها، وأنه يكلم عباده من تلك الصورة، ومنها أنه أبدع في الفقه تحريم أكل الثوم والبصل، وأوجب الوضوء من قرقرة البطن، ولا اعتبار عند أهل السنة بخلاف أهل الأهواء في الفقه»اهـ.
انظر: الفرق بين الفرق (ص٢٠٠)، الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٣/ ١٢٨، ٤/ ١٤٦)، لسان الميزان (٢/ ٦٠).

(٢) عبد الواحد بن زيد خالف السلف في بعض مسائل الاعتقاد؛ من ذلك ما ذكر أبو الحسن الأشعري: «أن أصحاب عبد الواحد بن زيد كانوا يقولون: إن الله يُرى على قدر الأعمال، فمن كان عملُه أفضلَ رآه أحسنَ!»اهـ، وقال في موضع آخر: «وحكى زرقان عن عبد الواحد بن زيد أنه كان يقول: إنه غير مأمور بالإخلاص. وحكى بعض أصحابه عنه أنه كان ينكر الأمر بما قد حيل بينه وبينه»اهـ. وهذا الكلام مُحدَثٌ، ليس عليه دليل من الكتاب ولا من السنة، ولم يُعرف به قائل من السلف.
انظر: مقالات الإسلاميين (ص٢١٣، ٢٨٦)، شفاء العليل لابن القيم (ص٨٨).

واعلم أن لفظ (الصوفية) وعلومَهم تختلف؛ فيطلقون ألفاظهم على موضوعات لهم، ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم، فمن لم يداخلهم على التحقيق، ونازلَ ما هم عليه؛ رجع عنهم وهو خاسئ وحسير.

ثم ذكر[(١)] إطلاقهم لفظ الرؤية بالتقييد، فقال: كثيراً ما يقولون: رأيتُ الله يقول. وذكر عن جعفر بن محمد[(٢)] قولَه لَمَّا سُئِلَ: هل رأيتَ اللهَ حين عبدتَّه؟

قال: رأيتُ اللهَ ثم عبدته.

فقال السائل: كيف رأيتَه؟

فقال: لم ترَه الأبصارُ بتحديدِ الأعيان، ولكن رؤية القلوب بتحقيق الإيقان.

ثم قال[(٣)]: وأنه تعالى يُرى في الآخرة كما أخبر في كتابه، وذكره رسوله ﷺ، هذا قولُنا وقولُ أئمتنا، دون الجُهَّال من أهل الغباوة فينا»اهـ[(٤)].

ونقل الشيخ في موضع آخر حكاية أبي عبد الله بن خفيف لمذهب معتدلي الصوفية في رؤية الله، وأنهم يثبتون رؤية الله تعالى على مذهب السلف:

---

(١) يعني شيخُ الإسلام الإمامَ أبا عبد الله بن خفيف.

(٢) جعفر بن محمد اسم لعدة أشخاص، والذي يظهر أن المراد به هنا: شيخ الصوفية جعفر بن محمد بن نصير بن قاسم الخواص البغدادي، صحب الجنيد وغيره، قال البغدادي وابن كثير: «كان ثقة صادقاً فاضلاً»اهـ.
انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٢٢٦)، الحلية (١٠/ ٣٨١)، سير الأعلام (١٥/ ٥٥٨)، طبقات الصوفية للسلمي (ص٤٥٤)، طبقات الأولياء لابن الملقن (ص٧٠)، البداية والنهاية (١١/ ٢٣٤).

(٣) لا يزال الكلام لابن خفيف رحمه الله.

(٤) الفتاوى (٥/ ٧١، ٧٨ ـ ٧٩).

قال الشيخ ناقلاً عن ابن خفيف: «قال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات): . . قولنا وقول أئمتنا فيما نعتقد: أن الله يُرَى في القيامة، وذَكَرَ الحجة»اهـ[1].

ثانياً: بيَّن الشيخ أن الذي جرّ بعض الصوفية إلى القول بإمكان رؤية الله تعالى في الدنيا مبالغةُ بعضهم في ترقيق القلب، حتى يصل إلى حدّ يظن فيه بأنه يرى الله تعالى:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكثير من هؤلاء العُبَّاد الذي يشهد قلبُه الصورة المثالية، ويفنى فيما شهده يظن أنه رأى الله بعينه؛ لأنه لَمَّا استولى على قلبه سلطانُ الشهود ولم يبق له عقلٌ يميز به، والمُشاهِد للأمور هو القلب، لكن تارةً شاهدها بواسطة الحس الظاهر، وتارة بنفسه، فلا يبقى أيضاً يُمَيز بين الشهودين، فإن غاب عن الفرق بين الشهودين ظنَّ أنه رآه بعينه، وإن غاب عن الفرق بين الشاهد والمشهود ظنَّ أنه هو، كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: ليس في الجُبَّة إلا الله[2]، وكما قال الآخر: غبتُ بكَ عني، فظننت أنكَ أنِّي! وكان المحبوب قد ألقى نفسَه في الماء فألقى المحبُّ نفسَه خلفَه، وهذا كله من قوة شهودِ القلبِ وضعفِ العقل بمنزلة ما يراه النائمُ، فإنه ـ لغيبةِ عقلِه بالنوم ـ يظن أن ما يراه هو بعينه الظاهرة، وما يسمعه يسمعه بأذنه الظاهرة، وما يتكلم به يتكلم به بلسانه بالحس الظاهر، وعينُه مغمضةٌ ولسانُه ساكتٌ، وقد يقوى تصوُّرُه الخيالي في النوم، حتى يتصل بالحس الظاهر، فيبقى النائم يقرأُ بلسانه، ويتكلم بلسانه تبعاً لخياله، ومع هذا فعقله غائبٌ لا يشعر بذلك،

---

(١) الفتاوى (٥/ ٧١، ٧٦).

(٢) تقدم سياق موقف الشيخ من العبارات الموهمة التي يطلقها المتصوفة، في مبحث خاص (ص١٧٢).

كما يحصل مثلُ ذلك للسكران والمجنون وغيرهما، ولهذا جاءت الشريعة بأن القلم مرفوعٌ عن النائم والمجنون المغمى عليه، ولم يختلفوا إلا فيمن زال عقله بسبب محرَّم»اهـ[١].

وقال شيخ الإسلام ـ أيضاً ـ: «وكذلك كل مَنِ ادَّعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت، فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة؛ لأنهم اتفقوا جميعُهم على أن أحداً من المؤمنين لا يرى ربه بعينيْ رأسه حتى يموت، وثبت ذلك في (صحيح مسلم) عن النواس بن سمعان ﵁ عن النبي ﷺ أنه لمَّا ذُكِرَ الدجال قال: (**واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت**)[٢]، وكذلك رُوِي هذا عن النبي ﷺ من وجوه أُخَرَ، يحذر أمتَه فتنةَ الدجال، وبيَّن لهم أن أحداً منهم لن يرى ربَّه حتى يموت، فلا يظنَّنَّ أحدٌ أن هذا الدجالَ الذي رآه هو ربُّه.

ولكن الذي يقع لأهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله، ويقين القلوب ومشاهدتها وتجلياتها هو على مراتبَ كثيرةٍ، قال النبي ﷺ لمَّا سأله جبريل ﵇ عن الإحسان، قال: (**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)[٣].

وقد يرى المؤمن ربَّه في المنام في صور متنوعة، على قدر إيمانه ويقينه، فإذا كان إيمانُه صحيحاً لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقصٌ رأى ما يشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل؛ لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق،

---

(١) الفتاوى (٥/٢٥٣ ـ ٢٥٤).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٦٦٥).

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام، ١/٢٧/ ٥٠)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/٣٦/٨) من حديث: أبي هريرة ﵁.

وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة أيضاً من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائمُ، وقد يتجلَّى له من الحقائق ما يشهده بقلبه، فهذا كله يقع في الدنيا، وربما غلَّب أحدُهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه، فيظن أنه رأى ذلك بعينيْ رأسِه، حتى يستيقظ فيعلم أنه منام، وربما علِمَ في المنام أنه منام.

فكذا من العُبَّاد من يحصل له مشاهدةٌ قلبيةٌ تغلب عليه حتى تفنِيَه عن الشعور بحواسه، فيظنها رؤيةً بعينه، وهو غالط في ذلك.

وكلُّ مَنْ قال مِنَ العُبّاد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه؛ فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان. نَعَم، رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة، وهي أيضاً للناس في عَرَصَات القيامة، كما تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ.

حيث قال: **(إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر صَحْواً ليس دونه سحاب)**[1].

وقال ﷺ: **(جنات الفردوس أربع: جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن)**[2].

وقال ﷺ: **(إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه! فيقولون: ما هو؟ ألم يبيِّضْ وجوهنا؟ ويثقِّلْ موازيننا؟ ويدخلنا الجنة؟ ويجرنا من النار؟ فيكشف**

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه (ص٦٦٤).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، ٤/ ١٨٤٨/ ٤٥٩٧)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه، ١/ ١٦٣/ ١٨٠) من حديث: عبد الله بن قيس رضي الله عنه.

الحجابَ فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم مِنَ النظر إليه، وهي الزيادة)(١).

وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح، وقد تلقَّاها السلف والأئمة بالقَبول، واتفق عليها أهلُ السنة والجماعة، وإنما يُكَذب بها أو يحرفُها: الجهمية، ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم، الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة.

ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسوله ﷺ في الآخرة، وبين تصديق الغالية بأنه يرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطل.

وهؤلاء الذين يزعُم أحدهم أنه يراه بعينيْ رأسه في الدنيا هم ضُلّال ـ كما تقدم ـ فإن ضَمُّوا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص: إما بعض الصالحين، أو بعض المردان، أو بعض الملوك، أو غيرهم، عظُم ضلالُهم وكفرُهم، وكانوا حينئذٍ أضلَّ من النصارى الذين يزعُمون أنهم رأوه في صورة عيسى بن مريم.

بل هم أضلّ من أتباع الدجال الذي يكون في آخر الزمان، ويقول للناس: أنا ربكم، ويأمر السماءَ فتمطر! والأرضَ فتنبت! ويقول للخرِبة: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزُها!(٢).

---

(١) الحديث: رواه الترمذي (كتاب صفة الجنة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رؤية الله، ٤/ ٦٨٧/ ٢٥٥٢)، وابن ماجه ١/ ٦٧/ ١٨٧)، وابن حبان (كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب وصف الجنة وأهلها، ١٦/ ٤٧١/ ٧٤٤١) من حديث: صهيب الرومي رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/ ٢٠٢/ ح٥٣٥).

(٢) الحديث: عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: (ما شأنكم؟) قلنا: يا رسول الله! ذكرت الدجال غداة، فخفضت =

وهذا هو الذي حذَّر منه النبي ﷺ أمتَه، وقال: **(ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر مِنَ الدجال)**[١].

وقال: **(إذا جلس أحدكم في الصلاة، فليستعذ بالله من أربع، ليقل: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال)**[٢].

فهذا ادّعى الربوبية، وأتى بشُبُهات فتن بها الخلق؛ حتى قال فيه النبي ﷺ: **(إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت)**[٣]. فذكر لهم علامَتين ظاهرتين يعرفهما جميعُ الناس، لِعلْمه ﷺ بأن مِنَ الناس من يَضِلُّ، فَيُجَوِّز أن يُرى ربُّه في الدنيا في صورة البشر ـ كهؤلاء الضُّلَّال الذين يعتقدون ذلك ـ وهؤلاء قد

= فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل! فقال: (غير الدجال أخوفني عليكم؟ إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم..) الحديث. وفيه:
(فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطولَ ما كانت ذُراً وأسبغه ضروعاً وأمده خواصِرَ، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك! فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل..) الحديث.
رواه مسلم واللفظ له (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفة ما معه، ٤/ ٢٢٥٠/ ٢٩٣٧)، والترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فتنة الدجال، ٤/ ٥١٠/ ٢٢٤٠).

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقيةٍ من أحاديث الدجال، ٤/ ٢٢٦٦/ ٢٩٤٦)، والحاكم (كتاب الفتن والملاحم، ٤/ ٥٧٣/ ٨٦١٠) من حديث: هشام بن عامر رضي الله عنه.

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٦٠٤).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٦٦٥).

يسمَّوْنَ: الحلوليةَ والاتحاديةَ، وهم صنفان[(١)]»اهـ[(٢)].

وطوائف من المتصوفة وافقوا السلف في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة:

وقد بيَّن الشيخ ذلك في معرض كلامه عن موقف بعض أهل البدع من الجنة ونعيمها، وذكر الضرب الأول من أهل البدع، وهم: المعتزلة والجهمية، ثم قال: «والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة والمتفقِّرة والمتبتِّلة: وافقوا هؤلاء على أن الجنةَ ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعُّم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك، وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمُو إليه همتهم، ويخافون فوْتَه، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك، وأمثال هذه الكلمات، مقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، لكن غلِطوا في إخراج ذلك من الجنة»اهـ[(٣)].

ثالثاً: ونقل الشيخ ـ أيضاً ـ عن شيخ الصوفية في عصره: معمر بن أحمد قوله في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة رؤيةً حقيقيةً:

فقال شيخ الإسلام: «وقال الشيخ العارف معمر بن أحمد ـ شيخ الصوفية في هذا العصر ـ: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وأجمع ما كان عليه أهلُ الحديث وأهلُ المعرفة والتصوف، من

---

(١) تقدم الكلام ـ مفصلاً ـ عن مذهب الحلولية والاتحادية، وذكر أصنافهم، في مبحث خاص (ص٤٠٥).

(٢) الفتاوى (٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المنهاج (٢/ ٦٢٥، ٥/ ٣٨٣) شرح حديث النزول (ص٣٥٠).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٦٩٨ ـ ٦٩٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستقامة (٢/ ١٠٤).

المتقدمين والمتأخرين - فذكر أشياء من الوصية إلى أن قال فيها -: . . وأنه ﷻ سميعٌ بصيرٌ عليمٌ خبيرٌ، يتكلمُ ويرضى ويسخط، ويضحك ويعجب، ويتجلّى لعباده يوم القيامة ضاحكاً»اهـ[1].

رابعاً: نبَّه الشيخ أن بعض المتصوفة وإن قالوا برؤية الله تعالى في الآخرة، إلا أنهم يخالفون أهلَ السنة في حقيقة هذه الرؤية، فهم يقولون: إن معنى رؤية الله في الآخرة هو زيادةُ العلم:

قال الشيخ: «والمنكرون لرؤيته من الجهمية والمعتزلة تنكر هذه اللذة، وقد يفسرها من يتأوَّل الرؤيةَ بمزيد العلم، على لذة العلم به كاللذة التي في الدنيا بذِكْره، لكن تلك أكملُ، وهذا قول متصوفة الفلاسفة والنُّفاة، كالفارابي وكأبي حامد وأمثاله؛ فإن ما في كتبه من (الإحياء) وغيره من لذة النظر إلى وجهه هو بهذا المعنى[2]، والفلاسفة تثبت اللذة العقلية، وأبو نصر الفارابي وأمثاله من المتفلسفة يثبت الرؤية لله ويفسرها بهذا المعنى، وهذه اللذة أيضاً ثابتة بعد الموت، لكنهم مقصِّرون في تحقيقها وإثبات غيرها من لذات الآخرة، كما هو مبسوط في موضعه»اهـ[3].

ونخلص مما سبق إلى أن رؤية الله تعالى في الآخرة أمر ثابت بالكتاب والسنة، ولا يتضمن إثباتَ هذه الرؤية أيَّ نقصٍ أو قَدْحٍ في

---

(١) الفتاوى (٥/ ١٩١).

(٢) قال الغزالي في الإحياء (٤/ ٢٧٠، ط. دار النور): «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا: أما بعد: فإنّ المحبة لله هي الغاية القصوى. . ونحن نذكر في هذا الكتاب: . . ثم بيان أنّ أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوّية لحب الله تعالى»اهـ.

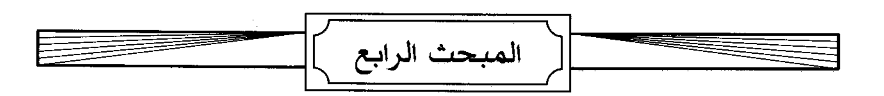
(٣) المنهاج (٥/ ٣٩٠ - ٣٩١).

الباري جل جلاله، بل هو سبحانه يراه المؤمنون يوم القيامة على الوجه اللائق به سبحانه.

أما المتصوفة؛ ففريق منهم توسعوا في إثبات الرؤية حتى قالوا بإمكانها في الدنيا، وفريق آخر منهم أنكروها في الدنيا والآخرة.

وقد بيَّن شيخ الإسلام هذين الفريقين، وردَّ عليهما وبيَّن الحق في ذلك.





المبحث الرابع

موقفهم من بقية الصفات (العلم، المحبة...)

تقدم في المباحث الثلاثة السابقة ذكرُ المعالم العامَّة للصوفية في باب الأسماء والصفات، وفي هذا المبحث سوف أتناول صفاتِ الله ﷻ التي خصَّها شيخ الإسلام بمزيد عناية وتفصيل عند كلامه عن مذهب الصوفية في صفات الله تعالى.

ويمكن بيان هذه الصفات فيما يلي:

الصفة الأولى: المحبة:

أولاً: بيَّن الشيخ أن عامَّة الصوفية يقولون: إن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ:

فقال: «والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وجميع مشايخ الطريق أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ، ولهذا وافقهم على ذلك مَنْ تصوَّف من أهل الكلام؛ كأبي القاسم القشيري وأبي حامد الغزالي وأمثالهما، ونصَر ذلك أبو حامد في (الإحياء) وغيره[1]، وكذلك

---

(١) قال الغزالي في الإحياء (٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، ط. دار النور): «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا: أما بعد: فإنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقامٌ إلا وهو ثمرةٌ من ثمارها وتابعٌ من توابعها؛ كالشوق والأُنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقامٌ إلا وهو مقدّمة من مقدماتها؛ كالتوبة والصبر والزهد وغيرها، وسائر المقامات إن عزّ وجودُها، فلم تخْلُ القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى، فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا =

أبو القاسم ذكر ذلك في (الرسالة)[1] على طريق الصوفية كما في كتاب

= مع الجنس والمثال. ولمَّا أنكروا المحبةَ أنكروا الأُنس والشوق ولَذَّةَ المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه. ولا بدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر.

ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحقَّ للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أنّ أعظمَ اللذات لذةُ النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوّية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أنّ الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه، وكذا الفرار من المعاصي، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب»اهـ.

(١) قال القشيري في الرسالة: «المحبة حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه»، ثم قال في بيان معنى المحبة: «وعبارات الناس في المحبة كثيرة. . ، سئل الجنيد عن المحبة، فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، أشار بهذا إلى استيلاء ذكر المحبوب، حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا صفات المحبوب، والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها.

ويقول دلف الشبلي: المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك.

قيل لنصر آباذي: ليس لك من المحبة شيء! فقال: صدقوا ولكن لي حسراتهم، فها أنا أحترق فيه.

ويقول السري السقطي: لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا!.

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي: سكِرت من كثرة ما شربت من كأس محبته! فكتب إليه أبو يزيد: لقد شرب غيرك بحور السماوات والأرض وما روي بعد! ويقول: هل من مزيد؟!.

وقيل: المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي =

أبي طالب المكي المسمى بِ «قوت القلوب»[(١)].

وأبو حامد ـ مع كونه تابعاً في ذلك الصوفية ـ استند في ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك حيث قالوا: يَعْشَق ويُعْشَق.

وقد بسطت الكلام على هذه المسألة العظيمة في القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه.

وقد قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]»اهـ[(٢)].

ونقل الشيخ عن أبي عبد الله بن خفيف إنكار صالحي الصوفية إطلاقَ لفظ «العشق» على الله تعالى، فقال: «قال الإمام أبو عبد الله بن خفيف: . . وإن مِمَّا نعتقده تركَ إطلاق تسمية (العشق) على الله تعالى، وبيّن أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه ولعدم ورود الشرع به، وقال: أدنى ما فيه أنه بدعة وضلالة، وفيما نص الله من ذكر المحبة كفاية»اهـ[(٣)].

ثانياً: إلا أن شيخ الإسلام بيَّن خطأ كثير من المتصوفة في معنى المحبة، ومن ذلك:

انحراف بعض الصوفية عن معنى المحبة الشرعية إلى الغَيْرة المذمومة:

قال الشيخ: «وكما ذَكَرَ[(٤)] في باب المحبة فقال: . . سمعت

= يحصل عند الشهود لا يوصف»اهـ باختصار يسير، من الرسالة القشيرية (ص٣١٧ ـ ٣٢٦، ط. دار الخير).

(١) قوت القلوب (٢/ ٨٣ وما بعدها، ط. باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت). وانظر: الفتوحات المكية ـ لابن عربي (٢/ ١٨٩).

(٢) الاستقامة (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٦٩٧).

(٣) الفتاوى (٥/ ٨٠).

(٤) يعني أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في الرسالة القشيرية (ص٣٢٢، ط. دار الخير).

الشبلي يقول: (المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبَّه مثلك)!!.

وهذا أيضاً وجهٌ فاسد جداً؛ وهو جهل بالله وبما يستحقه، وتشبيه له بالمحبوب من البشر، وظنٌّ من هذا القائل أنه إذا رأى الله حصل بذلك نقصٌ في حق الله أو ضرر عليه، فإن الإنسان إنما يغار على محبوبه مما فيه عليه ضرر أو على المحب فيه ضرر، فيغار من الشركة لما فيه من الضرر، وقد يغار عليه من نفسه لاستشعاره به أن ذلك نقصٌ؛ وذلك كله محال في حق الله.

ومن قال هذا قد يقول: أغار عليه من أن أحبه، ومثلي لا يصلح أن يعبده، وإنما أعبد من يعبده، ونحو ذلك ممَّا زيَّنه الشيطان للمشركين أهل الضلال، وذلك أنهم قد يُدخلون في غيرة الله منعَه لمواهبه وعطاياه من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتقرَّبوا إليه بأصناف القُرُبات، كما قد يمنع السيدُ والمحبوبُ عبيدَه ومحبيه ما يستحقونه، وهذا أيضاً جهل بالله وتكذيبٌ بوعده وتجويرٌ له وتزكية لنفوسهم، وهو باطل.

وفي الجملة: فالغَيْرة المحمودة: إمَّا ترك ما نهى الله عنه، أو ترك ما لم يأمر الله به ولا أوجَبَه، ومن لم يكن فيه أحد الحالين، فهو ممن فسق عن أمر ربه، والثانية: حال الكُمَّل الصادقين. فأما الغيرة على ما لم يحرمه، أو على ما أباحه الله لعباده أن يفعلوه، وهو لا يكرهه ولا يسخطه، فهو مذموم كله، كما تقدم.

فهذه الغيرة الاصطلاحية: مَن مدحها مطلقاً فقد أخطأ، ومن ذمَّها مطلقاً فقد أخطأ، والصواب: أن يُحمَدَ منها ما حمِده اللهُ ورسولُه، ويُذمَّ منها ما ذمه اللهُ ورسولُه، وهذا يقع كثيراً للسالكين في هذا الخُلُقِ وغيره؛ فإنه يلبس الحق بالباطل، ولهذا السبب ينكر كثير مِنَ الناس مثل هذا الطريق لِمَا فيه من لبس الحق بالباطل، والآخرون يعظمونه لِمَا فيه من

الحق، والصواب: الفرقان ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»اهـ[1].

ثالثاً: أما مذهب أهل وحدة الوجود في محبة الله تعالى لعباده ومحبة العباد لربهم ﷻ، فقد بيّن شيخ الإسلام أنهم ينفون المحبة مطلقاً؛ لأنه ما ثَمَّ مُحِبٌّ ولا مُحَبٌّ:

قال الشيخ رحمه الله في معرض رده على الاتحادية: «وكذلك قول القائل: وجدت المحبة غير المقصودة؛ لأنها لا تكون إلا من غَيْرٍ لِغَيْرٍ، وغَيْرٌ ما ثَمَّ، ووجدت التوحيد غير المقصود؛ لأن التوحيد ما يكون إلا من عبدٍ لربٍّ، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبوداً[2]، هو كلام فيه من الكفر والإلحاد والتناقض ما لا يخفى؛ فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين: أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له:

كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **(ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهن**

---

(١) الاستقامة (٢/ ٦٣ ـ ٦٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستقامة (٢/ ١٤، ٢٧).

(٢) هذا من كلام ابن عربي، وقد ذكر مثلَ هذا الضلال وأعظمَ منه في الفصوص (ص٣٦٨ وما بعدها، ط. غراب).

حلاوةَ الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومَنْ كان يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، ومَنْ كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار)[1].

وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام . . .

وقوله: (المحبة ما تكون إلا من غَيْرٍ لِغَيْرٍ وغَيْرٌ ما ثَمَّ)، كلامٌ باطلٌ من كل وجه؛ فإن قوله: لا تكون إلا مِنْ غَيْرٍ، ليس بصحيح؛ فإن الإنسان يحب نفسه وليس غَيراً لنفسه، والله يحب نفسه.

وقوله: (ما ثَمَّ غَيْر) باطل؛ فإن المخلوقَ غَيرُ الخالق، والمؤمنون غَير الله وهم يحبونه، فالدعوى باطلة؛ فكل واحدة من مقدمَتَي الحجة باطلة ـ قوله: لا تكون إلا من غير لغير، وقوله: غيرٌ ما ثَمَّ ـ فإن الغير موجود، والمحبة تكون من المحب لنفسه، ولهذا كثير من الاتحادية يناقضه في هذا القول ويقول كما قال ابن الفارض»اهـ[2].

رابعاً: وذكر الشيخ في موضع آخر أن جمهور المتصوفة أثبتوا محبة العبد لله تعالى، ولكن لم يخلُ ذلك من خلل عند أكثرهم:

قال الشيخ رحمه الله: «وأما الصوفية، فهم يثبتون المحبة، بل هذا أظهر عندهم من جميع الأمور، وأصل طريقتهم إنما هي الإرادة والمحبة.

وإثبات محبة الله مشهورٌ في كلام أوَّليهم وآخِرِيهم؛ كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف.. والنفوس قد تدَّعي محبة الله

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ١/ ١٤/ ١٦)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتصف بهن وجد بهن حلاوة الإيمان، ١/ ٦٦/ ٤٣) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥).

وتكون في نفس الأمر مَحَبَّةَ شرك تحب ما تهواه، وقد أشركته في الحب مع الله، وقد يخفى الهوى على النفس؛ فإن حبك الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ.

وهكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله وفي نفسه شرك قد خفي عليه، وهو يعمله: إما لحبِّ رياسة، وإما لحبِّ مال، وإما لحبِّ صورة، ولهذا قالوا: يا رسول الله! الرجل يقاتل شجاعةً، وحميةً، ورياءً، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: **(من قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله)**[1]. فلما صار كثير من الصوفية النُّسَّاك المتأخرين يدَّعون المحبة ولم يزِنُوها بميزان العلم والكتاب والسنة؛ دخل فيها نوعٌ مِنَ الشرك واتباع الأهواء، والله تعالى قد جعل محبَّته موجبةً لاتباع رسوله، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذا لأن الرسول ﷺ هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله، وليس شيءٌ يحبه اللهُ إلا والرسولُ يدعو إليه، وليس شيءٌ يدعو إليه الرسولُ إلا واللهُ يحبه، فصار محبوبُ الرب ومدعوُّ الرسولِ متلازمين، بل هذا هو هذا في ذاته وإن تنوعت الصفاتُ، فكل مَنِ ادَّعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب؛ ليست محبتُه لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتَّبِعُ ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبةَ الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحبَّ، فكانوا يتبعون الرسول، فلمَّا أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبَّه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين»اهـ[2].

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ٦/ ٢٧١٤/ ٧٠٢٠)، ومسلم (كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ٣/ ١٥١٣/ ١٩٠٤) من حديث: أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) الفتاوى (٨/ ٣٥٧ ـ ٣٦٠).

خامساً: ثم بين الشيخ أن حقيقة محبة الله تعالى عند بعض الصوفية هي محبةُ كلِّ ما خلق الله من خير وشرّ، وعدم التفريق بين محبوب الرب تعالى ومبغوضه، وأن هذا قادهم إلى إسقاط التكاليف، وعدم لوم العُصاة، وغير ذلك من البدع:

قال الشيخ في معرض كلامه عن المتصوفة: «هؤلاء سلكوا طريقَ الإرادة والمحبة مجملاً من غير اعتصام بالكتاب والسنة، كما سلك أهل الكلام والرأي طريقَ النظر والبحث من غير اعتصام بالكتاب والسنة، فوقع هؤلاء في ضلالاتٍ وهؤلاء في ضلالاتٍ.

كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وقال: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: ١٠٨].

ومثل هذا كثير في القرآن، وقد بسط الكلام على هذا الأصل في غير هذا الموضع.

فإن قيل: صاحب الفناء في توحيد الربوبية قد شهد أن الرب خلق كلَّ شيء، وقد يكون ممن يثبت الحكمة، فيقول: إنما خلق المخلوقات للحكمة، وهو يحب تلك الحكمة ويرضاها وإنما خلق ما يكرهه لما يحبه.

والذين فرَّقوا بين المحبة والإرادة قالوا: المريض يريد الدواء ولا

يحبه، وإنما يحب ما يحصل به، وهو العافية وزوال المرض.

فالرب تعالى خلق الأشياء كلَّها بمشيئته؛ فهو مريدٌ لكلِّ ما خلق ولِمَا أحبه من الحكمة؛ وإن كان لا يحب بعض المخلوقات من الأعيان والأفعال، لكنه يحب الحكمة التي خلق لأجلها، فالعارف إذا شهد هذا أحبَّ أيضاً أن يخلق لتلك الحكمة وتكون الأشياء مرادةً محبوبةً له كما هي للحق، فهو وإن كره الكفر والفسوق والعصيان، لكن ما خلقه الله منه خلقَه لحكمة وإرادة؛ فهو مرادٌ محبوبٌ باعتبار غايته، لا باعتباره في نفسه.

قيل: من شَهِد هذا المشهد فهو يستحسن ما حسنه الله وأحبه ورضِيَهُ، ويستقبح ما كرهه الله وسخطه، ولكن إذا كان الله خلق هذا المكروه لحكمة يحبها؛ فالعارف هو أيضاً يكرهه ويبغضه كما كرهه الله، ولكن يحب الحكمة التي خلق لأجلها، فيكون حبُّه وعلمُه موافقاً لعلم الله وحبِّه، لا مخالفاً.

والله عليم حكيم؛ فهو يعلم الأشياء على ما هي عليه، وهو حكيم فيما يحبه ويريده ويتكلم به، وما يأمر به ويفعله، فإن كان يعلم أن الفعل الفلانيَّ والشيء الفلانيَّ متَّصف بما هو مذموم لأجله مستحقٌّ للبغض والكراهة، كان من حكمته أن يبغضه ويكرهه، وإذا كان يعلم أن في وجوده حصولَ حكمةٍ محبوبَةٍ محمودةٍ، كان من حكمته أنه يخلُقَه ويريده لأجل تلك الحكمة المحبوبة التي هي وسيلة إلى حصوله.

وإذا قيل: إن هذا (الوسط) يُحَبُّ باعتبار أنه وسيلةٌ إلى محبوبٍ لذاته، ويُبغَض باعتبار ما اتصف به من الصفات المذمومة كان هذا حسناً، كما تقول: إن الإنسان قد يبغض الدواء من وجه ويحبه من وجه، وكذلك أمور كثيرة تُحَبُّ من وجه وتُبغَض مِنْ وجه.

وأيضاً: يجب الفرق بين أن يكون مضرّاً بالشخص مكروهاً له بكل

اعتبار، وبين أن يكون الله خلقه لحكمة في ذلك، وإذا كان الله خلق كلَّ شيء لحكمة له في ذلك، فإذا شهد العبدُ أن له حكمةً، ورأى هذا مع الجمع الذي يشترك فيه المخلوقات؛ فلا يمنعه ذلك أن يشهد ما بينهما من الفرق الذي فرَّق الله به بين أهل الجنة وأهل النار، بل لا بد من شهود هذا الفرق في ذلك الجمع، وهذا الشهودُ مطابق لعلم الله وحكمته، والله أعلم.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فأخبر أن مَنْ كانت محبوباتُه أحبَّ إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله، فهو من أهل الوعيد، وقال في الذين يحبهم ويحبونه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فلا بد لمُحب الله من متابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله، بل هذا لازم لكل مؤمن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فهذا حب المؤمن لله.

وأما المحبة الشركية: فليس فيها متابعةٌ للرسول ولا بُغْضٌ لعدوه ومجاهدة له، كما يوجد في اليهود والنصارى والمشركين؛ يدّعون محبة الله ولا يتابعون الرسول ولا يجاهدون عدوه، وكذلك أهل البدع المدَّعون للمحبة، لهم من الإعراض عن اتباع الرسول بحسب بدعتهم، وهذا من حبهم لغير الله، وتجدهم من أبعد الناس عن موالاة أولياء الرسول ومعاداة أعدائه والجهاد في سبيله؛ لِمَا فيهم من البدع التي هي شعبة من الشرك.

والذين ادّعوا المحبة من (الصوفية) وكان قولهم في القدر من جنس قول الجهمية المجبرة هم في آخر الأمر لا يشهدون للرب محبوباً إلا ما وقع وقُدِّر وكل ما وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوبه عندهم، فلا يبقى في هذا الشهود فرقٌ بين موسى وفرعون، ولا بين محمد وأبي جهل، ولا بين أولياء الله وأعدائه، ولا بين عبادة الله وحده وعبادة الأوثان، بل هذا كلُّه عند الفاني في توحيد الربوبية سواء، ولا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة ما يهواه ويحبه، وهذا هو الذي اتخذ إلهه هواه؛ إنما يَأْلهُ ويحب ما يهواه، وهو وإن كان عنده محبةٌ لله، فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله وهم من يهواه، هذا ما دام فيه محبةٌ لله، وقد ينسلخ منها حتى يصيرَ إلى التعطيل كفرعون وأمثاله، الذي هو أسوء حالاً من مشركي العرب ونحوهم؛ ولهذا هؤلاء يحبون بلا علم ويبغضون بلا علم، والعلم ما جاء به الرسول ﷺ كما قال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وهو الشرع المنزل.

ولهذا كان الشيوخ العارفون كثيراً ما يوصون المريدين باتِّباع العلم والشرع ـ كما قد ذكرنا قطعةً من كلامهم في غير هذا الموضع ـ لأن الإرادة والمحبة إذا كانت بغير علم وشرع كانت من جنس محبة الكفار وإرادتهم، فهؤلاء السالكون المريدون الصوفية، والفقراء الزاهدون العابدون، الذين سلكوا طريق المحبة والإرادة، إن لم يتَّبعوا الشرع المنزَّل والعلم الموروث عن النبي ﷺ فيحبون ما أحب الله ورسوله، ويبغضون ما أبغض الله ورسوله، وإلا أفضى بهم الأمر إلى شعب من شعب الكفر والنفاق، ولا يتم الإيمان والمحبة لله إلا بتصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، ومِنَ الإيمانِ بما أخبر الإيمانُ بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فمن نفى الصفاتِ فقد كذب خبره.

ومن الإيمان بما أمر: فِعْلُ ما أمر، وترك ما حظر، ومحبة

الحسنات وبغض السيئات، ولزوم هذا الفرق إلى الممات، فمن لم يستحسن الحسن المأمور به، ولم يستقبح السيِّئَ المنهيَّ عنه، لم يكن معه من الإيمان شيء.

كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: **(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**(١).

وكما قال في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(ما مِنْ نبيٍّ بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ؛ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره؛ ثم إنها تخلُفُ مِنْ بعدهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل)**(٢). رواه مسلم.

فأضعفُ الإيمان الإنكارُ بالقلب؛ فمن لم يكن في قلبه بُغْضُ المنكر الذي يبغضه الله ورسوله، لم يكن معه من الإيمان شيء؛ ولهذا يوجد المبتدعون الذين يدَّعون المحبةَ المجملة المشتركة التي تضاهي محبة المشركين، يكرهون من ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم، ويقولون: فلان ينكر وفلان ينكر، وقد يبتلون كثيراً بمن ينكر ما معهم من حقٍّ

---

(١) الحديث: مسلم (كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٥٤١/ ٣٠٧)، والترمذي (كتاب الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد، ٤/ ٤٦٩/ ٢١٧٢)، وابن ماجه (كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٢/ ١٣٣٠/ ٤٠١٣)، من حديث: أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الحديث: مسلم (كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٦٩/ ٥٠)، وابن حبان (كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، ١/ ٤٠٣/ ١٧٧) من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وباطل، فيصير هذا يشبه النصراني الذي يصدق بالحق والباطل، ويحب الحق والباطل، كالمشرك الذي يحب الله ويحب الأنداد، وهذا كاليهودي الذي يكذِّب بالحق والباطل ويبغض الحق والباطل؛ فلا يحب الله ولا يحب الأنداد، بل يستكبر عن عبادة الله كما استكبر فرعون وأمثاله، وهذا موجود كثيراً في أهل البدع من أهل الإرادة والبدع من أهل الكلام؛ هؤلاء يقرُّون بالحق والباطل مضاهاةً للنصارى، وهؤلاء يكذبون بالحق والباطل مضاهاةً لليهود.

وإنما دين الإسلام وطريق أهل القرآن والإيمان: إنكار ما يبغضه الله ورسوله، ومحبةُ ما يحبه الله ورسوله، والتصديق بالحق، والتكذيب بالباطل. فهم في تصديقهم ومحبتهم معتدلون؛ يصدقون بالحق ويكذبون بالباطل، ويحبون الحق ويبغضون الباطل؛ يصدقون بالحق الموجود ويكذبون بالباطل المفقود، ويحبون الحق الذي يحبه الله ورسوله، وهو المعروف الذي أمر الله ورسوله به، ويبغضون المنكر الذي نهى الله ورسوله عنه، وهذا هو الصراط المستقيم، صراطُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا طريقَ المغضوب عليهم، الذين يعرفون الحق فلا يصدقون به ولا يحبونه، ولا الضالين، الذين يعتقدون ويحبون ما لم ينزل به سلطاناً.

والمقصود هنا: أن المحبة الشركية البِدْعية هي التي أوقعت هؤلاء في أنْ آل أمرهم إلى أن لا يستحسنوا حسنةً، ولا يستقبحوا سيئةً؛ لظنهم أن الله لا يحب مأموراً ولا يبغض محظوراً، فصاروا في هذا من جنس من أنكر أن الله يحب شيئاً ويبغض شيئاً ـ كما هو قول الجهمية نفاةِ الصفات ـ وهؤلاء قد يكون أحدهم مثبتاً لمحبة الله ورضاه، وفي أصل اعتقاده إثبات الصفات، لكن إذا جاء إلى القدر لم يثبت شيئاً غيرَ الإرادة الشاملة.

وهذا وقع فيه طوائفُ من مُثْبِتةِ الصفات؛ تكلَّموا في القدر بما يوافق رأي جهم والأشعرية، فصاروا مناقضين لما أثبتوه من الصفات، كحال صاحب (منازل السائرين) وغيره.

وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون من القدماء: مثل الجنيد بن محمد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي، وتوصية باتباع ذلك، وتحذيراً من المشي مع القدر كما مشى أصحابهم أولئك.

وهذا هو (الفرق الثاني): الذي تكلَّم فيه الجنيد مع أصحابه، والشيخ عبد القادر، كلامه كلُّه يدور على اتِّباع المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور، ولا يثبت طريقاً تخالف ذلك أصلاً، لا هو ولا عامَّةُ المشايخ المقبولين عند المسلمين، ويحذر عن ملاحظة القدر المحض بدون اتباع الأمر والنهي، كما أصاب أولئك الصوفيةَ الذين شهدوا القدر وتوحيد الربوبية، وغابوا عن الفرق الإلهي الديني الشرعي المحمدي الذي يفرق بين محبوب الحق ومكروهه، ويثبت أنه لا إله إلا هو.

وهذا من أعظم ما تجب رعايته على أهل الإرادة والسلوك؛ فإن كثيراً من المتأخرين زاغ عنه فضلَّ سواءَ السبيل، وإنما يَعْرف هذا مَنْ توجَّه بقلبه، وانكشفت له حقائق الأمور، وصار يشهد الربوبية العامة والقيوميَّة الشاملة، فإنْ لم يكن معه نورُ الإيمان والقرآن الذي يحصل به الفرقان، حتى يشهد الإلهية التي تميز بين أهل التوحيد والشرك، وبين ما يحبه الله وما يبغضه، وبين ما أمر به الرسول ﷺ وبين ما نهى عنه، وإلا خرج عن دين الإسلام بحسب خروجه عن هذا؛ فإن الربوبية العامة قد أقرَّ بها المشركون، الذين قال فيهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وإنما يصير الرجل مسلماً حنيفاً موحِّداً إذا شهد: أن لا إله إلا الله، فعَبَد الله وحده، بحيث لا يشرك معه أحداً في تألُّهه ومحبته له، وعبوديته وإنابته إليه، وإسلامه له ودعائه له، والتوكل عليه، وموالاته فيه ومعاداته فيه، ومحبته ما يحب، وبغضه ما يبغض، ويفنى بحق التوحيد عن باطل الشرك، وهذا فناءٌ يقارنه البقاء، فيفنى عن تألُّه ما سوى الله بتألُّه الله تحقيقاً لقوله: لا إله إلا الله، فينفي ويُفْنِي من قلبه تألُّه ما سواه، ويثبت ويُبْقِي في قلبه تألُّه الله وحده»اهـ[1].

وقال الشيخ: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حبِّ الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين: إمَّا مِنْ تعدِّي حدود الله، وإما مِنْ تضييع حقوق الله، وإمَّا مِنَ ادِّعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقةَ لها، والذين توسَّعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام، كان هذا أصلَ مقصدهم، ولهذا أنزل الله للمحبة محنةً يمتحن بها المحب، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسولَه، وطاعةُ الرسول ﷺ ومتابعته تحقيق العبودية، وكثيرٌ مِمَّن يدَّعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته، ويدعي من الخيالات ما لا يتَّسع هذا الموضع لذكره.

حتى قد يظن أحدهم سقوطَ الأمر وتحليلَ الحرام له، وغير ذلك ممَّا فيه مخالفةُ شريعةِ الرسول وسنته وطاعته، بل قد جعل محبةَ الله ومحبةَ رسوله الجهادَ في سبيله.

والجهاد: يتضمن كمالَ محبةِ ما أمر الله به، وكمالَ بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولهذا كانت محبةُ

(١) الفتاوى (٨/ ٣٦٢ ـ ٣٧٠).

هذه الأمة لله أكملَ من محبة مَنْ قبلها، وعبوديتُهم لله أكملَ من عبودية من قبلهم، وأكملُ هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبهَ كان ذلك فيه أكملَ، فأين هذا من قوم يدَّعون المحبة؟!.

وفي كلام بعض الشيوخ: «المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب»[1]، وأرادوا أن الكون كلَّه أراد اللهُ وجودَه، فظنُّوا أن كمال المحبة أن يحبَّ العبدُ كلَّ شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان، ولا يمكن أحداً أن يحب كلَّ موجود، بل يحب ما يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم؛ فهم يحبون ما يهوونه؛ كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة، زاعمين أن هذا من محبة الله، ومن محبة الله بغضُ ما يبغضه الله ورسوله، وجهاد أهله بالنفس والمال.

وأصل ضلالهم: أن هذا القائل الذي قال: (إن المحبة نار تحرق ما سوى مراد المحبوب)، قَصَدَ بمراد الله تعالى الإرادةَ الدينيةَ الشرعيةَ، التي هي بمعنى محبته ورضاه، فكأنه قال: تحرق من القلب ما سوى المحبوب لله، وهذا معنى صحيح؛ فإنَّ مِنْ تمام الحب: أن لا يحبَّ إلا ما يحبه الله؛ فإذا أحببت ما لا يحب كانت المحبةُ ناقصةً، وأما قضاؤه وقدرُه، فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهى عنه، فإن لم أوافقه في بغضه وكراهته وسخطه لم أكن محباً له، بل محباً لما يبغضه.

فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وبين من يدَّعي محبة الله ناظراً إلى عموم ربوبيته، أو متَّبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته، فإنَّ دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى لِمَا فيهم من النفاق الذين هم به في

---

(١) ذكره القشيري في الرسالة القشيرية (ص٣٢١، دار الخير) من قول أبي بكر الشبلي.

الدرْك الأسفل من النار، كما قد تكون دعوى اليهود والنصارى شرّاً من دعواهم إذا لم يصلوا إلى مثل كفرهم، وفي التوراة والإنجيل من محبة الله ما هم متَّفقون عليه، حتى إن ذلك عندهم أعظمُ وصايا الناموس»اهـ(١).

سادساً: وبسبب غلوّ فريق من المتصوفة في المحبة، وعدم انضباطهم بالضوابط الشرعية فيها، وقعوا في الاتحاد والحلول:

قال الشيخ: «ومثال ذلك في باب الصفات: أن العبد إذا عرف ربه وأحبه، بل لو عرف غيرَ الله وأحبه وتألَّهَهُ: يبقى ذلك المعروفُ المحبوبُ المعظَّمُ في القلب واللسان، وقد تقوى به شدة الوجد والمحبة والتعظيم حتى يستغرقَ به ويفنى به عن نفسه، كما قيل: إن رجلاً كان يحب آخرَ، فوقع المحبوبُ في اليمِّ، فألقى الآخرُ، نفسه خلفَه، فقال: أنا وقعت، فما الذي أوقعك؟ فقال: غبتُ بِكَ عنِّي، فظننتُ أنك أنِّي.

وهذا كما قيل:

مثالك في عيني وذكراك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟!(٢)

وقال آخر:

ساكنٌ في القلب يعمره لستُ أنساه فأذكره
هو مولى قد رضيتُ به ونصيبي منه أوفرُه(٣)

ولقوة الاتصال: زعم بعض الناس أن العالِم والعارِف يتحد بالمعلوم المعروف، وآخرون يرَوْنَ أن المحبَّ قد يتحد بالمحبوب، وهذا إمَّا غلط، وإما توسُّعٌ في العبارة؛ فإنه نوعُ اتحادٍ: هو اتحادٌ في عين المتعلقات من نوع اتحاد في المطلوب والمحبوب والمأمور به والمرضي

---

(١) الفتاوى (١٠/٢٠٩ ـ ٢١١).
(٢) البيت: لم أقف عليه.
(٣) البيت: لم أعثر على قائله، وقد أورده الإمام ابن القيم في كتابه هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص١٥٤)، ولم ينسبه إلى أحد.

والمسخوط، واتحادٌ في نوع الصفات من الإرادة والمحبة والأمر والنهي والرضا والسخط، بمنزلة اتحاد الشخصين المتحابَّيْن، وهذا له تفصيلٌ نذكره في غير هذا الموضع»اهـ(١).

الصفة الثانية: المعية:

معية الله تعالى لعباده ثابتةٌ بالكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام في بيان معنى معية الله تعالى لخلقه: «إن الله معنا حقيقةً، وهو فوق العرش حقيقةً، كما جمع الله بينهما في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فأخبر أنه فوق العرش، يعلم كلَّ شيء وهو معنا أينما كنا. . .

وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أُطلقت، فليس ظاهرُها في اللغة إلا المقارنةَ المطلقةَ من غير وجوب مماسَّةٍ أو محاذاةٍ، عن يمين أو شمال، فإذا قُيدت بمعنى من المعاني دلَّت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا، ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك.

فالله مع خلقه حقيقةً، وهو فوق عرشه حقيقةً.

ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد:

فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، دلَّ ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنه مطَّلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالِمُ بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

---

(١) الفتاوى (٦/ ٢٦ ـ ٢٧).

وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ الآية، ولمَّا قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كان هذا أيضاً حقّاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا: معية الاطلاع والنصر والتأييد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذه المواطن: النصر والتأييد، وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف، فيقول: لا تخفْ أنا معك، أو أنا هنا، أو أنا حاضرٌ، ونحو ذلك، ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفعَ المكروه.

ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فيختلف باختلاف المواضع:

فلفظ المعية قد استُعمل في الكتاب والسنة في مواضعَ، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها ـ وإن امتاز كل موضع بخاصية ـ فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذاتُ الربِّ ﷻ مختلطةً بالخلق حتى يقال: قد صُرفت عن ظاهرها»اهـ[1].

أما مذهب الصوفية في المعيَّة، فيمكن بيان ما ذكره شيخ الإسلام فيما يلي:

---

(١) الفتاوى (٥/١٠٢ ـ ١٠٤).

وانظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ: محمد بن صالح العثيمين (ص٥٣ ـ ٦٥، ط. مكتبة المعارف، الرياض، الأولى ١٤٠٥هـ).

أولاً: نقل شيخ الإسلام عن الجنيد بن محمد موافقتَه لأهل السنة والجماعة في المعيَّة:

قال الشيخ رحمه الله **في معرض تعليقه على ما ذكره أبو القاسم القشيري في (الرسالة):** «قال[1] وسأل ابنُ شاهين[2] الجنيدَ عن معنى «مع»، فقال: على معنيين: مع الأنبياء بالنُّصرة والكلاءة، قال الله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦]، ومع العامة: بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فقال ابنُ شاهين: مثلك يصلُح أن يكون دالّاً للأمة على الله.

قلت: هذا كلامٌ حسن متفق على صحة معناه بين أئمة الهدى، وكانوا يقولون مثل هذا الكلام رَداً على مَنْ يقول مِنَ الجهمية: إن الحق بذاته في كل مكان، ويمكن أن يقول: فوق العرش، وقد وقع في ذلك طائفةٌ من المتصوفة حتى جعلوه عين الموجودات ونفس المصنوعات كما يقوله أهل الاتحاد العام»اهـ[3].

ثانياً: الاتحادية لا معنى عندهم للمعيَّة لقولهم باتحاد الله تعالى ومخالطته لمخلوقاته:

قال الشيخ في معرض كلامه عن اختلاف الناس في مسألة المعيَّة والقُرب: «والمقصود: أنه تعالى وصف نفسه بالمعية وبالقُرب، والمعية معيَّتان: عامة وخاصة:

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٣٩ ـ ٤٠).

(٢) هو عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين البغدادي، أبو حفص الواعظ، ولد سنة ٢٩٧هـ، قال الذهبي: «الشيخ الصدوق الحافظ العالم، شيخ العراق، وصاحب التفسير الكبير أبو حفص»اهـ، قيل: صنف ٣٣٠ مصنفاً، توفي سنة ٣٨٥هـ.
انظر: سير الأعلام (١٦/ ٤٣١)، لسان الميزان (٤/ ٢٨٤).

(٣) الاستقامة (١/ ١٧٨ ـ ١٨٨)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (٥/ ١٢٢، ٢٢٩).

فالأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

والثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما (القرب) فهو كقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وافترق الناس في هذا المقام أربعَ فرقٍ:

.. **وقسم ثان**: يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية وكثيرٌ مِنَ الجهمية ـ عُبَّادهم وصوفيَّتُهم وعوامُّهم ـ ويقولون: إنه عين وجود المخلوقات، كما يقوله أهل الوحدة القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركباً من الحلول والاتحاد، وهم يحتجُّون بنصوص المعية والقرب، ويتأوَّلون نصوص العُلُوِّ والاستواء، وكلُّ نصٍّ يحتجون به حجةٌ عليهم؛ فإن المعية أكثرُها خاصةٌ بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان، وفي نصوصهم ما يبيِّن نقيضَ قولهم؛ فإنه قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، فكل من في السماوات والأرض يسبح، والمسبِّح غيرُ المسبَّح.

وقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، فبين أن المُلْكَ له، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وفي الصحيح: (**أنت الأول فليس قبلك شيء**)[1] .. إلخ.

فإذا كان هو الأولَ: كان هناك ما يكون بعدَه.

وإذا كان آخِراً: كان هناك ما الربُّ بعده.

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٤/ ٢٠٨٤/ ٢٧١٣)، والترمذي (كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، ٥/ ٤٧٢/ ٣٤٠٠)، وأبو داود (كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم، ٤/ ٣١٢/ ٥٠٥١)، من حديث: أبي هريرة ﷺ.

وإذا كان ظاهراً: ليس فوقَه شيءٌ، كان هناك ما الربُّ ظاهرٌ عليه.

وإذا كان باطناً: ليس دونه شيء، كان هناك أشياءُ نفى عنها أن تكون دونه.

ولهذا قال ابن عربي[١]: من أسمائه الحسنى (العليُّ). على من يكون علياً؟ وما ثَمَّ إلا هو؟ وعن ماذا يكون علياً؟ وما هو إلا هو؟ فعلُوُّهِ لنفسه، وهو من حيث الوجود عينُ الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية هي لذاتها، وليست إلا هو، قال الخرَّاز: وهو وجه من وجوه الحق، ولسانٌ من ألسنته، ينطق عن نفسه بأن الله يُعرف بجمعه بين الأضداد، فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثَمَّ مَنْ تراه غيره، وما ثَمَّ من يبطن عنه سواه، فهو ظاهر لنفسه وهو باطن عن نفسه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز.اهـ.

و(المعية): لا تدل على الممازجة والمخالطة.

وكذلك لفظ القرب؛ فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد، كما هو عندهم في سائر الأعيان.

وكل هذا كفر وجهل بالقرآن.

الثالث: قول من يقول: هو فوق العرش وهو في كل مكان، ويقول: أنا أُقِرُّ بهذه النصوص وهذه، لا أصرف واحداً منها عن ظاهره، وهذا قول طوائفَ ذكرهم الأشعري في (المقالات الإسلامية)، وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية، ويشبه هذا ما في كلام أبي طالب المكي وابن بَرَّجَان[٢] وغيرهما، مع ما في كلام أكثرهم من التناقض...

---

(١) انظر كلام ابن عربي في فصوص الحكم (ص٧٧، ط. غراب).

(٢) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن، أبو الحكم اللخمي، الإفريقي الصوفي، المعروف بابن بَرَّجَان، روى عن عبد الحق الإشبيلي وآخرين، قال ابن حجر: «كان من أهل المعرفة بعلم الكلام =

وهذا الصنف الثالث: وإن كان أقربَ إلى التمسُّك بالنصوص وأبعدَ عن مخالفتها مِنَ الصنفين الأولين:

فإن الأول: لم يتبع شيئاً من النصوص، بل خالفها كُلَّها.

والثاني: ترك النصوص الكثيرة المحكمَة المبينة، وتعلَّق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها، وأما هذا الصنف، فيقول: أنا اتَّبعت النصوص كلَّها، لكنه غالط أيضاً، فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان، فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، مع مخالفته لِمَا فَطَرَ الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة.

وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضةً؛ يقولون: إنه فوق العرش، ويقولون: نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف كما يذكر مثل ذلك أبو طالب[1] وغيره، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك، فإن قالوا: إن العرش كذلك، نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش، وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين كان ذلك قولاً بالحلول الخاصِّ.

= والتصوف، مع الزهد والعبادة»، وله مصنفات منها: التفسير ولم يكمله، وشرح الأسماء الحسنى، توفي سنة ٥٣٦هـ.
انظر: لسان الميزان (٤/ ١٣)، شذرات الذهب (٤/ ١٣٣)، تاريخ الخلفاء (١/ ٣٧٨، المقتفي لأمر الله).
أما كلام ابن برجان الذي يشير إليه شيخ الإسلام هنا، فلم أقف عليه.

(١) قال أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب (٢/ ١٤١): «.. وأنه تعالى على العرش في ذلك كله، وأنه رفيع الدرجات من الثرى، وأن العرش غير ملامس له بحسّ ولا مفكر فيه بوجس، ولا ناظر إليه بعين، ولا محيط به بدرك، لأنه تعالى محتجب بقدرته عن جميع بريته، ولا نصيب للعرش (في المطبوع: ولا نصيب **للعرض**، وهو خطأ والتصحيح مما نقله شيخ الإسلام عن أبي طالب في الفتاوى ٥/ ٤٨٧) منه إلا كنصيب موقن عالم به»اهـ.

وقد وقع طائفةٌ مِنَ الصوفية حتى صاحب (منازل السائرين) في توحيده المذكور في آخر (المنازل) في مثل هذا الحلول[١]، ولهذا كان أئمة القوم يحذرون عن مثل هذا»اهـ[٢].

الصفة الثالثة: العلوّ، والاستواء على العرش:

علو الله تعالى واستواؤه على العرش ثابت له سبحانه على الوجه اللائق به بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦]، وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، والأدلة على عُلُوِّ الله تعالى على خلقه تزيد على ألف دليل[٣].

أما مذهب الصوفية في العلو والاستواء، فقد بيَّنه شيخ الإسلام وفصَّل أقوالهم وأحوالهم فيه.

ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

ـ ذكر الشيخ أن بعض مشايخ الصوفية يتكلم في مسائل العلو والاستواء بكلام مجمل يمكن أن يُحمل على محاملَ حقَّةٍ وباطلةٍ:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم ذكر[٤] ما جاء في العلو، فقال:

سمعت الإمام أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك[٥] يقول: سمعت محمد بن المحبوب[٦] خادم أبي عثمان المغربي[٧] يقول: قال لي أبو

---

(١) منازل السائرين (ص١٣٥)، وتقدم في مبحث الحلول والاتحاد نقل كلامه في ذلك (ص٣٨٦).

(٢) الفتاوى (٥/ ١٢٢ ـ ١٢٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٥٦، ٤٦٨)، بغية المرتاد (ص٤٠٤).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٩٢ ـ ٢٩٧، ط. بشير عيون).

(٤) يعني أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في الرسالة القشيرية (١/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٥) أبو بكر بن فورك، تقدمت ترجمته، انظر (ص١٨٧).

(٦) محمد بن محبوب: لم أقف على ترجمته.

(٧) هو سعيد بن سلام (وقيل: ابن سالم) أبو عثمان المغربي، الصوفي، قال =

عثمان المغربي يوماً: يا محمد! لو قيل لك: أين معبودك؟ إيش تقول؟ قلت: أقول: حيث لم يزل! قال: فإن قال: فأين كان في الأزل؟ إيش تقول؟ قلت: أقول: حيث هو الآن! قال: يعني أنه كان ولا مكان، فهو الآن على ما عليه كان، فارتضى مني ذلك ونزع قميصه وأعطانيه.

وقال أبو القاسم[1]: سمعت أبا بكر بن فورك يقول: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة[2]، فلمَّا قدمتُ

= الخطيب البغدادي: «كان أوحد عصره في الورع والزهد والصبر على العزلة»، توفي سنة ٣٧٣هـ.

انظر: تاريخ بغداد (٩/ ١١٢)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٩/ ٣٧، ذِكر عدة حوادث)، سير الأعلام (١٦/ ٣٢١)، البداية والنهاية (٨/ ٥٧/ حوادث سنة ٣٧٣هـ)، شذرات الذهب (٣/ ٨١).

(١) في الرسالة القشيرية بعد الكلام السابق مباشرة.

(٢) سألتُ شيخَنا العلامة د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين عن المراد بحديث الجهة هنا، فذكر لي ـ حفظه الله ـ أن المراد هو الحديث الذي رواه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرَّت بهم سحابةٌ، فنظر إليها، فقال: (ما تسمُّون هذه؟)، قالوا: السحاب، قال: (والمزن؟)، قالوا: والمزن، قال: (والعنان؟)، قالوا: والعنان؟ قال: (هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض؟)، قالوا: لا ندري، قال: (إن بُعدَ ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عدَّ سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك).

الأوعال: جمع وعل ـ بكسر العين ـ هو تيس الجبل. النهاية (٥/ ٢٠٧).

أخرجه أبو داود في سننه (باب في الجهمية، ٤/ ٢٣١/ ح٤٧٢٣)، والترمذي (٥/ ٤٢٤/ ح٣٣٢٠، باب من سورة الحاقة)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص٢٧٣)، وفي الرد على المريسي =

....

= (ص٤٤٨)، وابن ماجه (المقدمة، ح ١٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (ح ٥٧٧)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٥)، والحاكم في المستدرك وصححه، وخالفه الذهبي فقال: يحيى واهٍ (٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٧/ ح٨٤٧)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٠٨٧/ ح٦٦٣، ت: د. عبد الله عمر سليمان الدميجي، ط. دار الوطن، الرياض، الأولى ١٤١٨هـ)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٦/ ح٢٠٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٧٦).

والحديث أكثر أهل العلم على تضعيفه، لعدة علل، منها:

أن في إسناده عبد الله بن عميرة: كوفي مقبول، يعني عند المتابعة، وقال الذهبي: فيه جهالة، من الثانية. (الميزان ٢/ ٤٦٩)، التقريب (١/ ٤٣٨)، التهذيب (٥/ ٣٤٤).

وفيه انقطاع بين عبد الله والأحنف بن قيس، قال البخاري عن عبد الله: «لا نعلم له سماعاً من الأحنف»اهـ التاريخ الكبير (٥/ ١٥٩).

وفيه الوليد بن عبد الله بن أبي ثور الهمداني الكوفي، وقد ينسب إلى جده، ضعيف من الثامنة. التقريب (٢/ ٣٣٣)، التهذيب (١١/ ١٣٧).

وفيه سماك بن حرب، صدوق، تغير بأَخَرَة، فكان ربما يُلقَّن، من الرابعة. التقريب (١/ ٢٣٢)، التهذيب (٤/ ٢٣٢).

قال الذهبي في العلو (ص٥): «تفرد به سماك عن عبد الله، وعبد الله فيه جهالة، ويحيى بن العلاء متروك الحديث، وقد رواه إبراهيم بن طهمان عن سماك، وإبراهيم ثقة»اهـ.

وقال الألباني في تخريج السنة (١/ ٢٥٤): «إسناده ضعيف، عبد الله بن عميرة قال الذهبي: فيه جهالة، قال البخاري: لا نعلم له سماعاً من الأحنف بن قيس»اهـ، وأورده في السلسلة الضعيفة وفصّل في علل تضعيفه (٣/ ٣٩٨/ ح١٢٤٧).

وممن صحح الحديث: أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الجوزقاني في كتابه الأباطيل (١/ ٧٩)، ومال إلى تصحيح الحديث شيخ الإسلام في الفتاوى (٣/ ١٩٢)، وتلميذه ابن القيم في تهذيب السنن وذكر ـ ابن القيم ـ كلاماً طويلاً في الانتصار لتصحيحه (٧/ ٩٤).

بغدادَ زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكةَ أني أسلمت الآن إسلاماً جديداً.

قلت: هذا الكلام الذي ذكره عن أبي عثمان كلامٌ مجملٌ، ليس فيه دليل على أنه كان يقول: ليس فوق السماوات ربٌّ، ولا هناك إلهٌ، كما يقول من يقول: إن الله ليس فوق العرش، وقد يعبِّر عن ذلك بعضهم بأنه ليس في الجهة.

بل إقراره لخادمه على جواب السائل له: أين معبودك؟ يخالف ما ذكره أبو القاسم ـ الذي قال في خطبة كتابه: تعالى عن أن يقال: كيف هو؟ أو أين هو؟ فلو أراد ما ذكره أبو القاسم لقال: لا يقال: أين هو؟ بل قال: حيث لم يزل؟ وهذا لا يوافق قولَ من يقول: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا هو فوق العرش، ولا في جهة(١)؛ لأن قوله: حيث لم يزل، إخباره بأنه: حيث لم يزل، وحيث: ظرفٌ من ظروف المكان، لا يطلق إلا على الجهة والحيز(٢)، وعند النفاة لا يقال: حيث لم يزل، ولا: كان في الأزل بحيث.

---

(١) يعني الشيخُ غلاة الجهمية الذين يقولون: إن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا عن يمينه ولا عن شماله، فحقيقة قولهم: نفي وجود الله ﷻ.

انظر: الفتاوى (٥/٣٠١، ١٣/١٤٨، ١٦/٩٩، ٣٠٩، ٣١٥، ٥١٥).

(٢) الحيِّز: هو المكان، أو تقدير المكان، ومن المتكلمين من يجعل كلَّ جسم متحيزاً.

ولفظ الجهة والحيز (أو المتحيز) من الألفاظ المجملة التي لم ترد في الكتاب ولا في السنة، وهي تحتمل حقاً وباطلاً، فلا يجوز إطلاقُها على الله تعالى إلا بعد الاستفسار عن مراد مَنْ أطلقها، مثلها بقية الألفاظ المجملة المحدَثة: كالجسم والجهة والتركيب..، مع أن الأصل عدم إطلاقها على الله تعالى؛ لأنها ألفاظٌ مبتدَعةٌ، ولكن من أطلقها استفسر عن مراده منها. =

وكذلك قوله: فإن قال: فأين كان في الأزل؟ فقال: أقول: حيث الآن، لا يستقيم عند من ينفي الجهة؛ فإنه لا يقال: أين كان في الأزل؟ ولا يقال: حيث الآن، بل هذا السؤال والجواب ممتنع عندهم، وإن كانوا في ذلك مخالفين للنصوص وإجماع السلف وأئمة الدين؛ فإن النبي ﷺ سأل بأين، فقال: أين الله؟ فقال له المسؤول: في السماء، فحكم بإيمان من قال ذلك[1]، وكذلك سئل، فقيل له: أين كان ربُّنا قبل

= قال شيخ الإسلام: «وما تنازع فيه المتأخرون نفياً وإثباتاً: فليس لأحد ـ بل ولا له ـ أن يوافق أحداً على إثبات لفظ أو نفيه، حتى يعرف مراده، فإن أراد حقاً قُبِل، وإن أراد باطلاً رُدَّ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ولم يُرَدّ جميع معناه، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى، **كما تنازع الناس في الجهة والحيز، وغير ذلك**»اهـ.

انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين ـ للآمدي (ص٩٦)، التدمرية (ص٦٥ ـ ٦٦)، الفتاوى (٣/٢٩٨ ـ ٣٠٩، ١٢/١١٤ ـ ١١٦، ١٣/٣٠٤ ـ ٣٠٥، ١٤٥ ـ ١٤٦)، منهاج السنة (٢/١٣٥، ٥٢٧، ٥٥٥، ٥٦١)، نقض التأسيس (١/٤٧٧ ـ ٤٧٨، ٢/١٣ ـ ١٤).

(١) يشير شيخ الإسلام إلى حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكْلَ أمِّياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمِّتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه؛ فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ قلت: يا رسول الله، إني حديثُ عهْدٍ بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان! قال: (فلا تأتهم)، قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: (ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدَّنهم) ـ قال ابن الصباح: فلا يصدنكم ـ قال: قلت: ومنا رجال يخطُّون، قال: (كان نبي من الأنبياء يخطُّ، فمن وافق خطَّه فذاك).

قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَل أُحُدٍ والجوانية، فاطلعت ذاتَ يوم =

أن يخلُقَ السماوات والأرض؟ فأجاب عن ذلك[1]، ولكن جواب أبي عثمان يوافق قولَ أهلِ الإثبات، وهم أهل الفطرة العقلية السليمة مِنَ الأوَّلين والآخِرين، الذين يقولون: إنه فوق العالم؛ إذ العلم بذلك فطريٌّ عقليٌّ ضروريٌّ لا يتوقف على سمع.

أما العلم بأنه استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض

= فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم؛ آسَفُ كما يأسفون، لكني صككتها صكةً، فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: (أين الله؟) قالت: في السماء، قال: (من أنا؟) قالت: أنت رسول الله، قال: (أعتقها فإنها مؤمنة).
رواه مسلم، واللفظ له (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ١/ ٣٨١/ ٥٣٧)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة، ١/ ٢٤٤/ ٩٣٠)، وابن حبان (كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، ١/ ٣٨٣/ ١٦٥).

(١) يشير شيخ الإسلام إلى حديث أبي رزين العقيلي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: (هل ترون ليلة البدر القمر أو الشمس بغير سحاب)؟ قالوا: نعم. قال: (فالله أعظم). قلت: يا رسول الله، أين كان ربُّنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: (في عَماءٍ، ما فوقه هواءٌ وما تحته هواءٌ)، رواه الترمذي وحسّنه (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة هود، ٥/ ٢٨٨/ ح٣١٠٩)، وابن ماجه (المقدمة، ١/ ٦٤/ ح١٨٢). وابن حبان (كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ١٤/ ٨/ ٦١٤١)، والحديث ضعّفه الألباني (ضعيف سنن الترمذي، ص٣٨٢، ح ٦٠٢).
قال الإمام ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٨): «قال أبو القاسم: العماء، ممدود، وهو السحاب، والعمى مقصور: الظُّلْمَةُ، وقد روي الحديث بالمد والقصر، فمن رواه بالمد فمعناه عنده: كان في عماء سحاب، ما تحته هواء وما فوقه هواء، والهاء راجعة على العماء، ومن رواه بالقصر، فمعناه عنده: كان في عمى عن خلقه؛ لأنه من عمي عن شيء، فقد أظلم عنه»اهـ.

في ستة أيام، فهذا سمعيٌّ، إنما عُلم من جهة إخبار الأنبياء، ولهذا شرع الله تعالى لأهل الملل الاجتماعَ كلَّ أسبوع يوماً واحداً ليكون الأسبوعُ الدائرُ دليلاً على الأسبوعِ الذي خلق الله فيه السماوات والأرض ثم استوى على العرش، ولهذا لا يُعْرَفُ الأسبوعُ إلا من جهة أهل الكتب الإلهية، بخلاف اليوم، فإنه معلوم بالحسِّ، وكذلك الشهر والسنة يعلم بالحس وسير القمر، فيعلم بالحس والحساب، وأما الأسبوع، فليس له سبب حسِّيٌّ، وكذلك لا يوجد لأيام الأسبوع ذكرٌ عند الأمم الذين لا كتابَ لهم، ولا أخذوا عن أهل الكتب كالترك الباقين في بواديهم في لغتهم اسم: اليوم والشهر والسنة دون أيام الأسبوع، بخلاف الفُرْس[1] ونحوهم ممن أخذ عن المرسلين؛ فإن في لغتهم أيامَ الأسبوع.

وأهل الإثبات منازعون في أن الاستواء: هل هو مجرد نسبة وإضافة بين الله وبين العرش، من غير أن يكون الباري تصرَّف بنفسه بصعود أو علوٍّ ونحو ذلك، أو هو يتصرف بنفسه، وأنه استوى على العرش بعد أن لم يكن مستوياً.

وكذلك استواؤه إلى السماء ونزولُه ونحو ذلك عن قولين مشهورين:

---

(١) الفُرْس: في اللغة: جمع فارس، والنسبة إليه فارسي، وهي بلاد واسعة جامعة لعدة مدن، وهي حالياً تجمع دولتي العراق وإيران، وجزءاً من خراسان والجمهوريات الإسلامية، وديانة الفرس في الأصل المجوسية (عبادة النار)، وقد فتحت بلاد الفرس في خلافة عمر ﷺ، وآخر ملوكهم يزدجرد بن شهريار بن كسرى.

وقد ذكر شيخ الإسلام هنا أن الفرس أخذوا عن المرسَلين، لأنهم مجوس، والمجوس لهم شُبهة كتاب.

انظر: مراصد الاطلاع (٣/ ١٠١٢)، الأنساب للسمعاني (٤/ ٣٣٢)، لسان العرب (٦/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، البداية والنهاية (٧/ ١٢٦، ١٥٨)، فتح الباري (٦/ ٦٢٥).

والأول: قول كثير مِمَّن يميل إلى الكلام، وقول طائفة مِنَ الفقهاء والصوفية.

والثاني: قول أهل الحديث وقول كثير مِنْ أهل الكلام والفقهاء والصوفية.

فكلام أبي عثمان ظاهرُه يوافق القولَ الأولَ، وأما الذي كان يعتقده في الجهة ثم رجع عنه، فهو أمر مجمل لم يذكره، فلعله كان يعتقد من التجسيم والتمثيل ما يقوله أهل الضلال من الرافضة والمجسِّمة، فرجع عن ذلك، فإن هذا ممكن، ولعله كان يعتقد أن الباري تعالى محصور في السماوات تُظِلُّه وتقره، وأنه مفتقر إلى عرش يحمله، فرجع عن ذلك.

وأعظم ما يقال: إنه كان يعتقد أن الاستواء من الصفات الفعلية المتجددة، وأنه يفعله بنفسه، ثم رجع عن ذلك إلى أنه على ما كان عليه، مع كونه مستوياً على العرش، لكنه خلق العرش بعد أن لم يكن مخلوقاً، فيلزم أن يكون موصوفاً بأنه فوق العرش، وهذا يقوله كثير من المثبتة، وإن كان هذا ليس موضع الكلام فيه.

فأما أن يقال: إن أبا عثمان رجع عن اعتقاد علوِّ الله على خلقه، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته، عالٍ عليهم، فليس في كلامه ما يفهم منه ذلك بحال.

ثم لو فُرِض أن أبا عثمان قال قولاً فيه غلط لم يصلح أن يجعل ذلك أصلاً لاعتقاد القوم، فإن كلام أئمة المشايخ المصرِّح بأن الله فوق العرش كثير منتشر، فإذا وجد عن بعضهم ما يخالف ذلك، كان ذلك خلافاً لهم.

والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطئ كما يوجد في غيرهم، وليسوا في ذلك بأجلّ من الصحابة والتابعين، وليس أحدٌ معصوماً في

كل ما يقوله إلا رسولُ الله ﷺ»اهـ[(١)].

وذكر شيخ الإسلام أن فريقاً من الصوفية يوافقون أهل السنة والجماعة في إثبات العلو والاستواء على الوجه اللائق بالله ﷻ:

قال الشيخ: «وكلام المشايخ في مسألة العلو كثير، مثل ما ذكر محمد بن طاهر المقدسي الحافظ الصوفي المشهور، الذي صنف للصوفية كتاب: (صفة التصوف) و(مسألة السماع) وغير ذلك:

ذَكَر عن الشيخ الجليل أبي جعفر الهمداني: أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني وهو يقول: كان الله ولا عرش؛ وهو على ما عليه كان، أو كلاماً من هذا المعنى.

فقال: يا شيخ، دعنا من ذِكر العرش؛ أخبِرْنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؛ فإنه ما قال عارف قطّ: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورةً بطلب العلو ولا يلتفت يَمنةً ولا يَسرةً، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟.

قال: فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه! وقال: حيّرني الهمداني.. حيّرني الهمذاني[(٢)].

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني - شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة قبل القشيري - في رسالة له:

أحببتُ أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف، من المتقدمين والمتأخرين.. قال فيها: وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقولٌ والكيف فيه مجهول، وأنه ﷻ

---

(١) الاستقامة (١/١٥٩ - ١٦٣).

(٢) الخبر في العلو للذهبي (ص١٨٨ - ١٨٩)، شرح الطحاوية (ص٣٩٠).

مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، والخلقُ بائنون منه بلا حلول ولا ممازَجةٍ ولا اختلاطٍ ولا ملاصقةٍ؛ لأنه الفرد البائن من الخلق، الواحد الغنيّ عن الخلق، وأن الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ خبيرٌ، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب»اهـ[1].

وخلاصة ما سبق من كلام شيخ الإسلام أن الصوفية ينقسمون في محبة الله تعالى وإثبات علوّه قسمين:

قسم: وافقوا أهل السنة والجماعة، فأثبتوا المحبة والعلوَّ على الوجه الشرعي اللائق به سبحانه، وقد تقدم نقل ما حكاه شيخ الإسلام عنهم في ذلك.

وقسم: وافقوا أهل السنة في إثبات مسمى المحبة، ولكن خالفوهم في حقيقتها؛ فحقيقة محبة العبد لربه ـ عندهم ـ أن يعشقَه!!، وقد نقل شيخ الإسلام ذلك عنهم وردَّ عليه.

وقسم: هم من غُلاة المتصوفة القائلين بالحلول والاتحاد، أو من تأثر بهم، وهؤلاء لا يثبتون المحبة ولا العلو أصلاً؛ لأنه ليس عندهم أصلاً مُحِبٌّ ومُحَبٌّ، ولا عالٍ ومعلُوٌّ.



---

(١) الاستقامة (١/ ١٦٧ ـ ١٦٨).



الفصل الرابع

النبوة، والولاية، وخوارق العادة

وفيه أربعة مباحث:

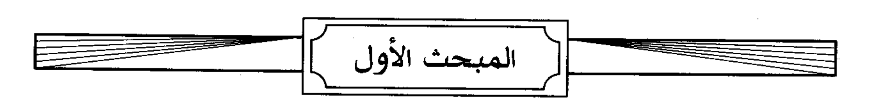
المبحث الأول: موقفهم من النبوة

المبحث الثاني: المعجزات

المبحث الثالث: موقفهم من الولاية

المبحث الرابع: الكرامات





موقفهم من النبوة

النبي في لغة العرب:

مشتق من النبأ، وهو الخبر، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ - ٢]، فالنبي مُخبِرٌ عن الله، وهو مُخبَرٌ مِنَ الله ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وهو مخبر عن الله تعالى أمرَه ووحيَه ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. والنبي هو الذي ينبؤه الله، وهو ينبّئ بما أنبأه الله به.

وقيل: النبي مشتقٌّ مِنَ النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العربُ لفظ النبي على عَلَم من أعلام الأرض التي يُهتدى بها، فالأنبياء هم الأعلام التي يهتدي بها الخلق(١).

وأنبياء الله تعالى هم صفوة الخلق، وأفضل البشر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ولا سبيلَ إلى معرفة الشرع إلا مِنْ طريقهم، ومَنْ سلك غير سبيلهم ضلَّ عن الصراط المستقيم(٢).

أما ما حكاه شيخ الإسلام من مذهب المتصوفة في النبوة والأنبياء، فيمكن بيانه في النقاط التالية:

---

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٥٦١، ٥٧٣ مادة: نبأ)، النبوات (ص٢٨١).

(٢) النبوات (ص٧٦، ٩٩)، بيان التلبيس (١/ ٢٤٨)، شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٩٣، ٥٥٥، ٥٧٢).

أولاً: يقول بعض المتصوفة: إن الأنبياء يخضعون للأولياء:

وقد بيّن الشيخُ ذلك بقوله: «وكذلك في جنس المبتدعة الخارجين عن الكتاب والسنة من أهل التعبُّد والتألُّه والتصوف، منهم طوائف من الغلاة يدَّعون الإلهية ودعوى ما هو فوق النبوة، وإن كان متفلسفاً يجوِّز وجودَ نبيٍّ بعد محمد ﷺ كالسهروردي ـ المقتول في الزندقة ـ وابن سبعين، وغيرهما صاروا يطلبون النبوة.

بخلاف من أقرَّ بما جاء به الشرع، ورأى أن الشرعَ الظاهرَ لا سبيل إلى تغييره؛ فإنه يقول: النبوة خُتِمت لكن الولاية لم تختم! ويدَّعي من الولاية ما هو أعظمُ مِنَ النبوة، وما يكون للأنبياء والمرسلين! وأن الأنبياء يستفيدون منها!.

ومِنْ هؤلاء مَنْ يقول بالحلول والاتحاد، وهم في الحلول والاتحاد نوعان:

نوعٌ: يقول بالحلول والاتحاد العامِّ المطلقِ، كابن عربي وأمثاله، ويقولون في النبوة إن الولاية أعظم منها؛ كما قال ابن عربي:

مقام النبوة في برزخ فُوَيْقَ الرسول ودون الولي[(١)]

وقال ابن عربي في (الفصوص)[(٢)]: وليس هذا العلم إلا لخاتم

---

(١) لم أجد هذا البيت في شيء من كتب ابن عربي، لكنني عثرت على بيت بمعناه في كتاب ابن عربي لطائف الأسرار، ص٤٩، ت: أحمد زكي عطية وطه عبد الباقي سرور، ط. دار الفكر العربي، ١٣٨٠هـ) ولفظه فيه:
سماء النبوة في برزخ دُوَيْن الوليّ وفوق الرسول
وفي الفتوحات المكية (٢/ ٢٥٢):
بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يُجهل

(٢) فصوص الحكم (١/ ٦٢)، ت: د. أبو العُلا عفيفي، ط. عيسى الحلبي، ١٩٤٦م، القاهرة.

الرسل وخاتم الأنبياء، وما يراه أحدٌ من الأنبياء إلا من مشكاة خاتم الأنبياء، وما يراه أحدٌ من الأولياء إلا من مشكاة خاتم الأولياء، حتى إن الرسل إذا رأوه لا يرونه إذا رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء؛ فإن الرسالة والنبوة ـ أعني رسالةَ التشريع ونبوته ـ تنقطعان، وأما الولاية فلا تنقطع أبداً!

فالمرسلون، مع كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف بمن دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لِمَا جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه، ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزلَ، ومن وجه يكون أعلى.

قال[1]: ولَمَّا مَثَّلَ النبي ﷺ النبوةَ بالحائط من اللَّبِن، فرآها قد كمُلت إلا موضعَ لبنةٍ، فكان هو ﷺ موضعَ اللبنة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثَّله النبي ﷺ ويرى نفسه في الحائط موضع لبنتين، ويرى نفسه تنطبع في موضع تيْنِكَ اللبنتين، فيكمُل الحائط، والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أن الحائط لبنةٌ من ذهب ولبنةٌ من فضة، واللبنة الفضة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو آخذ عن الله في السِّرّ ما هو في الصورة الظاهرة متَّبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول.

قال[2]: «فإن فهمت ما أشرنا إليه، فقد حصل لك العلم النافع».

---

(١) يعني ابن عربي في فصوص الحكم (ص٥٠ ـ ٥٧) ط. محمود غراب، (١/ ٦٣) ط. د. عفيفي.

(٢) ابن عربي في فصوص الحكم بعد الكلام السابق مباشرة (ص٥١ ط. محمود غراب)، (١/ ٦٣ ط. د. عفيفي).

قلت: وقد بسطنا الرد على هؤلاء في مواضع، وبيَّنا كشف ما هم عليه مِنَ الضلال والخيال والنفاق والزندقة»اهـ[١].

ثانياً: بيَّن الشيخُ أن ملاحدة المتصوفة وغلاتهم هم على مذهب الفلاسفة في النبوة، وأنها مكتسبةٌ، وأن النبي له ثلاثُ صفاتٍ، من حَقَّقها أصبح نبياً!:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولكن هذا بناه ابن عربي وأمثاله مِنَ الملاحدة على أصول الفلاسفة الصابئة، وهؤلاء أخذوا كلامَ الفلاسفة أخرجوه في قالب المكاشَفة والمشاهَدة.

والمَلَك عند هؤلاء ما يُتَخيَّل في نفس النبي من الصورة الخيالية وهم يقولون: إن للنبي ثلاثَ خصائص:

إحداها: أن يكون له قوةٌ قدسية ينال بها العلم بلا تعلُّم.

الثانية: أن تكون له قوةٌ نفسانية يؤثر بها في هيولى[٢] العالم.

الثالثة: أن يرى ويسمع في نفسه بطريق التخيل ما يتمثل له من الحقائق.

فيجعلون ما يراه الأنبياء من الملائكة ويسمعونه منهم إنما وجوده في أنفسهم لا في الخارج، وخاتم الأولياء عندهم يأخذ المعقولات الصريحة التي لا تفتقر إلى تخيُّل!.

ومن كان هذا قوله قال إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك

---

(١) المنهاج (٥/ ٣٣٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ١٠٧، ٣/ ٤٢٢، ٤/ ١٧١، ٣١٨)، المنهاج (٨/ ٥٩)، بغية المرتاد (ص٣٨٦، ٤٠٠).

(٢) الهيولى: في اللغة: لفظ يوناني بمعنى: الأصل والمادة.

وفي الاصطلاح: هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، فالهيولى محلٌّ للصورتين الجسمية والنوعية.

انظر: التعريفات للجرجاني (ص٢٥٧)، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٢/ ٥٣٦).

الذي يوحي إلى خاتم الأنبياء؛ فإن الملك عنده هو الخيال الذي في نفس النبي، وهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الخيال.

فهذا وأمثاله هو المكاشفة التي يرجع إليها من استغنى عن تلقي الأمور من جهة السمع، وهؤلاء هم الذين سلكوا ما أشار إليه صاحب (الإحياء)[١] وأمثاله، مِمَّن جرى في بعض الأمور على قانون الفلاسفة.

وطريق هؤلاء المتفلسفة شرٌّ من طريق اليهود والنصارى، وقد بُسِطَ الكلامُ على طريقهم في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن هؤلاء ـ مع إلحادهم وإعراضهم عن الرسول ﷺ وتلقي الهدى من طريقه وعزله في المعنى ـ: هم متناقضون، في قولٍ مختلف، يؤفك عنه من أُفِك، فكلٌّ من أعرض عن الطريقة السلفية النبوية الشرعية الإلهية، فإنه لا بد أن يضِلَّ ويتناقض، ويبقى في الجهل المركَّب أو البسيط.

وكان المقصود أولاً: بيانُ تناقض مَنْ أعرض عن الأدلة السمعية الشرعية في الأصول الخبرية كالصفات والنبوات والمعاد، وأنه من سلك طريقاً يتناول به علمَ هذه الأمور غيرَ الطريقة الشرعية النبوية، فإن قوله متناقضٌ فاسدٌ، وليس له قانون مستقيم يعتمد عليه، فكيف بمن عارضها بطريقٍ تناقضها، يعتمد فيها على آراءٍ متناقضةٍ، يحسبها براهينَ عقليةً ومشاهداتٍ ومخاطباتٍ ربانيةً، وهي خيالات فاسدة وأوهام باطلة؟! كما قال السهيلي[٢]:

---

(١) يعني الغزالي، وانظر كلامه في ذلك في الإحياء (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧)، وسيأتي في مبحث خاص تفصيل كلام أبي حامد الغزالي في المكاشفة وما يتعلق بها (٢/ ٦٢٦).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن حسين بن سعدون السهيلي، أبو القاسم، الحافظ العلامة البارع، ولد سنة ٥٠٨هـ. كان إماماً في اللغة، يتوقد ذكاءً، قال الذهبي: «قال أبو جعفر بن الزبير: كان السهيلي واسعَ =

أعوذ بالله من قياسٍ فلسفي وخيال صوفي»اهـ[(١)].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ: «ومن لم يمكنه طلب النبوة وادعاؤها ـ لعلمه بقول الصادق المصدوق ﷺ: **(لا نبيَّ بعدي)**[(٢)]. أو غير ذلك ـ كابن عربي وأمثاله ـ طلب ما هو أعلا من النبوة، وأن خاتم الأولياء أعظم من خاتم الأنبياء، وأن الوليَّ يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة المَلك، وبنى ذلك على أصل متبوعيه الفلاسفة؛ فإنَّ عندهم ما يُتَصور في نفس النبي أو الولي هي الملائكة مِنَ الأشكال النورانية الخيالية.

فالملائكة: عندهم ما يتخيله في نفسه.

والنبي: عندهم ما يتلقى بواسطة هذا التخيل.

والولي: يتلقى المعارف العقلية بدون هذا التخيل.

ولا ريب أن من تلقى المعارف بلا تخيل كان أكمل ممن تلقاها بتخيل، فلما اعتقدوا في النبوة ما يعتقده هؤلاء المتفلسفة صاروا يقولون أن الولاية أعظم من النبوة، كما يقول كثيرٌ من الفلاسفة: إن الفيلسوف

= المعرفة، غزير العلم، نحوياً متقدماً، لغوياً عالماً بالتفسير وصناعة الحديث، عارفاً بالرجال والأنساب، عارفاً بعلم الكلام وأصول الفقه، حافظاً للتاريخ القديم والحديث، ذكياً نبيهاً، صاحب اختراعات واستنباطات مستغربة»اهـ، له تصانيف منها: كتاب: الروض الأنف كالشرح للسيرة النبوية، أجاد فيه وأفاد، وذكر أنه استخرجه من مائة وعشرين مصنفاً، وله كتاب: الإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، وكتاب الفرائض، وغيرها، توفي سنة ٥٨١هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ (٤/١٣٤٨)، البداية والنهاية (٨/ ٤٦٥، حوادث سنة ٥٨١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٧١).

(١) الدرء (٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الصفدية (١/ ٦).

(٢) الحديث تقدم تخريجه، انظر (ص٤٩٧).

أعظم من النبي»اهـ[١].

ثالثاً: وبسبب اعتقاد هؤلاء المتصوفة أن الأولياءَ أفضلُ من الأنبياء، صاروا يتنقَّصونهم ويصرِّحون بذمهم:

وقد بيَّن الشيخ، فقال في معرض ذمه للاتحادية: «.. وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله ﷺ.

قال: وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له؛ وقالوا: هذا هو الله؛ فإنه مظهر من المظاهر! قال: فقلت له: محمد بن عبد الله أيضاً مظهر من المظاهر، فاجعلوه كسائر المظاهر، وأنتم تعظِّمون المظاهر كلَّها أو اسكتوا عنه، قال: فقالوا لي: محمد نبغضه؛ فإنه أظهر الفرق ودعا إليه، وعاقب من لم يقل به، قال: فتناقضوا في مذهبهم الباطل، وجعلوا الكلب والحمار أفضلَ مِنْ أفضلِ الخلق! قال لي: وهم يصرحون باللعنة له ولغيره مِنَ الأنبياء، ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادةً للشيطان وكفراً بالرحمن...

ولهذا عاب ابنُ عربي نوحاً أولَ رسول بعث إلى أهل الأرض[٢]،

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩).

(٢) قال ابن عربي في فصوص الحكم: «لو أن نوحاً عليه السلام جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه: فدعاهم جهاراً ثم دعاهم إسراراً، ثم قال لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، وقال: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾.
وذكر عن قومه أنهم تصامموا عن دعوته لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته، فعلِم العلماء بالله ما أشار إليه نوح عليه السلام في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلِم أنهم إنَّما لم يجيبوا دعوته لِمَا فيها من الفرقانِ، والفرقانُ لا يتضمن القرآن، ولهذا ما اختُصَّ بالقرآن إلا محمدٌ ﷺ وهذه الأمة التي هي خير أمة أُخرجت للناس، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يجمع الأمرين في أمر واحد، فلو أن نوحاً يأتي بمثل هذه الآية لفظاً أجابوه، فإنه شبّه ونزّه في آية واحدة، بل في نصف آية.
=

وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين، وأنجاه ومَنْ معه في السفينة وأهلك سائر أهل الأرض لمَّا كذبوه، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعظَّم قومَه الكفارَ الذين عبدوا الأصنام، وأنهم ما عبدوا إلا الله، وأن خطاياهم خَطَتْ بهم فغرِقوا في بحار العلم بالله، وهذا عادته ينتقص الأنبياءَ ويمدح الكفار، كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون، وغيرهم، ومدح عُبّاد العجل، وتنقّص هارون، وافترى على موسى[1]»اهـ[2].

رابعاً: وبيَّن الشيخ أن معتدلي الصوفية بريئون من القول بتفضيل الأولياء على الأنبياء، ونقل ذلك عن أبي عبد الله بن خفيف:

قال الشيخ رَحِمَهُ الله: «وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه: (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات): «.. ومن زعم أن الرسول ﷺ واسطٌ يؤدي، وأن المرسَلَ إليهم أفضلُ: فهو

= ونوح دعا قومه ﴿لَيْلًا﴾ من حيث عقولهم وروحانياتهم فإنها غيب، و﴿وَنَهَارًا﴾ دعاهم أيضاً من حيث ظاهر صورهم وحسّهم، وما جمع في الدعوة مثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فنفرت بواطنهم لهذا الفرقان فزادهم فراراً.
ثم قال عن نفسه: إنه دعاهم ليغفر لهم، لا ليكشف لهم، وفهموا ذلك منه ﷺ؛ لذلك ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾، وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها، فأجابوا دعوته بالفعل لا بلبيك»اهـ (ص٦٧، ط. محمود غراب).

(١) قال ابن عربي في فصوص الحكم: «فإن عبادة العجل فرّقت بينهم، فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له، ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه في ذلك، فخشي هارون أن ينسُبَ ذلك الفرقانَ بينهم إليه، فكان موسى أعلمَ بالأمر من هارون؛ لأنه علِم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأن الله قد قضى ألا يُعبد إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى أخاه هارون لِما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»اهـ (ص٣٦٠ ـ ٣٦١).

(٢) الفتاوى (١٣/١٨٩ ـ ١٩١).

كافر بالله»اهـ[1].

ونقل شيخ الإسلام ذلك ـ أيضاً ـ عن أبي بكر الكلاباذي، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «.. وشيوخ الصوفية متفقون على تفضيل الأنبياء على الأولياء، كما اتفق سائر علماء المسلمين، وقد ذكر أبو بكر الكلاباذي في كتابه «اعتقاد الصوفية» إجماعَ الصوفية على ذلك[2]»اهـ[3].

وقد رد الشيخ على من فضَّل الأولياءَ على الأنبياء، بقوله: «ومن كان رسولاً، فقد اجتمعت فيه ثلاثة أصناف: الرسالة، والنبوة، والولاية.

ومن كان نبياً، فقد اجتمع فيه الصفتان.

ومن كان ولياً فقط لم يكن فيه إلا صفة واحدة.

ومن كان لكتاب الله أتْبَعَ؛ فهو بولاية الله أحقُّ»اهـ[4].

خامساً: قول بعض الصوفية بإمكان اكتساب النبوة، وتمنِّي فريق منهم لها وسعيهم لتحصيلها:

بيَّن الشيخ أن فريقاً من هؤلاء المتصوفة يطلبون أن يحصل لهم ما يحصل للأنبياء، فيخلو أحدُهم ويتعبَّد، فتتنزَّل عليه الشياطين؛ فيظن ذلك وحياً، قال الشيخ: «وقد جُرِّب أن من سلك هذه العبادات البِدعية أتته الشياطين، وحصل له تنزُّلٌ شيطانيٌّ وخطابٌ شيطانيٌّ، وبعضهم يطير به شيطانُه وأعرِف من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم مِنْ جنس ما حصل

(١) الفتاوى (٥/ ٧١، ٨٥).

(٢) قال أبو بكر الكلاباذي في كتابه (التعرف لمذهب التصوف): «وأجمعوا جميعاً أن الأنبياءَ أفضلُ البشر، وليس في البشر من يوازي الأنبياءَ في الفضل، لا صِدّيق ولا وليّ ولا غيرهم، وإن جلّ قدره وعَظُم خطره»اهـ (ص٦٩).

(٣) الصفدية (١/ ٢٤٨).

(٤) المستدرك على الفتاوى (١/ ٢٠٦، ١٦٦)، الدرء (١/ ٩)، المنهاج (٨/ ٢٢)، الصفدية (١/ ٢٤٨)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٦٠).

للأنبياء من التنزيل، فنزلت عليهم الشياطين؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي ﷺ التي أمروا بها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]»اهـ[(١)].

وبيّن الشيخ ـ في موضع آخر ـ أن السهروردي وابن سبعين كانا يتمنّيان النبوةَ، وساق عباراتِهما في ذلك، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.. فلهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة، وصار كل من سلك سبيلهم ـ كالسهروردي المقتول وابن سبعين المغربي وأمثالهما ـ يطلب النبوةَ؛ ويطمع أن يقال له: قم فأنذر، هذا يقول: لا أموت حتى يقال لي: (قم فأنذر)، وهذا يجاور بمكة، ويعمد إلى غار حراء، ويطلب أن ينزل عليه فيه الوحي كما نزل على المُزَّمِّل والمُدَّثِّر مثلَه! وكلٌّ منهما ومن أمثالهما يسعى بأنواع السيمياء[(٢)] التي هي من السحر، ويتوهم أن معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السيمائي، ومَن لم يمكنه طلب النبوة وادعاؤها ـ لعلمه بقول الصادق المصدوق: (**لا نبيّ بعدي**)[(٣)]، أو غير ذلك ـ كابن عربي وأمثاله طلب ما هو أعلا من النبوة، وأن خاتم الأولياء أعظم من خاتم الأنبياء»اهـ[(٤)].

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٩٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٤١٤).

(٢) السيمياء: فعلياء أو فيعلاء، مأخوذ من السيماء، وهي العلامة الخفية، والسيمياء اسم صنعة، قيل: هو لفظ عربي، وقال ابن سيده: أحسبها أعجمية، والسيمياء نوع من السحر.
انظر: أبجد العلوم (١/ ١٠٦)، لسان العرب (١٥/ ٢٣٢)، التوقيف على مهمات التعاريف (١/ ٤٢٠)، مختار الصحاح (ص١٣٦).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٧٢١).

(٤) الفتاوى (٧/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الدرء (١/ ٣١٨)، الصفدية (١/ ٦)، المنهاج (٥/ ٣٣٤)، الرد على المنطقيين (٣٠٢، ٤٨٧).

سادساً: حَكَم شيخُ الإسلام على كل مَنِ ادَّعى النبوة من هؤلاء المتصوفة - ومِن غيرهم - بالكفر، وأمر بإقامة الحد عليه:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فصل: وأما الذي يدَّعي النبوة، وأنه يبيح الفاحشة اللوطية، ويحرِّم النكاح وما ذُكر من ذلك: فهذا أمر أظهرُ مِنْ أن يقال عنه، فإنه مِنَ الكافرين وأخبث المرتدين، وقَتْل هذا ومَنِ اتَّبعه واجبٌ بإجماع المسلمين، والواحد من هؤلاء إما أن يخاطَبَ بالحجة، لعل الله أن يتوبَ عليه ويهديه، وإما أن يقام عليه الحدُّ فيُقتل، فمن كان قادراً على أحد الأمرين لزمه ذلك، ومن عجَز عن هذا وهذا، فلا يُكلِّفُ الله نفساً إلا وسعها، لكن عليه أن يعرف المعروف ويحبه، وينكر المنكر ويبغضه، ويفعل ما يقدر عليه من الأمرين - من الأمر والنهي - كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليس وراء ذلك من الإيمان مثقالُ ذرةٍ)**[1]، والله سبحانه وتعالى أعلم»اهـ[2].

وقال الشيخ: «وآخرون يدَّعون ما هو عندهم أعلى من النبوة أما ختم الولاية - عند من يزعم أن الولايةَ أفضلُ من النبوة كمذهب صاحب (الفصوص) ابن عربي وأمثاله - وإما دعوى الفلسفة والحكمة - والتي هي في زعم كثير منهم أعلى من النبوة -.

وهؤلاء الملاحدة نوعان:

نوع: يزعُم أنه نزل عليه كما يدَّعي ذلك مَنْ يدعيه مِنْ ملاحدة أهل النُّسك والتصوف، ثم مِنْ هؤلاء مَنْ يقول أن الله أنزل عليه ذلك.

ومنهم: من يقول: أُلقي إليَّ، أوحِيَ إليَّ، ولا يسمي الموحِي.

وقوم: يزعمون أنهم يقولون ذلك بعقلهم ورأيهم.

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٦٩٢).

(٢) الفتاوى (٢/ ١١٠).

وقد جمع الله هؤلاء في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فذكر سبحانه مَنْ يفتري الكذب على الله، ومن يقول أنه يوحى إليه، ومن يزعم أنه يقول كلاماً مثل الكلام الذي أنزله الله.

وهذا الأصل هو مِمَّا يعلم بالضرورة مِنْ دين الرسل؛ من حيث الجملة: يُعلم أن الله إذا أرسل رسولاً، فإنما يقول ما يناقض كلامه ويعارضه مَنْ هو كافر، فكيف بمن يقدم كلامه على كلام الرسول؟

وأما المؤمنون بما جاء به، فلا يُتصوَّر أن يقدموا أقوالهم على قوله؛ بل قد أدَّبهم الله بقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ولكن البدع مشتقةٌ مِنَ الكفر؛ فلهذا كانت معارضةُ النصوص الثابتة عن الأنبياء بآراء الرجال هي من شعب الكفر؛ وإن كان المعارض لهذا بهذا يكون مؤمناً بما جاء به الرسول في غير محلِّ التعارض، وإذا كان أصلُ معارضة الكتب الإلهية بقول فلان وفلان من أصول الكفر، عُلم أن ذلك كلَّه باطلٌ، وهذا مما ينبغي للمؤمن تدبُّره؛ فإنه إذا حاسب نفسه على ذلك علم تصديق ذلك»اهـ[1].

سابعاً: قول بعضهم بإمكان الاستغناء عن الأنبياء في تلقي الدين:

قال الشيخ رحمه الله: «وكذلك كان بالشام ومصر طائفةٌ ـ مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم ـ يشرب أحدهم الخمر في نهار رمضان، وتارة يصلون وتارة لا يصلون، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم؛ بل يقولون: هذا للعامة والأنبياء، وأما مثلنا فلا يحتاج إلى الأنبياء!!.

---

(١) الدرء (٥/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

ويحكون عن بعض الفلاسفة أنه قيل له: قد بُعث نبيٌّ، فقال: لو كان الناس كلُّهم مثلي ما احتاجوا إلى نبيٍّ. ومثل هذه الحكاية يحكيها مَنْ يكون رئيسَ الأطباء، ولا يعرف الزندقة ولا يدري مضمون هذه الكلمة ما هو لجهله بالنبوات، وقيل لرئيسهم الأكبر في زمن موسى عليه السلام: ألا تأتيه فتأخذ عنه؟ فقال: نحن قوم مهديون، فلا نحتاج إلى من يهدينا!»اهـ[1].

وقال الشيخ: «.. فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام، يقرُّون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، وأنه مرسَلٌ إلى جميع الإنس؛ بل إلى الثَّقلين الإنس والجن، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك؛ مثل أن لا يقروا في الباطِن بأنه رسول الله، وإنما كان مَلِكاً مُطاعاً سَاسَ الناسَ برأيه، مِنْ جنس غيره مِنَ الملوك!.

أو يقولون: إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى.

أو: إنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياءَ خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه؛ بل لهم طريقٌ إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى.

أو: إنهم يأخذون عن الله كلَّ ما يحتاجون إليه، وينتفعون به من غير واسطة.

أو: إنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها، وأما الحقائق الباطنة، فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها.

أو: هم أعرفُ بها منه، أو: يعرفونها مثلَ ما يعرفها من غير

---

(١) الفتاوى (١٤/ ١٦٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٣/ ٢١٨ ـ ٢٢٤).

طريقته، وقد يقول بعض هؤلاء: إن أهل الصُّفَّة كانوا مستغنين عنه؛ ولم يُرسَل إليهم.

ومنهم مَنْ يقول: إن الله أوحى إلى أهل الصُّفَّة في الباطن ما أوحى إليه ليلةَ المعراج، فصار أهلُ الصُّفَّةِ بمنزلته، وهؤلاء - مِنْ فرط جهلهم - لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] وأن الصُّفَّة لم تكن إلا بالمدينة»اهـ[١].

ثامناً: ادِّعاء بعض مشايخ الصوفية أنه وليٌّ يتلقَّى مِنَ المصدر الذي يتلقى منه الرسول ﷺ!:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وهؤلاء الملاحدة مِنَ المتصوفة سلكوا مسلك ملاحدة الفلاسفة في تفضيل الفيلسوف الكبير على النبي، ولهذا قال ابن عربي[٢]: «إن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحي به إلى النبي». وقد يقال: إن هذا مبنيٌّ على أصل ملاحدة الفلاسفة، وذلك أن المعدن الذي يأخذ منه النبي عندهم هو العقل الفَعَّالُ، والقوةُ العقليةُ يسمونها: القوةَ القدسيةَ، ثم إن النفس تخيّل ما يعقله الإنسان كما يتخيله النائم في منامه، فيرى في نفسه صوراً نورانية، ويسمع أصواتاً، وهي في نفسه! فما يراه النبي ويسمعه: هو في نفسه لا في الخارج...

فلهذا قال ابن عربي: إنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحي به إلى الرسول، فإنه على أصله في الإلحاد يقول: يأخذ من العقلَ الذي هو القوة القدسية، والنبي يأخذ من الصور الخيالية التي تأخذ من العقل، ومن أخذ من العقل كان أكملَ ممن يأخذ من الخيال الذي يأخذ من العقل، ولهذا

---

(١) الفتاوى (١١/ ١٦٤ - ١٦٥)، وانظر هذا الكلام - بمعناه - في: الفرقان (ص١١).

(٢) فصوص الحكم (ص٤٩ ط. محمود غراب).

يدَّعي بعضهم أنه أفضلُ من موسى بن عمران، وأن التكليم الذي حصل لهم أعظمُ من التكليم الذي حصل لموسى؛ لأن الكلام عندهم ليس خارجاً عن نفس موسى، بل هو فيضٌ فاض عليه كما يفيض على غيره»اهـ(١).

تاسعاً: الوحي عند غلاتهم هو إلهامات تفيض على النفس:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **في معرض رده على مِنَ قال من المتصوفة**: إن الأولياء لا يحتاجون إلى التلقِّي عن الرسول: «ومن المعلوم أن الله فضّل بعض الرسل على بعض، وفضّل بعض النبيين على بعض، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

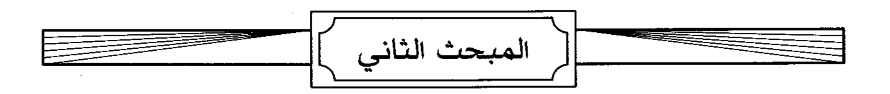
كما خص موسى بالتكليم، فلا يمكن عامَّة الأنبياء والرسل أن يسمع كلام الله كما سمعه موسى، ولا يمكن غير محمد ﷺ أن يدرك بنفسه ما أراه الله محمداً ﷺ ليلة المعراج وغير ليلة المعراج، فإذا كان إدراكُ مثلِ ذلك لا يحصل للرسل والأنبياء، فكيف يحصل لغيرهم؟

ولكن الذي قال هذا يظن أن تكليم الله لموسى من جنس الإلهامات التي تقع لآحاد الناس، ولهذا ادَّعَوْا أن الواحد مِنْ هؤلاء قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى بن عمران»اهـ(٢).

ومما سبق يتبين لنا أن فريقاً من المتصوفة قد انحرفوا انحرافاً كبيراً في النبوة والرسالة، غُلُوّاً أو جفاءً؛ فمنهم من رأى أن النبوة يمكن أن تحصل في هذه الأمة لغير الرسول ﷺ، فسعَوْا إلى طلبها والحصول عليها، وبعضهم تنقَّص مقام النبوة، حتى صارت النبوةُ غيرَ معظَّمةٍ عنده، وخيرُ السبيل ما كان عليه السلف الصالح، نسأل الله الهدى والسداد.

---

(١) الصفدية (١/ ٢٤٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٣/ ٢٩).
(٢) الدرء (٥/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥)، الصفدية (١/ ٢٣٠)، النبوات (ص٢٧٤).


المبحث الثاني

المعجزات

المعجزة في اللغة: اسم فاعل، مأخوذ من العجز، الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء، من عملٍ أو رأيٍ أو تدبيرٍ[(١)].

والمعجزة في العرف: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدِّي، سالم عن المعارضة[(٢)].

وهي في الاصطلاح: ما خرق العادة من قول أو فعل، إذا وافق دعوى الرسالة، وقارنها وطابقها، على جهة التحدِّي ابتداءً، بحيث لا يقدر أحد على مثلها، ولا على ما يقاربها[(٣)].

ولم أقف لشيخ الإسلام على كلام كثير حول مذهب الصوفية في المعجزات، إلا أنه تكلم عن بعض غلاة المتصوفة كالسهروردي وابن سبعين، وبيَّن أنهما كانا يتمنيان النبوة، ويتعاطيان السيمياء، ويزعُمان أن معجزاتِ الأنبياء هي من جنس السحر والسيمياء:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلهذا كانت النبوةُ عندهم مكتسبةً، وصار كل من سلكِ سبيلهم ـ كالسهروردي المقتول وابن سبعين المغربي وأمثالهما ـ يطلب النبوة، ويطمع أن يقال له: قم فأنذر، هذا يقول: لا أموت حتى يقال لي: (قم فأنذر)! وهذا يجاور بمكة ويعمد إلى غار حراء؛ ويطلب أن

(١) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي (١/ ٦٥ ط).

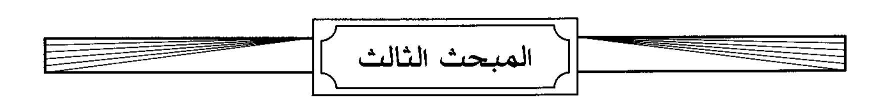
(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

ينزل عليه فيه الوحي كما نزل على المُزَّمِّل والمُدَّثِّر مثله، وكلٌّ منهما ومِنْ أمثالهما يسعى بأنواع السيمياء التي هي من السحر؛ ويتوهم أن معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السيمائي»اهـ[1].

❖ ❖ ❖

(١) الفتاوى (٧/٥٨٨).


المبحث الثالث

موقفهم من الولاية

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

الولاية هي المحبة والقرب، وهي ضد العداوة، ومن كان لله تقياً كان لله ولياً، وأفضل الأولياء هم الأنبياء.

وولاية الله تعالى لعبده هدايتُه إلى طاعته ومحبته ونصرة دينه، وولاية العبد لله تقتضي الإيمانَ به سبحانه والتقرب إليه بطاعته وترك مساخطه، وخشيته ومراقبته.

ويُعرِّف الصوفية الولاية بأنها: **(قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولّي الحق إياه حتى يبلغ غاية مقام القرب والتمكين)**(١).

والوليّ عندهم: **(من تولى الحقُّ أمرَه، وحفِظه من العصيان، ولم يُخَلِّه ونفسَه بالخذلان، حتى يبلغه الكمال مبلغ الرجال، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦])**(٢).

وقبل أن أشرع في بيان ما ذكره شيخ الإسلام من مذهب الصوفية في الولاية، أُحبُّ أن أُقدم قبل ذلك بذِكر:

---

(١) اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص٧٩).

(٢) المصدر السابق (ص٧٩).

قواعد وضوابط عامة في الولاية والأولياء عند شيخ الاسلام:

أولاً: الولاية نوعان: شرعية وبدعية:

تعريف الولاية الشرعية في اللغة:

في اللغة: هو القريب، قال الشيخ: «(الولي) مشتقٌّ من الولاء، وهو القرب[1]؛ كما أن العَدُوَّ من العَدْو وهو: البعد[2]، فوليُّ الله مَنْ والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته»اهـ[3].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والولاية ضد العداوة؛ وأصل الولاية: المحبة والقرب. وأصل العداوة: البغض والبعد، وقد قيل: إن الوليَّ سُمِّي ولياً من موالاته للطاعات، أي: متابعته لها، والأول أصح، والولي: القريب، فيقال: هذا يلي هذا؛ أي: يقرُب منه، ومنه قوله ﷺ: (**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض، فلأولى رجلٍ ذكرٍ**)[4]، أي لأقرب رجل إلى الميت، وأكّده بلفظ (الذكر) ليبين أنه حكم يختص بالذكور ولا يشترك فيها الذكور والإناث، كما قال في الزكاة: (**فابن لبون ذكر**)[5]،

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥/ ٤٠٧)، تهذيب اللغة (١٥/ ٤٤٧).

(٢) عَدا: أبعد: وتَعادى: تباعد، والعدوُّ: ضد الصديق، للواحد والجمع، والذكر والأنثى، وقد يثنَّى ويجمع ويؤنث، ويجمع على: أعداء، وجمع الجمع أعادٍ، وعِدا.

انظر مادة: عدا، في: لسان العرب (١٥/ ٣١)، القاموس (ص١٦٨٨)، تاج العروس (١٩/ ٦٥٩ مادة: عدو).

(٣) الفتاوى (١١/ ٦٢).

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه، ٦/ ٢٤٧٦/ ٦٣٥١)، ومسلم (كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها، ٣/ ١٢٣٣/ ١٦١٥)، من حديث: عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، =

فإذا كان وليُّ الله هو الموافقَ المتابعَ له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له، كما قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، فلهذا قال: **(ومن عادى لي ولياً، فقد بارزني بالمحاربة)**»اهـ[1].

تعريف الولاية الشرعية، في الشرع:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولاية الله: هي موافقته: بالمحبة لِمَا يحب، والبغض لِمَا يبغض، والرضا بما يرضى، والسخط بما يسخط، والأمر بما يأمر به، والنهي عما ينهى عنه، والموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه، كما في (صحيح البخاري) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (**يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً، فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يسعى، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعلُه ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه**)[2]، فهذا أصحُّ

= ٢/ ٩٨/ ١٥٦٨)، والترمذي (كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الإبل والغنم، ٣/ ١٧/ ٦٢١)، وابن ماجه (كتاب الزكاة، باب صدقة الإبل، ١/ ٥٧٣/ ١٧٩٨)، من حديث: عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٣٠٠/ ح١٤٥٤).

(١) الفتاوى (١١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، الفرقان (ص٧ ـ ٨).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٤).

حديث رُوِي في الأولياء»اهـ[١].

ثانياً: لا بدّ أن تكون الولاية مضبوطةً بضوابط الكتاب والسنة:

قال الشيخ: «ولهذا كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم، يأمرون أهل القلوب أرباب الزهد والعبادة، والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة:

قال الجنيد بن محمد: عِلْمُنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم بعلمنا.

وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إنه لتمر بقلبي النكتة من نُكِتَ القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة.

وقال أيضاً: ليس لمن أُلهم شيئاً من الخير أن يفعلَه حتى يسمع فيه بأثر.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة؛ فإن الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

وقال آخر: من لم يتَّهم خواطرَه في كل حال، فلا تعُدَّه في ديوان الرجال.

وقيل لأبي يزيد البسطامي: قد قدِم شيخٌ من أصحابك، فذهب ليزورَه، فرآه قد بصق في القبلة؛ فقال: ارجعوا بنا! هذا رجل لم يأتمنه الله على أدب من آداب الشريعة، فكيف يأتمنه على سرِّه[٢]؟ وهذا الذي فعله أبو يزيد يُستدل عليه بما في السنن ـ (سنن أبي داود) وغيره ـ

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٥/ ٣١٦)، الفرقان (ص١٠٢)، الاستقامة (٢/ ١٢٨).

(٢) ذكر القصة القشيري في الرسالة القشيرية (ص٢٦٠، ط. دار الخير).

أن رجلاً كان إماماً في مسجد من مساجد الأنصار ـ فإن كل قبيلة كان لها مسجد ـ فجاء النبي ﷺ فرأى بصاقاً في القِبلة؛ فقال: **(من فعل هذا؟)**، فذكروا الإمام! فنهاهم أن يُصلُّوا خلفَه، فلما جاء ليؤمَّهم منعوه، وقالوا: إن رسول الله ﷺ نهانا أن نصلي خلفك؛ فجاء إليه فذكر ذلك له، فقال: **(صدقوا، إنك آذيت الله ورسوله)**[(١)].

وقال غيرُ واحد من الشيوخ والعلماء: لو رأيتم الرجلَ يطير في الهواء، ويمشي على الماء! فلا تغتروا به؛ حتى تنظروا وقوفَه عند الأمر والنهي، ومثل هذا كثير في كلام المشايخ والعارفين وأئمة الهدى.

وأفضل أولياء الله عندهم أكملُهم متابعةً للأنبياء؛ ولهذا كان الصدّيق أفضلَ الأولياء بعد النبيين، فما طلَعت شمس ولا غرَبت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر؛ لكمال متابعته، وهم كلُّهم متفقون على أنه لا طريق للعباد إلى الله إلا باتباع الواسطة الذي بينهم وبين الله وهو: الرسول ﷺ.

ولكن دخل في طريقهم أقوامٌ ببدعٍ وفسوقٍ وإلحاد، وهؤلاء مذمومون عند الله وعند رسوله ﷺ وعند أولياء الله المتقين ـ وهم صالحو عباده ـ مثل من يظن أن لبعض الأولياء طريقاً إلى الله بدون اتباع الرسول ﷺ، أو يظن أن من الأولياء من يكون مثل النبي ﷺ أو أفضل منه، أو أنه يكون مَن هو خاتم الأولياء أفضل من السابقين الأولين، أو

---

(١) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب في كراهية البزاق في المسجد، ١/ ١٣/ح٤٨١)، وابن حبان (كتاب الصلاة، باب إيذاء الله جل وعلا بمن بصق في قبلة المسجد، ٤/ ٥١٥/ح١٦٣٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٥٦/ ح١٦٦١٠)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢١٥/ح٦٢٢١)، من حديث: أبي سهلة السائب بن خلاد، والحديث حسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود ١/ ١٣٠/ ح٤٨١).

أعلم بالله من خاتم الأنبياء، وأمثال هذه المقالات التي تقوَّلَها مَن دخل فيهم من الملاحدة الضالين، ومن هذا الوجه صار قومٌ متصوفون يتفلسفون»اهـ[(١)].

ثالثاً: أولياء الله تعالى على درجتين:

مقتصدين، وسابقين مقربين:

قال الشيخ: «فصلٌ: وأولياء الله على طبقتين:

- سابقون مقربون.
- وأصحاب يمين مقتصدون.

ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز في أول سورة الواقعة وآخرها، وفي سورة الإنسان، والمطففين، وفي سورة فاطر.

فإنه ﷻ ذكر في الواقعة: القيامة الكبرى في أولها، وذكر: القيامة الصغرى في آخرها، فقال في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١ ـ ١٤].

فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين، كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع، ثم قال تعالى في آخر السورة: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي: فهلَّا ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ

(١) الرد على المنطقيين (ص٥١٣ ـ ٥١٦).

مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٥].

وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ الآيات [الإنسان: ٣ ـ ١٢].

وكذلك ذكر في سورة المطففين، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢٨]..

وأولياء الله تعالى على نوعين: مقربون وأصحاب يمين ـ كما تقدم ـ وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء، فقال: **(يقول الله تعالى: مَنْ عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها)**[1].

فالأبرار أصحاب اليمين: هم المتقرِّبون إليه بالفرائض؛ يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلِّفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٤).

وأما السابقون المقربون: فتقرَّبوا إليه بالنوافل بعد الفرائض؛ ففعلوا الواجبات والمستحبَّات، وتركوا المحرَّمات والمكروهات، فلما تقرَّبوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً، كما قال تعالى: **(ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه)** يعني: الحبَّ المطلقَ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: أنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فهؤلاء المقرَّبون صارت المباحاتُ في حقهم طاعاتٍ يتقرَّبون بها إلى الله ﷻ، فكانت أعمالُهم كلُّها عباداتٍ لله؛ فشربوا صِرفاً كما عملوا له صِرفاً.

والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم؛ فلا يُعاقَبون عليه ولا يُثابون عليه؛ فلم يشربوا صرفاً، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا»اهـ(١).

رابعاً: ليس للولاية طريق غير طريق النبوة:

قال الشيخ: «كل مَنْ بلغه رسالةُ محمد ﷺ لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد ﷺ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسُّط محمد ﷺ، وكذلك مَنْ بلغه رسالةُ رسول إليه لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسولَ الذي أُرسل إليه، ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد

(١) الفتاوى (١١/ ١٧٦ ـ ١٨٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٦٢، ٥٤٩)، الفرقان (ص٢٠)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٥٨)، المستدرك على الفتاوى (١/ ١٦٤).

فهذا كافر ملحد، وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، فهو شرٌّ من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمداً رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب، فإن أولئك آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، فكانوا كفاراً بذلك.

وكذلك هذا الذي يقول إنّ محمداً بُعِثَ بعلم الظاهر دون علم الباطن، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعضٍ، فهو كافر، وهو أكفر من أولئك؛ لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها، هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة.

فإذا ادعى المدعي أن محمداً ﷺ إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان، وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة، فقد ادَّعى أن بعض الذي آمن به مِمَّا جاء به الرسول دون البعض الآخر، وهذا شرٌّ ممن يقول: أُؤمن ببعضٍ وأكفر ببعضٍ، ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين»اهـ[1].

وبيَّن الشيخ ذلك ـ أيضاً ـ في جوابٍ له لَمَّا: «سئل رحمه الله تعالى فيمن يقول: إن غير الأنبياء يبلغ درجتهم، بحيث يأمنون مكر الله! هل يأثم بهذا الاعتقاد؟.

فأجاب: من اعتقد أن في أولياء الله من لا يجب عليه اتباع المرسلين وطاعتهم، فهو كافر يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، مثل من يعتقد أن في أمة محمد ﷺ من يَستغني عن متابعته كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ﷺ، فإن موسى لم تكن دعوته عامَّةً؛ بخلاف محمد ﷺ فإنه مبعوث إلى كل أحدٍ، فيجب على كل أحدٍ متابعة أمره، وإذا كان من

(١) الفتاوى (١١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

اعتقد سقوطَ طاعته عنه كافراً، فكيف من اعتقد أنه أفضلُ منه؟ أو أنه يصير مثلَه؟ وأما من اعتقد أن من الأولياء من يعلم أنه من أهل الجنة، كما بُشِّر غيرُ واحد من الصحابة بالجنة، وكما قد يُعَرِّف اللهُ بعضَ الأولياء أنه من أهل الجنة، فهذا لا يكفر، ومع هذا فلا بد له من خشية الله تعالى، والله أعلم»اهـ(١).

خامساً: أفضل أولياء الله هم الأنبياء عليهم السلام:

قال الشيخ: «وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٧، ٨]»اهـ(٢).

سادساً: الأولياء نوعان: أولياء الرحمن، أولياء الشيطان، وبينهما فرق:

قال الشيخ: «وهذه الأمور الخارقة للعادة، وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله، فقد يكون عدواً لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين، وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يُظَنَّ أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه وليٌّ لله؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دلَّ عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة،

---

(١) الفتاوى (٤/ ٣١٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٣/ ٤٢٢)، الفرقان (ص١١).

(٢) الفتاوى (١١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

وشرائع الإسلام الظاهرة. مثال ذلك: أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها، قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون ملابساً للنجاسات معاشراً للكلاب، يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل، رائحته خبيثة، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف، وقد قال النبي ﷺ: **(لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب)**[1].

وقال عن هذه الأخلية: **(إنَّ هذه الحشوشَ محتَضَرَةٌ)**[2]، أي: يحضرها الشيطان.

وقال: **(من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربنَّ مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)**[3]، وقال: **(إن الله طيب لا يقبل إلا طيِّباً)**[4].

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، ٣/١٢٠٦/٣١٤٤)، ومسلم (كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، ٣/ ١٦٦٥/ ٢١٠٦) من حديث: أبي طلحة رضي الله عنه، بلفظ: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة). أما اللفظ الذي ذكره المصنف، فأخرجه أبو داود (كتاب الطهارة، باب في الجنب يؤخر الغسل، ١/ ٥٨/ ٢٢٧)، والنسائي (كتاب الطهارة، باب في الجنب إذا لم يتوضأ، ١/ ١٤١/ ٢٦٧) من حديث: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الطهارة، باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، ١/ ٢/ ٦)، وابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، ١/ ١٠٨/ ٢٩٦)، والحاكم (كتاب الطهارة، ١/ ٢٩٧/ ٦٦٨) من حديث: زيد بن أرقم رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٥٤/ ح٢٤١).

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأطعمة، باب ما يكره من الثوم والبقول، ٥/ ٢٠٧٧/ ٥١٣٧)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً، ١/ ٣٩٥/ ٥٦٤)، من حديث: جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) الحديث: رواه مسلم (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب =

وقال: **(إن الله نظيف يحب النظافة)**(١).

وقال: **(خمس من الفواسق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحرم: الحية، والفأرة، والغراب، والحِدَأة، والكلب العقور)**(٢)، وفي رواية: **(الحية والعقرب)**(٣).

وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب:

وقال: **(من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً نقص من عمله كلَّ يوم قيراط)**(٤).

وقال: **(لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب)**(٥).

= وتربيتها، ٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥)، والترمذي (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة البقرة، ٥/ ٢٢٠/ ٢٩٨٩)، المعجم الصغير (١/ ١٤٤/ ح٣٣٠، باب الجيم ـ من اسمه جعفر)، وابن حبان (كتاب الإيمان، باب ما جاء في الصفات، ١/ ٥٠٤/ ٢٧٠) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث: رواه الترمذي (كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، ٥/ ١١١/ ٢٧٩٩)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ١٢١/ ح٧٩١)، والبزار في مسنده (٣/ ٣٢٠/ ح١١١٤)، من حديث: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والحديث ضعفه الألباني (ضعيف الجامع الصغير ٢/ ٨٥/ ح١٥٩٦).

(٢) الحديث: رواه البخاري (أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، ٢/ ٦٥٠/ ١٧٣٢)، ومسلم (كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب، ٢/ ٨٥٦/ ١١٩٨) من حديث: عائشة رضي الله عنها.

(٣) الحديث: رواه النسائي (كتاب المناسك، باب قتل الحية في الحرم، ٥/ ٢٠٨/ ٢٨٨٢)، وابن ماجه (كتاب المناسك، باب ما يقتل المحرم، ٢/ ١٠٣١/ ٣٠٨٧) من حديث: عائشة رضي الله عنها، وقال الألباني: صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٩٢/ ح٢٥٠٥).

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب المزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث، ٢/ ٨١٨/ ٢١٩٧)، ومسلم (كتاب المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه، ٣/ ١٢٠٢/ ١٥٧٤)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الحديث: رواه مسلم (كتاب اللباس والزينة، باب كراهة الكلب والجرس في =

وقال: (**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم، فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب**)(١).

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان.

أو: يأوي إلى الحمامات والحُشوش التي تحضرها الشياطين.

أو: يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائثُ وفواسقُ.

أو: يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان.

أو: يدعو غيرَ الله؛ فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها.

أو: يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يُخلص الدين لرب العالمين.

أو: يلابس الكلاب أو النيران.

أو: يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة.

= السفر، ٣/ ١٦٧٢/ ٢١١٣)، وأبو داود (كتاب الجهاد، باب في تعليق الأجراس، ٣/ ٢٥/ ٢٥٥٥)، والترمذي (كتاب الجهاد، باب ما جاء في كراهية الأجراس على الخيل، ٤/ ٢٠٧/ ١٧٠٣)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، ١/ ٧٥/ ١٧٠)، ومسلم (كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، ١/ ٢٣٤/ ٢٧٩)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

أو: يأوي إلى المقابر، ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين.

أو: يكره سماع القرآن وينفر عنه، ويقدِّم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويُؤْثِرُ سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن. **فهذه علامات أولياء الشيطان، لا علامات أولياء الرحمن.**

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن؛ فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله(١).

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طَهُرَتْ قلوبُنا لَمَا شبعت من كلام الله عز وجل(٢).

وقال ابن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماءُ البقلَ، والغناءُ ينبت النفاقَ في القلب، كما ينبت الماءُ البقلَ(٣).

وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة، فارقاً بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

---

(١) الأثر: رواه ابن الجعد في مسنده (ص٢٩٠/١٩٥٦، ط. مؤسسة نادر، لبنان ـ بيروت، الأولى ١٤١٠هـ) بلفظ: قال عبد الله رضي الله عنه: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه، فهو يحب الله ورسوله ﷺ.اهـ.

(٢) الأثر: أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢/ ١٨٢)، والبيهقي في الاعتقاد (٢/ ١٠٥).

(٣) الأثر: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٢٣/ ٢٠٧٨١) عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع والذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع»اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**). قال الترمذي: حديث حسن(١).

وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في (البخاري) وغيره، قال فيه: (**لا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه**)(٢).

فإذا كان العبد من هؤلاء فرَّق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يفرق الصَّيْرَفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزِّيفِ، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان.

وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبئ الكذاب، فيفرَّق بين محمد ﷺ الصادق الأمين رسول رب العالمين، وموسى والمسيح،

---

(١) الحديث: رواه الترمذي وقال: حديث غريب (كتاب تفسير القرآن، بابٌ ومن سورة الحجر، ٥/ ٢٩٨/ ح٣١٢٧)، من حديث: أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والطبراني في الصغير (٣/ ٣١٢/ ح٣٢٥٤) وفي الأوسط (٨/ ١٠٢/ ح٧٤٩٧)، وأبو عبد الله القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧/ ح٤٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني، وإسناده حسن. اهـ. والحديث ضعفه الألباني (ضعيف سنن الترمذي، ص٣٨٧/ ح٦٠٧)، وضعيف الجامع الصغير (١/ ٨٧/ ح١٢٧).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٢٤).

وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب[١]، والأسْوَد العنسي[٢]، وطُليحة الأسدي[٣]، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي[٤]، وغيرهم من الكذَّابين، وكذلك يفرَّق بين أولياء الله المتقين، وأولياء الشيطان الضالين»اهـ[٥].

سابعاً: بعض الناس يستعمل الجن لإظهار ولايته، واستعمال الإنس للجن على ثلاثة أحوال:

قال الشيخ: «والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال:

---

(١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي، الكذاب، ادعى النبوة على عهد النبي ﷺ وصار له أتباع، وتوفي النبي ﷺ قبل القضاء عليه، ثم قاتله الصحابة ﷺ، وقتله وحشي بن حرب ﷺ سنة ١٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٦٤)، الأعلام (٧/ ٢٢٦).

(٢) هو عبهلة بن كعب بن عوف، الأسود العنسي، أسلم لمَّا أسلمت اليمن، وارتدّ في أيام النبي ﷺ وادّعى النبوة، وكانت رِدَّته أولَ ردةٍ في الإسلام على عهد النبي ﷺ، ولمَّا تطاول أمره أمر النبي ﷺ المسلمين الذين في اليمن أن يقتلوه، فقتلوه سنة ١١هـ، وكان أمره من أوله إلى آخره قريباً من أربعة أشهر.
انظر: البداية والنهاية (٦/ ٣٤٧)، الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٣٦).

(٣) هو طُليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي، قدم على النبي ﷺ في وفد بني أسد وأسلم، ثم ارتدَّ بعد ذلك، وتبعه بعض العرب عصبيةً، أرسل إليه أبو بكر خالد بن الوليد، فانهزم طليحة وفر إلى الشام، ثم بلغه أن قومه أسلموا فأسلم، وقيل: إنه استشهد في نهاوند سنة ٦٩هـ.
انظر: الإصابة (٣/ ٥٤٢)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٤٣).

(٤) البابا: اسم عام عند النصارى، كان يطلق على الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية، ثم أصبح يطلق على رئيس الكنيسة الأرثوذكسية أيضاً، وشيخ الإسلام هنا يريد شخصاً بعينه ادعى النبوة (لأنه قرنه بمدعي النبوة) لكني لم أقف عليه.
انظر: دائرة المعارف الحديثة لأحمد عطية الله (ص٢٤٢، ٦١٧)، المعجم الوسيط (١/ ٣٥).

(٥) الفتاوى (١١/ ٢١٤ ـ ٢١٨)، الفرقان (ص٥٢ ـ ٥٧).

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله: من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ونوابه، ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له، فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم، وينهاهم عمَّا حُرِّم عليهم ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك.

وهذا إذا قُدِّر أنه من أولياء الله تعالى، فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول، كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى اللهُ عنه ورسولُه: إما في الشرك، **وإما** في قتل معصوم الدم، أو في العدوان عليهم بغير القتل؛ كتمريضه وإنسائه العلم، وغير ذلك من الظلم، **وإما** في فاحشةٍ كجَلْب من يطلب منه الفاحشة، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاصٍ: إما فاسق، وإما مذنب غير فاسق.

وإن لم يكن تامَّ العلم بالشريعة، فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات: مثل أن يستعين بهم على الحج، أو أن يطيروا به عند السماع البِدعي، أو أن يحملوه إلى عرفات، ولا يحج الحجَّ الشرعيَّ الذي أمره الله به ورسولُه، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة، ونحو ذلك، فهذا مغرور قد مكروا به، وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارقُ للعادات، وليس عنده من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرّق به بين الكرامات الرحمانية وبين التلبيسات الشيطانية، فيمكرون به بحسب اعتقاده، فإن كان مشركاً يعبد الكواكب والأوثان أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة ويكون قصده الاستشفاع

والتوسل ممن صوّر ذلك الصنمَ على صورته، من ملك، أو نبي، أو شيخ صالح، فيظن أنه صالح، وتكون عبادته في الحقيقة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١]»اهـ[١].

ثامناً: ليس من شرط الوليّ أن يكون متفرّغاً للعبادة، ولا مُنصرفاً عن أشغال الدنيا، بل قد يكون تاجراً، أو فلاحاً، أو نحو ذلك:

قال الشيخ في معرض كلامه عن غلو بعض الناس في زُهّاد المشايخ المنصرفين عن الدنيا: «وإذا عُلم هذا: فكثير من المشهورين بالمشيخة في هذه الأزمان قد يكون فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك، بل قد يكون فيهم المنافق والفاسق، كما أن فيهم مَن هو من أولياء الله المتقين، وعبادِ الله الصالحين، وحزبِ الله المفلحين، كما أن غير المشايخ فيهم هؤلاء ـ وهؤلاء في الجنة ـ كالتجار والفلاحين وغيرهم من الأصناف»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر، من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظُفْرِه، إذا كان مباحاً، كما قيل: كم من صِدِّيق في قِباء[٣] وكم من زِنديق في عَباء[٤].

---

(١) الفتاوى (١١/٣٠٧ ـ ٣٠٨)، الفرقان (ص١٣٠ ـ ١٣١).

(٢) الفتاوى (١٨/٣١٣).

(٣) القباء: نوع من الثياب يُكتسى به، فاخر غالي الثمن، والجمع: أقبية.
انظر مادة: قبو: تاج العروس (٢٠/٦٣)، القاموس (ص١٧٠٥)، لسان العرب (١٥/١٦٨، مادة قبو).

(٤) العباء: نوع من الثياب يُكتسى به، رديء النوع، رخيص الثمن. =

بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع.

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]»اهـ[١].

وهذه الأصول والضوابط العامة ذكرها شيخ الإسلام في مواضعَ متفرقةٍ من كتبه، وقد قدّمتها بين يدي الكلام عن الولاية عند المتصوفة، ليتضح لدينا منهج شيخ الإسلام في حكاية مذهب المتصوفة في الولاية والرد عليهم.

أما ما ذكره شيخ الإسلام من مذهب الصوفية في الولاية والأولياء، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: عصمة الأولياء:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم الجنيدُ رحمة الله عليه: عِلْمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يُقتدَى به[٢]. وقال أبو عثمان

= انظر: تاج العروس (١٩/ ٦٥٤، مادة: عبى)، القاموس: (ص١٦٨٨، مادة: عبو)، لسان العرب (١٥/ ٢٦، مادة: عبا).

(١) الفتاوى (١١/ ١٩٤).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي بسنده في تاريخ بغداد (٧/ ٢٤٣، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠)، وذكره الذهبي في سير الأعلام (١٤/ ٦٧).

النيسابوري: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤][١]. وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وَجْد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل[٢].

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع، فيظن في شخص أنه وليٌّ لله ويظن أن وليَّ الله يُقبل منه كلّ ما يقوله، ويسلِّم إليه كل ما يقوله، ويسلِّم إليه كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقَه فيما أخبر، وطاعتَه فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين، وجنده المفلحين، وعباده الصالحين، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجرُّه مخالفة الرسول وموافقةُ ذلك الشخص أولاً إلى: البدعة والضلال، وآخراً إلى: الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ

---

(١) أورده أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٤٤) في ترجمة أبي عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص٣٤٣).

كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧].

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفي (المسند) ـ وصححه الترمذي ـ عن عدي بن حاتم في تفسيره هذه الآية لمَّا سأل النبيَّ ﷺ عنها، فقال: ما عبدوهم! فقال النبي ﷺ: **(أحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلال، فأطاعوهم، وكانت هذه عبادتهم إياهم)**(١).

ولهذا قيل في مثل هؤلاء: إنما حُرِموا الوصولَ بتضييع الأصول، فإن أصل الأصول تحقيقُ الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به الرسول ﷺ، فلا بد من الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق، إنسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم، علمائهم وعُبَّادهم، ملوكِهم وسوقتِهم، وأنه لا طريق إلى الله ﷻ لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطناً وظاهراً، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٥٧٢).

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢]، قال ابن عباس ﵄: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمدٌ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصُرنَّه[1].

وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٥].

وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ مقلداً في ذلك لمن يظن أنه وليٌّ لله؛ فإنه بنى أمرَه على أنه وليُّ لله، وأن وليَّ الله لا يُخالَف

---

(١) الأثر: أورده ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٤٣٤، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ) عن ابن عباس ﵁ بلفظ: (ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمدٌ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه)اهـ، وعزاه إلى البخاري (ولم أعثر عليه عند البخاري)، وأورده ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس ﵁ باللفظ الذي ذكره شيخ الإسلام (١/ ٣٧٩) عند كلامه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، ولم يعزه إلى أحد.

في شيء!! ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله ـ كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ لم يُقْبَلْ منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟!.

وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله:

أنه قد صدر عنه مكاشفةٌ في بعض الأمور.

أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل:

أن يشير إلى شخص فيموت.

أو: يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها.

أو: يمشي على الماء أحياناً.

أو: يملأ إبريقاً من الهواء.

أو: ينفق بعض الأوقات من الغيب.

أو: أن يختفي أحياناً عن أعين الناس.

أو: أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاءه، فقضى حاجته.

أو: يخبر الناس بما سُرِق لهم، أو بحال غائب لهم، أو مريض.

أو نحو ذلك من الأمور.

وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها وليٌّ لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يُغترَّ به حتى يُنظَرَ متابعتُه لرسول الله ﷺ وموافقتُه لأمره ونهيه»اهـ[1].

وقد رد الشيخ على هذا القول، وبيّن أنه ليس من شرط الوليِّ أن يكون معصوماً.

(١) الفتاوى (١١/ ٢١٠ ـ ٢١٤).

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليس من شرط وليِّ الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبّسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان.

وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى، فإن الله ﷻ تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: **(قد فعلت)**[1]، ففي (صحيح مسلم) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبَهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشدّ منه، فقال النبي ﷺ: **(قولوا: سمعنا وأطعنا وسلّمنا)**، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب بيان أنه ﷻ لم يكلف إلا ما يطاق، ١/١١٦/١٢٦)، والترمذي (كتاب تفسير القرآن، بابٌ ومن سورة البقرة، ٥/٢٢١/٢٩٩٢)، من حديث: عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله: (قد فعلت) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: (قد فعلت) ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قال: (قد فعلت)، وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أنه قال: (**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر**)[(١)]، فلم يُؤَثِّم المجتهد المخطئ، بل جعل له أجراً على اجتهاده، وجُعِلَ خطؤه مغفوراً له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه.

ولهذا لَمَّا كان وليُّ الله يجوز أن يغلط؛ لم يجب على الناس الإيمانُ بجميع ما يقوله من هو وليٌّ لله؛ إلا أن يكون نبياً، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يُلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقاً للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعَه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه قبِله وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: طرفان ووسط:

فمنهم: من إذا اعتقد في شخص أنه وليٌّ لله، وافقه في كل ما يظن أنه حدَّث به قلبُه عن ربه، وسلَّم إليه جميعَ ما يفعله.

ومنهم: من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع، أخرجه عن ولاية الله بالكلية، وإن كان مجتهداً مخطئاً.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ٦/٢٦٧٦/٦٩١٩)، ومسلم (كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ٣/١٣٤٢/١٧١٦)، من حديث: عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وخيارُ الأمور أوساطها: وهو أن لا يجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يُتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتِّباعُ ما بعث الله به رسولَه، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول: هذا خالف الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **(قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم)**(١)، وروى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: **(لو لم أُبعث فيكم لبُعث فيكم عمر)**(٢)، وفي حديث آخر: **(إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه)**(٣)، وفيه:

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر رضي الله عنه، ٣/ ١٣٤٩/ ٣٤٨٦)، ومسلم (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، ٤/ ١٨٦٤/ ٢٣٩٨)، من حديث: عائشة رضي الله عنها.

(٢) الحديث: أورده الغزالي في الإحياء (٣/ ٢٣٥) بلفظ: أنه ﷺ قال لعمر: (لو لم أُبعث لبعثتَ يا عمر)، وقال العراقي: رواه الديلمي من حديث أبي هريرة، وهو منكر، والمعروف من حديث عقبة بن عامر: (لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر بن الخطاب) رواه الترمذي وحسّنه [كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٥/ ٦١٩/ ٣٦٨٦]، وأخرجه ابن عدي [الكامل في الضعفاء ٣/ ١٥٥، ٢١٦، ٤/ ١٩٤] بلفظ: (لو لم أبعث فيكم لبعث عمر فيكم)، رواه من طريقين في أحدهما: عبد الله بن واقد الحراني وهو متروك، وفي الآخر: رشدين بن سعد، وقال [ابن عدي]: قلَبَ رشدين متنه، ورواه أيضاً من حديث بلال، وفيه زكريا بن يحيى الوقَّاد، وهو كذاب. اهـ.

(٣) الحديث: رواه الترمذي بلفظ: (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)، في (كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٥/ ٦١٧/ ٣٦٨٢) من حديث: ابن عمر، وأبو داود بلفظ: (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به)، في (كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تدوين العطاء، =

(لو كان نبي بعدي)[1]، **(إن السكينة تنطق على لسان عمر)**[2]، ثبت هذا عنه من رواية الشعبي، وقال ابن عمر: ما كان عمر يقول في شيء: إني لأُراه كذا إلا كان كما يقول[3]، وعن قيس[4] عن[5] طارق[6] قال: كنا

= ٣/ ١٣٩/ ٢٩٦٢)، من حديث: أبي ذر رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٠٤/ ح٢٩٠٨).

(١) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٥/ ٦١٩/ ٣٦٨٦)، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (كتاب معرفة الصحابة، بابٌ من مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٣/ ٩٢/ ٤٤٩٥)، من حديث: عقبة بن عامر رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٠٤/ ح٢٩٠٩).

(٢) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه (١/ ١٠٦/ ٨٣٦)، وابن أبي شيبة في مسنده (٦/ ٣٥٨/ ح٣٢٠١١) عن طارق بن شهاب، والضياء في المختارة (٢/ ١٧١/ ح٥٠٥) وقال: إسناده منقطع، والطبراني في الكبير (٩/ ١٦٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه، والأوسط (٥/ ٣٥٩) عن علي رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٧): رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن.اهـ.

(٣) الأثر: رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٥/ ٦١٧/ ٣٦٨٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٩٥/ ح٥٦٩٧)، وابن حبان (١٥/ ٣١٨/ ح٦٨٩٥) من قَوْل: عبد الله بن عمر رضي الله عنه، والأثر صححه الألباني (صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٠٤/ ح٢٩٠٨).

(٤) هو قيس بن مسلم الجدلي، كان صاحبَ عبادة وزهد وورع، روى عن طارق بن شهاب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير. قال سفيان: كان قيس بن مسلم يصلي حتى السَّحَر، ثم يجلس فيمسح البكاء ساعة بعد ساعة، توفي سنة ١٢٠هـ.

انظر: صفة الصفوة (٢/ ٧٦)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥/ ٢٢٨، ذكر عدة حوادث)، شذرات الذهب (١/ ١٥٧).

(٥) في المطبوع: قيس بن طارق، والصواب ما أثبت، والتصحيح من إسناد الحديث.

(٦) هو طارق بن شهاب بن عبد شمس الأحمسي، رأى النبي صلى الله عليه وسلم وغزا في خلافة الصديق وعمر رضي الله عنهما بضعاً وأربعين غزاة، توفي بالمدينة سنة ٨٣هـ. =

نتحدث أن عمر ينطق على لسانه مَلَك[١]. وكان عمر رضي الله عنه يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنه تتجلى لهم أمور صادقة[٢].

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين، هي: الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطباتٍ ومكاشفاتٍ، فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر: عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنهما، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدَّث في هذه الأمة[٣]، فأيُّ محدَّث ومخاطَب فُرِض في أمة محمد ﷺ فعمرُ أفضلُ منه، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه، فيكون ذلك من فضائل عمر، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة[٤]، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما

= انظر: البداية والنهاية (٦/ ١٦٧، حوادث سنة ٨٣هـ)، تاريخ الخلفاء (١/ ١٩٠، ذكر عبد الملك بن مروان بن الحكم).

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٤٢): من قول علي رضي الله عنه بلفظ: (كنا نتحدث أن ملكاً ينطق على لسان عمر)، وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٢٠) عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب الأحمسي بلفظ: (كنا نتحدث أن السكينة تنزل على لسان عمر)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٦٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات. اهـ.

(٢) الأثر لم أقف عليه.

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٣٢٤).

(٤) ومن ذلك ما ذكره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (فُضِّلَ عمر بن الخطاب الناس بأربع: بذكر الأسرى يوم بدر أمر بقتلهم فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وبذكر الحجاب أمر نساء النبي ﷺ أن يحتجبن، فقالت له زينب: وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل علينا في بيوتنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن =

رجع يوم الحديبية لمَّا كان قد رأى محاربةَ المشركين، والحديث معروف في البخاري وغيره[1]:

فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة ـ وهم الذين بايعوه تحت الشجرة ـ وكان قد صالح المشركين ـ بعد مراجعةٍ جرت بينه وبينهم ـ على أن يرجع في ذلك العام، ويعتمر من العام القابل، وشَرَط لهم شروطاً فيها نوع غضاضةٍ على المسلمين في الظاهر، فشقَّ ذلك على كثير من المسلمين، وكان اللهُ ورسولُه أعلمَ وأحكمَ بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي ﷺ: يا رسول الله! ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (**بلى**) قال: أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟

= وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وبدعوة النبي ﷺ: اللهم أيِّد الإسلام بعمر، وبرأيه في أبي بكر؛ كان أول من بايعه) اهـ. رواه الإمام أحمد (١/ ٤٥٦/ ٤٣٧١)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٦٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٦): فيه أبو نهشل ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.اهـ.

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ٢/ ٩٧٤/ ٢٥٨١) من حديث: المسور بن مخرمة ﷺ، وفيه: «قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ. فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: ألست نبي الله حقاً؟ قال: (بلى)، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (بلى). فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا إذاً، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: (إني رسول الله، وهو ناصري ولست أعصيه)، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟) قلت: لا. قال: (فإنك آتيه ومطوف به). قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ علي أبو بكر كما رد علي رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً».

وانظر: زاد المعاد (٣/ ٢٥٧)، مختصر سيرة الرسول ﷺ (١/ ١٣٥)، البداية والنهاية (٣/ ٣٤١/ حوادث سنة ٦هـ).

قال: (**بلى**) قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال له النبي ﷺ: (**إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه**)، ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: (**بلى**) قال: (**أقلت لك إنك تأتيه العام؟**) قال: لا، قال: (**إنك آتيه ومطوف به**) فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثلَ ما قال النبي ﷺ وردَّ عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ فكان أبو بكر رضي الله عنه أكملَ موافقةً لله وللنبي ﷺ من عمرَ، وعمرُ رضي الله عنه رجع عن ذلك، وقال: فعملتُ لذلك أعمالاً.

وكذلك لمَّا مات النبي ﷺ أنكر عمرُ موته أولاً، فلما قال أبو بكر: إنه مات، رجع عمر عن ذلك، وكذلك في قتال مانعي الزكاة، قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: (**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**)، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: (**إلا بحقها؟**) فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ اللهَ قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق[1].

ولهذا نظائرُ تبين تقدم أبي بكر على عمر، مع أن عمر رضي الله عنه محدَّث، فإن مرتبة الصِّدِّيق فوق مرتبة المحدَّث؛ لأن الصِّدِّيق يتلقى عن الرسول المعصوم كلَّ ما يقوله ويفعله، والمحدَّث يأخذ عن قلبه أشياء،

---

(١) الحديث: رواه البيهقي في السنن الكبرى (كتاب الزكاة، باب الوالي يأخذ منه زكاة أمواله الظاهرة أحب ذلك أو كرهه، ٤/ ١١٤/ح٧١٦٩)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ١٤٧/ح٧١٩٠)، وأحمد في المسند (١/ ٤٧/ح٣٣٥)، وابن حبان (كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، ١/ ٤٥٠/ح٢١٧)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٢٠) وقال: رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وُثِّق.اهـ.

وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم، ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياءَ، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقررهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنا محدَّث ملهَم مخاطَب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، فأي أحد ادَّعى، أو ادَّعى له أصحابُه أنه وليٌّ لله وأنه مخاطَب، يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كلَّ ما يقوله ولا يعارضوه، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة؟ وهم مخطؤون، ومثل هذا من أضل الناس؛ فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضلُ منه وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله، وهو وهم على الكتاب والسنة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كلَّ أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»اهـ[(١)].

ثم بيّن الشيخ أن القول بعدم عصمة الأولياء هو من الفروق بين الأنبياء وغيرهم.

فقال رحمه الله: «وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم؛ فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء؛ فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله له أجرٌ على اجتهاده، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى اللهَ ما استطاع، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا

---

(١) الفتاوى (١١/٢٠١ ـ ٢٠٨)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٤١٤)، الفرقان (ص: ٤١ ـ ٤٨).

﴿ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: حق تقاته. أن يُطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفَر[1]، أي: بحسب استطاعتكم؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]»اهـ[2].

ثانياً: قولهم: إن الوليَّ يُعطى قول: كنْ.. فيكون!!:

قال الشيخ: «ثم إذا جوَّزوا الكراماتِ لكل من زعم الصلاح، ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى، بل جعلوا علامةَ الصلاح هذه الخوارقَ، وجوَّزوا الخوارق مطلقاً، وحكَوْا في ذلك مكاشفاتٍ، وقالوا أقوالاً منكرةً، فقال بعضهم: إن الولي يُعطَى قولَ (كن)! وقال بعضهم: إنه لا يمتنع على الوليّ فعلُ ممكن، كما لا يمتنع على الله تعالى فعلُ محال، وهذا قاله ابن عربي[3]، والذين اتبعوه قالوا: إن الممتنع لذاته مقدور عليه، ليس عندهم ما يقال: إنه غير مقدور عليه للولي، حتى ولا الجمع بين الضدين، ولا غير ذلك، وزاد ابن عربي:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٦٥). (٢) الفتاوى (١١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٣) انظر أقوال ابن عربي في الولي وما له من الخصائص في فصوص الحكم (ص٤٩ ـ ٦١).

إن الولي لا يعزُب عن قدرته شيء من الممكنات[١]، والذي لا يعزُب عن قدرته شيء من الممكنات هو الله وحده، فهذا تصريح منهم بأن الوليَّ مثل الله، إن لم يكن هو الله، وصرح بعضهم بأنه يعلم كل ما يعلمه الله، ويقدر على كل ما يقدر الله عليه، وادَّعوا أن هذا كان للنبي ﷺ ثم انتقل إلى الحسن بن علي رضي الله عنه ثم من الحسن إلى ذريته واحداً بعد واحد، حتى انتهى ذلك إلى أبي الحسن الشاذلي، ثم إلى ابنه، خاطبني بذلك مَنْ هو مِنْ أكابر أصحابهم، وحدثني الثقة من أعيانهم أنهم يقولون: إن محمداً هو الله»اهـ[٢].

ثالثاً: تفضيلهم الأولياء على الأنبياء:

تقدم تفصيل ما حكاه الشيخ من كلام الصوفية في ذلك والرد عليهم[٣].

رابعاً: قولهم: كما أن الأنبياء لهم خاتَم هو أفضلهم، فكذلك الأولياء لهم خاتَم هو أفضلهم، بل هو أفضلُ من خاتمَ الأنبياء:

وقد بيّن الشيخ أن أول من تكلم في خاتم الأولياء هو الحكيم الترمذي، قال شيخ الإسلام: «ولم يتكلم أحدٌ من المشايخ المتقدمين بخاتَم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي؛ فإنه صنف مصنفاً غلط فيه في مواضعَ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعُم كل واحد منهم أنه خاتمَ الأولياء، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم

(١) فصوص الحكم (ص٤٩ ط. محمود غراب).

(٢) الفتاوى (١٤/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).

(٣) انظر ما سبق في المبحث الأول من هذا الفصل، عند الكلام عن موقف الصوفية من النبوة والأنبياء، فقد تقدم هناك أنهم ينزلون الأنبياء رتبة دون رتبة الأولياء (ص٧١٧).

الأنبياء، من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته»اهـ[١].

ونقل شيخ الاسلام نصّ كلام الحكيم الترمذي، فقال: «فصل: تكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب (ختم الولاية)، بكلام مردود مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة؛ حيث غلا في ذكر الولاية، وما ذكره من خاتم الأولياء وعصمة الأولياء، ونحو ذلك مما هو مقدمة لضلال ابن عربي وأمثاله، الذين تكلموا في هذا الباب بالباطل والعدوان، منها قوله[٢]:

فيقال لهذا المسكين: صِف لنا منازل الأولياء ـ إذا استفرغوا مجهود الصدق ـ كم عدد منازلهم؟ وأين منازل أهل القُرْبة[٣]؟ وأين الذين جاوزوا العساكر؟ بأي شيء جاوزوا[٤]؟ وإلى أين منتهاهم؟ وأين مقام أهل المجالس والحديث؟ وكم عددهم؟ وبأي شيء استوجبوا هذا على ربهم؟ وما حديثهم ونجواهم؟ وبأي شيء يفتتحون المناجاة؟ وبأي شيء يختمونها؟ وماذا يُجابون[٥]؟ وكيف يكون صفة سيرهم؟ ومن ذا الذي يستحق خاتم الولاية كما استحق محمد ﷺ خاتم النبوة؟ وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك؟ وما سبب [الخاتم، وما معناه]؟[٦]،

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٢٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الصفدية (١/ ٢٤٨، ٢٦٢)، المنهاج (٥/ ٣٣٦)، الرد على المنطقيين (ص٤٨٧)، الدرء (٥/ ٣٦٠).

(٢) ختم الولاية للحكيم الترمذي (ص١٤٢ ـ ١٦٣)، وسوف أقابل ما نقله شيخ الإسلام بنص كتاب ختم الولاية.

(٣) في الفتاوى: الفرية، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.

(٤) في الفتاوى: جازوا، في الموضعين، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.

(٥) في الفتاوى: يخافون، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.

(٦) في حاشية الفتاوى أشار إلى هذا الموضع قائلاً: بالأصل كلمتان لم تتضحا، وأضفتها من كتاب ختم الولاية.

وكم مجالس هذه الأبدان حتى ترد إلى مالك الملك[١]؟ إلى مسائل أُخَر كثيرة ذكرها من هذا النمط.

ومنها فيه[٢]: قال له قائل: فهل يجوز أن يكون في هذا الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟ قال: إن كنت تعني في العمل فلا، وإن كنت تعني في الدرجات فغير مدفوع؛ وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب، وقسمة[٣] ما في الدرجات بالأعمال، فمن الذي حرز[٤] رحمة الله تعالى[٥] عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرّب، ولا مجتبى ولا مصطفى؟ أوليس المهديُّ كائناً في آخر الزمان؟ فهو في الفترة[٦] يقوم بالعدل فلا يعجز عنها، أوليس كائناً في آخر الزمان من له ختم الولاية؟ وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف؟ فكما أن محمداً ﷺ آخر الأنبياء فأُعطي ختمَ النبوة، وهو حجة الله على جميع الأنبياء، فكذلك هذا الولي آخر الأولياء في آخر الزمان.

قال له قائل: فأين حديث النبي ﷺ: **(خرجت من باب الجنة فأُتِيت بالميزان، فوضعت في كفة وأمتي في كفة فرجحت بالأمة، ثم وُضع أبو بكر مكاني فرجح بالأمة، ثم وُضع عمر مكان أبي بكر فرجح بالأمة!)**[٧].

فقال[٨]: هذا وزن الأعمال لا وزن ما في القلوب، أين يُذهَب

---

(١) كذا المطبوع في الفتاوى، وفي كتاب ختم الولاية: وكم مجالس الملك، حتى يوصل إلى ملك الملك.

(٢) ختم الولاية للحكيم الترمذي (ص٤٣٦).

(٣) في الفتاوى: وتسمية، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.

(٤) في الفتاوى: حول، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.

(٥) كلمة: تعالى، إضافة من كتاب ختم الولاية.

(٦) في الفتاوى: الفتنة، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.

(٧) الحديث: تقدم تخريجه (ص٤١٩).

(٨) في ختم الولاية: قال الشيخ.

بكم يا عجم؟ ما هذا إلا من غباوة أفهامكم! ألا ترى أنه يقول: (خرجت من باب الجنة)؟ والجنة للأعمال، والدرجات للقلوب، والوزن للأعمال لا لِمَا في القلوب، إن الميزان لا يتسع لِمَا في القلوب.

وقال فيه(١): ثم لما قبض الله(٢) نبيه ﷺ صيَّر في أمته(٣) أربعين صديقاً، بهم تقوم الأرض، فهم أهل بيته وهم آله؛ فكلما مات منهم واحد(٤) خلفه من يقوم مقامه، حتى إذا انقرض عددهم، وأتى وقت زوال الدنيا، بعث الله ولياً، اصطفاه واجتباه، وقرَّبه وأدناه، وأعطاه ما أعطى الأولياء، وخصه بخاتم الولاية؛ فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء، فيوجِد عندَه ذلك الختمُ صدقَ الولاية، على سبيل ما وجد عند محمد ﷺ من(٥) صدق النبوة، لم ينله العدو(٦) ولا وجدت النفس سبيلاً إلى الأخذ بحظها من الولاية.

فإذا برز الأولياء يوم القيامة واقتضَوْا(٧) صدقَ الولاية والعبودية، وُجِد الوفا عند هذا الذي ختم الولاية تماماً، فكان حجةَ الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم، وكان شفيعَهم يوم القيامة؛ فهو سيدهم ساد الأولياء، كما ساد محمدٌ ﷺ الأنبياءَ، فيُنصب له مقام الشفاعة، ويثني على الله ثناءً، ويحمده بمحامدَ يقرُّ الأولياء بفضله عليهم في العلم بالله تعالى(٨).

(١) ختم الولاية (ص٣٤٤ ـ ٣٤٥). (٢) في ختم الولاية: ﷻ.
(٣) في الفتاوى: فيهم، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٤) في الفتاوى: رجل، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٥) من: سقطت من الفتاوى.
(٦) في الفتاوى: القدر، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٧) في الفتاوى: وأقبضوا، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٨) تعالى: سقطت من الفتاوى.

فلم يزل هذا الولي مذكوراً أولاً في البدء، أولاً في الذكر، وأولاً في العلم، ثم هو الأول في المشيئة[١]، ثم هو الأول في المقادير[٢]، ثم هو[٣] الأول في اللوح المحفوظ، ثم الأول في الميثاق، ثم الأول في المحشر[٤]، ثم الأول في الخطاب، ثم الأول في الوفادة، ثم الأول في الشفاعة، ثم الأول في الجواز، وفي دخول الدار، ثم الأول في الزيارة، فهو في كل مكان أولُ الأولياء، كما كان محمد ﷺ أولَ الأنبياء، فهو من محمد ﷺ عند الأُذُن، والأولياء عند القفا.

فهذا عبد[٥] مقامه بين يديه في مُلك المَلك[٦]، ونجواه هناك[٧] في المجلس الأعظم؛ فهو في قبضته[٨]، والأولياء من خلفه دونه[٩] درجة درجة، ومنازل الأنبياء [مثال][١٠] بين عينيه.

فهؤلاء الأربعون في كل وقت هم أهل بيته، ولست أعني [آل بيته][١١] من النسب، إنما أهل بيت الذكر»اهـ[١٢].

وقال الشيخ: «وقد ظن طائفة غالطة أن (خاتم الأولياء) أفضل الأولياء، قياساً على خاتم الأنبياء، ومن لم يمكنه طلب النبوة وادعاؤها؛

---

(١) في الفتاوى: المسألة، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٢) في الفتاوى: الموازنة، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٣) هو: سقطت من المطبوع من المواضع الثلاثة السابقة.
(٤) في الفتاوى: الحشر، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٥) في الفتاوى: عند، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٦) في الفتاوى: الله، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٧) في الفتاوى: مثال، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٨) في الفتاوى: منصته، والتصحيح من كتاب ختم الولاية.
(٩) دونه: سقطت من الفتاوى.
(١٠) مثال: ليست في كتاب ختم الولاية. (١١) آل بيته: سقطت من الفتاوى.
(١٢) الفتاوى (١١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٦).

لعلمه بقول الصادق المصدوق: **(لا نبيّ بعدي)**[1]، أو غير ذلك ـ كابن عربي وأمثاله ـ طلبَ ما هو أعلى من النبوة، وأن خاتمَ الأولياء أعظمُ من خاتم الأنبياء، وأن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة والنبي يأخذ بواسطة المَلَك، وبنى ذلك على أصل مَتبوعيهِ الفلاسفة؛ فإن عندهم ما يتصور في نفس النبي أو الولي هي الملائكة، من الأشكال النورانية الخيالية.

فالملائكة ـ عندهم ـ: ما يتخيله في نفسه، والنبي ـ عندهم ـ: ما يَتلقَّى بواسطة هذا التخيل، والولي يتلقى المعارف العقلية بدون هذا التخيل، ولا ريب أن من تَلقَّى المعارف بلا تخيل كان أكملَ ممن تلقاها بتخيل»اهـ[2].

وقد رد الشيخ على قولهم في خاتم الأولياء وتفضيلهم إياه على الأنبياء، بل على خاتم الأنبياء، بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما الغلو في وليٍّ غير النبي حتى يفضل على النبي، سواء سُمِّي ولياً أو إماماً أو فيلسوفاً، وانتظارهم للمنتظر الذي هو محمد بن الحسن، أو إسماعيل بن جعفر، ونظير ارتباط الصوفية على الغوث وعلى خاتم الأولياء، فبطلانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة، وما عليه إجماع الأمة؛ فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة: النبيين، والصِّدِّيقين، والشهداء، والصالحين، فغاية من بعد النبي أن يكون صِدِّيقاً، كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صِدِّيقاً، ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٩٧).

(٢) الفتاوى (٧/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩)، وما بين الشرطتين زيادة من الفتاوى (١١/ ٢٢٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٤٤٤)، الرد على المنطقيين (ص٣٠٢)، الفرقان (ص٦١)، بغية المرتاد (ص٣٩٢).

وإنما الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء: فنقول: هذه تسمية باطلة، ولا أصل لها في كتابٍ، ولا سنةٍ، ولا كلامٍ مأثور عمَّن هو مقبول عند الأمة قبولاً عاماً، لكن يُعلم من حيث الجملةً أن آخر من بقي من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر أولياء الله.

ونقول ثانياً: إن آخر الأولياء ـ أو خاتمهم ـ سواء كان المحقَّق، أو فرض مقدر، ليس يجب أن يكون أفضلَ من غيره من الأولياء، فضلاً عن أن يكون أفضلَهم، وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء؛ لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم، وتوهموا من ذلك قياساً بمجرد الاشتراك في لفظ خاتم، فقالوا: خاتم الأولياء أفضلهم، وهذا خطأ في الاستدلال؛ فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتماً، بل لأدلة أخرى دلَّت على ذلك.

ثم نقول: بل أولُ الأولياء في هذه الأمة وسابقُهم هو أفضلهم، فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء، وأفضل الأولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء، وذلك لأن الولي مستفيد من النبي وتابع له، فكلما قَرُبَ من النبي كان أفضلَ، وكلما بعُدَ عنه كان بالعكس، بخلاف خاتم الأنبياء؛ فإن استفادته إنما هي من الله، فليس في تأخره زماناً ما يوجب تأخرَ مَرْتبته؛ بل قد يجمع الله له ما فرَّقه في غيره من الأنبياء.

فهذا الأمر الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم، هو الذي دل عليه الكتاب والسنن المتواترة وإجماعُ السلف، ويتصل بهذا ظنُّ طوائفَ أن مِنَ المتأخرين مَنْ قد يكون أفضل مِنْ أفاضل الصحابة رضي الله عنهم.

ويوجد هذا في المنتسبين إلى العلم وإلى العبادة وإلى الجهاد والإمارة والملك، حتى في المتفقهة من قال: أبو حنيفة أفقه من علي رضي الله عنه، وقال بعضهم: يقلَّد الشافعي ولا يُقلَّد أبو بكر وعمر، ويتمسكون تارة بشُبَه عقلية أو ذوقية:

من جهة: أن متأخري كلِّ فنٍّ يُحكمونه أكثر من المتقدمين؛ فإنهم يستفيدون علوم الأولين مع العلوم التى اختصوا بها، كما هو موجود في أهل الحساب والطبائعيين والمنجِّمين وغيرهم.

ومن جهة الذَّوْق: وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين من المشاهدات العرفانية، والكرامات الخارقة ما لم يُنقل مثلُه عن السلف.

وتارة: يستدلون بشُبَهٍ نقلية؛ مثل قوله: **(للعامل منهم أجر خمسين منكم)**(١)، وقوله: **(أمتي كالغيث لا يُدرَى أولُه خير أم آخِرُه)**(٢).

---

(١) الحديث: عن أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أيّ آية؟ قلت: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً؛ سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحّاً مطاعاً وهوًى متبعاً ودنيا مُؤثَرَةً وإعجابَ كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوامَّ، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم).
قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عتبة: قيل: يا رسول الله! أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: (بل أجر خمسين منكم)، رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩١٠/ح١٩٩٨٠)، والترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب تفسير القرآن، بابٌ ومن سورة المائدة، ٥/ ٢٥٧/ح٣٠٥٨)، وأبو داود (كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٣/ح٤٣٤١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠/ح٤٠١٤)، من حديث: أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، والحديث صحح بعضه الألباني، لكنه ضعّف قوله: (للعامل.. منكم)، (ضعيف سنن الترمذي ص٣٧١/ح٥٨٥).

(٢) الحديث: رواه ابن حبان واللفظ له (كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب فضل الأمة، ١٦/ ٢٠٩/ ٧٢٢٦)، والترمذي وحسّنه (كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ، بابٌ، ٥/ ١٥٢/ح٢٨٦٩)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٧٨/ ٣٦٦٠)، وأحمد في المسند (٣/ ١٣٠/ح١٢٣٤٩ عن أنس، ٤/ ٣١٩/ ١٨٩٠١ عن عمار بن ياسر)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٩٠/ح٣٤٧٥، ٦/ ٣٨٠/ ح٣٧١٧)، والطيالسي في مسنده (٢/ ٩٠/ح٦٤٧)، والقضاعي في مسند =

وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبي ﷺ: من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين، ومما هو في الصحيحين ـ أو أحدهما ـ من قوله: **(خير القرون: القرنُ الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**[١]، وقوله: **(والذي نفسي بيده لو أنفق أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)**[٢]، وغير ذلك من الأحاديث.

وخلاف إجماع السلف؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه: **(إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خيرَ قلوب العباد، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد)**[٣].

وقول حذيفة رضي الله عنه: **(يا معشر القراء، استقيموا وخذوا سبيل من كان قبلكم، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً)**[٤].

= الشهاب (٢/ ٢٧٧/ ١٣٥٢)، من حديث: عمار رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٨): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجال البزار رجال الصحيح غير الحسن بن قزعة وعبيد بن سليمان الأغر، وهما ثقتان وفي عبيد خلاف لا يضر.اهـ.
قلت: لم أعثر عليه عند البزار.

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم (٣٤٥٠) ومسلم رقم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين.

(٢) الحديث: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (لا تسبوا أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه) رواه البخاري واللفظ له (كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، ٣/ ١٣٤٣/ ٣٤٧٠)، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سبّ الصحابة، ٤/ ١٩٦٧/ ٢٥٤٠).

(٣) الأثر: رواه الإمام أحمد (١/ ٣٧٩/ ٣٦٠٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٢)، والطيالسي في مسنده (ص٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨): رجاله موثقون.اهـ.

(٤) الأثر: أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص١٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل =

وقول ابن مسعود ﷺ: (**من كان منكم مستناً فليستَنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد، أبرُّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلُّها تكلُّفاً؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم**)[١].

وقول جندب ﷺ وغيره، مما هو كثير مكتوب في غير هذا الموضع.

بل خلاف نصوص القرآن في مثل قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية[٢] [التوبة: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ الآية[٣] [الحديد: ١٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية[٤] [الحشر: ١٠]، وغير ذلك.

فإنه لم يكن الغرض بهذا الموضع هذه المسألة، وإنما الغرض: الكلام على خاتم الأولياء.

= السنة (١/ ٩٠)، وابن قدامة في ذم التأويل (٢/ ٣٢، ت: بدر بن عبد الله البدر، ط. الدار السلفية، الكويت، الأولى ١٤٠٦هـ)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢١٨).

(١) الأثر: أخرجه أبو نعيم في الحلية بسنده عن عبد الله بن عمر ﷺ (١/ ٣٠٥).

(٢) الآية بتمامها: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(٣) الآية بتمامها: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

(٤) الآية بتمامها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ومما يشبه هذا: ظنُّ طائفة ـ كابن هود وابن سبعين والنفري والتلمساني ـ أن الشيء المتأخر ينبغي أن يكون أفضلَ من المتقدم، لاعتقادهم أن العالم متنقلٌ من الابتداء إلى الانتهاء، كالصبي الذي يكبر بعد صغره، والنبات الذي ينمو بعد ضعفه، ويبنون على ذلك أن المسيح أفضل من موسى، ويبعدون ذلك إلى أن يجعلوا بعد محمد واحداً من البشر أكمل منه، كما تقوله الإسماعيلية والقرامطة والباطنية، فليس على هذا دليل أصلاً: أن كل من تأخر زمانه من نوع يكون أفضلَ ذلك النوع، فلا هو مطَّرد ولا منعكس، بل إبراهيم الخليل قد ثبت بقول النبي ﷺ: **(إنه خير البرية)**(١)، أي بعد النبي ﷺ، وكذلك قال الربيع بن خيثم: «لا أُفَضل على نبينا أحداً، ولا أُفَضل على إبراهيم بعد نبينا أحداً، وبعده جميع الأنبياء المتبعين لملته، مثل موسى وعيسى وغيرهما»(٢).

وكذلك أنبياء بني إسرائيل كلهم بعد موسى، وقد أجمع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، على: أن موسى أفضل من غيره من أنبياء بني إسرائيل، إلا ما يتنازعون فيه من المسيح.

والقرآنُ قد شهد في آيتين لأُولي العزم:

فقال في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣].

فهؤلاء الخمسة أولو العزم، وهم الذين قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحاح: أنهم يترادّون الشفاعةَ في أهل الموقف بعد آدم(٣)،

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٣٩١).
(٢) الأثر: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٢٦).
(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٥٦٨).

فيجب تفضيلهم على بَنِيهِم، وفيه تفضيل لمتقدم على متأخر، ولمتأخر على متقدم.

وأصل الغلط في هذا الباب: أن تفضيل الأنبياء، أو الأولياء، أو العلماء، أو الأمراء، بالتقدم في الزمان أو التأخر، أصلٌ باطل:

فتارة: يكون الفضل في متقدم النوع، وتارة: في متأخر النوع.

ولهذا يوجد في أهل النحو والطب والحساب ما يُفضَّل فيه المتقدم كبطليموس[(١)] وسيبويه[(٢)] وبقراط[(٣)]، وتارة بالعكس، وأما توهُّمُهم أن متأخري كل فنٍّ أحذقُ من متقدميه؛ لأنهم كمّلوه، فهذا منتقض أولاً ليس بمطَّرد؛ فإن (كتاب) سيبويه في العربية لَم يصنَّف بعده مثلُه، بل وكتاب بطليموس، بل نصوص بقراط، لم يصنف بعدها أكمل منها.

ثم نقول: هذا قد يسلم في الفنون التي تنال بالقياس والرأي والحيلة، أما الفضائل المتعلقة باتِّباع الأنبياء فكلٌّ من كان إلى الأنبياء

---

(١) هو بطليموس القلوذي صاحب «المجسطي» في الفلك، ولد في القرن الثاني الميلادي بمصر من أصل يوناني، وعاش في الإسكندرية في القرن الثاني بعد الميلاد.
انظر: الفهرست ـ لابن النديم (ص٣٢٧)، طبقات الأطباء والحكماء ـ لابن جلجل سليمان بن حسان الأندلسي (ص٣٧)، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (٢٨/ ٢٣٨).

(٢) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه، إمام النحاة، وأول من بسّط علم النحو، لازم الخليل بن أحمد ففاقه، له كتاب «الكتاب» في النحو، لم يصنَّف مثلُه في بابه، توفي سنة ١٨٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان (١/ ٣٨٥)، البداية والنهاية (١٠/ ١٧٦)، طبقات النحويين (ص٦٦).

(٣) هو بقراط اليوناني، طبيب ماهر، تتلمذ في الطب على إسقليميوس، عاش ٩٥ سنة، توفي سنة ٣٥٧هـ ق.م.
انظر: طبقات الأطباء (ص١٦)، الفهرست لابن النديم (ص٢٨٧).

أقربَ مع كمال فطرته: كان تلقيه عنهم أعظمَ، وما يحسن فيه هو من الفضائل الدينية المأخوذة عن الأنبياء، ولهذا كان من يخالف ذلك هو من المبتدعة، الخارجِ عن سنن الأنبياء، المعتقد أن له نصيباً من العلوم والأحوال، خارجاً عن طَوْر الأنبياء، فكل من كان بالنبوة وقدرها أعظمَ: كان رسوخه في هذه المسألة أشدَّ.

وأما الأذواق والكرامات: فمنها ما هو باطل، والحق منه كان للسلف أكمل وأفضل بلا شك، وخرق العادة: تارة يكون لحاجة العبد إلى ذلك، وقد يكون أفضل منه لا تُخرق له تلك العادة، فإن خرقها له سبب وله غاية، فالكامل قد يرتقي عن ذلك السبب، وقد لا يحتاج إلى تلك الغاية المقصودة بها، ومع هذا فما للمتأخرين كرامة إلا وللسلف من نوعها ما هو أكمل منها.

وأما قوله: **(لهم أجر خمسين منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً، ولا يجدون على الخير أعواناً)**[1]، فهذا صحيح: إذا عمل الواحد من المتأخرين مثلَ عملٍ عمِله بعضُ المتقدمين: كان له أجر خمسين، لكن لا يُتَصور أن بعض المتأخرين يعمل مثل عمل بعض أكابر السابقين؛ كأبي بكر وعمر؛ فإنه ما بقي يُبعث نبيٌّ مثل محمدٍ ﷺ يُعمل معه مثلما عملوا مع محمد ﷺ.

وأما قوله: **(أمتي كالغيث لا يُدرَى أولُه خَيْرٌ أم آخرُه)**[2]، مع أن فيه ليناً، فمعناه: في المتأخرين من يشبه المتقدمين ويقاربهم، حتى يَبقى لِقوة المشابهة والمقارنة، لا يدري الذي ينظر إليه أهذا خيرٌ أم هذا؟، وإن كان أحدهما في نفس الأمر خيراً، فهذا فيه بشرى للمتأخرين بأنَّ

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٧٧٣).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٧٧٣).

فيهم من يقارب السابقين، كما جاء في الحديث الآخر: (**خير أمتي أولها وآخرها، وبين ذلك ثَبَج أو عِوَج، وددت أني رأيت إخواني! قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي**)(١)، هو تفضيل للصحابة، فإن لهم خصوصية الصحبة التي هي أكمل من مجرد الأخوة.

وكذلك قوله: (أي الناس أعجب إيماناً) إلى قوله: (**قوم يأتون بعدي يؤمنون بالوَرَق المعلق**)(٢)، هو يدل على أن إيمانهم عجبٌ أعجبُ من إيمان غيرهم، ولا يدل على أنهم أفضل؛ فإن في الحديث أنهم ذكروا الملائكة والأنبياء، ومعلوم أن الأنبياء أفضلُ من هؤلاء الذين يؤمنون بالورق المعلق.

ونظيره كونُ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فإنه لا يدل على أنهم بعد الدخول يكونون أرفعَ مرتبةً من جميع الأغنياء، وإنما سبقوا لسلامتهم من الحساب، وهذا باب التفضيل بين الأنواع في الأعيان

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، ح٣٩١/٢١٨/٢٤٩)، والنسائي (كتاب الطهارة، باب حلية الوضوء، ١/٩٣/ ١٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر فضائل الأمة بعد الصحابة والتابعين، ٤/٩٦/٦٩٩٣)، عن عمر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ جالساً، فقال رسول الله ﷺ: (أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيماناً؟)، قالوا: يا رسول الله الملائكة؟ قال: (هم كذلك ويحق ذلك لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم)، قالوا: يا رسول الله فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرسالة؟ قال: (هم كذلك ويحق لهم ذلك، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها؛ بل غيرهم) قال: قلنا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: (قوم يأتون من بعدي في أصلاب الرجال، فيؤمنون بي ولم يروني، ويجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً).

والحديث ضعّفه الألباني، كما في السلسلة الضعيفة (٢/ح٦٤٧، ٦٤٨).

والأعمال والصفات، أو بين أشخاص النوع بابٌ عظيمٌ يغلط فيه خلق كثير، والله يهدينا سواء الصراط»اهـ(١).

خامساً: عند المتصوفة: لا يجب على الوليِّ أن يتلقى من الرسول ﷺ، ولا حرج عليه لو خالف؛ لأن الوليَّ مع الرسول ﷺ كالخضر مع موسى عليه السلام:

قال الشيخ: «ولهذا لما ذُكر للجُنيد بن محمد أن قوماً يزعُمون أنهم يصِلون من طريق البِرِّ إلى ترك العبادات، فقال: الزنا والسرقة وشرب الخمر خيرٌ من قول هؤلاء(٢).

وما زال أئمةُ الدين ومشايخه يُعَظمون النكيرَ على هؤلاء المنافقين وإن كانوا من الزُّهَّاد العابدين، وأهل الكشف والتصرف في الكون، وأرباب الكلام والنظر في العلوم، فإن هذه الأمور قد يكون بعضُها في أهل الكفر والنفاق، ومن المشركين وأهل الكتاب، وإنما الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار الإيمان والتقوى الذي هو نعت أولياء الله، كما قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر، فيحتجُّون بها على وجهين:

أحدهما: أن يقولوا: إن الخضر كان مشاهداً الإرادةَ الربانية الشاملة، والمشيئةَ الإلهية العامة، وهي الحقيقة الكونية، فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي، وهو من عظيم الجهل والضلال، بل من عظيم النفاق والكفر، فإن مضمون هذا الكلام: أن من آمن بالقدر، وشهِد أن الله رب كل شيء، لم يكن عليه أمرٌ ولا نهيٌّ،

(١) الفتاوى (١١/ ٣٦٤ ـ ٣٧٢).
(٢) الرسالة القشيرية (ص٤٣٠، ط. دار الخير).

وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله وما جاؤوا به من الأمر والنهي.

وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ونظير هذا في سورة النحل[1]، وفي سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

وكذلك في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

وهؤلاء هم: القدرية المشركية: الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والنهي، هم شرٌّ من القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة الذين رُوي فيهم: (**إن مرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**)[2]؛ لأن هؤلاء يُقِرّون بالأمر والنهي، والثواب والعقاب، لكن أنكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، وربما أنكروا سابق العلم، وأما القدرية المشركية، فإنهم ينكرون الأمر والنهي، والثواب والعقاب، لكن وإن لم ينكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، فإنهم ينكرون الأمر والنهي والوعد

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

(٢) الحديث: رواه أبو داود (كتاب السنة، باب في القدر، ٤/٢٢٢/٤٦٩١)، وابن ماجه (المقدمة، باب في القدر، ١/٣٥/٩٢)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (كتاب الإيمان، بابٌ، ١/١٥٩/٢٨٦)، من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه، والحديث حسّنه الألباني (صحيح سنن ابن ماجه ١/٢٢/ح٧٥).

والوعيد، ويكفرون بجميع الرسل والكتب، فإن الله إنما أرسل الرسل: مبشرين من أطاعهم بالثواب، ومنذرين من عصاهم بالعقاب، وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضعَ غيرِ هذا.

وأيضاً: فإن موسى عليه السلام كان مؤمناً بالقدر، وعالماً به؛ بل أتباعُه من بني إسرائيل كانوا أيضاً مؤمنين بالقدر، فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلبَ أن يتعلم من الخضر الإيمانَ بالقدر، وأن ذلك يدفع الملام، مع أن موسى أعلمُ بالقدر من الخضر، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك.

وأيضاً: فلو كان هذا هو السرَّ في قصة الخضر بيَّن ذلك لموسى، وقال: إني كنت شاهداً للإرادة والقدر، وليس الأمر كذلك، بل بيَّن له أسباباً شرعية تبيح له ما فعل، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما الوجه الثاني: فإن مِنْ هؤلاء مَنْ يظن: أن مِنَ الأولياء مَنْ يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشَفة والمخاطَبة ما يستغني به عن متابعة الرسول ﷺ في عموم أحواله أو بعضها، وكثير منهم يُفضل الوليَّ ـ في زعمه إما مطلقاً وإما من بعض الوجوه ـ على النبي، زاعمين أن في قصة الخضر حجةً لهم.

وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات، بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر؛ فإنه قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام: أن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لجميع الناس: عربِهم وعجمِهم، وملوكِهم وزُهَّادِهم، وعلمائهم وعامَّتهم، وأنها باقيةٌ دائمة إلى يوم القيامة؛ بل عامة الثقلين الجن والإنس، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروجُ عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين، وما سنّه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياءً لوجب عليهم متابعته ومطاوعته.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمدٌ وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه»[1].

وفي سنن النسائي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقةً من التوراة فقال: (**أمتهوِّكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية؛ لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتِّباعي**)[2] ـ هذا أو نحوه ـ.

ورواه أحمد في (المسند)، ولفظه: (**ولو أن موسى كان حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم**)[3]، وفي (مراسيل) أبي داود قال: (**كفى بقوم ضلالة أن يبتغوا كتاباً غير كتابهم**[4]**، أُنزل على نبي غير نبيهم**)[5]، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ الآية [العنكبوت: ٥١].

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن المسيح عيسى بن مريم إذا نزل من السماء، فإنه يكون متَّبِعاً لشريعة محمد بن عبد الله ﷺ، فإذا كان ﷺ يجب اتباعُه ونصرُه على من يدركه من الأنبياء، فكيف بمن دونهم؟.

---

(١) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص٧٥٥).
(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٢٩٤).
(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٥٥٦).
(٤) في المطبوع: كتابكم، والتصحيح من متن الحديث.
(٥) الحديث: رواه أبو داود في مراسيله (ص٢٣٠/ح٤٥٤) من حديث: يحيى بن جعدة رضي الله عنه، ويشهد له الحديث الذي قبله.

بل مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتَّبع شريعةَ رسولٍ غيرِه، كموسى وعيسى، فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول؛ فكيف بالخروج عنه والرسل؟.

كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولهذا لمَّا كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريفٌ وتبديلٌ: كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمنا به، وما علمنا أنه كذب رددناه، وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه، كما روى البخاري في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**إذا حدثكم أهل الكتاب، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإما أن يحدثوكم**[1] **بباطل فتصدقوهم، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم**)[2].

---

(١) في المطبوع: أن يحدثونكم، وهو خطأ، والتصحيح من متن الحديث.

(٢) الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم؛ وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ الآية) رواه البخاري واللفظ له (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء)، ٦/٢٦٧٩/٦٩٢٨)، ورواه أبو داود (كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، ٣/٣١٨/٣٦٤٤) بلفظ: عن أبي نملة =

ومما يبين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة: أن موسى ﷺ لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا أوجَبَ الله على الخضر متابعته وطاعته؛ بل قد ثبت في الصحيحين: **(أن الخضر قال له: يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه)**[١]، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصَّةً، وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال فيما فضَّله الله به على الأنبياء، قال: **(كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)**[٢].

فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته، ولا استغناء عن رسالته كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته مستغنياً عنه بما علِمه الله وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد ﷺ: إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، ومن سوَّغ هذا أو اعتقد أن أحداً من الخلق: الزُّهَّاد والعُبَّاد، أو غيرهم، له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته فهو كافر باتفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثرُ من أن تُذكَرَ هنا.

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة؛ ولهذا لمَّا بيَّن الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل، وافقه موسى ولم يختلفا حينئذ، ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لَمَا وافقه، ومثل

= الأنصاري عن أبيه أنه: بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود، مرَّ بجنازة، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال النبي ﷺ: (الله أعلم)، فقال اليهودي: إنها تتكلم! فقال رسول الله ﷺ: (ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورسله؛ فإن كان باطلاً لم تصدقوه، وإن كان حقاً لم تكذبوه).

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٣٥٩).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٥٧٦).

هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحدُ الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإن كان قد يكون أفضلَ من الأول، مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص، وكان أحدهما يعلم طِيبَ نفسه بالتصرف في منزله، إمَّا بإذن لفظي أو غيره، فيتصرف، وذلك مباح في الشريعة، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف، وخرْق السفينة كان من هذا الباب؛ فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينة غصباً، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك لئلا يأخذَها[١] خيرٌ من انتزاعها منهم، ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت، فذبحتها امرأةٌ بدون إذن أهلها، فسألوا النبي ﷺ عنها، فأذن لهم في أكلها[٢]، ولم يُلزم التي ذبحت بضمانِ ما نقصت بالذبح؛ لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً، والإذن العرفيُّ كالإذن اللفظي، ولهذا بايع النبي ﷺ عن عثمان ﷺ في غيبته بدون استئذانه لفظاً[٣]، ولهذا لمَّا دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته، قام بجميع أهل

---

(١) كُتب في حاشية المطبوع عند هذا الموضع: بياض بالأصل.

(٢) الحديث: عن كعب بن مالك ﷺ: أنه كانت لهم غنم ترعى بسلع، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسأل النبي ﷺ أو أرسل إلى النبي ﷺ من يسأله، وأنه سأل النبي ﷺ عن ذاك، أو أرسل فأمره بأكلها. رواه البخاري واللفظ له (كتاب الوكالة، باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت، ٢/٨٠٨/ح٢١٨١)، والدارمي (كتاب الأضاحي، باب ما يجوز به الذبح، ١/٥١٢/ح١٩٠٥)، وابن حبان (كتاب الذبائح، باب، ١٣/٢١٢/ح٥٨٩٣).

(٣) يشير الشيخ إلى مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ﷺ في بيعة الرضوان لَمَّا ذهب النبي ﷺ وأصحابه للعمرة، وأشيع أن عثمان قتله أهل مكة، فبايع النبي ﷺ أصحابه على القتال ووضع كفه ﷺ على كفه الأخرى، وقال: هذه عن عثمان.
انظر: زاد المعاد (٣/٢٥٧)، مختصر سيرة الرسول (١/١٣٥)، الفصول في السيرة (١/١٨٤).

المسجد[١]، لِمَا عِلِم من طيب نفس أبي طلحة، وذلك لِمَا يجعله الله من البركة، وكذلك حديث جابر رضي الله عنه[٢]، وقد ثبت أن لَحّاماً دعاه[٣]

---

(١) الحديث: يأتي ذكره بتمامه في موضعه (ص٨٠٤).

(٢) يشير الشيخ إلى ما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لمَّا حفر الخندق رأيت برسول الله ﷺ خمصاً، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت لها: هل عندك شيء؛ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن. قال: فذبحتها وطحنت، ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه قال: فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت في نفر معك، فصاح رسول الله ﷺ وقال: يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع لكم سوراً فحيهلا بكم)، وقال رسول الله ﷺ: (لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء) فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدُم الناسَ حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت لي. فأخرجت له عجينتنا، فبصق فيها وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال: (ادعي خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها. وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغطُّ كما هي وإن عجينتنا لتخبز كما هو). البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب من تكلم بالفارسية والرطانة وقوله تعالى...، ٣/١١١٧/ح٢٩٠٥)، ومسلم واللفظ له (كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، ٣/ ١٦١٠/ح٢٠٣٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن رجلاً من الأنصار يقال له: أبو شعيب كان له غلام لحام، فقال له أبو شعيب: اصنع لي طعام خمسة لعلِّي أدعو النبي ﷺ خامس خمسة، وأبصر في وجه النبي ﷺ الجوع، فدعاه فتبعهم رجل لم يُدْعَ، فقال النبي ﷺ: (إن هذا قد اتبعنا أتأذن له) قال: نعم.

رواه البخاري واللفظ له (كتاب المظالم، باب إذا أذن إنسان لآخر شيئاً جاز، ٢/٨٦٧/ح٢٣٢٤)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب ما يفعل الضيف إذا تبعه غير من دعاه صاحب، ٣/١٦٠٨/ح٢٠٣٦).

فاستأذنه في شخص يستتبعه؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما عَلِمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما.

وكذلك: قتلُ الغلام كان من باب دفع الصائل على أبويه؛ لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال، فلهذا ثبت في (صحيح البخاري) أن نجدة الحَرُوري[1] لمَّا سأل ابن عباس عن قتل الغلمان، قال: «إن كنت تعلم منهم ما عِلِمه الخضر من الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم»[2].

وكذلك في الصحيحين: أن عمر لمَّا استأذن النبي ﷺ في قتل ابن صياد، وكان مراهقاً ـ لما ظنه الدجالَ ـ فقال: **(إن يَكُنْهُ فلن تسلطَ عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله)**، فلم يقل: إن يَكُنْهُ فلا خير لك في قتله، بل قال: **(فلن تسلط عليه)**، وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامُه قبل بلوغه لقطع فساده لم يكن ذلك محذوراً، وإلا كان التعليل بالصغر كافياً؛ فإن الأعمَّ إذا كان مستقلاً بالحكم كان الأخصُّ عديمَ التأثير، كما

---

(١) هو نجدة بن عامر الحنفي الخارجي الحروري، من رؤوس الخوارج، وزعيم فرقة النَّجدات من الخوارج، قال عنه ابن حجر: «نجدة بن عامر الحروري من رؤوس الخوارج، زائغ عن الحق»اهـ، انشقَّ عليه أصحابه وقتلوه سنة ٦٩هـ.

والحروري: بفتح الحاء وضمّ الراء الأولى وكسر الثانية، نسبة إلى حَرُوراء، وهو موضع قرب الكوفة، نزل به الخوارج، عندما خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

انظر: العبر (١/ ٥٦)، لسان الميزان (٦/ ١٤٨)، شذرات الذهب (١/ ٧٦)، الفرق بين الفرق (ص٦٦)، التنبيه والرد للملطي (ص٥٢)، التبصير في الدين ـ للإسفراييني (ص٣٠).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٤٥/٤٨، باب النساء الغازيات يرضخ لهن، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب)، وأحمد (١/ ٢٦٩١/٢٩٤)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٣٥)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥٣/ ١٧٧٣٠)، عن يزيد بن هرمز، به.

قال في الهرة: (**إنها ليست بنَجسٍ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**)[(١)].

وأما بناء الجدار: فإنما فيه ترك أخذ الجُعْل مع جوعهم؛ وقد بيّن الخضر: أن أهله فيهم من الشِّيَمِ وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع؛ وإن كان جائعاً[(٢)].

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهراً؛ فيشترك فيها الناس، ومنه ما يكون خفيّاً عن بعضهم، ظاهراً لبعضهم على الوجه المعتاد، ومنه ما يكون خفياً يعرف بطريق الكشف، وقصة الخضر من هذا الباب، وذلك يقع كثيراً في أمتنا، مثل أن يُقَدَّم لبعضهم طعامٌ فَيُكشف له أنه مغصوب، فيحرم عليه أكلُه وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك، أو يظفر بمال يعلم أن صاحبه أذِن له فيه، فيحلّ له أكله، فإنه لا يحل ذلك لمن لم يعلم الإذن، وأمثال ذلك.

---

(١) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الطهارة، باب سؤر الهرة، ١/١٩/ح٧٥)، والترمذي وحسّنه (كتاب أبواب الطهارة عن رسول الله، باب ما جاء في سؤر الهرة، ١/١٥٣/ح٩٢)، والنسائي في المجتبى (كتاب المياه، باب سؤر الهرة، ١/١٧٨/ح٣٤٠)، وابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بسؤر الهرة والرخصة في ذلك، ١/١٣١/ح٣٦٧)، والدارمي (كتاب الطهارة، باب الهرة إذا ولغت في الإناء، ١/١٩٩/ح٧٣٦)، ومالك في الموطأ (كتاب الطهارة، باب الطهور للوضوء، ١/٢٢/٤٢)، وابن خزيمة في صحيحه (كتاب الوضوء، باب الرخصة في الوضوء بسؤر الهرة، ١/٥٤/١٠٤)، وابن حبان (كتاب الطهارة، باب الأسآر، ٤/١١٤/١٢٩٩)، من حديث: أبي قتادة رضي الله عنه.

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/٣٩٣، قصة موسى والخضر عليهما السلام)، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، في: تفسير القرطبي (١١/٣٧)، تفسير ابن كثير (٣/١٣٤)، تفسير البغوي (١/١٩٥)، فتح القدير (٣/٤٣٥).

فمثل هذا إذا كان الشيخ من المعروفين بالصدق والإخلاص، كان مثلُ هذا من مواقع الاجتهاد الذي يصيب فيه تارة ويخطئ أخرى، فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظيرُ ما يقع في الرؤيا وتأويلها، والرأي والرواية، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول ﷺ، ولهذا يجب ردُّ جميع الأمور إلى ما بُعِثَ به.

ولهذا كان الصِّدِّيقُ المتلقي عن الرسول ﷺ كلَّ شيء ـ مثل أبي بكر ـ أفضلَ من المحَدَّث مثل عمر، وكان الصديق يبين للمُحَدَّث المواضعَ التي اشتبهت عليه حتى يردَّه إلى الصواب، كما فعل أبو بكر بعمرَ يوم الحديبية، ويوم موت النبي ﷺ، وفي قتال مانعي الزكاة، وغير ذلك، وهذا الباب قد بسطناه في غير هذا الموضع.

والمقصود: أنه ليس في قصة الخضر ما يُسوِّغ مخالفةَ شريعة رسول الله ﷺ لأحد من الخلق، نعم لفظ (الشرع) قد صار فيه اشتراك في عُرْف العامة، ومنهم من يجعله عبارةً عن حكم الحكام، ولا ريب أن حكم الحاكم قد يطابق الحقَّ في الباطن، وقد يخالفه.

ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أم سلمة: (**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحوٍ مِمَّا أسمع. فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**)[(١)]»اهـ[(٢)].

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الشهادة، باب من أقام البينة بعد اليمين، ٢/ ٩٥٢/ ٢٥٣٤)، ومسلم (كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، ٣/ ١٣٣٧/ ١٧١٣)، من حديث: أم سلمة رضي الله عنها.

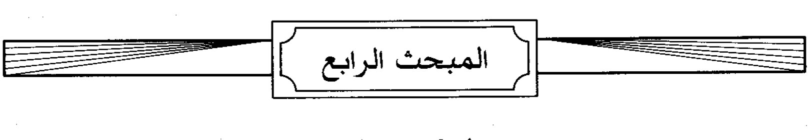
(٢) الفتاوى (١١/ ٤٢٠ ـ ٤٢٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٣/ ٤٢٢، ٤/ ٣١٨، ١١/ ١٦٥، ٦٠٧، ٢٤/ ٣٣٩)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٦٠).

وبما سبق يتبين أن أهل السنة والجماعة يرون أن أولياء الله تعالى هم خُلَّصُ المؤمنين، الذين قرَّبهم الله منه بسبب طاعتهم له وتركهم معصيته، وهم الذين يصدُقُ عليهم قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، وتبين لنا أيضاً أن أهل السنة لا يقولون بعصمة الأولياء، ولا يرفعونهم فوقَ منزلتهم.

أما الصوفية، فقد تبين لنا أن فريقاً غير قليل منهم وقعوا في غلوٍّ شديد في الأولياء، كالقول بعصمتهم، ووجوب طاعتهم، أو غير ذلك، وهم بهذا الغلو أوصلوهم إلى مرتبة النبوة ـ أو أرفع ـ بل جعل بعض المتصوفة لأوليائهم بعض صفات الألوهية.

وخيرُ الهديِ هديُ محمد ﷺ، ومن سلك سبيل السلف فاز وأنجح، ومن غلا عنه أو جفا خسر وخاب.





الكرامات

تمهيد:

الكرامات: جمع كرامة، وهي في اللغة: مشتقة من الكرم ضد اللؤم، وكرّمه: عظمه ونزَّهه[(١)].

ومعنى الكرامة في الاصطلاح: أمرٌ خارق للعادة، غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة لظهورها، يظهر على يد عبدٍ ظاهرِ الصلاح، ملتزمٍ لمتابعة نبي كُلِّف بشريعته، مصحوبٍ بصحيح الاعتقاد والعمل الصالحٍ، علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم[(٢)].

وقبل أن أذكر ما حكاه شيخ الإسلام من مذهب الصوفية في الكرامة، وغلوِّهم فيها:

أُمهّد بين يدي ذلك بذِكر أصول عامة للكرامات وخوارق العادة عند أهل السنة والجماعة ـ من كلام شيخ الإسلام ـ.

ثم أذكر ضوابطَ عامَّةً للكرامة وخرق العادة.

ثم أختم بعد ذلك بِذكر ما حكاه شيخ الإسلام من مذهب الصوفية في الكرامة وخرق العادة.

---

(١) انظر مادة: كرم، في: لسان العرب (١٧/ ٦٠٦)، القاموس المحيط (ص١٤٨٩).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص٦٠٢)، التعريفات للجرجاني (ص٢٣٥)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٣٩٢).

أصول عامة للكرامات وخوارق العادة عند أهل السنة والجماعة ـ من كلام شيخ الإسلام ـ:

أولاً: الخوارق ـ عموماً ـ ثلاثة أقسام:

قال الشيخ: «الخارق (ثلاثة أقسام):

محمود مع الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين.

فإن كان المباح فيه منفعةٌ كان نعمةً وإن لم يكن فيه منفعة، كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث»اهـ[1].

أما من خُرقت لهم العادةُ، فهم ثلاثة أقسام:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الخوارق: «**الناس في هذه الأمور على ثلاث أقسام:**

قسم: ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في طاعة الله.

وقوم: يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله كبلعام[2] وغيره.

وقوم: تكون في حقهم بمنزلة المباحات.

والقسم الأول هم المؤمنون حقاً، المتَّبعون لنبيهم سيد ولد آدم،

---

(١) الفتاوى (١١/ ٣٢٠)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: النبوات (ص٢٧).

(٢) هو بلعام بن باعور، كان رجلاً من قوم موسى عليه السلام، وكان قد آتاه الله علماً، وقيل: أوتي معرفة اسم الله الأعظم، فدعا به على موسى عليه السلام فأهلكه الله، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ . . .﴾ الآيات [الأعراف: ١٧٥].

انظر: تاريخ الطبري (١/ ٤٣٥، ذكر يوشع بن نون عليه السلام)، البداية والنهاية (١/ ٤٢١، ذكر نبوة يوشع)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٢٠٠، ذكر يوشع بن نون).

الذي إنما كانت خوارقه لحُجةٍ يقيم بها دين الله، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله»اهـ[١].

ثانياً: الخوارق التي تقع للفسَّاق؛ أحد نوعين:

بيّن الشيخ أن الخوارق التي تقع للفسَّاق لا تخرج عن أن تكون: إما حِيَلٌ طبيعية، أو أحوال شيطانية:

قال رحمه الله: «كرامات الأولياء لا تكون بما نهى الله عنه ورسوله من أكل الخبائث، كما لا تكون بترك الواجبات، وإنما هذه المخاريق التي يفعلها هؤلاء المبتدعون من الدخول في النار، وأخذ الحيات، وإخراج اللاذَن[٢]، والسكر، والدم، وماء الورد.

وهي نوعان:

أحدهما: أن يفعلوا ذلك بحيل طبعية، مثل أدهان معروفة يدَّهِنون ويمشون في النار، ومثل ما يشربه أحدهم مما يمنع سم الحية، ومثل[٣]: أن يمسكها بعنقصتها[٤] حتى لا تضره، ومثل: أن يمسك الحية المائية،

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٠ ـ ٣١).

(٢) اللاذن: ـ بفتح الذال ـ في الأصل: رطوبة تتعلق بشعر المعزى ولحاها، إذا رعت نباتاً يعرف بقلسوس أو قستوس، وهذا الذي يعلق بشعرها جيد عند الأطباء مسخِّن، ملَيِّن مفتِّح للسدد وأفواه العروق، مدر نافع للنزلات والسعال ووجع الأذن، وما علق بأظلافها رديء، وقيل: اللاذن: نوع من العُلوك ـ كذا في اللسان ـ، وقيل: هي كلمة فارسية.
انظر مادة: لذن، في لسان العرب (١٣/ ٣٨٥)، تاج العروس (١٨/ ٥٠٧)، القاموس (ص١٥٨٧). ويظهر من كلام شيخ الإسلام أن هؤلاء المبتدعة يريدون إظهار الخوارق، فيعمدون إلى بعض الحيل باستعمال هذا اللاذن والتحايل لإخراجه من أجسادهم أمام الناس.

(٣) في المطبوع: مثل، وزدت الواو قبلها لاستقامة الكلام.

(٤) بعد البحث فيما تيسّر بين يدي من كتب اللغة، وكتب الحيوان، لم أقف على =

ومثل: أن يسلخ جلد الحية ويحشوه طعاماً، وكم قتلت الحيات من أتباع هؤلاء؟!.

ومثل: أن يمسح جلده بدم أخوين[1] فإذا عرِق في السماع ظهر منه ما يشبه الدم، ويصنع لهم أنواعاً من الحيل والمخادعات.

النوع الثاني: وهم أعظم: عندهم أحوال شيطانية تعتريهم عند السماع الشيطاني؛ فتنزل الشياطين عليهم كما تدخل في بدن المصروع، ويزبد أحدهم كما يزبد المصروع، وحينئذ يباشر النار والحيات والعقارب، ويكون الشيطان هو الذي يفعل ذلك، كما يفعل ذلك من تقترن بهم الشياطين من إخوانهم الذين هم شر الخلق عند الناس من الطائفة التي تطلبهم الناس لعلاج المصروع، وهم من شر الخلق عند الناس.

فإذا طُلِبوا تحلَّوا بِحِلْية المقاتِلة، ويدخل فيهم الجن، فيحارب مثل الجن الداخل في المصروع، ويسمعُ الناس أصواتاً ويرون حجارة يُرمى بها، ولا يرون من يفعل ذلك، ويرى الإنسي واقفاً على رأس الرمح الطويل، وإنما الواقف هو الشيطان، ويرى الناسُ ناراً تُحمى يضع فيها الفؤوس والمساحي، ثم إن الإنسي يلحسها بلسانه، وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه، ويرى الناس هؤلاء يباشرون الحيات والأفاعي

= المراد بعنقصة الحية، لكن المعنى الظاهر من كلام شيخ الإسلام: أن العنقصة جزء من أجزاء جسد الحية إذا أُمسِكت منه لم تتمكن من قرص حاملها.

(١) دم الأخوين، ويسمى أيضاً: المَظُّ، وهو دم الغزال.
انظر مادة: مظظ، في: تاج العروس (١٠/ ٤٩٥)، لسان العرب (٧/ ٤٦٣)، القاموس (ص٩٠٣).
وكان هؤلاء البطائحية يطلون به أجسادهم للطافة لونه، فإذا عرق أحدهم اختلط هذا الدم بالعرق وسال، فيظن الرائي أن الذي يسيل هو الدم من غير أن يكون هناك جرح.

وغير ذلك، ويفعلون من الأمور ما هو أبلغ مما يفعله هؤلاء المبتدعون الضالون المكذبون الملبِّسون، الذين يدَّعون أنهم أولياءُ الله، وإنما هم من أعاديه المضيِّعين لفرائضه، المتعدِّين لحدوده.

والجُهَّال ـ لأجل هذه الأحوال الشيطانية والطبيعية ـ يظنوهم أولياءَ الله، وإنما هذه الأحوال من جنس أحوال أعداء الله الكافرين والفاسقين، ولا يجوز أن يُعان من هؤلاء على ترك المأمور، ولا فعل المحظور، ولا إقامة مشيخة تخالف الكتاب والسنة، ولا أن يُعطى رزقَه على مشيخةٍ يخرج بها من طاعة الله ورسوله، وإنما يُعان بالأرزاق مَنْ قام بطاعة الله ورسوله، ودعا إلى طاعة الله ورسوله، والله أعلم»اهـ(١).

ثالثاً: الناس تجاه ما يقع للمشايخ من خوارق، ثلاثة أقسام: مُفْرِط، ومُفَرِّط، ومعتدل:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام:

قسم: يكذِّب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدَّق به مجملاً وكذَّب ما يذكر له عن كثير من الناس؛ لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومنهم: من يظن أن كل من كان له نوعٌ من خرق العادة كان ولياً لله.

وكلا الأمرين خطأ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نُصراءَ يعينونهم على قتال المسلمين، وأنهم من أولياء الله، وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة، **والصواب**:

القول الثالث وهو: أن معهم من ينصرهم من جنسهم، لا من أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) الفتاوى (١١/ ٦١٠ ـ ٦١١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٤٩٥، ٢٢/ ٣٠٦).

وهؤلاء العُبَّاد والزُّهَّاد الذين ليسوا من أولياء الله المتَّقين المتَّبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين، فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً، وإذا حصل مَنْ له تَمَكُّنْ مِنْ أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً، ومن الإثم، ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم، ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين، وبيّن المتشبهين بهم من أولياء الشياطين، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢]، والأفَّاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر»اهـ(١).

رابعاً: ضَلال الأتْباع بما يرَوْنه من خوارق ضُلَّال المشايخ، مبنيٌّ على مقدمتين:

الأولى: ظنهم: أن وقوع الكرامة دليل على ولاية من وقعت له.

الثانية: قولهم: ما دام أنه وليٌّ إذن هو معصوم!.

قال الشيخ: «فضَلال الضُّلَّال من هؤلاء مبنيٌّ على مقدمتين:

إحداهما: أن هذا له كرامة؛ فيكون ولياً لله.

الثانية: أن وليَّ الله لا يجوز أن يُخطئ، بل يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يُصَدَّق في كل ما أخبر به، ويطاع في كل ما أمر إلا أن يكون نبياً.

والمقدمتان المذكورتان: قد تكون إحداهما باطلةً، وقد يكون كلاهما باطلةً، فالرجل المعَيّن: قد لا يكون من أولياء الله، وتكون خوارقه من الشياطين، وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم،

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥)، الفرقان (ص١٢٠)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٣٧٨).

بل يجوز عليه الخطأ، وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارقُ، ولكن له محالاتٌ وأكاذيبُ»اهـ[١].

خامساً: فائدة خرق العادة للصالحين: من الرسل وغيرهم:

قال الشيخ: «.. وبأن الله يخرق العادات لأنبيائه: لإظهار صدقهم، ولإكرامهم بذلك، ونحو ذلك من حِكَمه.

وكذلك يخرقها لأوليائه تارةً: لتأييد دينه بذلك، وتارةً: تعجيلاً لبعض ثوابهم في الدنيا، وتارةً: إنعاماً عليهم بجلب نعمة أو دفع نِقمة، ولِغير ذلك»اهـ[٢].

قواعدُ وضوابطُ عامة للكرامات وخرق العادة ـ عند شيخ الإسلام ـ:

أولاً: يجب أن تُضبط الكرامات وخرق العادة ـ مطلقاً ـ بالكتاب والسنة؛ فما وافقهما: قُبِل، وما خالفهما: رُدَّ:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك من اتَّبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة؛ فإنما يتبع ظناً لا يغني من الحق شيئاً؛ فليس في المحَدَّثين الملهَمين أفضلُ من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما قال ﷺ: **(أنه قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فعمر منهم)**[٣]، وقد وافق عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربَّه في عدة أشياء، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ﷺ ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضَه على الرسول ﷺ، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله؛ بل يجعل ما ورد عليه إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له، فيرجع إلى السنة، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبين له أشياء خفيت عليه، فيرجع إلى بيان الصِّدِّيق وإرشاده وتعليمه:

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٣٤٥).   (٢) الاقتضاء (٢/ ٧١٨).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٣٢٤).

كما جرى يوم الحديبية[١].

ويوم مات الرسول ﷺ[٢].

ويوم ناظره في مانعي الزكاة[٣].

وغير ذلك، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن فيرجع إليها كما جرى في مهور النساء[٤].

ومثل هذا كثير.

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة، لم يكن أفضل من عمر ﵁؛ فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة، تَبَعاً لما جاء به الرسول ﷺ، لا يجعل ما جاء به الرسول تَبَعاً لِمَا ورد عليه، وهؤلاء الذين أخطؤوا وضلُّوا، وتركوا ذلك واستغنَوْا بما ورد عليهم، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول.

وصار أحدهم يقول: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت!.

فيقال له: أمَّا ما نقله الثقات عن المعصوم ﷺ فهو حق، ولولا النقلُ المعصوم لكنت أنت وأمثالُك إمَّا مِنَ المشركين وإمَّا مِنَ اليهود والنصارى، وأمَّا ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان؟.

---

(١) تقدم ذكر ما اعترض به عمر ﵁ يوم الحديبية، ثم تبين له الحق فرجع إليه (ص٣٢٩).

(٢) تقدم ذكر ما اعترض به عمر ﵁ يوم موت النبي ﷺ، وإنكاره أنه مات، ثم تبين له الحق فرجع إليه (ص٣٢٩ ـ ٣٣٠).

(٣) تقدم ذكر ما اعترض به عمر ﵁ على أبي بكر ﵁ في قتاله للمرتدين، ثم تبين له الحق فرجع إليه (ص٣٣٠).

(٤) تقدم ذكر خبر المرأة التي اعترضت على عمر ﵁ لما قام على المنبر وحدد مهور النساء ونهى عن الزيادة عليها، ورجوعه إلى رأي المرأة (ص٣٣١).

والوحي وحيان: وحيٌ من الرحمن، ووحيٌ من الشيطان:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١].

وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب؛ حتى قيل لابن عمر وابن عباس ـ قيل لأحدهما ـ: إنه يقول أنه يُوحَى إليه!! فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقيل للآخر: إنه يقول أنه يُنزَل عليه! فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١][(١)]»اهـ[(٢)].

وقال الشيخ: «فالمحدَّث الملهَم المكاشَف من هذه الأمة يجب عليه أن يزِنَ ذلك بالكتاب والسنة، فإن وافق ذلك صدَّق ما ورد عليه، وإن خالف لم يُلتفت إليه، كما كان يجب على عمر رضي الله عنه وهو سيد المحدَّثين إذا أُلقي في قلبه شيء، وكان مخالفاً للسنة لم يُقبل منه، فإنه ليس معصوماً، وإنَّما العصمة للنبوة.

ولهذا كان الصِّدِّيقُ أفضلَ من عمر؛ فإن الصِّدِّيقَ لا يتلقى من قلبه، بل من مشكاة النبوة، وهي معصومة، والمحدَّث يتلقَّى تارةَ عن قلبه،

---

(١) روى هذا القول ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٨٩) والطبري في تفسيره عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (١٩/ ١٢٦، تفسير قوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]، وقول ابن عمر رضي الله عنه أورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٣/ح٩٢٨)، ورجاله رجال الصحيح. اهـ.

(٢) الفتاوى (١٣/ ٧٣ ـ ٧٥).

وتارةً عن النبوة، فما تلقاه عن النبوة فهو معصوم يجب اتباعه، وما أُلهم في قلبه: فإن وافق ما جاءت به النبوة، فهو حقٌّ، وإن خالف ذلك، فهو باطل؛ فلهذا لا يعتمِد أهلُ العلم والإيمان في مثل مسائل العلم والدين إلا على نصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وإن كان عندهم في بعض ذلك شواهدُ بيناتٌ مما شاهدوه ووجدوه، ومما عقلوه وعملوه، وذلك ينتفعون به هم في أنفسهم.

وأما حجة الله تعالى على عباده، فهم رسله، وإلا فهذه المسائلُ فيها من الدلائل والاعتبارات العقلية، والشواهد الحسية الكشفية ما ينتفع به من وجد ذلك، وقياس بني آدم وكشفهم تابعٌ لما جاءت به الرسل عن الله تعالى، فالحق في ذلك موافق لما جاءت به الرسل عن الله تعالى، لا مخالفٌ له، ومع كونه حقاً، فلا يَفصِل الخلافَ بين الناس، ولا يجب على من لم يحصُل له ذلك التصديقُ به، كما يجب التصديق بما عرف أنه معصوم، وهو كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم»اهـ[(١)].

ثانياً: الكرامات إنما تحصل ببركة اتِّباع الشريعة، والاقتداء بالنبي ﷺ:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأولياء الله المتَّقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به، وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بيَّنَ لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروحٍ منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين.

وخيارُ أولياء الله كراماتُهم لحجة في الدين، أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، **وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ، مثل:**

---

(١) الفتاوى (٢٤/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٥/ ٣١٤).

انشقاق القمر(١).

وتسبيح الحصى في كفه(٢).

وإتيان الشجر إليه(٣).

وحنين الجذع إليه(٤).

وإخباره ليلةَ المعراج بصفة بيت المقدس(٥).

---

(١) الحديث: يشير الشيخ إلى ما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله رضي الله عنه: اشهدوا. رواه البخاري واللفظ له (كتاب التفسير، باب ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾، ٤/ ١٨٤٣/ ٤٥٨٣)، ومسلم (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، ٤/ ٢١٥٨/ ٢٨٠٠).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٦٥٦).

(٣) يشير الشيخ إلى ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه الطويل في حجة النبي ﷺ، وفيه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أَفْيَحَ، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصنٍ من أغصانها، فقال: (انقادي عليَّ بإذن الله) فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: (انقادي عليَّ بإذن الله) فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصَّف مما بينهما لَأَمَ بينهما ـ يعني جمعها ـ فقال: (التئما عليَّ بإذن الله فالتأمتا). رواه مسلم واللفظ له (كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر ٤/ ٢٣٠١، ٣٠٠٦)، وابن حبان (كتاب التاريخ، باب المعجزات، ١٤/ ٤٥٥/ ٦٥٢٤).

(٤) يشير إلى ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كان المسجد مسقوفاً على جذوع النخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع المنبر، فكان عليه، سمعنا لذلك الجذعِ صوتاً كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت». رواه البخاري (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٦/ ٦٠٢، ٣٥٨٥).

(٥) الحديث: في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ =

وإخباره بما كان وما يكون[1].

وإتيانه بالكتاب العزيز[2].

= يقول: (لما كذّبتني قريش قمت في الحِجْرِ، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه). رواه البخاري واللفظ له (كتاب فضائل الصحابة، باب حديث الإسراء وقول الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾، ٣/ ١٤٠٩/ ٣٦٧٣)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، ١/ ١٥٦/ ١٧٠).

(١) يدل على هذا ما في القرآن والسنة من الأخبار الصادقة عن الماضي والمستقبل، وفي الصحيحين عن عمر ﷺ قال: قام فينا النبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه. رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ٣/ ١١٦٦/ ٣٠٢٠)، ومسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، ٤/ ٢٨٩١/ ٢٢١٦).

ومن ذلك ما جاء عن أبي زيد عمرو بن أخطب ﷺ قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم قام فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد فخطبنا حتى غربت الشمس» قال: «فأخبرنا بما كان وما هو كائن، فأحفظُنا أعلمُنا». رواه البخاري (كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، ١/ ٣١١/ ٨٧٦)، ومسلم، (كتاب الفتن، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، ٤/ ٢٢١٧، ٢٨٩٢).

(٢) يدل على أن الله تعالى تحدى بالقرآن، فتحدى أن يأتوا بمثله، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ولما طلب الكفارُ آيات =

وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر من قِدْر طعام وهو لم ينقص ـ في حديث أم سُلَيم[(١)] المشهور ـ[(٢)].

= أعظمَ مما رأوا قال سبحانه حاكياً حالهم ورادًّا عليهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

(١) في المطبوع: أم سلمة، وهو خطأ، والصواب: أم سُليم، كما في نص الحديث الآتي بعده.
وأم سُليم: اختلف في اسمها فقيل: سهلة، وقيل: الرميصاء، وقيل غير ذلك، وهي بنت ملحان الأنصارية، زوجة أبي طلحة رضي الله عنه، وأم أنس بن مالك رضي الله عنه، من السابقات إلى الإسلام، كانت تغزو مع النبي ﷺ، روى عنها ابنها أنس وابن عباس وغيرهما، توفيت سنة ٣٠هـ.
انظر: الإصابة (٨/ ٢٢٧)، الأعلام (٣/ ٣٣).

(٢) في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها، فلفَّت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبتُ به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: (آرسلك أبو طلحة؟) فقلت: نعم! قال: (بطعام؟) فقلت: نعم! فقال رسول الله ﷺ لمن معه: (قوموا!) فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سُليم! قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم! فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: (هلمي يا أم سُليم ما عندك)، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ وعَصرت أم سُليم عُكَّةً فآدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: (ائذن لعشرة)، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: (ائذن لعشرة)، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: (ائذن لعشرة)، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: (ائذن لعشرة)، فأكل القوم كلُّهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً! . =

وأروى العسكر في غزوة خيبر من مزادةِ ماءٍ ولم تنقُصْ[1].

وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص، وهم نحو

= رواه البخاري واللفظ له (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٣/ ١٣١١/ ٣٣٨٥)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه، ٣/ ١٦١٤/ ٢٠٤٠).

(١) يشير الشيخ إلى ما في الصحيحين - وغيرهما - عن عمران قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ. . الحديث، وفيه: فارتحل فسار غير بعيد، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ونودي بالصلاة فصلى بالناس، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصلِّ مع القوم! قال: (ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم؟) قال: أصابتني جنابة ولا ماء، قال: (عليك بالصعيد فإنه يكفيك)، ثم سار النبي ﷺ، فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً - كان يسميه أبو رجاء نسيه عوف - ودعا علياً، فقال: اذهبا فابتغيا الماء، فانطلقا فتلقيا امرأةً بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا خلوف، قالا لها: انطلقي! إذا قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له: الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث، قال: فاستنزلوها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو سطيحتين، وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء، قال: اذهب فأفرغه عليك، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها! وايم الله، لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها! فقال النبي ﷺ: (اجمعوا لها)، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوها في ثوب، وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: (تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً، ولكن الله هو الذي أسقانا). رواه البخاري واللفظ له (كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء، ١/ ١٣٠/ ٣٣٧)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، ١/ ٤٧٤/ ٦٨٢).

ثلاثين ألفاً[(١)].

ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة[(٢)].

ورَدِّه لعين قتادة[(٣)] حين سالت على خده فرجعت أحسن

---

(١) يشير الشيخ إلى ما رواه مسلم عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد ـ شك الأعمش ـ قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعةٌ قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنَّا، فقال رسول الله ﷺ: (افعلوا)، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله! إن فعلت قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادعُ اللهَ لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (نعم) قال: فدعا بنِطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة! حتى اجتمع على النِّطع من ذلك شيء يسير، قال فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: (خذوا في أوعيتكم)، قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه! قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غيرَ شاكٍّ، فيُحجبَ عن الجنة). رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ١/ ٥٦/ ٢٧).

(٢) يشير الشيخ إلى ما في الصحيح وغيره عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قد رأيتني مع النبي ﷺ وقد حضرت العصر وليس معنا ماء غير فضلة، فجُعل في إناء، فأتي النبيُّ ﷺ به، فأدخل يده فيه وفرّج أصابعه، ثم قال: (حيَّ على أهل الوضوء، البركة من الله) فلقد رأيت الماء يتفجَّر من بين أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركة، قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفاً وأربعمائة. رواه البخاري واللفظ له (كتاب الأشربة، شرب البركة والماء المبارك، ٥/ ٢١٣٥/ ٥٣١٦)، والنسائي (كتاب الطهارة، باب الوضوء من الإناء، ١/ ٦٠/ ٧٧).

(٣) في المطبوع: أبي قتادة، وهو خطأ والصواب: قتادة.
وهو قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي ﷺ، الصحابي الجليل، شهد =

عينيه(١).

ولمَّا أرسل محمدَ بن سلمة(٢) لقتل كعب بن الأشرف(٣) فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت(٤).

= بدراً وأُحداً والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، توفي سنة ٢٣هـ.
انظر: صفة الصفوة (١/ ١٩٣)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/ ٧٧، ذكر عدة حوادث)، البداية والنهاية (٣/ ٥٢، غزوة بدر العظمى).

(١) يشير الشيخ إلى ما أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣/ ١٢١) عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه: أنه أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: (لا)، فدعا به فغمز حدقته براحته، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت. وأخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة (ص١١٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٧): رواه الطبراني وأبو يعلى، وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم، وفي إسناد أبي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني، وهو ضعيف.اهـ.

(٢) هو محمد بن مسلمة بن سلمة الأنصاري رضي الله عنه، الصحابي الجليل، شهد بدراً وما بعدها إلى تبوك، وكان ممن اعتزل الفتنة، توفي سنة ٤٣هـ.
انظر: الإصابة (٦/ ٣٣)، الأعلام (٧/ ٩٧).

(٣) هو كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان، أمه من بني النضير، فتهوَّد، كان شاعراً يهجو النبيَّ ﷺ ويحرّض عليه القبائل، قتل سنة ٣هـ.
انظر: البداية والنهاية (٤/ ٦)، الأعلام (٥/ ٢٢٥).

(٤) قصة قتل محمد بن مسلمة رضي الله عنه لكعب بن الأشرف ليس فيها: أنَّ رِجْل محمد بن مسلمة انكسرت فمسح عليها رسول الله ﷺ فبرئت.
وإنما ورد ذلك في قصة قتل عبد الله بن عتيك رضي الله عنه لرافع بن أبي الحقيق اليهودي، والقصة في الصحيح، عن البراء بن عازب، قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار فأمّر عليهم عبدَ الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم؛ فإني منطلق ومتلطف للبوَّاب لعلي أن أدخلَ، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة وقد دخل الناس، =

وأطعم من شِواءٍ مائة وثلاثين رجلاً، كلًّا منهم حزَّ له قطعةً، وجعل منها قطعتين[1] فأكلوا منها جميعهم، ثم فضل فضلة[2].

= فهتف به البواب يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علّق الأغاليق على وتد، قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمُر عنده وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إنِ القومُ نذروا بي لم يخلُصُوا إليَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع! قال: من هذا؟! فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دَهِشٌ فما أغنيت شيئاً، وصاح! فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟! فقال: لأمك الويل! إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف!! قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره! فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت، في ليلة مقمرة، **فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة** ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلتُه؟ فلمَّا صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال: (ابسط رجلك)، فبسطت رجلي، **فمسحها فكأنها لم أشتكها قط**. رواه البخاري (كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبد الله بن عتيك، ٤/ ١٤٨٢/ ٣٨١٣).

(١) في المطبوع: قصعتين، والأقرب ما أثبت، والتصحيح من نص الحديث.

(٢) يشير الشيخ إلى ما في الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، فقال النبي ﷺ: (هل مع أحد منكم طعام؟) فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعجن ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ: أبَيْعٌ أم عطية؟ ـ أو قال: هبة ـ قال: لا، بل بيع، قال: فاشترى منه شاة فصنعت، فأمر نبي الله ﷺ بسواد البطن يشوى، وايم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا قد حزَّ له حزَّةً من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاه إياه، وإن كان غائباً خبأها له، ثم جعل فيها قصعتين، فأكلنا =

ودَيْن عبد الله أبي جابر[1] لليهودي وهو ثلاثون وسْقاً، قال جابر: فأمر صاحبَ الدَّيْن أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فلم يقبل، فمشى فيها رسولُ الله ﷺ، ثم قال لجابر: جُدَّ لَهُ، فوفاه الثلاثين وسْقاً، وفَضَل سبعة عشر وسْقاً[2].

ومثل هذا كثير قد جمعت، نحو ألف معجزة[3].

= أجمعون شبعنا وفضل في القصعتين فحملته على البعير، أو كما قال.
رواه البخاري واللفظ له (كتاب الأطعمة، باب من أكل حتى شبع، ٥/٢٠٥٨/ ٥٠٦٧)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، ٣/١٦٢٦/ ٢٠٥٦).

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي السلمي، أبو جابر، الصحابي الجليل ﷺ، شهد أحداً واستشهد فيها في السنة الثالثة.
انظر: صفة الصفوة (١/١٩٣)، أسد الغابة (٣/٢٣١)، الإصابة (٤/١٨٩)، البداية والنهاية (٣/١٣٤، غزوة أُحد).

(٢) الحديث: في الصحيح عن جابر بن عبد الله ﷺ: أن أباه توفي، وترك عليه ثلاثين وسقاً لرجل من اليهود، فاستنظره جابر، فأبى أن ينظره، فكلم جابر، رسولَ الله ﷺ ليشفع له إليه، فجاء رسول الله ﷺ وكلم اليهودي ليأخذ ثمر نخله بالذي له فأبى، فدخل رسول الله ﷺ النخل فمشى فيها، ثم قال لجابر: (جُدَّ له فأوْفِ له الذي له)، فجدَّه بعدما رجع رسول الله ﷺ فأوفاه ثلاثين وسقاً وفضلت له سبعة عشر وسقاً! فجاء جابر رسول الله ﷺ ليخبره بالذي كان فوجده يصلي العصر، فلما انصرف أخبره بالفضل، فقال: (أخبر ذلك ابن الخطاب) فذهب جابر إلى عمر فأخبره، فقال له عمر: لقد علمت حين مشى فيها رسول الله ﷺ ليباركن فيها. رواه البخاري واللفظ له (كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب إذا قاص أو جازفه في الدَّيْن تمراً بتمر، ٢/٨٤٤/ ٢٢٦٦)، وابن ماجه (كتاب الصدقات، باب أداء الدَّيْن عن الميت، ٢/٨١٣/ ٢٤٣٤).

(٣) أفرد بعض العلماء كتباً خاصة في دلائل نبوة النبي ﷺ، ومن ذلك كتاب: دلائل النبوة للإمام البيهقي، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة للفريابي، وغيرها، وقد ذكر شيخ الإسلام في آخر كتابه (الجواب الصحيح) جملة كبيرة من هذه المعجزات (٦/ ٥٥ ـ ٣٢٤).

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً:

مثلما كان **أسيد بن حضير** رضي الله عنه[١] يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثلُ الظُّلة، فيها أمثال السُّرُج، وهي الملائكة نزلت لقراءته[٢].

وكانت الملائكة تسلم على **عمران بن حصين** رضي الله عنه[٣][٤].

وكان **سلمان**[٥] **وأبو الدرداء**: يأكلان في صحفة، فسبَّحت

---

(١) هو أُسيد بن حُضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس الأنصاري الأشهلي، أبو يحيى، الصحابي الجليل رضي الله عنه، شهد العقبة، وأُحُداً وما بعدها، وقيل: شهد بدراً، كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، توفي سنة ٢٠هـ.
انظر: أسد الغابة (١/ ٩٢)، الإصابة (١١/ ٨٣).

(٢) الأثر: في الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين، فتغشَّته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو! وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال: (تلك السكينة تنزَّلت بالقرآن). وفي رواية الترمذي: أن القارئ هو أسيد بن حضير رضي الله عنه. رواه البخاري (كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، ٤/ ١٩١٤/ ٤٧٢٤)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، ١/ ٥٤٧/ ٧٩٥)، والترمذي (كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة الكهف، ٥/ ١٦١/ ٢٨٨٥).

(٣) عمران بن الحُصين بن عبيد بن خلف، أبو نجيد الخزاعي، صاحب رسول الله ﷺ، ولي قضاء البصرة لعمر رضي الله عنه، توفي سنة ٥٢هـ.
انظر: سير الأعلام (٢/ ٥٠٨)، الطبقات لابن سعد (٧/ ١٠)، الأعلام (٥/ ٧٠)، أسد الغابة (٤/ ١٣٧).

(٤) الزهد لابن أبي عاصم (٢/ ١٤٨)، الطبقات لابن سعد (٧/ ١١)، سير الأعلام (٢/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩)، صفة الصفوة (١/ ٦٨١)، أسد الغابة (٤/ ١٣٨).

(٥) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، الصحابي الجليل رضي الله عنه، كان ولد آب الملك سادن نار فارس، شهد الخندق وما بعدها، قال العباس بن يزيد: قال أهل العلم: عاش سلمان ثلاثمائة سنة، فأما مائتان وخمسون فلا يشكون فيه، توفي سنة ٣٦هـ.
=

الصحفة، أو سبَّح ما فيها[(١)].

وعبَّاد بن بشر[(٢)] **وأُسيد بن حضير**: خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، فأضاء لهما نور مثل طرف السوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما، رواه البخاري وغيره[(٣)].

وقصة **الصدّيق** ـ في الصحيحين ـ: لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، لا يأكل لقمة إلا رَبَى من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته، فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا[(٤)].

= انظر: صفة الصفوة (١/ ٢٢٠)، تاريخ الطبري (١١/ ٥٢٧)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/ ٢٨٧)، أسد الغابة (٢/ ٣٢٨)، الإصابة (٣/ ١٤١)، تاريخ الخلفاء (١/ ١٦٥).

(١) الحلية (١/ ٢٢٤)، الرسالة القشيرية (ص٦٧٢).

(٢) هو عبَّاد بن بِشْر بن وقش الأنصاري، الصحابي الجليل رضي الله عنه، أسلم في المدينة قبل الهجرة، وشهد بدراً وما بعدها، قتل يوم اليمامة سنة ١٢هـ.
انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٦٠، ذِكر مسيلمة)، البداية والنهاية (٥/ ٤١)، الأعلام (٣/ ٢٥٧).

(٣) الحديث: في الصحيح عن أنس رضي الله عنه: أن رجلين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرَّقا فتفرَّق النور معهما، وقال حماد: أخبرنا ثابت عن أنس كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند النبي ﷺ. رواه البخاري واللفظ له (كتاب فضائل الصحابة، باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر، ٣/ ١٣٨٤/ ٣٥٩٤)، وابن حبان (كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة، ٥/ ٣٧٨/ ٢٠٨٢).

(٤) في الصحيحين: عن عبد الرحمن بن أبي بكر: أن أصحاب الصُفّة كانوا أناساً فقراء، وأن النبي ﷺ قال: (من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس)، وأن أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي ﷺ بعشرة، قال: =

وخبيب بن عدي رضي الله عنه[1]: كان أسيراً عند المشركين بمكة - شرّفها الله تعالى - وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة[2].

= فهو أنا وأبي وأمي - فلا أدري - قال: وامرأتي وخادم بيننا وبين بيت أبي بكر، وإن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ ثم لبث حيث صُلِّيَت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشَّى النبي ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: وما حبسك عن أضيافك؟ - أو قالت: ضيفك - قال: أوما عشيتيهم؟! قالت: أبوْا حتى تجيء، قد عُرضوا فأبوا، قال: فذهبتُ أنا فاختبأت، فقال: يا غنثر! فجدَّع وسبَّ، وقال: كلوا! لا هنياً، فقال: والله لا أطعمه أبداً، وايم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها! قال: يعني حتى شبعوا، وصارت أكثرَ مما كانت قبل ذلك! فنظر إليها أبو بكر، فإذا هي كما هي أو أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟! قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثرُ منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر، وقال: إنما كان ذلك من الشيطان - يعني يمينه - ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين قوم عقد فمضى الأجل، ففرقنا اثني عشر رجلاً مع كل رجل منهم أناس - الله أعلم كم مع كل رجل - فأكلوا منها أجمعون، أو كما قال. رواه البخاري واللفظ له (كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل، ١/ ٢١٦/ ٥٧٧)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، ٣/ ١٦٢٧/ ٢٠٥٧).

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري رضي الله عنه، شهد بدراً، قتله المشركون في مكة بعدما أسروه، وقصة قتله في الصحيحين.
أسد الغابة (٢/ ١٠٣)، الإصابة (٢/ ٢٦٢).

(٢) أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سريةً عيناً، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري - جد عاصم بن عمر - فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة - وهو بين عُسفان ومكة - ذُكروا لحيٍّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم، قريباً من مائتي رجل، كلهم رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تَمر يثرب، فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحداً، قال عاصم بن ثابت - أمير السرية -: أمَّا أنا، فوالله لا أنزل اليوم =

وعامر بن فهيرة رضي الله عنه[١]: قتل شهيداً، فالتمسوا جسده، فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رُفِع، فرآه عامر بن الطفيل[٢] وقد رُفع، وقال عروة[٣]:

= في ذمة كافر، اللهم أخبِر عنا نبيك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى، فقتلوه، فانطلقوا بخُبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعه بدر، فابتاع خُبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيبٌ هو قتل الحارثَ بن عامر يوم بدر، فلبث خُبيب عندهم أسيراً.
فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته: أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحدُّ بها، فأعارته، فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعةً عرفها خبيبٌ في وجهي، فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك. والله ما رأيت أسيراً قطُّ خيراً من خُبيب، والله لقد وجدته يوماً **يأكل من قِطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكةَ من ثمر**، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خُبيباً، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحِلِّ قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزعٌ لطوَّلتها، اللهم أحصهم عدداً.. الحديث. رواه البخاري واللفظ له (كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل؟، ٣/ ١١٠٨/ ٢٨٨٠)، وأبو داود (أول كتاب الجهاد، باب في الرجل يستأسر، ٣/ ٥١/ ٢٦٦٠).

(١) هو عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر رضي الله عنهما وهو الذي كان يروح عليهما بالغنم في الغار، قتل رضي الله عنه يومَ بئر معونة.
انظر: الحلية (١/ ١٠٩)، أسد الغابة (٣/ ٩٠)، الإصابة (٣/ ٥٩٤).

(٢) هو عامر بن الطفيل بن مالك العامري، سيد بني عامر في الجاهلية، وَفَدَ على النبي ﷺ يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، مات كافراً سنة ١١هـ.
أسد الغابة (٣/ ٨٤)، الإصابة (٥/ ٢٧٢).

(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، مدني تابعي، روى عن أبيه وأخيه عبد الله وأمه أسماء، عده أبو الزناد من فقهاء المدينة السبعة، توفي سنة ٩٤هـ، وقيل غير ذلك. =

فيرون الملائكةَ رفعته(١).

وخرجت **أم أيمن**(٢): مهاجرةً وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمةً سمعت حِسّاً على رأسها، فرفعته فإذا دلوٌ معلّقٌ، فشربت منه حتى رَوِيت، وما عطشت بقيةَ عمرها(٣).

وسفينة(٤) مولى رسول الله ﷺ: أخبر الأسد بأنه رسولُ رسولِ الله ﷺ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصدَه(٥).

= تهذيب التهذيب لابن حجر (٧/ ١٨٠).

(١) رواه البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ٤/ ١٥٠٢/ ٣٨٦٣)، الإصابة (١/ ٤٤٨)، الحلية (١/ ١١٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٢٣٠).

(٢) هي بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك، أم الظباء، مولاة رسول الله ﷺ، وهي أم أسامة بن زيد بن حارثة، وأيمن هو أخو زيد لأمه، توفي سنة ١١هـ.
انظر: الحلية (٢/ ٦٧)، الطبقات لابن سعد (٨/ ٢٢٣)، الاستيعاب (٨/ ١٢٨)، أسد الغابة (٥/ ٥٦٧)، الإصابة (٨/ ١٦٩).

(٣) مصنف عبد الرزاق (٤/ ٣٠٩)، الحلية (٢/ ٦٧)، الطبقات لابن سعد (٨/ ٢٢٤)، أسد الغابة (٥/ ٥٦٧)، صفة الصفوة (٢/ ٥٤).

(٤) هو سفينة مولى رسول الله ﷺ قيل: اسمه مهران، وقيل: طهمان، وقيل غير ذلك، أصله من فارس، اشترته أم سلمة فأعتقته واشترطت عليه أن يخدم النبي ﷺ.
انظر: أسد الغابة (٢/ ٣٢٤)، الإصابة (٣/ ١٣٢).

(٥) يشير الشيخ إلى ما أخرجه الحاكم في المستدرك، عن سفينة مولى رسول الله ﷺ، قال: ركبتُ البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحاً من ألواحها فطرحني اللوح في أَجَمَةٍ فيها الأسد، فأقبل إليَّ يريدني، فقلت: يا أبا الحارث! أنا مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه وأقبل إليَّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق وهمهم، فظننت أنه يودعني، فكان ذلك آخرَ عهدي به. أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: =

والبراء بن مالك[١]: كان إذا أقسم على الله تعالى أبرَّ قسمَه، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء! أقسِمْ على ربك فيقول: يا رب! أقسمت عليك لمَّا منحتنا أكتافهم، فيُهزم العدوُّ، فلما كان يوم تُسْتَرَ[٢]، قال: أقسمت عليك يا رب لمَّا منحتنا أكتافهم وجعلتني أولَ شهيد، فمنحوا أكتافهم، وقُتل البراءُ شهيداً[٣].

وخالد بن الوليد رضي الله عنه[٤]: حاصر حصناً منيعاً، فقالوا: لا نُسَلِّم

= صحيح على شرط مسلم (٣/ ٧٠٢/ ٦٥٥٠)، وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٢١٢)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٣٢٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٦٦).

(١) هو البراء بن مالك بن النضر الأنصاري رضي الله عنه، شهد أُحداً، وهو ممن بايع تحت الشجرة، استشهد يوم فتح تستر، سنة ٢٠هـ.
انظر: سير الأعلام (١/ ١٤٢)، البداية والنهاية (٧/ ٩٥).

(٢) في المطبوع: القادسية، والصواب ما أثبته، والتصحيح من كتب السير.

(٣) يشير الشيخ إلى ما أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب (كتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك، ٥/ ٣٥٥/ ٣٩٤٥) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كم من أشعثَ أغبرَ ذي طمرين لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء).
وإلى ما أخرجه الحاكم في المستدرك، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه، منهم البراء بن مالك) فإن البراء لقي زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين، فقالوا: يا براء! إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرَّك، فأقسِم على ربك، فقال: أقسمتُ عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، ثم التقوْا على قنطرة السوس، فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء! أقسم على ربك، فقال: أقسمتُ عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك ﷺ، فمنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيداً. أخرجه الحاكم في المستدرك واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣/ ٣٣١/ ٥٢٧٤)، كرامات الأولياء (٢/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٤) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، أبو سليمان، الصحابي =

حتى تشرب السُّمَّ!! فشربه فلم يضرَّه[١].

وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه[٢]: كان مستجابَ الدعوة؛ ما دعا قطُّ إلا استُجيب له[٣]، ....

= الجليل رضي الله عنه، أسلم قبل فتح مكة سنة ٧هـ، توفي سنة ٢١هـ.
انظر: أسد الغابة (٢/ ٩٣)، الإصابة (٢/ ٢٥١)، سير الأعلام (١/ ٣٦٦).

(١) القصة في كرامات الأولياء (٢/ ١٤٢) عن أبي السفر، قال: نزل خالد بن الوليد الحِيرةَ على أم بني المرازبة فقالوا: احذر السم لا تسقك الأعاجم، فقال: ائتوني به، فأُتيَ به فاقتحمه! وقال: باسم الله، فلم يضره.
وانظر: فضائل الصحابة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٨١٥)، سير الأعلام (١/ ٣٧٦)، التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات (ص٤٤، ط. مطبوعات إفريقية، الرباط ١٤٠٣هـ)، وذكرها الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٠) وقال: رواه أبو يعلى (١٣/ ١٤١) والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو مرسل ورجالهما ثقات، إلا أن أبا السفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد، والله أعلم. اهـ.

(٢) هو سعد بن أبي وقاص ـ واسم أبي وقاص مالك ـ بن أهيب عبد مناف بن زهرة بن لؤي، من العشرة المبشرين بالجنة، من السابقين إلى الإسلام، أسلم وعمره ١٧ سنة، توفي سنة ٥٥هـ، وقيل: ٥٠هـ.
انظر: صفة الصفوة (١/ ١٤٩)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/ ٤٧١، ذِكر عدة حوادث)، سير الأعلام (١/ ١١٣).

(٣) ومن ذلك ما في الصحيحين: أن أهل الكوفة شكوْا سعد بن أبي وقاص إلى عمر، فقالوا: إنه لا يحسن أن يصلي! فقال سعد: أمّا أنا فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ صلاتَيْ العَشيِّ لا أخرِمُ منها، أركد في الأُولَيَين وأحذف في الأخريين، فقال عمر: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فبعث رجالاً يسألون عنه بالكوفة، فكانوا لا يأتون مسجداً من مساجد الكوفة إلا قالوا خيراً، حتى أتوا مسجداً لبني عبس، فقال رجل ـ يقال له: أبو سعدة ـ: أما إذ نشدتمونا بالله! فإنه كان لا يعدل في القضية! ولا يقسم بالسوية! ولا يسير بالسرية! فقال سعد: اللهم إن كان كاذباً فأعمِ بصره، وأطِل عمره، وعرِّضه للفتن، قال عبد الملك: فأنا رأيته بعدُ يتعرضَ للإماء في السِّكك، فإذا سُئل: كيف أنت؟ =

وهو الذي هزم جنود كسرى[١] وفتح العراق[٢].

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما أرسل جيشاً، أمَّر عليهم رجلاً يسمى: سارية[٣]، فبينما عمر يخطب، فجعل يصيح على المنبر: يا سارية! الجبلَ، يا سارية! الجبل، فقدم رسولُ الجيش، فسأل فقال: يا أمير المؤمنين! لقينا عدواً فهزمونا، فإذا بصائح: يا سارية! الجبلَ، يا سارية! الجبلَ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله[٤].

= يقول: كبيرٌ مفتونٌ أصابتني دعوة سعد.

رواه البخاري واللفظ له (كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات، ١/ ٢٦٢/ ح٧٢٢)، ومسلم (كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، ١/ ٣٣٤/ ح٤٥٣).

(١) كسرى: بفتح الكاف وكسرها، هو: لقب لكل من ولي مملكة فارس، وهو معرَّب، والجمع: أكاسرة، وأصلها بالفارسية: خسرو، أي: واسع الملك، والمقصود هنا: كسرى بن هرمز عظيم الفرس.

انظر: لسان العرب (٥/ ١٤٢)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٦٥ ـ ٦٦)، فتح الباري (٦/ ٦٢٥).

انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/ ٦٦).

(٢) قال الإمام الذهبي في سير الأعلام (١/ ١١٥): «ومن مناقب سعد رضي الله عنه: أنَّ فتحَ العراق كان على يدي سعد، وهو كان مقدَّمَ الجيوش يوم وقعة القادسية، ونصر الله دينه ونزل سعد بالمدائن، ثم كان أمير الناس يوم جلولاء، فكان النصر على يده واستأصل الله الأكاسرة»اهـ.

وانظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٣) فقد ذكر ابن كثير فتوحات سعد رضي الله عنه وتوسع فيها.

(٣) هو سارية بن زنيم بن عمرو الكناني، له صحبة، كان في الجاهلية كثير الغارات، وكان سبَّاقاً يسبق الخيل عدواً، ولاه عمر قيادة بعض الجيوش، توفي سنة ٣٠هـ.

انظر: الإصابة (٣/ ٤)، الأعلام (٣/ ٦٩).

(٤) القصة أخرجها أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٢١٠)، وابن حجر في =

ولما عُذبت **الزنيرة** رضي الله عنها[(١)]: على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام، وذهَب بصرُها، قال المشركون: أصاب بصرَها اللاتُ والعُزَّى، قالت: كلا والله، فردَّ الله عليها بصرها[(٢)].

ودعا **سعيد بن زيد** رضي الله عنه[(٣)]: على أروى[(٤)]، فأُعمي بصرها، لما كذبت عليه، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فَأَعْمِ بصرها، واقتلها في أرضها، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت[(٥)].

= الإصابة (٣/ ٤)، وأبو جعفر الطبري في الرياض النضرة في مناقب العشرة (٢/ ١٥) وقال: إسناده حسن، وابن الزيات في التشوف إلى رجال التصوف (ص٤٩).

(١) في المطبوع: الزبيرة، والتصحيح من كتب التراجم.
هي زنيرة الرومية، من أوائل من أسلم، كانت مولاة لبني عبد الدار، ثم لما أسلمت اشتراها أبو بكر رضي الله عنه وأعتقها.
انظر: الإصابة (٧/ ٦٦٤)، الاستيعاب (٤/ ١٨٤٩).

(٢) فضائل الصحابة لعبد الله ابن الإمام أحمد (١/ ١١٩)، الإصابة (٧/ ٦٦٤)، الاستيعاب (٤/ ١٨٤٩)، السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤٠).

(٣) هو سعيد بن زيد بن عمرو العدوي القرشي، صحابي جليل رضي الله عنه، أحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي سنة ٥١هـ.
انظر: الإصابة (٣/ ١٠٣)، الأعلام (٣/ ٩٤).

(٤) في المطبوع: بنت الحكم، وهو خطأ.
وهي: أروى بنت أنيس (وقيل: أويس)، قيل: إنها صحابية، وهي التي ادَّعت عند مروان بن الحكم أن سعيد بن زيد ظلمها أرضها، وكان جارَها بالعقيق، فدعا عليها، فعميت وماتت في أرضها.
انظر: الحلية (١/ ٩٦)، أسد الغابة (٥/ ٣٩٢)، الإصابة (٧/ ٤٨٧)، سير الأعلام (١/ ١٠٦).

(٥) القصة ذكرها الذهبي في سير الأعلام (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧) في ترجمة سعيد بن زيد رضي الله عنه: عن أبي بكر بن حزم، قال: جاءت أروى بنت أويس إلى محمد بن عمرو بن حزم، فقالت: إن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد بنى ضفيرة في =

والعلاء بن الحضرمي[(١)]: كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم! يا حليم! يا عليُّ! يا عظيم! فيُستجاب له[(٢)]، ودعا الله بأن يُسْقَوْا ويتوضؤوا لما عَدِموا الماء، والإسقاء لما بعدهم فأجيب[(٣)].

ودعا الله لمَّا اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلُّهم على الماء، ما ابتلَّت سروجُ خيولهم[(٤)].

= حقي، فاتته فكلمه، فوالله لئن لم يفعل لأصيحن به في مسجد رسول الله ﷺ! فقال لها: لا تؤذي صاحب رسول الله، ما كان ليظلمك، ما كان ليأخذ لك حقاً، فخرجت فجاءت عمارة بن عمرو وعبد الله بن سلمة، فقالت لهما: ائتيا سعيد بن زيد، فإنه قد ظلمني وبنى ضفيرة في حقي، فوالله لئن لم ينزع لأصيحن به في مسجد رسول الله ﷺ، فخرجا حتى أتياه في أرضه بالعقيق، فقال لهما: ما أتى بكما؟! قالا: جاء بنا أروى؛ زعمت أنك بنيت ضفيرةً في حقها! وحلفت بالله لئن لم تنزع لتصيحن بك في مسجد رسول الله ﷺ فأحببنا أن نأتيك ونذكِّرَك بذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أخذ شبراً من الأرض بغير حق، طُوِّقَه يوم القيامة من سبع أرضين) لِتأتيَنَّ فلتأخذ ما كان لها من حق، اللهم إن كانت كذبت عليَّ، فلا تمتها حتى تُعمي بصرها وتجعل منيتها فيها، ارجعوا فأخبروها بذلك، فجاءت فهدمت الضفيرة وبنت بيتاً، فلم تمكث إلا قليلاً حتى عميت، وكانت تقوم من الليل ومعها جارية تقودها، فقامت ليلة ولم توقظ الجارية، فسقطت في البئر فماتت. وأصل القصة في صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، ٣/ ١١٦٨/ ٣٠٢٦)، وصحيح مسلم (كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، ٣/ ١٢٣١/ ١٦١٠) من حديث: هشام بن عروة عن أبيه.

(١) هو العلاء بن عبد الله بن عماد بن حضرموت، من سادة المهاجرين، ولاه الرسول ﷺ البحرين، ثم وليها لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، توفي سنة ٢١هـ.
انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٦/ ٥٠٦)، سير الأعلام (٢/ ٢٦٢)، الإصابة (٢/ ٤٤)، أسد الغابة (٤/ ٧)، الإصابة (٤/ ٥٤١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٠١)، الزهد لابن المبارك (٢/ ١٧٠).

(٣) الزهد لابن المبارك (٢/ ١٩٦)، مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٣٧٦).

(٤) الزهد لابن المبارك (٢/ ١٧٠)، سير الأعلام (١/ ٢٦٤)، الحلية (١/ ٨)، =

ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات، فلم يجدوه في اللحد[1].

وجرى مثل ذلك **لأبي مسلم الخولاني**[2] ـ الذي أُلقي في النار[3] ـ: فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة، وهي ترمي بالخشب من مَدِّها، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: تفقدون من متاعكم شيئاً حتى

= مجمع الزوائد (٣/ ١٧) للهيثمي، وقال: فيه إبراهيم بن معمر الهروي ولد إسماعيل، وبقية رجاله ثقات.اهـ.

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٣/ ١٧)، التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات (ص٣٨).

(٢) هو عبد الله بن ثوب، أبو مسلم الخولاني، تابعي زاهد ثقة، قارئ أهل الشام، من الصالحين العباد الزهاد، توفي سنة ٦٢هـ.
انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٥٨)، سير الأعلام (٤/ ١٤)، الإصابة (٧/ ٣٩٧)، الاستيعاب (٨/ ١٧٥٧)، الحلية (٥/ ١١٩).

(٣) القصة ذكرها ابن عبد البر وغيره، وفيها: أن الأسود بن قيس بن ذي الخمار تنبَّأ باليمن، فبعث إلى أبي مسلم، فلمَّا جاءه قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع! قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع! قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فردَّد ذلك عليه، كل ذلك يقول له مثل ذلك! قال: فأمر بنار عظيمة فأُجِّجت ثم ألقي فيها أبو مسلم، فلم تضرَّه شيئاً! قال: فقيل له: اِنفِهِ عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك، قال: فأمره بالرحيل.
فأتى أبو مسلم المدينة وقد قُبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، ودخل المسجد وقام يصلي إلى سارية، فبصر به عمر بن الخطاب، فقام إليه فقال: ممن الرجل؟ قال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال ذلك عبد الله بن ثوب، قال: أنشدك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، قال: فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله عليه السلام.
الاستيعاب (٨/ ١٧٥٨)، كرامات الأولياء (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢)، الحلية (٢/ ١٢٩)، صفة الصفوة (٤/ ٢٠٨)، التشوف إلى رجال التصوف (ص٤٢).

أدعو الله ﷻ فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة[١] فقال: اتبعني! فتبعه، فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها[٢].

وطلبه **الأسود العنسي** لمَّا ادّعى النبوة، فقال له: أتشهد أني رسول لله؟ قال: ما أسمع! قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فأُلقيَ فيها، فوجدوه قائماً يصلي فيها، وقد صارت عليه برداً وسلاماً.

وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمرُ بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله.

ووضعت له جاريةٌ السمَّ في طعامه فلم يضره[٣].

---

(١) المخلاة: أداة يُحتشُّ بها الحشيش (العشب)، سميت مخلاةً من الخلا، وهو موضع الحشيش.
انظر مادة: خلا، في: تهذيب اللغة (٧/ ٧٥٧)، لسان العرب (١٤/ ٢٣٧).

(٢) القصة ذكرها اللالكائي وأبو نعيم عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي مسلم الخولاني: أنه كان إذا غزا الروم فمروا منهم قال: أجيزوا بسم الله! قال: ويمر بين أيديهم! قال: فيمرون بالنهر الغمر، قال: فربما لم يبلغ من الدواب إلى الركب، أو نحو ذلك، قال: فإذا جازوا قال للناس: هل ذهب لكم شيء؟ من ذهب له شيء فأنا له ضامن! قال: فألقى بعضُهم مخلاته عمداً، فلمَّا جاوزوا قال الرجل: مخلاتي وقعت في النهر، فقال له: اتبعني! فإذا المخلاة قد تعلقت ببعض أعواد النهر، فقال له: خذها.
وفي حلية الأولياء: أن أبا مسلم الخولاني مرّ بدجلة وهي ترمي بالخشب من مدها، فمشى على الماء ثم التفت إلى أصحابه، فقال: هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعوا الله...
انظر: كرامات الأولياء (٢/ ١٨٨)، الحلية (٥/ ١٢٠).

(٣) القصة ذكرها اللالكائي في كرامات الأولياء (٢/ ١٨٢) وابن الزيات في التشوف لرجال التصوف (ص٤٤) عن السري بن يحيى، قال: قالت جارية أبي مسلم =

وخبّبت امرأةٌ عليه زوجته، فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت، فدعا لها، فردَّ الله عليها بصرها[١].

وكان **عامر بن عبد قيس**[٢]: يأخذ عطاءه ألفيْ درهم في كُمِّه وما يلقاه سائلٌ في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته، فلا يتغير عددُها ولا وزنُها[٣].

= الخولاني: قد صنعت لك السم في طعامك فلم يضرك!! قال: ولِمَ؟ قالت: أردت أتعجل العتق، قال: اذهبي فأنت حرة.

(١) القصة ذكرها اللالكائي في كرامات الأولياء (٢/ ١٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠)، وفيها: أن أبا مسلم الخولاني كان إذا دخل منزله سلم، وإذا بلغ وسط الدار كبّر وكبّرت امرأته، فإذا بلغ البيت كبّر وكبّرت امرأته، قال: فيدخل فينزع رداءه وحذاءه وتأتيه بطعام فيأكل، فجاء ذات ليلة فكبّر فلم تجبه، ثم أتى البيت فكبّر وسلم وكبّر، فلم تجبه! وإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا هي جالسة بيدها عود في الأرض تنكُت به، فقال لها: ما لك؟ قالت: الناس بخير، وأنت أبو مسلم، لو أنك أتيت معاوية فيأمر لنا بخادم، ويعطيك شيئاً نعيش به، فقال: اللهم من أفسد عليَّ أهلي فأعْمِ بصرَه.

قال: وكانت أتتها امرأةٌ، فقالت: أنتِ امرأة أبي مسلم، فلو كلمتِ زوجك يكلم معاوية لِيُخدِمكم ويعطيكم، قال: فبينا هذه المرأة في منزلها والسراج يزهر إذ أنكرت بصرها! فقالت: سراجكم طفئ؟! قالوا: لا، قالت: إنا لله!! ذهب بصري! فأقبلتْ كما هي إلى أبي مسلم، فلم تزل تناشده اللهُ وتطلب إليه، قال: فدعا الله، فردَّ عليها بصرها، ورجعت امرأته إلى حالها التي كانت عليها. اهـ.

كرامات الأولياء (٢/ ١٨٤)، الحلية (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

(٢) هو عامر بن عبد الله القضيري، المعروف بعامر بن عبد قيس البصري، من سادات التابعين، كان من أعبَدِ أهل زمانه وأشدِّهم اجتهاداً، توفي ببيت المقدس سنة ٥٥هـ.

انظر: أسد الغابة (٣/ ٨٨)، تهذيب التهذيب (٥/ ٧٧).

(٣) الزهد لابن المبارك (ص٢٩٥)، الرسالة القشيرية (٢/ ٦٨٨).

ومرَّ بقافلةٍ قد حبسهم الأسد، فجاء حتى مسَّ بثيابه الأسدَ، ثم وضع رجلَه على عنقه! وقال: إنما أنت كلبٌ من كلاب الرحمن، وإني أستحي أن أخاف شيئاً غيرَه، ومرت القافلة[(١)].

ودعا الله تعالى أن يُهوِّنَ عليه الطهور في الشتاء، فكان يُؤتَى بالماء له بخار![(٢)].

ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة، فلم يقدِرْ عليه[(٣)].

وتغيَّب **الحسن البصري** عن الحَجاج[(٤)] فدخلوا عليه ستَّ مرات، فدعا الله ﷻ فلم يروه[(٥)].

ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه، فخرَّ ميتاً[(٦)].

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص٢٩٥)، الحلية (٢/ ٩٢).

(٢) الزهد لابن المبارك (ص٢٩٥).

(٣) الزهد لابن المبارك (ص٢٩٥)، الرسالة القشيرية (٢/ ٧٠٧).

(٤) هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن ثقيف بن هوازن، أبو محمد الثقفي، ولد سنة ٤٠هـ، وسمع ابنَ عباس، وروى عن أنس وسَمُرَةَ بن جندب وغيرهم، وروى عنه ثابت البناني وحميد الطويل ومالك بن دينار وغيرهم، ولاه عبد الملك الحجاز، فقتلَ ابن الزبير، ثم عزله عنها وولاه العراق، وكانت فيه شهامةٌ عظيمة، ولكن في سيفه رهق يقتل النفس التي حرمها الله بأدنى شبهة، توفي سنة ٩٥هـ.
انظر: تاريخ الطبري (٦/ ٤٩٣)، البداية والنهاية (٦/ ٢٤٦، ترجمة الحجاج بن يوسف)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/ ٥٨٤)، شذرات الذهب (١/ ١٠٦).

(٥) لم أقف على شيء من ذلك.

(٦) قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣٢٢): وكان رجل من الخوارج يغشى مجلس الحسن البصري فيؤذيهم، فلما زاد أذاه، قال الحسن: اللهم قد علمت أذاه لنا، فاكفناه بما شئت، فخرّ الرجل من قامته، فما حُمِلَ إلى أهله إلا ميتاً. =

وصِلَةُ بن أُشَيْم[1]: مات فرسُه وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوقٍ عليَّ مِنَّةً، ودعا الله ﷻ فأحيا له فرسَه، فلما وصل إلى بيته، قال: يا بُنيَّ، خذ سرج الفرس فإنه عاريةٌ، فأخذ سرجه فمات الفرس[2].

وجاع مرة بالأهواز[3]، فدعا الله ﷻ واستطعمه، فوقعت خلفه دوخلَّة[4] رطب في ثوب حرير، فأكل التمر وبقي الثوبُ عند زوجته زماناً[5].

وجاء الأسد وهو يصلي في غيضةٍ[6] بالليل، فلما سلَّم، قال له:

= وأورد ابن أبي الدنيا القصة بأطول من هذا في كتاب: مجابو الدعوة (ص٧٠/ رقم ٩٣).

(١) هو صلة بن أشيم العدوي، تابعي مشهور، له حديث مرسل، فالتبس على بعضهم فذكره في الصحابة، توفي سنة ٣٥هـ، وقيل غير ذلك.
انظر: أسد الغابة (٣/ ٢٩)، الإصابة (٣/ ٤٦٣).

(٢) القصة ذكرها عبد الرؤوف المناوي في الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (١/ ١٢٥)، صفة الصفوة (٣/ ٢١٧)، الزهد لابن المبارك (ص٢٩٥) إلا أنهما ذكرا ذهاب بغلته، لا موتها.

(٣) الأهواز: بلد يقع جنوب إيران.
انظر: أطلس التاريخ الإسلامي (ص٣٤، ترجمة: إبراهيم زكي، ط. مكتبة النهضة المصرية).

(٤) الدوخلَّة: هي سقيفة من خوص يوضع فيها الرطب والتمر.
انظر مادة: دخل، في: لسان العرب (١١/ ٢٤٣)، تاج العروس (١٤/ ٢٣١).

(٥) الزهد لابن المبارك (ص٢٩٧)، كرامات الأولياء (٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، الطبقات لابن سعد (٧/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، الحلية (٢/ ٢٣٩)، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (١/ ١٢٥).

(٦) الغَيْضة: ـ على وزن بَيْعة ـ المكان الذي يجتمع فيه الماء فيكثر فيه الشجر، ويلتفُّ بعضه على بعض، وتسمى الأجمة، وكثيراً ما تسكنها الأسود، ومنه قول رؤبة: =

اطلب الرزق من غير هذا الموضع، فولَّى الأسدُ وله زئير[١].

وكان **سعيد بن المسيب**[٢]: في أيام الحَرَّة[٣] يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيرُه[٤].

ورجلٌ من النخع كان له حمار فمات في الطريق، فقال له أصحابه: هلُمَّ نتوزع متاعك على رحالنا، فقال لهم: أمهلوني هُنيهةً، ثم توضأ فأحسن الوضوء، وصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فأحيا له حماره، فحمل عليه متاعه[٥].

= في غيضة شجراء لم تمعّر من خشب عاس وغاب مثمر
انظر: لسان العرب (٧/ ٢٠٢)، تاج العروس (١٠/ ١١٧).

(١) الزهد لابن المبارك (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦)، الحلية (٢/ ٢٤٠).

(٢) هو سعيد بن المسيب بن حزن، تابعي مشهور، الفقيه الزاهد الورع، توفي سنة ٩٤هـ، وقيل غير ذلك.
انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ١١٩).

(٣) الحرة: الحرة ـ في الأصل ـ أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، والجمع: الحرات والأحرون والحرار والحرون، والمراد بها هنا حرة المدينة النبوية، وهو موقع في ضواحي المدينة النبوية.
وأيام الحرة: هي الأيام التي حاصر فيها يزيد بن معاوية المدينة، وقد حاصرها من جهة الحرة سنة ٦٣هـ، وكان قائد جيش يزيد: مسلم بن عقبة، وقد دخل المدينة عَنوة، وأسرف هو وجنوده فيها قتلاً ونهباً.
انظر: تاريخ الطبري (٥/ ٤٨٢، حوادث سنة ٦٣)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/ ١١١، ذِكر وقعة الحرة)، البداية والنهاية (٨/ ٢٣٧)، معجم البلدان (٢/ ٢٤٥).

(٤) القصة ذكرها ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ١٣٢)، والمناوي في الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (١/ ١١٤).

(٥) القصة ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية وابن حجر في الإصابة: عن الشعبي قال: خرج رجل من النخع يقال له: شيبان في جيش على حمار له في زمن عمر، فوقع الحمار ميتاً، فدعاه أصحابه ليحملوه ومتاعه فامتنع، فقام فتوضأ ثم =

ولما مات **أويسٌ القرني**[(١)]: وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة، فدفنوه فيه، وكفنوه في تلك الأثواب[(٢)].

وكان **عمرو بن عتبة**[(٣)] بن فرقد[(٤)] يصلي يوماً في شدة الحر،

= قام عند رأسه، فقال: اللهم إني أسلمت لك طائعاً وهاجرت مختاراً في سبيلك، ابتغاء مرضاتك، وإن حماري كان يعينني ويكفيني عن الناس فقوِّني به وأحيه لي، ولا تجعل لأحد عليَّ مِنَّةً غيرك، فنفض الحمار رأسه وقام فشد عليه ولحق بأصحابه.

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٧١٣): «قال البيهقي: هذا إسناد صحيح، ومثل هذا يكون كرامةً لصاحب الشريعة، قال البيهقي: وكذلك رواه محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن عبيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي، وكأنه عند إسماعيل من الوجهين، والله أعلم، قلت: كذلك رواه ابن أبي الدنيا من طريق إسماعيل عن الشعبي... فذكره قال الشعبي: فأنا رأيت الحمار بيع أو يباع في الكناسة ـ يعني بالكوفة ـ وقد أوردها ابن أبي الدنيا من وجه آخر، وأن ذلك كان في زمن عمر بن الخطاب، وقد قال بعض قومه في ذلك:

ومنا الذي أحيى الإلهُ حمارَه وقد مات منه كل عضو ومفصل»اهـ

وانظر: البداية والنهاية (٦/ ١٧٥)، الإصابة (٣/ ٣٩٠).

(١) هو أويس بن عامر (وقيل: عمرو) بن جزء بن مالك المرادي القرني، الزاهد المشهور، قال فيه النبي ﷺ: (إن خير التابعين رجل يقال له: أويس)، وفي رواية له عن عمر رضي الله عنه: (يأتي عليك أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، ثم من مراد، ثم من قرن، كان به بَرَصٌ فبرأ منه، إلا موضعَ درهم، له والدة هو بها برٌّ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفرَ لك فافعل) [كلا الروايتين في صحيح مسلم (كتاب فضائل، الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، ٤/ ١٩٦٨/ ح٢٥٤٢) من حديث: عمر رضي الله عنه].

انظر: الإصابة (١/ ٢٢٠)، سير الأعلام (٤/ ١٩)، الحلية (٢/ ٨٠).

(٢) الزهد لابن أبي عاصم (٢/ ٣٤٦)، الحلية (٢/ ٨٣).

(٣) في المطبوع: عمرو بن عقبة، والصواب ما أثبته، والتصحيح من كتب التراجم.

(٤) هو عمرو بن عتبة بن فرقد القرشي، كانت لأبيه عتبة بن فرقد صحبة، كان من =

فأظلَّته غمامة[1].

وكان السَّبُع يحميه وهو يرعى رِكابَ أصحابه؛ لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدُمُهم[2].

وكان **مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير**[3]: إذا دخل بيته سبَّحت معه آنيتُه[4].

وكان هو وصاحبٌ له يسيران في ظُلمة فأضاء لهما طرف السوط[5].

ولما مات **الأحنف بن قيس**[6] وقعت قلنسوةُ رجلٍ في قبره،

= المجتهدين في العبادة، له ورع وصلاح، قتل في غزوة أذربيجان في خلافة عثمان ﷺ.
انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٦/ ٣٦٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ٢٠٦)، الحلية (٤/ ١٥٥)، صفة الصفوة (٢/ ٣٩)، أسد الغابة (٤/ ١٢١)، الإصابة (٥/ ٦٨).

(١) الزهد لابن المبارك (٢/ ٣٥٣ وفيه عمرو بن عتبة)، الحلية (٤/ ١٥٧)، الإصابة (٤/ ٨٠).

(٢) الحلية (٢/ ١٥٧)، الزهد لابن المبارك (ص٣٠١).

(٣) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير بن ربيعة العقيلي ﷺ، تابعي مشهور، ولد في عهد النبي ﷺ، كان ذا عبادة وورع، توفي سنة ٨٧هـ.
انظر: الإصابة (٦/ ٢٦٠)، التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ١٢٦)، سير الأعلام (٤/ ١٩٣)، الأعلام (٧/ ٢٥٠).

(٤) الزهد للإمام أحمد (ص٢٤١)، صفة الصفوة (٣/ ٢٢٢)، سير الأعلام (٤/ ١٩٥).

(٥) الزهد للإمام أحمد (ص٢٤١)، الحلية (٢/ ٢٠٥)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ١٤٤)، كرامات الأولياء (٢/ ٢١١)، سير الأعلام (٤/ ١٩٣).

(٦) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين، واسمه ضحاك وقيل: صخر، أبو بحر التميمي، واشتهر بالأحنف لحنفِ رجليه (وهو العوج والميل)، الأمير الكبير العالم النبيل، يُضرب المثل بحلمه وسؤدده، أسلم في حياة النبي ﷺ =

فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فُسح فيه مدّ البصر[(١)].

وكان **إبراهيم التيمي**[(٢)]: يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً[(٣)]، وخرج يمتار لأهله طعاماً، فلم يقدر عليه، فمر بسهلة حمراء فأخذ منها، ثم رجع إلى أهله ففتحها، فإذا هي حنطة حمراء! فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً[(٤)].

وكان **عتبة الغلام**[(٥)]: سأل ربَّه ثلاث خصال: صوتاً حسناً، ودمعاً غزيراً، وطعاماً من غير تكلُّف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قُوتَه ولا يدري من أين يأتيه![(٦)].

= ووفد على عمر، توفي سنة ٦٧هـ، وقيل: ٧٧هـ.
انظر: أسد الغابة (١/ ٥٥)، سير الأعلام (٤/ ٨٧)، الإصابة (١/ ١٨٧)، الاستيعاب (٨/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(١) سير الأعلام (٤/ ٩٦).

(٢) هو إبراهيم بن يزيد التيمي، عابد الكوفة، كان شاباً صالحاً عالماً فقيهاً كبير القدر، توفي في سجن الحجاج سنة ٩٢هـ.
انظر: صفة الصفوة (٣/ ٩٠)، الزهد للإمام أحمد (ص٣٦٢)، سير الأعلام (٥/ ٦٥).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٩٠)، الزهد للإمام أحمد (ص٣٦٢)، سير الأعلام (٥/ ٦١).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣٣٠).

(٥) هو عتبة بن إبان بن صمعة البصري، الخاشع الخائف، اشتهر بالغلام؛ لأنه كان في العبادة كأنه غلام رهبان، لا لصغر سنه، كان يُشَبَّهُ في حزنه بالحسن البصري، مات في قتالٍ للروم.
انظر: سير الأعلام (٧/ ٦٢)، الحلية (٦/ ٢٢٦).

(٦) يشير الشيخ إلى ما ذكره اللالكائي في كرامات الأولياء (٢/ ٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٣٦): أن عتبة الغلام دعا ربه أن يهب له ثلاث خصال في دار الدنيا؛ دعا ربه أن يمنَّ عليه بصوت حزين، ودمع غزير، وطعام من غير تكلف؛ فكان إذا قرأ بكى وأبكى وكانت دموعُه جاريةً دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب قوته فلا يدري من أين يأتيه.

وكان **عبد الواحد بن زيد**: أصابه الفالج، فسأل ربَّه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء، فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه، ثم تعود بعده[(١)]. وهذا باب واسع، قد بُسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه عن أعيانٍ، ونعرفه في هذا الزمان فكثير»اهـ[(٢)].

ثانياً: لا بدّ أن يُنظر في أصل خرق العادة، من أين هو؟ والى أين يوصل؟:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما الكمال في الولاية: أن يستعمل خرق العادات في إقامة الأمر والنهي الشرعيين، مع حصولهما بفعل المأمور وترك المحظور.

فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية، فهي مذمومة.

وإن حصلت بالأسباب الشرعية، لكن استُعملت ليُتَوصَّلَ بها إلى محرّم، كانت مذمومةً. وإن تُوُصِّلَ بها إلى مباح لا يستعان به على طاعة، كانت للأبرار دون المقرَّبين.

وأما إن حصلت بالسبب الشرعي، واستُعين بها على فعل الأمر الشرعي، فهذه خوارق المقربين السابقين.

فلا بد أن يُنظر في «الخوارق»: في أسبابها، وغاياتها: من أين حصلت؟ وإلى ماذا أوصلت؟ كما يُنظر في الأموال: في مستخرجها، ومصروفها.

ومن استعملها ـ أعني الخوارق ـ: في إرادته الطبيعية، كان مذموماً، ومن كان خالياً عن الإرادتين: الطبيعية والشرعية، فهذا حسبه أن يُعفَى عنه، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية، وأما إن عرفها وأعرض

---

(١) سير الأعلام (٧/ ١٧٩)، الحلية (٦/ ١٥٥)، الرسالة القشيرية (٢/ ٧٠٦).

(٢) الفتاوى (١١/ ٢٧٤ ـ ٢٨٢)، الفرقان (ص١٠٢ ـ ١١٠).

عنها، فإنه يكون مذموماً مستحقاً للعقاب إن لم يُعْف عنه، وهو يُمدح بكون إرادته ليست بهواه، لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقةً لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، لا يكفيه أن تكون لا من هذا ولا من هذا، مع أنه لا يمكن خُلُوُّه عن الإرادة مطلقاً، بل لا بد له من إرادة.

فإن لم يرد ما يحبه الله ورسوله، أراد ما لا يحبه الله ورسوله، لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما تهواه، بقي مريداً لما يظن أنه مأموراً به، فيكون ضالًّا»اهـ[1].

ثالثاً: ليس كل عمل أورث كرامةً وكشفاً يكون أفضلَ من غيره من الأعمال:

قال الشيخ في معرض كلامه رحمه الله عن تفاضل الأعمال: «وهاهنا (أصل آخر) وهو: أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرفاً في الكون، يكون أفضلَ من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً، فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يُستعان به على دين الله، وإلا كان من متاع الحياة الدنيا، وقد يحصل ذلك للكفار، من المشركين وأهل الكتاب، وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة، وأولئك أصحاب النار.

ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تُتَلقّى من مثل هذا، وإنما تُتَلقى من دلالة الكتاب والسنة، ولهذا كان كثيرٌ من الأعمال يحصل لصاحبه في الدنيا رئاسةٌ ومالٌ، فأكرمُ الخلق عند الله أتقاهم، ومَن عَبَدَ الله بغير علم، فقد أفسدَ أكثر مما يصلح، وإن حصل له كشف وتصرُّفٌ، وإن اقتدى به خلق كثير من العامة.

وقد بسطنا الكلام في هذا الباب في مواضعه»اهـ[2].

---

(١) الفتاوى (١٠/٤٩٩ ـ ٥٠٠).

(٢) الفتاوى (١١/٣٩٨)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: المستدرك على الفتاوى (١/١٢).

رابعاً: قد تقع الكرامة لِضعيف الإيمان أكثر من وقوعها لِقوي الإيمان:

بيَّن الشيخ أن وقوع الكرامة وخرق العادة للشخص لا يدلّ على أنه أكمل من غيره ـ مطلقاً ـ بل قد يكون وقوعها له لتقوية إيمانه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «مما ينبغي أن يُعرف: أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان، أو المحتاج، أتاه منها ما يُقوِّي إيمانَه، ويسدُّ حاجته، ويكون مَنْ هو أكملُ ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثلُ ذلك؛ لِعلُوِّ درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته.

ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثرَ منها في الصحابة، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم، فهؤلاء أعظم درجة»اهـ[(١)].

خامساً: خرق العادة ليس دليلاً على صلاح من خُرِقت له، أو أنه من أولياء الله تعالى:

قال الشيخ: «ما يصدر عن ذوي الأحوال من كشفٍ علمي، أو تأثير قَدَرِيٍّ، ليس بمستلزم لولاية الله، بل ولا للصلاح، بل ولا للإيمان، إذ قد يكون هذا الجنس في كافر ومنافق وفاسق وعاصٍ، وإنما أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: الذين آمنوا وكانوا يتقون، ففرَّق بين ولاية الله، وبين الأحوال، كما فرَّق بين خلافة النبوة، وبين جنس المُلك، وفرَّق بين العلم الذي ورَّثته الأنبياءُ، وبين جنس الكلام، فبين هذين النوعين خصوصٌ وعمومٌ: فقد يكون الرجل ولياً لله له حال تأثيرٍ وكشفٍ، وقد يكون ولياً ليس له تلك الحال بكمالها، وقد يكون له شيء من هذه الأحوال، وليس ولياً لله، كما قد يكون خليفةً نبي مطاعاً، وقد يكون خليفةَ نبيٍّ مستضعفاً، وقد يكون جباراً مطاعاً ليس من النبوة في

(١) الفتاوى (١١/ ٢٨٣)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٣٧٠).

شيء، وقد يكون عالماً ليس متكلماً بما يخالف كلام الأنبياء، وقد يكون عالماً متكلماً بكلام الأنبياء»اهـ[١].

وبيَّن الشيخُ أنه لا يُحكم بالولاية لأحد بناءً على المكاشفة المجردة ـ فقط ـ:

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصلٌ: وإذ كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً، لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]. . .

وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته، وإن قُدِّر أنه لا إثم عليه، مثل أطفال الكفار، ومن لم تبلغْه الدعوة، وإن قيل: إنهم لا يعذَّبون حتى يُرسل إليهم رسول، فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين، فمن لم يتقرب إلى الله، لا يفعل الحسنات ولا يترك السيئات، لم يكن من أولياء الله، وكذلك المجانين والأطفال. . .

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى، ولا التقرُّب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون ولياً لله، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه وليٌّ لله، لا سيما أن تكون حجتَه على ذلك: إما مكاشفةٌ سمعها منه، أو نوعٌ من تصرف، مثلَ: أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صُرع، فإنه قد عُلم أن الكفار والمنافقين ـ من المشركين وأهل الكتاب ـ لهم مكاشفات وتصرُّفاتٌ شيطانية، كالكهَّان والسحرة وعُبَّاد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدلَّ بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله، وإن لم يُعلم منه ما يناقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولايةَ الله؟! مثل: أن يعلم أنه لا يعتقد وجوبَ اتباع

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٥٣)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٦٠٠)، النبوات (ص٢٤)، المستدرك على الفتاوى (١/ ١٢٠).

النبي ﷺ باطناً وظاهراً، بل يعتقد أنه يتَّبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام، أو يقول: إن الأنبياء ضيَّقوا الطريق، أو: هم على قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدَّعي الولاية.

فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان، فضلاً عن ولاية الله عز وجل، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم، كان أضلَّ من اليهود والنصارى»اهـ[1].

بل قد تُخرق العادةُ للكفار والمشركين، كما في الهند وغيرها، والشخص قد يكون له زهدٌ من غير إسلام.

قال الشيخ: «وفي أصناف المشركين، من مشركي العرب، ومشركي الهند[2] والترك واليونان[3]، وغيرهم، من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة، ولكن ليس بمتَّبع للرسل، ولا يؤمن بما جاؤوا به، ولا

---

(١) الفرقان (ص٣١ ـ ٣٣)، الفتاوى (١١/ ١٩٠ ـ ١٩٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفرقان (ص٥٢).

(٢) الهند: بلاد توجد في آسيا الجنوبية، تضم حالياً: باكستان، جمهورية الهند، بنجلاديش، يفصلها عن معظم أرجاء قارة آسيا جبال الهملايا الشاهقة، سكانها من قبائل متعددة، ويدينون بدياناتٍ ومذاهبَ شتى.
انظر: دائرة معارف القرن الرابع عشر لمحمد فريد وجدي (١٠/ ٥٤٠ ـ ٥٦٧، ط. مطبعة معارف القرن العشرين، الثانية ١٣٤٣هـ)، الموسوعة العربية الميسرة لأشرف محمد غربال (٢/ ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤).

(٣) اليونان: اسمها القديم: هيلاس أو آلاس، وهي الآن دولة أوروبية واقعة في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان، يحدها من الشمال بلغاريا والصرب، ومن الشرق تركيا، ومن الجنوب البحر المتوسط، ومن الغرب بحر اليونان، واليونان بلاد قديمة، كانت ديانة أهلها عبادة القوى الطبيعية (البحر، الشمس، القمر...) وبناء الهياكل لها، أما ديانة أهلها اليوم فأكثرهم نصارى.

يصدقهم بما أخبروا به، ولا يطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياءَ لله، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرُّفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسَّحَرَة الذين تنزل عليهم الشياطين، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣].

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات، وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متَّبعين للرسل فلا بد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور، مثل نوع من الشرك، أو الظلم، أو الفواحش، أو الغلو أو البدع في العبادة، ولهذا تنزَّلت عليهم الشياطين واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وذِكْر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسولَه ﷺ، مثل القرآن، فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبرَه، ويعتقد وجوبَ أمره، فقد أعرض عنه، فيقيض له الشيطان فيقترن به.

قال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

فدل ذلك على أن ذِكْره هو آياته التي أنزلها، ولهذا لو ذكر الرجلُ اللهَ ﷻ دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً في عبادته، ولم يكن متَّبعاً لذِكْره الذي أنزله ـ وهو القرآن ـ كان من أولياء الشيطان، ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، فإن الشيطان يحمله في الهواء.

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع»اهـ[١].

سادساً: بعض العِباد ينفعه خرقُ العادة، فيخرقُها الله تعالى له، وبعضهم يضره، فلا يخرقْها الله تعالى له، فهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده:

قال الشيخ: «قال أبو علي الجوزجاني[٢]: «كُن طالباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة»[٣]، قال الشيخ السهروردي في (عوارفه)[٤]: «وهذا الذي ذكره أصلٌ عظيمٌ كبيرٌ[٥] في الباب، وسرٌّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب[٦]، وذلك: أن المجتهدين والمتعبِّدين سمعوا عن سلفِ[٧] الصالحين المتقدمين، وما مُنِحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسُهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متَّهماً لنفسه في صحة عمله؛ حيث لم يكاشَف بشيء من ذلك. **ولو علموا سرَّ ذلك لهان عليهم الأمر**[٨].

---

(١) الفرقان (ص١٦ ـ ١٧)، الفتاوى (١١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).
(٢) هو الحسن بن علي، أبو علي الجوزجاني، من كبار مشايخ خراسان، صحِب محمد بن علي الترمذي، ومحمد بن الفضل، وهو قريب السن منهم، تكلّم في الآفات والرياضات والمجاهدات.
انظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص٢٤٦)، الحلية (١٠/ ٣٥٠)، طبقات الصوفية الكبرى للشعراني (١/ ١٠٥).
(٣) عوارف المعارف (٥/ ٥٤، مطبوع في ذيل الإحياء، ط. النور).
(٤) عوارف المعارف (٥/ ٥٤، مطبوع في ذيل الإحياء، ط. النور)، بعد الكلام السابق مباشرة.
(٥) في العوارف: أصل كبير في. . .
(٦) في العوارف: أهل السلوك والطلب.
(٧) في العوارف: سمعوا بسير الصالحين.
(٨) في العوارف: الأمر فيه.

فيُعلم: أن الله[١] يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً، والحكمة فيه: أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً[٢]، فيقوى عزمه على[٣] الزهد في الدنيا، والخروج عن دواعي الهوى، وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كُوشف بصدق اليقين أُغنيَ[٤] بذلك عن رؤية خرق العادات؛ لأن المراد منها كان حصولُ اليقين وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا ـ المرزوقُ صدقَ اليقين ـ بشيء من ذلك لازداد يقيناً، فلا تقتضي الحكمةُ كشفَ القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع؛ استغناءً به، وتقتضي الحكمةُ كشفَ ذلك للآخرَ[٥] لِموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتمَّ استعداداً وأهلية من الأول[٦].

فسبيل الصادق: مطالبةُ النفس بالاستقامة؛ فهي كل الكرامة، ثم إذا وقع في طريقه شيءٌ خارق كان كَأَنْ لم يقع، فما يبالي[٧]، ولا ينقص بذلك، وإنما ينقصُ بالإخلال بواجب حق الاستقامة. فتعلَّمْ هذا؛ لأنه أصلٌ كبيرٌ للطالبين والعلماء الزاهدين، ومشايخ الصوفية»اهـ[٨].

---

(١) في العوارف: سبحانه وتعالى.
(٢) في المطبوع من الفتاوى: تفنناً، والتصويب من العوارف.
(٣) في المطبوع من الفتاوى: على هذا الزهد، والتصويب من العوارف.
(٤) في العوارف: استغنى.
(٥) في المطبوع من الفتاوى: لآخر، والتصويب من العوارف.
(٦) هنا سطر ونصف أسقطها شيخ الإسلام وهي قول السهروردي (العوارف ٥/ ٥٥): «.. وأهلية من الأول حيث رُزق حاصل ذلك وهو صدق اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة، فإن فيه آفة وهو العجب، فأغنى عن رؤية شيء من ذلك، فسبيل الصادق»اهـ.
(٧) في العوارف: ثم إذا وقع في طريقه شيء من ذلك جاز وحسن، وإن لم يقع فلا يبالي ولا ينقص بذلك.
(٨) الفتاوى (١١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).

سابعاً: عدم وقوع الخوارق للعبد لا يُنقِص قدره عند الله تعالى:

قال الشيخ: «عدم الخوارق علماً وقدرةً لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخَّر له شيء من الكونيات، ولا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله، بل قد يكون عدمُ ذلك أنفعَ له في دينه؛ إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمرَ إيجاب ولا استحباب.

وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصاً مذموماً؛ إما أن يجعله مستحقاً للعقاب، وإما أن يجعله محروماً من الثواب، وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصِلاته وثوابه، وأما العلم بالكون والتأثير فيه، فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلاً في الدين، بل قد يجب عليه شكرُه وقد يناله به إثم»اهـ[١].

ثامناً: في أماكن الفترات وأوقاتها عن النبوة يظهر من الخوارق ما لا يظهر في غيرها:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الخوارق والحكمة الشرعية منها: «ولهذا لمَّا كان الصحابة ﷺ مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات، بما رأوْه من حال الرسول ﷺ ونالوه من علم، صار كل من كان عنهم أبعدَ ـ مع صحة طريقته ـ يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله، فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات وأماكن الفترات، من الخوارق ما لا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة»اهـ[٢].

تاسعاً: وقوع الخوارق، كثيراً ما يُنقِص درجة من وقعت له، عند الله تعالى:

قال الشيخ: «ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله،

---

(١) الفتاوى (١١/ ٣٢٣).

(٢) الفتاوى (١١/ ٣٣٥)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٢٨٣).

كان نصيبُ الشيطان منه أكثرَ، وهو بمنزلة الخمر؛ يؤثر في النفوس أعظمَ من تأثير الخمر، ولهذا إذا قويت سكرةُ أهله نزلت عليهم الشياطين، وتكلمت على ألسنة بعضهم، وحملت بعضهم في الهواء، وقد تحصل عداوةٌ بينهم كما تحصل بين شُرّاب الخمر، فتكون شياطينُ أحدهم أقوى من شياطين الآخر، فيقتلونه، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هذا مُبعِدٌ لصاحبه عن الله، وهو من أحوال الشياطين، فإن قتْلَ المسلم لا يحل إلا بما أحلَّه الله، فكيف يكون قَتلُ المعصوم مما يكرم الله به أولياءه؟.

وإنما: غايةُ الكرامة لزومُ الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينَه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع به درجته؛ وذلك أن الخوارق:

منها: ما هو من جنس العلم، كالمكاشفات.

ومنها: ما هو من جنس القدرة والملك، كالتصرفات الخارقة للعادات.

ومنها: ما هو من جنس الغِنى عن جنس ما يُعطاه الناس في الظاهر، من العلم والسلطان والمال والغنى.

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور: إنِ استعان به على ما يحبه الله ويرضاه، ويقربه إليه ويرفع درجته، ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رفعةً وقرباً إلى الله ورسوله، وعلت درجته، وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله، كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب، فإن لم يتداركْه الله تعالى بتوبة أو حسناتٍ ماحيةٍ، وإلا كان كأمثاله من المذنبين.

ولهذا كثيراً ما يعاقَبُ أصحاب الخوارق:

تارة: بسلبها، كما يُعزل المَلِكُ عن ملكه، ويُسلب العالمُ علمَه.

وتارة: بسلب التطوعات، فيُنقل من الولاية الخاصة إلى العامة.

وتارة: ينزل إلى درجة الفُسَّاق.

وتارة: يرتدُّ عن الإسلام! وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية؛ فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام، وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية، بل يظنها من كرامات أولياء الله! ويظن من يظن منهم أن الله ﷻ إذا أعطى عبداً خَرْقَ عادةٍ لم يحاسبْه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبداً مُلكاً ومالاً وتصرفاً، لم يحاسبْه عليه.

ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة، لا مأموراً بها ولا منهياً عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء، وهم الأبرار المقتصدون، وأما السابقون المقربون: فأعلى من هؤلاء، كما أن العبدَ الرسولَ أعلى من النبي المَلِك.

ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل: كان كثيرٌ من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب: كالزنا والسرقة، وتَعرضُ على بعضهم فيَسأل اللهَ زوالَها، وكُلُّهم يأمر المريدَ السالكَ أن لا يقف عندها، ولا يجعلَها همتَه، ولا يتبجحَ بها، مع ظنهم أنها كراماتٌ، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تُغويهم بها؟!

فإني أعرفُ: من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها!

وأعرف: من يخاطبهم الحجر والشجر، وتقول: هنيئاً لك يا وليَّ الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك!

وأعرف: من يقصد صيدَ الطير، فتخاطبه العصافيرُ وغيرها وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء! ويكون الشيطان قد دخل فيها، كما يدخل في الإنس، ويخاطبه بذلك!

ومنهم: من يكون في البيت وهو مغلقٌ، فيرى نفسَه خارجَه وهو لم يُفتح! وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة، وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة، أو تمر به أنوارٌ أو تُحضِر عندَه من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرةً ذهب ذلك كلُّه!

وأعرف: من يخاطبه مخاطبٌ، ويقول له: أنا من أمر الله، ويعده بأنه المهديُّ الذي بشر به النبي ﷺ، ويُظهر له الخوارق! مثل: أن يخطر بقلبه تصرفٌ في الطير والجراد في الهواء، فإذا خطر بقلبه ذهابُ الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد! وإذا خطر بقلبه قيامُ بعض المواشي أو ذهابه حصل له ما أراد! من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوَّروا بصورة المردان؟ فيرفع رأسَه فيجدهم بِلِحى! ويقول له: علامةُ أنك أنت المهديُّ أنك تَنبتُ في جسدك شامةٌ، فتنبت ويراها! وغير ذلك، وكلُّه من مكر الشيطان.

وهذا باب واسع: لو ذكرتُ ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير، وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧] ولفظ: ﴿كَلَّا﴾ فيها زجرٌ وتنبيهٌ: زجرٌ عن مثل هذا القول، وتنبيهٌ على ما يُخبَر به ويُؤمَر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نِعَم دنيوية تُعدُّ كرامةً، يكون الله ﷻ مكرِماً له بها، ولا كل من قَدَر عليه ذلك، يكون مهيناً له بذلك، بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطي النعمَ الدنيويةَ لمن لا يحبه، ولا هو كريمٌ عنده، ليستدرجَه بذلك، وقد يحمي منها من يحبه

ويواليه، لئلا تنقصَ بذلك مرتبتُه عندَه، أو يقعُ بسببها فيما يكرهه منه.

وأيضاً: كرامات الأولياء: لا بد أن يكون سببَها الإيمانُ والتقوى، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان، فهو من خوارق أعداء الله، لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر، وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك: مثل دعاء الميت والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات: كالحيات والزنابير والخنافس والدم، وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص، لا سيّما مع النسوة الأجانب والمردان، وحالةُ خوارقِه تنقص عند سماع القرآن، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان! فيرقص ليلاً طويلاً، فإذا جاءت الصلاة صلَّى قاعداً، أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلَّفُه، ليس له فيه محبةٌ ولا ذوقٌ ولا لَذَّةٌ عند وجده، ويحبُّ سماع المُكاء والتصدية، ويجد عنده مواجيدَ، فهذه أحوال شيطانية وهو ممن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]»اهـ[١].

عاشراً: أعلى أنواع الكرامة: لزوم الاستقامة:

قال الشيخ في معرض كلامه عن ضلال فريق من الصوفية في الكرامة وخرق العادة، والغفلة عن ضلال من وقعت له: «.. ويعدُّون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشفٍ يُكشَف له، أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامةً من الله له! ولا يعلمون أنه في الحقيقة إهانة؛ وأن الكرامة: لزوم الاستقامة، وأن الله لم يُكرم عبده بكرامةٍ أعظمَ من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ

---

(١) الفتاوى (١١/٢٩٨ ـ ٣٠٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/٢٩).

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم: فهم من المقتصدين، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه: فهم من المقرَّبين، مع أن كل واجب محبوب، وليس كل محبوب واجباً، وأما ما يبتلي الله به عبدَه من السراء بخرق العادة أو بغيرها، أو بالضراء، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه، ولا هوانه عليه، بل قد يَسعدُ بها قومٌ إذا أطاعوه في ذلك، وقد يشقى بها قوم إذا عصوْه في ذلك»اهـ(١).

موقف الصوفية من الكرامات وخرق العادة:

تحتل الكراماتُ مساحةً كبيرة من اهتمامات الصوفية، وكتبهم مملوءة بالغرائب والعجائب من أخبارها، والكثير منها يردُّه الشرع ويرفضه العقل، وهم ينشرون أخبار هذه الكرامات، ويبالغون في تعظيم مَنْ وقعت لهم، ليكون هؤلاء الأولياء الذين وقعت لهم هذه الكرامات مصدراً للتلقِّي عند الناس.

وقد بيّن شيخ الإسلام موقف الصوفية من الكرامات، وذكر أصولهم ومنهجهم في الكرامات. ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

أولاً: تجويزهم وقوع الكرامة للفُسَّاق والفُجَّار:

قال الشيخ في معرض كلامه عن ضلال بعض الصوفية في مسألة الكرامة وخرق العادة: «وآخرون من عوامِّ هؤلاء يجوِّزون أن يكرم الله بكراماتِ أكابرِ الأولياء من يكون فاجراً بل كافراً، ويقولون: هذه موهبةٌ وعطيَّةٌ يعطيها اللهُ من يشاء، ما هي متعلقةٌ لا بصلاةٍ ولا بصيام! ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء! وتكون كرامَاتُهم: من الأحوال الشيطانية

---

(١) الفتاوى (١٠/٢٩ ـ ٣٠)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٣٢٠).

التي يكون مثلُها للسَّحرة والكُهَّان، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

وقد قال النبي ﷺ: **(لتتبعن سَنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة؛ حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه)**(١). والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله ـ القرآن ـ: عدَلَ كثيرٌ منهم ـ مِمَّن أضلَّه الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام ـ إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره، واتبع ما تتلوه الشياطين، فلا يُعَظِّم أمرَ القرآن ولا نهيَه، ولا يوالي من أمر القرآنُ بموالاته، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته، بل يعظِّم من رآه يأتي ببعض خوارقهم التي يأتي بمثلها السَّحرةُ والكُهَّانُ بإعانة الشياطين، وهي تحصل بما تتلوه الشياطين.

ثم منهم من يعرف أن هذا من الشيطان، ولكن يعظم ذلك؛ لهواه، ويفضِّله على طريق القرآن، ليصل به إلى تقديس العامة.

وهؤلاء كفار كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢]، وهؤلاء ضاهَوُا الكفَّار؛ الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٣/ ١٢٧٤/ ٣٢٦٩)، ومسلم (كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

ومنهم: من لا يعرف أن هذا من الشياطين، وقد يقع في مثل هذا طوائفُ من أهل الكلام والعلم، وأهل العبادة والتصوف؛ حتى جوَّزوا عبادةَ الكواكب والأصنام، لِمَا رأوه فيها من الأحوال العجيبة، التي تعينهم عليها الشياطين، لِمَا يحصل لهم بها من بعض أغراضهم من الظلم والفواحش، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس وتعظيمهم لهم، لرياسةٍ ينالونها، أو مالٍ ينالونه.

وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك: عملوه ودعَوْا إليه، بل حصل عندهم ريبٌ وشكٌّ فيما جاء به الرسول ﷺ، أو اعتقاد أن الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقةَ له من الباطن، لأجل مصلحة الجمهور، كما يقول ذلك مَنْ يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية، وقد دخل في رأي هؤلاء طائفة من هؤلاء وهؤلاء، وهذا مما ضاهَوْا به فارسَ والرومَ وغيرهم؛ فإن فارسَ كانت تعظِّمُ الأنوار، وتسجد للشمس وللنار، والروم كانوا ـ قبل النصرانية ـ مشركين يعبدون الكواكب والأصنام.

فهؤلاء الذين أشبهوا فارس والروم: شرٌّ من الذين أشبهوا اليهود والنصارى، فإن أولئك ضاهَوْا أهل الكتاب فيما بُدِّل أو نُسخ، وهؤلاء ضاهوا من لا كتاب له من المجوس[1] والمشركين ـ فارس والروم ـ ومن

---

(١) المجوس: هم الذين يقولون بإثبات أصلين: النور والظلمة، إلا أن قدماءهم لا يجوِّزون أن يكونا (النور والظلمة) قديمين أزليين، بل النور أزلي، والظلمة محدَثة، والنور لا يشركه شيء في الإحداث والقدم، لذا هم يعظمون النور ويعبدونه، يقال: إن لهم شبُهةَ كتاب، وهم فرق شتى، منها: الزرادشتية، والمزدكية، والخُرَّمية، وغيرهم.

=

دخل في ذلك من الهند واليونان»اهـ[(١)].

ثانياً: اعتقاد بعضهم أن خرق العادة له يُسقط عنه العبادات أو يُخففها:

قال الشيخ في معرض كلامه عن أهمية الصلاة: «ومن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ العارفين، والمكاشفين والواصلين، أو أن لله خواصاً لا تجب عليهم الصلاة؛ بل قد سقطت عنهم لوصولهم إلى حضرة القدس، أو لاستغنائهم عنها بما هو أهم منها أو أَوْلى، أو أن المقصود حضورُ القلب مع الرب، أو أن الصلاة فيها تفرقةٌ فإذا كان العبد في جمعيته مع الله، فلا يحتاج إلى الصلاة؛ بل المقصود من الصلاة هي المعرفة، فإذا حصلت لم يحتَجْ إلى الصلاة، فإن المقصود أن يحصل لك خرقُ عادةٍ؛ كالطيران في الهواء والمشي على الماء، أو ملء الأوعية ماءً من الهواء، أو تغوير المياه واستخراج ما تحتها من الكنوز، وقتل من يبغضه بالأحوال الشيطانية. فمتى حصل له ذلك، استغنى عن الصلاة ونحو ذلك»اهـ[(٢)].

ثالثاً: حرصهم على بذل الأسباب الجالبة لخرق العادة:

قال الشيخ: «.. ولهذا يوجدون كثيراً في الخراب والفلوات، ويوجدون في مواضع النجاسات كالحمامات والحشوش، والمزابل والقمامين والمقابر، والشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين، وتكون أحوالُهم شيطانيةً لا رحمانيةً، يأوون كثيراً إلى هذه الأماكن التي هي

= انظر: التبصير في الدين (ص٨٩)، البرهان في عقائد أهل الأديان (ص٩٠ - ٩١)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٨٦)، الملل والنحل (١/ ٢٧٨ - ٢٨١)، إغاثة اللهفان (٢/ ٢٤٧).

(١) الفتاوى (١٤/ ٣٥٩ - ٣٦١)، وانظر هذا الكلام - بمعناه - في: الفتاوى (٨/ ٢٣٢، ١٤/ ٢٢٦).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٤٣٤).

مأوى الشياطين، وقد جاءت الآثار بالنهي عن الصلاة فيها؛ لأنها مأوى الشياطين، والفقهاء منهم مَنْ علَّل النهي بكونها مظِنَّة النجاسات، ومنهم من قال: إنه تعبّد لا يعقل معناه.

والصحيح: أن العلة في الحمام وأعطان الإبل ونحو ذلك، أنها مأوى الشياطين، وفي المقبرة أن ذلك ذريعةٌ إلى الشرك، مع أن المقابر تكون أيضاً مأوى للشياطين، والمقصود أن أهل الضلال والبدع، الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي، ولهم أحياناً مكاشفات ولهم تأثيرات، يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نُهيَ عن الصلاة فيها؛ لأن الشياطين تتنزَّل عليهم بها، وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان، وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلِّمُ عابدي الأصنام، وتعينهم في بعض المطالب كما تعين السَّحَرَةَ، وكما تعين عُبَّاد الأصنام، وعُبَّاد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها، من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك، فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب، وقد تقضي بعض حوائجهم، إما قتل بعض أعدائهم أو إمراضه، وإما جلب بعض مَنْ يَهوَوْنَه، وإما إحضار بعض المال، ولكن الضرر الذي يحصل لهم بذلك أعظم من النفع، بل قد يكون أضعافَ أضعاف النفع...»اهـ(١).

رابعاً: تلاعب الجن بهم، ويظنون هذا التلاعب من الكرامات:

قال الشيخ: «وهؤلاء الذين لهم مكاشفاتٌ ومخاطباتٌ: يروْن ويسمعون ما لَهُ وجودٌ في الخارج، وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم، كَحالَي النائم، وهذا يعرفه كلُّ أحد، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يرونها عياناً، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، ويخاطبهم

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٤٠ ـ ٤٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٤/ ٢٩٠، ٢٧/ ٤٩٧).

أولئك الأشخاص، ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بها، وإما إلى غير عرفات، ويأتوهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح، وغير ذلك، ويخرجون إلى الناس، ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه، مثل: من يكون له إرادة في امرأة أو صبي فيأتونه بذلك! إما محمولاً في الهواء، وإما بسعي شديد، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القويِّ ما لم يمكنه المُقَامَ معه، أو يخبر أنه سمع خطاباً، وقد يقتلون له من يريد قتلَه من أعدائه أو يمرضونه.

فهذا كله موجودٌ كثيراً، لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله وعمله من السحر، ومنهم: من يعلم أن ذلك من الجن، ويقول: هذا كرامة أُكرمنا بتسخير الجن لنا!.

ومنهم: من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكةً، فإن كانوا غيرَ معروفين قال: هؤلاء رجال الغيب، وإن تسمَّوْا فقالوا: هذا هو الخضر، وهذا هو إلياس، وهذا هو أبو بكر وعمر، وهذا هو الشيخ عبد القادر، أو الشيخ عدي، أو الشيخ أحمد الرفاعي، أو غير ذلك، ظن أن الأمر كذلك، فهنا لم يغلط، لكن غلط عقلُه حيث لم يعرف أن هذه شياطينُ تمثَّلت على صور هؤلاء، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسَه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليَقَظَة، ومن يرى ذلك عند قبر النبي ﷺ أو الشيخ، وهو صادق في أنه إياه، من قال إنه النبي أو الشيخ أو قيل له ذلك فيه، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك.

والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبيَّ ﷺ:

تارة: لِمَا يراه منهم من مخالفة الشرع، مثل: أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله.

وتارة: يعلم أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته

في اليَقَظَة، ولا كان يخاطبهم من قبره، فكيف يكون هذا وليٌّ؟.

وتارة: يعلم أن الميت لم يقم من قبره، وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا، وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة: رقيقة فلان، وقد يقولون: هو معناه تشكل، وقد يقولون: روحانيته، ومن هؤلاء من يقول: إذا متُّ فلا تَدَعُوا أحداً يغسلني، ولا فلاناً يحضرني، فإني أنا أغسل نفسي! فإذا مات رأوْه قد جاء وغسل ذلك البدن، ويكون ذلك جِنّياً قد قال لهذا الميت: إنك تجيء بعد الموت، واعتقد ذلك حقاً، فإنه كان في حياته يقول له أموراً، وغرَضُ الشيطان أن يُضِلَّ أصحابه.

وأما بلاد المشركين ـ كالهند ـ فهذا كثيراً[1] ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته، وردَّ ودائعَ، وقضى ديوناً، ودخل إلى منزله ثم ذهب، وهم لا يشكُّون أنه الشخص نفسه، وإنما هو شيطان تصوَّر في صورته. ومن هؤلاء من يكون في جنازة أبيه أو غيره، والميت على سريره، وهو يراه آخذاً ـ يمشي مع الناس ـ بيد ابنه وأبيه، قد جعل شيخاً بعد أبيه، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره، وإنما كان شيطاناً»اهـ[2].

وقال الشيخ في موضع آخر في معرض كلامه عن الاستغاثة بغير الله: «وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة؛ فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظِّمه، وهو ميت، أو يستغيث به عند قبره ويسأله، وقد يَنْذِرُ له نذراً ونحو ذلك، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره، أو كلمه ببعض ما

---

(١) كذا في المطبوع.

(٢) الفتاوى (١٣/٧٧ ـ ٧٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٣٠٨، ٥٧٤، ٦٦٤، ١٤/٣٥٩، ١٧/٤٥٦، ١٩/٥٥).

سأله عنه، ونحو ذلك، فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حياً!.

حتى إني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسِه الذي استغاثوا به، وقد رأوْه أتاهم في الهواء، فيذكرون ذلك له، هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، فتارةً يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية، فإن كان يحب الرياسة، سكت وأوهم أنه نفسُه أتاهم وأغاثهم، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال: هذا مَلَك صوَّره الله على صورتي، وجعل هذا من كرامات الصالحين، وجعله عمدةً لمن يستغيث بالصالحين ويتخذهم أرباباً، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم.

ولهذا: أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة، لمَّا ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه، يقول: إذا كانت لأحدكم حاجةٌ فليستغث بي، وليستنجدْني وليستوْحِني، ويقول: أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي! وهو لا يعرف أن تلك شياطينُ تصورت على صورته؛ لتضلَّه وتضلَّ أتباعه، فتحسِّن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله، وأنها قد تُلقي في قلبه أَنَّا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك، فيظن هذا من خطاب إلهي أُلقيَ في قلبه، فيأمر أصحابه بذلك.

وأعرف من هؤلاء من كان له شياطينُ تخدُمه في حياته بأنواع الخدم، مثل خطاب أصحابه المستغيثين به، وإعانتهم، وغير ذلك، فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ، ويشعرونه أنه لم يمت، ويرسلون إلى أصحابه رسائلَ، بخطاب وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ، وكان فيه زهد وعبادة، وكان يحبني ويحب هذا الشيخ، ويظن أن هذا من الكرامات، وأن الشيخ لم يمت، وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته، فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه.

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي، فرأوني في الهواء وقد أتيتهم وخلَّصتهم من تلك الشدائد، مثل من أحاط به النصارى الأرمن ليأخذوه، وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه، ونحو ذلك، فذكرت لهم أني ما دريت بما جرى أصلاً، وحلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا أني كتمت ذلك كما تُكتُم الكرامات، وأنا قد علمتُ أن الذي فعلوه ليس بمشروع؛ بل هو شرك وبدعة، ثم تبين لي فيما بعد، وبينت لهم، أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به. وحكى لي غيرُ واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثلُ ذلك، وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك، واستفاض هذا حتى عُرف أن هذا من الشياطين.

والشياطين تغوي الإنسان بحسب الإمكان: فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام، أوقعته في الشرك الظاهر والكفر المحض؛ فأمرته أن لا يذكر الله، وأن يسجد للشيطان ويذبح له، وأمرته أن يأكل الميتة والدم ويفعل الفواحش، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض، وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف، ويجري في بعض مدائن الإسلام في المواضع التي يضعف إيمان أصحابها حتى قد جرى ذلك في مصر والشام، على أنواع يطول وصفها.

وهو في أرض الشرق قبل ظهور الإسلام في التتار كثير جداً، وكلما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلّت آثار الشياطين فيهم، وإن كان يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش وهذا كثير جداً أكثر من الذي قبله، في البلاد التي في أهلها إسلام وجاهلية، وبرٌّ وفجور.

وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة، ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما

بعث الله به رسوله ﷺ، وقد عَرَف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات، وهو لا يعرفُ كمالَ الولاية، وأنها الإيمان والتقوى واتِّباع الرسل باطناً وظاهراً، أو يعرف ذلك مجملاً، ولا يعرف مِنْ حقائق الإيمان الباطن وشرائع الإسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية وبين النفسانية والشيطانية، كما أن الرؤيا ثلاثة أقسام: رؤيا من الله، ورؤيا مما يحدِّث المرءُ به نفسَه في اليَقَظَةِ؛ فيراه في المنام، ورؤيا من الشيطان.

فكذلك الأحوال، فإذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد ﷺ، أمرته الشياطين بأمرٍ لا ينكره، فتارة يحملون أحدهم في الهواء ويقفون به بعرفات، ثم يعيدونه إلى بلده وهو لابسٌ ثيابَه لم يحرم حين حاذى المواقيت، ولا كشف رأسه، ولا تجرَّد عما يتجرد عنه المحرم، ولا يدَعُونه بعد الوقوف يطوف طوافَ الإفاضة ويرمي الجِمارَ ويُكمل حجَّه، بل يظن أن مجرد الوقوف ـ كما فعل ـ عبادةً، وهذا من قلة علمه بدين الإسلام، ولو علم دين الإسلام لعلم أن هذا الذي فعله ليس عبادةً لله، وأنه من استحلَّ هذا، فهو مرتدٌّ يجب قتله، بل اتفق المسلمون على أنه يجب الإحرام عند الميقات، ولا يجوز للإنسان المحرم اللبس في الإحرام إلا من عذر، وأنه لا يكتفي بالوقوف، بل لا بد من طواف الإفاضة باتفاق المسلمين، بل وعليه أن يفيض إلى المشعر الحرام ويرمي جمرة العقبة.

وهذا مما تُنُوزِع فيه: هل هو ركن، أو واجب يجبره دم؟ وعليه أيضاً رميُ الجِمار أيامَ منى باتفاق المسلمين، وقد تحمل أحدهم الجنُّ فتنزوِّره بيت المقدس وغيره، وتطير به في الهواء، وتمشي به في الماء، وقد تُريه أنه قد ذُهِب به إلى مدينة الأولياء، وربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة، ويشرب من أنهارها! وهذا كلُّه وأمثالُه ـ مما أعرفه ـ قد وقع لمن

أعرفه، لكن هذا باب طويل ليس هذا موضعُ بسطه»اهـ[١].

خامساً: تعمُّد بعض الشيوخ استخدام الجن لإظهار الخوارق، وخداع الناس، ويسمون ذلك كراماتٍ:

قال الشيخ في معرض ذمه للحلاج: «.. وكان من (مخاريقه) أنه بعث بعض أصحابه إلى مكان في البَرِّيَّة يخبأ فيه شيئاً من الفاكهة والحلوى، ثم يجيء بجماعة من أهل الدنيا إلى قريب من ذلك المكان، فيقول لهم: ما تشتهون أن آتيكم به من هذه البرية؟ فيشتهي أحدهم فاكهةً أو حلاوةً، فيقول: امكُثوا، ثم يذهب إلى ذلك المكان ويأتي بما خبّأ أو ببعضه! فيظن الحاضرون أن هذه كرامة له.

وكان صاحب سيما وشياطين تخدمه أحياناً، كانوا معه على جبل أبي قبيس[٢] فطلبوا منه حلاوة، فذهب إلى مكان قريب منهم وجاء بصحن حلوى، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سُرق من دكان حلاويٍّ باليمن حمله شيطان من تلك البقعة. ومثل هذا يحصل كثيراً لغير الحلاج، ممن له حال شيطانيٌّ، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء في زماننا وغير زماننا:

مثل: شخص ـ هو الآن بدمشق ـ كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق، فيجيء من الهواء إلى طاقة البيت الذي

---

(١) الفتاوى (١٧/ ٤٥٦ ـ ٤٦٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٣٥١، ١٠/ ٤٠٦، ١١/ ١٧٢، ٢١٣، ٢٤٤، ١٣/ ٨٥، ٢١٥، ١٩/ ٤٨)، الرد على الأخنائي (ص١٦٣)، الجواب الصحيح (٢/ ٣٤١)، النبوات (ص٤٣١)، المنهاج (٣/ ٣٧٩)، الفرقان (ص١٢٠).

(٢) جبل «أبو قبيس»: تصغير قبس النار، وهو اسم الجبل المشرف على مكة، قيل: سمي باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس؛ لأنه أول من بنى فيه قبة، وكان في الجاهلية يسمى الأمين.
انظر: معجم البلدان (١/ ٨٠ ـ ٨١).

فيه الناس، فيدخل وهم يرونه، ويجيء بالليل إلى باب الصغير، فيعبر منه هو ورفقته. وهو من أفجر الناس.

وآخر: كان بالشوبك(١) في قرية يقال لها: الشاهدة، يطير في الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه، وكان شيطانٌ يحمله، وكان يقطع الطريق وأكثرهم شيوخ الشر، يقال لأحدهم: «البَوِّيّ»(٢) أي: المخبث، ينصبون له حركات في ليلة مظلمة، ويصنعون خبزاً على سبيل القُرُبات، فلا يذكرون الله، ولا يكون عندهم من يذكر الله، ولا كتاب فيه ذكر الله، ثم يصعد ذلك (البَوِّيُّ) في الهواء، وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان، وخطاب الشيطان له، ومن ضحك أو شرق بالخبز ضربه الدف، ولا يرون من يضرب به، ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه، ويأمرهم بأن يُقَرِّبوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك، وأن يخنقوها خنقاً، ولا يذكرون اسم الله عليها، فإذا فعلوا قضى حاجتهم.

وشيخ آخر: أخبر عن نفسه: أنه كان يزني بالنساء، ويتلوَّط بالصبيان الذين يقال لهم: (الحوارات)، وكان يقول: يأتيني كلب أسودُ بين عينيه نكتتان بيضاوان، فيقول لي: فلان! إن فلاناً نذر لك نذراً، وغداً يأتيك به، وأنا قضيت حاجته لأجلك، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر.

قال: وكنت إذا طلب مني تغيير مثل (اللاذن) أقول: حتى أغيب

---

(١) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة، قرب الكرك، وتجتمع فيها عدة قرى، منها قرية الشاهدة.
انظر: معجم البلدان (٣/ ٣٧٠).

(٢) البَوِّيّ: هو الأحمق المخبث المخادع، ويسمى أيضاً البَوّ، ومنه قولهم: هو أخدع من البوّ، وأنكد من اللَّوِّ.
انظر مادة: بوا، في: تاج العروس (١٩/ ٢٣٠)، القاموس (ص١٦٣٣).

عن عقلي، وإذ (باللاذن) في يدي أو في فمي، وأنا لا أدري من وضعه!!.

قال: وكنت أمشي وبين يدي عمود أسودُ عليه نور، فلما تاب هذا الشيخ، وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم، ذهب الكلب الأسود، وذهب التغيير، فلا يؤتى بلاذن ولا غيره.

وشيخ آخر: كان له شياطينُ يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهلُ ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراءه، فيرسل إلى أتباعه، فيفارقون ذلك المصروع، ويعطون ذلك الشيخ دراهمَ كثيرةً، وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس، حتى إن بعض الناس كان له تين في كوارة، فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له، فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب.

وآخر: كان مشتغلاً بالعلم والقراءة، فجاءته الشياطين فأغرته[1] وقالوا له: نحن نسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد، فكانوا يأتونه بالحلوى والفاكهة، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة، فاستتابه، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان.

فكل من خرج عن الكتاب والسنة وكان له حال: من مكاشفة أو تأثير، فإنه صاحبُ حال نفسانيٍّ أو شيطانيٍّ، وإن لم يكن له حال؛ بل هو يتشبَّه بأصحاب الأحوال، فهو صاحب حال بهتانيٍّ، وعامة أصحاب الأحوال الشيطانية يجمعون بين الحال الشيطاني والحال البهتاني، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢]. والحلاج: كان من أئمة هؤلاء، أهل الحال

(١) في المطبوع: أغرته، والصواب ما أثبته.

الشيطاني والحال البهتاني، وهؤلاء طوائف كثيرة»اهـ[١].

وبيَّن الشيخ أن من أظهر هذه الخوارق وادَّعى أنها كرامات، فإنه ينبغي أن يؤدَّب.

فقال: «فصلٌ: فأما الغش والتدليس في الديانات فمثل البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، من الأقوال والأفعال: مثل إظهار المُكاء والتصدية في مساجد المسلمين..، ومثل إظهار الخزعبلات السحرية والشعبذية الطبيعية، وغيرها، التي يُضاهي بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات، ليُصدَّ بها عن سبيل الله، أو يُظَن بها الخيرُ فيمن ليس من أهله، وهذا باب واسع يطول وصفه.

فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات، وجب منعُه من ذلك وعقوبتُه إذا لم يتب، متى قُدِرَ عليه بحسب ما جاءت به الشريعة، من قتلٍ أو جلدٍ أو غير ذلك، وأما المحتسب فعليه أن يُعزِّر من أظهر ذلك قولاً أو فعلاً، ويمنع من الاجتماع في مَظانِّ التُّهَمِ، فالعقوبة لا تكون إلا على ذنب ثابت، وأما المنع والاحتراز فيكون مع التهمة، كما منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يجتمع الصبيان بمن كان يُتَّهم بالفاحشة، وهذا مثل الاحتراز عن قَبول شهادة المتهم بالكذب، وائتمان المتهم بالخيانة، ومعاملة المتهم بالمطل»اهـ[٢].

ومنهم من يعلم أن ما خُرق له هو من الشيطان لا من الرحمن عز وجل، ومع ذلك يفرح به ويُظهره اتباعاً لهواه.

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن خزعبلات بعض أصحاب الخوارق: «وآخرون من عوامِّ هؤلاء يُجوِّزون: أن يكرم الله بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً، بل كافراً؛ ويقولون: هذه موهبة وعطية

---

(١) الفتاوى (٣٥/ ١١١ ـ ١١٤).

(٢) الفتاوى (٢٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

يعطيها الله من يشاء، ما هي متعلقة لا بصلاة ولا بصيام، ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء، وتكون كراماتُهم: من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسَّحَرَة والكُهَّان، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

ثم منهم من يعرف: أن هذا من الشيطان، ولكن يعظم ذلك لهواه، ويفضله على طريق القرآن، ليصل به إلى تقديس العامة، وهؤلاء كفار، كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

وهؤلاء ضاهَوُا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢].

ومنهم: من لا يعرف أن هذا من الشياطين، وقد يقع في مثل هذا طوائفُ من أهل الكلام والعلم، وأهل العبادة والتصوف»اهـ(١).

سادساً: تعمد بعض الشيوخ استخدام السحر لإظهار الخوارق، وخداع الناس، ويسمون ذلك كرامات:

قال الشيخ في معرض كلامه عن تنوع الناس في الحرص على

---

(١) الفتاوى (١٤/٣٥٩ ـ ٣٦٠)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٢٣٢).

الخوارق: «ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم، أعظمَ من طلبه لِمَا فرض الله عليه، ويقول في دعائه: اللهم أسألك العصمة في الحركات والسكنات، والخطوات والإرادات والكلمات، من الشكوك والظنون، والإرادة والأوهام الساترة للقلوب، عن مطالعة الغيوب.

وأصل المسألة: أن (المُكْنَة) التي هي الكمال عندهم، من (المكنة)[١].

وطائفة أخرى: عندهم أن الكمال في القدرة والسلطان، والتصرف في الوجود: نفاذ الأمر والنهي، إما بالملك والولاية الظاهرة، وإما بالباطن، وتكون عبادتهم ومجاهدتهم لذلك.

وكثير من هؤلاء يدخل في الشرك والسحر، فيعبد الكواكب والأصنام، لتعينه الشياطين على مقاصده، وهؤلاء أضلُّ وأجهلُ من الذين قبلهم، وغاية مَنْ يعبد الله: يطلب خوارق العادات، يكون له نصيبٌ من هذا؛ ولهذا كان منهم من يُرى طائراً، ومنهم يُرى ماشياً، ومنهم[٢].. وفيهم جُهّال ضُلّال»اهـ[٣].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن فرقة البطائحية: «وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء (البطائحية)، وطريقهم وطريق (الشيخ: أحمد بن الرفاعي) وحاله، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم،.. وذلك أني كنت أعلم من حالهم ـ بما قد ذكرته في غير هذا الموضع ـ وهو: أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك، ويوجد في بعضهم التعبُّد والتألُّه، والوَجد والمحبة والزهد،

(١) كذا في المطبوع.
(٢) بياض في أصل المطبوع، بقدر كلمتين.
(٣) الفتاوى (٢/ ٩٦).

والفقر والتواضع، ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة، والكشف والتصرُّف، ونحو ذلك ما يوجد، فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك، وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلو والبدع في الإسلام، والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول ﷺ، والاستخفاف بشريعة الإسلام، والكذب والتلبيس وإظهار المخارق الباطلة، وأكل أموال الناس بالباطل، والصّد عن سبيل الله ما يوجد.

وقد تقدمت لي معهم وقائعُ متعددةٌ، بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشاراتِ، وتاب منهم جماعة، وأُدِّب منهم جماعة من شيوخهم، وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق: مثل ملابسة النار والحيات، وإظهار الدم واللاذن والزعفران، وماء الورد والعسل والسكر، وغير ذلك، وأن عامة ذلك عن حيل معروفة، وأسباب مصنوعة، وأراد غير مرة منهم قومٌ إظهار ذلك، فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترَهم، فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة.

حتى قال لي شيخ منهم ـ في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين ـ لما عارضتهم بأني: أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يُذهِب الحيلة ومن احترق كان مغلوباً، فلما رأوُا الصدق أمسكوا عن ذلك.

وحكى ذلك الشيخُ: أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق، وكان له صنم يعبده، قال: فقال لي: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كلَّ يوم، ويبقى أثرُ الأكل في الطعام بيِّناً يُرَى فيه!! فأنكرتُ ذلك.

فقال لي: إن يأكل أنت تموت؟

فقلت: نعم.

قال: فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر!.

فاستعظم ذلك التتريُّ، وأقسم بأيْمانٍ مغلَّظةٍ أنه كلَّ يوم يرى فيه أثر الأكل، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك.

فقلت لهذا الشيخ: أنا أُبيِّن لك سبب ذلك: ذلك التتريُّ كافر مشرك، ولِصَنمه شيطان يُغويه بما يظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام، وتأييد الله تعالى ما أوجب انصرافَ الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالُك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص، كالتتري بالنسبة إلى أمثالك، فالتتري وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بُلْقٌ فيكم سواد وبياض، فأعجب هذا المثلُ من كان حاضراً!!.

وقلت لهم في مجلس آخر، لمَّا قالوا: تريد أن نُظهِر هذه الإشارات؟

قلت: إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن: من الأعراب والفلاحين، أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفقرة والمتصوفة، لم يُحسَب لكم ذلك؛ فمن معه ذهبٌ فليأت به إلى سوق الصرف؛ إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصُّفْرِ، ولا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك.

فقالوا لي: لا نعمل هذا إلا أن تكون همَّتُك معنا.

فقلت: همتي ليست معكم؛ بل أنا معارض لكم مانع لكم، لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله ﷺ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا، فانقلبوا صاغرين.

فلمَّا كان قبل هذه الواقعة بمدة، كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر مطوَّقين بأغلال الحديد في أعناقهم وهو وأتباعه، معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مراتٍ، فأخاطبه بالتي هي أحسن، فلما ذكر الناسُ ما يظهرونه من الشِّعار المُبتَدَع الذي يتميزون به عن

المسلمين، ويتخذونه عبادةً وديناً؛ يوهمون به الناس أن هذا لله سرٌّ من أسرارهم، وأنه سيماء أهل الموهبة الإلهية، السالكين طريقهم ـ أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه ـ خاطبته في ذلك بالمسجد الجامع، وقلت: هذا بدعة؛ لم يشرعْها الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة، ولا من المشايخ الذين يُقتدى بهم، ولا يجوز التعبد بذلك ولا التقرُّب به إلى الله تعالى؛ لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة؛ ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرِههُ مَنْ كرهه من العلماء، للحديث المروي في ذلك، وهو: أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتماً من حديد، فقال: **(ما لي أرى عليك حلية أهل النار؟)**[1].

وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال، فالتشبُّه بأهل النار من المنكرات، وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا قال في آخره: **(أُحب القيد وأكره الغل؛ القيد ثبات في الدين)**[2]، فإذا كان مكروهاً في المنام، فكيف في اليَقَظَةِ؟! فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام، أو نحواً منه مع زيادة، وخوَّفتُه من عاقبة الإصرار على البدعة، وأن ذلك يوجب عقوبةَ فاعله، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيتُ أكثرَه لبعد عهدي به.

وذلك أن الأمور التي ليست مستحبّةً في الشرع لا يجوز التعبدُ بها باتفاق المسلمين، ولا التقرُّبُ بها إلى الله، ولا اتخاذُها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه، ولا أن يُجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله، الذين هم

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٢٨١).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٢٨٢).

أفضل ممن ليس مثلهم، **فهذا أصل عظيم**»اهـ[(١)].

وأخيراً: ذكر الشيخ نماذج من الخوارق التي حقيقتها أنها أحوال شيطانية؛ فقال: «ومما ينبغي أن يُعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل؛ فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه، ويسد حاجته، ويكون مَن هو أكملُ ولايةً لله منه مستغنياً عن ذلك؛ فلا يأتيه مثلُ ذلك لعلوِّ درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثرَ منها في الصحابة، بخلاف من يَجْرِي على يديه الخوارق لهُدى الخلق ولحاجتهم، فهؤلاء أعظمُ درجةً.

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال (عبد الله بن صياد)[(٢)]: الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وكان قد ظن بعضُ الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبيُّ ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجالَ، لكنه كان من جنس الكُهَّان، قال له النبي ﷺ: **(قد خبأتُ لك خِبأً؟)** قال: الدُّخ.. الدُّخ، وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: **(اخسأ فلن تَعْدُوَ قدرَك)**[(٣)]، يعني إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيَّبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب.

كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ

---

(١) الفتاوى (١١/٤٤٦ ـ ٤٥٠).

(٢) هو عبد الله بن صائد، واشتهر بابن صياد، كان أبوه من اليهود، وهو الذي يقال: إنه الدجال، ولد على عهد النبي ﷺ أعورَ مختوناً، قيل: إنه أسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وتوفي بالمدينة، وقيل: بل فُقد يوم الحرة سنة ٦٣هـ.
انظر: أسد الغابة (٣/١٨٧)، الإصابة (٥/١٩٢).

(٣) رواه البخاري (كتاب الجهاد، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي؟ ٣/١١١٢/٢٨٩٠)، ومسلم (كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد، ٤/٢٢٤٠/٢٩٢٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

قال: **(إن الملائكة تنزل في العنان** ـ وهو السحاب ـ **فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم)**[١].

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار، إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال النبي ﷺ: **(ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟)** قالوا: كنا نقول: يموت عظيم، أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ: **(فإنه لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حَمَلَةُ العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغَ التسبيحُ أهلَ هذه السماء، ثم يسأل أهلِ السماء السابعة حَمَلَةَ العرش: ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهلُ كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، وتخطف الشياطينُ السمعَ فيُرمَون فيقذفونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون)**»[٢]. وفي رواية: قال معمر[٣]: قلت للزهري[٤]: أكان يُرمَى بها في الجاهلية؟ قال: نعم،

---

(١) رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٣/ ١١٧٥/ ٣٠٣٨)، ومسلم (كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٨)، والترمذي (أبواب تفسير القرآن، باب تفسير سورة سبأ، ٥/ ٤٠/ ٣٢٧٧).

(٣) هو معمر بن راشد الأزدي، كان فقيهاً حافظاً متقناً، سكن اليمن، توفي سنة ١٥٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٢٨)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٤٣).

(٤) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الزهري، تابعي جليل، ولد سنة ٥٨هـ، من أئمة الحديث؛ بل كان أعظم أهل زمانه علماً ورواية، توفي سنة ١٢٤هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ٣٨٣)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٤٥).

ولكنها غُلِّظت حين بُعث النبي ﷺ[(١)].

والأسود العنسي ـ الذي ادعى النبوة ـ: كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه[(٢)].

---

(١) هذه الرواية في مسند أحمد (١/ ٢١٨).

(٢) قال ابن كثير في خبر الأسود العنسي: . . اشتد ملكه، وتزوج بابنة عم فيروز الديلمي، مؤمنة بالله ورسوله محمد ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ كتابه يأمر المسلمين الذين هناك، واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوت أمير الجند ـ وكان قد غضب على الأسود، واستحقَّ به ـ وهمَّ بقتله، وكذلك فيروز، فلما أيقن ذلك في الباطن **أطلع شيطانُ الأسود للأسود على شيء من ذلك،** فدعا قيساً فقال له: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: يا أسود يا سوآه، خذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك، وقطف مسك، فقال قيس وحلف: لأنت أعظم من أن أحدث بك نفسي! ثم خرج قيس إلى أصحابه، فبينما هم يشتورون جاءهم رسوله، فأحضرهم بين يديه، فقال: ماذا يبلغني عنكم؟ فقالوا: أقِلنا مرّتنا هذه، فأقالهم، قال قيس: فدخلت على امرأته، فقلت: هل عندكِ ممالأة عليه؟ قالت: إذا عزمتم أخبروني، فخرج قيس واجتمع بأصحابه، فبعث إليه الأسود، فقال: ألم أخبرك بالحق؟ **إنه يقول: يا سوءة، إن لم تقطع من قيس يده يقطع رقبتك العليا!** فقال: إنْ أهلِك وأنت رسول الله، فقتلي أحب إليَّ من موتات، فرقّ له وصرفه، فخرج إلى أصحابه، فقال: اعملوا عملكم، فبينما يشتورون، إذ خرج الأسود، ثم قال: أحقٌّ ما بلغني عنك يا فيروز؟ فقال فيروز: لا تقبل علينا أمثال ما يبلغك، فرضي عنه، ودخل الأسود داره، فلما كان الليل نقبوا البيت فدخلوا فتقدم إليه فيروز، والأسود نائم سكران، والمرأة عنده، فلما قام فيروز على الباب **أجلسه شيطانه** فتكلم ـ وهو نائم ـ: ما لي وما لك يا فيروز؟! فعاجله وقتله، وظهر الإسلام وأهله.اهـ.

انظر: البداية والنهاية (٥/ ١٠، خروج الأسود العنسي، بتصرف يسير)، الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٣٦، ذكر أخبار الأسود العنسي باليمن).

وكذلك مسيلمة الكذاب: وكان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون مثل: الحارث الدمشقي(١): الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان(٢)، وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتَمنعُ السلاحَ أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُري الناسَ رجالاً وركباناً على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جِنّاً، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح، فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تُسَمِّ الله، فسمى الله فطعنه فقتله(٣).

وهكذا أهل (الأحوال الشيطانية): تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكر عندهم ما يطردها، مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: **(ما فعل أسيرك البارحة؟)** فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول: **(كذبك وإنه سيعود)** فلمَّا كان في المرة الثالثة قال: دعني حتى

---

(١) هو الحارث بن سعيد الدمشقي، كان أول عمره ذا عبادة وطاعة، ثم أغواه الشيطان ببعض المخاريق فتوهم أنه نبي!، قتله عبد الملك بن مروان سنة ٦٩هـ.

انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٣٧٩، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٦٨هـ)، لسان الميزان لابن حجر (٢/ ١٥١)، الأعلام (٢/ ١٥٤).

(٢) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، أمير المؤمنين، كان فقيهاً متعبداً، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة، تولى الخلافة بعد أبيه سنة ٦٥هـ، فكان من عظماء الخلفاء ودهاتهم، توفي سنة ٨٦هـ.

انظر: البداية والنهاية (٩/ ٦٧)، الأعلام (٤/ ١٦٥).

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٣٧٩).

أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: **(صدقك وهو كذوب)**(١)، وأخبره أنه شيطان. ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدقٍ أبطلَتْها، مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية، فتنزل عليه الشياطين، وتتكلم على لسانه كلاماً لا يُعلَم، وربما لا يُفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك، بمنزلة المصروع الذي يتخبَّطُه الشيطان من المس ولبسه وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسيِّ، ويخبِر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء؛ لأن الضرب كان على الجنيِّ الذي لبسه.

ومن هؤلاء: من يأتيه الشيطان بأطعمةٍ وفواكهَ وحلوى وغير ذلك، مما لا يكون في ذلك الموضع.

ومنهم: من يطير بهم الجني إلى مكةَ أو بيت المقدس أو غيرِهما.

ومنهم: من يحمله عشيَّةَ عرفة ثم يعيده من ليلته، فلا يحج حجاً شرعياً؛ بل يذهب بثيابه ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبي ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجِمار؛ بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج، ولهذا رأى بعضُ هؤلاء الملائكةَ تكتب الحُجَّاجَ، فقال: ألا تكتبوني؟ فقالوا: لست من الحُجاج؛ يعني حجاً شرعياً.

---

(١) رواه البخاري (كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل، ٢/ ٨١٢/ ٢١٨٧).

وبَيْن كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها: أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، و(الأحوال الشيطانية) سببها ما نهى الله عنه ورسوله؛ وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش، قد حرمها الله تعالى ورسوله، فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان، وبالأمور التي فيها شرك: كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية، لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزَّل عليه شيطانه حتى يحملَه في الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذا حصل رجلٌ من أولياء الله تعالى طرَد شيطانَه؛ فيسقط كما جرى هذا لغير واحد، ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت، سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث، فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملَكٌ على صورته، وإنما هو شيطان أضله لَمَّا أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومن هؤلاء: من يتصور له الشيطان ويقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه.

كما قد جرى ذلك: لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار، بأرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت فيأتي

الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت ويدخل على زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته.

ومن هؤلاء: شيخ كان بمصر أوصى خادمه، فقال: إذا أنا مِتُّ فلا تدع أحداً يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي، فلما مات رأى خادمُه شخصاً في صورته، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله ـ أي غسل الميت ـ غاب، وكان ذلك شيطاناً، وكان قد أضل الميت وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضاً في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم: من يرى عرشاً في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك! فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه، فيزول.

ومنهم: من يرى أشخاصاً في اليقظة يدَّعي أحدهم أنه نبيٌّ أو صِدِّيق أو شيخ من الصالحين وقد جرى هذا لغير واحد.

ومنهم: من يرى في منامه أن بعض الأكابر: إما الصديق رضي الله عنه أو غيره، قد قصَّ شعرَه، أو حلقه، أو ألبسه طاقيته أو ثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية، وشعره محلوق أو مقصر! وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه.

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم، وهم على مذهبهم.

والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ، فإن كان الإنسيُّ كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه

إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظِّمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة، أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن، ويكتبهن بنجاسة، فيغورون له الماء وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي، إما في الهواء وإما مدفوعاً مُلْجأً إليه، إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها، والإيمان بها إيمانٌ بالجبت والطاغوت، والجبت: السحر، والطاغوت: الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً لم يمكنهم الدخول معه في ذلك أو مسالمته...

والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته، فمن عَبَدَ الشمس والقمر والكواكب ودعاها ـ كما يفعل أهل دعوة الكواكب ـ فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور، ويسمون ذلك روحانيةَ الكواكب، وهو شيطان، والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده، فإنه يضره أضعاف ما ينفعه، وعاقبةُ من أطاعه إلى شرّ إلا أن يتوب الله عليه، وكذلك عُبَّاد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به، أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضلُ منه في البيوت والمساجد.

ويروون حديثاً هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو: **(إذا أعيتكم الأمور، فعليكم بأصحاب القبور)**[1]، وإنما هذا وضع من فتح باب

---

(١) الحديث: ذكره الإمام ابن القيم في معرض كلامه عن القبور وحكم بوضعه فقال في: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ٢٢٠): «فصل في الافتتان بالقبور: ومنها: أحاديث مكذوبة مختلَقَة، وضعها أشباه عباد الأصنام: من المقابرية، على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به، كحديث: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»اهـ.

الشرك، ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبِّهين بهم من عُبَّاد الأصنام والنصارى، والضُّلَّال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات، وهي من الشياطين:

مثل: أن يضعوا سراويلَ عند القبر فيجدونه قد انعقد، أو يوضع عنده مصروع، فيرون شيطانه قد فارقه! يفعل الشيطان هذا ليضلَّهم، وإذا قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا؛ فإن التوحيد يطرد الشيطان، ولهذا حُمِل بعضهم في الهواء، فقال: لا إله إلا الله، فسقط!.

ومثل: أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت، وهو شيطان، وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع.

ولمَّا كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعْها الله ولا رسوله، صارت الشياطين كثيراً ما تأوي إلى المغارات والجبال.

.. وهؤلاء الذين يُظَنُّ أنهم الأبدال، هم جنٌّ بهذه الجبال، كما يُعرف ذلك بطرق متعددة، وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه، وذكرِ ما نعرفه من ذلك، فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر، الذي كُتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك»اهـ[1].

وبيَّن الشيخ أن أصحاب الأحوال الشيطانية؛ رأسهم ومقدَّمهم: الدجال؛ لأن له من الخوارق الشيطانية ما ليس لغيره.

قال: «فالعبادات والزهادات والمقالات والتورُّعات الخارجة عن سبيل الله ـ وهو الصراط المستقيم: الذي أمرنا الله أن نسأله هدايته، وهو ما دل عليه السنة ـ هي سُبُل الشيطان، ولو كان لأحدهم من الخوارق ما

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٨٣ ـ ٢٩٤)، الفرقان (ص١١٠ ـ ١١٦).

كان، فليس أحدُهم بأعظمَ من مُقَدَّمهم الدجال؛ الذي يقول للسماء: أمطري! فتمطر. وللأرض: أنبتي! فتنبت. وللخربة: أظهري كنوزك! فتخرُجُ معه كنوزُ الذهب والفضة[1]، وهو مع هذا عدو الله كافر بالله.

وأولياء الله: هم المذكورون في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فهم المؤمنون المتقون، والتقوى: فعلُ ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، فمن ترك ما أمر الله؛ واتخذ عبادةً نهى الله عنها، كيف يكون من هؤلاء؟!»اهـ[2].

هذا ما أردت بيانه من مذهب الصوفية في الكرامات الذي ذكره شيخ الإسلام، وإن كان موضوع الكرامات عند الصوفية وغلوّهم فيها، والحكم على كراماتهم من حيث القبول والرد، يحتاج إلى مزيد بحث وعناية في مؤلَّف خاص.



(١) تقدم تخريجه، انظر (ص٣٥٣).
(٢) الفتاوى (١١/٦١٨ ـ ٦١٩)، المستدرك على الفتاوى (١/ ١٢٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ٣٧

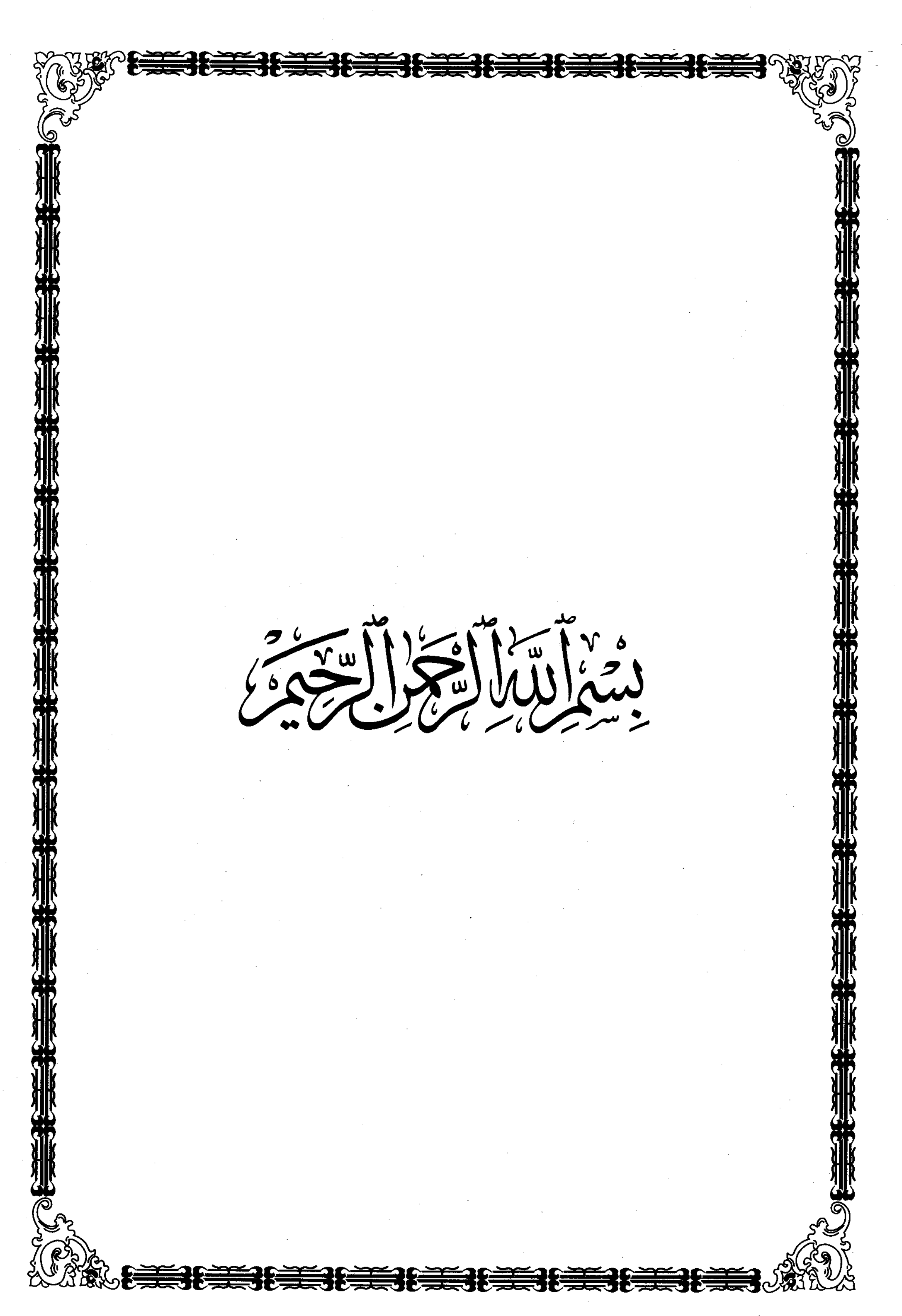
موقف ابن تيمية رحمه الله من الصوفية

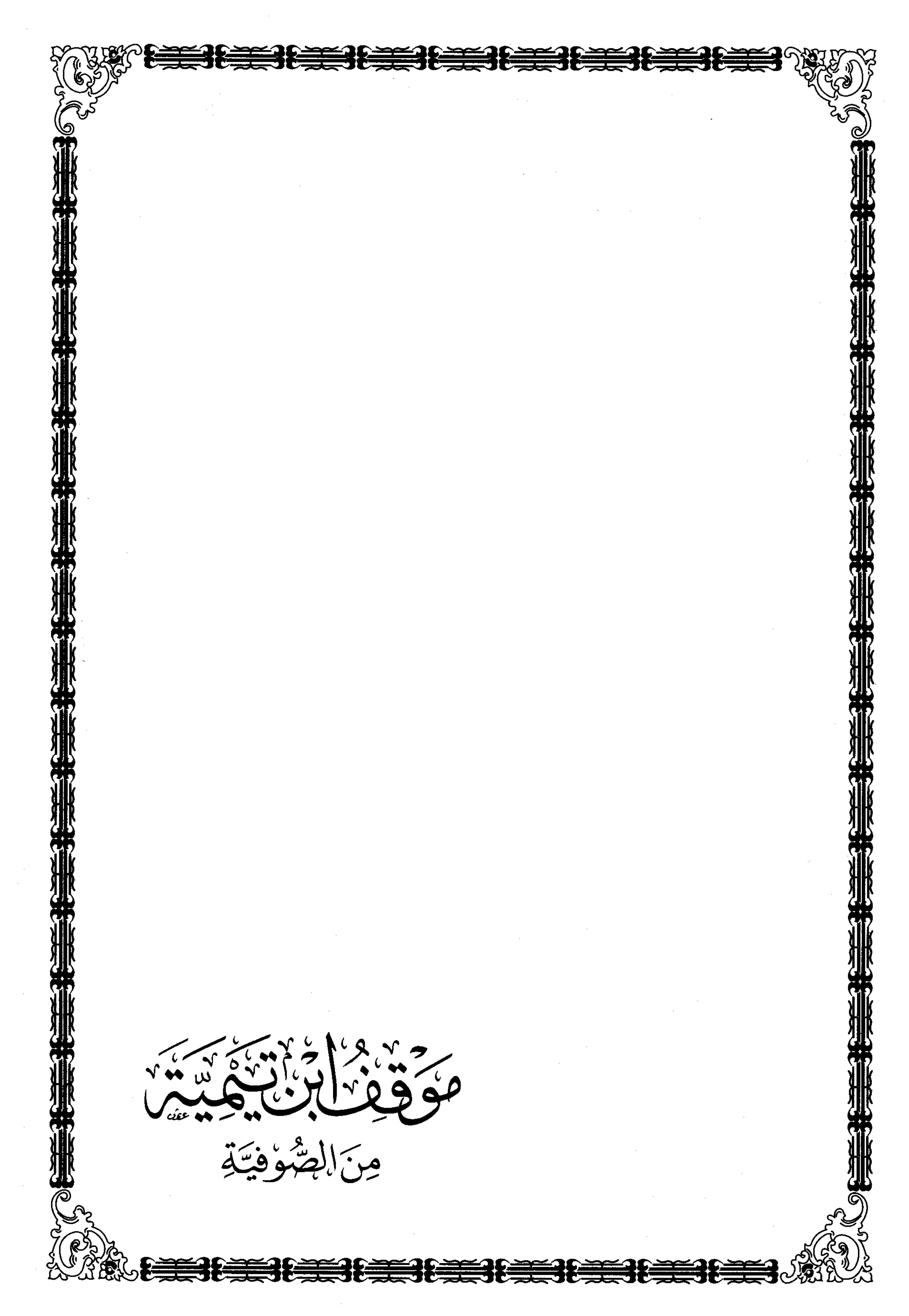
جمع وتحقيق ودراسة

د/ محمد بن عبد الرحمن العريفي

المجلد الثاني

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع بالرياض


بسم الله الرحمن الرحيم



موقف ابن تيمية رحمه الله من الصوفية

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العريفي، محمد بن عبد الرحمن
موقف ابن تيمية من الصوفية. / محمد بن عبد الرحمن العريفي.- الرياض، ١٤٢٩هـ
٢مج. .- (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ٣٧)
ردمك: ١ ـ ١٠ ـ ٨٠٣٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٥ ـ ١٢ ـ ٨٠٣٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٢)
١ ـ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ت ٧٢٨هـ ٢ ـ التصوف الإسلامي أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٦٠ ١٤٢٩/٥٣٠٣

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ

مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية. الرياض

المركز الرئيسي ـ طريق الملك فهد ـ شمال الجوازات
هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ ـ فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ ـ ص ب: ٥١٩٢٩ ـ الرياض ١١٥٥٣
الفروع ـ طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقاً) ت: ٢٣٢٢٠٩٥
حي الروابي ـ شارع عنيزة ـ ت: ٤٤٥٦٢٢٩
المدينة النبوية ـ طريق سلطانة ـ ت: ٠٤/٨٤٢٧٩٩٩
مكة المكرمة ـ الجميزة ـ الطريق النازل للحرم ـ ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧

الفصل الخامس

اليوم الآخر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قولهم في الجنة والنار

المبحث الثاني: قولهم في الشفاعة

المبحث الثالث: قولهم في الوعد والوعيد





المبحث الأول

قولهم في الجنة والنار

الجنة هي الدار التي أعدَّها الله تعالى لعباده المؤمنين الخاضعين لشريعته، والمتَّبعين لرسله، وهي دار النعيم والثواب المقيم، أعدّ الله فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ومن دخلها فاز الفوز العظيم، وربح الربح الذي ليس بعده خسارة، يقول الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والنار هي الدار التي أعدّها الله للكافرين به، المكذبين لرسله، المتمردين على شريعته، فهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]، أعدّ الله فيها من العذاب والنَّكال ما لا تتصوره العقول، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

والإيمان بالجنة والنار أصل من أصول الإيمان باليوم الآخر، الذي هو ركن من أركان الدين.

وقد وقع فريق من المتصوفة في مخالفة وابتداع في مسألة الإيمان بالجنة والنار، وقد عرض شيخ الإسلام مذهبهم في ذلك، وردّ على ما ابتدعوه فيه.

ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ فيما يلي:

نقل الشيخ حكاية الإمام أبي عبد الله ابن خفيف لقول معتدلي الصوفية أنهم يثبتون الجنة والنار وأنهما موجودتان، ولا تفنيان.

قال شيخ الإسلام ناقلاً عن ابن خفيف: «.. إلى أن قال: «ونعتقد أن الله تعالى خلق الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء»»اهـ[١].

ونقل شيخ الإسلام عن ابن خفيف أيضاً: أن معتدلي الصوفية لا يحكمون لأحد بجنة ولا نار إلا بدليل شرعي، قال شيخ الإسلام: «والصلاة على من مات من أهل القبلة سنةٌ، ولا ننزل أحداً جنةً ولا ناراً حتى يكون الله ينزلهم، والمِراء والجدال في الدين بدعة»اهـ[٢]

أما غلاة الصوفية، فقد بيّن الشيخ أنهم يستخفّون بالنار، ويقول قائلهم: أبسطُ سجادتي على جهنم!

قال الشيخ في معرض كلامه على زوال العقل بالسماع أو غيره: «..وأما الصحابة، فإنَّ حالهم كان أكملَ من أن يكون فيهم مجنون أو مصعوق، ومن هؤلاء أيضاً من غلب عليه الذكر لله والتوحيد له والمحبة، حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عما سواه، كما يحصل لبعض العاشقين في غيبته بمعشوقه عما سواه؛ فيقول أحدهم في هذه الحال: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله! ومنهم من غلب عليه حال الرجاء والرحمة؛ حتى قال: أبسط سجادتي على جهنم[٣]،

---

(١) الفتاوى (٥/ ٧٧).
(٢) الفتاوى (٥/ ٧٨).

(٣) لم أقف على قول بهذا اللفظ، لكن وقفت على قول لأبي يزيد البسطامي قريب من هذا، وهو قوله: «ما النار لأستندنّ إليها غداً، وأقول: اجعلني فداءً لأهلها، ما الجنة لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا»اهـ. ميزان الاعتدال (٢/ ٣٤٦).
ومغزى القولين واحد وهو: الاستخفاف بالنار التي توعد الله تعالى بها العصاة، وخوّف بها من خالف أمره أو وقع في نهيه، ولا شك أن هذه الأقوال =

فمن قال هذا في حال زوال عقله بحيث يكون كالسكران أو المُوَلَّه، وكان السبب الذي أوجب ذلك غير منهي عنه شرعاً، فلا إثم عليه»اهـ[١].

ـ وبيّن الشيخ أن ابن عربي وحزبه، يدّعون أنهم إن دخلوا النار، فإنهم يتنعَّمون بها كما يتنعَّم أهل الجنة بالجنة:

قال الشيخ: «وأما الإيمان باليوم الآخر، فادّعى ابن عربي أن أصحاب النار يتنعمون في النار، كما يتنعم أهل الجنة في الجنة، وأنه يسمى عذاباً من عذوبة طعمه، وأنشد في كتابه (الفصوص)[٢]:

فلم يبقَ إلا صادق الوعد وحده	وما لوجود الحق عين تعاين
فإن[٣] دخلوا دار الشقاء فإنهم	على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد	وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه	وذاك له كالقشر والقشر صاين

ولهذا قال بعض أصحابنا لبعض أتباع هؤلاء لما أثاروا محنة أهل السنة التي انتصروا فيها لهؤلاء الملاحدة، قال له: الله يذيقكم من هذه العذوبة.

وهذا المذهب حكاه الأشعري في (مقالاته) عن طائفة من سواد أهل الإلحاد، سمَّوهم: البطيخية[٤]، وهو مما يعلم بالاضطرار فساده من دين الإسلام»اهـ[٥].

= ونحوها تسقط الغاية من خلق النار، نعوذ بالله من الخذلان.

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٥٠).

(٢) فصوص الحكم لابن عربي (ص١١٧ ط. عفيفي).

(٣) في الفصوص: وإن.

(٤) قال الأشعري في كتابه المقالات (٢/ ٤٧٥): «وقال قوم: إن أهل الجنة ينعمون فيها، وإن أهل النار ينعمون فيها، بمنزلة دود الخلّ يتلذذ بالخل، ودود العسل يتلذذ بالعسل، وهم البطيخية»اهـ.

(٥) الصفدية (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧).

ولغلوّ فريق من المتصوفة في المحبة والقرب، وعدم تصورهم لحقيقة الجنة والنار، صار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك(١)...

وقد بيّن الشيخ ذلك ورد عليه، فقال: «ومَنْ قال مِنْ هؤلاء: لم أعبدك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك، فهو يظن أن الجنة اسم لما يُتَمتع فيه بالمخلوقات، والنار اسم لما لا عذاب فيه، إلا ألم المخلوقات، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمى الجنة، بل كل ما أعده الله لأوليائه، فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة.

ولهذا كان أفضلُ الخلق يسأل اللهَ الجنةَ ويستعيذ به من النار، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته: قال: إني أسأل الله الجنة، وأعوذ بالله من النار، أمَا إني لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: **(حولها ندندن)**(٢).

وقد أنكر على من قال هذا الكلام ـ يعني أسألك لذة النظر إلى وجهك ـ فريقٌ من أهل الكلام؛ ظنوا أن الله لا يُتَلذَّذ بالنظر إليه، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق، فغلط هؤلاء في معنى الجنة كما غلط أولئك، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يُطلب وهؤلاء أنكروا ذلك، وأما التألُّم بالنار فهو أمر ضروري، ومن قال: لو أدخلني النار لكنت راضياً، فهو عزم منه على الرضا، والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق.

ومثل هذا يقع في كلام طائفة، مثل: سمنون، الذي قال:

وليس لي في سواك حظٌّ فكيف ما شئت فامتحني

---

(١) ينسب هذا الكلام إلى رابعة العدوية، ومن أقوالها، أنها مرضت يوماً، فقيل لها: «ما سبب علتك؟ فقالت: نظرت بقلبي إلى الجنة، فأدبني ربي فله العتبى، لا أعود»اهـ الرسالة القشيرية (ص٢٥٨).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٦١١).

فابتُلي بعسر البول، فجعل يطوف على صبيان المكاتب، ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]»اهـ[١].

وبيَّن الشيخ أن سبيل المؤمنين هو طلب الجنة والسعي لتحصيلها، والهرب من النار والسعي للخلاص منها:

وقال الشيخ: «وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع أوليائه السابقين المقرَّبين وأصحاب اليمين كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: (**كيف تقول في دعائك؟**) قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أُحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ، فقال: (**حولهما ندندن**)[٢]، فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ ـ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قولُ أحد فوق قول رسول الله ﷺ ومعاذ؟ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟ ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة...

والنبي ﷺ لمَّا بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين، الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم، قالوا للنبي ﷺ: «اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك، قال: (**أشترط لنفسي أن تنصروني مِمَّا تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأَشترِطُ لأصحابي أن تواسوهم**)، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: (**لكم الجنة**)، قالوا: مُدَّ يدك، فوالله لا نُقيلك ولا نستقيلك[٣]، وقد قالوا له في أثناء البيعة:

---

(١) الفتاوى (١٠/٢٤١).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/٦١١).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/٦١٤).

إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وإنا ناقضوها»[١].

فهؤلاء الذين بايعوه: من أعظم خلق الله محبةً لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كلَّ محبوب ومطلوب، بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه؛ فإن الطلب والحب والإرادة فرعٌ عن الشعور والإحساس والتصوُّر، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسّه ولا يشعر به، يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده، فالجنة فيها هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ففيها ما يشتهون، وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه، كما قال ﷺ: **(ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)** وهذا باب واسع»اهـ[٢].

مما سبق تبين لنا أن الصوفية يزعمون بأنهم يعبدون الله تعالى حباً له، ولأنه يستحق العبادة فقط، وأنهم لا يبالون بالعذاب الذي أعده الله تعالى يوم القيامة لمن عصاه، ولا بالنعيم الذي أعده الله لمن أطاعه.

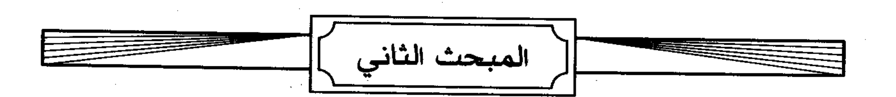
وهذا ـ بلا شك ـ قول باطل مخالف للغاية التي خلق الله تعالى لها الجنة والنار، ولا يقول بهذا القول ـ في الحقيقة ـ إلا أحمقٌ جاهلٌ فارغ قلبه من خشية الله تعالى وتعظيمه.

وتقدم إيراد ما ذكره شيخ الإسلام من أن سبيل الرسل وأتباعهم المؤمنين يخالف ما عليه الصوفية، والقرآن مليء بالترغيب في الجنة والتحذير من النار، ولكن من يضلل الله فما له من هادٍ.

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٦١٤).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٧٠١، ٧٠٣ ـ ٧٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٦٢)، النبوات (ص١٢٣)، مختصر الفتاوى المصرية (ص١٢٨).



قولهم في الشفاعة

الشفاعة لغةً: هي الانضمام إلى آخر؛ ناصراً له، وسائلاً عنه، وأكثر ما تُستعمل في انضمام من هو أعلى حرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى(١).

والشفاعة اصطلاحاً: سؤال التجاوز عن الذنوب والآثام(٢).

وأهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، حسبما وردت به الأدلة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، مع نفي الشفاعة التي نفتها الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة(٣).

وقد وافق كثيرٌ من الصوفية أهلَ السنة والجماعة في إثبات الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والملائكة، ولكن وقع عندهم خللٌ ونوعُ توسعٍ في إثبات الشفاعة لأقوام تظاهروا بالصلاح والولاية، أو نحو ذلك مما سيأتي بيانه.

وقد بيَّن شيخ الإسلام - في مواضع من كتبه - مذهب الصوفية في الشفاعة. ويمكن إجمال ما ذكره فيما يلي:

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني (ص٢٦٣).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ٤٥٨).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٢٨٢)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢١١)، فتح الباري (١١/ ٤٣٣)، التوحيد لابن خزيمة (ص٢٤١، تعليق: محمد الهراس).

ـ نقل الشيخ حكاية الإمام ابن خفيف لمذهب معتدلي الصوفية: أنهم يثبتون الشفاعة لرسول الله ﷺ:

قال شيخ الإسلام ناقلاً عن ابن خفيف: «.. إلى أن قال: ونعتقد أن للرسول ﷺ: حوضاً، ونعتقد أنه أولُ شافع وأولُ مشفَّع»اهـ[١].

ـ طلبُ بعض المتصوفة الشفاعة من المشايخ بعد موتهم، ووقوعهم في دعاء غير الله بسبب ذلك:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الغلوّ في المشايخ: «فإذا قال قائل: أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعاً لي، فهو من جنس دعاء النصارى لمريمَ والأحبار والرهبان، والمؤمن يرجو ربَّه ويخافه، ويدعوه مخلصاً له الدين، وحق شيخه أن يدعو له ويترحم عليه»اهـ[٢].

ـ أما مذهب ملاحدة الصوفية في الشفاعة، كأصحاب القول بوحدة الوجود وغيرهم، فهو مذهب الفلاسفة:

وقد بيّن الشيخ ذلك بقوله: «وهؤلاء يقولون ما ذكره ابن سينا وأتباعه، كصاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها[٣]، ومن وافقهم من القرامطة والباطنية، من الملاحدة والجُهَّال، الذين دخلوا في الصوفية وأهل الكلام كأهل وحدة الوجود وغيرهم، يجعلون الشفاعة مبنيةً على ما يعتقدونه:

من أن الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته، وليس عالماً بالجزئيات، ولا يقدر أن يغير العالم، بل العالم فَيْضٌ فاض عنه بغير مشيئته وقدرته وعلمه، فيقولون: إذا توجه المستشفع إلى من يعظِّمه من الجواهر العالية؛

---

(١) الفتاوى (٥/ ٧٧).
(٢) الفتاوى (٢٧/ ٨٧).
(٣) هو الغزالي، وسيأتي ـ في مبحث خاص ـ الكلام عن موقف شيخ الإسلام منه ومن كتبه (ص٤٦٦).

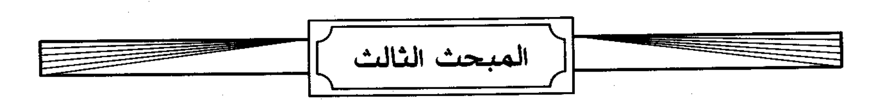
كالعقول والنفوس والكواكب والشمس والقمر، أو إلى النفوس المفارقة مثل بعض الصالحين، فإنه يتصل بذلك المعظَّم المستشفَع به، فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب، فاض على هذا المستشفع من جهة شفيعه، ويمثلونه بالشمس إذا طلعت على مرآة، فانعكس الشعاع الذي على المرآة على موضع آخر، فأشرق بذلك الشعاع، فذلك الشعاع حصل له بمقابلة المرآة، وحصل للمرآة بمقابلة الشمس، فهذا الداعي المستشفع إذا توجه إلى شفيعه، أشرق عليه من جهته مقصود الشفاعة، وذلك الشفيع يشرق عليه من جهة الحق، ولهذا يرى هؤلاء دعاءَ الموتى عند القبور وغير القبور، ويتوجهون إليهم، ويستعينون بهم، ويقولون: إن أرواحنا إذا توجهت إلى روح المقبور في القبور، اتصلت به ففاضت عليها المقاصد من جهته!»اهـ[1].

وبهذا التفصيل يتضح جلياً موقف الصوفية عموماً من الشفاعة، وأن المعتدلين منهم يوافقون أهل السنة على الشفاعة الشرعية.



---

(١) الرد على المنطقيين (ص١٠٣ ـ ١٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الرد على المنطقيين (ص٣٠٦)، الصفدية (١/ ٢٠٩، ٢/ ٢٨٨).



المبحث الثالث

قولهم في الوعد والوعيد

تمهيد:

الوعد: هو الخبر المتضمن إيصال النفع إلى الغير أو دفع الضرر عنه في المستقبل[(١)].

الوعيد: هو كل خبر يتضمن إيصال الضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل[(٢)].

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه مجزوماً به لفضله وكرمه وإحسانه ﷻ فإنه لا يخلف وعده[(٣)].

وأما إذا توعّد الله تعالى عبده بعقوبة على ذنب، فإنه لسَعة رحمته وعفوه سبحانه، قد يعفو عن عبده ولا يوقع به ما توعده به[(٤)].

أما ما ذكره الشيخ من مذهب الصوفية في الوعد والوعيد، فيمكن إجماله فيما يلي:

ـ ذكر الشيخ مذهب الصوفية في القدر، وأن فريقاً منهم يزعمون أنهم شهِدوا القدر؛ فأسقطوا الأمر والنهي[(٥)].

---

(١) المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد بن عبد الله المعتق (ص٢١٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: منهاج السنة (١/ ١٣٥).

(٤) انظر: منهاج السنة (١/ ٣٢٨)، مدارج السالكين (١/ ٣٩٦)، شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٧ ـ ٣١٨).

(٥) سيأتي الكلام عن مذهب الصوفية في القدر ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص٢١).

ثم بيَّن الشيخ آثار هذا المذهب فقال: «وهؤلاء الذين يصلون إلى هذا الحد غالبُهم لا يعرف وعيد الآخرة؛ فإن من أقرَّ بوعيد الآخرة وأنه للكفار، لم يمكنه أن يكون معاوناً للكفار، موالياً لهم على ما يوجب وعيد الآخرة، لكن قد يقولون بسقوطه مطلقاً، وقد يقولون بسقوطه عمَّن شَهِد توحيد الربوبية وكان في هذه الحقيقة القدرية، وهذا يقوله طائفة من شيوخهم»اهـ(١).

ـ وقال الشيخ في معرض كلامه عن القدر وضلال بعض الفرق فيه: «الأشعرية ونحوهم الذين لم يثبتوا إلا إرادةً بلا حكمة، ومشيئةً بلا رحمةً ولا محبةً ولا رضاً، وجعلوا جميع المخلوقات بالنسبة إليه سواءً؛ لا يفرقون بين الإرادة والمحبة والرضا، بل ما وقع من الكفر والفسوق والعصيان قالوا: إنه يحبه ويرضاه كما يريده، وإذا قالوا: لا يحبه ولا يرضاه ديناً، قالوا: إنه لا يريده ديناً، وما لم يقع من الإيمان والتقوى، فإنه لا يحبه ولا يرضاه عندهم، كما لا يريده، وقد قال تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، فأخبر أنه لا يرضاه مع أنه قدَّره وقضاه..»(٢).

وينبغي أن يُعلم أن هذا المقام زلَّ فيه طوائفُ من أهل الكلام والتصوف، وصاروا فيه إلى ما هو شرٌّ من قول المعتزلة ونحوهم من

---

(١) الفتاوى (٨/ ٣٥٠).

(٢) انظر تفصيل مذهب الأشعرية في ذلك، في: الإرشاد للجويني (ص٢٣٩ ت: محمد يوسف موسى، علي عبد الحميد، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ط. ١٣٦٩هـ)، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لأبي بكر الباقلاني (ص٤٤ ـ ٤٥ ت: محمد زاهد الكوثري، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط. الثانية ١٣٨٢هـ)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، د. عبد الرحمن المحمود (٣/ ١٣١٦).

القدرية؛ فإن هؤلاء يعظِّمون الأمر والنهي والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

لكن ضلُّوا في القدر، واعتقدوا أنهم إذا أثبتوا مشيئةً عامة، وقدرةً شاملة، وخلقاً متناولاً لكل شيء، لزم من ذلك القدحُ في عدل الرب وحكمته، وغلطوا في ذلك، فقابل هؤلاء قوم من العلماء والعُبَّاد وأهل الكلام والتصوف، فأثبتوا القدر، وآمنوا بأن الله ربُّ كل شيء ومليكُه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء وربُّه ومليكه، وهذا حسن وصواب، لكنهم قصَّروا في الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأفرطوا حتى خرج غلاتهم إلى الإلحاد، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]»اهـ[1].

ـ وبيَّن الشيخ أنهم لما لم يفرِّقوا بين الحسنة والسيئة، وقالوا: إن الكل محبوب ومرادٌ لله تعالى؛ صاروا غير معظِّمين للوعد والوعيد.

فقال: «والأشعري يثبت الصفات كالإرادة، فاحتاج إلى الكلام فيها هل هي المحبة أم لا؟ فقال: المعاصي يحبها الله ويرضاها كما يريدها! وذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك، وأهل السنة قبله على أن الله لا يُحب المعاصي[2].

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية: فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر، وخالفوه في الصفات؛ كأبي إسماعيل الأنصاري صاحب (ذم الكلام)، فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات.. وهو ـ مع هذا ـ في مسألة إرادة الكائنات وخلق الأفعال أبلغ من الأشعرية؛

---

(١) الفتاوى (٨/٩٧ ـ ٩٩).

(٢) انظر: الإرشاد لأبي المعالي الجويني (ص٧٩ ـ ٨٦، ت: أسعد تميم، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، الثانية ١٤١٣هـ).

لا يثبت سبباً ولا حكمة؛ بل يقول: إن مشاهدة العارف الحكمَ لا يُبقي له استحسانَ حسنة، ولا استقباحَ سيئة، والحكم عنده هو المشيئة؛ لأن العارف عنده من يصل إلى مقام الفناء، والحسنة والسيئة يفترقان في حق العبد؛ لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه، والالتفات إلى هذا من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق.

والأشعري لمَّا أثبت الفرق بين هذا وهذا من جهة المخلوق كان أعقلَ منهم؛ فإنهم يدّعون أن العارف لا يفرق، وغلطوا في حق العبد وحق الرب؛ أما العبد، فيلزمه أن يستوي عنده جميع الحوادث، وهذا محال قطعاً، فعزلوا الفرق الرحماني، وفرَّقوا بالطبعي الهوائي الشيطاني، ومن هنا وقع خلق منهم في المعاصي، وآخرون في الفسوق، وآخرون في الكفر، حتى جوَّزوا عبادة الأصنام، ثم كثير منهم ينتقل إلى الوحدة؛ ويصرحون بعبادة كل موجود.

والمقصود: الكلام على من نفى الحِكَم والأسباب والعدل في القدر موافقة لجهم ـ وهي بدعته الثانية، بخلاف الإرجاء؛ فإنه منسوب إلى طوائف غيره ـ فهؤلاء يقولون: إن الرب يجوز أن يفعل كل ما يقدر عليه، **ولهذا تجد من اتبعهم غير معظِّم للأمر والنهي والوعد والوعيد**؛ بل ينحل عنه أو عن بعضه، ويتكلف لمَّا يعتقده، فإنهم إذا وافقوا جهماً والأشعري في أن الحسن والقبيح، كونه مأموراً أو محظوراً، وذلك فرقٌ يعود إلى حظ العبد، وهم يدعون الفناء عن الحظوظ؛ فتارة يقولون في امتثال الأمر والنهي: إنه من مقام التلبيس، وتارة يقولون: يفعل هذا لأجل أهل المارستان أي العامة ـ كما يقوله: الشيخ المغربي[1] ـ إلى أنواع أُخر.

---

(١) انظر: فصوص الحكم لابن عربي (ص٢٢٦، ط. غراب).

ومن سلك مسلكهم إذا عظّم الأمر والنهي، غايتُه أن يقول ـ كما نقل عن الشاذلي ـ: يكون الجمع في قلبك مشهوداً، والفرق على لسانك موجوداً، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيلَ الأمر والنهي؛ مثل: دعوى أن الله يعطيه على المعصية أعظمَ مما يعطيه على الطاعة، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده أن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو أفضل! ويدعون بأدعية فيها اعتداء»اهـ(١).

ومما سبق يتبين لنا أن فئاماً من المتصوفة لمَّا استخفُّوا بما وعد الله تعالى به ورغَّب به من أطاعه من الثواب الجزيل والجنة، وهوَّنوا ما توعد الله به من عصاه وخوَّفه به من عذابه وناره، عطَّلوا الأمر والنهي الشرعييْن؛ إذ لا معنى أن يطاع ربٌّ لا يثيب، أو يُنتهى عن معصية ربٍّ لا يعذب.

ثم إن هذا التهاون بأمر الجنة والنار أدى بجموع من المتصوفة إلى إسقاط التكاليف عن أنفسهم، إذ ضَمِنوا الثواب وأمِنوا العقاب.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ضلالهم في هذا الباب، وردَّ عليهم، وبيَّن أن طلب الجنة والاستعاذة من النار هو سبيل أنبياء الله ورسله، ومن تبعهم بإحسان، ولا نجاةَ إلا في اتباع هؤلاء.



(١) الفتاوى (٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٤/ ٣٥٧).

الفصل السادس

القـدر

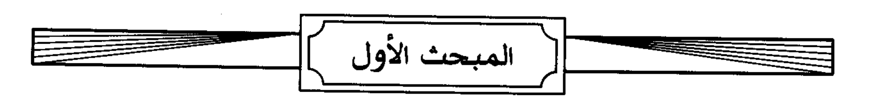
وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: قولهم في الجبر، وخلق أفعال العباد

المبحث الثاني: قولهم في الاستطاعة

المبحث الثالث: الفناء





قولهم في الجبر، وخلق أفعال العباد

الإيمان بالقضاء والقدر أصل من أصول الإيمان التي لا يصحُّ إيمان العبد إلا بها، وهو من الأمور الغيبية التي حجب الله تعالى علمَها عن البشر، وأوجب على كل مسلم الإيمانَ الجازم والتسليم الكامل بها، لِمَا يتبع ذلك من السعادة للعبد في الدنيا والآخرة.

ومعنى القدر في اللغة:

مأخوذ من القدْر ـ بفتح القاف وإسكان الدال ـ وهو مقدار الشيء وحالاته المقدَّرة له، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ووقت الشيء أو مكانه المقدَّر له، وقدر كل شيء ومقداره: مقياسه، يقال: قدره به قدراً إذا قاسه، والقدر من الرحال والسروج: الوسط[١].

معنى القدر في الشرع:

هو تقدير الله تعالى الأشياءَ في القِدَمِ، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها[٢].

---

(١) انظر مادة: قدر، في: النهاية لابن الأثير (٤/ ٢٢)، تاج العروس (٣/ ٤٨٢)، المعجم الوسيط (٢/٧١٨).

(٢) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٢١)، شفاء العليل لابن القيم (ص٢٩ ط. مكتبة الرياض الحديثة، الأولى ١٣٢٣هـ).

والجبر: هو الغلوُّ في إثبات القدر، وسلب الإنسان حرية الاختيار، وجعله مجبوراً على فعل نفسه، فالعبد عند الجبرية كالريشة في مهبِّ الريح، ولا يملك حركاته وأفعاله، بل هو كحركة الآلة في يد الرجل[1].

وقد انحرف فريق من المتصوفة في باب القضاء والقدر، حيث احتجُّوا بالقدر على تجويز اقتراف المعاصي، انطلاقاً من معتقدهم الفاسد الذي ابتدعوه؛ وهو أن كل ما قدَّر الله تعالى وقوعَه فقد رضِيَه وأحبَّه، ولذا لا ينكرون على من وقع في المعاصي.

وقد ذكر شيخ الإسلام ـ في مواضعَ متفرقةٍ من مصنفاته ـ مذهبَ الصوفية في باب القضاء والقدر، وأجاب عن شبهاتهم فيه. ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ فيما يلي:

أولاً: ذكر الشيخ أن مذهب المعتدلين من الصوفية في القدر هو مذهب أهل السنة:

وحكى ذلك عن أبي عبد الله بن خفيف، فقال ـ شيخ الإسلام ـ:
«قال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه: (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات). ثم قال: «وكان الاختلاف في خلق الأفعال هل هي مقدَّرةٌ أم لا؟»، قال: «وقولنا فيها أن أفعال العباد مقدَّرةٌ

---

(١) وهذا مذهب الجهمية، ومن وافقهم من الأشاعرة في مسألة «الكسب»، ووقع فيه فريق من الصوفية.
انظر: الفتاوى (٨/٢٥٦ ـ ٢٦١، ١٣/٣٦ ـ ٣٧)، الملل والنحل (١/٩٨)، لمع الأدلة للجويني (ص١٢٠ ـ ١٢١)، مقالات الإسلاميين (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨)، التمهيد للباقلاني (ص٣١٧ ـ ٣٦٨)، شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص٢٩٩).
والمجلد الثامن من فتاوى شيخ الإسلام خاص ببحث مسألة القضاء والقدر، وكذلك قد أفرد الإمام ابن القيم فيها كتاباً سماه: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

معلومةٌ» وذكر إثبات القدر، ثم ذكر الخلاف في أهل (الكبائر) ومسألة (الأسماء والأحكام) وقال: قولنا فيها أنهم مؤمنون على الإطلاق، وأمرهم إلى الله: إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم»اهـ[١].

ثانياً: كثير من الصوفية في باب المعتقد وافقوا الجهم بن صفوان، من وجه دون وجه:

وقد بيّن شيخ الإسلام ذلك بقوله: «وجَهْمٌ لا يُثبت شيئاً من الصفات، لا الإرادة ولا غيرها، فإذا قال: إن الله يحب الطاعات، ويبغض المعاصي، فمعناه الثواب والعقاب. . .

وشاع هذا القول في كثير من الصوفية؛ فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر، وخالفوه في الصفات، كأبي إسماعيل الأنصاري ـ صاحب (ذم الكلام) ـ فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات، وله كتاب في تكفير الجهمية، ويبالغ في ذم الأشعرية، مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة، وربما كان يلعنهم»اهـ[٢].

ثالثاً: نصّ شيخ الإسلام على أنه ليس في مشايخ الصوفية المقبولين أحدٌ على رأي القدرية:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو القاسم القشيري[٣]: «سمعتُ. . قال: قام رجل بين يدي ذي النون، فقال: أخبرني عن التوحيد، ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علةَ لصنعه، وليس في السموات العُلا ولا في الأرضين السفلى مدبرٌ غيرُ الله، وكل ما تصور في وهمك، فالله بخلافه».

(١) الفتاوى (٥/ ٧١، ٧٦).
(٢) الفتاوى (٨/ ٢٣٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: (١٤/ ٣٥٤).
(٣) القشيرية (١/ ٣١).

هذا الكلام غالبه في ذكر فعل الحق سبحانه وربوبيته، أخبر أنه ربُّ كل شيء لا مدبَر غيره، رداً على القدرية ونحوهم ممن يجعل بعض الأشياء خارجةً عن قدرة الله وتدبيره، وأخبر أن قدرته وصنعه ليس مثلَ قدرة العباد وصنعهم؛ فإن قدرة أبدانهم عن امتزاج الأخلاط، وأفعالهم عن معالجة، والله تعالى ليس كذلك.

وأما قوله: «علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه»، فقد تقدم أن هذا يريد به أهلُ الحق معناه الصحيح: أن الله سبحانه لا يبعثه ويدعوه إلى الفعل شيء خارج عنه، كما يكون مثل ذلك للمخلوقين، فليس له علةٌ غيره، بل فِعْلُه علةُ كل شيء، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ومقصود أبي القاسم يبين أن القوم لم يكونوا على رأي القدرية من المعتزلة، وهذا حق، فما نعلم في المشايخ المقبولين في الأمة من كان على رأي المعتزلة، لا في قولهم في الصفات بقول جهم، ولا في قولهم في الأفعال بقول القدرية، بل هم أعظمُ الناسِ إثباتاً للقدر، وشهوداً له، وافتقاراً إلى الله، والتجاءً إليه، حتى إن من المنتسبين إلى الطريق من غَلَوْا في هذا حتى يذهب إلى الإباحة والجبر، ويُعرض عن الشرع والأمر والنهي، فهذه الآفة توجد كثيراً في المتصوفة والمتفقِّرة، وأما التكذيب بالقدر، فقليل فيهم جداً»اهـ(١).

وقرر الشيخ ذلك في موضع آخر، فقال: «وقد ذكر أبو القاسم في ترجمة الشيخ أبي علي ابن الكاتب(٢) ـ وقد صحب أبا علي

---

(١) الاستقامة (١/ ١٤٦ ـ ١٤٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستقامة (١/ ١٦٩).

(٢) هو الحسن بن أحمد الكاتب، أبو علي، من كبار مشايخ الصوفية المصريين، اختُلف في سنة وفاته. وذكر ابن الجوزي أنه توفي سنة ٣٤٣هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٣٨٦ ـ ٣٨٨)، المنتظم لابن الجوزي (٦/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦ وسماه الحسن بن علي)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ٩٦).

الروذباري[1] وغيره، وتأخر بعد الأربعين وثلاثمائة ـ قال[2]: «المعتزلة نزَّهوا الله من حيث العقل فأخطؤوا، والصوفية نزَّهوه من حيث العلم فأصابوا». قلت: العلم في لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً ما يريدون به الشريعة... وإذا عُرف معنى لفظ العلم في اصطلاحهم فقول أبي علي بن الكاتب: «الصوفية نزَّهوه من حيث العلم» أي: من جهة الشرع وهو الكتاب والسنة، فنزهوه عما نزه عنه نفسه فأصابوا، وأما المعتزلة، فنزهوه بقياس عقلهم وأهوائهم؛ أرادوا أن ينفوا عنه كل صفة موجودة لظنهم أن ذلك تشبيه؛ ولم يهتدوا إلى أن الخالق يوصف بما يليق به، والمخلوق يوصف بما يليق به، وأن الاسم وإن كان متفقاً، فالإضافة إلى الله تخصِّصه وتقيده بما ينفي عنه مماثلة الخلق.

وهذا الذي ذكره الشيخ: أبو علي، من: أن الصوفيةَ يخالفون المعتزلةَ، فأمرٌ متفق عليه، فإن أصول الصوفية لا تلائم نفيَ الصفات، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر»اهـ[3].

رابعاً: ولكن لم يسلم جميع الصوفية من الوقوع في خلل في باب القدر، فقد وقع عند بعضهم خلل في مسألة الرضا بالمقدور، وأنواع هذا الرضا.

وقد فصّل الشيخ ذلك بقوله: «وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان، فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يُرضى بذلك؛ فإن الله لا يرضاه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

---

(١) أبو علي الروذباري: الصوفي، واسمه محمد بن أحمد بن القاسم، وقيل: اسمه أحمد بن محمد، ويقال: الحسين بن الهمام، والصحيح الأول. أصله من بغداد وسكن مصر، وكان من أبناء الرؤساء والوزراء والكتبة، وصحب الجنيد، وسمع الحديث وحفظ منه كثيراً، توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.
انظر: شذرات الذهب (٨/ ٢٩٤)، البداية والنهاية (٧/ ٥٧٢).

(٢) القشيرية (١/ ١٥٨).

(٣) الاستقامة (١/ ٩٤، ١٠٢).

وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

وقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يُسخِطُه ذلك، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم، فكيف يسوغ للمؤمن أن يرضى ذلك، وأن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه؟!.

وإنما ضل هنا فريقان من الناس:

قومٌ من أهل الكلام: المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات؛ خلافاً للقدرية، وقالوا: هو أيضاً محبٌّ لها، مريدٌ لها، ثم أخذوا يحرِّفون الكلم عن مواضعه؛ فقالوا: لا يحب الفساد بمعنى لا يريد الفساد، أي: لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر بمعنى لا يريده، أي: لا يريده للمؤمنين.

وهذا غلط عظيم؛ فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب

الإيمان، ولا يرضى لعباده الإيمان، بمعنى: لا يريده للكافرين، ولا يرضاه للكافرين.

وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به، فإنه يكون مستحبّاً يحبُّه، ثم قد يكون مع ذلك واجباً، وقد يكون مستحبّاً ليس بواجب، سواء فُعِل أو لم يُفعَل، والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والفريق الثاني من غالطي المتصوفة: شربوا من هذه العين؛ فشهدوا أن الله ربُّ الكائنات جميعِها، وعلموا أنه قدَّر كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضَوْا بكل ما يُقَدِّره الله ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: المحبة نار تحرق من القلب كلَّ ما سوى مرادِ المحبوب، قالوا: والكون كلُّه مراد المحبوب، وضلَّ هؤلاء ضلالاً عظيماً؛ حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الديني والكوني، والأمر الديني والكوني، والبعث الكوني والديني، والإرسال الكوني والديني، كما بسطناه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء يَؤول بهم الأمر إلى أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور، وأولياء الله وأعداء الله، والأنبياء والمتقين، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي والوعد والوعيد والشرائع.

وربما سمَّوْا هذا حقيقةً! ولَعمري إنه حقيقةٌ كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عُبَّاد الأصنام كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الآيات [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرِّين بأن الله خالقُ كل شيء وربُّه ومليكُه؛ فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان غايته أن يكون كعُبَّاد الأصنام.

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، واتباع ما يرضاه الله ويحبه دون ما يقضيه ويقدره من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب، لا بما فعله من المعايب، فهو من الذنوب يستغفر وعلى المصائب يصبر، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فيجمع بين طاعة الأمر، والصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

والقصد هنا أن ما ذكره القشيري(١) عن النصرآباذي من أحسن الكلام؛ حيث قال: من أراد أن يبلغ محلَّ الرضا، فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»اهـ(٢).

خامساً: وبيّن الشيخ أن فريقاً من الصوفية نَفَوْا الحِكَم في أفعال الله تعالى، وقالوا: إن الله يُقَدر وقوع الشيء لا لِحِكمة، وهذا باطل.

قال الشيخ: «والمقصود هنا: أن جهماً اشتهر عنه نوعان من البدعة:

أحدهما: نفي الصفات.

والثاني: الغلو في القدر والإرجاء، فجعل الإيمان مجردَ معرفة القلب، وجعل العِبادَ لا فعل لهم ولا قدرة...

والمقصود هنا: الكلام على مَن نفى الحكم والعدل والأسباب في

---

(١) القشيرية (٢/ ٤٢٥).

(٢) الاستقامة (٢/ ٧٥ ـ ٨٠).

القدر، من أهل الكلام والمتصوفة، الذين وافقوا جَهْماً في هذا الأصل، وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه، بخلاف الإرجاء؛ فإنه منسوب إلى طوائفَ غيرِه، فهؤلاء يقولون: إن الرب يجوز أن يفعل كلَّ ما يقدر عليه، ويمكن فعله، ومن غير مراعاة حكمةٍ ولا رحمةٍ ولا عدلٍ، ويقولون: إن مشيئته هي محبته، ولهذا تجد من اتبعهم: غير معظّم للأمر والنهي والوعد والوعيد؛ بل هو منحلٌّ عن الأمر الشرعي كلِّه أو عن بعضِه، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه، فإنهم أرادوا: أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواء، وأن كل ما شاءه فقد أحبه، وأنه يُحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها، ولا حكمة يسوقه إليها؛ بل غايته: أنه يسوق المقادير إلى المواقيت، لم يبق عندهم فرقٌ في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـ كالأشعري ـ في أنه في نفس الأمر: لا حسنٌ ولا سيئ، وإنما الحُسن والقُبح: مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً، وذلك فرق يعود إلى حظ العبد، وهؤلاء يدَّعون الفناء عن الحظوظ»اهـ[1].

ولكن نبّه شيخ الإسلام على أن نفي الحكمة في أفعال الله تعالى ليس قولَ جميع الصوفية، بل أكثرُهم وافقوا أهلَ السنة في إثبات الحكمة لله تعالى في كل أوامره ونواهيه وأفعاله.

قال الشيخ: «وهؤلاء المعتزلة ومَنْ وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه أن يفعل بكلِّ عبد ما هو الأصلحُ له في دينه، وتنازعوا في وجوب الأصلح في دنياه، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل، ولا يقدر أن يهدي ضالًا ولا يضل مهتدياً.

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣، ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

وأما سائر الطوائف، الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وأهل الكلام، كالكرَّامية[١] وغيرهم، والمتفلسفة أيضاً: فلا يوافقونهم على هذا؛ بل يقولون: إنه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها ﷻ وقد يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يُطلعهم عليه، وقد لا يعلمون ذلك»اهـ[٢]

سادساً: فصَّل الشيخ رحمه الله مذهب الاتحادية في القدر وبيّن أنهم جبرية:

وقد ذكر الشيخ ذلك في معرض رده على قول الاتحادية: إن العبد ليس له فعل؛ بل الفعل في الحقيقة لله لا للعبد، وأن العبد مع ربه كالميت مع غاسله، فقال الشيخ حاكياً لقولهم:

«وكذلك العبد ـ وإن كان حياً ـ فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ليس له من نفسه فعل بغير الله!.

فيقال لهم: **هذا العذر باطل من وجوه:**

أحدها: لأنه لا حَيْرَة هنا؛ بل المكلَّف هو العبد بلا امتراءٍ ولا حيرة؛ فإن الله يمتنع أن يكون هو المكلَّف بالصيام والطواف ورمي الجمار، بل هو الآمر بذلك، والعبد هو المأمور بذلك، ومن حار: هل

---

(١) الكرَّامية: هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرَّام، قالوا: إن الباري ـ تعالى ـ جسم وإن له سبحانه ثقل، وإنه خالق بلا خلق ورازق بلا رزق. . ، وإن الإيمان هو القول باللسان فقط دون الاعتراف بالقلب، وإن المنافقين مؤمنون حقيقة في الدنيا، أما في الآخرة ففي النار، وقد وافقوا السلف على القول بأن الخلق غير المخلوق. والكرامية مختلفون فيما بينهم، فأوصلهم بعض المؤلفين في الفرق إلى اثنتي عشرة فرقةً، وبعضهم جعلهم ثلاث فرق.
انظر: الفرق بين الفرق (ص٢١٥ ـ ٢٢٥)، الملل والنحل (١/ ١٠٨ ـ ١١٣)، عقائد الثلاث وسبعين فرقة لليمني (١/ ٢٧٥)، منهاج السنة (٢/ ٣٧٩)، الفتاوى (٣/ ١٠٣).

(٢) الفتاوى (٨/ ٩٢ ـ ٩٤).

المأمور بذلك الله أو العبد؟ فهو إما يكونُ فاسدَ العقل مجنوناً، وإما فاسد الدين ملحداً زنديقاً، وكون الله خالقاً للعبد ولفعله: لا يمنع أن يكون العبدُ هو المأمورَ المنهيَّ، فإنه لم يقل أحد قط: إن الله هو الذي يركع ويسجد، ويطوف ويرمي الجمار، ويصوم شهر رمضان؛ بل جميع الأمة متفقون على أن العبد هو الراكع الساجد، الصائم العابد؛ لا نزاع في ذلك بين أهل السنة والقدرية.

الثاني: أن قوله: إن العبد ـ وإن كان حيَّاً ـ فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل، ليس بصحيح؛ فإن الميت ليس له إحساس ولا إرادة لِمَا يقوم به من الحركة، ولا قدرة على ذلك، ولا يوصف بأنه يحب الفعل أو يبغضه، أو يريده أو يكرهه، ولا أنه يركع ويسجد ويصوم، ويحج ويجاهد العدوَّ.

وقول من قال بهذا: لا يُحمَد الميت على فعل الغاسل، ولا يُذمُّ ولا يُثابُ ولا يُعاقبُ، وأما العبد فإن الله جعله حياً مريداً قادراً فاعلاً؛ وهو يصوم ويصلي ويحج ويقتل ويزني باختياره ومشيئته، والله خالق ذاته وصفاته وأفعاله؛ فله مشيئة، والله خالق مشيئته كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]، وله قدرة، والله خالق قدرته، وهو مصلٍّ صائم حاج معتمر، والله خالقه وخالق أفعاله؛ فتمثيله بالميت تمثيل باطل.

الثالث: أن يقال: إن كان كالميت مع الغاسل، فيكون الغاسلُ هو المكلف، فيكون الله هو المكلف، فيلزم أن يكون الرب هو المكلف.

الرابع: أن عقلاء بني آدم متفقون على ما فطرهم الله عليه، من أن العبد الحيَّ يؤمر ويُنهى، ويُحمد ويُذَمُّ على أفعاله الاختيارية، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه: لم يُقبلْ ذلك منه؛ فلو ظلم ظالم لغيره: لم يقبل أحدٌ منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر، وأما

الميت فليس في العقلاء من يذمُّه ولا يأمره ولا ينهاه، فكيف يقاس هذا بهذا؟

وأما قول القائل: فإن الله لو لم يُقَوِّ العبد على التكليف: لما قدَر على ذلك، فكلام صحيح، لكن ليس فيه ما ينافي أن يكون مكلفاً مأموراً منهياً مصلياً صائماً، قاتلاً زانياً.

وأما قوله: فالفعل لله حقيقة وللعبد مجاز؛ فهذا كلام باطل، بل العبد هو المصلي الصائم الحاج المعتمر المؤمن، وهو الكافر الفاجر القاتل الزاني السارق حقيقةً، والله تعالى لا يُوصَفُ بشيء من هذه الصفات، بل هو منزَّه عن ذلك، لكنه هو الذي جعل العبد فاعلاً لهذه الأفعال، فهذه مخلوقاته ومفعولاته حقيقة، وهي فعل العبد أيضاً حقيقة»اهـ[1].

سابعاً: دين الاتحادية يقوم على أصلين، ثانيهما: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

وقد بيّن الشيخ ذلك بقوله لَمَّا سئل عن كلمات من كلام الاتحادية: «الحمد لله رب العالمين، هذه الأقوال المذكورة تشتمل على أصلين باطلين مخالفين لدين المسلمين واليهود والنصارى، مع مخالفتهما للمنقول والمعقول:

أحدهما: الحلول والاتحاد، وما يقارب ذلك، كالقول بوحدة الوجود؛ كالذين يقولون: إن الوجود واحد..

والأصل الثاني: الاحتجاج بالقدر على المعاصي، وعلى ترك المأمور وفعل المحظور، فإن القدر يجب الإيمان به، ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده.

---

(١) الفتاوى (٢/ ١١١ ـ ١١٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٣/ ٢١٢).

والناس الذين ضلُّوا في القدر على ثلاثة أصناف:

قوم: آمنوا بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وكذبوا بالقدر، وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه الله كالمعتزلة ونحوهم.

وقوم: آمنوا بالقضاء والقدر، ووافقوا أهل السنة والجماعة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالقُ كل شيء وربُّه ومليكُه، لكن عارضوا هذا بالأمر والنهي، وسمَّوْا هذا حقيقةً، وجعلوا ذلك معارضاً للشريعة، وفيهم من يقول: إن مشاهدة القدر تنفي المَلام والعقاب، وإن العارف يستوي عنده هذا وهذا!.

وهم في ذلك متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق والوجد، فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم، ولا يسوون بين العالم والجاهل، والقادر والعاجز، ولا بين الطيب والخبيث، ولا بين العادل والظالم، بل يفرقون بينهما، ويفرقون أيضاً بموجب: أهوائهم وأغراضهم، لا بموجب الأمر والنهي، ولا يقفون لا مع القدر ولا مع الأمر؛ بل كما قال بعض العلماء: «أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري! أيّ مذهب يوافق هواك تمذهبت به».

ولا يوجد أحد يحتج بالقدر في ترك الواجب وفعل المحرم: إلا وهو متناقض؛ لا يجعله حجةً في مخالفة هواه، بل يعادي من آذاه وإن كان محقاً، ويحب من وافقه على غرضه وإن كان عدواً لله، فيكون حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته: بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجده، لا بحسب أمر الله ونهيه ومحبته وبغضه، وولايته وعداوته؛ إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجةً لكل أحد؛ فإن هذا مستلزم للفساد الذي لا صلاح معه، والشر الذي لا خير فيه؛ إذ لو جاز أن يحتجَّ كلُّ أحد بالقدر لَمَا عوقب مُعتَدٍ، ولا اقتُصَّ من ظالم باغ، ولا أُخذ لمظلوم حقُّه من ظالمه، ولَفعَل كلُّ أحد ما يشتهيه من غير معارض يعارضه فيه، وهذا فيه من الفساد ما لا يعلمه إلا ربُّ العباد.

فمن المعلوم بالضرورة: أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد وإلى ما يضرهم، والله قد بعث رسوله ﷺ يأمر المؤمنين بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فمن لم يتبع شرع الله ودينه: تبع ضده من الأهواء والبدع، وكان احتجاجُه بالقدر من الجدل بالباطل ليدحض به الحق، لا من باب الاعتماد عليه، ولزمه أن يجعل كلَّ من جرت عليه المقادير من أهل المعاذير. وإن قال: أنا أعذر بالقدر من شهده، وعلم أن الله خالق فعله ومحركه لا من غاب عن هذا الشهود أو كان من أهل الجحود، قيل له: فيقال لك: وشهود هذا وجحود هذا من القدر؟ فالقدر متناول لشهود هذا وجحود هذا؟ فإن كان هذا موجباً للفرق مع شمول القدر لهما: فقد جعلت بعض الناس محموداً وبعضهم مذموماً مع شمول القدر لهما؟ وهذا رجوع إلى الفرق واعتصام بالأمر والنهي، وحينئذ فقد نقضت أصلك وتناقضت فيه! وهذا لازمٌ لكلِّ من دخل معك فيه.

ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه: فهو قول باطل وبدعة مضلة، فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذراً في ترك الواجبات وفعل المحظورات؟ بل الإيمان بالقدر حسنةٌ من الحسنات، وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات، فلو أشرك مشرك بالله وكذَّب رسوله ناظراً إلى أن ذلك مقدّرٌ عليه: لم يكن ذلك غافراً لتكذيبه، ولا مانعاً من تعذيبه؛ فإن الله لا يغفر أن يُشرك به، سواء كان المشرك مقراً بالقدر وناظراً إليه، أو مكذباً به، أو غافلاً عنه.

فقد قال إبليس: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، فأصرَّ واحتج بالقدر، فكان ذلك زيادةً في كفره، وسبباً لمزيد عذابه.

وأما آدم ﷺ فإنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

فمن استغفر وتاب كان آدمياً سعيداً، ومن أصرَّ واحتج بالقدر كان إبليسياً شقياً، وقد قال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

وهذا الموضع ضلَّ فيه كثير من الخائضين في الحقائق: فإنهم يسلكون أنواعاً من الحقائق التي يجدونها ويذوقونها، ويحتجُّون بالقدر فيما خالفوا فيه الأمر، فيضاهؤون المشركين الذين كانوا يبتدعون ديناً لم يشرعْه الله، ويحتجون بالقدر على مخالفة أمر الله.

والصنف الثالث ـ من الضالِّين في القدر ـ: من خاصم الربَّ في جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهي ـ كما يذكرون ذلك على لسان إبليس ـ وهؤلاء خصماءُ الله وأعداؤه. وأما أهل الإيمان: فيؤمنون بالقضاء والقدر والأمر والنهي، ويفعلون المأمور، ويتركون المحظور، ويصبرون على المقدور»اهـ[1].

ثامناً: الاتحادية يقولون: إن الله يأمر العبد ظاهراً بطاعته، فإن وقعت من العبد معصية، عرفنا أن الله أمره بها في الباطن، وأجبره عليها!

وقد بيَّن الشيخ ذلك، وردَّ عليه تفصيلاً أثناء جوابه عن كلمات من كلام الاتحادية سئل عنها، ومنها:

«**قال ابن إسرائيل**: الأمر أمران: أمر بواسطة وأمر بغير واسطة؛ فالأمر الذي بالوسائط ردَّه من شاء الله، وقبِلَه من شاء الله، والأمر الذي بغير واسطة لا يمكن ردُّه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٩٤، ٣٠٠ ـ ٣٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٦/ ٢٤٦)، المنهاج (٣/ ٥٨).

فقال له فقير: إن الله قال لآدم بلا واسطة: لا تقرب الشجرة؛ فقرب وأكل!.

فقال: صدقت! وذلك أن آدم إنسان كامل؛ ولذلك قال شيخنا علي الحريري: آدم صفيُّ الله تعالى، كان توحيده ظاهراً وباطناً، فكان قوله لآدم: لا تقرب الشجرة؛ ظاهراً، وكان أمره: كل، باطناً؛ فأكل، فكذلك قوله تعالى، وإبليس كان توحيده ظاهراً فأمر بالسجود لآدم، فرآه غيراً فلم يسجد، فغير الله عليه، وقال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨].

وقال شخص لسيدي: يا سيدي حسن، إذا كان الله يقول لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] أيشٍ نكون نحن؟ فقال سيدي له: ليس الأمر كما تقول أو تظن، فقوله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ عينُ الإثبات للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]..»اهـ(١).

ثم بيّن الشيخ الردَّ مفصلاً، فقال: «وأما ما ذكره من قول ابن إسرائيل: الأمر أمران: أمر بواسطة وأمر بغير واسطة.. إلى آخره، فمضمونه أن الأمر الذي بواسطة هو الأمر الشرعي الديني، والذي بلا واسطة هو الأمر القَدَري الكوني، وجعْلُه أحدَ الأمرين بواسطة، والآخر بغير واسطة كلام باطل؛ فإن الأمر الديني يكون بواسطة وبغير واسطة، فإن الله كلّم موسى وأمره بلا واسطة، وكذلك كلّم محمداً ﷺ وأمره ليلة المعراج، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة، وهي أوامرُ دينيةٌ شرعيةٌ.

وأما الأمر الكوني: فقول القائل إنه واسطة: خطأ؛ بل الله تعالى خلق الأشياء بعضها ببعض، وأمر التكوين ليس هو خطاباً يسمعه المكوَّن

(١) الفتاوى (٢/ ٢٨٩).

المخلوق، فإن هذا ممتنع؛ ولهذا قيل: إن هذا خطاباً بعد وجوده، لم يكن قد كُوِّن بكن؛ بل كان قد كوّن قبل الخطاب، وإن كان خطاباً قبل وجوده، فخطاب المعدوم ممتنع، وقد قيل في جواب هذا: إنه خطاب لمعلوم لحضوره في العلم، وإن كان معدوماً في العين.

وأما ما ذكره الفقير، فهو سؤال وارد بلا ريب.

وأما ما ذكره عن شيخه: من أن آدم كان توحيده ظاهراً وباطناً، فكان قوله: لا تقرب؛ ظاهراً، وكان أمره بِ: كُل؛ باطناً، فيقال:

إن أريد بكونه قال: كل؛ باطناً: أنه أمره بذلك في الباطن أمرَ تشريع ودين؛ فهذا كذب وكفر.

وإن كان أراد: أنه خلق ذلك وقدَّره وكوَّنه: فهذا قدْرٌ مشترك بين آدم وبين سائر المخلوقات، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن؛ فيكون.

وإن قيل: إن آدم شهد الأمر الكونيَّ القدريَّ، وكان مطيعاً لله بامتثاله له، كما يقول هؤلاء: إن العارف الشاهد للقدر يسقط عنه الملام. فهذا، مع أنه معلوم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام، فهو كفر باتفاق المسلمين.

فيقال: الأمر الكوني يكون موجوداً قبل وجود المكوَّن؛ لا يسمعه العبد وليس امتثاله مقدوراً له؛ بل الرب هو الذي يخلق ما كوَّنه بمشيئته وقدرته، والله تعالى ليس له شريك في الخلق والتكوين، والعبد وإن كان فاعلاً بمشيئته وقدرته، والله خالق كل ذلك، فتكوين الله للعبد ليس هو أمراً لعبدٍ موجود في الخارج يمكنه الامتثال، وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله: خلقه بمشيئته وقدرته و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكل ما كان من المكونات، فهو داخل في هذا الأمر، وأكل آدم من الشجرة وغير ذلك من الحوادث: داخل تحت هذا

كدخول آدم؛ فنفس أكل آدم هو الداخل تحت هذا الأمر، كما دخل آدم.

فقول القائل: إنه قال لآدم في الباطن: كل، مثل قوله: إنه قال للكافر: اكفُر، وللفاسق: أفسُق، والله لا يأمر بالفحشاء ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يوجد منه خطاب باطن ولا ظاهر للكفار والفساق والعُصاة: بفعل الكفر والفسوق والعصيان، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته وقدرته وخلقه وأمره الكوني؛ فالأمر الكوني ليس هو أمراً للعبد أن يفعل ذلك الأمر؛ بل هو أمر تكوين لذلك الفعل في العبد، أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال، فهو سبحانه الذي خلق الإنسان هلوعاً ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠ - ٢١]، وهو الذي جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التي خلقهم عليها، وأمرُه لهم بذلك: أمرُ تكوين، بمعنى أنه قال لهم: كونوا كذلك، فيكونون كذلك، كما قال للجماد: كن، فيكون.

فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماد والحيوان، وهو لا يفتقر إلى علم المأمور ولا إرادته ولا قدرته، لكن العبد قد يعلم ما جرى به القدر في أحواله، كما يعلم ما جرى به القدر في أحوال غيره وليس في ذلك علم منه بأن الله أمره في الباطن بخلاف ما أمره في الظاهر، بل أمره بالطاعة باطناً وظاهراً، ونهاه عن المعصية باطناً وظاهراً، وقدّر ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطناً وظاهراً، وخلق العبد وجميع أعماله باطناً وظاهراً، وكوّن ذلك بقوله: ﴿كُن﴾؛ باطناً وظاهراً، وليس في القدر حجةٌ لابن آدم ولا عذرٌ، بل القدر يؤمَن به ولا يُحتَجُّ به.

والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين، متناقض؛ فإن القدر إن كان حجةً وعذراً: لزم أن لا يُلامَ أحدٌ ولا يُعاقبَ ولا يُقتَصَّ منه، وحينئذ

فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظُلم في نفسه وماله وعِرضه وحرمته أن ينتصر من الظالم، ولا يغضب عليه ولا يذمه، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة، لا يمكن أحداً[1] أن يفعله؛ فهو ممتنع طبعاً، محرم شرعاً. ولو كان القدر حجة وعذراً: لم يكن إبليسُ ملوماً ولا معاقَباً، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزاً، ولا إقامة الحدود جائزاً، ولا قطع السارق، ولا جلد الزاني ولا رجمه، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد، بوجه من الوجوه.

ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم: لم تذهب إليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يَطْردون قولهم؛ فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته، ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعةً واحدةً إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع؛ فالشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، لكن الشرائع تتنوع:

فتارة: تكون منزَّلةً من عند الله كما جاءت به الرسل، وتارة لا تكون كذلك. ثم المُنَزَّلَةُ: تارة تبدل وتغير ـ كما غيَّر أهلُ الكتاب شرائعهم ـ وتارة لا تغير ولا تبدل، وتارة يدخل النسخ في بعضها، وتارة لا يدخل. وأما القدر: فإنه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه، فإذا فعل فعلاً محرماً بمجرد هواه وذوقه ووجده من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القدر، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ

---

(١) في المطبوع: لا يمكن أحدٌ أن يفعله..، وهو خطأ.

ﭐلۡبَٰلِغَةُ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩]، فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين، وإنما يتبعون الظن.

والقوم[١] لم يكونوا ممن يُسوِّغ لكل أحد الاحتجاج بالقدر؛ فإنه لو خرب أحدٌ الكعبة، أو شتم إبراهيم الخليل، أو طعن في دينهم، لعادَوْه وآذَوْه، كيف وقد عادَوْا النبي ﷺ على ما جاء به من الدين، وما فعله هو أيضاً من المقدور، فلو كان الاحتجاجُ بالقدر حجةً لكان للنبي ﷺ وأصحابه؛ فإن كان كل ما يحدث في الوجود فهو مقدَّر، فالمحق والمبطل يشتركان في الاحتجاج بالقدر إن كان الاحتجاج به صحيحاً، ولكن كانوا يتعمدون[٢] على ما يعتقدونه من جنس دينهم، وهم في ذلك يتبعون الظن، ليس لهم به علم بل هم يخرصون»اهـ[٣].

تاسعاً: مقام عدم التفريق بين الحسنة والسيئة، هو عند الصوفية من أعلى المقامات:

قال الشيخ: «وهؤلاء قد يشهدون القدر أولاً، وهي الحقيقة الكونية، ويظنون أن غاية العارف أن يشهد القدر ويفنى عن هذا الشهود، وذلك المشهد لا تمييز فيه بين المأمور والمحظور، ومحبوبات الله ومكروهاته وأوليائه وأعدائه، **وقد يقول أحدهم**: العارف شهد أولاً الطاعة والمعصية، ثم شهد طاعة بلا معصية - يريد بذلك طاعة القدر - كقول بعض شيوخهم: «أنا كافر بربٍّ يُعصَى!»، وقيل له عن بعض

---

(١) يعني المحتجين بالقدر الذين ذكرهم الله تعالى وردٌّ عليهم في الآية السابقة، وهم كفار قريش.
انظر: تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾، في: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٠)، تفسير القرطبي (٧/ ١١٤)، تفسير البغوي (١/ ٢٠١)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٥٥).
(٢) كذا في المطبوع: يتعمدون، ولعله خطأ والصواب: يعتمدون.
(٣) الفتاوى (٢/ ٣٢٠ - ٣٢٨).

الظالمين: هذا ماله حرام، فقال: إن كان عصى الأمر فقد أطاع الإرادة!.

ثم ينتقلون إلى (المشهد الثالث): لا طاعة ولا معصية، وهو مشهد أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود، وهذا غاية إلحاد المبتدعة ـ جهمية الصوفية ـ كما أن القرمطة آخر إلحاد الشيعة، وكلا الإلحادين يتقاربان، وفيها من الكفر ما ليس في دين اليهود والنصارى ومشركي العرب، والله أعلم»اهـ(١).

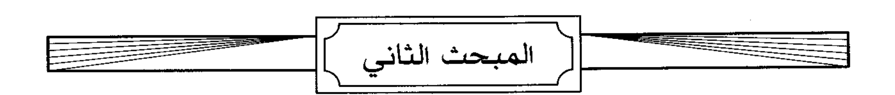
وبما سبق يتبين لنا أن انحراف الصوفية في القضاء والقدر يتلخص في:

أن المتصوفة يعتقدون أن كل ما يقع في هذا الكون يكون بإرادة الله تعالى ومشيئته، وما دام الأمر كذلك فكل ما يقع في هذا الكون فهو مرضي لله ﷻ ومحبوب عنده، بمعنى أنه لا يوجد في هذا الكون كله مما يقع فيه محبوب لله ومبغوض عنده بل الكل واقع بقدره، ولذا فهو محبوب عنده؛ سواءً كان هذا الواقع طاعة أو معصية، خيراً أو شراً؛ لأن كل ذلك يقع بقضاء الله تعالى وقدره، وهذا الاعتقاد أدّى بهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي، وإبطال الجهاد في سبيل الله، وغير ذلك، وقد عرضنا ما ردَّ به شيخ الإسلام عليهم، بالنصوص والأدلة الشرعية.

❖ ❖ ❖

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٣٤٧، ١١/ ٢٤٤)، الاقتضاء (٢/ ٨٥٩)، الاستغاثة (١/ ٢٣٥)، الفرقان (ص٧٧).



قولهم في الاستطاعة

الاستطاعة هي القدرة على فعل الشيء، والله تعالى قد أعطى كلَّ عبد من الاستطاعة ما يقدر به على فعل الحسنات والسيئات.

ولا يصح لأحد أن يترك فعل الطاعة ويحتج بأن الله تعالى لم يعطِه الاستطاعةَ على فعلها، بل الله تعالى لم يكلِّف العباد إلا ما يطيقونه ويستطيعونه، وهم يستطيعون أن يفعلوا فوق ما كلّفهم به سبحانه، ولكنه لفضله ورحمته خفَّف عليهم(١).

والصوفية وقع عند فريق منهم خلل في مسألة الاستطاعة على فعل الطاعة أو ترك المعصية، بناءً على مذهبهم الباطل في القدر، وقد بيّن شيخ الإسلام مذهبهم في ذلك، وردّ عليه، وأوضح مذهب أهل السنة بالأدلة الشرعية.

ويمكن بيان ما حكاه شيخ الإسلام من مذهب المتصوفة في الاستطاعة، فيما يلي:

ذكر الشيخ في جواب سؤال حول القدرة والاستطاعة، ومسألة تكليف ما لا يطاق: أن الذي عليه محققو الصوفية هو ما عليه أهل السنة، من أن الاستطاعة لا يجب أن تقارن الفعل:

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٨٨، ٥٠٤، ط. المكتب الإسلامي)، شفاء العليل لابن القيم (ص١٦٢)، تعريفات الجرجاني (ص٣٥)، تعاريف المناوي (٢/ ٧٥).

قال: «وأما قول السائل: هل ذلك من باب تكليف ما لا يطاق ـ والحال هذه ـ فيقال:

هذه العبارة، وإن كثر تنازع الناس فيها نفياً وإثباتاً، فينبغي أن يعرف أن الخلاف المحقق فيها نوعان:

أحدهما: ما اتفق الناس على جوازه ووقوعه، وإنما تنازعوا في إطلاق القول عليه بأنه لا يطاق.

والثاني: ما اتفقوا على أنه لا يطاق، لكن تنازعوا في جواز الأمر به ولم يتنازعوا في عدم وقوعه، فأما أن يكون أمر اتفق أهل العلم والإيمان على أنه لا يطاق وتنازعوا في وقوع الأمر به فليس كذلك.

فالنوع الأول: كتنازع المتكلمين من مُثبتةِ القدر ونُفاتِه في استطاعة العبد، وهي قدرته وطاقته، هل يجب أن تكون مع الفعل لا قبله؟ أو يجب أن تكون متقدمةً على الفعل؟ أو يجب أن تكون معه وإن كانت متقدمةً عليه؟.

فمن قال بالأول لزمه أن يكون كلُّ عبد لم يفعل ما أُمر به قد كلف ما لا يطيقه إذا لم يكن عنده قدرة إلا مع الفعل، ولهذا كان **الصواب الذي عليه محققو المتكلمين وأهل الفقه والحديث والتصوف** وغيرهم ما دل عليه القرآن وهو:

أن الاستطاعة التي هي مناط الأمر والنهي ـ وهي المصححة للفعل ـ لا يجب أن تقارن الفعل، وأما الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل، فهي مقارنة له.

فالأولى: كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه: **(صلّ قائماً؛ فإن لم**

تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب)[١].

ومعلوم أن الحج والصلاة تجب على المستطيع، سواء فعل أو لم يفعل، فعلم أن هذه الاستطاعة لا تجب أن تكون مع الفعل.

والثانية: كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠٠ ـ ١٠١]، على قول من يفسر الاستطاعة بهذه، وأما على تفسير السلف والجمهور؛ فالمراد بعدم الاستطاعة: مشقَّةُ ذلك عليهم وصعوبته على نفوسهم، فنفوسهم لا تستطع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه، وهذه حال من صده هواه ورأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزَّلة واتباعها، فقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك[٢]، وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له»اهـ[٣].

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب: أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب، ١/ ٣٧٦/ ١٠٦٦)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب في صلاة القاعد، ١/ ٢٥٠/ ٩٥٢)، والترمذي (كتاب: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، ٢/ ٢٠٨/ ٣٧٢)، من حديث: عمران بن الحصين رضي الله عنه.

(٢) قال الإمام البغوي في تفسير هذه الآية: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: سمع القبول والإيمان، لغلبة الشقاوة عليهم، وقيل: لا يعقلون، وقيل: كانوا لا يستطيعون، أي: لا يقدرون أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يتلوه عليهم لشدة عداوتهم له، كقول الرجل: لا أستطيع أن أسمع من فلان شيئاً، لعداوته.اهـ. تفسير البغوي (١/ ٢٠٩).
انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٤)، فتح القدير (٣/ ٤٥٠)، تفسير القرطبي (١١/ ٦٢).

(٣) الفتاوى (٣/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

وقال الشيخ: «فإن الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنةً له، ولا تصلح إلا لمقدورها، كما ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، وفي قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١].

وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي: فتلك قد يقترن بها الفعل، وقد لا يقترن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين ﷺ: **(صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب)**[١].

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلى أربعة أقسام:

قوم: ينظرون إلى جانب الأمر والنهي، والعبادة والطاعة، شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أُمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، **وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة**، فهم ـ مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره ـ يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان[٢]، لأن الاستعانة بالله والتوكل

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٤٦).

(٢) يؤيد هذه ما ذكره أبو بكر الكلاباذي في التعرف (ص٨٥): «الباب الثلاثون: قولهم في المكاسب: أجمعوا على إباحة المكاسب من الحِرَف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة.. ويشتغل العبد بها على حسب ما يشتغل في إتيان ما ندب إليه من النوافل، لا على أن بها تجلب الأرزاق وتُجَرُّ المنافع.. والاشتغال بوظائف الحق أولى وأحق، والإعراض عنه عند صحة التوكل والثقة بالله أوجب، وقال سهل: لا يصح الكسب لأهل التوكل إلا لاتباع السنة، ولا لغيرهم إلا للتعاون»اهـ.

وانظر: الغنية للجيلاني (ص٩٠٠)، جامع الأصول للنقشبندي (ص٢٩٧)، وكتاب الحث على التجارة والصناعة والعمل، والإنكار على من يدعي التوكل =

عليه واللَّجَأ إليه والدعاء له، هي التي تقوِّي العبد وتُيسِّر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سَرَّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله[١].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: **(أن رسول الله ﷺ صفته في التوراة: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكلَ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّابٍ بالأسواق، ولا يَجزي بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يجزي بالسيئةِ الحسنةَ، ويعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيمَ به المِلَّةَ العوجاء، فأفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلفاً، بأن يقولوا: لا إله إلا الله)**[٢].

ولهذا رُوي أن حَمَلَةَ العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله[٣]. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنها:

= في ترك العمل لأبي بكر الخلال، وكتاب الاكتساب في الرزق المستطاب لمحمد بن الحسن الشيباني.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل برقم (٩) عن ابن عباس وكذا في كتاب مكارم الأخلاق برقم (٥) وزاد فيه: ومن سرَّه أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يدي الله أوثق منه بما في يديه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب البيوع، باب كراهية الصخب في السوق، ٢/ ٧٤٧/ ح٢٠١٨)، ورواه في الأدب المفرد (باب الانبساط إلى الناس، ١/ ٨٤/ ٢٤٧)، من حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، والدارمي (كتاب: أبواب متفرقة في صفات النبي ﷺ والعلم ونحوها، باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه، ١/ ٩/ ٦)، من حديث: عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولم أقف عليه في صحيح مسلم.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٥٥/ ح٣٣٧)، والدارمي في الرد على بشر المريسي (ص٨٥) عن وهب بن منبه، وقال محقق كتاب العظمة رضاء الله بن محمد المباركفوري: إسناده فيه: أحمد بن محمد بن غالب الباهلي، وهو متهم بالوضع، وإبراهيم بن العلاء، وهو منكر الحديث.اهـ.

(كنز من كنوز الجنة)[١]، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وفي (صحيح البخاري) عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: «قالها إبراهيم الخليل حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم»[٢].

وقسم ثانٍ: يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه، ويستعينون به، لكن على أهوائهم وأذواقهم؛ غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته، **وهذا حال كثير من المتفقِّرة والمتصوفة**، ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التي يتصرَّفون بها في الوجود، ولا يقصدون ما يُرضي الربَّ ويحبُّه، وكثيراً ما يغلطون: فيظنون أن معصيته هي مرضاته، فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقةً، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية، التي هي تحوي مرضاةَ الرب ومحبتَه وأمره ونهيه، ظاهراً وباطناً، وهؤلاء كثيراً ما يُسلَبون أحوالَهم، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام؛ لأن العاقبة للتقوى.

ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين؛ فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه:

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، ٦/ ٢٦٩٠/ ٦٩٥٢)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ٤/٢٠٧٨/ ٢٧٠٤) من حديث: أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٥٩٦).

تارة: في بدعة يظنونها شِرعةً.

وتارة: في الاحتجاج بالقدر على الأمر.

والله تعالى لمَّا ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف، ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شِرعةً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرِّمْه الله، وأن شرعوا ما لم يشرَعْه الله، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ونظيرها في النحل(١) ويس(٢) والزخرف(٣)، وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا»اهـ(٤).

هذا ما وقفت عليه مما حكاه شيخ الإسلام عن الصوفية في مسألة الاستطاعة، وقد بيّن الشيخ مذهب المتصوفة ومذهب أهل السنة، وإن كان القولُ الذي أورده الشيخ هو قولَ صالحي المتصوفة، وقولهم في الاستطاعة لا يكاد يفترق عن قول أهل السنة والجماعة.

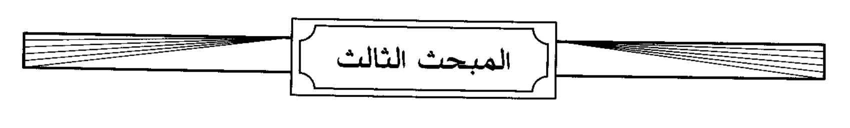


(١) يشير إلى قوله تعالى [النحل: ٣٥]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

(٢) يشير إلى قوله تعالى [يس: ٤٧]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

(٣) يشير إلى قوله تعالى [الزخرف: ١٩ ـ ٢٠]: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

(٤) الفتاوى (١٠/ ٣٢ ـ ٣٦).


المبحث الثالث

الفناء

الفَناء في اللغة: نقيض البقاء، وتفانى القوم؛ أي: أفنى بعضهم بعضاً بالقتل في الحرب[١].

أما معنى الفناء عند المتصوفة، فقد تعددت عباراتهم في تعريفه:

فقال بعضهم: إن الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة.

وقيل: الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية.

وقيل: الفناء عدم شعور الشخص بنفسه أو بلوازم نفسه[٢].

وقال الإمام ابن القيم في تعريف الفناء عند المتصوفة: «الفناء الذي يشير إليه القوم، ويعملون عليه:

أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل.

ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضاً، فلا يبقى له صورة ولا رسم.

ثم يغيب شهوده أيضاً؛ فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذي

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥/ ١٦٤، مادة: فني).

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص٥٦٥)، رسالة في اصطلاحات الصوفية لابن عربي (ص١٣٩ ط. الدار التونسية للنشر)، معجم اصطلاحات الصوفية (ص٢٠٧)، المعجم الفلسفي لجميل صليبا (٢/ ١٦٧).

يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته: أن يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل»اهـ[(١)].

والفناء من المقامات العالية عند الصوفية، ومن بلغ منزلة الفناء منهم ارتفع شأنه عندهم، وصار من الأولياء المقرَّبين.

وقد بيّن شيخ الإسلام، مذهب الصوفية في الفناء، وما وقعوا فيه من خلل في تصورهم له، ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

أولاً: بيَّن أن الفناء نوعان:

أ ـ الفناء البدعي:

وهو المراد بالفناء عند الصوفية، وهو: أن لا يفرقَ العارف بين الحسن والقبيح، ولا بين محبوب الرب تعالى ومبغوضه، بل الكل عنده سواء، ويتمدَّحون، بذلك ويجعلونها من المقامات العالية:

قال الشيخ: «والمقصود هنا: أن الفرق بين الأفعال الحسنة التي يحصل لصاحبها بها لذة، وبين السيئة التي يحصل له بها ألم، أمرٌ حسيٌّ يعرفه جميع الحيوان، فمن قال من المدعين للحقيقة القدرية والفناء في توحيد الربوبية والاصطلام: إنه يبقى في عين الجميع لا يفرق بين ما يؤلم، أو ما يلذ؛ كان هذا مما يُعلم كذبُه فيه إن كان يفهم ما يقول، وإلا كان ضالًّا يتكلم بما لا يعرف حقيقته، وهو الغالب على من يتكلم في هذا؛ فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد ـ مشهد الفناء في توحيد الربوبية ـ فلا يشهد فرقاً ما دام في هذا المشهد، وقد يغيب عنه الإحساس بما يوجب الفرق مدة من الزمان، فيظن هذا الفناء مقاماً محموداً، ويجعله إما غايةً وإما لازماً للسالكين، وهذا غلط»اهـ[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٤٨، فصل: الفناء).

(٢) الفتاوى (٨/ ٣١٠ـ٣١١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٦٣).

ب ـ الفناء الشرعي:

وهو الذي يقع للمؤمنين، وقد بينه شيخ الإسلام بقوله: «فصل: وكلا الطائفتين: **الذين يسلكون إلى الله محضَ الإرادة والمحبة والدُّنُو والقرب منه، من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزَّلَيْن من عند الله،** الذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية، ولا يصِلون إلى الفرق الثاني، ويقولون: إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، ويجعلون هذا غايةَ السلوك.

والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه، ويحبونه ويكرهونه، ويأمرون به وينهون عنه، ولكن بإرادتهم ومحبتهم وهواهم، لا بالكتاب المنزل من عند الله.

كلا الطائفتين متبعٌ لهواه بغير هدى من الله، وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله.

فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي: أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عمَّا نهى الله عنه، وأنك لا ترجو إلا اللهَ، ولا تخاف إلا اللهَ، ولا تسأل إلا اللهَ، وهذا ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين.

والفناء في هذا هو الفناء المأمور به؛ الذي جاءت به الرسل، وهو: أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه، فيكون مع الحق بلا خلق، كما قال الشيخ عبد القادر: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس[(١)].

---

(١) في فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلاني: «كن مع الله ﷻ كأنْ لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله ﷻ بلا خلق وجدت، وعن الكل =

وتحقيق الشهادة بأن محمداً رسول الله، يوجب: أن تكون طاعته طاعةَ الله، وإرضاؤه إرضاءَ الله، ودينُ الله ما أَمَر به، فالحلال ما حلَّله، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه، ولهذا طالب الله المدعين لمحبته بمتابعته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وضمِن لمن اتبعه أن الله يحبه بقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وصاحب هذه المتابعة لا يبقى مريداً إلا ما أحبه الله ورسوله، ولا كارهاً إلا لِمَا كرهه الله ورسوله، وهذا هو الذي يحبه الحق، كما قال: (**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت، وأكره مساءته ولا بد له منه**)[١].

فهذا محبوب الحق، ومن اتبع الرسول فهو محبوب الحق، وهو المتقرِّب إلى الله بما دعا إليه الرسول من فرض ونفل، ومعلوم أن من كان هكذا، فهو يحب طاعة الله ورسوله، ويبغض معصية الله ورسوله، فإن الفرائض والنوافل كلَّها من العبادات التي يحبها الله ورسوله، ليس فيها كفر ولا فسوق، والرب تعالى أحبه لما قام بمحبوب الحق؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فلما لم يزل متقرباً إلى الحق بما يحبه من النوافل بعد الفرائض: أحبه الحق؛ فإنه استفرغ وُسعه في محبوب الحق؛ فصار الحق يحبه المحبة التامة التي لا يصل إليها من هو دونه في التقرب إلى الحق بمحبوباته، حتى صار يعلم بالحق ويعمل بالحق، فصار به

= فنيت، وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت»اهـ (ص١١٦، ط. دار الألباب، ضبطه: محمد سالم بواب).

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٣٥١).

يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي»اهـ[١].

ثم بيّن الشيخ ـ بعد هذا الكلام مباشرة ـ خطأ القائلين بالفناء المبتدَع.

فقال: «وأما الذي لا يستحسن حسنةً، ولا يستقبح سيئةً: فهذا لم تبق عنده الأمور نوعان: محبوب للحق، ومكروه، بل كلُّ مخلوق فهو عنده محبوب للحق كما أنه مراد.

فإن هؤلاء أصل قولهم: هو قول جهم بن صفوان من القدرية، فهم من غلاة الجهمية الجبرية[٢] في القدر، وإن كانوا في الصفات يُكَفِّرون الجهمية نفاةَ الصفات. . .

وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحُسن والقُبح إلا من حيث موافقتها للإنسان ومخالفة بعضها له، فما وافق مراده ومحبوبه كان حسناً عنده، وما خالف ذلك كان قبيحاً عنده، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله، ولا سيئة يكرهها، إلا بمعنى أن الحسنة هي ما قُرن بها لذة صاحبها، والسيئة ما قُرن بها ألم

---

(١) الفتاوى (٨/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٣٠٨، ٣٣١، ١٠، ٣٥٢/ ٤٤٨، ٢١/ ٣٠٧)، الصفدية (١/ ٣٣٩)، المنهاج (٥/ ٣٦٨).

(٢) الجبرية: هم الغلاة في إثبات القدر، الذين يسلبون الإنسان حرية الاختيار، ويجعلونه مجبوراً على فعل نفسه، فالعبد عندهم كالريشة في مهب الريح، وكحركة الآلة في يد الرجل، وهذا مذهب الجهمية، ومن وافقهم من الأشاعرة في مسألة «الكسب».

انظر: الفتاوى (٨/ ٢٥٦ ـ ٢٦١، ١٣/ ٣٦ ـ ٣٧)، الملل والنحل (١/ ٩٨)، لمع الأدلة للجويني (ص١٢٠ ـ ١٢١)، مقالات الإسلاميين (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨)، التمهيد للباقلاني (ص٣١٧ ـ ٣٦٨)، شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص٢٩٩).

صاحبها، من غير فرقٍ يعود إليه ولا إلى الأفعال أصلاً، ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسَناً ولا قَبيحاً، لا بمعنى الملائم للطبع والمنافي له.

والحُسْن والقُبْح الشرعي هو: ما دلّ صاحبه على أنه قد يحصل لمن فعله لذة، أو حصول ألم له، ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء حتى الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، وينهى عن كل شيء حتى عن الإيمان والتوحيد، ويجوز نسخ كل ما أُمر به بكل ما نُهي عنه، ولم يبق عندهم في الوجود خيرٌ ولا شرٌّ، ولا حسنٌ ولا قبيحٌ، إلا بهذا الاعتبار، فما في الوجود ضُرٌّ ولا نفع، والنفع والضر أمران إضافيان؛ فربما نفع هذا ما ضر هذا، كما يقال:

مصائب قوم عند قوم فوائد[1]

فلما كان هذا حقيقةَ قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه، صاروا حزبين:

حزباً من أهل الكلام والرأي، أقروا بالفرق الطبيعي، وقالوا: ما ثَمَّ فرقٌ إلا الفرقُ الطبيعي، ليس هنا فرق يرجع إلى الله بأنه يحبُّ هذا ويبغض هذا...

والحزب الثاني من الصوفية: الذي كان هذا المشهد هو منتهَى سلوكهم، عرفوا الفرق الطبيعي، وهم قد سلكوا على ترك هذا الفرق

---

(١) هذا عجز بيت للمتنبي من قصيدة خاطب بها سيف الدولة لمَّا أراد أن يسافر في بعض مهامه، فمنعه الثلج من ذلك، فقال المتنبي (من بحر الطويل):

عَوَاذِلُ ذاتِ الخَالِ فيّ حَوَاسِدُ ... وَإنّ ضَجيعَ الخَوْدِ منّي لمَاجِدُ

إلى أن قال:

تُبَكّي علَيهِنّ البَطاريقُ في الدّجَى ... وَهُنّ لَدَينا مُلقَياتٌ كَوَاسِدُ

بذا قضَتِ الأيّامُ ما بَينَ أهْلِهَا ... مَصائِبُ قَوْمٍ عِندَ قَوم فوائد

انظر: ديوان المتنبي (ص٣١٧).

الطبيعي، وأنهم يزهدون في حظوظ النفس وأهوائها، لا يريدون شيئاً لأنفسهم، وعندهم أن من طلب شيئاً للأكل والشرب في الجنة، فإنما طلب هواه وحظَّه، وهذا كلُّه نقص عندهم ينافي حقيقة الفناء في توحيد الربوبية، وهو بقاءٌ مع النفس وحظوظها.

والمقامات كلُّها عندهم ـ التوكل والمحبة وغير ذلك ـ إنما هي منازلُ أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شهدوا توحيدَ الربوبية كان ذلك عندهم عللاً في الحقيقة: إما لنقص المعرفة والشهود، وإما لأنه ذبٌّ عن النفس وطلب حظوظها؛ فإنه من شهد أن كل ما في الوجود: فالربُّ يحبه ويرضاه ويريده، لا فرق عنده بين شيء وشيء، إلا أنَّ من الأمور ما معه حظٌّ لبعض الناس من لَذة يصيبها، ومنها ما معه ألم لبعض الناس، فمن كان هذا مشهده؛ فإنه قطعاً يرى أن كل مَنْ فرَّق بين شيء وشيء لم يفرق إلا لنقص معرفته وشهوده أن اللهَ ربُّ كل شيء، ومريدٌ لكل شيء ومحبٌّ ـ على قولهم ـ لكل شيء، وإنما الفرق يرجع إلى حظه وهواه؛ فيكون طالباً لحظه، ذاباً عن نفسه، وهذا علة وعيب عندهم.

فصار عندهم كلُّ من فرَّق: إما ناقصَ المعرفة والشهادة، وإما ناقصَ القصد والإرادة، وكلاهما علةٌ، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية: فإنه يشهد كل ما في الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، كما قاله صاحب (منازل السائرين)[1] . . .

---

(١) يشير إلى قول الإمام أبي إسماعيل الهروي في كتابه (منازل السائرين، ص١٣٦ ـ ١٣٩): «**وأما التوحيد الثالث**: فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقَدَره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثِّه، والذي يشار به إليه على ألسن المشيرين، أنه إسقاط =

ولا ريب أن فناءهم وغيبتهم عن شهود (الإلهية والنبوة) شهادة أن لا إله إلا إله وأن محمداً رسول الله، وما تضمَّنه من الفرق، يرجع إلى نقص العلم والشهود والإيمان والتوحيد، فشهدوا نعتاً من نعوت الرب وغابوا عن آخر وهذا نقص...

وأهل الفناء في توحيد الربوبية: قد يظن أحدهم أنه إذا لم يشهد إلا فعلَ الربِّ، فيه فلا إثمَ عليه، وهم في ذلك بمنزلة من أكل السموم القاتلة، وقال: أنا أشهد أن الله هو الذي أطعمني فلا يضرُّني، وهذا جهل عظيم؛ فإن الذنوب والسيئات تضر الإنسان أعظمَ مما تضره السموم، وشهوده أن الله فاعل ذلك لا يدفع ضررها، ولو كان هذا دافعاً لضررها لكان أنبياءُ الله وأولياؤه المتقون أقدرَ على هذا الشهود الذي

= الحدَث، وإثبات القِدَم، على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علةٌ لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها.

هذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء أهل هذا الطريق، وإن زخرفوا له نعوتاً وفصّلوه فصولاً.

فإن ذلك التوحيد: تزيده العبارةُ خفاءً، والصفةُ نفوراً، والبسطُ صعوبةً، وإلى هذا التوحيد شَخَص أهلُ الرياضة وأرباب الأحوال، وإليه قصد أهل التعظيم، وإياه عنى المتكلمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات، ثم لم ينطق عنه لسان، ولم تُشِرْ إليه عبارة، فإن التوحيد وراء ما يشير إليه مكوِّن أو يتعاطاه خبرٌ، أو يُقِلّه سبب، وقد أجبت في سالف الدهر سائلاً سألني: عن توحيد الصوفية؟ بهذه القوافي الثلاث:

ما وحَّد الواحدَ من واحد ... إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحِدُ»اهـ.

وقد تقدم ذكر هذا الكلام، والتعليق عليه من كلام شيخ الإسلام، في مبحث سابق، هو: حقيقة الذات الإلهية والحلول والاتحاد.

يدفعون به عن أنفسهم ضرر الذنوب»اهـ[١].

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ في بيان الفناء الشرعي: «فصلٌ: قال الشيخ عبد القادر ـ قدس الله روحه ـ[٢]: «اِفن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذ يصلُح أن تكون وعاءً لعلم الله».

قلت: فحكمُه يتناول خلقَه وأمرَه؛ أي: اِفن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله تعالى، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة، وأما الفناء عن الهوى بالأمر، وعن الإرادة بالفعل، بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي، لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله، لا لإرادة نفسه.

فالإرادة تارةً تتعلق بفعل نفسه، وتارةً بالمخلوقات:

فالأول: يكون بالأمر.

والثاني: لا تكون له إرادة، ولا بد في هذا أن يقيَّد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها؛ وإلا فإذا أُمر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء، فليرد ما أُمر بإرادته، سواء كان موافقاً للقدر، أم لا، وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين، والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعيَّن، وهم ليس لهم إرادة نفسانية، فتركوا إرادتهم لغير المقدور.

قال الشيخ[٣]: «فعلامةُ فنائك عن خلق الله: انقطاعُك عنهم وعن التردُّد إليهم، واليأسُ مما في أيديهم».

وهو كما قال: فإذا كان القلبُ لا يرجوهم ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم، وهذا يُشبَّه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم

---

(١) الفتاوى (٨/ ٣٣٩، ٣٤٤ ـ ٣٥٠).
(٢) فتوح الغيب (ص١٣).
(٣) فتوح الغيب (ص١٤).

لأمرهم بما أمر الله به، ونهيهم عما نهاهم الله عنه، كذهاب الرسل وأتْباع الرسل إلى من يُبلِّغون رسالاتِ الله؛ فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أُمر به العبد؛ ليكون عابداً لله، متوكلاً عليه، وإلا فَمَنْ توكل عليه ولم يفعل ما أمر به؛ فقد يكون ما أضاعه من الأمر أوْلَى به مما قام به من التوكل، أو مثله، أو دونه، كما أن مَنْ قام بأمرٍ ولم يتوكل عليه، ولم يستعن به فلم يقم بالواجب؛ بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر، أو مثله، أو دونه(١).

---

(١) من تلبيس إبليس على فريق من المتصوفة أنه أوقع في قلوبهم: أن تمامَ التوكل على الله هو تركُ بذل الأسباب والاستسلام والركون إلى القضاء والقدر، قال الإمام ابن الجوزي (تلبيس إبليس ١/ ٣٤٠): «ذِكر تلبيس إبليس على الصوفية في ادعاء التوكل وقطع الأسباب وترك الاحتراز في الأموال: عن أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: لو توكلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص. وبإسنادٍ عن ذي النون المصري أنه قال: سافرت سنين وما صحَّ لي التوكل إلا وقتاً واحداً: ركبت البحر فكُسر المركب، فتعلقت بخشبة من خشب المركب، فقالت لي نفسي: إن حَكَم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة؟ فخليتُ الخشبة، فطفت على الماء، فوقعت على الساحل. أخبرنا محمد قال: سألت أبا يعقوب الزيات عن مسألة في التوكل، فأخرج درهماً كان عنده! ثم أجابني فأعطى التوكل حقه، ثم قال: استحييت أن أجيبك وعندي شيء، وذكر أبو نصر السراج في كتاب اللمع قال: جاء رجل إلى عبد الله بن الجلاء، فسأله عن مسألة في التوكل وعنده جماعته فلم يجبه، ودخل البيت فأخرج إليهم صرة فيها أربعة دوانق، فقال: اشتروا بهذه شيئاً. ثم أجاب الرجل عن سؤاله! فقيل له في ذلك، فقال: استحييت من الله تعالى أن أتكلم في التوكل وعندي أربعة دوانق، وقال سهل بن عبد الله: من طعن في الاكتساب فقد طعن على السنة، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان.

قال المصنف: **قلت**، قلة العلم أوجبت هذا التخطيط، ولو عرفوا ماهِيَّة التوكل، لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضادٌّ؛ وذلك أن التوكل اعتماد =

= القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب ولا ادخار المال، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] أي: قواماً لأبدانكم، وقال ﷺ: (نِعْمَ المالُ الصالح مع الرجل الصالح) [رواه ابن حبان ٨/ ٦/ ح٣٢١٠، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ٢/ ٣/ ح٢١٣٠] وقال ﷺ: (إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس) [رواه البخاري].

واعلم: أن الذي أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر، فقال: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧]، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين [رواه أبو داود ٣/ ٣١/ ح٢٥٩٠، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ٣/ ٢٨/ ح٤٣١٢، وسعيد بن منصور في سننه ٢/ ٣٠٩/ ح٢٨٥٨] وشاور طبيبين، واختفى في الغار [متفق عليه] وقال: من يحرسني الليلة [رواه أبو داود ٣/ ٩٠/ ح٢٥٠١، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٢/ ٩٢/ ح٢٤٣٢]، وأمر بغلق الباب [متفق عليه].

وفي الصحيحين من حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أغلِقْ بابَك)، وقد أخبرنا أن التوكل لا ينافي الاحتراز.

أخبرنا.. جاء رجل إلى النبي ﷺ وترك ناقته بباب المسجد، فسأله رسول الله ﷺ عنها؟ فقال: أطلقتُها وتوكلت على الله! قال: (اعقلها وتوكل) [رواه الترمذي ٤/ ٦٦٨/ ح٢٥١٧، وابن حبان ٢/ ٥١٠/ ح٧٣١].

أخبرنا.. قال سمعت سفيان بن عيينة يقول: تفسير التوكل أن يرضى بما يُفعل به، وقال ابن عقيل: يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وأن التوكلَ هو إهمالُ العواقب واطِّراحُ التحفُّظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر الله بالتوكلِ إلا بعد التحرز واستفراغ الوُسع في التحفظ، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلو كان التعلق بالاحتياط قادحاً في التوكل، لَمَا خَصَّ اللهُ نبيَّه حين قال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾. وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرُّز من العدو؟ ولم يقنع في الاحتياط بأن يكِلَه إلى رأيهم واجتهادهم حتى نصَّ عليه، وجعله عملاً في نفس =

= الصلاة - وهي أخص العبادات - فقال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] وبيّن علة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

ومن علم أن الاحتياط هكذا، لا يقال: إن التوكل عليه ترك ما عُلم؛ لكن التوكل: التفويض فيما لا وُسْعَ فيه ولا طاقةَ، قال ﷺ: (اعقلها وتوكل) ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال، وهي حالة الصلاة.

وقد ذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] خرج، ونبينا ﷺ خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسدِّ أثقاب الغار، وأعطى القومُ التحرُّز حقَّه ثم توكلوا.

وقال عَزَّ وَجَلَّ في باب الاحتياط: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] وقال: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ [يوسف: ٦٧] وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وهذا لأن الحركة للذب عن النفس استعمال لنعمة الله تعالى، وكما أن الله تعالى يريد إظهار نعمه المبدأة، يريد إظهار ودائعه، فلا وجه لتعطيل ما أودع، اعتماداً على ما جاد به؛ لكن يجب استعمال ما عندك، ثم اطلب ما عنده.

وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عُدَّةً وأسلحة تدفع عنها الشرور، كالمخلب والظُّفر والناب، وخلق للآدمي عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة، ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع، ومن عطَّل نعمة الله بترك الاحتراز فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية، ثم يموت جوعاً أو مرضاً.

ولا أبلَهُ ممن يدَّعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء، إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوِّض إلى الحق، منع أو أعطى؛ لأنه لا يرى إلا أن الحق جَلَّ وَعَلَا لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة؛ فمنعُه عطاءٌ في المعنى.

وكم زُين للعَجَزَة عجزهم، وسولت لهم أنفسهم أن التفريط: توكل، فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهوُّرَ: شجاعة، والخَوَرَ: حزماً، ومتى وُضعت =

قال الشيخ[1] وعلامة فنائك عنك وعن هواك: ترك التكسُّب[2]،

= أسبابٌ فأُهملت كان ذلك جهلاً بحكمة الواضع، مثل وضع الطعام سبباً للشِّبَع، والماء للري، والدواء للمرض، فإذا ترك الإنسان ذلك إهواناً بالسبب، ثم دعا وسأل، فربما قيل له: قد جعلنا لعافيتك سبباً فإذا لم تتناوله كان إهواناً لعطائنا، فربما لم نعافِك بغير سبب لإهوانك للسبب، وما هذا إلا بمثابة من بيَّن قراحه، وماء الساقية رَفْسَةٌ بمسحاةٍ، فأخذ يصلي صلاةَ الاستسقاء طلباً للمطر! فإنه لا يُستحسن منه ذلك شرعاً ولا عقلاً.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قال قائل: كيف أحترز مع القدر؟ قيل له: وكيف لا تحترز مع الأوامر من المقدر؟ فالذي قدر هو الذي أمر؛ وقد قال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].. كان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يصلي على رأس جبل، فأتاه إبليس، فقال: أنت الذي تزعُم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم، قال: فألْقِ نفسك من الجبل وقل: قُدِّر علي! قال: يا لعينُ! الله يختبر العباد وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى»اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد نقلته على طوله لنفاسته.

(١) فتوح الغيب (ص١٤).

(٢) ومن تلبيس إبليس على فريق من المتصوفة أنه أوقع في قلوبهم: أن تمام التوكل على الله هو ترك التكسُّب، وأن طلب الرزق والسعي في تحصيله قدح في التوكل على الله تعالى، قال الإمام ابن الجوزي (تلبيس إبليس ١/ ٣٤١ - ٣٤٣): «فصل: وفي معنى ما ذكرنا من تلبيسه عليهم في ترك الأسباب أنه قد لبّس على خلق كثير منهم بأن التوكل ينافي الكسب، قال سهل بن عبد الله التستري: من طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان، ومن طعن على الكسب، فقد طعن على السنة. سأل رجل أبا عبد الله بن سالم: أنحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل؟ فقال: التوكل حال رسول الله ﷺ والكسب سنة رسول الله ﷺ وإنما سنَّ الكسب لمن ضعُف عن التوكل، وسقط عن درجة الكمال التي هي حاله، فمن أطاق التوكل فالكسب غير مباح له بحال، إلا كسبَ معاونةٍ لا كسبَ اعتمادٍ عليه، ومن ضعُف عن حال التوكل التي هي حال رسول الله ﷺ أبيح له طلبُ المعاش في الكسب، لئلا يسقط عن درجة سنته حين سقط عن درجة حاله.. قال يوسف بن الحسين: إذا رأيت المريد يشتغل بالرُّخَص والكسب، فليس يجيء منه شيء. =

= **قال المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل، وظنوا أنه ترك الكسب وتعطيل الجوارح عن العمل، وقد بينا أن التوكل فعل القلب، فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين، فقد كان آدمُ عليه السلام حراثاً، ونوحٌ وزكريا نجارَيْن، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زرَّاعين، وصالح تاجراً، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيبٌ ومحمدٌ رُعاةً، صلوات الله عليهم أجمعين، وقال نبينا ﷺ: (كنت أرعى غنماً لأهل مكة بالقراريط) [رواه ابن حبان ١٥/٥٣٦/ح٧٠٦١] فلما أغناه الله عز وجل بما فرض له من الفيء لم يحتج إلى الكسب، وقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحةُ رضوان الله عليهم بزَّازِين، وكذلك محمد بن سيرين وميمون بن مهران بزازَيْن، وكان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كُريز خزازين، وكذلك أبو حنيفة. وكان سعد بن أبي وقاص يبري النَّبْل، وكان عثمان بن طلحة خياطاً، وما زال التابعون ومَنْ بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب. لَمَّا استُخْلِفَ أبو بكر رضي الله عنه أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتَّجِرُ بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة، فقالا: أين تريد؟ فقال: السوق، قالا: تصنع ماذا، وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟. قال ابن سعد: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، فقال: زيدوني، فإن لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي؟ لقالوا: قد أشركت! ولو سُئلوا عمن يخرج إلى التجارة، لقالوا: ليس بمتوكل ولا موقن! وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين، ولو كان أحد يغلق عليه الباب ويتوكل لقرُب أمر دعواهم؛ لكنهم بين أمرين: أما الغالب من الناس، فمنهم من يسعى إلى الدنيا مستجدياً، ومنهم من يبعث غلامه فيدور بالزنبيل فيجمع له، وإما الجلوس في الرباط في هيئة المساكين وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح كما لا تخلو الدكان من أن يقصد للبيع والشراء، قال كان سعيد بن المسيب: من لزم المسجد وترك الحرفة وقبِل ما يأتيه، فقد ألحف في السؤال، كان أبو تراب يقول لأصحابه: من لبس منكم مرقَّعة فقد سأل، ومن قعد في خانقاه أو مسجد فقد سأل. =

....

= قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وقد كان السلف ينهون عن التعرُّض لهذه الأشياء، ويأمرون بالكسب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا معشر الفقراء، ارفعوا رؤوسكم؛ فقد وَضَحَ الطريق، فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين. عن محمد بن عاصم، قال: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى غلاماً فأعجبه سأل عنه: هل له حرفة؟ فإن قيل: لا، قال: سقط من عيني. قال سعيد بن المسيب: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتَّجرون في تجر الشام، منهم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد. سئل أحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو في مسجده، وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتِيَني رزقي؟! فقال أحمد: هذا رجل جهِل العلم؛ أما سمعت قول رسول الله ﷺ: (جعل الله رزقي تحت ظل رمحي) [رواه سعيد بن منصور ٢/ ١٤٣/ح٢٣٧٠] وحديث الآخر: في ذكر الطير تغدو خماصاً، فذكر أنها: تغدو في طلب الرزق [رواه الترمذي ٤/ ٥٧٣/ح٢٣٤٤، وابن ماجه ٢/ ١٣٩٤/ح٤١٦٤]، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتَّجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، ولنا القُدوةُ بهم، وقد ذكرنا فيما مضى عن أحمد: أن رجلاً قال له: أريد الحج على التوكل! فقال له: فاخرج في غير القافلة، قال: لا، قال: فعلى جِرابِ الناس توكلتَ.

قال أبو بكر المروزي: قلت لأبي عبد الله: هؤلاء المتوكلة يقولون: نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل، فقال: هذا قولٌ رديءٌ؛ أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، ثم قال: إذا قال: لا أعمل، وجيء إليه بشيء قد عُمل واكتُسِب، لأي شيء يقبله من غيره؟! قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن قوم يقولون: نتوكل على الله ولا نكتسب، فقال: ينبغي للناس كلهم يتوكلون على الله، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب، هذا قول إنسان أحمق.

قال صالح بن أحمد: وسئل أبي وأنا شاهدٌ عن قوم لا يعملون، ويقولون: نحن المتوكلون؟ فقال: هؤلاء مبتدعون.

قال الخلال: وأخبرنا المروزي أنه قال لأبي عبد الله: إن ابن عيينة كان يقول: =

= هم مبتدعة. فقال أبو عبد الله: هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا. وقال الخلال: أخبرنا المروزي، قال: سألت عبد الله: عن رجل جلس في بيته، وقال: أجلس وأصبر، وأقعد في البيت ولا أطلع على ذلك أحداً! فقال: لو خرج فاحترف كان أحب إليَّ، فإذا جلس خِفْتُ أن يخرجه جلوسُه إلى غير هذا. قلت: إلى أي شيء يخرجه؟ قال: يخرجه إلى أن يكون يتوقع أن يُرسَلَ إليه. قال الخلال: وحدثنا أبو بكر المروزي، قال: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: إني في كفاية، قال: الزم السوقَ، تصل الرحم، وتعود به على عيالك. وقال لرجل آخر: اعملْ وتصدقْ بالفضل على قرابتك. وقال أحمد بن حنبل: قد أمرتهم ـ يعني أولاده ـ أن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرضوا للتجارة. قال محمد بن زياد: سمعت أبا عبد الله يأمر بالسوق، يقول: ما أحسن الاستغناء عن الناس. قال أبو بكر بن جناد: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أحب الدراهم إليَّ درهمٌ من تجارة، وأكرهها عندي الذي من صلة الإخوان.

قال المصنف رحمه الله: قلت: قال ابن عقيل: التسبُّب لا يقدح في التوكل؛ لأن تعاطي رتبة ترقى على رتبة الأنبياء نقصٌ في الدين، ولمَّا قيل لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] خرج، ولمَّا جاع واحتاج إلى عِفَّةِ نفسه أجر نفسه ثمان سنين، وقال الله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] وهذا لأن الحركة استعمالُ نعمة الله وهي القُوى، فاستعمل ما عندك ثم اطلب ما عنده، وقد يطلب الإنسان من ربه، وينسى ما له عنده مِنَ الذخائر، فإذا تأخر عنه ما يطلبه يسخط، فترى بعضهم يملك عقاراً وأثاثاً، فإذا ضاق به القوت، واجتمع عليه دَيْنٌ، فقيل له: لو بعت عقارك، قال: كيف أفرِّطُ في عقاري وأسقط جاهي عند الناس؟ وإنما يفعل هذه الحماقات العادات، وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقالاً له، فكانوا بين أمرين قبيحين: إما تضييع العيال فتركوا الفرائض، أو: التزيُّن باسم أنه متوكل، فيحِنُّ عليهم المكتسبون، فضيَّقوا على عيالهم لأجلهم وأعطوْهم.

وهذه الرذيلة لم تدخل قط إلا على دنيء النفس الرذيلة، فالرجل كل الرجل من لم يضيِّع جوهره الذي أودعه الله، إيثاراً للكسل، أو لاسم يتزيَّن به بين الجهال؛ فإن الله تعالى قد يحرم الإنسان المال ويرزقه جوهراً يتسبب به إلى تحصيل الدنيا بقبول الناس عليه.

=

....

= **فصل**: وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعلُّلات قبيحة؛ منها:
أنهم قالوا: لا بد من أن يصل إلينا رزقنا! وهذا في غاية القبح؛ فإن الإنسان لو ترك الطاعة، وقال: لا أقدر بطاعتي أن أغيِّرَ ما قضى الله عليَّ، فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة، أو من أهل النار فأنا من أهل النار. قلنا له: هذا يرد الأوامر كلها، ولو صح لأحد ذلك لم يخرج آدم من الجنة؛ لأنه كان يقول: ما فعلت إلا ما قُضِيَ علي، ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر.
ومنها: أنهم يقولون: أين الحلال؟! حتى نطلب، وهذا قول جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطع أبداً لقوله ﷺ: (الحلال بيِّن والحرام بيِّن) [متفق عليه]، ومعلوم أن الحلال ما أذن الشرع في تناوله، وإنما قولهم هذا احتجاج للكسل.
ومنها: أنهم قالوا: إذا كسبنا أعنَّا الظَّلَمَةَ والعُصاة؛ مثل ما قال إبراهيم الخواص: طلبت الحلال في كل شيء، حتى طلبته في صيد السمك، فأخذت قصبةً، وجعلت فيها شعراً وجلست على الماء، فألقيت الشص فخرجت سمكة، فطرحتها على الأرض، وألقيت الثانية فخرجت لي سمكة، فأنا أطرحها ثالثة، إذا من ورائي لطمةٌ لا أدري من يد من هي! ولا رأيت أحداً! وسمعت قائلاً يقول: أنت لم تصب رزقاً في شيء إلا أن تعمد إلى من يذكرنا فتقتله؟!
قال: فقطعت الشعر وكسرت القصبة وانصرفت!
قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قلت: وهذه القصة ـ إن صحَّت فإن في الروايتين بعض من يُتَّهمُ ـ فإن اللاطم: إبليس، وهو الذي هتف به؛ لأن الله تعالى أباح الصيد، فلا يعاقب على ما أباحه، وكيف يقال له: تعمد إلى من يذكرنا فتقتله، وهو الذي أباح له قتله؟! وكسب الحلال ممدوح، ولو تركنا الصيد وذَبْحُ الأنعام؛ لأنها تذكر الله تعالى لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان؛ لأنه لا يقيمها إلا اللحم، فالتحرِّي من أخذ السمك وذبح الحيوان مذهب البراهمة، فانظر إلى الجهل ما يصنع!! وإلى إبليس كيف يفعل!.
قيل لفتح الموصلي: أنت صياد بالشبكة ولم تصد شيئاً إلا وتطعمه لعيالك، فلِمَ تصد وتبيع ذلك الناس؟ فقال: أخاف أن أصطاد مطيعاً لله تعالى في جوف الماء، فأطعمه عاصياً لله على وجه الأرض.
قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: قلت: إن صحت هذه الحكاية عن فتح الموصلي، فهو من التعلُّل البارد المخالف للشرع والعقل؛ لأن الله تعالى أباح الكسب وندب إليه، =

والتعلُّق بالسبب في جلب النفع ودفع الضُّرِّ، فلا تتحرك فيك بِكَ، ولا تعتمد عليكَ لَكَ، ولا تضر نفسك، ولا تذب عنك، لكن تَكِلُ ذلك كله إلى من تولَّاه، فيتولاه آخراً كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك.

قلت: وهذا لأن النفس تهوى وجودَ ما تحبه وينفعها، ودفعَ ما تبغضه ويضرها، فإذا فني عن ذاك بالأمر، فعل ما يحبه الله، وترك ما يبغضه الله، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه، وبترك ما يبغضه الله عمَّا يبغضه، وحينئذ: فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فيكون في ذلك متوكلاً على الله.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ **ذكر هنا التوكل دون الطاعة**: لأن النفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة، فإن لم تكن متوكلةً على الله في ذلك، واثقةً به، لم يمكن أن تنصرف عن ذلك، فتمتثل الأمر مطلقاً، بل لا بدَّ أن تعصيَ الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة؛ فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٨ ـ ٩].

والمقصود: أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة: ومن كان واثقاً بالله أن يجلبَ له ما ينفعه، ويدفعَ عنه ما يضره، أمكن أن يدعَ هواه ويطيعَ أمره، وإلا فنفسُه لا تدعه أن يترك ما يقول أنه محتاج فيه إلى غيره.

= فإذا قال قائل: ربما خبزت خبزاً فأكله عاصٍ، كان حديثاً فارغاً؛ لأنه لا يجوز لنا إذاً أن نبيع الخبز لليهود والنصارى. اهـ باختصار يسير.

قال الشيخ رضي الله عنه[١]: «وعلامة فناء إرادتك بفعل الله: أنك لا تريد مراداً قط، فلا يكن لك غرضٌ ولا تقف لك حاجة ولا مرام؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعلُه فيك، فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله، ساكنَ الجوارح، مطمئنَ الجنان، مشروحَ الصدر، منوَّرَ الوجه، عامرُ الباطن، غنياً عن الأشياء بخالقها، تقلبك يدُ القدرة، ويدعوك لسانُ الأزل، ويعلمك ربُّ المُلك، ويكسوك نوراً منه والحُلَلَ، وينزل منازل من سلف من أولي العلم الأُوَل، فتكون منكسراً أبداً.

فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة، كالإناء المتثلِّم الذي لا يثبت فيه مائع ولا كدر، فتفنوا عن أخلاق البشرية، فلن يقبل باطنك ساكناً غير إرادة الله، فحينئذ يُضاف إليك التكوينُ وخرقُ العادات، فيُرَى ذلك منك في ظاهر العقل والحكم، وهو فعل الله تبارك وتعالى حقاً في العلم، فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرةِ قلوبُهم، والذين كُسرت إرادتهم البشرية، وأزيلت شهواتُهم الطبيعية، واستوثقت لهم إراداتُ ربانيةٌ وشهواتٌ إضافية، كما قال النبي ﷺ: **(حُبِّب إلي من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة)**، فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه، وزال عنه تحقيقاً لما أشرت إليه ـ وتقدم ـ قال الله تعالى: **(أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)**، وساق كلامه، وفيه: **(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل...)**[٢] الحديث.

قلت: هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وحقيقتُه أنه لا يريد كونَ شيءٍ إلا أن يكون مأموراً بإرادته، فقوله:

---

(١) فتوح الغيب (ص١٤).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٣٥١).

«علامة فناءِ إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط»، أي: لا تريد مراداً لـم تُؤمَر بإرادته، فأما ما أمرك اللهُ ورسولُه بإرادتك إياه، فإرادته إما واجبٌ وإما مستحبٌّ، وترك إرادة هذا إما معصيةٌ وإما نقصٌ.

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين؛ فيظنون الطريقة الكاملة: أن لا يكون للعبد إرادةٌ أصلاً، وأن قول أبي يزيد: «أريد أن لا أريد» لَمَّا قيل له: ماذا تريد؟ نقص وتناقض؛ لأنه قد أراد، ويحملون كلام المشايخ الذين يُمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقاً، وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقاً، فإن هذا غلط ممن قاله؛ فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور، فإن الحيَّ لا بد له من إرادة، فلا يمكن حياً أن لا تكون له إرادة؛ فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله، ويأمر بها أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استحبابٍ لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاصٍ إن كانت واجبةً، وإن كانت مستحبةً كان تاركها تاركاً لِمَا هو خير له، والله تعالى قد وصف الأنبياء والصِّدِّيقين بهذه الإرادة:

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا عبادة إلا بإرادة الله، ولِمَا أمر به.

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، أي: أخلص قصده لله[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وإخلاص الدين له هو: إرادته وحده بالعبادة[٢].

وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وكل محب فهو مريد.

وقال الخليل عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ثم قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ومثل هذا كثير في القرآن يأمر الله بإرادته، وإرادة ما يأمر به، وينهى عن إرادة غيره وإرادة ما نهى عنه.

وقد قال النبي ﷺ: **(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٥)، تفسير البغوي (١/ ١٣٧)، تفسير القرطبي (٢/ ٧٣)، فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٠٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩٥)، تفسير القرطبي (٢٠/ ١٣٤)، فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٧٣).

نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[(١)].

فهما إرادتان:

إرادة: يحبها الله ويرضاها.

وإرادة: لا يحبها الله ولا يرضاها؛ بل إمَّا نهى عنها، وإمَّا لم يأمرْ بها ولا ينهى عنها.

والناس في الإرادة ثلاثة أقسام:

قوم: يريدون ما يهوونه، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان.

وقوم: يزعُمون أنهم فرغوا من الإرادة مطلقاً؛ ولم يبقَ لهم مرادٌ إلا ما يقدِّرهُ الربُّ، وأن هذا المقام هو أكملُ المقامات، ويزعُمون أن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة، وهي الحقيقة القَدَرِيَّةُ الكونية، وأنه شهد القيُّوميَّة العامة، ويجعلون الفناءَ في شهود توحيد الربوبية هو الغايةَ، وقد يسمون هذا: الجمع والفناء والاصطلام، ونحو ذلك، وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع.

وفي هذا المقام: كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية؛ فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية، وأن اللهَ خالقُ كل شيء وربُّه ومليكُه ـ وهو شهود القدر ـ وسمَّوْا هذا: مقامَ الجمع؛ فإنه خرج به عن:

الفرق الأول: وهو الفرق الطبيعي بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ ١/٣/١)، ومسلم (كتاب الأمارة، باب قوله: (إنما الأعمال بالنية)، ٣/ ١٥١٥/ ١٩٠٧)، من حديث: عمر بن الخطاب ﷺ.

فعل هذا وترك هذا، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات، ويكون متَّبعاً لهواه فيما يريده، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع، ثم شهد أنه خالق كل شيء، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق، فلمَّا اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد:

الفرق الثاني: وهو بعد هذا الجمع، وهو الفرق الشرعي، ألا ترى أنك تريد ما أمرت به، ولا تريد ما نهيت عنه؟ وتشهد أن الله يستحق العبادة دون ما سواه؟ وأن عبادته هي بطاعة رسله؟ فتفرق بين المأمور والمحظور، وبين أوليائه وأعدائه، وتشهد توحيد الألوهية، **فنازعوه في هذا الفرق**:

منهم: من أنكره.

ومنهم: من لم يفهمه.

ومنهم: من ادَّعى أن المتكلم فيه لم يصل إليه.

ثم إنك تجد كثيراً من الشيوخ إنَّما ينتهي إلى ذلك الجمع، وهو: توحيد الربوبية، والفناء فيه، كما في كلام صاحب: (منازل السائرين) مع جلالة قدره، مع أنه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهي المعروفَيْن، لكن قد يدّعون أن هذا لأجل العامة.

ومنهم: من يتناقض.

ومنهم: من يقول: الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامَّة، وقد يعبّر عنهم بأهل المارستان.

ومنهم: من يسمي ذلك مقامَ التلبيس.

ومنهم: من يقول: التحقيق أن يكون الجمع في قلبك مشهوداً، والفرق على لسانك موجوداً، فيشهد بقلبه استواءَ المأمور والمحظور مع تفريقه بينهما.

ومنهم: من يرى أن هذه هي الحقيقة التي هي منتهى سلوك العارفين، وغاية منازل الأولياء الصديقين.

ومنهم: من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية، وأما في النهاية، فلا تبقى إلا إرادة القدر، وهو في الحقيقة قولٌ بسقوط العبادة والطاعة؛ فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنَّما تكون في امتثال الأمر الشرعي، لا في الجري مع المقدور، وإن كان كفراً أو فسوقاً أو عصياناً.

ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفُجَّار وخفرائهم حيث شهدوا القدر معهم، ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيَّيْن، ومن هؤلاء من يقول: من شهد القدر سقط عنه الملام، ويقولون: إن الخضر إنما سقط عنه الملام لمَّا شهد القدر...

فصل: فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس[1] **وغيرهما من المشايخ** أهل الاستقامة رضي الله عنهم بأنه: لا يريد السالك مراداً قط، وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها؛ بل يجرى فعلُه فيه، فيكون هو مراد الحق.

إنما قصدوا به: فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه، فأمَّا ما علم أن الله أمر به، فعليه أن يريده ويعمل به، وقد صرَّحوا بذلك في غير

---

(١) هو حماد بن مسلم الدباس، أبو عبد الله الرَّحَبِي، من رؤوس الصوفية، شيخ الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكان أمياً لا يكتب، وله أصحاب دوَّنوا كلامه في مجلدات، قال ابن كثير: «كان يُذكر له أحوال ومكاشفات، ورأيت ابن الجوزي يتكلم فيه ويقول: كان عَرِيّاً من العلوم الشرعية، وإنما كان ينفق على الجُهَّال، وذكر عن ابن عقيل أنه كان ينفر منه»، توفي سنة ٥٢٥هـ.

انظر: البداية والنهاية (٨/ ٣٤٢، حوادث سنة ٥٢٥هـ)، شذرات الذهب (٤/ ٧٣)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٠/ ٦٧٠).

موضع، وإن كان غيرُهم من الغالطين يرى القيامَ بالإرادة الخلقية هو الكمال، وهو الفناء في توحيد الربوبية، وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد، فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر.

فتلك أقوالٌ وطرائقُ فاسدةٌ، قد تُكُلِّم عليها في غير هذا الموضع.

فأما المستقيمون من السالكين، كجمهور مشايخ السلف؛ مثل: الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السَّقَطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل: الشيخ عبد القادر، والشيخ حمَّاد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوِّغون للسالك، ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيَّيْن، بل عليه أن يفعل المأمورَ، ويدعَ المحظورَ إلى أن يموتَ، وهذا هو الحق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف.

وهذا كثير في كلامهم:

كقول عبد القادر في كتاب (فتوح الغيب)[1]: «أُخرُج من نفسك، وتنحَّ عنها، وانعزل عن ملكك، وسلِّم الكلَّ إلى الله تبارك وتعالى، وكن بوابَه على باب قلبك، وامتثل أمره تبارك وتعالى في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانتهِ نهيَه في صدِّ من يأمرك بصدِّه، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه، وإخراجُ الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته في الأحوال كلها، وإدخاله في القلب بمتابعته وموافقته، فلا تَرِد إرادةً غير إرادته تبارك وتعالى، وغير ذلك منك غَيْرٌ، وهو وادي الحمقى، وفيه حتفُك وهلاكك، وسقوطك من عينه تبارك وتعالى، وحجابك عنه، احفظ

---

(١) فتوح الغيب (ص١٦).

أبداً أمرَه، وانته أبداً نهيَه، وسلِّم إليه أبداً مقدورَه، ولا تشركه بشيء من خلقه؛ فإرادتك وهواك وشهواتك خلقه، فلا ترد ولا تهوى ولا تشتهِ لئلا يكون شركاً، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ليس الشركُ عبادةَ الأصنام فحسب، بل هو أيضاً متابعتك لهواك، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها، والآخرة وما فيها، فما سواه تبارك وتعالى غيرُه، فإذا ركنت إلى غيرِه، فقد أشركت به غيرَه، فاحذر ولا تركن، وخف ولا تأمن، وفتش ولا تغفل فتطمئن، ولا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً، ولا تدع شيئاً من ذلك».

وقال الشيخ عبد القادر ـ أيضاً ـ[1]: «إنما هو: الله، ونفسك، وأنت المخاطَب، والنفس ضد الله وعَدُوَّته، والأشياء كلها تابعةٌ لله، فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداوتها، كنت خصماً له على نفسك»اهـ[2].

ثانياً: أقسام الفناء:

قال الشيخ: «فصلٌ: الفناء الذي يُوجَدُ في كلام الصوفية يفسَّر بثلاثة أمور:

أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح، وهو محضُ التوحيد والإخلاص، وهو في الحقيقة عبادة القلب وتوكُّله واستعانته، وتألُّهه وإنابته وتوجُّهه إلى الله وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد

---

(١) فتوح الغيب (ص٢١).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٤٩٠ ـ ٤٩٩، ٥١٦ ـ ٥١٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٦٦٦).

خروجٌ عن هذا، وهو هو: القلب السليم، الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، وهو: سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك[١].

وهذا «الفناء» لا ينافيه البقاء؛ بل يجتمع هو والبقاء، فيكون العبدُ فانياً عن إرادة ما سواه، وإن كان شاعراً بالله وبالسِّوى، وترجمته قول لا إله إلا الله. وكان النبي ﷺ يقول: (**لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن**)[٢]، وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره.

الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب:

فذاك فناءٌ عن الإرادة، وهذا فناءٌ عن الشهادة.

ذاك فناءٌ عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناءٌ عن العلم بالغير والنظر إليه.

فهذا الفناء فيه نقص؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه ـ وهو شهود الرب مدبراً لعباده آمراً بشرائعه ـ أكملُ من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك.

---

(١) قال الإمام القرطبي في تفسيره: «واختلف في القلب السليم؛ فقيل: من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح: هو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] وقال أبو عثمان السياري: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة»اهـ. تفسير القرطبي (١٣/ ١٠٧).
انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١)، فتح القدير (٤/ ١٥٤)، تفسير البغوي (١/ ١١٩).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ١/ ٤١٥/ ١٣٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٤، ٥).

ولهذا كان الصحابةُ أكملُ شهوداً من أن ينقصهم شهودٌ للحق مجملاً عن شهوده مفصلاً، ولكن عَرَضَ كثيرٌ من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة، كما عَرَضَ لهم عند تجلِّي بعض الحقائق: الموتُ والغشي والصياح والاضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ما هي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، حتى اختلفوا في إمكان ذلك، وكثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك؛ لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر، وإذا عورض بالنبي ﷺ وخلفائه ادَّعى الاختصاص، أو أعرض عن الجواب، أو تحيَّر في الأمر؛ وسبب ذلك: أنه قاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه، ولهذا يقول بعض هؤلاء: إنه لا يمكن حين تجلِّي الحق سماعُ كلامه، **ويُحكى عن ابن عربي**: أنه لمَّا ذُكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي أنه جوَّز اجتماع الأمرين، قال: نحن نقول له عن شهود الذات، وهو يخبرنا عن شهود الصفات!.

والصواب: مع شهاب الدين؛ فإنه كان صحيحَ الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد، وإنما بنى ابن عربي على أصله الكفري في أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات. ومعلومٌ أن شهود هذا لا يقع فيه خطاب، وإنما الخطاب في مقام العقل، وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق، أو: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا الله، إذا فني بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه.

كما يحكون: أن رجلاً كان مستغرقاً في محبة آخر، فوقع المحبوب في اليمِّ، فألقى الآخرُ نفسه خلفه! فقال: ما الذي أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني؛ فظننت أنك أني! وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور.

وكذلك: قد يحصل الفناء بحال خوفٍ أو رجاءٍ، كما يحصل بحال حبٍ فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق، ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى، وهي شطحات بعض المشايخ، كقول بعضهم: أَنصُبُ خيمتي على جهنم! ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع، وقد يكون صاحبُها غيرَ مأثوم وإن لم يكن، فيشبه هذا الباب أمرَ خفراء العدو، ومن يعين كافراً أو ظالماً بحالٍ، ويزعُم أنه مغلوبٌ عليه.

ويُحكَم على هؤلاء: أن أحدهم إذا زال عقله بسببٍ غيرِ محرَّمٍ، فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرَّمة، بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغَلَبَة أمراً محرماً، وهذا كما قلنا في عقلاء المجانين والمولَّهين الذين صار ذلك لهم مقاماً دائماً، كما أنه يعرض لهؤلاء في بعض الأوقات.

كما قال بعض العلماء ذلك في من زال عقله حتى ترك شيئاً من الواجبات:

إن كان زواله بسببٍ غيرِ محرَّم؛ مثل: الإغماء بالمرض أو أُسقيَ مكرَهاً شيئاً يزيل عقله فلا إثم عليه.

وإن زال بشرب الخمر ونحو ذلك من الأحوال المحرَّمة أثِمَ بترك الواجب، وكذلك الأمر في فعل المحرم.

وكما أنه لا جُناح عليهم، فلا يجوز الاقتداءُ بهم، ولا حمل كلامهم وفعالهم على الصحة؛ بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة، وقال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وترك أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب، ولهذا اتفق العارفون على أن حالَ البقاء أفضلُ من ذلك، وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق، كما قال تعالى فيما روى عنه رسوله ﷺ: **(ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببتُه كنت سمعَه**

الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه الذي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي...)[١]، وفي رواية: **(وبي ينطق وبي يعقل)**[٢].

فإذا سمع بالحق ورأى به: سمع الأمر على ما هو عليه، وشهد الحق على ما هو عليه، وعامَّة ما تجده في كتب أصحاء الصوفية ـ مثل شيخ الإسلام[٣] ومن قبله ـ من الفناء هو هذا، مع أنه قد يغلط بعضهم في بعض أحكامه، كما تكلمت عليه في غير هذا الموضع.

وفي الجملة: فهذا الفناء صحيح، وهو في عيسوية المحمدية، وهو شبيه بالصَّعق والصياح الذي حدث في التابعين، ولهذا يقع كثير من هؤلاء في نوع ضلال؛ لأن الفناءَ عن شهود الحقائق مرجِعُه إلى عدم العلم والشهود، وهو وصفُ نقص لا وصفَ كمال، وإنما يمدح من جهة عدم إرادة ما سواه؛ لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلى إرادته والفتنة به.

ولهذا: غالب عُبَّاد العيسوية في عدم العلم بالسِّوَى وإرادته والفتنة به، ويوصفون بسلامة القلوب، وغالب علماء الموسوية في العلم بالسِّوَى وإرادته والفتنة به، ويوصفون بالعلم، لكنِ الأولون: موصفون بالجهل والعدل، والآخِرون: موصفون بالظلم، وكلاهما صحيح.

فأما العلم بالحق والخلق وإرادة الله وحده لا شريك له، فهذا نعت (المحمدية) الكاملون في العلم والإرادة، وسلامة القلب المحمودة هي

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٣٥١).

(٢) الحديث: رواه أبو يعلى في مسنده (١٢/ ٥٢٢/ ٧٠٨٧) من حديث: أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها.

(٣) يعني الإمام أبا إسماعيل الهروي، وقد تقدم ذكر كلامه في التوحيد والفناء (١/ ٣٨٦).

سلامة؛ إذ الجهل لا يكون بنفسه صفةَ مدح، إلا أنه قد يُمدح لسلامته به عن الشرور؛ فإن أكثر النفوس إذا عرفت الشرَّ الذي تهواه اتبعته أو فزعت منه أو فتنها.

الثالث: فناء عن وجود السِّوى: بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين، كالبلياني والتلمساني والقونوني، ونحوهم، الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات، وحقيقة الكائنات، وأنه لا وجودَ لغيره، لا بمعنى أن قيام الأشياء به ووجودها به.

كما قال النبي ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[1]

وكما قيل في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]: فإنهم لو أرادوا ذلك، لكان ذلك هو الشهودَ الصحيحَ، لكنهم يريدون أنه هو عينُ الموجودات، فهذا كفرٌ وضلال ربما تمسك أصحابه بألفاظ متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ، كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تُروى عن المسيح، ويرجعون إلى وَجدٍ فاسد، أو قياسٍ فاسدٍ، فتدبَّر هذا التقسيم؛ فإنه بيان الصراط المستقيم»اهـ[2].

ثالثاً: مسألة: سقوط التكاليف، بالفناء:

المعتدلون من الصوفية لا يقولون بسقوط التكاليف ما دام العبد قادراً مستطيعاً، وقد بيّن الشيخ ذلك بما نقله عن أبي عبد الله بن خفيف:

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٤٧٣).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٣٧ ـ ٣٤٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣١٣ ـ ٣١٥، ٣٦٩، ١٠/ ٢١٨).

قال ـ شيخ الإسلام ـ: «وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات»: . . ونعتقد: أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه، فيبقى على أحكام القوة والاستطاعة؛ إذ لم يسقط الله ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلى فضاء الحرية، بإسقاط العبودية والخروج إلى أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرية، فهو كافر لا محالةَ، إلا مَنِ اعتراه علة أو رأفة، فصار معتوهاً أو مجنوناً، أو مبرسماً[1]: اختلط عقله، أو لحقه غشية يرتفع عَنه بها أحكام العقل، وذهب عنه التميز والمعرفة، فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة»اهـ[2].

وتكلم الشيخ عن مسألة زوال التكليف بالفناء أو عدم زواله، فقال:

«**والمقصود هنا:** أن الفرق بين الأفعال الحسنة التي يحصل لصاحبها بها لَذة، وبين السيئة التي يحصل له بها ألم، أمرٌ حسيٌّ يعرفه جميع الحيوان، فمن قال من المدَّعين للحقيقة القدرية والفناء في توحيد الربوبية والاصطلام: إنه يبقى في عين الجمع بحيث لا يفرق بين ما يؤلم أو ما يلذ، كان هذا مما يُعلم كذبه فيه إن كان يفهم ما يقول، وإلا كان ضالًّا يتكلم بما لا يعرف حقيقته، وهو الغالب على من يتكلم في هذا.

فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد ـ مشهد الفناء في توحيد الربوبية ـ فلا يشهد فرقاً ما دام في هذا المشهد. . .

فإن قيل: فهل هذا الفناء يزول به التكليف؟

---

(١) تقدم بيان معنى البرسام. انظر (١/ ٥١٩).
(٢) الفتاوى (٥/ ٨٢).

قيل: إن حصل للإنسان سبب يعذر فيه زال به عقله الذي يميز به، فكان بمنزلة النائم والمغمى عليه والسكران سكراً لا يأثم به، كمن سكر قبل التحريم، أو أُوجِرَ الخمرَ، أو أُكره على شربها عند الجمهور، وأما إن كان السكر لسبب محرم، فهذا فيه نزاع معروف بين العلماء.

والذين يذكرون عن أبي يزيد وغيره كلماتٍ من الاتحاد الخاص ونفي الفرق، ويعذرونه في ذلك، يقولون: إنه غاب عقله حتى قال: أنا الحق، و: سبحاني، و: ما في الجبة إلا الله، ويقولون: إن الحب إذا قَوِيَ على صاحبه، وكان قلبه ضعيفاً يغيب بمحبوبه عن حبه، وبموجوده عن وجده، وبمذكوره عن ذكره، حتى يفنَى من لم يكن، ويبقى من لم يزل. ويحكون:

أن شخصاً ألقى بنفسه في الماء فألقى محبه نفسه خلفه! فقال: أنا وقعت، فلم وقعت أنت؟! فقال: غبت بك عني؛ فظننت أنك أني! فمثل هذا الحال التي يزول فيها تمييزه بين الرب والعبد، وبين المأمور والمحظور، ليست علماً ولا حقاً، بل غايته أنه نقص عقله الذي يفرق به بين هذا وهذا، وغايته أن يعذر، لا أن يكون قوله تحقيقاً.

وطائفة من الصوفية المدَّعين للتحقيق، يجعلون هذا تحقيقاً وتوحيداً، كما فعله صاحب (منازل السائرين)[1] وابن العريف[2]، وغيرهما، كما أن الاتحاد العام جعله طائفة تحقيقاً وتوحيداً: كابن عربي الطائي»اهـ[3].

---

(١) يعني الإمام أبا إسماعيل الهروي، وقد تقدم ذكر كلامه في التوحيد والفناء (١/ ٣٨٦).

(٢) تقدمت ترجمته (١/ ١١٣)، ويشير شيخ الإسلام إلى كتابه «محاسن المجالس».
وقد تقدم التعريف بهذا الكتاب (١/ ١٠٩).
وانظر: البداية والنهاية (٨/ ٥١٤).

(٣) الفتاوى (٨/ ٣١٠ ـ ٣١٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (٢/ ٦٣٤).

أدلة الصوفية على قولهم بزوال التكليف بالفناء:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

قال الشيخ في معرض رده على ملاحدة الفلاسفة والباطنية الذين يقولون بإباحة المحظورات، وسقوط الواجبات: «وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدةَ المتصوفة: الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجباً على السالك حتى يصير عارفاً محققاً في زعمهم، وحينئذ يسقط عنه التكليف، ويتأوّلون على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، زاعمين أن اليقين: هو ما يدّعونه من المعرفة، واليقين هنا: الموت وما بعده.

كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٥ ـ ٤٨].

قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت. وتلا هذه الآية[١].

ومنه قوله ﷺ لمَّا توفي عثمان بن مظعون: **(أمَّا عثمان بن مظعون، فقد أتاه اليقين من ربه)**[٢]، وهؤلاء قد يشهدون القدر أولاً وهي الحقيقة الكونية، ويظنون أن غايةَ العارف أن يشهد القدر ويفنى عن هذا الشهود،

---

(١) الأثر: أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص٧) عن جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول: أيْ قومِ! المداومةَ المداومةَ؛ فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت. اهـ.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت، ١/٤١٩/١١٨٦)، والحاكم (كتاب الجنائز، ١/٥٣٤/١٤٠١)، من حديث: أم العلاء رضي الله عنها.

وذلك المشهد لا تمييز فيه بين المأمور والمحظور، ومحبوبات الله ومكروهاته، وأوليائه وأعدائه، وقد يقول أحدهم: العارف شهد أولاً الطاعة والمعصية، ثم شهد طاعةً بلا معصية ـ يريد بذلك طاعة القدر ـ، كقول بعض شيوخهم: أنا كافرٌ بربٍّ يُعصى، وقيل له عن بعض الظالمين: هذا مالُه حرام، فقال: إن كان عصى الأمر فقد أطاع الإرادة!.

ثم ينتقلون إلى المشهد الثالث: لا طاعة ولا معصية، وهو مشهد أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود، وهذا غاية إلحاد المبتدعة جهمية الصوفية، كما أن القرمطة[1] آخر إلحاد الشيعة، وكلا الإلحادين يتقاربان، وفيها من الكفر ما ليس في دين اليهود والنصارى ومشركي العرب، والله أعلم»اهـ[2].

الدليل الثاني: قوله ﷺ في بيان معنى الإحسان: (فإن لم تكن تراه)[3]:

قال الشيخ: «كقول بعضهم: **(فإن لم تكُنْ تراهُ)** يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك.

وليس هذا معنى الحديث، فإنه: **لو أريد هذا لقيل:** فإن لم تكُنْ: ترَهْ، وقد قيل: **(تراه)**، ثم كيف يصنع بجواب الشرط؟ وهو قوله: **(فإنه يراك)**.

ثم إنه على قولهم الباطل: تكون **(كان)**: تامة، فالتقدير: فإن لم

---

(١) القرمطة: مذهب فرقة القرامطة، وقد تقدم التعريف بهم، انظر (١/ ٢٢٢).

(٢) الفتاوى (٧/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٥٠٣، ١٠/ ١٦٥، ١١/ ٤١٧، ٥٣٩)، الدرء (٣/ ٢٧٠)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٢٤٦).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٦٧٤).

تكن: أي لم تقع ولم تحصل، وهذا تقدير محال؛ فإن العبد كائنٌ موجودٌ ليس بمعدوم، ولو أُريد فناؤه عن هواه، أو فناءُ شهوده للأغيار لم يعبَّر بنفي كونه؛ فإن هذا محال.

ومتى كان المعنى صحيحاً والدلالة ليست مرادةً يسمى ذلك إشارة، وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي (حقائق التفسير) من هذا قطعةً[١]، وليس المقصود الآن الكلام في هذا، فإنه باب آخر»اهـ[٢].

الآثار التي ترتَّبت على قول الصوفية بالفناء، وسقوط التكاليف، وتعطيل الأمر والنهي لمن وصل إلى مقام الفناء:

ـ عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

بيَّن الشيخ رَحِمَهُ الله ذلك بقوله: «فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض وليس عندهم غيره، إلا ما هو قدر أيضاً ـ من نعيم أهل الطاعة وعقوبة أهل المعصية ـ: لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار، بل إذا رأى أحدهم من يدعو قال: الفقير ـ أو المحقق أو العارف ـ ما له؟ يفعل الله ما يشاء، وينصر من يريد؛ فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إليه أيضاً؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين لا من جهة ربه؛ فإنه لا فرق ـ على رأيه ـ عند الله تعالى بينهما، ولا من جهة نفسه؛ فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار؛ بل كثير منهم تكون حظوظُه الدنيويةُ مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظمَ، فيكون هواه أعظمَ»[٣].

---

(١) سيأتي ذكر أمثلة من كلام أبي عبد الرحمن السلمي في كتابه «حقائق التفسير» عند الكلام عن موقف الشيخ من مصنفات الصوفية (ص٣٥٤).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٥٦٠).

(٣) الفتاوى (٨/ ٣٥٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٩٩، =

ومن آثار القول بالفناء: وقوع فريق منهم في الحلول والاتحاد، وما يتبع ذلك من التلفُّظ بالكلمات التي ظاهرها الكفر:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الفناء وغَيْبة الحال: «فصلٌ: وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد؛ فإن الاتحاد فيه حقٌّ وباطل، لكن لَمَّا ورد عليه ما غيَّب عقله أو أفناه عمَّا سوى محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه: كان معذوراً غيرَ معاقَب عليه، ما دام غيرَ عاقل؛ فإن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق، وإن كان مخطئاً في ذلك، كان داخلاً في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥]، وهذا كما يُحكى: أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر، فوقع المحبوب في اليم، فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت! فما الذي أوقعك؟ فقال: غبتُ بِكَ عني، فظننت أنك أَني!.

فهذه الحال تعتري كثيراً من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق، وفي غير جانبه، وإن كان فيها نقصٌ وخطأ؛ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه، وعن نفسه وبمذكوره عن ذِكره، وبمعروفه عن عرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، فلا يشعر حينئذ بالتمييز، ولا بوجوده؛ فقد يقول في هذه الحال: أنا الحق، أو: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا الله، ونحو ذلك وهو سكران بوَجْد المحبة، الذي هو لَذة وسرور بلا تمييز وذلك السكران: يطوى ولا يروى إذا لم يكن سُكره بسبب محظور؛ فأما إذا كان السبب محظوراً: لم يكن السكران معذوراً»اهـ[1].

= ٢٣١، ١٠/ ٢٧، ١٦٥، ١١/ ٢٧، ١٤/ ٣٥٨، ١٦/ ٢٤٢)، الاستغاثة (١/ ٢٢٥).

(١) الفتاوى (٢/ ٣٩٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٤٦١، ٨/ ٣٥٠، ١٣/ ١٩٨).

ومن آثار القول بالفناء: غَلَبَةُ الفناء والشهود على القلب، حتى يُخيَّلَ للمرء أنه يرى الله تعالى:

قال الشيخ: «وكثير من هؤلاء العبَّاد الذي يشهد قلبه الصورة المثالية، ويفنى فيما شهده، يظن أنه رأى الله بعينه؛ لأنه لَمَّا استولى على قلبه سلطان الشهود، ولم يبق له عقل يميز به، والمشاهد للأمور هو القلب، لكن تارة شاهدها بواسطة الحس الظاهر وتارة بنفسه، فلا يبقى أيضاً يميز بين الشهودين، فإن غاب عن الفرق بين الشهودين ظن أنه رآه بعينه، وإن غاب عن الفرق بين الشاهد والمشهود ظن أنه هو؛ كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: ليس في الجبة إلا الله، وكما قال الآخر: غبت بك عني، فظننت أنك أني، وكان المحبوب قد ألقى نفسه في الماء، فألقى المحبُّ نفسَه خلفَه، وهذا كله من قوة شهود القلب وضعف العقل، بمنزلة ما يراه النائم؛ فإنه لِغَيْبَةِ عقله بالنوم يظن أن ما يراه هو بعينه الظاهرة، وما يسمعه يسمعه بأذنه الظاهرة، وما يتكلم به يتكلم به بلسانه الحس الظاهر، وعينه مغمضة ولسانه ساكت، وقد يَقْوَى تصوُّره الخيالي في النوم حتى يتصلَ بالحس الظاهر، فيبقى النائمُ يقرأ بلسانه، ويتكلم بلسانه تبعاً لخياله، ومع هذا فعقله غائب لا يشعر بذلك، كما يحصل مثل ذلك للسكران والمجنون وغيرهما»اهـ[1].

ومن آثار القول بالفناء: أن العارف منهم إذا غلب الفناء والشهود على قلبه، ظن بأن كلَّ ما يفعله طاعةٌ ومحبوبٌ ومرادٌ لله تعالى، فلا يفرق بين الحسنة والسيئة:

قال الشيخ: «العارف المحقق ـ عنده[2] ـ هو من يصل إلى مقام الفناء، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق، وجميع الكائنات مرادة له،

---

(١) الفتاوى (٥/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٩٧).

(٢) يعني أبا إسماعيل الهروي رَحِمَهُ اللهُ، وقد تقدم سياق كلامه (١/ ٣٨٦).

وهذا هو الحكم عنده، و(الحسنة) و(السيئة) يفترقان في حظ العبد؛ لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق...

فإن هؤلاء يدَّعون: أن العارف الواصل إلى مقام الفناء لا يفرق بين هذا وهذا، وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب:

أما في حق العبد: فيلزمهم أن تسوى عنده جميع الحوادث، وهذا محال قطعاً، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء، أما الفناء عن جميعها: فممتنع؛ فإنه لا بد أن يفرق كلُّ حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه، فيفرق بين الخبز والتراب، والماء والشراب، فهؤلاء: عزلوا الفرق الشرعي الإيماني الرحماني، الذي به فرَّق الله بين أوليائه وأعدائه، وظنوا أنهم مع الجمع القدري، وعلى هذا: فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته، بل لا بد للعبد من أن يفرق، فإن لم يفرق بالفرق الشرعي ـ فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطه ـ وإلا فرق بالفرق الطبعي: بهواه وشيطانه، فيحب ما تهواه نفسه وما يأمر به شيطانه.

ومن هنا: وقع منهم خلق كثير في المعاصي، وآخرون في الفسوق، وآخرون في الكفر، حتى جوَّزوا عبادة الأصنام»اهـ[1].

وبما سبق يتبين أن قول الصوفية بالفناء، أوقعهم في ضلالات كثيرة، منها القول بسقوط التكاليف الشرعية، وتعطيل عدد من شرائع الدين؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإبطال الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم لوم العصاة على معاصيهم؛ إذ لا فرق بين الحسنة والسيئة أصلاً، إلى غير ذلك من الضلالات التي تقدم تفصيلها.

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٥٩، ٣٤٧، ١٠/ ٤٩٧، ١٩/ ٢٧٧)، المنهاج (٣/ ٧٦)، الاستغاثة (١/ ٢٣٠، ٢٣٧، ٣٢٣).



الفصل السابع

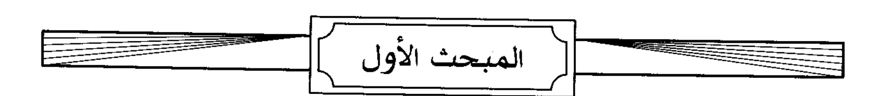
موقفهم من المعاصي ودرجاتها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: موقفهم من العصاة عامة

المبحث الثاني: الكفر وأسبابه، عندهم





موقفهم من العصاة عامة

أهل السنة والجماعة يحبون الرجل بقدر ما عنده من طاعة، ويبغضونه بقدر ما عنده من معصية، وكلما زادت طاعة الرجل لله تعالى كان أحبَّ إليهم، وكلما كان أكثرَ معصيةٍ وإعراضاً عن طاعة الله تعالى، كان أبغضَ إليهم، لكنهم لا يُخرجونه من ملة المسلمين بمعصية، ما لم تكن هذه المعصية مكفرةً، والعاصي مَلومٌ على معصيته، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة.

أما المتصوفة، فالأمر عندهم يختلف عن ذلك: فهم لمَّا قالوا بالجبر والفناء في توحيد الربوبية، عذروا جميع العصاة في معاصيهم؛ بل لم يفرّقوا بين الحسنة والسيئة، وقالوا: إن الكل محبوب إلى الله تعالى.

وقد بيَّن شيخ الإسلام مذهبهم في ذلك، وردَّ عليهم بقوله: «أهل الفناء في توحيد الربوبية قد يظن أحدهم أنه إذا لم يشهد إلا فعل الرب فيه، فلا إثم عليه، وهم في ذلك بمنزلة من أكل السموم القاتلة، وقال: أنا أشهد أن الله هو الذي أطعمني فلا يضرني، وهذا جهل عظيم؛ فإن الذنوب والسيئات تضر الإنسان أعظمَ مما تضرُّه السموم، وشهوده أن الله فاعل ذلك لا يدفع ضررها، ولو كان هذا دافعاً لضررها، لكان أنبياء الله وأولياؤه المتقون أقدرَ على هذا الشهود الذي يدفعون به عن أنفسهم ضرر الذنوب.

ومن هؤلاء من يظن أن الحق إذا وهبه حالاً يتصرف به وكشفاً، لم يحاسِبْه على تصرفه به، وهذا بمنزلة من يظن أنه إذا أعطاه مُلكاً لم

يحاسبه على تصرفه فيه، وقد قال النبي ﷺ: (**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطِيَ لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ**)[1]، فبين: أنه مع أنه المعطي المانع، فلا ينفع المجدودَ جدُّه؛ إنما ينفعه الإيمان والعمل الصالح.

فهذا أصل عظيم، ضلَّ بالخطأ فيه خلق كثير، حتى آل الأمر بكثير من هؤلاء إلى أن جعلوا أولياءَ الله المتقين يقاتلون أنبياءه، ويعاونون أعداءه! وأنهم مأمورون بذلك، وهو أمر شيطاني قدري، ولهذا يقول من يقول منهم: إن الكفار لهم خفراء من أولياء الله، كما للمسلمين خفراء من أولياء الله، ويظن كثير منهم أن أهل الصُّفَّة قاتلوا النبي ﷺ في بعض المغازي، فقال: (**يا أصحابي! تخلوني وتذهبون عني؟!**) فقالوا: نحن مع الله، من كان مع الله كنا معه.

ويجوِّزون قتال الأنبياء وقتلهم، كما قال شيخ مشهور منهم كان بالشام: «لو قتلت سبعين نبياً ما كنت مخطئاً! فإنه ليس في مشهدهم لله محبوبٌ مرضيٌّ مرادٌ إلا ما وقع، فما وقع، فالله يحبه ويرضاه، وما لم يقع فالله لا يحبه ولا يرضاه، والواقع هو تَبَعُ القدر لمشيئة الله وقدرته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهم من غلب كانوا معه؛ لأن من غلب كان القدرُ معه، والمقدور عندهم هو محبوبُ الحق، فإذا غلب الكفارُ كانوا معهم، وإذا غلب المسلمون كانوا معهم، وإذا كان الرسول منصوراً كانوا معه، وإذا غُلب أصحابه كانوا مع الكفار الذين غلبوهم.

وهؤلاء الذين يصلون إلى هذا الحد غالبهم لا يعرف وعيدَ الآخرة،

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة، ١/ ٢٨٩/ ٨٠٨)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ١/ ٤١٤/ ٥٩٣).

فإن مَنْ أقرَّ بوعيد الآخرة وأنه للكفار، لم يمكنه أن يكون معاوناً للكفار موالياً لهم على ما يوجب وعيد الآخرة، لكن قد يقولون بسقوطه مطلقاً، وقد يقولون بسقوطه عمَّن شهد توحيدَ الربوبية، وكان في هذه الحقيقة القدرية، وهذا يقوله طائفة من شيوخهم، كالشيخ المذكور وغيره.

فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض وليس عندهم غيره إلا ما هو قدر أيضاً ـ من نعيم أهل الطاعة وعقوبة أهل المعصية ـ لا يأمرون بالمعروف ولا ينهوْن عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله؛ بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار، بل إذا رأى أحدهم من يدعو، قال الفقير أو المحقق أو العارف: ما له؟ يفعل الله ما يشاء وينصر من يريد! فإن عنده أن الجميع واحدٌ بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إليه أيضاً؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين، لا من جهة ربه ـ فإنه لا فرق على رأيه عند الله تعالى بينهما ـ ولا من جهة نفسه ـ فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار، بل كثير منهم تكون حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم، فيكون هواه أعظمَ، وعامة من معهم من الخفراء هم من هذا الضرب، فإن لهم حظوظاً ينالونها باستيلائهم، لا تحصُل لهم باستيلاء المؤمنين، وشياطينهم تحب تلك الحظوظَ المذمومةَ، وتغريهم بطلبهم، وتخاطبهم الشياطين بأمرٍ ونهيٍ وكشفٍ يظنونه من جهة الله، وأن الله هو أمرهم ونهاهم، وأنه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء الله المتقين، ويكون ذلك كله من الشياطين، وهم لا يفرقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية؛ لأن الفرق مبنيٌّ على شهود الفرق من جهة الرب تعالى، وعندهم لا فرق بين الأمور الحادثة كلها من جهة الله تعالى؛ إنما هو مشيئة محضة تناولت الأشياء تناولاً واحداً، فلا يحبُّ شيئاً ولا يبغض شيئاً»اهـ[1].

---

(١) الفتاوى (٨/٣٤٨ ـ ٣٥١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/٣٠٠، ٣٢١).

وقال الشيخ ـ أيضاً ـ في معرض كلامه عن الفناء عند المتصوفة:
«فإن هؤلاء يدَّعون: أن العارف الواصل إلى مقام الفناء، لا يُفَرق بين هذا وهذا، وهم غلطوا في حق العبد وفي حق الرب.. فإن تسوية العبد بين جميع الحوادث ممتنع لذاته، بل لا بد للعبد من أن يفرق؛ فإن لم يفرق بالفرق الشرعي ـ فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه، وبين ما يرضاه وما يسخطه ـ وإلا فرّق بالفرق الطبعي بهواه وشيطانه، فيحبُّ ما تهواه نفسه وما يأمر به شيطانه. ومن هنا: وقع منهم خلق كثير في المعاصي، وآخرون في الفسوق، وآخرون في الكفر، حتى جوَّزوا عبادة الأصنام...

والمقصود هنا: الكلام على من نفى الحِكَم والعدل والأسباب في القدر، من أهل الكلام والمتصوفة.

فهؤلاء يقولون: إن الرب يجوز أن يفعل كلَّ ما يقدر عليه ويمكن فعله، ومن غير مراعاة حكمةٍ ولا رحمةٍ ولا عدلٍ، ويقولون: إن مشيئته هي محبته، ولهذا تجد من اتبعهم: غيرَ معظِّم للأمر والنهي، والوعد والوعيد، بل هو منحلٌّ عن الأمر الشرعي كلِّه أوً عن بعضه، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه؛ فإنهم أرادوا: أن الجميع بالنسبة إلى الرب سواءٌ، وأن كل ما شاءه فقد أحبه، وأنه يُحْدث ما يُحْدثه بدون أسباب يخلقه بها، ولا حكمة يسوقه إليها؛ بل غايته: أنه يسوق المقاديرَ إلى المواقيت لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور؛ بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله ـ كالأشعري ـ في أنه في نفس الأمر: لا حسن ولا سيئ، وإنما الحُسْن والقبْحُ: مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً، وذلك فرق يعود إلى حظ العبد، وهؤلاء يدّعون الفناء عن الحظوظ:

فتارة: يقولون في امتثال الأمر والنهي: أنه من مقام التلبيس، أو ما

يشبه هذا، كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروي ـ صاحب (منازل السائرين) ـ[١].

وتارة: يقولون: يفعل هذا لأهل المارستان ـ أي العامة ـ كما يقوله الشيخ المغربي[٢] إلى أنواع ليس هذا موضع بسطها.

ومن يسلك مسلكهم غايته ـ إذا عظم الأمر والنهي ـ أن يقول كما نقل عن الشاذلي: يكون الجمع في قلبك مشهوداً، والفرق على لسانك موجوداً. ولهذا يوجد في كلامه وكلام غيره: أقوال وأدعية وأحزاب تستلزم تعطيلَ الأمر والنهي، مثل أن يَدعو: أن يعطيه الله إذا عصاه أعظمَ مما يعطيه إذا أطاعه! ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده: أن يُجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ بل أفضل منهم، ويدعون بأدعية فيها اعتداء كما يوجد في جواب الشاذلي، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع»اهـ[٣].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن حديث اختصام موسى وآدم ﷺ[٤]: «وحزب من الصوفية والعامة شرٌّ من هؤلاء؛ جعلوا الحديث حجةً على دفع الذم والعقاب عن الكفار والفساق والعصاة،

---

(١) منازل السائرين (ص١٣٠، باب: التلبيس).

(٢) يعني ابن عربي، وقد تقدمت الإشارة إلى كلامه (١/ ٢٤٩).

(٣) الفتاوى (١٤/ ٣٥٥ ـ ٣٥٩).

(٤) وهو ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّر عليَّ قبل أن أُخلق؟) فقال رسول الله ﷺ: (فحجَّ آدمُ وموسى، مرتين)، رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى وذكر بعد، ٣/ ١٢٥/ ٣٢٢٨)، ومسلم (كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٤/ ٢٠٤٢/ ٢٦٥٢)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

وسمَّوا هذا حقيقةً، وهو حقيقة القدر، وقال منهم طائفة: مَن شهد القدر ارتفع عنه الملام، وقالوا: آدم كان شاهداً القدر.

ودخل في ذلك طائفة من أعيان الشيوخ والعلماء، فظنوا أن الخواصَّ يرتفع عنهم الذم والعقاب بشهود القدر دون العامة منهم»اهـ[١].

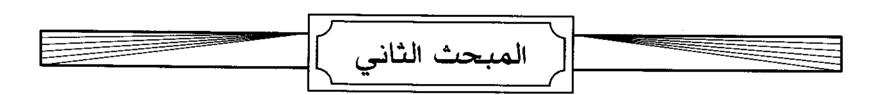
ونخلُص مما سبق مما حكاه شيخ الإسلام من مذهب المتصوفة في المعاصي والعصاة إلى ما كنا قررناه سابقاً من تساهل فريق كبير من الصوفية بالوقوع في المعاصي، واعتذارهم للعصاة.

وقد رد عليهم شيخ الإسلام هنا كما ردَّ عليهم في مبحث سابق عن موقفهم من الوعد والوعيد[٢].



(١) الاستغاثة (٢/ ٦٣٤).

(٢) انظر (ص١٦).



المبحث الثاني

الكفر وأسبابه عندهم

الكفر في اللغة:

الستر والتغطية، فالعرب تسمي الليل: كافراً؛ لأنه يستر الأشياء ويخفيها، وتسمي الفلاح: كافراً؛ لأنه يغطي البذر في التراب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠][١].

والكفر في الشرع:

نقيض الإيمان، وهو إنكار شيء مما جاء به النبي ﷺ، ووصل إلينا بطريق يقيني، والكفر نوعان: اعتقادي، وعملي[٢].

أما موقف المتصوفة من الكفر وأسبابه، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: الاتحادية يصحِّحون جميع العقائد، فلا كفر عندهم ولا إيمان:

قال الشيخ: «فصلٌ: حقيقة مذهب الاتحادية ـ كصاحب (الفصوص) ونحوه ـ الذي يؤُول إليه كلامهم، ويصرِّحون به في مواضعَ: أن الحقائق تتبع العقائد، وهذا أحد أقوال السوفسطائية؛ فكل من قال شيئاً أو اعتقده فهو حق في نفس هذا القائل المعتقد؛ ولذا يجعلون

---

(١) انظر مادة: كفر، في: القاموس (ص٦٠٥)، مختار الصحاح (ص٥٧٣ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٢) انظر: الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، لعبد الرحمن عبد الخالق (ص٦٨ ـ ٦٩، بتصرف).

الكذب حقاً؛ ويقولون: العارف لا يكذب أحداً؛ فإن الكذب هو أيضاً أمر موجود، وهو حقٌّ في نفس الكاذب، فإن اعتقده كان حقاً في اعتقاده وكلامه، ولو قال ما لم يعتقده كان حقاً في كلامه فقط، ولهذا يأمر المحققُ أن تعتقد كلَّ ما يعتقده الخلائق، كما قال:

عَقَدَ الخلائقُ في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[1]

ومعلوم أن الاعتقادات المتناقضة لا تكون معتقداتها في الخارج، لكن في نفس المعتقد، ولهذا يأمرون بالتصديق بين النقيضين والضدين، ويجعلون هذا من أصول طريقهم وتحقيقهم، ومعلوم أن النقيضين لا يجتمعان في الخارج، لكن يمكن اعتقادُ اجتماعهما، فيكون ذلك حقاً في نفس المعتقد، وهم يدَّعون أن ذلك يحصل كشفاً. فكشفهم متناقض، فخاطبت بذلك بعضهم، فقال: كلاهما حقٌّ؛ كالذي كُشف له أن الزهرة فوق عطارد، والذي كُشف له أنها تحت عطارد، فقال: هي مِنْ كَشْف هذا فوق عطارد، وفي كشف هذا تحت عطارد! وأمثال ذلك.

فجعلوا الحقائق الثابتة تتابع الكشف والاعتقاد والقول؛ ولهذا يقولون: سِرْ حيث شئت فإن الله ثَمَّ، وقل ما شئت فيه فإن الواسع الله! ومضمون هذا الأصل أن كل إنسان: يقول ما شاء ويعتقد ما شاء من غير تمييز بين حقٍّ وباطل وصادق وكاذب، وأنه لا ينكر في الوجود شيء، وهكذا يقولون هذا من جهة الخبر والعلم، وأما من جهة الأمر والعمل، فإن محققهم يقول: ما عندنا حرام؛ ولكن هؤلاء المحَجَّبون قالوا: حرام، فقلنا: حرامٌ عليكم، فما عندهم أمرٌ ولا نهيٌ، كما قال القاضي[2] الذي هو تلميذ صاحب (الفصوص) فيما أنشدنيه الشاهد ابن [عمد المقلب بعرعيه][3]:

---

(١) تقدم الكلام عن هذا البيت وبيان قائله، انظر (١/ ٤٥٠).

(٢) لم يتبين لي من يعني بالقاضي.

(٣) قال في حاشية المطبوع: هكذا أحرف الأصل.

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من حَمْد ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم[(١)]

وحينئذ فما يبقى للأقوال والأفعال إلا مجرد القدرة؛ ولهذا هم يمشون مع الكون دائماً، فأيّ شيء وجد وكان: كان عندهم حقاً، فالحلال ما وجدته وحلَّ بيدك! والحرام ما حُرِمتَه، والحق ما قلتَه كائناً ما كان، والباطل ما لم يقلْه أحد!.

وهؤلاء شرٌّ من المباحية الملاحدة، الذين يَجْرون مع محض القدر؛ فإن أولئك يعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب، وهؤلاء عطلوا أيضاً الصانع والرسالة والحقائق كلَّها، وجعلوا الحقائق بحسب ما يُكْشف للإنسان، ولم يجعلوا للحقائق في أنفسها حقائقَ تتحقق به يكون ثابتاً وبنقيضه منتفياً، بل هذا عندهم يفيده الإطلاق: ألّا تقف مع معتقَد؛ بل تعتقد جميع ما اعتقده الناس، فإن كانت أقوالاً متناقضةً، فإن الوجود يَسَعُ هذا كلَّه، ووحدة الوجود تسع هذا كله.

ومعلوم أن الوجود إنما يسع وجود هذه الاعتقادات لا يسع تحقق المعتقدات في أنفسها، وهذا مما لا نزاع فيه بين العقلاء؛ فإن الاعتقاد الباطل والقول الكاذب: هو موجود داخلٌ في الوجود، لكن هذا لا يقتضي أن يكون حقاً وصدقاً؛ فإن الحق والصدق إذا أطلق على الأقوال الخبرية لا يراد به مجردَ وجودها؛ فإن هذا أمر معلوم بالحس، وعلى هذا التقدير فكلها حق وصدق.

ومن المعلوم أن السائل عن حقها وصدقها: هي عنده منقسمةٌ إلى حق وباطل، وصدق وكذب، والمراد بكونها حقاً وصدقاً: كونُها مطابقةً للخبر أو غيرَ مطابقةٍ، ثم قد تكون مطابقةً في اعتقاد القائل دون الخارج

= وابن عمد المقلب: لم أعثر له على ترجمة.
(١) البيتان: تقدم الكلام عنهما، انظر (١/ ٤٥١).

وهذا هو الخطأ، وقد يسمى كذباً وقد لا يطلق عليه ذلك:

فالأول: كقول النبي ﷺ: **(كذب أبو السنابل)**[١]، وقوله: **(كذب من قالها؛ إن له لأجرين اثنين، إنه لجاهد مجاهد)**[٢]، وقول عبادة رضي الله عنه: كذب أبوكم، وقول ابن عباس رضي الله عنه: «كذب نوف»[٣].

والثاني: كقوله ﷺ: **(لم أنس ولم تُقصَر)**، فقال له ذو اليدين: بلى قد نسيت[٤].

وكأن الفرق ـ والله أعلم ـ: أن من أخبر مع تفريطه في الطريق الذي يُعلم به صوابه وخطؤه فأخطأ سمي كاذباً ـ بخلاف من لم يفرط ـ لأنه تكلم بلا حجة ولا دليل مجازفة فأخطأ، بخلاف من أخبر غير مفرط، وهذا الفرق يصلح أن يفرق به فيمن حلف على شيء يعتقده كما حلف عليه فتبين بخلافه: أنه إن حلف مجازفاً بلا أصل يرجع إليه، مثل من حلف: أن هذا غراب، أو ليس بغراب، بلا مستنَد أصلاً فبان خطأً؛ فإن هذا يحنَث وذلك يحنَث، مثل هذا وإن لم يعلم خطؤه وإن أصاب، وهي مسألة حلفه أنه في الجنة، وهذا كما تقول: المفتي إذا أفتى بغير علم أنه أثم وإن أصاب، وكذلك المصلي إلى القبلة بغير اجتهاد، وكذلك المفسر للقرآن برأيه.

ولهذا تجد هؤلاء في أخبارهم من أكثر الناس كذباً؛ الكذب

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٤٥٢).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٤٥٢).

(٣) يشير الشيخ إلى ما جاء عن سعيد بن جبير قال: (قيل لابن عباس: إن نوفاً يزعم أن موسى الذي ذهب يلتمس العلم، ليس بموسى بني إسرائيل، قال: أسمعته يا سعيد؟ قلت: نعم، قال: كذب نوف). رواه مسلم، (كتاب الفضائل، باب في فضائل الخضر عليه السلام، ٤/ ١٨٥٠/ ٢٣٨٠).

(٤) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٤٥٣).

كالصدق عندهم، فيستعملونه بحسب الحاجة، ولا يبالون إذا أخبروا عن الشيء الواحد بخبرين متناقضين، وتجدهم في أعمالهم بحسب أهوائهم؛ فيعملون العملين المتناقضين أيضاً إذا وافق هذا هواهم في وقت، وهذا هواهم في وقت.

وهم دائماً مع المطاع؛ سواءً كان مؤمناً أو كافراً، أو براً أو فاجراً، أو صديقاً أو زنديقاً. والتتار قبل إسلامهم وإن شركوهم في هذا: فهم أحسن منهم في الخبريات؛ إذ التتار لا يخبرون عن الأمور الإلهية: بالخبرين المتناقضين، بل أحدهم إما أن يعتقد الشيء علماً أو تقليداً أو لا يعتقد شيئاً، فأما أن يجمع بين النقيضين، فلا. فهؤلاء شرٌّ حالاً من مثل التتار. ولهذا ليس لهم عاقبة؛ فإنهم ليسوا متقين يميزون بين مأمور ومحظور وصدق وكذب، والعاقبة إنما هي للمتقين، وإنما قيام أحدهم: بقدر ما يكون قادراً. ومعلوم أن قدرة أحدهم لا تدوم؛ بل يعمل بها من الأعمال ما يكون سبب الوبال. ولا ريب أن هؤلاء مندرجون في:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [محمد: ٣].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩].

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وفي قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولا ريب أن الحق نوعان:

حق موجود: وبه يتعلق الخبر الصادق.

وحق مقصود: وبه يتعلق الأمر الحكيم، والعمل الصالح.

وضد الحق: الباطل.

ومن الباطل الثاني: قول النبي ﷺ: **(كل لهو يلهو الرجل به فهو باطل، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته؛ فإنهن من الحق)**(١).

والحق الموجود إذا أخبر عنه بخلافه كان كذباً، وهؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل، بين الحق الموجود الذي ينبغي اعتقادُه والباطل المعدوم الذي ينبغي نفيُه في الخبر عنهما، ولا بين الحق المقصود الذي ينبغي اعتمادُه والباطل الذي ينبغي اجتنابُه؛ بل يقصدون ما هَوَوْهُ وأمكنهم منهما.

وأصدق الحق الموجود: ما أخبر الله بوجوده، والخبر الحق المقصود ما أمر الله به، وإن شئتَ قلتَ: أصدقُ خبر عن الحق الموجود: خبر الله، وخير أمرٍ بالحق المقصود: أمرُ الله، والإيمان يجمع هذين الأصلين: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وإذا قرن بينهما قيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [مريم: ٩٦]، والعمل خير من القول، كما قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمنِّي ولا بالتحلِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل(٢)»اهـ(٣).

---

(١) الحديث: رواه ابن ماجه (كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، ٢/ ٩٤٠/ ٢٨١١)، وأبو داود (أول كتاب الجهاد، باب في الرمي، ٣/ ١٣/ ١٦٣٧)، والترمذي (كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، ٤/ ١٧٤/ ١٦٣٧)، من حديث: عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) الأثر: عند ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان برقم (٩٣) وروي مرفوعاً من حديث الحسن عن أنس ولا يصح، بل موضوع، انظر: السلسلة الضعيفة برقم (١٠٩٨).

(٣) الفتاوى (٢/ ٩٨ ـ ١٠٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ١١٠).

ـ وبيَّن الشيخ أن غَلَبَةَ الكفر على بعضهم أدى إلى عدم التمييز بين كفر وإيمان:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الإرادة، وغلطِ فريق من المتصوفة في فهمها، حيث ذكر الطائفة الأولى وهم القدرية، ثم ذكر الطائفة الثانية، فقال: «وأما الطائفة الثانية فهم شرٌّ منهم، وهم طوائفُ من أهل السلوك والإرادة والتألُّه والتصوف والفقر ونحوهم، يشهدون هذه الحقيقة، ورأوا أن الله خالقُ المخلوقات كلِّها، فهو خالق أفعال العباد ومريدُ جميع الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا عرفان ولا نكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتدٍ ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا نبي ولا متنبئ، ولا ولي لله ولا عدو، ولا مرضي لله ولا مسخوط، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البِرِّ والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار؛ حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق، والمشيئة النافذة، والقدرة الشاملة، والخلق العام؛ فشهدوا المشترك بين المخلوقات، وعَمُوا عن الفارق بينهما، وصاروا ممن يخاطب بقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، وبقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وبقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١]»اهـ[1].

ـ الاتحادية يزعمون أن العارف يشهد الربوبية، فلا يفرق بين كفر وإيمان وحسنة وسيئة، وحقيقة هذا الشهود: الكفر، ويسمونه بغير اسمه، ويعدُّونه مقاماتٍ عاليةً:

قال الشيخ مبيناً ذلك: «فإذا شهدوا توحيد الربوبية كان ذلك عندهم

---

(١) الفتاوى (٨/٥٨ ـ ٦٠).

عِللاً - في الحقيقة - إما لنقص المعرفة والشهود، وإما لأنه ذبٌّ عن النفس وطلبُ حظوظها؛ فإنه من شهد أن كل ما في الوجود، فالرب يحبه ويرضاه ويريده، لا فرق عنده بين شيء وشيء، إلا أن من الأمور ما معه: حظٌّ لبعض الناس: من لذة يصيبها، ومنها ما معه: ألم لبعض الناس، فمن كان هذا مشهده؛ فإنه قطعاً يرى أن كل من فرق بين شيء وشيء لم يفرق إلا لنقص معرفته وشهوده أن الله ربُّ كلِّ شيء، ومريدٌ لكل شيء، ومحب - على قولهم - لكل شيء، وإنما لفرق يرجع إلى حظه وهواه؛ فيكون طالباً لحظه ذابّاً عن نفسه، وهذا علة وعيب عندهم.

فصار عندهم كلُّ من فرَّق: إما ناقصَ المعرفة والشهادة، وإما ناقصَ القصد والإرادة، وكلاهما علةٌ، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية، فإنه يشهد كلَّ ما في الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء؛ فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، كما قاله صاحب (منازل السائرين)؛ فإنه لا فرق عنده في هذا المشهد بين المساجد والكنائس والحانات، وبين أهل الصلاة والإحرام وقراءة القرآن وأهل الكفر وقطاع الطريق والمشركين بالرحمن.

ولا ريب أن فناءهم وغيبتهم عن شهود الإلهية والنبوة شهادة أن لا إله إلا إله وأن محمداً رسول الله، وما تضمنه من الفرق، يرجع إلى نقص العلم والشهود والإيمان والتوحيد، فشهدوا نعتاً من نعوت الرب وغابوا عن آخر، وهذا نقص، وقد يروْن أن شهودَ الذات مجردةً عن الصفات أكملُ، ويقولون: شهود الأفعال، ثم شهود الصفات، ثم شهود الذات المجردة، وربما جعلوا الأول: للنفس، والثاني: للقلب، والثالث: للروح، ويجعلون هذا النقص من إيمانهم ومعرفتهم وشهودهم هو الغاية، فيكونون مضاهين للجهمية نُفاةِ الصفات؛ حيث أثبتوا ذاتاً مجردةً عن الصفات، وقالوا: هذا هو الكمال! لكن أولئك يقولون بانتفائها في

الخارج، فيقولون إنهم يشهدون أنها منتفية وهؤلاء يثبتونها في الخارج علماً واعتقاداً، ولكن يقولون: الكمال في أن يغيب عن شهودها، ولا يشهدون نفيها لكن لا يشهدون ثبوتها، وهذا نقص عظيم وجهل عظيم.

أما الثاني: فهو مطلوب الشيطان من التجهُّم ونفي الصفات، فإن عدم العلم والشهود لثبوتها يوافق فيه الجهميُ المُعتقد لانتفائها، ومن قال: أعتقد أن محمداً ليس برسول، وقال الآخر: وإن كنت أعلم رسالته، فأنا أفنى عنها فلا أذكرها ولا أشهدها، فهذا كافر كالأول، فالكفر عدم تصديق الرسول سواء كان معه اعتقاد تكذيب أم لا، بل وعدم الإقرار بما جاء به، والمحبة له، فمن ألزم قلبه أن يغيب عن معرفة صفات الله كما يعرف ذاته، وألزم قلبه أن يشهد ذاتاً مجردة عن الصفات، فقد ألزم قلبه أن لا يحصل له مقصود الإيمان بالصفات، وهذا من أعظم الضلال»اهـ[1].

ونخلص مما سبق إلى أن الناس عند غلاة المتصوفة لا ينقسمون مسلمين وكافرين؛ لا، بل الكل مسلمون؛ لأنهم تحقَّقَ فيهم قضاء الله، ويزعُم الصوفية أن كل ما وقع في الكون، فإنه محبوب إلى الله تعالى ومرضيٌ، وهذا باطل.

وقد تقدم سياقُ ما ذكره شيخ الإسلام عنهم وردُّه عليهم.



(١) الفتاوى (٨/ ٣٤٥ _ ٣٤٨).



الباب الرابع

وسائل الطريق الصوفي، ومعالمه، كما عرضها شيخ الإسلام

وفيه فصلان:

الفصل الأول: آراؤه في أركان الطريق الصوفي

الفصل الثاني: آراؤه في معالم الطريق الصوفي



الفصل الأول

آراؤه في أركان الطريق الصوفي

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الخلوة، والصمت، والعزلة

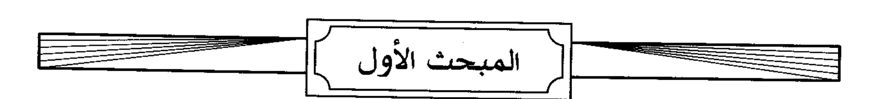
المبحث الثاني: الجوع، والسهر، والاحتفاء، وغيرها من المجاهدات البدعية

المبحث الثالث: الأوراد، والأذكار

المبحث الرابع: الأحوال المبتدعة (السُّكر، الوَلَه، الجنون،..)

المبحث الخامس: السماع





المبحث الأول

الخلوة، والصمت، والعزلة

تعدُّ الخلوة عند الصوفية من المستلزمات الروحية للسالك في الطريق الصوفي، كما يعتقدون أنها تدعيم لصدق التوبة وتثبيت الإخلاص، وهي عندهم أفضل اللحظات التي يقضيها الإنسان مع ربه ﷻ، وتهدف الخلوة عندهم إلى معرفة مدى استعداد الشخص للانتقال إلى المقامات والأحوال الأخرى[(١)].

ومعنى الخلوة لغة: مصدر خلا يخلو، إذا اعتزل الناس وانفرد عنهم[(٢)].

والخلوة في اصطلاح الصوفية تعني: التخلِّي واختيار الخَلوة، والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، والخلوة: محادثة السر مع الحق، حيث لا أحد ولا ملك[(٣)].

والخلوة ليست مذمومةً مطلقاً؛ بل نص شيخ الإسلام على أن من الخلوات ما يكون شرعياً مأموراً به.

والخلوة والاعتزال الشرعيان بيّنهما شيخ الإسلام بقوله: «وإنما

---

(١) معجم ألفاظ الصوفية، د. حسن شرقاوي (ص١٣٠).

(٢) انظر مادة: خلا، في: لسان العرب (١٤/ ٢٣٧)، تاج العروس (١٩/ ٣٨٥)، القاموس المحيط (ص١٦٥٢).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص١٦٦، ٢٣٣)، التعريفات للجرجاني (ص١٣٦).

الغرض: التنبيه بهذا على جنس من العبادات البدعية وهي الخلوات البدعية، سواء قدرت بزمان أو لم تقدر؛ لما فيها من العبادات البدعية، إما التي جنسها مشروع ولكن غير مقدرة، وإما ما كان جنسه غير مشروع.

فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع، فهو ما كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب:

فالأول: كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]. ومنه قوله تعالى عن الخليل: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]. وقوله عن أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦].

فإن أولئك لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة، ولا من يأمر بشرع نبي، فلهذا أوَوْا إلى الكهف.

وقد قال موسى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١]، وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع، وذلك بالزهد فيه، فهو مستحبٌّ، وقد قال طاووس: «نِعْم صومعةُ الرجل بيتُه؛ يكف فيه بصره وسمعه»[1]، وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل، فتخلَّى في بعض الأماكن ـ مع محافظته على الجمعة والجماعة ـ فهذا حق؛ كما في الصحيحين: أن النبي ﷺ سئل: أيُّ الناس أفضل؟ قال: (**رجل آخذ**

---

(١) الأثر: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١١٢)، وابن المبارك في الزهد (ص٤)، وهناد بن السري في الزهد (٢/ ٥٨٢) عن أبي الدرداء قال: «نِعْم صومعة الرجل بيته؛ يحفظ فيها لسانه وبصره، وإياك والسوق؛ فإنها تلغي وتلهي»، ولم أقف عليه من قول طاووس.

بعنان فرسه في سبيل الله، كلَّما سمع هَيْعَةً طار إليها يتتبع الموتَ مظانَّه، ورجل معتزل في شِعبٍ من الشعاب، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويدع الناس إلا من خير)[1]، وقوله: **(يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة)** دليل على أن له مالاً يزكِّيه وهو ساكن مع ناس يؤذِّن بينهم وتقام الصلاة فيهم، فقد قال صلوات الله عليه: **(ما مِنْ ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان)**[2]، وقال: **(عليكم بالجماعة؛ فإنما يأخذ الذئب القاصيةَ من الغنم)**[3]»اهـ[4].

أما ما ذكره الشيخ عن الخلوة وأحكامها عند المتصوفة، فيمكن بيانه فيما يلي:

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل، ٣/١٠٢٦/ح٢٦٣٤)، ومسلم (كتاب الأمارة، باب فضل الجهاد والرباط، ٣/١٥٠٣/ ١٨٨٩)، وابن ماجه (٢/١٣١٦/ ٣٩٧٧)، من حديث: أبي هريرة.

(٢) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجماعة، ١/ ١٥٠/ ٥٤٧)، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، بابٌ، ١/ ٣٣٠/ ٧٦٥)، والنسائي في المجتبى (كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، ٢/ ١٠٦/ ح٨٤٧)، وابن حبان (كتاب الصلاة، باب فرض الجماعة الأعذار التي تبيح تركها، ٥/ ٤٥٧/ ح٢١٠١)، وابن خزيمة (كتاب الصلاة، باب التغليظ في ترك صلاة الجماعة في القرى والبوادي واستحواذ الشيطان على تاركها، ٢/ ٣٧١/ ح١٤٨٦)، من حديث: أبي الدرداء، وحسّنه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٥/ ١٦٢/ ح٥٥٧٧).

(٣) الحديث: جزء من الحديث السابق (في الحاشية السابقة)، إلا أن قوله: (فعليكم بالجماعة. .) هي في رواية النسائي (كتاب الإمامة، باب التشديد في ترك الجماعة، ٢/ ١٠٦/ ٨٤٧)، من حديث: أبي الدرداء.

(٤) الفتاوى (١٠/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستقامة (٢/ ٦١).

أولاً: سبب ابتداع الصوفية للخلوة:

أ - بيّن الشيخ أن المتصوفة لمَّا رأوا إعراض كثير من الناس عن طلب الآخرة، وانشغالهم بطلب الدنيا، حاربوا حظوظ أنفسهم، ولجؤوا إلى الخلوة والصمت والجوع:

قال الشيخ - في معرض كلامه عن غلط فريق من الصوفية في باب الرضا، وقولهم: إن من تمام الرضا أن لا تسأل اللهَ الجنةَ، ولا تستعيذَ به من النار -(١): «ثم إنه [مما](٢) **أوقع هؤلاء في هذا الغلط:**

أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون اللهَ جلبَ المنافع ودفعَ المضارِّ، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار، من جهة كون ذلك عبادةً وطاعةً وخيراً، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلاً؛ بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر، كائناً ما كان.

وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه، وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به؛ فإنهم رأوا العامة تَعُدُّ هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادةً ولا طاعةً ولا قُرْبَةً، فرأى أولئك الطريقَ إلى الله تركَ هذه العبادات والأفعال الطبعيات، فلازموا من الجوع والسهر والخَلوة والصمت، وغير ذلك مما فيه تركُ الحظوظ واحتمال المشاقِّ، ما أوقعهم في ترك واجباتٍ ومستحبَّاتٍ، وفعل مكروهات ومحرَّمات، وكلا الأمرين غيرُ محمود ولا مأمور به.

---

(١) القائل هو أبو سليمان الداراني كما في الرسالة القشيرية (ص١٩٥، ط. دار الخير).

(٢) في المطبوع: لما، والصواب: مِمّا؛ ليستقيم الكلام.

ولا طريقٌ إلى الله: طريقُ المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج إليها على غير وجه العبادة والتقرب إلى الله، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال؛ بل المشروع أن تفعل بنِيَّة التقرب إلى الله، وأن يشكر الله.

قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فأمر بالأكل [والشكر][1]، فمن أكل ولم يشكر كان مذموماً، ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموماً.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمدَه عليها، ويشرب الشربة فيحمدَه عليها**)[2].

وقال النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه: (**إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في فِيْ امرأتك**)[3].

وفي الصحيح أيضاً أنه قال: (**نفقة المؤمن على أهله يحتسبها: صدقة**)[4]»اهـ[5].

وقال الشيخ: «ثم صار أصحاب الخَلوات فيهم من يتمسك بجنس

---

(١) في المطبوع: والشرب، والصواب: والشكر؛ ليستقيم الكلام.

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٦٠٧).

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، ١/ ٣٠/ ٥٦)، ومسلم (كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ٣/ ١٢٥٠/ ١٦٢٨)، من حديث: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، ١/ ٣٠/ ٥٥)، ومسلم (كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، ٢/ ٦٩٥/ ١٠٠٢)، من حديث: أبي مسعود البدري.

(٥) الفتاوى (١٠/ ٧١٥ ـ ٧١٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستقامة (٢/ ١٣٤).

العبادات الشرعية: الصلاة والصيام والقراءة والذكر، وأكثرهم يخرجون إلى أجناس غير مشروعة، فمن ذلك طريقة أبي حامد ومن تبعه؛ وهؤلاء: يأمرون صاحب الخلوة أن لا يزيد على الفرض، لا قراءةً، ولا نظراً في حديث نبوي، ولا غير ذلك؛ بل قد يأمرونه بالذكر، ثم قد يقولون ما يقوله أبو حامد: «ذكر العامة: لا إله إلا الله، وذكر الخاصة: الله.. الله، وذكر خاصة الخاصة: هو.. هو![1]».

والذكر بالاسم المفرد مُظهَراً ومُضمَراً: بدعةٌ في الشرع، وخطأٌ في القول واللغة؛ فإن الاسم المجرد ليس هو كلاماً لا إيماناً ولا كفراً.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(أفضل الكلام بعد القرآن أربع** - وهن من القرآن -: **سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)**[2]. وفي حديث آخر: **(أفضل الذكر لا إله إلا الله)**[3]. وقال: **(أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له،**

---

(١) انظر كلام أبي حامد في: الإحياء (٣/ ٧٤ ط. النور)، وسيأتي تفصيل كلام أبي حامد الغزالي في الجوع وغيره من رياضات النفس عند المتصوفة، في مبحث خاص (ص٦٠٧).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة، ٤/ ١٦٨٥/رقم ١٢، ولفظه: «أحب» بدلاً من «أفضل»)، وابن ماجه (كتاب الأدب، باب فضل التسبيح، ٢/ ١٢٥٣/ ٣٨١١)، وأورده البخاري معلقاً (كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم، ٦/ ٢٤٥٩).

(٣) الحديث: رواه الترمذي وقال: حسن غريب (كتاب الدعوات عن رسول الله، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/ ٤٦٢/ ٣٣٨٣)، وابن ماجه (كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، ٢/ ١٢٤٩/ ٣٨٠٠)، والحاكم في المستدرك (كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ١/ ٦٧٦/ ١٨٣٤)، من حديث: جابر بن عبد الله، وحسّنه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٦٢/ ح١١١٥).

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)[١]، والأحاديث في فضل هذه الكلمات كثيرة صحيحة.

وأما ذكر الاسم المفرد: فبدعة لم يشرع، وليس هو بكلام يعقل ولا فيه إيمان»اهـ[٢].

ب ـ لحفظ القلب عن الشهوات الناتجة عن مخالطة الناس:

قال الشيخ: «ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خَلوةً له ترك فيها الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله، فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلى! فقال له: فقلب المريد أعزُّ عليه من عشرة دراهم ـ أو كما قال ـ وهو إذا خرج ضاع قلبُه، فحِفْظُه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه! فقال له: هذا غرور بك، الواجب الخروج إلى أمر الله ﷻ.

فتأمل هذا الغرورَ العظيمَ كيف أدى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملةً، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العامِّ كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة»اهـ[٣].

ج ـ لأجل حصول الكشف والكرامة:

قال الشيخ: «ولهذا يوجدون كثيراً في الخراب والفلوات، ويوجدون في مواضع النجاسات، كالحمامات والحشوش والمزابل والقمامين والمقابر، والشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين وتكون أحوالهم

---

(١) الحديث: رواه الترمذي (باب في دعاء يوم عرفة ٥/ ٥٧٢/ح٣٥٨٥)، سنن البيهقي الكبرى (٤/ ٢٨٤/ ح٨١٧٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٣٧٨/ ح٨١٢٥)، ومالك في الموطأ (كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء، ١/ ٢١٤/ح٥٠٠)، من حديث: عبد الله بن كريز، وحسّنه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٦٢/ح١١١٣).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٩٦).

(٣) الفتاوى (١٥/ ٢٠).

شيطانيةً لا رحمانيةً، يأوون كثيراً إلى هذه الأماكن، التي هي مأوى الشياطين، وقد جاءت الآثار بالنهي عن الصلاة فيها لأنها مأوى الشياطين، والفقهاء منهم من علل النهي بكونها مظنة النجاسات، ومنهم من قال: إنه تعبد لا يعقل معناه.

والصحيح: أن العلة في الحمام وأعطان الإبل ـ ونحو ذلك ـ: أنها مأوى الشياطين، وفي المقبرة أن ذلك ذريعة إلى الشرك، مع أن المقابر تكون أيضاً مأوى للشياطين.

والمقصود: أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي، ولهم أحياناً مكاشفاتٌ ولهم تأثيرات، يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نُهيَ عن الصلاة فيها؛ لأن الشياطين تتنزَّل عليهم بها، وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكُهَّان»اهـ[1].

د ـ لأجل ما يحصل لهم من تنزُّل الفتوحات الربانية، والمعارف الإلهية، وهي في الحقيقة تنزُّل الشياطين:

قال الشيخ: «وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد: فإن صفْوَتَهم الذين يشتغلون بذكرٍ بسيطٍ؛ مثل لا إله إلا الله: إن لم يغلوا فيقتصروا على مجرد الله.. الله، ويعتقدون أن ذلك أفضل وأكمل كما فعله كثير منهم...

ويضمون إلى ذلك نوعاً من التصفية، مثل: ترك الشهوات البدنية من الطعام والشراب والرياسة والخلوة، وغير ذلك من أنواع الزهادة المطلقة، والعبادة المطلقة، فيصلون أيضاً إلى تألُّه مطلق، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده، ونحو ذلك من نحو ما يصل إليه أرباب القياس،

---

(١) الفتاوى (١٩/ ٤٠ ـ ٤١).

ثم قد تتوارى هذه المعرفة والعلم بملابسة الأمور الطبيعية من الطعام والاجتماع بالناس، فإن سببها إنما هو ذلك التجرد؛ فإذا زال: زال.

ولهذا قيل: كل حال أعطاكه الجوع: فإنه يذهب بالشبع، كما قد تتوارى معرفة الأُولى المطلقة بغفلة القلب عن تلك المقاييس النظرية، ولا ريب أن القياس يفضي إلى معرفة بحسب مقتضاه، وأن الرياضة والتأله يفضي إلى معرفة بحسب مقتضاه، لكن معرفة مطلقة بسبب قد يثبت وقد يزول، وكثيراً ما يفضي إلى الاتحاد والحلول والإباحة؛ وذلك لأنهم يجردون التألُّه عما لا بد منه من صالح البشر، فإذا احتاجوا إليها أعرضوا عن التألُّه، فهم إما آلهةٌ عند نفوسهم وإما زنادقةٌ أو فسّاقٌ...

والمعرفة الحاصلة بذلك: هي المعرفة التي تصلح حال العبد وتجب عليه، لكن قد يحصل مع صدق الطلب - بواسطة القياس أو بواسطة الوجد - وصولٌ إلى الرسالة، فيتلقَّى حينئذ من الرسالة ما يصلح حاله، ويعرفه المعرفة التامَّة والعلم النافع الواجب عليه، وهي الطريق الشرعية النبوية التي ذكرناها أولاً.

وقد لا يحصل ذلك، فيقع كثير منهم في الاستغناء عن النبوة، اعتقاداً، أو حالاً: بالإعراض عما جاءت به، فيفوته من الإيمان والعلم والمعرفة - التي جاء بها الرسول - ما يضل بفواته في الدنيا عن الهدي، ويشقى به الشقاء الأكبر، كحال الكافرين بالرسول، وإن آمنوا بوجود الرب من اليهود والنصارى والصابئين؛ فإن في المسلمين من ينافق في الرسول، كما كفر هؤلاء به ظاهراً.

وهذا النفاق كثير جداً قديماً وحديثاً، وقد تنعقد في قلبه مقاييسُ فاسدةٌ، ومواجيدُ فاسدةٌ يحكم بمقتضاها في الربوبية أحكاماً فاسدة، مثل: أحكام المنحرفة إلى صابئية أو يهودية أو نصرانية، من الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة، الذين انحرفوا إما إلى تعطيل للصفات وتكذيب

بها، وإما إلى تمثيل لها وتشبيه، وإما إلى اعتقاد أن الرب هو الوجود المطلق الذي لا يتميز، وأن عين الوجود: هو عين الخالق، وأنه ليس وراء السماوات والأرض شيء آخر»اهـ[(١)].

وقال الشيخ: «فصلٌ: في العبادات، والفرق بين شرعيِّها وبِدعيِّها:

فإن هذا باب كثُر فيه الاضطراب، كما كثر في باب الحلال والحرام؛ فإن أقواماً استحلُّوا بعض ما حرمه الله، وأقواماً حرموا بعض ما أحل الله تعالى، وكذلك أقواماً أحدثوا عبادات لم يشرعها الله؛ بل نهى عنها.

وأصل الدين: أن الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، ليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه خطَّ خطاً وخطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: (**هذه سبيل الله، وهذه سبل؛ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**)، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٢)]...

إذ المقصود هنا: الكلام في أجناس عباداتٍ غيرِ مشروعة حدثت في المتأخرين كالخلوات، فإنها تشتبه بالاعتكافِ الشرعي، والاعتكافُ الشرعي في المساجد، كما كان النبي ﷺ يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية..

---

(١) الفتاوى (٢/ ٦٣ ـ ٦٦)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٦٦).

(٢) الحديث: رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٠/ح٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٨٣).

وقد جُرِّب أن من سلك هذه العبادات البدعية أتته الشياطين؛ وحصل له تنزُّلٌ شيطانيٌّ وخطاب شيطاني، وبعضهم يطير به شيطانه. وأعرِفُ من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزُّل، فنزلت عليهم الشياطين؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي ﷺ التي أُمروا بها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]، وكثير منهم لا يحد للخَلوة مكاناً ولا زماناً يأمر الإنسان أن يخلو في الجملة»اهـ[١].

وقال الشيخ: «وذكر ابن عربي أنه دخل على مريدٍ له في الخَلوة وقد جاءه الغائط، فقال: ما أبصر غيرَه أبول عليه! فقال له شيخه: فالذي يخرج من بطنك من أين هو؟ قال: فرَّجْت عني»اهـ[٢].

ـ وبيَّن الشيخ أن مشايخ الصوفية الصالحين: متَّفقون على أن ما حصل من الفتوحات والمعارف بسبب الخلوة والتصفية لا يُقبل مطلقاً؛ بل لا بدّ من عرضه على الكتاب والسنة، فما وافقهما منه قُبل، وما خالفهما منه رُدَّ:

فقال الشيخ: «ومع هذا، فالمشايخ العارفون متَّفقون على أن ما يحصل بالزهد والعبادة، والرياضة والتصفية والخَلوة، وغير ذلك من المعارف، متى خالف الكتابَ والسنةَ، أو خالف العقل الصريح فهو باطل»اهـ[٣].

---

(١) الفتاوى (١٠/٣٨٨ ـ ٣٨٩، ٣٩٣ ـ ٣٩٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفرقان (ص٧٣).

(٢) الفتاوى (٢/ ٣٤٢).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٦٦).

ثانياً: أماكن الخلوات عند المتصوفة:

قال الشيخ: «فصل: وهذه الخلوات قد يقصد أصحابها الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يُصلى فيه الصلوات الخمس؛ إما مساجد مهجورة، وإما غير مساجد؛ مثل الكهوف والغيران التي في الجبال، ومثل المقابر، لا سيما قبر من يحسن به الظن، ومثل المواضع التي يقال إن بها أثر نبي أو رجل صالح، ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كراماتٌ رحمانية»اهـ(١).

ثالثاً: آداب الخلوة عند الصوفية:

أ ـ الصوفية يجعلون للخلوة أذكاراً معينة:

قال الشيخ: «ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة، وقوت معين، ولهم تنزُّلات معروفة ـ وقد بسط الكلام عليها ابن عربي الطائي ومن سلك سبيله كالتلمساني(٢) ـ وهي تنزُّلات شيطانية قد عرفتُها وخبرت

---

(١) الفتاوى (٢/ ٦٤).

(٢) يوجد في المكتبة الظاهرية بدمشق، وفي مكتبة برلين بألمانيا، نسختان متطابقتان من مخطوط بعنوان: الخلوة، منسوب إلى محيي الدين ابن عربي.
ولابن عربي كلام كثير في مواضع متفرقة من كتبه حول الخلوة وآدابها ونوع الطعام الذي يُتناوَلُ فيها، والأذكار التي يُشْتغل بها أثناءها، ومن ذلك قول ابن عربي: «ولا بد من طلب إمام، فإن لم تجد فأَخْلِ بيتاً من جميع الأشياء، واتخذه خلوةً، وليكن ذكرك: «الله الله» لا غير..، وليكن عقدك عند دخولك إلى خلوتك أن الله ليس كمثله شيء، فكل ما يتجلى لك من الصور في خلوتك ويقول لك: أنا الله، فقل: سبحان الله آمنت بالله.. ومتى رأيتَ شيئاً يقول لك: أنا الحق، فقل له: أنت الحق..، اخلُ مع الحق على قدم الصدق، أسبوعاً بل أقلّ من ذلك، لولا أن أتألّى على الله، لحلفت أن الطير تظلك، والوحوش تصلي خلفك وتأنس بك، ويخرج منك نور يضيء له المشارق والمغارب.

=

ذلك من وجوه متعددة ـ لكن ليس هذا موضع بسطها ـ وإنما المقصود: التنبيه على هذا الجنس»اهـ[١].

ب ـ من آداب الخلوة: الجوع، والسهر، والصمت!:

قال الشيخ: «ومما يأمرون به: الجوع والسهر والصمت مع الخلوة، بلا حدود شرعية؛ بل سهر مطلق، وجوع مطلق، وصمت مطلق مع الخلوة، كما ذكر ذلك ابن عربي وغيره، وهي تولِّدُ لهم أحوالاً شيطانية، وأبو طالب قد ذكر بعض ذلك[٢]، لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هؤلاء، ولكن يذكر أحاديثَ كثيرةً ضعيفةً، بل موضوعة، من جنس أحاديث المسبعات التي رواها عن الخضر عن النبي ﷺ، وهو كذب محض، وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن، ويذكر أحياناً عباداتٍ بدعيةً، من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد[٣] وغيرهما، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب كلما جف نقص الأكل، وذكروا صلوات الأيام والليالي، وكلها كذب موضوعة، ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئاً من الخيالات الفاسدة.

= تحفظ في غذائك في الخلوة، واجتهد أن يكون دسماً، ولكن من غير حيوان، فإنه أحسن. . ، ثم إن الله تعالى يعرض عليك مراتبَ المملكة ابتلاءً. .» إلخ ما ذكره ـ وأطال ـ وذكر أن الأحجار تكلم هذا المختلي وتحثه بما فيها من منافعَ ومضارّ، ثم تحدثه النباتات بما فيها، ثم تحدثه الحيوانات بخواصها. .

انظر: الفتوحات المكية (٢/ ٥٥٥، ٣/ ٢٦٥ التدبيرات الإلهية، ٢/ ١٠، ١/ ٩٩، ١٢٠ ط. الميمنية)، الطريق إلى الله الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر ابن عربي (ص٨١ ـ ٨٥).

(١) الفتاوى (١٠/ ٤٠٢).

(٢) انظر: قوت القلوب لأبي طالب (١/ ٤٤٠).

(٣) انظر كلام أبي حامد في: الإحياء (٣/ ٨٥ ـ ٨٧ ط. النور)، وانظر أيضاً: الإحياء (٣/ ٦٥ ط. النور)، وسيأتي تفصيل كلام أبي حامد الغزالي في الجوع وغيره من رياضات النفس عند المتصوفة، في مبحث خاص (ص٦٠٧).

وليس هذا موضع بسط ذلك، وإنما الغرض: التنبيه بهذا على جنس من العبادات البدعية، وهي (الخلوات البدعية)، سواء قُدِّرت بزمان أو لم تُقَدَّر، لِمَا فيها من العبادات البدعية»اهـ[1].

ج ـ من المتصوفة من يبقى صامتاً أياماً وليالِيَ، ويعدُّون ذلك من الزهد وتصفية النفس وتربيتها:

قال الشيخ: «ويجب التفريق بين العبادات الإسلامية الإيمانية النبوية الشرعية التي يحبها الله ورسوله وعباده المؤمنون، وبين العبادات البدعية الضلالية الجاهلية التي قال الله فيها: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وإن ابتُلي بشيء منها بعضُ أكابر النُّسَّاك والزهاد، ففي الصحاح عن أنس ﷺ: أن النبي ﷺ بلغه أن بعض أصحابه قال: أمّا أنا، فأصوم لا أفطر، وقال الآخر: أما أنا، فأقوم لا أنام، وقال الآخر: أما أنا، فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا، فلا آكل اللحم، فقال النبي ﷺ: **(لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني)**[2].

والراغب عن الشيء: الذي لا يحبه ولا يريده؛ بل يحب ويريد ما ينافي المشروع الذي أحبه الله ورسوله، فقد تبرأ منه رسول الله ﷺ، مثل الذي يتعرَّى دائماً، أو يصمت دائماً، أو يسكن وحده في البرِّيَّة دائماً، أو يترك أكل اللحم والخبز دائماً، أو يترهَّب دائماً متعبِّداً بذلك، ظانّاً أن هذا يحبه الله ورسوله دون ضده من اللباس بالمعروف، ونحو ذلك»اهـ[3].

---

(١) الفتاوى (١٠/٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٥/١٩٤٩/ ٤٧٧٦)، ومسلم (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ٢/١٠٢٠/١٤٠١)، من حديث: أنس ﷺ.

(٣) الفتاوى (٢٧/٥٩ ـ ٦٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: مختصر =

وبيّن الشيخ أن تعمُّد طول الصمت وترك الكلام: بدعة:

فقال: «والله تعالى: أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً، ويعبدوه بما شرع، وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فالسالك طريقَ الزهادة والعبادة: إذا كان متَّبعاً للشريعة في الظاهر، وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له، كان عمله باطلاً لا يقبله الله.

كما ثبت في الصحيح: أن الله يقول: **(أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك)**[1].

وفي الصحيح عنه أنه قال: **(من سمَّع: سمَّع اللهُ به، ومن راءى: راءى اللهُ به)**[2].

وإن كان خالصاً في نيته، لكنه يتعبَّد بغير العبادات المشروعة: مثل الذي يصمت دائماً، أو يقوم في الشمس أو على السطح دائماً، أو يتعرَّى من الثياب دائماً، ويلازم لبس الصوف، أو لبس الليف ونحوه، أو يغطي وجهه، أو يمتنع من أكل الخبز أو اللحم أو شرب الماء، ونحو ذلك، كانت هذه العباداتُ باطلةً ومردودةً.

= الفتاوى المصرية (ص٣٢٠، ٥٦١).

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥)، وابن ماجه (كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، ٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠٢)، من حديث: أبي هريرة ﷺ، ورواه الترمذي بلفظ قريب منه (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الكهف، ٥/ ٣١٤/ ٣١٥٤) من حديث: أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري ﷺ.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة ح/ ٦٤٩٩)، ومسلم (كتاب الزهد، باب تحريم الرياء ح/ ٢٩٨٧) من حديث جندب.

كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)**، وفي رواية: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**[١].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: **(ما هذا؟)** قالوا: هذا أبو إسرائيل! نذر الصمت والقيام والبروز للشمس، مع الصوم، فأمره النبي ﷺ بالصوم وحده؛ لأنه عبادة يحبها الله تعالى، وما عداه ليس بعبادة، وإن ظنها الظانُّ تقرِّبه إلى الله تعالى.

وثبت عنه ﷺ أنه كان يقول في خطبته: **(إن خيرَ الكلام: كلامُ الله، وخيرَ الهدي: هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور: محدثاتُها، وكلُّ بدعة ضلالة)**»اهـ[٢].

رابعاً: أدلة المتصوفة على مشروعية الخلوة:

استدلوا بدليلين:

- تحنُّثُه ﷺ في غار حراء.

- ومواعدة الله تعالى موسى ﷺ أربعين ليلة.

وقد بيّن الشيخ هذين الاستدلالين وردّ عليهما:

فقال: «**المقصود هنا**: الكلام في أجناس عبادات غير مشروعة حدثت في المتأخرين، كالخلوات، فإنها تشتبه بالاعتكافِ الشرعيِّ، والاعتكافُ الشرعيُّ في المساجد، كما كان النبي ﷺ يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية.

---

(١) الحديث: يأتي تخريجه (ص٣٣٢).

(٢) الفتاوى (١١/ ٦١٢ ـ ٦١٤).

وأما الخلوات؛ فبعضهم يحتج فيها: بتحنُّثه بغار حراء قبل الوحي:

وهذا خطأ؛ فإن ما فعله ﷺ قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة، فنحن مأمورون باتِّباعه فيه، وإلا فلا، وهو من حين نبَّأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون، وقد أقام صلوات الله عليه بمكةَ قبل الهجرة بضع عشرة سنة، ودخل مكةَ في عمرة القضاء، وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة، وأتاها في حجة الوداع وأقام بها أربعَ ليالٍ، وغار حراء قريبٌ منه ولم يقصده، وذلك أن هذا كانوا يأتونه في الجاهلية، ويقال: إن عبد المطلب هو سَنَّ لهم إتيانَه؛ لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التي جاء بها بعد النبوة صلوات الله عليه، كالصلاة والاعتكاف في المساجد، فهذه تغني عن إتيان حراء، بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي، فإنه لم يكن يقرأ، بل قال له الملك عليه السلام: **(اقرأ)** قال صلوات الله عليه وسلامه: **(فقلت: لست بقارئ)**[1]، ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة، ولهذا لما صلَّاها النبي ﷺ نهاه عنها من نهاه من المشركين، كأبي جهل، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ٩ ـ ١٩].

وطائفة: يجعلون الخلوة أربعين يوماً، ويعظِّمون أمر الأربعينية، ويحتجُّون فيها: بأن الله تعالى واعَدَ موسى عليه السلام ثلاثين ليلةً وأتمّها بعشر:

وقد رُوي أن موسى عليه السلام صامها، وصام المسيح أيضاً أربعين لله

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله؟ ١/ ٤/ ٣)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، ١/ ١٣٩/ ١٦٠)، من حديث: عائشة رضي الله عنها.

تعالى وخوطب بعدها، فيقولون: يحصل بعدها الخطاب والتنزيل، كما يقولون في غار حراء: حصل بعده نزول الوحي، وهذا أيضاً غلط؛ فإن هذه ليست من شريعة محمد ﷺ، بل شُرعت لموسى عليه السلام كما شُرِعَ له السبتُ، والمسلمون لا يسبتون، وكما حرم في شرعه أشياء لم تحرم في شرع محمد ﷺ.

فهذا تمسك بشرع منسوخ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة»اهـ[١].

خامساً: الردّ على المتصوفة في استحبابهم الخلوةَ، والتفردَ في البوادي والفلوات:

ردّ الشيخ على استحباب المتصوفة العزلةَ عن الناس، وبيّن أن التفردَ في البوادي والفلوات مذمومٌ في الشرع لا ممدوح.

فقال رحمه الله في معرض كلامه عن سكنى بعض النساك في الجبال والصحاري، خلوةً وعزلةً عن الناس: «ولكن صار طوائفُ ممن يؤثر التخلي عن الناس ـ زهداً ونسكاً ـ يحسب أن فضل هذا الجبل ونحوه لِمَا فيه من الخلوة عن الناس، وأكل المباحات من الثمار التي فيه، فيقصدونه لأجل ذلك غلطاً منهم وخطأً؛ فإن سكنى الجبال والغيران والبوادي ليس مشروعاً للمسلمين إلا عند الفتنة في الأمصار، التي تحوج الرجل إلى ترك دينه، من فعل الواجبات وترك المحرمات، فيهاجر المسلم حينئذ من أرض يعجِز عن إقامة دينه إلى أرض يمكنه فيها إقامة دينه، فإن (**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**)[٢].

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٩٣ ـ ٣٩٥).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقائق، باب الانتهاء عن المعاصي، ٥/ ٢٣٧٩/ ٦١١٩)، وأبو داود (كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ ٨/ ١٠٥/ ٤٩٩٦)، والنسائي (كتاب الإيمان وشرائعه، ٣/ ٤/ ٢٤٨١)، من حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

وربما كان بعض الأوقات من هؤلاء النساك الزهاد طائفة:

إما: ظالمون لأنفسهم.

وإما: مقتصدون مخطؤون مغفور لهم خطؤهم.

فأما: السابقون المقرَّبون، فهم الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه عن الله تعالى: **(ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه)**[1].

ولا خلاف بين المسلمين أن جنس النُّسَّاك الزُّهَّاد الساكنين في الأمصار أفضلُ من جنس ساكني البوادي والجبال، كفضيلة القروي على البدوي، والمهاجر على الأعرابي.

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٩٧].

وفي الحديث: **(إن من الكبائر أن يرتدَّ الرجل أعرابياً بعد الهجرة)**[2]، هذا لمن هو ساكن في البادية بين الجماعة، فكيف بالمقيم

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٣٥١).

(٢) الحديث: رواه النسائي (كتاب الزينة، باب ذكر المتوشمات، ٨/ ١٤٧/ ٥١٠٢)، وابن خزيمة (كتاب الزكاة، باب ذكر لعن لاوي الصدقة والممتنع عن أدائها، ٤/ ٨/ ٢٢٥٠)، والحاكم (كتاب الزكاة، ١/ ٥٤٥/ ١٤٣٠)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: آكل الربا وموكله وكاتبه إذا علموا ذلك والواشمة والموشومة للحسن ولآوي الصدقة **والمرتد أعرابياً بعد الهجرة** =

وحده دائماً في جبل أو بادية؟! فإن هذا يفوته من مصالح الدين نظير ما يفوته من مصالح الدنيا، أو قريب منه؛ فإن يد الله على الجماعة، والشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»اه(١).

ومما يؤيد كون هذه الخلوات من البدع: أنه لم يكن من هدي النبي ﷺ وأصحابه الاعتزالُ والخلوةُ، أو ترك الجمعة والجماعة:

قال الشيخ: «ولهذا كان عندهم من ترك الجمعة والجماعة وتخلَّى في الغِيران والجبال حيث لا جمعة ولا جماعة، وزعم أنه يقتدي بالنبي ﷺ؛ لكونه كان متحنثاً في غار حراء قبل النبوة، في ترك ما شُرِعَ له من العبادات الشرعية التي أمر اللهُ بها رسولَه، واقتدى بما كان يفعل قبل النبوة، كان مخطئاً؛ فإن النبي ﷺ بعد أن أكرمه الله بالنبوة لم يكن يفعل ما فعله قبل ذلك من التحنُّث في غار حراء أو نحو ذلك، وقد أقام بمكةَ بعد النبوة بضعَ عشرة سنة، وأتاها بعد الهجرة في عمرة القضية، وفي غزوة الفتح، وفي عمرة الجعرانة، ولم يقصد غار حراء، وكذلك أصحابه من بعده، لم يكن أحدٌ منهم يأتي غار حراء، ولا يتخلّون عن الجمعة والجماعة في الأماكن المنقطعة، ولا عمل أحد منهم خلوة أربعينية كما يفعله بعض المتأخرين، بل كانوا يعبدون الله بالعبادات الشرعية التي شرعها لهم النبي ﷺ، الذي فرض الله عليهم الإيمان به واتباعه، مثل الصلوات الخمس، وغيرها من الصلوات، ومثل الصيام والاعتكاف في المساجد، ومثل أنواع الأذكار والأدعية والقراءة، ومثل الجهاد»اه(٢).

= ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة.
وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/ ٦٠/ح٥).

(١) الفتاوى (٢٧/ ٥٥ ـ ٥٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفرقان (ص١٢٠).

(٢) الفتاوى (١٠/ ١١).

سادساً: آثار هذه الخلوات على المتصوفة:

الخلوات من أسباب وقوع الصوفية في الحلول والاتحاد:

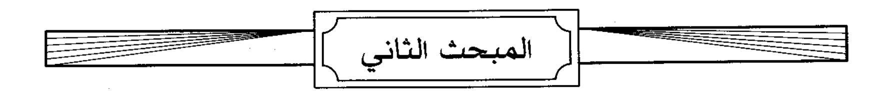
قال الشيخ: «ويضمُّون إلى ذلك نوعاً من التصفية، مثل: ترك الشهوات البدنية، من الطعام والشراب والرياسة والخلوة، وغير ذلك من أنواع الزهادة المطلقة، والعبادة المطلقة، فيصلون أيضاً إلى تألُّه مطلق، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده، ونحو ذلك من نحو ما يصل إليه أرباب القياس، ثم قد تتوارى هذه المعرفة والعلم، بملابسة الأمور الطبيعية من الطعام والاجتماع بالناس، فإن سببها إنما هو ذلك التجرد، فإذا زالَ: زالَ، ولهذا قيل: كل حال أعطاكه الجوع، فإنه يذهب بالشبع، كما قد تتوارى معرفة الأُوْلى المطلقة، بغفلة القلب عن تلك المقاييس النظرية.

ولا ريب أن القياس يُفضي إلى معرفةٍ بحسب مقتضاه، وأن الرياضة والتألُّه يفضي إلى معرفةٍ بحسب مقتضاه، لكن معرفةً مطلقةً بسبب قد يثبُتُ وقد يزول، وكثيراً ما يُفضي إلى الاتحاد والحلول والإباحة؛ وذلك لأنهم يجرِّدون التألُّه عما لا بد منه من صالح البشر، فإذا احتاجوا إليها أعرضوا عن التأله! فهم إما آلهة عند نفوسهم، وإما زنادقة، أو فُسَّاق»اهـ[1].

ونخلص مما سبق أن هذه الخلوات المبتدَعة التي يفعلها كثير من المتصوفة، ويعدُّونها من رياضاتِ النفوس، ويزعُمون أنهم بها يصِلون إلى حقيقة العبادة والطاعة، هي من أبواب الشر التي انتقل بها الصوفية من مجرّد التفرغ للعبادة إلى القول بالحلول والاتحاد وسقوط التكاليف، وكانت هذه الخلواتُ طريقاً للشياطين للتلاعب بهؤلاء الجُهَّال، حتى ظنُّوا أنهم أصحاب الكرامات والخوارق، وما هذه الخوارق في الحقيقة إلا من تلاعب الشياطين وتخييلاتهم، كما تقدم بيانه من كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

---

(١) الفتاوى (٢/ ٦٤).


المبحث الثاني

الجوع، والسهر، والاحتفاء، وغيرها من المجاهدات البدعية

المتأمل في طرق المتصوفة للوصول إلى حقيقة العبادة والقُرب من الله تعالى، يجد أن أكثر طرقهم تقوم على رياضات بدعية غير شرعية، أو أنْ تكون في أصلها شرعيةً، لكنهم يغلُون فيها، ويبالغون حتى يقعوا في الابتداع.

ومن ذلك تشديد كثير من المتصوفة على أنفسهم، وشدة تقشُّفهم في إعطاء النفس حظوظَها، ويؤدب أحدُهم نفسَه بالجوع الشديد، ومداومة السهر، وكثرة التعرِّي والاحتفاء، وغير ذلك.

وعند النظر في مجموع هذه المجاهدات نجد أنهم يزعُمون أنهم بها يزهدون في الدنيا، ولا يريدون تدنيس أنفسهم بلَذَّاتها، لذا يحسُن بنا قبل أن ننظر فيما كتبه شيخ الإسلام حول هذه المجاهدات أن نستعرض شيئاً مما كتبه الشيخ حول معنى الزهد وأنواعه.

والزهد ـ في اللغة ـ: ترك الشيء والإعراض عنه، والتزهيد في الشيء ضد الترغيب فيه، والشيء الزهيد: هو القليل الحقير[1].

والأصل في معنى الزهد اصطلاحاً أنه: «الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه»اهـ.

---

(١) انظر: تاج العروس (٤/ ٤٨٠، مادة: زهد)، جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص٢١٠)، التعريفات للجرجاني (ص١٥٣).

وعرَّفه الصوفية بقولهم: الزهد في الشيء: قلة الرغبة فيه، وإن شئت قلت: الرغبة عنه، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا لراحة الآخرة، وقيل: أن يخلُوَ قلبُك ممَّا خلت منه يدك(١).

أما ما ذكره شيخ الإسلام عن الزهد وأنواعه، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: بيَّن شيخ الإسلام أن الزهد نوعان: شرعيٌّ، وبِدعيٌّ:

أولاً: الزهد الشرعي:

قال الشيخ: «فصل: قد كتبت في كراسة الحوادث فصلاً في: جِماع الزهد والورع: وأن (الزهد) هو عما لا ينفع؛ إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحاً؛ لأنه مفوِّت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرُره على نفعه، وأما المنافع الخالصة أو الراجحة: فالزهد فيها حمق...

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك، فأقول: (الزهد) خلاف الرغبة، يقال: فلان زاهد في كذا، وفلان راغب فيه، و(الرغبة) هي من جنس الإرادة، فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له؛ إما مع وجود كراهته، وإما مع عدم الإرادة والكراهة، بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه.

وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهَّد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه، ولهذا كان أساس الطريق: الإرادة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، ونظائره متعددة.

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص٣٩٠).

كما رغَّب في (الزهد) وذمَّ ضدَّه في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

وقال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩ ـ ٢٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨].

وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠].

وهذا باب واسع، وإنما المقصود هنا: تميُّز الزهد الشرعي من غيره، وهو الزهد المحمود، وتميُّز (الرغبة الشرعية) من غيرها، وهي الرغبة المحمودة؛ فإنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل، والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية، وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضلَّ سعيُ صاحبه...

فتلخَّص: أن (الزهد) من باب عدم الرغبة، والإرادات في المزهود فيه، و(الورع) من باب وجود النُّفرة والكراهة للمتورَّع عنه، وانتفاء الإرادة إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة، وأما وجود الكراهة، فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة، فأما إذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة خالصة، أو منفعته ومضرته سواء من كل وجه، فهذا لا يصلح أن يُرادَ، ولا يصلح أن يُكرهَ، فيصلح فيه الزهد ولا يصلح فيه الورع، فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس، وهذا بيِّن؛ فإن ما صلح أن يُكره ويُنفَر عنه، صلُح أن لا يُرادَ ولا يُرغبَ فيه؛ فإن عدم الإرادة أولى من وجود

الكراهة، ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة، من غير عكس، وليس كل ما صلُح أن لا يراد يصلح أن يكره؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته، ولا حبه ولا بغضه، ولا الأمر به ولا النهي عنه.

وبهذا يتبين: أن الواجبات والمستحبَّات لا يصلح فيها زهد ولا ورع، وأما المحرمات والمكروهات، فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل، وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل: هل هو مأمورٌ به؟ أو منهيٌّ عنه؟ أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح؛ ما يجعله مأموراً به أو منهياً عنه، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منهياً عنه، وبالعكس، فعند اجتماع المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار وتعرضها يحتاج إلى الفرقان»اهـ[1].

وقال الشيخ: «وأما الزهد الذي هو ضد الرغبة، فإنما يُحمد حمداً مطلقاً وتُذَمُّ الرغبة لترك العمل للآخرة:

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

فمن لم يرد الدار الآخرة قولاً وعملاً، وإيثاراً ومحبةً ورغبةً وإنابةً:

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٦١٥ ـ ٦١٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (٧/ ٦٥٢، ١٠/ ٥١١، ٦٤١).

فلا خَلاقَ له في الآخرة، ولا فائدةَ له في الدار الدنيا؛ بل هو كافر ملعون مشتَّتٌ معذَّب، لكن قد ينتفع بزهده في الدنيا بنوع من الراحة العاجلة، وهو زهد غيرِ مشروع، وقد يستضرُّ بما يفوته من لذّات الدنيا وإن كان غيرَ زاهدٍ، فلا راحةَ له في هذا.

فمن زهد لطلب راحة الدنيا أو رغب لطلب لذّاتها: لم يكن واحدٌ منها في عمل صالح، ولا هو محمود في الشرع على ذلك، ولكن قد يترجح هذا تارة، وهذا تارة، في مصلحة الدنيا كما تترجَّح صناعةٌ على صناعةٍ وتجارةٌ على تجارةٍ.

وذلك أن لذّات الدنيا لا تنال غالباً إلا بنوع من التعب، فقد تترجح تارة لذّةُ التَّرك على تعب الطلب، وقد يترجح تعبُ الطلب على لذّة الترك، فلا حمد على ترك الدنيا لغير عمل الآخرة كما لا حمد لطلبها لغير عمل الآخرة، فثبت أن مجرد الزهد في الدنيا لا حمد فيه، كما لا حمد على الرغبة فيها، وإنما الحمد على إرادة الله والدار الآخرة، والذم على إرادة الدنيا المانعة من إرادة ذلك، كما تقدم، وكما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩]، ولهذا جرت عادة أهل المعرفة بتسمية هذا: الطالب المريد؛ فإن أول الخير إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، ولهذا قال النبي ﷺ: **(إنما الأعمال بالنيات)**[١].

فثبت أن: الزهد الواجب: هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة.

والزهد المستحبُّ: هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين.

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٧٢).

فظهر بذلك: أن المطلوب بالزهد فعل المأمور به من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لولا كون الدنيا تشغل عن عبادة الله والدار الآخرة لم يشرع الزهد فيها؛ بل كان يكون فعلُه وتركُه سواءً، أو يرجح هذا أو يرجح هذا ترجحاً دنيوياً.

الثاني: أنه إذا قُدِّر أن شخصين: أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر: زاهد في الدنيا وفي الآخرة، لكان الأول منهما مؤمناً محموداً، والثاني: كافراً ملعوناً، مع أن الثاني زاهد في الدنيا، والأول: طالب لها؛ لكن امتاز الأول بفعل مأمور مع ارتكاب محظور، والثاني: لم يكن معه ذلك المأمور به، فثبت أن فعل المأمور به من إرادة الآخرة: ينفع، والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع.

الثالث: المحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا عنها، فأما مجرد مدح ترك الدنيا، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، ولا تنظر إلى كثرة ذم الناس الدنيا ذماً غير ديني، فإن أكثر العامة إنما يذمونها لعدم حصول أغراضهم منها، فإنها لم تَصْفُ لأحَد قطُّ، ولو نال منها ما عساه أن يُنالَ، وما امتلأت دارٌ حَبرة إلا امتلأت عَبرة، فالعقلاء يذمون الجهال الذين يركنون إليها، ويظنون بقاء الرياسة والمال وتناول الشهوات فيها، وهم ـ مع هذا ـ يحتاجون إلى ما لا بد لهم منه منها، وأكثرهم طالبٌ لما يذمُّه منها! وهؤلاء حقيقة ذمهم لها ذم دنيويّ لما فيها من الضرر الدنيويّ، كما يذم العقلاءُ التجارةَ والصناعةَ التي لا رِبْحَ فيها؛ بل فيها تعب، وكما تذم معاشرة من يضرك ولا ينفعك في التزويج بسيئة الخلق، ونحو ذلك من الأمور التي لا تعود مضرَّتها ومنفعتها إلا في الدنيا أيضاً.

ولا ريب أن ما فيه ضررٌ في الدنيا مذموم إذا لم يكن نافعاً في

الآخرة، كإضاعة المال، والعبادات الشاقة التي لم يأمر الله بها ولا رسوله، وما فيه منفعة في الدنيا مذموم إذا كان ضاراً في الآخرة، كنيل اللذات، وإدراك الشهوات المحرمة، وكذلك اللذات والشهوات المباحات إذا حصل للعبد بها وهنٌ وتأخيرٌ[1] في أمر الآخرة وطلبها، وما كان مضراً في الدنيا والآخرة، فهو شرٌّ وشدة، وما كان نافعاً في الآخرة، فهو محمود وإن كان ضاراً في الدنيا، كإذهاب النفوس والأموال في الجهاد في سبيل الله، وكذلك ما لم يكن ضاراً في الدنيا، مثل كثير من العبادات، وما كان نافعاً في الدنيا والآخرة، فهو محمود أيضاً.

فالأقسام سبعة:

فما كان نافعاً في الآخرة فهو محمود؛ سواء ضرَّ في الدنيا أو نفع، أو لم ينفع ولم يضر.

وما كان ضاراً في الآخرة، فهو مذموم: وإن كان نافعاً في الدنيا أو ضاراً، أو لا نافعاً ولا ضارّاً.

وبقي ثلاثة أقسام: ما كان نافعاً في الدنيا، غيرَ ضارٍّ في الآخرة؛ وضاراً في الدنيا، غيرَ نافع في الآخرة؛ والنافعُ محمود والضارُّ مذموم.

والقسم الثالث فيه قولان: قيل: لا حَمْدَ فيه، ولا ذَمَّ. وقيل: بل هو مذموم.

فأكثر ذم الناس للدنيا ليس من جهة شغلها لهم عن الآخرة، وإنما هو من جهة ما يلحقهم من الضرر فيها، وهي مذمومة من ذلك الوجه، وأعلى وجوه الذم هو ما شغل عن الآخرة، ولكن الإنسان قد يعدد

---

(١) في المطبوع: «.. إذا حصل للعبد بها **وهناً وتأخيراً** في أمر الآخرة» وهو خطأ.

المصائب وينسى النعم؛ فقد يذم أموراً كثيرة لمضرة تلحقه، ويكون فيها منافعُ كثيرةٌ لا يذكرها، وهذا الذم من نوع الهلع والجزع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]، وإنما الذم المحقَّقُ هو ما يشغُل عن مصلحة الآخرة من الواجب، والنقص هو ما يشغَل عن مصلحتها المستحبة، ويذم ما ترجحت مضرتُه على منفعته فيها، فهذه ثلاثة أمور هي فصل الخطاب، فقد تبين أن المحمود فيها وجوديٌّ أو عدميٌّ.

وقد يقع الغلط في الزهد من وجوه كما وقع في الورع:

أحدها: أن قوماً زهِدوا فيما ينفعهم بلا مضرَّةٍ، فوقعوا به في ترك واجبات أو مستحبات، كمن ترك النساء واللحم، ونحو ذلك، وقد قال ﷺ: (**لكني أصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[١].

والثاني: أن زُهدَ هذا أوقعه في فعل محظورات؛ كمن ترك تناول ما أبيح له من المال والمنفعة، واحتاج إلى ذلك فأخذه من حرامٍ، أو سأل الناس المسألة المحرمة، أو استشرف إليهم، والاستشرافُ مكروه.

والثالث: من زَهِد زُهْد الكسل والبَطالة والراحة، لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهداً بطَّالاً: فسد أعظم فساد؛ فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى الرجل بطالاً، ليس في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة[٢]، وهؤلاء من أهل النار، وكما قال النبي ﷺ

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١٢٦).

(٢) الأثر: أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠)، وقال الهيثمي في المجمع =

في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**أهل النار خمسة**) فذكر منهم: (**الضعيف الذي لا زَبر له، الذين هم فيكم تَبَعٌ، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً**)[١]، فمن ترك بزهده حسنات مأمور بها، كان ما تركه خيراً من زهده، أو فعل سيئات منهياً عنها، أو دخل في الكسل والبطالات، فهم من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ومن زهد فيما يشغله عن الواجبات، أو يوقعه في المحرَّمات، فهو من المقتصدين أصحاب اليمين.

ومن زهد فيما يشغله عن المستحبات والدرجات، فهو من المقدَّمين السابقين.

فهذه جملة مختصرة في الزهد، وقد تبين المطلوب الأول: إنما هو فعل المأمور به؛ لأنه يعين عليه، وهذا هو المقصود هنا، والله أعلم.

واحذر أن تغتر بزهد الكافرين المبتدعين؛ فإن الفاسق المؤمن الذي يريد الآخرة ويريد الدنيا، خير من زهد أهل البدع وزهاد الكفار، إما لفساد عقدهم، وإما لفساد قصدهم، وإما لفسادهما جميعاً»اهـ[٢].

الجوع والسهر لا يُمدحان مطلقاً:

قال الشيخ في معرض كلامه عن وقوع فريق من المتصوفة في

= (١/ ٦٣): رواه الطبراني في الكبير وفيه راو لم يُسمَّ وبقية رجاله ثقات.اهـ.

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، ٤/ ٢١٩٧/ ح٢٨٦٥)، وابن حبان (كتاب الرقائق، باب الخوف والتقوى، ٢/ ٤٢٢/ ٦٥٣)، من حديث: عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٢) الفتاوى (٢٠/ ١٤٥ ـ ١٥٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٢٨)، المستدرك على الفتاوى (١/ ١٦١).

الفناء، وتعذيب فريق منهم أنفسَهم للوصول إلى الفناء: «وأهل الإرادة: إن لم يقترن بإرادتهم طلبُ العلم الواجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وإلا وقعوا في الضلال والبغي:

ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب، كان غاوياً.

وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالاً.

والضلال سمةُ النصارى، والبغيُ سمة اليهود، مع أن كلاً من الأمتين فيها الضلال والبغي؛ ولهذا تجد من انحرف عن الشريعة في الأمر والنهي من أهل الإرادة والعبادة والسلوك والطريق، ينتهون إلى الفناء الذي لا يميزون فيه بين المأمور والمحظور، فيكونون فيه متَّبعين أهواءهم...

ومن عظَّم مطلق السهر والجوع، وأمر بهما مطلقاً فهو مخطئ؛ بل المحمود السهر الشرعي، والجوع الشرعي، فالسهر الشرعي - كما تقدم - من صلاة، أو ذِكرٍ، أو قراءةٍ، أو كتابةِ علمٍ، أو نظرٍ فيه، أو درسِه، أو غيرِ ذلك من العبادات، والأفضلُ يتنوع بتنوع الناس، فبعض العلماء يقول: كتابة الحديث أفضلُ من صلاة النافلة، وبعض الشيوخ يقول: ركعتان أصليهما بالليل حيث لا يراني أحدٌ أفضلُ من كتابة مائة حديث، وآخر من الأئمة يقول: بل الأفضل فعل هذا وهذا، والأفضل يتنوع بتنوع أحوال الناس...

وأما الأكل واللباس: فخيرُ الهدي هدي محمد ﷺ، وكان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه، ولا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، فكان: إن حضر خبز ولحم: أكله، وإن حضر فاكهة وخبز ولحم: أكله، وإن حضر تمر وحده، أو خبز وحده: أكله، وإن حضر حلو، أو عسل: طَعِمه أيضاً.

وكان أحبَّ الشراب إليه الحلوُ البارد[١]، وكان يأكل القثّاء بالرطب[٢]، فلم يكن إذا حضر لونان من الطعام يقول: لا آكل لونين، ولا يمتنع من طعام لما فيه من اللذة والحلاوة، وكان أحياناً يَمْضي الشهران والثلاثة لا يوقد في بيته نار، ولا يأكلون إلا التمر والماء[٣]، وأحياناً يربط على بطنه الحجر من الجوع[٤]، وكان لا يعيب طعاماً؛ فإن اشتهاه أكله وإلا تركه[٥]، وأُكِلَ على مائدته لحم ضبٍّ، فامتنع من أكله وقال: **(إنه ليس بحرام، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه)**[٦].

---

(١) الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد». أخرجه الترمذي (كتاب الأشربة عن رسول الله، باب ما جاء أي الشراب كان أحب إلى رسول الله؟ ٤/ ٣٠٧/ح١٨٩٥)، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (كتاب الأشربة، بابٌ، ٤/ ١٥٣/ح٧٢٠٠)، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٤/ ١٩٨/ ح٤٥٠٣).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأطعمة، باب الرطب بالقثاء، ٥/ ٢٠٧٣/ ح٥١٢٤)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب أكل القثاء بالرطب، ٣/ ١٦١٦/ ح٢٠٤٣)، من حديث: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها، ٢/ ٩٠٧/ح٢٤٢٨)، ومسلم (كتاب الزهد والرقائق، بابٌ، ٤/ ٢٢٨٢/ ح٢٩٧٢)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) الحديث: رواه مسلم (كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه، ٣/ ١٦١٤/ح٢٠٤٠)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) الحديث: رواه البخاري (كتاب المناقب، باب صفة النبي، ٣/ ١٣٠٦/ ح٣٣٧٠)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب لا يعيب الطعام، ٣/ ١٦٣٣/ ح٢٠٦٤)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ لا يأكل حتى يسمى له، ٥/ ٢٠٦٠/ ٥٠٧٦)، ومسلم (كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة الضب، ٣/ ١٥٤٣/ ١٩٤٦)، من حديث: خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكذلك اللباس: كان يلبس القميص والعمامة، ويلبس الإزار والرداء، ويلبس الجبة والفروج، وكان يلبس من القطن والصوف، وغير ذلك، لبس في السفر جبة صوف، وكان يلبس مما يُجلبُ من اليمن وغيرها، وغالب ذلك مصنوع من القطن، وكانوا يلبسون من قباطي مصر، وهي منسوجةٌ من الكتان، فسنته في ذلك تقتضي أن يلبس الرجل ويطعم مما يسَّره الله ببلده من الطعام واللباس، وهذا يتنوع بتنوع الأمصار.

وقد كان اجتمع طائفة من أصحابه على الامتناع من أكل اللحم ونحوه، وعلى الامتناع من تزوج النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وفي الصحيحين عنه أنه بلغه أن رجالاً:

قال أحدهم: أمَّا أنا فأصوم لا أفطر.

وقال الآخر: أمَّا أنا فأقوم لا أنام.

وقال الآخر: أمَّا أنا فلا أتزوج النساء.

وقال الآخر: أمَّا أنا فلا آكل اللحم.

فقال: (**لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فأمر بأكل الطيبات، والشكر لله، فمن حرَّم الطيبات كان معتدياً، ومن لم يشكر، كان مفرِّطاً مضيعاً لحق الله.

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١٢٦).

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمدَه عليها، ويشرب الشربة فيحمدَه عليها)**(١).

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: **(الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)**(٢).

فهذه الطريق التي كان عليها رسول الله ﷺ هي أعدل الطرق وأقومها.

والانحراف عنها إلى وجهين:

وقوم: يسرفون في تناول الشهوات، مع إعراضهم عن القيام بالواجبات، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقوم: يحرِّمون الطيبات، ويبتدعون رهبانيةً لم يشرعْها الله تعالى، ولا رهبانيةَ في الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/٦٠٧).

(٢) الحديث: رواه الترمذي وقال: حسن غريب (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، بابٌ، ٤/٦٥٣/٢٤٨٦)، وابن ماجه (كتاب الصيام، باب فيمن قال: الطاعم الشاكر كالصائم الصابر، ١/٥٦١/١٧٦٤)، وابن حبان (كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ٢/١٦/٣١٥)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع الصغير ٤/١٧/ح٣٨٣٦٧).

[المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك)**[1].

وكل حلال: طيب، وكل طيب: حلال؛ فإن الله أحل لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث، لكن جهة طِيبه كونه نافعاً لذيذاً، والله حرَّم علينا كلَّ ما يضرُّنا، وأباح لنا كلَّ ما ينفعنا، بخلاف أهل الكتاب، فإنه - بظلم منهم - حرم عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم، فحرَّم عليهم طيبات عقوبة لهم، ومحمد ﷺ لم يحرِّم علينا شيئاً مِنَ الطيبات.

والناس تتنوع أحوالهم في الطعام واللباس، والجوع والشبع، والشخص الواحد يتنوع حاله، ولكن خير الأعمال ما كان لله أطوعَ ولصاحبه أنفعَ، وقد يكون ذلك أيسر العملين، وقد يكون أشدهما، فليس كل شديد فاضلاً، ولا كل يسير مفضولاً، بل الشرع إذا أمرنا بأمر شديد، فإنما يأمر به لِمَا فيه من المنفعة، لا لمجرد تعذيب النفس، كالجهاد الذي قال فيه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، والحج: هو الجهاد الصغير؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها في العمرة: **(أجرُك على قدر نَصَبُك)**[2]، وقال تعالى في الجهاد: ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ٢/٧٠٣/١٠١٥)، والترمذي (كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ٥/٢٢٠/٢٩٨٩)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، يصدر الناس بنُسُكَيْنِ وأصدُر بنسك؟ فقيل لها: (انتظري فإذا طهرت، فاخرجي إلى التنعيم، فأهِلِّي ثم ائتينا بمكان كذا، ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك). =

بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة: فليس هذا مشروعاً لنا؛ بل أمَرنا اللهُ بما ينفعنا، ونهانا عما يضرنا.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: (**إنما بعثتم ميسِّرين، ولم تبعثوا معسِّرين**)[1].

وقال لمعاذ وأبي موسى لمَّا بعثهما إلى اليمن: (**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا**).

وقال: (**هذا الدين يُسْرٌ؛ ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فاستعينوا بالغَدوةِ والرَّوْحةِ، وشيءٍ من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلُغوا**)[2].

وروي عنه أنه قال: (**أحب الدين إلى الله الحنيفيةُ السَّمحة**)[3].

فالإنسان إذا أصابه في الجهاد أو الحج أو غير ذلك، حرٌّ، أو برد، أو جوع ونحو ذلك، فهو مما يُحمد عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وكذلك قال ﷺ: (**الكفارات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة**

= رواه البخاري واللفظ له (كتاب أبواب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب، ٢/ ٦٣٤/ ١٦٩٥)، ومسلم (كتاب الحج، باب بيان وجه الإحرام أنه يجوز الإفراد بالحج، ٢/ ٨٧٦/ ١٢١١).

(١) الحديث: يأتي تخريجه (ص٣٢٩).

(٢) الحديث: يأتي تخريجه (ص٣٣٠).

(٣) الحديث: يأتي تخريجه (ص٣٣٠).

الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[١].

وأما مجرد بروز الإنسان للحر والبرد: بلا منفعة شرعية، واحتفاؤه وكشف رأسه، ونحو ذلك مما يظن بعض الناس أنه من مجاهدة النفس، فهذا إذا لم يكن فيه منفعةٌ للإنسان، وطاعةٌ الله، فلا خيرَ فيه؛ بل قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: **(ما هذا؟)** قالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظلَّ، ولا يتكلم، ويصوم، فقال: **(مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه)**.

ولهذا نهى عن الصمت الدائم؛ بل المشروع ما قاله النبيُّ ﷺ قال: **(مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت)**[٢]، فالتكلُّم بالخير خيرٌ من السكوت عنه والسكوتُ عن الشر خيرٌ من التكلم به»اهـ[٣].

وذم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من جعل الجوع والسهر طريقاً لنيل المعارف أو حصول الأحوال:

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، ١/ ٢١٩/ ٢٥١)، والترمذي (كتاب أبواب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إسباغ الوضوء، ١/ ٧٢/ ٥١)، والنسائي (كتاب الطهارة، باب الفضل في ذلك، ١/ ٨٩/ ١٤٣) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ، ٥/ ٢٢٤٠/ ٥٦٧٣) من حديث: أبي شريح العدوي رضي الله عنه، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، ١/ ٦٨/ ٤٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الفتاوى (٢٢/ ٣٠٧ ـ ٣١٥).

فقال: «والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي، فالطريق الشرعي هو: النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما.

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية؛ فإن الرسول بيَّن بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، والرسل بيَّنوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته.

وأما الطريقان المبتدَعان:

فأحدهما: طريق أهل الكلام البِدعي والرأي البدعي؛ فإن هذا فيه باطلٌ كثير، وكثير من أهله يفرِّطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال، فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة.

والثاني: طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية، وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة؛ فإن هؤلاء يقولون: إذا صَفَّى الإنسان نفسَه على الوجه الذي يذكرونه، فاضت عليه العلوم بلا تعلُّم. وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدَعةً؛ بل مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ، فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول، وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء، وتقدح كل طائفة في الأخرى، وينتحل كلٌّ منهم اتباعَ الرسول.

والرسول ليس ما جاء به موافقاً لما قال هؤلاء ولا هؤلاء ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وما كان رسول الله ﷺ ولا أصحابُه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي، ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف، بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة...

وكذلك لو جاع وسهر وخلا وصمت وفعل، ماذا عسى أن يفعل، لا يكون مهتدياً إن لم يتعبَّد بالعبادات الشرعية، وإن لم يتلقَّ علم الغيب من جهة الرسول.

قال تعالى لأفضل الخلق، الذي كان أزكى الناس نفساً، وأكملهم عقلاً، قبل الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

وقال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]»اهـ[1].

ـ وذمَّ الشيخ المتصوفةَ الذين يُؤْثِرون الجوع والتعرِّي وعدمَ النظافة، ويعدُّون ذلك مِنَ المقامات العالية:

فقال في معرض بيانه لضلال فريق من النُّسَّاك المتعبِّدة وخروجهم عن سنة سيد المرسلين: «وأما من يشبه النصارى: فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهَّر ولا يصلي، من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة، مثل من يكون في مواضع الشياطين والنجاسات كالحمام

---

(١) المنهاج (٥/٤٢٨ ـ ٤٣١).

والأتاتين[١] والمزابل، وهو متلوِّثٌ بالبول والعَذِرَة، ويعاشر الكلاب، ولا يتوضأ، ولا يغتسل من الجنابة؛ بل ولا يصلي، أو يصلي بلا وضوء»اهـ[٢].

وقال الشيخ في معرض كلامه عن أبي طالب المكي، وما وقع في بعض كتبه من تجاوز: «ويذكر أحياناً عباداتٍ بدعيةً، من جنس ما بالغ في مدح الجوع، هو وأبو حامد وغيرهما[٣]، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب كلما جف نقص الأكل»اهـ[٤].

وخلاصة ما سبق أن المتصوفة لمَّا تظاهروا بالزهد والإعراض عن الدنيا، ووقعوا في الزهد البدعي وتركوا التكسب وطلب الرزق، وقعوا في حيرة شديدة؛ لأنهم أتوْا ببدعة مرفوضة عقلاً وشرعاً، فاضطروا إلى تكفُّف الناس وسؤالهم، فوقعوا في شرٍّ مِمَّا فروا منه.

هذا بالإضافة إلى تركهم التجمل الشرعي في اللباس والبدن وغيرهما، فخالفوا هدي النبي ﷺ في ذلك.

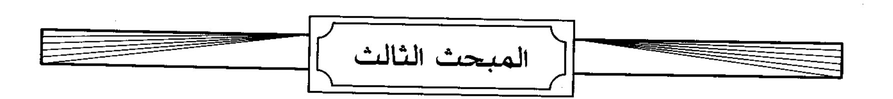


(١) الأتاتين: جمع أتون ـ وزن رسول ـ وهو: الحمَّام والجصاصة، والأتون أيضاً: الموقد.
انظر مادة: أتن، في: لسان العرب (١٣/٦)، القاموس (ص١٥١٥)، تاج العروس (١٨/٨).

(٢) الجواب الصحيح (٢/١٣٨ ـ ١٣٩).

(٣) انظر الحاشية رقم (٢) (ص١٢٥).

(٤) الفتاوى (١٠/٤٠٤).


المبحث الثالث

الأوراد، والأذكار

ذِكْرُ الله تعالى عبادةٌ مِنْ أعظم العبادات، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذكره في جميع الأحوال، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

ولكن إذا نظرنا في واقع الصوفية، وجدنا فريقاً غيرَ قليل منهم يُكثرون من ذكر الله تعالى، ولكن بأذكارٍ وطرقٍ مبتدَعَةٍ، حتى تفرَّقوا أحزاباً وفرقاً، وصار لكل شيخِ طريقةٍ أذكارٌ يخترعها لأتباعه، يذكرون الله تعالى بها، ويرتب لهم الأجورَ عليها!!.

وقد انتشرت هذه الأذكار المبتَدَعَةُ حتى صدَّتهم عن ذكر الله المشروع، وعن قراءة القرآن، وصار أحدهم يقيم على هذه الأذكار المبتَدَعة سنينَ عديدة من عمره، وهو يظن أنه على خير، وما أشبه حاله بمن قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]، وقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨][(١)].

---

(١) من هذه الأذكار المبتدعة ما يسمى بأحزاب الشاذلي، كحزب النصر وحزب البر وغيرهما، وحزب النصر هو أن تقول: «حم حم حم حم حم حم حم الأمر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون، حم عسق حمايتنا مما نخاف، اللهم قنا شر الأسوء، ولا تجعلنا محلاً للبلو [كذا] اللهم أعطنا أمل الرجاء، ونور الإيمان، يا هو يا هو يا هو»اهـ مجموع الأوراد الكبير والأدعية والأحزاب والاستغاثات (ص١٤٥). =

وقد بيّن شيخ الإسلام أحوال الصوفية في الذكر والأوراد، ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

أولاً: غلوّ المتصوفة في الذكر وترقيق القلب جرّهم إلى القول بالحلول والاتحاد:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الفناء[(١)]: «ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول، فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله، ويستغرق في ذلك فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله، ويفنى ذكرُه وشهودُه لِمَا سواه، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت، وأن نفسه فنيت، حتى يتوهم أنه هو الله، وأن الوجود هو الله، ومن هذا الباب غَلَطُ أبي يزيد ونحوه، حيث قال: ما في الجبة إلا الله؛ وقد بسط هذا في غير هذا الموضع»اهـ[(٢)].

وقال أيضاً: «وكذلك أصحاب الرياضة والتجرد: فإن صفوتهم الذين يشتغلون بذكرٍ بسيطٍ، مثل لا إله إلا الله، إن لم يغلُوا فيقتصروا على مجرد: الله.. الله، ويعتقدون أن ذلك أفضلُ وأكملُ، كما فعله كثيرٌ منهم، وربما اقتصر بعضهم على: هُوْ هُوْ، أو على قوله: لا هو إلا هو؛ لأن هذا الذكر المبتدع الذي هو لا يفيد بنفسه إلا أنه مطلقٌ[(٣)]، ليس فيه

= ومن أذكار المتصوفة المبتدعة ذِكر فيه طلب من الله أن يحل في العبد، وهو قولهم: «إلهي اِسْتَهْلك كليتي كليتي في كليتك، وامدد أوليتي بأوليتك، حتى أشهد أوليتك في أوليتي، وآخريتك في آخريتي، وظاهريتك في ظاهريتي، وباطنيتك في باطنيتي، وقابليتك في قابليتي، وأنت في أمنيتي، وهويتك في هويتي»اهـ مجموعة أحزاب (ص١٥) عن مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (٣/ ١١٤٢).

(١) تقدم تعريف الفناء وبيان المراد به، في مبحث سابق (ص٥١).

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٩٩).

(٣) كذا في المطبوع: مطلقاً (بالنصب)، والصواب: مطلقٌ (بالرفع).

بنفسه ذكر لله إلا بقصد المتكلم، فقد ينضم إلى ذلك اعتقادُ صاحبه أنه: لا وجودَ إلا هو، كما يصرح به بعضهم، ويقول: لا هو إلا هو، أو: لا موجودَ إلا هو، وهذا عند الاتحادية أجودُ مِنْ قول: لا اله إلا الله؛ لأنه مصرِّحٌ بحقيقة مذهبهم الفرعوني القرمطي، **حتى يقول بعضهم**: لا إله إلا الله: ذكر العابدين. والله الله: ذكر العارفين. وهو: ذكر المحققين!

ويجعل ذكره: يا من لا هو إلا هو، وإذا قال: الله الله، إنما يفيد مجردَ ثبوته، فقد ينضم إلى ذلك نفيُ غيره، لا نفي إلهية غيره، فيقع صاحبه في وحدة الوجود، وربما انتفى شهودُ القلب للسِّوى إذا كان في مقام الفناء، فهذا قريب، أما اعتقاد أن وجود الكائنات هي هو، فهذا هو الضلال، ويضمون إلى ذلك نوعاً من التصفية، مثل: ترك الشهوات البدنية من الطعام والشراب، والرياسة والخلوة، وغير ذلك من أنواع الزَّهادة المطلقة والعبادة المطلقة، فيَصِلُون أيضاً إلى تألُّهٍ مطلقٍ، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده، ونحو ذلك من نحو ما يصل إليه أرباب القياس»اهـ[1].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ومن هؤلاء أيضاً مَنْ غَلَبَ عليه الذكر لله، والتوحيد له والمحبة، حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عمَّا سواه، كما يحصل لبعض العاشقين في غيبته بمعشوقه عما سواه، فيقول أحدهم في هذه الحال: أنا الحق، أو: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا الله»اهـ[2].

ثانياً: ابتداعهم لأنواع من الذكر غيرِ مشروعةٍ، مثل الذكر بـ: الله.. الله، أو: هو.. هو، ونحوهما:

قال الشيخ: «أفضل الذكر: «لا إله إلا الله»، كما رواه الترمذي

---

(١) الفتاوى (٢/ ٦٣ ـ ٦٤). وللإمام ابن القيم ردّ بديع على ذِكر الصوفية الله تعالى بالاسم المفرد: الله، في طريق الهجرتين (ص٣٣٨).
(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٥٠).

وابن أبي الدنيا، وغيرهما، مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: (**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**)(١)، وفي الموطأ وغيره، عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبي ﷺ قال: (**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**)(٢).

ومن زعم أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو: الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة هو: الاسم المضمر؛ فهم ضالُّون غالطون.

واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، مِنْ أبين غَلَطِ هؤلاء؛ فإن الاسم هو مذكور في الأمر بجواب الاستفهام، وهو قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فالاسم مبتدأ، وخبره قد دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك تقول: من جارُه؟ فيقول: زيد، وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً، فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطي القلب بنفسه

---

(١) الحديث: رواه الترمذي وقال: حسن غريب (كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/٤٦٢/٣٣٨٣)، وابن ماجه (كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، ٢/١٢٤٩/٣٨٠٠)، وابن حبان (كتاب الرقائق، باب الأذكار، ٣/١٢٦/٨٤٦)، والحاكم (كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ١/٦٧٦/١٨٣٤)، من حديث: جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/٣٦٢/ح١١١٥).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١١٩).

معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً، لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه، وإلا لم يكن فيه فائدة.

والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدةُ حاصلةً بغيره، وقد وقع بعض من واظب على هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، حالٌ لا يقتدى فيها بصاحبها؛ فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاءَ به؛ إذ لو مات العبد في هذه الحال: لم يمت إلا على ما قصده ونواه؛ إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله، وقال: **(من كان آخرَ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)**[1]، ولو كان ما ذكره محذوراً لم يلقن الميت كلمةً يُخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المضمر المفرد: أبعدُ عن السنة، وأدخَلُ في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان؛ فإن من قال: يا هو.. يا هو، أو: هو هو، ونحو ذلك، لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضِلُّ، وقد صنف صاحب (الفصوص) كتاباً سماه: (كتاب الْهُوْ)!.

وزعم بعضهم أن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، معناه: وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو: (الْهُوْ). وقيل: هذا، وإن كان مما اتفق المسلمون ـ بل العقلاء ـ على أنه من أبين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتى قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك: لو كان هذا كما قلتَه لكُتِبت: (وما يعلم تأويل: هو) منفصلةً.

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٣٨٩).

ثم كثيراً ما يذكر بعضُ الشيوخ أنه يحتج على قول القائل: (الله) بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٩١]، ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم؛ فإن قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ معناه: اللهُ الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وهو جواب لقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: اللهُ الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، ردَّ بذلك قولَ من قال: ما أنزل اللهُ على بشر من شيء، فقال: ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ أنزله «ثم ذر» هؤلاء المكذبين ﴿فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

ومما يبين ما تقدم: ما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو(١): أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاماً، لا يحكون به ما كان قولاً، فالقول لا يُحكى به إلا كلامٌ تامٌّ، أو جملةٌ اسمية أو فعلية، ولهذا يكسرون: أن، إذا جاءت بعد القول، فالقول لا يُحكى به اسم، والله تعالى لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد، ولا شرع للمسلمين مفرداً مجرداً، والاسم المجرد لا يفيد الإيمان، باتفاق أهل الإسلام، ولا يؤمر به في شيء من العبادات، ولا في شيء من المخاطبات.

ونظير من اقتصر على الاسم المفرد: ما يُذكر أن بعض الأعراب مرَّ بمؤذن يقول: «أشهد أن محمداً رسولَ الله» بالنصب، فقال: ماذا يقول هذا؟! هذا الاسم، فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام؟.

وما في القرآن: من قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ٨]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ

---

(١) انظر: كتاب سيبويه (١/ ١٢٢).

﴿مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]، وقوله ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، نحو ذلك لا يقتضي ذكره مفرداً؛ بل في السنن أنه لما نزل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال: **(اجعلوها في ركوعكم)**، ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، قال: **(اجعلوها في سجودكم)**[(١)]، فشرع لهم أن يقولوا في الركوع: «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى».

وفي الصحيح: «أنه كان يقول في ركوعه: **(سبحان ربي العظيم)**، وفي سجوده: **(سبحان ربي الأعلى)**»[(٢)]، وهذا هو معنى قوله: **(اجعلوها في ركوعكم وسجودكم)**، باتفاق المسلمين، فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد.

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **(أفضل الكلام بعد القرآن أربع ـ وهن من القرآن ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)**[(٣)].

---

(١) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ١/ ٢٣٠/ ٨٦٩)، وابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، ١/ ٢٨٧/ ٨٨٧)، والحاكم وقال: «صحيح وقد اتفقا على الاحتجاج برواته غير إياس بن عامر، وهو مستقيم الإسناد» وعلق الذهبي على كلام الحاكم بقوله: «إياس ليس بالمعروف» (كتاب الإمامة والجماعة، باب التأمين، ١/ ٣٤٧/ ٨١٨)، والدارمي (كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣١٨/ ١٢٨٠) من حديث: عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، وضعّفه الألباني (ضعيف سنن ابن ماجه ص٦٧/ ح١٨٦).

(٢) الحديث: رواه مسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ١/ ٥٣٦/ ٧٧٢)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ١/ ٢٣٠/ ٨٧١) من حديث: حذيفة رضي الله عنه، والترمذي (كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود، ٢/ ٢٣٠/ ٨٦٩) من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١١٨).

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**)[١].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (**من قال في يومه مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلِ مما جاء به، إلا رجل قال مثل ما قال، أو زاد عليه، ومن قال في يومه مائة مرة: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حُطَّتْ عنه خطاياه، ولو كانت مثلَ زبد البحر**)[٢].

وفي (الموطأ) وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: (**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**)[٣].

وفي سنن ابن ماجه وغيره، عنه ﷺ أنه قال: (**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**)[٤]، ومثل هذه الأحاديث كثيرة، في أنواع ما يقال من الذكر والدعاء.

وكذلك ما في القرآن: من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، إنما هو قوله: بسم الله، وهذا جملة تامة، إما

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١٦٢).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٣/ ١١٩٨/ ٣١١٩)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ٤/ ٢٠٧/ ٢٦٩١) من حديث: أبي هريرة ﷺ.

(٣) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١١٩).

(٤) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١١٩).

اسمية ـ على أظهر قولي النحاة ـ أو فعلية، والتقدير: ذبحي باسم الله، أو ذَبحٌ باسم الله، وكذلك قول القارئ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فتقديره: قراءتي بسم الله، أو أقرأ: بسم الله، ومن الناس من يضمر في مثل هذا: ابتدائي بسم الله، أو ابتدأت: بسم الله، والأول أحسن؛ لأن الفعل كله مفعول بسم الله ليس مجرد ابتدائه، كما أظهر المضمر في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وفي قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١]، وفي قوله ﷺ: **(من كان ذَبحَ قبل الصلاة، فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح فليذبح: بسم الله)**(١).

ومن هذا الباب قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لرَبيبه عمر بن أبي سلمة: **(سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك)**(٢)، فالمراد أن يقول: بسم الله، ليس المراد أن يذكر الاسم المجرد.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح لعدي بن حاتم: **(إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله، فكل)**(٣)، وكذلك قوله ﷺ: **(إذا دخل الرجل منزله، فذكر اسم الله عند دخوله، وعند خروجه، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مَبيتَ لكم ولا عشاء)**(٤)، وأمثال ذلك كثير.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: (فليذبح على اسم الله)، ٥/ ٢٠٩٥/ ٥١٨١)، ومسلم (كتاب الأضاحي، باب وقتها، ٣/ ١٥٥١/ ١٩٦٠) من حديث: جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، ٥/ ٢٠٥٦/ ح٥٠٦١)، ومسلم (كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، ٣/ ١٥٩٩/ ح٢٠٢٢) من حديث: عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الصيد والذبائح، باب صيد المعراض، ح/ ٥٤٧٦)، ومسلم (كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الصيد بالكلاب المعلمة، ح/ ١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم.

(٤) الحديث: رواه مسلم (كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب ح/ ٢٠١٨) من حديث جابر.

وكذلك ما شُرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم، من ذكر الله تعالى، إنما هو بالجملة التامة.

كقول المؤذن: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

وقول المصلي: الله أكبر، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى، سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، التحيات لله.

وقول الملبي: لبيك اللهم لبيك، وأمثال ذلك.

فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام، لا اسم مفرد، لا مظهر ولا مضمر، وهذا هو الذي يسمى في اللغة: كلمةً.

كقوله: **(كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)**[1].

وقوله: (أفضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[2]

ومنه: قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية [الكهف: ٥]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة في الكتاب والسنة، بل وسائر كلام العرب، فإنما يراد به الجملة التامة، كما كانوا يستعملون الحرف في الاسم، فيقولون: هذا حرف غريب، أي: لفظ الاسم غريب، وقسَّم سيبويه الكلام إلى: اسم، وفعل، وحرفٍ جاء لمعنًى ليس باسم وفعل[3]، وكلٌّ من

(١) الحديث: أخرجه البخاري (كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح ح/ ٦٤٠٥)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ح/ ٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٤٧٣).

(٣) انظر كلام سيبويه في: الكتاب (١/ ١٢).

هذه الأقسام يسمى حرفاً، لكن خاصة الثالث أنه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهي أسماء، ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها كما قال النبي ﷺ: **(من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف عشرُ حسنات، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾: حرف؛ ولكن ألفٌ: حرف، ولام: حرفٌ، وميم: حرفٌ)**[١].

وقد سأل الخليل[٢] أصحابه عن النطق بحرف الزاي من: زيد، فقالوا: زاي، فقال: جئتم بالاسم، وإنما الحرف (ز)[٣].

ثم إن النحاة اصطلحوا على أن هذا المسمى في اللغة بالحرف، يسمى: كلمة، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنى، ليس باسم ولا فعل، كحروف الجر ونحوها، وأما ألفاظ حروف الهجاء: فيُعبَّرُ تارةً بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ، وتارة باسم ذلك الحرف، ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب، ومنهم من يجعل لفظ الكلمة في اللغة لفظاً مشتركاً بين الاسم ـ مثلاً ـ وبين الجملة، ولا يعرف في صريح اللغة من لفظ الكلمة إلا الجملة التامة.

والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله ﷻ، هو ذكره بجملة تامة وهي المسمى بالكلام، والواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر والقرب إلى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية.

---

(١) الحديث: يأتي تخريجه (ص٢٠١).

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمن، إمام في: لسان العرب، وأول من قال بعلم العروض، قال الذهبي: «كان رأساً في لسان العرب، دَيِّناً ورعاً قانعاً متواضعاً كبير الشأن»اهـ، توفي سنة ١٧٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٤٤)، سير الأعلام (٧/ ٤٣٩)، شذرات الذهب (١/ ٢٧٥).

(٣) انظر كلام الخليل في: كتاب سيبويه (٣/ ٣٢٠).

وأما الاقتصار على الاسم المفرد مُظهَراً، أو مُضمَراً، فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع»اهـ[١].

وقال الشيخ: «وأما ذكر الاسم المفرد فبدعة؛ لم يشرع، وليس هو بكلام يُعقل ولا فيه إيمان، ولهذا صار بعض من يأمر به من المتأخرين يبين أنه: ليس قصدنا ذكر الله تعالى، ولكن جمع القلب على شيء معين، حتى تستعد النفس لما يَرِد عليها، فكان يأمر مريده بأن يقول هذا الاسم مرات، فإذا اجتمع قلبُه ألقى عليه حالاً شيطانياً، فيلبسه الشيطان ويخيل إليه أنه قد صار في الملأ الأعلى، وأنه أُعطي ما لم يُعطَه محمدٌ ﷺ ليلةَ المعراج! ولا موسى عليه السلام يوم الطُّور! وهذا وأشباهه وقع لبعض من كان في زماننا.

وأبلغ من ذلك من يقول: ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان، حتى يقول: لا فرق بين قولك: يا حي! وقولك: يا جحش! وهذا مما قاله لي شخص منهم، وأنكرت ذلك عليه، **ومقصودهم بذلك**: أن تجتمع النفس حتى يتنزل عليها الشيطان، ومنهم من يقول إذا: كان قصدٌ، وقاصدٌ، ومقصودٌ، فاجعل الجميع واحداً! فيدخله في أول الأمر في وحدة الوجود»اهـ[٢].

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٢٢٥ ـ ٢٣٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٣٩٦)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٩٧).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٦٣، ١٠/ ٥٥٦ ـ ٥٦٠)، الرد على المنطقيين (ص٣٥).

ثالثاً: بعض المتصوفة يرغب عن الأذكار الشرعية، ويشتغل بما استحدثه بعض المشايخ من أذكار:

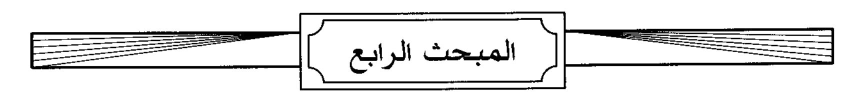
قال الشيخ: «الدعاء من أفضل العبادات؛ وقد نهانا الله عن الاعتداء فيه، فينبغي لنا أن نتبع فيه ما شَرع وسنَّ، كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره من العبادات، والذي يعدل عن الدعاء المشروع إلى غيره ـ وإن كان من أحزاب بعض المشايخ ـ الأحسن له أن لا يفوتَه الأكمل الأفضل، وهي: الأدعية النبوية، فإنها أفضل وأكمل ـ باتفاق المسلمين ـ من الأدعية التي ليست كذلك، وإن قالها بعض الشيوخ، فكيف يكون في عين الأدعية ما هو خطأ أو إثم أو غير ذلك؟.

ومن أشد الناس عيباً: من يتخذ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق وحُجة الله على عباده، والله أعلم»اهـ[1].

ونخلص مما سبق إلى أن المتصوفة وقعوا في عدة أنواع من الابتداع في مسائل الأذكار والأوراد، ومن ذلك: ابتداعُهم للذكر بالاسم المفرد (الله)، وابتداعُهم لأذكار لم تَرِدْ عن النبي ﷺ، وتحديدهم كيفياتٍ وأعداداً وصوراً للتعبد هذه الأذكار، وكل هذا من الابتداع، وخير الهدي هدي محمد ﷺ. وقد تقدم بيان صور من هذا الابتداع، والرد عليهم فيه.



(١) الفتاوى (٢٢/ ٥٢٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/ ٢٣٢).



المبحث الرابع

الأحوال المبتدعة (السُّكْر، الوَلَه، الجنون...)

الأحوال: جمع حال، ونعني به هنا: ما يعتري بعض المتصوفة أثناء الذكر أو السماع، أو عند ذكر الجنة والنار والثواب والعقاب، من: صَعْقٍ[(١)]، وسُكْر[(٢)]، وغَيْبة عقل[(٣)]، ونحو ذلك.

والصوفية يعدُّون هذه الأحوال من أكمل المقامات، ومَنْ أصابته صار عندهم من الأولياء أصحابِ الكرامات[(٤)].

---

(١) معنى الصَّعق في اللغة: مصدر صعِق الرجل يصعَق صَعْقاً وصَعَقاً، فهو صَعِق: غشي عليه وذهب عقله من صوت سمعه كالهدَّة الشديدة، ويقال: صَعِق فلان: مات.
ومعنى الصعق عند الصوفية هو: الفناء في الله عند التجلي الذاتي الوارد بسبحات يحترق ما سوى الله فيها.
انظر: لسان العرب (١٠/١٩٨، مادة: صعق)، تاج العروس (١٣/٢٦٩، مادة: صعق)، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص٤٥٥)، التعريفات للجرجاني (ص١٧٤).

(٢) تقدم تعريف السكر، انظر (١/١١٠).

(٣) معنى الغيبة في اللغة: بفتح الغين وسكون الياء: فقدان الشيء والبعد عنه وعدم المعرفة به.
ومعنى الغيبة عند الصوفية: الغيبة عن الأشياء بمشاهدة الحق، وهي بهذا التعريف قريبة المعنى مما يسمونه الفناء.
انظر: تاج العروس (٢/٢٩٥، مادة غيب)، عوارف المعارف للسهروردي (٥/٢٥٤).

(٤) انظر: الإحياء (٢/٢٦٣ ـ ٢٦٥)، عوارف المعارف للسهروردي (٥/٢٥٢ ـ ٢٥٣)، التعرف للكلاباذي (ص٧٨، ١٢٧).

قال الشيخ في معرض كلامه عن مدح الصوفية للسكر وزوال العقل: «وكثير من المتصوفة يذمُّون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السكر والجنون والوَلَهَ، وأموراً من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بُطلانَها ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم»اهـ(١).

وقال الشيخ في معرض كلامه عن الأحوال وآثارها: «.. لما عُرف من حال الشبلي، وأنه كان يغلب عليه الوجد، حتى يزولَ عقلُه، وتحلق لحيته، ويذهبوا به إلى المارستان، ويسقط عنه التمييز بين الحق والباطل»اهـ(٢).

وقال: «والنوري رَحِمَهُ الله كان فيه وَلَهٌ، وقد مات بأَجَمَةِ قصب لما غلبه الوجد حتى أزال عقله، ومَنْ هذه حاله لا يصلح أن يُتبع في حال لا يوافق أمر الله ورسوله»اهـ(٣).

والأحوال التي تطرأ على القلب عند وجود ما يُخوِّفه أو يُرَقِّقه، نوعان:

١ ـ **أحوال رحمانية:** وهي ما يصيب أهلَ الإيمان من دمع العين ووجل القلب عند سماع القرآن.

٢ ـ **أحوال شيطانية:** مثل ما يعرض لبعض المتصوفة عند السماع.

أما الأحوال الرحمانية: فقد بيّنها شيخ الإسلام بقوله: «كان

(١) الفتاوى (٣/ ٣٣٨).

(٢) الاستقامة (١/ ١١٥)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستقامة (١/ ٤٠٤).

(٣) الاستقامة (٢/ ١٦).

الصحابة ﷺ يجتمعون أحياناً: يأمرون أحدهم يقرأ والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب يقول: يا أبا موسى ذكّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون[١]، وكان من الصحابة من يقول: اجلسوا بنا نؤمن ساعة[٢]، وصلّى النبي ﷺ بأصحابه التطوع في جماعة مرات[٣]، وخرج على

---

(١) الأثر: يأتي تخريجه (ص١٩٧).

(٢) الأثر: أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم عن معاذ بن جبل ﷺ (كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي: (بني الإسلام على خمس)، ١/ ١١)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٤)، وابن المبارك في الزهد (ص٤٩٠)،، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ٤٨): «والتعليق المذكور وصله أحمد وأبو بكر أيضاً بسند صحيح إلى الأسود بن هلال، قال: قال لي معاذ بن جبل: اجلس بنا نؤمن ساعة»اهـ.

(٣) كما صلى ﷺ بأصحابه التراويح في جماعة عدة ليالٍ، كما رواه البخاري (كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان، ٢/ ٧٠٨/ ١٩٠٨) من حديث: عائشة، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، ١/ ٥٢٤/ ٧٦١).

وكذلك صلى بعتبان بن مالك في بيته التطوع جماعة كما رواه البخاري (كتاب الجماعة والإمامة، باب الرخصة في المطر والعلة أن يصلي في رحله، ١/ ٢٣٧/ ٦٣٦)، ومالك في الموطأ (كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة، ١/ ١٧٢/ ٤١٥)، والنسائي في المجتبى (كتاب الإمامة، باب إمامة الأعمى، ٢/ ٨٠/ ٧٨٨)، من حديث: محمود بن الربيع ﷺ.

وصلى بأنس بن مالك وأمه واليتيم في داره، كما عند البخاري في صحيحه (كتاب أبواب الصلاة في الثياب، باب الصلاة على الحصير، ١/ ١٤٩/ ٣٧٣)، ومسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة والصلاة على حصير، ١/ ٤٥٧/ ٦٥٨)، من حديث: أنس ﷺ.

وصلى بالليل وخلفه ابن عباس، كما عند البخاري في صحيحه (كتاب العلم، باب السمر في العلم، ١/ ٥٥/ ١١٧)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٢٥/ ٧٦٣)، من حديث: عبد الله بن عباس ﷺ.

الصحابة من أهل الصُّفَّة وفيهم قارئ يقرأ، فجلس معهم يستمع[(١)].

وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وَجَلِ القلب ودمع العين واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة، وأما الاضطراب الشديد والغشي والموت والصيحات، فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه: لم يُلَم عليه، كما قد كان يكون في التابعين ومن بعدهم، فإن منشأه قوة الوارد على القلب مع ضعف القلب، والقوة والتمكُّن أفضل؛ كما هو حال النبي ﷺ والصحابة ﷺ، وأما السكون قسوةً وجفاءً: فهذا مذموم لا خير فيه»اهـ[(٢)].

وقال رحمه الله: «ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم، أو مثله، أو أكمل منه، فهو أفضل منهم، وهذا حال الصحابة ﷺ، وهو حال نبينا ﷺ، فإنه أُسريَ به إلى السماء وأراه الله ما أراه، وأصبح كبائتٍ لم يتغيَّرْ عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذي خرَّ صَعِقاً لما تجلَّى ربه للجبل، وحالُ موسى حالٌ جليلة عَلِيَّةٌ فاضلة: لكن حال محمد ﷺ أكملُ وأعلى وأفضل»اهـ[(٣)].

---

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٣٧) وأبو نعيم الحلية (١/ ٣٤٢) عن أبي سعيد الخدري، قال: كنت في حلقة من الأنصار وإن بعضنا ليستتر ببعض من العري، وقارئ لنا يقرأ علينا فنحن نسمع إلى كتاب الله ﷻ، إذ وقف علينا رسول الله ﷺ وقعد فينا ليعد نفسه معهم، فكف القارئ، فقال: (ما كنتم تقولون؟) قال: قلنا: يا رسول الله، كان قارئ لنا يقرأ كتاب الله ﷻ، فقال رسول الله ﷺ بيده وحلَّق بها يومئ إليهم أن تحلقوا، فاستدارت الحلقة، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحداً غيري، قال: فقال: (أبشروا يا معشر الصعاليك، تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام)اهـ.

(٢) الفتاوى (٢٢/ ٥٢١ ـ ٥٢٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المستدرك على الفتاوى (١/ ١٩١).

(٣) الفتاوى (١١/ ١٢ ـ ١٣).

أما الأحوال الشيطانية: فقد بيّن الشيخ رحمه الله أنواع الصوفية في أحوالهم الشيطانية، وفصَّل أحكامهم في أحوالهم بحسب اختلاف هذه الأحوال، واختلاف من وقعت منه(١)، ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

أولاً: بداية ظهور الأحوال ـ عموماً ـ من غشي وصَعْق وموت ونحوها، واختلاف الصحابة ومَنْ بعدَهم في الحُكم عليها:

قال الشيخ في معرض كلامه عن نشأة التصوف وبداية ظهور المبالغات في الزهد والتخشّع والبكاء والنحيب: «غالب ما يُحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عُبّاد أهل البصرة، مثل حكاية من مات، أو غُشِيَ عليه من سماع القرآن ونحوه، كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة، فإنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، فخرَّ ميتاً(٢)، وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالحٌ المُرِّيُّ، فمات(٣)، وكذلك غيره ممن رُوِي أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يُصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة مَنْ هذه حاله.

فلما ظهر ذلك: أنكر ذلك طائفةٌ من الصحابة والتابعين: كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن سيرين، ونحوهم، **والمنكرون لهم مأخذان:**

منهم: من ظن ذلك تكلفاً وتصنُّعاً، يُذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين هؤلاء الذين يُصعَقون عند سماع القرآن إلا أن يُقرأَ على أحدهم وهو على حائط، فإن خرَّ: فهو صادق(٤).

---

(١) تقدم في مبحث سابق بيان منهج شيخ الإسلام في التعامل مع الألفاظ الكفرية التي يقولها بعض الصوفية أثناء أحوالهم وغَيْبة عقولهم (١/ ١٧٢).

(٢) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٢٢٧).

(٣) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٢٢٧).

(٤) الأثر: أورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٣٠٧).

ومنهم: من أنكر ذلك؛ لأنه رآه بدعةً مخالفاً لما عُرف من هدي الصحابة، كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله، والذي عليه جمهور العلماء: أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه: لم يُنكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لمَّا سئل الإمام أحمد عن هذا، فقال: «قُرئَ القرآنُ على يحيى بن سعيد القطان، فغُشِي عليه ولو قدر أحدٌ أن يدفع هذا عن نفسه، لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه»(١)، ونحو هذا، وقد نُقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك(٢)، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة(٣).

وبالجملة: فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه، لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن، وهي: وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

---

(١) أورد هذه القصة ابن قدامة في المغني (١٠/ ١٧٨) فقال: «وقال زهير بن حرب: كنا عند يحيى القطان، فجاء محمد بن سعيد الترمذي، فقال له يحيى: اقرأ، فقرأ فغشي على يحيى حتى حُمِلَ فأدخل. وقال محمد بن صالح العدوي: قرأت عند يحيى بن سعيد فغشي عليه»اهـ.

(٢) الأثر: وقفت على قصة قريبة من هذه أوردها الذهبي في سير الأعلام (١٠/ ١٨) عن: «سويد بن سعيد يقول: كنت عند سفيان، فجاء الشافعي فسلم وجلس، فروى ابن عيينة حديثاً رقيقاً فغشي على الشافعي، فقيل: يا أبا محمد، مات محمد بن إدريس، فقال ابن عيينة: إن كان مات فقد مات أفضلُ أهل زمانه»اهـ.

(٣) يشير شيخ الإسلام إلى ما ذكره المترجمون لعلي بن الفضيل بن عياض، وأنه صعق وخرجت روحه في الصلاة بسبب آية سمعها، وقد ذكر ذلك الإمام الذهبي في سير الأعلام (٨/ ٤٤٦) عن إبراهيم بن بشار قال: الآية التي مات فيها علي بن الفضيل في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧] مع هذا الموضع مات وكنت فيمن صلى عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. اهـ.

تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقد يَذُمُّ حالَ هؤلاء: من فيه من قسوة القلوب، والرَّيْن عليها، والجفاء عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا.

ومنهم: من يظن أن حالَهم هذا أكملُ الأحوال وأتمُّها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميمٌ.

بل المراتب ثلاث:

أحدها: حال الظالم لنفسه، الذي هو قاسي القلب لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شبهٌ من اليهود.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

والثانية: حال المؤمن التقيّ: الذي فيه ضعفٌ عن حمل ما يَرِد على قلبه، فهذا الذي يُصعقُ صَعْقَ موت، أو صَعْقَ غشي، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح، أو يخاف، أو يحزن، أو يحب أموراً دنيوية، يقتله ذلك أو

يمرضه، أو يذهب بعقله. ومن عُباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جنَّنه، وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمرٌ ضعفت نفسه عن دفعه، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك، فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه، فلا وجه للريبة، كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرِّط بترك ما يوجب له ذلك، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه: السكر، والفناء، ونحو ذلك من الأمور التي تُغيِّب العقل بغير اختيار صاحبها، فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً بل معذوراً، فإن السَّكْران بلا تمييز.

وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السُّكْر من الخمر والحشيشة، فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين، ومن استحل السُّكْر من هذه الأمور فهو كافر.

وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها، كما قيل:

سُكْران: سكرُ هوى وسكرُ مُدامةٍ ومتى إفاقةُ مَنْ به سُكْران

وهذا مذموم؛ لأن سببه محظور.

وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة: التي تورث مثل هذا السكر، وهذا أيضاً مذموم؛ فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يُؤْمَرْ بسماعها ما يزيل عقلَه؛ إذ إزالة العقل محرَّم، ومتى أفضى إليه سببٌ غيرُ شرعي كان محرماً، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية، ولو بأمور فيها نوعٌ مِنَ الإيمان، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل.

ولم يأذن لنا الله أن نمتّعَ قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها، بما يوجب زوالَ عقولنا، بخلاف من زال عقله بسببٍ مشروع، أو بأمر صادفه لا حيلةَ له في دفعه، وقد يحصل السكر بسبب لا فعلَ

للعبد فيه، كسماعٍ لم يقصده يهيج قاطنَه ويحرك ساكنَه، ونحو ذلك، وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور؛ لأن القلم مرفوع عن كل مَنْ زال عقله، بسبب غير محرم؛ كالمغمى عليه والمجنون، ونحوهما»اهـ[1].

ثانياً: الصوفية يعدُّون زوال العقل بالأحوال من المقامات العالية، وقد ذكر شيخ الإسلام هذه المسألة:

مسألة زوال العقل بالأحوال، هل هو ممدوح أم مذموم؟ وفصَّل الكلام في ذلك:

فقال رَحِمَهُ اللهُ: «فصلٌ: ومما يناسب هذا الباب قولهم: «فلان يُسَلَّم إليه حالُه» أو: «لا يُسَلَّم إليه حاله»؛ فإن هذا كثيراً ما يقع فيه النزاع فيما قد يصدر عن بعض المشايخ والفقراء والصوفية، من أمور يقال: إنها تخالف الشريعة، فمن يرى أنها منكرةٌ، وأن إنكار المنكر من الدين، يُنكر تلك الأمور، وينكر على ذلك الرجل، وعلى من أحسن به الظن، ويبغضه ويذمُّه ويعاقبه، ومن رأى ما في ذلك الرجل من صلاح وعبادة، كزهدٍ وأحوالٍ وورعٍ وعلمٍ، لا ينكرها؛ بل يراها سائغةً أو حسنةً، أو يُعرض عن ذلك.

وقد يغلو كل واحد من هذين:

حتى يخرج بالأول إنكارُه إلى: التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد، متَّبعاً لظاهر من أدلة الشريعة.

ويخرج بالثاني إقرارُه إلى: الإقرار بما يخالف دين الإسلام، مما يُعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ جاء بخلافه، اتباعاً ـ في زعمه ـ لما يشبه قصة موسى والخضر.

---

(١) الفتاوى (١١/٧ ـ ١١).

والأول: يكثر في الموسوية، ومن انحرف منهم إلى يهودية.

والثاني: يكثر في العيسوية، ومن انحرف منهم إلى نصرانية.

والأول: كثيراً ما يقع في ذوي العلم، لكن مقروناً بقسوة وهوى.

والثاني: كثيراً ما يقع في ذوي الرحمة، لكن مقروناً بضلال وجهل.

فأما الأمة الوسط: فلهم العلم والرحمة، كما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وكذلك وصف العبد الذي لقيه موسى، حيث قال: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

والعدل في هذا الباب قولاً وفعلاً: أنَّ تسليم الحال له معنيان:

أحدهما: رفع اللوم عنه، بحيث لا يكون مذموماً ولا مأثوماً.

والثاني: تصويبه على ما فعل، بحيث يكون محموداً مأجوراً.

فالأول: عدم الذم والعقاب، **والثاني**: وجود الحمد والثواب.

والأول: عدم سخط الله وعقابه، **والثاني**: وجود رضاه وثوابه.

ولهذا: تجد المنكرين غالباً في إثبات السخط والذم والعقاب، والمقرين في إثبات الرضا والحمد والثواب، وكلاهما قد يكون مخطئاً، ويكون الصواب في:

أمرٍ ثالث وسط، وهو: أنه لا حَمْدٌ ولا ذمٌّ، ولا ثوابٌ ولا عقابٌ، وبيان ذلك:

أن ذلك الأمر الصادر عنه سواء كان قولاً أو فعلاً إذا علم أنه مخالف للكتاب والسنة، بحيث يكون قولاً باطلاً أو عملاً محرماً، فإنه يعذر في موضعين:

أحدهما: عدم تمكُّنه من العلم به.

والثاني: عدم قدرته على الحق المشروع.

مثال الأول: أن يكون صاحبُ الحال موَلَّهاً مجنوناً قد سقط عنه القلم، فهذا إذا قيل فيه: يُسَلَّم له حالُه؛ بمعنى أنه لا يُذم ولا يعاقب، لا بمعنى تصويبه فيه، كما يقال في سائر المجانين، فهو صحيح، وإن عنى به: أن ذلك القول صواب، فهذا خطأ، وكذلك إذا كان الحال صادراً عنه باجتهاد، كمسائل الاجتهاد المتنازَع فيها بين أهل العلم والدين، فإن هذا إذا قيل: يُسَلَّم إليه حاله، كما يقال: يُقَرُّ على اجتهاده، بمعنى: أنه لا يُذَمُّ ولا يعاقب، فهو صحيح.

وأما إذا قيل ذلك، بمعنى: أنه صواب، أو صحيح، فلا بد من دليل على تصويبه، وإلا فمجرد القول أو الفعل، الصادر من غير الرسول ﷺ ليس حجةً على تصويب القائل أو الفاعل، فإذا عُلِم أن ذلك الاجتهاد خطأ، كان تسليم حاله بمعنى رفع الذم عنه، لا بمعنى إصابته، وكذلك إذا أريد بتسليم حاله وإقراره أنه يُقَرُّ على حكمه فلا يُنقض، أو على فتياه فلا تُنكر، أو على جواز اتباعه لمن هو من أهل تقليده واتباعه، بأن للقاصرين أن يقلدوا ويتَّبعوا من يسوغ تقليدُه واتباعُه من العلماء والمشايخ، فيما لم يظهر أنه خطأ، لكن بعض هذا يدخل في القسم الثاني الذي لم يعلم مخالفته للشريعة.

وتسليم الحال في مثل هذا:

إذا عُرف أنه معذور، أو عُرف أنه صادق في طريقه، وأن[1] هذا الأمر قد يكون اجتهاداً منه.

---

(١) كذا في المطبوع: «وأن هذا الأمر..» ولعله خطأ، والصواب: أو أن هذا الأمر..، وذلك لأن الشيخ ذكر أنها ثلاثة مواضع، فالأول: ..أنه معذور، والثاني: ..أنه صادق، والثالث: ..اجتهاداً منه.

فهذه ثلاثة مواضع يُسَلَّم إليه فيها حاله؛ لعدم تمكنه من العلم، وخفاء الحق عليه فيها على وجه يعذر به.

ومثال الثاني ـ عدم قدرته ـ: أن يرد عليه من الأحوال ما يضطره إلى أن يخرق ثيابه، أو يلطم وجهه، أو يصيح صياحاً منكراً، أو يضطرب اضطراباً شديداً، فهذا: إذا عُرف أن سبب ذلك لم يكن محرماً، وأنه مغلوب عليه، سُلِّم إليه حاله.

وإن شُكَّ هل هو مغلوب أو متصنِّع؟: فإن عُرف منه الصدقُ: قيل: هذا يسلم إليه حاله، وإن عرف كذبه: أُنكر عليه، وإن شُكَّ فيه: تُوُقِّف في التسليم والإنكار، حتى يتبين أمره، كما يُفعل بمن شهد شهادة، أو اتُّهم بسرقة، فإن ظهر صدقُه وعدلُه قُبلت الشهادة، ودفعت إليهم، وإن ظهر كذبه وخيانته رُدّت الشهادة وعوقب على السرقة، وإن اشتبه الأمر تُوُقِّف فيه؛ فإن المؤمن: «وقّافٌ متبيِّن»، هكذا قال الحسن البصري.

وكذلك: إذا ترك الواجبات مُظهِراً أنه مغلوب لا يقدر على فعلها: مثل أن يترك الصلاة مُظهِراً أنه بمنزلة المغمى عليه، والنائم الذي لا يتمكن من فعلها، كما قد يعتري بعض المصعوقين، من وارِدِ خوفِ الله أو محبَّتِه، أو نحو ذلك، بحيث يسقط تمييزه فلا يمكنه الصلاة، فهو فيما يتركه من الواجبات نظير ما يرتكبه من المحرمات، فتسليم الحال: بمعنى عدم اللوم، قد يراد به الحكم بأنه معذور، وقد يراد به ترك الحكم بأنه ملوم.

هذا فيما يعلم من الأقوال والأفعال أنه مخالف للشرع بلا ريب، كالشطحات المأثورة عن بعض المشايخ:

كقول ابن هود: إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيمتي على جهنم![1].

---

(١) لم أقف عليه على قول ابن هود هذا، لكني وقفت على قول في معناه =

وكون الشبلي: كان يحلق لحيته، ويمزق ثيابه، حتى أدخلوه المارِسْتان[١] مرتين![٢].

وما يُحكَى عن بعضهم، أنه قال: إذا كانت لك حاجة، فتعالَ إلى قبري واستغِث به!

وكترك آخر صلاة الجمعة خلف أمام صالح، لكونه دعا لسلطان وقته وسمَّاه العادل!

وتركِ آخر الصلاة خلف إمام لِما كوشف به من حديث نفسه!

وما يُحكَى عن عقلاء المجانين الذين قيل فيهم: إن الله أعطاهم عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم وترك أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب!.

فجِماعُ هذا: أن هذه الأمور تُعطى حقَّها من الكتاب والسنة؛ فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر والأمر والنهي وَجَبَ اتِّباعُه، ولم يلتفت إلى من خالفه كائناً من كان، ولم يَجُزْ اتباعُ أحد في خلاف ذلك، كائناً من كان، كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من اتّباع الرسول ﷺ وطاعته، وأن الرجل الذي صدر عنه ذلك يُعطى عُذرَه حيث عذرته الشريعة، بأن يكون مسلوبَ العقل، أو ساقطَ التمييز، أو مجتهداً مخطئاً اجتهاداً قولياً أو عملياً، أو مغلوباً على ذلك الفعل أو الترك؛ بحيث لا

= لأبي يزيد البسطامي، حيث ذكر الذهبي في ترجمته أنه كان يقول: «ما النار! لأستندن إليها غداً وأقول: اجعلني فداءً لأهلها»اهـ. (ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤٦).

(١) المارستان: دار الاستشفاء، وهي الدار التي يقيم فيها المرضى لتلقي العلاج، وكلمة مارستان ـ في الأصل ـ فارسية معرّبة، وأصلها بيمارستان، وهي مركبة من كلمتين: «بيمار» ومعناها: المريض، و«أُستان» ومعناها: المأوى.
انظر مادة: مرس، في: تاج العروس (٨/ ٤٧٠)، لسان العرب (٦/ ٢١٦).

(٢) انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٦٨).

يمكنه ردُّ ما صدر عنه من الفعل المنكر، بلا ذنب فعله، ولا يمكنه أداء ذلك الواجب، بلا ذنب فعله، ويكون هذا الباب نوعه محفوظاً، بحيث لا يتبع ما خالف الكتاب والسنة، ولا يجعل ذلك شِرعةً ولا منهاجاً؛ بل لا سبيل إلى الله، ولا شِرعةَ إلا ما جاء به محمد رسول الله ﷺ.

وأما الأشخاص الذين خالفوا بعض ذلك على الوجوه المتقدمة، فيعذرون ولا يُذَمُّون، ولا يعاقبون؛ فإن كل أحد من الناس قد يؤخذ من قوله وأفعاله ويُترك إلا رسولُ الله ﷺ وما من الأئمة إلا من له أقوالٌ وأفعالٌ لا يتبع عليها، مع أنه لا يُذَمُّ عليها، وأما الأقوال والأفعال التي لم يعلم قطعاً مخالفتها للكتاب والسنة؛ بل هي من موارد الاجتهاد التي تنازع فيها أهل العلم والإيمان، فهذه الأمور قد تكون قطعيةً عند بعض من بيّن الله له الحق فيها، لكنه لا يمكنه أن يلزم الناس بما بان له ولم يَبِنْ لهم، فيلتحق من وجه بالقسم الأول ومن وجه بالقسم الثاني.

وقد تكون اجتهاديةً عنده أيضاً، فهذه تسليم لكل مجتهد، ومن قلَّده طريقهم تسليماً، بحيث لا ينكر ذلك عليهم، كما سلم في القسم الأول تسليماً شخصياً.

وأما الذي لا يسلم إليه حاله، فمثل: أن يُعرف منه أنه عاقل يتوله ليسقط عنه اللوم، ككثير من المنتسبة إلى الشيخ أحمد بن الرفاعي[١]، و(اليونسية)[٢] فيما يأتونه من المحرَّمات، ويتركونه من الواجبات.

أو يُعرف منه أنه يتواجد ويتساكر في وجده ليُظن به خيراً ويرفع عنه الملام فيما يقع من الأمور المنكرة.

---

(١) ينتسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي فرقة الرفاعية، وقد تقدم الكلام عنها في مبحث: فرق الصوفية (١/ ٢٧٧).

(٢) اليونسية، تقدم الكلام عنها (١/ ٢٧٠).

أو يُعرف منه أن الحق قد تبين له، وأنه متبع لهواه.

أو يُعرف منه تجويزُ الانحراف عن موجب الشريعة المحمدية، وأنه قد يتفوَّه بما يخالفها، وأن من الرجال من قد يستغني عن الرسول، أو له أن يخالفه، أو أن يجري مع القدر المحض المخالف للدين، كما يحكي بعضُ المكذبين الضالين: أن أهل الصُّفة قاتلوا النبيَّ ﷺ مع الكفار لمَّا انهزم أصحابه! وقالوا: نحن مع الله، من غلب كنا معه[١]، وأنه صبيحة الإسراء سُمع منه ما جرى بينه وبين ربه من المناجاة[٢]، وأنه تواجد في السماع[٣] حتى وقع الرداءُ عنه[٤]، وأن السر الذي أُوْصِيَ إليه أوْدعَه في أرض نبت فيها اليراع[٥]، فصار في الشَّبَّابة[٦] بمعنى ذلك السر[٧].

أو يسوغ لأحد بعد محمد الخروجُ عن شريعته كما ساغ للخضر الخروج عن أمر موسى؛ فإنه لم يكن مبعوثاً إليه كما بعث محمد إلى

---

(١) تقدم ذكر ذلك والكلام عليه (ص٩٤).
(٢) تقدم ذكر ذلك والكلام عليه (١/ ١٦٧).
(٣) في المطبوع: السماء، وهو خطأ والصواب ما أثبتُّه، ويؤيد ذلك.
(٤) تقدم ذكر ذلك والكلام عليه (١/ ١٦٧).
(٥) اليراع: نباتُ القصب، والقصب ـ معروف ـ: نبات ينبت على هيئة عيدان طوال، يستخرج منها السكّر، وقد تستعمل لبناء أسقف البيوت ونحوها.
انظر مادة: قصب، في: لسان العرب (١/ ٦٧٥)، تاج العروس (٢/ ٣٢٠).
(٦) الشبابة: آلة من آلات العزف والطرب.
(٧) يزعم أصحاب السماع أن السماع يفتح لهم من الأسرار والإلهامات ما لا يحصلونه بدونه، ويقولون: إن النبي ﷺ أوصى إليه ربه بسرٍّ، فدفنه ﷺ في التراب لئلا يطلع عليه أحد، فنبت القصب في هذه الأرض وقد أثر ذلك السر في أعواده وخالطها، فوافق أن أهل السماع اجتزّوا ذلك القصب وصنعوا منه شبابة يضربون عليها أثناء السماع، فانتقل هذا السرّ من أعواد القصب إلى أسماعهم ومنها إلى عقولهم وألبابهم فاكتسبوا معارف ومعان ليست عند غيرهم ممن ينكر عليهم.

الناس كافة، فهؤلاء ـ ونحوهم ممن يخالف الشريعة ويَبِينُ له الحقُّ فيعرض عنه ـ، يجب الإنكار عليهم بحسب ما جاءت به الشريعة من اليد واللسان والقلب.

وكذلك أيضا يُنكَر على من اتبع الأولين المعذورين في أقوالهم وأفعالهم المخالفة للشرع، فإن العذر الذي قام بهم منتفٍ في حقِّه، فلا وجهَ لمتابعته فيه.

ومن اشتبه أمرُه من أي القسمين هو: تُوُقِّفَ فيه، فإن الإمام إنْ يخطئ في العفو خيرٌ مِنْ أن يخطئَ في العقوبة، لكن لا يُتوقف في رد ما خالف الكتاب والسنة؛ فإن النبي ﷺ قال: **(مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**[1]، فلا يسوغ الخروج عن موجب العموم والإطلاق في الكتاب والسنة، بالشبهات، ولا يسوغ الذم والعقوبة بالشبهات، ولا يسوغ جعل الشيء حقاً أو باطلاً، أو صواباً أو خطأً بالشبهات، والله يهدينا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

وبقيت هنا (المسألة) التي تشتبه غالباً: وهو أن يظهر من بعض الرجال المجهول الحال أمرٌ مخالف للشرع في الظاهر، ويجوز أن يكون معذوراً فيه عذراً شرعياً، مثل وجدٍ خرج فيه عن الشرع، لا يُدرَى أهو صادق فيه أم متصنِّع، وأخذ مالٍ بغير إذن صاحبه في الظاهر، مع تجويز أن يكون عَلمَ طيبَ قلبِ صاحبه به، فهذا:

إن قيل: يُنكَر عليه؛ جاز أن يكون معذوراً.

وإن قيل: لا يُنكَر عليه؛ لزم إقرار المجهولين على مخالفة الشرع في الظاهر.

---

(١) الحديث: يأتي تخريجه (ص٣٣٢).

فالواجب في مثل هذا: أن يخاطَب صاحبُه أولاً برفق، ويقال له: هذا في الظاهر منكر، وأما في الباطن فأنت أمينَ الله على نفسك، فأخبرنا بحالك فيه، أو لا تُظهرْه حيث يكون إظهارُه فتنةً، وتُسْلك في ذلك طريقة لا تفضي إلى إقرار المنكرات، ولا لوم البُرَآء، والضابط أن من عُرف من عادته الصدق والأمانة، أُقرَّ على ما لم يُعلم أنه كذب وحرام، ومن عرف منه الكذب أو الخيانة، لم يُقَرَّ على المجهول، وأما المجهول فيتوقف فيه»اهـ[١].

ثالثاً: هل يُعذر أحدٌ مِنْ أصحاب الأحوال إذا وقع منه السكر أو الغشيان والوَلَه؟:

قال الشيخ: «فالأحوال التي ترد على العُبَّاد وأهل المعرفة والزُّهَّاد ونحوهم، مما توجب زوال عقلِ أحدهم وعلمِه، حتى تجعله كالمجنون والمُوَلَّه والسكران والنائم، أو زوال قدرته حتى تجعلَه كالعاجز، أو تجعلَه كالمضطر الذي يصدر عنه القول والفعل بغير إرادته واختياره؛ فإن زوال العقل والقدرة قد يوجب عجزَه عن أداء واجبات، وقد يوجب وقوعه في محرمات.

فهؤلاء يقال فيهم: إن كان زوال ذلك بسببٍ غيرِ محرَّمٍ، فلا حرج عليهم فيما يتركونه من الواجبات، ويفعلونه من المحرمات، ولا يجوز أيضاً اتباعهم فيما هو خارج عن الشريعة من أقوالهم وأفعالهم، ولا نذمُّهم على ذلك، بل قد يُمدحون على ما وافقوا فيه الشريعة من الأقوال والأعمال، ويرفع عنهم اللوم فيما عَذَرَهم فيه الشارع، كما يقال في المجتهد المخطئ؛ بل المجتهد المخطئ نوعٌ من هذا الجنس، حيث سقط عنه اللوم لعجزه عن العلم.

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٧٨ ـ ٣٨٦)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٤٤١)، المنهاج (٨/ ٢٠٨).

وإن كان زوال ذلك بسببٍ محرَّمٍ، استحقوا الذم والعقاب على ما يتركونه من واجب، ويفعلونه من محرم.

مثال الأول: من يسمع القرآن على الوجه المشروع، فهاج له وجدٌ يحبُّه، أو مخافةٌ، أو رجاءٌ، فضعُف عن حمله حتى مات، أو صعق، أو صاح صياحاً عظيماً، أو اضطرب اضطراباً كثيراً، فتولَّد عن ذلك تركُ صلاة واجبة، أو تعدَّى على بعض الناس، فإن هذا معذور في ذلك، فإن هذا في هذه الحال بمنزلة عقلاء المجانين المولَّهين، الذين حصل لهم الجنون، مع أنهم من الصالحين وأهل المعرفة، إما لقوة الوارد الذي ورد عليهم، وإما لضعف قلوبهم عن حمله، وإما لانحراف أمزجتهم وقوَّة الخلط، وإما لعارض من الجن، فإن هؤلاء؛ كما بلغنا عن الإمام أبي محمد المقدسي، حيث سئل عنهم فقال: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولَهم وأبقى أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب.

ولهذا كان هذا الصنف، والذي قبله، موجوداً في التابعين ومَنْ بعدَهم، لا سيما في عُبّاد البصريين؛ فإن فيهم من مات من سماع القرآن، كزرارة بن أوفى[1]، وأبي جهير الضرير[2]، وغيرهما.

وأما الصحابة؛ فإن حالهم كان أكملَ من أن يكون فيهم مجنون أو مصعوق، ومن هؤلاء أيضاً من غلب عليه الذكرُ لله والتوحيدُ له والمحبةُ، حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عما سواه، كما يحصل لبعض العاشقين في غيبته بمعشوقه عما سواه، فيقول أحدهم في هذه الحال: أنا الحق! أو: سبحاني! أو: ما في الجبة إلا الله! ومنهم من غلب عليه حال الرجاء والرحمة، حتى قال: أبسط سجادتي على جهنم[3]، فمن قال هذا في حال زوال عقله بحيث يكون كالسكران أو

---

(١) الأثر: تقدم تخريجه (١/ ٢٢٧). (٢) الأثر: تقدم تخريجه (١/ ٢٢٧).

(٣) ذكر الإمام الذهبي في ترجمة أبي يزيد البسطامي أنه كان يقول: «.. ما النار =

المولِه، وكان السبب الذي أوجب ذلك غير منهي عنه شرعاً فلا إثمَ عليه.

ومثال الثاني: ما قد يحصل عند سماع المكاء والتصدية لكثير من أهل السماع، فإنه قد ينشد أشعاراً فيها ما يخالف الشرع بأصواتٍ مخالفةٍ للشرع، ويكون الإنسان فيه استعداد، فيوجب ذلك اختلاطاً وزوال عقل حتى يقتل بعضُهم بعضاً، إما ظاهراً، وإما باطناً، بالهمة والقلوب، ويوجب أيضاً من ترك واجبات الشريعة، ومن الاعتداء على المؤمنين في الدين والدنيا ما الله به عليم.

وكذلك قد يسلك أحدهم عبادات غير شرعية في الاعتقادات والأعمال، فتورثه تلك العبادات والأعمال أحوالاً قويةً قاهرةً، يترك بها الواجبات، ويفعل بها المحرَّمات، أعظم مما يفعله الملك الجبار إذا سكر بشرب الخمر بالنفوس والأموال، وإذا خوطب أحدُهم في حال صَحْوِه وعقله، قال: كنت مغلوباً وورد عليَّ واردٌ فَعَلَ بي هذا، والحكم للوارد، وهذه حال كثير من خفراء العدو، وكثير ممن يعين الكَفَرَة والظَّلَمَة ويعتدي على المسلمين والمؤمنين من أهل الأحوال، ويقول: إنه مغلوب في ذلك، وإنه ورد عليه واردٌ أوجب ذلك، وأنه خُوطب بذلك الفعل.

فيقال: أما زوالُ عقلكِ حتى صرتَ لا تفهم أمر الله ونهيه، وزوال قدرتك حتى صرت مضطراً إلى تلك الأفعال، وإن كنت صادقاً في ذلك، فسببه تفريطُك وعدوانك أولاً، حتى صرت في حال المجانين والسّكارى، فأنت بمنزلة شارب الخمر الذي سكر منها، والمتعرض للعشق حتى يعشق، فيفعل فيه العشق الأفاعيل؛ إذ لا فرقَ بين سكر

= لأستندن عليها غداً وأقول: اجعلني فداء لأهلها وإلا بلعتها!!، ما الجنة؟! لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا»اهـ. سير الأعلام (١٣/ ٨٨).

الأصوات والصور، والشراب؛ فإن هذا سُكر الأجسام، وهذا سُكر النفوس، وهذا سُكر الأرواح، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً في دين الإسلام؛ ولهذا إنما تقع هذه الأحوال ممن فيه نصرانية يميل بسببها إلى السكر، كما يفعله النصارى في الشراب والأصوات والصور، ولهذا كان هؤلاء في عالم الضلال...

فتدبر هذا الأصل، فإنه عظيم نافع جداً، فتنكشف به الأحوال المخالفة للشرع، وانقسام أهلها إلى معذور وموزور، كانقسامها إلى مسطور[1] على صاحبه، ومغفور، بمنزلة الأحوال الصادرة عن غير أهل العبادات والزهادات، من العقل والصحو، ومن الإغماء والسكر والجنون، ومن الاضطرار والاختبار، فإن أحوال الملوك والأمراء وأحوال الهُداة والعلماء، وأحوال المشايخ والفقراء، تشترك في هذه القاعدة الشريفة، وتحكم الشريعة فيها بالفرقان.

وإذا ضُمَّ إلى ذلك: أنَّ ما يصدر عن ذوي الأحوال من كشف علمي، أو تأثيرٍ قَدَرِيٍّ ليس بمستلزمٍ لولاية الله، بل ولا للصلاح، بل ولا للإيمان؛ إذ قد يكون هذا الجنس في كافر ومنافق وفاسق وعاصٍ، وإنما أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: الذين آمنوا وكانوا يتقون، ففرقٌ بين ولاية الله، وبين الأحوال، كما فرق بين خلافة النبوة، وبين جنس الملك، وفرقٌ بين العلم الذي ورثته الأنبياء، وبين جنس الكلام، فبين هذين النوعين خصوصٌ وعمومٌ، فقد يكون الرجل ولياً لله، له حال تأثير وكشف، وقد يكون ولياً ليس له تلك الحال بكمالها، وقد

---

(١) مسطور على صاحبه: أي مكتوب عليه في صحيفته، ومؤاخذ به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ٢]، وقوله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].
انظر: تاج العروس (٦/ ٥٢٠، مادة: سطر)، القاموس (ص٥٢١، مادة: سطر)، تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٥)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٤٠).

يكون له شيء من هذه الأحوال، وليس ولياً لله، كما قد يكون خليفةَ نبيٍّ مطاعاً، وقد يكون خليفةَ نبيٍّ مستضعَفاً، وقد يكون جباراً مطاعاً، ليس من النبوة في شيء، وقد يكون عالماً، ليس متكلماً بما يخالف كلام الأنبياء، وقد يكون عالماً متكلماً بكلام الأنبياء»اهـ(١).

رابعاً: الأحوال غالباً ما تجرّ إلى القول بالحلول والاتحاد:

قال الشيخ: «فصلٌ: وقد يقع بعضُ من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد؛ فإن الاتحاد فيه حقٌّ وباطلٌ، لكن لمَّا ورد عليه ما غيَّب عقله، أو أفناه عما سوى محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه: كان معذوراً غير معاقَبٍ عليه، ما دام غيرَ عاقل، فإن القلم رُفع عن المجنون حتى يفيق، وإن كان مخطئاً في ذلك كان داخلاً في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥].

وهذا كما يُحكى أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر، فوقع المحبوب في اليم، فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: أنا وقعتُ فما الذي أوقعك؟ فقال: غبتُ بك عني، فظننت أنك أني!.

فهذه الحال تعتري كثيراً من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق، وفي غير جانبه، وإن كان فيها نقصٌ وخطأٌ، فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه، وبمذكوره عن ذِكْره، وبمعروفه عن عِرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده، فقد يقول في هذه الحال: أنا الحق! أو: سبحاني! أو: ما في الجبة

---

(١) الفتاوى (١٠/٣٤٨ ـ ٣٥٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٨/٣١٢، ١٠/٤٣٥، ٢٢/٥٢٢)، مختصر الفتاوى المصرية (ص١٠٠، ٥٦٨).

إلا الله! ونحو ذلك، وهو سكران بوجد المحبة، الذي هو لذة وسرور بلا تمييز، وذلك السكران: يُطوَى ولا يُروَى، إذا لم يكن سكرُه بسبب محظور، فأما إذا كان السبب محظوراً: لم يكن السكران معذوراً»اهـ[1].

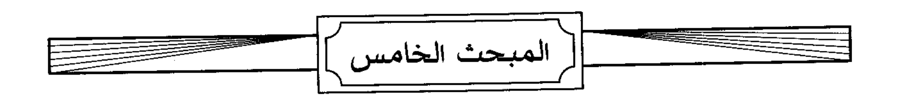
ونخلص مما سبق أن الأحوال المبتدَعة التي تظهر من المتصوفة، قد فتحت باباً من الزندقة والشرّ، والقول بالحلول والاتحاد، وقد اتخذ هؤلاء الصوفية هذه الأحوال والتظاهر بها طريقاً إلى تحقيق شهواتهم وتحصيل ما يريدون من العوامّ بناءً على أنهم أولياء وأحوالهم تسلَّم لهم.

وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ولم يؤثر عنه ﷺ ولا عن أصحابه الكرام ﷺ أنهم صدر منهم مثل هذه الأحوال، وقد تبيّن لنا من كلام شيخ الإسلام وردّه عليهم ما يتَّضح به الحق لطالبه.



---

(١) الفتاوى (٢/٣٩٦ ـ ٣٩٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/٢٩١، ٣٤٥، ٣٩١، ٤٠١، ٤٨٢، ٨/٣١٣، ١٠/٢٢٠، ١١/٧٤).



المبحث الخامس

السماع

السماع أصل من أصول الصوفية التي يعتمدونها في سلوكِهم طريقَهم إلى الله، بل زاد عن ذلك عند فريق منهم حتى صاروا يتعبَّدون لله تعالى ويتقرَّبون إليه بها، وهو من معالم الطريق التي لا يصح للعارف السلوك فيه حتى يتعاطاه.

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن السماع عند المتصوفة:

«مقصودهم بذلك: أن يتخذ طريقاً إلى الله؛ يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب والتحزين على فوات المطلوب، فتُستنزَل به الرحمة، وتُستجلَب به النعمة، وتُحرَّك به مواجيد أهل الإيمان، وتُستجلَى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس ـ أو للخاصة ـ من سماع القرآن من عدة وجوه[1]! حتى يجعلونه قوتاً للقلوب، وغذاءً للأرواح، وحادياً للنفوس يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه.

ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لا يحن إلى القرآن، ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا

---

(١) ذكر أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين (٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢): أن السماع يحرك القلوب إلى الله أكثر من القرآن، من سبعة أوجه، وسيأتي ذكر هذه الوجوه ـ إجمالاً ـ عند تعرض الشيخ لها (ص٦١٠).

سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسُن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب وتعاطت المشروب!»اهـ[١].

وأصل السماع في اللغة:

مصدر من سمع يسمع، وهو ما وقر في الأذن من صوتٍ، سواء كان هذا الصوت كلاماً أو غيره[٢].

والسماع عند المتصوفة:

هو الاجتماع على استماع الأشعار والغناء، ويصاحب ذلك عند بعضهم الدفوف والمزامير، والتصفيق بالأيدي، والرقص والتمايل، وترتفع عنده الأصوات وتكثر الصرخات وتخرّق الثياب، ويحصل التواجد[٣]

---

(١) الفتاوى (٥٦٧ ـ ٥٦٨).

(٢) انظر مادة: سمع، في: لسان العرب (١١/ ٢٢١)، القاموس (ص٩٤٣).

(٣) التواجد: من وجد وجداً، بالفتح يطلق على الحب، وبالكسر على الحزن. تاج العروس (٩/ ٢٥٦).
والتواجد عند الصوفية: استجلاب الوجد بالذكر والتفكير. الرسالة القشيرية (ص٦١، ط. دار الخير).
والوَجْد: ـ بفتح الواو وسكون الجيم ـ ما يرد على الباطن من الله يُكسبه فرحاً أو حزناً ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى، وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسية ينظر منها إلى الله تعالى. عوارف المعارف للسهروردي (ملحق بكتاب إحياء علوم الدين ٥/ ٢٥٠، ط. دار المعرفة، بيروت).
وسئل أبو عبد الله بن خفيف: ما الوجد؟ فقال: الوجد هو أن تضيء واردات الحق في الأسرار، فتجذب إليها الأرواح، فتجد القلوب من ذلك نسيماً. سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف الشيرازي للدكتور: إبراهيم الدسوقي شتا (ص٢٦٠).
وانظر: الرسالة القشيرية (ص٦١ ـ ٦٤، ط. معروف زريق)، التعرف لمذهب =

والفناء والسُكْر[(١)].

= التصوف (ص٨٢ ـ ٨٣)، معجم المصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحنفي (ص٥١، ط. دار المسيرة، بيروت، الأولى ١٤٠٠هـ).

(١) يعد الصوفية السماع مقاماً من المقامات العالية، التي تستريح فيها نفوس العابدين، قال أبو بكر الكلاباذي في التعرف لمذهب التصوف (ص١٥٩ ـ ١٦٠): «الباب الخامس والسبعون في السماع، السماع: استجمام من تعب الوقت، وتنفس لأرباب الأحوال، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال، وإنما اختير على غيره مما تستروح إليه الطباع، لبعد النفوس عن التشبث به والسكون إليه، فإنه من القضاء يبدو وإلى القضاء يعود، وأرباب الكشوف والمشاهدات استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم، تنزه أسرارهم في ميادين الكشوف»اهـ.

والصوفية يعدُّون السماع أصلاً من الأصول التي يقوم عليها مذهبهم، لذلك يجعلون له أحكاماً وآداباً وأوقاتاً، وغير ذلك، وذكر المصنفون في أسماء الكتب عدداً من المؤلفات لأئمة من الصوفية أو ممن تأثر بهم في مدح السماع والرد على من حرمه أو نهى عنه، وهذا يبين مقدار تعلق نفوس بعض المتصوفة بهذه البدعة المنكرة، وما جرّتهم إليه من التعصب، ومن هذه المصنفات:

رسالة (تشنيف الأسماع بأحكام السماع) لجمال الدين الصرخدي (ت ٦٧٤)، (أبجد العلوم ١/ ٤٠٩، كشف الظنون ١/ ٤٠٩).

رسالة (أدب السماع) لأبي الفرج الأصفهاني ـ صاحب كتاب الأغاني ـ (ت٣٦٠هـ)، (الفهرست لابن النديم ٢/ ١٦٦).

وكتاب (أدب السماع) لمحمد بن خاقان (ت٣١٩هـ)، (الفهرست ٢/ ٢١٢).

(الإقناع في أحكام السماع) لأبي بكر الأدفوي (ت٣٨٨هـ)، (كشف الظنون ١/ ١٣٩).

(إيقاع السماع لجواز الاستماع) لعبد القادر بن محمد القادري (ألّفه سنة ١٠٣٤هـ)، (كشف الظنون ١/ ٢١٥).

(بدو الشعاع في أحكام السماع) لبدر الدين القونري المصري (ت٧٧٦هـ) (كشف الظنون ١/ ٢٣٢).

(كشف القناع عن وجوه السماع) لمحمود بن محمد الأسكداري (ت١٠٣٦هـ)، (كشف القناع عن الوجد والسماع) لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت٦٥٦هـ)، (كشف القناع في حل السماع) لتاج الدين بن الفركاح الشافعي =

وللسماع[(١)] عند الصوفية اسم آخر، وهو: التغبير:

قال الشيخ: «ولم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين،

= (ت٦٩٠هـ)، (كشف الظنون ١/ ١٤٩٣)، (معاهد الجمع في مشاهد السمع) لجمال الدين البكري الصديقي. (كشف الظنون ١/ ١٧٣٠).

ولا يشك منصفٌ في ضلال من جعل سماع القصائد وضرب الدفوف والرقص والتمايل ديناً، ولكن: حُبُّك الشيء يعمي ويُصمّ.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه (تحريم السماع): «كان الناس فيما مضى يتستَّر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها، ثم كثر الجهل وقلَّ العلم وتناقص الأمر، حتى صار أحدهم يأتي بالمعصية جهاراً، ثم ازداد الأمر إدباراً، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ـ وفقنا الله وإياهم ـ استزلَّهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني واللهو، وسماع الطقطقة والتغبير، واعتقدته من الدين الذي يقربهم إلى الله، وجاهرت به جماعة المسلمين، وشاقَّت سبيل المؤمنين، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ فرأيت أن أوضح الحق، وأكشف من شبه أهل الباطل، بالحجج التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصي الأرض وأدانيها، حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها، والله ولي التوفيق»اهـ. نقلاً عن ابن عيسى في شرحه لنونية ابن القيم (٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣).

وانظر: عوارف المعارف (٥/ ١٠٨ ـ ١٢١، بذيل إحياء علوم الدين)، مدارج السالكين (١/ ٤٨١ ـ ٥٠٥)، كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع لابن حجر الهيتمي (ص٤٥ ـ ٥٤)، نزهة الأسماع في مسألة السماع لابن رجب، ذم ما عليه مدَّعوا التصوف من الغناء والرقص والتواجد والدف، لابن قدامة المقدسي.

(١) قال أبو حامد الغزالي في تعريف السماع: «السماع: واردُ حقٍّ جاء يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق، فكأنه عبَّر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذْ سمى السماع وارد الحق»اهـ. الإحياء (٢/ ٢٦٧، ط. النور).

وغيرهم من مشايخ الدين، يحضرون مثل هذا السماع، ولا بالحجاز ولا مصر، ولا الشام ولا العراق ولا خراسان(١)، ولا في زمن الصحابة والتابعين ولا تابعيهم، لكن حدث بعد ذلك.

فكان طائفة يجتمعون على ذلك، ويسمون الضرب بالقضيب على جلاجل(٢) ونحوه: التغبير، قال الحسن بن عبد العزيز الجروي(٣): سمعت الشافعي يقول: «خلَّفتُ ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن»(٤)، وهذا من كمال معرفة الشافعي

---

(١) خراسان: بلاد واسعة، تمتد من العراق إلى الهند، وتجمع عدة بلدان، ففيها: نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ، ونسا، وسرخس، وهي حالياً تضم بلاد إيران، وأفغانستان، وجزءاً من الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي (كما كان يسمى سابقاً)، وقد فُتحت أغلبُ هذه البلاد عَنوة في خلافة عثمان ﵁، وينتسب إلى هذه البلاد علماءُ كبارٌ، منهم أصحاب الكتب الستة، وابن المبارك، والحاكم، وغيرهم كثير.
انظر: معجم البلدان (٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٤)، مراصد الاطلاع (١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

(٢) الجلاجل: جمع جُلْجُل، وهو الجرس.
انظر: القاموس (ص١٢٦٤، مادة: جل).

(٣) في الفتاوى (١١/ ٥٣٢): الحراني، ولم أقف على رجل بهذا الاسم، وما أثبته هو الصواب، وهو الذي ذكره شيخ الإسلام في الاستقامة (١/ ٢٣٨).
وهو الحسن بن عبد العزيز بن الوزير بن صابي الجروي المصري، نزيل بغداد، من أعيان الأئمة المحدثين، توفي سنة ٢٥٧هـ.
انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٤) خبر الشافعي ذكره ابن قدامة المقدسي في: ذم ما عليه مدَّعو التصوف (ص٧، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ) وابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٢٣٠، ط. المطبعة المنيرية، القاهرة، الثانية ١٣٦٨هـ) بسنده، فقال: «وأما مذهب الشافعي رحمة الله عليه قال: حدثنا إسماعيل بن أحمد.. قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: خلفت بالعراق شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير [هكذا بِ ياءين] يشغلون به الناس عن القرآن. =

وعلمه بالدين، فإن القلب إذا تعوَّد سماع القصائد والأبيات والتذَّ بها، حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع الرحمن»اهـ[(١)].

وعرّف شيخ الإسلام التغبير بقوله: «والتغبير[(٢)] هو: الضرب بالقضيب، غبَّر؛ أي أثار غباراً، وهو آلة من الآلات التي تُقرن بتلحين الغناء»اهـ[(٣)].

وفيما يلي سوف أعرض ما ذكره شيخ الإسلام عن السماع، والرد على شبهات أهله، وبيان ما فيه من ضلال وغي:

= قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد ذكر أبو منصور الأزهري: المغيرة قوم يغيرون [هكذا بالياء في الموضعين] بذكر الله بدعاء وتضرُّع وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله ﷻ تغييراً كأنهم إذا شاهدوها بالألحان طربوا ورقصوا فسموا مغيرة لهذا المعنى. وقال الزجاج: سموا مغيرين لتزهيدهم الناس في الفاني من الدنيا وترغيبهم في الآخرة.. قال المصنف: قلت: وقد كان رؤساء أصحاب الشافعي رضي الله عنه ينكرون السماع، وأما قدماؤهم فلا يعرف بينهم خلاف، وأما أكابر المتأخرين فعلى الإنكار»اهـ.

وانظر: لسان العرب (٥/ ٥).

(١) الفتاوى (١١/ ٥٣١ ـ ٥٣٢).

(٢) التغبير: مصدر غبّر يغبّر تغبيراً، إذا أثار الغبار، والمغبّرة: قوم يُغَبِّرون بذكر الله، أي: يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها، سُمُّوا بها لأنهم يرغبون الناس في الغابرة، أي: الباقية، ومنه قول قائلهم:

عبادك المغبِّرة صُبَّ علينا المغفرة

قال الليث: «سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيراً، كأنهم إذا تناشدوه بالألحان طرِبوا فرقصوا وأرهجوا، فسُمُّوا مغبرةً لهذا المعنى»اهـ.

قلتُ: ولعلهم إذا رقصوا وتمايلوا أثاروا الغبار فسموا مغبرة.

قال ابن القيم في تعريفه: «التغبير: هو الطقطقة بالقضيب».اهـ.

انظر مادة: غبر، في: تاج العروس (٧/ ٢٩٠)، القاموس (ص٥٧٦)، إغاثة اللهفان (١/ ٢٣٥، فصل: في السماع من المرأة الأجنبية أو الأمرد).

(٣) الاستقامة (١/ ٢٣٨).

أولاً: قسَّم شيخ الإسلام السماع قسمين:

- سماع شرعي.
- سماع بدعي.

وبيَّن الشيخ هذين القسمين، وأحوال الناس معهما:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان السماع نوعين: سماع الرحمن، وسماع الشيطان، كان ما بينهما من أعظم الفرقان، لكن الأقسام هنا أربعة:

إما أن يشتغل العبد بسماع الرحمن دون سماع الشيطان.

أو بسماع الشيطان دون سماع الرحمن.

أو يشتغل بالسماعين.

أو لا يشتغل بواحد منهما.

فالأول: حال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

وأما الثاني: فحال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، وهو حال من يتخذ ذلك ديناً، ولا يستمع القرآن، فإن كان يشتغل بهذا السماع شهوة لا ديناً، ويُعرض عن القرآن، فهم الفُجَّار والمنافقون إذا أبطنوا حال المشركين.

وأما الذين يشتغلون بالسماعين فكثير من المتصوفة.

والذين يعرضون عنهما على ما ينبغي[١] كثير من المتعرِّبة.

فهذه النصوص المأثورة عن النبي ﷺ التي فيها مدح الصوت

---

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: والذين يعرضون عنهما على ما لا ينبغي كثير. . .

الحسن بالقرآن والترغيب في هذا السماع، فيُحْتج بها على المعرض عن هذا السماع الشرعي الإيماني، لا يُحتج بها على حسن السماع البِدعي الشركي، بل الراغبون في السماعين جميعاً والزاهدون في السماعين جميعاً خارجون عن محض الاستقامة والشريعة القرآنية الكاملة، هؤلاء معتدون، وهؤلاء مفرطون، وإنما الحق: الرغبة في السماع الإيماني الشرعي، والزهد في السماعي الشركي البدعي»اهـ[1].

وقسم الشيخ السماع ـ في موضع آخر ـ إلى ثلاثة أقسام:

ـ سماع عقلي.

ـ سماع مِلِّي.

ـ سماع شرعي.

قال الشيخ: «ويدخل في العبادات: السماعُ فإنه ثلاثة أقسام:

سماع عقلي، ومِلِّي، وشرعي:

فالأول: ما فيه تحريكُ محبة، أو مخافةٌ، أو حزنٌ، أو رجاءٌ، مطلقاً.

والثاني: ما في غيرهم، كمحبة الله ومخافته ورجائه، وخشيته والتوكل عليه، ونحو ذلك.

والثالث: السماع الشرعي، وهو سماع القرآن.

كما أن الصلاة أيضاً ثلاثة أقسام، وهذه الأقسام الثلاثة أصولها صحيحة؛ دلَّ عليها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية [البقرة: ٦٢][2].

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).

(٢) الآية بتمامها: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فالذين آمنوا: هم أهل شريعة القرآن، وهو الدين الشرعي، بما فيه من المِلِّي، والعقلي.

والذي هادوا والنصارى: أهل دين مِلِّي بشريعة التوراة والإنجيل، بما فيه من مِلِّيٍّ وعقلي.

والصابئون: أهل الدين العقلي بما فيه من مِلِّي، أو مِلِّي وشرعيات»اهـ(١).

قِسْما السماع ـ تفصيلاً ـ:

القسم الأول: السماع الشرعي:

بيَّن الشيخ أن السماع الشرعي هو سماع القرآن، وهو السماع الذي كان يسمعه النبي ﷺ وأصحابه، وكل سماع غيرُه، فهم سماعٌ محدَثٌ مبتَدَعٌ:

قال رحمه الله: «ومن أعظم ما يقوِّي الأحوال الشيطانية سماعُ الغناء والملاهي، وهو سماع المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وغيرهما من السلف: التصدية: التصفيق باليد، والمكاء: مثل الصفير(٢)، فكان المشركون يتَّخذون هذا عبادةً.

وأما النبي ﷺ وأصحابه: فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر، ونحو ذلك، والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط، لا بكفٍّ ولا بدفٍّ، ولا

---

(١) الفتاوى (٢٠/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ في: تفسير القرطبي (٧/ ٣٥٠)، ابن كثير (٢/ ٤٠٤)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٤٥)، البغوي (١/ ٣٥٤).

تواجَدَ، ولا سقطت بردتُه، بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا: أمروا واحداً منهم أن يقرأ، والباقون يستمعون.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى الأشعري: ذكِّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون[١].

ومرَّ النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فقال له: **(مررتُ بك البارحةَ وأنت تقرأ، فجعلتُ أستمع لقراءتك)**، فقال: لو علمت أنك تستمع لحبَّرته لك تحبيراً[٢]؛ أي: لحسَّنته لك تحسيناً، كما قال النبي ﷺ: **(زيِّنوا القرآن بأصواتكم)**[٣].

وقال ﷺ: **(لله أشد أذناً** ـ أي استماعاً ـ **إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته)**[٤].

---

(١) الأثر: رواه الدارمي (كتاب فضائل القرآن، باب التغني بالقرآن، ٢/٩٢٨/٣٣٦٥)، وابن حبان (كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، ١٦/١٦٨/٧١٩٦)، عن أبي سلمة.

(٢) الحديث: رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (كتاب ذكر مناقب أبي موسى، بابٌ، ٣/٥٢٩/٥٩٦٦)، من حديث: أبي بردة بن أبي موسى ﷺ.

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، ٢/٧٤/١٤٦٨)، والنسائي (كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، ٢/١٧٩/١٠١٥)، وابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، ١/٤٢٦/١٣٤٢)، من حديث: البراء بن عازب ﷺ.

(٤) الحديث: رواه ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن، ١/٤٢٥/١٣٤٠)، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (كتاب فضائل القرآن، باب فضائل في سور وآي متفرقة، ١/٧٦٠/٢٠٩٧)، وابن حبان (كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن، ٣/٣١/٧٥٤)، من حديث: فضالة بن عبيد ﷺ، وقال الألباني: ضعيف (ضعيف الجامع الصغير ٦/٣/ح٤٦٣٣).

وقال ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: **(اقرأ عليَّ القرآن)** فقال: أقرأُ عليك وعليك أُنزل؟ فقال: **(إني أحب أن أسمعَه من غيري)**، فقرأت عليه سورة النساء، حتى انتهيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: **(حسبك)**، فإذا عيناه تذرفان من البكاء(١).

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم:

كما ذكره الله في القرآن، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان، واقشِعْرار الجلد، ودمع العين، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

وأما السماعُ المحدَث؛ سماعُ الكفِّ والدُّفِّ والقصب:

فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر الأكابر من أئمة

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، ٤/ ١٩٢٥/ ٤٧٦٣)، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ، ١/ ٥٥١/ ٨٠٠)، من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الدين يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدُّونه من القُرَبِ والطاعات؛ بل يعدُّونه من البدع المذمومة»اهـ[(١)].

وقال الشيخ: «واعتبر ذلك بمسألة السماع التي تكلمنا فيها؛ فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعْه، حيث أكمل الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً، وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم، وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين. . .

وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

وإنما ذكرنا هنا نكتاً تتعلق بالسماع:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذكر سماع المؤمنين والعارفين والعالمين والنبيين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٨ ـ ١٠٩].

وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

---

(١) الفتاوى (١١/٢٩٦ ـ ٢٩٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٣/٤٢٦، ١١/٥٣٢، ٥٥٩، ٥٨٧، ٦٢٦ ـ ٦٣٠)، الفرقان (ص١٢٢)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٩١)، النبوات (ص٩٠).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

وقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ الآية [الإسراء: ٤٥].

وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال النبي ﷺ: **(ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن)**(١).

وقال: (من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، والدارمي (كتاب الصلاة، باب التغني بالقرآن، ١/ ٣٧٢/ ١٤٦١)، من حديث: سعد رضي الله عنه.

أقول: ﴿الٓمٓ﴾: حرف، ولكن أقول: ألف: حرف، ولام: حرف، وميم: حرف)[١].

وهذا باب واسع يضيق هذا الموضع عن ذكر جزءٍ منه.

فلما انقرضت القرون الفاضلة حصل فترةٌ في هذا السماع المشروع، الذي به صلاح القلوب وكمال الدين»اهـ[٢].

وفصَّل الشيخ أحكام السامعين في السماع الشرعي، فقال: «فصل: لمَّا بعث الله محمداً ﷺ بكتابه الذي هو الهدى والشفاء والنور، وجعله أحسنَ الحديث، وأحسن القصص، وجعله الصراط المستقيم لأهل العقل والتدبر، ولأهل التلاوة والذكر، ولأهل الاستماع والحال، فالمعتصمون به علماً وحالاً، وتلاوة وسمعاً، باطناً وظاهراً، هم المسلمون حقاً، خاصةُ أمةِ محمدٍ ﷺ.

ثم لـمَّا انحرف من انحرف من أهل الكلام والحروف، إلى كلام غيره، ومن أهل السماع والصوت، إلى سماع غيره، كان الانحراف في أربع طوائفَ متجانسة:

قوم: تركوا التعلم منه والنظر فيه والتدبر له، إلى كلام غيره من كلام الصابئة أو اليهود أو ما هو مولَّدٌ من ذلك، أو مجانس له أو نحو ذلك، وهم منحرفة المتكلمة، وبإزائهم:

قوم: أقاموا حروفه، وحفظوه وتلَوْه من غير فقه فيه، ولا فَهْم لمعانيه، ولا معرفة للمقالات التي توافقه أو تخالفه، ووجه بيانه لمسائلها

---

(١) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب (كتاب فضائل القرآن، باب فيمن قرأ حرفاً من القرآن، ما له؟، ٥/ ٧٥/ ٢٩١٠)، والدارمي (كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، ٢/ ٨٨٧/ ٣١٩٠)، من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الاستقامة (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٤).

ودلائلها، وهم ظاهرية القُرَّاء والمحدّثين ونحوهم، وهذان الصنفان نظير مُتفقِّهٍ لا يعرف الحديث، أو صاحب حديث لا يتفقه فيه، وكذلك متكلم لا يتدبر القرآن، أو قارئ لا يعرف من القرآن أنواعَ الكلام الحقِّ والباطلِ.

فهاتان فرقتان علميتان، والثالثة:

قوم: تركوا استماع القلوب له والتنعُّم به، وتحرُّك القلب عن محركاته، وذوق حلاوته، ووجود طعمه، إلى سماع أصوات تغيره[1]، من شعر أو ملاهي، من أصوات الصابئة، أو النصارى، أو ما هو موَلَّد عن ذلك ومجانس له، أو نحو ذلك، وهم منحرفة المتصوفة والمتفقرة، وبإزائهم:

قوم: يصَوِّتون به ويسمعون قراءته، من غير تحرُّك عنه، ولا وَجْد فيه، ولا ذوق لحقائقه ومعانيه، وهم ظاهرية العُبَّاد والمتطوعة والمتقرِّئة.

فهذان الصنفان:

صاحبُ حال: تُحرِّك الأصواتُ حالَه، وليست تلك الحركة والحال عن الصوت بالقرآن.

وصاحبُ مقالٍ: يُميز بين الأقوال وينظر فيها، وليس ذلك النظر والمقال عن القرآن.

وبإزائهما:

صاحب عبادة ظاهرة: معه استماع ظاهر القرآن وتلاوته.

وصاحب علم ظاهر: معه حفظ حروف القرآن، أو تفسير حروفه من غريبه وإعرابه وأسباب نزوله، ونحو ذلك.

---

(١) كذا في المطبوع: تغيره، ولعلّ الصواب: غيره، ليستقيم المعنى.

فهذه الأقسام الأربعة:

الذين وقفوا مع ظاهر العلم والعمل المشروعَيْن. والذين خاضوا في باطن العلم والعمل، لكن غير المشروعَيْن.

جاء التفريط والاعتداء منهم، ولهذا وقع بينهم التعادي؛ فالأولون يرمون الآخرين بالبدعة والضلالة، وقد صدقوا، والآخرون ينسبُون الأولين إلى الجَهالة والعجز، وقد صدقوا، ثم قد يكون مع بعض الأولين كثيرٌ من العلم والعمل المشروع، كما قد يكون مع بعض الآخرين كثيرٌ من العلم الباطن والحال الكامن، كما قد روى الحسن البصري في مراسيله عن النبي ﷺ أنه قال: (**العلم علمان: علم في القلب، وعلم في اللسان، فعلم القلب هو: العلم النافع، وعلم اللسان: حجة الله على عباده**)[1]، وقال يحيى بن سعيد التيمي ـ أبو حيان ـ[2] فيما رواه الخلال[3] في (جامعه) عن الثوري: (**العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالماً**

---

(١) الحديث: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٨٢)، وابن المبارك في الزهد (ص٤٠٧)، والدارمي في سننه (١/ ١١٤)، وأبو حيان في طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ١٠٢، ت: عبد الغفور حسين البلوشي، ط. مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤١٢هـ)، عن الحسن البصري عن أنس ﷺ، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب عن جابر (١/ ٥٨)، وقال: رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح.

(٢) هو يحيى بن سعيد التيمي، أبو حيان، تيم الرباب، الكوفي، كان ثقة، إماماً، صاحب سنة، روى عن الشعبي ونحوه، توفي سنة ١٤٥هـ.
انظر: شذرات الذهب (١/ ٢١٧).

(٣) هو أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، واشتهر بالخلال، لأنه كان يبيع الخل، ويأكل من كسب يده، ولد سنة ٢٣٤هـ، وبرع في المذهب الحنبلي حتى صار شيخ الحنابلة في عصره، من مصنفاته: الجامع لعلوم أحمد، قال عنه ابن كثير: لم يؤلف في مذهب أحمد مثله، وله كتاب السنة، وغيرها، توفي سنة ٣١١هـ. =

بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله وبأمر الله)[(١)]»اهـ[(٢)].

- وبيَّن الشيخ ما قد يعرِض لسامع السماع الشرعي من خشوع، أو بكاء، أو غشي، أو حال، وهل هذا ممدوح أم مذموم؟:

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورةُ في القرآن، وهي: وَجَلُ القلوب، ودموع العين، واقشِعْرَار الجلود:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقد يذُمُّ حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب، والرَّيْن عليها، والجفاء عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكملُ الأحوال وأتمُّها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميمٌ؛ بل المراتب ثلاث:

= انظر: البداية والنهاية (١١/ ١٤٨)، شذرات الذهب (٢/ ٢٦١)، تاريخ بغداد (٥/ ١١٣)، طبقات الحنابلة (٢/ ١٣).

(١) الأثر: أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١١٤) بلفظ: «محمد بن يوسف عن سفيان قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله فذاك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله فذلك العالم الفاجر»اهـ، ورواه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣١٤).

(٢) الفتاوى (١٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٨).

أحدها: حال الظالم لنفسه، الذي هو قاسي القلب: لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شبهٌ من اليهود.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

والثانية: حالُ المؤمن التقيِّ، الذي فيه ضَعْفٌ عن حمل ما يَرِدُ على قلبه: فهذا الذي يُصعق صَعْقَ موتٍ، أو صَعْقَ غشيٍ؛ فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضَعف القلب عن حمله، وقد يُوجد مثلُ هذا في: من يفرح، أو يخاف، أو يحزن، أو يحب أموراً دنيوية، يقتلُه ذلك، أو يُمرضه، أو يذهب بعقله، ومن عُبّاد الصور مَنْ أمرضه العشق، أو قتله، أو جنَّنه، وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمرٌ ضعُفت نفسه عن دفعه، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تُمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك، فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنبٌ فيما أصابه، فلا وجه للريبة، كمن سمع القرآن السماع الشرعيَّ، ولم يفرِّط بترك ما يوجب له ذلك[(١)]»اهـ[(٢)].

القسم الثاني: السماع البدعي:

وهو المراد بالسماع عند الصوفية ـ عند الإطلاق ـ ويعنون به:

---

(١) لم يذكر شيخ الإسلام المرتبة الثالثة؛ لأنها مفهومة من السياق، وهي حال المؤمن التقي الذي قوي قلبه على تحمُّل الآيات والوعد والوعيد، فلا يصيبه الغشي ولا الصرع أثناء القراءة.

(٢) الفتاوى (١١/٨ ـ ١٠).

سماع القصائد والأشعار الملحَّنة، ويقصدون بهذا السماع ترقيقَ القلوب، وتذكيرَها بالثواب والعقاب، وقد يصاحب هذا السماعَ ضربٌ بالدف، ونحوه.

قال الشيخ: «والذين حضروا السماع المحدث، الذي جعله الشافعي من إحداث الزنادقة، لم يكونوا يجتمعون مع مُردانٍ ونسوان، ولا مع مصلصلات[1] وشبابات[2]، وكانت أشعارهم مزهداتٍ مرققاتٍ»اهـ[3].

- وقد يطلق بعضهم لفظ السماع ويريد به السماع الشرعي، وهذا يقع غالباً في إطلاق المشايخ المتقدمين:

قال الشيخ: «لفظ السماع يدخل فيه عندهم: السماعُ الشرعي، كسماع القرآن، والخطب الشرعية والوعظ الشرعي، وقد أدخل أبو القاسم[4] هذا النوع في باب السماع، وذكر في ذلك آثاراً، فقال[5]: «كان بالمغرب شيخان لهما أصحاب وتلامذة، يقال لأحدهما: جبلة، وللثاني: رزيق، فزار رزيق يوماً جبلة، فقرأ رجل من أصحاب رزيق شيئاً، فصاح رجل من أصحاب جبلة صيحة ومات، فلما أصبحوا، قال جبلة لرزيق: أين الذي قرأ بالأمس؟ فليقرأ آية، فقرأ، فصاح جبلة صيحة، فمات القارئ! فقال جبلة: واحد بواحد والبادي أظلم».

---

(١) المصلصلات: جمع مصلصل، وهو المصوِّت، وهي آلات تصنع من الطين أو الخزف، وتصدر صوتاً متردداً عند الضرب عليها.
انظر: القاموس (ص١٣٢٢، مادة: صل).

(٢) الشبابات: جمع شبابة، ويظهر أنها نوع من آلات الطرب والمعازف، ولم أقف على من نصّ على تعريفها من أهل اللغة.

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٣٤).

(٤) يعني: أبا القاسم القشيري.

(٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥٠).

فهذا من سماع القرآن؛ وأما الموت بالسماع، فمسألة أخرى نتكلم عليها إن شاء الله في موضعها.

قال أبو القاسم[١]: «وسئل إبراهيم المارستاني[٢] عن الحركة عند السماع، فقال: بلغني أن موسى عليه السلام قصَّ في بني إسرائيل، فمزَّق واحد منهم قميصه، فأوحى الله إليه: قل له: مزق لي قلبك، ولا تمزق لي ثيابك[٣]، فهذا سماع لقصص الأنبياء».

قال أبو القاسم[٤]: وسأل أبو علي المغازلي الشبليَّ، فقال: ربما يطرق سمعي آيةٌ من كتاب الله عز وجل، فتحدُوني على ترك الأشياء والإعراض عن الدنيا، ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس؟ فقال الشبلي: ما اجتذبك إليه فهو عطف منه عليك ولطف، وما ردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك، لأنه لا يصح لك التبرِّي من الحول والقوة في التوجه إليه. فهذا سماع في القرآن.

وقال[٥]: «سمعت.. أحمد بن مقاتل العكي يقول: كنت مع الشبلي في مسجد ليلة في شهر رمضان وهو يصلي خلف إمام له وأنا بجنبه، فقرأ الإمام: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، فزعق زعقة! قلت: طارت روحُه! وهو يرتعد، ويقول: بمثل هذا يخاطب الأحباء؟! يردد ذلك كثيراً، فهذا سماع القرآن».

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥٠).

(٢) هو إبراهيم بن أحمد المارستاني، أبو إسحاق، قال أبو نعيم الأصبهاني: «كان الجنيد له مواخياً وعليه حامياً حانياً»اهـ.
انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٣٢).

(٣) الأثر: رواه الإمام أحمد بإسناده في كتاب الزهد (١/ ١٢٨، ت: د. محمد جلال شرف ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م)، وأبو نعيم بإسناده في الحلية (٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥١).

(٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥١).

قال[١]: «وحُكي عن الجنيد، أنه قال: دخلت على السري يوماً، فرأيت عنده رجلاً مغشياً عليه، فقلت: ما له؟ فقال: سمع آيةً من كتاب الله تعالى، فقلتُ: تُقرأُ عليه ثانياً، فقُرِئ فأفاق، فقال لي: من أين علمت هذا؟ فقلت: إن قميص يوسف ذهبت بسببه عين يعقوب عليه السلام، ثم به عاد بصرُه، فاستحسن مني ذلك».

قال[٢]: «كان شاب يصحب الجنيد، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الجنيد يوماً: إن فعلت ذلك مرةً أخرى لم تصحَبْني، فكان إذا سمع شيئاً يتغير ويضبط نفسه، حتى كان يقطر من كل شعرة من بدنه، فيوماً من الأيام صاح صيحة تلفت بها نفسُه».

فهذا سماع الذكر لا يختص بسماع الشعر الملحَّن»اهـ[٣].

ثانياً: أصل بدعة السماع، وما زاده المتأخرون فيها من الابتداع:

قال الشيخ: «.. واعتبر ذلك بمسألة السماع التي تكلمنا فيها:

فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرَعْه، حيث أكمل الدين، وأتمَّ عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً، وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم، وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين، حتى كان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقون يسمعون[٤]، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى ذكّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون[٥]، وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع، وإنما ذكرنا هنا نكتاً تتعلق بالسماع.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥١).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥١ ـ ٦٥٢). (٣) الاستقامة (١/ ٣٩٦ ـ ٤٠٠).

(٤) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٧).

(٥) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٧).

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذكر سماع المؤمنين والعارفين والعالمين والنبيين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]، وقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ الآية [الإسراء: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال النبي ﷺ: **(ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن)**[(١)]، وقال: **(من قرأ القرآن فله بكل حرف عشرُ حسنات، أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن أقول: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)**[(٢)]، وهذا باب واسع يضيق هذا الموضع عن ذكر جزء منه.

فلما انقرضت القرون الفاضلة حصل فترةٌ في هذا السماع المشروع، الذي به صلاحُ القلوب وكمال الدين، وصار أهلُ التغيير فيه أحدَ رجلين:

رجل: معرض عن السماع المشروع وغير المشروع.

ورجل: احتاج إلى سماع القصائد والأبيات، فأحدث سماع القصائد والأبيات، كالتغبير.

وكان الأكابر الذين حضروه، لهم من التأويل ما لهم، فأقام الله في الأمة من أنكر ذلك كما هو سنة الله في هذه الأمة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، وهؤلاء المنكرون فيهم المقتصِد في إنكاره، ومنهم المتأوِّل بزيادة في الإنكار غير مشروعة، كما أحدث أولئك ما ليس مشروعاً، وصار على تمادي الأيام يزداد المحدث من السماع، ويزداد التغليظ في أهل الإنكار، حتى آل الأمر من أنواع البدع والضلالات، والتفرق والاختلافات إلى ما هو من أعظم القبائح المنكرات، التي لا يشك في عِظَمِ إثمها وتحريمها مَنْ له أدنى علم وإيمان.

وأصل هذا الفساد من ذلك التأويل في مسائل الاجتهاد، فمن ثبّته الله بالقول الثابت أعطى كلَّ ذي حق حقه، وحفظ حدود الله، فلم يتعدَّها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

فالشرُّ في التفريط بترك المأمور، أو العدوان بتعدِّي الحدود، وحصلت الزيادات في جميع الأنواع المبتدَعة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠٠).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٢٠١).

فإن أصل سماع القصائد: كان تلحيناً بإنشاد قصائدَ مرققةٍ للقلوب، تحرِّكُ تحريك المحبة والشوق، أو الخوف والخشية، أو الحزن والأسف وغير ذلك، وكانوا يشترطون له: المكان، والإمكان، والخلان.

فيشترطون: أن يكون المجتمعون لسماعها من أهل الطريق، المريدين لوجه الله والدار الآخرة.

وأن يكون الشعرُ المنشَدُ غيرَ متضمن لما يُكره سماعُه في الشريعة.

وقد يشترط بعضهم أن يكون القوّالُ منهم.

وربما اشترط بعضهم ذلك في الشاعر الذي أنشأ تلك القصائد.

وربما ضمُّوا إليه آلةً تقوي الصوت، وهو الضرب بالقضيب على جلد مخدة أو غيرها، وهو التغبير.

ومن المعلوم أن استماع الأصوات يوجب حركة النفس بحسب ذلك الصوت، الذي يوجب الحركة، وهو يوجب الحركة[1].

وللأصوات طبائعُ متنوعةٌ تتنوع آثارُها في النفس، وكذلك للكلام المسموع نظمه ونثره، فيجمعون بين الصوت المناسب والحروف المناسبة لهم.

وهذا الأمر يفعله بنو آدم من أهل الديانات البِدعية؛ كالنصارى والصابئة وغير أهل الديانات، ممَّن يحرِّك بذلك حبَّه وشوقه ووجده، أو حزنه وأسفه، أو حميته وغضبه، أو غير ذلك.

فخلف بعد أولئك من صار يجمع عليه أخلاطاً من الناس، ويرون اجتماعهم لذلك شبكة تصطاد النفوس، بزعمهم، إلى التوبة والوصول في طريق أهل الإرادة.

---

(١) كذا في المطبوع، وقال محقق كتاب الاستقامة في الحاشية: كذا في الأصل، ويبدو أن العبارة ناقصة.

وأحدث بعد أولئك أيضاً الاستماع من المخانيث، المعروفين بالغناء لأهل الفسوق والزنا، وربما استمعوه من الصبيان المُردان، أو من النسوان الملاح، كما يفعل أهل الدساكر والمواخير.

وقد يجمعون في السماع أنواع الفُسَّاق والفُجَّار، وربما قصدوا التكاثر بهم والافتخار، لا سيما إن كانوا من أهل الرياسة واليسار، وكثيراً ما يحضر فيه أنواع المُردان، وقد يكون ذلك من أكبر مقاصد أهل السماع، وربما ألبسوهم الثياب المصبَّغة الحسنة، وأرقصوهم في طابق الرقص والدوران، وجعلوا مشاهدتهم؛ بل معانقتهم، مطلوباً لمن يحضر من الأعيان، وإذا غلبهم وجد الشيطان، رفعوا الأصوات التي يبغضها الرحمن.

وكذلك زادوا في الابتداع في إنشاد القصائد، فكثيراً ما ينشدون أشعار الفُسَّاق والفُجَّار، وفيهم كثير ينشدون أشعار الكفار، بل ينشدون ما لا يستجيزه أكثرُ أهل التكذيب، وإنما يقوله أعظمُ الناس كفراً برب العالمين، وأشدُّهم بعداً عن الله ورسوله والمؤمنين.

وزادوا أيضاً في الآلات التي تستثار بها الأصوات، مما يصنع بالأفواه والأيدي، كأبواق اليهود ونواقيس النصارى، من يبلغ المنكرات، كأنواع الشبابات والصفارات، وأنواع الصلاصل والأوتار المصوتات، ما عظمت به الفتنة حتى ربا فيها الصغير وهرم فيها الكبير، وحتى اتخذوا ذلك ديناً وديدناً، وجعلوه من الوظائف الراتبة بالغداة والعشي كصلاة الفجر والعصر، وفي الأوقات والأماكن الفاضلات، واعتاضوا به عن القرآن والصلوات.

وصدق فيهم قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم: ٥٩].

وصار لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ

إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]؛ إذ المكاء: هو الصفير ونحوه من الغناء، والتصدية: هي التصفيق بالأيدي[١]، فإذا كان هذا سماع المشركين الذي ذمه الله في كتابه، فكيف إذا اقترن بالمكاء الصفارات المواصيل، وبالتصدية مصلصلات الغرابيل، وجَعْلُ ذلك طريقاً وديناً يتقرب به إلى المولى الجليل»اهـ[٢].

ثالثاً: لم يكن هذا السماع البِدعي موجوداً في وقت الصحابة رضي الله عنهم ولا كان معروفاً عندهم:

قال الشيخ: «فصلٌ: وأما سماع المكاء والتصدية: وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية، سواء كان بكف، أو بقضيب، أو بدُفٍّ، أو كان مع ذلك شبّابة، فهذا لم يفعله أحد من الصحابة، لا من أهل الصفة ولا من غيرهم، بل ولا من التابعين، بل القرون المفضَّلة التي قال فيها النبي ﷺ: (**خير القرون الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)[٣] لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن ولا العراق، ولا مصر ولا خراسان ولا المغرب.

وإنما كان السماع الذي يجتمعون عليه: سماع القرآن، وهو الذي

---

(١) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ في: تفسير القرطبي (٧/ ٣٥٠)، ابن كثير (٢/ ٤٠٤)، فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٤٥)، البغوي (١/ ٣٥٤).

(٢) الاستقامة (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٨).

(٣) الحديث: رواه مسلم بلفظ: (خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ٤/ ١٩٦٣/ ٢٥٣٤) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه أبو داود واللفظ له (كتاب السنة، باب فضل أصحاب رسول الله ﷺ، ٤/ ٢١٤/ ٤٦٥٧) من حديث: عمران بن حصين رضي الله عنه.

كان الصحابة من أهل الصُّفَّة وغيرهم يجتمعون عليه»اهـ[١].

رابعاً: تاريخ ظهور السماع البدعي: أواخر المائة الثانية:

ذكر الشيخ أن هذا السماع المبتدَع حدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الفاضلة:

قال رحمه الله: «وأما سماع القصائد لصلاح القلوب، والاجتماع على ذلك؛ إما نشيداً مجرداً، وإما مقروناً بالتغبير ونحوه، مثل الضرب بالقضيب على الجلود، حتى يطير الغبار، ومثل التصفيق ونحوه، فهذا سماعٌ مُحدَث في الإسلام بعد ذهاب القرون الثلاثة، وقد كرهه أعيان الأئمة»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «وكذلك الأصوات المثيرة للوجد والطرب، تحرك كل قلب إلى مطلوبه، قد اشترك فيها: محب الرحمن، ومحب الإيمان، ومحب الغلمان، ومحب النسوان، ومحب المردان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ولهذا لم تجئ الشريعة بهذا السماع، ولا فعلها القرون الثلاثة الفاضلة، بل هو محدَث في حدود أواخر المائة الثامنة[٣]، ولهذا امتنع عن حضوره أكابرُ العارفين وأئمة العلم وأهل الاتِّباع للشريعة، ونُهوا عنه، وقد حضره جماعة من المشايخ الصالحين»اهـ[٤].

وقال الشيخ: «.. بل لمَّا حدث التغبير في أواخر المائة الثانية،

---

(١) الفتاوى (١١/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٩٢).

(٣) كذا في المطبوع، وهو خطأ؛ لأن السماع ظهر قبل ذلك بمدة؛ فقد ذكره الشافعي وغيره من المتقدمين، ولعلّ الصواب: أواخر المائة الثانية، ويؤيد ذلك قول الشيخ قبله: ولا فعلها القرون الثلاثة الفاضلة، ويؤيده أيضاً: النص الذي بعده المنقول من كتاب الاستقامة.

(٤) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٩).

وكان أهله من خيار الصوفية، وحدث من جهة المشرق التي يطلع منها قرن الشيطان، ومنها الفتن، قال الشافعي رضي الله عنه: «خلفتُ ببغدادَ شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن»[١]»اهـ[٢].

خامساً: حكم السماع:

أ ـ حكمه عند المتصوفة:

بيَّن الشيخ أن أكثر الصوفية يستحبون سماع القصائد الملحَّنة، وقال بعضهم بوجوب هذا السماع، بل قد يفضِّلها بعضهم على القرآن:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[٣]: «واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة، والنغم المستلذة ـ إذا لم يعتقد المستمع محظوراً، ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم ينجرَّ في زمان هواه، ولم ينخرط في سلك لهوه ـ مباحٌ في الجملة، ولا خلاف أن الأشعار أُنشدت بين يدي النبي ﷺ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة، فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان، هذا ظاهر من الأمر، ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات، وتذكر ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات، ويحمله على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحبٌ في الدين ومختار في الشرع».

قال[٤]: «وقد جرى على لفظ الرسول ﷺ ما هو قريب من الشعر، وإن لم يقصد أن يكون شعراً».

وذكَرَ الحديثَ المتفقَ عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت الأنصار يحفرون الخندق، فجعلوا يقولون:

---

(١) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٢). (٢) الاستقامة (١/ ٢٩٧).
(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧). (٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧).

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة[١]

وقال[٢]: «ليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشعر».

قلت: تضمَّن هذا الكلام شيئين:

أحدهما: إباحة سماع الألحان والنغمات المستلذة، بشرط ألا يعتقد المستمع محظوراً، وألا يسمع مذموماً في الشرع وألا يتبع منه هواه.

والثاني: أن ما أوجد للمستمع الرغبة في الطاعات والاحتراز من الذنوب، وتذكر وعد الحق، ووصول الأحوال الحسنة إلى قلبه: فهو مستحبٌّ.

وعلى هاتين المقدمتين بنى من قال باستحباب ذلك، مثل: أبي عبد الرحمن السلمي وأبي حامد[٣] وغيرهما، وفي هؤلاء من قد يوجبه أحياناً، إذا رأوا أنه لا يؤدّى الواجب إلا به.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب ولا يفروا، ٣/ ١٠٨١/ ٢٨٠١)، ومسلم (كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق، ٣/ ١٤٣١/ ١٨٠٥) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٨).

(٣) قال الغزالي في الإحياء (٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢): «فإذا كان سماع القرآن مفيداً للوجد، فما بالُهم يجتمعون على سماع الغناء من القوَّالين دون القارئين؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعُهم وتواجدُهم في حِلَقِ القراء لا حِلَقِ المغنين، وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئ لا قوّال، فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالةَ.

فاعلم أن الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه:

الوجه الأول: أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع، فمن استولى =

= عليه شوق من أين يناسب حاله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾؟...
الوجه الثاني: أن القرآن محفوظ للأكثرين، ومتكرر على الأسماع والقلوب...
الوجه الثالث: أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، فالوزن إذاً مؤثر، فلذلك طاب الشعر.
الوجه الرابع: أن الشعر يختلف تأثيره في النفس بالألحان، بمد المقصور وقصر الممدود، والوقف في أثناء الكلمات، ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة...
الوجه الخامس: أن الألحان الموزونة تُعضد وتُؤكد بإيقاعات وأصوات كالضرب بالقضيب والدف وغيره، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن...
الوجه السادس: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه ويستدعي غيره...
الوجه السابع: القرآن كلام الله لا تطيقه البشرية، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته..اهـ.
وقد ردّ عليه الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين (٤٨٦/١) فقال:
«فصل: القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ومنه الشعر والغناء:.. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به، وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم، وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء القرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل، فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخية النفاق وأساسه.

تُلي الكتاب فأطرقوا، لا خيفة	لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا	والله ما رقصوا من اجل الله
دف، ومزمار، ونغمة شاهد	فمتى شهدت عبادة بملاهي؟
ثقُل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهي

=

وكذلك يفضلونه على سماع القرآن، إذا رأوا أن ما يحصل بسماع الألحان أكثر مما يحصل بسماع القرآن، وهم في ذلك يضاهون لمن يوجب من الكلام المحدَث ما يوجبه، ولمن يفضل ما فيه من العلم على ما يستفاد من القرآن والحديث.

لكن في أولئك من يرى الإيمان لا يتم إلا بما ابتدعوه من الكلام، وفيهم من يكفِّر بمخالفته أو يفسِّق.

وأهل السماع أيضاً:

فيهم من يرى الإيمان لا يتم إلا به[!!].

= وعليهم خف الغنا لما رأوا ... إطلاقه في اللهو دون مناهي
يا فرقة ما ضر دين محمد ... وجنى عليه ومله إلا هي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى ... زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ويحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه عند الجَهول الساهي
إن لم يكن خمر الجسوم فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النشوان عند تلاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
فاحكم بأي الخمرتين أحق بالـ ... ـتحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماعُ الذي يسمعه العبد بطبعه وهواه، أنفعَ له من الذي يسمعه بالله ولله وعن الله؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك، فهذا غاية اللبس على القوم؛ فإنه إنما يسمع بالله ولله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه.

ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته. فقد جعل الله لكل شيء قدراً، ولن يجعل الله من شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات»اهـ.

وفيهم من يقول في مُنْكِرِهِ الأقوالَ العظيمةَ، وقد يكون يسعى في قتل مُنْكِرِهِ[!!].

لكن جنسهم كان خيراً من جنس المتكلمة، مما فعلوا غير ذلك من الذنوب، كما يستحبون علم الكلام ويوجبونه، ويذمُّون تاركه ويسبونه، ويعاملونه من العداوة بما يعامَل به الكافر.

وبإزاء استحباب هؤلاء أو إيجابهم، أن قوماً من أهل العلم يكفِّرونهم باستحباب ذلك، أو إيجابه؛ ولهذا تجد في المستحبِّين له وفي المنكرين له من الغلو، ما أوجب الافتراق والعداوة والبغضاء.

وأصل ذلك ترك الفريقين جميعاً لِمَا شرعه الله من السماع الشرعي الذي يحبه الله ورسوله وعباده المؤمنون»اهـ[(١)].

ب ـ أما حكم سماع المتصوفة عند أهل السنة، ومَنْ وافقهم مِنْ معتدلي الصوفية:

فهو أنه مبتدَع محدَث، وقد نقل شيخ الإسلام عن الإمام ابن خفيف أن معتدلي الصوفية ينكرون هذا السماع البدعي، ولا يستحبونه:

فقال ـ شيخ الإسلام ـ: «قال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات): .. ونعتقد أن القراءة الملحَّنة: بدعةٌ وضلالةٌ، وأن القصائد: بدعةٌ، ومجراها على قسمين:

فالحسن من ذلك: من ذكَرَ آلاء الله ونَعمائه، وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين، فذلك جائز، وتركُه والاشتغالُ بذكر الله والقرآن والعلم أولى به.

وما جرى على وصف المرئيات ونعت المخلوقات: فاستماع ذلك

(١) الاستقامة (١/ ٢٣٤).

على الله كفر، واستماع الغناء والرباعيات[١] على الله كفر، والرقص بالإيقاع ونعت الرقَّاصين على أحكام الدين: فسقٌ، وعلى أحكام التواجد والغناء: لهوٌ ولعبٌ.

وحرام على كل من يسمع القصائد والربعيات الملحنة الجاري[٢] بين أهل الأطباع على أحكام الذكر، إلا لمن تقدم له العلم بأحكام التوحيد ومعرفة أسمائه وصفاته، وما يُضاف إلى الله تعالى من ذلك، وما لا يليق به ﷻ، مما هو منزَّه عنه، فيكون استماعُه كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ الآية [الزمر: ١٨][٣].

وكل من جهل ذلك وقصد استماعه على الله على غير تفصيله، فهو كفر لا محالةَ، فكل من جمع القول وأصغى بالإضافة إلى الله فغير جائز، إلا لمن عرف بما وصفتُ من ذكر الله ونَعمائه، وما هو موصوف به ﷻ، مما ليس للمخلوقين فيه نعت ولا وصف، بل تَرْكُ ذلك أولى وأحوطُ، والأصل في ذلك أنها بدعة، والفتنة فيها غيرُ مأمونة على استماع الغناء والربعيات بدعة، وذلك مما أنكره المطَّلبي[٤]

---

(١) في المطبوع: الربعيات، ولعلّ الأصوب ما أثبته، والتصحيح من كتب اللغة.
والرباعيات هي: منظومات شعرية تتألف من وحدات، كل وحدة منها أربعة أشطر تستقل بقافيتها.
انظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لمجدي وهبة، وكامل المهندس (ص١٧٤ ـ ١٧٥، ط. مكتبة لبنان، بيروت، الثانية ١٩٨٤م)، المعجم الوسيط (ص٣٢٤).

(٢) في المطبوع: الجائي، والتصويب من النسخة التي حققها الدكتور: حمد بن عبد المحسن التويجري (الفتوى الحموية الكبرى ص٤٦٨، ط. دار الصميعي، الرياض، الأولى ١٤١٩هـ).

(٣) الآية بتمامها، قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

(٤) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي.

=

ومالك[١] والثوري، ويزيد بن هارون[٢] وأحمد بن حنبل، وإسحاق[٣]، والاقتداء بهم أولى من الاقتداء بمن لا يُعرفون في الدين، ولا لهم قدم عند المخلصين.

وبلغني أنه قيل لبشر بن الحارث[٤]: إن أصحابك قد أحدثوا شيئاً يقال له: القصائد، قال: مثل أيشٍ؟ قال: مثل قوله:

اصبري يا نفس حتى تسكني دار الجليل

فقال: حسنٌ، وأين يكون هؤلاء الذين يستمعون ذلك؟

قال: قلت: ببغداد!

= انظر: الأنساب للسمعاني (٥/ ٣٢٦، ت: عبد الله بن عمر البارودي، ط. دار الجنان، بيروت، الأولى ١٤٠٨هـ).

(١) الإمام مالك بن أنس.

(٢) هو يزيد بن هارون، أبو خالد السلمي، من أئمة أهل السنة، ولد سنة ١١٨هـ، قال الذهبي: «كان يزيد رأساً في السنة معادياً للجهمية، منكراً تأويلهم في مسألة الاستواء»اهـ، توفي سنة ٢٠٦هـ.
انظر: سير الأعلام (٩/ ٣٥٨)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٣١٤).

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، المشهور بابن راهويه (وهو لقب أبيه)، أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، جمع بين الفقه والورع، قال الإمام أحمد: «إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وما عبر الجسر أفقه من إسحاق»اهـ، ولد سنة ١٦١هـ، وتوفي سنة ٢٣٨هـ.
انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٣٤٥)، سير الأعلام (١١/ ٣٥٨)، شذرات الذهب (٢/ ٨٩).

(٤) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء المروزي، المشهور ببشر الحافي، ولد سنة ١٥٢هـ، كان أول عمره يمشي حافياً ويطلب العلم فاشتهر بذلك، إمام زاهد محدث، قيل للإمام أحمد: مات بشر، فقال: «مات والله وما له نظير إلا عامر بن عبد قيس»اهـ، توفي سنة ٢٢٧هـ.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٣٤٢)، الحلية (٨/ ٣٣٦)، سير الأعلام (١٠/ ٤٦٩).

فقال: كذبوا والله الذي لا إله غيره؛ لا يسكن ببغداد من يستمع ذلك»[١].

قال أبو عبد الله: «.. ونقول: إن المستمع إلى الغناء والملاهي؛ فإن ذلك كما قال ﷺ: **(الغناء ينبت النفاق في القلب)**[٢]، وإن لم

---

(١) بغداد: مدينة معروفة في العراق وهي عاصمتها، وقد كانت قبل أن يفتحها المسلمون سوقاً للفرس يجتمع فيها التجار كل شهر مرة، وقد غلب على أهلها في فترة من الفترات الفسق والمجون، فكان الزهاد والعباد يخرجون منها إلى غيرها، قال ياقوت الحموي (معجم البلدان ١/ ٤٦٤): «ذم بغداد قد ذكره جماعة من أهل الورع والصلاح والزهاد والعباد، ووردت فيها أحاديث خبيثة، وعلتهم في الكراهية ما عاينوه بها من الفجور والظلم والعسف، وكان الناس وقت كراهيتهم للمقام ببغداد غير ناس زماننا، فأما أهل عصرنا فأجلِسْ خيارهم في الحش وأعطهم فلساً، فما يبالون بعد تحصيل الحطام أين كان المقام..
وكان بعض الصالحين إذا ذكرت عنده بغداد يتمثل:

قل لمن أظهر التنسك في النا ... س وأمسى يعد في الزهاد
الزم الثغر والتواضع فيه ... ليس بغداد منزل العباد
إن بغداد للملوك محلٌّ ... ومناخ للقارئ الصياد

ومن شائع الشعر في ذلك:

بغداد أرض لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق
أصبحت فيها مضافاً بين أظهرهم ... كأنني مصحف في بيت زنديق

وانظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١/ ٢٧ ـ ٣١) فقد ذكر جملة أحاديث وآثار في ذم بغداد.

(٢) الحديث: رواه أبو داود واللفظ له (كتاب الأدب، باب كراهية الغناء والزمر، ٤/ ٢٨٢/ ٤٩٢٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (كتاب الشهادات، باب الرجل يغني فيتخذ الغناء صناعة، ١٠/ ٢٢٣) وزاد: «كما ينبت الماء البقل»، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (ص٣٨/ ١٣ بلفظ البيهقي، ت: محمد عبد القادر عطا، ط. دار النصر، مصر) من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ونقل المناوي في فيض القدير (٤/ ٤١٣، دار المعرفة، بيروت، الثانية ١٣٩١هـ) عن العراقي قوله: رفعه غير صحيح لأن في إسناده من لم يسمّ.اهـ، وروي الحديث موقوفاً =

يكفِّر، فهو فسق لا محالة»اهـ[(١)].

ومما يزيد هذا السماع المُحدث بدعةً وتحريماً:

احتواءُ قصائده على الضلال والكفر والفجور، وقد بيّن الشيخ ذلك، وأورد بعض هذه الأشعار:

قال الشيخ: «وفي أشعارهم كشعر الكوجلي وغيره، مِن سبِّ النبي ﷺ، وسبِّ القرآن والإسلام: ما لا يرضى به لا اليهود ولا النصارى!.

ثم منهم من يقول: هذا الشعرُ ليونس[(٢)]، ومنهم من يقول: هو مكذوبٌ على يونس، لكن من المعلوم المشاهدِ أنهم ينشدون الكفر ويتواجدون عليه، ويبول أحدهم في الطعام! ويقول: يشرح كبدي يونس! أو ماء وَرْدِ يونس ويستحلون الطعام الذي فيه البول، ويرون ذلك بركة!.

وأما كفرياتهم: مثل قولهم:

وأنا حميت الحمى وأنا سكنت فيه   وأنا تركت الخلائق في مجاري التيه[(٣)]

موسى على الطور لما خر لي ناجا   وصاحب أقرب أنا جنبوه حتى جا

= على ابن مسعود رضي الله عنه، وهو أصحّ، قال العراقي: روي مرفوعاً من عدة طرق كلها ضعيفة، قال البيهقي: والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضي الله عنه.اهـ. تخريج أحاديث علوم الدين (٣/ ١٣٣٣).

(١) الفتاوى (٥/ ٧١، ٨٣ ـ ٨٥).

(٢) يونس القنّبي، تقدمت ترجمته، انظر (١/ ٢٧٠).

(٣) هذا الشعر ليونس القنبي، شيخ الطائفة اليونسية، وقد ذكره ابن خلكان والذهبي في ترجمته، بلفظ:

وأنا حميت الحمى وأنا سكنتو [كذا] فيه   وأنا رميت الخلائق في بحار التيه

من كان يبغي العطا مني أنا أعطيه   أنا فتى ما أداني من به تشبيه

وفيات الأعيان (٧/ ٢٥٦)، تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦١٩هـ، ص٤٧٢، والذهبي هنا ناقل عن ابن خلكان).

يوم القيامة يرى الخلائق أفواجا إلى نبيه عيسى يقضي لهم حاجا[(١)]

ويقولون:

تعالوا نخرب الجامع ونجعل منه جماره
ونكسر خشب المنبر ونعمل منه زناره
ونحرق ورق [المصحف][(٢)] ونعمل منه طنباره
ننتف لحية القاضي ونعمل منه أوتاره[(٣)]
أنا حملت على العرش حتى صج وأنا صرخت في محمد حتى هج
وأن البحار السبعة من هيبتي ترتج[(٤)]

وأمور أخر، أعظم من هذا، وأعظم من أن تُذكر لِمَا فيها من الكفر الذي هو أعظم من قول الذين قالوا: إن لله ولداً»اهـ[(٥)].

ونقل شيخ الإسلام عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إنكار هذا السماع المحدث:

قال الشيخ في جواب سؤال عن سماع القصائد الملحنة: «لا نزاع بين أئمة الدين أنه ليس من جنس القُرَب والطاعات والعبادات.. قال الحسن بن عبد العزيز الحراني: سمعت الشافعي يقول: «خلفت ببغداد

---

(١) هذا الشعر ليونس القنيي أيضاً، وقد ذكره الذهبي في ترجمته، فقال: «وسمعت شيخ الإسلام ينشد ليونس:
موسى على الطور لما خرّ لي ناجى واليثربي أنا جبتوه حتى جا
وذاك البيت وأمثاله يُحتمل أن يكون قد نظمه على لسان الربوبية ـ كما قلنا ـ فإن كان عنى ذلك فالأمر قريب، وإن كان عنى نفسه، فهذه زندقة عظيمة، نسأل الله العفو»اهـ.
تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦١٩هـ، ص٤٧٣).
(٢) سقطت كلمة: المصحف من هذا الموضع من المطبوع، وقد استدركتها من كتاب الشيخ: الاستغاثة (٢/ ٥٨١).
(٣) تقدم تخريج الأبيات، انظر (١/ ٥٧٠).
(٤) تقدم تخريج الأبيات، انظر (١/ ٥٧٠).
(٥) الفتاوى (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمُّونه التغبيرَ يصدون به الناس عن القرآن[(١)].
وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين؛ فإن القلب إذا تعوّد سماع القصائد والأبيات والتَذَّ بها، حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع الرحمن.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **(ليس منا من لم يتغن بالقرآن)**[(٢)]، وقد فسره الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما بأنه: من الصوت، فيحسنه بصوته، ويترنَّم به بدون التلحين المكروه[(٣)]، وفسَّره ابن

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٢). (٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٠).

(٣) فصَّل الإمام القرطبي قول الإمام الشافعي وأحمد، ووازن بين رأييهما في معنى الحديث ورأي سفيان بن عيينة، فقال في تفسيره (١/ ٣٩ ـ ٤١، باب كيفية التلاوة لكتاب الله وما يكره منها ومتى يحرم) عند كلامه عن معنى حديث: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن): «قيل: إن معنى يتغنى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار، لا من الغناء، يقال: تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت. وفي الصحاح: تغنى الرجل بمعنى: استغنى، وأغناه الله. وتغانَوْا؛ أي استغنى بعضهم عن بعض. قال المغيرة بن حبناء التميمي:

كلانا غني عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا

والى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، ورواه سفيان عن سعيد بن أبي وقاص.. وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة، فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد النبي ﷺ الاستغناءَ لقال: من لم يستغن، ولكن لمَّا قال: يتغنَّ، علمنا أنه أراد التغنِّي. قال الطبري: المعروف عندنا في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيح. وقال الشاعر:

تغن بالشعر مهما كنت قائلَه ... إن الغناء بهذا الشعر مضمار

قال: وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت، فليس في كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحداً من أهل لعلم قاله، وأما احتجاجه بقول الأعشى:

وكنت امرءاً زمناً بالعراق ... عفيف المناخ طويل التغن

وزعم أنه أراد الاستغناء فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى في هذا الموضع الإقامة، من قول العرب: غني فلان بمكان كذا؛ أي أقام، ومنه قوله تعالى: =

عيينة(١)، وأبو عبيد(٢) ....

= ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [هود: ٦٨] وأما استشهاده بقوله:

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

فإنه إغفال منه، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين، إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال: تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه. ومن قال هذا في فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثلَه في الواحد، فغير جائز أن يقال: تغانى زيد وتضارب عمرو، وكذلك غير جائز أن يقال: تغنى بمعنى استغنى.

قلت: ما ادعاه الطبري من أنه لم يرد في كلام العرب تغنى بمعنى استغنى، فقد ذكره الجوهري كما ذكرنا، وذكره الهروي أيضاً. وأما قوله: إن صيغة فاعل إنما تكون من اثنين، فقد جاءت من واحد في مواضعَ كثيرة، منها قول ابن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام. وتقول العرب: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وداويت العليل، وهو كثير، فيكون تغاني منها. وإذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام: (يتغن) الغناء والاستغناء، فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أولى لو لم يكن لنا تأويل غيره؛ لأنه مروي عن صحابي كبير كما ذكر سفيان. وقد قال ابن وهب في حق سفيان: ما رأيت أعلمَ بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة، ومعلوم أنه رأى الشافعيَّ وعاصره.

وتأويل سادس ـ وهو ما جاء من الزيادة في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به». قال الطبري: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى»اهـ.

وانظر: فضائل القرآن لابن كثير (١/ ١١٤).

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، ميمون، مولى محمد بن مزاحم، الإمام الحافظ، كان صاحبَ سنة واتباع، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ، وتوفي سنة ١٩٨هـ.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٩٧)، الحلية (٧/ ٢٧٠)، سير الأعلام (٨/ ٤٠٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ٢٦٢).

(٢) هو القاسم بن سلام بن عبد الله، أبو عبيد، من أهل خراسان، ولد سنة ١٥٧هـ، وكان صاحب عربية ونحو، قال أبو بكر الأنباري: «كان أبو عبيد رَحِمَهُ اللهُ =

وغيرهما، بأنه: الاستغناء به[١]، وهذا وإن كان له معنى صحيحٌ، فالأول هو الذي دل عليه الحديث، فإنه قال: (**ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به**)[٢].

وفي الأثر: (**إن العبد إذا ركب الدابة أتاه الشيطان، وقال له: تغَنَّ! فإن لم يتغنَّ، قال له: تمن**)[٣]، فإن النفس لا بد لها من شيء في الغالب تترنم به، فمن لم يترنم بالقرآن ترنم بالشعر»اهـ[٤].

= يقسم الليل أثلاثاً؛ فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنف الكتب ثلثه»اهـ، من مصنفاته: غريب الحديث، وكتاب الأموال، والناسخ والمنسوخ، توفي سنة ٢٢٤هـ.

انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ٣٥٥)، طبقات الحنابلة (١/ ٢٥٩)، وفيات الأعيان (٤/ ٦٠)، سير الأعلام (١٠/ ٤٩)، شذرات الذهب (٢/ ٥٤).

(١) قال القرطبي في بيان رأي سفيان بن عيينة (تفسير القرطبي (١/ ٣٩)) عند كلامه عن معنى حديث: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن): «قيل: إن معنى يتغنى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضد الافتقار، لا من الغناء، يقال: تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت. وفي الصحاح: تغنى الرجل بمعنى استغنى، وأغناه الله. وتغانَوْا أي استغنى بعضهم عن بعض. قال المغيرة بن حبناء التميمي:

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، ورواه سفيان عن سعيد بن أبي وقاص»اهـ.

وانظر: فضائل القرآن لابن كثير (١/ ١١٤).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص٢٠٠).

(٣) الأثر: رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٥٦)، والأزدي في جامعه (٢/ ٣٩٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٥٢/ ١٠٠٨٨)، عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً.

(٤) الفتاوى (١١/ ٥٣١ ـ ٥٣٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٥٦٩، ٥٨٧).

سادساً: انقسام السماع المحرم ـ بحسب حال السامعين ـ قسمين:

السامعون له طرباً ولهواً: فهؤلاء في حقهم يكون: معصيةً.

السامعون له تعبداً وتقرباً: فهؤلاء في حقهم يكون: بدعةً.

قال الشيخ: «الكلام في السماع على وجهين:

أحدهما: سماع اللعب والطرب، فهذا يقال فيه: مكروه، أو محرم، أو باطل، أو مرخصٌ في بعض أنواعه.

الثاني: السماع المحدث لأهل الدين والقُرَبِ، فهذا يقال فيه: إنه بدعة وضلالة، وإنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإجماع السالفين جميعهم، وإنما حدث في الأمة لما أحدث الكلام، فكثر هذا في العلماء وهذا في العُبّاد.

لهذا كان يزيد بن هارون الواسطي ـ وهو من أتباع التابعين وأواخر القرون الثلاثة ـ تجتمع في مجلسه الأمم العظيمة، وكان أجلُّ مشايخ الإسلام إذ ذاك، فكان ينهى عن الجهمية وعن المغيِّرة: هؤلاء أهل الكلام المخالف للكتاب والسنة، وهؤلاء أهل السماع المحدث المخالف للكتاب والسنة.

ولهذا لم يستطع أحد ممن يستحب السماع المحدث ويستحسنه أن يحتج لذلك بأثر عمَّن مضى، ولا بأصل في الكتاب والسنة»اهـ[(١)].

وقال الشيخ: «ثم إن الضالين تجد عامَّةَ دينهم إنما يقوم بالأصوات المطربة والصور الجميلة، فلا يهتمون في أمر دينهم بأكثرَ من تلحين الأصوات، ثم إنك تجد أن هذه الأمة قد ابتُليت من اتخاذ السماع المطرب بسماع القصائد بالصور والأصوات الجميلة لإصلاح القلوب

(١) الاستقامة (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

والأحوال ما فيه مضاهاة لبعض حال الضالين»اه[١].

سابعاً: فصَّل الشيخ حال الصوفية في تعلُّقِهم بالسماع، وتفاوُتِ درجاتهم في استحبابه والغلوِّ فيه.

قال رَحِمَهُ اللهُ «فصل: قاعدة الانحراف عن الوسط، كثير في أكثر الأمور في أغلب الناس، مثل تقابلهم في بعض الأفعال، يتخذها بعضهم ديناً واجباً، أو مستحبّاً، أو مأموراً به في الجملة، وبعضهم يعتقدها حراماً مكروهاً، أو محرماً أو منهياً عنه في الجملة، مثال ذلك: سماع الغناء، فإن طائفة من المتصوفة والمتفقرة تتخذه ديناً، وإن لم تقل بألسنتها أو تعتقد بقلوبها أنه قُرْبَةٌ، فإن دينهم حالٌ لا اعتقاد.

فحالهم وعملهم هو استحسانها في قلوبهم، ومحبتهم لها ديانةً وتقرباً إلى الله، وإن كان بعضهم قد يعتقد ذلك ويقوله بلسانه، وفيهم من يعتقد ويقول: ليس قربة، لكن حالهم هو كونه قربةً ونافعاً في الدين، ومصلحاً للقلوب، ويغلو فيه من يغلو، حتى يجعل التاركين له كلَّهم خارجين عن ولاية الله وثمراتها من المنازل العلِيَّة، وبإزائهم من ينكر جميع أنواع الغناء ويحرمه، ولا يفصِّل بين غناء الصغير، والنساء في الأفراح، وغناء غيرهن، وغنائهن في غير الأفراح، ويغلو مَنْ يغلو في فاعِليهِ حتى يجعلهم كلَّهم فساقاً أو كفاراً»اه[٢].

ثامناً: شدة افتتان المتصوفة بالسماع:

يتبين ذلك بأمور:

أ ـ تفضيلهم السماع البدعي على السماع الشرعي:

قال الشيخ: «قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا

---

(١) الاقتضاء (١/ ٧٨ ـ ٧٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٦٢٠)، الاستقامة (١/ ٣٧).

(٢) الفتاوى (٣/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

﴿ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٩]، فالذكر خلاف الشعر؛ فإنه حق وعلم يذكره القلب، وذاك شعر يحرك النفس فقط، ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة الاعتياضُ بسماع القصائد والأشعار عن سماع القرآن والذكر؛ فإنه يعطيهم مجرد حركة حب أو غيره، من غير أن يكون ذلك تابعاً لعلم وتصديق، ولهذا يُؤْثره من يُؤْثره على سماع القرآن، ويعتل بأن القرآن حقٌّ نزل من حق، والنفوس تحب الباطل؛ وذلك لأن القول الصدق والحق: يعطي علماً واعتقاداً بجملة القلب، والنفوس المبطلة لا تحب الحق؛ ولهذا أثره باطل يتفشى من النفس، فإنه فرعٌ لا أصلَ له، ولكن له تأثير في النفس، من جهة التحريك والإزعاج والتأثير، لا من جهة التصديق والعلم والمعرفة، ولهذا يسمّون القوَّال حادياً، لأنه يحدو النفوس؛ أي يبعثها ويسوقها كما يحدو حادي العيس، وأما الحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، فإنه يعطي التصديق والعمل، فهو نافع منفعةً عظيمةً»اهـ[١].

وقال الشيخ: «(سورة الكوثر): ما أجلَّها من سورة! وأغزر فوائدها على اختصارها، وحقيقةُ معناها تُعلم من آخرها، فإنه ﷻ بتر شانِئَ رسوله من كل خير، فيبتر ذِكره وأهلَه ومالَه، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته، فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده...

وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء والقصائد والدفوف والشبابات، إذا سمعوا القرآن يُتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأي شنآن أعظم من هذا؟»اهـ[٢].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٣ ـ ٤٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٥/ ٥٠)، الاستقامة (١/ ٢٥٢)، الاقتضاء (١/ ٤٨٣).

(٢) الفتاوى (١٦/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧).

ب ـ تفضيلهم السماع البدعي على الصلاة:

قال الشيخ: «وقول الواحد من هؤلاء: «خرجنا من الحضرة إلى الباب»؛ كلمة حق أريد بها باطل، فإنهم خرجوا من حضرة الشيطان إلى باب الرحمن، كما يُحكى عن بعض شيوخ هؤلاء: أنهم كانوا في سماع، فأذَّن المؤذنُ، فقام إلى الصلاة، فقال: كنا في الحضرة، فصرنا إلى الباب! ولا ريبَ أنه كان في حضرة الشيطان، فصار على باب الرحمن، أما كونه أنه كان في حضرة الله، فصار على بابه، فهذا ممتنع عند من يؤمن بالله ورسوله؛ فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ: **(بأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد)**[1].

وقد قال النبي ﷺ: **(استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)**[2].

وفي الصحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: أنه سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: **(الصلاة على مواقيتها)**[3].

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ١/ ٣٥٠/ ٤٨٢)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود، ١/ ٢٣١/ ٨٧٥)، والنسائي (كتاب التطبيق، باب أقرب ما يكون العبد من الله، ٢/ ٢٢٦/ ١١٣٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه ابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، ١/ ١٠١/ ٢٧٧)، والدارمي (كتاب الطهارة، باب ما جاء في الطهور، ١/ ١٧٧/ ٦٦٠)، والحاكم (كتاب الطهارة، ١/ ٢٢١/ ٤٤٨)، من حديث: ثوبان رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٢٢/ ح٩٦٣).

(٣) الحديث: رواه البخاري بلفظ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، ١/ ١٩٧/ ٥٠٤)، ومسلم (بلفظ: أي الأعمال أقرب إلى الجنة؟ قال: (الصلاة على مواقيتها) كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ١/ ٩٠/ ٨٥)، والترمذي واللفظ له (كتاب: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب =

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **(أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته)**(١).

وآخر شيء وصى به النبي ﷺ أمته الصلاة وكان يقول: **(جُعلت قرةُ عيني في الصلاة)**(٢).

وكان يقول: **(أرحنا يا بلالُ بالصلاة)**(٣)، ولم يقل: أرحنا منها، فمن لم يجد قُرَّةَ عينه وراحة قلبه في الصلاة، فهو منقوص الإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال النبي ﷺ: **(رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله)**(٤).

= ما جاء في الوقت الأول من الفضل، ١/ ٣٢٥/ ١٧٣)، من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) الحديث: رواه الترمذي (كتاب: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة، ٢/ ٢٦٩/ ٤١٣) وأبو داود (كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: (كل صلاة لا يتمها صاحبها..)، ١/ ٢٢٩/ ٨٦٤)، والنسائي (كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، ١/ ٢٣٣/ ٤٦٦)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه النسائي (كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، ٧/ ٦١/ ٣٩٣٩)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (كتاب النكاح، ٢/ ١٧٤/ ٢٦٧٦)، والطبراني في المعجم الصغير (باب الفاء ـ من اسمه الفضل، ١/ ٣١٢/ ٧٤٦)، من حديث: أنس رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع ٣/ ٨٧/ ح٣١١٩).

(٣) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، ح٤٩٨٥)، والإمام أحمد (٥/ ٣٦٤، ٣٧١)، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٧٧٦٩).

(٤) الحديث: رواه الترمذي (كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ٥/ ١١/ ٢٦١٦)، وابن ماجه (كتاب الفتن، باب كف اللسان =

وهذا باب واسع، ولا ينكره مَنْ آمن بالله ورسوله»اهـ[١].

ج ـ أهل السماع البدعي، يخشعون عند سماعه، وتحضر قلوبهم أكثر مما لو سمعوا السماع الشرعي:

قال الشيخ: «وإذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوبٍ لاهيةٍ وألسُنٍ لاغيةٍ، كأنهم صمٌّ وعميٌ، وإذا سمعوا الأبيات: حضرت قلوبهم، وسكنت ألسنتهم، وسكنت حركاتهم، حتى لا يشرب العطشان منهم الماء.

ومن هؤلاء من إذا كانوا في سماعهم فأذن المؤذن، قالوا: نحن في شيء أفضل مما دعانا إليه، ومنهم من يقول: هذا في شغله وهذا في شغله، ومنهم من يقول: كنا في الحضرة، فإذا قمنا إلى الصلاة صرنا على الباب.

وقد سألني بعضهم: عمَّن قال ذلك من هؤلاء الشيوخ الضُّلّال؟

فقلت: صدق! كان في حضرة الشيطان، فصار على باب الله، فإن البدع والضلالة فيها من حضور الشيطان ما قد حصل في غير هذا الموضع»اهـ[٢].

تاسعاً: الفتنة في السماع المحرم تحصل من وجهين:

الأول: كونه بدعةً.

الثاني: ما يصاحبه من فجور.

= في الفتنة، ٢/ ١٣١٤/ ٣٩٧٣)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (كتاب الجهاد، ٢/ ٨٦/ ٢٤٠٨)، من حديث: معاذ رضي الله عنه، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع الصغير ٥/ ٢٩/ ح٥٠١٢).

(١) الفتاوى (١١/ ٥٤٠ ـ ٥٤١)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستغاثة (٢/ ٥٨٥).

(٢) الاستغاثة (٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الجواب الصحيح (٢/ ٣٤١)، المنهاج (٥/ ٣٢٨)، الاقتضاء (١/ ٦٠٢)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٩٣).

قال الشيخ: «والفتنة تحصل بالسماع من وجهين:

من جهة: البدعة في الدين.

ومن جهة: الفجور في الدنيا.

أما الأول: فَلِمَا قد يحصل به من الاعتقادات الفاسدة في حق الله، أو الإرادات والعبادات الفاسدة التي لا تصلح لله، مع ما يصد عنه من الاعتقادات الصالحة والعبادات الصالحة، تارة بطريق المضادة، وتارة بطريق الاشتغال، فإن النفس تشتغل وتستغني بهذا عن هذا.

وأما الفجور في الدنيا: فَلِما يحصل به من دواعي الزنا والفواحش، والإثم والبغي على الناس.

ففي الجملة: جميعُ المحرمات قد تحصل فيه، وهو ما ذكرها الله في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]»اهـ[1].

عاشراً: حجج الصوفية على جواز السماع، والرد عليها:

ينقسم ما احتج به المتصوفة إلى: حجج نقلية من القرآن والسنة، وحجج من نصوص كلام العلماء، وحجج وشبهات عقلية.

أولاً: الحجج النقلية:

وهي قسمان:

القسم الأول: من القرآن الكريم:

أ ـ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]، قالوا: قد مدح الله تعالى القول المسموع ـ مطلقاً ـ ما دام حسناً!.

(١) الاستقامة (١/٤٠٩ ـ ٤١٠).

قال الشيخ: «فصلٌ يتعلق بالسماع:

قال أبو القاسم القشيري[(١)] في باب السماع: «قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]».

قال أبو القاسم[(٢)]: «اللام في قوله: ﴿الْقَوْلَ﴾ تقتضي التعميم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الأحسن».

قلت: وهذا يذكره طائفة، منهم: أبو عبد الرحمن السلمي[(٣)]، وغيره.

وهو غلط باتفاق الأمة وأئمتها لوجوه:

أحدهما: أن الله ﷻ لا يأمر باستماع كل قول، بإجماع المسلمين، حتى يقال: اللام للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه، ومنه ما يكره، كما قال النبي ﷺ: (**من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة**)[(٤)]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨ ـ ٦٩].

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧). (٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧).

(٣) الغالب على الظن أن أبا عبد الرحمن السلمي ذكره في تفسيره المسمى: حقائق التفسير، وقد تقدم الكلام عنه وأنه لا يزال مخطوطاً.

(٤) الحديث: رواه ابن حبان (كتاب الحظر والإباحة، باب الاستماع المكروه وسوء الظن والغضب والفحش، ١٢/ ٤٩٨/ ٥٦٨٥)، والبخاري في الأدب المفرد (باب من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، ١/ ٣١٠/ ١١٩٢)، من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

فقد أمر سبحانه بالإعراض عن كلام الخائضين في آياته، ونهى عن القعود معهم، فكيف يكون استماع كل قول محموداً؟.

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، فجعل اللهُ المستمعَ لهذا الحديث مثل قائله، فكيف يمدح كل مستمع كل قول؟.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٢].

ورُويَ: أن ابن مسعود سمع صوت لهوٍ فأعرض عنه، فقال النبي ﷺ: **(إن كان ابن مسعود لكريماً)**[١].

فإذا كان الله تعالى قد مدح وأثنى على من أعرض عن اللغو، ومرَّ به كريماً لم يستمعه، كيف يكون استماع كل قول ممدوحاً؟.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فقد أخبر أنه يسأل العبد عن: سمعه وبصره وفؤاده، ونهاه أن يقول ما ليس له به علم، وإذا كان السمع والبصر والفؤاد كل ذلك منقسم إلى ما يؤمر به وإلى ما ينهى عنه، والعبد مسؤول عن ذلك كله، كيف يجوز أن يقال: كل قول في العالم كان فالعبد محمود على استماعه؟ هذا بمنزلة أن يقال: كل مرئيٍّ في العالم، فالعبد ممدوح على النظر إليه!.

---

(١) الحديث: أورده الغزالي في الإحياء (٣/ ٣٦١) وقال العراقي: أخرجه ابن المبارك في البر والصلة بإسناد منقطع.

ولهذا دخل الشيطان من هذين البابين على كثير من النُّسَّاك، فتوسَّعوا في النظر إلى الصور المنهي عن النظر إليها، وفي استماع الأقوال والأصوات التي نُهوا عن استماعها، ولم يكتف الشيطان بذلك حتى زين لهم أنْ جعلوا ما نُهوا عنه: عبادةً وقُربةً وطاعةً، فلم يحرِّموا ما حرم الله ورسوله ولم يدينوا دين الحق.

كما حُكيَ عن أبي سعيد الخراز أنه قال: رأيت إبليس في النوم وهو يَمُرُّ عني ناحيةً، فقلت له: تعال! ما لك؟ فقال: بقي لي فيكم لطيفةٌ: السماع، وصحبة الأحداث[1]...

الوجه الثاني: أن المراد بالقول في هذا الموضع: القرآن، كما جاء ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]، فإن القول الذي أُمروا بتدبره هو الذي أُمروا باستماعه، والتدبر: بالنظر والاستدلال والاعتبار والاستماع، فمن أمرنا باستماع كل قول، أو باستماع القول الذي لم يشرع استماعه، فهو بمنزلة من أمر بتدبر كل قول والنظر فيه، أو بالتدبر للكلام الذي لم يشرع تدبره والنظر فيه، فالمنحرفون في النظر والاستدلال بمثل هذه الأقوال من أهل الكلام المبتدع.

وذلك أن اللام في لغة العرب هي للتعريف، فتنصرف إلى المعروف عند المتكلم والمخاطب، وهي تعمُّ جميعَ المعروف، فاللام في القول تقتضي التعميمَ والاستغراق، لكن عموم ما عرفته، وهو: القول المعهود المعروف بين المخاطِب والمخاطَب.

ومعلوم أن ذلك هو القول الذي أثنى الله عليه وأمرنا باستماعه والتدبر له واتباعه؛ فإنه قال في أول هذه السورة: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٤٠٩، ط. دار الخير).

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣]، فذكر في السورة كلامه ودينه: الكلم الطيب، والعمل الصالح.

وخير الكلام: كلام الله.

وأصل العمل الصالح: عبادة الله وحده لا شريك له.

كما في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٨]، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢ ـ ٢٣].

فأثنى على أهل السماع والوجد للحديث الذي نزله، وهو أحسن الحديث، ولم يُثْنِ على مطلق الحديث ومستمعه، بل تضمَّن السياقُ الثناءَ على أهل ذِكره والاستماعِ لحديثه، كما جمع بينهما:

في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٤ ـ ٢٠٥].

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ ـ ٢٨].

فذكر القرآن، وبيَّن أنه قدر فيه من جميع المقاييس والأمثال المضروبة لأجل التذكير، فدعا هنا إلى التذكير والاعتبار بما فيه من الأمثال، وذلك يتضمن النظر والاستدلال والكلام المشروع، كما أنه في الآية الأولى أثنى على أهل السماع له والوجد، وذلك يتضمن السماع والوجد المشروع.

ثم قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢ ـ ٣٣]، ذكر البخاري في (صحيحه): تفسيرَ مجاهد ـ وهو أصح تفسير التابعين ـ قال: «والذي جاء بالصدق: القرآن، وصدَّق به: المؤمن يجيء يوم القيامة يقول: هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه»[1]، فذَكَر الصدق والمصدِّق به مثنياً عليه، وذكر الكاذب والمكذب للحق، وهما نوعان من القول ملعونان هما وأهلها، فكيف يكون مثنياً على من استمعها؟

ولا ريب أن البدعة الكلامية والسماعية المخالفة للكتاب والسنة تتضمن الكذب على الله والتكذيب بالحق، كالجهمية الذين يصفون الله بخلاف ما وصف به نفسه؛ فيفترون عليه الكذب، أو يروون في ذلك آثاراً مضافة إلى الله، أو يضربون مقاييسَ ويسندونها إلى العلوم الضرورية والمعقول الصحيح الذي هو حق من الله وكل ذلك كذب ويكذبون بالحق لما جاءه وهو ما ورد به الكتاب والسنة من الخبر بالحق والأمثال المضروبة له، وكذلك كثير من الأشعار التي يسمعها أهل السماع قد يتضمن من الكذب على الله والتكذيب بالحق أنواعاً.

ونفس الانتصار لما خالف الشريعة من السماع وغيره يتضمن

(١) صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب تفسير سورة الزمر، ٤/ ١٨١).

الكذب على الله؛ مثل أن يقول القائل: إن الله أراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨]، مستمع كل قول في العالم، فهذا كذب على الله وإن كان قائله منا، ولأنهم يكذبون بالحق المخالف لأهوائهم.

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، فأخبر أنه أنزل القول الذي هو الكتاب بالحق وأن المهتدى لنفسه هداه وضلاله على نفسه والرسول ليس بوكيل عليهم، يحصي أعمالهم ويجزيهم عليها؛ بل إلى الله إيابهم وعلى الله حسابهم.

ثم قال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥]، وهذا الأحسن هنا هو الأحسن الذي في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، وفي قوله لموسى عن التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، كما سنذكره إن شاء الله.

ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧١ ـ ٧٤]، مع قوله: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

فجعل الفرقان بين أهل الجنة والنار هؤلاء الآيات التي تلتها الرسل عليهم، فمن استمعها واتبعها كان من المؤمنين أهل الجنة، ومن أعرض عنها كان من الكافرين أهل النار.

والكتاب هو الذي جعله الله حاكماً بين الناس كما قال: ﴿وَأَنزَلَ

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فهذا كله إذا تدبره المؤمن علم علماً يقيناً أن الكتاب والقول والحديث وآياتِ الله كل ذلك واحد، والمحمودون الذين أثنى الله عليهم هم المتَّبعون لذلك استماعاً وتدبُّراً وإيماناً وعملاً، أما مدح الاستماع لكل قول، فهذا لا يقصده عاقل، فضلاً عن أن يفسَّر به كلام الله.

وهذا يتوكد بِ:

الوجه الثالث: وهو أن الله في كتابه إنما حمِد استماع القرآن، وذم المعرضين عن استماعه، وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم، فأما مدحه لاستماع كل قول فهذا شيء لم يذكره الله قط.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقال الله تعالى في ذم المعرضين عنه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١]، قال غير واحد من السلف: هو الغناء، فقال: اسمد لنا؛ أي: غنِّ لنا[(١)].

فذم المعرض عما يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء، كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وحال كثير من المتنسكة في اعتياضهم بسماع المكاء والتصدية عن سماع قول الله تعالى.

---

(١) قال الإمام الشوكاني في تفسيره (٥/ ١٦٧) عند كلامه عن معنى قوله تعالى: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾: «السمود: الغفلة والسهو عن الشيء. وقال في الصحاح: سمد سموداً: رفع رأسه تكبُّراً، فهو سامد؛ قال الشاعر:

سوامد الليل خفاف الأزواد

وقال ابن الأعرابي: السمود: اللهو، والسامد: اللاهي، يقال للقينة: أسمدينا: أي: ألهينا بالغناء، وقال المبرد: سامدون: خامدون. قال الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل عمرو ... بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعورهن السود بيضاً ... ورد وجوههن البيض سودا

وانظر: تفسير البغوي (١/ ٤٢١)، أنوار التنزيل للبيضاوي (١/ ٢٦٢)، القرطبي (١٧/ ١٠٩).

ومثل هذا: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧] ثم قال: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

الوجه الرابع: أنهم لا يستحسنون استماعَ كلِّ قول منظوم ومنثور؛ بل هم من أعظم الناس كراهةً ونُفرةً لما لا يحبونه من الأقوال، منظومها ومنثورها، ونفورهم عن كثير من الأقوال أعظم من نفور المنازع لهم في سماع المكاء والتصدية عن هذا السماع، وإذا لم يكن العموم مراداً بالاتفاق كان حمل الآية عليه باطلاً.

الوجه الخامس: أنه قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]، فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه.

ومعلوم أن كثيراً من القول ليس فيه حسنٌ، فضلاً عن أن يكون فيه أحسن؛ بل فيه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال: ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١].

وهو قد استدل بقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، على العموم، وهو حجة على صدق ذلك كما تقدم.

وقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ كقوله في هذه السورة: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، فهذه الكلمة مثل هذه الكلمة سواء بسواء.

وهذا من معاني تشابه القرآن كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فاتباع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو اتباع أحسن القول.

وبهذا أمر بني إسرائيل، حيث قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]»اهـ[1].

---

(١) الاستقامة (١/٢١٦ ـ ٢٣٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستغاثة (٢/٥٨٩).

ب ـ قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

قال المتصوفة: هو السماع في الجنة، فإذا جاز هناك فما الذي يمنعه هنا؟!

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[١]: «وقال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]، جاء في التفسير أنه: السماع».

قلت: فهذا قد ورد عن طائفة من السلف: أنه السماع الحسن في الجنة[٢]، وأن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بأحسن منها، لكن تنعيم الله تعالى لعباده بالأصوات الحسنة في الجنة واستماعها، لا يقتضي أنه يشرع أو يبيح سماعَ كل صوت في الدنيا، فقد وعد في الآخرة بأشياء حرمها في الدنيا، كالخمر والحرير وأواني الذهب والفضة.

بل قال: **(من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة)**[٣].

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧).

(٢) قال الإمام البغوي في تفسيره (١/ ٢٤٦) عند كلامه عن معنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾: «وهي البستان الذي في غاية النضارة، ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: يكرمون. وقال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال أبو عبيدة: يسرون. والحبرة: السرور.
وقيل: الحبرة في اللغة: كل نعمة حسنة، والتحبير التحسين. وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: تحبرون هو السماع في الجنة. وقال الأوزاعي: إذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة إلا وردت»اهـ.
وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٧)، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣١٠)، تفسير القرطبي (١٤/ ١٣).

(٣) الحديث: رواه ابن ماجه (كتاب الأشربة، باب من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ٢/ ١١٩)، والنسائي (كتاب الأشربة، باب الرواية في المدمنين في الخمر، ٨/ ٢٨٥) من حديث: ابن عمر رضي الله عنه.

وقال: **(من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)**[(١)].

وقال: **(لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)**[(٢)]، وهذه الأحاديث من الصحاح المشاهير المجمع على صحتها، فقد أخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرها لم يستعمله في الآخرة.

فلو قيل له: هذا السماع الحسن الموعود به في الجنة هو لمن نزّه مسامعه في الدنيا عن سماع الملاهي، لكان هذا أشبهَ بالحق والسنة، وقد ورد به الأثر: **(يقول الله يوم القيامة: أين الذين كانوا ينزِّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشياطين، أدخلوهم، وأسمعوهم تحميدي وتمجيدي والثناء عليَّ، وأخبروهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)**[(٣)]»اهـ[(٤)].

القسم الثاني: ما رووه من أحاديثَ في أن رسول الله ﷺ سمع السماع، أو أقَرَّه:

أ ـ حديث: الأعرابي الذي أنشد أمام النبي ﷺ، فتواجد رسولُ الله ﷺ حتى سقطت بردتُه من على كتفه!.

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب اللباس، باب لبس الحرير وافتراشه للرجال، ٥/ ٢١٩٤/ ٥٤٩٥) من حديث: حذيفة رضي الله عنه، ومسلم (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة، ٣/ ١٦٤٥/ ٢٠٧٣) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب اللباس، باب لبس الحرير وافتراشه للرجال، ٥/ ٢١٩٤/ ٥٤٩٣)، ومسلم (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة، ٣/ ١٦٤٥/ ٢٠٧٣) من حديث: حذيفة رضي الله عنه.

(٣) الأثر: أخرجه ابن أبي الجعد في مسنده (١/ ٢٥٤)، وأبو نعيم في الحلية بسنده (٣/ ١٥١) عن محمد بن المنكدر.

(٤) الاستقامة (١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

قال الشيخ: «ومن غلط بعضهم توهُّمه أن النبي ﷺ والصحابة والتابعين حضروا هذا السماع، سماع المكاء والتصدية والغناء والتصفيق بالأكُفِّ، حتى روى بعض الكاذبين أن النبي ﷺ أنشده أعرابي شعراً! قوله:

قد لسعت حية الهوى كبدي … فلا طبيبٌ لها ولا راقي

سوى الحبيب الذي شغفت به … فمنه دائي ومنه ترياقي

وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، وقال: **(ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب)**[1].

---

(١) الحديث: أورده السهروردي البغدادي في كتابه (عوارف المعارف، ص١٤٦ - ١٤٧، ط. مكتبة العلامية، القاهرة، ١٣٥٨هـ) وقال السهروردي بعده: «فهذا الحديث أوردناه مسنداً كما سمعناه ووجدناه، وقد تكلم في صحته أصحاب الحديث، وما وجدنا شيئاً نُقل عن رسول الله ﷺ يشاكل وَجْدَ أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان في سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها إن لو صحّ - والله أعلم - ويخالج سري أنه غير صحيح، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبي ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه، على ما بلغنا في هذا الحديث، ويأبى القلبُ قبولَه، والله أعلم بذلك»اهـ.
وقال الحافظ الجهبذ الناقد الإمام الذهبي (ميزان الاعتدال ٣/ ١٦٤): «عمار بن إسحاق عن سعيد بن عامر الضبعي كأنه واضع هذه الخرافة التي فيها قد لسعت حية الهوى كبدي»اهـ.
وذكر الحديث محمد بن علي بن طاهر الهندي الفتني في كتابه (تذكرة الموضوعات، ص١٩٧ - ١٩٨) وبين أن الحديث مرسل عن أنس ﷺ، وقال بعد إيراده الحديث: «قال أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ: تفرد به أبو بكر عمار بن إسحاق عن سعيد بن عامر، وقال أبو موسى المديني: لا أصل لهذا الحديث بهذا السياق، والظاهر أنه موضوع، وقد سمعتُ غير واحد من أهل العلم عاب المقدسيَّ بإيراده هذا الحديث في كتابه، وأورده السهروردي في العوارف وقال: يخالج سري أنه غير صحيح، وقد تكلم فيه أصحاب =

وهذا الحديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله ﷺ وسنته وأحواله»اهـ[١].

ب ـ حديث: الرجل الذي أنشد أمام النبي ﷺ شعر غزل، فوافقه النبي ﷺ وقال له: (لا حرج إن شاء الله)!! ولم ينكر عليه.

قال الشيخ مبيناً احتجاجهم بهذا الحديث، ورادًّا عليهم:

«وقال أبو القاسم[٢]: وقد رُوي أن رجلاً أنشد بين يدي النبي ﷺ فقال:

أقبلت فلاح لها عارضان كالسبج ... أدبرت فقلت لها والفُؤاد في وهج

هل على ويحكم إن عشقت من حرج

= الحديث، والقلب يأبى قبوله، وقال سيف الدين: لا تعصب أبلغ من إيراد الحديث الذي لا يخفى وضعه على الجهال، فلو خبت يداه عن كتابته لكان خيراً له، وقد وقفت على استفتاء فيه أفتى الإمام عبد الرحمن المقدسي بأن هذا الحديث غير صحيح؛ لأن محمد بن طاهر ـ وإن كان حافظاً ـ لكنهم تكلموا فيه ونسبوه إلى الإباحة، وله كتاب في صفة التصوف روى فيه عن أئمة الدين حكاياتٍ باطلةً، مع أن هذا لا يناسب شعر العرب، وإنما يليق بالمولَّدين، وكذلك ألفاظ متن الحديث لا يليق بكلام النبي ﷺ ولا بكلام أصحابه، وكذلك معناه لا يليق بأحوالهم من الجد والاجتهاد، وكذلك تمزيق أربعمائة قطعة لا يليق بهم، وأفتى النووي فيه أنه باطل لا يحل روايته، ويُعَزّر من رواه عالماً بحاله»اهـ.

وقد بيّن بطلان هذا الحديث وفساد الاستدلال به شارح كتاب الإحياء محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، ورد على من صحَّحه من وجوه (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٦/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).

(١) الفتاوى (١١/ ٥٩٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ١٦٨، ٥٦٣، ٢٢/ ٣٦٢)، الفرقان (ص١٣)، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٩٥)، الاستقامة (١/ ٢٩٦).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤١).

فقال رسول الله: **(لا حرج إن شاء الله)**[(١)].

قلت: هذا الحديث موضوع، باتفاق أهل المعرفة بالحديث، لا أصل له وليس هو في شيء من دواوين الإسلام، وليس له إسناد...

وكذلك ما يُروَى من أنهم تواجدوا، وأنهم مزقوا الخرقة! ونحو ذلك، كل ذلك كذب»اهـ[(٢)].

ج ـ حديث: أن النبي ﷺ بشّر الفقراء بفضلهم على الأغنياء، فتواجدوا!!

قال الشيخ: «حديث آخر يذكرون فيه: أنه لمَّا بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا! وخرقوا ثيابهم! وأن جبرائيل نزل من السماء، فقال: يا محمد! إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق! فأخذ منها خرقة فعلقها بالعرش[(٣)]، وأن ذلك هو زِيق[(٤)] الفقراء.

وهذا وأمثاله إنما يرويه مَنْ هو مِنْ أجهل الناس بحال النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم، ومعرفة الإسلام والإيمان»اهـ[(٥)].

د ـ حديث: (ما أذِن الله لشيء كأذَنِه لنبيٍّ يتغنى بالقرآن)[(٦)].

---

(١) في القشيرية: لا (بدون عبارة: لا حرج إن شاء الله)، ولم أجد هذا الحديث في شيء من كتب السنة.

(٢) الاستقامة (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

(٣) الحديث: لم أقف عليه في شيء من كتب السنة.

(٤) زيق ـ بكسر الزاي وسكون الياء ـ: هو الزينة، وزيق القميص: ما أحاط بالعنق منه، وتزيّق: تزيَّن واكتحل. انظر: مادة زيق، في: القاموس (ص١١٥٢).

(٥) الفتاوى (١١/ ٥٦٣).

(٦) الحديث: رواه البخاري (كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغنّ بالقرآن، ٤/ ١٩١٨/ ٤٧٣٦)، ومسلم واللفظ له (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ١/ ٥٤٩/ ٧٩٢) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

قال المتصوفة: يُقاس عليه سماعُ القصائد، فلا بأس بتحسين الصوت فيها!.

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[١]: «وقال النبي: **(ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن)**»، وروى حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: **(ما أذن الله لشيء ما أذن الله لنبي يتغنى بالقرآن)**.

قال[٢]: «وقيل: إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجنُّ والإنسُ والوحشُ والطيرُ إذا قرأ الزبور، وكان يُحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته[٣]، وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: **(لقد أُعطِيَ مزماراً من مزامير آل داود)**[٤]، وقال أبو موسىٰ الأشعري لرسول الله ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً»[٥].

قلت: هذا القول لأبي موسى كان، لم يكن لمعاذ. ومضمون هذه الآثار: استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وهذا مما لا نزاع فيه،

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٢). (٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٢).

(٣) الأثر: عن ابن إسحاق عن وهب بن منبه اليماني موقوفاً عليه بلفظ: أمر الله الجبال والطير أن تسبح مع داود إذا سبح، وعلَّمه صنعة الحديد، وأنزل عليه الزبور، وكان إذا قرأ الزبور تجتمع له الوحوش حتى تؤخذ بأعناقها تستمع لصوته.

أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٠٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٠٦)، والطبري في التاريخ (١/ ٢٨٢) وفي التفسير (٢٣/ ١٤٩)، وأورده القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢٦٥)، وابن كثير في التفسير (٣/ ٥٢٨).

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ٤/ ١٩٢٥/ ٤٧٦١)، من حديث: أبي موسى رضي الله عنه، ومسلم (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ١/ ٥٤٦/ ٧٩٣) من حديث: عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٥) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٧).

فالاستدلال بذلك على تحسينه بالغناء أفسدُ من قياس الربا على البيع، إذ هو من باب تنظير الشعر بالقرآن، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥ ـ ٢٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٤٢].

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية ـ الذي ذمَّه الله في كتابه، وأخبر أنه صلاة المشركين ـ على سماع القرآن ـ الذي أمر الله به في كتابه وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين ـ وقياسٍ لأئمة الصلاة ـ كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين ـ بالمخنَّثين المغاني، الذين قد يُسَمَّون الجدّ أو القوّالين، وقياسٍ للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن، بالمزمار الداعي إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية.

وقد روى الطبراني[1] في معجمه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: (**إن الشيطان قال: يا رب اجعل لي قرآناً! قال: قرآنك الشعر، قال: اجعل لي مؤذناً! قال: مؤذنك المزمار، قال: اجعل لي كتابةً! قال: كتابتك الوشم، قال: اجعل لي بيتاً! قال: بيتك الحمَّام، قال: اجعل لي طعاماً!**

---

(١) هو سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، أبو القاسم الطبراني، نسبة إلى طبرية في بلاد فلسطين، ولد سنة ٢٦٠هـ، ورحل في طلب العلم ثلاثاً وثلاثين سنة، لقي فيها الكثير، وروى عن الكثير، قال الذهبي عنه: «الإمام الحافظ الثقة الرحال الجوال، محدث الإسلام، عالم المعمرين»اهـ، له مصنفات منها: المعاجم الثلاثة: الكبير والصغير والأوسط، توفي سنة ٣٦٠هـ.

انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٠٧)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٩١٢)، سير الأعلام (١٦/ ١١٩)، لسان الميزان (٣/ ٧٣)، تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٢٤٢)، الرسالة المستطرفة للكتّاني (ص٣٨، ط. دار البشائر، بيروت، الرابعة ١٤٠٦هـ).

قال: طعامُك ما لم يذكر اسم الله عليه)[١]، فمن قاس قرآن الشيطان بقرآن الله، فالله يجازيه بما يستحقه.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]، فهؤلاء يشتغلون بالشهوات عن الصلاة.

ولهذا: فإن من هؤلاء الشيوخ من يقصد الاجتماعات في الحمَّام! ويكون له فيها حال وظهور؛ لكونه مادته من الشياطين؛ فإن الشيطان يظهر أثره في بيته وعند أوليائه وتأذين مؤذنه وتلاوة قرآنه، كما يظهر ذلك على أهل المُكاء والتصدية»اهـ[٢].

هـ ـ ما ورد من استماع النبي ﷺ إلى الأشعار ـ مطلقاً ـ:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[٣]: «واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة، والنغم المستلذَّة ـ إذا لم يعتقد المستمع محظوراً، ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم ينجرَّ في زمان هواه، ولم ينخرط في سلك لهوه ـ مباحٌ في الجملة. ولا خلاف أن الأشعار أُنشدت بين يدي

---

(١) الحديث: رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٠٣)، وذكره السيوطي في الجامع الكبير (١/ ٦٠٢)، والهيثمي في المجمع (باب في إبليس وجنوده، ١/ ١١٤، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه يحيى بن صالح الأيلي، ضعفه العقيلي)، ولفظه عندهم: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال إبليس لربه: يا رب، أهبطت آدم، وقد علمتُ أنه سيكون كتابٌ ورسلٌ فما كتابهم ورسلهم؟ قال: رسلهم الملائكة، والنبيون منهم، وكتبهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، قال: فما كتابي؟ قال: كتابك: الوشم، وقرآنك: الشعر، ورسلك: الكهنة، وطعامك: ما لا يذكر اسم الله عليه، وشرابك: كل مسكر، وصدقك: الكذب، وبيتك: الحمَّام، ومصايدك: النساء، ومؤذنك، المزمار، ومسجدك: الأسواق).

(٢) الاستقامة (١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧).

النبي ﷺ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة، فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان، هذا ظاهر من الأمر، ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات، وتذكر ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات، ويحمله على التحرُّز من الزَّلَّات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحبٌّ في الدين ومختار في الشرع».

قال(١): «وقد جرى على لفظ الرسول ﷺ ما هو قريب من الشعر، وإن لم يقصد أن يكون شعراً».

وذكَرَ الحديثَ المتفقَ عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت الأنصار يحفرون الخندق، فجعلوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله ﷺ:

(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فأكرم الأنصار والمهاجرة)(٢)

وقال(٣): «ليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشعر».

قلت: تضمَّن هذا الكلام شيئين:

أحدهما: إباحة سماع الألحان والنغمات المستلذَّة، بشرط ألا يعتقد المستمع محظوراً، وألا يسمع مذموماً في الشرع، وألا يتبع منه هواه.

والثاني: أن ما أوجد للمستمع الرغبة في الطاعات والاحتراز من الذنوب، وتذكر وعد الحق، ووصول الأحوال الحسنة إلى قلبه: فهو مستحبٌّ.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٧).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢١٦).
(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٣٨).

وعلى هاتين المقدمتين بنى من قال باستحباب ذلك، مثل أبي عبد الرحمن السلمي وأبي حامد[١] وغيرهما، وفي هؤلاء من قد يوجبه أحياناً، إذا رأوْا أنه لا يؤدَّى الواجبُ إلا به»اهـ[٢].

القسم الثالث: الحجة الثانية من احتجاجات المتصوفة على جواز السماع:

ما نقلوه عن بعض العلماء والمشايخ المعتبَرين، في جواز السماع، أو مدحه. وقبل الشروع في ذكر ما احتجَّ به المتصوفة من أفعال الأئمة وأقوالهم على جواز السماع، أُقَدِّم بذِكْر أصل عامٍّ بيّنه شيخ الإسلام في الاحتجاج بأفعال الرجال واجتهاداتهم، وأن ذلك كلَّه يُوزن بميزان الكتاب والسنة، فما وافقهما قُبل، وما خالفهما رُدَّ:

قال الشيخ: «والذين شهدوا هذا اللغو ـ متأولين ـ من أهل الصدق والإخلاص والصلاح غمرت حسناتُهم ما كان لهم فيه وفي غيره من السيئات، أو الخطأ في مواقع الاجتهاد، وهذا سبيل كلِّ صالحي هذه الأمة، في خطئهم وزلاتهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ ـ ٣٥]، وذلك كالمتأولين في تناول المسكِر من صالحي أهل الكوفة ومن اتَّبعهم على ذلك، وإن كان المشروب خمراً، لا يشك في ذلك مَنِ اطَّلع على أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة، وكذلك المتأولون للمتعة والصَّرف[٣] من أهل مكة، متَّبعين لِمَا كان يقوله ابن عباس رضي الله عنه وإن كان

(١) تقدم نقل كلام الغزالي في ذلك ـ مجملاً ـ وسيأتي ذكر نص كلامه بطوله (ص٦١٠).

(٢) الاستقامة (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦).

(٣) تقدم بيان مراد الشيخ بذلك (١/ ١٥٤).

قد رجع عن ذلك، أو زادوا عليه؛ إذ لا يشك في ذلك، وأنه من أنواع الربا المحرم والنكاح المحرَّم، من اطلع على نصوص النبي ﷺ.

وكذلك المتأوِّلون في بعض الأطعمة والحشوش من أهل المدينة[١]، وإن كان لا يشكُّ في تحريم ذلك من اطلع على نصوص النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك ما دخل فيه من دخل من السابقين والتابعين من القتال في الفتنة والبغي بالتأويل[٢]، مع ما عُلم في ذلك من نصوص الكتاب والسنة من ترك القتال والصلح، فما تأوَّل فيه قوم من ذوي العلم والدين من مطعوم أو مشروب، أو منكوح أو مملوك، أو مِمَّا قد علم أن الله قد حرَّمه ورسوله لم يجز اتِّباعُهم في ذلك ـ مغفوراً لهم ـ وإن كانوا خيارَ المسلمين، والله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان، كما دل عليه الكتاب والسنة، وهو سبحانه يمحو السيئات بالحسنات، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وبهذا يحصل الجواب عما ذكره الشيخ أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب) حيث ذكر: أنه مَنْ أنكر السماع مطلقاً غيرَ مقيَّدٍ، فقد أنكر على سبعين[٣] صديقاً[٤]، ولعل الإنكار اليوم يقع على خلق عظيم من الصديقين، لكن يقال: الذين أنكروا ذلك أكثر من سبعين صديقاً وسبعين صديقاً وسبعين صديقاً، وهم أعظم علماً وإيماناً وأرفع درجةً، فليس الانتصار بطائفة من الصديقين على نظرائهم، لا سيما مَنْ هو أكبر وأكبر بأدل من العكس.

---

(١) تقدم بيان مراد الشيخ بذلك (١/ ١٥٤).

(٢) تقدم بيان مراد الشيخ بذلك (١/ ١٥٤).

(٣) في قوت القلوب: تسعين، كما سيأتي نقل نص كلامه.

(٤) قال أبو طالب في قوت القلوب (٢/ ١٠١) بعد كلام له في مدح السماع: «وإنما ذكرنا هذا؛ لأنه كان طريقاً لبعض المحبين، وحالاً لبعض المشتاقين، فإن أنكرناه مجملاً، فقد أنكرنا على تسعين صادقاً من خيار الأمة، وقد دخل فيه غيرُ أهله، فأحالوه عن وُجهته، وعدلوا به عن قصده..»اهـ.

فإن القائل إذا قال: مَنْ شرع هذا السماع المحدث، وجعله مما يُتَقَرَّبُ به، فقد خالف جماهير الصديقين من هذه الأمة وردَّ عليهم، كان قوله أصحَّ وأقوى في الحجة، دع ما سوى ذلك.

وهنا أصل يجب اعتماده:

وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة، ولم يعصم آحادها من الخطأ، لا صِدِّيقاً ولا غير صدِّيق، لكن إذا وقع بعضها في خطأ، فلا بد أن يقيم الله فيها من يكون على الصواب في ذلك الخطأ، لأن هذه الأمةَ شهداءُ على الناس، وهم شهداء الله في الأرض، وهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر، فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأوِّلاً، فلا بد أن يكون فيها من يأمر بذلك المعروف.

فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصِّدِّيقين في مسألة نازعهم فيها أعدادهم فباطل؛ بل لو كان المنازع لهم أقلَّ منهم عدداً وأدنى منزلةً، لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنه بذلك أُمِرت الأمةُ.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، فإذا تنازعت الأمة وولاة الأمور من الصديقين وغيرهم، فعليهم جميعِهم أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله.

ومن المعلوم أن الصديقين الذين أباحوا بعض المسكر كانوا أسبقَ من هؤلاء وأكثرَ وأكبرَ، وكذلك الذين استحلوا المتعة والصرف وبعض المطاعم الخبيثة والحشوش، والذين استحلوا القتال في الفتنة، متأوِّلين معتقدين أنهم على الحق وغير ذلك، هم أسبقُ من هؤلاء وأكثرُ وأكبرُ.

فإذا نُهي عما نهى الله عنه ورسوله لم يكن لأحد أن يقول: هذا

إنكار على كذا وكذا رجلاً من السابقين والتابعين، فإن هذا الإنكار كان من نظرائهم ومن هو فوقَهم، أو قريباً منهم، وعند التنازع فالمَرَدُّ إلى الله ورسوله.

ولكن من ذهب إلى القول المرجوح ينتفع به في عذر المتأولين؛ فإن عامة ما حرمه الله؛ مثل: قتل النفس بغير حق، ومثل: الزنا والخمر والميسر، والأموال والأعراض، قد استحل بعض أنواعه طوائفُ من الأمة بالتأويل، وفي المستحلِّين قوم من صالحي الأمة وأهل العلم والإيمان منهم.

لكن المستحل لذلك لا يعتقد أنه من المحرمات، ولا أنه داخل فيما ذمَّه الله ورسوله، فالمقاتل في الفتنة متأوِّلاً لا يعتقد أنه قتَلَ مؤمناً بغير حق، والمبيحُ للمتعة والحشوش ونكاح المحلل لا يعتقد أنه أباح زناً وسفاحاً، والمبيحُ للنبيذ المتأول فيه ولبعض أنواع المعاملات الربوية وعقود المخاطرات، لا يعتقد أنه أباح الخمر والميسر والربا.

ولكن وقوعُ مثل هذا التأويل من الأئمة المتبوعين، أهل العلم والإيمان، صار من أسباب المحن والفتنة، فإن الذين يعظِّمونهم قد يقتدون بهم في ذلك، وقد لا يقفون عند الحد الذي انتهى إليه أولئك، بل يتعدَّون ذلك ويزيدون زياداتٍ لم تصدرُ من أولئك الأئمة السادة، والذين يعلمون تحريم جنس ذلك الفعل قد يعتدون على المتأولين بنوع من الذم فيما هو مغفور لهم، ويتبعهم آخرون، فيزيدون في الذم ما يستحلُّون به من أعراض إخوانهم وغير أعراضهم ما حرمه الله ورسوله، فهذا واقع كثير في موارد النزاع الذي وقع فيه خطأ من بعض الكبار.

واعتبر ذلك بمسألة السماع التي تكلَّمنا فيها:

فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عمَّا لم يشرعْه؛ حيث أكمل الدين، وأتمَّ عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً، وهو سماع

القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم، وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين، حتى كان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقون يسمعون، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى ذكّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون[١]؛ وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع، وإنما ذكرنا هنا نكتاً تتعلق بالسماع»اهـ[٢].

أمَّا ما احتجَّ به المتصوفة من كلام العلماء على جواز السماع، فيمكن بيانه فيما يلي:

أ ـ ما نقلوه عن الشافعي رحمه الله:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[٣]: «واستلذاذُ القلوب واشتياقُها إلى الأصوات الطيبة، واسترواحُها إليها، مما لا يمكن جحودُه، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة، فيُهوَّن عليه بالحداء، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

وحكى إسماعيل بن علية، قال: «كنت أمشي مع الشافعي رحمه الله[٤] وقت الهاجرة، فجُزْنا بموضع يقول فيه أحد شيئاً:

فقال: مِلْ بنا إليه.

ثم قال: أيطربُك هذا؟

فقلت: لا.

---

(١) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٧).

(٢) الاستقامة (١/٢٩٧ ـ ٣٠٢).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/٦٤١ ـ ٦٤٢).

(٤) في القشيرية: رحمه الله تعالى.

قلت: ما لك حِسٌّ».

قلت: قد كان مستغنياً عن أن يستشهد على الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعي، فإن إسماعيل بن عُلَيَّة شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه، ولم يرو هذا عن الشافعي؛ بل الشافعي روى عنه، وهو من أجلاء شيوخ الشافعي، وابنه إبراهيم بن إسماعيل[1] كان متكلماً تلميذاً لعبد الرحمن بن كيسان الأصم أحد شيوخ المعتزلة[2]، وكان قد ذهب إلى مصر، وكان بينه وبين الشافعي مناوأةٌ، حتى كان الشافعي يقول فيه: أنا مُخالِف لابن عُلَيَّة في كل شيء، حتى في قَوْلِ: لا إله إلا الله؛ لأني أقولُ: لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء الحجاب، وهو يقول: لا إله إلا الله الذي خلق في الهواء كلاماً يسمعه موسى؛ وهذا يذكر له أول رسالة في أصول الفقه، ويظن بعض الناس أن ابنه يشتبه بأبيه، فإنه شيخ الشافعي وأحمد وطبقتهما.

فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس: ولو صحَّت عمَّن صحَّت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرك بالإحساس، من

---

(١) هو إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم، أبو إسحاق البصري الأسدي، المعروف بابن علية، كان أحد المتكلمين، وممن يقول بخلق القرآن، وجرت له مع الشافعي مناظراتٌ ببغداد وبمصر، قال الذهبي عنه: «العلامة المتكلم، أحد مشايخ الجهمية»اهـ. توفي سنة ٢١٨هـ.
انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢١)، سير الأعلام (١٠/ ٥٤٢)، لسان الميزان (١/ ٣٤).

(٢) هو عبد الرحمن بن كيسان بن جرير، أبو بكر الأصم، المعتزلي، صاحب المقالات في الأصول، ذكره عبد الجبار الهمداني في طبقاتهم، وقال: كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم، وله تفسير عجيب، ومن تلامذته: إبراهيم بن إسماعيل بن علية. قلت: وهو من طبقة أبي الهذيل العلاف وأقدم منه.
انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٣٤٣)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٥/ ٢٨٠)، الثقات لابن حبان (٧/ ٨٥)، الكاشف للذهبي (١/ ٦٤١)، تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٣)، لسان الميزان (٣/ ٤٢٧).

أن الصوت الطيب لذيذ مطرب، وهذا يشترك فيه جميع الناس، ليس هذا من أمور الدين، حتى يستدل فيه بالشافعي، بل ذكر الشافعي في مثل هذا غضٌّ من منصبه. . .

وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين، ولو حكى مثلَ هذا عن إسحاق بن إبراهيم النديم[(١)] وأبي الفرج الأصبهاني صاحب (الأغاني)[(٢)]، لكان أنسبَ من أن يحكيها عن الشافعي»اهـ[(٣)].

ب ـ ما نقلوه عن الجنيد رحمه الله:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[(٤)]: «.. سمعت الجنيد يقول ـ وسئل: ما بال الإنسان يكون هادئاً، فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله لمَّا خاطب الذَّرَّ في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، استفرغت عذوبةُ سماع الكلام الأرواحَ، فإذا سمعوا السماع حرَّكهم ذكر ذلك!»[(٥)].

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان الموصلي، النديم الأديب، قال ابن كثير: «جمع من كل فن يعرفه عصره، في الفقه والحديث والجدل والكلام واللغة والشعر، ولكن اشتهر بالغناء؛ لأنه لم يكن له في الدنيا نظيرٌ فيه، قال المعتصم: إن إسحاق إذا غنى يخيل لي أنه قد زيد في ملكي، وله شعر حسن وديوان كبير، غنى يوماً ليحيى بن خالد بن برمك، فوقَّع له بألف ألف، ووقّع له ابنه جعفر بمثلها، وابنه الفضل بمثلها»اهـ، توفي سنة ٢٣٥هـ.
انظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٢٤، حوادث سنة ٢٣٥هـ).

(٢) هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصبهاني الأموي، أبو الفرج، من ذرية محمد بن مروان بن الحكم الأموي، كان شيعياً، وقد ملأ كتابه الأغاني بدسائس الشيعة، توفي سنة ٣٥٦هـ.
انظر: الكامل لابن الأثير (٨/ ٥٨٠).

(٣) الاستقامة (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٣).

(٥) ذكر الكلاباذي في التعرف لمذهب التصوف (ص١٦٠) كلاماً عن رويم الصوفي قريباً من هذا، فقال: «قال أبو محمد رويم: إن القوم سمعوا الذكر الأول حين =

قلت: هذا الكلام لا يُعلم صحتُه عن الجنيد، والجنيد أجلُّ من أن يقول مثل هذا؛ فإن هذا الاضطراب يكون لجميع الحيوانِ، ناطقِه وأعجمِه حتى يكون في البهائم أيضاً، ويكون للكفار والمنافقين، ثم الاضطراب قد يكون لحلاوة الصوت ومحبته، وقد يكون للخوف منه وهيبته، وقد يكون للحزن والجزع، وقد يكون للغضب.

ثم من المعلوم: أن الصوت المسموع ليس هو ذاك أصلاً، ولو سمِع العبد كلام الله كما سمعه موسى بن عمران، لم يكن سماعه لأصوات العباد محركاً لذكر ذلك، بل المأثور أن موسى مقت الآدميين لِمَا وقر في مسامعه من كلام الله.

ثم التلذُّذ بالصوت أمر طَبَعِيٌّ لا تعلُّق له بكونهم سمعوا صوت الرب أصلاً، ثم إن أحداً لا يذكر ذلك السماع أصلاً، إلا بالإيمان، والناس متنازعون في أخذ الميثاق، وفي ذلك السماع، بما ليس هذا موضعه.

ثم إن مذهب الجنيد في السماع: كراهةُ التكلف لحضوره والاجتماع عليه، وعنده أن من تكلَّف السماع فُتِنَ به، فكيف يعلله بهذا؟.

وقد ذكر أبو القاسم ذلك، فقال[1]: «.. سمعت الجنيد يقول: «السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه».

فأخبر أنه فتنة لمن قصده، ولم يجعله لمن صادفه مستحباً ولا طاعةً؛ بل جعله راحةً، فكيف يقول: إنه أظهر خطاب الحق

= خاطبهم بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فكمن ذلك في أسرارهم كما كمن كون ذلك في عقولهم، فلما سمعوا كوامن أسراهم فانزعجوا كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك فصدقوا»اهـ.

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٤).

المتقدم؟»اهـ[١].

وقال الشيخ: «قال أبو القاسم[٢]: «عن الجنيد إنه قال: «تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع؛ فإنهم لا يسمعون إلا عن حق، ولا يقومون إلا عن وجد، وعند أكل الطعام؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند مجاراة العلم؛ فإنهم لا يذكرون إلا صفة الأولياء»[٣].

وذكر عقيب هذا، فقال[٤]: «سمعت محمد بن الحسين يقول: «سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت الجنيد يقول: السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه».

وذكر بعد هذا[٥]: «.. سمعت الجنيد يقول: إذا رأيت المريد يحب السماع، فاعلم أن فيه بقيةً مِنَ البَطالة».

قلت: فهاتان المقالتان أسندهما عن جنيد، وأما القول الأول، فلم يسنده، بل أرسله، وهذان القولان مفسران والقول الأول مجمل، فإن كان الأول محفوظاً عن الجنيد، فهو يحتمل السماع المشروع؛ فإن الرحمة تنزل على أهله كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فذكر أن استماعَ القرآن سببُ الرحمة.

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا غشيتهم الرحمة وتنزَّلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)**[٦].

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨١).   (٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٤).

(٣) ذكره الكلاباذي في التعرف لمذهب التصوف (ص١٦٠).

(٤) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٤).   (٥) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٩).

(٦) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، ٢/ ٧١/ ١٤٥٥)، =

وقد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصُل بالقرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩].

يبين ذلك: أن لفظ السماع يدخل فيه عندهم السماع الشرعي كسماع القرآن والخطب الشرعية والوعظ الشرعي، وقد أدخل أبو القاسم هذا النوع في باب السماع...

وبالجملة: فإذا كان المسند المحفوظ المعروف من قول الجنيد أنه رَحِمَهُ اللَّهُ لا يحمد هذا السماع المبتدع، ولا يأمر به ولا يثني عليه؛ بل المحفوظ من أقواله ينافي ذلك، لم يَجُزْ أن يُعمَد إلى قول مجمل رُوي عنه بغير إسناد، فيُحمل على أنه مدح هذا السماع المحدث.

وقد روى بعض الناس أن الجنيد كان يحضر هذا السماع في أول عمره ثم تركه، وحضوره له فعل، والفعل قد يُسْتَدلُّ به على مذهب الرجل وقد لا يستدل، ولهذا ينازع الناس في مذهب الإنسان هل يوجد من فعله.

وقال بعض السلف: أضعف العلم: الرؤية، وهو قوله: رأيت فلاناً يفعل، وقد يفعل الشيء بموجب العادة والموافقة من بعد اعتقاد له فيه، وقد يفعل نسياناً لا لاعتقاده فيه، أو حضّاً، وقد يفعله ولا يعلم أنه

= وابن حبان (كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن، ٣/ ٤٥/ ٧٦٨) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والدارمي (كتاب: أبواب متفرقة في صفات النبي ﷺ وفي العلم ونحوها، باب في فضل العلم والعالم، ١/ ١٠٧/ ٣٦٢) من حديث: ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع الصغير ٥/ ١١٨/ ح٥٣٨٤).

ذنب، ثم يعلم بعد ذلك أنه ذنب، ثم يفعله وهو ذنب، وليس أحدٌ معصوماً عن أن يفعل ما هو ذنب، لكن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب، فيُتأسَّى بأفعالهم التي أُقِرُّوا عليها؛ لأن الإقرار عليها يقتضي أنها ليست ذنباً، وأما غير الأنبياء فلا، فكيف بمن يكون فعل فعلاً ثم تركه.

وأقصى ما يقال: إن الجنيد كان يفعل أولاً هذا السماع على طريق الاستحسان له والاستحباب، أو يقول ذلك، فيكون هذا ـ لو صحَّ ـ معارضاً لأقواله المحفوظة عنه، فيكون له في المسألة قولان.

وقد قال أبو القاسم[1]: «حُكي عن الجنيد أنه قال: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان، والمكان، والإخوان».

وهذه حكاية مرسلة، والمراسيل في هذه الرسالة لا يعتمد عليها إن لم تُعرف صحتُها من وجه آخر كما تقدم، ولو صح ذلك وأنه أراد سماع القصائد، لكان هذا أحدَ قوليه.

وذلك أن قوله: «السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه صريحٌ بأنه مكروهٌ مذمومٌ منهيٌّ عنه لمن قصده، وهذا هو الذي نقرره، فقول الجنيد رضي الله عنه من محض الذي قلناه.

وقوله: «ترويحٌ لمن صادفه» لم يثبت منه، وإنما أثبتوا أنه راحةٌ، وجعل ذلك مع المصادفة، لا مع القصد والتعمُّد.

والمصادفة فيها قسم لا ريب فيه، وهو: استماع دون استماع، كالمرء يكون ماراً فيسمع قائلاً يقول، بغير قصده واختياره أو يكون جالساً في موضع فيمر عليه من يقول، أو يسمع قائلاً من موضع آخر بغير قصده.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٥).

وأما إذا اجتمع بقوم لغير السماع: إما حضر عندهم، أو حضروا عنده وقالوا شيئاً، فهذا قد يقال: إنه صادفه السماع، فإنه لم يمش إليه ويقصده.

وقد يقال: بل إصغاؤه إليه واستماعه الصوت يجعله مستمعاً، فيجعله غير مصادف.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، فجعل القاعد المستمع بمنزلة القائل.

فأكثر ما يقال: إن الجنيد أراد بالمصادفة هذه الصورة، وهو مع جعله ترويحاً لم يجعله سبباً للرحمة، وهذا غايته أن يكون مباحاً لا يكون حسناً ولا رحمةً ولا مستحباً، والكلام في إباحته وتحريمه غير الكلام في حسنه وصلاحه ومنفعته وكونه قُربةً وطاعةً، فالجنيد لم يقل شيئاً من هذا.

وقول القائل: «تنزل الرحمة على أهل السماع» إذا أراد به سماع القصائد، يقتضي أنه حَسَنٌ، وأنه نافع في الدين، وكلام الجنيد صريح في خلاف ذلك»اهـ[1].

ج ـ ما نقلوه عن ذي النون المصري:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[2]: «وسئل ذو النون المصري عن الصوت الحسن، فقال: مخاطبات وإشارات أودعها الله كلَّ طيِّبٍ وطيِّبةٍ.

وسئل مرة أخرى عن السماع، فقال: واردُ حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقَّق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق».

قلت: هذا الكلام لم يُسنده عن ذي النون، وإنما أرسله إرسالاً،

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧، ٤٠١ ـ ٤٠٣).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٤).

وما يرسله في هذه الرسالة قد وُجِد كثيرٌ منه مكذوبٌ على أصحابه، إما:

أن يكون أبو القاسم سمعه من بعض الناس، فاعتقد صدقَه.

أو يكون من فوقه كذلك.

أو وجده مكتوباً في بعض الكتب، فاعتقد صحته.

ومن كان من المرسِلين لِمَا يذكرونه من الأولين والآخرين يعتمد في إرساله لصحيح النقل والرواية عن الثقات، فهذا يُعتمد إرساله، وأما من عُرف فيما يرسله كثير من الكذب، لم يُوثَقْ بما يرسله.

فهذا التفصيل موجود فيمن يرسل النقول عن الناس من أهل المصنفات، ومِنْ أكثر الكذب: الكذب على المشايخ المشهورين؛ فقد رأينا من ذلك وسمعنا ما لا يحصيه إلا الله، وهذا أبو القاسم ـ مع علمه وروايته بالإسناد ـ ومع هذا، ففي هذه الرسالة قطعة كبيرة من المكذوبات، التي لا ينازع فيها مَنْ له أدنى معرفة بحقيقة حال المنقول عنهم.

وأما الذي يسنده من الحكايات في باب السماع، فعامَّته من كتابين:

كتاب (اللمع) لأبي نصر السراج[1]؛ فإنه يروي[2] عن أبي حاتم السجستاني[3]، ....

---

(١) هو عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج، الزاهد، شيخ الصوفية وصاحب كتاب «اللمع» في التصوف، توفي سنة ٣٧٨هـ.
انظر: شذرات الذهب (٣/ ٩١).

(٢) يعني أبا القاسم القشيري.

(٣) هو محمد بن أحمد بن يحيى السجستاني، أبو حاتم، شيخ أبي القاسم القشيري، وتلميذ أبي نصر السراج، وكثيرٌ ممن يروي عن أبي القاسم حكايات الصوفية وتراجمهم يسوقها عن طريق هذا الإسناد، كالبغدادي في تاريخ بغداد وغيره. =

عن أبي نصر عبد الله بن علي الطوسي[١]، ويروي عن محمد بن أحمد بن محمد التميمي عنه.

ومن كتاب: (السماع) لأبي عبد الرحمن السلمي، قد سمعه منه.

فإن كان هذا الكلام ثابتاً عن ذي النون رحمة الله عليه فالكلام عليه من وجهين:

من جهة الاحتجاج بالقائل، **ومن جهة** تفسير المنقول.

أما الأول: فقد نقلوا أن ذا النون حضر هذا السماع بالعراق.

وقد ذكر أبو القاسم حكايةً بعد ذلك مرسلة، فقال[٢]:

«وحكى أحمد بن مقاتل العكي، قال: لما دخل ذو النون المصري بغداد، اجتمع إليه الصوفية ومعه قوّال يقول شيئاً، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه، فأذن له، فابتدأ يقول:

صغير هواك عذَّبني ... فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي ... هوًى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئبٍ ... إذا ضحِك الخليُّ بكى[٣]

= انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٢٤٤، ١٤/ ٣١٧، ٣٩٦)، ولم أقف على ترجمة أبي حاتم هذا تفصيلاً.

(١) هو أبو نصر السراج، وقد سبقت ترجمته قبل قليل.
في المطبوع: عن أبي نصر عن عبد الله بن علي الطوسي..، وقد حذفت حرف: عن (بين اسمَيْ: نصر، وعبد الله؛ لأنه ظهر لي ـ بعد التأمل ـ أنه زائد، وذلك لأن أبا نصر السراج هو نفسه عبد الله بن علي الطوسي.

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٩ ـ ٦٥٠).

(٣) هذه الأبيات لمحمد بن عبد الملك الزيات، كما في الأغاني للأصبهاني، وبعد البيت الثاني بيت آخر هو:
وحبس هواك يقتلني ... وقتلي لا يحل لكا
وفي هامش كتاب الأغاني قال: رواية أخرى: =

قال: فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض، ثم قام رجل من القوم يتواجد، فقال له ذو النون: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، فجلس الرجل».

قال[١]: «وسمعت أبا علي الدقاق يقول: كان ذو النون صاحب إسراف[٢] على ذلك الرجل، حيث نبَّهه أن ذلك ليس مقامَه، وكان ذلك الرجل صاحبَ إنصاف، حيث قبل ذلك منه، فرجع وقعد».

فهذا ونحوه هو الذي أشار إليه الأئمة؛ كالشافعي في قوله: «خلَّفتُ ببغداد شيئاً أحدَثَتْه الزنادقة يسمونه التغبيرَ، يصدون به الناس عن القرآن».

فيكون ذو النون هو أحدَ الذين حضروا التغبير الذي أنكره الأئمة وشيوخ السلف، ويكون هو أحدَ المتأولين في ذلك، وقوله فيه كقول شيوخ الكوفة وعلمائها في النبيذ الذين استحلُّوه، مثل: سفيان الثوري، وشريك بن عبد الله[٣]، وأبي حنيفة، ومِسْعَر بن كدام[٤]، ومحمد بن

= وحسن رضاك يقتلني وقتلي لا يحل لكا
انظر: الأغاني (٢٣/ ٤٥، ط. الهيئة العامة للكتاب، مصر).

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥٠).

(٢) في الرسالة القشيرية: إشراف، ولعله الأصوب.

(٣) هو شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي، أبو عبد الله، أحد الأعلام، سمع أبا إسحاق السبيعي وغير واحد. قال ابن كثير: «كان مشكوراً في حكمه وتنفيذ الأحكام، وكان لا يجلس للحكم حتى يتغدَّى، ثم يخرج ورقة من قمطره فينظر فيها، ثم يأمر بتقديم الخصومة إليه، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما في تلك الرقعة، فإذا فيها: يا شريك بن عبد الله! اذكر الصراط وحدَّته، يا شريك بن عبد الله! اذكر الموقف بين يدي الله ﷻ»اهـ، توفي سنة ١٧٧هـ.
انظر: البداية والنهاية (٧/ ١٦٠)، شذرات الذهب (١/ ٢٨٧).

(٤) هو مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث الهلالي الكوفي، أبو سلمة، =

عبد الرحمن بن أبي ليلى[١]، وغيرهم من أهل العلم، وكقول علماء مكة وشيوخها فيما استحلوه من المتعة[٢] والصرف[٣]، كقول عطاء بن أبي رباح[٤] وابن جريج وغيرهما، وكقول طائفة من شيوخ المدينة وعلمائها فيما استحلُّوه من الحشوش[٥]، وكقول طائفة من شيوخ الشاميين وعلمائها فيما كانوا استحلُّوه من القتال في الفتنة لعلي بن أبي طالب

= الإمام الثبت شيخ العراق، روى عنه الثوري وابن المبارك وغيرهم، توفي سنة ١٥٥هـ.
انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٨٩)، سير الأعلام (٧/ ١٦٣ ـ ١٧٣)، تهذيب التهذيب (١٠/ ١١٣ ـ ١١٥).

(١) هو محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى الأنصاري، الفقيه، أبو عبد الرحمن، قاضي الكوفة ومفتيها، لم يدرك أباه، وسمع الشعبيَّ وطبقتَه، قال أحمد بن يونس: كان أفقهَ أهل الدنيا، وكان صاحبَ قرآن وسنة، قرأ عليه حمزة الزيات، مات وهو على القضاء سنة ١٤٨هـ.
انظر: البداية والنهاية (٤٧/ ٨٤، حوادث سنة ١٤٨هـ)، الكامل لابن الأثير (٥/ ٥٨٩)، شذرات الذهب (١/ ٢٢٤).

(٢) تقدم بيان المراد بذلك (١/ ١٥٣). (٣) تقدم بيان المراد بذلك (١/ ١٥٤).

(٤) هو عطاء بن أبي رباح، الفهري، أبو محمد المكي، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، يقال: إنه أدرك مائتي صحابي، كان أسودَ أعورَ أفطسَ أشلَّ أعرجَ، ثم عمي بعد ذلك، وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، ما بقي أحد في زمانه أعلمَ بالمناسك منه، وكان قد حج سبعين حجة، وكان ينادي منادي بني أمية في أيام منى: لا يفتي الناس في الحج إلا عطاءُ بن أبي رباح، وكان عظيمَ التواضع جمّ الأدب، ويدل على ذلك قوله: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أكن سمعته، وقد سمعته قبل أن يولد، فأريه أني إنما سمعته الآن منه، توفي سنة ١١٤هـ، وله من العمر ٨٨ سنة، وقيل: بلغ ١٠٠ سنة.
انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٥٩)، البداية والنهاية (٦/ ٤٥١، حوادث سنة ١١٤هـ)، شذرات الذهب (١/ ١٤٧)، الكامل لابن الأثير (٥/ ١٧٩).

(٥) تقدم بيان المراد بذلك (١/ ١٥٤).

وأصحابه[(١)]، وكقول طوائفَ من أتباعِ الذين قاتلوا مع علي من أهل الحجاز والعراق وغيرهم في الفتنة، إلى أمثال ذلك مما تنازعت فيه الأمة وكان في كل شقٍّ طائفةٌ من أهل العلم والدين.

فليس لأحد أن يحتج لأحد الطريقين بمجرد قول أصحابه، وإن كانوا من أعظم الناس علماً وديناً؛ لأن المنازعين لهم هم أهل العلم والدين.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، فالرد عند التنازع إنما يكون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

نعم إذا ثبت عن بعض المقبولين عند الأمة كلامٌ في مثل موارد النزاع، كان في ذلك حجة على تقدم التنازع في ذلك وعلى دخول قوم من أهل الزهد والعبادة والسلوك في مثل هذا، ولا ريب في هذا.

لكن مجرد هذا لا يتيح للمريد الذي يريد الله، ويريد سلوك طريقه أن يقتدي في ذلك بهم، مع ظهور النزاع بينهم وبين غيرهم، وإنكار غيرهم عليهم.

بل على المريد أن يسلك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويتبع ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع؛ فإن ذلك هو صراط الله الذي ذكره ورضي به في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا أصل في أنه لا يُحتَجُّ في مواضع النزاع والاشتباه بمجرد قول أحد ممن نوزع في ذلك.

وأما الوجه الثاني: فقول القائل عن الصوت الحسن: مخاطبات

---

(١) تقدم بيان المراد بذلك (١/ ١٥٦).

وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة: لا يجوز أن يراد به أن كلَّ صوت طيبٌ، كائناً ما كان، بأن الله أودعها مخاطبات يخاطب بها عباده، فإن هذا القولَ كفرٌ صريحٌ؛ إذ ذلك:

يستلزم أن تكون: الأصوات الطيبة التي يستعملها المشركون وأهل الكتاب في الاستعانة بها على كفرهم قد خاطب بها الله عباده.

وأن تكون: الأصوات الطيبة التي يستفزُّ بها الشيطان لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، أن تكون هذه الأصواتُ الشيطانية إذا كانت طيبةً، قد أودعها مخاطبات يخاطب بها عباده.

وأن تكون: أصوات الملاهي قد أودعها الله مخاطبات يخاطب بها عباده.

ومن المعلوم أن هذا لا يقوله عاقل، فضلاً عن أن يقوله مسلم.

ثم لو كان الأمر كذلك: فَلِمَ لم يستمع الأنبياء والصديقون من الأولين والآخرين إلى كل صوت؟ ويأمروا أتباعهم بذلك؟ لما في ذلك من استماع مخاطبات الحق! إذ قد عُلم أن استماع مخاطبات الحق من أفضل القُرُبات.

فقد ظهر أن هذا الكلام لا يجوز أن يكون عمومه وإطلاقه حقاً.

يبقى أن يقال: هذا خاصٌّ ومقيَّدٌ في الصوت الحسن إذا استعمل على الوجه الحسن، فهذا حق، مثل أن يزيِّنَ به كلامَ الله، كما كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يفعل، وقال له النبي: (**مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك**) فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً[1]، وكان عمر رضي الله عنه يقول له: ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأ وهم يستمعون[2].

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٧).

(٢) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (ص١٩٧).

فلا ريب أن ذا الصوت الحسن إذا تلا به كتاب الله، فإنه يكون حينئذ قد أودع اللهُ ذلك مخاطباتٍ وإشاراتٍ، وهو ما في كتابه من المخاطبات والإشارات، فقد ظهر أن هذا الكلام إذا حُمل على السماع المشروع الذي يحبه الله ورسوله، كان محملاً حسناً، وإن حُمِل على عمومه وإطلاقه كان كفراً وضلالاً.

يبقى بين ذلك العموم وهذا الخصوص مراتب: منها أن يحمل ذلك على ما يجده المستمع في قلبه من المخاطبات والإشارات من الصوت، وإن لم يقصده المصوت المتكلم، فهذا كثيراً ما يقع لهم، وأكثر الصادقين الذين حضروا هذا السماع يشيرون إلى هذا المقصد، وصاحب هذه الحال يكون ما يسمعه مُذكِّراً له ما كان في قلبه من الحق.

وهذا يكون على وجهين:

أحدهما: من الصوت المجرد الذي لا حرف معه، كأصوات الطيور والرياح والآلات وغير ذلك، فهذا كثيراً ما ينزله الناس على حروف بوزن ذلك الصوت، وكثيراً ما يحرِّك منهم ما يناسبها من فرح أو حزن، أو غضب أو شوق أو نحو ذلك.

كقول بعضهم:

رُبَّ ورقاء هتوف في الضحى ... صدحت في فَنَنٍ عن فَنَنِ
ربما أبكي فلا أفهمها ... وهي قد تبكي فلا تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني(١)

والثاني: يكون من صوت بحروف منظومة إمَّا شعر وإمَّا غيره، ويكون المستمع ينزل تلك المعاني على حاله، سواء قصد ذلك الناظم

---

(١) الأبيات: أوردها الغزالي في الإحياء (٢/ ٤٣٠، ط. دار قتيبة، بيروت، الأولى ١٤١٢هـ) ونسبها إلى أبي الحسين النوري أنه أنشد بها أصحابه فتواجدوا.

والمنشد أو لم يقصد ذلك، مثل أن يكون في الشعر عتابٌ وتوبيخٌ، أو أمر بالصبر على الملام في الحب، أو ذم على التقصير في القيام بحقوق المحبة، أو تحريض على ما فُرض للإنسان من الحقوق، أو إغضاب وحمِيَّة على جهاد العدو ومقاتلته، أو أمر ببذل النفس والمال في نيل المطلوب ورضا المحبوب، أو غير ذلك من المعاني المجمَلة التي يشترك فيها محبُّ الرحمن ومحبُّ الأوثان، ومحبُّ الأوطان ومحبُّ النسوان ومحبُّ المردان، ومحب الإخوان ومحب الخلان.

وربما قرع السمعَ حروفٌ أخرى لم ينطق بها المتكلم على وزن حروفه، كما يُذكر عن بعضهم أنه سمع قائلاً يقول: «سعتر بَرِّي» فوقع في سمعه: اِسْعَ تَرَ بِرِّي!.

وقد ذكر ذلك فيما بعد أبو القاسم فقال[1]:

«سمع ابن حلوان الدمشقي طوافاً ينادي: ياه! سعتر بَرِّي، فسقط مغشياً عليه، فلما أفاق سُئل؟ فقال: حسبته يقول: اِسْعَ تَرَ بِرِّي!.

وسمع عتبةُ الغلامُ رجلاً يقول:

سبحان رب السماء ... إن المحِب لفي عناء

فقال عتبة: صدقت[2]. وسمع رجلٌ آخر ذلك القولَ، فقال: كذبتَ! فكل واحد يسمع من حيث هو».

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤).

(٢) القصة ذكرها أبو نعيم في الحلية عن أبي حفص البصري قال: كان خليل لي جاراً لعتبة، قال: فسمع عتبة ذات ليلة وهو يقول:

سبحان جبار السماء ... إن المحب لفي عناء

فقال: يا عتبة صدقت والله، فغشي عليه.

الحلية (٦/ ٢٣٦)، ولم ينسب أبو نعيم البيت لأحد، وأوردها الغزالي في الإحياء (٢/ ٢٦٥، ط. دار النور).

لا سيما وأكثرها إنما وُضعت لمحبة لا يحبها الله ورسوله، مثل بعض هذه الأجناس، وإنَّما المدعي لمحبة الله ورسوله يأخذ مقصوده منها بطريق الاعتبار والقياس، وهو الإشارة التي يذكرونها، ولهذا قال: مخاطبات وإشارات، فالمخاطبات: كدلالة النصوص، والإشارات: كدلالة القياس، ولا بد أن يكون قد علم أن تلك المخاطبات والإشارات إنما يفهم منها المستمع ويتحرك فيها حركة يحبها الله ورسوله، فيكون قد علم من غيرها أن ما يقتضيه من الشعور والحال مرضيٌّ عند ذي الجلال، بدلالة الكتاب والسنة، وإلا فإن مجرد الاستحسان بالذوق والوجدان إن لم يشهد له الكتاب والسنة، وإلا كان ضلالاً.

ومن هذا الباب ضلَّ طوائفُ من الضَّالِّين.

وإذا كان كذلك: فمن المعلوم أن مثل هذا جميعه لا يجوز أن يُجعل طريقاً إلى الله، ويجمعَ عليه عباد الله، ويُستحبَّ للمريدين وجه الله؛ لأن ما فيه من الضرر هو أضعاف ما فيه من المنفعة لهم، ولكن قد صادف السرَّ الذي يكون في قلبه حق، بعض هذه المسموعات فيكون مُذكراً له ومنبهاً.

وهذا معنى قول الجنيد: «السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه».

وأما قول القائل: «السماع واردُ حقٍّ يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحقٍّ تحقَّقَ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق».

فالسماع الموصوف أنه واردُ حقّ الذي يزعج القلوب إلى الحق، هو أخصُّ من السماع الذي قد يوجب التزندق، فالكلام في ظاهره متناقض؛ لأن قائلَه أطلق القول بأنه وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، ثم جعل مَنْ أصغى إليه بنفس تَزَندَقَ.

ووارد الحق الذي يزعج القلوب إلى الحق لا يكون موجباً

للتزندق، لكن قائله قصد أولاً السماعَ الذي يقصده أهل الإرادة لوجه الله، فلفظه وإن كان فيه عموم، فاللام لتعريف المعهود؛ أي: يزعج قلوب أهل هذه الإرادة إلى الحق؛ لكونه يحرك تباكيهم، ويهيج باطنهم، فتتحرك قلوبهم إلى الله الذي يريدون وجهه، وهو إلٰههم ومعبودهم ومنتهى محبوبهم ونهاية مطلوبهم.

ثم ذكر أنه من أصغى إلى هذا السماع تزندق:

وهو من أصغى إليه بإرادة العلو في الأرض والفساد، وجعل محبة الخالق من جنس محبة المخلوق، وجعل ما يطلب من الاتصال بذي الجلال، من جنس ما يطلب من الاتصال بالخلق، فإن هذا يوجب التزندق في الاعتقادات والإرادات، فيصير صاحبُه منافقاً زنديقاً، وقد قال عبد الله بن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»، ولهذا تزندق بالسماع طوائفُ كثيرةٌ، كما نبهنا عليه قبل هذا.

ويقال هنا: من المعلوم أن النفس سواء أريد بها ذات الإنسان، أو ذات روحه المدبرة لجسده، أو عُنيَ بها صفات ذلك من الشهوة والنفرة، والغضب والهوى وغير ذلك، فإن البشر لا يخلو من ذلك قط، ولو فُرِضَ أن قلبه يخلو عن حركة هذه القوى والإرادات، فعدمها شيء وسكونها شيء آخرُ، والعدم ممتنع عليها، ولكن قد تسكن، ولكن إذا كانت ساكنةً ـ ومن شأن السماع أن يحركها ـ فكيف يمكن الإنسان أن يُسكِّن الشيءَ مع ملابسته لما يوجب حركته.

فهذا أمر بالتفريق بين المتلازمين، والجمع بين المتناقضين، وهو يشبه أن يقال له: أَدِمْ مشاهدة المرأة والصبي والأمرد، أو مباشرته بالقبلة واللمس وغير ذلك، من غير أن تتحرك نفسُك أو فرجُك إلى الاستمتاع به ونحو ذلك، فهل الأمر هذا إلا من أحمق الناس.

ولهذا قال من قال من العلماء العارفين: لسماع بعد مباشرته تبقى غير مقدورة للإنسان؛ بل تبقى حركةَ نفسه وأحوالها أعظم من أحوال الإنسان بعد مباشرة شرب الخمر؛ فإن فعل هذا السماع في النفوس أعظم من فعل حُمَيَّا الكؤوس.

وقوله: «من أصغى إليه بحقّ تحقَّقَ».

فيقال عليه وجهان:

أحدهما: أن يقال: إن الإصغاء إليه بحق مأمون الغائلة أن يخالطه باطل، أمر غير مقدور عليه للبشر، أكثر مما في قوة صاحب الرياضة والصفاء التام أن يكون حين الإصغاء لا يجد في نفسه إلا طلب الحق وإرادته، لكنه لا يثق ببقائه على ذلك؛ بل إذا سمع خالط الإصغاءُ بالحق الإصغاءَ بالنفس إذ تجرد الإنسان عن صفاته اللازمة لذاته محال ممتنع.

الثاني: أن يقال: ومن أين يُعلم أن كلَّ من أصغى إليه بحقٍّ تحقق، بل المصغي إليه بحقٍّ يحصل له من الزندقة والنفاق علماً وحالاً ما قد لا يشعر به، كما قال عبد الله بن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل»؛ والنفاق هو الزندقة، ومن المعلوم أن البقل ينبت في الأرض شيئاً فشيئاً لا يُحِسُّ الناس بنباته، فكذلك ما يبدو في القلوب من الزندقة والنفاق قد لا يشعر به أصحاب القلوب، بل يظنون أنهم ممن تحقق! ويكون فيهم شَبَهٌ كثير ممن تزندق.

يوضح هذا: أن دعوى: التحقق، والتحقيق، والحقائق، قد كثرت على ألسنة أقوام هم من أعظم الناس زندقةً ونفاقاً قديماً وحديثاً، من الباطنية القرامطة، والمتفلسفة الاتحادية وغير هؤلاء.

وكذلك قوله: «هو وارد حق يزعج القلوب إلى الحق»:

يقال له: إن كان قد تنزعج به بعض القلوب أحياناً إلى الحق، فالأغلب عليه أنه يزعجها إلى الباطل، وقلَّما يزعجها إلى الحق محضاً.

بل قد يقال: إنه لا يفعل ذلك بحال، بل لا بد أن يضم إلى ذلك شيء من الباطل، فيكون مزعجاً لها إلى الشرك الجليِّ أو الخفيِّ، فإن ما يزعج إليه هذا السماع مشترك بين الله وبين خلقه، فإنما يزعج إلى القدر المشترك، وذلك هو الإشراك بالله.

ولهذا لم يذكر الله هذا السماع في القرآن إلا عن المشركين، الذين قال فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فلا يكون مزعجاً للقلوب إلى إرادة الله وحده لا شريك له، بل يزعجها إلى الباطل تارة وإلى الحق والباطل تارة.

ولو كان يزعج إلى الحق الذي يحبه الله ـ خالصاً أو راجحاً ـ لَكَان من الحَسَنِ المأمور به المشروع، ولَكَان شَرَعَه رسولُ الله ﷺ بقوله أو فعله، ولَكَان من سنة خلفائه الراشدين، ولَكَان المؤمنون في القرون الثلاثة يفعلونه لا يتركون ما أحبه الله ورسوله، وما يحرك القلوب إلى الله تحريكاً يحبه الله ورسوله.

وأيضاً: فهذا الإزعاج إلى الحق قد يقال:

إنه إنما قد يحصل لمن لم يقصد الاستماع، بل صادفَهُ مصادفةً، سماعُ شيء يناسب حالَهُ، بمنزلة الفأل لمن خرج في حاجة، فأما من قصد الاستماع إليه والتغني به، فقد قال النبي ﷺ: **(ليس منا من لم يتغن بالقرآن)**»اهـ[1].

د ـ ما نقلوه عن أبي بكر الشبلي:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[2]: «وسئل الشبلي عن السماع،

---

(١) الاستقامة (١/٣٨٣ ـ ٣٩٥). (٢) الرسالة القشيرية (٢/٦٤٥).

فقال: ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حلَّ له السماع بالعبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبليَّة».

قلت: هذا القول مرسل لم يسنده، فالله أعلم به، فإن كان محفوظاً عن الشبلي، فقد نبهنا على أن الأئمة في طريق الحق الذين يُعتَدُّ بأقوالهم، كما يُعْتَدُّ بأقوال أئمة الهدى هم؛ مثل: الجنيد، وسهل، ونحوهما؛ فإن أقوالَهم صادرةٌ عن أصل، وهم مستهدون فيها.

وأما الشبلي ونحوه، فلا بد من عرض أقواله وأحواله على الحجة، فيقبل منها ما وافق الحق دون ما لم يكن كذلك؛ لأنه قد كان يعرِضُ له زوال العقل حتى يذهب به إلى المارستان غيرَ مرةٍ، وقد يختلط اختلاطاً دون ذلك.

ومن كان بهذه الحال، فلا تكون أقوالُه وأفعالُه في مثل هذه الأحوال ممَّا يعتمد عليها في طريق الحق، ولكن له أقوال وأفعال حسنة قد علم حسنُها بالدليل، فتقبل لحسنها في نفسها، وإن كان له حالُ أخرى بغير عقله، أو اختلط فيها، أو وقع منه ما لا يصلح.

ومعلوم أن الجنيد ـ شيخَه ـ هو الإمام المتّبَعُ في الطريق، وقد أخبر: أن السماع فتنةٌ لمن طلبه، فتقليد الجنيد في ذلك أولى من تقليد الشبلي في قوله: ظاهره فتنة وباطنه عبرة؛ إذ الجنيدُ أعلى وأفضلُ وأجلُّ باتفاق المسلمين، وقد أطلق القول بأنه فتنةٌ لطالبه، وهو لا يريد أنه فتنةٌ في الظاهر فقط؛ إذ من شأن الجنيد أن يتكلم على صلاح القلوب وفسادها، فإنما أراد أنه يفتن القلب لمن طلبه، وهذا نهي منه وذمٌّ لمن يطلبه مطلقاً، ومخالف لما أرسل عن الشبلي أنه قال: «من عرف الإشارة حلَّ له السماع بالعبرة».

وهذا التفصيل يضاهي قولَ من يقول: هو مباح أو حسن للخاصة دون العامة، وقد تقدم الكلام على ذلك وأنه مردود؛ لأن قائله اختلف

قوله في ذلك، وما أعلَمُ أحداً من المشايخ المقبولين يُؤْثَرُ عنه في السماع نوعُ رخصةٍ وحمدٍ، إلا ويُؤْثَرُ عنه الذم والمنع، فهم فيه ـ كما يذكر عن كثير من العلماء ـ أنواع من مسائل الكلام. فلا يوجد عمَّن له في الأمة حمدُ شيءٍ من ذلك إلا وعنه ما يخالف ذلك، وهذا من رحمة الله بعباده الصالحين، حيث يردهم في آخر أمرهم إلى الحق الذي بعث به رسوله ﷺ، ولا يجعلهم مصرِّين على ما يخالف الدين المشروع.

كما قال تعالى في صفة المتقين الذين أعدَّ لهم الجنة، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

وقول القائل: «من عرف الإشارة حلَّ له السماع بالعبرة»، وقد تقدم أن الإشارة هي الاعتبار والقياس؛ لأن يجعل المعنى الذي في القول مثلاً مضروباً لمعنى حق يناسب حال المستمع؛ ولهذا قال: باطنه عبرةٌ.

يقال له: هب أنه يمكن الاعتبار به، لكن من أين لك أنَّ كلَّ ما أمكن أن يعتبر به الإنسان يكون حلالاً له؟ مع أن الاعتبار قد يكون بما يسمع ويرى من المحرمات، فهل لأحد أن يعتبر بقصد النظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية؟ ويعتبر بقصد الاستماع إلى أقوال المستهترين بآيات الله؟ أو غير ذلك مما لا يجوز؟»اهـ[1].

هـ ـ ما نقلوه عن أبي سليمان الداراني:

قال الشيخ: «قال أبو القاسم[2]: «وحكي عن أحمد بن أبي

---

(١) الاستقامة (١/٤٠٣ ـ ٤٠٦). (٢) الرسالة القشيرية (٢/٦٤٥).

الحواري أنه قال: «سألت أبا سليمان عن السماع، فقال: من اثنين أحبُّ إليَّ من الواحد!».

قلت: هذه المقالة ذكرها مرسلةً، فلا يُعتمدُ عليها، وإن أريد بها السماع المحدث، فهي باطلة عن أبي سليمان؛ فإن أبا سليمان رضي الله عنه لم يكن من رجال السماع، ولا معروفاً بحضوره، كما أن الفضيل بن عياض، ومعروفاً الكرخيَّ رحمهما الله، ونحوهما لم يكونا ممن يحضر هذا السماع»اهـ[1].

ثالثاً: ذَكَر المتصوفة حججاً عقليةً على جواز السماع واستحبابه، وهي:

أولاً: ما يُحدثه السماع في القلوب من خشية ورِقّة، وما يتبع ذلك من توبة العصاة، وهذا أمر مطلوب شرعاً:

قال الشيخ: «وهؤلاء قد يظن أحدهم: أنه لا يمكنه السلوك إلى الله تعالى إلا ببدعة.. وكذلك في هؤلاء من يقول: إن محبته لله ورغبته في العبادة وحركته ووجده وشوقه وغير ذلك لا يتم إلا بسماع القصائد، ومعاشرة الشاهد من الصبيان وغيرهم، وسماع الأصوات والنغمات!! ويزعُمون أنهم بسماع هذه الأصوات ورؤية الصور المحركات، تتحرك عندهم من دواعي الزهد والعبادة ما لا تتحرك بدون ذلك، وأنهم بدون ذلك قد يتركون الصلوات، ويفعلون المحرَّمات الكبار؛ كقطع الطريق وقتل النفوس، ويظنون أنهم بهذا ترتاض نفوسهم، وتلتَذُّ بذلك لَذَّةً تصدُّها عن ارتكاب المحارم والكبائر، وتحملها على الصلاة والصوم والحج، وهذا مستندُ كثير من الشيوخ الذين يدعون الناس إلى طريقهم: بالسماع المبتدَع على اختلاف ألوانه وأنواعه، منهم من يدعو إليه بالدف

(١) الاستقامة (١/ ٤١٠).

والرقص! ومنهم من يضيف إلى ذلك الشبابات![1] ومنهم من يعمله بالنساء والصبيان! ومنهم من يعمله بالدف والكف! ومنهم من يعمله بأذكارٍ واجتماعٍ وتسبيحاتٍ وقيامٍ وإنشادِ أشعارٍ! وغير ذلك من سائر أنواعه وألوانه، وربما ضموا إليه من معاشرةَ النساء والمُردان ونحو ذلك.

ويقولون: هؤلاء الذين توّبناهم، وقد كانوا لا يصلون ولا يحجون ولا يصومون؛ بل كانوا يقطعون الطريق، ويقتلون النفس، ويزنون، فتوّبناهم عن ذلك بهذا السماع، وما أمكن أحدهم استتابتهم بغير هذا»اهـ[2].

ثانياً: قولهم: نفعل هذه البدعة الصغيرة، كيلا نقع في أكبرَ منها:

قال الشيخ: «وقد يعترفون أن ما فعلوه بدعة منهيٌّ عنها أو محرمة، ولكن يقولون: ما أمكننا إلا هذا، وإن لم نفعل هذا القليل من المحرَّم حصل الوقوعُ فيما هو أشدُّ منه تحريماً! وفي ترك الواجبات ما يزيد إثمه على إثم هذا المحرم القليل في جنب ما كانوا فيه من المحرم الكثير.

ويقولون: إن الإنسان يجد في نفسه نشاطاً وقوةً في كثير من الطاعات إذا حصل له ما يحبه وإن كان مكروهاً حراماً، وأما بدون ذلك فلا يجد شيئاً، ولا يفعله، وهو أيضاً يمتنع عن المحرمات إذا عُوِّض بما يحبه وإن كان مكروهاً، وإلا لم يمتنع، وهذه الشبهة واقعة لكثير من الناس.

وجوابها مبنيٌّ على ثلاث مقامات:

أحدها: أن المحرمات قسمان:

أحدهما: ما يقطع بأن الشرع لم يبح منه شيئاً لا لضرورة ولا لغير

---

(١) الشبابات: من آلات الطرب وتقدم الإشارة إليها (ص٢٠٦).

(٢) الفتاوى (١٤/٤٦٨ ـ ٤٦٩).

ضرورة: كالشرك، والفواحش، والقول على الله بغير علم، والظلم المحض، وهي الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه الأشياء محرمةٌ في جميع الشرائع، وبتحريمها بعث الله جميع الرسل، ولم يُبِحْ منها شيئاً قطُّ؛ ولا في حال من الأحوال، ولهذا أُنزلت في هذه السورة المكية ونُفيَ التحريم عما سواها، فإنَّ ما حرمه بعدها كالدم والميتة ولحم الخنزير حرَّمه في حال دون حال، وليس تحريمُه مطلقاً.

وكذلك الخمر: يباح لدفع الغُصَّة بالاتفاق، ويباح لدفع العطش في أحد قولي العلماء، ومن لم يبِحْها قال: إنها لا تدفع العطش، وهذا مأخذ أحمد، فحينئذ فالأمر موقوف على دفع العطش بها، فإن علم أنها تدفعه أبيحت بلا ريب كما يباح لحم الخنزير لدفع المجاعة، وضرورة العطش الذي يرى أنه يُهلكه أعظم من ضرورة الجوع، ولهذا يُباح شرب النجاسات عند العطش بلا نزاع، فإن اندفع العطش، وإلا فلا إباحةَ في شيء مِنْ ذلك.

وكذلك الميسر: فإنَّ الشارع أباح السَّبْق فيه بمعنى الميسر للحاجة في مصلحة الجهاد، وقد قيل: إنه ليس منه، وهو قول مَنْ لم يُبِح العِوَض من الجانبين مطلقاً إلا المحلل، ولا ريب أن الميسر أخفُّ من أمر الخمر، وإذا أبيحت الخمر للحاجة فالميسر أولى، والميسر لم يحرَّم لذاته، إلا لأنه يصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوةَ والبغضاء، فإذا كان فيه تعاون على الرمي الذي هو من جنس الصلاة، وعلى الجهاد الذي فيه تعاون، وتتألَّف به القلوب على الجهاد زالت هذه المفسدة.

وكذلك بيع الغرر: هو من جنس الميسر، ويُباح منه أنواعٌ عند الحاجة ورجحان المصلحة.

وكذلك الربا: حُرِّم لما فيه من الظلم، وأُوجِبَ أن لا يباع الشيءُ إلا بمثله، ثم أبيح بيعُه بجنسه خرْصاً عند الحاجة، بخلاف غيرها من المحرَّمات، فإنها تحرُم في حالٍ دون حالٍ، ولهذا ـ والله أعلم ـ نُفيَ التحريم عما سواها، وهو التحريم المطلق العام، فإن المنفيَّ من جنس المثبت، فلما أثبت فيها التحريم العام المطلق نفاه عما سواها.

والمقام الثاني: أن يفرَّق بين ما يفعل في الإنسان ويأمر به ويبيحه، وبين ما يسكت عن نهي غيره عنه وتحريمه عليه، فإذا كان من المحرَّمات ما لو نُهيَ عنه حصل ما هو أشدُّ تحريماً منه لم يَنْهَ عنه، ولم يبحه أيضاً.

ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكرُ منه، ولهذا حرُم الخروج على وُلاة الأمر بالسيف، لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرَّمات، وترك واجب أعظمُ مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب، وإذا كان قوم على بدعة أو فجور، ولو نُهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شرٌّ أعظمُ ممَّا هم عليه من ذلك، ولم يُمكن منعهم منه، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة، لم يُنهَوْا عنه.

بخلاف ما أمر الله به الأنبياء وأتباعهم من دعوة الخلق؛ فإن دعوتهم يحصُل بها مصلحة راجحة على مفسدتها، كدعوة موسى لفرعون، ونوح لقومه، فإنه حصل لموسى من الجهاد وطاعة الله، وحصل لقومه من الصبر والاستعانة بالله، ما كانت عاقبتُهم به حميدةً، وحصل أيضاً من تفريق فرعون وقومه ما كانت مصلحتُه عظيمةً.

وكذلك نوح حصل له ما أوجب أن يكون ذريتُه هم الباقين، وأهلك الله قومه أجمعين، فكان هلاكُهم مصلحةً.

فالمنهيُّ عنه إذا زاد شرُّه بالنهيِ، وكان النهيُ مصلحة راجحة كان حسناً، وأما إذا زاد شرُّه وعظم، وليس في مقابلته خيرٌ يفوته لم يُشرَعْ، إلا أن يكون في مقابلته مصلحة زائدة، فإن أدى ذلك إلى شرٍّ أعظمَ مما

لم يشرع، مثل أن يكون لا صبر له فيُؤذَى فيجزع جزعاً شديداً يصير به مذنباً، وينتقص به إيمانه ودينه، فهذا لم يحصل به خير، لا له ولا لأولئك، بخلاف ما إذا صبر واتَّقى اللهَ وجاهد، ولم يتعدَّ حدود الله، بل استعمل التقوى والصبر، فإن هذا تكون عاقبتُه حميدةً.

وأولئك قد يتوبون فيتوب الله عليهم ببركته، وقد يهلكهم ببغيهم، ويكون ذلك مصلحةً، كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وأما الإنسان في نفسه، فلا يحِلُّ له أن يفعل الذي يعلم أنه محرَّم؛ لظنه أنه يعينه على طاعة الله؛ فإن هذا لا يكون إلا مفسدةً، أو مفسدته راجحة على مصلحته، وقد تنقلب تلك الطاعةُ مفسدةً! فإن الشارع حكيم، فلو علم أن في ذلك مصلحة لم يُحرِّمه»اهـ[1].

آثار السماع على الصوفية:

أولاً: اتصال الشياطين بهم أثناء السماع وتنزُّلها عليهم:

قال الشيخ: «فصار السماع المحدَث دائراً بين الكفر والفسوق والعصيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكفره من أغلظ الكفر وأشدِّه، وفسوقه من أعظم الفسوق.

وذلك أن تأثير الأصوات في النفوس من أعظم التأثير، يغنيها ويغذِّيها، حتى قيل: إنه لذلك سُمِّي غناءً؛ لأنه يُغْني النفس، وهو يفعل في النفوس أعظمَ من حُمَيّا الكؤوس؛ حتى يوجب للنفوس أحوالاً عجيبة يظن أصحابها أن ذلك من جنس كرامات الأولياء، وإنما هو من الأمور الطبيعية الباطلة المبعِّدة عن الله، إذ الشياطين تمدهم في هذا السماع بأنواع الإمداد

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٤٦٩ ـ ٤٧٨).

كما قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، وقال للشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فربما يخِفُّ أحدهم حتى يرقص فوق رؤوسهم! ويكون شيطانُه هو المُغْوِيَ لنفوسهم.

ولهذا كان مرة في سماع[1] يحضره الشيخ شبيب الشطي، فبينما هم في سماع أحدهم، وإذا بعفريت يرقص في الهواء على رؤوسهم، فتعجبوا منه وطلب الشيخُ لمريده الشيخَ أبا بكر بن فينان وكان له حال ومعرفة، فلما رآه صرخ فيه فوقع، فلما فرغوا طلب منه أن ينصفه، وقال: هذا سلبني حالي! فقال الشيخ: لم يكن له حال، ولكن كان بالرحبة، فحمله شيطانه إلى هنا، وجعل يرقص به، فلما رأيت الشيطان صرخت فيه فهرب، فوقع هذا.

والقصة معروفة يعرفها أصحاب الشيخ...

ولهذا: كان يحضره الشياطين، كما أن سماع أهل الإيمان تحضره الملائكة؛ وتنزل عليهم فيه الشياطين، وتوحي إليهم، كما تنزل الملائكة على المؤمنين، وتقذف في قلوبهم ما أمرهم الله، فإن الملائكة تنزل عند سماع القرآن وعند ذكر الله، كما في الصحيح: **(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)**[2].

وفي الصحيح أن أُسيد بن الحضير ﷺ كان يقرأ سورة الكهف، فرأى مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح، فقال النبي ﷺ: **(تلك السكينة تنزلت لسماع القرآن)**.

---

(١) كذا في المطبوع.
(٢) الحديث: تقدم تخريجه (ص٢٦٢).

وفي الصحيح: **(إن لله ملائكة فضلاً عن كتّاب الناس، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم...)** الحديث بطوله.

وهذا السماع المُحْدَث تحضره الشياطين، كما رأى ذلك مَنْ كُشِفَ له، وكما توجد آثار الشياطين في أهله، حتى إن كثيراً منهم يغلب عليه الوجد فيُصعق كما يصعق المصروع، ويصيح كصياحه، ويجري على لسانه من الكلام ما لا يفهم معناه، ولا يكون بلغته، كما يجري على لسان المصروع، وربما كان ذلك من شياطين قوم من الكفار، الذي يكون أهل ذلك السماع مشابهين لقلوبهم، كما يوجد ذلك في أقوام كثيرين كانوا يتكلّمون في وَجدهم واختلاطهم بلغة الترك التتر الكفار، فينزل عليهم شياطينهم ويغوونهم، ويَبْقَون منافقين موالين لهم، وهم يظنون أنهم من أولياء الله، وإنما هم من أولياء الشيطان وحزبه»اهـ(١).

وبعض هؤلاء المتصوفة يزعُمون أن الملائكة تحضر سماعهم! وقد ردَّ شيخ الإسلام عليهم، وبيَّن أن الذي يحضر ـ في الحقيقة ـ هم الشياطين:

قال الشيخ في جواب سؤال له: «سئل شيخ الإسلام عمَّن يقول: إن بعض المشايخ إذا أقام السماع يحضره رجالُ الغيب، وينشقُّ السقف والحيطان، وتنزل الملائكة ترقص معهم، أو عليهم، وفيهم من يعتقد أن النبي ﷺ يحضر معهم! فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد؟ وما هي صفة رجال الغيب؟ وهل يكون للتتار خفراءُ ولهم حال كحال خفراءِ أمة محمد ﷺ أم لا؟

فأجاب: أمَّا من زعم: أن الملائكة أو الأنبياء تحضر سماع المُكاء

---

(١) الاستقامة (١/٣٠٩ ـ ٣١٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/٥٣، ١١/١١، ٨٨، ٢٧/٨٣).

والتصدية، محبةً ورغبةً فيه، فهو كاذب مفترٍ، بل إنما تحضره الشياطين، وهي التي تنزل عليهم وتنفُخ فيهم، كما روى الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ: (**إن الشيطان قال: يا رب اجعل لي بيتاً، قال: بيتك الحمام، قال: اجعل لي قرآناً، قال: قرآنك الشعر، قال: يا رب اجعل لي مؤذناً، قال: مؤذنك المزمار**)[1]، وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطباً للشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وقد فسر ذلك طائفة من السلف بصوت الغناء[2]، وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزَّة لأصحابها عن سبيل الله.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (**إنما نهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت لطم خدود، أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية**)[3]، كقولهم: والَهْفاه! واكَبِداه! وانَصِيراه!.

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماعات الجاهلية ذات المكاء، والتصدية وكيف يَكِرُّ الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني، حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين، ورأى بعض المشايخ المكاشفين أن شيطانه قد احتمله حتى رقص به، فلما صرخ بشيطانه هرب وسقط ذلك الرجل،

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه (ص٢٥٢).

(٢) قال بهذا مجاهد والضحاك وغيرهما.
انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٢٥٠)، ابن كثير (٣/ ٦٩)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٤٦).

(٣) الحديث: رواه الترمذي (كتاب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت، ٣/ ٣٢٨/ ١٠٠٥) من حديث: جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والحاكم (كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر سراري رسول الله ﷺ، ٤/ ٤٣/ ٦٨٢٥) من حديث: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

وهذه الأمور لها أسرارٌ وحقائقُ لا يشهدها إلا أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية.

ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة وأعرض عن سبيل المبتدعة، فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة، وإن لم يعرف حقائق الأمور، بمنزلة من سلك السبيل إلى مكةَ خلف الدليل الهادي، فإنه يصل إلى مقصوده، ويجد الزاد والماء في مواطنه، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه، ومن سلك خلف غير الدليل الهادي: كان ضالًّا عن الطريق، فإما أن يهلِك، وإما أن يشقى مدةً ثم يعود إلى الطريق.

والدليل الهادي: هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهادياً إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وآثار الشيطان تظهر في أهل السماع الجاهلي: مثل الإزباد والإرغاء، والصراخات المنكرة، ونحو ذلك مما يضارع أهل الصَّرَع الذين يصرعهم الشيطان، ولذلك يجدون في نفوسهم من ثَوَران مراد الشيطان بحسب الصوت: إما وَجْدٌ في الهوى المذموم، وإما غضبٌ وعدوان على من هو مظلوم، وإما لطمٌ وشقٌّ ثياب وصياحٌ كصياح المحزون المحروم، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية التي تعتري أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها؛ فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة، فيصدُّهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمنع قلوبَهم حلاوةَ القرآن وفهمَ معانيه واتباعَه، فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيلَ الله، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى يقتل بعضُهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية، كما يقتل العائنُ من أصابه بعينه.

ولهذا قال من قال من العلماء: إن هؤلاء يجب عليهم القَوَدُ والدِّيَةُ

والقِصاص، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة؛ لأنهم ظالمون، وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة كما يغتبط الظَّلَمة المسلَّطون»اهـ(١).

ثانياً: في السماع المحرم من الصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، أعظمُ ممَّا في الخمر وغيرها، وذلك من خمسة وجوه:

قال الشيخ في معرض كلامه عن السماع: «ولهذا يوجد فيه أعظمُ مما يوجد في الخمر من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن إيقاع العداوة والبغضاء حتى يقتل بعضهم بعضاً فيه؛ ولهذا يفعلونه على الوجه الذي يحبه الشيطان ويكرهه الرحمن.

وذلك من وجوه:

أحدها: أن العبادات الشرعية؛ مثل: الصلاة والصيام والحج، قد شرع فيها من مجانبة جنس المباشرة المباحة في غيرها ما هو من كمالها وتمامها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

وأعظم ذلك الحج؛ فليس للمحرِم أن يباشر فيه النساء، ولا ينظر إليهم لشهوة، والمعتكف قريب منه، والصائم دونه، والمصلي لا يصافّ النساء، بل يؤخَّرْن عن صفوف الرجال، ويصلين خلفَ الرجال، كما قال النبي ﷺ: (**خير صفوف الرجال: أولها، وشرها: آخرها، وخير صفوف**

---

(١) الفتاوى (١١/ ٦٤١ ـ ٦٤٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفرقان (ص١٢١)، المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٩).

النساء: آخرها، وشرها: أولها)[١].

وليس للمصلي في حال صلاته أن ينظر إلى ما يلهيه عن الصلاة، لا نساء ولا غيرهم؛ بل قد ثبت في الصحيح أنه: **إذا مر أمامه المرأة والحمار والكلب الأسود وضع صلاته**[٢]، وإن كان قد ثبت عن النبي ﷺ: **(أنه كان يصلي وعائشة مضطجعةٌ في قِبلته بالليل في الظُّلمة، فإذا أراد أن يسجد غمزها)**[٣]، فاللابث غير المارِّ، ولم يكن ذلك يلهيه؛ لأنه كان بالليل في الظُّلمة، وكذلك مسُّ النساء لشهوة ينقضُ الطهارة عند أكثر العلماء.

فإذا كان هذا في النظر والمباشرة ـ المباح في غير حال العبادة ـ نهى الله عنه حال العبادة؛ لما في ذلك من المباينة للعبادة والمنافاة لها، فكيف بما هو حرام خارج عن العبادة؟ كالنظر إلى البَغِيِّ والمباشرة لها؟ فكيف بالنظر إلى المُردان الصِّباح المخانيث وغير المخانيث والمباشرة لهن؟ ثم هذا قد يُفعل لمجرد شهوة النظر، فيكون قبيحاً مكروهاً خارج العبادة، فكيف في حال العبادة؟.

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول، ١/ ٣٢٦/ ٤٤٠)، وأبو داود (كتاب الصلاة، باب صَف بالنساء وكراهية التأخر عن الصف الأول، ١/ ١٨١/ ٦٧٨)، والترمذي (كتاب: أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الصف الأول، ١/ ٤٣٥/ ٢٢٤) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقطع الصلاة: المرأةُ، والحمار، والكلب، ويقي ذلك مثلُ مؤخَّرة الرحل) رواه مسلم واللفظ له (كتاب الصلاة، باب قدر ما يستر المصلي، ١/ ٣٦٥/ ٥١١) ورواه الترمذي (كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أنه لا يقطع الصلاة إلا الكلب، ٢/ ١٦١/ ٣٣٨)، وابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقطع الصلاة، ١/ ٣٠٦/ ٩٥٢) من حديث: أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الصلاة، باب الصلاة إلى السرير، ١/ ١٠٣)، ومسلم (كتاب الصلاة، باب الاعتراض بين يدي المصلي، ١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

وهؤلاء قد يجعلون ذلك مما لا يتم السماع إلا به؛ بل ويتخذونه في الصلاة وغيرها من العبادات، فيجعلون حضورهم في السماع، والسماع من النساء والصبيان من جملة القُرُبات والطاعات.

وهذا من أعظم تبديل الدين؛ فإن الرجل لو جعل النظر إلى امرأته في الصلاة أو الصيام أو الاعتكاف من جملة العبادة كان مبتدعاً؛ بل كان هذا كفراً، فكيف إذا جعل النظر إلى المرأة الأجنبية أو الأمرد في الصلاة من جملة العبادات؟ كما يفعله بعضهم، وقد أوقد شمعةً على وجه الأمرد فيستجليه في صلاته، ويعد ذلك من عباداته! هذا من أعظم تبديل الدين ومتابعة الشياطين.

وهذا إذا كان العملُ عبادةً في نفسه كالصلاة والصيام، فكيف إذا كان العمل بدعة عظيمة؟ ـ وهو سماع المكاء والتصدية ـ وضم إليه مشاهدة الصور الجميلة، وجعل سماع هذه الأصوات ورؤية هذه الصور من العبادات؟ فهذا من جنس دين المشركين.

ولقد حدثني بعض المشايخ: أن بعض ملوك فارس قال لشيخ رآه قد جَمَع الناسَ على مثل هذا الاجتماع: يا شيخ! إن كان هذا هو طريق الجنة فأين طريق النار؟.

الوجه الثاني: أن التطريب بالآلات الملهية محرَّم في السماع الذي أحبه الله وشرعه، وهو سماع القرآن، فكيف يكون قربةً في السماع الذي لم يشرعه الله؟ وهل ضمُّ ما [لم] يشرعه الله إلى ما ذمه[1]، يُصَيِّر المجموعَ المعينُ بعضُه لبعض ممَّا أحبَّه الله ورضيه؟

---

(١) في المطبوع: وهل ضمُّ ما يشرعه الله إلى ما ذمه..، والصواب ما أثبته ليستقيم المعنى، بدليل أن الشيخ قال: ضم ما يشرعه إلى ما ذمه، ولم يقل: ضم ما شرعه إلى ما ذمه، فدلّ على أن (لم) ساقطة؛ لأنه جعل الفعل (يشرعه) مضارعاً لا ماضياً. =

الوجه الثالث: كثرة إيقاد النار بالشموع والقناديل وغير ذلك، ممَّا لا يشرع في الصلاة وقراءة القرآن؛ إذ فيه من تفريق القلوب وغير ذلك مما هو خلاف المقصود.

الوجه الرابع: التنوع في المطاعم والمشارب فيه، وهذا ليس شأن العبادات؛ وإنما شرع نوع ذلك عند الفراغ من العبادة، وأما أن يكون هذا التنوع في المطاعم والمشارب في السماع من العبادة التي يتقرَّب بها إلى الله: فلا، وأما موجبه من الحركات المختلفة والأصوات المنكَرَة والحركات العظيمة، فهذا أجلُّ من أن يوصف، ولا يمكن ردُّ موجبه بعد قيام المقتضي التامِّ، كما لا يمكن ردُّ السُّكر عن النفس بعد شرب ما يسكر من الخمر، بل إسكارُه للنفوس وصدُّه عن ذكر الله وعن الصلاة أعظمُ ممَّا في الخمر بكثير.

فإن الصلاة كما ذكر الله تعالى: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهذا أمر مجرَّب محسوس؛ يجد الإنسان من نفسه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويجد أهلُ السماع أن نفوسهم تميل إلى الفحشاء والمنكر، ولهذا يتعاطى كل أحد من الفاحشة حتى تعاطى كثير من المتصوفة صُحبةَ الأحداث ومشاهدتَهم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(العينان يزينان، وزناهما النظر)**[1]، وغالب أهله يخالطون الأحداث والنسوان الأجانب، ومن امتنع منهم عن ذلك لورع أو غيره، فإنه إنما ينتهي عن ذلك بغير

= ويعني الشيخ بـ«ما لم يشرعه الله»: سماع القصائد الملحنة، ويعني بـ«ما ذمَّه»: آلات الطرب.

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، رقم: ٦٢٤٣)، وأبو داود (كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، رقم: ٢١٥٣).

هذا السماع، وأما هذا السماع، فلا ينهاه عن ذلك قطعاً، بل يدعوه إليه، لا سيما النفوس التي بها رِقَّةٌ ورياضة وزهد، فإن سماع الصوت يؤثر فيها تأثيراً عظيماً.

وكذلك مشاهدة الصور، ويكون ذلك قُوتاً لها، وبهذا اعتاض الشيطان فيمن يفعل ذلك من المتصوفة، فإنه لم يُبالِ بعد أن أوقعهم فيما يفسد قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ألا يشتغل بجمع الأموال والسلطان، إذ قد تكون فتنةُ أحدهم بذلك أعظمَ من الفتنه بالسلطان والمال؛ فإن جنس ذلك مباح وقد يستعان به على طاعة الله، وأما ما يشغل به هؤلاء أنفسهم، فإنه دين فاسد منهيٌّ عنه، مضرَّتُه راجحةٌ على منفعتِه.

الوجه الخامس: تشبيه الرجال بالنساء؛ فإن المغاني كان السلف يسمونهم مخانيثَ؛ لأن الغناء من عمل النساء، ولم يكن على عهد النبي ﷺ يغنِّي في الأعراس إلا النساء؛ كالإماء والجواري الحديثات السن، فإذا تشبَّه بهم الرجل كان مخنثاً، وقد لعن رسول الله ﷺ المخنَّثين من الرجال والمترجِّلات من النساء، وهكذا فيمن يحضرون في السماع من المُردان الذين يسمونهم الشهود، فيهم من التَّخنُّث بقدر ما تشبَّهوا بالنساء، وعليهم من اللعنة بقدر ذلك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه أمر بنفي المخنثين(١)، وقال:

---

(١) المخنَّثون: جمع مخنَّث، وأصله من خَنِث، والانخناث: التثني والتكسر والاسترخاء، والمخنَّث: هو المتشبه بالنساء في حركاته وكلامه.
وقيل: إن المخنَّث يطلق أيضاً على من يفعل به الفاحشة، قال الإمام ابن حجر (فتح الباري ٢/ ١٩٠): «المخنّث: رويناه بكسر النون وفتحها، فالأول: المراد به من فيه تكسر وتثنٍّ وتشبه بالنساء، والثاني: المراد به من يُؤتىَ»اهـ.
وقد ردّ المعنى الثاني ـ أنه الذي يؤتى ـ بعض العلماء كالزبيدي، حيث قال في تاج العروس (٣/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧): «قال شيخنا: ورأيت في بعض شروح البخاري ـ وذكر كلام ابن حجر ثم قال ـ والظاهر أنه تَفَقُّهٌ، وإلا فالتخنيث =

(أخرجوهم من بيوتكم)[١]، فكيف نَمُرُّ بقربهم ونعظِّمُهم، ونجعلهم طواغيتَ معظَّمون بالباطل الذي حرمه الله ورسوله وأمر بعقوبة أهله وإذلالهم؟ وهذا مضادٌّ في أمره؛ فإن النبي ﷺ قال: **(من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله، فقد ضادَّ الله في أمره)**[٢] رواه أبو داود.

فإذا كان هذا في الشفاعة بالكلام، فكيف بالذي يعظِّم المتعدِّين لحدود الله، ويعينهم على ذلك، ويجعل ذلك ديناً؟ لا سيما التعظيم لما هو من جنس الفواحش، فإنَّ هذا من شأنه ـ إذا كان مباحاً ـ سَترُه أو إخفاؤه، وأهله لا يجوز أن يُجعَلُوا من ولاة الأمور، ولا يكون لهم نصيب من السلطان بما فيهم من نقص العقل والدين، فكيف بمن هو من جنس هؤلاء مِمَّن لعنه الله ورسوله؟.

فإن من يعظِّم القَيْنات المغنيِّات، ويجعل لهن رياسةً وحكماً لأجل ما يستمع منهن من الغناء وغيره: عليه من لعنة الله وغضبه أعظمُ مِمَّن يؤمِّر المرأة الحرة ويُمَلِّكُها، وقد قال النبي ﷺ: **(لن يفلح قوم وَلَّوْا أمرهم امرأة)**[٣]. فالذي يعظم المخنثين من الرجال، ويجعل لهم من

= الذي هو فعل الفاحشة لا تعرفه العرب، وليس في شيء من كلامهم، ولا هو المقصود من الحديث»اهـ.

وانظر: القاموس (ص٢١٦، مادة: خنث).

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، ٥/ ٢٢٠٧/ ٥٥٤٧)، من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وأبو داود (كتاب الأدب، باب في الحكم في المخنثين، ٤/ ٢٨٣/ ٤٩٢٩)، وابن ماجه (كتاب الحدود، باب المخنثين، ٢/ ٨٧٢/ ٢٦١٤)، من حديث: أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) الحديث: رواه أبو داود (كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، ٣/ ٣٠٥/ ٣٥٩٧) من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (كتاب البيوع، بابٌ، ٢/ ٣٢/ ٢٢٢٢) من حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى =

الرياسة والأمر على الأمر المحرم ما يجعل، هو أحقُّ بلعنة الله وغضبه من أولئك؛ فإن غناء الإماء والاستمتاع بهن من جنس المباح، وما زال الإماء وغيرُهن من النساء يغنين على عهد النبي ﷺ وأصحابه في الأفراح؛ كالعرس وقدوم الغائب ونحو ذلك، بخلاف من يستمعون الغناء مِنَ المردان والنساء الأجنبيات، ويجتمعون معهم على الفواحش، فإنما يكون ذلكَ من أعظم المحرَّمات، فكيف إذا جُعل ذلك مِنَ العبادات؟، وقد كتبنا في غير هذا الموضع مِمَّا يتعلق بذلك ما لا يحتمله هذا الموضع.

الوجه السادس: أنَّ رفع الأصوات في الذكر المشروع لا يجوز إلا حيث جاءت به السنّة، كالأذان والتلبية ونحو ذلك، فالسنّة للذاكرين والداعين ألا يرفعوا أصواتهم رفعاً شديداً، كما ثبت في الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا علَوْنا على شرفٍ كبَّرنا، فارتفعت أصواتنا، فقال: (**يا أيها الناس أرْبِعوا على أنفسكم، فإنكم لا تَدْعُونَ أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته**)[1].

وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال عن زكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وفي هذا من الآثار عن سلف الأمة وأئمتها ما ليس هذا

= وقيصر، ٤/ ١٦١٠/ ٤١٦٣)، والترمذي (كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، بابٌ، ٤/ ٥٢٧/ ٢٢٦٢)، والحاكم (كتاب الفتن والملاحم، بابٌ، ٤/ ٥٧٠/ ٨٥٩٩) من حديث: أبي بكرة رضي الله عنه.

(١) الحديث: تقدم تخريجه (١/ ٥٤٠).

موضعه»اهـ[(١)].

ثالثاً: مواقعة فريق منهم للفواحش، أثناء السماع:

قال الشيخ: «وللأصوات طبائعُ متنوعةٌ تتنوع آثارها في النفس، وكذلك للكلام المسموع نظمه ونثره، فيجمعون بين الصوت المناسب والحروف المناسبة لهم.

وهذا الأمر يفعله بنو آدم من أهل الديانات البدعية كالنصارى والصابئة، وغير أهل الديانات ممن يحرك بذلك حبه وشوقه ووجده أو حزنه وأسفه أو حميته وغضبه أو غير ذلك، فخلف بعد أولئك من صار يجمع عليه أخلاطاً من الناس، ويرَوْن اجتماعهم لذلك شبكةً تصطاد النفوس ـ بزعمهم ـ إلى التوبة، والوصول في طريق أهل الإرادة.

وأحدث بعد أولئك أيضاً الاستماع من المخانيث المعروفين بالغناء لأهل الفسوق والزنى، وربما استمعوه من الصبيان المردان، أو من النسوان المِلاح، كما يفعل أهل الدساكر[(٢)] والمواخير[(٣)].

وقد يجمعون في السماع أنواع الفُسَّاق والفُجَّار، وربما قصدوا التكاثر بهم والافتخار، لا سيما إن كانوا من أهل الرياسة واليسار، وكثيراً ما يحضر فيه أنواع المُردان، وقد يكون ذلك من أكبر مقاصد أهل

---

(١) الاستقامة (١/ ٣١٤ ـ ٣٢٥)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستقامة (٢/ ١٦٧).

(٢) الدساكر: جمع دسكر ودسكرة، لفظ معرَّب، وهو البناء كالقصر وحوله بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي.
انظر: لسان العرب (٤/ ٢٨٦).

(٣) المواخير: جمع ماخور، وهو البيت الذي يجتمع فيه الفساق لشرب الخمر، ويسمى حانوتاً وجمعه حوانيت.
انظر: لسان العرب (٢/ ٢٦، ٥/ ١٦١).

السماع، وربما ألبسوهم الثياب المصبَّغة الحسنة، وأرقصوهم في طابق الرقص والدوران، وجعلوا مشاهدتهم، بل معانقتهم مطلوباً لمن يحضر من الأعيان، وإذا غلبهم وجد الشيطان رفعوا الأصوات التي يبغضها الرحمن»اهـ(١).

وبيَّن الشيخ أن هؤلاء المبتدعة، الذين يجتمعون على هذا السماع، وما يصاحبه من فجور وفاحشة، ويعدُّونه عبادةً لله!! هم شرٌّ من المشركين الذين كانوا يطوفون بالبيت عُراةً:

قال الشيخ: «فهؤلاء وأمثالهم ممن يدخل في ذلك يزعمون أن طريقهم موافق لطريق العقل والدين والخلق وإن اندرج في ذلك من الأمور الفاحشة ما اندرج.

وهؤلاء لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ [الأعراف: ٢٨].

لكن العرب الذين كانوا سببَ نزول هذه الآية إنما كانت فاحشتُهم التي قالوا فيها ما قالوا طوافهم بالبيت عراةً؛ لاعتقادهم أن ثيابهم التي عصوا الله فيها لا تصلح أن يُعْبَدَ الله فيها، فكانوا ينزِّهون عبادةَ الله عن ملامسة ثيابهم، فيقعون في الفاحشة التي هي كشف عوراتهم.

وأما هؤلاء فأمرهم أجلُّ وأعظم؛ إذ غاية ما كان أولئك يفعلون طوافُ الرجال والنساء عراةً مختلطين، حتى كانت المرأة منهم تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... وما بدا منه فلا أُحِلُّهِ(٢)

---

(١) الاستقامة (١/٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٢) قال الإمام ابن كثير في تفسيره (٢/٢٧٩): «كانت العرب ـ ما عدا قريشاً ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها؛ يتأوَّلون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش ـ وهم الحُمْسَ ـ يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا =

ولم يكن ذلك الاختلاط والاجتماع إلا في عبادة ظاهرة لا يتأتَّى فيها فعلُ الفاحشة الكبرى، ولم يقصدوا بالتعرِّي إلا التنزُّهَ من لباس الذنوب بزعمهم.

فالذين يجتمعون من الرجال والنساء والمُردان لسماع المكاء والتصدية، ويطفؤون المصابيح حتى لا يرى أحدُهم الآخرَ، حتى اجتمعوا على غناء وزنىً ومطاعمَ خبيثةٍ، وجعلوا ذلك عبادةً، فهؤلاء شرٌّ من أولئك بلا ريب، فإن هؤلاء فتحوا أبواب جهنم.

كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: ما أكثر ما يُدخل الناس النار؟ فقال: **(الأجوفان: الفمُ والفرجُ)** قال الترمذي: حسن صحيح[1].

= يتملَّكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستُرَه بعضَ السَّتر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراةً بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: «قل» ـ أي يا محمد ـ لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته؟»اهـ.

وانظر: لباب النزول في أسباب النزول (١/ ١٠٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨١)، تفسير القرطبي (٧/ ١٦٧)، تفسير البغوي (١/ ٢٢١)، فتح القدير ـ للشوكاني (٢/ ٢٩٢).

(١) الحديث: رواه الترمذي، وقال: صحيح غريب (كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حسن الخلق، ٤/ ٣٦٣/ ٢٠٠٤)، وابن ماجه =

وكذلك روي عنه أنه قال: (**أخْوَفُ ما أخاف عليكم شهواتُ الغيِّ في بطونكم وفروجكم ومُضِلَّاتُ الفتن**)[(١)].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره**)، وفي رواية مسلم: (**حُفَّت**) مكان (**حُجِبت**)[(٢)].

وإذا كانت النار محجوبةً ومحفوفةً بالشهوات لم يُدخل النار إلا بها، وإذا كانت الجنة محجوبةً ومحفوفةً بالمكاره لم يُدخل الجنة إلا بها.

وفي (صحيح البخاري) عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (**من يضمن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة**)[(٣)]، وما بين لحييه يتناول الكلام والطعام.

كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي شُرَيح الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر،**

= واللفظ له (كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، ٢/١٤١٨/٤٢٤٦)، وابن حبان (كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق، ٢/ ٢٢٤/ ٤٧٦) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث: رواه الطبراني في المعجم الصغير بلفظ: (.. ومضلات الهوى) (باب العين ـ من اسمه عمر، ١/ ٢٢٣/ ٥١٢) من حديث: أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات، ٥/ ٢٣٧٩/ ٦١٢٢)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، بابٌ، ٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٢) من حديث: أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ٥/٢٣٧٦/ ٦١٠٩)، ومسلم (كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حفظ اللسان، ٤/٦٠٦/٢٤٠٨) من حديث: سهل بن سعد رضي الله عنه.

فليقل خيراً أو ليصمت)[١].

فبيّن ﷺ أنه من ضَمِن له هذين ضمن له الجنة، وهذا يقتضي أن من [لم يضمن][٢] هذين يدخل النار، ولهذا حَرَّمَ الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرَّم أيضاً انتهاك الأعراض، وجعل في القذف بالفاحشة من العقوبة المقدرة ـ وهي حد القذف ـ ثمانين جلدةً.

وبيّن ﷺ: أن الزنى من الكبائر، وأن قَذْفَ المحصناتِ الغافلات من الكبائر، وهو من نوع الكبائر؛ إذ لم يأت عليه القاذف بأربعة شهداءَ، وإن كان قد وقع، فإنه أظهرَ ما يحبُّ الله إخفاءه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: **(كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن مِنَ المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستره)**[٣].

وقال: **(من ابتُلي من هذه القاذورة بشيء، فليستتر بستر الله؛ فإنه من يُبْدِ لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله)**[٤].

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ٥/ ٢٣٧٦/ ٦١١٠)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، ١/ ٦٨/ ٤٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) زدتُ هاتين الكلمتين: (لم يضمن) ليستقيم الكلام، وهي ليست في المطبوع.

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، ٥/ ٢٢٥٤/ ٥٧٢١)، ومسلم (كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان سِتر نفسه، ٤/ ٢٢٩١/ ٢٩٩٠) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحديث: رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (كتاب التوبة، بابٌ، ٤/ ٢٧٢/ ٧٦١٥) من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومالك في الموطأ (كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنى، ٢/ ٨٢٥/ ١٥٠٨) عن: مالك بن زيد بن أسلم.

وفي الصحيحين عن صفوان بن محرز رضي الله عنه: أن رجلاً سأل ابنَ عمرَ: كيف سمعت النبي ﷺ يقول في النجوى؟ قال: (**يدنو أحدُكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرِّره، ثم يقول: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**)[1].

ولهذا يكثر وقوع الناس في أحد هذين الذنبين»اهـ[2].

وبيَّن الشيخ أن السماع يحرك الساكن في القلب، ويثير فيه حبَّ المُردان والنساء، والتعلُّقَ بالصور الجميلة:

قال الشيخ: «وكذلك الأصوات المثيرة للوجد والطرب، تحرك كل قلب إلى مطلوبه، قد اشترك فيها: محبُّ الرحمن، ومحب الإيمان، ومحب الغِلمان، ومحب النسوان، ومحب المردان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ولهذا لم تجئ الشريعة بهذا السماع»اهـ[3].

رابعاً: الرقص أثناء السماع:

قال الشيخ: «ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين، وإن كان قد غلط فيه قوم من صالح المسلمين...

وأما (الرقص) فلم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من الأئمة، بل قد قال الله في كتابه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وقال في

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب المظالم، باب قول الله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ٢/ ٨٦٢/ ٢٣٠٩)، ومسلم (كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٨) من حديث: عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) الاستقامة (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٤).

(٣) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٧٦، ١٧٠، ٢٠٩، ٣٥٠، ٤١٧، ١٤/ ٤٦٦).

كتابه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي: بسكينة ووقار، وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود، بل الدف والرقص في الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ، ولا أحد من سلف الأمة؛ بل أمروا بالقرآن في الصلاة والسكينة»اهـ[١].

خامساً: الشروط المحدَثة التي يشترطونها، عند غَلَبَةِ الحال عليهم في السماع:

قال الشيخ: «وأما (الشروط) التي يلتزمها كثير من الناس في السماع وغيره، مثل أن يقول: على المشاركة في الحسنات، وأيُّنا خلص يوم القيامة خلص صاحبه؛ ونحو ذلك، فهذه كلُّها شروط باطلة، فإن الأمر يومئذ لله هو: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وكذلك يشترطون شروطاً من الأمور الدنيوية ولا يوفون بها، وما أعلم أحداً ممن دخل في هذه الشروط الزائدة على ما شرطه الله ورسوله وَفَى بها، بل هو كلام يقولونه عند غَلَبَةِ الحال لا حقيقةَ له في المآل، وأسعد الناس من قام بما أوجبه الله ورسوله، فضلاً عن أن يوجب على نفسه زيادات على ذلك.

وهذه المسائل قد بسطت في غير هذا الموضع والله أعلم»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «ولهذا يشترك هؤلاء في جنس السماع الذي يثير ما

---

(١) الفتاوى (١١/٥٩٧، ٥٩٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/٦٠٤، مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٩٥).

(٢) الفتاوى (١١/١٠١ ـ ١٠٢).

في النفوس من الحب والوجد والذوق، فيثير من قلب كل أحد حبَّه وهواه وأهواؤهم متفرقة؛ فإنهم لم يجتمعوا على محبة ما يحبه الله ورسوله، إذ كان محبوب الحق - على أصل قولهم - هو ما قدَّره فوقع، وإذا اختلفت أهواؤهم في الوجد اختلفت أهواء شياطينهم، فقد يقتل بعضهم بعضاً بشياطينه؛ لأنها أقوى من شياطين ذاك، وقد يسلُبه ما معه من الحال الذي هو التصرُّفُ والمكاشفة الحاصلة له بسبب شياطينهم، فتكون شياطينه هربت من شياطين ذلك، فيضعف أمره ويسلب حاله، كمن كان ملِكاً له أعوان فأُخذت أعوانه، فيبقى ذليلاً لا مُلك له، فكثير من هؤلاء كالملوك الظَّلَمَة، الذين يعادي بعضُهم بعضاً، إما مقتول وإما مأسور وإما مهزوم؛ فإن منهم من يأسر غيره فيبقى تحت تصرفه، ومنهم من يسلبه غيره، فيبقى لا حال له كالملك المهزوم»اهـ[(١)].

ونخلص مما سبق إلى حقيقة مهمة، وهي:

أن الصوفية لم يتوقف انحرافهم في السماع على الجوانب السلوكية، كمخالطة النساء والمردان، وسماع المعازف والألحان، كلا؛ بل تعدى ذلك إلى أن أفضى بهم هذا السماع إلى القول بالحلول والاتحاد، وتلاعب الشياطين بهم، وتزيينها لهم باطلَهم، حتى انتقلوا مِنَ المعصية إلى البدعة، والشيطان أشد فرحاً بالبدعة منه بالمعصية، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ومما زاد الطين بِلَّة: أن الصوفية لِمَّا ابتدعوا هذا السماع الشيطاني، بدأ يدخل في صفوفهم ويتزيا بزيِّهم أقوامٌ ليس لهم أدنى نصيب من الزهد والخوف والعبادة، وإنما تعلَّقت نفوسُهم بما في هذا

(١) الفتاوى (٨/ ٣٥١ - ٣٥٢).

السماع من إثارة الغرائز، ومخالطة النساء والمردان، ومواقعة الفواحش، وهم يعدُّون أنفسهم في كل ذلك مطيعين غيرَ عاصين؛ لأنهم في حلقة ذِكر وحضرةٍ ربَّانية، زعموا.

إضافة إلى ما سببَّه لهم هذا السماع من إعراض عن السماع الرحماني، وتلاوة القرآن؛ بل استثقال مجالس العلم والذكر الخالية من مثل هذا السماع، فجمعوا بين الفسق بسماع المعازف، والبدعة بتعبُّدهم بعباداتٍ غيرِ مشروعةٍ، بل محرمة، والجهل بالانقطاع عن مجالس العلم وهجرانها.

وقد تقدم من الكلام عن مضار هذا السماع وآثاره ما يغني عن إعادته هنا، وإنما المقصود هنا الإشارة إلى معالمَ مِمَّا سبق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



الفصل الثاني

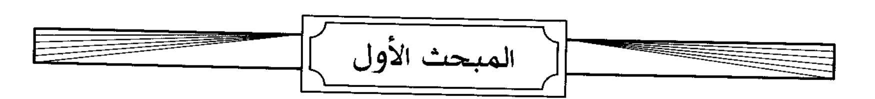
آراؤه في معالم الطريق الصوفي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المريد وآدابه

المبحث الثاني: العهد، والبيعة، والتلقين

المبحث الثالث: الخِرَق والمرقعات، والتعرِّي



المريد وآدابه

تمهيد:

قبل الكلام عن ما حكاه شيخ الإسلام عن الصوفية في آداب المريد(١)، وكيفية تربيته، أرى أنه من المناسب أن أُمهِّدَ قبل ذلك بذكر

---

(١) تعددت عبارات المتصوفة في ضبط صفات المريد، وسبب تسميته مريداً:
فقال الكلاباذي في التعرف لمذهب التصوف (ص١٣٩): «الباب الثالث والستون: قولهم في **المريد** والمراد: **المريد** مراد في الحقيقة، والمراد مريد؛ لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله ﷻ تقدمت له، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فكانت إرادتُه لهم سببَ إرادتهم له؛ إذ علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق، فمحال أن لا يريده العبد، فجعل **المريد** مراداً والمراد مريداً، غير أن **المريد** هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد هو الذي سبق كشوفه اجتهاده، أنشدني الفقيه أبو عبد الله البرقي لنفسه:

مريد صفا منه سر الفؤاد ... فهام به السر في كل واد
ففي أي واد سعى لم يجد ... له ملجأ غير مولى العباد
أراد وما كان حتى أريد ... فطوبى له من مريد مراد

وعرَّفه المناوي في كتابه «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص٦٥١) فقال: **المريد** ـ بالضم ـ: من انقطع إلى الله عن النظر والاستبصار، وتجرد عن إرادته، إذ علم أنه لا يقع في الوجود إلا ما يريده الله، لا ما يريده غيرُه، فيمحو إرادتَه في إرادته، فلا يريد إلا ما يريده الحق.اهـ.
وعرَّفه ابن عربي بقوله: «الإرادة عند القوم لوعة يجدها المريد من أهل هذه الطريقة تَحُول بينه وبين ما كان عليه مِمَّا يحجبُه عن مقصوده».اهـ. الفتوحات المكية (٢/ ٥٢١، ط. دار صادر، بيروت). =

افتتان المتصوفة بالصور الجميلة، وتعلُّقهم بالمردان ومخالطتهم، وما وقع فيه كثير منهم نتيجةً لذلك من الفواحش والكبائر.

وفيما يلي أُبين ما حكاه الشيخ عنهم في التعلُّق بالمردان ـ عموماً ـ واتخاذ بعضهم هذا التعلق ديانةً وعبادةً:

أولاً: افتتان كثير من الصوفية بالصور الجميلة ـ عموماً ـ:

قال الشيخ: «قال فتحُ الموصليُّ[(١)]: «صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يُعَدُّون من الأبدال، كلهم أوصاني عند مفارقتي له: اتَّقِ صُحبة الأحداث، اتَّق معاشرةَ الأحداث»[(٢)].

وكان سفيان الثوري: لا يدع أمردَ يجالسه.

وكان مالك بن أنس[(٣)]: يمنع دخول المُرْدِ مجلسَه للسماع، فاحتال

= وعرّفه الجرجاني في التعريفات (ص٢٦٩) فقال: **المريد** هو المجرد عن الإرادة. ثم نقل الجرجاني تعريف محيي الدين ابن عربي للمريد ـ فقال: قال الشيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره في الفتح المكي: من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار وتجرد عن إرادته إذا علم أنه ما يقع في الوجود إلا ما يريده الله تعالى لا يريده غيره فيمحو إرادته في إرادته، فلا يريد إلا ما يريده الحق. اهـ.

(١) هو فتح بن محمد بن وشاح الأزدي الموصلي، العابد الزاهد، قال الذهبي: «له أحوال ومقامات وقدم راسخ في التقوى»اهـ، توفي سنة ١٧٠هـ.
انظر: سير الأعلام (٧/ ٣٤٩)، تاريخ بغداد (١٢/ ٣٨٣).

(٢) الرسالة القشيرية (ص٣٦٢، ط. دار الخير).

(٣) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ٩٣هـ، له كتاب «الموطأ» جمع فيه الحديث والفقه والرد على المبتدعة من الجهمية والمعتزلة، توفي سنة ١٧٩هـ.
انظر: وفيات الأعيان (٤/ ١٣٥ ـ ١٣٩)، تهذيب التهذيب (١٠/ ٥ ـ ٩)، شذرات الذهب (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢)، الأعلام (٦/ ١٢٨)، تاريخ الأدب العربي (٣/ ٢٧٥ ـ ٢٨٠).

هشام[١] فدخل في غمار الناس مستتراً بهم، وهو أمردُ، فسمع منه ستة عشر حديثاً، فأُخبر بذلك مالك، فضربه ستة عشر سوطاً، فقال هشام: ليتني سمعت مائةَ حديث وضربني مائة سوط، وكان يقول: هذا علم إنما أخذناه عن ذوي اللِّحى والشيوخ، فلا يحمله عنا إلا أمثالُهم.

وقال يحيى بن معين[٢]: ما طمِع أمردُ أن يصحبَني، ولا أحمد بن حنبل في طريق.

وقال أبو علي الروذباري: قال لي أبو العباس أحمد المؤدب[٣][٤]: يا أبا علي! من أين أخذ صوفيةُ عصرنا هذا الأُنسَ بالأحداث؟ [فقلت له: يا سيدي، أنت أعرف بهم] وقد تصحبهم السلامة في كثير من الأمور، فقال: هيهات [يا أبا علي] قد رأينا مَنْ هو أقوى

---

(١) هو هشام بن عمار ابن نُصير بن ميسرة بن أبان. الإمام الحافظ العلامة المقرئ سمع من مالك ومسلم الزنجي وسفيان ابن عيينة وخلق كثير، كان من أدعية العلم حدث عنه من أصحاب الكتب: البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وروىٰ عنه الترمذي عن رجل عنه، قال البخاري وغيره: توفي هشام بن عمار في آخر المحرم سنة خمس وأربعين ومئتين. انظر سير الأعلام (١١/ ٤٢٠).

(٢) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد بن سطام، أبو زكريا المري، مولاهم البغدادي، ولد سنة ١٥٨هـ، وكان إماماً عالماً حاذقاً في نقد الرجال، روي عنه أنه قال: «كتبت بيدي ألف ألف حديث»اهـ، توفي سنة ٢٣٣هـ.
انظر: الجرح والتعديل (١/ ٣١٤)، تاريخ بغداد (١٤/ ١٧٧)، وفيات الأعيان (٦/ ١٣٩)، سير الأعلام (١١/ ٧١).

(٣) في المطبوع: أحمد بن المؤدب، والصواب ما أثبت، والتصحيح من كتب التراجم.

(٤) هو أحمد المؤدب، أبو العباس، من مشايخ الصوفية، حكى عن سريٍّ السَّقَطي، روى عنه أبو علي الروذباري.
انظر: تاريخ بغداد (٥/ ٢٣٠).

منهم إيماناً، إذا رأى الحدث قد أقبل، يفرُّ[١] منه كفِراره من الأسد، وإنما ذاك على حسب الأوقات التي تغلب الأحوال على أهلها، فيأخذها تصرف الطباع، ما أكثر الخطأ! ما أكثر الغلط![٢].

قال الجنيد بن محمد: جاء رجل إلى أحمد بن حنبل، معه غلام أمردُ حسن الوجه، فقال له: من هذا الفتى؟! فقال الرجل: ابني، فقال: لا تجئ به معك مرة أخرى، فلامه بعض أصحابه في ذلك، فقال أحمد: على هذا رأينا أشياخَنا، وبه أخبرونا عن أسلافهم[٣].

وجاء حسن بن الرازي[٤] إلى أحمد ومعه غلام حسن الوجه، فتحدث معه ساعة، فلما أراد أن ينصرف، قال له أحمد: يا أبا علي! لا تمش مع هذا الغلام في طريق، فقال: يا أبا عبد الله! إنه ابن أختي! قال: وإن كان! لا يأثم الناس فيك[٥].

وروى ابن الجوزي[٦] بإسناده عن سعيد بن المسيب، قال: إذا

---

(١) في المطبوع: نفر، والصواب ما أثبت، والتصحيح من تاريخ بغداد (٥/ ٢٣٠).
(٢) القصة في تاريخ بغداد (٥/ ٢٣٠)، وما بين المعقوفتين زيادة من تاريخ بغداد.
(٣) تاريخ بغداد (٥/ ٢٣٠).
(٤) هو الحسن بن أحمد بن أبي الليث الرازي، صحب الإمام أحمد ونقل عنه أشياء.
انظر: المنهج الأحمد في أصحاب الإمام أحمد (٢/ ٨٥)، طبقات الحنابلة (١/ ١٢٩)، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح (١/ ٣٠٩).
(٥) القصة ذكرها العليمي في المنهج الأحمد (١/ ٣٢٩) من رواية الجنيد إلا أنه ذكر أن الغلام كان ابناً للرجل لا ابناً لأخته.
(٦) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، أبو الفرج ابن الجوزي، والجوزي نسبة إلى فرضة نهر البصرة، ولد سنة ٥٠٨هـ، وهو أحد الأئمة الأعلام، بلغت مصنفاته في التفسير والوعظ والحديث نحواً من ثلاثمائة مصنف، توفي سنة ٥٧٩هـ.
=

رأيتم الرجل يلحُّ بالنظر إلى الغلام الأمرد[(١)]، فاتَّهموه»اهـ[(٢)].

ثانياً: بيَّن الشيخ أن النظر إلى المردان على ثلاثة أقسام:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «النظر إلى المردان ثلاثة أقسام:

أحدها: ما تقترن به الشهوة، فهو محرم بالاتفاق.

والثاني: ما يجزم أنه لا شهوةَ معه، كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن وابنته الحسنة، وأمِّه الحسنة، فهذا لا يقترن به شهوةٌ إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس، ومتى اقترنت به الشهوة حرُمَ، وعلى هذا نظرُ مَنْ لا يميل قلبه إلى المردان، كما كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة.

فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق ـ من هذا الوجه ـ بين نظره إلى ابنه وابن جاره، وصبيٍّ أجنبي، لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة؛ لأنه لم يعتدْ ذلك، وهو سليم القلب من قبل ذلك، وقد كانت الإماءُ على عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يمشين في الطرقات مكشَّفات الرؤوس، ويخدُمن الرجال، مع سلامه القلوب، فلو أراد الرجل أن يترك الإماءَ التركيات الحِسان يمشين بين الناس، في مثل هذه البلاد والأوقات، كما كان أولئك الإماء يمشين، كان هذا من باب الفساد، وكذلك المُردان الحِسان لا يصلح أن يخرجوا في الأمكنة والأزِقَّة التي يخاف فيها الفتنة بهم، إلا بقدر الحاجة، فلا يُمَكَّن الأمردُ الحسنُ من التبرُّج، ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب، ولا من رقصه بين الرجال، ونحو ذلك مِمَّا فيه فتنة للناس، والنظر إليه كذلك.

= انظر: سير الأعلام (٢١/ ٣٦٥)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٧)، الأعلام (٣/ ٣١٦).

(١) تلبيس إبليس (١/ ٣٢٤).

(٢) الفتاوى (١٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٣٧٨، ١١/ ٥٤٢، ١٤/ ٤٦٥، ١٥/ ٤١٣، ٣٢/ ٢٤٧، ٢٥٥، ٣٥/ ٩٦).

وإنما وقع النزاع بين العلماء في:

القسم الثالث من النظر، وهو: النظر إليه بغير شهوة.

لكن مع خوف ثورانها: ففيه وجهان في مذهب أحمد:

أصحُّهما: وهو المحكيُّ عن نص الشافعي وغيره: أنه لا يجوز.

والثاني: يجوز؛ لأن الأصلَ عدَمُ ثورانها، فلا يحرُم بالشك، بل قد يُكره.

والأول هو الراجح كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز، وإن كانت الشهوةُ منتفيةً، لكن لأنه يخاف ثورانها، ولهذا حرَّم الخلوة بالأجنبية لأنه مَظِنَّةُ الفتنة، والأصل أن كل ما[1] كان سبباً للفتنة، فإنه لا يجوز فإن الذريعة إلى الفساد سدها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة»اهـ[2].

ثالثاً: يزعم المتصوفة أن النظر إلى الصور الجميلة يُصلح النفوسَ، ويُهذب الأخلاقَ، وهذا باطل:

قال الشيخ مبيناً هذا القول وراداً عليه: «وهذا لم يأمر الله ولا رسوله، ولا أهل العلم والإيمان بعشق الصور الجميلة، ولا أثنَوْا على ما كان كذلك، وكذلك العقلاء من جميع الأمم، ولكن طائفة من المتفلسفة والمتصوِّفة تأمر بذلك وتثني عليه؛ لِمَا فيه ـ زعموا ـ من إصلاح النفس ورياضتها، وتهذيب الأخلاق، واكتساب الصفات المحمودة، من السماحة والشجاعة والعلم والفصاحة والاختيال، ونحو ذلك من الأمور، حتى إن طائفة من فلاسفة الروم والفرس ومن اتَّبعهم من العرب تأمر به،

---

(١) في المطبوع، كُتِبت هكذا: كلما.

(٢) الفتاوى (١٥/٤١٧ ـ ٤١٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الاستقامة (١/٣٤٦).

وكذلك طائفة من المتصوفة، حتى يقول أحدهم: ينبغي للمريد أن يتَّخذَ له صورة يجتمع قلبه عليها، ثم ينتقل منها إلى الله، وربما قالوا إنهم يشهدون الله في تلك الصورة! ويقولون: هذه مظاهر الجمال، ويتأوَّلون قوله ﷺ: **(إن الله جميل يحب الجمال)**[1] على غير تأويله.

فهؤلاء وأمثالهم: ممن يدخل في ذلك، يزعُمون أن طريقهم موافق لطريق العقل والدين والخلق، وإن اندرج في ذلك من الأمور الفاحشة ما اندرج.

وهؤلاء لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

لكن العرب الذين كانوا سببَ نزول هذه الآية: إنما كانت فاحشتهم التي قالوا فيها ما قالوا، طوافهم بالبيت عراةً، لاعتقادهم أن ثيابَهم التي عصَوُا الله فيها لا تصلح أن يعبد الله فيها، فكانوا ينزِّهون عبادةَ الله عن ملامسة ثيابهم، فيقعون في الفاحشة التي هي كشف عوراتهم!.

وأما هؤلاء، فأمرهم أجلُّ وأعظم؛ إذ غاية ما كان أولئك يفعلون طواف الرجال والنساء عراةً مختلطين، حتى كانت المرأة منهم تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أُحِلُّه

ولم يكن ذلك الاختلاط والاجتماع إلا في عبادةٍ ظاهرةٍ، لا يتأتَّى فيها فعلُ الفاحشة الكبرى، ولم يقصدوا بالتعرِّي إلا التنزُّهَ من لباس الذنوب بزعمهم.

---

(١) الحديث: رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ١/ ٩٣/ ٩١)، وابن حبان (كتاب الزينة والتطيب، ١٢/ ٢٨٠/ ٥٤٦٦)، من حديث: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه الحاكم (كتاب الإيمان، ١/ ٧٨/ ٧٠) من حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

فالذين يجتمعون من الرجال والنساء والمُردان، لسماع المكاء والتصدية، ويُطفؤون المصابيحَ حتى لا يرى أحدُهم الآخرَ، حتى اجتمعوا على غناء وزنىً ومطاعمَ خبيثة، وجعلوا ذلك عبادةً، فهؤلاء شرٌّ من أولئك بلا ريب[١]؛ فإن هؤلاء فتحوا أبواب جهنم»اهـ[٢].

رابعاً: ويزعُم فريق من المتصوفة أن النظر إلى وجه الأمرد إذا كان بنيةِ التفكر يُعدُّ عبادةً:

قال الشيخ مبيناً ذلك وراداً عليه: «والنظر إلى وجه الأمرد لشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة، سواء كانت الشهوةُ شهوةَ الوطء، أو شهوة التلذُّذِ بالنظر، فلو نظر إلى أمه وأخته وابنته يتلذذ بالنظر إليها، كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية: كان معلوماً لكل أحد أن هذا حرامٌ، فكذلك النظر إلى وجه الأمرد باتفاق الأئمة، وقول القائل: إن النظرَ إلى وجه الأمرد عبادةٌ، كقوله: إن النظر إلى وجوه النساء، أو النظر إلى وجوه محارم الرجل ـ كبنت الرجل وأمه وأخته ـ عبادة!.

ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرَّمَ عبادةً كان بمنزلة من جعل الفواحش عبادةً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ومعلوم أنه قد يكون في صور النساء الأجنبيات وذوات المحارم، من الاعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما في صورة المُرْدِ، فهل يقول مسلم: إن للإنسان أن ينظرَ بهذا الوجه إلى نساء العالم وصور

(١) تقدم تفصيل ذلك بتوسع انظر مبحث «السماع» (ص١٨٨).
(٢) الاستقامة (١/ ٤٤٩).

محارمه، ويقول: إن ذلك عبادةٌ؟ بل من جعل هذا النظر عبادةً، فإنه كافرٌ مرتدٌّ، يجب أن يُستتابَ، فإن تاب وإلا قتل، وهو بمنزلة من جعل إعانةَ طالب الفواحش عبادةً، أو جعل تناول يسير الخمر عبادةً، أو جعل السكر بالحشيشة عبادةً، فمن جعل المعاونةَ على الفاحشة، بقيادة أو غيرها: عبادةً، أو جعل شيئاً من المحرَّمات التي يعلم تحريمها من دين الإسلام: عبادة، فإنه يُسْتتاب، فإن تاب وإلا قتل، وهو مضاهٍ للمشركين الذين ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وفاحشة أولئك إنما كانت طوافهم بالبيت عراةً، وكانوا يقولون: لا نطوف في الثياب التي عصينا الله فيها؛ فهؤلاء إنما كانوا يطوفون عُراةً، على وجه اجتناب ثياب المعصية، وقد ذكر عنهم ما ذكر، فكيف بمن يجعل جنس الفاحشة المتعلقة بالشهوة عبادةً؟»اهـ[١].

يستدلّ الصوفية على التديّن بمحبة الصور الجميلة والتعلُّق بها:

بأن دحية الكلبي رضي الله عنه[٢] كان أمردَ، وكان جبريلُ يأتي على صورته.

وبحديث: (رأيت ربي بأحسن صورة).

قال الشيخ مبيناً ذلك، ورادّاً عليه: «وأما التديُّن بذلك: فهو أعظم من استحلاله، وهؤلاء المتدينون ما يكادون يتديَّنون بنفس فعل الفاحشة

---

(١) الفتاوى (٢١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(٢) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج بن عوف الكلبي، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق ـ وقيل: أُحد ـ ولم يشهد بدراً، وكان يُضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيلُ عليه السلام ينزل على صورته، نزل دمشق، وعاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه.
انظر: الإصابة (٢/ ٣٨٥)، الاستيعاب (٨/ ٤٦١).

الكبرى، ولكن بمقدماتها من النظر والتلذُّذ به والمباشرة، والعشق للنسوان الأجانب والصبيان، ويزعُمون أن ذلك يصفي نفوسهم وأرواحهم، ويرقِّيهم إلى الدرجات العالية، وفيهم من يزعُم أنه يخاطب من تلك الصورة، وتتنزل عليه أسرارٌ ومعارفُ، وفيهم من يترقَّى لغير ذلك، فيقول: إنه يتجلَّى له فيها الحقائق! وربما زعم أن الله يحل فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوّاً كبيراً، وقد يسجُدون لها.

ومن هؤلاء من يزعُم أن دحية الكلبي كان أمردَ، وأن جبريل كان يأتي النبيَّ ﷺ في صورة أمردَ، ويقول له: ما أحبُّ أن تأتيني إلا في صورة أمرد!

وفيهم من يتأول قوله ﷺ: **(رأيت ربي في أحسن صورة)**، وفي صورة كذا وكذا[1] ....

---

(١) الإشارة هنا إلى عدد من الأحاديث، اخترعها الصوفية لتؤيدَ ما ابتدعوه من التعلق بالغلمان، ومن هذه الأحاديث:

- ما رواه الخطيب البغدادي عن أم الطفيل امرأةِ أُبيٍّ بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: (رأيت ربي في المنام في أحسن صورة، شاباً موقراً، رِجلاه في خضرة، عليه نعلان من ذهب، على وجهه فُراشٌ من ذهب)، وهذا الحديث قال فيه الإمام الشوكاني في «الفوائد المجموعة»: رواه الخطيب عن أم الطفيل امرأة أبي بن كعب، وهو موضوع، وفي إسناده وضاع وكذاب ومجهول.. وقال البيهقي: روي من أوجه كلها ضعيفة، ويكفي في التعقيب على ابن الجوزي أنه هو نفسه ذكره في الواهيات.اهـ، وأورده السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» وقال: موضوع.اهـ.

- ومن الأحاديث أيضاً أربعة أحاديث ذكرها السيوطي في اللآلئ المصنوعة، وهي:

الأول: ما نسب إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت ربي في صورة شاب له وفرة)، والثاني: قول ابن عباس رضي الله عنه: رأى محمد ربه عز وجل =

ويجعل الأمرد ربه»اهـ[١].

أما ما حكاه شيخُ الإسلام عن المتصوفة من آداب المريد، وأحوال المريدين مع مشايخهم، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: سبب تسمية المريد مريداً:

المريد: مشتقٌّ من الإرادة، وهي طلب الوصول إلى الغاية:

قال الشيخ: «وأهل الزهد يعظِّمون الإرادةَ والمريد وطريق أهل الإرادة فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة»اهـ[٢].

ثانياً: ليس من الدين الانتسابُ إلى شيخ معيَّنٍ دون غيره؛ بل ليس من شرط التدين أن يكون لك شيخٌ:

قال الشيخ: «وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معيَّن، فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقَّوْن عنه الإيمانَ والقرآن، كما تلقى الصحابة رضي الله عنهم

= في صورة شابٍّ أمردَ، والثالث: ما نسب إلى عائشة رضي الله عنها أنها قالت: رأى النبي ﷺ ربه في صورة شاب جالس على كرسي رجله في خضرة من نور يتلألأ، والرابع حديث قريب منه منسوب إلى معاذ بن عفراء رضي الله عنه. وحكم السيوطي عليها جميعاً بالوضع والكذب.

وذكر أحدها ـ وهو: (رأيت ربي في صورة شاب أمرد) ـ ابنُ الديبع الشيباني في كتابه «تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث» وقال: دائر على ألسنة عوام المتصوفة، وهو موضوع مفترَى على رسول الله ﷺ كما قاله التاج السبكي وغيره، والله تعالى أعلم.اهـ.

انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني (ص٤٤٧)، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (١/٢٨ ـ ٢٩)، تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث لابنِ الديبع الشيباني (ص٨٣).

(١) الاستقامة (٢/١٩٥ ـ ١٩٦).

(٢) الفتاوى (١٣/١٠٠)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/٤٨٦).

ذلك عن النبي ﷺ، وتلقَّاه عنهم التابعون، وبذلك يحصلُ اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلِّمُه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدينَ الباطنَ والظاهر، ولا يتعين ذلك في شخص معين، ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين، كل من أفاد غيرَه إفادة دينية، هو شيخه فيها، وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه، فهو شيخُه من هذه الجهة، فسلفُ الأمة شيوخُ الخلفاء قرناً بعد قرن، وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته، ويعادي على ذلك؛ بل عليه أن يواليَ كلَّ مَنْ كان مِنْ أهل الإيمان، ومَنْ عرف منه التقوى مِنْ جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحداً بمزيدِ موالاةٍ، إلا إذا ظهر له مزيدُ إيمانه وتقواه، فيقدم مَنْ قدَّم اللهُ تعالى ورسوله عليه، ويُفَضِّل مَنْ فضَّله الله ورسوله.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: **(لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسودَ على أبيضَ، ولا لأبيضَ على أسودَ، إلا بالتقوى)**[(١)]»اهـ[(٢)].

وقال الشيخ: «وبعض المتصوفة: المريدُ يعتقد أن شيخَه أكملُ شيخٍ على وجه الأرض، وطريقتُه أفضلُ الطرق، وكلاهما انحراف»اهـ[(٣)].

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (٥/ ٤١١)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٨٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٧): رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ.

(٢) الفتاوى (١١/ ٥١١ ـ ٥١٢)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٥١٣، ٥١٩).

(٣) الفتاوى (١٤/ ٤٣٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢٨/ ١٧، ٢٢٧).

ثالثاً: من آداب المريد: الإعراض عن طلب العلم!:

قال الشيخ: «.. وأهل العبادات البِدعية يُزَيِّن لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبغِّض إليهم السبل الشرعية، حتى يبغضهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذِكره، وقد يبغِّض إليهم حتى الكتابَ، فلا يحبون كتاباً، ولا مَنْ معه كتاب، ولو كان مصحفاً أو حديثاً.

كما حكى النصرباذي: أنهم كانوا يقولون: يدع علم الخِرَق ويأخذ علم الورق! قال: وكنت أستر ألواحي منهم، فلما كبرت احتاجوا إلى علمي.

وكذلك حكى السَّريُّ السَّقَطيُّ: أن واحداً منهم دخل عليه، فلمَّا رأى عنده محبرة وقلماً خرج ولم يقعد عنده!.

ولهذا قال سهل بن عبد الله التستري: يا معشر الصوفية، لا تفارقوا السواد على البياض؛ فما فارق أحدٌ السوادَ على البياض إلا تزندق.

وقال الجنيد: عِلمُنا هذا مبنيٌّ على الكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الشأن.

وكثيرٌ من هؤلاء ينفُرُ مِمَّن يذكر الشرع أو القرآن، أو يكون معه كتاب أو يكتب؛ وذلك لأنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم، فصارت شياطينُهم تهرِّبُهم من هذا، كما يهرِّب اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين، حتى لا يتغيرَ اعتقادُه في دينه، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم، لئلا يسمعوا كلامه ولا يَرَوْه، وقال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١].

وهم مِنْ أرغب الناس في السماع البدعي ـ سماع المعازف ـ ومِنْ أزهدهم في السماع الشرعي، سماع آيات الله تعالى.

وكان مما زيَّن لهم طريقَهم:

أن وجدوا كثيراً مِنَ المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله تعالى وسلوك سبيله، إما اشتغالاً بالدنيا، وإما بالمعاصي، وإما جهلاً وتكذيباً بما يحصل لأهل التألُّه والعبادة، فصار وجود هؤلاء مِمَّا ينفِّرهم، وصار بين الفريقين نوعُ تباغضٍ يشبه ـ من بعض الوجوه ـ ما بين أهل المِلَّتين، هؤلاء يقولون: ليس هؤلاء على شيء، وهؤلاء يقولون: ليس هؤلاء على شيء، وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظمُ مِمَّا يحصل في الكتب»اهـ[(١)].

رابعاً: من آداب المريد: اتخاذ صورة جميلة يتعلق بها، ويجمع قلبه عليها:

قال الشيخ: «ولهذا لم يأمر اللهُ ولا رسولُه، ولا أهلُ العلم والإيمان بعشق الصور الجميلة، ولا أثنَوْا على ما كان كذلك، وكذلك العقلاء من جميع الأمم، ولكن طائفة من المتفلسفة والمتصوفة تأمر بذلك وتثني عليه لِمَا فيه ـ زعموا ـ من إصلاح النفس ورياضتها، وتهذيب الأخلاق، واكتساب الصفات المحمودة من السماحة والشجاعة والعلم والفصاحة والاختيال ونحو ذلك من الأمور، حتى إن طائفةً مِنْ فلاسفة الروم والفرس ومن اتبعهم من العرب تأمر به، وكذلك طائفة من المتصوفة حتى يقول أحدهم: ينبغي للمريد أن يتَّخذَ له صورة يجتمع قلبه عليها ثم ينتقل منها إلى الله، وربما قالوا إنهم يشهدون الله في تلك الصورة، ويقولون: هذه مظاهر الجمال»اهـ[(٢)].

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٤١١ ـ ٤١٣).

(٢) الاستقامة (١/ ٤٤٩).

خامساً: من آداب المريد: أن يشتغل بالذكر المفرد: الله.. الله، لتتنزَّلَ المعارفُ على قلبه:

قال الشيخ: «أمروا المريد أن يفرِّغ قلبَه من كل شيء، حتى قد يأمروه أن يقعدَ في مكان مظلم ويغطي رأسه! ويقول: الله.. الله! وهم يعتقدون أنه إذا فرَّغ قلبه استعدَّ بذلك، فينزل على قلبه من المعرفة ما هو المطلوبُ، بل قد يقولون: إنه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء، ومنهم مَنْ يزعُم أنه حصل له أكثرُ مما حصل للأنبياء»اهـ(١).

سادساً: من آداب المريد: أن يستغيث بشيخه عند نزول الشدائد!!:

قال الشيخ: «وأما ما يُروى عن بعضهم أنه قال: قبر معروفٍ الترياقُ المجرَّب، وقال بعضهم: فلان يُدعى عند قبره، وقول بعض الشيوخ لمريده: إذا كانت لك حاجةٌ، إلى الله فاستغث بي، أو قال: استغث عند قبري، ونحو ذلك»اهـ(٢).

سابعاً: وصية بعض المشايخ للمريدين بوصايا غير شرعية، كقول بعضهم: أيّ مريد لي، ترك في النار أحداً، فأنا منه بريء!!:

قال الشيخ: «كثير من السالكين سلكوا في دعوى حبِّ الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين، إما مِنْ تعدِّي حدود الله، وإما مِنْ تضييع حقوق الله، وإما مِنَ ادّعاء الدعاوَى الباطلة التي لا حقيقةَ لها؛ كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً، فأنا منه بريء، فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار، فأنا منه بريء، فالأول: جعل مريدَه يُخرج كلَّ مَنْ في النار، والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر مِنْ دخول النار.

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٢) الاستغاثة (١/ ٣٣٤).

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيمتي على جهنم، حتى لا يدخلَها أحدٌ، وأمثال ذلك من الأقوال التي تُؤْثَرُ عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم»اهـ[١].

ونخلص مما سبق من كلام شيخ الإسلام حول المريد وآدابه، وتعلُّق المتصوفة بالمُردان وافتتانهم بالصور الحسنة، إلى أنَّ كثيراً مِنَ الصوفية لا يقصد بمخالطة المردان وحِسان الغلمان دلالتهم على الحق وهدايتهم إليه، وإنما يقصد مِنْ ذلك جنسَ المخالطة، وما يصاحبها مِنْ منكر، لذا هم يُعظِّمون الشيخ في نفس المريد حتى يكونَ كلُّ ما يفعله الشيخ هو عند المريد صواباً لا يحتمل الخطأ، ويصبح مقياسُ الحق والباطل عند المريد ليس الكتاب والسنة، وإنما كلام الشيخ وآراؤه!!.

ولا شك أن مثل هذا الاعتقاد بالمشايخ من الغُلُوِّ الممنوع، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام في الرد عليهم.



(١) الفتاوى (١٠/٢٠٩).



المبحث الثاني

العهد والبيعة[(١)] والتلقين[(٢)]

لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متفرقين أوزاعاً، وما كوّنوا لأنفسهم جماعاتٍ منقسمةً يأخذون على أتباعهم فيها العهودَ والمواثيق،

---

(١) معنى البيعة ـ في اللغة ـ: بفتح الباء وسكون الياء: هي الصفقة في البيع، والبيعة: هي المبايعة والطاعة، وبايع فلان فلاناً: عاهده، وسُميت مبايعةً؛ لأن كل واحد منهما كأنه باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نَفْسه وطاعته ودَخيلة أمره.

انظر مادة: بيع، في: لسان العرب (٨/ ٢٦)، تاج العروس (١١/ ٣٢).

أما معنى البيعة عند الصوفية، فقد عرّفها أحد أتباع الطريقة الصوفية الختمية بأنها: «الالتزام أمامَ الشيخ المرشد باتباع آداب وأذكار معينة لنيل رضوان الله. .»، ثم قال هذا الصوفي الختمي: «وبيعة الطريقة أن تقول: اللهم إني تبت إليك، ورضيت بسيدي السيد محمد عثمان الميرغني شيخاً لي في الدنيا والآخرة. . ومعنى شيخاً لي في الدنيا والآخرة يتضح لك من آية واحدة من القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]»اهـ. الختمية العقيدة والتاريخ والمنهج ـ لمحمد أحمد خير (ص١٣٣، ط. دار المأمون، الخرطوم، الثانية ١٩٨٧م).

(٢) معنى التلقين ـ في اللغة ـ: مصدر مِنْ لقَّن تلقيناً، أي: فهَّم تفهيماً، ولقَّنه كلاماً تلقيناً: فهَّمه ما لم يفهم.

ومن التعريف اللغوي للتلقين يتضح أن مراد المتصوفة بالتلقين في الطرق الصوفية: أن يُفهِّم الشيخُ المريدَ الطريقة الصوفية، ويلقِّنه تعاليمها وآدابها، فالشيخ بعد أن يأخذ العهد والبيعة من المريد يبدأ في تلقينه الأصول والتعاليم.

انظر مادة: لقن، في: لسان العرب (١٣/ ٣٩٠)، تاج العروس (١٨/ ٥١٢).

أو يُربُّونهم على طرق يلقنونهم فيها التعاليم والآداب، وإنما كانت بيعتُهم وعهودُهم على اتباع الكتاب والسنة، ويلقنونها أتباعَهم حفظاً وعملاً وتعليماً.

وعلى هذا النهج القويم سار التابعون ومَنْ تبعهم بإحسان.

إلى أن جاء زمان نبتت فيه نابتةُ الابتداع والفرقة، وغلا قومٌ من المبتدعة في مشايخهم، ومنحوهم حق التشريع، وصار الطالب المريد يبايع شيخه على الطريقة ويعاهده على لزومها، ويجلس مع الشيخ الساعاتِ الطوالَ يلقِّنه أصول الطريقة وآدابها.

وقد عرض شيخ الإسلام مذهبَ الصوفية في هذه الطرق والآداب التي يسلكها المتصوفة، وبيّن ما فيها من خلل وضلال. ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

بيَّن الشيخ أن ما يتَّبعه فريق من الصوفية من عقد الأخوة وما يشترطونه فيه من شروط غير شرعية، هو أمر باطل لا أساس له في الشريعة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وأما عقد الأخُوَّة بين الناس في زماننا[1]، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية التي أثبتها الله بين المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقول النبي ﷺ: **(المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه)**[2].

وقوله: **(لا يبع أحدكم على بيع أخيه، ولا يستام على سَوْمِ أخيه،**

---

(١) في المطبوع: زمامنا، وهو تصحيف، والصواب ما أثبتّه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، ٢/ ٨٦٢/ ٢٣١٠)، ومسلم (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٨٠)، من حديث: عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولا يخطب على خطبة أخيه)[١].

وقوله: **(والذي نفسي بيده: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه)**[٢].

ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التي تجب للمؤمن على المؤمن، فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقدُ مؤاخاةٍ.

وأما الشروط التي يلتزمها كثير من الناس في السماع وغيره، مثل أن يقول: على المشاركة في الحسنات، وأيُّنا خلص يوم القيامة خلّص صاحبَه، ونحو ذلك، فهذه كلها شروط باطلة، فإن الأمر يومئذ لله، هو: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]»اهـ[٣].

وبهذا البيان الموجز من كلام شيخ الإسلام حول ما ابتدعه فريق من المتصوفة من العهد، والميثاق، والبيعة على أمورٍ غير شرعية، يتَّضح

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب البيوع، باب لا يبع على بيع أخيه ولا يسم على سوم أخيه، ٢/ ٧٥٢/ ٢٠٣٣)، ومسلم (كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، ٢/ ١٠٢٩/ ١٤٠٨)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

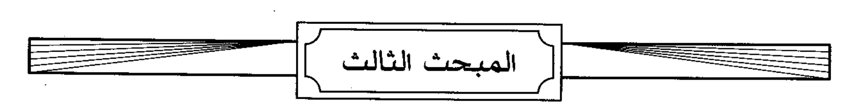
(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١/ ١٤/ ١٣)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب..، ١/ ٦٧/ ٤٥)، من حديث: أنس رضي الله عنه.

(٣) الفتاوى (١١/ ١٠٠ ـ ١٠١).

لنا أن غُلُوَّ الصوفية في مشايخهم جرَّهم إلى هذا النوع من الابتداع، فأصبح المشايخُ المتبوعون يُلزمون أتباعَهم بأمورٍ لم تُلزمهم بها الشريعة، ويظن المريد أن ما أُخِذ عليه من عهد وميثاق هو أمرٌ لازم لا يملك أن يخالفَه أو ينقض عهده وميثاقه الذي عقده مع شيخه.

وما أشبه حال هؤلاء بحال الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

❖ ❖ ❖



المبحث الثالث

الخِرَق والمرقَّعات والتَّعرِّي

تمهيد:

لُبس الخرق والمرقَّعات والتَّعرِّي: من شعارات الصوفية التي يعدُّونها من مظاهر التصوف التي لا يستغني عنها صوفيٌّ.

والخِرَق. جمعُ خرقة، وهي شعارٌ صوفيٌّ، يطلقه الصوفية، ويعنون به قطعة الثوب الممزَّقة التي يلبَسها الصوفي إظهاراً لفقره وخشونته، وغالباً ما يُلبسُها الشيخُ مُريدَه علامةَ التفويض والتَّسليم، ولا يمنحها إياه إلا بعد أن يقضيَ مرحلةً رياضيةً خاصَّةً، ولم يكن للخرقة في البداية لونٌ ثابت معيّن، ثم صارت كثير من الطرق تختار لوناً معيّناً[1].

ويحرص بعض الصوفية على لُبس الثياب المرقعة إظهاراً للزهد والتقشف[2].

بل وصل الغلوّ بفريق من المتصوفة إلى التعري من الثياب وإظهار العورة، ويعدُّون هذا التعري من الكرامات[3].

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة (١/ ٧٥٤).

(٢) تقدم في مبحث سابق تفصيل الكلام حول الزهد ومعناه الشرعي، وأحوال المتصوفة في الزهد (ص١٣٤).

(٣) كما ذكر الشعراني في الطبقات الكبرى: عن شيخ من المتصوفة اسمه إبراهيم العريان، وسُمي بالعريان؛ لأنه كان يطلع المنبر ويخطب عرياناً.اهـ. الطبقات الكبرى (٢/ ١٢٤).

=

وقد ناقش شيخُ الإسلام هذه البدع والضلالات، ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ، فيما يلي:

أولاً: بيَّن شيخ الإسلام أنه لم يكن من هدي النبي ﷺ تركُ اللباس، أو التعرِّي والتبذُّل تزهُّداً وتعبُّداً، بل كان يحب الزينة، ويلبَس ما جرت عادة الناس بلُبسه من القميص والعمامة، فمن ترك شيئاً من ذلك زهداً وعبادةً، فهو على غير السنة.

قال الشيخ مبيناً ذلك: «فصلٌ: **وأما الأكل واللباس:** فخير الهدي هدي محمد ﷺ.

وكان خلقه في الأكل: أنه يأكل ما تيسَّر إذا اشتهاه، ولا يردّ موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً...

وكذلك اللباس: كان يلبس القميص والعمامة، ويلبس الإزار والرداء، ويلبس الجبة والفَرّوج[1]، وكان يلبس من القطن والصوف...

= وذكر الشعراني أيضاً (٢/ ١٥٩) عن وليٍّ آخر: «أنه خطب مرة عروسة [كذا] فرآها فأعجبته، فتعرَّى لها بحضرة أبيها، وقال: انظري أنت الأخرى حتى لا تقولي بعد ذلك: بدنه خشن، أو فيه برص، أو غير ذلك، ثم مسك ذكره، وقال: انظري[!!] هل يكفيك هذا[؟؟]..»اهـ.

وذكر يوسف النبهاني في جامع الكرامات: أن ولياً تحداه الناس أن يشرب بركة مملوءة ماءً، فقال: املؤوها، فملؤوها، فقام ـ وقد أخذه ـ فوضع فمه في البركة، وأخرج إحليله[!!] إلى أن فرغت البركة وهي من أعظم كراماته، فاعتقده الوالي وغيره اعتقاداً عظيماً»اهـ. جامع الكرامات (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، ت: إبراهيم عطوة، ط. مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٣٩٤هـ).

(١) يشير الشيخ إلى ما ثبت في الصحيحين عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: أُهدي إلى النبي ﷺ فروج حرير، فلبسه فصلى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعاً شديداً كالكاره له، وقال: (لا ينبغي هذا للمتَّقين). رواه البخاري (كتاب: أبواب الصلاة، باب من صلى في فروج، ١/ ١٤٧/ ٣٦٨)، ومسلم (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة، ٣/ ١٦٤٦/ ٢٠٧٥)، من حديث: عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وغير ذلك، لبس في السفر جبة صوف، وكان يلبس مما يُجلب من اليمن وغيرها، وغالب ذلك مصنوع من القطن، وكانوا يلبسون من قباطي مصر، وهي منسوجة من الكتان.

فسنته في ذلك تقتضي أن يلبس الرجل ويطعم ممَّا يسره الله ببلده من الطعام واللباس، وهذا يتنوع بتنوع الأمصار.

فهذه الطريق التي كان عليها رسول الله ﷺ: هي أعدل الطرق وأقومها. والانحراف عنها إلى وجهين:

قوم: يُسرفون في تناول الشهوات، مع إعراضهم عن القيام بالواجبات، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وقوم: يحرمون الطيبات، ويبتدعون رهبانيةً لم يشرعها الله تعالى، ولا رهبانية في الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة، فليس هذا مشروعاً لنا، بل أمرنا الله بما ينفعُنا، ونهانا عما يضرُّنا.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: **(إنما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين)**[1].

وقال لمعاذ وأبي موسى لمَّا بعثهما إلى اليمن: **(يسِّرا ولا تعسِّرا،**

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، ١/ ٨٩/ ٢١٧)، وأبو داود (كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، ١/ ١٠٣/ ٣٨٠)، والترمذي (كتاب: أبواب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، ١/ ٢٧٥/ ١٤٧)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

وبشِّرا ولا تنفِّرا).

وقال: (**هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فاستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**)[١].

وروي عنه أنه قال: (**أحب الدين إلى الله: الحنيفية السَّمحة**)[٢].

فالإنسان إذا أصابه في الجهاد أو الحج أو غير ذلك حرٌّ أو بردٌ أو جوعٌ ونحو ذلك، فهو مما يُحْمَدُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وأما مجرد بروز الإنسان للحرِّ والبرد بلا منفعة شرعية، واحتفاؤه وكشف رأسه ونحو ذلك مما يظن بعض الناس أنه من مجاهدة النفس، فهذا إذا لم يكن فيه منفعةٌ للإنسان وطاعة لله فلا خير فيه، بل قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: (**ما هذا؟**) قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس، ولا يستظلَّ ولا يتكلَّمَ، ويصوم، فقال: (**مروه فليجلس، وليستظل، وليتكلَّم، وليتم صومه**)[٣]»اهـ[٤].

---

(١) الحديث: رواه البخاري واللفظ له (كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٥/ ٢٣٧٣/ ٦٠٩٨)، والنسائي (كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر، ٨/ ١٢١/ ٥٠٣٤)، وابن حبان (كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ٢/ ٦٣/ ٣٥١)، من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري في الأدب المفرد (باب حسن الخلق إذا فقهوا، ١/ ٩٤/ ٢٩٠)، من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد ص١٢٢).

(٣) الحديث: تقدم تخريجه (١/ ١٢٨).

(٤) الفتاوى (٢٢/ ٣١٠ ـ ٣١٥)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: مختصر الفتاوى المصرية (ص٣٢٠، ٥٦١).

وقال الشيخ: «وليس لأحد أن يجعل من الدين ومن طريق الله إلا ما شرعه الله ورسوله، لا سيما إذا كان التقييد فيه فساد الدين والدنيا، فإن لبس الصوف وترقيع الثوب عند الحاجة حسنٌ من أفعال السلف، والامتناع من ذلك مطلقاً مذموم.

فأما مَنْ عَمَدَ إلى ثوب صحيح فمزَّقه، ثم يرقعه بفضلات، ويلبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى من القطن والكتان، **فهذا جمع فسادين**:

أما من جهة الدين: فإنه يظن التقييد بلبس المرقع والصوف من الدين، ثم يريد أن يظهر صورة ذلك دون حقيقته، فيكون ما ينفقه على ذلك أعظمَ مما ينفق على القطن الصحيح، وهذا مخالف للزهد.

وفساد المال: بإتلافه وإنفاقه فيما لا ينفع؛ لا في الدين ولا في الدنيا»اهـ[1].

وقال رحمه الله: «فالسالك طريق الزَّهادة والعبادة: إذا كان متَّبعاً للشريعة في الظاهر، وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له، كان عملُه باطلاً لا يقبله الله.

كما ثبت في الصحيح أن الله يقول: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري: فأنا منه بريء، وهو كلُّه للذي أشرك**)[2].

وفي الصحيح عنه أنه قال: (**من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به**)[3].

وإن كان خالصاً في نيته، لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة: مثل الذي يصمت دائماً، أو يقوم في الشمس، أو على السطح دائماً، أو

(١) الفتاوى (١١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦). (٢) الحديث: تقدم تخريجه (ص١٢٧).
(٣) الحديث: تقدم تخريجه (ص١٢٧).

يتعرَّى من الثياب دائماً، ويلازم لبس الصوف، أو لبس الليف ونحوه، أو يغطِّي وجهَه، أو يمتنع من أكل الخبز أو اللحم، أو شرب الماء ونحو ذلك، كانت هذه العباداتُ باطلةً ومردودةً.

كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)**، وفي رواية: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**[١].

وفي (صحيح البخاري) عن ابن عباس ﵄: (أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس، فقال: **(ما هذا؟) قالوا: هذا أبو إسرائيل نذر الصمت، والقيام، والبروز للشمس، مع الصوم، فأمره النبي ﷺ بالصوم وحده**؛ لأنه عبادةٌ يحبها الله تعالى، وما عداه ليس بعبادةٍ، وإن ظنَّها الظانُّ تقرِّبه إلى الله تعالى»اهـ[٢].

وقال الشيخ: «واللباس والزي الذي يتخذه بعضُ النُّسَّاك، من الفقراء والصوفية والفقهاء وغيرهم، بحيث يصير شعاراً فارقاً، كما أُمر أهل الذمة بالتميز عن المسلمين في شعورهم وملابسهم، **فيه مسألتان**:

المسألة الأولى: هل يُشرعُ ذلك استحباباً لتمييز الفقير والفقيه من غيره؟ فإنَّ طائفةً من المتأخرين استحبوا ذلك، وأكثر الأئمة لا يستحبُّون ذلك، بل كانوا يكرهونه؛ لِمَا فيه من التميُّز عن الأمة، وبثوب الشهرة.

---

(١) الحديث: رواه أحمد في المسند (٦/١٤٦/ح٢٥١٧١، ١٨٠/ح٢٥٥١١، ٢٥٦/ح٢٦٢٣٤) من حديث: عائشة ﵂.

(٢) الفتاوى (١١/٣١٣ ـ ٣١٤).

المسألة الثانية: أن لُبس المرقَّعات والمُصَبَّغات والصوف من العباءة وغير ذلك، فالناس فيه على ثلاث طرق:

منهم: من يكره ذلك مطلقاً: إمَّا لكونه بدعة، وإمَّا لما فيه من إظهار الدين.

ومنهم: من استحبه، بحيث يلتزمه ويمتنع من تركه، وهو حالُ كثيرٍ ممَّن ينتسب إلى الخرقة واللبسة، وكلا القولين والفعلين خطأ.

والصواب أنه جائز: كلبس غير ذلك، وأنه يُستحبُّ أن يرقع الرجل ثوبه للحاجة، كما رقع عمرُ ثوبَه وعائشةُ وغيرُهما من السلف، وكما لبس قومٌ الصوفَ للحاجة، ويُلبس أيضاً للتواضع والمسكنة مع القدرة على غيره، كما جاء في الحديث: **(من ترك جيد اللباس وهو يقدر عليه تواضعاً لله كساه الله من حُلل الكرامة يوم القيامة)**[1]، فأما تقطيع الثوب الصحيح وترقيعه، فهذا فساد وشهرة، وكذلك تعمُّد صبغ الثوب لغير فائدة، أو حكّ الثوب ليظهر التحتاني، أو المغالاة في الصوف الرفيع ونحو ذلك، مما فيه إفسادُ المال ونقص قيمته، أو فيه إظهار التشبُّه بلباس أهل التواضع والمسكنة، مع ارتفاع قيمته وسعره، فإن هذا من النفاق والتلبيس.

فهذان النوعان فيهما إرادة العلوّ في الأرض بالفساد، والدارُ الآخرةُ للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، مع ما في ذلك من النفاق.

وأيضاً فالتقيُّد بهذه اللبسة بحيث يَكرَه اللابس غيرها، أو يُكره أصحابه أن لا يلبسوا غيرها، هو أيضاً منهيٌّ عنه»اهـ[2].

---

(١) الحديث لم أقف عليه.

(٢) المستدرك على الفتاوى (١/١٥٦ ـ ١٥٧).

ثانياً: بعض الصوفية يتعمد لبس الصوف الخشن لتعذيب النفس وإظهار الولاية والزهد، فبيَّن شيخ الإسلام أن لُبس الصوف أو الخَشِنِ من الثياب ليس دليلاً على الولاية، وليس لأولياء الله تعالى لباسٌ يتميزون به عن غيرهم.

قال الشيخ: «فصلٌ: وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر، من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، إذا كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً، كما قيل: (كم من صِدِّيق في قباء، وكم من زنديق في عباء)، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ، إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التُّجَّار والصُّنَّاع والزُّرَّاع.

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]»اهـ[١].

ثم بيّن الشيخ: هل يُمدح أحدٌ بلُبس الصوف؟

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في معرض كلامه عن غلوّ الرافضة في آل البيت وكذبهم عليهم لإظهار فضائلهم**: «وأما قوله عن الحسن إنه لبس الصوف تحت ثيابه الفاخرة، فهذا من جنس قوله في علي أنه كان يصلي ألف ركعة، فإن هذا لا فضيلةَ فيه، وهو كذب؛ وذلك أن لبس الصوف تحت ثياب القطن وغيره لو كان فاضلاً، لكان النبيُّ ﷺ شَرَعَه

(١) الفرقان (ص٣٤)، الفتاوى (١١/ ١٩٠).

لأمته؛ إما بقوله أو بفعله، أو كان يفعله أصحابه على عهده، فلما لم يفعله هو ولا أحد من أصحابه على عهده ولا رغب فيه دل على أنه لا فضيلةَ فيه، ولكن النبي ﷺ لبس في السفر جُبَّةً من صوف فوق ثيابه، وقَصْدُ لُبس الصوف دون القطن وغيره ليس بمستحبٍّ في شريعتنا، ولا هو من هدي نبينا ﷺ.

وقد قيل لمحمد بن سيرين: إن قوماً يقصدون لبس الصوف، ويقولون: إن المسيح كان يلبسه، فقال: هدي نبينا أحبُّ إلينا من هدي غيره.

قد تنازع العلماء: هل يكره لبس الصوف في الحضر من غير حاجة أم لا؟ وأمَّا لُبسه في السفر، فحسَنٌ؛ لأنه مَظِنَّةُ الحاجة إليه، ثم بتقدير أن يكون لبس الصوف طاعةً وقُرْبةً، فإظهاره تواضعاً أولى من إخفائه تحت الثياب، فإنه ليس في ذلك إلا تعذيبُ النفس بلا فائدة، والله تعالى لم يأمر العباد إلا بما هو له أطوعُ ولهم أنفعُ، لم يأمرهم بتعذيبٍ لا ينفعهم، بل قال النبي ﷺ: إن الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نفسَه»اهـ(١).

ثالثاً: ما يفعله بعض مشايخ الصوفية من إلباس المريدين الخِرقة هو من البدع، ولا يُعرف لذلك أصلٌ عن الصحابة ولا التابعين:

قال الشيخ: «فصلٌ: وأما لباس الخرقة التي يُلبِسُها بعضُ المشايخ المريدينَ: فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشايخُ المتقدِّمون وأكثرُ المتأخرين يُلْبِسونها المريدين، ولكن طائفة من المتأخرين رأوْا ذلك واستحبُّوه.

---

(١) المنهاج (٤/ ٤٢ ـ ٤٤)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٥٥٤)، الاستقامة (١/ ٢٦٠).

وقد استدل بعضهم: بأن النبي ﷺ ألبس أمَّ خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص[١] ثوباً وقال لها: **(سَنَا)**[٢]، والسَّنا بلسان الحبشة[٣]: الحسن، وكانت قد وُلدت بأرض الحبشة؛ فلهذا خاطبَها بذلك اللسان.

واستدلُّوا أيضاً بحديث البردة التي نسجَتْها امرأةٌ للنبي ﷺ فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها، وقال: أردت أن تكون كفناً لي[٤].

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه، فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبَسه كإعطائه إياه ما ينفعه، وأخذ ثوبٍ من النبي ﷺ على وجه البركة كأخذ شعرة على وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء، ولكن يشبه من

---

(١) هي أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص، اسمها: هند، وقيل: أمة، تزوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه، فولدت له: خالداً وعمراً وحبيبة وسودة.
انظر: صفة الصفوة (١/ ١٤٣).

(٢) الحديث: يشير الشيخ إلى ما جاء عن أم خالد بنت خالد، قالت: أُتيَ النبي ﷺ بثياب فيها خميصةٌ سوداءُ صغيرة، فقال: من ترون أكسو هذه؟ فسكت القوم، فقال رسول الله ﷺ: إيتوني بأم خالد، قالت: فأُتِيَ بي فألبسنيها بيده، وقال: أبلي وأخلقي، يقولها مرتين، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأحمر، ويقول: يا أم خالد، هذا سنا، سنا، والسنا ـ بلسان الحبشة ـ الحسن.
رواه البخاري (كتاب اللباس، باب ما يدعى لمن لبس ثوباً جديداً، ٥/ ٢١٩٨/ ٥٥٠٧)، والحاكم في المستدرك (كتاب البيوع، ٢/ ٧٢/ ٢٣٦٧).

(٣) الحبشة: بفتح الحاء والشين، بلاد معروفة في أفريقيا الشرقية، وتسمى حالياً بـ «أثيوبيا»، سميت بالحبشة: بسبب اسوداد أرضها لغزارة ما فيها من النبات، يقال: روضة حبشية: أي: قريبة من السواد لغزارة نباتها.
انظر: لسان العرب (٦/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩)، المعجم الوسيط (ص١٥٢)، الأنساب للسمعاني (٢/ ١٦٧).

(٤) الحديث: رواه البخاري (كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن في زمن النبي فلم ينكر عليه، ١/ ٤٢٩/ ح١٢١٨)، من حديث: سهل بن سعد رضي الله عنه.

بعض الوجوه خُلَعَ الملوك التي يخلعونها على من يولُّونه، كأنها شعارٌ وعلامةٌ على الولاية والكرامة، ولهذا يسمُّونها تشريفاً، وهذا ونحوه غايته أن يُجعل من جنس المباحات، فإن اقترن به نيةٌ صالحةٌ كان حسناً من هذه الجهة، وأمَّا جعل ذلك سنةً وطريقاً إلى الله ﷻ فليس الأمر كذلك»اهـ[١].

ومما سبق يتبين لنا أن تظاهر فريق من المتصوفة بلبس الخرق، واعتقادهم أن لبسها من أيدي المشايخ يكون له تأثير في سلوك الطريق والثبات عليه، وتظاهرهم أيضاً بلبس المرقَّعات والتعرِّي، وإظهار التقشف، كل هذا من الابتداع واتباع غير سبيل المؤمنين.

وقد تقدم في مبحث سابق نقلُ كلام شيخ الإسلام في بيان أن هذا ليس من الزهد الشرعي، بل هو زهد مبتدَع[٢].

❖ ❖ ❖

---

(١) الفتاوى (١١/ ٥١٠ ـ ٥١١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ١٠٣)، المنهاج (٤/ ٦٢، ٨/ ٤٣ ـ ٤٩).

(٢) انظر ما تقدم (ص١٣٤).



الباب الخامس

موقف شيخ الإسلام من الصوفية - عموماً -

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: موقفه من مصنفاتهم وشخصياتهم

الفصل الثاني: موقفه من رواياتهم ومروياتهم

الفصل الثالث: مقارنة إجمالية بين منهج شيخ الإسلام في عرضه للصوفية وبين منهج غيره من المصنفين



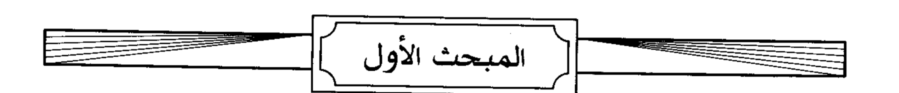
الفصل الأول

موقفه من مصنفاتهم وشخصياتهم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مصنفاتهم وتقويمه لها

المبحث الثاني: موقفه من رجالاتهم وشخصياتهم


المبحث الأول

مصنفاتهم وتقويمه لها

تمهيد:

لا شك أن معرفة مذهب المتصوفة - أو أي مذهب آخر - تكون بسماعه منهم من خلال المناظرات معهم، أو قراءة كتبهم التي بيَّنوا فيها مذهبهم، أو نقل الثقات عنهم، أو غير ذلك(١)، وقد سلك شيخ الإسلام في الكلام عن مذهب المتصوفة سُبلاً متعددةً، فهو قد خالطهم وسمع منهم، وناظرهم وردَّ عليهم، وإلى جانب ذلك قرأ كتبهم وردَّ عليها وفنَّد ما فيها(٢).

وقبل أن أعرض كتب الصوفية التي تعرَّض شيخ الإسلام للحكم عليها أو تقويمها، أُمهِّد قبل ذلك ببيان ما ذكره شيخ الإسلام عن مؤلفات المتصوفة عموماً.

وذلك في النقاط التالية:

أولاً: سعة اطلاع الشيخ على كتبهم:

يدل على ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «.. وقد رأيت منهم ومن كتبهم،

---

(١) تقدم في مباحث سابقة الكلام عن مصادر شيخ الإسلام في حكاية مذهب المتصوفة - تفصيلاً - (١/ ١٠٣).

(٢) مما ألفه شيخ الإسلام في الرد على كتب الصوفية، كتاب الرد الأقوم على ما في فصوص الحكم، وكتاب الاستقامة؛ فإن أكثره في الرد على الرسالة القشيرية في التصوف، وغير ذلك.

وسمعت منهم وممن يخبر عنهم من ذلك ما شاء الله»اهـ[١].

ثانياً: أكثر كتب التصوف ظهرت من البصرة:

قال الشيخ: «وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة.. **ولهذا تجد كتب الكلام والتصوف إنَّما خرجت في الأصل من البصرة، وكذلك كتب المتصوفة**، ومن خلط التصوف بالحديث والكلام، ككتب الحارث المحاسبي، وأبي الحسن بن سالم[٢]، وأبي سعيد الأعرابي، وأبي طالب المكي»اهـ[٣].

ثالثاً: دقة معرفة الشيخ بمصنفات الصوفية، بحيث إنه يذكر ـ أحياناً ـ من أين صنَّف المؤلف كتابه:

كما ذكر عن الرسالة التي صنفها أبو القاسم القشيري، وسميت بالرسالة القشيرية:

«.. وما يرسله في هذه الرسالة قد وُجِدَ كثير منه مكذوب على أصحابه، إما أن يكون أبو القاسم سمعه من بعض الناس فاعتقد صدقَه، أو يكون مَنْ فوقه كذلك، أو وجده مكتوباً في بعض الكتب فاعتقد صحته، وهذا أبو القاسم ـ مع علمه وروايته بالإسناد ـ ومع هذا ففي هذه الرسالة قطعة كبيرة من المكذوبات التي لا ينازع فيها مَنْ له أدنى معرفة بحقيقة حال المنقول عنهم.

وأما الذي يسنده من الحكايات في باب السماع، فعامَّته من كتابين: كتاب (اللمع) لأبي نصر السراج، فإنه يروي عن أبي حاتم

---

(١) الفتاوى (٤/ ٦٠).

(٢) أبو الحسن أحمد بن سالم (ت٣٥٠هـ) من رؤوس فرقة السالمية، تتلمذ على سهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وقد تقدمت ترجمته.

(٣) الفتاوى (١٠/ ٣٥٨، ٣٦٠).

السجستاني، عن أبي نصر عن عبد الله بن علي الطوسي، ويروي عن محمد بن أحمد بن محمد التميمي عنه، ومن كتاب (السماع) لأبي عبد الرحمن السلمي قد سمعه منه»اهـ[١].

رابعاً: قسّم شيخ الإسلام المصنفات في أخبار الزهاد ثلاثةَ أقسام:

فقال: «المصنفات في أخبار الزُّهَّاد ثلاثة أقسام:

قسم: جرَّد النقل لأخبار القرون المفضَّلة من الصحابة والتابعين ونحوهم، كما ذكر ذلك الإمام أحمد رحمه الله في كتابه المشهور في الزهد، فإنه صنَّفه على الأسماء، وذكر فيه زهد الأنبياء والصحابة والتابعين، وإن كان آخرون من المصنفين في الزهد كعبد الله بن المبارك[٢] وهناد بن السري[٣] صنفوا ذلك على الأبواب.

وقسم: ذكروا أخبار الزُّهَّاد المتأخرين، من حين حدث اسم التصوف، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه في (طبقات الصوفية)، وكما فعل أبو القاسم القشيري في (رسالته)، وابن خميس في (مناقب الأبرار)، ونحو هؤلاء.

وقسم: ذكروا المتقدمين والمتأخرين، كما فعل الحافظ أبو نعيم

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي التركي، مولاهم، الإمام الحافظ، جمع الله له بين العلم والجهاد والتجارة، له تصانيف؛ منها: كتاب الزهد، والجهاد، توفي سنة ١٩٨هـ.
انظر: الحلية (٨/ ١٦٢)، سير الأعلام (٨/ ٣٣٦)، شذرات الذهب (١/ ٢٩٥)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢).

(٣) هو هناد بن السري بن يحيى، الكوفي الصغير، العابد الزاهد، روى عن أبي سعيد الأشج وجماعة، صنف كتاب الزهد وغيره، توفي سنة ٢٤٣هـ.
انظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٦٠/ حوادث سنة ٢٤٣هـ)، شذرات الذهب (٢/ ٣٣١).

الأصبهاني وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما»اهـ[١].

خامساً: بيّن الشيخ أن فريقاً من المتصوفة يُعظِّمون كتبهم أكثرَ من تعظيمهم للكتاب والسنة، وإذا خالفت هذه الكتبُ القرآنَ قدموها عليه:

قال شيخ الإسلام في معرض نقده لكتاب (فصوص الحِكم) لابن عربي: «.. فإن تحقيقهم الذي حقيقتُه التعطيلُ للصانع وجحده، وأنه ليس وراء العالم شيء، لم يحققه أحد كما حققه التلمساني، وحدَّثني الثقة ـ الذي رجع عنهم لمَّا انكشف له أسرارهم ـ أنه قرأ عليه (فصوص الحكم) لابن عربي، قال: فقلت له: هذا الكلام يخالف القرآن، فقال: القرآن كلُّه شرك، وإنما التوحيد في كلامنا»اهـ[٢].

وبهذه النقاط الخمس يتبين لنا دِقة شيخ الإسلام في الكلام عن مذاهب الناس ـ عموماً ـ والمتصوفة خصوصاً، وشمول حكمه للكتاب الذي يقوّمه أو يحكم عليه.

أما كتب الصوفية[٣] التي تناولها شيخ الإسلام بمدح، أو ذمٍّ،

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٢) الصفدية (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥).

(٣) فصّل الإمام ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس (ص٢٠١) الكلام على مصنفات الصوفية، ومِمَّا قال في ذلك: «نقد مسالك الصوفية: لبّس إبليس عليهم، وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبَّطوا في الظلمات.
ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخَطَرات، وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي.
وجاء أبو عبد الرحمن السلمي، فصنف لهم كتاب السنن، وجمع لهم حقائق التفسير، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم، والعجب من =

....

= ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن.
وصنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سمَّاه: لمع الصوفية، ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول.
وصنف لهم أبو طالب المكي: قوت القلوب، فذكر فيه الأحاديث الباطلة وما لا يستند فيه إلى أصل، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد.
وجاء أبو نعيم الأصبهاني، فصنف لهم كتاب: الحلية، وذكر في حدود التصوف أشياءَ منكَرَةً قبيحةً.
وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب: الرسالة، فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والتجلي والمكاشفة إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، وتفسيرُه أعجبُ منه.
وجاء محمد بن طاهر المقدسي، فصنف لهم: صفوة التصوف، فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها.
وجاء أبو حامد الغزالي، فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حُجُبُ الله ﷻ ولم يرد هذه المعروفات. وهذا من جنس كلام الباطنية، وقال في كتابه المفصح بالأحوال: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائدَ، ثم يترقَّى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.
وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم، وإنما استحسنوها؛ لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد وما رأوا حالةً أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة، ولا كلاماً أرقَّ من كلامهم، وفي سير السلف نوع خشونة.
وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقَّفها بعضهم عن بعض دوَّنوها، وقد سمَّوْها بالعلم الباطن.
وعن سعيد بن عمرو البردعي، قال: شهدت أبا زرعة وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه، فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه الكتب كتب بدع =

أو تقويم، فيمكن ـ بالاستقراء ـ حصرها فيما يأتي[١]:

• **اسم المؤلف:** التلمساني.

* **اسم الكتاب:** شرح الأسماء الحسنى.

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ قال شيخ الإسلام بعد عرضه لمقالة التلمساني وغيره من القائلين بالحلول والاتحاد: «.. وشرح الأسماء الحسنى على هذا الأصل الذي له[٢]»اهـ[٣].

* **اسم الكتاب:** ديوان التلمساني.

تقويم شيخ الإسلام له:

قال شيخ الإسلام: «.. وله ديوان شعر قد صنع فيه أشياء، وشعره في صناعة الشعر جيد، ولكنه كما قيل: لحم خنزير في طبق صيني»اهـ[٤].

• **اسم المؤلف:** الحكيم الترمذي.

* **اسم الكتاب:** ختم الولاية.

= وضلالات، عليك بالأثر؛ فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله ﷻ عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة. بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمة، صنَّفوا هذه الكتب في الخَطَرَات والوساوس وهذه الأشياء، هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع»اهـ.

(١) رتبت هذه الكتب حسب أسماء مؤلفيها على حروف المعجم: أ، ب، ج، . . .

(٢) يعني أصل التلمساني في القول بالحلول والاتحاد، وقد تقدم بيان المراد بالحلول والاتحاد في (١/ ٤٠٥).

(٣) الفتاوى (٢/ ٤٧٢).

(٤) الفتاوى (٢/ ٤٧٢).

تقويم شيخ الإسلام له:

أنكر المسلمون على الحكيم الترمذي تأليف هذا الكتاب:

قال شيخ الإسلام: «.. والترمذي ـ مع فضله وعلمه ـ لمَّا صنف كتاب (خاتم الأولياء) أنكر المسلمون عليه ذلك وأخرجوه، كما ذكر ذلك عنه أبو عبد الرحمن السلمي في (محنة الصوفية)، وقال: إنهم نفَوْه وأخرجوه من بلدته، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيف كتاب (خاتم الولاية)، ونسبوه إلى القبائح في الدين، وجاء إلى بلخ[1]، فقبله أهل بلخ بسبب موافقته إياهم على المذهب، وفي هذا الكتاب من الكلام الباطل ما يُعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام، وهو الذي فتح الكلام في ختم الأولياء، حتى جاء هؤلاء المتأخرون الذين يدَّعي كلٌّ منهم أنه خاتم الأولياء»اهـ[2].

• **اسم المؤلف:** ابن خميس الموصلي[3].

---

(١) بَلْخ: مدينة من أكبر مدن خراسان (خراسان: سبق التعريف بها ص١٦٩) تقع في الناحية الشرقية منها، قريبة من ترمذ، وقد فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عثمان رضي الله عنه، وهي الآن تابعة لأفغانستان.
انظر: معجم البلدان (١/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠)، مراصد الاطلاع (١/ ٢١٧)، الأنساب للسمعاني (١/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩).

(٢) الصفدية (١/ ٢٤٨).

(٣) هو الحسين بن نصر بن أحمد بن خميس الموصلي، أبو عبد الله، الفقيه الشافعي، حدّث ببغداد والموصل، وكان سمع ببغداد من أبي الخطاب نصر بن أحمد بن البطر وأبي حامد الغزالي، وعليه تفقَّه، قال ابن شافع في تاريخه: كان شيخاً ذا فنون من أهل العلم، له كتاب مناقب الأبرار، وأخبار المنامات، توفي سنة ٥٥٢هـ.
انظر: تكملة الإكمال ـ لابن نقطة (٢/ ٤٤٠)، كشف الظنون (١/ ٣٠).
أما كتابه: مناقب الأبرار، فقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٨٣٥) فقال: كتاب مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، أوله: الحمد لله على =

* **اسم الكتاب:** مناقب الأبرار.

تقويم شيخ الإسلام له:

جعل الأصل في كتابه ما رُوِيَ عن الزهاد والعباد:

قال شيخ الإسلام: «.. وكذلك مَن صنف في التصوف والزهد، جعل الأصل ما رُوي عن متأخري الزهاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين، كما فعل صاحب (الرسالة) أبو القاسم القشيري، وأبو بكر الكلاباذي، وابن خميس الموصلي في (مناقب الأبرار).. وكان أحسن من هذا أن يفعلوا كما فعله أبو نعيم الأصبهاني في (الحلية) من ذكره للمتقدمين والمتأخرين، وكذلك أبو الفرج ابن الجوزي في (صفة الصفوة)، وكذلك ابن أسد بن موسى[1]، إن لم يصعدوا إلى طريقة عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، وهنّاد بن السري، وغيرهم في كتبهم في الزهد، فهذا هذا، والله أعلم وأحكم، فإن معرفة أصول الأشياء ومبادئها، ومعرفة الدين وأصله، وأصل ما تولّد فيه من أعظم العلوم نفعاً؛ إذ المرء ما لم يُحِطْ بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة»اهـ[2].

= ما أنعم به من آلائه.. إلخ، لأبي عبد الله المعروف بابن خميس الموصلي المتوفى سنة ٥٥٢، وهو على طرز الرسالة القشيرية، وقد اختصره وذكر فيه أنه تتبَّع مسموعاته ومما جمعه العلماء من أخبار الصالحين، كطبقات السلمي، والحلية، وبهجة الأسرار، وتهذيب الأسرار، والرسالة القشيرية، فجمع الجميع بحذف الأسانيد»اهـ.

(١) هو أسد بن موسى الأموي، الحافظ، نزيل مصر، يقال له: أسد السنة، روى عن شعبة وطبقته، ورحل في الحديث وصنف التصانيف، وهو أحد الثقات الأكياس، توفي سنة ٢١٢هـ.
انظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٧١، حوادث سنة ٢١٢هـ)، شذرات الذهب (٢/ ٢٧).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٦٧).

● **اسم المؤلف**: السلمي: أبو عبد الرحمن.

* **اسم الكتاب**: مؤلفات أبي عبد الرحمن السلمي - عموماً -.

تقويم شيخ الإسلام لها:

ذكر شيخ الإسلام أنه جمع أسماء أصحاب الصُّفَّة، وكان له عناية بجمع أخبار النساك:

قال الشيخ في معرض كلامه عن أهل الصُّفَّة: «.. وقد جمع أسماءهم الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «تاريخ أهل الصفة»[(١)]، جمع ذكر مَنْ بلغه أنه كان مِنْ أهل الصفة، وكان معتنياً بذكر أخبار النساك والصوفية والآثار التي يستندون إليها، والكلمات المأثورة عنهم، وجمع أخبار زهاد السلف وأخبار جميع مَنْ بلغه أنه كان من أهل الصفة، وكم بلغوا، وأخبار الصوفية المتأخرين بعد القرون الثلاثة، وجمع أيضاً في الأبواب، مثل حقائق التفسير، ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقه، ومثل كلامهم في التوحيد والمعرفة والمحبة ومسألة السماع، وغير ذلك من الأحوال، وغير ذلك من الأبواب، وفيما جمعه فوائدُ كثيرةٌ ومنافعُ جليلةٌ[(٢)].

وهو في نفسه رجل من أهل الخير والدين والصلاح والفضل، وما

---

(١) كتاب «تاريخ أهل الصفة» لأبي عبد الرحمن السلمي، نقل عنه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٥)، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١١٦) باسم: تاريخ أهل الصفوة.

(٢) أبو عبد الرحمن السلمي من أشهر من حفظ علوم الصوفية، وصنَّف فيها وجمع، قال أبو نعيم الأصبهاني عن السلمي: «له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بينه الأوائل»اهـ، وقال الإمام الذهبي: «وقد صنَّف في علوم القوم سبعمائة جزء»اهـ.

انظر: حلية الأولياء (٢/ ٢٥)، سير الأعلام (١٧/ ٢٤٧).

يرويه مِنَ الآثار فيه من الصحيح شيء كثير، ويروي أحياناً أخباراً ضعيفة بل موضوعة، يعلم العلماء أنها كذب، وقد تكلم بعضُ حفَّاظ الحديث في سماعه.

وكان البيهقي إذا روى عنه يقول: حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه وما يظن به وبأمثاله ـ إن شاء الله ـ تعمُّد الكذب، لكن لعدم الحفظ والإتقان يدخل عليهم الخطأ في الرواية، فإن النساك والعُبَّاد منهم مَنْ هو متقن في الحديث، ومنهم من قد يقع في بعض حديثه غلط وضعف.

وكذلك ما يأثُرُه أبو عبد الرحمن عن بعض المتكلمين في الطريق، أو ينتصر له من الأقوال والأفعال والأحوال، فيه مِنَ الهدى والعلم شيء كثير، وفيه أحياناً من الخطأ أشياء، وبعض ذلك يكون عن اجتهاد سائغ، وبعضه باطل قطعاً، مثل ما ذكر في حقائق التفسير قطعة كبيرة عن جعفر الصادق وغيره، من الآثار الموضوعة، وذكر عن بعض طائفة أنواعاً من الإشارات، التي بعضها أمثالٌ حسنة واستدلالات مناسبة، وبعضها من نوع الباطل واللغو، فالذي جمعه الشيخ **أبو عبد الرحمن ونحوه في: (تاريخ أهل الصفة)** و**(أخبار زهاد السلف)** و**(طبقات الصوفية)**، يستفاد منه فوائدُ جليلةٌ، ويجتنب منه ما فيه من الروايات الباطلة، ويتوقف فيما فيه مِنَ الروايات الضعيفة.

وهكذا كثير من أهل الروايات، ومن أهل الآراء والأذواق، من الفقهاء والزهَّاد والمتكلمين وغيرهم، يوجد فيما يأثُرونه عمَّن قبلهم وفيما يذكرونه معتقدين له شيء كثير، وأمر عظيم من الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله، ويوجد أحياناً عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير.

ومَنْ له في الأمة لسان صدق عام بحيث يثنى عليه، ويُحْمَدُ في

جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيحُ الدجى، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم، وعامَّته من موارد الاجتهاد التي يُعذَرون فيها، وهم الذين يتَّبعون العلم والعدل، فهم بُعَداءُ عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس»اهـ[١].

ومع ثناء شيخ الإسلام على تفسير أبي عبد الرحمن السلمي، إلا أنه بيّن أنه لا يخلو من ملحوظات، كتفسيره لبعض الآيات بما لا يحتمله معناها:

قال شيخ الإسلام: «وفي الجملة: مَن عدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلمَ بتفسيره ومعانيه، فمن خالف قولهم وفسَّر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً.

والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير، وأنَّ من أعظم أسبابه البدعَ الباطلةَ التي دعت أهلَها إلى أن حرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه، وفسَّروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به، وتأولوه على غير تأويله، فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه، وأنه الحق، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم، وأن يعرف أن تفسيرهم محدَث مبتدَعٌ، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فسادَ تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق.

وأما الذين يخطؤون في الدليل لا في المدلول، فمثل كثير من الصوفية والوُعَّاظ والفقهاء وغيرهم، يفسرون القرآن بمعانٍ صحيحةٍ، لكن

---

(١) الفتاوى (١١/ ٤١ ـ ٤٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٣٦٧، ١١/ ٥٧٨).

القرآن لا يدل عليها، مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في (حقائق التفسير)[١]، وإن كان فيما ذكروه ما هو معانٍ باطلة؛ فإن ذلك

---

(١) كتاب «حقائق التفسير» ألفه أبو عبد الرحمن السلمي على طريقة الصوفية في التفسير بالخَطَرات والإشارات، وهو لا يزال مخطوطاً كما ذكر محقق كتاب «طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي، وله عدة نسخ محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، وفي خزانة الكتب الأزهرية، وفي خزانة الفاتح باستانبول.

انظر: طبقات الصوفية للسلمي (مقدمة المحقق، ص٣٥ ـ ٣٦).

وقد ذكر الإمام ابن الجوزي نماذجَ من هذا التفسير، وبيّن ما فيها من خلل، فقال في معرض كلامه عن الصوفية وتفسير القرآن: «ذكر نبذة من كلامهم في القرآن:

.. وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم ـ الذي أكثره هذيان لا يحل ـ نحو مجلدين سماها «حقائق التفسير»، فقال في:

فاتحة الكتاب عنهم أنهم قالوا: إنما سميت فاتحة الكتاب؛ لأنها أوائل ما فتحناك به من خطابنا، فإن تأدبت بذلك، وإلا حُرمت لطائفَ ما بعد.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وهذا قبيح؛ لأنه لا يختلف المفسرون أن الفاتحة ليست من أول ما نزل.

وقال في قول الإنسان: آمين: أي قاصدون نحوك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: وهذا قبيح؛ لأنه ليس من أم؛ لأنه لو كان كذلك لكانت الميم مشددة.

قال في قوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾ [البقرة: ٨٥] قال: قال أبو عثمان: غرقى في الذنوب، وقال الواسطي: غرقى في رؤية أفعالهم، وقال الجنيد: أسارى في أسباب الدنيا تفدوهم إلى قطع العلائق.

قلت: إنما الآية على وجه الإنكار، ومعناها: إذا أسرتموهم فديتموهم، وإذا حاربتموهم قلبتموهم، وهؤلاء قد فسروها على ما يوجب المدح...

وقال في قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]: أي من هواجس نفسه ووساوس الشيطان.

وهذا غاية في القبح؛ لأن لفظ الآية لفظ الخبر، ومعناه الأمر، وتقديرها: من دخل الحرم فأمنوه، وهؤلاء قد فسروها على الخبر، ثم لا يصح لهم؛ لأنه كم =

يدخل في القسم الأول، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً، حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسداً»اهـ[(١)].

ـ مصنفات أبي عبد الرحمن تتسم بالعدل والإحاطة، قال شيخ الإسلام: «وقد جمع كلام المشايخ إمَّا بلفظه، أو بما فهمه هو غير واحد، فصنف أبو بكر الكلاباذي كتاب (التعرف لمذهب التصوف)، وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب، وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها، وكذلك معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسن السلمي جامع كلام الصوفية، هما في ذلك أعلى درجةً، وأبعد عن البدعة والهوى من أبي القاسم.

= من داخل إلى الحرم ما أمن من الهواجس ولا الوساوس.

وذكر في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١]: قال أبو تراب: هي الدعاوى الفاسدة.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] : قال سهل: هو القلب. ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: النفس ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: الجوارح.

وقال في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]: قال أبو بكر الوراق: الهَمَّان لها، ويوسفُ ما هَمَّ بها.

قلت: هذا خلافٌ لصريح القرآن.

وقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]: قال محمد بن علي: ما هذا بأهل أن يدعى إلى المباشرة...

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن تأمَّل معنى هذا، علم أنه كفرٌ محضٌ؛ لأنه يشير إلى أنه كالهزء واللعب.. وجميع الكتاب من هذا الجنس، ولقد هممت أن أثبت منه هاهنا كثيراً، فرأيت أن الزمان يضيع في كتابة شيء بين الكفر والخطأ والهَذَيان، وهو من جنس ما حكينا عن الباطنية.

فمن أراد أن يعرف جنس ما في الكتاب فهذا أنموذجه، ومن أراد الزيادة، فلينظر في ذلك الكتاب»اهـ. تلبيس إبليس (١/ ٤٠٢).

(١) الفتاوى (٣٦١ ـ ٣٦٢).

وأبو عبد الرحمن، وإن كان أدنى الرجلين، فقد كان ينكر مذهب الكلَّابية ويبدِّعهم، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم، وله في ذم الكلام[1] مصنف يخالف ما ينصره أبو القاسم، وأبو عبد الرحمن أجلُّ من أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ، وعليه يعتمد في أكثر ما يحكيه، فإن له مصنفاتٍ متعددةً»اهـ[2].

ـ أبو عبد الرحمن السلمي أعرَفُ القوم بكلام الصوفية:

قال شيخ الإسلام: «أعظم المشايخ الذين أخذ عنهم أبو القاسم جمعاً لكلام مشايخ الصوفية وتأليفاً له ورواية له هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، فإن القشيري لم يدرك شيخاً أجمعَ لكلام القوم وأحرصَ على ذلك وأرغبَ فيه منه؛ ولهذا صنف في ذلك ما لم يصنفه نظراؤه.. الشيخ أبو عبد الرحمن أعرف مشايخ أبي القاسم القشيري بطريقة الصوفية وكلامهم»اهـ[3].

* **اسم الكتاب**: تاريخ الصوفية[4].

تقويم شيخ الإسلام له:

---

(١) ذكر الذهبي في ترجمته لأبي عبد الرحمن السلمي أنه «صنف في علوم القوم سبعمائة جزء»، (سير الأعلام ١٧/٢٤٧)، ولم أعثر على خبر عن كتاب للسلمي مخطوطاً ولا مطبوعاً باسم: ذم الكلام، فلعلّه فُقد مع ما فُقد من كتب أبي عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ، وانظر مقدمة محقق كتاب طبقات الصوفية، للسلمي، والمحقق هو: نور الدين شريبة.

(٢) الاستقامة (١/ ٨٢ ـ ٨٤).

(٣) الاستقامة (١/ ١٠٣ ـ ١٠٥).

(٤) كتاب «تاريخ الصوفية» غير كتاب «طبقات الصوفية»، وكثيراً ما ينقل عنه الذهبي في «تاريخ الإسلام»، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»، ولم يذكر صاحب كشف الظنون هذا الكتاب.

وانظر: تاريخ بغداد (٢/ ٣٤٨، ٤/ ٩٧، ٣٦١، ٥/ ٣١٠، ٦/ ١٨٨، ٢٩٣، ١٢/ ٣٠، ٢٢٤).

جعل الأصل في كتابه ما روي عن الزهاد والعباد:

قال شيخ الإسلام: «.. وكذلك مَن صنف في التصوف والزهد، جعل الأصل ما رُوي عن متأخري الزهاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين، كما فعل صاحب (الرسالة) أبو القاسم القشيري، وأبو بكر الكلاباذي، وأبو عبد الرحمن في (تاريخ الصوفية)، لكن أبو عبد الرحمن صنف أيضاً سير السلف من الأولياء والصالحين، وسير الصالحين من السلف، كما صنف في سير الصالحين من الخلف ونحوهم، من ذكرهم لأخبار أهل الزهد والأحوال من بعد القرون الثلاثة، من عند إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ومَنْ بعدهم، وإعراضهم عن حال الصحابة والتابعين، الذين نطق الكتاب والسنة بمدحهم، والثناء عليهم، والرضوان عنهم.

وكان أحسن من هذا أن يفعلوا كما فعله أبو نعيم الأصبهاني في (الحلية) من ذكره للمتقدمين والمتأخرين، وكذلك أبو الفرج بن الجوزي في (صفة الصفوة)، وكذلك ابن أسد بن موسى، إن لم يصعدوا إلى طريقة عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، وهنَّاد بن السري، وغيرهم في كتبهم في الزهد، فهذا هذا، والله أعلم وأحكم.

فإن معرفة أصول الأشياء ومبادئها، ومعرفة الدين وأصله، وأصل ما تولَّد فيه من أعظم العلوم نفعاً؛ إذ المرء ما لم يُحِطْ بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة»اهـ[١].

- **اسم المؤلف:** السهروردي: عمر بن عبد الله.

* **اسم الكتاب:** عوارف المعارف.

(١) الفتاوى (١٠/٣٦٧).

تقويم شيخ الإسلام له:

نقل عنه شيخ الإسلام كلامه في وجوب تقييد الكرامات والخوارق بما جاء في الكتاب والسنة:

فقال: «قال أبو علي الجوزجاني: كُن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسَك منجبلةٌ على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة، قال الشيخ السهروردي في عوارفه[١]: وهذا الذي ذكره أصلٌ عظيمٌ كبيرٌ[٢] في الباب، وسرٌّ غفَل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب[٣]، وذلك: أن المجتهدين والمتعبِّدين سمعوا عن سلفِ[٤] الصالحين المتقدمين، وما مُنِحوا به من الكرامات وخوارقِ العادات، فأبداً نفوسُهم لا تزال تتطلَّع إلى شيء من ذلك»اهـ[٥].

• **اسم المؤلف:** أبو طالب المكي.

* **اسم الكتاب:** قوت القلوب.

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ قال شيخ الإسلام لـمَّا ذكر ما ابتدعه فريق من المتصوفة، من عبادات بدعية، كالخلوة ونحوها:

«لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هؤلاء، ولكن يذكر أحاديثَ كثيرةً ضعيفةً، بل موضوعة، ويذكر أحياناً عباداتٍ بدعيةً من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما، وذكروا أنه

---

(١) عوارف المعارف (٥/ ٥٤، مطبوع في ذيل الإحياء، ط. النور)، بعد الكلام السابق مباشرة.

(٢) في العوارف: أصل كبير في...

(٣) في العوارف: أهل السلوك والطلب.

(٤) في العوارف: سمعوا بسير الصالحين.

(٥) الفتاوى (١١/ ٣٢٠).

كان يزن الخبز بخشب رطب، كلما جفَّ نقص الأكل، وذكروا صلوات الأيام والليالي، وكلها كذب موضوعة، ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئاً من الخيالات الفاسدة، وليس هذا موضع بسط ذلك»اهـ[1].

ـ وقال الشيخ في جواب سؤال:

«سئل عن إحياء علوم الدين وقوت القلوب.

فأجاب: أما كتاب (قوت القلوب) وكتاب (الإحياء) تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب، مثل الصبر والشكر، والحب والتوكل والتوحيد، ونحو ذلك، وأبو طالب أعلمُ بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسدُّ وأجودُ تحقيقاً، وأبعد عن البدعة، مع أن في (قوت القلوب) أحاديثَ ضعيفةً وموضوعةً وأشياءَ كثيرةً مردودةً»اهـ[2].

ـ ومع ذلك، فقد اعتذر الشيخ لأبي طالب وغيره إيرادَه لهذه الأحاديث والآثار الضعيفة:

فقال في معرض كلامه عمَّا يقع فيه بعض الناس نتيجة استحسانهم لبعض العبادات وفعلهم لها دون دليل شرعي:

«وأشد من ذلك ما يذكره بعض المصنفين في الرقائق والفضائل في الصلوات الأسبوعية والحولية؛ كصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، المذكورة في كتاب أبي طالب، وأبي حامد وعبد القادر[3] وغيرهم، وأمثال ذلك من الصلوات المروية عن النبي ﷺ مع اتفاق أهل المعرفة بحديثه أن ذلك كذب عليه، ولكن بلغ ذلك أقواماً من أهل العلم والدين، فظنُّوه صحيحاً فعملوا به، وهم

(١) الفتاوى (١٠/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤). (٢) الفتاوى (١٠/ ٥٥١).

(٣) يعني: الشيخ عبد القادر الجيلاني.

مأجورون على حسن قصدهم واجتهادهم، لا على مخالفة السنة.

وأمَّا من تبيَّنت له السنة، فظن أن غيرَها خيرٌ منها، فهو ضالٌّ مبتدع، بل كافر، والقول الوسط العدل هو ما وافق السنةَ الصحيحةَ الثابتةَ عنه ﷺ»اهـ[١].

ـ وأثنى شيخ الإسلام على معرفة أبي طالب بأقوال الصوفية:

فقال بعد ذِكرِه للغزالي والقشيري:

«.. وأبو طالب أعلم منهما بأقوال الصوفية، ومع هذا لم يعرف مقالة الأكابر كالفضيل بن عياض ونحوه»اهـ[٢].

● **اسم المؤلف:** ابن عربي: محيي الدين.

* **اسم الكتاب:** فصوص الحِكم.

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ بيّن شيخ الإسلام أن هذا الكتاب هو شرّ كتب ابن عربي:

فقال: «.. وإنما كنت قديماً مِمَّن يُحسن الظن بابن عربي، ويُعظمه، لِما رأيت في كتبه من الفوائد، مثل كلامه في كثير من (الفتوحات)، و(الكُنه)، و(المحكم المربوط)، و(الدرة الفاخرة)، و(مطالع النجوم) ونحو ذلك، **ولم نكن بعدُ اطّلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع (الفصوص) ونحوه**»اهـ[٣].

ـ ما جاء في كتاب (الفصوص) مخالف لجميع الشرائع:

قال شيخ الإسلام: «.. والمقصود أن ما تضمنه كتاب (الفصوص) المُضاف إلى النبي ﷺ أن جاء به، وهو ما إذا ما فهمه المسلم عُلم بالاضطرار أن جميع الأنبياء والمرسلين، وجميع الأولياء والصالحين، بل

---

(١) الفتاوى (٢٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٢). (٢) النبوات (ص٢٤٧).
(٣) الفتاوى (٢/ ٤٦٤).

جميع عوامِّ أهل المِلَلِ من اليهود والنصارى والصابئين: يَبْرَؤون إلى الله تعالى من بعض هذا القول، فكيف منه كله؟»اهـ[١].

ـ النصارى يُعظمون كتاب الفصوص، ويرونه موافقاً لهم:

قال الشيخ: «وأما النصارى: فيغلب عليهم الإشراك والجهل، فهم يتعبَّدون ويرحمون لكن بضلال وإشراك، وبذلك وصفهم الله في القرآن، ولهذا يوجد في متعبِّدة الجهمية من الاتحادية وغيرهم منهم شَبَه كثير، حتى رأيت من هؤلاء الاتحادية من أخذ كلام النصارى النسطورية[٢] يزنه بكلامهم، وحتى إن من النصارى مَن يأخذ (فصوص الحكم) لابن عربي، فيُعظمه تعظيماً شديداً، ويكاد يُغشى عليه من فرحه به، ولهذا يوجد شيوخ الاتحادية موالين للنصارى، ولعلهم يوالونهم أكثرَ من المسلمين»اهـ[٣].

ـ ابن عربي يمدح الكفار في الفصوص:

قال شيخ الإسلام في معرض ذمه للاتحادية: «.. ولما كانت أحوالُ هؤلاء شيطانيةً، كانوا مناقضين للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكية) و(الفصوص)

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٦٩).

(٢) النسطورية: فرقة من فرق النصارى، نسبة إلى نسطور النصراني الحكيم، وهو الذي تصرَّف في الأناجيل، والنسطورية يقولون: إن اللاهوت حلَّ في الناسوت، وتدرّع به كحلول الماء في الإناء، قال شيخ الإسلام: «وهذا باطل قطعاً، بل ذلك باطل في العبد مع العبد، فإنه لا تتحد ذاته، ولا تحل ذات أحدهما في ذات الآخر»اهـ، وقالوا: إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته، لأن الإله لا تحله الآلام!.
انظر: الملل والنحل (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص١٣٢)، الفتاوى (٢/ ٨٥، ١٧١، ١٩٦).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٩).

وأشباه ذلك، يمدح الكفار؛ مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، ويتنقص الأنبياء؛ كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين»اهـ[١].

* **اسم الكتاب:** الفتوحات المكيّة.

تقويم شيخ الإسلام له:

أثنى الشيخ على الكتاب في الجملة:

فقال في معرض ذمه لمذهب ابن عربي: «.. وإنما كنت قديماً مِمن يُحسن الظن بابن عربي ويُعظمه، لِما رأيت في كتبه من الفوائد، مثل كلامه في كثير من (الفتوحات)، و(الكُنه)، و(المحكم المربوط)، و(الدرة الفاخرة)، و(مطالع النجوم)، ونحو ذلك، ولم نكن بعدُ اطّلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع الفصوص ونحوه»اهـ[٢].

* **اسم الكتاب:** عنقاء مغرب.

تقويم شيخ الإسلام له:

- ادَّعى ابن عربي في هذا الكتاب علمَ الغيب:

قال شيخ الإسلام: «.. فلهذا تجد عامة من في دينه فسادٌ يُدخل الأكاذيب الكونية مثل أهل الاتحاد، فإن ابن عربي في كتاب (عنقاء مغرب) وغيره أخبر بمستقبلات كثيرةٍ، عامَّتها كذب»اهـ[٣].

* **اسم الكتاب:** الإسرا إلى المقام الأسرى.

تقويم شيخ الإسلام له:

ادَّعى فيه ابن عربي أنه حصل له معراج كمعراج الأنبياء:

قال شيخ الإسلام في معرض تقريره لتوحيد الله تعالى وردّه على

---

(١) الفتاوى (١١/ ٢٣٩). (٢) الفتاوى (٢/ ٤٦٤).

(٣) الفتاوى (٤/ ٨١ ـ ٨٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٤/ ٣٤٢).

الاتحادية: «.. كابن عربي فإن له كتاباً سماه (الإسرا إلى المقام الأسرى) مضمونه حديث نفس ووساوس شيطان حصلت في نفسه، جعل ذلك معراجاً كمعراج الأنبياء»اهـ[١].

* **اسم الكتاب**: الكنه، المحكم المربوط، الدرّة الفاخرة، مطالع النجوم.

أثنى الشيخ على هذه الكتب ـ في الجملة ـ:

فقال في معرض ذمه لمذهب ابن عربي: «.. وإنما كنت قديماً مِمن يُحسن الظن بابن عربي ويُعظمه، لِما رأيت في كتبه من الفوائد، مثل كلامه في كثير من (الفتوحات)، و(الكُنه)، و(المحكم المربوط)، و(الدرة الفاخرة)، و(مطالع النجوم) ونحو ذلك، ولم نكن بعد اطّلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع (الفصوص) ونحوه»اهـ[٢].

- **اسم المؤلف**: أبو حامد الغزالي.

* **اسم الكتاب**: مصنفات أبي حامد الغزالي ـ عموماً ـ.

تقويم شيخ الإسلام لها:

ـ خلط أبو حامد في كتبه دين الحنفاء بدين المشركين:

قال شيخ الإسلام: «وهذا قد يوجد في كلام أبي حامد وكثير من

---

(١) المنهاج (٥/ ٣٤٠)، قال ابن عربي في كتابه الإسرا إلى المقام الأسرى: «.. فبينما أنا نائم، وسرّ وجودي متهجد قائم، جاءني رسوله بالتوفيق، ليهديني سواء الطريق، ومعه بُراق الإخلاص، عليه لُبد الفوز، ولجام الإخلاص، فكشف عن سقف محلي، وأخذ في نقضي وحِلّي، وشق صدري بسكين السكينة..، وأسرى بي من حرم الأكوان إلى قدس الجنان، فربطت البراق بحلقة بابه..، وأُتيت بالخمر واللبن، فشربت ميراثَ تمام اللبن، وتركت الخمر حذراً أن أكشف السرّ بالسُّكْر..»اهـ. الإسرا إلى المقام الأسرى (ص٩ ـ ١٠).

(٢) الفتاوى (٢/ ٤٦٤).

متأخّري المتصوفة والمتكلمين، أدخلوا في دين الحنفاء من دين المشركين. . »اهـ[١].

- مع موافقة أبي حامد للفلاسفة في كتبه الأولى، إلا أنه بالغ في ذمهم بعد ذلك، ورد عليهم:

قال شيخ الإسلام: «. . والمقصود هنا أن كتب أبي حامد وإن كان فيها كثير من كلامهم الباطل، إما بعباراتهم أو بعبارة أخرى، فهو في آخر أمره يبالغ في ذمّهم. . »اهـ[٢].

* **اسم الكتاب:** كيمياء السعادة، جواهر القرآن.

تقويم شيخ الإسلام لهما:

- الكتاب مليء بأقوال الفلاسفة المخالفة للإسلام، وقد وافق أبو حامد الفلاسفةَ في أكثر ما كتب فيهما:

قال شيخ الإسلام: «ثم من اغتر بما ذكره صاحب كتاب (السعادة) فيه وفي كتاب (جواهر القرآن)، وأمثالهما من الكتب، ففي هذه الكتب من الكلام المردود والمخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ما لا يَخفى على عالم بذلك، وقد رد علماء المسلمين ما في هذه الكتب من أقوال المتفلسفة وأشباهها من الضلال المخالف للكتاب والسنة، ومن الناس من يطعن في نقل هذه الكتب عمَّن أضيفت إليه، ويقول: إنه كُذِب عليه في نسبة هذه الكتب إليه، ومنهم من يقول: بل قد رجع عن ذلك، فإنه قد ثبت عنه في غير موضع نقيضُ ما يقوله في هذه الكتب، ومات على مطالعة (البخاري) و(مسلم).

وبالجملة: فإذا كان طائفة من المنتسبين إلى العلم والعبادة اعتقدوا أن علمَ الكيمياء حقٌّ وحلالٌ، فهذا لا يفيد شيئاً»اهـ[٣].

---

(١) الاستغاثة (٢/ ٤٨١).

(٢) الرد على المنطقيين (ص١٩٨).

(٣) الفتاوى (٢٩/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

ـ أنكر المسلمون تأليف هذا الكتاب على الغزالي لِمَا فيه من المخالفة للدين:

قال شيخ الإسلام في معرض رده على مَنِ ادَّعى معرفة الغيب من غير توسط الأنبياء: «وأبو حامد يكثر ذكر هذا وهو مما أنكره عليه المسلمون، وقالوا فيه أقوالاً غليظةً بهذا السبب الذي أسقط فيه توسُّط الأنبياء في الأمور الخبرية، وجعل ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة لا يفيد معرفة شيء من الغيب ولا يعرف معنى كلامه وما يتأول منه وما لا يتأول، لكن إذا ارتاض الإنسانُ انكشفت له الحقائق، فما وافق كشفَه أقره وما لم يوافقه تأوَّله، ولهذا قالوا: كلامه يقدح في الإيمان بالأنبياء، وذلك أن هذا مأخوذ من أصول هؤلاء الفلاسفة.

وكلامه في (مشكاة الأنوار) وفي (كيمياء السعادة) هو قول هؤلاء، ولهذا يذكر أن صاحب الرياضة قد يسمع كلام الله، كما سمعه موسى بن عمران ﷺ، وأمثال هذه الأقاويل التي أنكرها علماء المسلمين العارفين، بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة من الطوائف كلِّها، من أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، والصوفية المحقِّقين المتَّبعين للرسول، وأهل الحديث، ونُظَّار أهل السنة.

وقد أنكر عليه طائفةٌ من أهل الكلام والرأي كثيراً مما قاله من الحق، وزعموا أن طريقة الرياضة وتصفية القلب لا تؤثِّر في حصول العلم، وأخطؤوا أيضاً في هذا النفي، بل الحق أن التقوى وتصفيةَ القلب من أعظم الأسباب على نيل العلم[١]»اهـ[٢].

* **اسم الكتاب:** مشكاة الأنوار.

---

(١) تقدم تفصيل ذلك عند الكلام عن مصادر التلقي عند الصوفية (١/ ٣١٧).

(٢) الرد على المنطقيين (ص٥١٠ ـ ٥١١).

تقويم شيخ الإسلام له:

- كلامه فيه لا يرضاه أحد من أهل الملل، وقد ضلّ به خلقٌ:

قال شيخ الإسلام: «.. وله في كتاب «مشكاة الأنوار» من الكلام المبنيِّ على أصول هؤلاء المتفلسفة ما لا يرضاه لا اليهود ولا النصارى، ومن هناك مرق صاحب (خلع النعلين)[١] وأمثاله من أهل الإلحاد، كصاحب (الفصوص) ابن عربي»اهـ[٢].

- أجمع المسلمون على إنكار ما في كتاب «مشكاة الأنوار»:

قال شيخ الإسلام: «.. ولهذا تكلم الناس في صاحب (مشكاة الأنوار) بالعظائم، والمتفلسفة ينتحلونه لهذا الكتاب وأمثاله، وأهل الانتصار له يقولون: رجع عن ذلك كله، كما ذُكر في غير كتاب، ومنهم من يقول: هذه الكتب مكذوبةٌ عليه ليست من كلامه، وأنكروا عليه في (الإحياء) وغيره أيضاً مواضعَ مثل هذا وأمثاله»اهـ[٣].

- وفنّد شيخ الإسلام - تفصيلاً - شيئاً مما يلحظ على كلام صاحب المشكاة:

فقال: «وكذلك قال في كتاب (مشكاة الأنوار) لـمَّا تكلم على

---

(١) كتاب خلع النعلين: لابن قُسي.
وابن قسي هو: أبو القاسم أحمد ابن قَسِي (ضبطه ابن حجر بفتح القاف وكسر السين)، رومي الأصل، استعرب وتأدب وقال الشعر، ثم عكف على الوعظ، وكثُر مريدوه، فادعى أنه المهدي، وتسمى بالإمام، ثار على دولة الملثمين، واشترك في الأحداث السياسية، إلى أن قُتل سنة ٥٤٦هـ، له مصنفات منها: خلع النعلين، وهو مطبوع في بيروت.
انظر: الأعلام (١/ ١١٣ - ١١٤)، لسان الميزان (١/ ٢٤٨/ ترجمة ٧٧٥).

(٢) الدرء (٥/ ٣٥٤ - ٣٥٥).

(٣) الصفدية (١/ ٢٥٠)، وانظر هذا الكلام - أيضاً بمعناه - في: الرد على المنطقيين (ص٥١١).

المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار، وجعل المشكاة هو: الروح الحِسِّيَّ، والزجاجة: الروح الخيالي، والمصباح: العقل، والشجرة: الروح الفكري، والزيت: الروح القدسي النبوي، الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء، **وهذا الكتاب كالعنصر لمذهب الاتحادية، القائلين بوحدة الوجود، وإن كان صاحبُ الكتاب لم يقل بذلك، بل قد يكفّر من يقول بذلك**، لكن ذاك لِمَا فيه من الإجمال تارة ومن التفلسُف وإبراز مقاصد الفلاسفة في الألفاظ النبوية وتأويلها عليها تارة، ومن المخالفة لِمَا دلَّ عليه الكتاب والسنة والإجماع تارة، بل ومِنَ المخالفة لِمَا علم بالعقل الصريح تارة، ولِمَا فيه من الأمور التي يقولون: إنها تستلزم قولهم.

ولهذا عظُم إنكار أئمة الإسلام لهذا الكتاب ونحوه، حتى جرت في ذلك فصول يطول وصفها.

وقد جعل الكتاب ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في بيان أن النور الحقَّ هو الله تعالى، وأن اسم النور لغيره مجازٌ محض لا حقيقةَ له، وعاد كلامه إلى أن النور بمعنى الوجود، وقد سلك ابن سينا قبلَه نحواً من ذلك مما جمع به بين الشريعة والفلسفة، وكذلك سلك الإسماعيليةُ الباطنيةُ في كتابهم الملقب برسائل إخوان الصفا[1]، وكذلك فعل ابن رشد بعده، وكذلك الاتحادية يجعلون ظهوره وتجَلِّيه في الصور بمعنى وجوده فيها.

---

(١) إخوان الصفا: فرقة من فرق الباطنية، تهدف ظاهراً إلى التآلف والتصافي، ومذهبهم مزيج من أقوال الفلاسفة والباطنية والمعتزلة، يتظاهرون بالتشيع، ولهم مذهب في الكواكب والأفلاك وأثرها في عالم الكون والفساد، ويقولون بالفيض.
أما رسائلهم، فهي اثنتان وخمسون رسالة، جعلوها في أربعة أقسام، وقد كتموا أسماءهم. =

والكلام على هذا واسع مذكور في غير هذا الموضع؛ إذ الغرض هنا بيانُ ما يَعْلَمُ به من كلامهم من متابعتهم للمتفلسفة الصابئين، والتعبير عن تلك المعاني بألفاظ الأنبياء والمرسلين، مع العلم مِنْ كل مَنْ أوتي العلم والإيمان ـ بل مِنْ كل مؤمن ـ بأن ما في هؤلاء مِنْ مخالفة كتاب الله تعالى ورسله ودينه أعظم مما في اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل.

ثم قال[1] (**الفصل الثاني**: في بيان مثال المشكاة، المصباح، والزجاجة، والشجرة، والزيت، والنار، ومعرفة هذا تستدعي تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود:

الأول: في بيان سر التمثيل ومنهاجه، ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة.

والثاني: في بيان مراتب الأرواح البشرية النورانية؛ إذ بمعرفتها تُعْرَفُ أمثلةُ القرآن.

وأما الفصل الثالث[2]: ففي معنى قوله ﷺ: **(إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما أدركه بصره)**[3]،

= وقد طبعت هذه الرسائل في ليبزج سنة ١٨٨٣م، ثم في بومباي في الهند سنة ١٨٨٦م، ثم في مصر سنة ١٨٨٩م، ثم انتشرت وتوالى طبعها.
انظر: كتاب إخوان الصفا ـ لعمر الدسوقي (ص٤٨)، مقدمة رسائل إخوان الصفا ـ لبطرس البستاني (١/ ٥ ـ ٢٠)، تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ـ لمحمد لطفي جمعة (ص٢٥٣ ـ ٢٥٧).

(١) أي الغزالي، في كتابه مشكاة الأنوار، ص٦٥، تحقيق د. أبو العلا عفيفي.

(٢) مشكاة الأنوار (ص٨٤).

(٣) الحديث: أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني والطبراني بلفظ قريب منه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: (هل ترى ربك؟) قال: إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نار ـ أو نور ـ لو رأيت أدناها لاحترقت.
أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٧٠/رقم ٢٦٤)، والطبراني في الأوسط، =

وفي بعض الروايات: **(سبعمائة)**[١] وفي بعضها: **(سبعين ألفاً)**[٢].

= (٦/٢٧٨)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٧٩): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح خلا جهور بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات. اهـ.
وأخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص١٧٢) من حديث: زُرارة بن أوفى مرسلاً، والحديث ضعفه الألباني (ضعيف الجامع ٣/ ٢٠٧/ح٣٢١٩).
وانظر: اللآلئ المصنوعة (١/ ١٥، ١٧).
ولعله يغني عنه ما رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب قوله: إن الله لا ينام. .، ١/ ١٦١/ ١٧٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، بلفظ: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ وفي رواية أبي بكر: النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). ورواه ابن ماجه (١/ ٧٠/ ١٩٥)، وابن حبان (كتاب الإيمان، باب ما جاء في الصفات، ١/ ٤٩٩/ ٢٦٦)، من حديث: أبي موسى رضي الله عنه.

(١) لم أقف على هذه الرواية.

(٢) الحديث ـ بلفظ قريب منه ـ عن أبي حازم سلمة بن دينار عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: (دون الله تبارك وتعالى سبعون ألف حجاب من نور وظلمة، وما تسمع نفس شيئاً من حسّ تلك الحجب إلا زهقت نفسه).
أخرجه: أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٦٨ رقم٢٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٦٧)، وأبو يعلى في المسند (٦٩٣)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٨٢/ ٥٨٠٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٥٠٨) وقال ـ البيهقي ـ: تفرد به موسى بن عبيدة وهو عند أهل العلم بالحديث ضعيف. اهـ، وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١١٦): لا أصل له. اهـ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٧٩): فيه موسى بن عبيدة لا يحتج به. اهـ، وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة (١/ ١٥).
وفي معنى هذا الحديث ما جاء عن مجاهد قال: بين الملائكة وبين العرش سبعون ألف حجاب من نور.
أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٩٣/رقم ٢٨٣) بإسناد منقطع، وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة (١/ ١٨).

قلت: وقد بسطنا الكلام على هذه الآية، واسم الله النور والحجب، ما يتعلق بذلك في غير هذا الموضع.

ولما تكلَّم صاحب (مشكاة الأنوار) على طريق هؤلاء في الباطن بألفاظ الكتاب والسنة في الظاهر ـ وإن كان قد رُوِيَ أنه رجع عن ذلك كله، ومن الناس من يطعن في إضافة هذه الكتب إليه ـ والمقصود التنبيه على ما في هذه الكتب المخالفة للكتاب والسنة من الضلال لئلا يغترَّ بها وبنسبتها إلى المعظمين أقوام جهال.

قال[1]: القطب الأول: في سر التمثيل ومنهاجه: اعلم أن العالم عالمان: روحاني وجسماني، وإن شئت قلت: حِسِّي وعقلي، وإن شئت قلت: علوي وسفلي، والكل متقارب، وإنما يختلف باختلاف العبارات، فإن اعتبرتهما في أنفسهما قلت: جسماني وروحاني، وإذا اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت: حسي وعقلي، وإذا اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت: علوي وسفلي، وربما سميت أحدهما: عالم الملك والشهادة، والآخر: عالم الغيب والملكوت، ومن يطلب الحقائق من الألفاظ ربما تحيَّر عند كثرة الألفاظ، وتخيَّل كثرة المعاني، والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلاً، والألفاظ تَبعاً، وأمر الضعيف بالعكس منه، إذ يطلب الحقائق من الألفاظ وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

وإذا عرفت معنى العالمين:

فاعلم أن العالم الملكوتي: عالم غيب؛ إذ هو غائب عن الأكثرين.

---

(١) مشكاة الأنوار (ص٦٥).

والعالم الحسي: عالم شهادة؛ إذ تشهده الكافة والعالم الحسي مرقاة إلى العالم العقلي، ولو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدَّ طريق الترقي إليه، ولو تعذَّر ذلك لتعذَّر السفر إلى الحضرة الربوبية، والقرب من الله تعالى، فلن يقرب من الله أحد ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس..).

ثم قال[1]: خاتمة واعتذار: لا تظنن من هذا الأنموذج، وطريق ضرب المثال رخصة مني في رفع الظواهر، واعتقاداً في إبطالها، حتى أقول مثلاً لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، حاشا لله، فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية، الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، ولم يعرفوا الموازنة بينهما ولم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية، فالذي يجرد الظاهر حشوي، والذي يجرد الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل، لذلك قال ﷺ: (للقرآن ظاهر وباطن وحدٌّ ومطلع)[2]، وإنما نقل هذا عن علي بن أبي طالب موقوفاً عليه، بل أقول: فَهِمَ موسى مِنَ الأمر بخلع النعلين اطّراحَ الكونين، فامتثل الأمر ظاهراً بخلع النعلين، وباطناً باطّراح العالمين، فهذا هو الاعتبار، أي: العبور من الشيء إلى غيره،

(١) مشكاة الأنوار (ص٧٢ ـ ٧٣).

(٢) سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن طائفة من المتفقرة يدعون أن للقرآن باطناً، وأن لذلك الباطن باطناً، إلى سبعة أبطن، ويروون في ذلك حديثاً أن النبي ﷺ قال: (للقرآن باطن وللباطن باطن إلى سبعة أبطن)، ويفسرون القرآن بغير المعروف عن الصحابة والتابعين والأئمة من الفقهاء.. فأجاب: الحمد لله رب العالمين، أما الحديث المذكور، فمن الأحاديث المختلَقَة التي لم يروها أحد من أهل العلم، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث، ولكن يروى عن الحسن البصري موقوفاً أو مرسلاً: (إن لكل آية ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً).اهـ. الفتاوى (١٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢).

ومن الظاهر إلى السر، وفرق بين من سمع قول رسول الله ﷺ: **(لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب)**[١]، فيقتني الكلب في البيت، ويقول: ليس الظاهر مراداً، بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب، فإنه يمنع المعرفة التي هي من أنوار الملائكة؛ إذ الغضب غول العقل، وبين من يمتثل الأمر في الظاهر، ثم يقول: الكلب ليس كلباً لصورته، بل لمعناه، وهو السبعية والضراوة، وإذا كان حفظ البيت الذي هو مقر الشخص والبدن واجباً عن صورة الكلب، فلأن يجب حفظ بيت القلب، وهو مقر الجوهر الحقيقي الخاص عن شَرّ الكلبية أولى، فأنا أجمع بين الظاهر والسر جميعاً، فهذا هو الكامل، وهو المعنيُّ بقولهم: الكامل من لا يطفئ نورَ معرفته نورُ ورعه، ولذلك ترى الكامل لا تسمح نفسه بترك حد واحد من حدود الشرع مع كمال البصيرة، وهذه مغلطة بسببها وقع بعض السالكين في إباحة وطي بساط الأحكام ظاهراً، حتى إنه ربما ترك أحدهم الصلاة، وزعم أنه دائماً في الصلاة بسره، وهذا أسوأ بغلطه من الحمقى الإباحية الذين تأخذهم الترهات، كقول بعضهم: إن الله غني عن عملنا، وقول بعضهم: إن الباطن مشحون بالخبائث، وليس يمكن تزكيتها، ولا مطمع في استئصال الغضب والشهوة لظنه أنه مأمور باستئصالهما، وهذه حماقات.

وقد أبطلنا جميع ذلك في كتاب (إلجام العوام)، و(منشأ الرسالة في أحكام الزيغ والضلالة)، وأما ما ذكرناه فهو كبوة جواد وهفوة سالك جرَّه الشيطان فدلّاه بحبل غرور، وأرجع إلى حديث النعلين، فأقول: ظاهر خلع النعلين منبه على ترك الكونين، فالمثال في الظاهر حقٌّ، وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة، ولكل حق حقيقة.

وأهل هذه المرتبة هم الذين بلغوا درجة الزجاجة، كما سيأتي معنى

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٧٤٤).

الزجاجة؛ لأن الخيال الذي من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار، ويحول بينك وبين الأنوار، ولكن إذا صفا حتى صار كالزجاج الصافي، صار غيرَ حائل عن الأنوار، بل صار ـ مع ذلك ـ حافظاً للأنوار عن الانطفاء بعواصف الريح، وسيأتيك قصة الزجاجة. فاعلم أن العالم الكثيف الخيالي السفلي صار في حق الأنبياء زجاجةً ومشكاةً للأنوار، ومصفاة للأسرار، ومرقاة إلى العالم الأعلى، وبهذا تعرف أن المثال الظاهر حق ووراءه سر، وقس على هذا الطور والنار وغيرهما).

قلت: ليس المقصود هنا الكلام المفصل على ما في هذا الكلام وأمثاله، فإن علماء المسلمين قد بيَّنوا من ذلك ما فيه كفاية»اهـ[١].

* **اسم الكتاب**: شرح أسماء الله الحسنى.

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ ضمّنه أبو حامد التشبه بالله تعالى في كل أسمائه، حتى في الأسماء التي لا تليق إلا بالله تعالى:

قال شيخ الإسلام: «وصنف أبو حامد (شرح أسماء الله الحسنى)، وضمّنه التشبه بالله في كل اسم من أسمائه، وسماه التخلق، حتى في اسمه الجبار، والمتكبر، والإله، ونحو ذلك من الأسماء، التي ثبت بالنص والإجماع أنها خاصةٌ بالله، وأنه ليس للعباد فيها نصيب، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره: (يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته)[٢]»اهـ[٣].

* **اسم الكتاب**: المضنون به على غير أهله[٤].

---

(١) بغية المرتاد (ص١٩٨ ـ ٢١٤).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٣١٠).

(٣) الصفدية (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٤) كتاب المضنون به على غير أهله: ويُسمى أيضاً: المضنون الكبير، وله أيضاً =

تقويم شيخ الإسلام له:

- ذكر أبو حامد في هذا الكتاب مذهب الفلاسفة، لكنه عرضه بعبارات إسلامية:

قال شيخ الإسلام: «وتجد أبا حامد الغزالي، مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك مع الزهد والعبادة، وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية، أكثر من أولئك، يذكر في كتاب (الأربعين)، ونحوه كتابه: (المضنون به على غير أهله)، فإذا طلبت ذلك الكتاب، واعتقدت فيه أسرار الحقائق، وغاية المطالب، وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم، ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد، ومقالات أهل الملل، يعتقد أن ذاك هو السر الذي كان بين النبي ﷺ وأبي بكر، وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون، الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي.

= المضنون الصغير، ويسمى أيضاً: الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية، وقد طبع هذان الكتابان أكثر من مرة، من آخرها ضمن مجموعة رسائل للغزالي، طبعتها دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٤١٤هـ.

وقد شكك طائفة في نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي، إذ وافق فيه الفلاسفة مع ردّه عليهم في مواضع، قال شيخ الإسلام: «وما يوجد في كتب أبي حامد الغزالي من كلام الفلاسفة الباطنية، كما يوجد في المضنون به على غير أهله وأمثاله، فقال طائفة من الفضلاء: إنه كذب عليه، وطائفة قالت: بل رجع عن ذلك، فإنه صرح بكفر الفلاسفة في التهافت، واستقرّ أمره على مطالعة البخاري ومسلم، ومات على أحسن أحواله، فلا يجوز أن تُنسب إليه هذه الأقوال نسبة مستقرة»اهـ. مختصر الفتاوى المصرية (ص٥٧٧ ـ ٥٧٨).

وزعم صاحب كشف الظنون أن هذا الكتاب ليس للغزالي، بل إنه اختُلق عليه، وقال: «وقد اشتمل الكتاب على التصريح بقدم العالم، ونفي علم الله بالجزئيات، ونفي الصفات، وكل واحدة من هذه يُكفّر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون، فكيف يُتَصوّر أنه يقولها؟»اهـ. كشف الظنون (٢/ ١٧١٣).

فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل في كتبه على ذلك النور الإلهي، وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعباد برياضتهم وديانتهم، من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع.

صار طائفة ممن يرى فضيلته وديانته يدفعون وجود هذه الكتب عنه.

وأما (المضنون به على غير أهله) فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه، وأما أهل الخبرة به وبحاله، فيعلمون أن هذا كلّه كلامه، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضاً، ولكن كان هو وأمثاله ـ كما قدمت ـ مضطربين لا يثبتون على قول ثابت؛ لأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوَّفون به إلى طريقة خاصة الخلق، ولم يُقَدّر لهم سلوك طريق خاصة هذه الأمة الذين ورثوا عن الرسول ﷺ العلم والإيمان وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن ـ كما قدمناه ـ وأهل الفهم لكتاب الله، والعلم والفهم لحديث رسول الله ﷺ وأتباع هذا العلم بالأحوال والأعمال المناسبة لذلك كما جاءت به الرسالة.

ولهذا كان الشيخ أبو عمرو بن الصلاح[1] يقول ـ فيما رأيته بخطه ـ: أبو حامد كثُر القول فيه ومنه، فأما هذه الكتب ـ يعني المخالفة للحق ـ فلا يُلتَفَتُ إليها، وأما الرجل، فيسكت عنه ويفوَّضُ أمره إلى الله»اهـ[2].

---

(١) هو عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي، تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين، الإمام الحافظ، صاحب كتاب علوم الحديث، ولد سنة ٥٧٧هـ، وتفقه أول أمره على والده، ثم رحل في طلب العلم، وكان أحدَ فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه، وله مشاركة في عدة فنون. قال الذهبي: «كان سلفياً حسن الاعتقاد، كافّاً عن تأويل المتكلمين، مؤمناً بما ثبت من النصوص»، توفي سنة ٦٤٣هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٣١).

(٢) الفتاوى (٤/ ٦٣ ـ ٦٧).

وقال شيخ الإسلام: «.. ولهذا صنف الكتب (المضنون بها على غير أهلها)، وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا، ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية، إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع»اه[١].

- الغزالي وافق الفلاسفة في مذهبهم في الصفات:

قال الشيخ في معرض ردّه على الفلاسفة: «.. ومِنْ تناقُضِ هؤلاء ومَنِ اتَّبعهم - كصاحب (الكتب المضنون بها): صاحب (المضنون الكبير) - أنهم يفسرون واجب الوجود بأنه ما لا يلازم غيره، لينفوا بذلك صفاته اللازمة له، ويقولون: لو قلنا: إن له صفاتٍ لازمةً له، لم يكن واجبَ الوجود»اه[٢].

- قرر الغزالي في هذا الكتاب أن زيارة قبور المشايخ والصالحين تفيض على القلوب معرفةً وهدايةً:

قال شيخ الإسلام: «.. وأما من يقول: يفيض على الداعي من جهتهم ما يطلب، من غير علم منهم، ولا قصد، كشعاع الشمس الذي يظهر في الماء، وبواسطة الماء يظهر في الحائط، وإن كانت الشمس لا تدري بذلك، وهذا قول طائفة من المتفلسفة المنتسبين إلى الملل، **وقد ذكره صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها**) وغيره»اه[٣].

- صرّح الغزالي في هذا الكتاب بالقول بمذهب الفلاسفة في الملائكة:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفلاسفة: «فإن الملائكة

---

(١) النبوات (ص١٤٤)، وانظر هذا الكلام - بمعناه - في: الرد على المنطقيين (ص٢٨٢).

(٢) المنهاج (١/٢٦٦ - ٢٦٧).

(٣) الرد على الأخنائي (ص٦٠).

ـ عند من آمن بالنبوات منهم ـ هي: العقول العشرة، وتلك عندهم قديمة أزليَّة، والعقل ربُّ كلٍّ ما سوى الرب عندهم، وهذا لم يقل مثلَه أحد من اليهود، والنصارى، ومشركي العرب، لم يقل أحد: إن ملَكاً مِنَ الملائكة ربّ العالم كلِّه، وهؤلاء يقولون ما ذكره ابن سينا وأتباعه، كصاحب الكتب (المضنون بها على غير أهلها)، ومن وافقهم من القرامطة والباطنية، من الملاحدة والجُهَّال الذين دخلوا في الصوفية وأهل الكلام»اهـ[١].

* **اسم الكتاب**: إحياء علوم الدين.

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ الإحياء أجلّ كتب أبي حامد:

قال شيخ الإسلام: «.. وقد قال أبو حامد الغزالي في الكتاب الذي سماه (إحياء علوم الدين)، وهو من أجلّ كتبه»اهـ[٢].

ـ لا يخلو كتاب الإحياء من فلسفة وترَّهات صوفية:

قال الشيخ: «.. والغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في (الشفا) وغيره، و(رسائل إخوان الصفا)، وكلام أبي حيان التوحيدي، وأمَّا المادة المعتزلية في كلامه، فقليلة أو معدومة، وكلامه في (الإحياء) غالبه جيد، لكن فيه موادُّ فاسدة: مادة فلسفية، ومادة كلامية، ومادة من ترّهات الصوفية، ومادة من الأحاديث الموضوعة»اهـ[٣].

ـ فصّل الشيخ رأيه في كتاب الإحياء، في جواب سؤال:

«**سئل** عن (إحياء علوم الدين) و(قوت القلوب)..؟

---

(١) الرد على المنطقيين (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

(٢) الاستقامة (١/ ٨٠)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الدرء (٧/ ١٤٥).

(٣) الفتاوى (٦/ ٥٤).

فأجاب: أما كتاب (قوت القلوب) وكتاب (الإحياء) تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب، مثل الصبر والشكر، والحب والتوكل والتوحيد، ونحو ذلك، وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي وكلامه أسدُّ وأجودُ تحقيقاً وأبعد عن البدعة، مع أن في (قوت القلوب) أحاديثَ ضعيفةً وموضوعةً وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في (الإحياء) من الكلام في المهلكات؛ مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في (الرعاية)، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه، (والإحياء) فيه فوائد كثيرة، لكن فيه موادُّ مذمومة؛ فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا: مرضه الشفاء يعني: (شفاء) ابن سينا في الفلسفة، وفيه أحاديثُ وآثارٌ ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترَّهاتهم، وفيه ـ مع ذلك ـ من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب، الموافق للكتاب والسنة ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه»اهـ[1][2].

---

(١) الفتاوى (١٠/٥٥١ ـ ٥٥٢).

(٢) للإمام ابن الجوزي تقويم حسن لكتاب إحياء علوم الدين، ومما قال في ذلك (تلبيس إبليس ص٢٠٢): «وجاء أبو حامد الغزالي، فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في =

● **اسم المؤلف:** ابن الفارض.

* **اسم الكتاب:** ديوان ابن الفارض قصيدة نظم السلوك.

تقويم شيخ الإسلام له:

- قرر ابن الفارض في هذا الديوان عقيدة الاتحادية:

قال شيخ الإسلام: «.. ومثل الأشعار التي فيها ذكر الحب مطلقاً، بتوابعه من الهجر والوصل والصدود والشوق، مثل كثير من شعر ابن الفارض، فإن تلك القصيدة يتقبلها الزنديق التلمساني ونحوه ممن يقول: إن الله هو وجود المخلوقات، وقد نقلها قوم صحيحو الاعتقاد من الصوفية، وأخذوا ما فيها من وصف الحب وأهله، وتنازع الفريقان قوله:

ولي من أتم النظرتين إشارة تنزّه عن رأي الحلول عقيدتي[1]

فأولئك المنافقون يقولون: إنه متعدٍّ إلى الحلول والاتحاد، بل إلى وحدة الوجود، والمؤمنون يقولون: بل أراد إثبات عبوديته لله،

= علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله ﷻ ولم يرد هذه المعروفات، وهذا من جنس كلام الباطنية، وقال في كتابه المفصح بالأحوال: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»اهـ.

(١) لفظ البيت في ديوان ابن الفارض:
ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي
وهو من قصيدته المسماة بنظم السلوك، ومطلعها:
سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأسي محيا من عن الحسن جلت
.. إلى أن قال:
يرى ملكاً يوحي إليه وغيره يرى رجلاً يُدعى لديه بصحبة
ولي من أتم الرؤيتين إشارة تُنزه عن رأي الحلول عقيدتي
ديوان ابن الفارض (ص٤٧، ٧٣).

وأنه لا يحل مخلوقاته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

لكن من تأمَّل بقية هذه القصيدة، وتأمَّل هذه الأبيات وما بعدها، وجدها صريحةً في مذهب الاتحادية المنافقين الفرعونية القرامطة، وعلِم أن نفَسَه ونفَس التلمساني هو نَفَسُ ابن عربي، وأن هؤلاء كلهم قولهم كفر صريح»اهـ[(١)].

- وذكر الشيخ هذه القصيدة في موضع آخر، في معرض ذمه للاتحادية وكتبهم، فقال:

«وأما ابن سبعين، فإنه في البُدُوِّ والإحاطة يقول أيضاً بوحدة الوجود، وأنه ما ثَمَّ غيرٌ، **وكذلك ابن الفارض في آخر** (نظم السلوك)، لكن لم يُصرح هل يقول بمثل قول التلمساني، أو قول الرومي، أو قول ابن عربي؟ وهو إلى كلام التلمساني أقرب»اهـ[(٢)].

● **اسم المؤلف:** أبو القاسم القشيري.

* **اسم الكتاب**: الرسالة القشيرية.

تقويم شيخ الإسلام له:

- بيّن شيخ الإسلام أن الرسالة لا تخلو من الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة، واعتذر عن أبي القاسم في ذلك:

فقال: «ما يذكره أبو القاسم في (رسالته) عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين والمشايخ وغيرهم: تارة يذكره بإسناد، وتارة يذكره مرسلاً، وكثيراً ما يقول: وقيل كذا. ثم الذي يذكره بإسناد تارةً يكون إسناده صحيحاً، وتارة يكون ضعيفاً، بل موضوعاً، وما يذكره مرسلاً، ومحذوفَ القائل أولى، فالموجود في كتب الرقائق والتصوُّف من الآثار

---

(١) المستدرك على الفتاوى (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٢) الفتاوى (٢/ ٤٧٢).

المنقولة فيها الصحيح، وفيها الضعيف، وفيها الموضوع، وهذا الأمر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون أن هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا، والمصنفون قد يكونون أئمةً في الفقه أو التصوف أو الحديث، ويروون هذا تارةً، لأنهم لم يعلموا أنه كذب، وهو الغالب على أهل الدين، فإنهم لا يحتجُّون بما يعلمون أنه كذب، وتارةً يذكرونه وإن علموا أنه كذب؛ إذ قصدهم روايةُ ما رُوي في ذلك الباب، ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذباً جائز.

والمقصود هنا: أن ما يوجد في الرسالة وأمثالها من كتب الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من المنقولات عن النبي ﷺ وغيره من السلف فيه الصحيح والضعيف والموضوع.. وغالب أبواب (الرسالة) فيها الأقسام الثلاثة.. وكذلك ما ذكره من الآثار فإنه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيدَ حسنةٍ..»اهـ[1].

ـ جعل القشيري أصله في هذه الرسالة ما رُوي عن الزهاد المتأخرين، وغفل عن طريق الصحابة والتابعين:

قال شيخ الإسلام: «.. وكذلك مَن صنَّف في التصوف والزهد، جعل الأصل ما رُوي عن متأخري الزُّهَّاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين، كما فعل صاحب (الرسالة) أبو القاسم القشيري»اهـ[2].

ـ ما ذكره القشيري في رسالته من الاعتقاد، ونسبه إلى مشايخ الصوفية، هو في الحقيقة اعتقادُ الأشاعرة، وليس اعتقادَ مشايخ الصوفية الصالحين:

قال شيخ الإسلام: «فصل: فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في (رسالته) المشهورة، من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرقات

---

(١) الفتاوى (١٠/٦٧٨ ـ ٦٨١). (٢) الفتاوى (١٠/٣٦٧).

كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم، الذي تلقَّاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني، وهذا الاعتقاد غالبُه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة، لكنه مقصِّر عن ذلك، ومتضمِّنٌ تركَ بعض ما كانوا عليه، وزيادة تخالف ما كانوا عليه.

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر، فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ ما يبين حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[1].

- لخَّص شيخ الإسلام رأيه في كتاب الرسالة القشيرية من خلال خمس نقاط:

فقال في معرض كلامه عن الصوفية وما كُتب عنهم: «.. وما ذكره أبو القاسم في (رسالته) من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم، فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، **ولكن:**

- فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومَنْ سَلَكَ سبيلهم.

- ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة.

- ومع ما في كتابه من الفوائد في المقولات والمنقولات، ففيه أحاديثُ صحيحةٌ وأحاديثُ ضعيفةٌ، بل باطلةٌ.

- وفيه كلمات مجملة تحتمل الحق والباطل روايةً ورأياً.

- وفيه كلمات باطلة في الرأي والرواية.

وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وقال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ

(١) الاستقامة (١/ ٨١ ـ ٨٢).

أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فكتبت من تمييز ذلك ما يسَّره الله، واجتهدت في اتباع سبيل الأمة الوسط، الذين هم شهداءُ على الناس، دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره في اعتقاده وتصوُّفه على الطريقة التي هي أكملُ وأصحُّ مما ذكره علماً وحالاً وقولاً وعملاً واعتقاداً واقتصاداً، أو يحطه دون قدره فيهما ممن يسرف في ذم أهل الكلام أو يذمُّ طريقة التصوف مطلقاً، والله أعلم.

والذي ذكره أبو القاسم فيه الحسن الجميل الذي يجب اعتقادُه واعتماده، وفيه المجمل الذي يأخذ المحق والمبطل وهذان قريبان، وفيه منقولات ضعيفة ونقول عمن لا يقتدى بهم في ذلك، فهذان مردودان، وفيه كلام حمله على معنى وصاحبه لم يقصد نفس ما أراده هو، ثم إنه لم يذكر عنهم إلا كلمات قليلة لا تشفي في هذا الباب، وعنهم في هذا الباب من الصحيح الصريح الكبير ما هو شفاء للمقتدي بهم الطالب لمعرفة أصولهم، وقد كتبت هنا نكتاً يعرف بها الحال»اهـ[1].

ـ والقشيري في مؤلفاته أعلم بمقالات الصوفية من غيره:

وقد بين ذلك شيخ الإسلام، فقال في معرض تقويمه لعدد من كتب المقالات: «وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات، مثل.. والقشيري أعلم بأقوال الصوفية، ومع هذا لم يذكر أقوال أئمتهم»اهـ[2].

● **اسم المؤلف:** الكلاباذي: أبو بكر الكلاباذي.

* **اسم الكتاب:** التعرف لمذهب التصوف.

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ جعل الأصل في كتابه ما روي عن الزهاد والعباد:

---

(١) الاستقامة (١/ ٨٩).

(٢) النبوات (ص٢٤٦ ـ ٢٤٧).

قال شيخ الإسلام: «.. وكذلك مَن صنف في التصوف والزهد، جعل الأصل ما رُوي عن متأخري الزهاد، وأعرض عن طريق الصحابة والتابعين، كما فعل صاحب (الرسالة) أبو القاسم القشيري، وأبو بكر الكلاباذي.. وكان أحسن من هذا أن يفعلوا كما فعله أبو نعيم الأصبهاني في (الحلية) من ذكره للمتقدمين والمتأخرين، وكذلك أبو الفرج بن الجوزي في (صفة الصفوة)، وكذلك ابن أسد بن موسى، إن لم يصعدوا إلى طريقة عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، وهنَّاد بن السري، وغيرهم في كتبهم في الزهد، فهذا هذا، والله أعلم وأحكم، فإن معرفة أصول الأشياء ومبادئها، ومعرفة الدين وأصله، وأصل ما تولد فيه من أعظم العلوم نفعاً؛ إذ المرء ما لم يُحِطْ بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة»اهـ[1].

ـ كتاب التعرف يتسم بالعدل والإحاطة:

قال شيخ الإسلام في معرض انتقاده لما ذكره أبو القاسم في الرسالة القشيرية عن مشايخ الصوفية من الاعتقاد، وأنه ذكر اعتقاد الأشاعرة ونسبه إلى الصوفية[2]: «.. والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذي كان يجب أن يُذكر.. وقد جمع كلام المشايخ إمَّا بلفظه، أو بما فهمه هو غير واحد، فصنف أبو بكر الكلاباذي كتاب (التعرف لمذهب التصوف) وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها»اهـ[3].

ـ واستشهد شيخ الإسلام بكلام أبي بكر الكلاباذي في (التعرف) في الرد على أبي القاسم القشيري وغيره، فيما رووه عن الصوفية مما يخالف مذهب السلف:

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٦٧).

(٢) تقدم تفصيل ذلك (ص٣٨١).

(٣) الاستقامة (١/ ٨٢ ـ ٨٣).

فقال الشيخ بعد إيراده لرواية ذكرها القشيري عن سهل بن عبد الله التستري في القول بخلق القرآن: «قلت: هذا الكلام ليس له إسناد عن سهل، وكلام سهلٍ بن عبد الله وأصحابِه في السنة والصفات والقرآن أشهر من أن يُذكَرَ هنا، وسهلٌ من أعظم الناس قولاً بأن القرآن كلَّه حروفٌ، ومعانيه غير مخلوقة، بل صاحبه أبو الحسن بن سالم أخبرُ الناسِ بقوله قد عرف قوله وقول أصحابه في ذلك، وقد ذكر أبو بكر بن إسحاق الكلاباذي في (التعرف في مذاهب التصوف) عن الحارث المحاسبي وأبي الحسن بن سالم أنهما كانا يقولان: إن الله يتكلم بصوت، ومذهب السالمية[1] أصحاب سهل ظاهر في ذلك، فلا يترك هذا الأمر المشهور المعروف الظاهر لحكاية مرسلة لا إسناد لها»اهـ[2].

● **اسم المؤلف:** الهروي: أبو إسماعيل الأنصاري.

* **اسم الكتاب:** منازل السائرين:

تقويم شيخ الإسلام له:

ـ التوحيد الذي ذكره في آخر الكتاب هو في الحقيقة حلول وليس توحيداً:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن علوّ الله تعالى على خلقه،

---

(١) السالمية: فرقة كلامية ذات نزعة صوفية، تُنسب إلى محمد بن سالم، المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وإلى ابنه أحمد بن سالم، المتوفى سنة ٣٥٠هـ، تتلمذ الأب على سهل بن عبد الله التستري، هذا ومن أشهر رجال السالمية: أبو طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦هـ، ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة، مع مَيل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية.
انظر: المعتمد في أصول الدين (ص٣٩٠)، الفرق بين الفرق (ص١٥٧، ٢٠٢)، نشأة الفكر الفلسفي ـ لسامي النشار (١/ ٢٩٤).

(٢) الاستقامة (١/ ٢٠٨).

وقول بعض الحلولية بحلول الله تعالى في قلوب العارفين: «.. والمقصود أن الله تعالى وصف نفسه بالمعية وبالقرب،.. وافترق الناس في هذا المقام: أربعَ فرقٍ:...

الثالث: قول مَن يقول: هو فوق العرش وهو في كل مكان.. وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية.. وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة، يقولون: إنه فوق العرش، ويقولون: نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف، كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان، وما يتبع ذلك، فإن قالوا: إن العرش كذلك، نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش، وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولاً بالحلول الخاص، وقد وقع طائفة من الصوفية ـ حتى صاحب (منازل السائرين) في توحيده المذكور في آخر (المنازل) ـ في مثل هذا الحلول[1]، ولهذا كان أئمة القوم يُحَذِّرون عن مثل هذا»اهـ[2].

ـ ولكن لا يخلو الكتاب من أشياءَ حسنةٍ نافعةٍ:

قال شيخ الإسلام: «.. وقد ذكر في كتابه (منازل السائرين) أشياء حسنة نافعة وأشياء باطلة، ولكن هو فيه ينتهي إلى الفناء في توحيد الربوبية، ثم إلى التوحيد الذي هو حقيقة الاتحاد»اهـ[3].

---

(١) قال أبو إسماعيل الهروي في كتابه منازل السائرين: «باب التوحيد: والتوحيد على ثلاثة وجوه: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، وتوحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق، وتوحيد قائم بالقِدم وهو توحيد خاصة الخاصة، فأما التوحيد الأول فهو.. وأما التوحيد الثالث: فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقدره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته..»اهـ. باختصار يسير. منازل السائرين (ص١٣٥ ـ ١٣٩).

(٢) الفتاوى (٥/ ١٢٤ ـ ١٢٦، ٢٣٠). (٣) المنهاج (٥/ ٣٤٢).

● **اسم المؤلف:** محمد بن خفيف: أبو عبد الله.

* **اسم الكتاب:** اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات.

تقويم شيخ الإسلام له:

- استشهد شيخ الإسلام بما جاء في هذا الكتاب أثناء حكاية الشيخ لمعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته، وأثنى شيخ الإسلام على هذا الكتاب وموافقته لاعتقاد أهل السنة:

ومن ذلك قول الشيخ: «وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات)، قال في آخر خطبته: فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار في توحيد الله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه، قولاً واحداً، وشرعاً ظاهراً، وهم الذين نقلوا عن رسول الله ﷺ ذلك..»اهـ[1].

● **اسم المؤلف:** معمر بن أحمد الأصبهاني.

* **اسم الكتاب:** وصية معمر بن أحمد لأصحابه.

تقويم شيخ الإسلام له:

- استشهد شيخ الإسلام بما جاء في هذا الكتاب أثناء حكاية الشيخ لمعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته، وأثنى شيخ الإسلام على هذا الكتاب وموافقته لاعتقاد أهل السنة:

ومن ذلك قول الشيخ: «وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني - شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده - قال: أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين..»اهـ[2].

---

(١) الفتاوى (٥/ ٧١).

(٢) الفتاوى (٥/ ٦١)، وانظر هذا الكلام - بمعناه - في: الفتاوى (٥/ ٩١).

ونخلص ممَّا سبق: أن مصنفات الصوفية التي قوّمها شيخ الإسلام وحكم عليها تنقسم قسمين:

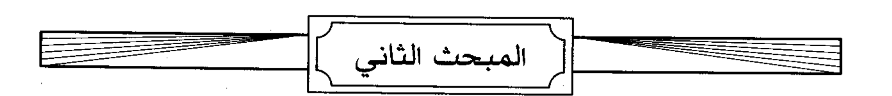
قسم: وافق مصنفهُ أهلَ السنة والجماعة في تقرير المعتقد، والتزام السنة النبوية في السلوك.

وقسم: خالف مصنفُه أهلَ السنة والجماعة في مسائل المعتقد، أو في المظاهر السلوكية.

وقد كان مقياس شيخ الإسلام لنا من خلال ما سبق أنه ينقل عن الكتاب المراد تقويمُهُ ثم يحكم عليه، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وسيأتي في المبحث التالي عند الكلام عن تقويم شيخ الإسلام لرجالات المتصوفة زيادة إيضاح لهذا المنهج.





المبحث الثاني

موقفه من رجالاتهم وشخصياتهم

تمهيد:

قبل أن أورد رأي شيخ الإسلام في رجالات[١] المتصوفة، أُحب أن أُمهد بذكر شيء من منهج الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في التعامل مع رجال الصوفية وأعلامهم، والحكم عليهم، مع أنه قد تقدم شيء من ذلك في مبحث سابق[٢]، ولكني أُجمل هنا بعض النقاط المهمة، وهي:

أولاً: يفرق شيخ الإسلام عند تقويم رجال الصوفية والحكم عليهم بين:

غُلاة المتصوفة: كابن عربي، وابن سبعين، ونحوهما.

وبين صالحي الصوفية: كالجُنَيد ونحوه.

ويمكن إجمال رأي شيخ الإسلام في رؤوس الاتحادية بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

«.. وهكذا هؤلاء الاتحادية: فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم، ولا تُقبل توبة أحد منهم إذا أُخِذَ قبل التوبة، فإنه من أعظم الزنادقة الذين يظهرون الإسلام ويبطنون أعظم الكفر، وهم الذين يفهمون

(١) رجالات: جمع رجل، فإن كلمة «رجل» تجمع على رجال ورجالات، كجَمَل تجمع على جِمال وجِمالات، وقيل: رِجالات جمع الجمع.
انظر: تاج العروس (١٤/ ٢٦٣).

(٢) انظر (ص٣٤٣).

قولهم ومخالفتهم لدين المسلمين، ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذبَّ عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظَّم كتبهم، أو عُرِف بمساعدتهم ومعاونتهم، أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يُدرَى ما هو، أو: مَنْ قال: إنه[١] صنف هذا الكتاب؟، وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء، والملوك والأمراء، وهم يسعَوْن في الأرض فساداً ويصدون عن سبيل الله.

فضررهم في الدين أعظمُ من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم ويترك دينهم، كقطاع الطريق وكالتتار الذين يأخذون منهم الأموال ويبقون لهم دينهم، ولا يستهين بهم من لم يعرفهم، فضلالُهم وإضلالُهم أعظمُ من أن يوصف، وهم أشبه الناس بالقرامطة الباطنية، ولهذا هم يريدون دولة التتار، ويختارون انتصارهم على المسلمين، إلا من كان عامياً من شيعهم وأتباعهم، فإنه لا يكون عارفاً بحقيقة أمرهم.

ولهذا يقرون اليهود والنصارى على ما هم عليه، ويجعلونهم على حقٍّ، كما يجعلون عُبَّاد الأصنام على حقٍّ، وكل واحدة من هذه من أعظم الكفر، ومن كان مُحسناً للظن بهم، وادّعى أنه لم يعرف حالهم، عُرِّف حالَهم، فإنْ لم يباينْهم ويُظهر لهم الإنكار، وإلا أُلحق بهم، وجُعل منهم، وأما من قال: لِكلامهم تأويل يوافق الشريعة، فإنه من رؤوسهم وأئمتهم، فإنه إن كان ذكياً، فإنه يعرف كذب نفسه فيما قاله، وإن كان

---

(١) يعني ابن عربي وكتابه فصوص الحِكم، وسيأتي الكلام عن ابن عربي، أما كتابه فقد تقدم الكلام عن موقف شيخ الإسلام منه في المبحث السابق (ص٣٦٠).

معتقداً لهذا باطناً وظاهراً، فهو أكفر من النصارى، فمن لم يُكفِّرْ هؤلاء وجعل لِكلامهم تأويلاً، كان عن تكفير النصارى بالتثليث والاتحاد أبعدَ، والله أعلم»اهـ[(١)].

ثانياً: بيَّن شيخ الإسلام أن صالحي الصوفية يكفّرون الاتحادية:

فقال رَحِمَهُ اللهُ: «ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، **وإن شيوخ الصوفية الكبار** كالفضيل بن عياض.. وسهل بن عبد الله التستري.. رضي الله عنهم كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء..»اهـ[(٢)].

ثالثاً: شيوخ الصوفية الصالحون هم أبرأ الناس من مذهب الاتحادية، وأشدهم نكيراً عليه:

قال شيخ الإسلام: «.. حتى آل الأمر بملاحدة المتصوفة ـ كابن عربي صاحب (فصوص الحكم) وأمثاله ـ إلى أن جعلوا الوجود واحداً، وجعلوا وجود الخالق هو وجودَ المخلوق، وهذا تعطيل للخالق،.. وآخر تحقيقهم استحلال المحرمات وترك الواجبات، كما كان يفعل أبرع محقّقيهم: التلمساني وأمثاله.

هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير،.. من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[(٣)].

---

(١) الفتاوى (٢/ ١٣١ ـ ١٣٣).

(٢) الفتاوى (١٢/ ٣٥٣).

(٣) الدرء (٥/ ٤).

رابعاً: بيّن شيخ الإسلام أن الاتحادية لا ينتسبون إلى الإسلام أصلاً، بل يجاهرون بالتبرؤ منه ومخالفته، ولو انتسبوا إليه مع إصرارهم على ما يعتقدون لما قَبِل المسلمون منهم ذلك:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «.. وأما هؤلاء فالواصل عندهم إلى العلم المطلوب قد يبيحون له محظوراتِ الشرائع، حتى الفواحش والخمر وغيرها، إذا كانوا ممن يعتقد تحريم الخمر، وإلا فغالب هؤلاء لا يوجبون شريعة الإسلام، بل يجوِّزون التهوُّد والتنصُّر، وكلُّ مَنْ كان مِنْ هؤلاء واصلاً إلى علمهم، فهو سعيد.

وهكذا تقول الاتحادية منهم كابن سبعين، وابن هود، والتلمساني، ونحوهم، ويدخلون مع النصارى بِيَعَهم، ويصلون معهم إلى الشرق، ويشربون معهم ومع اليهود الخمر، ويميلون إلى دين النصارى أكثر من دين المسلمين، لِمَا فيه من إباحة المحظورات، ولأنهم أقربُ إلى الاتحاد والحلول، ولأنهم أجهل، فيقبلون ما يقولونه، أعظمَ من قبولهم لقول المسلمين، وعلماء النصارى جُهَّال؛ إذا كان فيهم متفلسف عظَّموه وهؤلاء يتفلسفون.

والواحد من هؤلاء يفرح إذا قيل له: لستَ بمسلم، ويحكي عن نفسه كما كان أحمد المارديني - وهو من أصحاب ابن عربي - يحكي عن نفسه أنه دخل إلى بعض ديارات النصارى، ليأخذ منهم ما يأكله هو ورفيقه، فأخذ بعضهم يتكلم في المسلمين، ويقول: يقولون كذا وكذا، فقال له آخر: لا تتكلم في المسلمين، فهذا واحد منهم، فقال ذلك المتكلم: هذا وجهه وجه مسلم؟! أي ليس هذا بمسلم، فصار يحكيها الماررديني: أن النصراني قال عنه: ليس هذا بمسلم، ويفرح بقول النصراني، ويصدقه فيما يقول؛ أي: ليس هو بمسلم.

والمتفلسفة يصرّحون بهذا، يقولون: قلنا كذا وكذا، وقال

المسلمون كذا وكذا، وربما قالوا: قلنا كذا وقال المِلِّيون ـ أي أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ـ وكتبهم مشحونة بهذا، ولا بد لأحدهم عند أهل الملل أن يكون على دينهم.

وكذلك كان بالشام ومصر طائفة ـ مع تصوفهم وتألُّههم وتزهُّدهم ـ يشرب أحدهم الخمر في نهار رمضان، وتارة يصلون وتارة لا يصلون، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم، بل يقولون: هذا للعامة والأنبياء، وأما مثلنا فلا يحتاج إلى الأنبياء»اهـ[(١)].

خامساً: شيخ الإسلام يفضِّل الشيوخ المعتدلين الذين لم يُعرف عنهم شيء من الشطح والابتداع على غيرهم:

قال رحمه الله: «وكذلك شيوخ الزهد إذا أراد الرجل أن يقدح في بعض الشيوخ ويُعظم آخر، وأولئك أوْلى بالتعظيم وأبعدُ عن القدح، كمن يُفضل أبا يزيد، والشبلي، وغيرهما، مِمَّن يُحكى عنه نوع من الشطح، على مثل الجنيد، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهما، مِمَّن هو أوْلى بالاستقامة، وأعظمُ قدراً»اهـ[(٢)].

○ ○ ○

أما رجال الصوفية، الذين تناولهم شيخ الإسلام بمدح، أو ذم، أو تقويم، فيمكن ـ بالاستقراء ـ حصرهم فيما يأتي[(٣)]:

إبراهيم بن أدهم[(٤)]:

ـ عدَّه شيخ الإسلام من المعتدلين:

فقال أثناء كلامه عن حلق الشعر عند الشيوخ عند التوبة من

---

(١) الفتاوى (١٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥). (٢) المنهاج (٤/ ٣٤٢).

(٣) رتبت أسماءهم على حروف المعجم أ، ب، ج، . . .

(٤) هو إبراهيم بن أدهم البلخي، أبو إسحاق، من أهل بلخ كان من الملوك =

الذنوب: «.. الثالث: حلقه على وجه التعبد والتدين والزهد من غير حج ولا عمرة.. فهذه بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله،.. ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، **ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة**، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا تابعيهم ومن بعدهم، مثل:.. **وإبراهيم بن أدهم**..»اهـ[1].

- وبرّأه الشيخ من الوقوع فيما وقع فيه بعض المتصوفة من السماع المحرَّم، فقال في معرض كلامه عن بدعة السماع[2]:

«.. وكذلك سائر أئمة الدين كرِهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم،..»اهـ[3].

إبراهيم الخوّاص[4]:

- عده شيخ الإسلام من أصحاب الخوارق المعتدلين:

فقال بعد إيراده لِحكاية ذكرها القشيري[5]، وفيها: «.. سمعت

= المياسير، ثم تزهَّد وترك الدنيا، وصحِب سفيان الثوري والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦٠هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٣٠ ـ ٣١)، طبقات الأولياء (ص٥)، حلية الأولياء (٧/ ٣٦٧ ـ ٣٩٥).

(١) الفتاوى (٢١/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٢) تقدم تفصيل الكلام على السماع في مبحث خاص (ص١٨٨).

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٦٩، ٥٩٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٢/ ٣٥٣).

(٤) هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، أبو إسحاق، من شيوخ الصوفية، وهو من أقران الجنيد، توفي في جامع الرَّي سنة ٢٩١هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٢٨٤ ـ ٢٨٧)، الطبقات الكبرى (١/ ١١٣ ـ ١١٥)، صفة الصفوة (٤/ ٨٠ ـ ٨٤)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٢٥ ـ ٣٣١).

(٥) الرسالة القشيرية (ص٤٧، ط: دار الخير).

إبراهيم الخوّاص يقول: انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان، فجعلت أؤذن في أذنه، فناداني الشيطان من جوفه: دعني أقتله، فإنه يقول: القرآن مخلوق. . .

قلت: .. وإبراهيم الخواص من أكبر الرجال الذين لهم خوارقُ، فله علمه بأن هذا الجني من المؤمنين لمّا ذكر هذه الحكاية على سبيل الذم لمن يقول بخلق القرآن»اهـ[1].

ابن أبي المنصور المتصوف المصري[2]:

ـ عده الشيخ من رؤوس الاتحادية، فقال رحمه الله:

«. . كالذين يقولون: إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق: هو الوجود الممكن للمخلوق، كما يقول ذلك أهل الوحدة كابن عربي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض ـ صاحب القصيدة التائية نظم السلوك ـ وعامر البصري السيواسي، الذي له قصيدة تناظر قصيدة ابن الفارض، والتلمساني الذي شرح مواقف النفري وله شرح الأسماء الحسنى على طريقة هؤلاء، وسعيد الفرغاني[3] الذي شرح قصيدة ابن الفارض، والششتري صاحب الأزجال الذي هو تلميذ ابن سبعين،

(١) الاستقامة (١/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

(٢) ابن أبي المنصور: لم أقف عليه إلا فيما أورده ابن العماد في شذرات الذهب (٥/ ١٩٠) في ترجمة محيي الدين بن عربي، حيث قال: «وقال الصفي بن أبي منصور: جمع ابن عربي بين العلوم الكسبية والعلوم الوهبية، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً»اهـ، ولم أقف له على ترجمة.

(٣) هو سعيد الكاساني الفرغاني، تلميذ الصدر القونوي، قال الذهبي: «كان أحد من يقول بالوحدة، شرح تائية ابن الفارض في مجلدتين»، توفي سنة ٦٩٩هـ وله نحو سبعين سنة.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ٤٤٨).

وعبد الله البلياني، **وابن أبي المنصور المتصوف المصري، صاحب (فكّ الأزرار عن أعناق الأسرار)** وأمثالهم، ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت كما يقوله ابن عربي»اهـ[(١)].

أحمد بن أبي الحواريِّ[(٢)]:

ـ عدَّه شيخ الإسلام من المعتدلين:

فقال أثناء كلامه عن حلق الشعر عند الشيوخ عند التوبة من الذنوب:

«.. الثالث: حلقه على وجه التعبُّد والتديُّن والزهد من غير حج ولا عمرة.. فهذه بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله،.. ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، **ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة**، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا تابعيهم ومن بعدَهم، مثل:.. **وأحمد بن الحواريّ**..»اهـ[(٣)].

ـ **وعدّه الشيخ من الشيوخ الصالحين**، فقال في معرض كلامه عن إنكار الشيوخ الصالحين للسماع المبتدع:

«.. وكذلك سائر أئمة الدين كرِهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره.. ولا أحمد بن أبي الحواري..»اهـ[(٤)].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٩٤).

(٢) هو أحمد بن أبي الحواريّ ميمون، أبو الحسن، من أهل دمشق، كان من شيوخ الصوفية، صحِب الجُنيد وأبا سليمان الداراني، توفي سنة ٢٣٠هـ.
انظر: الرسالة القشيرية (ص٤١٠)، صفة الصفوة (٤/ ٢١٢ ـ ٢١٣)، تهذيب التهذيب (١/ ٤٩).

(٣) الفتاوى (٢١/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٤) الفتاوى (١١/ ٥٦٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الاستقامة (١/ ٩٦ استشهد بقوله).

ابن إسرائيل[١]:

ـ عده شيخ الإسلام من الاتحادية، فقال في معرض رده على الاتحادية:

«ولا ريب أن في قول هؤلاء من الكفر والضلال ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى، وهذا المذهب شائع في كثير من المتأخرين، وكان طوائف من الجهمية يقولون به، . . وكثير من شعر **ابن إسرائيل**، وما ينقل من ذلك عن شيخه الحريري، وكذلك نحو منه يوجد في كلام كثير من الناس غير هؤلاء، هو مبني على هذا المذهب، مذهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود»اهـ[٢].

بشر الحافي، شقيق البلخي[٣]، عبد الله اليونيني[٤]:

ـ عدهم شيخ الإسلام من المشايخ الصالحين، فقال لمَّا تكلم عن

---

(١) هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن، نجم الدين أبو المعالي الشيباني الدمشقي، ولد سنة ٦٠٣هـ، صحب علياً الحريري، قال ابن كثير: «كان أديباً فاضلاً في صناعة الشعر، ولكن في كلامه ونظمه نوع من الحلول والاتحاد على طريقة ابن عربي وابن الفارض والحريري، والله أعلم بحاله وحقيقة أمره»، وقال ابن العماد: «كان فقيراً ظريفاً نظيفاً مليح النظم رائق المعاني لولا ما شابه بالاتحاد تصريحاً مرة وتلويحاً أخرى»، توفي سنة ٦٧٧هـ.
انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٦٥، حوادث سنة ٦٧٧هـ)، شذرات الذهب (٥/ ٣٥٩).

(٢) الفتاوى (٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).

(٣) هو شقيق بن إبراهيم البلخي، أبو علي، صحب إبراهيم بن أدهم، وهو شيخ حاتم الأصم، له زهد وورع، وكلام حسن منه قوله: مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن يحمل شوكاً ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكاً وهو يطمع أن يحصد تمراً، هيهات هيهات كل من عمل حسناً، فإن الله لا يجزيه إلا حسناً، ولا تنزل الأبرار منازل الفجار، قتل في بعض الغزوات سنة ١٩٤هـ.
انظر: الحلية (٨/ ٥٨)، صفة الصفوة (٢/ ٣٤٧)، سير الأعلام (٩/ ٣١٣).

(٤) هو عبد الله بن عبد العزيز بن جعفر، أبو عثمان اليونيني، الزاهد، كان شيخاً =

الاتحادية وبيَّن ضلال مذهبهم، وأن فريقاً غير قليل من الناس قد خفي عليه حقيقةُ حال ابن عربي وابن سبعين، وغيرهما من الزنادقة الملاحدة، لِمَا يتظاهر به هؤلاء من التصوف والعبادة، ثم قال الشيخ عن رؤوس الاتحادية:

«.. ويوهمون الجُهَّال أنهم مشايخ الإسلام وأئمة الهدى، الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة، مثل.. بشر الحافي،.. وشقيق البلخي، ومن لا يُحصى كثرةً، إلى مثل المتأخرين: مثل: الجنيد بن محمد القواريري،.. والشيخ عبد الله اليونيني،.. وأمثال هؤلاء المشايخ الذين كانوا بالحجاز والشام والعراق، ومصر والمغرب وخراسان، من الأولين والآخرين، كل هؤلاء متّفقون على تكفير هؤلاء ومن هو أرجح منهم»اهـ[1].

- **وذكر الشيخ عقيلاً المنبجي - في موضع آخر - فقال في معرض** كلامه عن الشيخ عدي بن مسافر: «.. وأما الخرقة، فقالوا: دخل على الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الخرقة بيده..»اهـ[2].

= مهيباً طوالاً، دائم الذكر عظيم الشأن، قال ابن كثير: كان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له همة عالية في الزهد والورع، ولا ينقطع عن الغزوات، وله كرامات كثيرة، وكان لا يقوم لأحد دخل عليه ويقول: إنما يقوم الناس لرب العالمين، وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له: يا أمجد فعلت كذا وكذا ويأمره بما يأمره وينهاه عما ينهاه عنه، وهو يمتثل جميع ما يقوله له، وما ذاك إلا لصدقه في زهده وورعه وطريقه»اهـ، توفي سنة ٦١٧هـ.
انظر: شذرات الذهب (٥/ ٧٣)، البداية والنهاية (٨/ ٥٩٤).

(١) الفتاوى (٢/ ٤٧٤).

(٢) الفتاوى (١١/ ١٠٣ - ١٠٤)، وتقدم تفصيل الكلام على الخرقة، ومعناها، وأحكامها عند الصوفية، في المبحث الخاص بذلك (ص٣٢٧).

أبو بكر الكلاباذي:

ـ أثنى الشيخ على مُعتقده، فقال:

«وقد جمع كلام المشايخ؛ إما بلفظه أو بما فهِمه هو غير واحد، فصنّف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي كتاب «التعرّف لمذهب التصوف»، **وهو أجودُ مِمَّا ذكره أبو القاسم، وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها**»اهـ[١].

أبو البيان[٢]:

ـ عدّه شيخ الإسلام من أكابر المشايخ، فقال في معرض كلامه عن السماع البدعي:

«.. وأما الاستماع إلى القصائد الملَحّنة والاجتماع عليها، فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع، كـ.. والشيخ أبي البيان.. وأمثال هؤلاء المشايخ، فإنهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع..»اهـ[٣].

البلياني:

ـ من رؤوس الاتحادية، قال شيخ الإسلام في معرض بيانه لضلال رؤوس الاتحادية:

«.. لكن ما رأيت فيهم مَن كفر هذا الكفر الذي ما كفره أحد قط

---

(١) الاستقامة (١/ ٨٢ ـ ٨٣).

(٢) هو نبا بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني وبأبي البيان، شيخ الطائفة البيانية من المتصوفة بدمشق، قال ابن قاضي شهبة: كان عالماً عاملاً، إماماً في اللغة، شافعي المذهب، سلفي العقيدة، له تآليف ومجاميع وشعر كثير، توفي سنة ٥٥١هـ.
انظر: شذرات الذهب (٤/ ١٦٠)، طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، الأعلام (٨/ ٣٢٠).

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٣٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٥٩٢).

مثل التلمساني، وآخر يقال له: البلياني، من مشايخ شيراز»اهـ[١].

وقال الشيخ: «.. كالذين يقولون: إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق: هو الوجود الممكن للمخلوق كما يقول ذلك أهل الوحدة؛ كابن عربي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض صاحب القصيدة التائية (نظم السلوك) ـ وعامر البصري السيواسي، الذي له قصيدة تناظر قصيدة ابن الفارض، والتلمساني الذي شرح مواقف النفري وله شرح الأسماء الحسنى على طريقة هؤلاء، وسعيد الفرغاني الذي شرح قصيدة ابن الفارض، **والششتري صاحب الأزجال الذي هو تلميذ ابن سبعين، وعبد الله البلياني**، وابن أبي المنصور المتصوف المصري، صاحب (فك الأزرار عن أعناق الأسرار) وأمثالهم، ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت كما يقوله ابن عربي»اهـ[٢].

سهل بن عبد الله التستري:

ـ عده شيخ الإسلام من المشايخ الصالحين، فقال:

«.. مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسانَ صدق في الأمة مثل: .. **سهل بن عبد الله التستري**..»اهـ[٣].

ـ وقال الشيخ في معرض ردّه على ابن سبعين وأمثاله:

«ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيَهم يكسوها عباراتِ الصوفية، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، **وأن شيوخ الصوفية الكبار** كالفضيل بن عياض.. **وسهل بن عبد الله التستري**، .. رضي الله عنهم كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء..»اهـ[٤]

ـ وقال شيخ الإسلام في معرض رده على الحلولية:

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٧٢).

(٢) الفتاوى (٢/ ٢٩٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٧٤).

(٤) المصدر السابق (١٢/ ٣٥٣).

«هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كالفضيل بن عياض، و.. سهل بن عبد الله التستري.. من الكلام في إثبات الصفات والذمّ للجهمية والحلولية ما لا يتسع هذا الموضع لِعُشْرِهِ»اهـ[١].

ـ **وعَدَّه شيخ الإسلام من المعتدلين**، فقال أثناء كلامه عن حلق الشعر عند الشيوخ عند التوبة من الذنوب:

«.. الثالث: حلقه على وجه التعبُّد والتديُّن والزهد من غير حج ولا عمرة.. فهذه بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله،.. ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، **ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة**، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا تابعيهم ومن بعدهم، مثل:.. **وسهل بن عبد الله التستري**..»اهـ[٢].

ـ **وعدَّه الشيخ مِن كبار المشايخ الذين هم على اعتقاد أهل السنة والجماعة، فقال:**

«.. والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف،.. فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ، مثل.. **وسهل بن عبد الله التستري**.. وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[٣].

ـ **وبرّأه الشيخ من الوقوع فيما وقع فيه بعض المتصوفة من السماع المحرم، فقال في معرض كلامه عن بدعة السماع**[٤]:

---

(١) الدرء (٥/ ٥).
(٢) الفتاوى (٢١/ ١١٧ ـ ١١٨).
(٣) الاستقامة (١/ ٨٢)، واستشهد شيخ الإسلام ـ في موضع آخر ـ بقول ابن أسباط في الصدق مع الله. الفتاوى (١٠/ ١١).
(٤) تقدم تفصيل الكلام على السماع في مبحث خاص، انظر (ص١٨٨).

«.. فقد نبّهنا على أن الأئمة في طريق الحق الذين يُعتد بأقوالهم، كما يُعتد بأقوال أئمة الهدى، هو مثل: الجُنَيْد، **وسهل**، ونحوهما، فإن أقوالهم صادرة عن أصل، وهم مُستهدون فيها»اهـ[١].

- وأثنى الشيخ على كلامه في السنة، فقال:

«.. وكلام سهل بن عبد الله في السنة وأصول الاعتقادات أسدُّ وأصوب من كلام غيره، وكذلك الفضيل بن عياض ونحوه، فإن الذين كانوا من المشايخ أعلمَ بالحديث والسنة، وأتبعَ لِذلك هم أعظمُ عِلماً وإيماناً، وأجلُّ قدراً من غيرهم»اهـ[٢].

- وكثيراً ما يستشهد شيخ الإسلام بكلام سهل التستري، ومن ذلك استشهاده بقوله في حث الصوفية على تعلم العلم، فقال شيخ الإسلام:

«وأهل العبادات البدعية يزيِّن لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبغِّض إليهم السبل الشرعية، .. وقد يُبغِّض إليهم حتى الكتاب، فلا يُحِبّون كتاباً ولا مَن معه كتاب، .. ولهذا قال سهل بن عبد الله التستري: يا معشر الصوفية، لا تفارقوا السواد على البياض، فما فارق أحد السواد على البياض إلا تزندق»اهـ[٣].

- واستشهد الشيخ سهل التستري بقوله في التفريق بين الحسنة والسيّئة في باب القَدَر فقال شيخ الإسلام:

«.. وقد ذكر أبو طالب المكّي عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال: إذا عمل العبد حسنة، فقال: أيْ ربِّ، أنا فعلتُ هذه الحسنة، قال له ربه: أنا يسَّرتك لها، وأنا أعنتك عليها، فإن قال: أيْ ربِّ، أعنتني عليها ويسَّرتني لها، قال له ربُّه: أنت عملتها وأجرها لك، وإذا فعل

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٠٤).

(٢) الاستقامة (١/ ١٥٨).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٤١١ ـ ٤١٢).

سيئة، فقال: أيْ ربِّ أنت قدّرت عليَّ هذه السيئة، قال له ربُّه: أنت اكتسبتها وعليك وزرها، فإن قال: أيْ ربِّ، إني أذنبت وأنا أتوب منه، قال له ربُّه: أنا قدّرته عليك وأنا أغفره لك، وهذا باب مبسوط في غير هذا الموضع»اهـ[(١)].

التلمساني[(٢)]:

ـ التلمساني أخبث القائلين بوحدة الوجود، قال شيخ الإسلام:

«وأما الفاجر التلمساني: **فهو أخبث القوم وأعمقهم في الكفر**، فإنه

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٨).

(٢) **العفيف التلمساني: اسمه ونسبه ونشأته ووفاته:** هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني، المشهور بعفيف الدين، صوفي شاعر، تنقل أول حياته في بلاد الروم، وسكن دمشق، وباشر فيها بعض الأعمال، ولد سنة ٦١٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٩٠هـ وله ثمانون سنة.

آراء العلماء فيه: قال الذهبي: «أحد زنادقة الصوفية، وقد قيل له مرة: أنت نصيري؟ فقال: النصيري بعض مني، وأما شعره ففي الذروة العليا من حيث البلاغة والبيان لا من حيث الإلحاد»اهـ.(العبر٣/ ٣٧٣).

وقال ابن كثير: «نُسِب هذا الرجل إلى عظائمَ في الأقوال والاعتقاد في الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، وشهرته تغني عن الإطناب في ترجمته»اهـ.(البداية والنهاية١٣/ ٣٢٦).

مصنفاته: شرح الفصوص لابن عربي، وشرح منازل السائرين للهروي، وشرح القصيدة العينية لابن سينا، مواقف النفري.

نماذج من فكره: يعد التلمساني من أكثر أهل الحلول والاتحاد إيغالاً في الوحدة والزندقة؛ لأن ابن عربي وابن سبعين وغيرهما يرون الوحدة والاتحاد مع الفرق والجمع، أما هو فلا يرى الفرق أبداً.

وقد نقلتُ من كلامه الذي حكاه عنه شيخ الإسلام ما يكفي في الوقوف على ضلاله وزندقته.

انظر: شذرات الذهب (٥/ ٤١٢)، البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٣٢٦)، الأعلام (٣/ ١٣٠)، العبر في خبر من غبر للذهبي (٣/ ٣٧٢).

لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي، ولا يفرق بين المطلق والمعيّن كما يفرق الرومي، ولكن عنده ما ثَمَّ سوى بوجهٍ من الوجوه، وإن العبد إنما يشهد السِّوى ما دام محجوباً، فإذا انكشف حجابُه رأى أنه ما ثَمَّ غيرٌ يُبَين له الأمر.

ولهذا: **كان يستحلُّ جميع المحرمات**، حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول: البنت والأم والأجنبية شيء واحد، ليس في ذلك حرام علينا، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

وكان يقول: القرآن كله شرك ليس فيه توحيد، وإنما التوحيد في كلامنا، وكان يقول: أنا أمسك شريعة واحدة، وإذا أحسن القول يقول: القرآن يوصل إلى الجنة، وكلامنا يوصل إلى الله تعالى، . . .

وأما ابن سبعين: فإنه في البُدُوِّ والإحاطة يقول أيضاً بوحدة الوجود، . . **لكن ما رأيت فيهم مَن كفر هذا الكفر الذي ما كفره أحد قط مثل التلمساني**،..»اهـ[1].

- كان النصيرية يُعظمون التلمساني، قال شيخ الإسلام:

« . . ولهذا كان النصيرية يعظمون القائلين بوحدة الوجود، وكان التلمساني شيخ القائلين بالوحدة. . قد ذهب إلى النصيرية، وصنف لهم كتاباً، وهم يُعَظمونه جداً، وحدّثني نقيب الأشراف عنه أنه قال: قلت له: أنت نُصَيْري؟ قال: نُصَيْر جزء مني، والنصَيْرية يعظمونه غاية التعظيم»اهـ[2].

الجُنَيْد:

- أثنى شيخ الإسلام عليه وعلى علمه ومعرفته في مواضعَ كثيرةٍ.

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، الصفدية (١/ ٢٤٤)، الجواب الصحيح (٤/ ٥٠٠).

(٢) المنهاج (٢/ ٦٢٦ ـ ٦٢٧).

ومن ذلك ما ذكره في معرض كلامه عن القدر[1] وغَلَط فريق من المتصوفة فيه، فقال:

«.. وكان **الجنيد أفقهَ القوم وأعلمَهم بالدين**..»اهـ[2].

- وبيّن الشيخ في موضع آخر أن من اقتدى بالجنيد من الصوفية وسلك مسلكه نجا وسلِم، فقال أثناء كلامه عن القدر أيضاً:

«.. وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد.. كما ذكر ذلك في غير موضع، وبيّن لهم الجنيد الفرق الثاني، وهو أنهم - مع مشاهدة المشيئة العامة - لا بدّ من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه، وهو الفرق بين ما يحبه وما يبغضه.. **فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والمعرفة كان قد اهتدى ونجا وسعِد**»اهـ[3].

- وقال الشيخ في معرض تقويمه لِذي النون:

«.. **بخلاف الجنيد؛ فإن الاستقامة والمتابعة ظاهرة عليه**، وإن كان كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسولُ الله ﷺ، وما ثَمَّ معصوم من الخطأ غير الرسول ﷺ، لكن الشيوخ الذين عُرف صحة طريقهم عُلم أنهم لا يقصدون ما يُعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»اهـ[4].

- وقال الشيخ - أيضاً - في معرض حكايته لمذهب الاتحادية:

«.. ولهذا يوجد التناقض الكثير في كلام هؤلاء وهؤلاء،.. ولهذا **كان الجنيد** رضي الله عنه **سيد الطائفة إمام الهدى**، فكان قد عرف ما يعرض

---

(١) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في القدر - تفصيلاً - في مبحث خاص (ص٢١).

(٢) الاستغاثة (٢/ ٦٥٢).

(٣) الفتاوى (١٤/ ٣٥٥)، وتكرر ذلك أيضاً - بمعناه - في: الفتاوى (١٩/ ٢٧٧ - ٢٧٨).

(٤) الفتاوى (١١/ ٣٨٣ - ٣٨٤، ٣٩٢).

لبعض السالكين، فلما سُئل عن التوحيد قال: التوحيد: إفراد الحدوث عن القِدم»اهـ[١].

ـ وما يكاد شيخ الإسلام يذكر أئمة الصوفية المرضيِّين الذين كانوا على مذهب السلف الصالح، إلا ويذكر الجنيد منهم، ومن ذلك قول الشيخ أثناء كلامه عن ابن عربي:

«.. كلام صاحب (الفتوحات المكية) و(الفصوص).. يمدح الكفار.. ويتنقص الأنبياء.. **ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين؛ كالجنيد بن محمد..**»اهـ[٢].

ـ وقال شيخ الإسلام مثنياً عليه:

«.. مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة، مثل:.. **الجنيد بن محمد القواريري..**»اهـ[٣].

ـ وقال شيخ الإسلام ـ أيضاً ـ أثناء كلامه عن حلق الشعر عند الشيوخ عند التوبة من الذنوب:

«.. الثالث: حلقه على وجه التعبد والتدين والزهد من غير حج ولا عمرة.. فهذه بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله،.. ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، **ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة،** لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا تابعيهم ومن بعدهم، مثل:.. **والجنيد بن محمد..**»اهـ[٤]

ـ وقال في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة[٥]:

---

(١) شرح حديث النزول (ص٣٥٢). (٢) الفتاوى (١١/ ٢٣٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٧٤).

(٤) المصدر السابق (٢١/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٥) تقدم تفصيل الكلام في ذلك في مبحث خاص (١/ ٧١٥).

«.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير،.. **والجنيد بن محمد**.. وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية، ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[(١)].

ـ وبرّأه الشيخ من الوقوع فيما وقع فيه بعض المتصوفة من السماع المحرم، فقال في معرض كلامه عن بدعة السماع[(٢)] ومدح بعض المتصوفة له:

«.. فقد نبّهنا على أن الأئمة في طريق الحق الذين يُعتد بأقوالهم، كما يُعتد بأقوال أئمة الهدى، هم مثل: الجُنَيْد، وسهل، ونحوهما، فإن أقوالهم صادرة عن أصل، وهم مُستهدون فيها، ومعلوم أن الجنيد.. هو الإمامُ المتَّبَعُ في الطريق، وقد أخبر أن السماع فتنة لمن طلبه»اهـ[(٣)].

ـ وزكّاه شيخ الإسلام من الوقوع فيما يقع فيه فريق من المتصوفة من الشطح وغَيبة العقل، ونحو ذلك[(٤)] فقال:

«وكذلك أصبح في شيوخ الصوفية مَن يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه.. بخلاف أبي سليمان الداراني **والجنيد** وأمثالهم مِمن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم، فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكُمَّل تكون قلوبُهم ليس فيها سوى محبة الله

---

(١) الدرء (٥/ ٤).

(٢) تقدم تفصيل الكلام على السماع في مبحث خاص (ص١٨٨).

(٣) الاستقامة (١/ ٤٠٤).

(٤) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في ذلك ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص١٦٦).

وإرادته وعبادته، وعندهم من سَعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه. .»اهـ[1].

- وكثيراً ما يستشهد شيخ الإسلام عند ردّه على الصوفية بكلام الجنيد رحمه الله، ومن ذلك ما نقله الشيخ عن الجنيد لَمَّا تكلم عن قول فريق من المتصوفة بسقوط التكاليف عن بعض العُبّاد إذا بلغوا درجةً عاليةً من العبادة، **فقال شيخ الإسلام:**

«. . الرابع: أنهم يروْن أنهم إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع، وأُبيحت لهم محرماته. . وقد قيل للجنيد: إن قوماً يقولون أنهم يصلون من طريق البِرِّ، إلى أن تسقط عنهم الفرائض، وتباح لهم المحارم ـ أو نحو هذا الكلام ـ قال: الزنى والسرقة وشرب الخمر خير من هذا»اهـ[2].

- واستشهد شيخ الإسلام بقول الجنيد في تعريف التوحيد في مواضعَ متعددةٍ، ومن ذلك قوله في معرض رده على مذهب الاتحادية:

«. . وفي الجملة، فالقول بالحلول أو ما يناسبه وقع فيه كثير من متأخري الصوفية، ولهذا كان أئمة القوم يحذّرون منه، كما في قول الجنيد ـ لما سُئل عن التوحيد ـ فقال: التوحيد إفراد الحدوث عن القِدم[3]، فبيّن أن التوحيد: أن يُمَيَّز بين القديم والحديث»اهـ[4].

- وقال شيخ الإسلام أثناء كلامه عن مذهب الصوفية في الرِّضا[5]:

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٢٢١). (٢) الفتاوى (٢/ ٩٥).

(٣) نقله عنه القشيري في الرسالة (ص٣٣).

(٤) الفتاوى (٢/ ٢٩٩)، وتكرر ذلك أيضاً في: الفتاوى (٢/ ١٢٦، ٢٣٠، ٧/ ١٨٦).

(٥) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الرضا والقدر ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص٢١).

«.. قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر لِترك الرضا بالقضاء[1]، فإن هذا من أحسن الكلام، **وكان الجنيد رضي الله عنه سيدَ الطائفة ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً..**»اهـ[2].

ـ وقال شيخ الإسلام أثناء كلامه عن السماع البدعي:

«.. والذي عليه محقِّقو المشايخ أنه كما قال الجنيد رحمه الله: مَن تكلّف السماع فُتن به، ومن صادفه السماع استراح به، ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المُحدَث، ولا يؤمر به..»اهـ[3].

ـ واستشهد شيخ الإسلام ـ أيضاً ـ بقول الجنيد في حثّ الصوفية على طلب العلم وتعلّمه، فقال:

«وأهل العبادات البدعية يُزَين لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبغض إليهم السُّبُل الشرعية، حتى يبغِّضهم في العلم والقرآن والحديث.. ولهذا قال سهل بن عبد الله التستري:.. وقال الجنيد: عِلْمُنا هذا مبنيٌّ على الكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتَدى به في هذا الشأن»اهـ[4].

حذيفة المرعشي:

ـ عدَّه الشيخ مِن كبار المشايخ الذين هم على اعتقاد أهل السنة والجماعة، فقال:

«.. والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف،.. فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ؛ مثل..

---

(١) الرسالة القشيرية (ص١٩٥، ط. دار الخير).

(٢) الفتاوى (١٠/٦٨٦).

(٣) الفتاوى (١٠/٧٦).

(٤) الفتاوى (١٠/٤١١ ـ ٤١٢)، وتكرر ذلك أيضاً في: الفرقان (ص٤٩).

حذيفة المرعشي.. وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[١].

علي الحريري:

عدّه شيخ الإسلام من الاتحادية، فقال في معرض رده على الاتحادية:

«ولا ريب أن في قول هؤلاء من الكفر والضلال: ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى، وهذا المذهب شائع في كثير من المتأخرين، وكان طوائفُ من الجهمية يقولون به،.. وكثير من شعر ابن إسرائيل، **وما ينقل من ذلك عن شيخه الحريري**، وكذلك نحوٌ منه يوجد في كلام كثير من الناس غير هؤلاء، هو مبنيٌّ على هذا المذهب، مذهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود»اهـ[٢].

أبو حفص النيسابوري[٣]:

ـ استشهد شيخ الإسلام بقوله في وزن الكرامات بميزان الكتاب والسنة، فقال:

«.. العلم في لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً ما يريدون به الشريعة، كقَوْلِ.. وقال **أبو حفص النيسابوري**: مَن لم يزن أفعاله وأقواله كلَّ وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعدّه في ديوان الرجال»اهـ[٤].

---

(١) الاستقامة (١/ ٨٢).

(٢) الفتاوى (٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).

(٣) هو عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري، أبو حفص، من شيوخ الصوفية، توفي سنة ٢٧٠هـ، وقيل: ٢٦٠هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص١١٥ ـ ١٢٢)، الطبقات الكبرى (١/ ٧٠)، صفة الصفوة (٤/ ٩٨ ـ ٩٩)، القشيرية (ص٤٠٦، وسماه فيها: عُمَر بن مسلمة).

(٤) الاستقامة (١/ ٩٤، ٩٦).

الحكيم الترمذي:

- كان من رؤوس القائلين بخاتم الأولياء، وصنَّف في ذلك، قال شيخ الإسلام:

«فصل: تكلم طائفة من الصوفية في خاتم الأولياء[١]، وعظّموا أمره **كالحكيم الترمذي** - وهو من غلطاته - فإن الغالب على كلامه الصِّحّة، بخلاف ابن عربي، فإنه كثير التخليط»اهـ[٢].

الحسين بن منصور الحلاج:

- للحلاج كلمات إن ثبت أنه قالها في حضورٍ من عقله أخرجته إلى الزندقة. قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن شطحات بعض المتصوفة وتقليد بعض العامة لهم في ذلك:

«وأقبحُ من ذلك أن يُعتمد في اعتقاد أولياء الله في أصول الدين على **كلام لم يُنقل مثله إلا عن الحلاج**، وقد قُتل على الزندقة، وأحسن ما يقوله الناصر له: إنه كان رجلاً صالحاً، صحيح السلوك، لكن غلب عليه الوجد والحال حتى عثر في المقال، ولم يدر ما قال.

.. وليس أحد من مشايخ الطريق - لا أولهم ولا آخرهم - **يُصوِّب الحلاج في جميع مقاله**، بل اتفقت الأمة على أنه: إما: مخطئ، وإما: فاسق، وإما: كافر، ومن قال: إنه مصيب في جميع هذه الأقوال المأثورة عنه، فهو ضالٌّ، بل كافر بإجماع المسلمين، وإذا كان كذلك، كيف يجوز أن يُجعل عمدةً لأهل الطريق إلى الله كلام لا يُؤثر إلا عنه؟، ولا يُذكر اعتقاد مشايخ طريق الله كلام أبسط منه وأكثر؟ وهو ما قال فيه[٣]:

---

(١) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الولاية - تفصيلاً - في مبحث خاص (١/ ٧٣٤).

(٢) الفتاوى (١١/ ٣٦٣).

(٣) يعني أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في الرسالة القشيرية (١/ ٢٨ - ٣١).

قال الحسين بن منصور: ألزِم الكلَّ الحَدَث؛ لأن القِدَم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعَرَض يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه، والذي يُؤلفه وقت يُفرقه وقت، والذي يُقيمه غيره فالضرورة تمسه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومن آواه محل أدركه أين، ومن كان له جنس طالبه بكيف.

إنه سبحانه لا يظله فوق، ولا يقله تحت، ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خَلف، ولا يحده أمام، ولم يظهره قبل، ولم يفنه بعد، ولم يجمعه كلٌّ، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وصفه لا صفة له، وفعله لا علة له، وكونه لا أمد له، تنزَّه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج، باينهم بقدمه، كما باينوه بحدوثهم.

إن قلت: متى؟ فقد سبق الوقت ذاته.

وإن قلت: هو، فالهاء والواو خلفه.

وإن قلت: أين؟ فقد تقدم المكان وجوده.

فالحروف آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور في الأوهام فهو بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأ؟ أو يعود إليه ما هو أنشأ؟ لا تماثله العيون، ولا تقابله الظنون، قربه كرامته، وبعده إهانته، علوه من غير توقل، ومجيئه من غير تنقل.

هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والقريب البعيد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قلت: هذا الكلام ـ والله أعلم ـ هل هو صحيح عن الحلاج أم لا؟ فإن في الإسناد من لا أعرف حاله، وقد رأيت أشياءَ كثيرةً منسوبةً إلى الحلاج من مصنفات وكلمات ورسائلَ، وهي كذب عليه، لا شك في ذلك، وإن كان في كثير من كلامه الثابت عنه فساد واضطراب، لكن

حمّلوه أكثر مما حمله، وصار كل من يريد أن يأتي بنوع من الشطح والطامات يعزوه إلى الحلاج، لكون محله أقبل لذلك من غيره، ولكون قوم ممن يعظم المجهولات الهائلة يعظم مثل ذلك، فإن كان هذا الكلام صحيحاً، فمعناه الصحيح هو: نفي مذهب الاتحاد والحلول، الذي وقع فيه طائفة من المتصوفة، ونسب ذلك إلى الحلاج، فيكون هذا الكلام من الحلاج رداً على أهل الاتحاد والحلول، وهذا حسن مقبول، وأما تفسيره بما يوافق رأي أبي القاسم في الصفات، فلا يناسب هذا الكلام.

وقد يقال: إن هذا الكلام فيه من الشطح ما فيه[1]، وما زال أهل المعرفة يعيبون الشطح الذي دخل فيه طائفة من الصوفية...

قلت: وهذا الكلام المحكي عن الحلاج: فيه ما هو باطل، وفيه ما هو مجمل محتمل، وفيه ما لا يتحصَّل له معنى صحيح بل هو مضطرب، وفيه ما ليس في معناه فائدة، وفيه ما هو حقٌّ، لكن اتباع ذلك الحق من غير طريق الحلاج أحسن وأشد وأنفع.

فقوله: ألزِم الكل الحدث، لأن القدم له يتضمن حقاً، وهو: أنه سبحانه القديم وما سواه محدث، ولكن ليس تعليلُه مستقيماً، ولا العبارة سديدة، فإن قوله: ألزِم الكل الحدث، ظاهِرُهُ: أنه جعل الحدوث لازماً لهم، كما تجعل الصفاتِ لازمةً لموصوفها، مثل الأكوان والألوان، وغير ذلك، وليس كذلك، بل الحدوث لهم، هو من لوازم حقيقتهم فلا يمكن مخلوق أن يكون غيرَ محدث حتى يلزم بذلك بل هذا مثل قول القائل ألزم المخلوق أن يكون مخلوقاً، وألزم المصنوع أن يكون مصنوعاً»اهـ[2].

---

(١) تقدم تفصيل معاني الشطح في مبحث سابق (١/١١٧).
(٢) الاستقامة (١/١١٦ ـ ١٢١).

ـ الحلاج كان يُلَبِّس على الناس بالدَّجل والمخاريق، ومشايخ الصوفية الصالحون ذموه وتبرّؤوا منه. قال شيخ الإسلام في جواب سؤال:

«ما تقول السادة العلماء ﷺ في الحلاج الحسين بن منصور: هل كان صِدِّيقاً أم زنديقاً؟ وهل كان ولياً لله متقياً له أم كان له حال رحماني؟ أم من أهل السحر والخزعبلات؟ وهل قُتل على الزندقة بمحضر من علماء المسلمين أم قتل مظلوماً؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، الحلاج قتل على الزندقة التي ثبتت عليه بإقراره وبغير إقراره، والأمر الذي ثبت عليه بما يوجب القتل باتفاق المسلمين، ومن قال: إنه قتل بغير حق، فهو إما منافق ملحد، وإما جاهل ضال، **والذي قتل به ما استفاض عنه من أنواع الكفر، وبعضه يوجب قتله، فضلاً عن جميعه**[1]، ولم يكن من أولياء الله المتقين، بل كان له عبادات ورياضات ومجاهدات، بعضها شيطاني وبعضها نفساني، وبعضها موافق للشريعة من وجه دون وجه، فلبَّس الحق بالباطل.

---

(١) ومن ذلك تصريحه بالحلول والاتحاد، بل ادعاء الربوبية.

ويدل على ذلك قوله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... ليس في المرآة شيء غيرنا

لا أناديه ولا أذكره ... إنَّ ذِكْري وندائي يا أنا

وقوله:

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال

فإذا مسّك شيء مسَّني ... فإذا أنت أنا في كل حال

وقوله:

أدعوك بل أنت تدعوني فهل ... ناديت إياك أم ناجيت إياي

يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري ... يا جملتي وتباعيضي وأجزائي

انظر: أخبار الحلاج (ص٧٨)، (ديوان الحلاج ص٨٢، ٧، ت: د. كامل مصطفى الشيبي، ط. دار الآفاق العربية، بغداد ١٤٠٤هـ).

وكان قد ذهب إلى بلاد الهند، وتعلم أنواعاً من السحر، وصنّف كتاباً في السحر معروفاً، وهو موجود إلى اليوم، وكان له أقوال شيطانية ومخاريقُ بهتانية.

وقد جمع العلماء أخباره في كتب كثيرة، أرّخوها الذين كانوا في زمنه والذين نقلوا عنهم؛ مثل:

أبي علي الخطبي[(١)(٢)] ذكره في: «تاريخ بغداد»[(٣)].

---

(١) في المطبوع: الحطي (حاء بعدها طاء مهملتان ثم ياء) وهو خطأ، والصواب ما أثبته، والتصحيح من كتب التراجم.

(٢) هو إسماعيل بن علي بن إسماعيل بن يحيى البغدادي الخطبي المؤرخ، أبو محمد، العلامة الخطيب الأديب المحدث، ولد سنة ٢٦٩هـ، كان فاضلاً عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وخلفائهم، صنف تاريخاً كبيراً، قال الذهبي: «كان مجموع الفضائل يرتجل الخطب»اهـ، توفي سنة ٣٥٠هـ.

انظر: سير الأعلام (١٥/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣)، شذرات الذهب (٣/ ٣).

(٣) لم أقف على تاريخ بغداد لأبي علي الخطبي، ولكن كثيراً ما ينقل عنه الخطيب البغدادي في تاريخه ويروي عنه، ومن ذلك ما رواه عنه في أمر الحلاج، فقال (تاريخ بغداد ٨/ ١٣٠):

«أنبأنا **إسماعيل بن علي الخطبي في «تاريخه»** قال: وظهر أمر رجل يعرف بالحلاج، وكان في حبس السلطان، وذكر عنه ضروب من الزندقة ووضع الحيل على تضليل الناس من الشعوذة والسحر وادعاء النبوة، فكشفه المقتدر بالله، فلم يقر بما رمي به، فأقام في الحبس سنين، فاستغوى غلمان السلطان بضروب من حيله، ثم راسل جماعة فاستجابوا له، وتراقى به الأمر حتى ذُكر أنه ادّعى الربوبية، وسُعي بجماعة من أصحابه فقُبض عليهم، ووجد عند بعضهم كتباً له تدل على تصديق ما ذُكر عنه، وأقر بعضهم بذلك، فأمر أمير المؤمنين بتسليمه إلى حامد بن العباس، ثم استيقن السلطان أمره، فأمر بقتله وإحراقه بالنار، فضرب بالسياط نحواً من ألف سوط، وقطعت يداه ورجلاه، وضربت عنقه وحرقت جثته، ونصب رأسه وعلقت يداه ورجلاه إلى جانب رأسه.اهـ. باختصار وتصرف يسير.

=

والحافظ أبو بكر الخطيب ذكر له ترجمة كبيرة في: «تاريخ بغداد»[(١)].

= وانظر: سير الأعلام (١٤/ ٣٣٥) حيث نقل مقتل الحلاج عن إسماعيل الخطبي.

(١) **قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد** (٨/ ١١٢ ـ ١٤٠): «الحسين بن منصور الحلاج كان جده مجوسياً، قدم بغداد فخالط الصوفية، والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفى الحلاج أن يكون منهم، وأبى أن يعده فيهم، وكان للحلاج حسن عبارة وحلاوة منطق وشعر على طريقة التصوف.

وأنا أسوق أخباره على تفاوت اختلاف القول فيه:

.. أخبرني أحمد بن الحسين بن منصور بتستر قال: مولد والدي بالبيضاء، ونشأ بتستر، وتلمذ لسهل بن عبد الله التستري سنتين، ثم صعد إلى بغداد، وأول ما سافر من تستر إلى البصرة كان له ثمان عشرة سنة، ثم خرج وأقام مع عمرو المكي ثمانية عشر شهراً، ثم تزوج، ثم خرج إلى مكة وجاور سنة، ورجع إلى بغداد مع جماعة من الفقراء الصوفية، فقصد الجنيد بن محمد، وسأله عن مسألة فلم يجبه، ونسبه إلى أنه مُدَّع فيما يسأله، فاستوحش ورجع إلى تستر، وأقام نحواً من سنة ثم خرج إلى خراسان وما وراء النهر، ثم رجع إلى فارس فأخذ يدعو الخلق إلى الله، وكان يعرف بفارس بأبي عبد الله الزاهد، وصنف لهم تصانيفَ، ثم صعد من فارس إلى الأهواز، وتكلم على الناس وقبله الخاص والعام، وكان يتكلم على أسرار الناس وما في قلوبهم ويخبر عنها، فسمي بذلك: حلاج الأسرار، فصار الحلاج لقبه، ثم خرج إلى البصرة وأقام مدة يسيرة، وخرج ثانياً إلى مكة ولبس المرقعة والفوطة، ثم رجع إلى البصرة وأقام شهراً واحداً، ثم إلى بغداد سنة، ثم قال لبعض أصحابه: قد وقع لي أن أدخل بلاد الشرك وأدعو الخلق إلى الله، وخرج إلى الهند ثم قصد خراسان ثانياً، وتركستان ودعا الخلق إلى الله تعالى وصنف لهم كتباً لم تقع إليَّ، إلا أنه لما رجع كانوا يكاتبونه من الهند: بالمغيث، ومن تركستان: بالمقيت، و. . ، ثم كثُرت الأقاويل عليه بعد رجوعه من هذه السفرة، فحج وجاور سنتين، ثم رجع وتغير عما كان عليه في الأول، واقتنى العقار ببغداد وبنى داراً، ودعا الناس إلى معنى لم أقف إلا على شطر منه حتى خرج عليه =

....

= جماعة من أهل العلم، وقبّحوا صورته، فكان يقول قوم: إنه ساحر، وقوم: مجنون، وقوم: له الكرامات، واختلفت الألسن في أمره، حتى أخذه السلطان وحبسه.

أنبأنا.. سمعت علي بن أحمد الحاسب قال والدي: وجّهني المعتضد إلى الهند، وكان معي في السفينة الحسين بن منصور، فلما خرجنا من المركب قلت له: إيش جئت إلى هاهنا؟ قال: جئت لأتعلم السحر وأدعو الخلق إلى الله!! ثم فارقني.

وعن عمرو المكي قال: كنت أماشيه في بعض أزقة مكة، وكنت أقرأ القرآن، فسمع قراءتي فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا!! ففارقته.

ذكر بعض ما حُكِي عن الحلاج من الحيل: كان الحلاج قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ووافقه على حيلة يعملها، فخرج فأقام سنين يظهر النسك، فغلب على البلد، حتى إذا علم أنه قد تمكن أظهر أنه قد عمي شهوراً ثم أظهر أنه قد زَمِن، حتى مضت سنة، فقال لهم: إني رأيت في النوم النبي ﷺ يقول لي: إنه يطرق هذا البلد عبدٌ مجاب الدعوة عافيتك على يده فاطلبوا من يجتاز من الفقراء أو الصوفية، فتعلقت النفوس إلى ورود العبد الصالح فقدم الحلاج البلد، وتفرد في الجامع بالدعاء والصلاة، وتنبهوا على خبره، فقالوا للأعمى، فقال: احملوني إليه، فلما علم أنه الحلاج، قال له: يا عبد الله إني رأيت كيت وكيت فتدعو الله لي، فقال: ومن أنا وما محلي! فما زال به حتى دعا ثم مسح يده عليه فقام المتزامن صحيحاً مبصراً، فانقلب البلد وكثر الناس على الحلاج، فتركهم وخرج من البلد، وأقام المتعامي المتزامن شهوراً، ثم قال لهم: إن من حق نعمة الله عليَّ أن أنفرد بالعبادة في الثغر، فمن كانت له حاجة تحملتها وإلا فأنا أستودعكم الله، قال: فأخرج هذا ألف درهم وقال: أُغزُ بها عني، وأعطاه هذا مالاً وهذا مالاً، حتى اجتمع ألوف دنانير ودراهم، فلحق بالحلاج فقاسمه عليها.

حدثنا علي.. أخبرني فلان وأسماه ووصفه بالحذق قال: بلغني خبر الحلاج فقلت: أمضي وأنظر، فجئته، فقال: تشهَّ، فقلت: أريد سمكاً طرياً، فدخل بيتاً وأبطأ، ثم جاءني ومعه سمكة تضطرب! فقلت: ما هذا؟ فقال: دعوت الله فأمرني أن أقصد البطائح فمضيت، حتى أخذت هذه، فقلت: أدخلُ البيت فإن =

....

= لم ينكشف حيلة آمنتُ، فدخلت البيت وغلقته، فلم أجد حيلة، وفكرت في البيت فرفعت تأزيرة، فحركت، فانفلقت، فدخلت، فإذا ممر إلى دار فيها بستان فيه صنوف الأشجار التي هي وقتها وما ليس هو وقته مما أُحتيل في بقائه، وإذا الخزائن فيها أنواع الأطعمة، وإذا بركة مملوءة سمكاً، فاصطدت واحدة، فإذا رجلي بالوحل إلى حد ما رأيت رجله، فقلت: إن رأى هذا قتلني، فأقبلت أقول: آمنت، فقال: ما لك؟! قلت: ما هنا حيلة، وليس إلا التصديق بك، قال: فاخرج! فخرجت أعدو، ورأى السمكة، فلحقني، فضربت بالسمكة وجهه، فلما صرت خارج الدار طرحت نفسي لما لحقني من الفزع، فخرج فقال: اسمع! والله لئن سمعت بهذه الحكاية لأقتلنك، وتركني ودخل، فعلمت أنه يقدر بأن يدس أحداً يعتقد فيه فيقتلني، فما حكيت الحكاية إلى أن قتل.

حدثني.. قال أبو بكر بن حمشاذ: حضر عندنا رجل ومعه كتاب للحلاج، عنوانه: من الرحمن الرحيم إلى فلان! فأُحضر وعرض عليه، فقال: أنا كتبته، فقالوا: كنت تدعي النبوة فصرت تدعي الربوبية!! فقال: ما أدعي الربوبية؛ ولكن هذا عين الجمع، هل الكاتب إلا الله وأنا واليد فيه آلة؟!.

أنبأنا القاضي أبو العلاء الواسطي قال: لما أخرج الحسين بن منصور ليقتل أنشد:

طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر لي بأرض مستقرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لكنت حرا

ذكر أخبار الحلاج بعد حصوله في يد حامد بن العباس إلى حين مقتله: بلغنا أنه أقام ببغداد يصحب الصوفية والوزير إذ ذاك حامد بن العباس، فانتهى إليه أن الحلاج قدْ موَّه على جماعةٍ بأنه يحيي الموتى وأن الجن يخدمونه، فالتمس حامد من المقتدر بالله أن يسلّم إليه الحلاج ودعاته، وكان حامد قد سعى إليه بقوم أنهم يعتقدون في الحلاج الإلهية، فقبض حامد عليهم، فاعترفوا أنهم صح عندهم أنه إله! وكاشفوا الحلاج بذلك، فجحده وقال: أعوذ بالله أن أدعي الربوبية أو النبوة.

حدثنا.. عن الكاتب زنجي، وكان زنجي يلازم مجلس حامد بن العباس ويرى الحلاج ويسمع مناظرات أصحابه، قال زنجي: كان أول أمره أن شيخاً يعرف =

....

= بالدباس ذكر انتشار دعاته وأنه استجاب له ثم فارقه وكشف أمره، ولما انتشر كلام الدباس في الحلاج نُقل إلى حامد، ولما حصل الحلاج في يد حامد جَدَّ في طلب أصحابه، وأخذت دفاتر كثيرة في ورق صيني، وبعضها بماء الذهب مبطنة بالديباج، وكان في الكتب الموجودة عجائب من مكاتباتِه أصحابَه وتوصيتهم بما يدعون الناس إليه، وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ لا يعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه، وفي بعضها صورة فيها اسم الله مكتوب على تعويج وفي داخل التعويج مكتوب علي عليه السلام، وحضرت مجلس حامد وقد أحضر سفط حمل من دار محمد بن علي القنائي ففتح، فإذا فيه قدر وقوارير وكسر خبز وسأل حامد عن ذلك، فعرّفه أن تلك القدر رجيع الحلاج يستشفي به، وفي القوارير بوله.

وكان يخرج إلى حامد دفاتر من دور أصحاب الحلاج، فقرأ في بعض الأيام: أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه إفراد في داره بيتاً لا يلحقه نجاسة، ولا يدخله أحد فإذا حضر الحج طاف حوله، وقضى من المناسك ما يقضي بمكة مثله، ثم جمع ثلاثين يتيماً وقدّم إليهم الطعام، وكسا كل واحد منهم قميصاً، ودفع إليه سبعة دراهم فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج!! فلما قرأ هذا التفت أبو عمر القاضي إلى الحلاج وقال له: من أين لك هذا؟! قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري، فقال له أبو عمر: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص ليس فيه شيء مما ذكرته، فلما قال أبو عمر: يا حلال الدم، قال له حامد: اكتب بهذا، فتشاغل أبو عمر بخطاب الحلاج، فأقبل حامد يطالبه بالكتاب بما قاله وهو يدافع ويتشاغل إلى أن مد حامد الدواة إلى أبي عمر وألحّ عليه إلحاحاً لم يمكنه معه المخالفة، فكتب بإحلال دمه وكتب بعده من حضر المجلس.

ولما تبين الحلاج الصورة، قال: ظهري حمي ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا علي بما يبيحه، واعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، ولي كتب في السنة، فالله الله في دمي، ولم يزل يردد هذا والقوم يكتبون خطوطهم إلى أن نهضوا عن المجلس ورد الحلاج إلى موضعه الذي كان فيه، وكتب حامد بخبر المجلس، وأنفذ الفتوى إلى المقتدر بالله، فعاد الجواب: بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله وأباحوا دمه فلتحضر محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة =

وأبو يوسف القزويني[(١)] صنف مجلداً في أخباره.

وأبو الفرج ابن الجوزي له فيه مصنف سمَّاه: «رفع اللجاج في أخبار الحلاج»[(٢)].

= وليتقدم إليه بتسلمه وضربه ألف سوط، فإن تلف تحت الضرب وإلا ضرب عنقه.

فسُرّ حامد وأحضر ابن عبد الصمد، وقال له: إن قال لك: أُجري لك الفرات ذهباً وفضة فلا ترفع الضرب عنه، فلما أصبح يوم الثلاثاء لستٍّ بقين من ذي القعدة، أخرج الحلاج وأمر بضربه بالسوط واجتمع من العامة خلق كثير، فضرب إلى تمام الألف وما تأوّه، بل لما بلغ ستمائة قال لابن عبد الصمد: أُدعُ بي إليك فإن عندي نصيحة تعدل فتح القسطنطينية، فقال له: قد قيل لي إنك ستقول ما هو أكثر، وليس إلى رفع الضرب سبيل، ولما بلغ ألف سوط قطعت يده ثم رجله ثم يده ثم رجله، وحز رأسه، وأحرقت جثته، ونصب الرأس ببغداد، ثم خراسان، وطيف به.

وأصحابه يعدون برجوعه بعد أربعين يوماً، وزعم بعض أصحابه أن المضروب عدو الحلاج ألقي شبهه عليه.اهـ. باختصار وتصرف يسير. تاريخ بغداد (٨/ ١١٢ ١٤٠).

(١) هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني، أبو يوسف، المفسر، قال الذهبي: «شيخ المعتزلة وفاضلهم، قال السمعاني: جمع التفسير الكبير الذي لم يُر أكبر منه ولا أجمع للفوائد، لولا أنه مزجه بالاعتزال، وبثّ فيه معتقده، ولم يتبع نهج السلف»اهـ، توفي سنة ٤٨٨هـ.

انظر: سير الأعلام (١٨/ ٦١٦).

(٢) الكتاب ذكره البغدادي في هدية العارفين باسم: «القاطع لمحال اللجاج القاطع بمحال الحلاج»، وذكره ابن رجب باسم: «القاطع لمحال اللجاج بمحال الحلاج»، وقال: إنه جزء.اهـ، ولم أقف عليه.

انظر: هدية العارفين لإسماعيل البغدادي (ص٥٢٢، المطبوع بذيل كشف الظنون، ط. دار إحياء التراث، بيروت، المصورة عن طبعة استانبول ١٩٥١م)، الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٢٠)، مؤلفات ابن الجوزي لعبد الحميد العلوجي (ص١٦٩)، وقد استقصى المؤلف جميع =

وبسط ذكره في تاريخه أبو عبد الرحمن السلمي[١] في «طبقات الصوفية»: أن كثيراً من المشايخ ذموه وأنكروا عليه ولم يعدوه من مشايخ الطريق وأكثرهم حطّ عليه[٢]، وممن ذمه وحطّ عليه أبو القاسم الجنيد[٣] ولم يقتل في حياة الجنيد، بل قتل بعد موت الجنيد، فإن الجنيد توفي سنة ثمان وتسعين ومئتين، والحلاج قتل سنة بضع وثلاثمائة وقدموا به إلى بغداد راكباً على جمل يُنادَى عليه: هذا داعي القرامطة، وأقام في الحبس مدة حتى وجد من كلامه الكفر والزندقة واعترف به، مثل:

أنه ذكر في كتاب له من فاته الحج، فإنه يبني في داره بيتاً ويطوف به كما يطوف بالبيت ويتصدق على ثلاثين يتيماً بصدقة ذكرها، وقد أجزأه ذلك عن الحج، فقالوا له: أنت قلت هذا؟ قال: نعم، فقالوا له: من أين لك هذا؟ قال: ذكره الحسن البصري في كتاب الصلاة، فقال له القاضي أبو عمر: تكذب يا زنديق، أنا قرأت هذا الكتاب وليس هذا فيه، فطلب منهم الوزير أن يشهدوا بما سمعوه ويفتوا بما يجب عليه، فاتفقوا على وجوب قتله.

لكن العلماء لهم قولان في الزنديق إذا أظهر التوبة:

هل تقبل توبته فلا يقتل، أم يقتل لأنه لا يُعلم صدقه، فإنه ما زال يُظهر ذلك؟.

= كتب ابن الجوزي وبيّن المطبوع منها ومكان المخطوط، ولم يذكر أنه عثر لهذا الكتاب على أثر إلا أنه موجود في تراجمه).

(١) طبقات الصوفية للسلمي (ص٣٠٧ ـ ٣١١).

(٢) قال أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه طبقات الصوفية (ص٣٠٧ ـ ٣٠٨): «الحلاج: المشايخ مختلفون في أمره، ردّه أكثر المشايخ ونفَوْه، وأبَوا أن يكون له قدم في التصوف»اهـ.

(٣) تاريخ بغداد (٨/ ١١٢).
وانظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص٣٠٧ ـ ٣١١).

فأفتى طائفة بأنه يستتاب فلا يقتل، وأفتى الأكثرون بأنه يقتل وإن أظهر التوبة، فإن كان صادقاً في توبته نفعه ذلك عند الله وقتل في الدنيا، وكان الحد تطهيراً له، كما لو تاب الزاني والسارق ونحوهما بعد أن يُرفعوا إلى الإمام، فإنه لا بد من إقامة الحد عليهم، فإنهم إن كانوا صادقين كان قتلهُم كفارةً لهم، ومن كان كاذباً في التوبة كان قتلُه عقوبةً له.

فإن كان الحلاج وقت قتله تاب في الباطن، فإن الله ينفعه بتلك التوبة وإن كان كاذباً فإنه قتل كافراً.

ولما قتل لم يظهر له وقت القتل شيء من الكرامات، وكل من ذكر أن دمه كتب على الأرض اسم الله، وأن رجله انقطع ماؤها أو غير ذلك، فإنه كاذب، وهذه الأمور لا يحكيها إلا جاهل أو منافق، وإنما وضعها الزنادقة وأعداء الإسلام حتى يقول قائلهم: إن شرع محمد بن عبد الله يقتل أولياء الله، حتى يسمعوا أمثال هذه الهذيانات، وإلا فقد قُتل أنبياءٌ كثيرون وقتل من أصحابهم وأصحاب نبينا ﷺ والتابعين وغيرهم من الصالحين من لا يُحصِي عدَدهم إلا اللهُ، قتلوا بسيوف الفجار والكفار والظَّلَمَة غيرهم، ولم يكتب دم أحدهم اسم الله، والدم أيضاً نجس فلا يجوز أن يكتب به اسم الله تعالى، فهل الحلاج خير من هؤلاء؟ ودمه أطهر من دمائهم؟ وقد جزع وقت القتل، وأظهر التوبة والسنة فلم يقبل ذلك منه، ولو عاش افتتن به كثير من الجهال؛ لأنه كان صاحبَ خزعبلات بهتانية وأحوال شيطانية.

ولهذا: إنما يعظِّمه من يعظِّم الأحوال الشيطانية والنفسانية والبهتانية، وأما أولياء الله العالمون بحال الحلاج، فليس منهم واحد يعظمه، ولهذا لم يذكره القشيري في مشايخ رسالته وإنْ كان قد ذكر من

كلامه كلمات استحسنها، وكان الشيخ أبو يعقوب النهرجوري[١] قد زوّجه بابنته فلما اطلع على زندقته نزعها منه، وكان عمرو بن عثمان[٢] يذكر أنه كافر، ويقول: كنت معه فسمع قارئاً يقرأ القرآن، فقال: أقدر أن أصنف مثل هذا القرآن!! أو نحو هذا من الكلام.

وكان يظهر عند كل قوم ما يستجلبهم به إلى تعظيمه، فيظهر عند أهل السنة أنه سني، وعند أهل الشيعة أنه شيعي، ويلبس لباس الزُّهَّاد تارة، ولباس الأجناد تارة.

وكان من مخاريقه: أنه بعث بعض أصحابه إلى مكان في البرية يخبأ فيه شيئاً من الفاكهة والحلوى، ثم يجيء بجماعة من أهل الدنيا إلى قريب من ذلك المكان، فيقول لهم: ما تشتهون أن آتيكم به من هذه البرية؟! فيشتهي أحدهم فاكهةً أو حلاوة، فيقول: امكثوا، ثم يذهب إلى ذلك المكان ويأتي بما خبأ أو ببعضه، فيظن الحاضرون أن هذه كرامةٌ له.

وكان صاحب سيما[٣] وشياطين تخدمه أحياناً، كانوا معه على جبل أبي قبيس، فطلبوا منه حلاوة، فذهب إلى مكان قريب منهم وجاء بصحن حلوى، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوي باليمن، حمله شيطان من تلك البقعة.

---

(١) هو إسحاق بن محمد بن يعقوب النهرجوري، أحد مشايخ الصوفية، صحب الجنيد وغيره، ومن كلامه الحسن: مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب، وقال: من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً، ومن قصد بحاجته الخلق لم يزل محروماً، ومن استعان في أمره بغير الله لم يزل مخذولاً، توفي سنة ٣٣٠هـ.
انظر: البداية والنهاية (٧/ ٥٩٧، حوادث سنة ٣٣٠هـ)، شذرات الذهب (٢/ ٣٢٥).

(٢) عمرو بن عثمان المكي، تقدمت ترجمته، وتقدم نقل كلامه قبل قليل من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

(٣) السيما: نوع من السحر، وقد سبق بيان معناها (١/ ٧٢٦).

ومثل هذا يحصل كثيراً لغير الحلاج مِمّن له حال شيطاني، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء في زماننا وغير زماننا، مثل شخص هو الآن بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق فيجيء من الهوى إلى طاقة البيت الذي فيه الناس فيدخل وهم يرونه ويجيء بالليل إلى باب الصغير، فيعبر منه هو ورفقته وهو من أفجر الناس.

وآخر كان بالشوبك[١] في قرية يقال لها: الشاهدة، يطير في الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه، وكان شيطان يحمله وكان يقطع الطريق، وأكثرهم شيوخ الشر يقال لأحدهم: البوِّي أي المخبث ينصبون له حركات في ليلة مظلمة، ويصنعون خبزاً على سبيل القربات فلا يذكرون الله، ولا يكون عندهم من يذكر الله، ولا كتاب فيه ذكر الله، ثم يصعد ذلك البوِّي في الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له، ومن ضحك أو شرق بالخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به.

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه، ويأمرهم بأن يُقرِّبوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك، وأن يخنقوها خنقاً، ولا يذكرون اسمَ الله عليها، فإذا فعلوا قضى حاجتهم.

وشيخ آخر أخبر عن نفسه أنه كان يزني بالنساء، ويتلوط بالصبيان الذين يقال لهم: الحوارات، وكان يقول: يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان، فيقول لي: فلان! إن فلاناً نذر لك نذراً وغداً يأتيك به، وأنا قضيت حاجته لأجلك، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر. قال: وكنت إذا طلب مني تغيير مثل

---

(١) تقدم التعريف بها، انظر (١/ ٨٥٣).

اللاذن[١] أقول: حتى أغيب عن عقلي، وإذ باللاذن في يدي أو في فمي وأنا لا أدري من وضعه، قال: وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور، فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير، فلا يؤتى بلاذن ولا غيره.

وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراءه، فيرسل إلى أتباعه، فيفارقون ذلك المصروع ويعطون ذلك الشيخ دراهمَ كثيرةً، وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهمَ وطعام تسرقه من الناس، حتى إن بعض الناس كان له تين في كوارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب.

وآخر كان مشتغلاً بالعلم والقراءة، فجاءته الشياطين أغرته، وقالوا له: نحن نسقط عنك الصلاة، ونحضر لك ما تريد، فكانوا يأتونه بالحلوى والفاكهة حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان.

فكل من خرج عن الكتاب والسنة وكان له حال من مكاشفة أو تأثير، فإنه صاحب حال نفساني أو شيطاني، وإن لم يكن له حال، بل هو يتشبه بأصحاب الأحوال، فهو صاحب محال بهتاني، وعامة أصحاب الأحوال الشيطانية يجمعون بين الحال الشيطاني والحال البهتاني، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢].

والحلاج كان من أئمة هؤلاء، أهل الحال الشيطاني والحال البهتاني، وهؤلاء طوائف كثيرة.

---

(١) اللاذن: تقدم بيان معناه، انظر (١/ ٧٩٤).

فأئمة هؤلاء هم: شيوخ المشركين، الذين يعبدون الأصنام مثل الكهان والسحرة الذين كانوا للعرب المشركين، ومثل الكهان الذين هم بأرض الهند والترك وغيرهم. . .

وأعظم الدجاجلة فتنةً الدجال الكبير، الذي يقتله عيسى بن مريم. . فالحلاج كان من الدجاجلة بلا ريب، ولكن إذا قيل: هل تاب قبل الموت أم لا؟ قال: الله أعلم، فلا يقول ما ليس له به علم، ولكن ظهر عنه من الأقوال والأعمال ما أوجب كفره وقتله باتفاق المسلمين، والله أعلم به»اهـ[1].

ـ اختلف الناس من الصوفية وغيرهم في قتل الحلاج، وهل كان معذوراً مظلوماً أم كان مرتداً زنديقاً؟ قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفناء والحلول:

«والذين يذكرون عن أبي يزيد[2] وغيره كلمات من الاتحاد الخاص ونفي الفرق ويعذرونه في ذلك يقولون: إنه غاب عقله، حتى قال: أنا الحق، وسبحاني، وما في الجبة إلا الله[!!].

ويقولون: إن الحب إذا قوي على صاحبه وكان قلبه ضعيفاً يغيب بمحبوبه عن حبه وبموجوده عن وجده وبمذكوره عن ذكره حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل. . وطائفة من الصوفية المدَّعين للتحقيق يجعلون هذا تحقيقاً وتوحيداً. . .

وقد ظن طائفة أن الحلاج كان من هؤلاء، ثم صاروا حزبين:

حزب يقول: وقع في ذلك الفناء، فكان معذوراً في الباطن، ولكن قتْله واجب في الظاهر، ويقولون: القاتل مجاهد، والمقتول شهيد، ويحكون عن بعض الشيوخ أنه قال: عثَرَ عثرةً لو كنت في زمنه لأخذت

---

(١) الفتاوى (٣٥/١٠٨ ـ ١١٩).

(٢) أبو يزيد البسطامي.

بيده، ويجعلون حاله من جنس حال أهل الاصطلام والفناء.

وحزب ثان وهم: الذين يصوّبون حال أهل الفناء في توحيد الربوبية، ويقولون: هو الغاية، ويقولون: بل الحلاج كان في غاية التحقيق والتوحيد.

ثم هؤلاء في قتله فريقان:

فريق يقول: قُتِل مظلوماً، وما كان يجوز قتله، ويعادون الشرع وأهل الشرع لقتلهم الحلاج، ومنهم من يعادي جنس الفقهاء وأهل العلم، ويقولون: هم قتلوا الحلاج، وهؤلاء من جنس الذين يقولون: لنا شريعة ولنا حقيقة تخالف الشريعة، والذين يتكلمون بهذا الكلام لا يميزون ما المراد بلفظ الشريعة في كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس، ولا المراد بلفظ الحقيقة أو الحق أو الذوق أو الوجد أو التوحيد في كلام الله ورسوله وكلام سائر الناس، بل فيهم من يظن الشرع عبارة عما يحكم به القاضي.

ومن هؤلاء من لا يميز بين القاضي العالم العادل، والقاضي الجاهل، والقاضي الظالم، بل ما حكم به حاكم سماه شريعة ولا ريب أنه قد تكون الحقيقة في نفس الأمر التي يحبها الله ورسوله خلاف ما حكم به الحاكم كما قال النبي ﷺ: **(إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، وإنما أقضي على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار)**[1]، فالحاكم يحكم بما يسمعه من البينة والإقرار، وقد يكون للآخر حجج لم يبينها، وأمثال هذا.

فالشريعة في نفس الأمر هي الأمر الباطن، وما قضى به القاضي

---

(١) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (ص١/ ٧٩٠).

ينفذ ظاهراً، وكثير من الأمور قد يكون باطنها بخلاف ما يظهر لبعض الناس، ومن هذا قصة موسى والخضر، فإنه كان الذي فعله مصلحة وهو شريعة أمره الله بها، ولم يكن مخالفاً لشرع الله، لكن لمَّا لم يعرفْ موسى الباطنَ كان في الظاهر عنده: أن هذا لا يجوز، فلمَّا بين له الخضر الأمور وافقه فلم يكن ذلك مخالفاً للشرع، وهذا الباب يقال فيه: قد يكون الأمر في الباطن بخلاف ما يظهر، وهذا صحيح، لكن تسمية الباطن حقيقة والظاهر شريعة، أمرٌ اصطلاحي.

ومن الناس من يجعل الحقيقة: هي الأمر الباطن مطلقاً، والشريعة: الأمور الظاهرة، وهذا كما أن لفظ الإسلام إذا قرن بالإيمان أريد به الأعمال الظاهرة، ولفظ الإيمان يراد به الإيمان الذي في القلب كما في حديث جبريل[1]، فإذا جمع بينهما فقيل: شرائع الإسلام وحقائق

(١) حديث جبريل هو ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)، قال: صدقت، قال: فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، قال: فأخبرني عن أمارتها؟ قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)، قال: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: (يا عمر أتدري من السائل؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

=

الإيمان كان هذا كلاماً صحيحاً لكن متى أفرد أحدهما تناول الآخر، فكل شريعة ليس لها حقيقة باطنة، فليس صاحبُها من المؤمنين حقاً، وكل حقيقة لا توافق الشريعة التي بعث الله بها محمداً ﷺ، فصاحبها ليس بمسلم، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين.

وقد يراد بلفظ الشريعة ما يقوله فقهاء الشريعة باجتهادهم وبالحقيقة ما يذوقه ويجده الصوفية بقلوبهم، ولا ريب أن كلًّا من هؤلاء مجتهدون، تارة مصيبون وتارة مخطؤون، وليس لواحد منهما تعمُّد مخالفة الرسول ﷺ، ثم إن اتَّفق اجتهاد الطائفتين، وإلا فليس على واحدة أن تقلد الأخرى إلا أن تأتي بحجة شرعية توجب موافقتها.

فمن الناس من يظهر أن الحلاج قُتِل باجتهاد فقهي يخالف الحقيقة الذوقية التي عليها هؤلاء، وهذا ظنُّ كثير من الناس وليس كذلك، بل الذي قتل عليه إنما هو الكفر، وقتل باتفاق الطائفتين، مثل دعواه أنه يقدر أن يعارض القرآن بخيرٍ منه، ودعواه أنه من فاته الحج أنه يبني بيتاً يطوف به ويتصدق بشي قدّره وذلك يسقط الحج عنه، إلى أمور أخرى توجب الكفر باتفاق المسلمين الذين يشهدون أن محمداً رسول الله، علماؤهم، وعبّادهم، وفقهاؤهم، وفقراؤهم، وصوفيتهم.

وفريق يقولون: قُتل لأنه باح بسر التوحيد والتحقيق الذي ما كان ينبغي أن يبوح به، فإن هذا من الأسرار التي لا يتكلم بها إلا مع خواص الناس، وهي مما تطوى ولا تروى، وينشدون:

من باح بالسر كان القتل شيمته ... من الرجال ولم يأخذ له ثار

= رواه مسلم (كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب... ١/ ٣٦/ ٨)، والنسائي (كتاب الإيمان وشرائعه، باب نعت الإسلام، ٨/ ٩٧/ ٤٩٩٠)، وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣).

باحوا بالسر تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح[١]

وحقيقة قول هؤلاء يشبه قول قائل: إنما قاله النصارى في المسيح حق وهو موجود لغيره من الأنبياء والأولياء، لكن ما يمكن التصريح به؛ لأن صاحب الشرع لم يأذن في ذلك، وكلام صاحب (منازل السائرين) وأمثاله يشير إلى هذا، وتوحيده الذي قال فيه:

ما وحَّد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من يخبر عن نعته عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحِد[٢]

فإن حقيقة قول هؤلاء: أن الموحِّد هو الموحَّد، وأن الناطق بالتوحيد على لسان العبد هو الحق، وأنه لا يوحده إلا نفسه، فلا يكون الموحَّد إلا الموحِّد، ويفرقون بين قول فرعون: أنا ربكم الأعلى، وبين قول الحلاج: أنا الحق، وسبحاني، فإن فرعون قال ذلك وهو يشهد نفسه فقال عن نفسه، وأما أهل الفناء، فغابوا عن نفوسهم وكان الناطق على لسانهم غيرهم...

والمقصود هنا: أن الحلاج لم يكن مقيداً بصنف من هذه الأصناف، بل كان قد قال من الأقوال التي توجب الكفر والقتل باتفاق طوائف المسلمين ما قد ذكر في غير هذا الموضع، وكذلك أنكره أكثر المشايخ وذموه؛ كالجنيد وعمرو[٣] بن عثمان المكي وأبي يعقوب النهرجوري.

ومن التبس عليه حاله منهم، فلم يعرف حقيقة ما قاله إلا من كان

---

(١) كذا في الأصل المطبوع، والبيت والذي قبله لم أقف على قائلهما.
(٢) منازل السائرين (ص١٣٩).
(٣) في المطبوع: عمر، والصواب ما أثبته، وقد تقدمت ترجمته.

يقول بالحلول والاتحاد مطلقاً أو معيناً، فإنه يظن أن هذا كان قول الحلاج وينصر ذلك، ولهذا كانت فرقة ابن سبعين فيها من رجال الظلم جماعة منهم الحلاج وعند جماهير المشايخ الصوفية وأهل العلم أن الحلاج لم يكن من المشايخ الصالحين، بل كان زنديقاً، وزهده لأسباب متعددة يطول وصفها، ولم يكن من أهل الفناء في توحيد الربوبية، بل كان قد تعلّم السحر، وكان له شياطينُ تخدمه. . . إلى أمور أخرى مبسوطة في غير هذا الموضع.

وبكل حال، آدمُ لما أكل هو وحواء من الشجرة لم يكن زائلَ العقل، ولا فانياً في شهود القدر العام، ولا احتجَّ على موسى بذلك، بل قال: لِمَ تلومُني على أمر كتبه الله علي قبل أن أخلق؟ فاحتج بالقدر السابق لا بعدم تمييزه بين المأمور والمحظور»اهـ[1].

ـ قال بعض الحلولية: إن الحلاج شهِد الجمع فسقط عنده الفرق[2]، ولما باح بهذا السِّر قُتِل، قال شيخ الإسلام:

«. . ولهذا آل الأمر بكثير من أكابر مشايخهم إلى أنهم شهدوا توحيد الربوبية والإيمان بالقدر، وذلك شامل لجميع الكائنات، فعدّوا الفناء في هذا بزوال الفرق بين الحسنات والسيئات غاية المقامات، وليس بعده إلا ما سمَّوْه توحيداً، وهو من جنس الحلول والاتحاد الذي تقوله النصارى، . . ومنهم من يقول: إن الحلاج هذا كان مشهده، وإنما قتل لأنه باح بالسر الذي ما ينبغي البوح به»اهـ[3].

---

(١) (٨/ ٣١٣ ـ ٣١٩)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٦).

(٢) يعني أنه وصل إلى درجة الفناء، فأصبح كل ما يقوله ويفعله مرضياً لله تعالى، وقد تقدم تفصيل الكلام في الفناء والقدر في مبحث خاص (ص٥١).

(٣) الفتاوى (١٩/ ٢٧٧).

حمّاد الدّبّاس:

- **أثنى شيخ الإسلام على معتقَده في القدر:** «ولهذا يقول الشيخ عبد القادر.. وهو ﷺ كان يُعظِّم الأمر والنهي، ويوصي باتّباع ذلك، وينهى عن الاحتجاج بالقدر، **وكذلك شيخه حمّاد الدّبّاس**، وذلك لما رأوه في كثير من السالكين من الوقوف عند القدر المعارض للأمر والنهي»اهـ[1].

- **وقال الشيخ في موضع آخر أثناء كلامه عن الفناء وتوحيد الربوبية:** «فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه **حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة** ﷺ: بأنه لا يريد السالك مُراداً قط، وأنه لا يريد مع إرادة الله عزَّ وجلَّ سواها..»اهـ[2].

حياة[3]:

- **قرنه الشيخ بمشايخ خِيَار**، فقال في معرض كلامه عن السماع المحرَّم واجتماع بعض الصوفية: «..ولم يحضره مثل: إبراهيم بن أدهم،.. ولا **الشيخ حياة**»اهـ[4].

الخراز: أبو سعيد:

- **استشهد شيخ الإسلام بكلامه**، فقال في معرض حديثه عن الروح وحقيقتها: «.. وهذا جواب أبي سعيد الخراز، قال: فإن قيل: قد قال

---

(١) الفتاوى (٨/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧). (٢) الفتاوى (١٠/ ٥١٦).

(٣) هو حياة بن قيس بن رجَّال بن سلطان الأنصاري الحراني، الشيخ القدوة الزاهد، روى له أصحابه كراماتٍ، كثيرٌ منها لا يصح، توفي سنة ٥٨١هـ وله ثمانون سنة.
انظر: سير الأعلام (٢١/ ١٨١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٦٩).

(٤) الفتاوى (١١/ ٥٩٢).

تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأمره منه، قيل: أمره تعالى هو المأمور به المكون بتكوين المكون له»اهـ[١].

ذو النون المصري:

ـ كانت له أحوال غريبة، واتُّهم بالزندقة، قال شيخ الإسلام في جواب سؤال عن صِحّة قول ذي النون: غاية العارفين الحَيْرةُ:

«.. وفي الجملة، فالحيرة من جنس الجهل والضلال.. فإذا أراد المريد أن عقول العقلاء لم تصل إلى معرفة مثل هذه الأمور فهذا صحيح، وأما إذا أراد أن العقلاء ليس عندهم علم ولا يقين بل حيرة وريب، فهذا باطل قطعاً، وما ذُكر عن **(ذي النون)** في هذا الباب مع **أن (ذا النون) قد وقع منه كلام أُنكِر عليه**، وعزّره الحارث بن مسكين، وطلبه المتوكل[٢] إلى بغداد، **واتُّهِم بالزندقة، وجعله الناس من الفلاسفة**، فما أدري هل قال هذا أم لا؟ **بخلاف الجُنَيد، فإن الاستقامة والمتابعة غالبة عليه**، وإن كان كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما ثَمَّ معصوم من الخطأ غير الرسول ﷺ، لكن الشيوخ الذين عُرف صحة طريقهم عُلم أنهم لا يقصدون ما يُعلم فساده بالضرورة من العقل والدين»اهـ[٣].

---

(١) الفتاوى (٤/٢٢٨).

(٢) هو جعفر بن المعتصم بالله بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، القرشي العباسي، المتوكل على الله، الخليفة أبو الفضل، ولد سنة ٢٠٥هـ، أظهر السنة ونصر أهلها، اغتاله بعض مماليكه سنة ٢٤٧هـ.
انظر: سير الأعلام (١٢/٣٠)، تاريخ الخلفاء (١/٣٠١، المتوكل على الله..)، البداية والنهاية (٧/٣٢٢، خلافة المتوكل على الله)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧/٣٣، ذِكر خلافة المتوكل).

(٣) الفتاوى (١١/٣٨٣ ـ ٣٨٤، ٣٩٢).

ابن سبعين[(١)]:

- ابن سبعين من أكابر أهل الشرك والإلحاد:

---

(١) **ابن سبعين: اسمه ونسبه:** عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين الإشبيلي الرقوطي، أبو محمد، وُلد في رقوطة بالأندلس سنة ٦١٣هـ.

نشأته: درس أول حياته اللغة العربية والآداب في الأندلس، ودرس الفلسفة وبرع فيها، ثم مال إلى التصوف وسلك الطريقة الصوفية الشوذية المنسوبة إلى أبي عبد الله الشوذي، ثم انتقل من رقوطة إلى سبتة، ومنها إلى مصر، ثم المغرب، ثم حجّ وأقام بمكة مدة، ثم أعلن عن مذهبه في وحدة الوجود، وصنف فيه مصنفات، وانخدع به بعض الجهال فتبعوه على قوله وسُمُّوا: السبعينية، وتأثر به أمير مكة حينئذ وأكرمه وصار له عنده منزلة عظيمة.

والدارس لحياة ابن سبعين، يجد أنه مرَّ بثلاث مراحل:

١ - من سنة ٦١٤هـ إلى سنة ٦٤٠هـ: بقي طوال هذه المدة بالأندلس، ثم طُرد منها إلى المغرب، بسبب أقواله الكفرية كتمنيه للنبوة، وتعديه على مقام النبي ﷺ... وغير ذلك.

٢ - من سنة ٦٤٠هـ إلى سنة ٦٥٢هـ: قضاها ابن سبعين في المغرب متنقلاً بين مدنها لنشر مذهبه، فلما ظهر أهلها على حقيقة مذهبه وما هو عليه من الحلول والاتحاد طردوه منها، فخرج إلى مصر، ثم لم يلبث أن طرد منها أيضاً لفساد اعتقاده، فخرج إلى مكة.

٣ - المرحلة الثالثة والأخيرة من سنة ٦٥٢هـ إلى وفاته سنة ٦٦٨هـ: وقد قضاها في مكة، وسبب إقامته في مكة أنه وجد حاكمها الشريف محمد الأول من آل البيت وابن سبعين يميل إلى التشيع، ولما شعر ابن سبعين بتمكنه من أمير مكة بدأ يضايق علماء أهل السنة، مما أدى إلى خروج الشيخ قطب الدين القسطلاني من مكة إلى مصر.

وفاته: لم يلبث ابن سبعين في مكة أن فضحه الله وظهر الناس على مذهبه الفاسد وشنّع عليه العلماء، فهمّ بالخروج إلى الهند حتى يعبد ما يشاء ويعتقد ما يشاء دون قيد، ولكنه لم يتيسر له هذا الخروج، وأخيراً توفي منتحراً بقطع شرايين يده، حسب ما ذكره بعض المؤرخين.

ثقافة ابن سبعين: كانت ثقافته مزيجاً من آراء المذاهب الفلسفية والفرق =

قال شيخ الإسلام: «.. وما ذُكر عن بعضهم من قوله: عين ما ترى ذات لا ترى، وذات لا ترى عين ما ترى، هو من كلام ابن سبعين، وهو من أكابر أهل الشرك والإلحاد، والسحر والاتحاد، وكان من أفاضلهم وأذكيائهم، وأخبرهم بالفلسفة وتصوّف المتفلسفة»اهـ[1].

ـ كان ابن سبعين يريد الذهاب إلى الهند ليعبد كلّ شيء، قال شيخ الإسلام:

= الضالة، إضافة إلى ما استقاه من رسائل إخوان الصفا، وغيرهم.

نماذج من فكره: المتأمل في كلام ابن سبعين يجد أنه يثبت وحدة الوجود بكلام تغلب عليه الفلسفة والسفسطة، حتى إن سامعه أو قارئه يشق عليه معرفة مراده ابتداءً، ومن الشواهد على ذلك ما ذكره الإمام ابن دقيق العيد من أنه جلس مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب من الظهر، وهو يسرد كلاماً يعقل مفرداته ولا يعقل مركباته. (لسان الميزان ٣/ ٣٩٢).

ومن كلام ابن سبعين الذي يثبت مذهبه في الحلول والاتحاد قوله: «فإن عرفته في كل شيء عين كل شيء لا الصورة المتعينة لم تجهله في صورة أصلاً.. فهو الوجود كله، لا وجود لشيء معه.. وهو الوجود في كل موجود، وهو مع كل شيء، ومتى سرى من ذلك الشيء حكم إلى غيره فمنه لا من ذلك الشيء، فله هو في ذلك الحكم إيجاده، وللشيء فيه الشبه فيه فقط، لأنه في الماء ماء، وفي النار نار، وفي الحلو حلو، وفي المر مر»اهـ. (رسائل ابن سبعين ص١٩٢).

وقد نقل شيخ الإسلام من كلامه ما يكفي في الوقوف على حقيقة مذهبه.

انظر: رسائل ابن سبعين (جمعها وحققها د. عبد الرحمن بدوي)، العبر (٣/ ٣٢٠)، مرآة الجنان (٤/ ١٧١)، العقد الثمين للفاسي (٥/ ٣٢٦ ـ ٣٣٥)، لسان الميزان (٣/ ٣٩٢)، شذرات الذهب (٥/ ٣٢٨)، الأعلام (٣/ ٢٨٠)، معجم المؤلفين (٥/ ٩٠)، التصوف في ميزان البحث والتحقيق لعبد القادر السندي (ص٢١٠)، مقدمة كتاب بغية المرتاد لشيخ الإسلام، والمقدمة لمحققه د. موسى الدويش (ص١٣٥ ـ ١٣٦).

(١) الفتاوى (٢/ ٣٠٦).

«ولهذا حدثني الثقة أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند، وقال: إن أرض الإسلام لا تسعُهُ؛ لأن الهند مشركون يعبدون كلَّ شيء حتى النبات والحيوان»اهـ[١].

- وصرّح الشيخ بأن ابن سبعين من الجهمية، فقال في معرض رَدِّه على الاتحادية:

«.. وكلام ابن سبعين، وابن رشد الحفيد، وابن التومرت، وابن عربي، وأمثالهم من الجهمية، نفاة الصفات..»اهـ[٢].

- ونصَّ الشيخ على أن شيوخ الصوفية الصالحين كفَّروا ابن سبعين وأمثاله، فقال في معرض كلامه عن الفلاسفة وأثرهم في التصوف:

«ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء[٣]، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، وأن شيوخ الصوفية الكبار ﷺ كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء..»اهـ[٤].

- ابن سبعين طمِع في أن يصبح نبياً؛ لأن النبوة عنده مكتسَبة. قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفلاسفة:

«ومثل ابن سبعين وأمثاله مِمن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء،.. ولهذا يقولون: إن النبوة مكتسَبة، فطمِع غير واحد منهم أن يصير نبياً، كما طمِع السهروردي وابن سبعين وغيرهما من الملحدين»اهـ[٥].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٧٨). (٢) المصدر السابق (٦/ ٥١٨).
(٣) يعني الفلاسفة، تقدم التعريف بهم، انظر (١/ ٤٥).
(٤) المصدر السابق (١٢/ ٣٥٣).
(٥) المصدر السابق (١٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

ـ وقال شيخ الإسلام في موضع آخر:

«. . وكذلك ابن سبعين الذي جاء من المغرب إلى مكة، **وكان يطلب أن يكون نبياً**، وجدّد غار حراء الذي نزل فيه الوحي على النبي ﷺ ابتداءً، وحُكي عنه أنه كان يقول: لقد ذرِب[1] ابن آمنة حيث قال: **(لا نبي بعدي)**[2]، وكان بارعاً في الفلسفة وفي تصوف المتفلسفة وما يتعلّق بذلك»اهـ[3].

ـ ابن سبعين ملحد، وهو وأصحابه ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة المنتسبة إلى الإسلام:

قال الشيخ: «وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله، كابن سبعين وأمثاله، سلكوا مسلكاً جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة، وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة»اهـ[4].

ـ ابن سبعين كان يتعاطى الكيمياء، يلبّس بها على الناس:

قال شيخ الإسلام: «الكيمياء لم يعملها رجل له في الأمة لسان صدق، لا عالم مُتّبع، ولا شيخ يُقتدَى به، ولا مِلك عادل، ولا وزير ناصح، وإنما يفعلها شيخ ضالٌّ مبطل، مثل ابن سبعين وأمثاله»اهـ[5].

ـ وكان ابن سبعين يدَّعي علم الغيب:

قال شيخ الإسلام: «. . فلهذا تجد عامَّة من في دينه فساد يدخل في الأكاذيب الكونية، مثل أهل الاتحاد، فإن ابن عربي في كتاب (عنقاء

---

(١) ذرِب: فحَش، يقال: فلان ذرِب اللسان أي: شتّام فحّاش.
انظر مادة: ذرب، في: تاج العروس (١/ ٤٩٥)، لسان العرب (١/ ٣٨٥)، القاموس (ص١٠٩).

(٢) الحديث: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٤٩٧).

(٣) المنهاج (٨/ ٢٥).

(٤) الفتاوى (١٧/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٥) المصدر السابق (٢٩/ ٣٧٨).

مغرب) وغيره أخبر بمستقبلات كثيرة عامَّتُها كذب، وكذلك ابن سبعين»اهـ[١].

السرِيُّ السَّقَطي:

- عدَّه شيخ الإسلام من المعتدلين:

فقال أثناء كلامه عن حلق الشعر عند الشيوخ عند التوبة من الذنوب:

«.. الثالث: حلقه على وجه التعبد والتدين والزهد من غير حج ولا عمرة.. فهذه بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، **ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة**، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا تابعيهم ومن بعدهم، مثل: .. **السريّ السقطي**..»اهـ[٢].

أبو سعيد ابن الأعرابي:

- أثنى الشيخ على أبي سعيد، وعلى علمه بالحديث، ومعرفته بأخبار الزهاد، ونقل الشيخ عن كتاب أبي سعيد الأعرابي، المُسمى بـ:(طبقات النُّسّاك)[٣]:

فقال في معرض كلامه عن مذهب فريق من الصوفية في النبوة والولاية[٤]:

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٨١ ـ ٨٢).

(٢) الفتاوى (٢١/ ١١٧ ـ ١١٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٥٩٢).

(٣) كتاب: طبقات النساك: ذكره سزكين وقال: «أفاد منه أبو نعيم في حلية الأولياء، والذهبي في تذكرة الحفاظ»اهـ، سزكين (م١ ح٤ ص١٥٥ ـ ١٥٦).

(٤) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في النبوة والولاية ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (١/ ٦٣١).

«وقد ذكر بعض ما جرى من ذلك **أبو سعيد الأعرابي** في: (طبقات النساك)، وكان من أصحاب الجنيد، ومن شيوخ أبي طالب المكي، **من أهل العلم بالحديث وغيره، ومن أهل المعرفة بأخبار الزهاد وأهل الحقائق**»اهـ[(١)].

سعيد الفرغاني:

ـ عده الشيخ من الاتحادية:

فقال: «.. كالذين يقولون إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق: هو الوجود الممكن للمخلوق كما يقول ذلك أهل الوحدة كابن عربي.. **وسعيد الفرغاني** الذي شرح قصيدة ابن الفارض»اهـ[(٢)].

السلمي: أبو عبد الرحمن:

ـ بيّن شيخ الإسلام سلامة معتقد أبي عبد الرحمن ومخالفته لمذهب الأشاعرة والكلابية، فقال:

«وأبو عبد الرحمن.. كان ينكر مذهب الكلّابية ويُبدّعهم، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم، وله في ذم الكلام مصنَّف يخالف ما ينصره أبو القاسم، وأبو عبد الرحمن أجلُّ مَن أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ، وعليه يعتمد في أكثر ما يحكيه، فإن له مصنفات متعدّدة»اهـ[(٣)].

ـ أبو عبد الرحمن السلمي أحسن من جمع كلام الصوفية وألّف فيه:

قال شيخ الإسلام: «أعظم المشايخ الذين أخذ عنهم أبو القاسم جمعاً لكلام مشايخ الصوفية، وتأليفاً له، ورواية له، هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، فإن القشيري لم يُدرك شيخاً أجمع لكلام القوم، وأحرص على ذلك، وأرغب فيه منه، ولهذا صنف في ذلك ما لم يُصنفه

---

(١) المنهاج (٥/ ٣٤٠). (٢) الفتاوى (٢/ ٢٩٤).
(٣) الاستقامة (١/ ٨٣ ـ ٨٤).

نُظراؤه، . . ومحمد بن الحسين السلمي هو الشيخ أبو عبد الرحمن، أعرف مشايخ أبي القاسم القشيري بطريقة الصوفية وكلامهم»اهـ[(١)].

ـ وقال الشيخ في معرض تقويمه لمؤلفات أبي عبد الرحمن:

«وهو في نفسه رجل مِن أهل الخير والدين والصلاح والفضل، وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح شيء كثير، ويروي أحياناً أخباراً ضعيفة بل موضوعة، يعلم العلماء أنها كذب. . وكذلك ما يأثره أبو عبد الرحمن عن بعض المتكلمين في الطريق أو ينتصر له من الأقوال والأحوال، فيه من الهدى والعلم شيء كثير، وفيه ـ أحياناً ـ من الخطأ أشياء، وبعض ذلك يكون عن اجتهاد سائغ، وبعضه باطل قطعاً»اهـ[(٢)].

ـ وقال شيخ الإسلام في موضع آخر:

«وكان الشيخ أبو عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه من الخير والزهد والدين ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كلما يجده»اهـ[(٣)].

سلول، جهلان، الصبهاني، الكوجلي، يونس[(٤)]:

ـ ذمهم شيخ الإسلام، وبيّن أنهم من ضُلّال المتصوفة:

فقال في جواب سؤال عن: «جماعة اجتمعوا على أمور من الفساد، وتعلق كلٌّ منهم بسبب، ومنهم من قال: إن يونس القتات[(٥)] يُخلص أتباعه من سوء الحساب».

---

(١) الاستقامة (١/ ١٠٣ ـ ١٠٥).

(٢) الفتاوى (١١/ ٤٢)، وقد تقدم سياق كلام شيخ الإسلام بتمامه في المبحث السابق (ص٣٠٩).

(٣) الفتاوى (١١/ ٥٧٨).

(٤) يونس القنّيي، تقدمت ترجمته، انظر (١/ ٢٧٠).

(٥) كذا في المطبوع، والصحيح المذكور في جميع تراجمه: يونس القنّيي.

فأجاب شيخ الإسلام بجواب جليل مهَّد له بكلام عن الغلوِّ في المشايخ، ثم قال: «وأما المنتسبون إلى الشيخ **يونس**: فكثير منهم كافر بالله ورسوله ﷺ، لا يُقرون بوجوب الصلاة الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ولا يُحرمون ما حرم الله ورسوله ﷺ، بل لهم من الكلام في سَبِّ الله ورسوله، والقرآن والإسلام، ما يعرفه مَن عرفهم.

وأما من كان فيهم من عامتهم ـ لا يعرف أسرارهم وحقائقهم ـ فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين، الذي استفاده من سائر المسلمين لا منهم، فإن خواصهم مثل الشيخ سلول، وجهلان، والصبهاني وغيرهم، فهؤلاء لم يكونوا يوجبون الصلاة، بل ولا يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة.

وفي أشعارهم ـ كشعر الكوجلي وغيره ـ من سبِّ النبي ﷺ وسَبِّ القرآن والإسلام ما لا يرضى به لا اليهود ولا النصارى»اهـ[1].

أبو سليمان الداراني:

ـ عدَّه شيخ الإسلام من المشايخ المعتدلين، فقال في معرض كلامه عن السماع[2] المبتدع عند الصوفية:

«ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة قراءة القرآن، . . وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقي يستمعون، . . وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة، وأكابر المشايخ، كمعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان

---

(١) الفتاوى (٢/ ١٠٧).

(٢) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في السماع ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص١٨٨).

الداراني، ونحوهم»اهـ[١].

ـ وأثنى شيخ الإسلام على معتقد أبي سليمان، وأنه موافق للسلف في ذلك:

فقال في معرض بيانه لمعتقد الصوفية المعتدلين: «.. والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذي كان يجب أن يُذكر.

فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل.. وأبي سليمان الداراني.. وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[٢].

ـ وعدَّه الشيخ من أعلام الأمة:

فقال في معرض كلامه عن الرافضة: «فيُكفّرون كلّ من اعتقد في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار العدالة،.. ولهذا يُكفرون أعلام الأمة، مثل:.. **وأبي سليمان الداراني**»اهـ[٣].

ـ وقال شيخ الإسلام ـ مُثنياً عليه ـ في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة[٤]:

«.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كالفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني... وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشرِه»اهـ[٥].

---

(١) الفتاوى (٣/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧). (٢) الاستقامة (١/ ٨٢).
(٣) الفتاوى (٢٨/ ٤٧٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٥٩٢، ٢١/ ١١٨).
(٤) تقدم تفصيل الكلام في ذلك في مبحث خاص (١/ ٧١٧).
(٥) الدرء (٥/ ٤).

ـ وزكّاه الشيخ من الوقوع فيما يقع فيه فريق من المتصوفة من الشطح وغَيبة العقل ونحو ذلك[(١)]، فقال:

«وكذلك أصبح في شيوخ الصوفية مَن يعرض له من الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه.. بخلاف أبي سليمان الداراني،.. وأمثالهم مِمن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم، فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكُمَّل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه..»اهـ[(٢)].

ـ وقال شيخ الإسلام أيضاً:

«.. وكذلك قول الشيخ أبي سليمان: إذا سلا العبد عن الشهوات، فهو راضٍ،.. فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مُرسلة، وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس،.. فتبيّن بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو الرضا، وإنما هو عزمٌ على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء،.. وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجلَّ من أن يقول مثل هذا الكلام، **فإن الشيخ أبا سليمان من أجِلّاء المشايخ وساداتهم، ومِنْ أتبعِهم للشريعة**»اهـ[(٣)].

السهروردي: عمر بن عبد الله:

ـ استشهد الشيخ بكلامه في معرض حديثه عن الكرامات وخوارق العادة[(٤)]، وأهمية تقييدها مدحاً وذَماً بما جاء في الكتاب والسنة، فقال:

---

(١) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في ذلك ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (١٦٦).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٢٢١).

(٣) الفتاوى (١٠/ ٦٨١، ٦٨٨، ٦٩٤).

(٤) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في ذلك ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (١/ ٨٤٢).

«.. قال أبو علي الجوزجاني: كُن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلةٌ على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة، قال الشيخ السهروردي في (عوارفه)[1]: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسِرٌّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب، وذلك أن المجتهدين والمتعبِّدين سمعوا عن سلف[2] الصالحين المتقدمين وما مُنحوا به من الكرامات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلّع إلى شيء من ذلك، ويحِبون أن يُرزقوا شيئاً من ذلك،..»اهـ[3].

السهروردي المقتول: يحيى بن الحسن[4]:

ـ ذكر الشيخ أن يحيى السهروردي كان من غُلاة المتصوفة، بل من الملحدين، حتى إنه طمع في أن يصبح نبياً؛ لأن النبوة عنده مكتسبة:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفلاسفة: «ومثل ابن سبعين وأمثاله مِمن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء،.. ولهذا يقولون:

---

(١) يعني كتاب: عوارف المعارف، لشهاب الدين عمر بن عبد الله السهروردي، وتقدم التعريف بالكتاب، وبيان موقف الشيخ رَحِمَهُ اللهُ منه في المبحث السابق (ص٣٥٧).

(٢) كذا في المطبوع.

(٣) الفتاوى (١١/ ٣٢٠).

(٤) السهروردي المقتول: شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن الحسن بن أميرك السهروردي، الفيلسوف، كان يتوقد ذكاءً، إلا أنه قليل الدين، ولد بسهرورد سنة ٥٤٩هـ، وقُتل بحلب سنة ٥٧٨هـ، وذلك أنه ناظر فقهاءها ثم قرّبه الخليفة الظاهر، فشنّع عليه الفقهاء وعملوا محاضرَ بكفره، وخوفوه أن يفسد اعتقاد ولده، فكتب إلى ولده بقتله، فلما لم يبق إلا القتل اختار السهروردي أن يُمات جوعاً، فكان ذلك، وعاش ستاً وثلاثين سنة، له تصانيف منها: الألواح العمادية في المبدأ والمعاد.
انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٣١٢ ـ ٣١٨)، لسان الميزان (٣/ ١٥٦ ـ ١٥٨)، سير الأعلام (٢١/ ٢٠٧)، الأعلام (٩/ ١٦٩ ـ ١٧٠).

إن النبوة مكتسبة، فطمِع غير واحد منهم أن يصير نبياً، كما طمِع السهروردي وابن سبعين، وغيرهما من الملحدين»اهـ[١].

ـ **وقال شيخ الإسلام**: «كان السهروردي المقتول يطلب أن يصير نبياً، وكان قد جمع بين النظر والتّألّه، وسلك نحواً من مسلك الباطنية، وجمع بين فلسفة الفرس واليونان، وعظَّم أمر الأنوار، وقرّب دين المجوس الأول، وهي نسخة الباطنية الإسماعيلية، وكان له يدٌ في السحر والسيمياء، فقتله المسلمون على الزندقة بحلب في زمن صلاح الدين[٢]»اهـ[٣].

الشبلي: أبو بكر:

ـ كان له زلات اعتذر عنه شيخ الإسلام فيها:

ومن ذلك ما ذكره الشيخ عن ابتداع الصوفية الذكر بـ الله.. الله[٤]..، ثم قال: «... وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب عليه، **مثلما يروى عن الشبلي أنه كان يقول**: الله.. الله.. فقيل له: لم لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، وهذه من

---

(١) الفتاوى (١٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٢) هو يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب، الكردي الأصل، صلاح الدين الملك الناصر أبو المظفر، ولد سنة ٥٣٢هـ، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملة: كان نادراً في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً، توفي سنة ٥٨٩هـ وله من العمر ٧٥ سنة.
انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٢/ ٩٥، ذكر وفاة صلاح الدين)، البداية والنهاية (٨/ ٥٠٤، حوادث سنة ٥٨٩هـ)، شذرات الذهب (٤/ ٢٨٩).

(٣) المنهاج (٨/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٤) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الذكر ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (١/ ١٥٣).

زلّات الشبلي التي تُغفر له لصدق إيمانه، وقوة وَجده، وغَلَبَة الحال عليه، فإنه كان ربما يُجَنُّ ويُذهب به إلى المارستان، ويحلِق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها، وإن كان معذوراً أو مأجوراً...»اهـ(١).

- وقرر شيخ الإسلام أن الشبلي ليس من المشايخ الذين تُتَلقَّى عنهم العقيدة:

فقال الشيخ في معرض تعليقه على ما نقله القشيري عن الشبلي أنه قال: جلَّ الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف:

«**قلت**: هذا الكلام فيه استدراك مِن وجوه.. الوجه الثالث: أن أصول اعتقاد أئمة الطريق إلى الله لا يؤخذ مما يحكى عن مثل الشبلي، ولو كانت الحكايةُ صادقةً، لما عُرِفَ من حال الشبلي، وأنه كان يغلب عليه الوجد، حتى يزول عقله، وتُحلَق لحيته، ويذهبوا به إلى المارستان، ويسقط عنه التمييز بين الحق والباطل.

ومَن كان هذا حالُه لم يَجُز أن يُجعلَ كلامه وحده أصلاً يُفَرَّق به بين أئمة الهدى والضلال، والسنة والبدعة، والحق والباطل، لكن يُقبل من كلامه ما وافق فيه أئمة المشايخ، وهو ما دلَّ عليه الكتاب والسنة» اهـ(٢).

- وبيّن الشيخ - في موضع آخر - أن الشبلي ليس من أئمة الطريق الذين يُعتدّ بأقوالهم:

فقال في معرض كلامه على رواية عن الشبلي يمدح فيها السماع البدعي(٣):

---

(١) الفتاوى (١٠/٥٥٦).   (٢) الاستقامة (١/١١٥ - ١١٦).

(٣) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في السماع - تفصيلاً - في مبحث خاص (ص١٨٨).

«**قلت**: هذا القول مرسل لم يُسنده، فالله أعلم به، فإن كان محفوظاً عن الشبلي، فقد نبّهنا على أن الأئمة في طريق الحق الذين يُعتد بأقوالهم كما يُعتد بأقوال أئمة الهدى، هم مثل الجنيد، وسهل، ونحوهما، فإن أقوالهم صادرة عن أصل، وهم مستهدون فيها.

وأما الشبلي ونحوه، فلا بدَّ من عرض أقواله وأحواله على الحُجَّة، فيُقبل منها ما وافق الحق، دون ما لم يكن كذلك؛ لأنه قد كان يعرض له زوال العقل حتى يُذهب به إلى المارستان غير مرّة، وقد يختلط اختلاطاً دون ذلك، ومن كان بهذه الحال، فلا تكون أقواله وأفعاله في مثل هذه الأحوال مما يُعتمد عليها في طريق الحق.

ولكن له أقوال وأفعال حسنة قد عُلم حسنها بالدليل، فتُقبل لحسنها في نفسها، وإن كان له حال أخرى بغير عقله، أو اختلط فيها أو وقع منه ما لا يصلح، ومعلوم أن شيخَه الجنيد هو الإمام المتَّبَع في الطريق..»اهـ[1].

الصدر الرومي:

ـ عدَّه شيخ الإسلام من رؤوس الاتحادية:

قال شيخ الإسلام في معرض بيانه لضلال رؤوس الاتحادية: «.. وأما صاحبه الصدر الرومي، فإنه كان متفلسفاً، فهو أبعد عن الشريعة والإسلام،.. فحقيقة قوله: إنه ليس لله سبحانه وجود أصلاً، ولا حقيقة ولا ثبوت، إلا نفس الوجود القائم بالمخلوقات»اهـ[2].

---

(١) الاستقامة (١/ ٤٠٤).

(٢) الفتاوى (٢/ ٤٧١)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المنهاج (٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩).

ـ وعقد شيخ الإسلام مقارنة بين الصدر الرومي والنصير الطوسي[(١)]، من جهة: أيهما أعظم كفراً؟.

فقال: «.. وكذلك المراسلة التي بين الصدر والنصير، في إثبات النصير لواجب الوجود على طريقة الصابئة الفلاسفة، وجعل الصدر ذلك هو الوجود المطلق لا المعيّن، وأنه هو الله، علم حقيقة ما قلته، وعلِم وجه اتفاقهم على الضلال والكفر:

وأن النصير أقرب من حيث اعترافه بالرب الصانع المتميز عن الخلق، لكنه أكفر من جهة بعده عن النبوة، والشرائع، والعبادات.

وأن الصدر أقرب من جهة تعظيمه للعبادات، والنبوات، والتألُّه، على النصارى، لكنه أكفر من حيث إن معبوده لا حقيقةَ له، وإنما يعبد الوجود المطلق الذي لا حقيقة له في الخارج.

ولهذا كان الصدر أكفرَ قولاً، وأقلَّ كفراً في عمله، والنصير أكفرَ عملاً، وأقلَّ كفراً في قوله، وكلاهما كافر في قوله وعمله، ولهذا يظهر للعقلاء من عموم المسلمين من كلام الصدر أنه إفك وزور وغرور، مخالف لما جاء به الرسول ﷺ»اهـ[(٢)].

---

(١) هو محمد بن عبد الله الطوسي، الملقب بنصير الدين، ويقال: الخواجا نصير الدين، حصَّل بعض العلم وصنف في علم الكلام، وشرح إشارات ابن سينا، ووزر للإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وأعانه في واقعة بغداد، قال ابن كثير: «أصل اشتغاله على المعين سالم بن بدار بن علي المصري المعتزلي المتشيع، فنزع فيه عروق كثيرة منه، حتى أفسد اعتقاده»اهـ، وقال جلال الدين في تاريخ الخلفاء: «النصير الطوسي رأس الفلاسفة وخاصة التتار»اهـ، توفي سنة ٦٧٢هـ، وله من العمر: ٧٥ سنة.

انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٥١، حوادث سنة ٦٧٢هـ)، تاريخ الخلفاء (١/ ٤١٢)، شذرات الذهب (٦/ ٦٠).

(٢) الفتاوى (٢/ ٩٢).

ـ وقال شيخ الإسلام في معرض ردِّه على القائلين بالحلول والاتحاد:

«وقد ضلَّ في هذا جماعة لهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك، كابن سبعين **والصدر القونوي تلميذ ابن عربي**..»اهـ[١].

أبو طالب المكي:

ـ عدَّه شيخ الإسلام من المشايخ الصالحين:

فقال: «.. مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة مثل: .. **أبي طالب المكي**..»اهـ[٢].

ـ واعتذر شيخ الإسلام عمَّا قد يوجد في كلام أبي طالب من الكلام المُجمل الذي قد يحتمل معاني باطلةً.

فقال في معرض كلامه عن صفات الله تعالى: «فإذا قال قائل: هو قادر على ما يشاء، قيل: فقل: هو قادر على أن ينزل ﷻ وهو فوق عرشه، .. وهو هذا كما قد يقوله طائفة منهم أبو طالب المكي، قال: «إن شاء وسِعَه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعْه شيء، وإن أراد عرفه كلُّ شيء، وإن لم يُرِد لم يعرفْه شيء، ..». قلت: أبو طالب رحمه الله هو وأصحابه السالمية، أتباع الشيخ أبي الحسن بن سالم، صاحب سهل بن عبد الله التستري، لهم من المعرفة والعبادة والزهد واتِّباع السنة والجماعة في عامة المسائل المشهورة لأهل السنة ما معروفون به، وهم منتسبون إلى إمامين عظيمين في السنة: الإمام أحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري، .. فالذين ينتسبون إليهم أو يُعظمونهم ويقصدون متابعتهم أئمة هدى ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، وهم في ذلك كأمثالهم من أهل السنة والجماعة.

---

(١) المصدر السابق (١٣/ ١٨٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٧٤).

وقلَّ طائفة من المتأخرين إلا وقع في كلامهم نوع غلط لكثرة ما وقع من شُبَه أهل البدع،.. وكذلك ذكر الخطيب البغدادي[١] في تاريخه[٢]: أن جماعة من العلماء أنكروا بعض ما وقع في كلام أبي طالب في الصفات، وما وقع في كلام أبي طالب من الحلول سرى بعضه إلى غيره من الشيوخ الذين أخذوا عنه..»اهـ[٣].

ـ أبو طالب في كلامه شيء من القول بالحلول العام:

قال شيخ الإسلام: «وأما الحلول العام: ففي كلام أبي طالب قطعة كبيرة منه، مع تبَرِّيه من لفظ: الحلول، فإنه ذكر كلاماً كثيراً حسَناً في التوحيد، كقوله[٤]: «عالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حي لا يموت، قيوم لا يغفل، حليم لا يسفه، سميع بصير، ملِك لا يزول مُلكُه،..»، إلى أن قال: «وأنه أمام كل شيء، ووراء كل شيء، وفوق كل شيء، ومع كل شيء، ويسمع كل شيء، وأقرب إلى كل شيء من ذلك الشيء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلّاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء، بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء محيط».

وذكر كلاماً آخر يتعلق بالمخلوقات، وإحاطة بعضها ببعض بحسب ما رآه، ثم قال: «والله ﷻ وعَظُم شأنه هو ذات منفرد بنفسه، متوحّد بأوصافه، بائن من جميع خلقه، لا يحلّ الأجسام، ولا تحلّه الأعراض،

---

(١) هو أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، أبو بكر، قال الذهبي: (الحافظ الكبير، الإمام، مُحدِّث الشام والعراق)، توفي سنة ٤٦٣هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٣٥).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٣/ ٨٩).

(٣) شرح حديث النزول (ص٣٤١ ـ ٣٤٥).

(٤) انظر كلام أبي طالب هذا وما بعده في قوت القلوب (٢/ ٨٣ ـ ٨٥).

ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شيء، ليس في الخلق إلا الخلق، ولا في الذات إلا الخالق».

قلت: وهذا ينفي الحلول كما نفاه أوّلاً»اهـ[(١)].

ـ واستشهد شيخ الإسلام بكلام أبي طالب في مواضعَ:

ومن ذلك ما نقله عنه في معرض كلامه عن اتقاء الشبهات التي يشتبه فيها الحلال بالحرام: «.. وذلك أن قول النبي ﷺ: **(الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس،..)**[(٢)]، إنما يقتضي اتقاءَ الشبهات التي يشتبه فيها الحلال بالحرام، بخلاف ما إذا اشتبه الواجب أو المستحب بالمحظور، وقد ذكر ذلك أبو طالب المكي[(٣)]..»اهـ[(٤)].

عامر البصري السيواسي:

ـ عدّه الشيخ من الحلولية:

فقال رحمه الله: «.. كالذين يقولون: إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق: هو الوجود الممكن للمخلوق كما يقول ذلك أهل الوحدة، كابن عربي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض ـ صاحب القصيدة التائية (نظم السلوك) ـ **وعامر البصري السيواسي** الذي له قصيدة تناظر قصيدة ابن الفارض، والتلمساني الذي شرح (مواقف النفري)، وله شرح الأسماء الحسنى على طريقة هؤلاء، وسعيد الفرغاني الذي شرح

---

(١) شرح حديث النزول (ص٣٤١ ـ ٣٤٥).

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/٢٨/٥٢)، ومسلم (كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/١٢١٩/١٥٩٩)، من حديث: النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) قوت القلوب (٢/٤٧٦).

(٤) الفتاوى (٢١/٣١٠ ـ ٣١١).

قصيدة ابن الفارض، **والششتري صاحب الأزجال الذي هو تلميذ ابن سبعين** وعبد الله البلياني وابن أبي المنصور المتصوف المصري صاحب (فك الأزرار عن أعناق الأسرار) وأمثالهم، ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت، كما يقوله ابن عربي»اهـ[١].

أبو العباس بن سُرَيج[٢]:

ـ استشهد الشيخ بكلامه على سبيل المدح له:

فقال في معرض ذمه للمبتدعة لاستعمالهم ألفاظاً لم ترد في الشرع: «والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المُحدَث، لاشتماله على باطل وكذب، وقول على الله بلا علم، . . ولِهذا **لمّا سُئل أبو العباس ابن سُرَيج** عن التوحيد، فذكر توحيد المسلمين، وقال: وأما توحيد أهل الباطل، فهو الخوض في الجواهر والأعراض . . »اهـ[٣].

عبد القادر الجيلاني:

ـ ما يكاد شيخ الإسلام يذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني إلا ويتبعه بعبارات الترحُّم عليه، والدعاء له، والثناء على اعتداله:

ـ عدَّه الشيخ ـ في مواضع ـ من المشايخ الصالحين المعتدلين:

فقال: «. . مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٩٤).

(٢) هو أحمد بن عمر بن سُرَيج البغدادي، أبو العباس، الإمام فقيه العراقين، ولد سنة ٢٢٩هـ، وبه انتشر مذهب الشافعي في بغداد، ، له مصنفات منها: الأقسام والخصال في فروع الفقه الشافعي، توفي سنة ٣٠٦هـ.
انظر: سير الأعلام (١٤/ ٢٠١)، تاريخ بغداد (٤/ ٢٨٧)، وفيات الأعيان (١/ ٦٦ ـ ٦٧)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

(٣) الفتاوى (١٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

لسان صدق في الأمة، مثل: .. **الشيخ عبد القادر الجيلاني**.. وأمثال هؤلاء المشايخ. .»اهـ[١].

ـ وقال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن السماع[٢] المبتدع عند الصوفية: «ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة قراءة القرآن، .. وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقي يستمعون، .. وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة.. وهو سماع **المشايخ المتأخرين الأكابر، كالشيخ: عبد القادر**..»اهـ[٣].

ـ وعدَّه شيخ الإسلام من المشايخ المستقيمين، الذين سلِموا من الابتداع والغلوّ:

فقال عند كلامه عن الفناء[٤]: «فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما **من المشايخ أهل الاستقامة** رضي الله عنهم بأنه لا يريد السالك مراداً قط، وأنه لا يريد مع إرادة الله عزّ وجلّ سواها، بل يجري فعله فيه، فيكون هو مراد الحق، . .»اهـ[٥]

ـ واستشهد الشيخ بكلامه في مواضعَ، منها قوله في معرض كلامه عن الفناء: «.. فأما المستقيمون من السالكين.. فهم لا يُسوّغون للسالك ـ ولو طار في الهواء أو مشى على الماء ـ أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيَّين.. وهذا كثير في كلامهم، كقول الشيخ عبد القادر في

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٧٤).

(٢) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في السماع ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص١٨٨).

(٣) الفتاوى (٣/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).

(٤) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الفناء ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص٥١).

(٥) الفتاوى (١٠/ ٥١٦).

كتاب (فتوح الغيب): (أخرج نفسك، وتنحَّ عنها، وانعزل عن ملكك، وسلِّم الكلَّ إلى الله تبارك وتعالى، وكن بوَّابه على باب قلبك..»اهـ[١].

- واستشهد الشيخ في موضع آخر بقول الجيلاني في الفناء الشرعي، فقال: «.. فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي أن لا يحبَّ إلا لله، ولا يبغض إلا لله،.. والفناء في هذا هو الفناء المأمور به،.. **كما قال الشيخ عبد القادر**: كُن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس»اهـ[٢].

- واستشهد شيخ الإسلام بقول الشيخ عبد القادر في القدر، فقال: «.. **ولهذا يقول الشيخ عبد القادر - قدّس الله روحه -**: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل مَن يكون منازعاً للقدر لا موافقاً له[٣]، وهو رضي الله عنه كان يُعظم الأمر والنهي، ويوصي باتّباع ذلك، وينهى عن الاحتجاج بالقدر»اهـ[٤].

- وقال في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة[٥]: «.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون مِنْ أبرأ الناس من هذا

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٥١٦ - ٥١٧)، فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلاني (ص١٦).

(٢) الفتاوى (٨/ ٣٣٧ - ٣٣٨).

(٣) لم أقف على هذا الكلام في شيء من كتب عبد القادر الجيلاني، وقد ذكره الشيخ د. سعيد بن مسفر في رسالته العلمية: الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية (ص٢٩٠)، وذكر أنه لم يقف عليه في شيء من كتب الشيخ عبد القادر، وقال: ولعله مما قاله مشافهة ثم نُقل عنه دون أن يُدوّن في شيء من كتبه.

(٤) الفتاوى (٨/ ٣٠٦).

(٥) تقدم تفصيل الكلام في ذلك في مبحث خاص (١/ ٧١٥).

المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره، بل **قد قيل للشيخ عبد القادر الجيلي** ـ قدس الله روحه ـ: هل كان لله وليّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ **فقال:** لا كان ولا يكون»اهـ[1].

أبو عثمان النيسابوري:

ـ عده شيخ الإسلام من الشيوخ الصالحين:

فقال في معرض رده على الحلولية: «.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كالفُضيل بن عياض،.. **وأبي عثمان النيسابوري**.. من الكلام في إثبات الصفات والذمّ للجهمية والحلولية، ما لا يتسع هذا الموضع لِعُشْرِهِ»اهـ[2].

ـ واستشهد الشيخ بأقوال أبي عثمان في عدة مواضع، ومن ذلك ما أورده عنه أثناء كلامه عن محبة الله تعالى وغلوّ فريق من المتصوفة في معناها، فقال:

«ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة، يوصون كثيراً بمتابعة العلم، ومتابعة الشرع،.. ولهذا قال بعض الشيوخ.. وقال **أبو عثمان النيسابوري**: مَن أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومَن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤]»اهـ[3].

---

(١) الدرء (٥/ ٤).
(٢) الدرء (٥/ ٥).
(٣) المنهاج (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، الفرقان (ص٤٩)، الاستقامة (١/ ٩٧).

ـ ونقل الشيخ عن أبي عثمان كلاماً حسَناً في الاعتقاد، دلَّ على أن أبا عثمان على مذهب السلف الصالح:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن صفة استواء الله تعالى على العرش: «وقال الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني النيسابوري، في كتاب (الرسالة في السنة) لهُ: ويعتقد أصحاب الحديث ويشهدون أن الله فوق سبع سماواته على عرشه، كما نطق به كتابهُ، وعلماء الأمة وأعيان سلف الأمة لم يختلفوا أن الله تعالى على عرشِه، وعرشُه فوق سماواته، . .»اهـ(١).

عدي بن مسافر:

ـ كان رجلاً صالحاً، لكن له أصحاب غَلَوا فيه:

قال شيخ الإسلام: «فصل: والشيخ عدي بن مسافر بن صخر، كان رجلاً صالحاً، وله أتباع صالحون، ومن أصحابه مَن فيه غلوٌّ عظيم، يبلغ بهم غليظ الكفر، وقد رأيت جزءاً أتى بيد أتباعه فيه نسبه وسلسلة طريقة، فرأيت كليهما مضطرباً. .»اهـ(٢).

ـ قرنه الشيخ بمشايخَ خِيَارٍ:

فقال في معرض كلامه عن السماع المحرَّم، واجتماع بعض الصوفية: «. . ولم يحضره مثل: إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا أبو سليمان الداراني. . ولا **الشيخ عدي**»اهـ(٣).

ـ **وقال شيخ الإسلام في موضع آخر:** «. . مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة مثل: . . **الشيخ عدي**..»اهـ(٤).

---

(١) الفتاوى (٥/ ١٩٢).
(٢) الفتاوى (١١/ ١٠٣).
(٣) الفتاوى (١١/ ٥٩٢).
(٤) الفتاوى (٢/ ٤٧٤).

ـ وبرّأه الشيخ من الوقوع فيما وقع فيه بعض المتصوفة من السماع المحرم:

فقال في معرض كلامه عن بدعة السماع[١]: «ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة قراءة القرآن،.. وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقي يستمعون،.. وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة.. وهو سماع **المشايخ المتأخرين الأكابر**، كالشيخ: عبد القادر، **والشيخ: عدي بن مسافر**..»اهـ[٢].

ـ وقد أرسل شيخ الإسلام إلى أصحاب الشيخ عدي بن مسافر رسالة طويلة، أثنى فيها على الشيخ عدي، وناصحهم فيها عن بعض الأخطاء التي تقع منهم كالغلوّ فيه، ونحو ذلك:

ومما قال شيخ الإسلام في هذه الرسالة: «من أحمد بن تيمية إلى مَن يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة، المنتمين إلى الشيخ العارف القدوة: أبي البركات عدي بن مسافر الأموي رَحِمَهُ اللَّهُ، ومَنْ نحا نحوهم،.. وأنتم أصلحكم الله قد منَّ الله عليكم بالانتساب إلى الإسلام الذي هو دين الله،.. وفيكم مِنْ أهل الزهادة والعبادة منكم مَن له الأحوال الزكية، والطريقة المرضيَّة، وله المكاشفات والتصرفات،.. وفيكم من أولياء الله المتقين مَنْ له لسان صدق في العالمين، فإن قدماء المشايخ الذين كانوا فيكم، مثل الملقّب بشيخ الإسلام: أبي الحسن علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري، وبعده الشيخ العارف القدوة: عدي بن مسافر الأموي، ومَن سلك سبيلَهما، فيهم من الفضل والدين والصلاح والاتِّباع للسنة ما عظّم الله به أقدارهم، ورفع به منارهم.

---

(١) تقدم تفصيل الكلام على السماع في مبحث خاص (ص١٨٨).
(٢) الفتاوى (٣/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).

والشيخ عدي ـ قدس الله روحه ـ كان من أفاضل عباد الله الصالحين، وأكابر المشايخ المتّبعين، وله من الأحوال الزكية، والمناقب العلية، ما يعرفه أهل المعرفة بذلك، وله في الأمة صيت مشهور، ولسان صدق مذكور، وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدّمه من المشايخ الذين سلك سبيلهم، كالشيخ الإمام الصالح: أبي الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصاري الشيرازي ثم الدمشقي[(١)]، وكشيخ الإسلام الهكاري، ونحوهما، وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة»اهـ[(٢)].

ابن عربي: محيي الدين[(٣)]:

ابن عربي ـ في حقيقته ـ ليس من الصوفية، وإنما هو من الفلاسفة

---

(١) هو عبد الواحد بن محمد بن علي بن أحمد، أبو الفرج الحنبلي، الشيرازي، ثم المقدسي، ثم الدمشقي، الفقيه الزاهد الأنصاري الخزرجي، الواعظ الفقيه القدوة. سمع الحديث بدمشق، وتفقه ببغداد على القاضي أبي يعلى، ونشر بالشام مذهب أحمد، وتخرج به الأصحاب، وكان إماماً عارفاً بالفقه والأصول، صاحب عبادة وتألُّه، قال ابن رجب: «كان أبو الفرج ناصراً لاعتقادنا، متجرداً في نشره، مبطلاً لتأويلات أخبار الصفات، وله تصنيف في الفقه والوعظ والأصول»اهـ. توفي سنة ٤٨٦هـ.

انظر: طبقات الحنابلة (١/ ٦٨، ط. دار المعرفة، بيروت)، شذرات الذهب (٣/ ٣٧٨).

(٢) الفتاوى (٣/ ٣٦٣، ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

(٣) **ابن عربي: اسمه ونسبه**: أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بابن عربي، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر، فيلسوف صوفي من أئمة المتكلمين، ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ، ثم رحلت أسرته إلى إشبيلية، وفيها أخذ عن ابن بشكوال، وأبي بكر محمد بن خلف الإشبيلي، وأبي الحسن الرعيني، وابن زرقون، وغيرهم من أقطاب التصوف، وكان ابن عربي في أول أمره قد اشتغل بالكتابة في ديوان الإنشاء =

= لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهَّد وتفرَّد، وأكثر من الخلوات والعزلة حتى خرج بفكر الحلول والاتحاد، ثم تنقَّل ابن عربي بين البلدان في الغرب والشرق حتى استقرَّ في دمشق، وفيها توفي سنة ٦٣٨هـ.

شخصية ابن عربي: ظلَّ ابن عربي طوال حياته داعياً لمذهب الاتحادية، وصنف فيه تصانيفَ كثيرةً أوصلها الزركلي إلى أربعمائة كتاب ورسالة، أشهرها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وفي أكثر هذه التصانيف صرّح بمذهب أهل وحدة الوجود (الأعلام ٧/ ١٧٠).

مواقف الناس من ابن عربي: تكاثرت أقوال علماء أهل السنة والجماعة ـ شرقاً وغرباً ـ في ذم ابن عربي وتبديعه، ومنهم من رماه بالزندقة والكفر ـ وما هو عن ذلك ببعيد ـ، وذلك لما في أقواله وكتبه من إلحاد وضلال، وعلى الرغم من ذلك نجد أن بعض الناس افتتن بابن عربي وتأوَّل كلامه، رغم صراحته في الحلول والاتحاد. وباستقراء مواقف الناس من ابن عربي يمكن حصرها في ثلاثة أقسام:

١ ـ منهم مَن كفّره؛ لأن كلامه مليء بالحلول والزندقة، وهم أكثر علماء السلف.

٢ ـ ومنهم من سماه الشيخ الأكبر، واعتقد فيه، وعدّه من أكابر الأولياء العارفين وهم غلاة المتصوفة، أو من كان من المتعبِّدين، جاهلاً جهلاً مركباً يقيس الأقوال بذوقه ووجده، لا بمقياس الكتاب والسنة.

٣ ـ ومنهم مَن اعتقد ولايته وصلاحه، ومع ذلك حرّم النظر في كتبه، لِما فيها من الكلام المحتمل لمعانٍ باطلة لا تليق بالله تعالى، ومن أبرز من رأى هذا الرأي الإمام السيوطي؛ حيث ألف كتاباً سماه: تنبيه الغبي بتنزيه ابن عربي، ومما قاله في هذا الكتاب: «والقول الفصل في ابن عربي: اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه»!!.

قال الإمام الذهبي عن ابن عربي: «وصنف التصانيف في تصوف الفلاسفة وأهل الوحدة، فقال أشياء منكرة عدّها طائفة من العلماء مروقاً وزندقةً، وعدّها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السالكين، وعدّها طائفة من متشابه القول، وأن ظاهرها كفر وضلال، وباطنها حق وعرفان، وأنه صحيح في نفسه كبير القدر، وآخرون يقولونَ: قد قال هذا الباطل والضلال، فمن =

الضالين الذين يتظاهرون بالتصوف[(١)] وهم ملاحدة:

= الذي قال: إنه مات عليه؟.. إن المتأمل لأقوال ابن عربي في فصوصه فهو أحد رجلين: إما من الاتحادية في الباطن، وإما من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر»اهـ (ميزان الاعتدال ٣/ ٦٥٩ ـ ٦٦٠).

ثم قال ـ الذهبي ـ عن كتاب فصوص الحكم لابن عربي: «ومن أردأ تواليفه كتاب «الفصوص» فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فواغوثاه بالله..»اهـ (سير الأعلام ٢٣/ ٤٨).

ولا حاجة إلى إيراد أمثلة من كلمات ابن عربي في كتبه، والتي بسببها تكلم فيه العلماء، وشنعوا عليه، لأن شيخ الإسلام كفانا مؤنة ذلك بما نقل عنه وعلق عليه.

انظر ـ إضافة إلى ما سبق من مصادر في ثنايا البحث ـ: تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي (١/ ٥٢٦ ـ ٥٣٥)، تنبيه الغبي بتنزيه ابن عربي للسيوطي (ق١١٠، مخطوط ضمن المجموعة (٧٢٢ ف٥ ميكروفيلم) بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي (٢/ ١٦٣)، مقدمة كتاب بغية المرتاد لشيخ الإسلام، والمقدمة لمحققه د. موسى الدويش (ص١٢١ ـ ١٢٢)، الطبقات الكبرى (١/ ١٦٣)، لسان الميزان (٥/ ٣١١ ـ ٣١٥)، شذرات الذهب (٥/ ١٩٠ ـ ٢٠٢)، سير الأعلام (٢٣/ ٤٨)، الأعلام (٧/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(١) تأثر بابن عربي وأفكاره ومؤلفاته أقوامٌ كثيرون، وعظّموه وغلَوْا فيه، ولكل قوم وارث، وقد ذكر شيخُ الإسلام الصدرَ القونوي (ت٦٧٢هـ). وممن جاء بعد شيخِ الإسلام:

عبد الوهاب الشعراني (ت٩٧٣هـ) صاحب «طبقات الصوفية الكبرى»، فإنه انتصر لابن عربي، وصرف عنايته لإحياء مؤلفاته وخدمتها، ويدل على ذلك قوله في مقدمة كتابه (اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر ١/ ٣): «.. ثم اعلم أخي أني طالعت من كلام أهل الكشف ما لا يُحصى من الرسائل، وما رأيت في عباراتهم أوسع من عبارة الشيخ الكامل المحقق، مربي العارفين، الشيخ محيي الدين بن العربي [كذا] رحمه الله؛ فلذلك شيدت هذا الكتاب بكلامه من الفتوحات وغيرها دون كلام غيره من الصوفية»اهـ.

واختصر الشعراني كتاب «الفتوحات المكية» بكتاب سماه «لواقح الأنوار»، وله =

قال شيخ الإسلام: «.. وهؤلاء الفلاسفة قد يجعلون جبريلَ هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ، والخيال تابع للعقل، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة، وزعموا أنهم أولياء الله، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة كابن عربي صاحب (الفتوحات) و(الفصوص)، .. فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادّعوا أنهم من الصوفية، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل العلم، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة: كالفضيل بن عياض..»اهـ[(١)].

ـ شيوخ الصوفية الصالحون هم أبرأ الناس من مذهب ابن عربي، وأشدُّهم نكيراً عليه:

قال شيخ الإسلام: «.. حتى آل الأمر بملاحدة المتصوفة ـ كابن

= كتاب «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر».

وجاء بعد الشعراني صوفي مفتون آخر، وهو عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ) حيث اعتنى بمؤلفات ابن عربي، وصنف في ذلك: «رسالة في الانتصار لابن عربي»، و«الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين»، و«جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص». انظر: مصادر التلقي عند الصوفية (١/ ٢٧٨).

وجاء بعده صوفي آخر هو محمود محمود غراب، وهو لا يزال حياً إلى سنة ١٤١٦، حيث قابلته في بلاد «سوريا» وتناقشت معه، لكنه كان متعصباً جداً لابن عربي، وله فيه مصنفات منها: «شرح كتاب الفصوص من كلام ابن عربي»، و«شرح كلمات الصوفية والرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي»، و«الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد من كلام ابن عربي»، و«شرح رسالة روح القدس في محاسبة النفس»، وغيرها، وقد أرسل بعض رسائله هذه إلى سماحة الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله فبعث بها الشيخُ إلى الشيخ عبد القادر بن حبيب الله السندي رحمه الله فردّ عليها في كتاب كبير مكون من جزأين، الأول اسمه: التصوف في ميزان البحث والتحقيق، والثاني: الرد على مزاعم ابن غراب.

(١) الفتاوى (١١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

عربي صاحب (فصوص الحكم)، وأمثاله - إلى أن جعلوا الوجود واحداً، وجعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وهذا تعطيل للخالق، . . وآخر تحقيقهم استحلال المحرمات وترك الواجبات، . . هذا وشيوخ التصوف المشهورون مِنْ أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدِهم عنه، وأعظمِهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، . . من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية، ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[١].

- وصرّح شيخ الإسلام بأن ابن عربي من الجهمية:

فقال في معرض رَدِّه على الاتحادية: «. . وكلام ابن سبعين، وابن رشد الحفيد، وابن التومرت، وابن عربي، وأمثالهم من الجهمية، نفاة الصفات. . »اهـ[٢].

- دعوى ابن عربي علم الغيب:

قال شيخ الإسلام: «. . فلهذا تجد عامة مَنْ في دينه فسادٌ يدخل في الأكاذيب الكونية، مثل أهل الاتحاد، **فإن ابن عربي** في كتاب عنقاء مغرب وغيره، **أخبر بمستقبلات كثيرة عامتها كذب**، وكذلك ابن سبعين»اهـ[٣].

- وكان أصحاب ابن عربي يزعمون أنه المسيح عليه السلام:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الاتحادية: «. . فإن شيخهم الذي هو عارف وقته وزاهده عندهم، كانوا يزعمون أنه هو المسيح الذي ينزل، وأن معنى ذلك نزول روحانية عيسى عليه السلام، وأن أُمه اسمها مريم، وأنه يقوم يجمع الملل الثلاث»اهـ[٤].

---

(١) الدرء (٥/ ٤).
(٢) الفتاوى (٦/ ٥١٨).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٨١ - ٨٢).
(٤) المصدر السابق (٤/ ٨٢).

ـ ذم ابن عربي للشيوخ الصالحين، ودعواه أن الجنيد مات ولم يعرف الطريق:

قال شيخ الإسلام في معرض ردِّه على الاتحادية: «وفي الجملة، فالقول بالحلول أو ما يناسبه: وقع فيه كثير من متأخري الصوفية، ولهذا كان أئمة القوم يحذّرون منه، كما في قول الجنيد ـ لَمَّا سُئل عن التوحيد ـ فقال: التوحيد إفراد الحدوث عن القِدَم، فبين أنّ التوحيد أن يُميَّز بين القديم والمُحْدَث، وقد أنكر ذلك عليه ابن عربي ـ صاحب (الفصوص) ـ وادَّعى أن الجنيد وأمثاله ماتوا وما عرفوا التوحيد، لما أثبتوا الفرق بين الرب والعبد»اهـ[1].

ـ كان شيخ الإسلام في أول الأمر يُحسن الظن بابن عربي، ثم تبين له ضلاله بعد ذلك:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما كنت قديماً مِمَّن يُحسن الظن بابن عربي ويُعظمه، لِما رأيت في كتبه من الفوائد؛ مثل كلامه في كثير من (الفتوحات) و(الكُنه) و(المحكم المربوط) و(الدرة الفاخرة) و(مطالع النجوم)... ونحو ذلك، ولم نكن بعدُ اطلعنا على حقيقة مقصوده، ولم نطالع (الفصوص) ونحوه، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق، فلما تبيَّن الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا»اهـ[2].

ـ لا يُحكم على ابن عربي بجنة ولا نار، فالله أعلم بخاتمته:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الاتحادية: «وكنت أخاطب بكشف أمرهم لبعض الفضلاء الضالين، وأقول: إن حقيقة أمرهم هو حقيقة قول فرعون، المنكِر لوجود الخالق الصانع،.. وهذه المعاني كلها هي قول صاحب (الفصوص)، **والله أعلم بما مات الرجل عليه**، والله

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٩٩).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٦٤).

يغفر لجميع المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]»اهـ[١].

- ابن عربي أقرب القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام:

قال شيخ الإسلام في معرض تفصيله لأقوال الاتحادية: «.. لكن ابن عربي أقربِهم إلى الإسلام، وأحسن كلاماً في مواضعَ كثيرةٍ، فإنه يُفرق بين الظاهر والمظاهر، فيُقرّ الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه، ويأمر بالسلوك بكثير مِما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا كثير من العُبَّاد يأخذون من كلامه سلوكهَم، فينتفعون بذلك، وإن كانوا لا يفقهون حقائقه، ومن فهمها منهم ووافقه فقد تبين قوله»اهـ[٢].

- ابن عربي وإن كان أقربَ من بقية رؤوس الاتحادية إلى الإسلام، إلا أنه كذَّاب مُفترٍ:

قال الشيخ: «قال الشيخ إبراهيم الجعبري[٣] لمَّا اجتمع بابن عربي - صاحب هذا الكتاب[٤]، فقال: رأيته شيخاً نجساً يُكَذِّب بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي أرسله الله. وقال الفقيه أبو محمد بن عبد السلام[٥] لَمَّا قدم القاهرة، وسألوه عنه - قال: هو شيخ سوء كذاب مقبوح يقول

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٦٨ - ٤٦٩). (٢) الفتاوى (٢/ ٤٧٠ - ٤٧١).

(٣) إبراهيم بن معضاد الجعبري، تقدمت ترجمته، انظر (١/ ١٤١).

(٤) يعني كتاب فصوص الحِكم لابن عربي.

(٥) هو زين الدين أبو محمد بن عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، القاضي الإمام العلامة شيخ القراء، أول من باشر القضاء بدمشق، وعزل نفسه عنها تورعاً وزهادة، واستمر بلا ولاية ثمان سنين، توفي سنة ٦٨١هـ، وله من العمر: ٨١ سنة.

انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٨٧، حوادث سنة ٦٨١هـ)، نفح الطيب (١/ ٣٢٢)، شذرات الذهب (٥/ ٣٧٤).

بقدم العالم، ولا يحرم فرجاً. **فقوله**: يقول بقدم العالم؛ لأن هذا قوله، وهذا كفر معروف، **فكفّره الفقيه أبو محمد بذلك**، ولم يكن بعْدُ ظهر من قوله: إن العالم هو الله، وإن العالم صورة الله وهوية الله، فإن هذا أعظم مِنْ كفر القائلين بقدم العالم، الذين يثبتون واجب الوجود، ويقولون: إنه صدر عنه الوجود الممكن.

وقال عند من عاينه من الشيوخ: إنه كان كذاباً مفترياً، وفي كتبه ـ مثل (الفتوحات المكية) وأمثالها ـ من الأكاذيب ما لا يخفى على لبيب ـ هذا وهو أقرب إلى الإسلام من ابن سبعين ومن القونوي والتلمساني وأمثاله من أتباعه، فإذا كان الأقرب بهذا الكفر ـ الذي هو أعظم من كفر اليهود والنصارى ـ فكيف بالذين هم أبعد عن الإسلام؟.

ولم أصف عُشر ما يذكرونه من الكفر، ولكن هؤلاء التبس أمرُهم على مَنْ لم يعرف حالهم»اهـ[١].

عمرو بن عثمان المكي:

ـ عده شيخ الإسلام من خيرة المشايخ:

فقال في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة[٢]: «. . هذا وشيوخ التصوف المشهورون مِنْ أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كـ. . **وعمرو بن عثمان المكي**، . . وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية، ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[٣].

---

(١) الفتاوى (٢/ ١٣٠ ـ ١٣٣).

(٢) تقدم تفصيل الكلام في ذلك في مبحث خاص (١/ ٧١٥).

(٣) الدرء (٥/ ٤).

- وعدَّه شيخ الإسلام من الشيوخ الأكابر الذين كانوا على معتقَد أهل السنة والجماعة:

فقال: «.. والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السُّلَمي في (طبقات الصوفية)، وأبو القاسم القشيري في (الرسالة)، كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث، كـ.. **وعمرو بن عثمان المكي**، وكلامهم موجود في السنة، وصنَّفوا فيها الكتب»اهـ[١].

الغزالي: أبو حامد[٢]:

أبو حامد والفلاسفة:

- تأثرَ أبو حامد بالفلاسفة كثيراً، ومدحهم، واستشهد بأقوالهم في مواضع:

---

(١) الصفدية (١/ ٢٦٧).

(٢) **أبو حامد الغزالي الإمام المتكلم المشهور.**

اسمه ونسبه: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، المعروف بأبي حامد الغزالي. وحامد: اسم ولد له مات صغيراً، والغزّالي: بتشديد الزاي نسبة إلى غزل الصوف، وبتخفيفها نسبة إلى غزالة قرية بجانب طوس، ، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ، وكان أبوه يغزل الصوف ويبيعه بطوس، مات أبوه وهو صغير، وأوصى به وبأخيه إلى صديق له متصوف، فقام عليهما زمناً، ثم أدخلهما مدرسة يتعلمان فيها ويُقاتان.

طلبه للعلم ونبوغه: بدأ الغزالي يدرس الفقه على أحمد الراذكاني بطوس، ثم قدم نيسابور، ولازم أبا المعالي الجويني إلى أن توفي الجويني عام: ٤٧٨هـ، وكان قد ألف في أثناء دراسته على الجويني كتاب: المنخول في أصول الفقه، فلما رآه الجويني قال له: دفنتني وأنا حي، هلَّا صبرت حتى أموت؟ ثم خرج من نيسابور إلى المعسكر بالعراق، واتصل بالوزير نظام الملك وتولى التدريس بالنظامية، وذلك عام: ٤٨٤هـ، ولم يكن بعد تجاوز الرابعة والثلاثين من عمُرِه، ثم قدم بغداد ودرّس في مدرستها النظامية، وذاع صيتُه، ثم خرج من بغداد عام: ٤٨٨هـ. وقد بيّن الغزالي سبب خروجه منها بقوله: «.. ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من كل =

....

= الجوانب، ولاحظت عملي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة. . ، فلم أزل أتردد بين تجاذب الدنيا ودواعي الآخرة. . ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هارٍ. . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم رياء وتخييل»اهـ. المنقذ من الضلال (ص٤٦ ـ ٤٨).
وقال أبو بكر ابن العربي (العواصم من القواصم، ص١٩): رأيت الغزالي في البرية وبيده عكازة وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة، وقد كنت رأيته في بغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم، فدنوت منه، فسلمت وقلت له: يا إمام، تدريس العلم ببغداد خير من هذا! فنظر إليَّ شزراً، وقال: لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة (أو قال في سماء الإرادة) وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول:

تركت هوى ليلى وسُعدى بمنزل وعُدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بيَ الأشواق: مهلاً فهذه منازل من تهوى، رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً دقيقاً، فلم أجد لغزليَ نساجاً، فكسَّرت مغزلي

وفاته: ثم بعد عشرة أعوام قضاها الغزالي بين الحجاز ودمشق والإسكندرية، عاد إلى نيسابور عام: ٤٩٨هـ، ودرّس بالنظامية، ثم عاد في عام: ٥٠٣هـ، إلى طوس وسكنها، إلى أن توفي فيها سنة ٥٠٥هـ، واشتُهِر عند أهل العلم أنه ندم قبل وفاته على ما كان عليه من الفلسفة والكلام، ومات وصحيح البخاري على صدره. (الدرء ٦/ ٢١٠)، (سير الأعلام ١٩/ ٣٢٥).
ثقافة الغزالي: استوعب الغزالي أكثر المذاهب الفلسفية والكلامية، وحصّل منها أكثر مِما حصل من علوم الكتاب والسنة، وهو ضعيف في معرفة الحديث، فلا يُفرق عند الاستدلال بين الحديث الصحيح والضعيف، حتى قال عن نفسه: إن بضاعتي في الحديث مُزجاة.اهـ. (قانون التأويل ص١٦)، ولأجل ضعفه في علم الشريعة ظهر عنده الخلل، وكان إذا فسر القرآن فسره بمعانٍ فلسفية وتأويلات باطنية (كما في كتابه: مشكاة الأنوار)، وتأثر الغزالي =

....

= أيضاً بالفلسفة الأفلاطونية، وتأثر بإخوان الصفا، وبالفارابي وابن سينا وغيرهم.

تذبذب الغزالي واضطراب مذهبه: مرّ الغزالي بمرحلة شك وقلق عقدي، حتى إنه اعتزل الناس قريباً من عشر سنين (ما بين ٤٩٠ ـ ٤٩٩)، وبلغ هذا الاضطراب أَوْجه عندما استمرّ قريباً من شهرين لا يدري ما يعتقد!! وقد قال عن نفسه مبيناً ما أصابه: فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة.. حتى شفى الله تعالى ذلك المرض.اهـ (المنقذ من الضلال ص٢٩).

ويبدو أن من أكبر أسباب ذلك دخولَه في معضلات الفلاسفة وأغاليطهم وشبههم، وأشار الإمام الذهبي إلى ذلك بقوله: «وأدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام ومزالِّ الأقدام.. ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل، وحُبب إليه إدمان النظر في كتاب: رسائل إخوان الصفا، وهو داء عضال، ولولا أن الغزالي من كبار الأذكياء لتلِف»اهـ. (سير الأعلام ١٩/ ٣٢٣، ٣٢٨).

وقال أبو بكر ابن العربي: «شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع»اهـ (سير الأعلام ١٩/ ٣٢٧)، أما بقية حياته، فأغلبها كان فيها مُتقلّباً بين المذاهب بحثاً عن الحقيقة ـ حسب تعبيره ـ، وقد اعترف بذلك في كتابه: المنقذ من الضلال (ص٢٤) فقال: «ولم أزل في عنفوان شبابي، فقد راهقت البلوغ ـ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ـ أقتحم لُجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجَسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغّل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لِأُميّز بين محقّ ومُبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أُغادر باطنياً إلا وأُحب أن أطلع على بطانته.

ولا ظاهرياً إلا وأُريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كُنهِ فلسفته.

ولا مُتكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سِرّ صفوته. =

....

= ولا مُتعبّداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.
ولا زنديقاً مُعطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبّه لِأسباب جرأته في تعطيله وزندقته»اهـ.
ثم ذكر بعد ذلك أنه أصابته حالة نفسية جعلته يشك في كل شيء، ودامت أكثر من شهرين، وبعدها انحصرت عنده أصناف الطالبين في أربع فرق هي: أهل الكلام، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية. المنقذ من الضلال (ص٣٠).
من هذا الكلام يتضح لنا أمور عديدة عن أبي حامد الغزالي؛ منها:
١ ـ أنه عاش فترة طويلة من حياته في حيرة بين المذاهب يبحث عن الحقيقة.
٢ ـ أنه رغم رده على آراء المتكلمين والفلاسفة، إلا أنه تأثر تأثراً كبيراً بالفلسفة، ثم تبنى آراء الصوفية، ولذلك نجد كلامه مزيجاً ما بين الفلسفة والتصوف في عبارات شرعية.
٣ ـ الغزالي أشعري العقيدة، ومعرفته بالسنة ضعيفة، فأدى ذلك إلى بعده عن مذهب أهل الحديث والسلف وعدم اتباعه لهم.
تصوف الغزالي: بعد الاضطراب والحيرة التي وقع فيها الغزالي، رأى أن النجاة هي في التصوف، كما قال وهو يتحدث عن فترة اعتزاله وخلوته: وانكشف لي أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن سيرة، وطريقهم أصوب طريق، وأخلاقهم أزكى أخلاق.اهـ. المنقذ من الضلال (ص٦٢).
وقد تأثر الغزالي في تصوفه بمن سبقه من المتصوفة، على اختلاف مذاهبهم وطرقهم، فتأثر بأبي طالب المكي وبكتابه: قوت القلوب، حيث حذا حذوه في الإحياء، وتأثر بالقشيري، وبالجنيد، وبالحلاج، والمحاسبي وغيرهم.
مؤلفات الغزالي: خلّف الغزالي الكثير من المؤلفات، أوصلها الزركلي إلى نحو مائتي مصنف. الأعلام (٧/ ٢٢)، ولن أتكلم هنا عن كتب الغزالي تفصيلاً؛ لأن هذا ثَمَّ بيانه في المبحث السابق، ولكن سأتكلم كلاماً عاماً عن منهجه في التأليف؛ لأن هذا يبين لنا شخصيته رحمه الله.
وبنظرة عامة في مؤلفات الغزالي، يمكن أن نلحظ ما يلي: المتأمل في كتب الغزالي يجد أنها تأثرت بالاضطراب الذي غلب على كثير من حياته، فالغزالي =

= في كل مؤلفاته يبدو ثلاثيَّ الشخصية: متكلم وفيلسوف وصوفي، فقد ينحو منحى محدداً وينتصر له ثم ينقضه ويأتي بما يعارضه في مؤلف آخر، فمثلاً: ألّف كتاب: تهافت الفلاسفة سنة ٤٨٨هـ ،وذم فيه الفلاسفة، وبدَّعهم، بل كفَّرهم، ثم ألف بعده فيصل التفرقة سنة ٤٩٧هـ، وتسامح فيه معهم ولم يحكم بكفرهم. (انظر: الفلسفة الصوفية ص٢٣٨، الفيلسوف الغزالي ص٣٧).
قال ابن رشد: ولم يلزم الغزالي مذهباً من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشعرية أشعري، ومع الصوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف.اهـ. فصل المقال (ص٥٢).

وممن لحظ هذا الاضطراب والتناقض شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث قال في معرض تقويمه لكتب الغزالي: وبينه وبين ابن عقيل قدر مشترك من جهة تناقض المقالات في الصفات؛ فإنه قد يكفر في أحد المصنفات بالمقالة التي ينصرها في المصنف الآخر، وإذا صنف على طريقة طائفة غلب عليه مذهبها.اهـ. الفتاوى (٤/ ٦٥).

ولا يستغرب وجود هذا التلون والاضطراب عند كل من لم يلتزم بمنهج الكتاب والسنة في البحث والنظر مع تصحيح النية ومحاسبة النفس وترك محاباة الناس في دين الله.

يقول د. عبد الرحمن الوكيل: لا تعجب حين ترى الغزالي يجنح في دهاء إلى السلفية في بعض ما كتب، فللغزالي وجوه عدة كان يرائي بها صنوف الناس في عصره، فهو أشعري؛ لأن نظام الملك صاحب المدرسة النظامية أراده على ذلك، وهو عدو للفلسفة؛ لأن الجماهير على تلك العداوة، وهو متكلم ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاءَ غضب الحنابلة، أما هو في كتبه المضنون بها على غير أهلها فصوفي إشراقي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.اهـ. هذه هي الصوفية (ص٥٦ هامش ٢).

تأثير الغزالي في فكر أهل الحلول والاتحاد: بعدما تقدم من بيان حال الغزالي وتقلبه بين المذاهب واضطرابه في مصنفاته، هل قبل الغزالي التصوف بكل ما فيه من غلو وشطح إلى الحلول والاتحاد أم لا؟ أو بعبارة أدق: هل صرّح الغزالي بالقول بالحلول والاتحاد؟ الجواب: نعم، بل إن ابن عربي وابن سبعين وغيرهما قد تتلمذوا على كتبه وألفّوا نظيرها، **وقد بيّن شيخ الإسلام أن** =

....

= **ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما قد تأثروا بكلام أبي حامد وجرَّهم ذلك إلى القول بالحلول والاتحاد**، فقال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن أبي حامد وإنكار العلماء عليه دخوله في الفلسفة:

«.. ولهذا لما سلك خلفه ابن عربي وابن سبعين، كان ابن سبعين في كتاب «اليد» وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب في كلام أبي حامد،.. وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في «ميزان العمل»، وهو أن الفاضل له ثلاثَ عقائد: عقيدة مع العوام..، وعقيدة مع الطلبة..، والثالثة لا يطلع عليها أحد إلا الخواص، ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها» وهي فلسفة محضة. اهـ النبوات (ص١٤٣).

وقال في معرض كلامه عن كتاب الغزالي «مشكاة الأنوار»: «وهذا الكتاب كالعنصر لمذهب الاتحادية القائلين وحدة الوجود»اهـ. الدرء (١٠/ ٢٨٣).

وسأذكر هنا بعض النماذج من كلام الغزالي التي تبيّن بوضوح تصريحه بعقيدة الحلول والاتحاد: تكلم عن مراتب التوحيد وجعلها أربعاً، ثم جعل أعلاها مرتبة لب اللب وبيّنها بقوله: «أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، ويعلم أن الموجود بالحقيقة واحد وإنما الكثرة في حق من تفرق نظره،.. والفناء في التوحيد إنما يقع في هذا»اهـ. الأربعين في أصول الدين (ص١٨١).

وقسّم النظر في مسائل التوحيد إلى نظرين، فقال في النظر الأول: «نظر بعين التوحيد المحض، وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور، وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره». الإحياء (٤/ ٩١).

ثم قسّم التوحيد أربعَ مراتب، وذكر ثلاث مراتب ثم قال: «الرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدِّيقين وتسميه الصوفية الفناء؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً لا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً في التوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده»، ثم فصّل أحوال هذه المراتب الأربع، ثم قال: «والرابع: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد.. فإن قلت: كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ =

....

= فاعلم أن هذا هو غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يمكن أن تسطَّر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر»، ثم استشهد الغزالي على كلامه بمقالة من مقالات الحسين بن منصور الحلاج مقرراً بها ما ذكر!!. الإحياء (٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

وقال الغزالي في موضع آخر: «فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك، وفنيت ببقائه عن فنائك، وخلع عليك خلعة (فبي يسمع وبي يبصر) فيكون هو واليك ومتوليك. . **فهنالك تذهب الاثنينية** وتستحيل البينية، فإن رسخ قدمك وتأكد حال سكرك قلت: هو ـ أي هو الله ـ وإن غلب عليك وجدك وتجاوز بك حدك عن حد الثبوت قلت: أنت ـ أي أنت هو ـ!!».اهـ. روضة الطالبين (ص١٧).

وقال: «العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة **اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق**. . وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة، **فلم يبق عندهم إلا الله**، فقال بعضهم: أنا الحق، وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شأني، وقال الآخر: ما في الجبة إلا الله. . فلما خفَّ عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقةَ الاتحاد بل يشبه الاتحاد. . وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز: اتحاداً، وبلسان الحقيقة: توحيداً، ووراء هذه الحقائق أسرار لا يجوز الخوض فيها»اهـ. روضة الطالبين (ص١٢٢).

وقال في معرض كلامه عن قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]: «ومنتهى معراج الخلائق إليه مملكة الفردانية. . وإذا ارتفعت الكرة حققت الوحدة وبطلت الإضافة، وطاحت الإشارة، فلم يبق علو ولا سفل، ولا نازل ولا مرتفع، فاستحال الترقي واستحال العروج، فليس وراء الأعلى عُلُوٌّ، ولا مع الوحدة كثرة، ولا مع انتفاء الكثرة عروج. . فهذا غاية الغايات ومنتهى الطلبات»اهـ. مشكاة الأنوار (ص١٤).

وأختم هذه النماذج بذكر طرف من قصيدته التائية التي غرس بها بذرة الحلول والاتحاد، فجناها من بعده ابن عربي وشيعته، قال الغزالي مخاطباً ربه:

وهل أنا إلا أنت ذاتاً ووحدة ... وهل أنت إلا نفس عين هويتي
ملأت جهاتي الست منك فأنت لي ... محيط وأيضاً أنت مركز نقطتي
فصرت إذا وجهت وجهي مصلياً ... فرائض أوقاتي فنفسي كعبتي =

= فصار صيامي لي ونسكي وطاعتي ... ونحري وتعريفي وحجي وعمرتي
وحولي طوافي واجب وخلاله اسـ ... تلامي لركني من مناسك حجتي
وذكري وتسبيحي وحمدي وقربتي ... لنفسي وتقديسي وصفو سريرتي
ولو همّ مني خاطر بالتفاتة ... لما كان لي إلا إليَّ تلفُّتي

معارج القدس في مدارج معرفة النفس (ص٢٣١).
وهذه القصيدة أبْيَن ما يكون لمعنى الحلول والاتحاد ـ عياذاً بالله ـ اللهم غوثاً غوثاً.
وبعد: فالغزالي أفضى إلى ما قدم، وقد شاع عند أهل العلم أنه تاب قبل موته ـ كما مر قبل قليل ـ فنسأل الله المغفرة والرحمة لعموم المسلمين.
وللعلامة الشيخ عبد القادر سندي كلمات حسنة يجمل أن نختم بها هذا البحث، قال ـ عفا الله عنه ـ: «إلى دار الخلد يا غزالي بعد أن أغرقت الملايين الملايين من أهل الإسلام في الفلسفة المادية الطاغية، والتصوف الممقوت المخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة، إلا أن رحمة الله أدركتك في آخر لحظة من حياتك، فعليك رحمة الله تعالى وغفرانه إن صح فيك رجوعك»اهـ. التصوف في ميزان البحث والتحقيق (ص٣٢٦).
انظر: الفيلسوف الغزالي إعادة تقييم لمنحاه الروحي د. عبد الأمير الأعسم (ص٧)، سير الأعلام (١٩/ ٣٢٣ وما بعدها)، الفلسفة الصوفية في الإسلام ومصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة، د. عبد القادر محمود (٢٠٢، ٢٠٧، ٢٣٢، ٢٣٨، ٢٨٩)، هذه هي الصوفية د. عبد الرحمن الوكيل (ص٥٦)، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، لابن رشد (ص٥٢)، الأخلاق عند الغزالي، د. زكي مبارك (ص١٠١، ٣٧٩)، مقدمة كتاب بغية المرتاد لشيخ الإسلام، والمقدمة لمحققه د. موسى الدويش (ص١٠٦ ـ ١١٠)، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي لمحمد بن أحمد لوح (١/ ٤٩٤ ـ ٥١٩)، طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ١٩١)، البداية والنهاية (١٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٢٩١ ـ ٢٩٢)، سير الأعلام (١٩/ ٣٢٢)، أبو حامد الغزالي والتصوف (لعبد الرحمن دمشقية ص٢٧ ـ ٣٣). مقال: «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» د. يوسف القرضاوي ضمن حولية كلية الشريعة بجامعة قطر، ص٢٢، العدد الخامس، سنة ١٤٠٧هـ.

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفلاسفة وضلالهم: «.. وتجد أبا حامد الغزالي مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك، مع الزهد والعبادة، وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية، أكثر من أولئك، يذكر في كتاب (الأربعين)، ونحوه كتابه: (المضنون به على غير أهله)، فإذا طلبت ذلك الكتاب، واعتقدت فيه أسرار الحقائق، وغاية المطالب، وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم، ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد، ومقالات أهل الملل، يعتقد أن ذاك هو السر الذي كان بين النبي ﷺ وأبي بكر[١]، وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون، الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي.

فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل في كتبه على ذلك النور الإلهي، وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعباد برياضتهم وديانتهم، من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزِنوا بذلك ما ورد به الشرع.

وسبب ذلك: أنه كان قد علم بذكائه وصدق طلبه، ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب، وآتاه الله إيماناً مجملاً ـ كما أخبر به عن نفسه ـ وصار يتشوَّف إلى تفصيل الجملة، فيجد في كلام المشايخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق، وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين، والأمر كما وجده لكن لم يبلغه من الميراث النبوي الذي عند خاصة الأمة، من العلوم والأحوال وما وصل إليه السابقون الأولون، من العلم والعبادة، حتى نالوا من المكاشفات العلمية، والمعاملات العبادية، ما لم ينله أولئك.

فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق،

---

(١) يعني بالسر ما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تكلم النبي ﷺ وأبو بكر وكنت كالزنجي بينهما»، وسيأتي ذكر هذا الأثر وتخريجه (ص٥٢٠).

حيث لم يكن عنده طريق غيرها، لانسداد الطريقة الخاصة السنية النبوية عنه، بما كان عنده من قلة العلم بها، ومن الشبهات التي تقلَّدها عن المتفلسفة والمتكلمين، حتى حالوا بها بينه وبين تلك الطريقة.

ولهذا كان كثيرَ الذم لهذه الحوائل، ولطريقة العلم، وإنما ذاك لعلمه الذي سلكه، والذي حجب به عن حقيقة المتابعة للرسالة، وليس هو بعلم، وإنما هو عقائدُ فلسفية وكلامية، كما قال السلف: العلم بالكلام هو الجهل(١)، وكما قال أبو يوسف(٢): من طلب العلم بالكلام تزندق(٣).

ولهذا صار طائفة ممن يرى فضيلته وديانته، يدفعون وجود هذه الكتب عنه، حتى كان الفقيه أبو محمد بن عبد السلام، فيما علَّقه عنه،

---

(١) هذه المقولة تروى عن أبي يوسف القاضي، كما سيأتي في الحاشية التالية لهذه.

(٢) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي، أبو يوسف القاضي، صاحب أبي حنيفة، هو أول من نشر علم أبي حنيفة، روي عنه أنه قال عند وفاته: كل ما أفتيت به، فقد رجعت عنه إلا ما وافق الكتاب والسنة، من مصنفاته: أدب القاضي على مذهب أبي حنيفة، أمالي الإمام، توفي سنة ١٨٢هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٢٩٢)، سير الأعلام (٨/ ٤٧٠)، شذرات الذهب (١/ ٢٩٨)، وفيات الأعيان (٦/ ٣٧٨)، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لأبي الوفاء القرشي (٣/ ٦١١).

(٣) ذكر هاتين العبارتين ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٦٩) وشرح المراد بهما، فقال: «عن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسي: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديق، أو رمي بالزندقة. أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته، فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعراض عنه أو ترك الالتفات إلى اعتباره. فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علماً بهذا الاعتبار. والله أعلم، وعنه أيضاً أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب»اهـ.

ينكر أن يكون (بداية الهداية) من تصنيفه، ويقول: إنما هو تقوُّل عليه[1]، مع أن هذه الكتب مقبولها أضعاف مردودها، والمردود منها أمور مجملة، وليس فيها عقائد ولا أصول الدين.

وأما المضنون به على غير أهله:

فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه، وأما أهل الخبرة به وبحاله، فيعلمون أن هذا كله كلامه، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضاً، ولكن كان هو وأمثاله ـ كما قدمت ـ مضطربين لا يَثْبُتون على قول ثابت؛ لأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوفون به إلى طريقة خاصة الخلق، ولم يُقَدّر لهم سلوك طريق خاصة هذه الأمة الذين ورثوا عن الرسول ﷺ العلم والإيمان وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن ـ كما قدمناه ـ وأهل الفهم لكتاب الله، والعلم والفهم لحديث رسول الله ﷺ وأتباع هذا العلم بالأحوال والأعمال المناسبة لذلك كما جاءت به الرسالة.

ولهذا كان الشيخ أبو عمرو بن الصلاح يقول ـ فيما رأيته بخطه ـ: أبو حامد كثُر القول فيه ومنه، فأما هذه الكتب ـ يعني المخالفة للحق ـ فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه ويفوض أمره إلى الله.

ومقصوده: أنه لا يُذكَر بسوء؛ لأن عفو الله عن الناسي والمخطئ وتوبة المذنب تأتي على كل ذنب، وذلك من أقرب الأشياء إلى هذا وأمثاله، ولأن مغفرة الله بالحسنات منه ومن غيره، وتكفيره الذنوب

---

(١) ذكر عبد الكريم عثمان صاحب كتاب: سيرة الغزالي، أنه قام بحصر ودراسة كتب أبي حامد الغزالي، وتبيّن له أن هذا الكتاب من تأليفه، وعبد الكريم عثمان نقل توثيق أكثر هذه الكتب من كتاب: بويج.. chrono Logie Essai de.
انظر: سيرة الغزالي ـ لعبد الكريم عثمان، أبو حامد الغزالي والتصوف ـ لعبد الرحمن دمشقية (ص٣٥).

بالمصائب، تأتي على محقق الذنوب، فلا يقدم الإنسان على انتفاء ذلك في حق معين إلا ببصيرة، لا سيما مع كثرة الإحسان والعلم الصحيح، والعمل الصالح، والقصد الحسن، وهو يميل إلى الفلسفة، لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية.

ولهذا فقد رد عليه علماء المسلمين حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربي[1]، فإنه قال: شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر.

وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك في كتبه، ورد عليه أبو عبد الله المازري في كتاب أفرده[2]، ورد عليه أبو بكر الطرطوشي، ورد عليه أبو الحسن المرغيناني رفيقه رد عليه كلامه في مشكاة الأنوار ونحوه، ورد عليه الشيخ أبو البيان، والشيخ أبو عمرو ابن الصلاح، وحذّر من كلامه في ذلك هو وأبو زكريا النواوي[3] وغيرهما،

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري، أبو بكر، القاضي الإشبيلي المالكي، من كبار أئمة المالكية، رحل إلى المشرق، ودرس على الغزالي، وتولى قضاء إشبيلية، ولد سنة ٤٨٦هـ، وتوفي سنة ٥٤٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٢٣)، الأعلام (٧/ ١٠٦)، نفح الطيب (٢/ ٤١٥ - ٤١٦).

(٢) يعني كتاب المازري الذي سماه: الكشف والإنباء في الرد على الإحياء للغزالي.
انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤١٣)، الأعلام (٧/ ١٦٤).

(٣) هو يحيى بن شرف، محيي الدين أبو زكريا النواوي، العالم العَلم المشهور، ولد سنة ٦٣١هـ في بلدة نوى إحدى قرى دمشق، تفقه أول أمره على مذهب الشافعي وألّف فيه، ثم ألّف في الفقه معتمداً على أدلة الكتاب والسنة، من تصانيفه: روضة الطالبين في الفقه، وشرح صحيح مسلم، وشرح قطعة من البخاري، والكتاب المبارك الذي سماه: رياض الصالحين، وغيرها، توفي في بلده نوى سنة ٦٧٦هـ وله من العمر ٤٧ سنة. =

وردّ عليه ابن عقيل[(١)] وابن الجوزي وأبو محمد المقدسي[(٢)] وغيرهم. . »اهـ[(٣)].

- إظهار أبي حامد الفلسفة في قالب التصوف:

قال شيخ الإسلام: «.. وأبو حامد يميل إلى الفلسفة، لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية، ولهذا ردَّ عليه علماء المسلمين، حتى أخص أصحابه: أبو بكر بن العربي، فإنه قال: شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدِر، وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجِد تصديق ذلك في كتبه، وردَّ عليه العلماء المذكورون قبل»اهـ[(٤)].

- أبو حامد يوافق الفلاسفة في أكثر آرائهم، بل كثير من كلام الغزالي هو من كلام الفلاسفة، وأكثر تأثره هو بكلام ابن سينا، وغيره:

كما بيّن ذلك شيخ الإسلام بقوله رحمه الله: «. . والغزالي في كلامه

= انظر: المعين في طبقات المحدثين للذهبي (ص٢١٥)، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٠/ ترجمة: ١١٦٢)، شذرات الذهب (٥/ ٣٥٤).

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي، أبو الوفاء، الفقيه الحنبلي الأصولي المتكلم، عالم العراق، وشيخ الحنابلة في وقته، في كلامه ميل إلى كلام المعتزلة وتأويل لبعض الصفات، قال شيخ الإسلام عنه: «وكان الأشعري أقرب إلى مذهب أحمد وأهل السنة من كثير من المتأخرين المنتسبين إلى أحمد الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة كابن عقيل. . »اهـ، له كتاب الفنون أزيد من أربعمائة مجلد، طبع منه جزءان، توفي سنة ٥١٣هـ.
انظر: سير الأعلام (١٩/ ٤٤٣)، البداية والنهاية (١٢/ ١٨٤)، شذرات الذهب (٤/ ٣٥)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧٠، ٧/ ٢٦٣، ٨/ ٦٠).

(٢) موفق الدين أبو محمد بن قدامة المقدسي، تقدمت ترجمته، انظر (١/ ٣٧٦).

(٣) الفتاوى (٤/ ٦٣ ـ ٦٧).

(٤) الفتاوى (٤/ ١٦١ ـ ١٦٤).

مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في (الشفا)[١] وغيره، و(رسائل إخوان الصفا)، وكلام أبي حيان التوحيدي، وأما المادة المعتزلية في كلامه، فقليلة أو معدومة»اهـ[٢].

ـ من أسباب ضلال أبي حامد بكلام الفلاسفة ما قرأه من كلام ابن سينا:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الفلاسفة: «.. ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبياء حيارى متهوّكون، فإنه بهرهم نور النبوة، ولم تقع على أصولهم الفاسدة، فصاروا على أنحاء: منهم من لا يؤمن بكثير مِما تقوله الأنبياء والمرسلون، بل يُعرض عنه أو يشك فيه أو يكذب به،.. وأمثلهم من يقول: بل هذه تخيُّلات وأمثلة مضروبة لتقريب الحقائق إلى قلوب العامة، وهذه طريقة الفارابي وابن سينا،.. حتى قال ابن سينا: اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس،.. وقد ضلّ بكلامه كثيرٌ من المشهورين مثل أبي حامد الغزالي ذكر هذا المعنى في بعض كتبه، وصنفوا (رسائل إخوان الصفا) وغيرها»اهـ[٣].

ـ إلا أن الفلاسفة استطالوا على أبي حامد لموافقته لهم في أصولهم:

قال شيخ الإسلام في معرض ذكره لمذهب الفلاسفة في الصفات: «والمقصود هنا التنبيه على جوامعَ قدح كل طائفة في طريق الطائفة الأخرى،.. ففحول أهل الكلام كـ.. وأبي حامد الغزالي وغيرهم، يُبطلون طرق الفلاسفة التي بنَوْا عليها النفي،.. وإن كان أبو حامد قد

---

(١) كتاب الشفا لابن سينا جمع فيه علوم الفلاسفة السبعة، وهو مطبوع. انظر: أبجد العلوم (١/ ٥٢٧).

(٢) الفتاوى (٦/ ٥٤).

(٣) الفتاوى (١٢/ ٢٢ ـ ٢٣).

يُوجَدُ في كلامه ما يوافقهم عليه تارة أخرى، وبهذا تسلّط عليه طوائفُ من علماء الإسلام، ومن الفلاسفة أيضاً، كابن رشد وغيره، حتى أنشد فيه:

يوماً يمانٍ إذا ما جئت ذا يمنٍ وإن لقيتَ معدِّياً فعدنانِ[(١)]

فالاعتبار من كلامه وكلام غيره بما يقوم عليه الدليل..»اهـ[(٢)].

- ونقل شيخ الإسلام إنكار كثير من العلماء على أبي حامد تعلُّقه بالفلسفة وتأثره بها:

قال شيخ الإسلام: «وأبو نصر القشيري[(٣)] وغيره ذموه على الفلسفة، وأنشدوا فيه أبياتاً معروفة، يقولون فيها:

برئنا إلى الله من معشر بهم مرض من كتاب الشفا[(٤)]

وكم قلت يا قوم أنتم على شفا حفرة ما لها من شفا

فلمَّا استهانوا بتعريفنا رجعنا إلى الله حتى كفا

---

(١) البيت لعمران بن حطان الخارجي، ضمن قصيدة وجهها لِرَوْح بن زنباع لما كان مختفياً عنده، فذكره رَوحٌ للخليفة عبد الملك بن مروان، فطلب الخليفة لقاءه، فهرب عمران، ومطلع القصيدة:

يا روح كم من كريم قد نزلت به قد ظن ظنك من لخم وغسان

حتى إذا خفته فارقت منزله من بعد ما قيل عمران بن حطان

إلى أن قال:

فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له في الحادثات هنات ذات ألوان

فإن لقيت يمانياً فمن يمن وإن لقيت معدياً فعدنان

انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣/ ٤٩٤).

(٢) الدرء (٤/ ٢٧٩، ٢٨١ ـ ٢٨٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (٤/ ١٥٧، ١٦٩)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٣٦)، المنهاج (١/ ٣٥٥)، النبوات (ص١٤٢).

(٣) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوزان، أبو نصر القشيري.

(٤) يعني كتاب الشفاء لِابن سينا.

فماتوا على دين رسطالس وعشنا على سنة المصطفى[(١)]

ولهذا كانوا يقولون: أبو حامد أمرضه الشفاء، وكذلك الطرطوسي[(٢)]، والمازري[(٣)]، وابن عقيل، وأبو البيان، وابن حمدين[(٤)]، ورفيق أبي حامد أبو نصر المرغيناني[(٥)]، وأمثال هؤلاء لهم كلام كثير في

---

(١) المقصود بـ: رسطالس هو الفيلسوف اليوناني إرسطو، تقدمت ترجمته.
أما الأبيات فناظمها هو زين الدين عبد الكافي بن علي السبكي، ذكرها ابن حجر في الدرر الكامنة (٢/ ٣٩٧) ذكر بيتين منها.

(٢) كذا في كتاب النبوات: الطرطوسي، بالسين المهملة، والأصح: الطرطوشي، بالشين المعجمة وهو ما في الصفدية (١/ ٢١١).
والطرطوشي هو: أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي، من فقهاء المالكية، ومن الأدباء، ولد بطرطوشة في شرق الأندلس سنة ٤٥١هـ تقريباً، وتوفي سنة ٥٢٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٥)، الأعلام (٧/ ٣٥٩).

(٣) هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، أبو عبد الله، مُحدث، ومن فقهاء المالكية، يُنسب إلى مازر بجزيرة صقلية، ولد سنة ٤٥٣هـ، وتوفي سنة ٥٣٦هـ، وهو صاحب كتاب: الكشف والإنباء في الرد على الإحياء للغزالي.
انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤١٣)، الأعلام (٧/ ١٦٤).

(٤) ابن حمدين: ذكر شيخ الإسلام اسمه كاملاً في الصفدية (١/ ٢٥٠) فقال: أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي، ولم أعثر على ترجمته.

(٥) أبو نصر المرغيناني: لم أقف على ترجمة لرجل بهذا الاسم، لكني وقفت في تكملة الإكمال لابن نقطة، على رجل اسمه: عبد العزيز بن عبد الرزاق بن أبي نصر بن جعفر بن سليمان بن متكان المرغيناني، توفي سنة ٤٧٧هـ.
وقد ذكر شيخ الإسلام أن المرغيناني هذا ـ الذي يعنيه ـ رفيق للغزالي، ويبعد أن يكون الرجل الذي أوردته رفيقاً للغزالي، إلا أن ذلك غير مستحيل، إذ إن الغزالي نبغ في العلم صغيراً، وبدأ في التأليف عام ٤٦٥هـ وعمره لم يتجاوز ١٥ سنة، فلعل المرغيناني رافق الغزالي في أواخر عمره وبداية نبوغ الغزالي، والله تعالى أعلم بالصواب.
انظر: تكملة الإكمال ـ لمحمد بن عبد الغني البغدادي المشهور بابن نقطة =

ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة، ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير»اهـ[١].

ـ ومما يُبَين تأثره بالفلاسفة: أن قوله في الشفاعة هو قول الفلاسفة، قال شيخ الإسلام: «.. وهؤلاء زعموا أن الشفاعة إنما هي بأن يتوجه الإنسان إلى روح مفارق عليه من ذلك الروح، وذلك الروح قد فاض عليه الأمر من الرب، وشبّهوا ذلك بشعاع الشمس إذا وقع على مرآة، ثم وقع شعاع المرآة على المرآة على غيره، وقد ذكر هذا المعنى ابن سينا والغزالي في المضنون به على غير أهله[٢]، وغيرهما مِمن بنى أصله على هذا الأصل الفاسد، إذ كانوا لا يرون أن الله يسمع كلام عباده، ولا يعلم ما في نفوسهم، ولا يقدر أن يغير شيئاً من العالم، ولا له مشيئة يفعل بها ما يشاء، فأثبتوا الشفاعة على هذا الوجه، وهذا شرٌّ من الشفاعة التي يثبتها مشركو العرب والنصارى والمبتدعون من المسلمين ونحوهم»اهـ[٣].

ـ وكذلك وافق أبو حامد الفلاسفةَ في مسألة الرؤية:

قال شيخ الإسلام: «وأبو حامد يذكر في كتبه هو وأمثاله الرؤية، وأنها أفضل أنواع النعيم، ويذكر كشف الحجب، وأنهم يرون وجه الله، وهذا كله يريد به ما تقوله الجهمية والفلاسفة، فإن الرؤية عندهم ليست إلا العلم، لكن كما أن الإنسان قد يرى الشيء بعينيه، وقد يُمثل له خياله إذا غاب عنه فهكذا العلم، ففي الدنيا ليس عندهم من العلم إلا مثال

= (١/ ٤٨٠)، أبو حامد الغزالي والتصوف، لعبد الرحمن دمشقية (ص٣٥).

(١) النبوات (ص١٤٢ ـ ١٤٣)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الصفدية (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٢).

(٢) تقدم التعريف بالكتاب، وبيان موقف الشيخ في المبحث السابق (ص٣٧٣).

(٣) الصفدية (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

كالخيال في الحساب، وفي الآخرة يعلمونه بلا مثال..»اهـ[(١)].

ـ ووافق أبو حامد الفلاسفةَ في اعتقادهم في الملائكة:

قال شيخ الإسلام: «وصاحب (الكتب المضنون بها) قد جعل الملائكة والنبيين وسائطَ، وجعل هذه شفاعتهم موافقة للفلاسفة، كما تقدَّم من أن هذا القول شرّ من قول مشركي العرب»اهـ[(٢)].

ـ أبو حامد أدخل المنطق الفلسفي على المسلمين:

قال شيخ الإسلام: «وما زال نُظار المسلمين يعيبون طريق أهل المنطق، ويُبينون ما فيها من العِيّ واللكنة، وقصور العقل وعجز النطق،.. وإنما كثُر استعمالها من زمن أبي حامد، فإنه أدخل مقدمة من المنطق اليوناني في أول كتابه المستصفى[(٣)]، وزعم أنه لا يوثَق بعلمه إلا مَن عرف هذا المنطق»اهـ[(٤)].

ـ إلا أن أبا حامد تبرّأ من الفلاسفة وذمَّهم، وردَّ عليهم بعد أن عرف حقيقة طريقهم وضلال مذهبهم:

---

(١) الفتاوى (١٤/ ١٦٣).

(٢) الرد على المنطقيين (ص٥٤٤)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في المصدر نفسه (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

(٣) قال الغزالي في كتابه: المستصفى في أصول الفقه: «فإذا الكلام هو المتكفل بإثبات مبادىء العلوم الدينية كلها، فهي جزئية بالإضافة إلى الكلام، فالكلام هو العلم الأعلى في الرتب؛ إذ منه النزول إلى هذه الجزئيات. فإن قيل: فليكن من شرط الأصولي والفقيه والمفسر والمحدث، أن يكون قد حصّل علم الكلام، لأنه قبل الفراغ من الكلي الأعلى كيف يمكنه النزول إلى الجزئي الأسفل؟ قلنا: ليس ذلك شرطاً في كونه أصولياً وفقيهاً ومفسراً ومحدّثاً، وإن كان ذلك شرطاً في كونه عالماً مطلقاً، مليئاً بالعلوم الدينية»اهـ. المستصفى في أصول الفقه لأبي حامد الغزالي (١١٥).

(٤) الفتاوى (٩/ ١٨٤).

قال شيخ الإسلام بعد كلامه عن تأثر أبي حامد بالفلاسفة: «وكان أولاً يذكر في كتبه كثيراً من كلامهم: إما بعباراتهم، وإما بعبارة أخرى، ثم في آخر عمره بالغ في ذمهم، وبين أن طريقهم متضمِّنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمِّها، وفسادها أعظم من طريق المتكلمين، ومات وهو مشتغل بصحيح البخاري ومسلم، والمنطقُ الذي كان يقول فيه ما يقول ما حصَّل له مقصوده، ولا أزال عنه ما كان فيه من الشك والحيرة، ولم يُغنِ عنه المنطق شيئاً»اهـ[1].

- **لذلك كان شيخ الإسلام إذا ناقش الفلاسفة، أورد ردَّ أبي حامد عليهم، وأثنى على هذا الرد:** كما قال بعد نقله كلاماً لِأبي حامد من كتابه: (تهافت الفلاسفة): «.. قلت: ما ذكره أبو حامد مستقيم مبطل لقول الفلاسفة»اهـ[2].

- **وقال الشيخ في معرض ردِّه على الفلاسفة والباطنية:** «وقد صنف المسلمون في كشف أسرارهم وهتك أستارهم كتباً كباراً وصغاراً، وجاهدوهم باليد واللسان، إذ كانوا أحقَّ بذلك من اليهود والنصارى، ولو لم يكن إلا كتاب.. وكتاب أبي حامد الغزالي[3]»اهـ[4].

- **إلا أن ردَّ أبي حامد على الفلاسفة لا يخلو من انتقاد، فهو لا يتبع منهج السلف في الرد والنقاش وإنما يتبع مناهجَ شتى:**

---

(١) الفتاوى (٩/ ١٨٥). (٢) الدرء (٣/ ٤٠٢).

(٣) يعني كتاب الغزالي الذي ألفه في الرد على الباطنية، وهو: «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية»، أو «المستظهري»، أهداه إلى الخليفة المستظهر العباسي، نشر منه: جولدزيهر قسماً كبيراً، في ليدن سنة ١٩١٦م، أفاده يوسف إليان سركيس في: معجم المطبوعات، ط. مصر سنة ١٣٤٦هـ.(عن حاشية كتاب الرد على المنطقيين، ط. إدارة ترجمان السنة، باكستان ١٣٩٦هـ)، ثم حققه كاملاً د. عبد الرحمن بدوي، وطبع في مصر.

(٤) الرد على المنطقيين (ص١٤٢)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الدرء (٣/ ٤٠٢)، المنهاج (٢/ ١٦٥).

وقد بيّن ذلك شيخ الإسلام بقوله: «.. ولهذا تجد أبا حامد في مناظرته للفلاسفة، إنما يبطل طرقهم ولا يثبت طريقة معينة، بل هو كما قال: نناظرهم ـ يعني مع كلام الأشعري ـ تارة بكلام المعتزلة، وتارة بكلام الكرامية، وتارة بطريق الواقفة(١)، وهذه هي الغالب عليه في منتهى كلامه»اهـ(٢).

ـ وأبو حامد لا يعرف من كلام الفلاسفة إلا ما ذكره ابن سينا:

قال شيخ الإسلام: «.. ولكن كثير من هؤلاء المتأخرين لا يعرفون من مذاهب الفلاسفة إلا ما ذكره ابن سينا، كأبي حامد الغزالي..»اهـ(٣).

سبب الانحراف عند أبي حامد:

ـ إنما وقع الخطأ في بعض كلام أبي حامد من قِلة علمه بالكتاب والسنة والآثار:

قال شيخ الإسلام في معرض ذمّه لِعلم الكلام: «.. وأبو حامد ليس له خبرة بالآثار النبوية والسلفية ما لِأهل المعرفة بذلك، الذين يُميزون بين صحيحه وسقيمه، ولهذا يذكر في كتبه من الأحاديث والآثار الموضوعة والمكذوبة، ما لو علِم أنها موضوعة لم يذكرها»اهـ(٤).

---

(١) قال أبو حامد الغزالي في معرض كلامه عن منهجه في الرد على الفلاسفة: «فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطوراً مذهب الواقفية، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص»اهـ.(تهافت الفلاسفة ص٦٨ ـ ٦٩، ت: سليمان دنيا).

(٢) الدرء (١/ ١٦٣).

(٣) الدرء (٣/ ٦٦)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: المنهاج (٨/ ٢٤).

(٤) الدرء (٧/ ١٤٩)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٧/ ١٢٠ ـ ١٢٢)، وقد اعترف أبو حامد بقلة معرفته بالحديث والآثار، فقال في كتابه: قانون التأويل ص١٣٢: «أنا مُزجى البضاعة في الحديث»اهـ.

- أبو حامد قليل المعرفة بأقوال الإمام أحمد وغيره من السلف:

قال شيخ الإسلام: «وأبو حامد في (الإحياء) ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة، وقال: إنهم أسرفوا في التأويل، وأسرفت الحنابلة في الجمود، وذكر عن أحمد كلاماً لم يقلْه أحمد، **فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحمد، ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب، ولا ما جاء في القرآن والحديث**»اهـ[1].

- قول أبي حامد في طريق اكتساب المعرفة مخالف لأهل السنة، إذ قال: إن الحق لا يُعرف عن طريق السمع وإنما هو نور يُقذف في القلب، ثم يُنظَر في السمع:

قال شيخ الإسلام: «وأبو حامد الغزالي لما ذكر في كتابه طرق الناس في التأويل، وأن الفلاسفة زادوا فيه حتى انحلّوا، وأن الحق بين جمود الحنابلة وبين انحلال الفلاسفة، وأن ذلك لا يُعرف من جهة السمع، بل تعرِف الحق بنور يُقذف في قلبك، ثم يُنظَر السمع، فما وافق ذلك قبلته وإلا فلا..»اهـ[2].

- أبو حامد ينصر مذهب السلف تارة ومذهب المتكلمين تارة أخرى:

قال شيخ الإسلام: «.. بل أئمة المتكلمين يثبتون الصفات الخَبَرِية في الجملة، وإن كان لهم فيها طرق،.. وأما متكلمة أهل الإثبات من الكلابية، والكرامية، والأشعرية، مع الفقهاء والصوفية، وأهل الحديث: فهؤلاء في الجملة لا يطعنون في السلف، بل قد يوافقونهم في أكثر جُمَل

---

(١) الفتاوى (١٧/ ٣٦٢)، وانظر هذا الكلام - بمعناه - في: شرح حديث النزول (ص٢٠٣).

(٢) الفتاوى (١٩/ ١٥٧).

مقالاتهم،.. وأيضاً فقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة، وأقوال المتكلمين تارة، كما يفعله غير واحد، مثل.. أبي حامد الغزالي، ولازم المذهب الذي ينصرونه تارة أنه هو المعتمد، فلا يثبتون على دين واحد، وتغلب عليهم الشكوك، وهذا[1] عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة»اهـ[2].

ـ **وقال شيخ الإسلام في موضع آخر في معرض كلامه عن الصفات**: «.. كثير من الخائضين في هذا الباب من أنواع الناس **يثبتون تارة، وينفون أخرى في مواضعَ كثيرةٍ من الصفات، كما هو حال** أبي الوفاء بن عقيل، **وأبي حامد الغزالي**»اهـ[3].

ـ **وقال الشيخ**: «والغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة،.. وأما المادة المعتزلية في كلامه فقليلة أو معدومة، كما أن المادة الفلسفية في كلام ابن عقيل قليلة أو معدومة،.. وبينه وبين ابن عقيل قدر مشترك من جهة تناقض المقالات في الصفات، فإنه قد يكفر في أحد الصفات بالمقالة التي ينصرها في المصنف الآخر، وإذا صنَّف على طريقة طائفة غلب عليه مذهبها»اهـ[4].

ـ أبو حامد مكث شهرين حائراً لا يدري ما يعتقد؟:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الصوفية وانحراف فريق منهم عن السبيل الصحيح: «.. بل أبو حامد لمَّا ذكر في (المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال)، أحواله في طرق العلم، وأحوال العالم، وذكر أن أول ما عرض له ما يعترض طريقهم ـ وهو السفسطة بشُبَهِها المعروفة ـ وذكر أنه أعضل به هذا الداء قريباً من شهرين، هو فيهما على

(١) كذا في المطبوع، ولعلّ الأصوب: هذه.
(٢) الفتاوى (٤/١٤٧، ١٥٦ ـ ١٥٧). (٣) الفتاوى (٤/١٦٩).
(٤) الفتاوى (٦/٥٤ ـ ٥٥).

مذهب السفسطة، بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال، حتى شفى الله عنه هذا المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولةً موثوقاً بها، على أمنٍ وتبيُّنٍ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بلا بنور قذفه الله في الصدور، وذلك النور هو مفتاح أكبر المعارف»اهـ[(١)].

سعة معرفة شيخ الإسلام بآراء أبي حامد:

ـ مما يؤكد إحاطة شيخ الإسلام بكلام أبي حامد وآرائه واطِّلاعِه على مؤلفاته، أنه لا يعرض أقوال أبي حامد المتعلقة بالتصوف فحسب، وإنما يعرض آراءه في مواضيعَ لا علاقة لها بالتصوف:

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام في معرض كلامه عن السهو أثناء الصلاة: «.. وإذا غلب عليه الوسواس، ففي براءة الذمة منها ووجوب الإعادة قولان معروفان للعلماء، أحدهما: لا تبرأ الذمة، وهو قول: أبي عبد الله بن حامد[(٢)]، وأبي حامد الغزالي، وغيرهما»اهـ[(٣)].

ـ وقال شيخ الإسلام ـ أيضاً ـ: «.. وكذلك غير هؤلاء صرحوا بأن بعض القرآن قد يكون خيراً من بعض، ومِمن ذكر ذلك أبو حامد الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) قال: لعلك تقول: قد توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض، والكل كلام الله،

---

(١) الفتاوى (٢/ ٥٤ ـ ٥٥).

(٢) هو الحسن بن حامد بن علي بن مروان، أبو عبد الله البغدادي، إمام الحنبلية في زمانه ومدرسهم ومفتيهم، له مصنفات؛ منها: كتاب الجامع في اختلاف العلماء، وشرح الخرقي، وشرح أصول الدين وأصول الفقه، كان قانعاً يأكل من النسخ ويكثر الحج، توفي سنة ٤٠٣هـ.
انظر: طبقات الحنابلة (١/ ٣٢)، شذرات الذهب (٣/ ١٦٦).

(٣) الفتاوى (٣٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

فكيف يفارق بعضها بعضاً؟»اهـ[١].

ـ ويستشهد شيخ الإسلام في كلامه عن الباطنية بكلام أبي حامد كثيراً:

ومن ذلك قول شيخ الإسلام: «.. وكذلك ذكر أبو حامد في كتابه الذي سماه (فضائل المستظهرية وفضائح الباطنية)، قال: ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض»اهـ[٢].

ـ وفي موضع آخر قال شيخ الإسلام: «.. وكانوا كما قال فيهم أبو حامد الغزالي: ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض»اهـ[٣].

ـ وقال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن أهل الكلام: «.. حتى قال أبو حامد الغزالي: أكثرُ الناس شكّاً عند الموت أهلُ الكلام»اهـ[٤].

ـ مع كثرة انتقاد الشيخ لآراء أبي حامد الغزالي، إلا أن ذلك لم يمنع الشيخ من التماس الأعذار لِأبي حامد:

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام بعد نقله لرأي أبي حامد في الخلوة[٥] ووصيته للمريد بالاشتغال بالذكر مع ترك الصلاة، ونحو ذلك مما يُزعَم بأنه يرقق قلب المريد ويقبل به على الله تعالى، فقال شيخ الإسلام: «.. ومنهم من يقول: إذا كان قصد وقاصد ومقصود، فاجعل الجميع واحداً، فيدخله في أول الأمر في وحدة الوجود، وأما أبو حامد وأمثاله مِمن أمروا بهذه الطريقة، فلم يكونوا يظنون أنها تُفضي إلى الكفر

---

(١) الفتاوى (١٧/ ٤٩ ـ ٥٠)، وانظر هذا الكلام ـ بمعناه ـ في: الفتاوى (١٧/ ١١٣، ١٢١)، بغية المرتاد (ص٢٧٩).

(٢) الفتاوى (٣٥/ ١٢٩).

(٣) الفتاوى (٢٧/ ١٧٤)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً ـ في: الفتاوى (٢٨/ ٦٣٥).

(٤) الفتاوى (٤/ ٢٨).

(٥) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الخلوة ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص١١٣).

ـ لكن ينبغي أن يُعرف أن البدع بريد الكفر ـ، . . ومنهم من يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء، وأبو حامد يكثر من مدح هذه الطريقة في (الإحياء) وغيره، . . وهذا من بقايا الفلسفة عليه»اهـ[١].

موقف أبي حامد من ابن عربي وأمثاله:

ـ قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الاتحادية واستحلالهم المحرمات: «. . لكنْ أبو حامد لا يبيح محظورات الشرع قط، بل **يقول: قتل واحد من هؤلاء خير من قتل عدد كثير من الكفار**»اهـ[٢].

ـ إلا أن أبا حامد لم يَسْلَمْ ـ مع ذلك ـ من التأثُّر بأقوال الاتحادية:

وقد ذكر شيخ الإسلام ذلك في معرض ردِّه على الاتحادية، وبيانه لفساد ادعاء بعضهم علم الغيب، وأنهم يعلمون الأسرار المخزونة والعلوم المصونة، فقال: «وقد رأيت من أتباع هؤلاء طوائفَ يدّعون أن هذه الأمور من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة، . . وكانوا من الاتحادية الذين يطول وصف دعاويهم، ثم من عجيب الأمر: أن هؤلاء المتكلمين المدَّعين لحقائق الأمور العلمية والدينية المخالفين للسنة والجماعة، يحتج كلٌّ منهم بما يقع له من حديث موضوع أو مجمل لا يُفهم معناه، يُنَزِّل كلٌّ منهم ذاك الذي لم يحدث، حتى إن أبا حامد الغزالي في منهاج القاصدين[٣] وغيره، هو وأمثاله تمثل بما يروى عن علي بن

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٩٧). (٢) الفتاوى (١٤/ ١٦٤).

(٣) الأبيات ذكرها أبو حامد في كتابه «منهاج العابدين». أما كتاب منهاج القاصدين، فقد نقلت فيما سبق (١/ ١١٧ ـ ١١٨) كلام د. عبد الرحمن بدوي في كتابه عن مؤلفات الغزالي وتقرر أنه ليس من كتب الغزالي، وإنما هو اختصار لإحياء علوم الدين وهو من تأليف ابن الجوزي وقد طُبع.
انظر: منهاج العابدين للغزالي (ص١٥، خرج الأحاديث: محمد مصطفى أبو العلا، ط. مكتبة الجندي، مصر).

الحسين[١] أنه قال[٢]:

يا ربَّ جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي: أنت مِمن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجال مسلمون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حسناً»اهـ[٣]

ـ وبيّن شيخ الإسلام أن ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما قد تأثروا بكلام أبي حامد، وجرَّهم ذلك إلى القول بالحلول:

فقال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن أبي حامد وإنكار العلماء عليه دخولَهُ في الفلسفة: «.. ولهذا لمَّا سلك خلفه ابن عربي وابن سبعين، كان ابن سبعين في كتاب (اليد) وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب في كلام أبي حامد، .. وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذي ذكره أبو حامد في (ميزان العمل)، وهو أن الفاضل له

---

(١) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي، زين العابدين، ولد سنة ٣٨هـ تقريباً، وأمه أم ولد اسمها غزالة، (وقيل: سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد)، روى عن أبيه وعمه الحسن، وأرْسل عن جده علي بن أبي طالب، توفي سنة ٩٤هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٨)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٢١١)، الحلية (٣/ ١٣٣)، سير الأعلام (٤/ ٣٨٦).

(٢) البيتان أوردهما البغدادي في تاريخ بغداد ونسبهما إلى كلثوم بن عمرو أبي عمرو العتابي، وكان متزهداً لا يأتي الأمراء ولا يغشاهم، من قصيدة له يقول فيها:

إني لأخفي من علمي جواهره   كي لا يرى العلمَ ذو جهل فيفتتنا
ورب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال دَيِّنُون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حَسَنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن   أوصى حسيناً بما قد خبر الحسنا

تاريخ بغداد (١٢/ ٤٨٨/ ترجمة ٦٩٦١، ط. دار الكتب العلمية، وقال في البيت الثالث: ولاستحل رجلاً دينون.. وهو خطأ مطبعي ظاهر).

(٣) الفتاوى (٤/ ٨٢ ـ ٨٤).

ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام..، وعقيدة مع الطلبة..، والثالثة لا يطلع عليها أحد إلا الخواص، ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة..»اهـ[1].

أبو حامد والباطنية:

ـ أبو حامد سلك مسلك الباطنية في كثير من كلامه بالرغم من رده عليهم:

قال شيخ الإسلام: «.. والمقصود هنا: بيان ما يقوله هؤلاء الفلاسفة الباطنية فيما جاء به الرسول ﷺ،.. و(الفريق الثاني منهم) يقولون: إن الرسول كان يعلم الحق الثابت في نفس الأمر في التوحيد والمعاد،.. وأنه ليس لله ملائكة هم أحياء ناطقون ينزلون بالوحي من عنده ويصعدون إليه، ولكن يقول بما عليه هؤلاء الباطنية في الباطن، لكن ما كان يمكنه إظهار ذلك للعامة؛ لأن هذا إذا ظهر لم تقبله عقولهم وقلوبهم، بل ينكرونه وينفرون منه، فأظهر لهم من التخييل والتمثيل ما ينتفعون به في دينهم، وإن كان في ذلك تلبيس عليهم وتجهيلهم لهم، واعتقادهم الأمر على خلاف ما هو عليه، لِما في ذلك من المصلحة لهم،.. فهؤلاء يجعلون الرسول ﷺ ـ إذا عظَّموه وقالوا: كان كاملاً في العلم ـ من جنس رؤوسهم الملاحدة، وأنه كان يُظهر للعامة خلاف ما يبطنه للخاصة...

ومن كان هذا أصل قوله في الرسول ﷺ والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، كان مخالفاً لا موافقاً، لا سيّما إذا أظهر النفي الذي كان الرسول وخواصّ أصحابه عنده يبطنونه ولا يظهرونه، فإنه يكون مخالفاً لهم أيضاً.

---

(١) النبوات (ص١٤٣ ـ ١٤٤).

وهذا المسلك يراه عامَّة النفاة،.. وفي كلام أبي حامد الغزالي من هذا قطعة كبيرة»اهـ[(١)].

- **وقال شيخ الإسلام - أيضاً -**: «والباطنية المنكرون لخلق العالم في ستة أيام، ومعاد الأبدان الذين يجعلون للقرآن تأويلاً يوافق قولهم، عندهم ما ثمَّ جنة إلّا لذّة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة، وما ثمَّ نار إلّا ألم ما تتصف به النفس من الجهل والأخلاق الذميمة السيئة،.. وهذا الكلام مما يذكره أبو حامد في المضنون به على غير أهله»اهـ[(٢)].

خاتمة أبي حامد الغزالي:

- **قال شيخ الإسلام في موضع آخر بعد سياقه لكلام لابن رشد ذمّ فيه أبا حامد وأنه يوافق الفلاسفة تارة والسلف تارة**: «.. قلت: أما عدُّه أبا[(٣)] حامد مِمن لا يُقرّ بمعاد الأبدان، فهو وإن كان قد قال في بعض كتبه ما نُسِب لأجله إلى ذلك، فالذي لا ريب فيه أنه لم يستمرّ على ذلك بل رجع عنه قطعاً، وجزم بما عليه المسلمون في القيامة العامة كما أخبر به الكتاب»اهـ[(٤)].

- **وقال شيخ الإسلام**: «وصاحب (الجواهر)[(٥)] لكثرة نظره في كلامهم واستمداده منهم مزج في كلامه كثيراً من كلامهم، وإن كان قد يُكفرهم بكثير مما يوافقهم عليه في موضع آخر، وفي أواخر كلامه قطع بأن كلامهم لا يفيد علماً ولا يقيناً، بل وكذلك قطع في كلام المتكلمين،

---

(١) الفتاوى (٤/ ١٦١ - ١٦٤).
(٢) الفتاوى (١٤/ ١٦١).
(٣) في المطبوع: أبو حامد، وهو خطأ.
(٤) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٣٧).
(٥) يعني أبا حامد الغزالي، والمقصود بالجواهر هنا كتابه: جواهر القرآن، وقد تقدم التعريف بالكتاب وبيان موقف الشيخ في مبحث خاص بذلك (ص٣٦٤).

وآخر ما اشتغل به النظر في صحيحي البخاري ومسلم، ومات وهو مشتغل بذلك»اهـ[١].

- **وقال شيخ الإسلام**: «.. مع أنه بعد ذلك قد ردَّ على الفلاسفة وبيّن تهافتهم وكفَّرهم، وبيَّن أن طريقتهم لا توصل إلى حق، بل وردَّ أيضاً على المتكلمين، ورجَّح طريق الرياضة والتصوّف، ثم لمَّا لم يحصل مطلوبه من هذه الطرق بقي من أهل الوقف، ومال إلى طريقة أهل الحديث، فمات وهو يشتغل بالبخاري ومسلم»اهـ[٢].

ابن الفارض[٣]:

- عدَّه شيخ الإسلام من رؤوس الاتحادية، فقال في معرض بيانه

---

(١) بغية المرتاد (ص٢٧٩).

(٢) الصفدية (١/ ٢١٢)، وانظر هذا الكلام - أيضاً بمعناه - في: الرد على المنطقيين (ص١٩٨)، الدرء (١/ ١٦٢).

وقد ذكر شيخ الإسلام (جامع الرسائل ١/ ١٦٩، ت: د. محمد رشاد سالم): أن عبد الغفار الفارسي ذكر في تاريخ نيسابور أن الغزالي استقرّ أمره على مطالعة صحيحي البخاري ومسلم.

وساق السبكي في طبقات الشافعية (٤/ ١٠٩) كلام عبد الغفار الفارسي بنصه، فقال: «كانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ، ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم، اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكلَّ في ذلك الفنّ بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله»اهـ.

(٣) ابن الفارض: **اسمه ونسبه ونشأته**: هو عمر بن علي بن مرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري الدار والمنشأ والوفاة، يكنى بأبي حفص، وأبي القاسم، ولقب بشرف الدين، ولد سنة ٥٦٦هـ، وقيل: ٥٧٦هـ، واشتهر بابن الفارض؛ لأن أباه سكن مصر، فكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام فلقب بالفارض، وابن الفارض من غُلاة الصوفية، بل من ملحديهم القائلين بالحلول والاتحاد، توفي سنة ٦٣٢هـ.

بداية الانحراف عند ابن الفارض: نشأ ابن الفارض في كنف أبيه، وطلب =

....

= العلم في أول شبابه واشتغل بفقه الشافعية، وكان خلال ذلك مستقيمَ السيرة، ذا صيانة وقناعة وورع وعبادة.
ثم مال إلى سلوك أهل التصوف، فصار يأوي إلى المساجد المهجورة ويخلو فيها، ويتفرد في بعض الأودية بين الحين والآخر.
ذهب ابن الفارض إلى مكة في غير أشهر الحج، فكان كعادته يؤثر الاعتزال في بعض الأودية والفلوات، وبقي على هذه الحال مدة حتى ألف الوحشة واعتزال الناس، وطال مقامه بمكة على هذا الحال، ولم يعد إلى مصر إلا بعد خمسة عشر عاماً، وأول ما دخل مصر قصد الجامع الأزهر وأقام بقاعة الخطابة فيه، فلما علم الناس برجوعه قصدوه للزيارة، فزاره العامة والوجهاء، حتى صار له صيت وظهور عند الناس، كما قال ابن حجر: «كان له صورة كبيرة عند الناس»اهـ. (لسان الميزان ٤/ ٣١٧).
تحول ابن الفارض من الزهد والعبادة إلى التصدر وطلب الدنيا: لما رأى ابن الفارض إقبال الناس عليه، وإعجابهم بكلامه وتزهده، أثر ذلك في نفسه وأصابه العجب وحب التصدر والظهور، فتخلّى عما كان عليه من الزهد والتقشف، وصار يسعى إلى اكتساب الجاه والدنيا، ولبس الملابس الفارهة، وكان له جوارٍ يذهب إليهن، فيغنين له فيراقصهن ويُظهر التواجد بالسماع، لكنه مع ذلك بقيت عليه آثار تلك الخلوات التي تتسلط فيها الشياطين، فكان يصرح بمذهب أهل الحلول والاتحاد، كما في قصيدته المسماة: نظم السلوك، وسيأتي عرض نماذج منها.
موقف أهل العلم من ابن الفارض: قال الإمام الذهبي عن ابن الفارض: «صاحب الحلول والاتحاد الذي ملأ به تائيته.. فإن لم يكن في تلك العقيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده فما في العالم زندقة ولا ضلال، اللهم ألهمنا التقوى وأعذنا من الهوى، فيا أئمة الدنيا ألا تغضبون لله، فلا حول ولا قوة إلا بالله»اهـ. (سير الأعلام ٢٢/ ٣٦٨).
وقال في موضع آخر: «ينعق بالاتحاد الصريح في شعره، وهذه بلية عظيمة، فتدبر نظمه ولا تستعجل، ولكنك حسّن الظن بالصوفية، وما ثَمَّ إلا زيّ الصوفية وإشارات مجملة، وتحت الزي والإشارة فلسفة وأفاعي، فقد نصحتك، والله الموعد»اهـ. (ميزان الاعتدال ٣/ ٢١٤). =

لضلال رؤوس الاتحادية: «.. وأما ابن سبعين: فإنه في البدوِّ والإحاطة يقول أيضاً بوحدة الوجود، وأنه ما ثمَّ غير، وكذلك ابن الفارض في آخر نظم السلوك»اهـ[1].

الفُضَيل بن عياض:

- عدَّه شيخ الإسلام، من المعتدلين، فقال أثناء كلامه عن حلق

= وقال الإمام برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥) في معرض كلامه عن ابن الفارض: «قد رماه بالزندقة بشهادة الكتب الموثوق بها نحوٌ من أربعين عالماً، هم دعائم الدين من عصره إلى عصرنا»اهـ.(تحذير العباد ص٢١٤).
أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد عدّه من رؤوس الاتحادية. (الفتاوى ٢/ ٤٧٢).
نماذج من فكر ابن الفارض في الحلول والاتحاد: أبرز ما كتبه ابن الفارض قصيدته المسماة: نظم السلوك، التي قال فيها شيخ الإسلام: «وابن الفارض من متأخري الاتحادية، صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك، وقد نظّم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ، فهم أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك»اهـ. (الفتاوى٤/ ٧٣ ـ ٧٤).
ومما قاله ابن الفارض في هذه القصيدة:

وإني وإن كنتُ ابنَ آدم صورة ... فلي فيه معنًى شاهد بأبوتي
وجاءَ حديث باتحادي ثابت ... روايته في النقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرُّب ... إليه بنفل أو أداء فريضة
وموضع تنبيه الإشارة ظاهر ... بكنت له سمعاً كنور الظهيرة
فكلي لكلي طالب متوجِّه ... وبعضي لبعضي جاذب بالأعنة
وفيَّ شهدت الساجدين لمظهري ... فحققت أني كنت آدمَ سجدتي
تعانقت الأطراف عنديَ وانطوى ... بساط السِّوى عدلاً بحكم السوية

انظر: نظم السلوك (ضمن ديوان ابن الفارض ص٩٠، ٩٢، ١٠٥، ١١٣).
انظر: مصرع التصوف لعبد الرحمن الوكيل (ص٧٣، في هامش كتاب تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)، سير الأعلام (٢٢/ ٣٦٨)، شذرات الذهب (٥/ ١٤٩)، معجم المؤلفين (٧/ ٣٠١)، الأعلام (٥/ ٥٥).

(١) الفتاوى (٢/ ٤٧٢).

الشعر عند الشيوخ عند التوبة من الذنوب: «.. الثالث: حلقه على وجه التعبد والتدين والزهد من غير حج ولا عمرة.. فهذه بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله،.. ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، **ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة**، لا من الصحابة ولا من التابعين، ولا تابعيهم ومن بعدهم، مثل:.. **والفضيل بن عياض**..»اهـ[1].

ـ وقال ـ مُثنياً عليه ـ في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة[2]: «.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كالفضيل بن عياض.. وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[3].

ـ وبيّن شيخ الإسلام أن كلام الفضيل أسدُّ من كلام غيره:

فقال في معرض كلامه عن رؤية الله تعالى في الآخرة وتأوّل فريق من الصوفية لها: «.. قال: سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول: ينظر إليه تعالى المؤمنون بأبصارهم من غير إحاطة، ولا إدراك نهاية، وهذا الكلام من أحسن الكلام، وكلام سهل بن عبد الله في السنة وأصول الاعتقادات أسدُّ وأصوب من كلام غيره، وكذلك الفضيل بن عياض ونحوُه، فإن الذين كانوا من المشايخ أعلم بالحديث والسنة، وأتبع لذلك هو أعظم علماً وإيماناً، وأجل قدراً في ذلك من غيرهم»اهـ[4].

---

(١) الفتاوى (٢١/ ١١٧ ـ ١١٨).
(٢) تقدم تفصيل الكلام في ذلك في مبحث سابق (١/ ٧١٥).
(٣) الدرء (٥/ ٤).
(٤) الاستقامة (١/ ١٥٨)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١٠/ ٢٢١، ج١١/ ٥٣٤، ج١٢/ ٣٥٣)، الاستقامة (١/ ٨٢).

- وأثنى شيخ الإسلام على معرفته بالحديث وإتقانه له، فقال:

«.. فإن النساك والعُباد منهم مَن هو متقن في الحديث، **مثل ثابت البناني**[١]، **والفضيل بن عياض**، وأمثالهما، ومنهم مَن قد يقع في بعض حديثه غَلط وضعف»اهـ[٢].

أبو القاسم القشيري:

- بيّن شيخ الإسلام أن أبا القاسم كان أشعرياً، وهو يذكر مذهب الأشاعرة في الصفات وغيرها وينسبه إلى الصوفية:

قال الشيخ رحمه الله: «.. والقشيري تلميذ ابن فورك، فلهذا تغلّظ مذهب الأشعري من حينئذ، ووقع بينه وبين الحنبلية تنافر بعد أن كانوا متوالفين متسالمين»اهـ[٣].

- وقال الشيخ: «فصل فيما ذكره أبو القاسم في رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرّقات كلامهم ما يُستدلّ به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقّاه عن أبي بكر بن فورك، وأبي إسحاق الإسفراييني.

---

(١) هو ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد، مولاهم البصري، الإمام القدوة، قال بكر بن عبد الله قال: من سرَّه أن ينظر إلى أعبد رجل أدركناه في زمانه، فلينظر إلى ثابت البناني. وقال سهل بن أسلم: كان ثابت البناني يصلي كل ليلة ثلاث مائة ركعة، فإذا أصبح ضمرت قدماه، فيأخذهما بيده فيعصرهما، ثم يقول: مضى العابدون وقطع بي والهفاه، حدّث عن ابن عمرو وابن الزبير وشداد وأنس وآخرين، توفي سنة ١٢٧هـ.
انظر: تاريخ الطبري (١١/ ٦٨١، ذكر من انتهت إلينا كنيته ممن شهر بالاسم دون الكنية من التابعين)، الكامل في التاريخ (٥/ ٢٥٢، ذكر عدة حوادث)، سير الأعلام (٥/ ٢٢٠)، شذرات الذهب (١/ ١٦١).

(٢) الفتاوى (١١/ ٤٢).

(٣) الفتاوى (٦/ ٥٢).

وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة، لكنه مقصِّر عن ذلك، ومتضمن تركَ بعض ما كانوا عليه، وزيادة تخالف ما كانوا عليه.

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذي كان يجب أن يُذكر، فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل ابن عياض، وأبي سليمان الداراني، . . وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ. . .

وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في (رسالته)، لا يُعرف عن أحد منهم أنه كان ينصر طريقة الكُلّابية والأشعرية التي نصرها أبو القاسم، بل المحفوظ عنهم خلافها، ومَن صرّح منهم فإنما يُصرح بخلافها، حتى شيوخ عصره الذين سمّاهم. . فإن هؤلاء المشايخ. . لهم من التصانيف المشهورة في السنة، ومخالفة طريقة الكلّابية والأشعرية ما ليس هذا موضعه. . .

وكذلك سائر شيوخ المسلمين من المتقدمين والمتأخرين الذين لهم لسان صدق في الأمة، كما ذكره الشيخ: يحيى بن يوسف الصرصري، ونَظَمه في قصائده عن الشيخ علي بن إدريس شَيْخِه، أنه سأل قُطب العارفين أبا محمد عبد القادر بن عبد الله الجيلي، فقال: يا سيدي، هل كان لله وليٌّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: ما كان، ولا يكون»اهـ(١).

ـ أبو القاسم القشيري، متصوف من أهل الكلام:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن صفة المحبة:

«والذي دلَّ عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها

---

(١) الاستقامة (١/ ٨١ ـ ٨٢).

ومشايخ الطريق: أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ، ولهذا وافقهم مَن تصوَّف مِن أهل الكلام: كأبي القاسم القشيري، وأبي حامد الغزالي، وأمثالهما»اهـ[1].

محمد بن خفيف، أبو عبد الله:

- **عدّه شيخ الإسلام من شيوخ التصوف الصالحين،** فقال في معرض ردّه على ابن سبعين وأمثاله: «ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء، فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار، وأن شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض.. **وأبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي** ونحوهم ﷺ كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء»اهـ[2]

- **وقال الشيخ - أيضاً - في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة**[3]: «.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كالفضيل بن عياض.. وأبي عبد الله بن خفيف الشيرازي،.. وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية، ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[4].

- **وعدَّه الشيخ من الشيوخ الأكابر الذين كانوا على معتقد أهل السنة والجماعة،** فقال: «.. والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السُّلَمي في: (طبقات الصوفية) وأبو القاسم القشيري في: (الرسالة) كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٦٩٨).
(٢) الفتاوى (١٢/ ٣٥٣).
(٣) تقدم تفصيل الكلام في ذلك، في مبحث خاص (١/ ٧١٥).
(٤) الدرء (٥/ ٤).

الحديث، كـ.. **وأبي**[١] عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم، وكلامهم موجود في السنة، وصنفوا فيها الكتب»اهـ[٢].

معروف الكرخي:

ـ عدَّه شيخ الإسلام من الشيوخ المعتدلين السالمي العقيدة:

فقال في معرض بيانه لمعتقد الصوفية المعتدلين: «.. والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف،.. فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل.. معروف الكرخي.. وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[٣].

ـ وعدَّه الشيخ من أعلام الأمة، فقال في معرض كلامه عن الرافضة: «فيُكفّرون كلّ من اعتقد في أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار العدالة،.. ولهذا يُكفرون **أعلام الأمة، مثل:.. معروف الكرخي**»اهـ[٤].

مُعَمَّر بن أحمد الأصبهاني:

ـ أثنى عليه شيخ الإسلام وعلى وصيته لأصحابه في السنة:

فقال في معرض كلامه عن صفات الله تعالى، ومخالفة المبتدعة لأهل السنة فيها: «**وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني ـ شيخ الصوفية** في حدود المائة الرابعة في بلاده ـ قال: أحببت أنْ أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين..»اهـ[٥].

---

(١) في المطبوع: وأبو عبد الله، وهو خطأ.

(٢) الصفدية (١/ ٢٦٧).

(٣) الاستقامة (١/ ٨٢).

(٤) الفتاوى (٢٨/ ٤٧٧).

(٥) الفتاوى (٥/ ٦١، ١٩١).

مُعَمَّر بن زياد الأصفهاني:

- أثنى شيخ الإسلام على ما جمعه معمر بن زياد من كلام الصوفية:

فقال في معرض تقويمه لرسالة أبي القاسم القشيري وما جمعه من كلام المشايخ: «وقد جمع كلام المشايخ إما بلفظه أو بما فهِمه هو غيرُ واحد.. وكذلك **مُعَمَّر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية**، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلَمي جامع كلام الصوفية، **هما في ذلك أعلى درجة، وأبعد عن البدعة والهوى** من أبي القاسم»اهـ[١].

نصر المنبجي[٢]:

- كان له أصحاب وأتباع، وقد أرسل شيخ الإسلام إليه رسالة بيّن له فيها حقيقة مذهب الاتحادية، وحذّره من الانخداع بهم:

فقال الشيخ: «من أحمد بن تيمية إلى الشيخ العارف القدوة،

---

(١) الاستقامة (١/ ٨٢ ـ ٨٣).

(٢) هو نصر بن سليمان المنبجي، أبو الفتح، تفقه وتصوف وانعزل، ثم اشتهر وزاره الأعيان، وكان السلطان الجاشنكير يغلو في حبه، ووقع له مع شيخ الإسلام مناظرات، وكان له تأثير في حبسه، إلا أنه شفع عند السلطان أن يحبس شيخ الإسلام في حبس القضاة، قال ابن كثير: «نصر الدين المنبجي الاتحادي الحلولي.. كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذي تسلطن فيما بعد، وغيره من الدولة، والسلطان مقهور معه»اهـ، ثم تكلم ابن كثير عن حبس شيخ الإسلام، وقال: «أرسل إلى حبس القضاة وأجلس في المكان الذي أجلس فيه القاضي زين الدين ابن بنت الأعز لما حبس، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه، وكان ذلك كله بإشارة نصر المنبجي ووجاهته في الدولة»اهـ، توفي سنة ٧١٩هـ.

انظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٩١، ٢٩٩، حوادث سنة ٧٠٧هـ)، شذرات الذهب (٦/ ٥٢).

السالك الناسك: أبي الفتح نصر، فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه، ونصره على شياطين الإنس والجن في جهره وإخفائه،.. أما بعد، فإن الله قد أنعم على الشيخ،.. وجعل له عند خاصة المسلمين.. منزلةً عَلِيَّةً، ومودة إلهيَّة، لِما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد،.. وقد بعث الله محمداً ﷺ بأكمل محبة في أكمل معرفة،.. فالشيخ ـ أحسن الله إليه ـ قد جعل الله فيه من النور والمعرفة،.. ما تتميز به المحبة الإيمانية المحمدية المفصلة، عن المجملة المشتركة،.. وكثير من المتوجهين السالكين يشهد في سلوكه الربوبية.. فيغيب ويفنى بهذا التوحيد الرباني عما هو مأمور به أيضاً ومطلوب منه.. من التوحيد الإلهي، الذي هو عبادته وحده لا شريك له،.. فهذا التوحيد هو الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وإليه تشير مشايخ الطريقة وعلماء الدين، لكن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصر سكر وغيْبة عن السِّوَى، والسُّكْر وجْدٌ بلا تمييز،.. وفي مثل هذا الحال غلَط من غَلَط بدعوى الاتحاد والحلول العيني،...

وقد بلغني أن بعض الناس ذكر عند خدمتكم الكلام في مذهب الاتحادية، وكنت قد كتبت إلى خدمتكم كتاباً اقتضى الحال من غير قصد أن أشرت فيه إشارة لطيفة إلى حال هؤلاء، ولم يكن القصد به ـ والله ـ واحداً بعينه، وإنما الشيخ هو مجمع المؤمنين، فعلينا أن نعينه في الدين والدنيا بما هو اللائق به، وأما هؤلاء الاتحادية، فقد أرسل إلى الداعي من طلب كشف حقيقة أمرهم، وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يُرسل إلى الشيخ»اهـ[١].

ـ ثم تكلم شيخ الإسلام بكلام طويل شرح فيه مذهب الاتحادية،

---

(١) الفتاوى (٢/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٦١، ٤٦٣).

وذكر رؤوس ضلالهم، وفنَّد آراءهم، ثم قال في آخر الرسالة: «وهذا الكتاب، مع أني قد أطلت فيه الكلام على الشيخ ـ أيده الله تعالى به الإسلام[١]، ونفع المسلمين ببركة أنفاسه، وحسن مقاصده ونور قلبه ـ فإن ما فيه نُكت مختصرة، فلا يمكن شرح هذه الأشياء في كتاب، ولكن ذكرت للشيخ ـ أحسن الله تعالى إليه ـ ما اقتضى الحال أن أذكره، وحامل الكتاب مستوفز عجلان. . »اهـ[٢].

أبو نعيم الأصبهاني:

ـ أورد شيخ الإسلام كلام أبي نعيم ناقلاً عنه معتقَد أهل السنة والجماعة في صفات الله تعالى:

فقال: «وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني ـ صاحب (حلية الأولياء) وغير ذلك من المصنفات المشهورة ـ في الاعتقاد الذي جمعه: طريقنا طريق السلف المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة. قال: ومِما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته القديمة لا يزول، ولا يحول. . »اهـ[٣].

ـ يستشهد شيخ الإسلام بكلامه، أو بما يرويه عن الصوفية في مواضعَ كثيرة:

ومن ذلك ما ذكره عنه في معرض كلامه عن مقام الرضا، قال: «وحكى أبو نعيم الأصبهاني[٤]: قال سمنون: يا ربِّ قد رضيت بكل ما تقضيه عليَّ، فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً. . ، قال أبو نعيم[٥] فهذا

(١) كذا في المطبوع، ولعلّ الأصوب: أيّد الله تعالى به الإسلام.
(٢) الفتاوى (٢/ ٤٧٩).
(٣) الفتاوى (٥/ ١٩٠).
(٤) حلية الأولياء (١٠/ ٣١٠).
(٥) لم أجد هذا النص في حلية الأولياء.

الرضا الذي ادّعى سمنون ظهر غلطهُ بأدنى بلوى، هذا مع أن سمنون كان يُضرَب به المثَل في المحبة، وله مقام مشهور»اهـ[(١)].

النوري: أبو الحسين النوري:

ـ ذكر شيخ الإسلام له أقوالاً منكرة واعتذر عنه:

فقال في معرض جوابه عما ذكره القشيري في رسالته:

«**قال**[(٢)] وسمع النوري رجلاً يؤذن:

فقال: طعنة وسم الموت، وسمع كلباً ينبح، فقال: لبّيك وسعديك[!!].

فقيل له: إن هذا ترك للدين، فإنه يقول للمؤذن في تشهُّده: طعنة وسم الموت، ويلبّي عند نباح الكلاب[!!].

فسُئل عن ذلك[؟!].

فقال: أما المؤذن، فإنه يذكره على رأس الغفلة، وأما الكلب، فإن الله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]

ومثل هذه الكلمات والحكايات لا تصلُح أن تذكر للاقتداء أو سلوك سبيلٍ وطريقةٍ، لِمَا فيها من مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، والذي يصدر عنه أمثال هذه الأمور: إن كان معذوراً بقصور في اجتهاده، أو غَيْبة في عقله، . . **النوري** رَحِمَهُ اللَّهُ كان فيه وَلَه، وقد مات بأَجَمة قصب[(٣)]

---

(١) الاستقامة (٢/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٢) يعني أبا القاسم القشيري، في الرسالة القشيرية (٢/ ٥١٨).

(٣) ذكر قصة موته الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥/ ١٣٥)، عن أبي نصر السراج قال: كان سبب وفاة أبي الحسين النوري أنه سمع هذا البيت:

لا زلت أنزل من ودادك منزلاً ... تتحير الألباب عند نزوله

فتواجد النوري وهام في الصحراء، فوقع في أجمة قصب قد قطعت وبقي =

لمّا غلبه الوجد عقله، ومَن هذه حاله لا يصلح أن يُتَّبع في حال لا يوافق أمر الله ورسوله ﷺ، . .»اهـ[(١)].

الهروي الأنصاري: أبو إسماعيل:

- أثنى شيخ الإسلام على معرفة الهروي بكلام الصوفية وإتقانه له، إضافة إلى سعة معرفته بعلم الحديث والتفسير:

فقال: «أعظم المشايخ الذين أخذ عنهم أبو القاسم جمعاً لكلام مشايخ الصوفية، وتأليفاً له، ورواية له، هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، . . كما أن الذين أدركوا عصر أبي القاسم من مشايخ القوم، لم يكن فيهم بهذا الباب من شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، لا سيّما في معرفة أخبار القوم وكلامهم وطريقهم، فإنه في ذلك ونحوه من أعلم الناس، وكان إماماً في الحديث والتفسير وغيره»اهـ[(٢)].

- وقال شيخ الإسلام عنه: «عِلْمُه خير من عمله»اهـ[(٣)].

- واستشهد شيخ الإسلام بكلامه في إثبات مباينة مذهب الصوفية لمذهب الكلابية:

فقال: «وقال شيخ الإسلام الأنصاري[(٤)]: سمعت. . : وجدنا أبا العباس أحمد بن محمد النهاوندي على الإنكار على أهل الكلام وتكفير

= أصوله مثل السيوف، فكان يمشي عليها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يسيل من رجليه ثم وقع مثل السكران فورمت قدماه ومات».اهـ.
وأورد الغزالي القصة في الإحياء (٢/ ٢٦٦، د. النور).

(١) الاستقامة (٢/ ١٥ ـ ١٦).
(٢) الاستقامة (١/ ١٠٤).
(٣) المستدرك على الفتاوى (٥/ ٢٢٩).
(٤) في كتابه: ذمّ الكلام، والنص التالي ورد مختصراً في كتاب الإمام السيوطي: صون المنطق والكلام عن علم المنطق والكلام (١/ ١٢٠).

الأشعرية..»اهـ[(١)].

ـ وبين شيخ الإسلام في موضع آخر أن أبا إسماعيل الهروي قد وافق جهماً[(٢)] في وجه دون وجه:

فقال: «وشاع هذا القول في كثير من الصوفية، **فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر، وخالفوه في الصفات كأبي إسماعيل الأنصاري** صاحب (ذَمّ الكلام)، فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات، وله كتاب في تكفير الجهمية، ويبالغ في ذم الأشعرية مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلى السنة، وربما كان يلعنهم.. وهو ـ مع هذا ـ في مسألة إرادة الكائنات وخلق الأفعال أبلغ من الأشعرية، لا يثبت سبباً ولا حِكمة، بل يقول: إن مشاهدة العارف الحكم لا يُبقي له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة، والحكم عنده هو المشيئة؛ لأن العارف عنده من يصل إلى مقام الفناء، والحسنة والسيئة يفترقان في حظ العبد لِكونه يُنَعَّم بهذه ويُعَذَّب بهذه، والالتفات إلى هذا من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مُراد الحق»اهـ[(٣)].

ـ وقرَّر الشيخ وقوع الهروي في القول بالحلول الخاص:

فقال في معرض كلامه عن مذهب الحلولية في العلوّ والمعية: «والمقصود أن الله تعالى وصف نفسه بالمعية وبالقرب.. وافترق الناس

---

(١) الاستقامة (١/ ١٠٩).

(٢) هو الجهم بن صفوان، أبو محرز، مولى بني راسب من أهل خراسان، تتلمذ على الجعد بن درهم، وضلَّ به خلق كثير، أهمّ آرائه: القول بنفي الصفات، والقول بالجبر، وبفناء الجنة والنار، مات مقتولاً بمرو، سنة ١٢٨هـ.
انظر: لسان الميزان (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، ميزان الاعتدال (١/ ١٩٧)، الأعلام (٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٣) الفتاوى (٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، ١٤/ ٣٥٤).

في هذا المقام أربع فرق: . . الثالث: قول مَن يقول: هو فوق العرش وهو في كل مكان. . وهو موجود في كلام طائفة من السالمية[١] والصوفية. . .

وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة، يقولون: إنه فوق العرش، ويقولون: نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف، كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان، وما يتبع ذلك.

فإن قالوا: إن العرش كذلك نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش، وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولاً بالحلول الخاص، **وقد وقع طائفة من الصوفية ـ حتى صاحب منازل السائرين في توحيده المذكور في آخر المنازل ـ في مثل هذا الحلول**[٢]، ولهذا كان أئمة القوم يُحَذِّرون عن مثل هذا»اهـ[٣].

---

(١) السالمية: فرقة كلامية ذات نزعة صوفية، تُنسب إلى محمد بن سالم، المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وإلى ابنه أحمد بن سالم، المتوفى سنة ٣٥٠هـ، تتلمذ الأب على سهل بن عبد الله التستري، هذا ومن أشهر رجال السالمية: أبو طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦هـ، ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة، مع مَيل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية.
انظر: المعتمد في أصول الدين (ص٣٩٠)، الفرق بين الفرق (ص١٥٧، ٢٠٢)، نشأة الفكر الفلسفي للنشار (١/ ٢٩٤).

(٢) قال أبو إسماعيل الهروي في كتابه منازل السائرين: «باب التوحيد: والتوحيد على ثلاثة وجوه: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، وتوحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق، وتوحيد قائم بالقِدم وهو توحيد خاصة الخاصة، وأما التوحيد الثالث: فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقدره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار طائفة من صفوته. .»اهـ باختصار يسير. منازل السائرين (ص١٣٥ ـ ١٣٩).

(٣) الفتاوى (٥/ ١٢٤ ـ ١٢٦، ٢٣٠).

ـ **وقال الشيخ في معرض كلامه عن الصوفية وتأثر فريق منهم بأهل البدع**: «.. **وأما أبو إسماعيل الأنصاري** ـ صاحب منازل السائرين ـ: فليس في كلامه شيء من الحلول العام، **لكن في كلامه شيء من الحلول الخاص**[١] في حق العبد العارف الواصل إلى ما سماه هو: مقام التوحيد»اهـ[٢].

ـ **وقال الشيخ في موضع آخر**: «.. والذين يذكرون عن أبي يزيد وغيره كلمات من الاتحاد الخاص، ونفْي الفرق ويعذرونه في ذلك يقولون: إنه غاب عقله حتى قال: أنا الحق، وسبحاني، وما في الجبة إلا الله، .. فمثل هذا الحال التي يزول فيها تمييزه بين الرب والعبد، وبين المأمور والمحظور ليست علماً ولا حقاً، بل غايته أنه نقص عقله الذي يفرق به بين هذا وهذا، وغايته أن يُعذر، لا أن يكون قوله تحقيقاً.

وطائفة من الصوفية المُدَّعين للتحقيق يجعلون هذا تحقيقاً وتوحيداً، **كما فعله صاحب منازل السائرين**»اهـ[٣].

ـ **أبو إسماعيل الأنصاري صرح في بعض المواضع بمنزلة الفناء**[٤] وعدم التفريق بين الحسنة والسيئة:

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن القدر وضلال فريق من الصوفية فيه، وتأثرهم بالجهمية، وقول فريق منهم بالفناء وعدم التفريق بين الحسنة والسيئة: «والمقصود هنا: الكلام على مَن نفى الحِكَم والعدل والأسباب في القدر من أهل الكلام والمتصوفة، الذين وافقوا

---

(١) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الحلول والاتحاد ـ تفصيلاً ـ في مبحث سابق (١/ ٤٠٥).

(٢) شرح حديث النزول (ص٢٣٥). (٣) الفتاوى (٨/ ٣١٣).

(٤) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في القدر والفناء ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص٥١).

جهماً في هذا الأصل، وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه.. فتارة يقولون في **امتثال الأمر والنهي: إنه مقام التلبيس، أو ما يشبه هذا، كما يوجد في كلام أبي إسماعيل الهروي** صاحب منازل السائرين»اهـ[١].

- **وقال الشيخ في موضع آخر:** «وكلا الطائفتين: الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة والمحبة والدنوّ والقرب منه من غير اعتبار بالأمر والنهي المنزَلَيْن من عند الله، الذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية ولا يصلون إلى الفرق الثاني، ويقولون: إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة، ولا يستقبح سيئة، ويجعلون هذا غاية السلوك...

والفناء.. الذي جاءت به الرسل وهو: أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه،.. وصاحب هذه المتابعة لا يبقى مُريداً إلا لِمَا أحبه الله ورسوله، ولا كارهاً إلا لِما كرهه الله ورسوله،.. **وأما الذي لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، فهذا لم تبق عنده الأمور «نوعان»: محبوب للحق، ومكروه، بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق،** كما أنه مُراد.

فإن هؤلاء أصل قولهم هو قول جهم بن صفوان من القدرية، فهم من غُلاة الجهمية الجبرية في القدر، وإن كانوا في الصفات يُكفِّرون الجهمية نُفاة الصفات، **كحال أبي إسماعيل الأنصاري** صاحب (منازل السائرين).. فلمَّا كان هذا حقيقة قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه، صاروا حزبين: حزباً من أهل الكلام والرأي.. والحزب الثاني: من الصوفية: الذي كان هذا المشهد هو مُنتهى سلوكهم،...

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

فصار عندهم كلُّ مَن فرّق: إما ناقص المعرفة والشهادة، وإما ناقص القصد والإرادة، وكلاهما علّة، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية، فإنه يشهد كلَّ ما في الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، **كما قاله صاحب منازل السائرين**»اهـ[١].

ابن هود[٢]:

ـ ذكره شيخ الإسلام من جُملة الغلاة القائلين بالحلول والاتحاد:

فقال: «.. وحدثني بعض الشيوخ الذين لهم سلوك وخبرة: أنه كان هو وابن هود في مكة، فدخلا الكعبة، فقال ابن هود ـ وأشار إلى وسط الكعبة ـ: هذا مهبط النور الأول، وقال له: لو قال لك صاحب هذا البيت: أُريد أن أجعلك إلٰهاً ماذا كنت تقول له؟ قال: فقفَّ شعري من هذا الكلام وانخنست»اهـ[٣].

يحيى بن معاذ:

ـ عدّه شيخ الإسلام من الشيوخ المعتدلين:

فقال في معرض كلامه عن قول غلاة المتصوفة في الولاية والنبوّة[٤]:

---

(١) الفتاوى (٨/ ٣٣٧ ـ ٣٤٦)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: المنهاج (٥/ ٣٥٨).

(٢) هو بدر الدين حسن بن علي بن يوسف بن هود المرسي، الاتحادي الضالّ، قال الذهبي: ورأيته وكان فلسفيَّ التصوف، يشرب الخمر، وكان بينه وبين اليهود مخالطة، حتى قال مرة لمن طلب منه سلوك الطريقة: من أي الطرق الموسوية أو العيسوية أو المحمدية؟ هلك سنة ٦٩٩هـ.
انظر: سير الأعلام (٢٣/ ٢٢)، العِبر (٣/ ٣٩٨)، شذرات الذهب (٦/ ٤٤٧).

(٣) الفتاوى (١٤/ ٣٦٥).

(٤) تقدم تفصيل الكلام في ذلك في مبحث سابق (١/ ٧١٥).

«.. هذا وشيوخ التصوف المشهورون من أبرأ الناس من هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيراً عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كـ.. ويحيى بن معاذ الرازي، وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذم للجهمية والحلولية ما لا يتّسع هذا الموضع لِعُشره»اهـ[١].

أبو يزيد البسطامي:

ـ عدَّه الشيخ مِن أهل العلم والدين:

فقال في معرض كلامه عن الأحوال المبتدعة[٢]: «فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة أحوالهم ليست من كرامات الصالحين، .. ولهذا قال أهل العلم والدين ـ كأبي يزيد البسطامي وغيره ـ: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغترّوا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي»اهـ[٣].

ـ وتكلم الشيخ عما يُروى عن أبي يزيد من كلمات ظاهرُها القول بالاتحاد الخاص بين الرب والعبد، واعتذر عنه بأنه كان يقولها في حال غَيْبة العقل:

فقال في معرض كلامه عن الفناء: «.. والذين يذكرون عن أبي يزيد وغيره كلمات من الاتحاد الخاص، ونفْي الفرق ويعذرونه في ذلك يقولون: إنه غاب عقله حتى قال: أنا الحق، وسبحاني، وما في الجبة إلا الله، ويقولون: إن الحب إذا قوِيَ على صاحبه وكان قلبه ضعيفاً يغيب بمحبوبه عن حُبه، وبموجوده عن وجده، وبمذكوره عن ذِكره، حتى يفنَى مَن لم يكن ويبقى مَن لم يزل.. فمثل هذا الحال التي يزول فيها

---

(١) الدرء (٥/ ٤).

(٢) تقدم الكلام عنها تفصيلاً في مبحث سابق (ص١٦٦).

(٣) الفتاوى (١١/ ٦٦٦).

تمييزه بين الرب والعبد، وبين المأمور والمحظور ليست علماً ولا حقاً، بل غايته أنه نقص عقله الذي يفرق به بين هذا وهذا، وغايته أن يُعذر، لا أن يكون قولُه تحقيقاً، وطائفة من الصوفية المُدَّعين للتحقيق يجعلون هذا تحقيقاً وتوحيداً»اهـ[١].

ـ **وقال الشيخ ـ في موضع آخر ـ**: «وما يُذكر عن أبي يزيد البسطامي من قوله: ما في الجبة إلا الله، وقوله: أين أبو يزيد؟ أنا أطلب أبا يزيد منذ كذا وكذا سنة، ونحو ذلك، فقد حملوه على أنه كان من هذا الباب، ولهذا يُقال عنه: إنه كان إذا أفاق أنكر هذا، فهذا ونحوه كفر، لكن إذا زال العقل بسببٍ يُعذر فيه الإنسانُ، كالنوم والإغماء، لم يكن مؤاخذاً بما يصدر عنه في حال عدم التكليف، ولا ريب أن هذا من ضعف العقل والتمييز»اهـ[٢].

أبو يعقوب السجستاني:

ـ عدَّه شيخُ الإسلام من الملاحدة:

فقال في معرض كلامه عن قول الحلولية والاتحادية في توحيد الربوبية: «.. **كما قال أبو يعقوب السجستاني وغيرُه من الملاحدة**: نحن لا ننفي النقيضين، بل نسكت عن إضافة واحد منهما إليه، فلا نقول هو موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل، ..»اهـ[٣].

ـ عدّه الشيخ ـ في موضع آخر ـ من الباطنية القائلين بسقوط التكاليف عن بعض العُباد إذا بلغوا درجةً عاليةً من العبادة:

فقال شيخ الإسلام: «.. الرابع: أنهم يرون أنهم إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع، وأُبيحت لهم محرَّماته، وهذه

---

(١) الفتاوى (٨/ ٣١٣).

(٢) المنهاج (٥/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨).

(٣) الفتاوى (١٧/ ١٠٦).

طريقة الباطنية من الإسماعيلية وغيرهم، مثل أبي يعقوب السجستاني، صاحب (الأقاليد الملكوتية)، وأتباعه، وطريقة مَن وافقهم من ملاحدة الصوفية..»اهـ[١].

أبو يعقوب النهرجوري[٢]:

ـ استشهد الشيخ بقوله ـ أيضاً ـ في وزن الكرامات بميزان الكتاب والسنة، فقال: «.. العلم في لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً ما يريدون به الشريعة، كقَوْلِ أبي يعقوب النهرجوري: أفضل الأحوال ما قارن العلم»اهـ[٣].

يوسف بن إسباط:

ـ عدَّه الشيخ مِن كبار المشايخ الصالحين، الذين هم على اعتقاد أهل السنة والجماعة:

فقال: «.. والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف،.. فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ؛ مثل.. **يوسف بن أسباط**.. وأمثال هؤلاء ما يبيِّن حقيقة مقالات المشايخ»اهـ[٤].

ونخلص مما سبق إلى أن رجال الصوفية ينقسمون ثلاثة أقسام:

---

(١) الفتاوى (٢/ ٩٥)، وتقدم تفصيل الكلام على قول بعض الصوفية بسقوط التكاليف (١/ ٥٠٦).

(٢) هو إسحاق بن محمد النهرجوري، أبو يعقوب، من مشايخ الصوفية، صحِب الجُنيد وأبا عمرو المكي، توفي بمكة سنة ٣٣٠هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص٣٧٨ ـ ٣٨١)، الطبقات الكبرى (١/ ٩٥)، الرسالة القشيرية (ص٤٣٨).

(٣) الاستقامة (١/ ٩٤).

(٤) الاستقامة (١/ ٨٢)، واستشهد شيخ الإسلام ـ في موضع آخر ـ بقول ابن أسباط في الصدق مع الله (الفتاوى ١٠/ ١١).

قسم: انتسبوا إلى الصوفية، أو نسبهم المتصوفة إلى أنفسهم، وهم ليسوا منهم.

وقسم: يُعدّون من الصوفية، لكنهم لم يقعوا في الضلال الذي وقع فيه غلاة المتصوفة، ولكن يقع في كلامهم هنات.

وقسم: هم من غلاة المتصوفة، وقد ألَّفوا في تقرير المذهب، أو أُثِرَتْ عنهم عباراتٌ تقرر المذهب.

وتقدم في التمهيد لهذا المبحث أن شيخ الإسلام يُفرق ـ عند تقويم رجالات المتصوفة والحكم عليهم ـ بين هذه الأقسام الثلاثة، وهذا من عدله وإنصافه رحمه الله.





الفصل الثاني

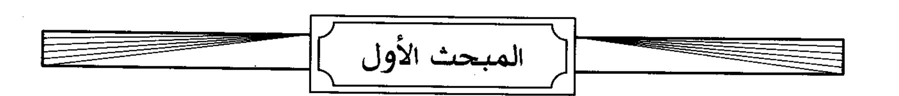
موقفه من رواياتهم ومروياتهم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ضوابطه في الحكم على مروياتهم

المبحث الثاني: موقفه من الاحتجاج بمروياتهم أو عدمه





ضوابطه في الحكم على مروياتهم

تمهيد:

كان المسلمون حتى وفاة النبي يعتمدون في الاستدلال في مسائل الدين عامّةً على الكتاب والسنة، إليهما يَرِدون، وعنهما يصدرون، وبهما يحتجُّون، ولا يقبلون من أحد ـ كائناً من كان وإن علت منزلتُه ـ مقالة في الدين حتى تكون موافقة للكتاب والسنة.

ثم بدأت بعض الاتجاهات الشاذَّةُ تطل برأسها على واقع المسلمين، وأخذ أصحابها يستدلون بكل ما يجدونه موافقاً لأهوائهم من صحيح النصوص وضعيفها، بل بدأ فريق منهم يضع بعض الأحاديث لينصر ما ذهب إليه من ابتداع. وممن كان له في هذا المضمار قَدَمُ سَبْقٍ: الصوفية؛ إذ إنهم يحتجون على معارِضهم بأحاديثَ ورواياتٍ عن أئمة أهل السنة تؤيد ما يستحسنونه ويذهبون إليه من طرق صوفية أو عبادات أو غير ذلك.

وقد كان لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ منهجٌ حسن، وضوابطُ جيدة في التعامل مع روايات المتصوفة والحكم عليها.

وقبل أن أذكر ضوابط شيخ الإسلام في الحكم على روايات المتصوفة، أُقدم قبل ذلك بذكر شيء من منهج الصوفية في الاستدلال، كما عرضه الشيخ:

أولاً: الصوفية يحتجُّون بكل رواية تؤيد مرادَهم، سواء كانت هذه الرواية صحيحةً، أم ضعيفةً، أم غير ذلك:

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أمثلة ما ينسبه كثير من أتباع المشايخ والصوفية إلى المشايخ الصادقين من الكذب، والمحال أن يكون من كلامهم المتشابه الذي تأوَّلوه على غير تأويله، أو يكون من غلطات بعض الشيوخ وزلّاتهم، أو من ذنوب بعضهم وخطئهم، مثل كثير من البدع والفجور الذي يفعله بعضهم بتأويل سائغ أو بوجه غير سائغ، فيُعفى عنه أو يتوب منه، أو يكون له حسنات يُغفر له بها، أو مصائبُ يُكَفَّر عنه بها، أو يكون من كلام المتشبهين بأولياء الله من ذوي الزَّهادات والعبادات والمقامات، وليس هو من أولياء الله المتَّقين، بل من الجاهلين الظالمين المعتدين، أو المنافقين، أو الكافرين، وهذا كثير ملأ العالم، تجد كل قوم يدعون من الاختصاص بالأسرار والحقائق ما لا يدَّعي المرسلون، وأن ذلك عند خواصِّهم، وأن ذلك لا ينبغي أن يقابل إلا بالتسليم، ويحتجون لذلك بأحاديثَ موضوعةٍ، وتفسيرات باطلة، مثل قولهم عن عمر ﵁: إن النبي ﷺ كان يتحدث هو وأبو بكر بحديث وكنت كالزنجي بينهما[1]، فيجعلون عمر مع النبي ﷺ وصدّيقه كالزنجي، وهو حاضر يسمع الكلام، ثم يدَّعي أحدهم أنه علم ذلك بما قذف في قلبه، ويدَّعي كلٌّ منهم أن ذلك هو ما يقوله من الزور والباطل.

ولو ذكرت ما في هذا الباب من أصناف الدعاوى الباطلة لطال»اهـ[2].

---

(١) الحديث: موضوع، قال الإمام ابن القيم: «ومما وضعه جهلة المنتسبين إلى السنة في فضائل الصديق ﵁ حديث عمر: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما»اهـ. (المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص١١٥.

(٢) الفتاوى (٤/ ٧٦ ـ ٧٧).

ثانياً: تقويم الشيخ للأحاديث التي يرويها المتصوفة ـ إجمالاً ـ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «.. مصنفات الفقهاء؛ فإن فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو موضوع، فالموجود في كتب الرقائق والتصوف من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع، وهذا الأمر متَّفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون أن هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا، بل نفس الكتب المصنَّفة في التفسير فيها هذا وهذا، مع أن أهل الحديثَ أقربُ إلى معرفة المنقولات، وفي كتبهم هذا وهذا، فكيف غيرهم؟! والمصنفون قد يكونون أئمةً في الفقه، أو التصوف، أو الحديث، ويروون هذا تارةً لأنهم لم يعلموا أنه كذب، وهو الغالب على أهل الدين، فإنهم لا يحتجُّون بما يعلمون أنه كذب، وتارةً يذكرونه وإن علموا أنه كذب؛ إذ قصدهم: رواية ما روي في ذلك الباب، ورواية الأحاديث المكذوبة ـ مع بيان كونها كذباً ـ جائز، وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل، فإنه حرام عند العلماء كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)**[1] . . .

والمقصود هنا: أن ما يوجد في الرسالة وأمثالها: من كتب الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من المنقولات عن النبي ﷺ وغيره من السلف فيه الصحيح والضعيف والموضوع»اهـ[2].

---

(١) الحديث: رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح (كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن روى حديثاً يرى أنه كذب، ٥/٣٦/٢٦٦٢) من حديث: المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وابن ماجه (١/١٤/٣٨) من حديث: علي رضي الله عنه، وابن حبان (المقدمة، باب الاعتصام بالسنة، ١/٢١٢/٢٩) من حديث: سمرة بن جندب رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٥/٢٨٢/ ٦٠٧٥).

(٢) الفتاوى (١٠/٦٧٨ ـ ٦٨٠).

ثالثاً: يروي بعض الصوفية الشطحات، وينسبها إلى من اشتهر بالزندقة منهم:

كالحلاج ونحوه، وقد أشار شيخ الإسلام إلى ذلك بقوله: «قد رأيت أشياءَ كثيرة منسوبةً إلى الحلاج من مصنفات وكلمات ورسائل، وهي كذب عليه، لا شك في ذلك، وإن كان في كثير من كلامه الثابت عنه فسادٌ واضطرابٌ، لكن حمّلوه أكثر مما حمله، وصار كلٌّ من يريد أن يأتي بنوع من الشطح والطامات يعزوه إلى الحلاج، لكون محله أقبل لذلك من غيره ولكون قوم ممن يعظم المجهولات الهائلة يعظم مثل ذلك»اهـ[1].

وأمام هذا اللبس الذي يقع في روايات المتصوفة، كان لشيخ الإسلام ضوابطُ في التعامل مع رواياتهم، ويمكن ـ بالاستقراء ـ حصر ضوابط شيخ الإسلام في الحكم على روايات الصوفية في خمسة ضوابط:

أولاً: الحكم على الرواية من خلال السند:

ـ **قال الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال القشيري[2] وسئل ذو النون المصري عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فقال: أثبتَ ذاته، ونَفَى مكانه، فهو موجود بذاته، والأشياء موجودة بحكمه كما شاء.

قلت: هذا الكلام لم يذكر له إسناداً عن ذي النون، وفي هذه الكتب من الحكايات المسندة شيءٌ كثير لا أصل له، فكيف بهذه المنقطعة المسيئة؟!»اهـ[3].

ـ **وقال الشيخ بعد سياقه كلاماً رُوي عن الحلاج:** «قلت: هذا

(١) الاستقامة (١/ ١١٩).

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٤٠).

(٣) الاستقامة (١/ ١٨٨).

الكلام والله أعلم هل هو صحيح عن الحلاج أم لا؟، **فإن في الإسناد من لا أعرف حاله**»اهـ[(١)].

ـ **وقال الشيخ في موضع آخر**: «وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته، كلام حسن، **لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل**..»اهـ[(٢)].

ـ **وقال الشيخ في معرض كلامه على ما ذكره أصحاب عدي بن مسافر من سندٍ في لبس الشيخ عدي للخرقة**[(٣)]: «.. وأما الخرقة، فقالوا: دخل على الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الخرقة بيده، والشيخ عقيل لبس الخرقة من يد الشيخ مسلمة المردجي، والشيخ مسلمة لبس الخرقة من يد الشيخ أبي سعيد الخراز.

قلت: هذا كذب واضح، فإن مسلمة لم يدرك أبا سعيد، بل بينهما أكثر من مائة سنة، بل قريباً من مائتي سنة، ثم قالوا: والشيخ أبو سعيد الخراز لبس الخرقة من يد الشيخ أبي محمد العنسي، والعنسي لبسها من يد الشيخ علي بن عليل الرملي، والشيخ علي بن عليل لبسها من يد والده الشيخ عليل الرملي، والشيخ عليل لبس الخرقة من يد الشيخ عمار السعدي، والشيخ عمار السعدي لبس الخرقة من يد الشيخ يوسف الغساني، والشيخ يوسف الغساني لبس الخرقة من يد والده الشيخ يعقوب الغساني، والشيخ يعقوب الغساني لبس الخرقة من يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم خطب الناس بالجابية[(٤)]، وعمر بن

---

(١) الاستقامة (١/١١٩).

(٢) الفتاوى (١٠/٦٨٦).

(٣) تقدم الكلام عن مذهب الصوفية في الخرقة ونحوها ـ تفصيلاً ـ في مبحث خاص (ص٣٢٧).

(٤) الجابية: قال في معجم البلدان: «الجابية ـ بكسر الباء وياء مخففة ـ وأصله في =

الخطاب رضي الله عنه لبس الخرقة من يد رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لبس الخرقة من يد جبرائيل، وجبرائيل من الله تعالى!.

قلت: لبس عمر للخرقة وإلباسه، ولبس رسول الله ﷺ للخرقة وإلباسه، يعرف كل من له أدنى معرفة أنه كذب، **وأما الإسناد المذكور ما بين أبي سعيد**[1] **إلى عمر فمجهول**، وما أعرف لهؤلاء ذكراً لا في كتب الزهد والرقائق، ولا في كتب الحديث والعلم، ومن الممكن أن يكون بعض هؤلاء كانوا شيوخاً وقد رَكّب هذا الإسناد عليهم من لم يعرف أزمانهم، والله أعلم بحقيقة أمرهم»اهـ[2].

ـ وقال الشيخ في معرض كلامه عن الأبدال وغلوّ طائفة من المتصوفة فيهم: «ورُوِي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً، وأنهم بالشام، وهو في (المسند) من حديث علي رضي الله عنه **وهو حديث منقطع** ليس بثابت»اهـ[3].

ـ وقال الشيخ في معرض رده على فريق من الصوفية، في تركهم للجهاد بزعم أن أعظم الجهاد هو جهاد النفس: «أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك: **(رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)**[4]، **فلا أصل له، ولم يروه أحد من أهل المعرفة** بأقوال النبي ﷺ

= اللغة: الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، قال الأعشى:

كجابية الشيخ العراقي تفهق

وهي قرية من أعمال دمشق»اهـ. معجم البلدان لياقوت (٢/ ٩١).

(١) يعني أبا سعيد الخراز، تقدمت ترجمته (١/ ١٦٠).

(٢) الفتاوى (١١/ ١٠٤).

(٣) الفتاوى (١١/ ١٦٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً بمعناه ـ في: الفتاوى (١١/ ٤٣٤).

(٤) قال العجلوني في «كشف الخفاء»: قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن علية.اهـ، والحديث أورده =

وأفعاله»اهـ[(١)].

ـ **وقال الشيخ**: «وما يرويه بعض العامة من أنه قال: **(إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عظيم)**[(٢)]، **فهو حديث كذب موضوع، لم يروه أحد من أهل العلم**، ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الدين»اهـ[(٣)].

ثانياً: الحكم على الرواية من خلال المتن:

قال الشيخ: «والأحاديث التي يروونها في استماع النبي ﷺ هو وأصحابه، وتواجده وسقوط البردة عن ردائه، وتمزيقه الثوب، وأخذ جبريل لبعضه وصعوده إلى السماء، وقتال أهل الصفة مع الكفار، واستماعهم لمناجاته ليلةَ الإسراء، والأحاديث المأثورة في نزول الرب إلى الأرض يوم عرفة، وصبيحة مزدلفة، ورؤية النبي ﷺ له في الأرض بعين رأسه، وأمثال هذه الأحاديث المكذوبة التي يطول وصفها، فإن المكذوب من ذلك لا يحصيه أحد إلا الله تعالى؛ لأن الكذب يحدث شيئاً فشيئاً، ليس بمنزلة الصدق الموروث عن النبي ﷺ الذي لا يحدث بعده، وإنما يكون موجوداً في زمنه ﷺ، وهو محفوظ محروس بنقل خلفاء الرسول ﷺ وورثة الأنبياء.

وكان من الدلائل على انتفاء هذه الأمور المكذوبة وغيرها وجوه:

= الغزالي في الإحياء، وقال فيه الحافظ العراقي: أخرجه البيهقي في الزهد عن جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف.اهـ.

انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني (١/ ٥١١)، المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (٣/ ١٤، مطبوع بذيل الإحياء، ط. دار قتيبة بيروت، ١٤١٢هـ).

(١) الفتاوى (١١/ ١٩٧). (٢) الحديث: لم أقف عليه.

(٣) الفتاوى (٢٧/ ١٢٦).

أحدها: أن ما توفرت همم الخلق ودواعيهم على نقله وإشاعته يمتنع في العادة كتمانه، فانفراد العدد القليل به يدل على كذبهم، كما:

يُعلم كذب من خرج يوم الجمعة وأخبر بحادثة كبيرة في الجامع، مثل سقوط الخطيب وقتله وإمساك أقوام في المسجد، إذا لم يخبر بذلك إلا الواحد والاثنان.

ويُعلم كذب من أخبر أن في الطرقات بلاداً عظيمة وأمماً كثيرين، ولم يخبر بذلك السيارة، وإنما انفرد به الواحد والاثنان.

ويُعلم كذب من أخبر بمعادن ذهب وفضة متيسرة لمن أراد، بمكان يعلمه الناس، ولم يخبر بذلك إلا الواحد والاثنان.

وأمثال ذلك كثيرة، فباعتبار العقل وقياسه وضربه الأمثال يعلم كذب ما ينقل من الأمور، التي مضت سنة الله بظهورها وانتشارها لو كانت موجودة.

كما يُعلم أيضاً صدق ما مضت سنة الله في عباده، أنهم لا يتواطؤون فيه على الكذب من الأمور المتواترة والمنقولات المستفيضة؛ فإن الله جبل جماهير الأمم على الصدق والبيان في مثل هذه الأمور دون الكذب والكتمان، كما جبلهم على الأكل والشرب واللباس، فالنفس بطبعها تختار الصدق إذا لم يكن لها في الكذب غرض راجح، وتختار الإخبار بهذه الأمور العظيمة دون كتمانها، والناس يستخبر بعضهم بعضاً، ويميلون إلى الاستخبار والاستفهام عما يقع، وكل شخص له من يؤثر أن يصدِّقه ويبيِّن له، دون أن يكذبه ويكتمه.

والكذب والكتمان يقع كثيراً في بني آدم في قضايا كثيرةٍ لا تنضبط، كما يقع منهم الزنى وقتل النفوس والموت جوعاً وعرياً، ونحو ذلك، لكن ليس الغالب على أنسابهم إلا الصحة، وعلى أنفسهم إلا البقاء، فالغرض هنا أن الأمور المتواترة يعلم أنهم لم يتواطؤوا فيها على

الكذب، والأخبار الشاذة يعلم أنهم لم يتواطؤوا فيها على الكتمان.

الوجه الثاني: أن دين الأمة يوجب عليهم تبليغ الدين وإظهاره وبيانه، ويحرم عليهم كتمانه، ويوجب عليهم الصدق، ويحرم عليهم الكذب، فتواطؤهم على كتمان ما يجب بيانه كتواطئهم على الكذب، وكلاهما من أقبح الأمور التي تحرم في دين الأمة، وذلك باعث موجب الصدق والبيان.

الثالث: أنه قد علم من عدل سلف الأمة ودينها وعظيم رغبتها في تبليغ الدين وإظهاره وعظيم مجانبتها للكذب على الرسول ﷺ، ما يوجب أعظم العلوم الضرورية بأنهم لم يكذبوا فيما نقلوه عنه، ولا كتموا ما أمرهم بتبليغه، وهذه العادة الحاجيَّة الخاصة الدينية لهم غير العادة المشتركة بين جنس البشر.

الرابع: أن العلماء الخاصة يعلمون من نصوص رسول الله ﷺ الموجبة عليهم التبليغ، ومن تعظيمهم لأمر الله ورسوله، ومن دين آحادهم، مثل الخلفاء.. يعلمون علماً يقيناً لا يخالجه ريب امتناع هؤلاء من كتمان قواعد الدين التي يجب تبليغها إلى العامة، كما يعلمون امتناعهم من الكذب على رسول الله ﷺ، ويعلم أيضاً أهل الحديث مثل أحوال المشاهير بمعرفة ذلك.. أموراً يعلمون معها امتناعهم من الكذب، وامتناعهم عن كتمان تبليغ هذه الأمور العظيمة التي تأبى أحوالهم كتمانَها لو كانت موجودةً، ولهم في ذلك أسبابٌ يطول شرحها.

وليس الغرض هنا تقرير ذلك، وإنما الغرض التنبيه على ما وقع من الشبهة لبعض الناس من أهل الأهواء»اهـ[1].

ـ **وقال شيخ الإسلام**: «وما يذكره بعض الناس عنه أنه قال: (زدني

---

(١) الفتاوى (٢٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥).

فيك تحيراً)[١]:

كذب باتفاق أهل العلم بحديثه ﷺ، بل هذا سؤال مَنْ هو حائر، وقد سأل المزيد من الحيرة، ولا يجوز لأحد أن يسأل ويدعو بمزيد الحيْرة إذا كان حائراً، بل يسأل الهدى والعلم، فكيف بمن هو هادي الخلق من الضلالة؟، وإنما يُنقل مثل هذا عن بعض الشيوخ الذين لا يُقتدى بهم في مثل هذا، إن صحَّ النقل عنه»اهـ[٢].

ـ وقال الشيخ في معرض رده على الاتحادية: «وقال فيه[٣]: المنقول عن عيسى عليه السلام أنه قال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ اشتاق بأن يرى ذاته المقدَّسة، فخلق من نوره آدم عليه السلام، وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها، وإني أنا ذلك النور وآدم المرآة..»اهـ[٤].

ثم قال الشيخ مجيباً عما نقلوه عن عيسى عليه السلام:

«وأما المنقول عن عيسى بن مريم صلوات الله عليه: **فهو كذب عليه، وهو كلام ملحد كاذب وضعه على المسيح، وهذا لم ينقله عنه مسلم ولا نصراني**، فإنه لا يوافق قول النصارى، فإن قوله: إن الله اشتاق أن يرى ذاته المقدسة، فخلق من نوره آدم، وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها، وإني أنا ذلك النور وآدم المرآة: فهذا الكلام ـ مع ما فيه من الكفر والإلحاد ـ متناقض؛ وذلك أن الله سبحانه يرى نفسه كما يسمع كلام نفسه، وهذا رسول الله ﷺ ـ وهو عبدٌ مخلوق لله ـ قال لأصحابه: **(إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من بين يدي)**[٥]، فإذا كان

---

(١) الحديث: لم أقف عليه. (٢) الفتاوى (٥/١٧٩).

(٣) يعني ابن عربي وكتابه فصوص الحكم، وقد تقدم التعريف بابن عربي وكتابه وبيان موقف الشيخ من كل منهما، في مبحثين سابقين (ص٣٦٠، ٤٥٨).

(٤) الفتاوى (٢/٢٨٨).

(٥) الحديث: في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: =

المخلوق قد يرى ما خلقه ـ وهو أبلغ من رؤية نفسه ـ فالخالق تعالى كيف لا يرى نفسه؟.

وأيضاً: فإن شوقَه إلى رؤية نفسه حتى خلق آدم: يقتضي أنه لم يكن في الأزل يرى نفسه حتى خلق آدم، ثم ذلك الشوق إن كان قديماً: كان ينبغي أن يفعل ذلك في الأزل، وإن كان محدَثاً، فلا بد من سبب يقتضي حدوثه، مع أنه قد يقال: الشوق أيضاً صفة نقص، ولهذا لم يثبت ذلك في حق الله تعالى، وقد رُوِي: (طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوق)[1] وهو حديث ضعيف.

وقوله: (فخلق من نوره آدم، وجعله كالمرآة وأنا ذلك النور، وآدم هو المرآة) يقتضي أن يكون آدمُ مخلوقاً من المسيح، وهذا نقيض الواقع، فإن آدم خُلق قبل المسيح، والمسيح خلق من مريم، ومريم من ذرية آدم، فكيف يكون آدم مخلوقاً من ذريته؟ وإن قيل: المسيح هو نور الله، فهذا القول ـ وإن كان من جنس قول النصارى ـ فهو شَرٌّ من

= (هل ترون قبلتي ههنا، فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم؛ إني لأراكم من وراء ظهري). البخاري (كتاب أبواب المساجد، باب عظة الإمام الناس في لإتمام الصلاة، ١/ ١٦١/ ٤٠٨)، ومسلم (كتاب الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها، ١/ ٣١٩/ ٤٢٤).

(١) الحديث: أورده الغزالي في الإحياء في مواضع (٣/ ٤٨٥، ٤/ ٤٦٩) ولم يعزه إلى أحد، ولم يتكلم عليه العراقي بشيء، ولعله يغني عنه ما أخرجه الأزدي في جامعه (باب الدعاء، ٢/ ٤٤٢/ ح١٩٦٤٧)، والحاكم في المستدرك (ذِكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله، ١/ ٧٠٥/ ح١٩٢٣)، والنسائي في السنن الكبرى (باب: نوع آخر من الدعاء، ١/ ٣٨٧/ ح١٢٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٥)، عن عطاء بن السائب وعمار بن ياسر أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: (اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك)، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ١/ ٤١١/ ح١٣١٢).

قول النصارى، فإن النصارى يقولون: إن المسيح هو الناسوت، واللاهوت الذي هو الكلمة هي جوهر الابن، وهم يقولون: اتحاد اللاهوت والناسوت متجدِّد حين خلق بدن المسيح، لا يقولون: إن آدم خلق من المسيح؛ إذ المسيح عندهم اسم اللاهوت والناسوت جميعاً، وذلك يمتنع أن يخلق منه آدم.

وأيضاً: فهم لا يقولون: إن آدم خلق من لاهوت المسيح.

وأيضاً: فقول القائل: إن آدم خلق من نور الله الذي هو المسيح، إن أراد به نوره الذي هو صفة لله: فذاك ليس هو المسيح الذي هو قائم بنفسه؛ إذ يمتنع أن يكون القائم بنفسه صفةً لغيره، وإن أراد بنوره ما هو نور منفصل عنه: فمعلوم أن المسيح لم يكن شيئاً موجوداً منفصلاً قبل خلق آدم، فامتنع على كلٍّ أيضاً، فإذا كان آدم كالمرآة وهو ينظر إلى ذاته المقدسة فيها: لزم أن يكون الظاهر في آدم هو مثال ذاته، لا أنَّ آدم هو ذاته، ولا مثال ذاته، ولا كذاته، وحينئذ فإن كان المراد ذلك أن آدم يعرف الله تعالى: فيرى مثال ذاته العلمي في آدم، فالرب تعالى يعرف نفسه، كان المثال العلمي إذا أمكن رؤيته كانت رؤيته للعلم المطابق له القائم بذاته أولى من رؤيته للعلم القائم بآدم، وإن كان المراد: أن آدم نفسه مثال لله، فلا يكون آدم هو المرآة، بل يكون هو كالمثال الذي في المرآة.

وأيضاً: فتخصيص المسيح بكونه ذلك النور: هو قول النصارى الذين يخصُّونه بأنه ابن الله، وهؤلاء الاتحادية ضموا إلى قول النصارى قولهم بعموم الاتحاد حيث جعلوا في غير المسيح من جنس ما تقوله النصارى في المسيح»اهـ[١].

---

(١) الفتاوى (٢/ ٢٨٨، ٣١٦).

ثالثاً: الحكم على الرواية من خلال الإسناد والمتن جميعاً:

ومن ذلك:

قال شيخ الإسلام: «.. قيل ليحيى بن معاذ:

أخبرني عن الله.

فقال: إلهٌ واحد.

فقال: كيف هو؟

فقال: ملك قادر.

فقال: أين هو؟.

فقال: بالمرصاد.

فقال السائل: لم أسألك عن هذا.

فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوق، فأما صفته، فما أخبرتك عنه.

قلت: لا تُعْلَم صحة هذا الكلام عن يحيى بن معاذ؛ **إذ في الإسناد من لا نعرفه، وكلام يحيى بن معاذ عندهم دون كلام الكبار** من أهل التحقيق في المعاملات وغيرها، فإنه يتكلم في الرجاء بكلام يشبه كلام سِفْلة المرجئة، لا يوافق أصول المشايخ الكبار المتمسكين بالسنة، ويدَّعي في التوحيد مقاماً هو الغاية، وقد عاب عليه أبو يزيد وغيره، وكلامه يشبه كلام الوعاظ، وهي طريقة أبي القاسم ونحوه، وهذا الكلام المذكور من هذا الباب، فإنه ليس كل ما لم يذكره في هذا الجواب بصفة المخلوق لله، بل لله صفات كثيرة عظيمة، لم تدخل في هذا الكلام، ثم صفة المخلوق إن كان لأجل الاشتراك في الاسم، فقوله: ملك قادر وإنه بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥].

وأيضاً: فالجواب عن: أين هو؟ خلاف الجواب الذي رضيه

رسول الله ﷺ وأقره، وحكم بإيمان قائله، وخلاف ما أجاب به هو سائله، فإنه لما قال: أين الله؟ فقيل له: في السماء، رضي بهذا وأقرَّ صاحبه، ولم يقل: هذا صفة المخلوق، وقد روى شيخ الإسلام الأنصاري الهروي صاحب (علل المقامات) و(منازل السائرين) في كتابه المسمى بالفاروق بإسناد عن يحيى بن معاذ أنه قال: إن الله على العرش، بائن من خلقه، وقد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، لا يشذ عن هذه المقالة إلا جهمي رديء»اهـ[1].

ـ **وقال الشيخ**: «وحكى إسماعيل بن علية، قال:

كنت أمشي مع الشافعي رحمه الله وقت الهاجرة، فجزنا بموضع يقول فيه أحد شيئاً.

فقال: مِل بنا إليه، ثم قال: أيطربك هذا؟

فقلت: لا.

فقال: ما لك حِسٌّ.

قلت: قد كان مستغنياً عن أن يستشهد على الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعي، فإن إسماعيل بن علية شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه، ولم يرو هذا عن الشافعي، بل الشافعي روى عنه، وهو من أجلّاء شيوخ الشافعي، وابنه إبراهيم بن إسماعيل كان متكلماً، تلميذاً لعبد الرحمن بن كيْسَان الأصم، أحد شيوخ المعتزلة، وكان قد ذهب إلى مصر، وكان بينه وبين الشافعي مناوأة، حتى كان الشافعي يقول فيه: أنا مخالف لابن علية في كل شيء حتى في قول لا إله إلا الله؛ لأني أقول: لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء الحجاب، وهو يقول: لا إله إلا الله الذي خلق في الهواء كلاماً يسمعه موسى، وهذا يذكر له أول

---

(١) الاستقامة (١/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

رسالة في أصول الفقه، ويظن بعض الناس أن ابنه يشتبه بأبيه، فإنه شيخ الشافعي وأحمد وطبقتهما.

فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة مَنْ له أدنى معرفة بالناس، ولو صحَّت عمَّن صحَّت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرَك بالإحساس من أن الصوت الطيب لذيذ مطرب، وهذا يشترك فيه جميع الناس ليس هذا من أمور الدين حتى يستدل فيه بالشافعي، بل ذكْر الشافعي في مثل هذا غضٌّ من منصبه، مثل ما ذكر ابن طاهر عن مالك رحمه الله حكاية مكذوبة، وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين، ولو حكى مثل هذا عن إسحاق بن إبراهيم النديم وأبي الفرج الأصبهاني صاحب (الأغاني) لكان أنسب من أن يحكيَها عن الشافعي.

ثم يقال: كون الصوت الحسن فيه لذة أمر حسيّ، لكن أي شيء في هذا مما يدل على الأحكام الشرعية من كونه مباحاً أو مكروهاً أو محرماً؟ ومن كون الغناء قربة أو طاعة؟ بل مثل هذا أن يقول القائل: استلذاذ النفوس بالوطء مما لا يمكن جحوده، واستلذاذها المباشرة للجميل من النساء والصبيان مما لا يمكن جحوده، واستلذاذها بالنظر إلى الصور الجميلة مما لا يمكن جحوده،.. فأي دليل في هذا لمن هداه الله على ما يحبه الله ويرضاه، أو يبيحه أو يحله؟»اهـ[١].

- **وقال الشيخ في موضع آخر:** «ثم قال أبو القاسم[٢].. الجنيد يقول وسئل: ما بال الإنسان يكون هادئاً، فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إن الله لمَّا خاطب الذرَّ في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حرَّكهم ذِكْرُ ذلك.

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٦٤٣).

قلت: هذا الكلام لا يعلم صحته عن الجنيد، والجنيد أجلُّ من أن يقول مثلَ هذا؛ فإن هذا الاضطراب يكون لجميع الحيوان ناطِقِه وأعجمِه، حتى يكون في البهائم أيضاً، ويكون للكفار والمنافقين، ثم الاضطراب قد يكون: لحلاوة الصوت ومحبته. وقد يكون: للخوف منه وهيبته، وقد يكون: للحزن والجزع، وقد يكون: للغضب. ثم من المعلوم أن الصوت المسموع ليس هو ذاك أصلاً ولو سمع العبد كلام الله كما سمعه موسى بن عمران لم يكن سماعه لأصوات العباد محركاً لذكر ذلك، بل المأثور أن موسى مقت الآدميين لَمَّا وقر في مسامعه من كلام الله، ثم التلذذ بالصوت أمر طَبَعي، لا تعلُّق له بكونهم سمعوا صوت الرب أصلاً، ثم إن أحداً لا يذكر ذلك السماع أصلاً إلا بالإيمان، والناس متنازعون في أخذ الميثاق، وفي ذلك السماع بما ليس هذا موضعه.

ثم إن مذهب الجنيد في السماع: كراهة التكلُّف لحضوره والاجتماع عليه، وعنده أن مَنْ تكلَّف السماع فتن به، فكيف يعلله بهذا؟»اهـ[١].

ـ **وقال الشيخ**: «قال أبو القاسم: وحكي عن أحمد بن أبي الحواري أنه قال: سألت أبا سليمان[٢] عن السماع، فقال: من اثنين أحب إلي من الواحد.

قلت: هذه المقالة ذكرها مرسلةً، فلا يعتمد عليها، وإن أريد بها السماع المحدَث، فهي باطلة عن أبي سليمان، **فإن أبا سليمان** رضي الله عنه لم يكن من رجال السماع، ولا معروفاً بحضوره»اهـ[٣].

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، وقد تقدم في مبحث خاص تفصيل الكلام في مسألة السماع، وأقوال مشايخ المتصوفة فيه (ص١٨٨).

(٢) أبو سليمان الداراني، تقدمت ترجمته، انظر (١/ ٣٤١).

(٣) الاستقامة (١/ ٤١٠).

ـ **وقال الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو القاسم[١]: وقال ابن عطاء[٢]: لَمَّا خلق الله الأحرف جعلها سراً، فلما خلق آدم بث ذلك السر فيه، ولم يبث ذلك السر في أحد من الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم بفنون الجريان، وفنون المعارف، فجعلها الله صوراً لها.

قال أبو القاسم: صرح ابن عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ بأن الحروف مخلوقة.

قلت: لم يذكر لهذه الحكاية إسناداً، ومثل هذا لا تقوم به حجة، ولا يحل لأحد أن يدل المسلمين في أصول دينهم بكلام لم تعرف صحة نقله، مع ما علم من كثرة الكذب على المشايخ المقتدَى بهم، فلا يثبت بمثل هذا الكلام قول لابن عطاء ولا مذهب، بل قد ظهر على هذه الحكاية من كذب ناقلها، وجهل قائلها ما لا يصلُح معه أن يُحمَد الاعتقاد بها، فلو فرض أن هذه الحكاية قالها بعض الأعيان، لكان فيها من الغلط ما يردُّها على قائلها، وكذلك أن الله لم يخصَّ آدمَ بالأحرف، وإنما خصه بتعليم الأسماء كلها، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١]، وقد تنازع الناس: هل المراد بها أسماء من يعقل؟ لقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، أو أسماء كل شيء؟ على قولين: . .

---

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٤٢).

(٢) هو أحمد بن عطاء بن أحمد: أبو عبد الله الروذباري ـ ابن أخت أبي علي الروذباري ـ أسند الحديث، وكان يتكلم على مذهب الصوفية، من كلامه الحسن قوله: الخشوع في الصلاة علامة الفلاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وترك الخشوع في الصلاة علامة النفاق وخراب القلب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، توفي سنة ٣٦٩هـ.

انظر: البداية والنهاية (٨/ ٤٩، حوادث سنة ٣٦٩هـ)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٨/ ٧٠٩)، طبقات الصوفية (ص٤٩٧ ـ ٥٠٠)، شذرات الذهب (٣/ ٦٨).

والثاني أصح؛ لأن في الصحيحين في حديث الشفاعة عن النبي ﷺ: **(يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجَدَ لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شيء)**[1]، ويبين ذلك أن الملائكة كانوا يتكلمون قبل أن يخبرهم آدم بالأسماء، وقد خاطبوا الله وخاطبوا آدم قبل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية [البقرة: ٣٠]، قال: وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **(لمَّا خلق الله آدم قال: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة، فسلِّمْ عليهم واسمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك، فذهب إليهم، فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فزادوه)**[2].

وأيضاً: فآدم عليه السلام تكلم قبل أن يعلمه الله أسماء كل شيء، كما في الصحيحين: **(إن الله لما خلق آدم عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله له: يرحمك ربك)**[3].

---

(١) الحديث: رواه البخاري (كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ٤/١٦٢٤/٤٢٠٦)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٨٠/١٩٣) من حديث: أنس رضي الله عنه.

(٢) الحديث: رواه البخاري (كتاب الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ٣/ ١٢١/٣١٤٨)، ومسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام مثل أفئدة الطير، ٤/ ٢١٨٣/ ٢٨٤١) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحديث: رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، بابٌ، ٥/ ٤٥٣/٣٣٦٨)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم **يخرجاه** (كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ٢/ ٢٨٧/٣٠٣٦) من حديث: عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وابن حبان (كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ١٤/ ٤٠/ ٦١٦٧) من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث صححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٥/٤٩/ح٥٠٨٥)، ولم أجد الحديث في صحيح البخاري ولا في صحيح مسلم.

وأيضاً: فمن المعلوم أن الملائكة كانوا يسبِّحون الله ويمجِّدُونه قبل خلق آدم، وقبل إخباره إياهم بالأسماء، فكيف يظنُّ ظانٌّ أن النطق كان مختصًا بآدمَ لما علم الأسماء؟.

وأيضاً: فإن هذه الحكاية من قائلها الأول مرسلَة، لا إسناد لها، ولم يأثرها عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، وأحسن أحوالها أن تكون من الإسرائليات التي إذا لم يعرف أنها حق أو باطل لم يصدَّق بها ولم يُكذَّب، ومثل هذه لا يعتمد عليها في الدين بحال، والمعروف عن بعض المشايخ حكاية لو ذكرها أبو القاسم لكان احتجاجه بها أمثلَ؛ وهو ما أن الإمام أحمد ذُكِرَ له عن السريِّ السقطي أنه ذكر عن بكر بن حبيش العابد أنه قال: لمّا خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف، فقالت: لا أسجد حتى أؤمر فقال أحمد: هذا كفر.

وهذا الكلام لم يقله بكر بن حبيش والسري ونحوه من العُبَّاد إلا ليبينوا الفرق بين من لا يفعل إلا ما أمر به ومن يعتمد[1] بما لم يؤمر به من البدع، وهذا مقصودٌ صحيح، فإن العمل الصالح المقبول هو ما أمر الله به ورسوله، دون ما شرع من الدين الذي لم يأذن به الله، لكن كثير من العبَّاد لا يحفظ الأحاديث ولا أسانيدها، فكثيراً ما يغلطون في إسناد الحديث أو متنه؟ ولهذا قال يحيى بن سعيد: ما رأينا الصالحين في شيء أكذبَ منهم في الحديث، يعني على سبيل الخطأ»اهـ[2].

ـ **وقال الشيخ**: «قال[3] وقيل: قال موسى: إلهي دُلَّني على عمل إذا عملته رضيت عني، فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخرّ موسى ساجداً متضرعاً، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران، رضائي في رضائك عني.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلّ الأصوب: يتعبد.

(٢) الاستقامة (١/١٩٨ ـ ٢٠١).

(٣) يعني القشيري في الرسالة، وهذا الكلام هو في الرسالة القشيرية (٢/ ٤٢٣).

فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر، فإنه قد يقال: لا يصلُح أن يحكى مثلها عن موسى عليه السلام، ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد ولا تقوم بها حجة في شيء من الدين، إلا إذا كانت منقولةً لنا نقلاً صحيحاً، مثل ما ثبت عن نبينا ﷺ أنه حدثنا به عن بني إسرائيل، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه، فإن موسى عليه السلام من أعظم أولي العزم وأكابر المرسلين، فكيف يقال: إنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه، والله تعالى رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمن؟.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦ ـ ٧]، ومعلوم أن موسى عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم إن الله خصّ موسى بمزية فوق الرضا، حيث قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، ثم إن قوله له في الخطاب: يا ابن عمران، يخالف ما ذكره الله من خطابه له في القرآن حيث قال: ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٤][1]، وذلك الخطاب فيه نوع غضٍّ منه كما يظهر،.. وإذا تبين أن فيما ذكره مسنداً ومرسلاً ومعلقاً ما هو صحيح، فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلة، وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس»اهـ[2].

ـ **وقال الشيخ**: «فصل: فيما ذكره الأستاذ أبو القاسم القشيري في باب الرضا[3] عن الشيخ أبي سليمان الداراني رحمه الله أنه قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار، فإن الناس تنازعوا في هذا

---

(١) ونادى الله تعالى موسى عليه السلام بقوله عز وجل: ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾ في آيات كثيرة، منها: طه: ١٠، ١٧، ٣٦، ٤٠، النمل: ٩، ١٠، القصص: ٣٠، ٣١.

(٢) الاستقامة (٢/ ٨٢ ـ ٨٤).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٢٥).

الكلام، فمنهم من أنكره ومنهم من قبله والكلام على هذا الكلام من وجهين:

أحدهما: من جهة ثبوته عن الشيخ أبي سليمان.

والثاني: من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يعلم أن الأستاذ أبا القاسم القشيري لم يذكره عن الشيخ أبي سليمان بإسناد وإنما ذكره مرسلاً..»اهـ[١].

رابعاً: الرد على رواياتهم الضعيفة بروايات صحيحة ثابتة:

ومن ذلك:

ـ **قول الشيخ**: «قال أبو القاسم: قال سهل بن عبد الله: إن الحروف لسان فعل لا لسان ذات؛ لأنها فعل في مفعول. قال: وهذا أيضاً صريح؛ لأن[٢] الحروف مخلوقة، **قلت**: هذا الكلام ليس له إسناد عن سهل، وكلام سهل بن عبد الله وأصحابه في السنة والصفات والقرآن أشهر من أن يذكر هنا، وسهل من أعظم الناس قولاً بأن القرآن كله حروفه[٣] ومعانيه غير مخلوقة، بل صاحبه أبو الحسن بن سالم أخبرُ الناس بقوله قد عرف قوله وقول أصحابه في ذلك.

وقد ذكر أبو بكر بن إسحاق الكلاباذي في (التعرف في مذاهب التصوف) عن الحارث المحاسبي وأبي الحسن بن سالم أنهما كانا يقولان: إن الله يتكلم بصوت، ومذهب السالمية أصحاب سهل ظاهر في ذلك، **فلا يترك هذا الأمر المشهور المعروف الظاهر لحكاية مرسَلَة لا**

---

(١) الاستقامة (٢/ ٦٥ ـ ٦٧).

(٢) في القشيرية: بأن...

(٣) في المطبوع، حروف، ولعل الصواب ما أثبته.

إسنادَ لها، ثم هذا الكلام في ظاهره من قِلَّةِ المعرفة ما لا يصلُح أن يضاف إلى سهل بن عبد الله؛ لأن قوله: لأنها فعل في مفعول، إن أراد فعل قائم بذات الله؛ كما يقال تكلم وخلق ورزق عند الجمهور الذين يقولون: هذه أمور قائمة بذاته، فقوله بعد ذلك: في مفعول، لا يصلح؛ فإنه فعل قائم بذات الله ليس في مفعول، وإن أراد بها: فعل منفصل عن الله، فكلٌّ متَّصل عن الله فهو مفعول، مثل قول القائل: مفعول في مفعول، وفعل في فعل، وهذا لا يصلح أن يحتج به؛ لأنه متى علم أنها مفعولة، وأنها فعل بمعنى مفعول، فسواء كانت في نظيرها أو لم تكن، هي مخلوقة، وإن قيل: إنه أراد فعل في الآدمي الذي هو مفعول، فيقال: كلاهما مفعول.

وأيضاً: فهذا إنما يدل على أن أصوات العباد ومدِادَهم مخلوق لا يدل على أن الحروف التي هي من كلام الله مخلوقة»اهـ[١].

خامساً: ذِكْر قاعدة عامة:

ومن ذلك قول الشيخ في معرض كلامه عن الأبدال[٢] وغلوّ طائفة من المتصوفة فيهم:

«.. كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب؛ مثل: أربعة، أو سبعة، أو اثني عشر، أو أربعين، أو سبعين، أو ثلاثمائة، وثلاثة عشر، أو القطب الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال»اهـ[٣].

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩).

(٢) تقدم تفصيل معنى الأبدال ومراد الصوفية بهم (١/ ٥٥٠).

(٣) الفتاوى (١١/ ١٦٧)، وانظر هذا الكلام ـ أيضاً ـ في: الفرقان (ص١٢ ـ ١٣).

سادساً: إذا كانت الروايةُ ظاهرةَ الكذبِ، فإن الشيخ يكتفي بقوله: هذا كذب، دون أن يتوسع في بيان وجه كونها كذباً:

ومن ذلك:

ـ قول الشيخ في معرض كلامه عن احتجاج فريق من المتصوفة على أن للدين ظاهراً وباطناً، وأن من الدين ما هو سرٌّ يعلمه الخاصَّة دون العامَّة:

«.. مثل من يزعم أن من خواص الأولياء، أو العلماء، أو الفلاسفة، أو أهل الكلام، أو الملوك، مَنْ له طريقٌ إلى الله تعالى غير متابعة رسوله، ويذكرون في ذلك من الأحاديث المفتراة، ما هو أعظمُ الكفر والكذب، كقول بعضهم: إن الرسول ﷺ استأذن على أهل الصُّفَّة، فقالوا: اذهب إلى من أنت رسولٌ إليه، وقال بعضهم: إنهم أصبحوا ليلةَ المعراج، فأخبروه بالسر الذي ناجاه الله به، وأن الله أعلمهم بذلك بدون إعلام الرسول ﷺ، وقول بعضهم: إنهم قاتلوه في بعض الغزوات مع الكفار، وقالوا: من كان الله معه أنا معه، وأمثال ذلك من الأمور التي هي من أعظم الكفر والكذب،.. وأمثال هذه الأمور التي كثُرت في كثيرٍ مِنَ المنتسبين إلى الزهد والفقر والتصوف والكلام والتفلسف، وكفر هؤلاء قد يكون مِنْ جنس كفر اليهود والنصارى»اهـ[(١)].

ـ وقال الشيخ رحمه الله: «وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان، وكنت بينهما كالزنجي، وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث»اهـ[(٢)].

وبما سبق مما نقله شيخ الإسلام عن المتصوفة، وما ردّ به عليهم، يتأكد لنا صحة ما قررناه في التمهيد لهذا المبحث، وهو أن المتصوفة

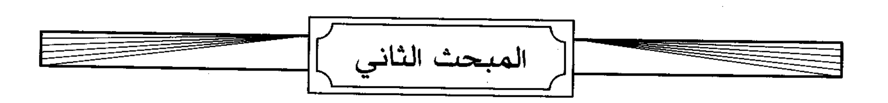
---

(١) الفتاوى (٢٤/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠). (٢) الفرقان (ص١٤).

يتمسَّكون بكل نصٍّ يؤيد مذهبَهم، سواء أكان صحيحاً أم ضعيفاً، بل لا يتورع فريق منهم من اختلاق الأحاديث وافتراء الكذب على رسول الله ﷺ أو على مشايخ المسلمين.

وقد ردّ شيخ الإسلام على منهجهم في التعامل مع الأحاديث والاحتجاج بالروايات، وبيَّن ما عندهم من خطأ في ذلك.

❖ ❖ ❖



المبحث الثاني

موقفه من الاحتجاج بمروياتهم من عدمه

تقدم في المبحث السابق أن لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ضوابطَ في التعامل مع روايات الصوفية، سواء التي يرويها بعضهم عن بعض من أقوال المشايخ والصالحين، أو التي يروونها عن رسول الله ﷺ وأصحابه، وتبين خلال عرض هذه الضوابط موقفُ الشيخ من الاحتجاج بهذه الروايات أو عدم الاحتجاج بها، فما صحّ منها استحق النظر فيه والاحتجاج به، وما لم يصحَّ لم يستحقَّ ذلك.





الفصل الثالث

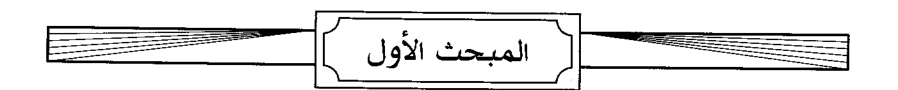
مقارنة إجمالية بين منهج شيخ الإسلام في عرضه للصوفية وبين منهج غيره من المصنفين

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مقارنة بين منهج شيخ الإسلام ومنهج أصحاب كتب الفرقة نفسها

المبحث الثاني: مقارنة بين منهج شيخ الإسلام ومنهج أبي حامد الغزالي




المبحث الأول

مقارنة بين منهج شيخ الإسلام ومنهج أصحاب كتب الفرقة نفسها

في هذا المبحث سوف أبين منهج أبي بكر محمد الكلاباذي في حكايته لمذهب المتصوفة والحكم عليهم في كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف»[1]. وقبل أن أشرع في بيان منهج الكلاباذي أعرّف تعريفاً سريعاً بكتاب التعرُّف:

---

(١) تقدم التعريف بكتاب التعرف (ص٣٨٣).
وقد اخترتُ كتاب التعرف دون غيره من الكتب، لأسباب؛ منها:
١ ـ أن الكلاباذي صنفه في مذهب الصوفية خاصة، ولم يخلطه بغيره، كما قال في مقدمته: «فدعاني ذلك إلى أن رسمت في كتابي هذا وصف طريقتهم، وبيان نِحلتهم وسيرتهم من القول في التوحيد والصفات وسائر ما يتصل به مما وقعت فيه الشبهة عند من لم يعرف مذاهبهم ولم يخدم مشايخهم، وكشفت ـ بلسان العلم ـ ما أمكن كشفه، ووصفت بظاهر البيان ما صلح وصفه؛ ليفهمه من لم يفهمْ إشاراتهم، ويدركه من لم يدرك عباراتهم، وينتفي عنهم خرص المتخرصين وسوء تأويل الجاهلين، ويكون بياناً لمن أراد سلوك طريقه مفتقراً إلى الله تعالى في بلوغ تحقيقه بعد أن تصفحت كتب الحذاق فيه، وتتبعت حكايات المتحققين له بعد العِشرة لهم، والسؤال عنهم، وسميته بكتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، إخباراً عن الغرض بما فيه»اهـ. (ص٢٠).
٢ ـ أن كتاب التعرف من أقدم الكتب المؤلفة في التصوف، إذ إن وفاة الكلاباذي كانت سنة ٣٨٠هـ، بينما توفي القشيري صاحب الرسالة القشيرية سنة ٤٦٥هـ، وتوفي السهروردي صاحب العوارف سنة ٥٦٣، فكلهم جاؤوا بعد الكلاباذي، واستَقَوْا مما كتب.

=

فقد ألفه الكلاباذي في علم التصوف خاصة، ويعدُّ من أشهر كتب المذهب، حتى قيل: «لولا التعرف لما عرف التصوف»(١).

وهنا معالمُ عامة حول منهج الكلاباذي في كتابه أُقدمهما بين يدي المقارنة بين منهجه ومنهج شيخ الإسلام، رحمهما الله :

١ ـ ترتيب الكتاب جيد، فقد قسمه المؤلف خمسة وسبعين باباً، شملت مسائل المعتقد والسلوك، وأبوابه مختصرة غير مطوّلة، لكنه اعتنى فيها ببيان المراد وتوضيح المقصود.

٢ ـ الكلاباذي توفي سنة: ٣٨٠، أي قبل ظهور وابن الفارض (ت: ٦٣٢) وابن عربي (ت: ٦٣٨) وابن سبعين (ت: ٦٦٩) وغيرهم من القائلين بالحلول والاتحاد، المنتسبين إلى التصوف، لذلك خلا الكتاب من الوقوع في الغلوّ أو التأثُّر بمذهب الحلولية(٢).

٣ ـ يتضح لكل من يقرأ مقدمة الكلاباذي لكتابه التعرف شدةُ إعجابه بالصوفية، حتى يشعر القارئ أن المتصوفة هم الطائفة الناجية الملتزمة بهدي النبي ﷺ وأصحابه، وأنهم القوم السائرون على الصراط المستقيم، مما جعل الكلاباذي يثني كثيراً على الصوفية في كتابه ثناءً مطلقاً.

ومن ذلك قوله في مقدمة الكتاب: «.. ختمهم بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأمر بالإيمان به والإسلام، فدينه خير الأديان،

= ٣ ـ شمول كتابه لجميع مذهب المتصوفة، فقد قسمه تقسيماً دقيقاً، بحيث شمل مسائل المذهب كلها.

(١) قال حاجي خليفة في كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (١/٤١٩) عن كتاب التعرف: «هو كتاب مختصر مشهور، اعتنى بشأنه المشايخ، وقالوا فيه: لولا التعرف لما عرف التصوف»اهـ.

(٢) إلا أن الكتاب لم يخلُ من هنات، كما سيأتي تفصيله فيما يأتي.

وأمته خير الأمم، لا نسخ لشريعته، ولا أمة بعد أمته، جعل فيهم صفوةً وأخياراً ونجباءَ وأبراراً، سبقت لهم من الله الحسنى، وألزمهم كلمة التقوى وعزف بنفوسهم عن الدنيا، صدقت مجاهداتهم، فنالوا علوم الدراسة، وخلصت عليها معاملاتهم، فمُنحوا علوم الوراثة، وصَفَتْ سرائرهم، فأُكرموا بصدق الفراسة، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت أعلامهم، فهموا عن الله، وساروا إلى الله، وأعرضوا عمَّا سوى الله، خرقت الحجب أنوارهم، وجالت حول العرش أسرارهم، وجلت عند ذي العرش أخطارهم، وعَمِيَتْ عمَّا دون العرش أبصارهم، فهم أجسام روحانيون، وفي الأرض سماويون، ومع الخلق ربانيون، سكوت نظار، غُيَّبٌ حضار، ملوك تحت أطمار، أنزاع قبائل، وأصحاب فضائل، وأنوار دلائل، آذانهم واعية، وأسرارهم صافية، ونعوتهم خافية، صفوية صوفية، نورية صَفِيَّة، ودائعُ الله بين خليقته، وصفْوَتُه في بريته، ووصاياه لنبيه، وخباياه عند صفيه، هم في حياته أهل صُفَّتِه، وبعد وفاته خيار أمته، لم يزل يدعو الأول الثاني والسابق التالي بلسان فعله أعناه ذلك عن قوله حتى قلَّ الرغب وفتر الطلب، فصار الحال أجوبةً ومسائلَ وكتباً ورسائلَ، فالمعاني لأربابها قريبة، والصدور لفهمها رحيبة، إلى أن ذهب المعنى وبقي الاسم، وغابت الحقيقة وحصل الرسم، فصار التحقيق حليةً، والتصديق زينةً، وادَّعاه من لم يعرفه، وتحلَّى به من لم يصفه، وأنكره بفعله من أقرَّ به بلسانه، وكتمه بصدقه من أظهره ببيانه»اهـ[(١)][(٢)].

---

(١) التعرف (ص١٩ ـ ٢٠).

(٢) وهذا المدح والثناء المطلق لم يسلكه شيخ الإسلام، وإنما فصّل أحوالهم، وقسّمهم قسمين: صالح وغير صالح، ومتبع ومبتدع، فأثنى ـ شيخ الإسلام ـ على من وافق الكتاب والسنة، وذمَّ من خالفهما، كما تقدم تفصيل ذلك (ص٣٨٩).

٤ ـ يورد الكلاباذي أقوال المتصوفة، ويذكر اختلافاتهم، ويعدد أقوالهم، والغالب أنه لا يسمي القائل، ولا ينسُب الرأي إلى صاحبه، بل يقول: قال بعضهم.. قال بعض كبرائهم.. قالت طائفة منهم.. ونحو ذلك، ولا يكاد يسمِّي القائل إلا نادراً[(١)].

أما منهج الكلاباذي في كتابه، فيمكن بيانه فيما يلي[(٢)]:

١ ـ يُفرّق الكلاباذي في كتابه بين المعتمد في مذهب المتصوفة وغير المعتمد، والدخيل في المذهب وما هو من أصل المذهب، فهو يعبر في تقرير المذهب أقوالَ رجال التصوف المعتمدين المشهورين دون من انتسب إلى المذهب، وظهر منه ما يخالفه أو يقدح فيه.

ويدل على ذلك:

قوله في الباب الثلاثين بعدما شرح مذهب المتصوفة في المكاسب وطلب الرزق، وبين أن مذهب معتدلي المتصوفة هو طلب الرزق، لا الركون إلى ما يهبه الناس لهم، ثم بيّن أن هذا الذي ذكره مذهب المعتدلين من الصوفية، ولا يُلتفت إلى من انتسب إليهم، فقال:

«هذا ما تحقَّقناه وصحَّ عندنا من مذاهب القوم من أقاويلهم في

---

(١) انظر على سبيل المثال: الباب السادس: شرح قولهم في الصفات، والباب العاشر: اختلافهم في الكلام: ما هو؟، والباب الثاني عشر: اختلاف قولهم في رؤية النبي ﷺ وغيرها كثير ظاهر في الكتاب كله.
وهذا المنهج بخلاف منهج شيخ الإسلام؛ إذ إنه يسمي القائل غالباً، وقد يذكر الفروق بين الأقوال ويفاضل بينها.
كما تقدم بيان ذلك تفصيلاً وذكر أمثلة عليه (١/ ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤).

(٢) تجنباً للتكرار، فإنني سأعرض رأي الكلاباذي، وأسوق نصَّ كلامه كاملاً، أما كلام شيخ الإسلام، فإنني أُشير إلى موضعه فيما سبق من مباحث.

كتبهم، ممَّن ذكرنا أساميهم ابتداءً، وما سمعناه من الثقات ممن عرف أصولهم، وتحقق مذاهبهم، والذي فهمناه من رموزهم وإشاراتهم في ضمن كلامهم.

قال: وليس كلُّ ذلك مسطوراً لهم على حسب ما حكيناه، وأكثر ما ذكرنا من العلل والاحتجاج، فمن كلامنا عبارة عمَّا حصلناه من كتبهم ورسائلهم.

ومن تدبر كلامهم وتفحَّص كتبهم، علم صحة ما حكيناه، ولولا أنَّا كرهنا الإطالة والإكثار، لكنا نذكر مكان ما حكيناه من كلامهم من كتبهم نصاً ودلالة؛ إذ ليس كلُّ ذلك مرسوماً في الكتب على التصريح»اهـ[1][2].

٢ ـ يسوق المصنف رواياتٍ وأقاويلَ عن رؤوس الصوفية، ويستشهد بها على ما يقرره من مذهبهم، ولكنه يسوق هذه الروايات من غير خُطُم ولا أزِمَّة، لا يذكر لها إسناداً، ولا يسمّي المرجع الذي قرأها فيه أو نقلَها عنه[3][4].

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص٨٥).

(٢) وهذا من عدل الكلاباذي رَحِمَهُ اللَّهُ وهذا المنهج هو ما فعله شيخ الإسلام عند كلامه عن المتصوفة، فإنه يفرق بين المعتدلين منهم؛ كالجنيد وسهل التستري وأبي عبد الله بن خفيف ونحوهم، وبين من انتسب إليهم من الغلاة ونحوهم، بل إن شيخ الإسلام يعتذر لمن بَدَرَ منه شيء مُخِلٌّ أو مُوهِم، للزندقة، كبعض كلمات أبي يزيد البسطامي والشبلي.
وقد تقدم تفصيل ذلك وإيراد أمثلة عليه (١/ ١٤٦، ١٥٤).

(٣) وهذا ظاهر من خلال الكتاب كله، ولا يحتاج إلى إيراد أمثلة عليه.

(٤) وهذا المنهج بخلاف منهج شيخ الإسلام؛ فإنه لا يكاد يسوق رواية من روايات الصوفية وأقوالهم، إلا ويذكر لها إسناداً أو يسمي الكتاب الذي نقلها عنه.
كما تقدم بيان ذلك بتوسّع (١/ ١٦٢ ـ ١٧٢).

٣ ـ وكذلك يسوق الكلاباذي الأحاديث وينسُبها إلى النبي ﷺ دون أن يحكم عليها أو يشير إلى من أخرجها، وفي الغالب تكون هذه الأحاديث مما يؤيد المذهب الذي يقرره، ومن ذلك قوله في الباب الأول:

«قولهم في الصوفية.. وقال أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: **(إنه مرَّ بالصخرة مِنَ الرُّوحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباءُ يؤمون البيت العتيق)**[(١)] . . .

من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها صفّى الله سره ونوّر قلبه، قال النبي ﷺ: **(إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح)**، قيل: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: **(التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله)**[(٢)]»اهـ[(٣)(٤)].

---

(١) الحديث: رواه أبو يعلى في مسنده (١٣/ ٢٠١/ح٧٢٣١)، وابن الملقن في البدر المنير (٢/ ٤)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ١١٨/ح١٧٣٩): «رواه أبو يعلى والطبراني، ولا بأس بإسناده في المتابعات»اهـ، وقال العقيلي في الضعفاء ((١/ ٣٦/ح١٩): «أبان الرقاشي عن أبي موسى روى عنه ابنه يزيد ولم يصح حديثه»اهـ، وأورده ابن حجر في التلخيص (٢/ ٢٤٢/ح١٠٠٧) بروايات متعددة، وانتصر لتحسينه.

(٢) الحديث: رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦/ح٧٨٦٣) وسكت عنه، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٨٨/ح٩١٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٧/ح٣٤٣١٥)، وابن المبارك في الزهد (ص١٠٦/ح٣١١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٥٢/ح١٠٥٥٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) التعرف (ص٢٢ ـ ٢٣).

(٤) وهذا بخلاف منهج شيخ الإسلام؛ فإنه لا يكاد يورد الأحاديث ـ بل والآثار أحياناً ـ إلا ويعقبه بذكر من أخرجه، أو يحكم عليه بالصحة أو الضعف، وهذا يتبين من مصنفاته عموماً.
وانظر بعض الأمثلة على ذلك فيما سبق (ص٥٢٢).

٤ ـ عندما عرَّف الكلاباذي الصوفية وفصَّل أسباب تسميتهم بالصوفية، وبيَّن نسبتهم، لم يذكر إلا الأقوال التي فيها نوعُ ثناءٍ عليهم، كانتسابهم إلى أهل الصفة، أو الصف الأول بين يدي الله!! أو من صفاء معاملتهم لله تعالى!! أو صفاء سرائرهم ونقائها، أو لبسهم الصوف للتواضع والزهد.

بينما لم يبين أن كل ما ذكره من معانٍ لا يصح في اللغة أن يكون نسبة الصوفية إليها، إلا الصوف كما سيأتي.

وكذلك لم يذكر أنهم قد يُنسبون إلى صُوفة بن مُرّ بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يُجاورون بمكة من الزمن القديم، يُنسَب إليهم النُّسَّاك، وهذا موافق للنسب من جهة اللفظ، لكن لعلّه أغفلها؛ لأن الصوفية لا يقبلون أن يكون انتسابهم إلى قبيلة جاهلية!!.

قال الكلاباذي: «الباب الأول: قولهم في الصوفية: لم سميت الصوفية صوفية؟

قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية:

ـ لصفاء أسرارها ونقاء آثارها.

ـ وقال بشر بن الحارث[1]: الصوفي من صفا قلبه لله.

ـ وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته، فصفت له من الله ﷻ كرامته.

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، قال الذهبي: «الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني، القدوة شيخ الإسلام، أبو نصر المروزي المشهور بالحافي، كان يزم نفسه فقد كان رأساً في الورع والإخلاص ثم إنه دفن كتبه»اهـ، ولد سنة ١٥٢هـ، وتوفي سنة ٢٢٧هـ.
انظر: الحلية (٨/٣٣٦)، السير (١٠/٤٦٩ ـ ٤٧٠).

- وقال قوم: إنما سُمُّوا صوفيةً؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

- وقال قوم: إنما سمُّوا صوفيةً لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

- وقال قوم: إنما سُمُّوا صوفيةً للبسهم الصوف»اهـ(١)(٢).

٥ ـ أثنى الكلاباذي على لبس الصوفية للصوف، وحشد ما استطاع من أحاديثَ وآثارٍ ورواياتٍ في مدح لبس الصوف، وأنه لباس الأنبياء، ومن ذلك قوله: «الصوف لباس الأنبياء، وزيُّ الأولياء[!!]»اهـ(٣)(٤).

٦ ـ ذكر الكلاباذي في الباب الثاني رجال الصوفية، وباستقراء من ذكرهم وجدتُ أنهم جميعاً من المعتدلين الذين أثنى عليهم شيخ الإسلام، لكنه أغفل ذكر أبي بكر الشبلي (ت: ٣٣٤). ولا أدري: هل تعمَّد إسقاطه لِمَا له من شطحات وتجاوز في العبارات(٥)، أم أنه غفل عنه؟(٦).

---

(١) التعرف (ص٢١).

(٢) تقدم تعريف الصوفية بتوسع ونقل كلام شيخ الإسلام في ذلك (١/ ٢١٥).

(٣) التعرف (ص٢٣).

(٤) تقدم بيان حكم لبس الصوف، وأنه ليس شعاراً للأنبياء ولا لبساً للأولياء، وبيّن شيخ الإسلام أن النبي ﷺ كان يلبس القميص والعمامة والحبرة من الكتان والصوف وغيرهما، ولم يكن يعتمد زياً معيّناً يلزمه، ولا الصحابة من بعده، وبيّن شيخ الإسلام أن من اعتقد أن لباساً معيناً أفضل عند الله من غيره دون أن يدلّ دليل على ذلك، فهو مبتدع (ص٣٣٤).

(٥) انظر ما سبق من كلام شيخ الإسلام عن الشبلي وتقويمه له (ص٤٤٥).

(٦) التعرف (ص٢٧).

والأظهر أنه غفل عنه؛ لأنه أسقطه من هذا الباب، لكنه ذكره في الباب الثالث: فيمن نشر علوم الإشارة كتباً ورسائلَ، وقال بعدما أورد عدداً من الأسماء: رضوان الله عليهم جميعاً[(١)].

٧ ـ ذكر الكلاباذي أسماء رجال الصوفية الذين ألّفوا كتباً في التصوف، لكنه لم يذكر أسماء هذه الكتب، وتركها مبهمةً؛ لم يُعرّف بها، ولو بإشارة سريعة[(٢)(٣)].

٨ ـ في الباب الخامس ذكر الكلاباذي قول الصوفية في التوحيد، وبيَّن أنهم لا يقولون بحلول الله تعالى في الأماكن[(٤)].

وإن كان كلام الكلاباذي رحمه الله لم يخْلُ من عبارات تُؤخذ عليه؛ كقوله بأن الله ليس بجسم ولا شخص ولا جوهر.. وهذه كلها عبارات مجملة لم تأتِ الشريعة بنفيها ولا إثباتها، والسلامة الاستفصال من قائلها عن مراده وما معناها عنده، فإن وافقت معنىً شرعياً صحيحاً قُبل منه المعنى دون اللفظ المُحدَث، وإن وافقت معنى باطلاً رُدَّ اللفظ والمعنى على قائله[(٥)].

---

(١) التعرف (ص٣١ ـ ٣٢). (٢) التعرف (ص٣٠).

(٣) وهذا بخلاف منهج شيخ الإسلام؛ إذ أنه غالباً إذا ذكر الكتاب عرّف به وسمّى مؤلفه، بل ويُقوِّم الكتاب، كما سبق بيان ذلك بتوسع (ص٣٤٤).

(٤) عبارة الكلاباذي في ذلك مجملة غامضة، فهو نفى حلول الله تعالى في الأماكن، ولكنه لم يقل بعلوّه على خلقه وأنه ﷻ في السماء، وهذا مشابه لما عليه فريق من المبتدعة من تنزيههم الله تعالى عن الحلول في الأماكن، وأن تحيط به الجهات، وهم يريدون بهذه العبارات المجملة نفي علو الله على خلقه.

وقد سبق بيان مذهب أهل السنة والجماعة في العلوّ وإيراد مذهب المتصوفة في هذه المسألة (١/ ٧٠٤).

(٥) تقدم تفصيل ذلك (١/ ٧٠٧).

قال أبو بكر الكلاباذي:

«الباب الخامس: شرح قولهم في التوحيد: اجتمعت الصوفية على أن الله واحد أحد.. ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عَرَضٍ، لا اجتماع له ولا افتراق، لا يتحرك ولا يسكن، ولا ينقص ولا يزداد، ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ولا جوارحَ ولا أعضاء، ولا بذي جهات ولا أماكنَ، لا تجري عليه الآفات، ولا تأخذه السنات، ولا تداوله الأوقات، ولا تعينه الإشارات، لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان، لا تجوز عليه المماسَّة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن، لا تحيط به الأفكار، ولا تحجُبه الأستار، ولا تدركه الأبصار. وقال بعض الكبراء في كلام له: لم يسبقه قبل، ولا يقطعه بعد، ولا يصادره من، ولا يوافقه عن، ولا يلاصقه إلى، ولا يحله في، ولا يوقفه إذ، ولا يؤامره إن، ولا يظلُّه فوق، ولا يقلُّه تحت، ولا يقابله حذاء، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا يحدُّه أمام، ولا يظهره قبل، ولا يفنيه بعد، ولا يجمعه كل ولا يوجده كان، ولا يفقده ليس ولا يستره خفاء، تقدم الحدث قدمه والعدم وجوده والغاية أزله.

إن قلت: متى؟

فقد سبق الوقت كونه[1].

وإن قلت: قبل!!

فالقبل بعده.

وإن قلت: هو!!

فالهاء والواو خلقه[2].

---

(١) في الاستقامة: ذاتُهُ.

(٢) في الاستقامة: خلقهُ.

وإن قلت: كيف؟

فقد احتجب عن الوصف بالكيفية ذاته»اه[(١)][(٢)].

ولا أستبعدُ أن هذا الكلام وما شاكله من الكلام المجمل ـ المحتمل لمعانٍ صحيحة وأخرى باطلة ـ الذي يذكره الكلاباذي وأبو طالب المكي في (قوت القلوب) وغيرهما، هو الذي فتح لغُلاة المتصوفة أبواب الحلول والاتحاد، ولو أن الكلاباذي رَحِمَهُ اللَّهُ التزم بنصوص الوحيين: الكتاب والسنة لما وقع في هذا الخلل.

٩ ـ وفي الباب السادس، وهو: شرح قولهم في الصفات، ذكر معتقدهم في صفات الله تعالى.

وما ذكره ـ إجمالاً ـ موافق لمعتقد أهل السنة والجماعة، لكن قد يؤخذ عليه قوله: «أجمعوا على أن لله صفاتٍ على الحقيقة هو بها موصوف من العلم والقدرة...

واختلفوا في الإتيان والمجيء والنزول:

فقال الجمهور منهم: إنها صفات له كما يليق به ولا يعبَّر عنها بأكثرَ من التلاوة والرواية، ويجب الإيمان بها، ولا يجب البحث عنها.

---

(١) التعرف (ص٣٣ ـ ٣٤).

(٢) ذكر شيخ الإسلام هذا الكلام ونسبه إلى الحلاج ـ المقتول على الزندقة ـ، ثم قال ـ شيخ الإسلام ـ:

«**قلت**: وهذا الكلام المحكيُّ عن الحلاج: فيه ما هو باطل، وفيه ما هو مجمل محتمل، وفيه ما لا يتحصَّل له معنى صحيح، بل هو مضطرب، وفيه ما ليس في معناه فائدة، وفيه ما هو حق، لكن اتباع ذلك الحق من غير طريق الحلاج أحسن وأشد وأنفع»اهـ. الاستقامة (١/ ١١٦ ـ ١٢١).

وقال محمد بن موسى الواسطي[(١)]: كما أن ذاته غير معلولة، كذلك صفاته غير معلولة، وإظهار الصمدية إياس عن المطالعة على شيء من حقائق الصفات أو لطائف الذات.

وأوَّلَها بعضهم، فقال: معنى الإتيان منه إيصاله ما يريد إليه، ونزوله إلى الشيء إقباله عليه، وقُربُه كرامته، وبعدُه إهانته، وعلى هذا جميع هذه الصفات المتشابهة»اهـ[(٢)].

وهذا المعتقد الذي ذكره الكلاباذي عليه مآخذُ؛ منها:

أولاً: أن قوله عن الصفات الفعلية كالإتيان والمجيء والنزول: لا يعبَّر عنها بأكثرَ من التلاوة والرواية، ويجب الإيمان بها، ولا يجب البحث عنها، يوحي بموافقته لمذهب المفوّضة[(٣)]، وهو مذهب باطل، ونسبة هذا المذهب إلى المتصوفة فيه من القدح فيهم ما فيه.

ثانياً: حكايته تأويل هذه الصفات عمن أوّلها، وسكوته عن ذلك، وعدم ردّه يوحي بموافقته للقائل، أو ـ على أقل تقدير ـ رضاه عن قوله،

---

(١) هو محمد بن موسى الواسطي، أبو بكر، المعروف بابن الفرغاني، صحب الجنيد والنوري، قال أبو نعيم: «عالم بالأصول والفروع، ألفاظه بديعة وإشاراته رفيعة، كان يقول: ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة»اهـ.
انظر: الحلية (١٠/ ٣٤٩).

(٢) التعرف (ص٣٥ ـ ٣٧).

(٣) التفويض: أصله لغة: رد الأمر إلى الغير لينظر فيه، ومعناه شرعاً: رد الأمر إلى الله والتبرؤ من الحول والقوة. والتفويض في صفات الله تعالى: إثباتها، مع تفويض معانيها إلى الله تعالى، فيقولون: نثبت لله تعالى العلم ولا ندري ما معناه، ونثبت لله تعالى يداً، ولكننا لا نعقل معناها.
انظر: الفتاوى (٣/ ٣٢٦)، بيان تلبيس الجهمية (١/ ٧٧)، التعاريف للمناوي (ص١٩٥)، تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٣٦٦).

والتأويل في صفات الله تعالى تعطيل لها عن المراد الشرعي منها[(١)(٢)].

١٠ ـ **في الباب العاشر، ذكر الكلاباذي مسألة كلام الله تعالى**، وبيّن مذهب المتصوفة فيه، والمذهب الذي حكاه عنهم يوافق مذهب أهل السنة من وجهٍ دون وجه، فقال:

«واختلفوا في الكلام: ما هو؟

فقال الأكثرون منهم: كلام الله صفة الله لذاته لم يزل، وإنه لا يشبه كلام المخلوقين بوجه من الوجوه. . .

وأجمع الجمهور منهم على: أن كلام الله تعالى ليس بحروف ولا صوت ولا هجاء، بل الحروف والصوت والهجاء دلالات على الكلام، وأنها لذوي الآلات والجوارح التي هي اللهوات والشفاه والألسنة، والله

---

(١) التأويل: له ثلاثة معان: **الأول**: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، كتأويل أهل البدع نصوص العلو، وصرفها عن معنى علوّ الذات إلى علو القهر والقدر فقط، وهذا هو الذي يقصده من تكلم في نصوص الصفات وترْك تأويلها من المتأخرين، وهو الذي يعنيه المصنف هنا.
الثاني: التأويل بمعنى التفسير، كما يعبّر ابن جرير وغيره من المفسرين، فيقول: تأويل قوله تعالى كذا وكذا. . .
الثالث: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر عنه، كقول يوسف ﷺ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠].
انظر: التدمرية (ص٩١ ـ ٩٣)، الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام (٢/ ١٧ ـ ٢١)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٦).

(٢) بيّن شيخ الإسلام مذهب الصوفية في الصفات الفعلية، وأن المعتدلين من المتصوفة على إثباتها على مراد الله تعالى، من غير تحريف ولا تعطيل، أما ضُلّالهم، فقد خبّطوا في ذلك، وتفرّقوا بين غالٍ وجافٍ.
انظر ما تقدم في مبحث: توحيد الأسماء والصفات (١/ ٦٣١).

تعالى ليس بذي جارحة، ولا محتاج إلى آلة، فليس كلامه بحروف ولا صوت.

وقال بعض كبرائهم في الكلام له: من تكلم بالحروف فهو معلول، ومن كان كلامه باعتقاب فهو مضطر.

وقالت طائفة منهم: كلام الله حروف وصوت، وزعموا أنه لا يعرف كلامه إلا كذلك مع إقرارهم أنه صفة الله تعالى في ذاته غير مخلوق، وهذا قول حارث المحاسبي، ومن المتأخرين ابن سالم»اهـ(١).

فالكلاباذي هنا وافق أهلَ السنة في إثبات أصل صفة الكلام، لكنه خالفهم بنفي الحروف والأصوات، وأهل السنة يثبتون أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت يليق بجلال الله وعظمته(٢).

ويُلحظُ هنا: أن الكلاباذي قرر هذا المذهب قبل ظهور مذهب ابن عربي وشيعته من القائلين بالحلول والاتحاد، وأن كلَّ كلام في العالم هو في الحقيقة كلام الله تعالى حقاً كان هذا الكلام أم باطلاً، ويقول قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وقد تبع ابنَ عربي في ضلاله هذا جمعٌ من المتصوفة(٣).

١١ - وفي الباب الحادي عشر ذكر الكلاباذي مذهب المتصوفة في

---

(١) التعرف (ص٤٠).

(٢) تقدم بيان مجمل معتقد أهل السنة في صفة الكلام لله ﷻ، وقد نقل شيخ الإسلام مذهب الصوفية في كلام الله تعالى، وأوضح رأي غلاتهم؛ كابن عربي وابن الفارض، وردّ عليهم، وبيّن الشيخ أن المعتدلين من المتصوفة يوافقون أهل السنة في إثبات كلام الله تعالى، أما الغلاة فيخالفونهم وينقسمون طوائفَ (١/ ٦٤٦).

(٣) تقدم تفصيل مذهب الحلولية والرد عليهم (١/ ٤٠٥).

الرؤية، وما نقله في هذا الباب موافق لمذهب أهل السنة، ونقل الكلاباذي عن الصوفية الإجماعَ على أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا بالأبصار، وفي هذا ردٌّ على من زعم من الصوفية أنه رأى الله في الدنيا، أو أنه يمكن أن يراه !! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال الكلاباذي رَحِمَهُ اللهُ:

«وأجمعوا أنه لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان؛ لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم، ولا يجوز أن يكون ذلك إلا في أفضل المكان، ولو أُعطُوا في الدنيا أفضلَ النعم، لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق، ولَمَا منع الله سبحانه كليمَه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك في الدنيا، وكان مَنْ هو دونه أحرى، وأخرى أن الدنيا دار فناء، ولا يجوز أن يُرى الباقي في الدار الفانية، ولو رأوْه في الدنيا، لكان الإيمانُ به ضرورةً، والجملة أن الله تعالى أخبر أنها تكون في الآخرة، ولم يخبر أنها تكون في الدنيا، فوجب الانتهاء إلى ما أخبر الله تعالى به»اهـ[1][2].

١٢ ـ وفي الباب الثالث عشر فصّل الكلاباذي مذهب الصوفية في

---

(١) التعرف (ص٤٣).

(٢) نقل شيخ الإسلام عن المعتدلين من الصوفية مثل ما ذكره الكلاباذي من إثبات رؤية الله في الآخرة رؤية حقيقية، وساق شيخ الإسلام نص كلام ابن خفيف وغيره في ذلك.
لكن الشيخ نقل عن جَمْعٍ من المتصوفة زعْمَهم أنهم يرون الله تعالى في الدنيا، ونقل عن آخرين أنهم يستخفُّون برؤية الله تعالى، ويزعمون أنهم لو أرادوا رؤية الله لرأوه لكنهم يترفعون عن ذلك!! ونقل عن فريق ثالث منهم أن رؤية بعض الأولياء كأبي يزيد البسطامي أنفع من رؤية الله!! وقد فصَّل شيخ الإسلام الردّ على هؤلاء، وبيّن ما وقعوا فيه من التباس، واعتذر عن بعضهم بأنه قد تغلب الرقة والأُنس على العبد حتى يُخيَّل إليه أنه رأى الله وما رآه، وساق عن بعض السلف الصالحين روايات تؤيد ذلك، كقول ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: .. ونحن نتراءى الله في الطواف، وغير ذلك، وقد تقدم تفصيله (١/ ٦٦٥).

القدر وخلق أفعال العباد، وما حكاه عن الصوفية في ذلك موافق لمذهب أهل السنة. ومما ذكره في ذلك قوله:

«أجمعوا أن الله تعالى خالق لأفعال العباد كلها، كما أنه خالق لأعيانهم وأن كل ما يفعلونه من خير وشر، فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، ولولا ذلك لم يكونوا عبيداً ولا مربوبين ولا مخلوقين، وقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢].

فلما كانت أفعالهم أشياء وجب أن يكون الله خالقها، ولو كانت الأفعال غيرَ مخلوقة، لكان الله جل وعز خالقُ بعض الأشياء دون جميعها، ولكان قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] كذباً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»اهـ[١][٢].

١٣ ـ في الباب الحادي والعشرين والثاني والعشرين ساق الكلاباذي قول المتصوفة في معرفة الله تعالى، وساق في ذلك أقوالاً فيها رموز وإشارات للصوفية لو تجنبّها لكان أحسن وأفضل[٣].

---

(١) التعرف (ص٤٤ ـ ٤٥).

(٢) تقدم سياق ما حكاه شيخ الإسلام من مذهب الصوفية في أفعال العباد، وأن فريقاً غَلَوْا في مسألة خلق أفعال العباد حتى وقعوا في مذهب الجبرية (ص٩٣).

(٣) وهذا من أوضح الفروق بين منهج الكلاباذي ومنهج شيخ الإسلام، فإن شيخ الإسلام يسوق ما شاء من عبارات المتصوفة، لكنه لا يذكر إشاراتهم الموهمة المحتملة لمعانٍ صحيحة وباطلة.

وما وقع كثير من عوامّ أهل التصوف في الضلال والابتداع إلا من جرّاء سماعهم لهذه الإشارات التي يفهمها كلٌّ منهم على مراده، ولو التزموا منهج الكتاب والسنة في وضوح العبارة وصِدق الدلالة، لَمَا وقعوا في هذا الانحراف.

=

ومن ذلك قوله: «أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل؛ لأنه محدَث والمحدَث لا يدل إلا على مثله.

وقال رجل للنوري: ما الدليل على الله؟

قال: الله!

قال: فما العقل؟

قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله...

وقال أبو بكر السباك[1]: لمَّا خلق الله العقل، قال له: من أنا؟ فسكت، فكحّله بنور الوحدانية، ففتح عينيه، فقال: أنت الله لا إله إلا أنت...

ثم اختلفوا في المعرفة نفسها، ما هي؟ والفرق بينها وبين العلم.

فقال الجنيد: المعرفة وجود جهلك عند قيام علمه.

قيل له: زدنا.

قال: هو العارف وهو المعروف!!.

معناه: أنك جاهل به من حيث أنت، وإنما عرفته من حيث هو.

وقال غيره: المعرفة هي حقر الأقدار إلا قدر الله، وأن لا يشهد مع قدر الله قدراً.

= وسيأتي عند الكلام عن الباب الحادي والثلاثين تفصيل الكلام حول هذه الإشارات وسياق أمثلة عديدة لها (ص٥٦٦).

(١) هو محمد بن إبراهيم بن أحمد، أبو بكر، المعروف بابن السباك المستملي، الجرجاني، قال أبو القاسم الجرجاني: «روى عن ابن عدي وأبي بكر الإسماعيلي وجماعة»اهـ، توفي سنة ٣٩٩هـ.
انظر: تاريخ جرجان لأبي القاسم الجرجاني (١/ ٤٥٢).

.. وقيل لعليان[١]: كيف حالك مع المولى؟

قال: ما جفوتُه منذ عرفته.

قيل له: متى عرفته؟

قال: منذ سموني مجنوناً!!.

جعل دلالة معرفته له تعظيم قدره عنده.

قال سهل[٢]: سبحان من لم يدركِ العبادُ من معرفته إلا عجزاً عن معرفته»اهـ[٣].

١٤ ـ وفي الباب السادس والعشرين ساق الكلاباذي مذهب الصوفية في كرامات الأولياء.

وما ذكره يوافق مذهب أهل السنة، ويوافق نصَّ ما ذكره شيخ الإسلام[٤]؛ حيث قسّم خوارق العادة أقساماً: معجزات أنبياء، وكرامات أولياء، ومخادعات أعداء.

ومما ذكره في ذلك، قوله: «أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء وإن كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي على الماء وكلام البهائم

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء، فقال: «محمد بن علي النسوي، يعرف بمحمد بن عليان، رفيع الهمة، له الكرامات الظاهرة،.. كان يقول: آيات الأولياء وكراماتهم رضاهم بما يُسخِط العوام من مجاري المقدور،.. وكان يقول: كيف لا تحب من لا تنفك عن بره طرفة عين؟ وكيف تدَّعي محبة من لا توافقه طرفة عين؟»اهـ.
انظر: الحلية (١٠/ ٣٧٦).

(٢) سهل بن عبد الله التستري، تقدمت ترجمته، انظر (١/ ١٥٨).

(٣) التعرف (ص٦٣ ـ ٦٧).

(٤) تقدم سياق ما ذكره شيخ الإسلام عن مذهب الصوفية في الكرامات وخرق العادة (١/ ٨٤٢).

وطي الأرض وظهور الشيء في غير موضعه ووقته، وقد جاءت الأخبار بها وصحَّت الروايات ونطق بها التنزيل.. فالذي للأنبياء معجزات وللأولياء كرامات وللأعداء مخادعات..»اهـ[1].

١٥ ـ في الباب الثلاثين ساق الكلاباذي قول الصوفية في المكاسب وطلب الرزق، وهل ينافي ذلك التوكل أم لا؟

وبيَّن أن السبيل الصحيح هو السعي والاكتساب وعدم القعود أو سؤال الناس، ومما قاله في ذلك:

«أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة على تيقظ وتثبُّت وتحرُّز من الشُّبُهات، وأنها تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار والعطف على الجار وهي عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه...

هذا ما تحقَّقناه وصحَّ عندنا من مذاهب القوم من أقاويلهم في كتبهم ممَّن ذكرنا أساميهم ابتداءً وما سمعناه من الثقات ممن عرف أصولهم وتحقق مذاهبهم، والذي فهمناه من رموزهم وإشاراتهم في ضمن كلامهم، قال: وليس كل ذلك مسطوراً لهم على حسب ما حكيناه وأكثر ما ذكرنا من العلل والاحتجاج، فمن كلامنا عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم.

ومن تدبَّر كلامهم وتفحَّص كتبهم علم صحة ما حكيناه، ولولا أنا كرهنا الإطالة والإكثار لكنَّا نذكر مكان ما حكيناه من كلامهم من كتبهم نصاً ودلالة؛ إذ ليس كل ذلك مرسوماً في الكتب على التصريح»اهـ[2][3].

---

(١) التعرف (ص٧١ ـ ٧٣). (٢) التعرف (ص٨٥).

(٣) لم يفصِّل الكلاباذي هنا مذهب المتصوفة في المكاسب، والذي يوحي به كلامُه الأخير أنه يردُّ على طائفة من المتصوفة يرون أن سبيل التوكل هو ترك الاكتساب والقعود عن السعي في طلب الرزق. =

١٦ ـ في الباب الحادي والثلاثين فصّل الكلاباذي الكلام عن علوم الصوفية، وأنها علوم أحوال، والمتأمِّل في كتاب الكلاباذي يجد أنه في هذا الباب وما بعده إلى آخر الكتاب بدأ يتخبّط في تقرير المسائل، ويميل إلى تقرير مذهب الصوفية بوضوح، ويؤيده وينتصر له بما فيه من حق وباطل.

بل إنه بدأ يناقض بعض ما كان قرره سابقاً ممَّا وافق فيه مذهب السلف(١).

= وقد يؤخذ على الكلاباذي رَحِمَهُ اللهُ أنه لم يُصرح بوجود هذا الصنف في الصوفية، وكأن المتصوفة كلَّهم مجمعون على ما ذكره من السعي لكسب الرزق.. إلخ.
وهذا المنهج الذي سلكه الكلاباذي يختلف عن المنهج الصريح الذي يسلكه شيخ الإسلام؛ إذ إن شيخ الإسلام يذكر جميع الأصناف، ويحيط بكل جوانب المذهب، ثم يؤيد الموافق للحق، ويرد على المبطل.
وقد تقدم نقل كلام شيخ الإسلام في مسألة الاكتساب، ونقلت أيضاً كلاماً بديعاً للإمام ابن القيم في ذلك (ص٦١).

(١) من الأمثلة على ذلك أنه في باب سابق ذكر أن القول الصحيح إباحة المكاسب والحث على السعي في طلب الرزق، وأن من عارض ذلك أو قال: إن الاكتساب ينافي التوكل، فهو ليس من أهل العلم والتحقيق من المتصوفة، وقد تقدم ذلك قبل قليل (ص٥٦٤).

لكنه في الباب الثاني والثلاثين في بيان حقيقة التصوف ناقض ما سبق أن قرره، فقال: «سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي يقول: أركان التصوف عشرة:

أولها تجريد التوحيد، ثم فهم السماع، وحسن العشرة، وإيثار الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، **وترك الاكتساب**، وتحريم الادخار»اهـ.

ثم قال الكلاباذي شارحاً هذه المقولة: «**وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل**، وتحريم الادخار في حالة لا في واجب العلم، كما قال النبي ﷺ في الذي مات من أهل الصفة وترك ديناراً، فقال رسول الله ﷺ: (كيه)»اهـ. التعرف (ص٨٩).
=

والكلاباذي في هذا الباب وما بعده توسَّع في التعبير عن علوم الصوفية بأنها علوم أحوال، وإشارات لا يفهمها إلا من فهم علومهم، وارتقى إلى درجتهم!!.

وهذا الكلام منه، فضلاً عن أنه يفتح الباب للمبتدع والزنديق أن يقول ما قال، فإذا اعتُرِض عليه ادّعى بأن ما قاله إشارات وتلميحات لا يفهمها إلا من رقَّ طبعه ثم يفسرها ما شاء من تفسيرات!!.

وهذا ـ لعمري ـ هو ما فتح على الصوفية باب الزندقة والابتداع[1]، ومن كلام الكلاباذي في ذلك، قوله: «الباب الحادي والثلاثون:

علوم الصوفية علوم الأحوال: أقول وبالله التوفيق:

اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال، والأحوال مواريثُ الأعمال، ولا يرث الأحوالَ إلا مَنْ صحَّحَ الأعمال...

فإذا استقامت النفس على الواجب وصلحت طباعها وتأدبت بآداب الله ﷻ:

مِنْ زَمِّ جوارحها، وحِفْظِ أطرافها، وجَمْعِ حواسِّها، سهُل عليه إصلاح أخلاقها، وتطهير الظاهر منها، والفراغ ممَّا لها، وعزوفها عن الدنيا، وإعراضها عنها.

فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر، وهذا هو علم المعرفة، ثم وراء هذا: علوم الخواطر، وعلوم المشاهدات والمكاشفات، وهي التي تختصُّ بعلم الإشارة.

= وهذا الذي قرره أخيراً من أن الاكتساب يقدح في التوكل هو مذهب المتصوفة المشهور عنهم، وما خالف فيه إلا المعتدلين منهم ـ وهم قليل ـ، وقد فصّل شيخ الإسلام ذلك فيما سبق (ص٦١٠).

(١) تقدم الكلام عن شيء من ذلك (انظر: ص٢٥٤)، وسوف أُفصل الكلام هنا.

وهو العلم الذي تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التي وصفناها.

وإنما قيل: علم الإشارة؛ لأن مشاهدات القلوب، ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا مَنْ نازل تلك الأحوال وحلَّ تلك المقامات.

روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهلُ المعرفة بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله)**[1].

وعن عبد الواحد بن زيد قال: سألت الحسن عن علم الباطن؟

فقال: سألت حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن علم الباطن؟

فقال: سألت رسول الله عن علم الباطن؟

فقال: سألت جبريل عن علم الباطن؟

فقال: سألت الله عز وجل عن علم الباطن؟

فقال: **(هو سرٌّ من سرِّي أجعله في قلب عبدي؛ لا يقف عليه أحد من خلقي)**[2].

.. ثم لكل مقام بَدْءٌ ونهايةٌ، وبينهما أحوال متفاوتة، ولكلِّ مقام علمٌ، وإلى كل حال إشارة، ومع كل مقام إثباتٌ ونفيٌ، وليس كلَّ ما نفيَ في مقام كان منفياً فيما قبله، ولا كلُّ ما أثبت فيه كان مثبتاً فيما دونه.

فأما من لم يشرف على أحوال السامعين، وعبَّر عن مقام فنفى فيه وأثبت، جاز أن يكون في السامعين من لم يحلَّ ذلك المقام، وكان الذي

---

(١) الحديث: لم أقف عليه.

(٢) الحديث: لم أقف عليه.

نفاه القائل مُثبَتاً في مقام السامع، فيسبق إلى وهم السامع أنه نفى ما أثبته العلم، فخطَّأ قائله، أو بدَّعه وربَّما كفَّره.

فلمَّا كان الأمر كذلك: اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ في علومها، تعارفوها بينهم، ورمزوا بها، فأدركه صاحبه، وخفي على السامع الذي لم يحُلَّ مقامه، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلى نفسه، فيحكم عليها بقصور فهمه عنه، أو بسوء ظنه به؛ فيهوس قائله وينبه إلى الهذيان، وهذا أسلمُ له من ردِّ حق وإنكاره.

قال بعض المتكلمين لأبي العباس بن عطاء(1): ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد؟ هل هذا إلا طلب للتمويه أو ستر لعوار المذهب؟

فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه، لعزَّته علينا؛ كيلا يشربها غيرُ طائفتنا. ثم اندفع يقول:

أحسن ما أظهره ونظهره ... بادئ حق للقلوب نشعره
يخبرني عني وعنه أخبره ... أكسوه من رونقه ما يستره
عن جاهل لا يستطيع ينشره ... يفسد معناه إذا ما يعبره
فلا يطبق اللفظ بل لا يعشره ... ثم يوافي غيره فيخبره
فيظهر الجهل وتبدو زمره ... ويدرس العلم ويعفو أثره

وأنشدونا أيضاً له:

إذا أهل العبارة ساءلونا ... أجبناهم بأعلام الإشارة

---

(1) هو أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس، الصوفي، قال الذهبي: «كان أحد شيوخهم الموصوفين بالعبادة، والاجتهاد، وكثرة الدرس للقرآن»اهـ. كان أبو العباس ممن يعتذر للحلاج ويصحح حاله، توفي سنة ٣٠٧هـ.
انظر: سير الأعلام (١٤/ ٣١٤)، تاريخ بغداد (٥/ ٢٦)، لسان الميزان (٢/ ٣١٥).

نشير بها فنجعلها غموضاً تقصر عنه ترجمة العبارة
ونشهدها وتشهدنا سروراً له في كل جارحة إثارة
ترى الأقوال في الأحوال أسرى كأسر العارفين ذوي الخسارة»[(١)]

١٧ - **في مسألة السماع عند المتصوفة وافق الكلاباذي عموم المتصوفة القائلين باستحبابه**، ويدلّ على ذلك قوله: «سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسي يقول: أركان التصوف عشرة:

أولها تجريد التوحيد، ثم فهم السماع، .. وفهم السماع: أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط»اهـ[(٢)].

وقال في الباب الخامس والسبعين: «في السماع: السماع: استجمام من تعب الوقت، وتنفس لأرباب الأحوال، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال، وإنما أُختير على غيره، ندعوه لك؟

قال: أنا أجلُّ من أن يستقطعني شخص، أو ينفذ فيَّ قول، أنا ردم كله.

فالسماع: إذا قرع الأسماع، أثار كوامن أسرارها، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد، ومن بين متمكِّن بقوة الحال، مما تستروح إليه الطباع لبعد النفوس عن التشبث به والسكون إليه، فإنه من القضاء يبدو، وإلى القضاء يعود.

وأرباب الكشوف والمشاهَدات استغْنَوا عنها بالأسباب الحاملة لهم، تنزه أسرارهم في ميادين الكشوف.

سمعت فارساً يقول: كنت عند قوطة الموصلي[(٣)]، وكان قد لزم ساريةً في جامع بغداد أربعين سنة.

---

(١) التعرف (ص٨٦ - ٩٠). (٢) التعرف (ص٨٩).

(٣) قال ابن نقطة في تكملة الإكمال (٤/ ٦٢٣): «وأما قوطة - بضم القاف وسكون =

قلنا له: هاهنا قوَّالٌ طيب.

قال أبو محمد رويم: إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فكمن ذلك في أسرارهم، كما كمن كونُ ذلك في عقولهم، فلما سمعوا كوامن أسرارهم، فانزعجوا كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك فصدقوا.

سمعت أبا القاسم البغدادي[1] يقول: السماع على ضربين:

فطائفة: سمعت الكلام، فاستخرجت منه عبرة، وهذا لا يسمع إلا بالتمييز وحضور القلب.

وطائفة: سمعت النغمة، وهي قوت الروح، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة.

قال أبو عبد الله النباجي[2]: السماع ما أثار فكرة، واكتسب عبرة، وما سواه فتنة.

قال الجنيد: الرحمة تنزَّل على الفقير في ثلاثة مواضع:

عند الأكل؛ فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة. وعند الكلام؛ فإنه لا

= الواو وفتح الطاء المهملة ـ فهو قوطة الموصلي، ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في تاريخ الصوفية»اهـ. وكذلك ذكره ابن حجر في تبصير انتبه، وتاريخ الصوفية للسلمي مفقود (تقدم الكلام عنه، ص٣٥٦).

(١) هو عمران بن موسى بن فضالة، أبو الفتح، ويقال: أبو القاسم البغدادي، قال البغدادي في تاريخه: «كان عمران ناسكاً تاركاً للدنيا، وكان ثقة»اهـ، توفي سنة ٣٠٧هـ.
انظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٢٦٨).

(٢) هو سعيد بن بريد النباجي، أبو عبد الله الصوفي، قال الذهبي: «القدوة العابد الرباني، له كلام شريف ومواعظ»اهـ، لم أقف على تاريخ وفاته.
انظر: السير (١٠/ ٤)، تاريخ جرجان (١/ ١٩٥).

يتكلم إلا للضرورة. وعند السماع؛ فإنه لا يسمع إلا عند الوجد»اهـ[١].

والمتأمل في كلام الكلاباذي حول السماع يجد أنه يوافق عموم الصوفية في استحبابه، وأنه من معالم الطريق، ولا يمكن أن يسلك السالك من دونه.

والسماع من أكبر بدع المتصوفة التي اشتغلوا بها، وشغلوا الناس عن القرآن، ولو أن الكلاباذي ـ عفا الله عنه ـ أيّد ما قرره من استحباب السماع بالأدلة الشرعية، لكنَّا قبِلنا كلامه، ولكن أنَّى يجد دليلاً على ابتداعه، ولو لبث الكلاباذي عمر نوح يبحث عن دليل يؤيد به ما ذهب إليه، لَمَا وجد.

وكلام الكلاباذي في السماع يؤيد ما تقرر سابقاً من أن الكلاباذي في النصف الثاني من كتابه مال إلى تقرير مذهب المتصوفة بعُجَره وبُجَره، ولا يكاد يخالف عموم الصوفية في انحرافاتهم السلوكية، بل والعقدية[٢].

١٨ ـ يورد الكلاباذي للمتصوفة أقوالاً فيها نوع تطاول على مقام الألوهية، ويسكت عنها، وهذا منهج خاطئ، فالأصل عدم إيراد مثل هذه الأقوال، فإن كان لا بدّ من إيرادها، فينبغي أن يُنبَّه على ما فيها من

---

(١) التعرف (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) وهذا المنهج التلفيقي الذي سلكه الكلاباذي ـ عفا الله عنه ـ يخالف تماماً منهج شيخ الإسلام في التعامل مع الصوفية، بل مع جميع المخالفين، فليس في الدين محاباة.

وقد فصل شيخ الإسلام الكلام عن السماع وحكمه، ووجه غلط المتصوفة فيه، وحصر شبهاتِهم التي احتجُّوا بها على جوازه، وردَّ عليها، وبيَّن ما جرَّه السماع البدعي الذي استحدثه المتصوفة من ابتداع، ومواقعة فواحشَ، ومخالطة مُردان... وغير ذلك، والمعصية تجر إلى المعصية وتقول: أختي أختي.

انظر: ما سبق في مبحث السماع (ص١٨٨).

خلل[1]، من ذلك قوله: «قال أبو يزيد: الصوفية أطفال في جحر الحق»اهـ[2].

وقوله: «قال سهل بن عبد الله: أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله [!!]، والناس يتوهمون أني أكلمهم»اهـ[3].

١٩ ـ في الباب الحادي والخمسين **تحدث الكلاباذي عن قول الصوفية في محبة الله تعالى، وقرّر فيه مذهب الصوفية في المحبة وأن حقيقتها عندهم العشق** ـ كما نص شيخ الإسلام على ذلك عند حكايته مذهب المتصوفة في محبة الله تعالى ـ[4].

قال الكلاباذي: «أنشدونا لبعضهم:

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له ... فلست أرى الكون حتى أراكا

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

قال ابن عبد الصمد: هي التي تعمي وتصم، تعمي عما سوى المحبوب فلا يشهد سواه مطلوباً.. وأنشد:

---

(١) المتأمل فيما كتبه شيخ الإسلام عن المتصوفة يجد أنه يورد أحياناً مثل هذه العبارات، لكنه يوضح مراد أصحابها، فيعتذر عنهم إن كانوا من المشهورين بالصلاح والاستقامة، أو ينتقد عباراتهم إن كانوا أصحاب شطح وتجاوز.
وقد تقدم مبحث خاص عن موقف شيخ الإسلام من عبارات المتصوفة، نقلتُ فيه أمثلة من عباراتهم، وموقف شيخ الإسلام منها (١/ ١٧٢).

(٢) التعرف (ص٩١). (٣) التعرف (ص١٤٤).

(٤) تقدم تفصيل ما حكاه شيخ الإسلام من مذهب المتصوفة في محبة الله تعالى، وأن حاصل معناها عندهم هو العشق، وقد أشار شيخ الإسلام إلى عباراتهم في ذلك، ونقل عن أبي طالب في قوت القلوب، وعن القشيري في الرسالة، وغيرهما، وردّ عليهم (١/ ٦٨١).

أصمني الحب إلا عن تسامره فمن رأى حبَّ حبٍّ يورث الصمما
وكف طرفي إلا عن رعايته والحب يعمي وفيه القتل إن كتما

وأنشد أيضاً:

فرط المحبة حالٌ لا يقاومها رأي الأصيل إذا محذوره قهرا
يلذ إن عدلت منه قوارعه وإن تزيد في تعديله بهرا[(١)]

٢٠ ـ **يحكي الكلاباذي عن الصوفية البدع والمحدثات، ويسكت عنها، وكأنه يدعو إلى الاقتداء بهم في ذلك**، ومن ذلك قوله في معرض كلامه عن مجاهداتهم وأعمالهم:

«وكان بعض المشايخ ـ وأكثر ظني أنه أبو حمزة الخراساني ـ حج عشر حِجَجٍ عن النبي ﷺ وحجَّ عن العشرة من أصحاب النبي ﷺ عشر حِجَجٍ، وحج عن نفسه حجةً، يتوسل بتلك الحجج إلى الله في قبول حجته»اهـ[(٢)(٣)].

وهذا الكلام من الكلاباذي ـ عفا الله عنه ـ إذا قرأه العاميّ من الصوفية ظن أنه الطريق الموصل إلى الجنة، مع أن مثل هذا الفعل لم يأمر النبي ﷺ بفعله، بل ولم يأذن به، ولم يفعلْه أحد من أصحابه.

٢١ ـ **يقرر الكلاباذي مصادرَ للتلقي عند الصوفية غير الكتاب والسنة، كالهواتف، والرُّؤى والأحلام، والفِراسة، وغيرها، مع أن هذه**

---

(١) التعرف (ص١١٠ ـ ١١١). (٢) التعرف (١٤٩ ـ ١٥٠).

(٣) تقدم في مبحث سابق عرض كلام شيخ الإسلام حول المجاهدات البدعية التي يفعلها بعض المتصوفة، بناءً على الاستحسان المجرّد عن الدليل الشرعي، كفعل هذا الرجل الذي حج عن النبي ﷺ، وكفعل من يقف في الشمس الساعات الطويلة، أو يمتنع عن الطعام والشراب، أو غير ذلك.
وبيّن شيخ الإسلام أن هذا كله من البدع والمحدَثات، وساق الأدلة على ذلك (ص١٣٤).

المصادر ليست طرقاً شرعية، بل قد تكون من قِبل الجن والشياطين، وهو الغالب.

قال الكلاباذي: «الباب السابع والستون في لطائف الله للقوم وتنبيهه إياهم بالهاتف:

قال أبو سعيد الخراز: بينا أنا عشيةَ عرفةَ قطعني قرب الله ﷻ عن سؤال الله، ثم نازعتني نفسي بأن أسألَ الله تعالى، فسمعت هاتفاً يقول: أبعْدَ وجود الله، تسأل اللهَ غير الله[؟!].

قال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين، فكنت أمشي، فوقعت في بئر، فنازعتني نفسي بأن أستغيثَ، فقلت: لا، والله لا أستغيثُ.

فما استتممت هذا الخاطر حتى مرَّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نطمَّ رأس هذا البئر من الطريق.

فأتَوْا بقصب وبارية، وهممت أن أصيح، ثم قلت: يا من هو أقربُ إليَّ منهما، وسكتُّ حتى طمّوا ومضَوْا.

فإذا أنا بشيء قد دلَّى برجليه في البئر وهو يقول: تعلق بي، فتعلقت به، فإذا هو سبُعٌ!!

وإذا هاتف يهتف بي ويقول لي: يا أبا حمزة! هذا حسنٌ، نجَّيناك من التلف في البئر بالسَّبُعِ.

قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: قال أبو الوليد السَّقَّاء: قدَّم إليَّ أصحابُنا يوماً لبناً، فقلت: هذا يضرُّني.

فلما كان يوم من الأيام دعوتُ الله تعالى، فقلت: اللهم اغفر لي، فإنك تعلم أني ما أشركت بك طرفةَ عين، فسمعت هاتفاً يهتف بي ويقول: ولا ليلة اللبن؟!

قال أبو سعيد الخرَّاز: كنت في البادية، فنالني جوعٌ شديد، فطالبتني نفسي بأن أسألَ الله طعاماً، فقلت: ليس هذا من فعل المتوكِّلين، فطالبتني نفسي بأن أسأل الله صبراً، فلمَّا هممت بذلك سمعت هاتفاً يقول:

ويزعُم أنه منا قريب وأنَّا لا نضيِّع من أتانا
ويسألنا القوى عجزاً وضعفاً كأنَّا لا نراه ولا يرانا[(١)]

وكل ما ذكره الكلاباذي هنا يخالف ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالحين، وهذه الهواتف أدخلت مصادرَ شيطانية للتلقي عند الصوفية.

وكذلك ما ذكره هنا وأثنى عليه من ترك المتصوفة سؤالَ الله كشفَ الكُرُبات، والإعراض عن الدعاء، وظنهم أن هذا أفضل، وأن مَنْ فعل مثل هذا، فقد حقق التوكُّل !!، كل هذا مِنَ البدع المنهيِّ عنها[(٢)].

ومِنْ مصادر التلقِّي المجزوم بصحته عند الكلاباذي: الفراسة:

حيث زعم أن مِنَ الأولياء مَنْ يعلم ما في نفوس الناس، ويسمي ذلك فراسةً!!

ومن ذلك، قوله: «الباب الثامن والستون: تنبيههم إياهم بالفراسات:

قال أبو العباس بن المهتدي: كنت في البادية، فرأيت رجلاً يمشي

---

(١) التعرف (ص١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) تقدم سياق ما ذكره شيخ الإسلام في الرد على المتصوفة في هذا الباب، وأن من ترك الدعاء، وأعرض عن الالتجاء إلى الله تعالى في كشف الكربات فهو مبتدع.
وقد ساق شيخ الإسلام الأدلة على ما ذكره، وبيّن أن الدعاء هو تعبد الأنبياء، وطريق الأولياء، وأن من أعرض عنه، أو ادعى استغناءه عنه فهو مبتدع (١/ ٥٩٥).

بين يديّ، حافيَ القدم، حاسرَ الرأس، ليس معه رَكوة، فقلت في نفسي: كيف يصلي هذا الرجل؟ ما لهذا طهارةٌ، ولا صلاةٌ!!

قال: فالتفت إليَّ، فقال: يعلم ما في أنفسكم فاحذروه[!!]

قال: فسقطتُ مغشياً عليَّ.

قال: فلما أفقتُ استغفرت الله من تلك الرؤية التي نظرت بها إليه.

فبينا أنا أمشي في بعض الطريق فإذا هو بين يديَّ، فلما رأيته هِبتُه وتوقفت، فالتفت إليَّ، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

قال: ثم غاب فما رأيته بعد ذلك، أو كما قال.

سمعت أبا الحسن الفارسي يقول: قال لي أبو الحسن المزين[(١)]: دخلت البادية وحدي على التجريد، فلما بلغتُ العَمْقَ قعدت على شفير البركة، فحدثتني نفسي بقطعها الباديةَ على التجريد، ودخلها شيء من العُجْب، فإذا أنا بالكتاني[(٢)] ـ أو غيره الشك مني ـ من وراء البركة، فناداني:

يا حجَّامُ، إلى كم تحدِّثُ نفسُك نفسَك بالأباطيل؟!

ويروى أنه قال له: يا حجام، احفظ قلبك ولا تحدِّث نفسك بالأباطيل[(٣)].

---

(١) علي بن محمد المزين، أبو الحسن البغدادي، صحب التستري والجنيد، وجاور بمكة، قال الذهبي: «كان من أورع القوم وأكملهم حالاً»اهـ، توفي سنة ٣٢٨هـ.
انظر: الحلية (١٠/ ٣٤٠)، السير (١٥/ ٢٣٢).

(٢) محمد بن علي بن جعفر الكتاني، أبو بكر، بغدادي سكن مكة، يعرف بسراج الحرم، صحب الجنيد والخراز والنوري، توفي سنة ٣٢٢هـ.
انظر: الحلية (١٠/ ٣٥٧)، السير (١٥/ ٢٣٩)، تاريخ بغداد (٣/ ٧٥).

(٣) أورد القصة أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

وقال ذو النون: رأيت فتى عليه أطمار رثَّة، فتقذرته نفسي، وشهد له قلبي بالولاية، فبقيت بين نفسي وقلبي أتفكر، **فاطّلع الفتى على سرِّي فنظر إليَّ**، فقال:

يا ذا النون، لا تبصرني لكي ترى خلقي، وإنما الدُّرُّ داخل الصدف، ثم ولَّى وهو يقول:

تهت على أهل ذا الزمان فما   أرفع منهم لواحد رأسا
ذاك لأني فتى أخو فطن   أعرف نفسي وأعرف الناسا
فصرت حراً مملكاً ملكاً   مدَّرعاً بالقنوع لباساً[١]

ومن مصادر التلقي عند الكلاباذي: الخواطر:

قال: «الباب التاسع والستون: تنبيهه إياهم بالخواطر:

.. قُدِّم أبو عمرو بن العلاء[٢] يوماً ليصلي بالناس، وما كان يؤم، فيقدَّم اضطراراً، فلمَّا تقدم قال للناس: استوُوا، فغُشي عليه، فلم يُفق إلا بالغد، فقيل له في ذلك، فقال:

وقتَ ما قلتُ لكم: استووا، **وقع في قلبي خاطر من الله تعالى**[٣] كأنه يقول لي:

يا عبدي، هل استويت لي قطُّ طرفَة عين حتى تقول لخلقي: استووا؟.

---

(١) التعرف (ص١٥٢).

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العُريان التميمي ثم المازني البصري، قيل: اسمه زبان، وقيل: العريان، شيخ القراء والعربية، ولد سنة ٧٠هـ تقريباً، وبرز في الحروف وفي النحو، وتصدر للإفادة مدة واشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم، توفي سنة ١٥٤هـ.
انظر: السير (٦/٤٠٧)، تاريخ بغداد (١٣/٥١).

(٣) وما أدراه أن خاطره كان من الله تعالى؟! لعله من وساوس الشياطين.

قال الجنيد: مرضت مرضة، **فسألت الله أن يعافِيَني، فقال لي في سري**: لا تدخل بيني وبين نفسك.

.. سمعت بعض الكبراء يقول:

ربما أغفو غفوة، **فأُنادَى**: أتنام عني؟! إن نمتَ عنِّي لأضربنك بالسياط»اهـ[(١)(٢)].

ومن مصادر التلقي المجزوم بصحته عند الكلاباذي: الرؤى والأحلام:

ويدلّ على ذلك قوله: «الباب السبعون: تنبيهه إياهم في الرؤيا ولطائفها:

.. سمعت أبا بكر محمد بن علي الكتاني يقول: رأيت رسول الله ﷺ في عادتي، **فكانت العادةُ قد جرت له أنه كان يرى النبي ﷺ كل ليلة اثنين وخميس، فيسأله مسائلَ فيجيبه عنها**[(٣)].

قال: فرأيته قد أقبل عليٌّ ومعه أربعة نفر.

فقال لي: يا أبا بكر، أتعرف من هذا؟ قلت: نعم، هو أبو بكر.

ثم قال لي: أتعرف هذا؟ قلت: نعم، هو عمر.

---

(١) التعرف (ص١٥٢ ـ ١٥٣).

(٢) بيَّن شيخ الإسلام في مواضعَ ضلالَ من ضلَّ من الصوفية بمثل هذه الخواطر والوساوس، ويظنونها من الله، وهي ـ في الغالب ـ من الشياطين؛ إذ ما هو الحرج في أن يصلي بالناس إماماً؟! ومن أين عرف بأن هذا الخاطر من الله لا من وساوس الشياطين؟!.
وقد ردّ شيخ الإسلام على المتصوفة في عدِّهم لمثل هذه الخواطر مصدراً للتلقي (١/ ٣٦١).

(٣) عجباً!! يسأل النبي ﷺ في النوم ويجيبه!! قد اختلف الصحابة قبله في مسائل، ولم يكونوا يرون الرسول ﷺ فيجيبهم، وهذا من تلاعب الشياطين بالمتصوفة.

ثم قال: أتعرف هذا؟ قلت: نعم، هو عثمان.

ثم قال لي: أتعرف هذا الرابع؟ فتوقفت ولم أجب، فأعاد عليَّ ثانياً، فتوقفت، فأعاد عليَّ ثالثاً، فتوقفت، وكان في قلبي منه غَيْرة[!!] قال:

فجمع كفَّه وأشار بها إليَّ، ثم بسطها وضرب بها صدري، وقال لي: يا أبا بكر، قل: هذا علي بن أبي طالب.

فقلت: يا رسول الله، هذا علي بن أبي طالب.

قال: فآخى عليه السلام بيني وبين علي رضي الله عنه.

قال: ثم أخذ علي رضي الله عنه بيدي، وقال لي: يا أبا بكر، قم حتى تخرج إلى الصفا.

فخرجت معه إلى الصفا، وكنت نائماً في حجرتي، فاستيقظت فإذا أنا على الصفا»اهـ[١][٢].

٢١ ـ وفي الباب الحادي والسبعين **تكلم الكلاباذي عن تشديد المتصوفة على أنفسهم بالامتناع عن المباحات مع حاجتهم إليها، كالامتناع عن شرب الماء البارد، والجوع الشديد المتواصل، وغير ذلك. وقد أثنى الكلاباذي على هذا النهج**، بل جعل هذه المجاهداتِ المبتدعةَ من غَيْرة الله على أوليائه الصالحين!!، ومدح الكلاباذي فاعلي هذه المجاهدات[٣].

---

(١) التعرف (ص١٥٣ ـ ١٥٤).

(٢) وما يدريه؟! لعل الجن والشياطين حملته إلى الصفا.

وقد عرض شيخ الإسلام لمثل هذه الرؤى، وبيَّن أنها لا يمكن أن تكون مصدراً معتمَداً للتلقي ـ إلا للأنبياء ـ فرؤياهم من الوحي، ومَنْ زعم أنه يتلقَّى الأوامر والأحكام الشرعية عن طريق الرؤى، فقد ادعى طرفاً من النبوة.

انظر: ما سبق في مبحث مصادر التلقي عند المتصوفة (١/ ٣١٧).

(٣) هذا ما فعله الكلاباذي. أما شيخ الإسلام، فقد ردّ على المتصوفة في تحريمهم =

ومن ذلك قوله: «قال الجنيد: دخلت على سريٍّ السَّقطي، فرأيت عنده خزف كوز مكسور.

فقلت: ما هذا؟ قال: جاءتني الصَّبِيَّةُ البارحة بكوز فيه ماء، فقالت لي: يا أبت، هذا الكوز معلَّق هاهنا، فإذا برد فاشربه، فإنها ليلة غمة، فغلبتني عيني، فرأيت جاريةً من أحسن الجواري دخلَتْ عليَّ، فقلت: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان، وضربتْ بيدها إلى الكوز فانكسر، وهو الذي ترى، فما زال الخزف مكانَه لم يحرِّكه حتى ستره الغبار.

قال المزين: أقمت في بعض المنازل بالبادية سبعة أيام لم أطعَمُ شيئاً، فأضافني رجل في منزله، فقدّم إليَّ تمراً وخبزاً، فلم أقدِرْ على أكله، فلما كان الليلُ اشتهيته، فأخذت نواةً أعالج بها فتح فمي، فضربت النواة سني.

فقالت صبية من البيت: يا أبي، كم يأكل ضيفنا الليلة؟!

فقلت: يا سيدي، جوع سبعة أيام ثم تنغص عليَّ، وعزتك لا ذقته»اهـ[1].

٢٢ ـ يبالغ الكلاباذي في تعظيم أمر الكرامات، وينقل الحكايات التي يسبق إلى العقل أنها كذب موضوع، ومن ذلك قوله في الباب الثالث والسبعين: لطائفه بهم في الموت وما بعده:

= على أنفسهم ما أحل الله لهم، وبيَّن بالأدلة الشرعية أن ما يفعلونه هو محض ابتداع، إذ إن النبي ﷺ كان يشرب الشراب الحلو البارد، ويأكل الشّواء، ولا يجوِّع نفسَه.. ومن رغب عن سنته ﷺ فليس منه.

انظر: ما سبق (ص١٣٤).

(١) التعرف (ص١٥٥ ـ ١٥٦).

«قال إبراهيم بن شيبان[(١)]: وافاني بعض المريدين، فاعتلَّ عندي أياماً فمات، فلمَّا أن أُدخل في قبره، أردتُ أن أكشف خدَّه وأضعه على التراب تذلُّلاً، لعل الله يرحمه، فتبسّم في وجهي[!!] وقال لي: تُذَلِّلُني بين يديْ مَن يُدَلِّلني؟!

قال: قلت: لا، يا حبيبي، أحياةٌ بعد الموت؟!!

فأجاب: أما علمتَ أن أحبَّاءه لا يموتون، ولكن يُنقلون من دار إلى دار.

وقال إبراهيم بن شيبان ـ أيضاً ـ: كان عندي في القرية شابٌّ من أهلها، متنسكاً، ملازماً للمسجد، وكنت مشغوفاً به، فاعتلَّ، فأتيت في بعض الجُمُعات البلدَ للصلاة، وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخواني بقيةَ يومي وليلتي، فوقع عليَّ الانزعاج بعد العصر، فأتيت القريةَ بعد العَتَمَةِ، فسألت عن الفتى؟ قالوا: نظنه متوجعاً.

فأتيته وسلمت عليه وصافحته، فخرجَتْ روحُه مع المصافحة[!!]

فتوليتُ غسلَه، فغلطتُ في صب الماء: أردت أن أصبَّ على يمينه صببت على يساره، ويده في يدي، فانتزع يده من يدي حتى ذهب ما كان عليه من السدر، فغُشي على مَنْ كان معي.

ثم فتح عينيه فيَّ[!!] ففزعتُ وصليت عليه، ودخلتُ القبر أواريه،

---

(١) إبراهيم بن شيبان القرميسيني، أبو إسحاق، صحب إبراهيم الخواص وغيره، قال الذهبي: «قال: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية. وما كان غير هذا، فهو من المغالطة والزندقة. قلت: صدقت والله؛ فإن الفناء والبقاء من ترَّهات الصوفية، أطلقه بعضهم، فدخل من بابه كل زنديق. قالوا: ما سوى الله باطل فانٍ، والله تعالى هو الباقي، وهو هذه الكائنات وما ثم شيء غيره» اهـ، توفي سنة ٣٣٧هـ.
انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٣٦٠ ـ ٣٦١)، السير (١٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٥).

وكشفت عن وجهه، ففتح عينيه، وتبسّم حتى بدت نواجذه وثناياه، فسوّينا عليه وحثينا عليه التراب»اهـ[(١)(٢)].

وبما سبق يتبين لنا أن شيخ الإسلام تميز منهجُه في الكلام عن الصوفية أو غيرها من الفِرَقِ بالعدل والإنصاف، وبيان ما في المتصوفة من حق مع الثناء عليه، ومن باطل، مع التحذير منه[(٣)].

كما يتبين لنا أن الإمام الكلاباذي ﷺ وإن اجتهد في تحسين مذهب الصوفية، وتأصيله، وتقعيد قواعده، إلا أن كلامه لم يَخْلُ من مخالفةٍ لطريقة السلف الصالح.

كما أنه من المعلوم أن هذه الأصول والقواعد التي سطَّرها الكلاباذي ومَنْ جاء بعدَه مَمَّن يُعدُّون مِنَ المشايخ المعتدلين عند أهل السنة، بل وعند المتصوفة، قد جاء مَنْ بعدهم وزاد عليها، ونفخ فيها من فم الغلو والابتداع، حتى قال فريق من الصوفية بالحلول والاتحاد، وقال آخرون بمعرفة المشايخ للغيب، وفريق ثالث غلَوْا في مسائلَ من الدين، وقصَّروا في مسائلَ، حتى وقعوا في الابتداع[(٤)].

❖ ❖ ❖

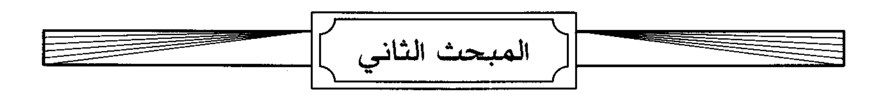
---

(١) التعرف (ص١٥٨).

(٢) هذا الذي ذكره الكلاباذي ـ عفا الله عنه ـ من أعظم صور الغُلُوِّ في المشايخ والصالحين، ولا يبعُد أن يكون ما وقع ـ إن كان قد وقع ـ من تلاعب الجن الشياطين وإغوائهم لهؤلاء الجُهَّال، وقد ردّ شيخ الإسلام على مثل هذا الغلو، وبيّن كثيراً من صوره المماثلة لهذه الصورة، وسبق بيان ذلك في مباحث سابقة (١/ ٥٣٤ ـ ٥٨٧).

(٣) تقدم بيان منهج شيخ الإسلام في التعامل مع المتصوفة والحكم عليهم (١/ ١٤٥، ١٥٧، ١٧٢) و(ص٣٨٩).

(٤) تقدم فيما سبق من مباحث بيان صور كثيرة من الابتداع والغلو عند الصوفية.



مقارنة بين منهج شيخ الإسلام ومنهج أبي حامد الغزالي

تمهيد:

يرى الباحثون في الفكر الصوفي أن الغزالي من أكبر رجال المتصوفة الذين كان لهم الأثر في مذهب التصوف، من خلال مصنفاته، وما رتَّب فيها من آدابٍ وضوابطَ لمذهب الصوفية، وبما أن الغزالي اشتهر بأنه حجة الإسلام، فقد أصبح سلوكه في التصوف حجةً عند المتصوفة، فاغتروا بما كتب وصنف لهم، وظنوا أن الصوفية هم الفرقة الناجية إلى قيام الساعة، مهما عرض لهم في طريقهم مِنَ انحرافٍ وزَيغ!!.

وقد قرر شيخ الإسلام أن الغزالي لم يكن تأثيرُه محصوراً فقط في عامة المتصوفة، بل إن الغلاة المنتسبين إلى الصوفية ـ كابن عربي وابن الفارض ـ قد تأثروا بكتبه، وقادتهم إلى ما وقعوا فيه من الزيغ والضلال[1].

ومن أعظم ما ألّف الغزالي في التصوف كتابه (إحياء علوم الدين)؛ حيث أكثر فيه من ذكر أعلام المتصوفة، وآدابهم، وأخلاقهم، وطرق تربية النفس، وغير ذلك[2]، إضافة إلى ما كتبه في غيره من الكتب.

---

(١) انظر: (١/٣٠٨).

(٢) تقدم في مبحث سابق ذكر رأي شيخ الإسلام في كتاب الإحياء للغزالي =

وقد تقدم في مباحث سابقة الكلام عن شيء من آراء أبي حامد في مسائل عِدّة، وذكرت ما ردّ به شيخ الإسلام عليه وما ناقشه فيه[(١)].

أما هذا المبحث، فهو موازنة بين منهج أبي حامد فيما كتبه عن الصوفية، وما كتبه شيخ الإسلام[(٢)]، وقد جعلتُ هذه موازنة في النقاط التالية:

أولاً: بداية دخول أبي حامد في التصوف:

قال أبو حامد الغزالي: «ثم إني لمَّا فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمَّتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها

= (ص٣٧٧)، وذكرت أيضاً رأي أبي الفرج ابن الجوزي في الإحياء وتقويمه (ص٣٧٧)، وأذكر هنا كلام بعض أهل العلم حول الإحياء:

قال الإمام الذهبي: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد من طرائق الحكماء، ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علماً نافعاً. تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه.. فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندَّعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»اهـ. سير الأعلام (١٩/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢، ٣٤٦).

وقال محمد بن الوليد الطرطوشي الفقيه المالكي (ت: ٥٢٠): «فأما ما ذكرت من أبي حامد، فقد رأيته.. فلمَّا عمل الإحياء عمد يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفية، وكان غيرَ أنيسٍ بها، ولا خبيرٍ بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»اهـ طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ١٢٤).

(١) تقدم في مبحث سابق (ص٤٦٦) الترجمةُ بتوسُّع لأبي حامد الغزالي، وذكرتُ فيها سبب ما وقع عنده من انحراف، وأوردت نماذج من انحرافاته في كتبه، أسأل الله أن يعامله بعفوه ومغفرته.

(٢) تجنباً للتكرار، فإنني سأعرض رأي أبي حامد، وأسوق نصَّ كلامه كاملاً، أما كلام شيخ الإسلام، فإنني أُشير إلى موضعه فيما سبق من مباحث.

المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسرَ عليَّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي، وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطَّلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما لا يمكن أن يحصلَ من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لي أن أخصَّ خواصِّهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدُّل الصفات...

فعلمت يقيناً أنهم أربابُ الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصَّلته، ولم يبق إلا ما لا سبيلَ إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والحال[(١)]»اهـ[(٢)].

ثانياً: أبو حامد شديد الإعجاب بالصوفية:

فقال: «علمت يقيناً أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتَهم أحسنُ السِّيَرِ، وطريقَهم أصوبُ الطرق، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميعَ حركاتهم وسكناتهم في

---

(١) هذا القول من أبي حامد يؤيد ما ذهب إليه المتصوفة مِنْ أنَّ مِنْ مصادر التلقي: الذوق والوَجد.

وقد ردّ شيخ الإسلام على ذلك وبيّن أن أذواق الناس تتفاوت، ولا يمكن للذوق أن يوافق الشريعة إلا إذا كان صاحبُه قد نال من علم الشريعة وأصولها شيئاً كثيراً (١/ ٣٤٠).

(٢) المنقذ من الضلال (ص٤٣ ـ ٤٤).

ظاهرهم وباطنهم مقتبسةٌ من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به»اهـ[(١)][(٢)].

ومما يبين شدة إعجاب أبي حامد بالصوفية كثرةُ استشهاده بأقوالهم وقصصهم ومناماتهم، فلا تكاد تخلو صفحةٌ من كتابه (إحياء علوم الدين) ـ خاصة ـ وكتبه الأخرى، من ذكر قول لأحد أعلام المتصوفة، أو سَوْق حكاية من حكاياتهم، سواء في مسائل التصوف أو غيرها، وهو يورد كلّ ذلك من غير سَوْقِ إسناد، أو ذكر المرجع الذي نقل عنه القصة[(٣)].

إلا أن هذا الإعجاب الشديد من أبي حامد بالمتصوفة، وتأصيله

(١) المنقذ من الضلال (ص٤٩ ـ ٥٠).

(٢) انظر: رأي شيخ الإسلام في الصوفية عموماً وحكمه عليهم (ص٣٨٩).

(٣) ومن ذلك على سبيل المثال:

ـ تكلم أبو حامد في ذم علم الكلام، فاستشهد بقولٍ للجنيد، وآخرَ، للسري السقطي (الإحياء، ١/ ٢٥ ط. النور).

ـ وتكلم عن التزوج واختيار الزوجة، فاستشهد بقولٍ للجنيد، وحادثة لأحمد بن أبي الحواري وأبي سليمان الداراني (الإحياء، ٢/ ٢٧، ٥٣، ط. النور).

ـ وتكلم عن الأخوة وشروطها، فساق الكثير من القصص والأقوال عن الصوفية (الإحياء، ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣ ط. النور).

ـ وفي كلامه عن السماع استشهد بما لا يُحصى من كلام المتصوفة وقصصهم (الإحياء، ٢/ ٢٤٥ وما بعدها، ط. النور).

ـ وتكلم عن العزلة، فأورد أقوالاً للصوفية كثيرة (الإحياء، ٢/ ٢٠٧، ٢٢١ ط. النور).

وانظر: الإحياء (١/ ٢٥، ٢/ ٣٢، ٥٨، ٨٣، ٨٩، ١٧٢، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٧٦، ٣/ ٢٤، ٢٥، ٤/ ٣٥٨ ط. النور، وغيرها كثير).

وهذا المنهج يخالف منهج شيخ الإسلام، إذ إنه لا يكاد يذكر حكاية أو قولاً لأحد المتصوفة إلا ويذكر المصدر الذي نقل عنه أو سنده في ذلك، توثيقاً للنقل وأمانة في حكاية المذهب، وقد تقدم في مبحث سابق ذكر أمثلة كثيرة على ذلك (١/ ١٦٢).

لكثير من علومهم وطرقهم لم يمنعه من انتقاد بعض من يتزَّيا بزيِّ المتصوفة دون أن يكون في حقيقته منهم، وهم الذين سمَّاهم شيخُ الإسلام بصوفية الأرزاق والرسم.

ومن ذلك قوله: «أكثر متصوفة هذه الأعصار لمَّا خلت بواطُنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال، ولم يحصُلْ لهم أُنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطّالين غير محترفين ولا مشغولين، قد ألِفُوا البطالة، واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب، واستلانوا جانب السؤال والكُدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفُّوا عقولهم وأديانهم من حيثُ لم يكن قصدُهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة، وانتشار الصيت، واقتناص الأموال بطريق السؤال تعلُّلاً بكثرة الأتباع، فلم يكن لهم في الخانقاهات[1] حكم نافذ، ولا تأديب للمريدين نافع، ولا حجر عليهم قاهر، فلبسوا المرقَّعات، واتخذوا في الخانقاهات متنزَّهات.

وربما تلقَّفوا ألفاظاً مزخرفةً من أهل الطامَّات، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبَّهوا بالقوم في خِرقتهم، وفي سياحتهم، وفي لفظهم وعبارتهم، وفي آداب ظاهرةٍ من سيرتهم، فيظنون بأنفسهم خيراً، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كلَّ سوداءَ تمرةٌ، ويتوهمون أنّ المشاركة في الظاهر تُوجب المساهمة في الحقائق وهيهات، فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم؟ فهؤلاء بُغَضَاءُ الله، فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ، ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ»اهـ[2].

---

(١) الخانقاهات: جمع خانقاه، وهي بيوت خاصة تُجعل للصوفية، تقدم تعريفها.
(٢) الإحياء (٢/٢٢٨ ط. النور).

ثالثاً: أقسام المتصوفة عند أبي حامد:

تكلم عن أصناف المغترِّين من الخلق، ثم قال: «الصنف الثالث: المتصوّفة، وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة:

ففرقة منهم(١): وهم متصوّفة أهل الزمان ـ إلا من عصمه الله ـ اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيِّهم وهيئتهم، وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات، مع إطراق الرأس، وإدخاله في الجيب كالمتفكِّر، وفي تنفُّس الصُّعَداء، وفي خفض الصوت في الحديث، إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلمَّا تكلَّفوا هذه الأمور، وتشبَّهوا بهم فيها، ظنوا أنهم أيضاً صوفية، ولم يتعبوا قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفيَّة والجليَّة، وكل ذلك من أوائل منازل التصوُّف.

ولو فرغوا عن جميعها لَمَا جاز لهم أن يعدُّوا أنفسهم في الصوفية؟ كيف ولم يحوموا قطَّ حولها، ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها؟ بل يتكالبون على الحرام والشُّبُهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقِطمير، ويمزق بعضهم أعراضَ بعض مهما خالفه في شيء مِنْ غرضه.

وهؤلاء غرورهم ظاهر، ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تُبتت أسماؤهم في الديوان، ويُقطع لكل واحد منهم قَطْرٌ مِنْ أقطار المملكة، فتاقت نفسُها إلى أن يُقطَعَ لها مملكة؛ فلبست درعاً، ووضعت على رأسها مِغْفراً، وتعلمت من رجز

---

(١) وهم الذين يسميهم شيخ الإسلام: صوفية الأرزاق (انظر ما سبق ١/ ٢٣٤).

الأبطال أبياتاً، وتعوَّدت إيرادَ تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسَّرت عليها، وتعلَّمت كيفية تبختُرهم في الميدان، وكيف تحريكهم الأيدي، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمُها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إلى المعسكر، أُنفذت إلى ديوان العَرْض، وأمر بأن تجرَّد عَنِ المِغفر، والدرع، ويُنظر ما تحته، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليُعرف قدرُ عنائها في الشجاعة، فلمَّا جُرِّدت عن المغفر والدِّرع، فإذا هي عجوزٌ ضعيفة زمِنَةٌ، لا تطيق حمل الدرِّع والمغفر؟ فقيل لها: أجئتِ للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم؟! خذوها فألقوها قُدام الفيل لسُخفها[1]، فألقيت إلى الفيل.

فهكذا يكون حالُ المدَّعين للتصوف في القيامة إذا كُشف عنهم الغطاء، وعُرِضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي والمرقَّع بل إلى سرّ القلب.

وفرقة أخرى[2]: زادت على هؤلاء في الغرور؛ إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضا بالدون، فأرادت أن تتظاهرَ بالتصوف، ولم تجد بدّاً من التزيُّن بزيهم، فتركوا الحرير والإبريسم، وطلبوا المرقَّعات النفيسة، والفوط الرقيقة، والسجادات المصبغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الحرير والإبريسم، وظن أحدهم ـ مع ذلك ـ أنه متصوّف بمجرّد لون الثوب وكونه مرقعاً، ونسي أنهم إنما لوّنوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كلَّ ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقَّعات إذ كانت ثيابُهم مخرَّقةً، فكانوا يرقِّعونها ولا يلبَسون الجديد، فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعةً قطعةً، وخياطة المرقعات منها، فمن أين يشبه ما اعتادوه؟.

---

(١) كذا في المطبوع، ولعلّ الصواب: لسحقها.

(٢) وهم الذين يسميهم شيخ الإسلام: صوفية الرسم (انظر ما سبق ١/ ٢٣٤).

فهؤلاء أظهر حماقةً من كافة المغرورين؛ فإنهم يتنعَّمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة، ويطلبون رَغَدَ العيش، ويأكلون أموال السلاطين، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم - مع ذلك - يظنُّون بأنفسهم الخير.

وشرُّ هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق؛ إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي بهم تفسُد عقيدته في أهل التصوف كافةً؛ ويظنّ أن جميعهم كانوا من جنسه، فيطول اللسان في الصادقين منهم، وكل ذلك مِنْ شؤم المتشبِّهين وشرِّهم.

وفرقة أخرى: ادَّعت علمَ المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاوزة المقامات والأحوال، والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ؛ لأنه تلقَّف من ألفاظ الطامَّات كلماتٍ، فهو يرددها، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسِّرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء - فضلاً عن العوام - حتى إن الفلَّاح ليترك فِلاحته، والحائك يترك حياكته، ويلازمهم أياماً معدودة! ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيَّفة، فيردِّدها كأنه يتكلم عن الوحي، ويخبر عن سرِّ الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء:

فيقول في العُبَّاد: إنهم أجراءُ متعبون[!!].

ويقول في العلماء: إنهم بالحديث عن الله محجوبون[!!].

ويدَّعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق، وأنه من المقرَّبين، وهو عند الله من الفُجَّار المنافقين، وعند أرباب القلوب مِنَ الحمقى الجاهلين.

لم يُحكِم قط علماً، ولم يهذِّب خُلُقاً، ولم يرتِّب عملاً، ولم يراقبْ قلباً، سوى اتباع الهوى وتلقُّف الهَذَيان وحفظه.

وفرقة أخرى[(١)]: وقعت في الإباحة، وطوَوْا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسوَّوْا بين الحلال والحرام!.

فبعضهم: يزعم أن الله مستغنٍ عن عملي، فلمَ أُتعِبُ نفسي؟!.

وبعضهم يقول: قد كُلِّف الناسُ تطهيرَ القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا، وذلك محال؛ فقد كُلِّفُوا ما لا يمكن، وإنما يغترُّ به من لم يجرِّب، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محالٌ ! ولا يعلم الأحمق: أن الناس لم يكلَّفوا قلعَ الشهوة والغضب من أصلهما، بل إنما كُلِّفوا قلعَ مادتهما، بحيث ينقاد كلٌّ واحد منهما لحكم العقل والشرع.

وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهةٌ بحب الله، وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبُنا عاكفةٌ في حضرة الربوبية، فنحن مَعَ الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعُمون أنهم قد ترقَّوْا عن رتبة العوامِّ، واستغنَوْا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ إذ كانت تصدُّهم عن طريق الله خطيئةٌ واحدة، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متواليةً.

وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى[(٢)]، وكل ذلك بناءً على أغاليطَ ووساوسَ يخدعُهم الشيطان بها لاشتغالهم

---

(١) وهم ابن عربي وأصحابه من الإباحية، وقد تقدم تفصيل الكلام عنهم (ص٣١٦).

(٢) قد سبق عندما عرضت لترجمة الغزالي وأطوار حياته أنه يتناقض في كتبه كثيراً؛ فهو يذم الشيء في كتاب، ثم يمدحه في كتاب آخر، ومن ذلك أنه ذمَّ أهل الإباحة هنا، بينما مدح طريقتهم في مواضعَ أخرى، وقد تقدم سياق أمثلة كثيرة على ذلك (ص٤٦٦).

بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداءٍ بشيخ متقِنٍ في الدين والعلم صالحٍ للاقتداء به.

وإحصاء أصنافهم يطول.

وفرقة أخرى: جاوزت حدّ هؤلاء، واجتنبت الأعمال، وطلّقت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها.

فمنهم: من يدَّعي الوَجْدَ والحب لله تعالى، ويزعُم أنه والِهٌ بالله، ولعله قد تخيَّل في الله خيالاتٍ هي بدعة أو كفرٌ! فيدَّعي حبَّ الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله ﷻ وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخلق، ولو خلا لَمَا تركه حياءً من الله تعالى، وليس يدري أن كلَّ ذلك يناقض الحب.

وبعضهم: ربما يميل إلى القناعة والتوكل، فيخوض البوادي من غير زاد ليصحِّحَ دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعةٌ لم تُنْقَلْ عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرفَ بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد! بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به.

وما مْنِ مقام مِنَ المقامات المُنجِيات إلا وفيه غرورٌ، وقد اغترّ به قوم، وقد ذكرنا مداخلَ الآفات في ربع المنجيات من الكتاب»اهـ[1][2].

---

(١) الإحياء (٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٨ ط. النور).

(٢) هذه التقسيمات التي ذكرها أبو حامد قريبة من التقسيمات التي ذكرها شيخ الإسلام للمتصوفة، لكن أبا حامد غلا في بعض المسائل؛ كمدحه للتوكل وترك التكسُّب، وهذا مما رده شيخ الإسلام. =

رابعاً: مراتب التوحيد عند أبي حامد توافق مراتبَه عند غلاة الصوفية:

قسّم الغزالي التوحيد أربع مراتب، وذكر أن أهل المرتبة الرابعة لا يحلُّ لهم إفشاؤه، فقال:

«فأما التوحيد، فهو الأصل والقول فيه يطول، وهو من علم المكاشفة؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال، ولا يتم علم المعاملة إلا بها، فإذن لا نتعرَّض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة، وإلا فالتوحيد هو البحر الخِضَمُّ الذي لا ساحلَ له، **فنقول: للتوحيد أربعُ مراتبَ**، وينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر. ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجَوْزِ في قشرته العليا؛ فإنّ له قشرتين، وله لب، وللبِّ دهن هو لب اللب.

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه: (لا إله إلا الله)، وقلبه غافل عنه أو منكر له، كتوحيد المنافقين.

والثانية: أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقرَّبين، وذلك بأن يرى أشياءَ كثيرةً، ولكن يراها ـ على كثرتها ـ صادرةً عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدّيقين، وتسمِّيه الصوفية الفناءَ في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم يَرَ نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد، كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فَنِيَ عن رؤية نفسه والخلق.

= انظر: رأي شيخ الإسلام (١/ ٢٣٤، ٢٣٦).

فالأوّل: موحِّد بمجرّد اللسان، ويَعصِمُ ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان.

والثاني: موحِّد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهومَ لفظِه، وقلبُه خالٍ عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح، ولكنه يحفظ صاحبَه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقدته، ولهذا العقد حِيَلٌ يقصد بها تضعيفه وتحليله تُسمَّى بدعة، وله حِيَلٌ يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف، ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب، وتسمَّى كلاماً، والعارف به يُسمَّى متكلماً، وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحلَّ عقدته.

والثالث: موحِّد، بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه، ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً، وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة، فإنّ تلك رتبة العوام والمتكلمين؛ إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد، بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة.

والرابع: موحِّد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد. . .

وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخوّاصَ يدور في الأسفار:

فقال: في ماذا أنت؟

فقال: أدور في الأسفار لأصحِّحَ حالتي في التوكل، وقد كان من المتوكلين.

فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟

فكان الخوّاص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحِّدين في التوحيد على سبيل الإجمال[1]» اهـ[2][3].

خامساً: النبوة ومقام الأنبياء عند أبي حامد:

يقول أبو حامد: إن الأولياء بإمكانهم الاستغناء عن الأنبياء، وقد

---

(١) يستشهد أبو حامد هنا بكلام الحلاج!! مع أن الحلاج قد ادَّعى الألوهية، وقُتل على الزندقة، وقد سبق في مبحث خاص بيان تقويم شيخ الإسلام للحلاج، وتوسعت في ترجمته وقصة مقتله (ص٤١١).
واستشهاد الغزالي هنا بقول الحلاج يدلّ على أن منهج الغزالي في التعامل مع المتصوفة منهج غير مستقيم؛ فقد بلغ به إعجابه بالصوفية أن يقدِّسهم ويستشهد بأقوالهم حقاً كانت أو باطلةً، بل يستشهد بأقوال كل من انتسب إلى التصوف عموماً، بصرف النظر عن حقيقة انتسابه إلى الصوفية.
بينما إذا نظرت في استشهاد شيخ الإسلام بكلام المتصوفة تجد أنه يفنِّد القول إذا أورده ويحكم عليه، ولا يستشهد أبداً بأقوال زنادقة المتصوفة إلا في الرد على باطلهم وبيان ضلالهم، وقد تقدم تفصيل ذلك (١/ ١٤٥).

(٢) الإحياء (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧)، وانظر كلاماً لأبي حامد قريباً من هذا ـ وهو قريب من توحيد أهل الحلول والاتحاد ـ في الإحياء (٤/ ٨٢ ـ ٨٣ ط. النور).

(٣) هذه المراتب التي اخترعها أبو حامد كانت السبب في وقوع الغُلاة المنتسبين إلى المتصوفة في الإلحاد والحلول والاتحاد، كما نصّ على ذلك شيخ الإسلام.
وقد ردّ شيخ الإسلام هذا التقسيم للتوحيد، وبيَّن أنه تقسيم مبتدَع، وأن حقيقة أهله أنهم حلولية زنادقة (١/ ٣٨٤).

صرح بذلك في (مشكاة الأنوار)، حيث قال: «في الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مَدَدِ الأنبياء»اهـ[1].

بل إن الغزالي لا يكاد يفرِّق بين علوم الأنبياء والأولياء، بل إنها عنده تكاد تكون متساويةً!!.

قال ـ عفا الله عنه ـ: «الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هو: أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يتأتَّى من أبواب الحواسِّ المفتوحة إلى عالم الملك»اهـ[2].

ويورد الغزالي من الحكايات ما يوهم تنقصه للأنبياء ورفع الأولياء فوقهم.

ومن ذلك ما أورده في معرض كلامه عن حفظ شهوة الفرج، فقال: «وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز، وهو إمامٌ لكلِّ مَنْ وُفِّقَ لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأةٌ، فسألته نفسَه، فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهم»اهـ[3][4].

---

(١) مشكاة الأنوار (ص٤٠، ط. مكتبة الجندي، مصر).

(٢) الإحياء (٣/ ٢٠). (٣) الإحياء (٣/ ١٠٥).

(٤) ما ذكره أبو حامد من ازدراء مقام النبوة وتنقصه هو مذهب الصوفية، إذ أنهم يغلون في مشايخهم ويتنقصون الأنبياء، وقد ردّ شيخ الإسلام عليهم في ذلك وبيَّن ضلالهم فيه (١/ ٧١٧).

سادساً: موقف أبي حامد من عبارات الصوفية المُوهِمة للحلول والاتحاد:

قال أبو حامد: «وأما الشطح: فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية.

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة **حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب،** فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبَّهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صُلِبَ لأجل إطلاقه كلماتٍ من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، **وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني.**

وهذا فنٌّ مِنَ الكلام عظيمٌ ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى، فإن هذا الكلام يستلذُّه الطبع؛ إذ فيه البطالة من الأعمال، مع تزكية النفس بدَرْك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقُّف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا مِنَ الباطن بمكاشفة نور الحق.

فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شَرَرُه، وعَظُمَ في العوامِّ ضررُه، حتى مَنْ نطق بشيء منه، فقتلُه أفضلُ في دين الله من إحياء عشرة، **وأما أبو يزيد البسطامي** رَحِمَهُ اللهُ **فلا يصح عنه ما يُحكى، وإن سُمع ذلك منه، فلعلَّه كان يحكيه عن الله** عَزَّ وَجَلَّ في كلام يردده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: «إنني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني»، فإنه ما كان ينبغي

أن يُفهَمَ منه ذلك إلا على سبيل الحكاية»اهـ[(١)].

وقد شدد أبو حامد النكير على الحلولية الإباحية القائلين بسقوط التكاليف، وبيّن ضلالهم، فقال: «ومن جنس ذلك ما يدَّعيه بعض من يدعي أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله أسقطت عنه الصلاة، وحلّ له شربُ الخمر والمعاصي وأكلُ مال السلطان.

فهذا مِمَّن لا شكَّ في وجوب قتله ـ وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر ـ وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر؛ إذ ضررُه في الدين أعظم، وينفتح به بابٌ من الإباحة لا ينسدُّ»اهـ[(٢)(٣)].

سابعاً: معالم الطريق الصوفي عند أبي حامد:

أ ـ الخلوة:

يقرر أبو حامد أهمية الخلوة للمريد، ويضع لها آداباً، ومن ذلك:

قوله في التحضير للخلوة وما يجب عمله في ذلك: «ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغَ القلب مجموعَ الهمِّ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطرَ بباله شيءٌ سوى الله تعالى»اهـ[(٤)].

وقال في موضع آخر: «وأما حياة الخَلْوَة، ففائدتها دفعُ الشواغل

---

(١) الإحياء (١/ ٣٧ ط. النور)، وانظر أيضاً الإحياء (٤/ ١٢٦، ٣٢٦ ط. النور).

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (ص١٤٦، ط. مكتبة الجندي، مصر).

(٣) هذا الكلام من أبي حامد في ذمّ مذهب أهل الحلول والاتحاد يوافق ما ذكره عنهم شيخ الإسلام، مع أن أبا حامد لا يخلو كلامه في بعض كتبه من عبارات صرّح فيها بالحلول والاتحاد، وتقدم ذكر أمثلة على ذلك (٤٦٧ حاشية ٢).

(٤) الإحياء (٣/ ١٩).

وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب، . .وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم، فليلُفَّ رأسَه في جيبه، أو يتدثَّر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية»اهـ(١)(٢).

ب - تربية النفس على الأخلاق الحسنة بشتى الطرق، وإن كانت طرقاً غير شرعية:

ذكر أبو حامد طرقاً شتى استحدثها بعض الصوفية لتربية النفس وكسْرِ شهواتها، وأكثرها طرق لم يكن يربي عليها رسولُ الله ﷺ أصحابه، ولم تثبت مِنْ فعل أحد مِنَ السلف الذين يُقتدى بهم، ومِنْ ذلك: التشديدُ على النفس بالخَلوة، والجوع، وترك الطيبات، والقيام في الشمس، أو الوقوف على الثلج، أو نحو ذلك مما يستحبُّه الواحد مِنَ المتصوفة، فيتبعه على ذلك أقوام، وأحياناً ينقل ذلك عن شيوخ المتصوفة مقراً له ومؤيداً.

ومن ذلك قوله: «وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم في الثلج، فقلت: أما تجد البرد؟ فقال: مَنْ شغله حبُّ الله لم يجد البرد»اهـ(٣).

وقال: «كما حُكِيَ عن بعضهم أنه كان يعوِّدُ نفسه الحِلْمَ، ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ مِنَ الناس،

---

(١) الإحياء (٣/٧٦)، وانظر أيضاً الإحياء (٤/٣١١ ط. النور).

(٢) تقدم في مبحث سابق ذكر ما قرره شيخ الإسلام من أن هذه الخلوات التي يفعلها المتصوفة لتربية أنفسهم هي من البدع والضلالات التي تسلطت الجن والشياطين عليهم بسببها، وقد أحاط شيخ الإسلام بأدلتهم على استحباب هذه الخلوات وردَّ عليها (ص١١٣).

(٣) الإحياء (٤/٢٧٢ ط. النور).

ويكلف نفسه الصبر، ويكظِمُ غيظه، حتى صار الحِلْمُ عادةً له، بحيث كان يضرب به المثل»اهـ[(١)].

وقال ـ أيضاً ـ وهو يوصي الصوفيَّ بإذلال نفسه وإهانتها أمامَ الناس؛ لأن ذلك مِنْ تربيتها!!:

«دُعي أبو عثمان الحيري إلى دعوةٍ، وكان الداعي قد أراد تجربتَه، فلما بلغ منزله:

قال له: ليس له وجه.

فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غيرَ بعيد دعاه ثانياً:

فقال له: يا أستاذ، ارجع.

فرجع أبو عثمان، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة:

وقال: ارجع على ما يوجب الوقت، فرجع.

فلمَّا بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى، فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة، فردَّه حتى عامله بذلك مراتٍ، وأبو عثمان لا يتغيَّر مِنْ ذلك، فأكبَّ على رجليه:

وقال: يا أستاذ، إنما أردت أن أختبرَك فما أحسن خلقك.

فقال: إنّ الذي رأيتَ مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب، وإذا زُجِرَ انزجر»اهـ[(٢)].

وقال أيضاً: «روي أن ابن الكريبي ـ وهو أستاذ الجنيد ـ دعاه رجل إلى طعام ثلاثَ مرات، ثم كان يردُّه، ثم يستدعيه، فيرجع إليه بعد ذلك، حتى أدخله في المرّة الرابعة.

---

(١) الإحياء (٣/ ٦٠، كتاب: رياضة النفس).

(٢) الإحياء (٣/ ٦٨، كتاب: رياضة النفس).

فسأله عن ذلك.

فقال: قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يُطردُ فينطرد، ثم يدعى فيُرمى له عظمٌ فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك، لأجبت.

وعنه أيضاً أنه قال: نزلت في محلة، فعُرفت فيها بالصلاح، فتشتت عليَّ قلبي، فدخلت الحمَّام، وعدلت إلى ثياب فاخرةٍ، فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقَّعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلاً قليلاً. فلحقوني فنزعوا مُرَقَّعتي، أخذوا الثياب، وصفعوني وأوجعوني ضرباً، فصرت بعد ذلك أُعرَفُ بلصِّ الحمَّام فسكَنَتْ نفسي.

فهكذا كانوا يرضَوْن أنفسهم حتى يخلِّصَهم الله مِنَ النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس، فإن الملتفت إلى نفسه محجوبٌ عن الله تعالى، وشغلُه بنفسه حجابٌ له، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس.

ولذلك حُكي: أن شاهداً عظيمَ القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد:

فقال له يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي مِنْ هذا العلم الذي تذكر شيئاً، وأنا أصدّق به وأحبه.

فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائة سنة، وقمت ليلَها، ما وجدت من هذا ذرّة.

قال: ولم؟

قال: لأنك محجوبٌ، بنفسك.

قال: فلهذا دواء؟

قال: نعم.

قال: قل لي حتى أعملَه.

قال: لا تقبلْه.

قال: فاذكره لي حتى أعملَ.

قال: اذهب الساعة إلى المزيِّن، فاحلق رأسك ولحيتَك، وانزع هذا اللباس، واتَّزر بعباءة، وعلِّق في عنقك مخلاةً مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك، وقل: كلُّ مَنْ صفعني صفعةً أعطيتُه جوزةً، وادخل السوق، وطف الأسواقَ كلَّها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك.

فقال الرجل: سبحان الله، تقول لي مثل هذا.

فقال أبو يزيد: قولك: سبحان الله، شرك.

قال: وكيف؟

قال: لأنك عظَّمت نفسَك، فسبَّحتها وما سبَّحت ربك.

فقال: هذا لا أفعله، ولكن دلَّني على غيره.

فقال: ابتدئ بهذا قبل كل شيء.

فقال: لا أطيقه.

قال: قد قلت لك: إنك لا تقبل؟.

فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواءُ مِنَ اعتلَّ بنظره إلى نفسه، ومرض بنظر الناس إليه، ولا ينجي من هذا المرض دواءٌ سوى هذا وأمثاله، فمن لا يطيق الدواءَ، فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق مَنْ داوى نفسه بعد المرض، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً، فأقلُّ درجات الصحة الإيمانُ بإمكانها، فويلٌ لمن حُرِمَ هذا

القدرَ القليل»اه[١][٢][٣].

ثامناً: صفات المريد عند أبي حامد:

ذكر أبو حامد آداباً للمريد هي التي سارت عليها المتصوفة، وصار المشايخ يربُّون عليها المريدين، ومِنْ هذه الآداب التي ذكرها:

أ ـ الإعراض عن طلب العلم؛ لأن العلم سيأتيه إلهاماً!!:

قال أبو حامد: «فاعلم أن مَيْلَ أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائقِ كلِّها، والإقبال بكنه الهِمَّة على الله تعالى: ومهما حصل ذلك، كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر

(١) الإحياء (٤/٣٥٨)، (٤/٣٢٨ ط. النور).

(٢) هذه الطرق التي ذكرها أبو حامد وسار عليها فريقٌ مِنَ المتصوفة، هي طرق غير شرعية، وقد ردَّ شيخ الإسلام على من استحبها، أو اشترطها للمريد والسالك (ص٣١٩).

(٣) قال الإمام ابن الجوزي بعد إيراده لهذه الحكايات التي زعم بها أبو حامد أنه تتربى بها النفوس على طاعة الله تعالى:
«قلت: سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الأحياء، فليته لم يحَكِ فيه مثل هذا الذي لا يحلُّ. والعجب منه أنه يحكيه ويستحسنه، ويسمي أصحابه أربابَ أحوال، وأي حالة أقبح وأشد مَنْ حال من خالف الشرع ويرى المصلحة في النهي عنه؟! وكيف يجوز أن يطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي، وقد عدم في الشريعة ما يصلح به قلبه حتى يستعمل ما لا يحل فيها؟! وهذا من جنس ما تفعله الأمراء الجَهَلَةُ من قتل من لا يجوز قتله ويسمونه سياسةً، ومضمون ذلك: الشريعة ما تفي بالسياسة»اهـ. تلبيس إبليس (١/٢٤٢).

القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سرُّ المَلَكُوت، وانقشع عن وجه القلب حجابُ الغرة. . .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور؛ لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبريء من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكُنْه الهِمَّة على الله تعالى، فمن كان للهِ كان اللهُ له. وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه»اهـ[1].

ونقل عن الجنيد ما يؤيد ذلك، فقال: «وقال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: أُحِبُّ للمريد المبتدئ أنْ لا يشغَلَ قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث والتزوّج.

وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ؛ لأنه أجمع لهمه»اهـ[2][3].

ب ـ عدم التزوج:

قال أبو حامد: «بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله:

اعلم أنّ المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغَل نفسه بالتزويج، فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك، ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة،

---

(١) الإحياء (٣/ ١٩ ط. النور)، وانظر ـ أيضاً ـ الإحياء (٣/ ٢٢ ط. النور).

(٢) الإحياء (٤/ ٢٣٩)، وانظر: الإحياء (٢/ ٢٣٧).

(٣) بيَّن شيخ الإسلام ضلال الصوفية في ذمهم للعلم، ونقل عن صالحي شيوخهم الحث على طلب العلم، وأن من أعظم ما أوقعهم في الضلال الإعراضُ عن طلب العلم (١/ ٢٤١).

ومَن أنِسَ بغير الله تعالى شُغل عن الله، ولا يغرّنه كثرةُ نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغَلُ قلبَه جميعُ ما في الدنيا عن الله تعالى، فلا تقاسُ الملائكة بالحدادين.

ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوّج فقد ركَنَ إلى الدنيا، وقال: ما رأيت مريداً تزوّج، فثبت على حاله الأول»اهـ[1][2].

ج ـ عدم الاشتغال بالتكسب؛ لأن السعي في طلب الرزق ينافي التوكل:

قال أبو حامد في معرض كلامه عن آداب الصوفي: «فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب، فالاهتمام بالرزق قبيحٌ بذوي الدين، وهو بالعلماء أقبحُ؛ لأنّ شرطهم القناعة، والعالم القانع يأتيه رزقُه ورزقُ جماعة كثيرة وإن كانوا معه، إلا إذا أراد أن لا يأخذَ من أيدي الناس ويأكل من كسبه، فذلك له وجهٌ لائق بالعالم العامل الذي سلوكُه بظاهر العلم والعمل، ولم يكن له سير بالباطن، فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن»اهـ[3].

ولأن المريد إذا لم يجد ما يطعمه سوف يضطر إلى سؤال الناس، لم يغفل أبو حامد عن تعليمه آداب التسوُّل، فقال: «آداب التسول: يبدي الفاقة بصدق الحقيقة، ويظهر السؤال بلطافة القول، ويأخذ ما أُعطي

---

(١) الإحياء (٢/ ٣٠١)، وانظر ـ أيضاً ـ: الإحياء (٣/ ٩٧ ط. النور).

(٢) ما ذكره أبو حامد جرى عليه جموع من المتصوفة، فوقعوا في الفواحش ومخالطة المُردان، من جرّاء عدولهم عن الطريق الشرعي، ولا رهبانية في الإسلام، وخير الهدي هديُ المرسلين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].
وقد ردَّ شيخ الإسلام على المتصوفة في ابتداعهم لترك التزوج، ومشابهتهم لرهبان النصارى في ذلك (انظر ما سبق ص١٥١).

(٣) الإحياء (٤/ ٢٧٥).

بمقابلة الشكر - وإن قلّ - وحُسْن الدعاء»اهـ[1][2].

د: الاشتغال بالأوراد والأذكار - عموماً - وإن لم تكن ثابتةً في الشريعة:

قال أبو حامد في معرض كلامه عن تأديب الشيخ المريد على الذكر:
«فلا يزال بعد جلوسه في الخَلْوَةِ قائلاً بلسانه: الله . . الله، أو: سبحان الله . . سبحان الله، أو ما يراه الشيخ [!!] على الدوام، مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثرُه عن اللسان، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يُمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازمٌ له لا يفارقه وله اختيار، إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظارُ لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق»اهـ[3][4].

هـ - طول الجوع لتربية النفس على الزهد والتحمل:

وهذا مما توسع أبو حامد في الكلام فيه:

قال في معرض كلامه عن الخلوة وتربية النفس: «تقليل الطعام،

---

(١) الإحياء (٤/ ٢٧٥).

(٢) تقدم تفصيل هذه المسألة من كلام شيخ الإسلام وردّه عليها، وقد بيّن شيخ الإسلام أن السعي للتكسب وطلب الرزق هو منهج الأنبياء والرسل، ومن خالفهم فهو الضال، وبيّن شيخ الإسلام أن الصوفية ينهَوْن عن التكسب، ويدّعون التوكل ثم يقعد أحدهم شحاذاً في الطريق!! (ص١٦٥).

(٣) انظر: الإحياء (٣/ ٧٤ ط. النور).

(٤) تقدم في مبحث سابق ذكر المنهج الشرعي في الأذكار والأوراد الذي قرره شيخ الإسلام، وقد ردّ شيخ الإسلام على المتصوفة في ابتداعهم للذكر بالاسم المفرد، واشتغالهم بأوراد لم تثبت في الشريعة (ص١٦٧).

فسبيل الرياضة فيه التدريج.. في وقت الأكل ومقدار تأخيره.. الدرجة العليا: أن يطوي ثلاثةَ أيام فما فوقها، وفي المريدين من ردَّ الرياضة إلى الطَّيِّ لا إلى المقدار، حتى انتهى بعضُهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً...

وقد حُكِيَ أن بعض أهل هذه الطائفة مرَّ براهب، فذاكره بحاله، وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور، فكلمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن:

قال له الراهب: إن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صدّيق.

فقال له الصوفي: فإن طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه، وتدخل في دين الإسلام، وتعلم أنه حق وأنك على باطل؟

قال: نعم.

فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً.

ثم قال: وأزيدك أيضاً.

فطوى إلى تمام الستين، فتعجب الراهب منه...

وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام، بل الامتناع عن الشهوات، فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله، اقتضى ذلك بطراً في نفسه، وقسوة في قلبه، وأنساً له بلذات الدنيا حتى يألَفَها ويكره الموت ولقاء الله تعالى»اهـ[1][2][3].

---

(١) الإحياء (٣/ ٨٥ ـ ٨٧ ط. النور)، وانظر ـ أيضاً ـ: الإحياء (٣/ ٦٥ ط. النور).

(٢) قد تقدم كلام شيخ الإسلام في مسالة الجوع عند المتصوفة، وأنه خلاف هدي النبي ﷺ وأصحابه (ص١٤٣).

(٣) هذه هي آداب المريد وأخلاقه التي دلّه عليها أبو حامد، وزعم أن المريد إذا سلكها انكشفت له الحقائق، وانفتحت له المغالق. ولو أقام أبو حامد عمر =

= نوح يبحث عن دليل من الشريعة يعضد كلمةً مما ذهب إليه ما وجد.
وقد بيّن شيخ الإسلام ضلال الصوفية في حكاية مثل هذه الآداب، وردّ عليهم (ص١٦٥).
وللإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ حسن في تقويم ما كتبه الغزالي في آداب المريد وسبُل تربيته، يجمل الاستشهاد به هنا:
قال الإمام ابن الجوزي في تلبيس إبليس (١/ ٤٢٤):
«بيان جملة مروية على الصوفية من الأفعال المنكرة:
حكى أبو حامد الغزالي في كتاب الأحياء:
قال: كان بعض الشيوخ في بداية إرادته يكسل عن القيام، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه بالقيام عن طوع.
قال: وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورماه في البحر إذا خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود ورياء البذل.
قال: وكان بعضهم يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس لعود نفسه بالحلم.
قال: وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليصير شجاعاً.
قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: أعجَبُ من جميع هؤلاء عندي أبو حامد؛ كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرْها؟! وكيف ينكرُها وقد أتى بها في معرِض التعليم؟! وقال قبل أن يورد هذه الحكايات:
ينبغي للشيخ أن ينظر إلى حالة المبتدئ:
فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر حاجته أخذه وصرفه في الخير، وفرَّغ قلبه منه حتى لا يلتفتَ إليه.
وإن رأى الكبرياء قد غلب عليه، أمره أن يخرجَ، إلى السوق للكَدِّ، ويكلفه السؤال والمواظبة على ذلك.
وإن رأى الغالب عليه البطالة، استخدمه في بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان.
وإن رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم.
وإن رآه عزباً ولم تنكسر شهوته بالصوم أمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم رأساً.
قلت: وإني لأتعجب من أبي حامد كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة؟! =

تاسعاً: طرق معالجة الشيخ لقلب المريد:

قال أبو حامد الغزالي: «ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدِّها دفعة؛ فينبغي أن ينقله من الخُلق المذموم إلى خُلِقٍ مذموم آخرَ أخفَّ منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماءُ لا يزيل الدم.

كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصَّوْلَجان[1] وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعةً، فلينقل إلى جاهٍ أخفَّ منه، وكذلك سائر الصفات.

وكذلك إذا رأى شرَهَ الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوِّي بذلك نفسه، فيتعود الصبر وينكسر شرَهُه.

= وكيف يحل القيام على الرأس طول الليل فينعكس الدم إلى وجهه ويورثه ذلك مرضاً شديداً؟!

وكيف يحل رمي المال في البحر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال؟!

وهل يحل سب مسلم بلا سبب؟!

وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك؟

وكيف يجوز ركوب البحر زمان اضطرابه، وذلك زمان قد سقط فيه الخطاب بأداء الحج؟

وكيف يحل السؤال لمن يقدر أن يكتسب؟

فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه بالتصوف»اهـ.

(١) الصَّوْلَجان ـ بفتح الصاد واللام ـ: عصاً يُعطف طرفُها، يُضرب بها الكرة على الدواب، فارسي مُعرّب.
انظر مادة: صلج، في: تاج العروس (٣/٤١٨).

وكذلك إذا رآه شاباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطَّوْلِ، فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك، فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز، وليلة على الخبز دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذِلَّ نفسه وتنكسر شهوته... فلا علاجَ في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع.

وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحِلم والسكوت، وسلَّط عليه مَنْ يصحبه مِمَّن فيه سوء خلق، ويُلزمه خدمةَ مَنْ ساء خُلُقُه حتى يمرِّنَ نفسَه على الاحتمال معه.

كما حكي عن بعضهم أنه كان يعوِّدَ نفسه الحِلْمَ، ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر مَنْ يشتُمه على ملأ مِنَ الناس، ويكلف نفسه الصبر، ويكظِمُ غيظه حتى صار الحِلْم عادةً له، بحيث كان يضرب به المثل.

وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجُبْنَ وضعف القلب، فأراد أن يحصل لنفسه خُلُقَ الشجاعة، فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج.

وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طولَ الليل على نصبة واحدة.

وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طَوْعٍ.

وعالج بعضهم حبَّ المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر؛ إذ خاف من تفرقته على الناس رعونةَ الجود والرياء بالبذل.

فهذه الأمثلة تعرِّفك طريق معالجة القلوب[!!].

وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض؛ فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب، وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك

المضادِّ لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كلَّه في كتابه العزيز في كلمة واحدة؛ فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

والأصل المهم في المجاهدة:

الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة، فقد تيسرت أسبابُها، ويكون ذلك ابتلاءً من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمرَّ، فإنه إن عوَّد نفسه ترك العزم، ألفت ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقضُ عزمٍ، فينبغي أن يلزم نفسه عقوبةً عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتابٍ المحاسبة والمراقبة، وإذا لم يخوّف النفس بعقوبة غلبته وحسَّنت عنده تناول الشهوة، فتفسد بها الرياضة بالكلية»اهـ[1][2].

عاشراً: السماع، منزلته، وحكمه، وآدابه عند أبي حامد:

قال أبو حامد: «إن قلت: فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد، فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوَّالين دون القارئين؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعُهم وتواجدُهم في حِلَقِ القرَّاء لا حلق المغنين؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئ لا قوَّال، فإن كلام الله تعالى أفضلُ من الغناء لا محالة.

فاعلم أن الغناءَ أشدُّ تهييجاً مِنَ القرآن من سبعة أوجه:

الوجه الأول: أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلُح لفهمه وتنزيله على ما هو مُلابس له، فمن استولى عليه حزنٌ أو

---

(١) الإحياء (٣/ ٦٠، كتاب: رياضة النفس).

(٢) تقدم بيان رأي شيخ الإسلام في مثل هذه المجاهدات البدعية التي لم تكن من فعل رسول الله ﷺ ولا من فعل أصحابه، وقد بين شيخ الإسلام وجه الابتداع فيها (ص١٣٤).

شوق أو ندم، فمن أين يناسب حالَه قولُه تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤].

وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها، وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه.

والأبيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب، فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلُّف. نعم من يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم تُبْقِ فيه متَّسعاً لغيرها ومعه تيقُّظ وذكاءٌ ثاقب يتفطَّن به للمعاني البعيدة من الألفاظ، فقد يخرج وجده على كل مسموع؛ كمَنْ يخطر له عند ذِكر:

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ﴾ [النساء: ١١]، حالة الموت المحوج إلى الوصية، وأنَّ كل إنسان لا بد أن يخلِّف ماله وولده، وهما محبوباه من الدنيا، فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً، فيغلب عليه الخوف والجزع.

أو يسمع ذكر الله في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ﴾ فيدهش بمجرد الاسم عمَّا قبله وبعده، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفَقَته بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه نظراً لهم في حياتهم وموتهم، فيقول: إذا نظر لأولادنا بعد موتنا، فلا نشكُّ بأنه ينظر لنا، فيهيج منه حال الرجاء، ويورثه ذلك استبشاراً وسروراً.

أو يخطر له من قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١] تفضيل الذَّكر بكونه رجلاً على الأنثى، وأن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله، وأن مَنْ ألهاه غيرُ الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث، لا من الرجال تحقيقاً، فيُخشى أن يُحجَبَ أو يؤخَّرَ في نعيم الآخرة، كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا.

فأمثال هذا قد يحرّك الوجد، ولكن لمن فيه وصفان.

أحدهما: حالة غالبة مستغرقة قاهرة.

والآخر: تفطُّن بليغ وتيقُّظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يُعزّ، فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها، وروي أن أبا الحسين النوري كان مع جماعة في دعوى، فجرى بينهم مسألة في العلم، وأبو الحسين ساكت. **ثم رفع رأسه وأنشدهم، قال**:

رُبَّ ورقاء هَتوف في الضحى ... ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفاً ودهراً صالحاً ... وبكت حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربما أرّقها ... وبُكاها ربما أرّقني
ولقد أشكو فما أفهمها ... ولقد تشكو فما تفهمُني
غير أني بالجوى أعَرِفُها ... وهي أيضاً بالجوى تعرفني

فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجدَ[1]، ولم يحصل لهم هذا الوجد مِنَ العلم الذي خاضوا فيه، وإن كان العلم جداً وحقاً.

الوجه الثاني: أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الأسماع والقلوب، وكلّ ما سُمِعَ أولاً عَظُمَ أثره في القلوب، وفي الكَرَّة الثانية يضعُف أثره، وفي الثالثة يكاد يسقط أثرُه. ولو كُلِّفَ صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان، في يوم أو أسبوع، لم يمكنه ذلك. ولو أبدل البيت آخرَ لتجدَّد له أثرٌ في قلبه، وإن كان معرباً عن عين ذلك المعنى. ولكن كون النظم واللفظ غريباً بالإضافة إلى الأولى يحرك النفس وإن كان المعنى واحداً.

وليس يقدر القارىء على أن يقرأ قرآناً غريباً في كل وقت ودعوة؛

---

(١) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٢٥).

فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه، وكلُّه محفوظ متكرر.

وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون، فقال: كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا[١]، ولا تظنَّنَّ أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقسى مِنْ قلوب الأجلاف من العرب، وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقله التأثر به، لما حصل له مِنَ الأُنس بكثرة استماعه؛ إذ محال في العادات أن يسمع السامعُ آيةً لم يسمعها قبل فيبكي، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة، ثم يردِّدها ويبكي، ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريباً جديداً، ولكل جديد لَذَّةٌ، ولكل طارئ صدمة، ومع كل مألوف أُنْسٌ يناقض الصدمة.

ولذا همَّ عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف، وقال: قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت[٢]، أي يأنَسُوا به.

ومن قدم حاجّاً، فرأى البيت أولاً بكى وزعق، وربما غُشِيَ عليه إذ وقع عليه بصره، وقد يقيم بمكة شهراً ولا يحسُّ من ذلك في نفسه بأثر، فإذاً المغنّي يقدر على الأبيات الغريبة في كل وقت، ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة.

الوجه الثالث: أن لوزن الكلام بذَوْق الشعر تأثيراً في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات، ولو زحف المغنّي البيت الذي ينشده، أو لحن فيه، أو مال عن حدّ تلك الطريقة في اللحن، لاضطرب قلب المستمع، وبطَل جده وسماعه، ونفر طبعه لعدم المناسبة. وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوّش، فالوزن إذن مؤثِّر، فلذلك طاب الشعر.

---

(١) الأثر: لم أقف عليه.

(٢) الأثر: لم أقف عليه.

الوجه الرابع: أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تُسَمَّى الطرقَ والدستاناتِ، وإنما اختلاف تلك الطرق بمدّ المقصور، وقصر الممدود، والوقف في أثناء الكلمات، والقطع والوصل في بعضها. وهذا التصرُّف جائز في الشعر، ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل، فقصره ومدّه والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقضيه التلاوة حرام أو مكروه. وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان، وهو سبب مستقلٌّ بالتأثير، وإن لم يكن مفهوماً، كما في الأوتار والمزمار والشاهين، وسائر الأصوات التي لا تفهم.

الوجه الخامس: أن الألحان الموزونة تُعْضَدُ وتُؤَكَّدُ بإيقاعات وأصوات أُخَرَ موزونةٍ خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره؛ لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسببٍ قويٍّ، وإنما يقْوَى بمجموع هذه الأسباب، ولكلٍّ واحدٍ منها حظ في التأثير، وواجب أن يُصانَ القرآنُ عن مثل هذه القرائن؛ لأن صورتها عند عامة الخلق صورةُ اللهو واللَّعِبِ، والقرآن جِدٌّ كلُّه عند كافة الخلق، فلا يجوز أن يُمزَجَ بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصَّة، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو، بل ينبغي أن يُوَقَّرَ القرآنُ، فلا يقرأ على شوارع الطرق، بل في مجلسٍ ساكنٍ، ولا في حال الجنابة، ولا على غير طهارة، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم.

فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحقُّ هذه المراقبة والمراعاة، ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس، وقد أمر رسول الله ﷺ بضرب الدف في العرس فقال: (أظهروا النكاح ولو

بضرب الغربال)[١]، أو بلفظ هذا معناه، وذلك جائز مع الشعر دون القرآن.

ولذلك: لما دخل رسول الله ﷺ بيت الرُّبيع بنت مُعَوِّذ[٢] وعندها جوارٍ، فسمع إحداهن تقول:

وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد

على وجه الغناء، فقال: **(دعي ذا، وقولي ما كنت تقولين)**[٣]، وهذه شهادة بالنبوّة، فزجرها عنها وردَّها إلى الغناء الذي هو لهو؛ لأن هذا جدٌّ محضٌ، فلا يقرن بصورة اللهو، فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركاً للقلب، فواجب في الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوّة إلى الغناء.

الوجه السادس: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حالَ السامع،

---

(١) الحديث: رواه سعيد بن منصور في سننه واللفظ له (باب ما جاء في نكاح السر، ١/ ١٧٤/ح٦٣٥)، وابن ماجه (كتاب النكاح، باب إعلان النكاح، ١/ ٦١١/ح١٨٩٥)، من حديث: عائشة ﵂، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (كتاب النكاح، بابٌ، ٢/ ٢٠٠/ح٢٧٤٨) من حديث: الزبير بن العوام ﵁.

(٢) هي الربيع بنت مُعَوِّذ بن الحارث بن رفاعة بن النجار، وأمها أم يزيد بنت قيس بن عدي بن النجار، أسلمت الربيع، وبايعت رسولَ الله ﷺ، وقيل: كانت من المبايعات تحت الشجرة.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٧٧)، الاستيعاب (٨/ ١٨٣٧)، الإصابة (٧/ ٦٤١).

(٣) الحديث: رواه البخاري (كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، ٤/ ١٤٦٩/ح٣٧٧٩)، والترمذي (كتاب النكاح عن رسول الله، باب ما جاء في إعلان النكاح، ٣/ ٣٩٩/ح١٠٩٠)، وأبو داود (كتاب الأدب، باب في النهي عن الغناء، ٤/ ٢٨١/ح٤٩٢٢).

فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره، فليس كلُّ كلام موافقاً لكلِّ حال، فلو اجتمعوا في الدعوات على القارئ، فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلِّهم على اختلاف الأحوال، فآيات الرحمة شفاء الخائف، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن، وتفصيل ذلك مِمَّا يطول.

فإذاً لا يؤمَنُ أن لا يوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه.

فالاحتراز عن خطر ذلك حَزْمٌ بالغ وحتْمٌ واجب؛ إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله، ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى، وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مرادِه؛ ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال، فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك، وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن.

وها هنا وجه سابع: ذكَره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك، فقال: القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حقٌّ لا تطيقه البشرية، لأنه غير مخلوق، فلا تطيقه الصفات المخلوقة، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبت لتصدّعت ودهشت وتحيرت، والألحان الطيبة مناسبة للطباع، ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبةَ الحقوق، والشعر نسبته نسبة الحظوظ، فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف شاكَلَ بعضُها بعضاً كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق.

فما دامت البشريةُ باقيةً ونحن بصفاتنا وحظوظنا نتنعَّم بالنغمات الشجيَّة والأصوات الطيبة، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أوْلى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود.

وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره[(١)].

وقد حُكي عن أبي الحسين الدرّاج[(٢)] **أنه قال:** قصدت يوسف بن الحسين الرازي[(٣)] من بغداد للزيارة والسلام عليه، فلما دخلت الري كنت أسأل عنه، فكل من سألته عنه قال: أيش تعمل بذلك الزنديق؟ فضيَّقوا صدري حتى عزمت على الانصراف.

ثم قلت في نفسي:

قد جُبْتُ هذا الطريق كلَّه، فلا أقلَّ مِنْ أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب، وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ، فإذا هو شيخ بهيٌّ حسن الوجه واللحية، فسلَّمت عليه.

فأقبل عليَّ وقال: من أين أقبلت؟

فقلت: من بغداد.

فقال: وما الذي جاء بك؟

---

(١) تقدم ذِكر ردّ شيخ الإسلام على هذه الوجوه السبعة التي ذكرها الغزالي ـ إجمالاً ـ وأوردت رداً مفصّلاً للإمام ابن القيم (ص٢١٦).

(٢) في المطبوع: أبو الحسن، والتصحيح من كتب التراجم.
وهو سعيد بن الحسين، أبو الحسين الدراج، الصوفي، قال البغدادي: له عند الصوفية ذكر كبير، ومحل خطير، كان من ظراف المتصوفة، وكان يصحب إبراهيم الخواص، توفي سنة ٣٢٠هـ وقيل بعدها بقليل.
انظر: تاريخ بغداد (٩/ ١٠٥)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٥٧).

(٣) هو يوسف بن الحسين بن علي، أبو يعقوب الرازي، من مشايخ الصوفية، كان كثير الأسفار، وصحب ذا النون المصري، روى كثيراً من حكايات المتصوفة، توفي سنة ٣٠٤هـ.
انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٣١٤).

فقلت: قصدتك للسلام عليك.

فقال: لو أن في بعض هذه البلدان قال لك إنسان: أقِم عندنا حتى نشتريَ لك داراً أو جارية، أكان يقعدك ذلك عن المجيء؟

فقلت: ما امتحنني الله بشيء من ذلك، ولو امتحنني ما كنت أدري كيف أكون؟

ثم قال لي: أتحسن أن تقول شيئاً؟

فقلت: نعم.

فقال: هات.

فأنشأت أقول[1]:

رأيتُك تبني دائماً في قطيعتي ... ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبني

كأني بكم والليت أفضل قولكم ... ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغني

قال: فأطبق المصحف، ولم يزل يبكي حتى ابتلّت لحيتُه وابتلَّ ثوبُه، حتى رحمتُه مِنْ كثرة بكائه.

ثم قال: يا بنيَّ، تلومُ أهل الريَّ يقولون: يوسف زنديق؛ هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ في المصحف لم تقطُرْ من عيني قطرةٌ، وقد قامت القيامة عليَّ لهذين البيتين[2].

---

(١) الأبيات ذكرها ابن الأثير في الكامل في التاريخ (٥/ ٢٦٤، ذكر بيعة الوليد بن يزيد بن عبد الملك).
ونسبها إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، أنه كتب بها إلى هشام الخليفة يعاتبه: وهي بتمامها:

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي ... ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

تثير على الباقين مجنى ضغينة ... فويل لهم إن مت من شر ما تجني

كأني بهم والليت أفضل قولهم ... ألا ليتنا والليت إذ ذاك لا يغني

كفرت يداً من منعم لو شكرتها ... جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمَنِّ

(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٣١٧).

فإذاً القلوب، وإن كانت محترقةً في حب الله تعالى، فإن البيت الغريب يهيِّجُ منها ما لا تهيِّجُ تلاوةُ القرآن، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع، ولكونه مشاكلاً للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر.

وأما القرآن؛ فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجِزٌ لا يدخل في قوّة البشر لعدم مشاكلته لطبعه.

وروي أن إسرافيل[1] ـ أستاذ ذي النون المصري ـ دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه، ويترنم بِبيْت.

فقال: هل تحسن أن تترنم بشيء؟

فقال: لا.

قال: فأنت بلا قلب.

إشارة إلى أن مَنْ له قلبٌ وعرف طباعه علم أنه تحركه الأبياتُ والنغماتُ تحريكاً لا يصادف في غيرها، فيتكلف طريق التحريك؛ إما بصوت نفسه أو بغيره»اهـ[2].

ويقر أبو حامد ما يسميه الصوفية الفناءَ، ويذكر أنه من المقامات العالية، ومن ذلك قوله في معرض كلامه عن مراتب الناس حال السماع:

«سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي

---

(١) لم أقف على ترجمته، ولكن ذكره ابن الجوزي في ترجمة ذي النون، وذكر أنه من تلاميذ ذي النون لا أستاذَه! وذكره أبو نعيم في الحلية في مواضعَ يروي عن ذي النون، فالأظهر أنه من تلاميذ ذي النون.
انظر: حلية الأولياء (٦/ ٣٤٥ ـ ٣٤٧، ٣٦٨ ـ ٣٦٩، ٣٩٠)، صفة الصفوة (٢/ ٤٦٠).

(٢) الإحياء (٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦، الباب الثاني: آداب السماع وآدابه).

قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دَهِشْنَ وسقط إحساسهنَّ.

وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فَنِيَ عن نفسه.

ومهما فَنِيَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فَنِيَ عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود.

وفَنِيَ أيضاً عن الشهود؛ فإن القلب أيضاً إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد، فقد غَفَلَ عن المشهود.

فالمستهتر(١) بالمرئي لا التفاتَ له في حال استغراقه إلى رؤيته، ولا إلى عينه التي بها رؤيته، ولا إلى قلبه الذي به لذَّته، فالسكران لا خبر له من سُكره، والمتلذذ لا خبر له مِنَ التذاذه، وإنما خبره مِنَ المتلذَّذ به فقط»اهـ(٢).

- ثم ذكر أبو حامد أن ما يقع للصوفية من فناء ووجد وسكر يعني الوصول إلى مرتبة الكمال، وهو درجة الصديقين، وذكر قصة رجل تواجد، فقتل نفسه، ثم ترحم عليه، وقال: وهذه درجة الصديقين!!

قال أبو حامد: «روي عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلساً، فسمع هذا البيت:

ما زلتُ أنزل مِنْ ودادك منزلاً تتحيَّرُ الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع في أجمة قصب قد قُطِعَ وبقيت أصوله مثل السيوف، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة

---

(١) المستهتر: المُعْجَب بالشيء المولع به، يقال: استهتر بكذا، أي: أُعجب به إعجاباً شديداً.
انظر مادة: هتر، في: القاموس (ص٦٣٧).

(٢) الإحياء (٢/٢٦٦ ط. النور).

والدم يخرج من رجليه، حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياماً ومات رحمه الله[١].

فهذه درجة الصدِّيقين في الفهم والوجد، فهي أعلى الدرجات؛ لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي ممتزجةٌ بصفات البشرية وهو نوع قصور، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله؛ أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفاتٌ إليها، كما لم يكن للنسوة التفاتٌ إلى الأيدي والسكاكين.

فيسمع لله وبالله وفي الله ومِنَ الله، وهذه رتبةُ مَنْ خاض لُجَّةَ الحقائق، وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتَّحد بصفاء التوحيد وتحقَّق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريّتُه، وفَنِيَ التفاته إلى صفات البشرية رأساً، ولست أعني بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل عرفها من عرفها وجهلها من جهلها»اهـ[٢].

ـ لا بأس بتمزيق الثياب عند الوجد بشرط أن تمزق على شكل قطع صغيرة تصلح لترقيع الثياب!!

قال أبو حامد: «فإن قلت: فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع، فإنهم يمزقونها قطعاً صغاراً ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقة؟

فاعلم: أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً مربعةً تصلُح لترقيع الثياب والسجادات، فإن الكرباس[٣] يمزق حتى يخاط منه القميص، ولا يكون

---

(١) تقدم ذكر ذلك تفصيلاً (ص٥٠٥).

(٢) الإحياء (٢/٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٣) الكرباس ـ بالكسر ـ: ثوب من القطن الأبيض، فارسي معرب. =

ذلك تضييعاً؛ لأنه تمزيقٌ لغرض. وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود، والتفرقة على الجميع ليعمَّ ذلك الخير مقصودٌ مباحٌ، ولكل ما لك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع.

وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه، بحيث لا يبقى منتفعاً به، فهو تضييع محضٌ لا يجوز بالاختيار»اهـ[1][2].

- وذكر أبو حامد في آخر باب السماع خلاصة حكم السماع، فقال: «فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع:

قد يكون حراماً محضاً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون مستحبًّا.

أما الحرام: فهو لأكثر الناس مِنَ الشُّبَّان ومَنْ غلبت عليهم شهوةُ الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم مِنَ الصفات المذمومة.

وأما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادةً له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

= انظر: مادة كربس، في القاموس (ص٧٣٥).

(١) الإحياء (٢/ ٢٧٩ ط. النور).

(٢) لا أدري من أين جاء أبو حامد بهذا الشرط: تمزيق الثوب على شكل قِطع مربعة!! ومن المعلوم أن هذا الذي ذكره أبو حامد وأقرّه هو من البدع المحدثة، وقد حاول أبو حامد وغيره من المتصوفة أن يبحثوا عن دليل يؤيدون به بدعتهم، فلم يجدوا.

وقد حصر شيخ الإسلام أدلتهم على تمزيق الثياب أثناء السماع وردّ عليها (١/ ١٦٦)، كما تكلم عن لبس الخرقة وأهميتها عند الصوفية، وحججهم على جوازها (ص٣٢٧).

وأما المباح: فهو لِمَنْ لا حظَّ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن.

وأما المستحب: فهو لِمَنْ غلب عليه حبُّ الله تعالى، ولم يحرِّكِ السماعُ منه إلا الصفاتِ المحمودةَ، والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله»اهـ[١].

وقد توسع أبو حامد في باب السماع، فعرض فيه أحكام السماع وآدابه والأوقات التي يستحب فيها أو يكره.. إلى غير ذلك، والمتأمل لِمَا كتبه في ذلك يجد أنه رَحِمَهُ اللَّهُ حاول جاهداً أن ينتصر للصوفية في سماعهم المبتدع، ويحشد ما حضره مِنَ الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة بل والمنكرة، والمنامات التي يزعم أصحابها أنهم رأوا رسول الله ﷺ أثنى على سماعهم، هذا غير ما أورده عن السامعين أنهم يُهتف بهم أثناء السماع، ويظنُّون هذا الهتاف مِنَ الملائكة، إلى غير ذلك[٢].

حادي عشر: الغلو في الأشخاص:

ولذلك عدة مظاهر ذكرها أبو حامد؛ منها:

أ ـ أن المشايخ يؤتيهم الله تعالى علماً لدُنِّيًّا من غير تعلم ولا سؤال:

قال أبو حامد الغزالي: «بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل

---

(١) الإحياء (٢/ ٢٨٠ ط. النور).

(٢) تقدم في مبحث سابق الكلام عن السماع وأنواعه والمشروع منه والممنوع، ونقل شيخ الإسلام حكمَه عن مشايخ المتصوفة الصالحين، وبيَّن ضلال الصوفية في التعلُّق به، وأن ما يسمعون من هتاف وأصوات خلال السماع هو في الحقيقة من الجن والشياطين. أما الملائكة فلا تحضر مثل هذا السماع الشيطاني البِدْعِي.
وقد عرض شيخ الإسلام أدلة الصوفية على صحة سماعهم حصر حججهم على جوازه وردّ عليهم (ص٢٣٤).

التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد:

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري، فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط، فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً، ويشهد لذلك شواهدُ الشرعِ والتجارِبُ والحكاياتُ.. وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالِم الذي يحفظ من كتاب، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربِّه أيَّ وقت شاء بلا حفظ ولا درس.

وهذا هو العلم الرباني[1] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] مع أن كل علم مِنْ لدنه، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق، فلا يُسَمَّى ذلك علماً لدُنِّيّاً، بل اللَّدُنِّيُ الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج، فهذه شواهدُ النقل، ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر.

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب، فذلك أيضاً خارجٌ عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته: إنما هما أخواك وأختاك[2]، وكانت زوجتُه حاملاً، فولدت بنتاً، فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت.

---

(١) هذا العلم الذي سماه أبو حامد: العلم الرباني، يسميه المتصوفة: العلم اللدني، وهو في معنى الإلهام، وقد تقدم في مبحث مصادر التلقي عند الصوفية تفصيلُ الكلام عنه، ونقل كلام حسن للإمام ابن القيم حول معناه (١/ ٢٨٠).

(٢) الأثر: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٥٧/ح١٢٢٥٧)، مصنف عبد الرزاق (٩/ ١٠١/ح١٦٥٠٧)، كرامات الأولياء (٢/ ١١٦/رقم ٦٢)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٩٤)، الرياض النضرة في مناقب العشرة =

وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته: يا سارية الجبلَ الجبلَ[(١)]؛ إذ انكشف له أن العدوّ قد أشرف عليه، فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه مِنْ جملة الكرامات العظيمة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأةً في طريقي، فنظرتُ إليها شزراً، وتأملت محاسنها، فقال عثمان رضي الله عنه لَمَّا دخلت: يدخل عليَّ أحدكم وأثر الزنىٰ ظاهرٌ على عينيه، أما علمت أن زنى العينين النظر؟ لتتوبَنَّ أو لأعزِّرنَّك. فقلت: أوحيٌ بعد النبي؟ فقال: لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة[(٢)].

وعن أبي سعيد الخراز، قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس، فناداني وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فاستغفرت الله في سري فناداني، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، ثم غاب عني ولم أره.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل، وكان ذا عيالٍ، ولم يعرف له سبب يعيش به، قال: فلما قمت قلت في نفسي: من أين يأكل هذا الرجل؟ قال: فصاح بي: يا أبا العباس، رُدَّ هذه الهمة الدَّنِيَّةَ، فإن لله تعالى ألطافاً خفية.

وقال أحمد النقيب: دخلت على الشبلي، فقال مفتوناً: يا أحمد!!

فقلت: ما الخبر؟

قال: كنت جالساً، فجرى بخاطري أنك بخيل.

= (٢/ ١٢٢، ت: عيسى عبد الله محمد مانع الحميري، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأولى ١٩٩٦م).

(١) الأثر: تقدم تخريجه، انظر (١/ ٨١٧).

(٢) الأثر: لم أقف عليه.

فقلت: ما أنا بخيل.

فعاد منِّي خاطري، وقال: بل أنت بخيل.

فقلت: ما فتح اليوم علي بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني.

قال: فما استتم الخاطر حتى دخل عليَّ صاحبٌ لمؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعلها في مصالحك!.

قال: وقمت فأخذتها وخرجت، وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزِّينٍ يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الدنانير.

فقال: أعطها المزين.

فقلت: إن جملتها كذا وكذا.

قال: أوليس قد قلنا لك: إنك بخيل؟

قال: فناولتها المزينَ، فقال المزين: قد عقدنا لمَّا جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً.

قال: فرميت بها في دجلة، وقلت: ما أعزَّكِ أحدٌ إلا أذلَّه الله ﷻ.

وقال حمزة بن عبد الله العلوي: دخلت على أبي الخير التيناني، واعتقدت في نفسي أن أسلِّمَ عليه، ولا آكل في داره طعاماً، فلمَّا خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام، وقال: يا فتى كُلْ، فقد خرجت الساعة من اعتقادك.

وكان أبو الخير التيناني هذا مشهوراً بالكرامات.

وقال إبراهيم الرقي: قصدته مسلّماً عليه، فحضرت صلاة المغرب، فلم يكد يقرأ الفاتحة مستوياً، فقلت في نفسي: ضاعت سَفرتي، فلما سلم خرجت إلى الطهارة، فقصدني سبُعٌ.

فعدت إلى أبي الخير، وقلت: قصدني سبُعُ.

فخرج وصاح به، وقال: ألم أقل لك: لا تتعَّرضْ لضيفاني[!!].

فتنحى الأسد، فتطهرتُ، فلما رجعت، قال لي: اشتغلتم بتقويم الظاهر، فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن، فخافنا الأسد.

وما حكي من تفرُّس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر، بل ما حُكِيَ عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه، ومِنْ سماع صوت الهاتف، ومِنْ فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية، لا تنفع الجاحدَ ما لم يشاهد ذلك مِنْ نفسه»اهـ[1][2].

ب ـ الشيخ إذا أشكلت عليه مسألة سأل الملائكة فأجابته !!

قال أبو حامد: «وقال بعض العارفين:

سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين، فالتفت إلى شماله:

فقال: ما تقول رحمك الله؟

ثم التفت إلى يمينه، فقال: ما تقول رحمك الله؟

ثم أطرق إلى صدره، وقال: ما تقول رحمك الله؟.

ثم أجاب بأغرب جواب سمعته.

فسألته عن التفاته؟

فقال: لم يكن عندي في المسألة جواب عتيد، فسألت صاحب الشمال، فقال: لا أدري[!!].

---

(١) الإحياء (٣/ ٢٣ ـ ٢٥).

(٢) هذا الذي ذكره أبو حامد وأقرّه من معرفة المشايخ والصالحين لِمَا في قلوب الناس أمر باطل ومردود، وهو من الغلو في المخلوقين، وقد ردَّ شيخ الإسلام ذلك وأبطله، وبيّن أن الرسل ـ وهم رسل ـ لا يعلمون من الغيب إلا ما كشفه الله تعالى لهم، فكيف بغيرهم؟ وقد تقدم تفصيل كلام شيخ الإسلام في ذلك (١/ ٥٧٣).

فسألت صاحب اليمين، وهو أعلم منه، فقال: لا أدري[!!].

فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك، فإذا هو أعلم منهما[!!]»اهـ(١)(٢).

ج - بل صرح أبو حامد بأن المشايخ يعلمون الغيب، فقال:

«ووراء العقل طَوْرٌ آخرُ، تنفتح فيه عين أخرى، يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل»اهـ(٣).

وقال: «بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم:

قيل لبعض العارفين: إنك محبٌّ.

فقال: لست محباً؛ إنما أنا محبوب والمحب متعوب.

وقيل له أيضاً: الناس يقولون: إنك واحد مِنَ السبعة؟

فقال: أنا كلُّ السبعة.

وكان يقول: إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلاً[!!].

قيل: وكيف وأنت شخص واحد؟

قال: لأني رأيت أربعين بدلاً، وأخذت مِنْ كل بدلٍ خُلُقاً مِنْ أخلاقه.

---

(١) الإحياء (٣/ ٢٦ ط. النور).

(٢) هذا الذي ذكره أبو حامد وأقرَّه، هو في الحقيقة من تلاعب الشياطين والجن بالمتصوفة، وهم يعدُّون ما يرد على قلوبهم من الوساوس من الوحي والإلهام الرباني، لذا هو عندهم من مصادر التلقي، وقد بيَّن شيخ الإسلام وجه ضلالهم في ذلك، وأن العبد لا يقبل كل ما يَرِدُ على قلبه إلا بأن يعرضه على الكتاب والسنة، وقد نقل شيخ الإسلام عن مشايخ الصوفية الصالحين أنهم يقولون بوجوب عرض كل ما يرد على القلب على الكتاب والسنة، فما وافقهما قُبِل، وما خالفهما رُدَّ.

وقد تقدم تفصيل ذلك في مبحث خاص (١/ ٣١٩).

(٣) المنقذ من الضلال (ص٥٣).

وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام؟

فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه[!!].

وحكي عن الخضر عليه السلام(١) **أنه قال**: ما حدّثت نفسي يوماً قط أنه لم يبق وليٌّ لله تعالى إلا عرفته، إلا ورأيت في ذلك اليوم ولياً لم أعرفه.

وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة: حدّثنا عن مشاهدتك من الله تعالى.

فصاح ثم قال: ويلكم، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك.

قيل: فحدّثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك في الله تعالى.

فقال: وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه.

قيل: فحدّثنا عن رياضة نفسك في بدايتك.

فقال: نعم، دعوتُ نفسي إلى الله، فجمَحَتْ عليَّ، فعزمت عليها أن لا أشربَ الماء سنةً، ولا أذوق النوم سنة، فوفَّت لي بذلك.

ويحكى عن يحيى بن معاذ: أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزاً على صدور قدميه، رافعاً أخمصيه مع عقبيه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره، شاخصاً بعينيه لا يطرف.

قال: ثم سجد عند السَّحَرِ، فأطاله.

ثم قعد، فقال: اللهم إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء، والمشي في الهواء، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك مِنْ ذلك، وإن قوماً ظلموك فأعطيتهم.

---

(١) ليت شعري أين يجد أبو حامد سنداً لحكايته عن الخضر؟!! مع أنه ذكرها محتجاً بها على ما يقرره من عِظَمِ شأن الأولياء وعلوّ منزلتهم.

فقلت: يا سيدي، حدّثني بشيء.

فقال: أحدّثك بما يصلُحُ لك، أدخلَني في الفلك الأسفل، فدوّرني في الملكوت السفليّ، وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوَّفَ بي في السماوات، وأراني ما فيها مِنَ الجنان إلى العرش.

ثم أوقفني بين يديه، فقال: سلني أيَّ شيء رأيتَ حتى أهبَه لك؟

فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنته؛ فأسألك إياه.

فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً؛ لأفعلن بك ولأفعلن، فذكر أشياء.

قال يحيى: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه، فقلت: يا سيدي، لم لا سألته المعرفة به، وقد قال لك ملك الملوك: سلني ما شئت[؟!].

قال: فصاح بي صيحة، وقال: اسكت، ويلك غرتُ عليه مِني، حتى لا أحب أن يعرفه سواه»اهـ[1][2].

د ـ النظر إلى المشايخ الصالحين أنفع من رؤية الله تعالى!!:

قال أبو حامد: «وحُكي أنّ أبا تراب النخشبي[3] كان معجباً ببعض

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٥٦).

(٢) هذه القصة أيضاً من الغلو في المخلوقين وفيها تنقُّصٌ لجناب الربوبية، وقد أوردها أبو حامد ـ عفا الله عنه ـ مُقِرّاً لها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد ردّ شيخ الإسلام على أمثال هذه الترهات والوساوس (١/ ٥٣٢).

(٣) هو عسكر بن محمد بن حصين، أبو تراب النخشبي، قال أبو عبد الرحمن السلمي: من مشايخ خراسان، صحب أبا حاتم الأصمَّ، توفي بالبادية وقيل: نهشته السباع سنة ٢٤٥هـ.
انظر: طبقات الصوفية (ص١٤٦ ـ ١٥١)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ٩٦)، حلية الأولياء (١٠/ ٤٥ ـ ٥١)، صفة الصفوة (٤/ ١٤٥).

المريدين، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته.

فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد؟

فقال: إني عنه مشغول.

فلمَّا أكثر عليه أبو تراب مِنْ قوله: لو رأيت أبا زيد، هاج وَجْدُ المريد، فقال:

ويحك، ما أصنع بأبي يزيد، قد رأيت الله تعالى، فأغناني عن أبي يزيد؟

قال أبو تراب: فهاج طبعي، ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغترُّ بالله ﷻ، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدةً كان أنفعَ لك مِنْ أن ترى الله سبعين مرة.

قال: فبُهِت الفتى من قوله وأنكره؛ فقال: وكيف ذلك؟

قال له: ويلك، أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره؟

فعرف ما قلتُ، فقال: احملني إليه.

فذكر قصةً قال في آخرها: فوقفنا على تلٍّ ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة، وكان يأوي إلى غيضةٍ فيها سباع، قال:

فمرّ بنا وقد قلب فروةً على ظهره، فقلت للفتى:

هذا أبو يزيد فانظر إليه، فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونَّا على دفنه.

فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظرُه إليك قتله[!!].

قال: لا ولكن كان صاحبكم صادقاً واستكنَّ في قلبه سرٌّ لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه، فضاق عن حمله؛ لأنه

في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك»اهـ[١][٢].

هـ - السفر إلى المشايخ للتبرك برؤيتهم أو زيارة قبورهم لنيل بركتها من أعظم القربات:

قال أبو حامد: «أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد، وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج.

ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء ﷺ وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته. ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله ﷺ: (**لا تشد الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**)؛ لأن ذلك في المساجد، فإنها متماثلةٌ بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرقَ بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله»اهـ[٣][٤].

---

(١) الإحياء (٤/ ٣٥٧).

(٢) ما أورده أبو حامد هنا من أعظم الضلال، إذ كيف يكون النظر إلى المخلوق أنفع من النظر إلى الخالق جلّ جلاله؟! ولا شك أن هذا من الغلو في المخلوقين الذي وقع فيه المتصوفة عموماً.
وقد بيّن شيخ الإسلام ضلال المتصوفة في مثل هذه الترهات وردّ عليهم، وبيّن مذهب الصوفية في رؤية الله تعالى، وأن بعضهم يزعم أنه يرى الله في الدنيا، وردّ الشيخ على ذلك كله بالأدلة الشرعية (انظر: ١/ ٦٦٤ - ٦٧٣).

(٣) الإحياء (٢/ ٢٢٦ ط. النور)، وانظر أيضاً: الإحياء (٢/ ٣٣٥ ط. النور).

(٤) ما أورده أبو حامد هنا قدح في الألوهية، ومخالفة صريحة لنهي النبي ﷺ عن شد الرحال إلى القبور ونحوها، ومع ذلك فإن أبا حامد لا يرى السفر إلى القبور وشد الرحال إليها من الأمور الجائزة فحسب، بل يراه من الأمور المستحبة، ومن أعظم الطاعات، وهذا هو في الحقيقة معتقد عُبّاد القبور ومعظِّميها. =

ثاني عشر: موقف أبي حامد من رجالات الصوفية:

المتأمل في كتب أبي حامد عامة ـ وكتابه (الإحياء) خاصة ـ يجد أنه يكثر من النقول عن رؤوس المتصوفة وآحادهم، ولا يفرِّق بين الغالين منهم والمعتدلين.

فهو ينقل ما يصلح للاستشهاد من كلام الحسين بن منصور الحلاج ـ وإن كان من الزنادقة الذين ادَّعَوُا الألوهية ـ وينقل عن أبي يزيد البسطامي، والنوري، وذي النون، وغيرهم، كما ينقل عن الجنيد وسهل التستري، وغيرهما، وقد تقدَّم فيما سبق نقلُ أمثلة على ذلك.

وقد قرأت كتاب (الإحياء) كاملاً، ولم أجد أبا حامد انتقد أحداً من رجال الصوفية، أو ردَّ عليه في مسألة من المسائل، أو فعل من الأفعال، بل لم أقف لأبي حامد على كلام في تقويم رجل واحدٍ من رجالات المتصوفة.

وهذا المنهج ـ بلا شك ـ يختلف تماماً عن منهج شيخ الإسلام في إيراد حكايات المتصوفة، بل الحكايات والأقوال عن الناس ـ عموماً ـ وقد سبق في مبحث خاصٍّ الكلامُ عن موقف شيخ الإسلام من رجالات المتصوفة وتقويمه لهم، وذكرت هناك ضوابطَ شيخ الإسلام في تقويم الرجال ومروياتهم[1].

ونخلص مما سبق إلى أن أبا حامد الغزالي ليس له منهجٌ منضبط في التعامل مع المتصوفة أو غيرهم، فهو يثني عليهم، وينقل حكاياتهم، ويستشهد بأقوالهم وإن كانت أقوالاً كفرية، ومع ذلك ذمّ بعض من وقعوا

= وقد رد شيخ الإسلام على ضلال الصوفية في القبور، وبيّن أن ما يفعلونه من السفر إلى القبور ودعاء الموتى والاستغاثة بالمقبورين، كله من الشرك بالله تعالى (انظر: ص٤٦٦).

(١) انظر: (١/ ١٧٢) و(ص٥١٩).

في الحلول والاتحاد منهم، وشنَّع عليهم مع موافقته لهم في بعض أقواله[١].

وكتابه (الإحياء) قد ملأه بحوادثَ وحكاياتٍ، ليته ما سطَّرها، ولا جرى بها قلمُه، وكانت هذه القصص والحكايات والأقوال الغاليةُ، في التصوف بذرةً سقاها وحصدها مَنْ جاء بعد أبي حامد مِنَ الغُلاة الزنادقة، المنتسبين إلى التصوف؛ كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض وغيرهم[٢].

وقد مات أبو حامد وأفضى إلى ما قدَّم، وترك للأمة ما ترك من هذه المصنَّفات، وقد قال في آخر كتابه (الإحياء): «ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلّت به القدم، أو طعن به القلم في كتابنا هذا، وفي سائر كتبنا»اهـ[٣].

ونحن ندعو الله تعالى لنا وله بمثل ما دعا به لنفسه، ونسأل الله أن يتقبل منا ومنه الحسنات، ويتجاوز عن السيئات والزّلّات.. آمين.



---

(١) تقدم ذكر أمثلة من كلام أبي حامد فيها نوع تصريح بالحلول والاتحاد (ص٤٦٦).

(٢) قرّر ذلك شيخ الإسلام، وقد سبق تفصيله (ص٣٧٧ ـ ٣٧٨).

(٣) الإحياء (٤/ ٥٤٤).

الخاتمة

وبعد هذه المباحث المتواصلة التي شملت عدة فصول في آراء الصوفية التي حكاها شيخ الإسلام وموقفه منها، وتعليقه عليها، نصل إلى خاتمة هذه الرسالة، ونخلُص بالنتائج التالية:

١ ـ أن مذهب السلف يقوم على قواعدَ ثابتةٍ، تعتمد على الوحيين: الكتاب والسنة، وكل مَنِ ادَّعى النجاةَ أو اتباعَ السلف لا تقبل دعواه ما لم يكن منهجُه واضحاً مستقيماً موافقاً للكتاب والسنة.

ومِنْ خلال ما سطَّره أئمة أهل السنة والجماعة مِنَ القرون المفضلة وغيرها، تكوَّنت معالمُ بارزةٌ ومنطلقاتٌ واضحةٌ، حددت المنهج الحقَّ لمن أراد سلوكه والطريقة الصحيحة لِمَنْ أراد نصرة الدين أو دعوة الناس إليه.

٢ ـ من خلال عرض حياة شيخ الإسلام، وأحوال الأمة في عصره، تبين كيف كان عصره مليئاً بالأحداث الجسام، وتمكن المبتدعةُ في كثير من البلاد، حتى تصور عامةُ الناس أنهم أهلُ الحقِّ، وأن النجاة في اتباع هذه المناهج المبتدَعة. ومع ذلك كان شيخُ الإسلام علَماً بارزاً، وإماماً عظيماً، ومصلحاً مناضلاً عن الكتاب والسنة.

٣ ـ لم يكتف شيخ الإسلام بالرد على المبتدعة ومناظرتهم باللسان فقط، وإنما ألّف كثيراً مِنَ المصنفات في الرد على المبتدعة وبيان باطلهم، وترك لِمَنْ بعده تراثاً ضخماً، تمثَّل في عشرات المجلدات في شتى الفنون، يجمعها الدفاع عن مذهب السلف والرد على خصومه.

٤ ـ بتتبُّعي لكتب شيخ الإسلام، واستقرائي لها كلها، خرجت بنتيجة مهمة، وهي أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان له منهجٌ واضحٌ في عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على المخالفين. وأبرز معالم هذا المنهج ـ إضافة إلى اعتماده على الكتاب والسنة وأقوال السلف، وتأدبه بآدابهم ـ ثباتُه على منهج محدد؛ فلم يتناقض ولم تتغير آراؤه أو قناعاته، ولم تختلف به المناهج والسبل كما حدث لغيره، وإنما بقي ثابتاً صامداً مع كثرة المحن والأحداث التي مرَّت به، وهذا واضح جداً لكل مَنْ قرأ كتبه التي وصلت إلينا؛ فإنها ـ على كثرتها وتنوعها. وتكرار مواضيعها ـ لم يُلْحَظْ أبداً عليه تناقض أو تراجع أو تردُّد[1]، وهذا راجع إلى سلامة المنطلَق والأساس الذي كان يعتمد عليه في كتبه.

٥ ـ أما الصوفية فقد عرض الشيخ آراءهم من خلال ما كتبوه هم أنفسُهم، وفصّل الشيخ عقائدهم في الأبواب المختلفة العَقَدِية منها والسلوكية، ومن منهج الشيخ أنه لا يكتفي بعرض المذهب، بل يرد عليه ويفنِّدُه، ويذكر ما فيه مِنْ حقٍّ وباطل.

٦ ـ أن الصوفية بحثوا عن الهداية في غير الكتاب والسنة، فوقعوا

---

(١) وهذا المنهج يفقده جميع أهل البدع؛ فإنك إذا نظرت في مصنفاتهم تجد أن الواحد منهم يثبت في موضع ما ينفيه في موضع آخر، وشنَّع في موضع على مذهب ثم تجده يختاره في موضع آخر، وسبب ذلك عدم اعتماد أهل البدع على أصولٍ وقواعدَ ثابتةٍ، بل هي آراء رجال، وكلَّما مات رجل وخَلَفه آخر غيَّر وبدّل.

أما شيخ الإسلام، فتجده يتكلم عن الاستواء ـ مثلاً ـ في رسالته إلى أهل واسط، فيقرر معتقَد أهل السنة والجماعة، ثم يتكلم عن الاستواء في رده على الرازي، فيقرر ما كان قرره أولاً، ثم يتكلم عن الاستواء في التدمرية، فيقرر المعتقَدَ نفسه، لا يختلف أبداً ولا يتناقض؛ لأنه يقوم على أسسٍ من الوحي الرباني، لا من آراء البشر وعقولهم.

في الضلال والغواية، وكلّما تقدم بهم الزمن، وتباعد العهد عن القرون المفضلة زاد الضلال، واتسع الخرق، ولا يزال ضلالهم في زيادة إلى اليوم.

٧ ـ تقديس المتصوفة لأشخاص الأولياء والصالحين أوقعهم في ضلالات وشركيات كثيرة متنوعة، في الألوهية، والدعاء والاستغاثة، والخوف والرجاء، وإسقاط التكاليف الشرعية، وغير ذلك.

٨ ـ بدع المتصوفة وانحرافاتهم قسمان:

الأول: عقدية: كالقول بالحلول والاتحاد، ودعاء غير الله، وغير ذلك.

الثاني: سلوكية: كالتعلق بالمردان، واستحلال السماع البدعي، وغير ذلك.

٩ ـ من خلال ردود الشيخ ومناقشاته للصوفية، برز في منهجه أمران:

الأول: إنصاف الشيخ خصومَه الصوفية، وذلك باعترافه بما معهم من حقٍّ ـ وإن كان قليلاً ـ وعدم التعميم في الحكم عليهم بالبدعة، بل تفصيل حالهم.

الثاني: الرد على المتصوفة فيما خالفوا فيه مذهب أهل السنة والجماعة مع ذكر قواعد الردود وتأصيلها، إضافة إلى الإحاطة والمناقشة المفصلة للمسائل التي خالف فيها الصوفية أهل السنة والجماعة.

وفي الختام فهذا جهد المُقِلّ أقدِّمُه، راجياً مِنَ الله تعالى أن أكون قد وُفقتُ فيه للصواب، وأنا مقرٌ ومعترف بأن ما كان من صواب فيه، فبتوفيق الله وفضله، وما كان فيه خطأ، فهو مِنْ نفسي ومِنَ الشيطان، وأستغفر الله تعالى منه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه الحديث، وتم تخريج الحديث فيه.

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس الآثار

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه الأثر، وتم تخريج الأثر فيه.

فهرس الأعلام المترجمين في الحاشية

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه ذكر اسم العلم فيه، وتم التعريف بالعلم فيه.

فهرس الأبيات الشعرية

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه ذكر البيت وبينتُ فيه قائله.

فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه ذكر اللفظ، وتم تعريفه فيه.

فهرس الفرق والطوائف

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه ذكر الفرقة، وتم التعريف بها هناك.

فهرس الأماكن والبلدان

(١) رقم الصفحة يشير إلى أول موضع ورد فيه ذكر الموقع، وتم التعريف به هناك.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ - الأباطيل: لأبي عبد الله الحسين بن إبراهيم الجوزقاني، ت: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، الجامعة السلفية بنارس.

٢ - أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي، ت: عبد الجبار زكار، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

٣ - أبو حامد الغزالي والتصوف: لعبد الرحمن دمشقية، ط. دار طيبة، الرياض، الثانية، ١٤٠٩هـ.

٤ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: لمحمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، ط. دار الفكر.

٥ - الأحاديث المختارة: لأبي عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، ت: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط. مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط. الأولى ١٤١٠هـ.

٦ - الأحكام السلطانية: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، راجعه: محمد فهمي السرجاني، ط. المكتبة التوفيقية.

٧ - أخبار القضاة: للقاضي وكيع: محمد بن خلف بن حبان، ط. مصورة عالم الكتب، بيروت.

٨ - الأخلاق عند الغزالي: د. زكي مبارك، ط. مطبعة الشعب، القاهرة.

٩ - الأدب المفرد: للبخاري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٩هـ.

١٠ - الأربعين في أصول الدين: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. الثانية ١٩٧٩م.

١١ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للشوكاني، ط. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط. الأولى ١٣٥٦هـ.

١٢ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى ١٣٥٦هـ.
١٣ ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لابن عبد البر، ت: علي محمد حجاوي، ط. دار الجيل، الأولى ١٤١٢هـ.
١٤ ـ أسد الغابة: لابن الأثير، ط. جمعية المعارف، ١٣٨٠هـ.
١٥ ـ الأسماء والصفات: لأبي بكر البيهقي، ت: عبد الله محمد الحاشدي، ط. مكتبة السوادي، جدة، الأولى ١٤١٣هـ.
١٦ ـ الإشارات والتنبيهات: لابن سينا، مطبوع مع شرح الطوسي، ت: سليمان دنيا، ط. دار المعارف، مصر، ١٩٦٠هـ.
١٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني، ت: علي محمد البجاوي، ط. دار نهضة مصر، القاهرة.
١٨ ـ أصول الكافي: لمحمد يعقوب الكليني تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط. دار الكتب الإسلامية، طهران، الثالثة ١٣٨٨هـ
١٩ ـ أصول مذهب الشيعة: د. ناصر بن عبد الله القفاري، ط. الثانية ١٤١٥هـ.
٢٠ ـ أطلس التاريخ الإسلامي، ترجمة: إبراهيم زكي، ط. مكتبة النهضة المصرية.
٢١ ـ الأعلام: لخير الدين الزركلي: ط. دار العلم للملايين، بيروت، ط. السادسة ١٩٨٤م.
٢٢ ـ الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: البزار، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، ط. الثالثة ١٤٠٠هـ.
٢٣ ـ أعلام النساء لعمر كحالة، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الخامسة ١٤٠٤هـ.
٢٤ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ت: محمد سيد كيلاني، ط. مطبعة مصطفى الحلبي البابي وأولاده، مصر، ١٣٨١هـ.
٢٥ ـ الأنساب: للسمعاني، ت: عبد الله بن عمر البارودي، ط. دار الجنان، بيروت، الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٦ ـ الأوراد القادرية: جمع: محمد سالم بواب، ط. دار الألباب، دمشق، الثانية ١٤١٣هـ.
٢٧ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: لابن القيم، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٤هـ.
٢٨ ـ الاستغاثة في الرد على البكري: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: عبد الله بن دجين السهلي، ط. دار الوطن، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

٢٩ ـ الاستقامة: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: محمد رشاد سالم، ط. مكتبة السنة، مصر، ط. الثانية ١٤٠٩هـ.
٣٠ ـ الاعتصام: للشاطبي، ط. المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
٣١ ـ الاعتقاد: للبيهقي، ت: أحمد محمد مرسي، ط. المطبعة العربية، باكستان.
٣٢ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: للرازي، ت: علي سامي النشار، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ
٣٣ ـ الاقتصاد في الاعتقاد: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٩هـ، ضمن مجموع رسائل الغزالي.
٣٤ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن يتمية، ت: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط. مكتبة الرشد، الرياض، ط. الثالثة ١٤١٣هـ.
٣٥ ـ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ طبع.
٣٦ ـ بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي، ط. إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٠٣هـ
٣٧ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي، ط. مصطفى الحلبي، ط. الثالثة ١٣٧٩هـ.
٣٨ ـ البداية والنهاية: لابن كثير، ت: مجموعة من الباحثين، ط. مكتبة المعارف، بيروت، الثانية.
٣٩ ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: لعباس بن منصور السكسكي الحنبلي، ت: خليل أحمد الحاج، ط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط. الثانية.
٤٠ ـ بصائر ذوي التمييز: للفيروزآبادي، ط. لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ طبع.
٤١ ـ بغية المرتاد: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: د. موسى بن سليمان الدويش، ط. مكتبة العلوم والحكم، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
٤٢ ـ بغية المستفيد شرح منية المريد: لمحمد العربي السائح الشرقي العمري التيجاني، ط. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الأولى ١٣٨٠هـ.
٤٣ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط. الأولى ١٣٨٤هـ.

٤٤ ـ بيان تلبيس الجهمية: لشيخ الإسلام ابن تيمية: تصحيح وتكميل: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط. مؤسسة قرطبة، مصر.
٤٥ ـ تاج العروس: لمحب الدين أبي الفيض الزبيدي، ت: علي شيري، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.
٤٦ ـ تاريخ الأدب العربي: لبروكلمان، ط. دار المعارف، القاهرة، ط. الرابعة.
٤٧ ـ تاريخ الإسلام: للذهبي، ت: عمر عبد السلام تدمري، ط. دار الكتاب العربي، الأولى ١٤١٨هـ.
٤٨ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري، ت: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط. الرابعة، ١٣٩٩هـ.
٤٩ ـ تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين، ت: محمود فهمي حجازي، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.
٥٠ ـ تاريخ التصوف الإسلامي: للدكتور عبد الرحمن بدوي، ط. وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٨م.
٥١ ـ تاريخ الجهمية والمعتزلة: لجمال الدين القاسمي، القاهرة، ١٣٢١هـ.
٥٢ ـ تاريخ الغيبة الصغرى: محمد باقر الصدر الشيعي، ط. مكتبة الألفين، الكويت، ١٤٠٠هـ.
٥٣ ـ تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لمحمد أبو ريان ط. دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م.
٥٤ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٥هـ.
٥٥ ـ التاريخ الكبير: للبخاري، ت: السيد هاشم الندوي، ط. دار الفكر، بيروت.
٥٦ ـ تاريخ دمشق: لابن عساكر، ط. مجمع اللغة العربية، دمشق، عدة أجزاء لعدة محققين.
٥٧ ـ تاريخ دولة آل سلجوق: لعماد الدين الأصفهاني، اختصار: الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، ط. شركة طبع الكتب العربية، مصر، ١٣١٨هـ.
٥٨ ـ تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب: لمحمد لطفي جمعة، ط. المكتبة العلمية.
٥٩ ـ التبصرة في أصول الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: لأبي المظفر الاسفراييني، ت: كمال يوسف الحوت، ط. عالم الكتب، بيروت.

٦٠ ـ التبصير في الدين: للإسفراييني، ت: محمد زاهد الكوثري، مطبعة الأنوار، الأولى ١٣٥٩هـ.
٦١ ـ التبصير في معالم الدين، لأبي جعفر الطبري، ت: علي بن عبد العزيز الشبل، ط. دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى ١٤١٦هـ.
٦٢ ـ تبيين كذب المفتري: لابن عساكر: ط. دار القدس، بيروت، ١٣٩٩هـ
٦٣ ـ تحريم السماع: لأبي بكر الطرطوشي.
٦٤ ـ تحفة الأشراف لمعرفة الأطراف: لجمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزي، ت: عبد الصمد شرف الدين، ط. المكتب الإسلامي، ط. الثانية ١٤٠٣هـ
٦٥ ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ط. دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٧٧هـ).
٦٦ ـ تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: للعراقي وابن السبكي والزبيدي، جمع وإخراج: محمود الحداد، ط. دار العاصمة، الرياض، الأولى ١٤٠٨هـ.
٦٧ ـ تخريج الإحياء: للعراقي، المسمى: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، طبع بهامش الإحياء، ط. دار النور، مصر.
٦٨ ـ التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد عودة السعوي، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.
٦٩ ـ تذكرة الأولياء: لفريد الدين العطار، ت: المستشرق نيكلسون، ط. ليدن، لندن ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧م.
٧٠ ـ تذكرة الحفاظ: للذهبي: ت: عبد الرحمن المعلمي، ط. حيدر آباد، الهند.
٧١ ـ تذكرة الموضوعات: لمحمد بن علي بن طاهر الهندي الفتني، ط. المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ.
٧٢ ـ التسعينية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: د. محمد بن إبراهيم العجلان، ط. مكتبة المعارف للنشر، الرياض، ط. الأولى ١٤٢٠هـ.
٧٣ ـ التشوف إلى رجال التصوف: لابن الزيات، ط. مطبوعات أفريقية، الرباط ١٤٠٣هـ.
٧٤ ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: د. زكي مبارك، ط. دار الجيل، بيروت.
٧٥ ـ التصوف في ميزان البحث والتحقيق: لعبد القادر السندي ط. دار المنار، القاهرة.

٧٦ ـ التعرف لمذهب التصوف: لأبي بكر الكلاباذي، ط. عيسى الحلبي، سنة: ١٣٨٠هـ.

٧٧ ـ التعريفات: للجرجاني، ت: إبراهيم الأبياري، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ

٧٨ ـ تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، ط. الشعب، القاهرة.

٧٩ ـ تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي لمحمد بن أحمد لوح، ط. دار الهجرة، الرياض، الأولى ١٤١٦هـ.

٨٠ ـ تكملة الإكمال: لمحمد بن عبد الغني البغدادي المشهور بابن نقطة، ت: د. عبد القيوم عبد رب النبي، ط. جامعة أم القرى، مكة، الأولى ١٤١٠هـ.

٨١ ـ تلبيس إبليس: لأبي الفرج ابن الجوزي، ط. المطبعة المنيرية، القاهرة، الثانية ١٣٦٨هـ.

٨٢ ـ التمهيد: للباقلاني ت: عماد الدين أحمد حيدر، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الأولى ١٤٠٧هـ.

٨٣ ـ تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، لابنِ الديبع الشيباني، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٨٤ ـ تنبيه الغبي بتنزيه ابن عربي، للسيوطي، مخطوط ضمن المجموعة ٧٢٢ ف ٥ ميكروفيلم بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

٨٥ ـ التنبيه والرد: للملطي، ت: محمد زاهد الكوثري، ط. مكتبة المثنى، بغداد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٨٦ ـ تهافت الفلاسفة: لأبي حامد الغزالي، ت: سليمان دنيا، ط. دار المعارف، القاهرة، ط. الرابعة.

٨٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات: لأبي زكريا النووي، ط. المنيرية.

٨٨ ـ تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني، ط. دائرة المعارف، الأولى ١٣٢٦هـ.

٨٩ ـ تهذيب اللغة للأزهري، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٩٠ ـ تهذيب تاريخ دمشق، هذبه: عبد القادر بدران، ط. دار المسيرية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٩١ ـ تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام: لعلي بن هبة الله بن جعفر بن علي بن ماكولا، ت: سيد كسروي حسن، ط. دار الكتب العلمية.

٩٢ ـ التوحيد: لابن خزيمة، ت: د. عبد العزيز الشهوان، ط. دار الرشد، الرياض، الأولى ١٤٠٨هـ، وطبعة أخرى: التوحيد: لابن خزيمة، تعليق: محمد الهراس، ط. دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٩٣ ـ توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: لابن عيسى، ط. المكتب الإسلامي،

٩٤ ـ التوقيف على مهمات التعاريف: للمناوي، ت: د. محمد رضوان، ط. دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ.

٩٥ ـ التيجانية: د. علي بن محمد آل دخيل الله، ط. دار العاصمة، الرياض، الثانية، ١٤١٩هـ.

٩٦ ـ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الخامسة ١٤٠٢هـ.

٩٧ ـ الثقات: لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ت: السيد شرف الدين أحمد، ط. دار الفكر، ط. الأولى ١٣٩٥هـ.

٩٨ ـ الجامع: لمعمر بن راشد الأزدي، ت: حبيب الأعظمي، مطبوع ملحقاً بمصنف عبد الرزاق الصنعاني ج١٠، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الثانية ١٤٠٣هـ.

٩٩ ـ جامع الأصول: للنقشبندي، ط. مطبعة الجمالية، مصر، الأولى ١٣٢٨هـ.

١٠٠ ـ جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري): لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط. دار الفكر، بيروت ١٤٠٥هـ.

١٠١ ـ جامع الرسائل: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: د. محمد رشاد سالم، ط. مكتبة المدني، القاهرة، ط. الأولى ١٣٨٩هـ.

١٠٢ ـ الجامع الصحيح (سنن الترمذي): أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٣ ـ الجامع الصحيح لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، ط. دار ابن كثير، بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ

١٠٤ ـ جامع العلوم والحكم: لابن رجب الحنبلي، ط. رئاسة الإفتاء، الرياض.

١٠٥ ـ جامع كرامات الأولياء: ليوسف النبهاني الشاذلي، ط. مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط. الثانية ١٣٩٤هـ.

١٠٦ ـ الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط. دار الكتب، القاهرة، ط. الثانية ١٣٨٢هـ.

١٠٧ ـ الجرح والتعديل: لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي التميمي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الأولى ١٩٥٢م.

١٠٨ ـ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: د. علي بن حسن بن ناصر، د. عبد العزيز العسكر، د. حمدان الحمدان، ط. دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى ١٤١٤هـ.

١٠٩ ـ جواهر القرآن ودرره: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الجيل، بيروت، ط. السادسة ١٤٠٨هـ.

١١٠ ـ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية: لأبي الوفاء القرشي، ت: د. عبد الفتاح الحلو، ط. عيسى البابي وشركاه، ١٣٩٨هـ.

١١١ ـ الجواهر والدرر: لعبد الوهاب الشعراني، ط. المطبعة الأزهرية، مصر، ١٣٠٦هـ، بحاشية الإبريز.

١١٢ ـ الحد الفاصل بين الإيمان والكفر: لعبد الرحمن عبد الخالق، ط. دار العلوم، بدون تاريخ طبع.

١١٣ ـ حلية الأولياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الرابعة ١٤٠٥هـ.

١١٤ ـ ختم الولاية: للحكيم الترمذي، ت: عثمان إسماعيل يحيى، ط. المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

١١٥ ـ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، ت: محمد علي النجار، بدون دار طبع ولا سنة طبع.

١١٦ ـ الخطط المقريزية (المسمى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار): للمقريزي، مصورة عن طبعة بولاق، دار صادر، بيروت.

١١٧ ـ خلق أفعال العباد: للإمام البخاري، ت: د. عبد الرحمن عميرة، ط. دار المعارف السعودية، الرياض، ١٣٩٨هـ.

١١٨ ـ دائرة المعارف الإسلامية: أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية مجموعة من المستشرقين، ترجمة : إبراهيم خورشيد وزملاؤه، ط. مصورة دار الشعب، مصر.

١١٩ ـ دائرة المعارف الحديثة: لأحمد عطية الله، ط. مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٣م.

١٢٠ ـ دائرة معارف القرن العشرين: لمحمد فريد وجدي، ط. دار المعرفة، بيروت، الثالثة ١٩٧١م.

١٢١ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين السيوطي، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٢٢ ـ درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط. الأولى ١٤٠١هـ.

١٢٣ ـ دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: لعرفان عبد الحميد، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٤هـ.

١٢٤ ـ دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)، د. أحمد محمد جلي، ط. الثانية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٠٨هـ.

١٢٥ ـ دعوة التوحيد: لمحمد خليل هراس، ط. مكتبة الصحابة، طنطا، مصر.

١٢٦ ـ دلائل النبوة: للأصبهاني، ت: محمد محمد حداد، ط. دار طيبة، الرياض ١٤٠٩هـ.

١٢٧ ـ ديوان ابن الفارض: لأبي حفص عمر بن الفارض، ط. دار صادر، بيروت.

١٢٨ ـ ديوان الحلاج: لأبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج، وضعه ونشره: كامل مصطفى الشيبي، ط. دار الآفاق العربية، بغداد، ١٤٠٤هـ.

١٢٩ ـ ديوان المتنبي، مع شرحه: لعبد الرحمن البرقوقي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠هـ.

١٣٠ ـ ذكر مذاهب الثنتين والسبعين فرقة: لليافعي، ت: د. موسى الدويش، ط. دار البخاري للنشر، ١٤١٠هـ.

١٣١ ـ ذم الملاهي: لابن أبي الدنيا، ت: محمد عبد القادر عطا، ط. دار النصر، مصر.

١٣٢ ـ ذم ما عليه مدعو التصوف: لابن قدامة المقدسي، ط. المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ.

١٣٣ ـ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ت: محمد حامد الفقي، ط. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٢م.

١٣٤ ـ ربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية: للدكتور عمر بن عبد العزيز المترك، ت: د. بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. دار العاصمة، الرياض، الثانية ١٤١٧هـ.

١٣٥ ـ الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية «شيخ الإسلام» كافر: لابن ناصر الدين الدمشقي، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٠هـ.

١٣٦ ـ الرد على الأخنائي: لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبوع في حاشية تلخيص الاستغاثة في الرد على البكري، ط. الدار العلمية، الهند، ط. الثانية ١٤٠٥هـ.
١٣٧ ـ الرد على الجهمية: للإمام الدارمي، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الرابعة، ١٤٠٢هـ.
١٣٨ ـ الرد على الجهمية والزنادقة: للإمام أحمد بن حنبل، ت: د. علي سامي النشار، ط. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١هـ.
١٣٩ ـ الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي، ت: عبد الوهاب خليل الرحمن، ط. الدار السلفية، الهند، الأولى ١٤٠٣هـ.
١٤٠ ـ الرد على المنطقيين: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. إدارة ترجمان السنة، باكستان ١٣٩٦هـ.
١٤١ ـ رسائل إخوان الصفا: لعمر الدسوقي ط. دار النهضة، القاهرة، مصر، ط. الثالثة.
١٤٢ ـ رسائل ابن سبعين، جمعها وحققها: د. عبد الرحمن بدوي، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٦م.
١٤٣ ـ رسالة اصطلاحات الصوفية: لابن عربي، مطبوعة مع كتاب التعريفات للجرجاني، ط. مصطفى الحلبي، ١٣٥٧هـ.
١٤٤ ـ الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، ت: معروف زريق، علي عبد الحميد أبو الخير، ط. دار الخير، بيروت، ط. الثانية ١٤١٦هـ، وطبعة أخرى: ت: د. عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، ط. دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨٥هـ.
١٤٥ ـ الرسالة المستطرفة: للكتاني، ط. دار البشائر، بيروت، الرابعة ١٤٠٦هـ.
١٤٦ ـ روضة الطالبين: لأبي حامد الغزالي: ط. ضمن مجموع رسائل الغزالي، دار الكتب العلمية، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
١٤٧ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة: لأبي جعفر الطبري، ط. مكتبة محمد نجيب، ١٣٧٢هـ.
١٤٨ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم، ت: شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، ط. الثالثة ١٤٠١هـ.
١٤٩ ـ الزندقة والزنادقة: لعاطف شكري عوض، ط. دار الفكر، الأردن، عمان، بدون تاريخ طبع.

١٥٠ ـ الزهد: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني، ت: عبد العلي بن عبد الحميد حامد، ط. دار الريان للتراث، القاهرة، ط. الثانية ١٤٠٨هـ.

١٥١ ـ الزهد والرقائق: لعبد الله بن المبارك، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٢ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

١٥٣ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، وطبعة أخرى: ط. مكتبة المعارف، الرياض، ط. الأولى.

١٥٤ ـ السنة: لابن أبي عاصم، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٠هـ.

١٥٥ ـ السنة: لعبد الله بن الإمام أحمد، ط. المطبعة السلفية، مكة المكرمة، ١٣٤٩هـ.

١٥٦ ـ سنن أبي داود السجستاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار الفكر.

١٥٧ ـ سنن ابن ماجه القزويني: ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الفكر، بيروت.

١٥٨ ـ سنن الدارمي: ت: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

١٥٩ ـ السنن الكبرى: لأبي عبد الرحمن النسائي، ت: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤١١هـ.

١٦٠ ـ السنن الكبرى: لأبي بكر البيهقي، ت: محمد عبد القادر عطا، ط. مكتبة الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

١٦١ ـ سير أعلام النبلاء: للذهبي، ت: جماعة من الباحثين، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٠١هـ.

١٦٢ ـ سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف الشيرازي: د. إبراهيم الدسوقي شتا ط. المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٩٧هـ.

١٦٣ ـ سيرة الغزالي: لعبد الكريم عثمان، ط. دار المعارف، مصر.

١٦٤ ـ السيرة النبوية: لابن هشام، ط. دار إحياء التراث العربي، ١٣٩١هـ.

١٦٥ ـ شأن الدعاء: لأحمد بن محمد أبي سليمان الخطابي، ت: أحمد يوسف الدقاق، ط. دار المأمون للتراث، دمشق، ط. الأولى.

١٦٦ ـ شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي: ط. دار المسيرة، بيروت، الثانية ١٣٩٩هـ.

١٦٧ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة: لهبة الله اللالكائي، ت: محمد سعد حمدان، ط. دار طيبة، الرياض.

١٦٨ ـ شرح الإشارات، لابن سينا، للفخر الرازي، مطبوع مع شرح الطوسي له، ط. الأولى، المطبعة الخيرية، ١٣٢٥هـ.

١٦٩ ـ شرح الأصول الخمسة: للقاضي عبد الجبار الهمداني، ت: د. عبد الكريم عثمان، ط. أم القرى للطباعة والنشر، مصر، الثانية ١٤٠٨هـ.

١٧٠ ـ شرح السنة: لأبي محمد البربهاري ت: د. محمد سعيد القحطاني، ط. دار ابن القيم، الدمام، ١٤٠٨هـ.

١٧١ ـ شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي، ت: د. عبد الله التركي، شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٧٢ ـ شرح حديث النزول: لشيخ الإسلام ابن تيمية: تحقيق وتعليق: محمد بن عبد الرحمن الخميس: ط. دار العاصمة: الرياض، ط. الأولى ١٤١٤هـ.

١٧٣ ـ شرح صحيح مسلم: لأبي زكريا النووي، ط. المطبعة المصرية ومكتبتها، مصر.

١٧٤ ـ الشريعة: للآجري، ت: د. عبد الله عمر سليمان الدميجي، ط. دار الوطن، الرياض، الأولى ١٤١٨هـ، وطبعة أخرى: ط. حامد الفقي، ط. مطبعة السنة المحمدية، الأولى ١٩٥٠م.

١٧٥ ـ شعب الإيمان: لأبي بكر البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤١٠هـ.

١٧٦ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لابن القيم، ط. مكتبة دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ طبع.

١٧٧ ـ الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية: لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، ت: نجم عبد الرحمن خلف، ط. دار الفرقان، عمان، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى ١٤٠٤هـ.

١٧٨ ـ شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق: ليوسف بن إسماعيل النبهاني، ط. مصطفى البابي الحلبي، مصر، الثانية ١٣٨٥هـ.

١٧٩ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية: للدكتور: سعيد بن مسفر القحطاني، ط. الأولى ١٤١٨هـ.

١٨٠ ـ الشيعة والتشيع فرق وتاريخ: لإحسان إلهي ظهير ط. إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، الأولى ١٤٠٤هـ.

١٨١ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد بن عبد الله الحلواني، محمد كبير أحمد شودري، ط. رمادي للنشر، الدمام، السعودية، ط. الأولى ١٤١٧هـ.

١٨٢ ـ الصحاح: لإسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط. دار العلم للملايين، بيروت، الثانية ١٣٩٩هـ.

١٨٣ ـ صحيح الأدب المفرد، ط. دار الصديق، الجبيل، السعودية، الثانية ١٤١٥هـ.

١٨٤ ـ صحيح الجامع الصغير، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

١٨٥ ـ صحيح سنن ابن ماجه: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

١٨٦ ـ صحيح سنن النسائي: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

١٨٧ ـ صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٨ ـ صريح السنة: لابن جرير الطبري ت: بدر يوسف المعتوق، ط. دار لخلفاء، الكويت، الأولى ١٤٠٥هـ.

١٨٩ ـ صفة الصفوة: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، ط. حيدرآباد، ١٣٥٥هـ.

١٩٠ ـ الصفدية: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: د. محمد رشاد سالم: ط. مكتبة ابن تيمية: القاهرة: ط. الثانية ١٤٠٦هـ.

١٩١ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن القيم، ت: د. علي بن محمد الدخيل الله، ط. دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى.

١٩٢ ـ الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ت: عبد الله القاضي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٠٦هـ.

١٩٣ ـ ضعيف الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.
١٩٤ ـ ضعيف سنن ابن ماجه: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
١٩٥ ـ ضعيف سنن الترمذي: لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.
١٩٦ ـ طائفة الدروز تاريخها وعقائدها: للدكتور: محمد كامل حسين، ط. مكتبة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ طبع.
١٩٧ ـ طبقات الأطباء والحكماء: لابن جلجل سليمان بن حسان الأندلسي، ت: فؤاد السيد، ط. المعهد الفرنسي للآثار المشرقية.
١٩٨ ـ طبقات الأولياء: لسراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد المصري المشهور بابن الملقن، ت: نور الدين شريبة، ط. دار البحوث الإسلامية، ط. الأولى ١٣٩٣هـ.
١٩٩ ـ طبقات الحفاظ: للسيوطي، ت: علي يحيى عمر، ط. مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الأولى ١٣٩٣هـ.
٢٠٠ ـ طبقات الحنابلة: للقاضي أبي الحسين بن أبي يعلى، صححه: محمد حامد الفقي، ط. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط. ١٣٧١هـ.
٢٠١ ـ طبقات الشافعية: لابن قاضي شهبة، ت: د. الحافظ عبد العليم خان، ط. دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٤٠٧هـ
٢٠٢ ـ طبقات الشافعية: للسبكي، ت: محمود الطناحي، ط. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الأولى ١٣٨٣هـ
٢٠٣ ـ طبقات الصوفية: للسلمي: ط. مطابع الشعب: القاهرة، ١٣٨٠هـ
٢٠٤ ـ طبقات القراء (غاية النهاية في طبقات القراء): لشمس الدين ابن الجوزي، ط. الخانجي، القاهرة، ١٣٥١هـ.
٢٠٥ ـ الطبقات الكبرى: لابن سعد، ط. دار صادر، بيروت.
٢٠٦ ـ الطبقات الكبرى: للشعراني، ط. المطبعة العامرية الشرقية، مصر، ١٣١٥هـ.
٢٠٧ ـ طبقات المفسرين: للداوودي، ت: علي محمد عمر، ط. مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الأولى ١٣٩٢هـ.
٢٠٨ ـ طبقات النحويين واللغويين: لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف، الثانية.

٢٠٩ ـ الطرق الصوفية في مصر: لعامر النجار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٢١٠ ـ الطريق إلى الله الشيخ والمريد من كلام الشيخ الأكبر ابن عربي: جمع وتأليف: محمود الغراب، ط. مطبعة نضر، ١٤١١هـ.
٢١١ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين: لابن قيم الجوزية، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٠٢هـ.
٢١٢ ـ العبر في خبر من غبر: للذهبي: ت: محمد السعيد بسيوني، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١٣ ـ العظمة: لأبي الشيخ، ت: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، ط. دار العاصمة، الرياض، الأولى ١٤٠٨هـ.
٢١٤ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: لتقي الدين الفاسي، ت: محمد حامد الفقي، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الثانية ١٤٠٦هـ.
٢١٥ ـ العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي، ت: محمد حامد الفقي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١٦ ـ عقيدة السلف: للصابوني، ت: بدر البدر، ط. الدار السلفية، الكويت، الأولى ١٤٠٤هـ.
٢١٧ ـ العقيدة السلفية في كلام ربّ البرية: لعبد الله بن يوسف الجديع، ط. دار الإمام مالك، الرياض، الثانية ١٤١٦هـ.
٢١٨ ـ العقيدة الواسطية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. سعد الراشد، الرياض، بدون تاريخ طبع.
٢١٩ ـ عمل اليوم والليلة: للنسائي، ط. الرئاسة العامة للإفتاء، الرياض ١٤٠١هـ.
٢٢٠ ـ عوارف المعارف للسهروردي، ط. دار المعارف، بيروت، وطبعة أخرى: ط. المكتبة العلامية، القاهرة، ١٣٥٨هـ، وطبعة ثالثة: مطبوع في ذيل إحياء علوم الدين: لأبي حامد الغزالي، ط. النور، مصر.
٢٢١ ـ العواصم من القواصم: لأبي بكر بن العربي، ت: محب الدين الخطيب، ط. وزارة الشئون الإسلامية، الرياض، ١٤١٨هـ
٢٢٢ ـ الغَيْبَة: لمحمد بن جعفر بن الحسن الطوسي الشيعي، ط. مكتبة الألفين، الكويت.
٢٢٣ ـ الفتاوى الكبرى: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. دار الباز، مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ.

٢٢٤ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٢٢٥ ـ فتوح الغيب: لعبد القادر الجيلاني، ط. مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط. الثانية ١٣٩٢هـ.
٢٢٦ ـ الفتوحات المكية: لمحيي الدين بن عربي، ط. الحلبي، القاهرة ١٢٢٩هـ.
٢٢٧ ـ الفتوى الحموية الكبرى: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، ط. دار الصميعي، الرياض، الأولى ١٤١٩هـ.
٢٢٨ ـ فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية: لمحمد بن صالح الزركان، ط. دار الفكر، بيروت.
٢٢٩ ـ فرق الشيعة: لحسن بن موسى النوبختي الشيعي ط. دار الأضواء، بيروت ١٤٠٤هـ.
٢٣٠ ـ الفرق بين الفرق: للبغدادي: ط. مطبعة المدني، القاهرة.
٢٣١ ـ فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبين موقف الإسلام منها: لغالب بن علي عواجي، ط. مكتبة لينة، مصر، الأولى ١٤١٤هـ.
٢٣٢ ـ الفرقان: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: بشير محمد عيون، ط. مكتبة المؤيد، الرياض، ط. الأولى ١٤١٣هـ.
٢٣٣ ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: لابن رشد، ت: محمد عمارة، ط. دار المعارف، القاهرة.
٢٣٤ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ طبع.
٢٣٥ ـ فصوص الحكم: لمحيي الدين ابن عربي، ت: د. أبو العُلا عفيفي، ط. عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٤٦م، وله طبعة أخرى: بتحقيق وطبع: محمود غراب.
٢٣٦ ـ الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ: لابن كثير، ت: محمد العيد خضراوي، محيي الدين مستو، ط. بيروت، ١٤٠٠هـ.
٢٣٧ ـ فضائح الباطنية: لأبي حامد الغزالي، ت: د. عبد الرحمن بدوي، ط. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
٢٣٨ ـ فضائل الصحابة: لعبد الله بن الإمام أحمد ت: وصي الله محمد عباس، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى ١٤٠٣هـ.

٢٣٩ ـ الفلسفة الصوفية في الإسلام ومصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة: د. عبد القادر محمود، ط. دار الفكر العربي، القاهرة، ط. الثانية ١٩٦٦م.
٢٤٠ ـ الفهرست: لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن النديم، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.
٢٤١ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: لمحمد بن علي الشوكاني، ت: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط. مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
٢٤٢ ـ فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي، ت: محمد بن محيي الدين عبد الحميد، ط. النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥١م.
٢٤٣ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٤هـ، ضمن مجموع رسائل الغزالي.
٢٤٤ ـ فيض القدير: للمناوي، ط. دار المعرفة، بيروت، الثانية ١٣٩١هـ.
٢٤٥ ـ الفيلسوف الغزالي إعادة تقييم لمنحاه الروحي: د. عبد الأمير الأعسم، ط. منشورات عويدات، بيروت.
٢٤٦ ـ قاعدة جليلة التوسل والوسيلة: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: ربيع بن هادي المدخلي، ط. مكتبة لينة، مصر، ط. الأولى ١٤١٢هـ.
٢٤٧ ـ القاموس المحيط: للفيروزآبادي، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الثانية ١٤٠٧هـ.
٢٤٨ ـ قانون التأويل: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٩هـ، ضمن مجموع رسائل الغزالي.
٢٤٩ ـ قصيدة ابن أبي داود، ت: محمود محمد حداد، ط. دار طيبة، الرياض، الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٥٠ ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد: لأبي طالب المكي، ط. المكتبة الحسينية، القاهرة، ١٣٥١هـ.
٢٥١ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد: لمحمد بن صالح العثيمين، ت: د. سليمان بن عبد الله أبا الخيل، ود. خالد بن علي المشيقح، ط. دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى ١٤١٥هـ.
٢٥٢ ـ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: للذهبي، ت: محمد عوامة، ط. دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو، جدة، ط. الأولى ١٤١٣هـ.

٢٥٣ ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير، ط. دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ.
٢٥٤ ـ الكامل في ضعفاء الرجال: لأبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، ت: يحيى مختار غزاوي، ط. دار الفكر، بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٩هـ.
٢٥٥ ـ كتاب القانون في الطب: لأبي علي بن سينا، ط. بولاق بالقاهرة.
٢٥٦ ـ كتاب سيبويه: ت: عبد السلام محمد هارون، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة ١٤٠٨هـ.
٢٥٧ ـ كرامات الأولياء: لهبة الله اللالكائي، ت: د. أحمد بن سعد حمدان، ط. دار طيبة، الرياض، ١٤١٢هـ.
٢٥٨ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس: للعجلوني، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٥٩ ـ كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون: لحاجي خليفة ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٢٦٠ ـ كشف المحجوب: علي بن عثمان الهجويري، ترجمة: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة: أمين عبد المجيد بدوي، ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٠هـ.
٢٦١ ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة: لابن رشد ط. دار الآفاق الجديدة، بيروت، الأولى ١٤٠٢هـ.
٢٦٢ ـ كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع: لابن حجر الهيثمي، ت: عادل عبد المنعم أبو العباس، ط. مكتبة القرآن للطباعة والنشر، القاهرة.
٢٦٣ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: لعلاء الدين علي بن المتقي بن حسام الدين الهندي، صححه: بكري حياني، صفوة السقا، ط. مكتبة التراث، حلب، ط. الأولى ١٣٩١هـ.
٢٦٤ ـ الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: عبد الرؤوف المناوي، ط. الأولى.
٢٦٥ ـ الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية: لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، ت: نجم عبد الرحمن خلف، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٢٦٦ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: للسيوطي، ط. المكتبة الحسينية بالأزهر، القاهرة، ١٣٥١هـ.
٢٦٧ ـ لسان العرب: لابن منظور، ط. دار صادر، بيروت، ط. الأولى ١٤١٠هـ.
٢٦٨ ـ لسان الميزان: لابن حجر: ط. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

٢٦٩ ـ اللمع: لأبي السراج الطوسي، ط. دار الكتب الحديثة، مصر.
٢٧٠ ـ لمع الأدلة: للجويني، ت: د. فوقية حسين محمود، ط. عالم الكتب، بيروت، الثانية ١٤٠٧هـ.
٢٧١ ـ لوامع الأنوار البهية: للسفاريني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثالثة ١٤١١هـ.
٢٧٢ ـ مؤلفات ابن الجوزي: لعبد الحميد العلوجي ط. جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، الأولى ١٤١٢هـ.
٢٧٣ ـ مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ت: عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب، طبع ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
٢٧٤ ـ المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين: للآمدي، ت: د. حسن محمود الشافعي، ط. ١٤٠٣هـ.
٢٧٥ ـ مجابو الدعوة: لابن أبي الدنيا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الأولى ١٤١٤هـ.
٢٧٦ ـ المجتبى من السنن: لأبي عبد الرحمن النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤٠٦هـ.
٢٧٧ ـ مجمع الزوائد: للهيثمي، ط. دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة: بيروت، ١٤٠٧هـ.
٢٧٨ ـ مجموع الأوراد الكبير والأدعية والأحزاب والاستغاثات: محمد عبد المعطي، ط. مكتبة النصر ومطبعتها، القاهرة.
٢٧٩ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وساعده ابنه محمد، ط. دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.
٢٨٠ ـ مجموعة الرسائل والمسائل: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٢هـ.
٢٨١ ـ مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر الرازي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٨٢ ـ مختصر الصواعق المرسلة: لابن القيم، ط. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٢٨٣ ـ مختصر العلو للعلي الغفار: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، دمشق، ط. الأولى ١٤٠١هـ.

٢٨٤ ـ مختصر فتاوى ابن تيمية (الفتاوى المصرية): لبدر الدين أبي عبد الله محمد بن علي الحنبلي البعلي: تصحيح: عبد المجيد سليم، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.

٢٨٥ ـ مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٢٨٦ ـ مذاهب الإسلاميين: د. عبد الرحمن بدوي، ط. دار العلم للملايين، بيروت، ط. الأولى ١٩٧١م.

٢٨٧ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان، لعبد الله بن أسعد اليافعي، ط. حيدر آباد، ١٣٣٩هـ.

٢٨٨ ـ المراسيل: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٨هـ

٢٨٩ ـ مراصد الأطلاع: لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي، ت: علي محمد البجاوي، ط. الأولى ١٣٧٣هـ.

٢٩٠ ـ مرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: طه عبد الرؤوف سعد، ومصطفى الهواري، مطبوع مع اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

٢٩١ ـ مسائل الإمامة: لعبد الله بن محمد الناشي الأكبر الشيعي، ت: يوسف فان، ط. المعهد الألماني للأبحاث المشرقية، بيروت ١٩٧١م

٢٩٢ ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة: لعبد الإله بن سلمان الأحمدي، ط. دار طيبة، الرياض، الأولى ١٤١٢هـ.

٢٩٣ ـ المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤١١هـ.

٢٩٤ ـ المستدرك على الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية: جمعه ورتبه: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط. الأولى ١٤١٨هـ.

٢٩٥ ـ المستصفى في أصول الفقه: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية ١٤٠٣هـ.

٢٩٦ ـ مسند ابن الجعد، ط. مؤسسة نادر، لبنان: بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.

٢٩٧ ـ مسند الإمام أحمد، ط. مؤسسة قرطبة، مصر.

٢٩٨ ـ مسند البزار، المسمى: البحر الزخار: لأبي بكر أحمد بن عمرو البزار، ت: محفوظ الرحمن زين الله، ط. مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٩٩ ـ مسند الروياني: لأبي بكر محمد بن هارون الروياني، ت: أيمن بن علي يماني، ط. مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط. الأولى ١٤١٦هـ.

٣٠٠ ـ مسند الشاميين: لأبي قاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.

٣٠١ ـ مسند الشهاب: لأبي عبد الله القضاعي، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الثانية ١٤٠٧هـ.

٣٠٢ ـ مسند الطيالسي: لسليمان بن داود الطيالسي، ط. دار المعرفة، بيروت.

٣٠٣ ـ مشكاة الأنوار: لأبي حامد الغزالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.

٣٠٤ ـ مصادر التلقي عند الصوفية: لصادق سليم صادق، ط. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣٠٥ ـ المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، ط. المطبعة الأميرية، الطبعة الخامسة.

٣٠٦ ـ مصرع التصوف: لعبد الرحمن الوكيل، مطبوع في هامش كتاب تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٣٠٧ ـ المصنف: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي، ط. الثانية ١٤٠٣هـ.

٣٠٨ ـ المصنف: لابن أبي شيبة، ت: كمال يوسف الحوت، ط. مكتبة الرشد، الأولى ١٤٠٩هـ.

٣٠٩ ـ المضنون الصغير ويسمى أيضاً: الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية: لأبي حامد الغزالي، طبع ضمن مجموعة رسائل للغزالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٤هـ.

٣١٠ ـ المضنون به على غير أهله ويُسمى أيضاً المضنون الكبير: لأبي حامد الغزالي، طبع ضمن مجموعة رسائل للغزالي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٤هـ.

٣١١ ـ المطالب العالية من العلم الإلهي: للفخر الرازي، ت: أحمد حجازي السقا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٧هـ

٣١٢ ـ معارج القبول شرح سلم الوصول، ط. دار ابن القيم، الدمام، الثالثة ١٤١٤هـ.
٣١٣ ـ معارج القدس في مدارج معرفة النفس: لأبي حامد الغزالي: ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٩هـ، ضمن مجموع رسائل الغزالي.
٣١٤ ـ المعارف: لابن قتيبة ت: د. ثروت عكاشة، ط. مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٠م.
٣١٥ ـ معالم التنزيل (تفسير البغوي): للبغوي، ت: خالد العك، مروان سوار، ط. دار المعرفة، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
٣١٦ ـ المعتزلة وأصولهم الخمسة: لعواد بن عبد الله المعتق، ط. دار العاصمة، الرياض، ط. الأولى ١٤٠٩هـ.
٣١٧ ـ المعتمد في أصول الدين: للقاضي أبي يعلى، ت: وديع حداد، ط. دار المشرق، بيروت.
٣١٨ ـ معجم ألفاظ الصوفية: د. حسن شرقاوي، ط. مؤسسة مختار، القاهرة، الثانية ١٩٩٢م.
٣١٩ ـ معجم اصطلاحات الصوفية: للكاشاني، ت: د. محمد كمال جعفر، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١هـ.
٣٢٠ ـ معجم الأدباء: لياقوت الحموي، ط. مكتبة عيسى البابي وشركاه، مصر، مطبوعات دار المأمون، بدون تاريخ طبع.
٣٢١ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، ط. دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ.
٣٢٢ ـ المعجم الصغير: لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، ت: محمد شكور، محمود الحاج أمرير، ط. المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٢٣ ـ المعجم الفلسفي: لجميل صليبا، ط. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٨م.
٣٢٤ ـ المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط. الثانية ١٤٠٤هـ.
٣٢٥ ـ معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة: ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٢٦ ـ معجم المصطلحات الصوفية: لعبد المنعم الحنفي، ط. دار المسيرة، بيروت، الأولى ١٤٠٠هـ.

٣٢٧ ـ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: لمجدي وهبة، وكامل المهندس، ط. مكتبة لبنان، بيروت، الثانية ١٩٨٤م.

٣٢٨ ـ المعجم الوسيط: نشر: مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٣٢٩ ـ معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، ط. الأولى، القاهرة ١٣٦٦هـ.

٣٣٠ ـ المعين في طبقات المحدثين: للذهبي، ت: همام عبد الرحيم سعد، ط. دار الفرقان، الأردن، الأولى ١٤٠٤هـ

٣٣١ ـ المغني: لأبي محمد بن قدامة المقدسي، ط. دار الفكر، بيروت، ط. الثالثة.

٣٣٢ ـ مغني المحتاج شرح المنهاج: لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، ط. مصطفى الحلبي، ١٣٧٧هـ.

٣٣٣ ـ المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصبهاني، ط. دار المعرفة، بيروت.

٣٣٤ ـ مقالات الإسلاميين: لأبي الحسن الأشعري، ط. مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٩هـ.

٣٣٥ ـ المقالات والفرق: لسعد بن عبد الله الأشعري القمي الشيعي، تصحيح وتعليق: محمد جواد مشكور، ط. مطبعة الحيدري، طهران، ١٩٦٣هـ.

٣٣٦ ـ المقدمة: لابن خلدون، ط. الشعب، مصر.

٣٣٧ ـ مقدمة رسائل إخوان الصفا: لبطرس البستاني، ط. دار صادر ودار بيروت، لبنان.

٣٣٨ ـ مقدمة كتاب بغية المرتاد لشيخ الإسلام: والمقدمة لمحققه د. موسى الدويش، ط. مكتبة العلوم والحكم، ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٣٩ ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: لابن مفلح، ت: عبد الرحمن العثيمين، ط. مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ

٣٤٠ ـ الملل والنحل: لعبد الكريم الشهرستاني، ط. الخانجي بالقاهرة، ودار المعرفة ببيروت، ١٤٠٤هـ.

٣٤١ ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية: لعبد القادر بدران، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية ١٤٠٥هـ.

٣٤٢ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف: لابن القيم، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الثانية ١٤١٣هـ.

٣٤٣ ـ منازل السائرين: للهروي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٣٤٤ ـ مناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي، ت: عبد الله التركي، وعلي بن محمد عمر، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. الأولى ١٣٩٩هـ.
٣٤٥ ـ المنتظم في أخبار الملوك والأمم لابن الجوزي، ت: محمد ومصطفى ابنا عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.
٣٤٦ ـ المنقذ من الضلال: لأبي حامد الغزالي: ط. دار الكتب العلمية، ط. الأولى ١٤٠٩هـ، ضمن مجموع رسائل الغزالي.
٣٤٧ ـ منهاج السنة النبوية: لشيخ الإسلام ابن تيمية: ت: محمد رشاد سالم، ط. مؤسسة قرطبة، مصر، ط. الأولى ١٤٠٦هـ.
٣٤٨ ـ المنهج الأحمد في أصحاب الإمام أحمد: للعُليمي، ط. دار صادر، بيروت، الأولى ١٩٩٧م.
٣٤٩ ـ منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: محمد بن ناصر السحيباني، ط. دار الوطن، الرياض، الأولى ١٤١٧هـ.
٣٥٠ ـ الموسوعة العربية الميسرة: لأشرف محمد غربال، ط. دار نهضة لبنان، بيروت، ١٩٨٠م.
٣٥١ ـ الموضوعات: لأبي الفرج ابن الجوزي، ط. المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٨٦هـ.
٣٥٢ ـ الموطأ: مالك بن أنس، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، مصر.
٣٥٣ ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة: د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، ط. مكتبة الرشد، الرياض، ط. الأولى ١٤١٥هـ.
٣٥٤ ـ ميزان الاعتدال: للذهبي، ط. دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٢هـ.
٣٥٥ ـ النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد بن عبد الرحمن عوض، ط. دار الكتاب العربي، ط. الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٥٦ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ليوسف الأتابكي ابن تغري بردي، ط. القاهرة، ١٩٥٦م.
٣٥٧ ـ نشأة الفكر الفلسفي: د. علي سامي النشار، ط. المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
٣٥٨ ـ نفح الطيب: للمقرئ التلمساني: ت: إحسان عباس، ط. لبنان ١٩١٨م.
٣٥٩ ـ نقض المنطق: لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد عبد الرزاق حمزة، سليمان بن عبد الرحمن الصنيع، مكتبة المحمدية، القاهرة.

٣٦٠ ـ النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير، ت: محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي، ط. دار الفكر، بيروت، الثانية ١٣٩٩هـ.

٣٦١ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار: لمحمد بن علي الشوكاني، ط. مصطفى البابي الحلبي.

٣٦٢ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: للإمام ابن القيم، ط. الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، بدون تاريخ طبع.

٣٦٣ ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون: لإسماعيل باشا البغدادي، ط. دار الفكر، ١٤٠٢هـ.

٣٦٤ ـ هذه هي الصوفية: د. عبد الرحمن الوكيل ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣٦٥ ـ الوافي بالوفيات: للصفدي، ط. دار النشر: فرانز شتاينر، الثانية ١٣٨١هـ.

٣٦٦ ـ وفيات الأعيان: لابن خلكان، ت: إحسان عباس، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦٧ ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر: للشعراني، ط. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٧٨هـ.

* المقالات:

- مقال: «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه»، د. يوسف القرضاوي ضمن حولية كلية الشريعة بجامعة قطر العدد الخامس سنة ١٤٠٧هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة